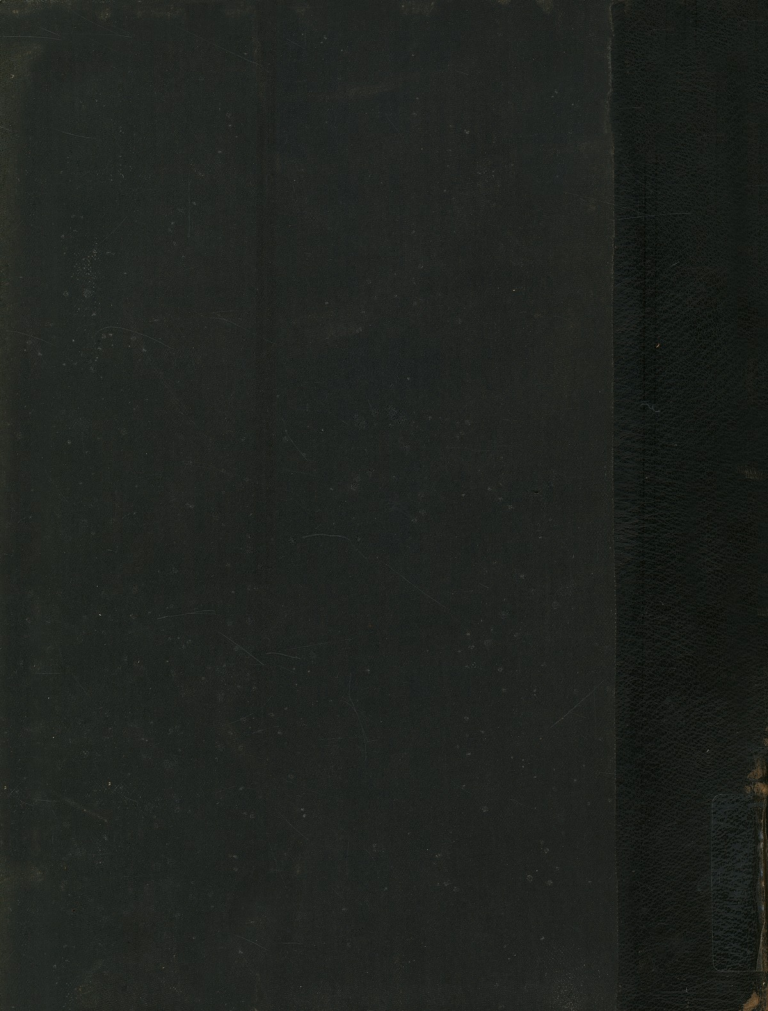




كتاب المواعظ والاعتبار
بذكر الخطط والآثار
يختص ذلك باخبار إقليم مصر
والنيل وذكر القاهرة
ومايتعلق بها وبإقليمها..
تأليف سيدنا الشيخ
الإمام علامة الأنام
تقى الدين أحمد بن على
ابن عبد القادر بن محمد
المعروف بالمقريزى
رحمه الله ونفع بعلومه
آمين.

الجزء الثالث

عن
طبعة بولاق
سنة ١٢٧٠ هجرية

تصدره
دار التحرير للطبع والنشر

ذكر المواضع المعروفة بالصناعة

لفظ الصناعة – بكسر الصاد – مأخوذ من قولك : صنعه يصنعه صنعا ، فهو مصنوع وصنيع ، عمله . واصطنعه اتخذه . والصناعة ما يستصنع من أمر ... هذا أصل الكلمة من حيث اللغة .

وأما في العرف فالصناعة اسم لمكان قد أعد لانشاء المراكب البحرية التي يقال لها السفن ، واحدتها سفينة ، وهي بمصر على قسمين : نيلية ، وحربية .

فالحربية هي التي تنشأ لغزو العدو ، وتشحن بالسلاح وآلات الحرب والمقاتلة ، فتمر من ثغر الاسكندرية وثغر دمياط وتنيس والفرما الى جهاد أعداء الله من الروم والفرنج . وكانت هذه المراكب الحربية يقال لها الأسطول ، ولا أحسب هذا اللفظ عربيا .

وأما المراكب النيلية فانها تنشأ لتمر في النيل ، صاعدة الى أعلى الصعيد ، ومنحدرة الى أسفل الأرض ، لحمل الغلال وغيرها .

ولما جاء الله تعالى بالاسلام لم يكن البحر يركب للغزو في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخلافة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما . وأول من ركب البحر في الاسلام للغزو العلاء بن الحضرمي رضي الله عنه ، وكان على البحرين من قبل أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، فأحب أن يؤثر في الأعاجم أثرا يعز الله به الاسلام على يديه .

فندب أهل البحرين الى فارس فبادروا الى ذلك ، وفرقهم أجنادا على أحدها الجارود بن المعلى رضي الله عنه ، وعلى الثاني سوار بن همام رضي الله عنه ، وعلى الثالث خليد بن المنذر بن ساوى رضي الله عنه ، وجعل خليدا على عامة الناس . فحملهم في البحر الى فارس بغير اذن عمر بن الخطاب رضي الله عنه . وكان عمر رضي الله عنه لا يأذن لأحد في ركوب البحر غازيا كراهة للتغرير بجنده ، اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم وخليفته أبي بكر رضي الله عنه .

فعبرت تلك الجنود من البحرين الى فارس . فخرجوا في اصطخر وبازائهم أهل فارس عليهم الهربذ ، فحالوا بين المسلمين وبين سفنهم . فقام خليد في الناس فقال : أما بعد ، فان الله تعالى اذا قضى أمرا جرت المقادير على مطيته ، وان هؤلاء القوم لم يزيدوا بما صنعوا على أن دعوكم الى حربهم ، وانما جئتم لمحاربتهم ، والسفن والأرض بعد الآن لمن غلب ، فاستعينوا بالصبر والصلاة وانها لكبيرة الا على الخاشعين .

فأجابوه الى القتال ، وصلوا الظهر ثم ناهزوهم . فاقتتلوا قتالا شديدا في موضع يدعى طاووس ، فقتل من أهل فارس مقتلة عظيمة لم يقتلوا مثلها قبلها . وخرج المسلمون يريدون البصرة – اذ غرقت سفنهم ولم يجدوا في الرجوع الى البحر سبيلا – فاذا بهم وقد أخذت عليهم الطرق ، فعسكروا وامتنعوا .

وبلغ ذلك عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فاشتد غضبه على العلاء رضى الله عنه ، وكتب اليه يعزله وتوعده ، وأمره بأثقل الأشياء عليه وأبعض الوجوه اليه : بتأمير سعد بن أبى وقاص عليه ، وقال : الحق بسعد بن أبى وقاص بمن معك .

فخرج رضى الله عنه من البحرين بمن معه نحو سعد رضى الله عنه ، وهو يومئذ على الكوفة ، وكان بينهما تباين وتباعد .

وكتب عمر رضى الله عنه الى عتبة بن غزوان : « بأن العلاء بن الحضرمى حمل جندا من المسلمين فى البحر فأقطعهم الى فارس وعصانى ، وأظنه لم يرد الله عز وجل بذلك ، فخشيت عليهم ألا ينصروا وأن يغلبوا ، فاندب لهم الناس ، وضمهم اليك من قبل أن يجتاحوا » .

فندب عتبة رضى الله عنه الناس ، وأخبرهم بكتاب عمر رضى الله عنه . فانتدب عاصم ابن عمرو ، وعرفجة بن هرثمة ، وحذيفة بن محصن ، ومجزاة بن ثور ، ونهار بن الحارث ، والترجمان بن فلان ، والحصين بن أبى الحر ، والأحنف بن قيس ، وسعد بن أبى العرجاء ، وعبد الرحمن بن سهل ، وصعصعة بن معاوية رضى الله تعالى عنهم .

فساروا من البصرة فى اثنى عشر ألفا على البغال يجنبون الخيل ، وعليهم أبو سبرة بن أبى رهم رضى الله عنهم . فساحل بهم حتى التقى أبو سبرة وخليد حيث أخذت عليهم الطرق ، وقد استصرخ أهل اصطخر أهل فارس كلهم ، فأتوهم من كل وجه * وكورة . فالتقوا هم وأبو سبرة ، فاقتتلوا ، ففتح الله على المسلمين ، وقتل المشركون ، وعاد المسلمون بالغنائم الى البصرة ، ورجع أهل البحرين الى منازلهم .

فلما فتح الله تعالى الشام ، ألح معاوية بن أبى سفيان — وهو يومئذ على جند دمشق والأردن — على عمر رضى الله عنه فى غزو البحر ، وقرب الروم من حمص ، وقال : ان قرية من قرى حمص ليسمع أهلها نباح كلابهم وصياح دجاجهم ... حتى اذا كاد ذلك يأخذ بقلب عمر رضى الله عنه ، اتهم معاوية لأنه المشير ، وأحب عمر رضى الله عنه أن يردعه فكتب الى عمرو بن العاص وهو على مصر « أن صف لى البحر وراكبه ، فان نفسى تنازعنى اليه وأنا أشتهى خلافها » .

فكتب اليه : « ياأمير المؤمنين انى رأيت البحر خلقا كبيرا يركبه خلق صغير ، ليس الا السماء والماء . ان ركد حزن القلوب ، وان زل أزاغ العقول . يزداد فيه اليقين قلة والشك كثرة . هم فيه كدود على عود . ان مال غرق ، وان نجا برق » .

فلما جاءه كتاب عمرو ، كتب رضى الله عنه الى معاوية : « لا — والذى بعث محمدا بالحق — لا أحمل فيه مسلما أبدا . انا قد سمعنا أن بحر الشام يشرف على أطول شيء فى الأرض يستأذن الله تعالى فى كل يوم وليلة أن يفيض على الأرض فيغرقها . فكيف

(*) ص١٨٦ جـ٢ ، ط.بولاق .

أحمل الجنود في هذا البحر الكافر المستصعب ؟ وتالله لمسلم واحد أحب الي مما حوته الروم . فاياك أن تعرض لي — وقد تقدمت اليك وقد علمت ما لقي العلاء مني ولم أتقدم اليه — في مثل ذلك » .

وعن عمر رضي الله عنه أنه قال : لا يسألني الله عز وجل عن ركوب المسلمين البحر أبدا . وروى عنه ابنه عبد الله ، رضي الله عنهما ، أنه قال : لولا آية في كتاب الله تعالى لعلوت راكب البحر بالدرة .

ثم لما كانت خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه ، غزا المسلمون في البحر . وكان أول من غزا فيه معاوية بن أبي سفيان ، وذلك أنه لم يزل بعثمان رضي الله عنه حتى عزم على ذلك فأخبره ، وقال : تنتخب الناس ولا تقرع بينهم . خيرهم فمن اختار الغزو طائعا فاحمله وأعنه . ففعل ، واستعمل على البحر عبد الله ابن قيس الحاسي خليفة بني فزارة ، فغزا خمسين غزوة من بين شاتية وصائفة في البر والبحر ، ولم يغرق فيه أحد ولم ينكب .

وكان يدعو الله تعالى أن يرزقه العافية في جنده ، ولا يبتليه بمصاب أحد منهم ... حتى اذا أراد الله عز وجل أن يصيبه في جنده ، خرج في قارب طليعته ، فانتهى الى المرفاء من أرض الروم ، فثار به الروم وهجموا عليه ، فقاتلهم فأصيب وحده ، ثم قاتل الروم أصحابه فأصيبوا .

وغزا عبد الله بن سعد بن أبي سرح في البحر لما أتاه قسطنطين بن هرقل سنة أربع وثلاثين في ألف مركب يريد الاسكندرية ، فسار عبد الله في مائتي مركب أو تزيد شيئا وحاربه . فكانت وقعة ذات الصواري التي نصر الله تعالى فيها جنده ، وهزم قسطنطين وقتل جنده .

وأغزى معاوية أيضا عقبة بن عامر الجهني رضي الله عنه في البحر ، وأمره أن يتوجه الى رودس ، فسار اليها .

ونزل الروم على البرلس في سنة ثلاث وخمسين ، في امارة مسلمة بن مخلد الأنصاري رضي الله عنه على مصر ، فخرج اليهم المسلمون في البر والبحر . فاستشهد وردان ، مولى عمرو بن العاص ، في جمع كثير من المسلمين .

وبعث عبد الملك بن مروان ، لما ولي الخلافة ، الى عامله على افريقية حسان بن النعمان يأمره باتخاذ صناعة بتونس لانشاء الآلات البحرية . ومنها كانت غزوة صقلية في أيام زيادة الله الأول بن ابراهيم بن الأغلب على شيخ الفتيا أسد بن الفرات .

ونزل الروم تنيس في سنة احدى ومائة ، في امارة بشر بن صفوان الكلبي على مصر من قبل يزيد بن عبد الملك ، فاستشهد جماعة من المسلمين .

وقد ذكر في أخبار الاسكندرية ودمياط وتنيس والفرما ، من هذا الكتاب ، جملة من نزلات الروم والفرنج عليها ، وما كان في زمن الانشاء . فانظره تجده ان شاء الله تعالى .

وقد ذكر شيخنا العالم العلامة الأستاذ قاضي القضاة ولي الدين أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون ، الحضرمي الاشبيلي ، تعليل امتناع المسلمين من ركوب البحر للغزو في أول الأمر فقال :

« والسبب في ذلك أن العرب لبداوتهم لم يكونوا أول الأمر مهرة في ثقافته وركوبه .

والروم والفرنجة لممارستهم أحواله ، ومرباهم فى التقلب على أعواده ، مرنوا عليه وأحكموا الدربة بثقافته ...

« فلما استقر الملك للعرب ، وشمخ سلطانهم ، وصارت أمم العجم خولا لهم وتحت أيديهم ، وتقرب كل ذى صنعة اليهم بمبلغ صناعته ، واستخدموا من النواتية فى حاجاتهم البحرية أمما ، وتكررت ممارستهم البحر وثقافته ... استحدثوا بصرا بها . فتاقت أنفسهم الى الجهاد فيه ، وأنشأوا السفن والشوانى ، وشحنوا الأساطيل بالرجال والسلاح ، وأمطوها العساكر والمقاتلة لمن وراء البحر من أمم الكفر . واختصوا بذلك من ممالكهم وثغورهم ما كان أقرب الى هذا البحر وعلى ضفته ، مثل الشام وافريقية والمغرب والأندلس » .

وأول ما أنشىء الأسطول بمصر فى خلافة أمير المؤمنين المتوكل على الله أبى الفضل جعفر بن المعتصم ، عندما نزل الروم دمياط فى يوم عرفة سنة ثمان وثلاثين ومائتين — وأمير مصر يومئذ عنبسة بن اسحاق — * فملكوها ، وقتلوا بها جمعا كثيرا من المسلمين ، وسبوا النساء والأطفال ، ومضوا الى تنيس فأقاموا بأشتومها .

فوقع الاهتمام من ذلك الوقت بأمر الأسطول ، وصار من أهم ما يعمل بمصر ، وأنشئت الشوانى برسم الأسطول ، وجعلت الأرزاق لغزاة البحر كما هى لغزاة البر ، وانتدب الأمراء له الرماة .

فاجتهد الناس بمصر فى تعليم أولادهم الرماية وجميع أنواع المحاربة ، وانتخب له القواد العارفون بمحاربة العدو . وكان لا ينزل فى رجال الأسطول غشيم ، ولا جاهل بأمور الحرب .

هذا وللناس اذ ذاك رغبة فى جهاد أعداء الله واقامة دينه ... لا جرم أنه كان لخدام الأسطول حرمة ومكانة ، ولكل أحد من الناس رغبة فى أنه يعد من جملتهم ، فيسعى بالوسائل حتى يستقر فيه .

وكان من غزو الأسطول بلاد العدو ما قد شحنت به كتب التواريخ . فكانت الحرب بين المسلمين والروم سجالا : ينال المسلمون من العدو وينال العدو منهم ، ويأسر بعضهم بعضا لكثرة هجوم أساطيل الاسلام بلاد العدو ، فانها كانت تسير من مصر ومن الشام ومن أفريقية . فلذلك احتاج خلفاء الاسلام الى الفداء .

وكان أول فداء وقع بمال فى الاسلام أيام بنى العباس ، ولم يقع فى أيام بنى أمية فداء مشهور ، وانما كان يفادى بالنفر بعد النفر فى سواحل الشام ومصر والاسكندرية وبلاد ملطية وبقية الثغور الخزرية ، الى أن كانت خلافة أمير المؤمنين هارون الرشيد .

« الفداء الأول » : باللامش من سواحل البحر الرومى ، قريبا من طرسوس ، فى سنة تسع وثمانين ومائة ، وملك الروم يومئذ تقفور بن اشبراق . وكان ذلك على يد القاسم ابن الرشيد ، وهو معسكر بمرج دابق من بلاد

(*) ص١٩٠ جـ٢ ، ط. بولاق .

قنسرين في أعمال حلب ، ففودي بكل أسير كان ببلاد الروم من ذكر أو أنثى .

وحضر هذا الفداء من أهل الثغور وغيرهم من أهل الأمصار ، نحو من خمسمائة ألف انسان ، بأحسن ما يكون من العدد والخيل والسلاح والقوة ، قد أخذوا السهل والجبل ، وضاق بهم الفضاء ، وحضرت مراكب الروم الحربية ، بأحسن ما يكون من الزى ، معهم أسارى المسلمين . فكان عدة من فودي به من المسلمين ، في اثنى عشر يوما ، ثلاثة آلاف وسبعمائة أسير . وأقام ابن الرشيد باللامش أربعين يوما قبل الأيام التي وقع فيها الفداء وبعدها .

وقال مروان بن أبي حفصة في هذا الفداء يخاطب الرشيد من أبيات :

وفكت بك الأسرى التي شيدت بها
محابس ما فيها حميم يزورها
على حين أعيى المسلمين فكاكها
وقالوا سجون المشركين قبورها

« الفداء الثاني » : كان في خلافة الرشيد أيضا باللامش في سنة اثنتين وتسعين ومائة ، وملك الروم نقفور ، وكان القائم به ثابت بن نصر بن مالك الخزاعي أمير الثغور الشامية ، وحضره ألوف من الناس . وكانت عدة من فودي به من المسلمين في سبعة أيام ألفين وخمسمائة من ذكر وأنثى .

« الفداء الثالث » : وقع في خلافة الواثق باللامش في المحرم سنة احدى وثلاثين ومائتين ، وملك الروم ميخائيل بن نوفيل . وكان القائم به خاقان التركي . وعدة من فودي به من المسلمين في عشرة أيام أربعة آلاف وثلثمائة واثنان وستون من ذكر وأنثى .

وحضر مع خاقان أبو رملة ، من قبل قاضي القضاة أحمد بن أبي داود ، يمتحن الأسرى وقت المفاداة ، فمن قال منهم بخلق القرآن فودي به وأحسن اليه ، ومن أبى ترك بأرض الروم . فاختار جماعة من الأسرى الرجوع الى أرض النصرانية على القول بذلك .

وخرج من الأسرى مسلم بن أبي مسلم الحرمي — وكان له محل في الثغور — وكتب مصنفه في أخبار الروم وملوكهم وبلادهم ، فنالته محن على القول بخلق القرآن ثم تخلص .

« الفداء الرابع » : في خلافة المتوكل على الله باللامش أيضا في شوال سنة احدى وأربعين ومائتين ، والملك ميخائيل ، وكان القائم به سيف خادم المتوكل ، وحضر معه جعفر بن عبد الواحد الهاشمي القاضي ، وعلى ابن يحيى الأرمني أمير الثغور الشامية . وكانت عدة من فودي به من المسلمين في سبعة أيام ألفي رجل ومائة امرأة ، وكان مع الروم من النصارى المأسورين من أرض الاسلام مائة رجل ونيف ، فعوضوا مكانهم عدة أعلاج ... اذ كان الفداء لا يقع على نصراني ولا ينعقد .

« الفداء الخامس » : في خلافة المتوكل وملك الروم ميخائيل أيضا ، باللامش مستهل

صفر سنة ست وأربعين ومائتين . وكان القائم به على بن يحيى الأرمنى أمير الثغور ، ومعه نصر بن الأزهر الشيعى — من شيعة بنى العباس — المرسل الى الملك فى أمر الفداء من قبل المتوكل . وكانت عدة من فودى به من المسلمين فى سبعة أيام ألفين وثلثمائة وسبعة وستين من ذكر وأنثى .

« الفداء السادس » : كان فى أيام المعتز ، والملك على الروم بسيل ، على يد شفيع الخادم فى سنة ثلاث وخمسين ومائتين .

« الفداء السابع » : فى خلافة المعتضد باللامش فى شوال سنة ثلاث وثمانين * ومائتين ، وملك الروم اليون بن بسيل ، وكان القائم به أحمد بن طغان ، أمير الثغور الشامية وأنطاكية من قبل الأمير أبى الجيش خمارويه ابن أحمد بن طولون .

وكانت الهدنة لهذا الفداء وقعت فى سنة اثنتين وثمانين ومائتين ، فقتل أبو الجيش بدمشق فى ذى القعدة من هذه السنة ، وتم الفداء فى امارة ولده جيش بن خمارويه . وكان عدة من فودى به من المسلمين فى عشرة أيام ألفين وأربعمائة وخمسة وتسعين من ذكر وأنثى ، وقيل ثلاثة آلاف .

« الفداء الثامن » : فى خلافة المكتفى باللامش فى ذى القعدة سنة اثنتين وتسعين ومائتين ، وملك الروم اليون أيضا ، وكان القائم به رستم بن نزدوى أمير الثغور الشامية . وكانت عدة من فودى به من المسلمين فى أربعة أيام ألفا ومائة وخمسة وخمسين من ذكر وأنثى . وعرف بفداء الغدر ، وذلك أن الروم غدروا وانصرفوا ببقية الأسارى .

« الفداء التاسع » : فى خلافة المكتفى ، وملك الروم اليون ، باللامش أيضا فى شوال سنة خمس وتسعين ومائتين ، والقائم به رستم . وكانت عدة من فودى به من المسلمين ألفين وثمانمائة واثنين وأربعين من ذكر وأنثى .

« الفداء العاشر » : فى خلافة المقتدر باللامش فى شهر ربيع الآخر سنة خمس وثلثمائة ، وملك الروم قسطنطين بن اليون ابن بسيل ، وهو صغير فى حجر أرمانوس . وكان القائم بهذا الفداء مؤنس الخادم ، وبشير الخادم الأفشينى أمير الثغور الشامية وأنطاكية ، والمتوسط له والمعاون عليه أبو عمير عدى بن أحمد بن عبد الباقى التميمى الأذنى من أهل أدنة ، وعدة من فودى به من المسلمين فى ثمانية أيام ثلاثة آلاف وثلثمائة وستة وثلاثون من ذكر وأنثى .

« الفداء الحادى عشر » : فى خلافة المقتدر ، وملك أرمانوس وقسطنطين على الروم . وكان باللامش فى شهر رجب سنة ثلاث عشرة وثلثمائة ، والقائم به مفلح الخادم الأسود المقتدرى ، وبشير خليفة شمل الخادم على الثغور الشامية . وعدة من فودى به من المسلمين فى تسعة عشر يوما ثلاثة آلاف وتسعمائة وثلاثة وثلاثون من ذكر وأنثى .

« الفداء الثانى عشر » : فى خلافة الراضى باللامش ، فى سلخ ذى القعدة وأيام من ذى الحجة سنة ست وعشرين وثلثمائة ، والملكان

(*) ص١٩١ جـ٢ ، ط. بولاق .

على الروم قسطنطين وأرمانوس . والقائم به ابن ورقاء الشيبانى من قبل الوزير أبى الفتح الفضل بن جعفر بن الفرات ، وبشير الشملى أمير الثغور الشامية .

وعدة من فودى به من المسلمين فى ستة عشر يوما ستة آلاف وثلثمائة ونيف من ذكر وأنثى . وبقى فى أيدى الروم من المسلمين الأسرى ثمانمائة رجل ردوا ، ففودى بهم فى عدة مرارا ، وزيدوا فى الهدنة بعد انقضاء الفداء مدة ستة أشهر ، لأجل من تخلف فى أيدى الروم من المسلمين ، حتى جمع الأسارى منهم .

« الفداء الثالث عشر » : فى خلافة المطيع باللامش فى شهر ربيع الأول سنة خمس وثلاثين وثلثمائة . والملك على الروم قسطنطين . والقائم به نصر الشملى من قبل سيف الدولة أبى الحسن على بن حمدان ، صاحب جند حمص وجند قنسرين وديار بكر وديار مصر والثغور الشامية والخزرية .

وكانت عدة من فودى به من المسلمين ألفين وأربعمائة واثنين وثمانين من ذكر وأنثى ، وفضل للروم على المسلمين قرضا مائتان وثلاثون لكثرة من كان فى أيديهم . فوفاهم سيف الدولة ذلك ، وحمله اليهم .

وكان الذى شرع فى هذا الفداء الأمير أبو بكر محمد بن طغج الاخشيد ، أمير مصر والشام والثغور الشامية . وكان أبو عمير عدى بن أحمد بن عبد الباقى الأذنى شيخ الثغور ، قدم اليه — وهو بدمشق فى ذى الحجة سنة أربع وثلاثين وثلثمائة — ومعه رسول ملك الروم فى اتمام هذا الفداء ، والاخشيد شديد العلة ، فتوفى يوم الجمعة لثمان خلون من ذى الحجة منها .

وسار أبو المسك كافور الاخشيدى بالجيش راجعا الى مصر ، وحمل معه أبا عمير ورسول ملك الروم الى فلسطين ، فدفع اليهما ثلاثين ألف دينار من مال الفداء ، فساروا الى مدينة صور ، وركبا البحر الى طرسوس . فلما وصلا كاتب نصر الشملى أمير الثغور سيف الدولة ابن حمدان ، ودعا له على منابر الثغور ، فجد فى اتمام هذا الفداء ، فنسب اليه .

ووقعت أفدية أخرى ليس لها شهرة :

فمنها فداء فى خلافة المهدى محمد ، على يد النقاش الأنطاكى .

وفداء فى أيام الرشيد ، فى شوال سنة احدى وثمانين ومائة ، على يد عياض بن سنان أمير الثغور الشامية .

وفداء فى أيام الأمين ، على يد ثابت بن نصر ، فى ذى القعدة سنة أربع وتسعين ومائة .

وفداء فى أيام الأمين ، على يد ثابت بن نصر أيضا ، فى ذى القعدة سنة احدى ومائتين .

وفداء فى أيام المتوكل سنة سبع وأربعين ومائتين ، على يد محمد بن على .

وفداء فى أيام المعتمد على يد شفيع ، فى شهر رمضان سنة ثمان وخمسين ومائتين .

وفداء كان في الاسكندرية ، في شهر ربيع الأول سنة اثنتين وأربعين وثلثمائة ، خرج فيه أبو بكر محمد بن على الماردانى من مصر ، ومعه الشريف أبو القاسم الرئيس والقاضى أبو حفص عمر بن الحسين العباسى وحمزة ابن محمد الكتانى ، في جمع كبير . وكانت عدة * من فودى به من المسلمين ستين نفسا بين ذكر وأنثى .

فلما سار الروم الى البلاد الشامية بعد سنة خمسين وثلثمائة ، اشتد أمرهم بأخذهم البلاد .

وقويت العناية بالأسطول في مصر منذ قدم المعز لدين الله ، وأنشأ المراكب الحربية ، واقتدى به بنوه — وكان لهم اهتمام بأمور الجهاد ، واعتناء بالأسطول — وواصلوا انشاء المراكب بمدينة مصر واسكندرية ودمياط ، من الشوانى الحربية والشلنديات والمسطحات وتسييرها الى بلاد الساحل مثل صور وعكا وعسقلان .

وكانت جريدة قواد الأسطول في آخر أمرهم تزيد على خمسة آلاف مدونة ، منهم عشرة أعيان يقال لهم القواد — واحدهم قائد — وتصل جامكية كل واحد منهم الى عشرين دينارا ، ثم الى خمسة عشر دينارا ، ثم الى عشرة دنانير ، ثم الى ثمانية ، ثم الى دينارين وهي أقلها . ولهم اقطاعات تعرف بأبواب الغزاة بما فيها من النطرون ، فيصل دينارهم بالمناسبة الى نصف دينار .

وكان يعين من القواد العشرة واحد ، فيصير رئيس الأسطول ، ويكون معه المقدم والقاوش . فاذا ساروا الى الغزو كان هو الذى يقلع بهم ، وبه يقتدى الجميع ، فيرسون بارسائه ، ويقلعون باقلاعه . ولابد أن يقدم على الأسطول أمير كبير من أعيان أمراء الدولة وأقواهم نفسا ، ويتولى النفقة فى غزاة الأسطول الخليفة بنفسه بحضور الوزير .

فاذا أراد النفقة فيما تعين من عدة المراكب السائرة — وكانت فى أيام المعز لدين الله تزيد على ستمائة قطعة ، وآخر ما صارت اليه فى آخر الدولة نحو الثمانين شونة ، وعشر مسطحات ، وعشر حمالة فما تقصر عن مائة قطعة — فيتقدم الى النقباء باحضار الرجال — وفيهم من كان يتمعش بمصر والقاهرة ، وفيهم من هو خارج عنهما — فيجتمعون .

وكانت لهم المشاهرة والجرايات فى مدة أيام سفرهم ، وهم معروفون عند عشرين عريفا يقال لهم النقباء — واحدهم نقيب — ولا يكره أحد على السفر .

فاذا اجتمعوا أعلم النقباء المقدم ، فأعلم بذلك الوزير ، فطالع الوزير الخليفة بالحال ، فقرر يوما للنفقة ، فحضر الوزير بالاستدعاء من ديوان الانشاء على العادة . فيجلس الخليفة على هيئته فى مجلسه ، ويجلس الوزير فى مكانه ، ويحضر صاحبا ديوان الجيش وهما المستوفى والكاتب ، والمستوفى هو أميرهما ، فيجلس من داخل عتبة المجلس ، وهذه رتبة له يتميز بها ، ويجلس بجانبه من

(*) ص١٩٢ جـ٢ ، ط. بولاق .

وراء العتبة كاتب الجيش فى قاعة الدار على حصر مفروشة .

وشرط هذا المستوفى أن يكون عدلا ومن أعيان الكتاب — ويسمى اليوم فى زمننا ناظر الجيش — وأما كاتب الجيش فانه كان فى غالب الأمر يهوديا . وللمجلس الذى فيه الخليفة والوزير أنطاع تصب عليها الدراهم ، ويحضر الوزانون ببيت المال لذلك .

فاذا تهيأ الانفاق أدخل الغزاة مائة مائة ، فيقفون فى أخريات من هو واقف فى الخدمة من جانب واحد نقابة نقابة ، وتكون أسماؤهم قد رتبت فى أوراق لاستدعائهم بين يدى الخليفة . فيستدعى مستوفى الجيش من تلك الأوراق المنفق عليهم واحدا واحدا ، فاذا خرج اسمه عبر من الجانب الذى هم فيه الى الجانب الآخر ، فاذا تكملت عشرة وزن الوزانون لهم النفقة .

وكانت مقررة لكل واحد خمسة دنانير ، صرف ستة وثلاثين درهما بدينار ، فيسلمها لهم النقيب ، وتكتب باسمه وبيده . وتمضى النفقة هكذا الى آخرها .

فاذا تم ذلك ركب الوزير من بين يدى الخليفة ، وانفض ذلك الجمع . فيحمل الى الوزير من القصر مائدة يقال لها غداء الوزير ، وهى سبع مجنقات أوساط : احداها بلحم الدجاج وفستق معمولة بصناعة محكمة ، والبقية شواء ، وهى مكمورة بالأزهار . فتكون النفقة على ذلك مدة أيام ، متوالية مرة ومتفرقة مرة .

فاذا تكاملت النفقة ، وتجهزت المراكب وتهيأت للسفر ، ركب الخليفة والوزير الى ساحل النيل بالمقس خارج القاهرة . وكان هناك على شاطىء النيل بالجامع منظرة يجلس فيها الخليفة برسم وداع الأسطول ولقائه اذا عاد . فاذا جلس للوداع ، جاءت القواد بالمراكب من مصر الى هناك للحركات فى البحر بين يديه وهى مزينة بأسلحتها ولبودها وما فيها من المنجنيقات ، فيرمى بها وتنحدر المراكب وتقلع ، وتفعل سائر ما تفعله عند لقاء العدو .

ثم يحضر المقدم والرئيس الى بين يدى الخليفة فيودعهما ، ويدعو للجماعة بالنصرة والسلامة ، ويعطى للمقدم مائة دينار وللرئيس عشرين دينارا ، وينحدر الأسطول الى دمياط ، ومن هناك يخرج الى بحر الملح ، فيكون له ببلاد العدو صيت عظيم ومهابة قوية .

والعادة أنه اذا غنم الأسطول ما عسى أن يغنم ، لا يتعرض السلطان منه الى شىء ألبتة ... الا ما كان من الأسرى والسلاح فانه للسلطان ، وما عداهما من المال والثياب ونحوهما فانه لغزاة الأسطول لا يشاركهم فيه أحد . فاذا قدم الأسطول خرج الخليفة أيضا الى منظرة المقس وجلس فيها للقائه .

وقدم الأسطول مرة بألف وخمسمائة أسير . وكانت العادة أن الأسرى ينزل بهم فى المناخ ، وتضاف الرجال الى من فيه من الأسرى ، ويمضى بالنساء والأطفال الى القصر بعدما

يعطى منهم الوزير طائفة . ويفرق * ما بقى من النساء على الجهات والأقارب فيستخدمونهن ، ويربونهن حتى يتقن الصنائع .. ويدفع الصغار من الأسرى الى الأستاذين فيربونهم ويتعلمون الكتابة والرماية ، ويقال لهم الترابى ، وفيهم من صار أميرا من صبيان خاص الخليفة .

ومن الأسرى من كان يستراب به فيقتـل . ومن كان منهم شـيخا لا ينتفـع به ضربت عنقه ، وألقى فى بئر كانت فى خرائب مصر تعرف ببئر المنامة . ولم يعرف قط عن الدولة الفاطمية أنها فادت أسيرا من الفرنج بمال ولا بأسير مثله . وكان المنفق فى الأسـطول كل سنة خارجا عن العدد والآلات .

ولم يزل الأسطول على ذلك الى أن كانت وزارة شاور ، ونزل مرى ملك الفرنج عـلى بركة الحبش ، فأمر شـاور بتحـريق مصر وتحريق مراكب الأسطول ، فحرقت ونهبهـا العبيد فيما نهبوا .

فلمـا كان زوال الدولة الفاطميـة على يد السلطان صـلاح الدين يوسـف بن أيوب ، اغتنى أيضا بأمر الأسطول ، وأفرد له ديوانا عرف بديوان الأسطول ، وعين لهذا الديوان الفيوم بأعمالها ، والحبس الجيوشى فى البرين الشرقى والغربى . وهو من البر الشرقى تهتين والأميرية والمنية ، ومن البر الغربى ناحيـة سفط ونهيـا ووسـيم والبسـاتين خـارج القاهرة .

(*) ص١٩٣ جـ٢ ، ط. بولاق .

وعين له أيضا الخراج ، وهو أشـجار من سنط لا تحصى كثرة ، فى البهنساوية وسـفط ريشين والأشمونين والأسيوطيـة والاخميمية والقوصية ... لم تزل بهـذه النواحى لا يقطع منها الا ما تدعو الحاجة اليه ، وكان فيها ما تبلغ قيمة العود الواحد منه مائة دينار — وقد ذكر خبر هذا الخراج فى ذكر أقسام مال مصر من هذا الكتاب — وعين له أيضا النطرون ، وكان قد بلغ ضمانه ثمانية آلاف دينار .

ثم أفرد لديوان الأسـطول ، مع ما ذكر ، الزكاة التى كـانت تجبى بمصر ، وبلغت فى سنة زيادة على خمسين ألف دينار ، وأفرد له المراكب الديوانية وناحية أشناى وطنبـدى . وسلم هذا الديوان لأخيه الملك العـادل أبى بكر محمد بن أيوب ، فأقام فى مبـاشرته وعمالته صـفى الدين عبـد الله بن على بن شكر . وتقرر ديوان الأسطول الذى ينفق فى رجاله نصف وربع دينار ، بعد ما كان نصف وثمن دينار .

فلما مات السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، استمر الحال فى الأسطول قليلا ، ثم قل الاهتمام به ، وصار لا يفكر فى أمره الا عند الحاجة اليه .

فاذا دعت الضرورة الى تجهيزه ، طلب له الرجال ، وقبض عليهم من الطرقات ، وقيدوا فى السلاسل نهارا ، وسجنوا فى الليل حتى لا يهربوا ، ولا يصرف لهم الا شىء قليل من الخبز ونحوه ، وربما أقاموا الأيام بغير شىء كما يفعل بالأسرى من العدو .

فصـارت خدمة الأسـطول عارا يسب به الرجال ، واذا قيل لرجل فى مصر «ياأسطولى» غضب غضبا شديدا ، بعـد ما كان خـدام الأسطول يقال لهم « المجاهدون فى سـبيل الله ، والغـزاة فى أعـداء الله » ، ويتبرك بدعائهم الناس .

ثم لما انقرضت دولة بنى أيوب ، وتملك الأتراك المماليك مصر ، أهملوا أمر الأسطول . الى أن كانت أيام السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البنـدقدارى ، فنظـر فى أمر الشوانى الحربية ، واستدعى برجال الأسطول — وكان الأمراء قد استعملوهم فى الحراريق وغيرها — وندبهم للسفر ، وأمر بمد الشوانى وقطع الأخشاب لعمارتها ، واقامتها على ما كانت عليه فى أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب ، واحترز على الخراج ، ومنع الناس من التصرف فى أعواد العمل ، وتقدم بعمـارة الشوانى فى ثغرى الاسكندرية ودمياط .

وصار ينزل بنفسه الى الصـناعة بمصر ، ويرتب ما يجب ترتيبه من عمـل الشـوانى ومصالحها ، واستدعى بشوانى الثغـور الى مصر ، فبلغت زيادة على أربعين قطعة ، سوى الحراريق والطرائد فانها كانت عدة كثيرة ، وذلك فى شوال سنة تسع وستين وستمائة .

ثم سـارت تريد قبرس ، وقد عمـل ابن حسون رئيس الشوانى فى أعلامها الصلبان ، يريد بذلك أنها تخفى اذا عبرت البحر عـلى الفرنج حتى تطرقهم على غفلة ، فكره الناس منه ذلك . فلما قاربت قبـرس ، تقـدم ابن حسون فى الليل ليهجم المينا ، فصدم الشونة المقدمة شعبا فانكسرت ، وتبعتها بقية الشوانى فتكسرت الشوانى كلها . وعلم بذلك متملك قبرس ، فأسر كل من فيهـا ، وأحاط بمـا معهم ، وكتب الى السلطان يقرعه ويوبخه ، وأن شوانيه قد تكسرت ، وأخـذ ما فيـها — وعدتها احـدى عشرة شـونة — وأسر رجالها .

فحمد السلطان الله تعالى ، وقال : الحمد لله منذ ملكنى الله تعالى ما خذل لى عسكر ولا ذلت لى راية ، وما زلت أخشى العين ، فالحمد لله تعالى بهذا ولا بغيره . وأمر بانشاء عشرين شـونة ، وأحضر خمس شـوانى كانت على مدينة قوص من صعيد مصر ، ولازم الركوب الى صناعة العمارة بمصر كل يوم ، فى مدة شهر المحرم سـنة سبعين وسـتمائة الى أن تنجزت ، فلما كان فى نصف المحرم سـنة احدى وسبعين وستمائة زاد النيل حتى لعبت الشوانى بين يديه ، فكان يوما مشهودا .

وفى سنة اثنتين وتسعين وستمائة ، تقـدم السلطان الملك الأشرف صلاح الدين خليـل ابن قلاوون الى الوزير الصاحب شمس الدين محمد بن السلعوس ، بتجهيز أمر الشوانى . فنزل الى الصناعة ، واستدعى الرئيس ، وهيأ جميع ما تحتاج اليه الشوانى حتى كملت عدتها نحو ستين * شونة ، وشحنها بالعدد وآلات الحرب ، ورتب بها عدة من المماليك السلطانية وألبسهم السلاح .

فأقبل الناس لمشاهدتهم من كل أوب قبـل ركوب السلطان بثلاثة أيام ، وصنعوا لهـم قصورا من خشـب وأخصـاص القش على

(*) ص١٩٤ ج٢ ، ط. بولاق .

شاطىء النيل خارج مدينة مصر وبالروضة ، واكتروا الساحات التى قدام الدور والزرابى بالمائتى درهم كل زريبة فما دونها ... بحيث لم يبق بيت بالقاهرة ومصر الا وخرج أهله أو بعضهم لرؤية ذلك ، فصار جمعا عظيما .

وركب السلطان من قلعة الجبل بكرة ، والناس قد ملأوا ما بين المقياس الى بستان الخشاب الى بولاق ، ووقف السلطان ونائبه الأمير بيدر وبقية الأمراء قدام دار النحاس ، ومنع الحجاب من التعرض لطرد العامة .

فبرزت الشوانى واحدة بعد واحدة ، وقد عمل في كل شونة برج وقلعة تحاصر ، والقتال عليها ملح ، والنفط يرمى عليها ، وعدة من النقابين فى اعمال الحيلة فى النقب ، وما منهم الا من أظهر في شونته عملا معجبا وصناعة غريبة يفوق بها على صاحبه .

وتقدم ابن موسى الراعي ، وهو فى مركب تبلية ، فقرأ قوله تعالى « بسم الله مجراها ومرساها ان ربى لغفور رحيم » ، ثم تلاها بقراءة قوله تعالى « قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء » الى آخر الآية ... هذا والشوانى تتواصل بمحاربة بعضها بعضا الى أن أذن لصلاة الظهر ، فمضى السلطان بعسكره عائدا الى القلعة . فأقام الناس بقية يومهم وتلك الليلة على ما هم عليه من اللهو فى اجتماعهم .

وكان شيئا يجل وصفه ، وأنفق فيه مال لا يعد ... بحيث بلغت أجرة المركب فى هذا اليوم ستمائة درهم فما دونها . وكان الرجل الواحد يؤخذ منه أجرة ركوبه فى المركب خمسة دراهم ، وحصل لعدة من النواتية أجرة مراكبهم عن سنة فى هذا اليوم . وكان الخبز يباع اثنا عشر رطلا بدرهم ، فلكثرة اجتماع الناس بمصر بيع سبعة أرطال بدرهم .

فبلغ خبر الشوانى الى بلاد الفرنج ، فبعثوا رسلهم بالهدايا يطلبون الصلح .

فلما كان المحرم سنة اثنتين وسبعمائة ، فى سلطنة الناصر محمد بن قلاوون ، جهزت الشوانى بالعدد والسلاح والنفطية والأزودة ، وعين لها جماعة من أجناد الحلقة ، وألزم كل أمير مائة بارسال رجلين من عدته ، وألزم أمراء الطبلخاناة والعشروات باخراج كل أمير من عدته رجلا ، وندب الأمير سيف الدين كهرداش المنصورى الزراق الى السفر بهم ، ومعه جماعة من مماليك السلطان الزراقين ، وزينت الشوانى أحسن زينة .

فخرج معظم الناس لرؤيتها ، وأقاموا يومين بلياليهما على الساحل بالبرين . وكان جمعا عظيما الى الغاية ، وبلغت أجرة المركب الصغير مائة درهم لأجل الفرجة .

ثم ركب السلطان بكرة يوم السبت ثانى عشر المحرم ، ومعه الأمير سلار النائب والأمير بيبرس الجاشنكير وسائر الأمراء والعسكر ، فوقفت المماليك على البر نحو بستان الخشاب ، وعدى الأمراء فى الحراريق الى الروضة .

وخرجت الشوانى واحدة بعد واحدة فلعبت منها ثلاثة ، وخرجت الرابعة وفيها الأمير

أقوش القارى ، من مينا الصناعة حتى توسط البحر ، فلعب بها الريح الى أن مالت ، وانقلبت فصار أعلاها أسفلها . فتداركها الناس ، ورفعوا ما قدروا عليه من العدد والسلاح ، وسلمت الرجال فلم يعدم منهم سوى أقوش وحده . فتنكد الناس ، وعاد الأمراء الى القلعة بالسلطان ، وجهز شونة عوضا عن التى غرقت .

وساروا الى ميناء طرابلس ، ثم ساروا — ومعهم عدة من طرابلس — فأشرفوا من الغد على جزيرة أرواد من أعمال قبرس ، وقاتلوا أهلها وقتلوا أكثرهم ، وملكوها فى يوم الجمعة ثامن عشرى صفر ، واستولوا على ما فيها ، وهدموا أسوارها ، وعادوا الى طرابلس ، وأخرجوا من الغنائم الخمس للسلطان ، واقتسموا ما بقى منها ، وكان معهم مائتان وثمانون أسيرا . فسر السلطان بذلك سرورا كثيرا .

« صناعة المقس » : قال ابن أبى طى فى تاريخه عند ذكر وفاة المعز لدين الله : انه أنشأ دار الصناعة التى بالمقس ، وأنشأ بها ستمائة مركب لم ير مثلها فى البحر على مينا .

وقال المسيحى : ان العزيز بالله بن المعز هو الذى بنى دار الصناعة التى بالمقس ، وعمل المراكب التى لم ير مثلها فيما تقدم كبرا ووثاقة وحسنا .

وقال فى حوادث سنة ست وثمانين وثلثمائة : ووقعت نار فى الأسطول وقت صلاة الجمعة لست بقين من شهر ربيع الآخر فأحرقت خمس عشاريات ، وأتت على جميع ما فى الأسطول من العدة والسلاح حتى لم يبق منه غير ستة مراكب فارغة لا شىء فيها . فحمل البحريون السلاح ، واتهموا الروم النصارى — وكانوا مقيمين بدار مانك بجوار الصناعة التى بالمقس — وحملوا على الروم هم وجموع من العامة معهم ، فنهبوا أمتعة الروم ، وقتلوا منهم مائة رجل وسبعة رجال ، وطرحوا جثثهم فى الطرقات ، وأخذ من بقى فحبس بصناعة المقس .

ثم حضر عيسى بن نسطورس ، خليفة أمير المؤمنين العزيز بالله فى الأموال ووجوهها بديار مصر والشام والحجاز ، ومعه يانس الصقلبى وهو يومئذ خليفة العزيز بالله على القاهرة عند مسيره الى الشام ، ومعهما مسعود الصقلبى متولى الشرطة . وأحضروا الروم من الصناعة * ، فاعترفوا بأنهم الذين أحرقوا الأسطول .

فكتب بذلك الى العزيز بالله — وهو مبرز يريد السفر الى الشام — وذكر له فى الكتاب خبر من قتل من الروم وما نهب ، وأنه ذهب فى النهب ما يبلغ تسعين ألف دينار .

فطاف أصحاب الشرط فى الأسواق بسجل فيه الأمر برد ما نهب من دار مانك وغيرها ، والتوعد لمن ظهر عنده منه شىء ، وحفظ أبو الحسن يانس البلد ، وضبط الناس .

وأمر عيسى بن نسطورس أن يمد للوقت عشرون مركبا ، وطرح الخشب ، وطلب الصناع ، وبات فى الصناعة ، وجد الصناع فى العمل . وأغلب أحداث الناس وعامتهم

(*) ص١٩٥ ج٢ ، ط. بولاق .

يلعبون برءوس القتلى ، ويجرون بأرجلهم فى الأسواق والشوارع ، ثم قرنوا بعضهم الى بعض على ساحل النيل بالمقس ، وأحرقوا يوم السبت .

وضرب بالجرس على البلد ألا يتخلف أحد ممن نهب شيئا حتى يحضر ما نهبه ويرده ، ومن علم عليه بشىء أو كتم شيئا أو جحده أو أخره ، حلت به العقوبة الشديدة . وتتبع من نهب ، فقبض على عدة قتل منهم عشرون رجلا ضربت أعناقهم ، وضرب ثلاثة وعشرون رجلا بالسياط ، وطيف بهم وفى عنق كل واحد رأس رجل ممن قتل من الروم ، وحبس عدة أناس ، وأمر بضرب من ضربت أعناقهم فصلبوا عند كوم دينار ، ورد المضربون الى المطبق .

وكان ضرب من ضرب من النهابة ، وقتل من قتل منهم برقاع كتبت لهم . تناول كل واحد منهم رقعة فيها مكتوب اما بقتل أو ضرب ، فأمضى فيهم بحسب ما كان فى رقاعهم من قتل أو ضرب .

واشتد الطلب على النهابة ، فكان الناس يدل بعضهم على بعض ، فاذا أخذ أحد ممن اتهم بالنهب حلف بالأيمان المغلظة أنه ما بقى عنده شىء .

وجد عيسى بن نسطورس فى عمل الأسطول وطلب الخشب ، فلم يدع عند أحد خشبا علم به الا أخذه منه ، وتزايد اخراج النهابة لما نهبوه ، فكانوا يطرحونه فى الأزقة والشوارع خوفا من أن يعرفوا به ، وحبس كثير ممن أحضر شيئا أو عرف عليه من النهب .

فلما كان يوم الخميس ثامن جمادى الأولى ضربت أعناقهم كلهم على يد أبى أحمد جعفر ، صاحب يانس ، فانه قدم فى عسكر كثير من اليانسية ، حتى ضربت أعناق الجماعة ، وأغلقت الأسواق يومئذ .

وطاف متولى الشرطة ، وبين يديه أرباب النفط بعددهم ، والنار مشتعلة ، واليانسية ركاب بالسلاح ، وقد ضرب جماعة ، وشهرهم بين يديه وهم ينادى عليهم : **هذا جزاء من** أثار الفتن ، ونهب حريم أمير المؤمنين ، فمن نظر فليعتبر ، فما تقال لهم عثرة ، ولا ترحم لهم عبرة ... فى كلام كثير من هذا الجنس . فاشتد خوف الناس ، وعظم فزعهم .

فلما كان من الغد نودى : معاشر الناس قد آمن الله من أخذ شيئا أو نهب شيئا على نفسه وماله ، فليرد من بقى عنده شىء من النهب ، وقد أجلناكم من اليوم الى مثله .

وفى سابع جمادى الآخرة نزل ابن نسطورس الى الصناعة ، وطرح مركبين فى غاية الكبر من التى استعملها بعد حريق الأسطول . وفى غرة شعبان نزل أيضا ، وطرح بين يديه أربعة مراكب كبارا من المنشأة بعد الحريق .

واتفق موت العزيز بالله ، وهو سائر الى الشام ، فى مدينة بلبيس . فلما قام من بعده ابنه الحاكم بأمر الله فى الخلافة ، أمر فى خامس شوال بحط الذين صلبهم ابن

نسطورس ، فتسلمهم أهلهم ، وأعطى لأهل كلّ مصلوب عشرة دنانير برسم كفنه ودفنه .

وخلع على عيسى بن نسطورس ، وأقره فى ديوان الخاص ، ثم قبض عليه فى ليلة الأربعاء سابع المحرم سنة سبع وثمانين وثلثمائة ، واعتقله الى ليلة الاثنين سابع عشريه . فأخرجه الأستاذ برجوان — وهو يومئذ يتولى تدبير الدولة — الى المقس ، وضرب عنقه .

فقال وهو ماض الى المقس : كل شىء قد كنت أحسبه الا موت العزيز بالله ، ولكن الله لا يظلم أحدا . والله انى لأذكر وقد ألقيت السهام للقوم المأخوذين فى نهب دار ماتك — وفى بعضها مكتوب « يقتل » وفى أخرى « يضرب » — فأخذ شاب ممن قبض عليه رقعة منها فجاء فيها « يقتل » ، فأمرت به الى القتل ...

فصاحت أمه ولطمت وجهها ، وحلفت أنها وهو ما كانا ليلة النهب فى شىء من أعمال مصر ، وانما وردا مصر بعد النهب بثلاثة أيام . وناشدتنى الله تعالى أن أجعله من جملة من يضرب بالسوط ، وأن يعفى من القتل ، فلم ألتفت اليها ، وأمرت بضرب عنقه .

فقالت أمه : ان كنت لابد قاتله ، فاجعله آخر من يقتلْ لأتمتع به ساعة .

فأمرت به فجعل أول من ضرب عنقه .

فلطخت بدمه وجهها ، وسبقتنى — وهى منبوشة الشعر ذاهلة العقل — الى القصر . فلما وافيت ، قالت لى : أقتلته ! كذلك يقتلك الله . فأمرت بها ، فضربت حتى سقطت الى الأرض . ثم كان من الأمر ما ترون مما أنا صائر اليه .

وكان خبره عبرة لمن اعتبر .

وفى نصف شعبان سنة ثمان وتسعين وثلثمائة ، ركب الحاكم بأمر الله الى صناعة المقس لتطرح المراكب بين يديه .

« صناعة الجزيرة » : هذه الصناعة كانت بجزيرة مصر ، التى تعرف اليوم بالروضة ، وهى أول صناعة عملت بفسطاط مصر . بنيت فى سنة أربع وخمسين من الهجرة ، وكان قبل بنائها هناك خمسمائة فاعل تكون مقيمة أبدا معدة لحريق يكون فى البلاد أو هدم . ثم اعتنى الأمير أبو العباس أحمد بن طولون بانشاء المراكب الحربية * فى هذه الصناعة ، وأطافها بالجزيرة .

ولم تزل هذه الصناعة الى أيام الملك الأمير أبى بكر محمد بن طغج الاخشيد ، فأنشأ صناعة بساحل فسطاط مصر ، وجعل موضع هذه الصناعة البستان المختار ، كما قد ذكر فى موضعه من هذا الكتاب .

« صناعة مصر » : هذه الصناعة كانت بساحل مصر القديم . يعرف موضعها بدار خديجة بنت الفتح بن خاقان ، امرأة الأمير أحمد بن طولون ... الى أن قدم الأمير أبو بكر محمد بن طغج الاخشيد أميرا على مصر من قبل الخليفة الراضى ، عوضا عن أحمد بن كيغلغ ، فى سنة ثلاث وعشرين وثلثمائة وقد كثرت الفتن . فلم يدخل عيسى بن أحمد

(*) ص١٩٦ جـ٢ ، طـ بولاق .

السلمى أبو مالك ، كبير المغاربة فى طاعته ، ومضى ومعه بحكم وعلى بن بدر ونظيف النوشرى وعلى المغربى الى الفيوم . فبعث اليهم الاخشيد صاعد بن الكلكم بمراكبه ، فقاتلوه وقتلوه وأخذوا مراكبه ، وركب فيها على بن بدر وبحكم ، وقدموا مدينة مصر أول يوم من ذى القعدة ، فأرسوا بجزيرة الصناعة .

وركب الاخشيد فى جيشه ، ووقف حيالهم والنيل بينهم وبينه ، فكره ذلك وقال : صناعة يحول بينها وبين صاحبها الماء ليست بشىء . فأقام بحكم وعلى بن بدر الى آخر النهار ، ومضوا الى جهة الاسكندرية .

وعاد الاخشيد الى داره ، فأخذ فى تحويل الصناعة من موضعها بالجزيرة الى دار خديجة بنت الفتح فى شعبان سنة خمس وعشرين وثلثمائة ، وكان اذ ذاك عندها سلم ينزل منه الى الماء . وعندما ابتدأ فى انشاء المراكب بها صاحت به امرأة ، فأمر بأخذها اليه ، فسألته أن يبعث معها من يحمل المال ، فسير معها طائفة ، فأتت بهم الى دار خديجة هذه ودلتهم على موضع منها . فأخرجوا منه عينا وورقا وحليا وغيره ، وطلبت المرأة فلم توجد ولا عرف لها خبر .

وكانت مراكب الأسطول مع ذلك تنشأ فى الجزيرة وفى صناعتها الى أيام الخليفة الآمر بأحكام الله تعالى . فلما ولى المأمون بن البطائحى أنكر ذلك ، وأمر أن يكون انشاء الشوانى والمراكب النيلية الديوانية بصناعة مصر هذه ، وأضاف اليها دار الزبيب ، وأنشأ بها منظرة لجلوس الخليفة يوم تقدمة الأسطول ورميه ، فأقر انشاء الحربيات والشلنديات بصناعة الجزيرة . وكان لهذه الصناعة دهليز ماد بمساطب مفروشة بالحصر العبدانية بسطا وتأزيرا ، وفيها محل ديوان الجهاد .

وكان يعرف فى الدولة الفاطمية ألا يدخل من باب هذه الصناعة أحد راكبا الا الخليفة والوزير اذا ركبا فى يوم فتح الخليج عند وفاء النيل . فان الخليفة كان يدخل من بابها ، ويشقها راكبا والوزير معه حتى يركب النيل الى المقياس — كما قد ذكر فى موضعه من هذا الكتاب — ولم تزل هذه الصناعة عامرة الى ما قبل سنة سبعمائة ، ثم صارت بستانا عرف ببستان ابن كيسان ، ثم عرف فى زمننا ببستان الطواشى .

وكان فيما بين هذه الصناعة والروضة بحر ، ثم تربى جرف عرف موضعه بالجرف ، وأنشىء هناك بستان عرف ببستان الجرف ، وصار فى جملة أوقاف خانقاه المواصلة ، وقيل لهذا الجرف بين الزقاقين ، وكان فيه عدة دور وحمام وطواحين وغير ذلك . ثم خرب من بعد سنة ست وثمانمائة ، وخرب بستان الجرف أيضا .

والى اليوم بستان الطواشى فيه بقية ، وهو على يسرة من يريد مصر من طريق المراغة ، وبظاهره حوض ماء ترده الدواب ، ومن وراء البستان كيمان فيها كنيسة للنصارى .

قال ابن المتوج : وكان مكان بستان ابن كيسان صناعة العمارة ، وأدركت فيه بابها ،

وبستان الجرف المقابل لبستان ابن كيسان كان مكانه بحر النيل ، وان الجرف تربى فيه .

ذكر الميـادين

« ميدان ابن طولون » : كان قد بناه وتأنق فيه تأنقا زائدا ، وعمل فيه المناخ وبركة الزئبق والقبة الذهبية . وقد ذكر خبر هذا الميـدان عند ذكر القطائع من هذا الكتاب .

« ميدان الاخشيد » : هذا الميدان أنشـأه الأمير أبو بكر محمد بن طغج الاخشيد أمير مصر بجوار بسـتانه الذى يعرف اليـوم فى القاهرة بالكافورى ، ويشبه أن يكون موضع هذا الميـدان اليـوم حيث المـكان المعروف بالبندقانيين وحارة الوزيرية وما جاور ذلك .

وكان لهذا البستان بابان من حديد . قلعهما القائد جوهر عندما قدم القرمطى الى مصر يريد أخذها ، وجعلهما على باب الخندق الذى حفره بظاهر القاهرة قريبا من مدينـة عين شمس ، وذلك فى سنة ستين وثلثمائة .

وكان هذا الميدان من أعظم أماكن مصر ، وكانت فيه الخيـول السلطانيـة فى الدولة الاخشيدية .

« ميدان القصر » : هذا الميدان موضعـه الآن فى القاهرة يعرف بالخرنشف . عمل عند بناء القاهرة بجوار البستان الكافورى ، ولم يزل ميدانا للخلفاء الفاطميين يدخل اليـه من باب التبانين الذى موضعه الآن يعرف بقبو الخرنشف .

فلما زالت الدولة الفاطمية تعطل ، وبقى الى آن بنى به الغز اصطبلات بالخرنشف ، ثم حكر وبنى فيه ، فصار من أخطاط القاهرة .

« ميـدان قراقـوش » : هذا الميـدان خارج * باب الفتوح .

« ميدان الملك العزيز » : هذا الميدان كان بجوار خليج الذكر ، وكان موضعه بستانا .

قال القاضى الفاضـل فى متجـددات ثالث عشرى شهر رمضـان سـنة أربع وتسـعين وخمسمائة : خرج أمر الملك العزيز عثمان ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بقطع النخل المثمر المستغل تحت اللؤلؤة بالبسـتان المعروف بالبغدادية .

وهذا البستان كان من بسـاتين القـاهرة الموصوفة ، وكان منظرة من المناظر المستحسنة وكان له مستغل ، وكان قد عنى الأولون به لمجاورته اللؤلؤة واطلال جميع مناظرها عليه . وجعل هذا البستان ميدانا ، وحرث أرضه ، وقطع ما فيه من الأصول . ثم حكر النـاس أرض هذا البستان ، وبنوا عليها ، وهو الآن دائر فيه كيمان وأتربة . انتهى .

« الميدان الصالحى » : هذا الميـدان كان بأراضى اللـوق من بر الخليـج الغـربى ، وموضعه الآن من جامع الطباخ بباب اللوق الى قنطـرة قـدادار التى عـلى الخليـج الناصرى ، ومن جملته الطريق المسلوكة الآن من باب اللوق الى القنطرة المذكورة .

(*) ص١٩٧ جـ٢ ، ط بولاق .

وكان أولا بستانا يعرف ببستان الشريف بن ثعلب . فاشتراه السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل محمد ابن الملك العادل أبى بكر بن أيوب ، بثلاثة آلاف دينار مصرية ، من الأمير حصن الدين ثعلب ابن الأمير فخر الدين اسماعيل بن ثعلب الجعفرى ، فى شهر رجب سنة ثلاث وأربعين وستمائة ، وجعله ميدانا ، وأنشأ فيه مناظر جليلة تشرف على النيل الأعظم ، وصار يركب اليه ويلعب فيه بالكرة .

وكان عمل هذا الميدان سببا لبناء القنطرة — التى يقال لها اليوم قنطرة الخرق — على الخليج الكبير لجوازه عليها ، وكان قبل بنائها موضعها موردة سقائى القاهرة . وما يرح هذا الميدان تلعب فيه الملوك بالكرة من بعد الملك الصالح الى أن انحسر ماء النيل من تجاهه وبعد عنه ، فأنشأ الملك الظاهر ميدانا على النيل .

وفى سلطنة الملك المعز عز الدين أيبك التركمانى الصالحى النجمى ، قال له منجمه : ان امرأة تكون سببا فى قتله . فأمر أن تخرب الدور والحوانيت التى من قلعة الجبل بالتبانة الى باب زويلة والى باب الخرق والى باب اللوق الى الميدان الصالحى ، وأمر ألا يترك باب مفتوح بالأماكن التى يمر عليها يوم ركوبه الى الميدان ، ولا تفتح أيضا طاقة .

وما زال باب هذا الميدان باقيا ، وعليه طوارق مدهونة ، الى ما بعد سنة أربعين وسبعمائة ، فأدخله صلاح الدين بن المغربى فى قيسارية الغزل التى أنشأها هناك . ولأجل هذا الباب قيل لذلك الخط « باب اللوق » .

ولما خرب هذا الميدان حكر ، وبنى موضعه ما هنالك من المساكن . ومن جملته حكر مرادى ، وهو على يمنة من سلك من جامع الطباخ الى قنطرة قدادار ، وهو فى أوقاف خانقاه قوصون وجامع قوصون بالقرافة . وهذا الحكر اليوم قد صار كيمانا بعد كثرة العمارة به .

« الميدان الظاهرى » : هذا الميدان كان بطرف أراضى اللوق يشرف على النيل الأعظم ، وموضعه الآن تجاه قنطرة قدادار من جهة باب اللوق . أنشأه الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى الصالحى لما انحسر ماء النيل ، وبعد عن ميدان أستاذه الملك الصالح نجم الدين أيوب .

وما زال يلعب فيه بالكرة هو ومن بعده من ملوك مصر ... الى أن كانت سنة أربع عشرة وسبعمائة . فنزل السلطان الملك الناصر محمد ابن قلاوون اليه ، وخرب مناظره ، وعمله بستانا من أجل بعد البحر عنه ، وأرسل الى دمشق فحمل اليه منها سائر أصناف الشجر ، وأحضر معها خولة الشام والمطعمين، فغرسوها فيه وطعموها .

وما زال بستانا عظيما ، ومنه تعلم الناس بمصر تطعيم الأشجار فى بساتين جزيرة الفيل . وجعل السلطان فواكه هذا البستان ، مع فواكه البستان الذى أنشأه بسرياقوس ، تحمل بأسرها الى الشراب خاناه السلطانية بقلعة الجبل ، ولا يباع منها شىء ألبتة ، وتصرف كلفهما من الأموال الديوانية . فجادت فواكه هذين البستانين ، وكثرت حتى حاكت

بحسنها فواكه الشام ، لشدة العناية والخدمة بهما .

ثم ان السلطان لما اختص بالأمير قوصون ، أنعم بهذا البستان عليه . فعمر تجاهه الزربية — التى عرفت بزربية قوصون — على النيل ، وبنى الناس الدور الكثيرة هناك ... سيما لما حفر الخليج الناصرى . فان العمارة عظمت فيما بين هذا البستان والبحر ، وفيما بينه وبين القاهرة ومصر .

ثم ان هذا البستان خرب لتلاشى أحواله بعد قوصون ، وحكرت أرضه ، وبنى الناس فوقها الدور التى على يسرة من صعد القنطرة من جهة باب اللوق يريد الزربية . ثم لما خرب خط الزربية ، خرب ماعمر بأرض هذا البستان من الدور منذ سنة ست وثمانمائة . والله تعالى أعلم .

« ميدان بركة الفيل » : هذا الميدان كان مشرفا على بركة الفيل قبالة الكبش ، وكان أولا اصطبل الجوق برسم خيول المماليك السلطانية ... الى أن جلس الأمير زين الدين كتبغا على تخت الملك ، وتلقب بالملك العادل بعد خلعه الملك الناصر محمد بن قلاوون فى المحرم سنة أربع وتسعين وستمائة .

فلما دخلت سنة خمس وتسعين ، كان الناس فى أشد ما يكون من غلاء الأسعار * وكثرة الموتان ، والسلطان خائف على نفسه ، ومتحرز من وقوع فتنة ، وهو مع ذلك ينزل من قلعة الجبل الى الميدان الظاهرى بطرف اللوق . فحسن بخاطره أن يعمل اصطبل الجوق المذكور ميدانا عوضا عن ميدان اللوق ، وذكر ذلك للأمراء فأعجبهم ذلك ، فأمر باخراج الخيل منه ، وشرع فى عمله ميدانا .

وبادر الناس من حينئذ الى بناء الدور بجانبه . وكان أول من أنشأ هناك الأمير علم الدين سنجر الخازن ، فى الموضع الذى عرف اليوم بحكر الخازن ، وتلاه الناس فى العمارة والأمراء . وصار السلطان ينزل الى هذا الميدان من القلعة ، فلا يجد فى طريقه أحدا من الناس سوى أصحاب الدكاكين من الباعة ، لقلة الناس وشغلهم مما هم فيه من الغلاء والوباء .

ولقد رآه شخص من الناس ، وقد نزل الى الميدان والطرقات خالية ، فأنشد ما قيل فى الطبيب ابن زهر :

قل للغلا أنت وابن زهر
بلغتما الحد والنهايه
ترفقا بالورى قليلا
فى واحد منكما كفايه

وما برح هذا الميدان باقيا الى أن عمر السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون قصر الأمير بكتمر الساقى على بركة الفيل ، فأدخل فيه جميع أرض هذا الميدان ، وجعله اصطبل قصر الأمير بكتمر الساقى فى سنة سبع عشرة وسبعمائة . وهو باق الى وقتنا هذا .

« ميدان المهارى » : هذا الميدان بالقرب من قناطر السباع ، فى بر الخليج الغربى ، كان من جملة جنان الزهرى . أنشأه الملك الناصر محمد بن قلاوون فى سنة عشرين وسبعمائة .

(*) ص١٦٨ جـ٢ ، ط. بولاق .

ومن وراء هذا الميدان بركة ماء كان موضعها كرم القاضي الفاضل رحمة الله عليه .

قال جامع السيرة الناصرية : وكان الملك الناصر محمد بن قلاوون له شغف عظيم بالخيل . فعمل ديوانا ينزل فيه كل فرس بشأنه ، واسم صاحبه ، وتاريخ الوقت الذي حضر فيه . فاذا حملت فرس من خيول السلطان أعلم به ، وترقب الوقت الذي تلد فيه

واستكثر من الخيل حتى احتاج الى مكان برسم نتاجها . فركب من قلعة الجبل في سنة عشرين وسبعمائة ، وعين موضعا يعمله ميدانا برسم المهارى ، فوقع اختياره على أرض بالقرب من قناطر السباع . وما زال واقفا بفرسه حتى حدد الموضع ، وشرع في نقل الطين البليز اليه ، وزرعه من النخل وغيره ، وركب على الآبار التي فيه السواقي .

فلم يمض سوى أيام حتى ركب اليه ، ولعب فيه بالكرة مع الخاصكية ، ورتب فيه عدة حجور للنتاج ، وأعد لها سواسا وأميراخورية وسائر ما يحتاج اليه . وبنى فيه أماكن ، ولازم الدخول اليه في ممره الى الميدان الذي أنشأه على النيل بموردة الملح .

فلما كان بعد أيام وأشهر ، حسن في نفسه أن يبني تجاه هذا الميدان — على النيل الأعظم بجوار جامع الطيبرسي — زريبة ، ويبرز بالمناظر التي ينشئها في الميدان الى قرب البحر . فنزل بنفسه ، وتحدث في ذلك ، فكثر المهندسون المصروف في عينه ، وصعبوا الأمر من جهة قلة الطين هناك . وكان قد أدركه السفر للصعيد فترك ذلك

وما برحت الخيول في هذا الميدان الى أن مات الملك الظاهر برقوق في سنة احدى وثمانمائة . واستمر بعده في أيام ابنه الملك الناصر فرج . الا أنه تلاشى أمره عما كان قبل ذلك ، ثم انقطعت منه الخيول وصار براحا خاليا .

« ميدان سرياقوس » : كان هذا الميدان شرقي ناحية سرياقوس بالقرب من الخانقاه . أنشأه الملك الناصر محمد بن قلاوون في ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة ، وبنى فيه قصورا جليلة وعدة منازل للأمراء ، وغرس فيه بستانا كبيرا نقل اليه من دمشق سائر الأشجار التي تحمل الفواكه ، وأحضر معها خولة بلاد الشام حتى غرسوها وطعموا الأشجار . فأفلح فيه الكرم والسفرجل وسائر الفواكه .

فلما كمل في سنة خمس وعشرين ، خرج ومعه الأمراء والأعيان ، ونزل القصور التي هناك ، ونزل الأمراء والأعيان على منازلهم في الأماكن التي بنيت لهم . واستمر يتوجه اليه في كل سنة ، ويقيم به الأيام ، ويلعب فيه بالكرة الى أن مات . فعمل ذلك أولاده الذين ملكوا من بعده .

فكان السلطان يخرج في كل سنة من قلعة الجبل بعدما تنقضي أيام الركوب ، الى الميدان الكبير الناصري على النيل ، ومعه جميع أهل الدولة من الأمراء والكتاب وقاضي العسكر وسائر أرباب الرتب ، ويسير الى السرحة

بناحية سرياقوس ، وينزل بالقصور ، ويركب الى الميدان هناك للعب بالكرة ، ويخلع على الأمراء وسائر أهل الدولة ، ويقيم فى هذه السرحة أياما . فيمر للناس فى اقامتهم بهذه السرحة أوقات لا يمكن وصف ما فيها من المسرات ، ولا حصر ما ينفق فيها من المآكل والهبات من الأموال .

ولم يزل هذا الرسم مستمرا الى سنة تسع وتسعين وسبعمائة ، وهى آخر سرحة سار اليها السلطان بسرياقوس . ومن هذه السنة انقطع السلطان الملك الظاهر برقوق عن الحركة لسرياقوس ، فانه اشتغل فى سنة ثمانمائة بتحرك المماليك عليه من وقت قيام الأمير على باى الى أن مات .

وقام من بعده ابنه الملك الناصر فرج . فما صفا الوقت * فى أيامه من كثرة الفتن وتواتر الغلوات والمحن ... الى أن نسى ذلك ، وأهمل أمر الميدان والقصور وخرب ، وفيه الى اليوم بقية قائمة . ثم بيعت هذه القصور ، فى صفر سنة خمس وعشرين وثمانمائة ، بمائة دينار لينقض خشبها وشبابيكها وغيرها ، فنقضت كلها .

وكان من عادته اذا مر فى متصيداته باقطاع الصيد لسرياقوس أو شبرا أو البحيرة ، أنه ينعم على أكابر أمراء الدولة قدرا وسنا : كل واحد بألف مثقال ذهبا ، وبرذون خاص مسرج ملجم ، وكنبوش مذهب .

وكان من عادة السلطان ، اذا خرج الى أمير كبير ، قدم له من الغنم والاوز والدجاج وقصب السكر والشعير ما تسمو همة مثله اليه . فيقبله السلطان منه ، وينعم عليه بخلعة كاملة ، وربما أمر لبعضهم بمبلغ مال .

وكانت عادة الأمراء أن يركب الأمير منهم حيث يركب فى المدينة وخلفه جنيب ، وأما أكابرهم فيركب بجنيبين ... هذا فى المدينة والحاضرة . وهكذا يكون اذا خرج الى سرياقوس وغيرها من نواحى الصيد ، ويكون فى الخروج الى سرياقوس وغيرها من الأسفار لكل أمير طلب يشتمل على أكثر مماليكه ، وقدامهم خزانة محمولة على جمل واحد يجره راكب آخر على جمل والمال على جملين ، وربما زاد بعضهم على ذلك .

وأمام الخزانة عدة جنائب تجر على أيدى مماليك وركاب خيل وهجن وركاب من العرب على هجن ، وأمامها الهجن بأكوارها مجنوبة ، وللطبلخانات قطار واحد وهو أربعة ، ومركوب الهجان والمال قطاران ، وربما زاد بعضهم .

وعدد الجنائب فى كثرتها وقلتها الى رأى الأمير وسعة نفسه . والجنائب منها ما هو مسرج ملجم ، ومنها ما هو بعباءة لا غير . وكان يضاهى بعضهم بعضا فى الملابس الفاخرة والسروج المحلاة والعدد المليحة .

وكان من رسوم السلطان ، فى خروجه الى سرياقوس وغيرها من الأسفار ، ألا يتكلف اظهار كل شعار السلطنة ، بل يكون الشعار فى موكبه السائر فيه جمهور مماليكه مع المقدم عليهم وأستاداره ، وأمامهم الخزائن والجنائب والهجن . وأما هو نفسه فانه يركب

(*) ص١٩٩ ج٢ ، ط. بولاق .

ومعه عدة كبيرة من الأمراء الكبار والصغار من الغرباء والخواص ، وجملة من خـواص مماليكه .

ولا يركب فى السير برقبة ولا بعصائب ، بل يتبعه جنائب خلفه ، ويقصـد فى الغالب تأخير النزول الى الليـل . فاذا جاء الليـل حملت قدامه فوانيس كثيرة ومشاعل ، فاذا قارب مخيمـه تلقى بشـموع موكبيـة فى شمعدانات كفت ، وصـاحت الجاويشية بين يديه ، ونزل الناس كافة . الا حملة السـلاح فانهم وراءه ، والوشاقية أيضا وراءه ، وتمشى الطبردارية حوله .

حتى اذا وصـل القصـور بسرياقوس أو الدهليز من المخيم ، نزل عن فرسه ودخل الى الشقة — وهى خيمة مستديرة متسعة — ثم منـها الى شقـة مختـصرة ، ثم منـها الى اللاجوق . وبدائر كل خيمة من جميع جوانبها من داخل سور خركاه ، وفى صدر اللاجوق قصر صغير من خشب برسـم المبيت فيـه . وينصب بازاء الشقة الحمام بقدور الرصاص والحوض ، على هيئة الحمام المبنى فى المدن الا أنه مختصر .

فاذا نام السلطان طافت به المماليـك دائرة بعد دائرة ، وطاف بالجميع الحرس ، وتدور الزفة حـول الدهليز فى كل ليـلة ، وتدور بسرياقوس حول القصر فى كل ليلة مرتين : الأولى منذ يأوى الى النوم ، والثانية عنـد قعوده من النوم .

وكل زفة يدور بها أمير جاندار — وهو من أكابر الأمراء — وحوله الفوانيس والمشاعل والطبول والبياتة . ويبـام على باب الدهليز النقباء وأرباب النوب من الخدم .

ويصحب السلطان فى السفر غالب ما تدعو الحاجة اليه حتى يكاد يكون معه مارستان ، لكثرة من معه من الأطباء وأرباب الـكحل والجراح والأشربة والعقاقير ، وما يجـرى مجرى ذلك . وكل من عاده طبيب ، ووصف له ما يناسبه ، يصرف له من الشراب خاناه أو الدواء خاناه المحمولين فى الصحبـة . والله أعلم .

« الميدان الناصرى » : هذا الميـدان من جملة أراضى بستان الخشاب فيما بين مدينة مصر والقاهرة . وكان موضعه قديمـا غامرا بماء النيل ، ثم عرف ببستان الخشاب .

فلما كانت سنة أربع عشرة وسبعمائة ، هدم السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون الميدان الظاهرى ، وغرس فيه أشـجارا كما تقدم ، وأنشـأ هـذا الميدان من أراضى بسـتان الخشاب . فانه كان حينئذ مطلا على النيل .

وتجهز فى سـنة ثمـان عشرة وسبعمائة للركوب اليه ، وفرق الخيـول على جميـع الأمراء ، واستجد ركوب الأوجاقية بكوافى الزركش على صفة الطاسات فوق رؤوسهم ، وسماهم الجفتاوات .

فيركب منهم اثنـان بشـوبى حرير أطلس أصفر ، وعلى رأس كل منهما كوفية الذهب ، وتحت كل واحد فرس أبيض بحلية ذهب . ويسيران معا بين يدى السلطان فى ركوبه من قلعة الجبل الى الميدان ، وفى عودته منه الى القلعة .

وكان السلطان اذا ركب الى هذا الميدان للعب الأكرة ، يفرق حوائص ذهب على الأمراء المقدمين . وركوبه الى هذا الميدان دائما يوم السبت ، فى قوة الحر بعد وفاء النيل ، مدة شهرين من السنة . فيفرق فى كل ميدان على اثنين بالنوبة ، فمنهم من تجىء نوبته بعد ثلاث سنين أو أربع سنين .

وكان من مصطلح الملوك * أن تكون تفرقة السلطان الخيول على الأمراء فى وقتين : أحدهما عندما يخرج الى مرابط خيله فى الربيع عند اكتمال ترييعها ، وفى هذا الوقت يعطى أمراء المئين الخيول مسرجة ملجمة بكنابيش مذهبة ، ويعطى أمراء الطبلخانات خيلا عريا . والوقت الثانى يعطى الجميع خيولا مسرجة ملجمة بلا كنابيش بفضة خفيفة . وليس لأمراء العشراوات حظ فى ذلك الا ما يتفقدهم به على سبيل الانعام . ولخاصكية السلطان المقربين ، من أمراء المئين وأمراء الطبلخانات ، زيادة كثيرة من ذلك ، بحيث يصل الى بعضهم المائة فرس فى السنة .

وكان من شعار السلطان أن يركب الى الميدان وفى عنق الفرس رقبة حرير أطلس أصفر بزركش ذهب ، فتستر من تحت أذنى الفرس الى حيث السرج . ويكون قدامه اثنان من الأوشاقية راكبين على حصانين أشهبين برقبتين نظير ما هو راكب به ، كأنهما معدان لأن يركبهما . وعلى الأوشاقيين المذكورين قباءان أصفران من حرير بطراز مزركش بالذهب ، وعلى رأسهما قبعان مزركشان . وغاشية السرج محمولة أمام السلطان ، وهى أديم مزركش مذهب يحملها بعض الركابدارية قدامه ، وهو ماش فى وسط الموكب . ويكون قدامه فارس يشبب بشبابة لا يقصد بنغمها الاطراب ، بل ما يقرع بالمهابة سامعه . ومن خلف السلطان الجنائب ، وعلى رأسه العصائب السلطانية ، وهى صفر مطرزة بذهب بألقابه واسمه .

وهذا لا يختص بالركوب الى الميدان ، بل يعمل هذا الشعار أيضا اذا ركب يوم العيد ، أو دخل الى القاهرة أو الى مدينة من مدن الشام . ويزداد هذا الشعار فى يوم العيدين ودخول المدينة ، برفع المظلة على رأسه — ويقال لها الجبر — وهو أطلس أصفر مزركش من أعلاه قبة وطائر من فضة مذهبة ... يحملها يومئذ بعض أمراء المئين الأكابر وهو راكب فرسه الى جانب السلطان . ويكون أرباب الوظائف والسلاحدارية كلهم خلف السلطان ، ويكون حوله وأمامه الطبردارية — وهم طائفة من الأكراد ذوى الاقطاعات والامرة — ويكونون مشاة وبأيديهم الأطبار المشهورة .

ذكر قلعة الجبل

قال ابن سيده فى كتاب « المحكم » : القلعة — بتحريك القاف واللام والعين وفتحها — الحصن الممتنع فى جبل ، وجمعها قلاع وقلع ، وأقلعوا بهذه البلاد بنوها فجعلوها كالقلعة ، وقيل القلعة — بسكون اللام — حصن مشرف ، وجمعه قلوع .

(*) ص ٢٠٠ ، جـ ٢ ، ط . بولاق .

وهذه القلعة على قطعة من الجبل ، وهى تتصل بجبل المقطم ، وتشرف على القاهرة ومصر والنيل والقرافة . فتصير القاهرة فى الجهة البحرية منها ، ومدينة مصر والقرافة الكبرى وبركة الحبش فى الجهة القبلية الغربية ، والنيل الأعظم فى غربيها ، وجبل المقطم من ورائها فى الجهة الشرقية .

وكان موضعها أولا يعرف بقبة الهواء ، ثم صار من تحته ميدان أحمد بن طولون ، ثم صار موضعها مقبرة فيها عدة مساجد ... الى أن أنشأها السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب — أول الملوك بديار مصر — على يد الطواشى بهاء الدين قراقوش الأسدى فى سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة ، وصارت من بعده دار الملك بديار مصر الى يومنا هذا .

وهى ثامن موضع صار دار المملكة بديار مصر . وذلك أن دار الملك كانت أولا قبل الطوفان مدينة أمسوس ، ثم صار تخت الملك بعد الطوفان بمدينة منف الى أن خربها بخت نصر . ثم لما ملك الاسكندر بن فيليبش صار الى مصر ، وجدد بناء الاسكندرية . فصارت دار المملكة من حينئذ ، بعد مدينة منف ، الاسكندرية الى أن جاء الله تعالى بالاسلام ، وقدم عمرو بن العاص رضى الله عنه بجيوش المسلمين الى مصر وفتح الحصن ، واختط مدينة فسطاط مصر . فصارت دار الامارة من حينئذ بالفسطاط الى أن زالت دولة بنى أمية . وقدمت عساكر بنى العباس الى مصر ، وبنوا فى ظاهر الفسطاط العسكر . فصار الأمراء من حينئذ تارة ينزلون فى العسكر ، وتارة فى الفسطاط ... الى أن بنى أحمد بن طولون القصر والميدان ، وأنشأ القطائع بجانب العسكر . فصارت القطائع منازل الطولونية الى أن زالت دولتهم .

فسكن الأمراء بعد زوال دولة بنى طولون بالعسكر الى أن قدم جوهر القائد من بلاد المغرب بعساكر المعز لدين الله ، وبنى القاهرة المعزية . فصارت القاهرة من حينئذ دار الخلافة ، ومقر الامامة ، ومنزل الملك الى أن انقضت الدولة الفاطمية على يد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب .

فلما استبد بعدهم بأمر سلطنة مصر ، بنى قلعة الجبل هذه ومات . فسكنها من بعده الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب ، واقتدى به من ملك مصر من بعده من أولاده الى أن انقرضوا على يد مماليكهم البحرية ، وملكوا مصر من بعدهم ، فاستقروا بقلعة الجبل الى يومنا هذا .

وسأجمع ان شاء الله تعالى من أخبار قلعة الجبل هذه ، وذكر من ملكها ما فيه كفاية ، والله أعلم * .

ذكر ما كان عليه موضع قلعة الجبل قبل بنائها

اعلم أن أول ما عرف من خبر موضع قلعة الجبل أنه كان فيه قبة تعرف بقبة الهواء .

قال أبو عمرو الكندى فى كتاب « أمراء مصر » : وابتنى حاتم بن هرثمة القبة التى تعرف بقبة الهواء ، وهو أول من ابتناها ،

(*) ص ٢٠١ ، ج ٢ ، ط . بولاق .

وولى مصر الى أن صرف عنها فى جمادى الآخرة سنة خمس وتسعين ومائة ... قال : ثم مات عيسى بن منصور ، أمير مصر ، فى قبة الهواء بعد عزله لاحدى عشرة خلت من شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وثلاثين ومائتين .

ولما قدم أمير المؤمنين المأمون الى مصر فى سنة سبع عشرة ومائتين ، جلس بقبة الهواء هذه . وكان بحضرته سعيد بن عفير ، فقال المأمون : لعن الله فرعون حيث يقول : « أليس لى ملك مصر » ؟ فلو رأى العراق وخصبها !

فقال سعيد بن عفير : ياأمير المؤمنين لا تقل هذا ، فان الله عز وجل قال : « ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون» فما ظنك ياأمير المؤمنين بشىء دمره الله هذا بقيته !

ثم قال سعيد : لقد بلغنا أن أرضا لم تكن أعظم من مصر ، وجميع أهل الأرض يحتاجون اليها ، وكانت الأنهار بقناطر وجسور بتقدير ، حتى ان الماء يجرى تحت منازلهم وأفنيتهم يرسلونه متى شاءوا ويحبسونه متى شاءوا ، وكانت البساتين متصلة لا تنقطع . ولقد كانت الأمة تضع المكتل على رأسها فيمتلىء مما يسقط من الشجر ، وكانت المرأة تخرج حاسرة لا تحتاج الى خمار لكثرة الشجر .

وفى قبة الهواء حبس المأمون الحارث بن مسكين .

قال الكندى فى كتاب « الموالى » : قدم المأمون مصر — وكان بها رجل يقال له الحضرمى يتظلم من ابن اسباط وابن تميم — فجلس الفضل بن مروان فى المسجد الجامع ، وحضر مجلسه يحيى بن أكثم وابن أبى داود ، وحضر اسحاق بن اسماعيل بن حماد بن زيد — وكان على مظالم مصر — وحضر جماعة من فقهاء مصر وأصحاب الحديث .

وأحضر الحارث بن مسكين ليولى قضاء مصر ، فدعاه الفضل بن مروان . فبينا هو يكلمه ، اذ قال الحضرمى للفضل : سل — أصلحك الله — الحارث عن ابن أسباط وابن تميم .

قال : ليس لهذا أحضرناه .

قال : أصلحك الله ، سله .

فقال الفضل للحارث : ما تقول فى هذين الرجلين ؟

فقال : ظالمين غاشمين .

قال : ليس لهذا أحضرناك .

فاضطرب المسجد ، وكان الناس متوافرين . فقام الفضل وصار الى المأمون بالخبر ، وقال : خفت على نفسى من ثوران الناس مع الحارث .

فأرسل المأمون الى الحارث فدعاه ، فابتدأه بالمسألة ، فقال : ما تقول فى هذين الرجلين ؟

فقال : ظالمين غاشمين .

قال : هل ظلماك بشىء ؟

قال : لا .

قال : فعاملتهما ؟

قال : لا .

قال : فكيف شهدت عليهما ؟

قال : كما شهدت أنك أمير المؤمنين ولم أرك قط الا الساعة ، وكما شهدت أنك غزوت ولم أحضر غزوك .

قال : اخرج من هذه البلاد فليست لك ببلاد ، وبع قليلك وكثيرك فانك لا تعاينها أبدا . وحبسه في رأس الجبل في قبة ابن هرثمة .

ثم انحدر المأمون الى البشرود وأحضره معه . فلما فتح البشرود أحضر الحارث . فلما دخل عليه سأله عن المسألة التى سأله عنها بمصر ، فرد عليه الجواب بعينه ، فقال : فأى شيء تقول في خروجنا هذا ؟

قال : أخبرنى عبد الرحمن بن القاسم ، عن مالك ، أن الرشيد كتب اليه في أهل دهلك يسأله عن قتالهم ، فقال : ان كانوا خرجوا عن ظلم من السلطان فلا يحل قتالهم ، وان كانوا انما شقوا العصا فقتالهم حلال .

فقال المأمون : أنت تيس ، ومالك أتيس منك . ارحل عن مصر .

قال : ياأمير المؤمنين الى الثغور ؟

قال : الحق بمدينة السلام .

فقال له أبو صالح الحرانى : ياأمير المؤمنين تغفر زلته .

قال : ياشيخ تشفعت ، فارتفع .

ولما بنى أحمد بن طولون القصر والميدان تحت قبة الهواء هذه ، كان كثيرا ما يقيم فيها ، فانها كانت تشرف على قصره . واعتنى بها الأمير أبو الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون ، وجعل لها الستور الجليلة والفرش العظيمة ... في كل فصل ما يناسبه .

فلما زالت دولة بنى طولون ، وخرب القصر والميدان ، كانت قبة الهواء مما خرب — كما تقدم ذكره عند ذكر القطائع من هذا الكتاب — ثم عمل موضع قبة الهواء مقبرة ، وبنى فيها عدة مساجد .

قال الشريف محمد بن أسعد الجوانى النسابة في كتاب « النقط في الخطط » : والمساجد المبنية على الجبل المتصلة باليحاميم المطلة على القاهرة المعزية ، التى فيها المسجد المعروف بسعد الدولة ، والترب التى هناك ... تحتوى القلعة التى بناها السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب على الجميع ، وهى التى نعتها بالقاهرة . وبنيت هذه القلعة في مدة يسيرة .

وهذه المساجد هى : مسجد سعد الدولة ، ومسجد معز الدولة والى مصر ، ومسجد مقدم ابن عليان من بنى بويه الديلمى ، ومسجد العدة ، بناء أحد الأستاذين الكبار المستنصرية — وهو عدة الدولة — وكان بعد مسجد معز الدولة ، ومسجد عبد الجبار بن عبد الرحمن بن شبل بن على ، رئيس الرؤساء وكافى الكفاة ، أبى يعقوب بن يوسف الوزير بهمدان ابن على . بناه وانتقل بالارث الى ابن عمه القاضى الفقيه أبى الحجاج يوسف بن عبد الجبار بن شبل ، وكان من أعيان السادة . ومسجد * قسطة ، وكان غلاما أرمنيا من

(*) ص٢٠٢، جـ٢ ، ط . بولاق .

غلمانَ المظفر بن أمير الجيوش . مات مسموما من أكلة هريسة .

وقال الحافظ أبو الطاهر السلفى : سمعت أبا منصور قسطة الأرمنى والى الاسكندرية يقول : كان عبد الرحمن خطيب ثغر عسقلان يخطب بظاهر البلد فى عيد من الأعياد ، فقيل له قد قرب منا العدو . فنزل عن المنبر ، وقطع الخطبة .

فبلغه أن قوما من العسكرية عابوا عليه فعله . فخطب فى الجمعة الأخرى ، داخل البلد فى الجامع ، خطبة بليغة قال فيها : قد زعم قوم أن الخطيب فزع ، وعن المنبر نزع . وليس ذلك عارا على الخطيب ، فانما ترسه الطيلسان ، وحسامه اللسان ، وفرسه خشب لا تجرى مع الفرسان . وانما العار على من تقلد الحسام ، وسن السنان ، وركب الجياد الحسان ، وعند اللقاء يصيح : الى عسقلان .

وكان قسطة هذا من عقلاء الأمراء المائلين الى العدل ، المثابرين على مطالعة الكتب ، وأكثر ميله الى التواريخ وسير المتقدمين ، وكان مسجده بعد مسجد شقيق الملك . ومسجد الديلمى كان على قرنة الجبل المقابل للقلعة من شرقيها الى البحرى ، وقبره قدام الباب . وتربة ولخشى الأمير ، والد السلطان رضوان بن ولخشى المنعوت بالأفضل ، كان من الأعيان الفضلاء الأدباء ، ضرب على طريقة ابن البواب وأبى على بن مقلة ، وكتب عدة ختمات ، وكان كريما شجاعا يلقب فحل الأمراء . وكانت هذه التربة آخر الصف .

ومسجد شقيق الملك الأستاذ خسروان ، صاحب بيت المال ، أضيف الى سور القلعة البحرى الى المغرب قليلا . ومسجد أمين الملك صارم الدولة مفلح صاحب المجلس الحافظى ، كان بعد مسجد القاضى أبى الحجاج المعروف بمسجد عبد الجبار ، وهو فى وسط القلعة ، وبعده تربة لاون أخى يانس . ومسجد القاضى النبيه كان لهمام الدولة غنام ، ومات رسولا ببلاد الشام ، وشراه منه وأنشأه القاضى النبيه ، وقبره به ، وكان القاضى من الأعيان .

وقال ابن عبد الظاهر : أخبرنى والدى قال : كنا نطلع اليها (يعنى الى المساجد التى كانت موضع قلعة الجبل) قبل أن تسكن فى ليالى الجمع ، نبيت متفرجين كما نبيت فى جواسق الجبل والقرافة .

قال مؤلفه رحمه الله : وبالقلعة الآن مسجد الردينى . وهو أبو الحسن على بن مرزوق ابن عبد الله الردينى ، الفقيه المحدث المفسر . كان معاصرا لأبى عمرو عثمان بن مرزوق الحوفى ، وكان ينكر على أصحابه ، وكانت كلمته مقبولة عند الملوك ، وكان يأوى بمسجد سعد الدولة ، ثم تحول منه الى مسجد عرف بالردينى ، وهو الموجود الآن بداخل قلعة الجبل ، وعليه وقف بالاسكندرية ، وفى هذا المسجد قبر يزعمون أنه قبره ، وفى كتب المزارات بالقرافة أنه توفى ، ودفن بها فى سنة أربعين وخمسمائة بخط سارية شرقى تربة الكيروانى ، واشتهر قبره باجابة الدعاء عنده .

ذكر بناء قلعة الجبل

وكان سبب بنائها أن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب لما أزال الدولة الفاطمية من مصر ، واستبد بالأمر ، لم يتحول من دار الوزارة بالقاهرة ، ولم يزل يخاف على نفسه من شيعة الخلفاء الفاطميين بمصر ، ومن الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى سلطان الشام رحمة الله عليه . فامتنع أولا من نور الدين بأن سير أخاه الملك المعظم شمس الدولة توران شاه بن أيوب ، فى سنة تسع وستين وخمسمائة ، الى بلاد اليمن لتصير له مملكة تعصمه من نور الدين ، فاستولى شمس الدولة على ممالك اليمن .

وكفى الله تعالى صلاح الدين أمر نور الدين ، ومات فى تلك السنة ، فخلا له الجو وأمن جانبه ، وأحب أن يجعل لنفسه معقلا بمصر ، فانه كان قد قسم القصرين بين أمرائه ، وأنزلهم فيهما . فيقال ان السبب الذى دعاه الى اختيار مكان قلعة الجبل ، أنه علق اللحم بالقاهرة فتغير بعد يوم وليلة ، فعلق لحم حيوان آخر فى موضع القلعة فلم يتغير الا بعد يومين وليلتين ، فأمر حينئذ بانشاء قلعة هنالك وأقام على عمارتها الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدى . فشرع فى بنائها ، وبنى سور القاهرة الذى زاده فى سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة ، وهدم ما هنالك من المساجد ، وأزال القبور ، وهدم الأهرام الصغار التى كانت بالجيزة تجاه مصر — وكانت كثيرة العدد — ونقل ما وجد بها من الحجارة ، وبنى به السور والقلعة وقناطر الجيزة ، وقصد أن يجعل السور يحيط بالقاهرة والقلعة ومصر . فمات السلطان قبل أن يتم الغرض من السور والقلعة .

فأهمل العمل الى أن كانت سلطنة الملك الكامل محمد ابن الملك العادل أبى بكر بن أيوب فى قلعة الجبل ، واستنابته فى مملكة مصر وجعله ولى عهد . فأتم بناء القلعة ، وأنشأ بها الآدر السلطانية وذلك فى سنة أربع وستمائة . وما برح يسكنها حتى مات ، فاستمرت من بعده دار مملكة مصر الى يومنا هذا .

وقد كان السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب يقيم بها أياما ، وسكنها الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين فى أيام أبيه مدة ، ثم انتقل منها الى دار الوزارة .

قال ابن عبد الظاهر : وسمعت حكاية تحكى * عن صلاح الدين أنه طلعها ومعه أخوه الملك العادل ، فلما رآها التفت الى أخيه وقال : ياسيف الدين قد بنيت هذه القلعة لأولادك .

فقال : ياخوند منّ الله عليك أنت وأولادك وأولاد أولادك بالدنيا .

فقال : ما فهمت ما قلت لك . أنا نجيب ما يأتى لى أولاد نجباء ، وأنت غير نجيب فأولادك يكونون نجباء . فسكت .

قال مؤلفه رحمه الله : وهذا الذى ذكره صلاح الدين يوسف ، من انتقال الملك عنه الى أخيه وأولاد أخيه ، ليس هو خاصا بدولته ،

(*) ص٢٠٣ ، ج٢ ، ط . بولاق

بل اعتبر ذلك فى الدول تجد الأمر ينتقل عن أولاد القائم بالدولة الى بعض أقاربه ... هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هو القائم بالملة الاسلامية . ولما توفى صلى الله عليه وسلم ، انتقل أمر القيام بالملة الاسلامية بعده الى أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، واسمه عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب ابن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤى . فهو رضى الله عنه يجتمع مع النبى صلى الله عليه وسلم فى مرة بن كعب .

ثم لما انتقل الأمر بعد الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم الى بنى أمية ، كان القائم بالدولة الأموية معاوية بن أبى سفيان صخر ابن حرب بن أمية ، فلم تفلح أولاده ، وصارت الخلافة الى مروان بن الحكم بن العاص بن أمية ، فتوارثها بنو مروان حتى انقضت دولتهم بقيام بنى العباس رضى الله عنه .

فكان أول من قام من بنى العباس عبد الله ابن محمد السفاح . ولما مات انتقلت الخلافة من بعده الى أخيه أبى جعفر عبد الله بن محمد المنصور ، واستقرت فى بنيه الى أن انقرضت الدولة العباسية من بغداد .

وكذا وقع فى دول العجم أيضا . فأول ملوك بنى بويه عماد الدين أبو على الحسن ابن بويه ، والقائم من بعده فى السلطنة أخوه حسن بن بويه . وأول ملوك بنى سلجوق طغريل ، والقائم من بعده فى السلطنة ابن أخيه البارسلان بن داود بن ميكال بن سلجوق .

وأول قائم بدولة بنى أيوب السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب . ولما مات اختلف أولاده ، فانتقل ملك مصر والشام وديار بكر والحجاز واليمن الى أخيه الملك العادل أبى بكر بن أيوب ، واستمر فيهم الى أن انقرضت الدولة الأيوبية ، فقام بمملكة مصر المماليك الأتراك .

وأول من قام منهم بمصر الملك المعز أيبك ، فلما مات لم يفلح ابنه على ، فصارت المملكة الى قطز .

وأول من قام بالدولة الجركسية الملك الظاهر برقوق ، وانتقلت المملكة من بعد ابنه الملك الناصر فرج الى الملك المؤيد شيخ المحمودى الظاهرى .

وقد جمعت فى هذا فصلا كبيرا ، وقلما تجد الأمر بخلاف ما قلته لك . ولله عاقبة الأمور .

قال ابن عبد الظاهر : والملك الكامل هو الذى اهتم بعمارتها وعمارة أبراجها ، البرج الأحمر وغيره ، فكملت فى سنة أربع وستمائة ، وتحول اليها من دار الوزارة ، ونقل اليها أولاد العاضد وأقاربه وسجنهم فى بيت فيها . فلم يزالوا فيه الى أن حولوا منه فى سنة احدى وسبعين وستمائة .

قال : وفى آخر سنة اثنتين وثمانين وستمائة ، شرع السلطان الملك المنصور قلاوون فى عمارة برج عظيم على جانب باب السر الكبير ، وبنى علوه مشترفات وقاعات مرخمة لم ير مثلها ، وسكنها فى صفر سنة ثلاث وثمانين وستمائة . ويقال ان قراقوش

كان يستعمل فى بناء القلعة والسور خمسين ألف أسير .

« البئر التى بالقلعة » : هذه البئر من العجائب . استنبطها قراقوش .

قال ابن عبد الظاهر : وهذه البئر من عجائب الأبنية : تدور البقر من أعلاها فتنقل الماء من نقالة فى وسطها ، وتدور أبقار فى وسطها تنقل الماء من أسفلها ، ولها طريق الى الماء ينزل البقر الى معينها فى مجاز ، وجميع ذلك حجر منحوت ليس فيه بناء .

وقيل ان أرضها مسامتة أرض بركة الفيل ، وماؤها عذب . سمعت من يحكى من المشايخ أنها لما نقرت جاء ماؤها حلوا ، فأراد قراقوش أو نوابه الزيادة فى مائها ، فوسع نقر الجبل ، فخرجت منه عين مالحة غيرت حلاوتها .

وذكر القاضى ناصر الدين شافع بن على فى كتاب « عجائب البنيان » أنه ينزل الى هذه البئر بدرج نحو ثلثمائة درجة .

ذكر صفة القلعة

وصفة قلعة الجبل أنها بناء على نشز عالٍ ، يدور بها سور من حجر بأبراج وبدنات حتى تنتهى الى القصر الأبلق ، ثم من هناك تتصل بالدور السلطانية على غير أوضاع أبراج القلاع .

ويدخل الى القلعة من بابين : أحدهما بابها الأعظم المواجه للقاهرة — ويقال له الباب المدرج — وبداخله يجلس والى القلعة ، ومن خارجه تدق الخليلية قبل المغرب . والباب الثانى باب القرافة . وبين البابين ساحة فسيحة فى جانبها بيوت ، وبجانبها القبلى سوق للمآكل .

ويتوصل من هذه الساحة الى دركاه جليلة كان يجلس بها الأمراء حتى يؤذن لهم بالدخول ، وفى وسط الدركاه باب القلعة ، ويدخل منه فى دهليز فسيح الى ديار وبيوت ، والى الجامع الذى تقام به الجمعة . ويمشى من دهليز باب القلعة ، فى مداخل أبواب ، الى رحبة فسيحة فى صدرها الايوان الكبير المعد لجلوس السلطان فى يوم المواكب واقامة دار * العدل ، وبجانب هذه الرحبة ديار جليلة ، ويمر منها الى باب القصر الأبلق .

وبين يدى باب القصر رحبة دون الأولى يجلس بها خواص الأمراء قبل دخولهم الى الخدمة الدائمة بالقصر . وكان بجانب هذه الرحبة ، محاذيا لباب القصر ، خزانة القصر . ويدخل من باب القصر فى دهاليز خمسة الى قصر عظيم ، ويتوصل منه الى الايوان الكبير بباب خاص ، ويدخل منه أيضا الى قصور ثلاثة ، ثم الى دور الحرم السلطانية والى البستان والحمام والحوش .

وباقى القلعة فيه دور ومساكن للماليك السلطانية ، وخواص الأمراء بنسائهم وأولادهم ومماليكهم ودواوينهم وطشتخاناتهم وفرشخاناتهم وشربخاناتهم ومطابخهم وسائر وظائفهم .

(*) ص٢٠٤ جـ٢ ، ط. بولاق .

وكانت آكابر أمراء الألوف ، وأعيان أمراء الطبلخاناه والعشراوات ، تسكن بالقلعة الى آخر أيام الناصر محمد بن قلاوون .

وكان بها أيضا طباق المماليك السلطانية ودار الوزارة — وتعرف بقاعة الصاحب — وبها قاعة الانشاء وديوان الجيش وبيت المال وخزانة الخاص ، وبها الدور السلطانية من الطشتخاناه والركابخاناه والحوائجخاناه والزردخاناه ..

وكان بها الجب الشنيع لسجن الأمراء ، وبها دار النيابة ، وبها عدة أبراج يحبس بها الأمراء والمماليك ، وبها المساجد والحوانيت والأسواق ، وبها مساكن تعرف بخرائب التتر كانت قدر حارة ... خربها الملك الأشرف برسباى فى ذى القعدة سنة ثمان وعشرين وثمانمائة .

ومن حقوق القلعة الاصطبل السلطانى ، وكان ينزل اليه السلطان من جانب ايوان القصر . ومن حقوقها أيضا الميدان ، وهو فاصل بين الاصطبلات وسوق الخيل من غربيه ، وهو فسيح المدى ، وفيه يصلى السلطان صلاة العيدين ، وفيه يلعب بالأكرة مع خواصه ، وفيه تعمل المدات أوقات المهمات أحيانا .

ومن رأى القصور والايوان الكبير والميدان الأخضر والجامع ، يقر لملوك مصر بعلو الهمم وسعة الانفاق والكرم .

« باب الدرفيل » : هذا الباب بجانب خندق القلعة ، ويعرف أيضا بباب المدرج ، وكان يعرف قديما بباب سارية . ويتوصل اليه من تحت دار الضيافة ، وينتهى منه الى القرافة ، وهو فيما بين سور القلعة والجبل .

والدرفيل هو الأمير حسام الدين لاجين الأيدمرى ، المعروف بالدرفيل ، دوادار الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى . مات فى سنة اثنتين وسبعين وستمائة .

« دار العدل القديمة » : هذه الدار موضعها الآن تحت القلعة يعرف بالطبلخاناه . والذى بنى دار العدل الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى فى سنة احدى وستين وستمائة ، وصار يجلس بها لعرض العساكر فى كل اثنين وخميس .

وابتدأ بالحضور فى أول سنة اثنتين وستين وستمائة . فوقف اليه ناصر الدين محمد بن أبى نصر ، وشكا أنه أخذ له بستان فى أيام المعز أيبك ، وهو بأيدى المقطعين ، وأخرج كتابا مثبتا ، وأخرج من ديوان الجيش مايشهد بأن البستان ليس من حقوق الديوان . فأمر برده عليه ، فتسلمه .

وأحضرت مرافعة فى ورقة مختومة . رفعها خادم أسود فى مولاه القاضى شمس الدين شيخ الحنابلة ، تضمنت أنه يبغض السلطان ويتمنى زوال دولته ، فانه لم يجعل للحنابلة مدرسا فى المدرسة التى أنشأها بخط بين القصرين ، ولم يول قاضيا حنبليا ، وذكر عنه أمورا قادحة . فبعث السلطان الورقة الى الشيخ ، فحضر اليه وحلف أنه ما جرى منه شىء ، وأن هذا الخادم طردته فاختلق على ما قال . فقبل السلطان عذره ، وقال : ولو

شتمتني أنت في حل . وأمر بضرب الخادم مائة عصا .

وغلت الأسعار بمصر حتى بلغ اردب القمح نحو مائة درهم وعدم الخبز . فنادى السلطان في الفقراء أن يجتمعوا تحت القلعة ، ونزل في يوم الخميس سابع ربيع الآخر منها ، وجلس بدار العدل هذه ، ونظر في أمر السعر ، وأبطل التسعير ، وكتب مرسوما الى الأمراء ببيع خمسمائة اردب ، في كل يوم ما بين مائتين الى ما دونهما ، حتى لا يشترى الخزان شيئا ، وأن يكون البيع للضعفاء والأرامل فقط دون من عداهم .

وأمر الحجاب فنزلوا تحت القلعة ، وكتبوا أسماء الفقراء الذين تجمعوا بالرميلة ، وبعث الى كل جهة من جهات القاهرة ومصر وضواحيهما حاجبا لكتابة أسماء الفقراء ، وقال : والله لو كان عندي غلة تكفي هؤلاء لفرقتها .

ولما انتهى احضار الفقراء أخذ منهم لنفسه ألوفا ، وجعل باسم ابنه الملك السعيد ألوفا ، وأمر ديوان الجيش فوزع باقيهم على كل أمير من الفقراء بعدة رجاله ، ثم فرق ما بقي على الأجناد ومفاردة الحلقة والمقدمين والبحرية ، وجعل طائفة التركمان ناحية ، وطائفة الأكراد ناحية ، وقرر لكل واحد من الفقراء كفايته لمدة ثلاثة أشهر .

فلما تسلم الأمراء والأجناد ما خصهم من الفقراء ، فرق من بقي منهم على الأكابر والتجار والشهود ، وعين لأرباب الزوايا مائة اردب قمح في كل يوم ، تخرج من الشون السلطانية الى جامع أحمد بن طولون ، وتفرق على من هناك .

ثم قال : هؤلاء المساكين الذين جمعناهم اليوم ومضى النهار لابد لهم من شيء . وأمر ففرق في كل منهم نصف درهم ليتقوت به في يومه ، ويستمر له من الغد ما تقرر . فاتفق فيهم * جملة مال ، وأعطى للصاحب بهاء الدين علي بن محمد بن حنا طائفة كبيرة من العميان ، وأخذ الأتابك سيف الدين أقطاي طائفة التركمان .

ولم يبق أحد من الخواص والأمراء الحواشي ولا من الحجاب والولاة وأرباب المناصب وذوى المراتب وأصحاب الأموال حتى أخذ جماعة من الفقراء على قدر حاله . وقال السلطان للأمير صارم الدين المسعودى والى القاهرة : خذ مائة فقير وأطعمهم لله تعالى .

فقال : نعم قد أخذتهم دائما .

فقال له السلطان : هذا شيء فعلته ابتداء من نفسك ، وهذه المائة خذها لأجلي .

فقال للسلطان : السمع والطاعة . وأخذ مائة فقير زيادة على المائة التي عينت له .

وانقضى النهار في هذا العمل ، وشرع الناس في فتح الشون والمخازن وتفرقة الصدقات على الفقراء . فنزل سعر القمح ، ونقص الاردب عشرين درهما ، وقل وجود الفقراء ... الى أن جاء شهر رمضان ، وجاء المغل الجديد ، فأول يوم من بيع الجديد نقص سعر اردب القمح أربعين درهما ورقا .

(*) ص٢٠٥، ج١، ط. بولاق ١٢

وفى اليوم الذى جلس فيه السلطان بدار العدل للنظر فى أمور الأسعار ، قرئت عليه قصة ضمان دار الضرب ، وفيها أنه قد توقفت الدراهم ، وسألوا ابطال الناصرية فان ضمانهم بمبلغ مائتى ألف وخمسين ألف درهم . فوقع عليها يحط عنهم منها مبلغ خمسين ألف درهم ، وقال : نحط هذا ، ولا نؤذى الناس فى أموالهم .

وفى مستهل شهر رجب منها جلس أيضا بدار العدل . فوقف له بعض الأجناد بصغير يتيم ذكر أنه وصيه ، وشكا من قضيته . فقال السلطان لقاضى القضاة تاج الدين عبد الوهاب ابن بنت الأعز : ان الأجناد اذا مات أحد منهم استولى خجداشه على موجوده ، فيموت الوصى ويكبر اليتيم فلا يجد له مالا .

وتقدم اليه ألا يمكن وصيا من الانفراد بتركة ميت ، ولكن يكون نظر القاضى شاملا له ، وتصير أموال الأيتام مضبوطة بأمناء الحكم ، ثم انه استدعى نقباء العساكر وأمرهم بذلك . فاستمر الحال فيه على ما ذكر .

وفى خامس عشرى شعبان سنة ثلاث وستين وستمائة ، جلس بدار العدل ، واستدعى تاج الدين ابن القرطبى ، وقال له : قد أضجرتنى مما تقول عندى مصالح لبيت المال ، فتحدث الآن بما عندك . فتكلم فى حق قاضى القضاة تاج الدين ، وفى حق متولى جزيرة سواكن ، وفى حق الأمراء وأنهم اذا مات منهم أحد أخذ ورثته أكثر من استحقاقهم . فأنكر عليه وأمر بحبسه .

وتحدث السلطان فى أمر الأجناد ، وأنه اذا مات أحدهم فى مواطن الجهاد لا يصل اليه شاهد حتى يشهد عليه بوصيته ، وأنه يشهد بعض أصحابه ، فاذا حضر الى القاهرة لاتقبل شهادته — وكان الجندى فى ذلك الوقت لا تقبل شهادته — فرأى السلطان أن كل أمير يعين من جماعته عدة ممن يعرف خيره ودينه ليسمع قولهم ، وألزم مقدمى الأجناد بذلك .

فشرع قاضى القضاة فى اختيار رجال جياد من الأجناد ، وعينهم لقبول شهادتهم . ففرحت العساكر بذلك .

وجلس أيضا فى تاسع عشريه بدار العدل ، فوقف له شخص ، وشكا أن الأملاك الديوانية لا يمكن أحد من سكانها أن ينتقل منها . فأنكر السلطان ذلك ، وأمر أن من انقضت مدة اجارته وأراد الخلو ، فلا يمنع من ذلك . وله فى ذلك عدة أخبار كلها صالحة ، رحمه الله تعالى .

وما برحت دار العدل هذه باقية الى أن استجد السلطان الملك المنصور قلاوون الايوان ، فهجرت دار العدل هذه ... الى أن كانت سنة اثنتين وعشرين وسبعمائة . فهدمها السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وعمل موضعها الطبلخاناه ، فاستمرت طبلخاناه الى يومنا .

الا أنه كان فى أيام عمارتها انما يجلس بها دائما فى أيام الجلوس نائب دار العدل ، ومعه القضاة وموقع دار العدل والأمراء ، فينظر نائب دار العدل فى أمور المتظلمين ، وتقرأ عليه القصص . وكان الأمر على ذلك فى أيام

الظاهر بيبرس ، وأيام ابنه الملك السعيد بركة ، ثم أيام الملك المنصور قلاوون .

« الايوان » المعروف بدار العدل : هذا الايوان أنشأه السلطان الملك المنصور قلاوون الألفي الصالحي النجمي ، ثم جدده ابنه السلطان الملك الأشرف خليل ، واستمر جلوس نائب دار العدل به .

فلما عمل الملك الناصر محمد بن قلاوون الروك ، أمر بهدم هذا الايوان فهدم ، وأعاد بناءه على ما هو عليه الآن وزاد فيه ، وأنشأ به قبة جليلة ، وأقام به عمدا عظيمة نقلها اليه من بلاد الصعيد ورخمه ، ونصب في صدره سرير الملك ، وعمله من العاج والآبنوس ، ورفع سمك هذا الايوان ، وعمل أمامه رحبة فسيحة مستطيلة .

وجعل بالايوان باب سر من داخل القصر ، وعمل باب الايوان مسبوكا من حديد بصناعة بديعة تمنع الداخل اليه ، وله منه باب يغلق ، فاذا أراد أن يجلس فتح حتى ينظر منه ومن تخاريم الحديد بقية العسكر الواقفين بساحة الايوان . وقرر للجلوس فيه بنفسه يوم الاثنين ويوم الخميس ، فاستمر الأمر على ذلك .

وكان أولا دون ما هو اليوم . فوسع في قبته ، وزاد في ارتفاعه ، وجعل قدامه دركاه كبيرة ، فجاء من أعظم المباني الملوكية .

وأول ما جلس فيه عند انتهاء عمل الروك ، بعد ما رسم لنقيب الجيش أن يستدعي سائر الأجناد . فلما تكامل حضورهم * جلس ، وعين أن يحضر في كل يوم مقدما ألوف بمضافيهما . فكان المقدم يقف بمضافيه ، ويستدعي بمضافيه من تقدمته على قدر منازلهم . فيتقدم الجندي الى السلطان فيسأله : أنت ابن من ومملوك من ؟ ثم يعطيه مثالا . واستمر على ذلك من مستهل المحرم سنة خمس عشرة وسبعمائة الى مستهل صفر منها .

وما برح بعد ذلك يواظب على الجلوس به في يومي الاثنين والخميس ، وعنده أمراء الدولة والقضاة والوزير وكاتب السر وناظر الجيش وناظر الخاص وكتاب الدست ، وتقف الأجناد بين يديه على قدر أقدارهم .

فلما مات الملك الناصر ، اقتدى به في ذلك أولاده من بعده ، واستمروا على الجلوس بالايوان . الى أن استبد بمملكة مصر الملك الظاهر برقوق ، فالتزم ذلك أيضا الا أنه صار يجلس فيه اذا طلعت الشمس جلوسا يسيرا يقرأ عليه فيه بعض قصص لا لمعنى سوى اقامة رسوم المملكة فقط .

وكان من قبله من ملوك بني قلاوون انما يجلسون بالايوان سحرا على الشمع ، وكان موضع جلوس السلطان في الايوان للنظر في المظالم . فأعرض الملك الظاهر عن ذلك ، وجعل لنفسه يومين يجلس فيهما بالاصطبل السلطاني للحكم بين الناس — كما سيأتي ذكره عن قريب ان شاء الله تعالى — وصار الايوان في أيام الظاهر برقوق ، وأيام ابنه الملك الناصر فرج وأيام الملك المؤيد شيخ ، انما هو شيء من بقايا الرسوم الملوكية لا غير .

(*) ص ٢٠٦ ج ٢ ، ط بولاق .

ذكر النظر فى المظالم

اعلم أن النظر فى المظالم عبارة عن قود المتظالمين الى التناصف بالرهبة ، وزجر المتنازعين عن التجاحد بالهيبة .

وكان من شروط الناظر في المظالم أن يكون جليل القدر ، نافذ الأمر ، عظيم الهيبة ، ظاهر العفة ، قليل الطمع ، كثير الورع . لأنه يحتاج فى نظره الى سطوة الحماة وتثبت القضاة ، فيحتاج الى الجمع بين صفتى الفريقين ، وأن يكون بجلالة القدر نافذ الأمر فى الجهتين .

وهى خطة حدثت لفساد الناس ، وهى كلُّ حكم يعجز عنه القاضى فينظر فيه من هو أقوى منه يدا .

وأول من نظر فى المظالم من الخلفاء أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه . وأول من أفرد للظلامات يوما يتصفح فيه قصص المتظلمين ، من غير مباشرة النظر ، عبد الملك بن مروان . فكان اذا وقف منها على مشكل ، واحتاج فيها الى حكم ، ينفذ رده الى قاضيه ابن ادريس الأزدى فينفذ فيه أحكامه . وكان ابن ادريس هو المباشر ، وعبد الملك الآمر . ثم زاد الجور فكان عمر بن عبد العزيز رحمه الله أول من ندب نفسه للنظر فى المظالم فردها .

ثم جلس لها خلفاء بنى العباس . وأول من جلس منهم المهدى محمد ، ثم الهادى موسى ، ثم الرشيد هارون ، ثم المأمون عبد الله ، وآخر من جلس منهم المهتدى بالله محمد بن الواثق .

وأولُ من أعلم أنه جلس بمصر من الأمراء للنظر فى المظالم الأمير أبو العباس أحمد بن طولون ، فكان يجلس لذلك يومين فى الأسبوع . فلما مات ، وقام من بعده ابنه أبو الجيش خمارويه ، جعل على المظالم بمصر محمد بن عبيدة بن حرب فى شعبان سنة ثلاث وسبعين ومائتين .

ثم جلس لذلك الأستاذ أبو المسك كافور الاخشيدى ، وابتدأ ذلك فى سنة أربعين وثلثمائة — وهو يومئذ خليفة الأمير أبى القاسم أونوجور بن الاخشيد — فعقد مجلسا صار يجلس فيه كل يوم سبت ، ويحضر عنده الوزير أبو الفضل جعفر بن الفضل بن الفرات وسائر القضاة والفقهاء والشهود ووجوه البلد . وما برح على ذلك مدة أيامه بمصر الى أن مات ، فلم ينتظم أمر مصر بعده .

الى أن قدم القائد أبو الحسين جوهر بجيوش المعز لدين الله أبى تميم معد ، فكان يجلس للنظر فى المظالم ، ويوقع على رقاع المتظلمين .

فمن توقيعاته بخطه على قصة رفعت اليه : « سوء الاجترام أوقع بكم طول الانتقام ، وكفر الانعام أخرجكم من حفظ الذمام . فالواجب فيكم ترك الايجاب ، واللازم لكم ملازمة الاجتناب ، لأنكم بدأتم فأسأتم ، وعدتم فتعديتم . فابتداؤكم ملوم ، وعودكم مذموم ، وليس بينهما فرجة تقتضى الا الذم لكم ، والاعراض عنكم ، ليرى أمير المؤمنين رأيه فيكم » .

ولما قدم المعز لدين الله الى مصر ، وصارت دار خلافة ، استقر النظر فى المظالم مدة يضاف الى قاضى القضاة ، وتارة ينفرد بالنظر فيه أحد عظماء الدولة . فلما ضعف جانب المستنصر بالله أبى تميم معد بن الظاهر ، وكانت الشدة العظمى بمصر ، قدم أمير الجيوش بدر الجمالى الى القاهرة وولى الوزارة . فصار أمر الدولة كله راجعا اليه ، واقتدى به من بعده من الوزراء .

وكان الرسم فى ذلك أن الوزير صاحب السيف يجلس للمظالم بنفسه ، ويجلس قبالته قاضى القضاة وبجانبه شاهدان معتبران ، ويجلس بجانب الوزير الموقع بالقلم الدقيق ، ويليه صاحب ديوان المال ، ويقف بين يدى الوزير صاحب الباب واسفهسلار العساكر ، وبين أيديهما الحجاب والنواب على طبقاتهم ، ويكون هذا الجلوس يومين فى الأسبوع .

وآخر من تقلد المظالم فى الدولة الفاطمية ، زريك ابن الوزير الأجل الملك * الصالح طلائع ابن رزيك فى وزارة أبيه ، وكتب له سجل عن الخليفة منه : « وقد قلدك أمير المؤمنين النظر فى المظالم ، وانصاف المظلوم من الظالم » .

وكانت الدولة اذا خلت من وزير صاحب سيف ، جلس للنظر فى المظالم صاحب الباب فى باب الذهب من القصر ، وبين يديه الحجاب والنقباء ، وينادى مناد بحضرته : يا أرباب الظلامات . فيحضرون اليه : فمن كانت ظلامته مشافهة أرسلت الى الولاة أو القضاة رسالة بكشفها . ومن تظلم من أهل النواحى التى خارج القاهرة ومصر ، فانه يحضر قصة فيها شرح ظلامته ، فيتسلمها الحاجب منه حتى تجتمع القصص ، فيدفعها الى الموقع بالقلم الدقيق فيوقع عليها . ثم تحمل بعد توقيعه عليها الى الموقع بالقلم الجليل ، فيبسط ما أشار اليه الموقع بالقلم الدقيق . ثم تحمل التواقيع فى خريطة الى ما بين يدى الخليفة فيوقع عليها . ثم تخرج فى خريطتها الى الحاجب ، فيقف على باب القصر ، ويسلم كل توقيع الى صاحبه .

وأول من بنى دار العدل من الملوك السلطان الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى ، رحمة الله تعالى عليه ، بدمشق عندما بلغه تعدى ظلم نواب أسد الدين شيركوه بن شادى الى الرعية ، وظلمهم الناس ، وكثرة شكواهم الى القاضى كمال الدين الشهرزورى وعجزه عن مقاومتهم .

فلما بنيت دار العدل أحضر شيركوه نوابه وقال : ان نور الدين ما أمر ببناء هذه الدار الا بسببى ، والله لئن أحضرت الى دار العدل بسبب أحد منكم لأصلبنه ، فامضوا الى كل من كان بينكم وبينه منازعة فى ملك أو غيره فافصلوا الحال معه ، وأرضوه بكل طريق أمكن ولو أتى على جميع ما بيدى .

فقالوا : ان الناس اذا علموا بذلك اشتطوا فى الطلب .

فقال : لخروج أملاكى عن يدى أسهل على من أن يرانى نور الدين بعين أنى ظالم ، أو يساوى بينى وبين أحد من العامة فى الحكومة .

فخرج أصحابه وعملوا ما أمرهم به من ارضاء أخصامهم ، وأشهدوا عليهم .

(*) ص٢٠٧ ج٢ ، ط . بولاق .

فلما جلس نور الدين بدار العدل فى يومين من الأسبوع ، وحضر عنده القاضى والفقهاء ، أقام مدة لم يحضر أحد يشكو شيركوه . فسأل عن ذلك فعرف بما جرى منه ومن نوابه فقال : الحمد لله الذى جعل أصحابنا ينصفون من أنفسهم قبل حضورهم عندنا .

وجلس أيضا السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ، فى يومى الاثنين والخميس ، لاظهار العدل . ولما تسلطن الملك المعز آيبك التركمانى ، أقام الأمير علاء الدين أيدكين البندقدارى فى نيابة السلطنة بديار مصر . فواظب الجلوس فى المدارس الصالحية بين القصرين ، ومعه نواب دار العدل ، ليرتب الأمور ، وينظر فى المظالم . فنادى باراقة الخمور ، وابطال ما عليها من المقرر .

وكان قد كثر الارجاف بمسير الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز محمد بن الظاهر غازى ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب صاحب الشام ، لأخذ مصر . فلما انهزم الملك الناصر ، واستبد الملك المعز أيبك ، أحدث وزيره من المكوس شيئا كثيرا .

ثم ان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى بنى دار العدل ، وجلس بها للنظر فى المظالم كما تقدم . فلما بنى الايوان الملك الناصر محمد بن قلاوون ، واظب الجلوس يوم الاثنين والخميس فيه ، وصار يفصل فيه الحكومات فى الأحايين اذا أعيى من دونه فصلها .

فلما استبد الملك الظاهر برقوق بالسلطنة ، عقد لنفسه مجلسا بالاصطبل السلطانى من قلعة الجبل ، وجلس فيه يوم الأحد ثامن عشرى شهر رمضان سنة تسع وثمانين وسبعمائة ، وواظب ذلك فى يومى الأحد والأربعاء ، ونظر فى الجليل والحقير . ثم حول ذلك الى يومى الثلاثاء والسبت ، وأضاف اليهما يوم الجمعة بعد العصر ، وما زال على ذلك حتى مات .

فلما ولى ابنه الملك الناصر فرج بعده ، واستبد بأمره جلس للنظر فى المظالم بالاصطبل اقتداء بأبيه ، وصار كاتب السر فتح الدين فتح الله يقرأ القصص عليه ، كما كان يقرأها على أبيه . فانتفع أناس ، وتضرر آخرون بذلك ، وكان الضرر أضعاف النفع .

ثم لما استبد الملك المؤيد شيخ بالمملكة ، جلس أيضا للنظر فى المظالم كما جلسا . والأمر على ذلك مستمر الى وقتنا هذا ، وهو سنة تسع عشرة وثمانمائة .

وقد عرف النظر فى المظالم منذ عهد الدولة التركية بديار مصر والشام يحكم السياسة ، وهو يرجع الى نائب السلطنة وحاجب الحجاب ووالى البلد ومتولى الحرب بالأعمال . وسيرد ان شاء الله تعالى الكلام فى حكم السياسة عن قريب .

ذكر خدمة الايوان المعروف بدار العدل

كانت العادة أن السلطان يجلس بهذا الايوان بكرة الاثنين والخميس طول السنة ،

خلا شهر رمضان فانه لا يجلس فيه هذا المجلس . وجلوسه هذا انما هو للمظالم ، وفيه تكون الخدمة العامة واستحضار رسل الملوك غالبا . فاذا جلس للمظالم ، كان جلوسه على كرسى اذا قعد عليه يكاد تلحق الأرض رجله ، وهو منصوب الى جانب المنبر الذى هو تخت الملك وسرير السلطنة .

وكانت العادة أولا أن يجلس قضاة القضاة من المذاهب الأربعة * عن يمينه ، وأكبرهم الشافعى وهو الذى يلى السلطان ، ثم الى جانب الشافعى الحنفى ، ثم المالكي ، ثم الحنبلى . والى جانب الحنبلى الوكيل عن بيت المال ، ثم الناظر فى الحسبة بالقاهرة .

ويجلس على يسار السلطان كاتب السر ، وقدامه ناظر الجيش ، وجماعة الموقعين المعروفين بكتاب الدست، وموقعى الدست... تكملة حلقة دائرة . فان كان الوزير من أرباب الأقلام كان بين السلطان وكاتب السر ، وان كان الوزير من أرباب السيوف كان واقفا على بعد مع بقية أرباب الوظائف ، وان كان نائب السلطنة فانه يقف مع أرباب الوظائف .

ويقف من وراء السلطان صفان ، عن يمينه ويساره ، من السلاحدارية والجمدارية والخاصكية . ويجلس على بعد بقدر خمسة عشر ذراعا ، عن يمنته ويسرته ، ذوو السن والقدر من أكابر أمراء المئين — ويقال لهم أمراء المشورة — ويليهم من أسفل منهم أكابر الأمراء وأرباب الوظائف ، وهم وقوف وبقية الأمراء وقوف من وراء أمراء المشورة . ويقف خلف هذه الحلقة المحيطة بالسلطان الحجاب والدوادارية ، لاعطاء قصص الناس ، واحضار الرسل وغيرهم من الشكاة وأصحاب الحوائج والضرورات .

فيقرأ كاتب السر وموقعو الدست القصص على السلطان . فان احتاج الى مراجعة القضاة راجعهم فيما يتعلق بالأمور الشرعية والقضايا الدينية . وما كان متعلقا بالعسكر : فان كانت القصص فى أمراء الاقطاعات قرأها ناظر الجيش ، فان احتاج الى مراجعة فى أمر العسكر تحدث مع الحاجب وكاتب الجيش فيه ، وما عدا ذلك يأمر فيه السلطان بما يراه .

وكانت العادة الناصرية أن تكون الخدمة فى هذا الايوان على ما تقدم ذكره فى بكرة يوم الاثنين . وأما بكرة يوم الخميس فان الخدمة على مثل ذلك ... الا أنه لا يتصدى السلطان فيه لسماع القصص ، ولا يحضره أحد من القضاة ولا الموقعين ولا كاتب الجيش ، الا ان عرضت حاجة الى طلب أحد منهم . وهذا القعود عادته طول السنة ما عدا رمضان .

وقد تغير بعد الأيام الناصرية هذا الترتيب ، فصارت قضاة القضاة تجلس عن يمنة السلطان ويسرته . فيجلس الشافعى عن يمينه ، ويليه المالكى ، ويليه قاضى العسكر ، ثم محتسب القاهرة ، ثم مفتى دار العدل الشافعى . ويجلس الحنفى عن يسرة السلطان ، ويليه الحنبلى . وصارت القصص تقرأ ، والقضاة وناظر الجيش يحضرون فى يوم الخميس أيضا .

(*) ص۲۰۸ ، جـ۲ ، ط . بولاق .

وكانت العادة أيضا اذا ولى أحد المملكة من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاوون ، فانه عند ولايته يحضر الأمراء الى داره بالقلعة ، وتفاض عليه الخلعة الخليفية السوداء ومن تحتها فرجية خضراء ، وعمامة سوداء مدورة ، ويقلد بالسيف العربى المذهب .

ويركب فرس النوبة ، ويسير والأمراء بين يديه ، والغاشية قدامه ، والجاويشية تصيح ، والشبابة السلطانية ينفخ بها ، والطبردارية حواليه الى أن يعبر من باب النحاس الى درج هذا الايوان . فينزل عن الفرس ، ويصعد الى التخت فيجلس عليه ، ويقبل الأمراء الأرض بين يديه ، ثم يتقدمون اليه ويقبلون يده على قدر رتبهم ، ثم مقدمو الحلقة .

فاذا فرغوا حضر القضاة والخليفة ، فتفاض التشاريف على الخليفة ، ويجلس مع السلطان على التخت ، ويقلد السلطان المملكة بحضور القضاة والأمراء ، ويشهد عليه بذلك ، ثم ينصرف ومعه القضاة ، فيمد السماط للأمراء . فاذا انقضى أكلهم قام السلطان ودخل المقصورة وانصرف الأمراء .

ومما قيل فى هذا الايوان لما بناه السلطان الملك الناصر :

شرفت ايوانا جلست بصدره
فشرحت بالاحسان منه صدورا

قد كان يستعلى الفراقد رفعة
اذ حاز منك الناصر المنصورا

ملك الزمان ومن رعية ملكه
من عدله لا يظلمون نقيرا

لا زال منصور اللواء مؤيدا
أبد الزمان وضده مقهورا

وقيل أيضا :

ياملكا أطلع من وجهه
ايوانه لما بدا بدرا

أنسيتنا بالعدل كسرى ولن
نرضى لنا جبرا به كسرا

« القصر الأبلق » : هذا القصر يشرف على الاصطبل . أنشأه الملك الناصر محمد بن قلاوون فى شعبان سنة ثلاث عشرة وسبعمائة ، وانتهت عمارته فى سنة أربع عشرة ، وأنشأ بجواره جنينة . ولما كمل عمل فيه سماطا حضره الأمراء وأهل الدولة ، ثم أفيضت عليهم الخلع ، وحمل الى كل أمير من أمراء المئين ومقدمى الألوف ألف دينار ، ولكل من مقدمى الحلقة خمسمائة درهم ، ولكل من أمراء الطبلخاناه عشرة آلاف درهم فضة : عنها خمسمائة دينار . فبلغت * النفقة على هذا المهم خمسمائة ألف ألف درهم .

وكانت العادة أن يجلس السلطان بهذا القصر كل يوم للخدمة ، ما عدا يومى الاثنين والخميس فانه يجلس للخدمة بدار العدل ، كما تقدم ذكره . وكان يخرج الى هذا القصر من القصور الجوانية ، فيجلس تارة على تخت الملك المنصوب بصدر ايوان هذا القصر المطل على الاصطبل ، وتارة يقعد دونه على الأرض والأمراء وقوف على ما تقدم . خلا أمراء المشورة والقرباء من السلطان فانه ليس

(*) ص٢٠٩، جـ٢ ، ط. بولاق .

لهم عادة بحضور هذا المجلس ، ولا يحضر هذا المجلس من الأمراء الكبار الا من دعت الحاجة الى حضوره .

ولا يزال السلطان جالسا الى الثالثة من النهار ، فيقوم ويدخل الى قصوره الجوانية ، ثم الى دار حريمه ونسائه . ثم يخرج فى أخريات النهار الى قصوره الجوانية ، فينظر فى مصالح ملكه . ويعبر اليه الى قصوره الجوانية خاصته من أرباب الوظائف فى الأشغال المتعلقة به على ما تدعو الحاجة اليه ، ويقال لها خدمة القصر .

وهذا القصر تجاه بابه رحبة يسلك اليها من الرحبة التى تجاه الايوان . فيجلس بالرحبة التى على باب القصر خواص الأمراء قبل دخولهم الى خدمة القصر . ويمشى من باب القصر فى دهاليز مفروشة بالرخام ، قد فرش فوقه أنواع البسط ، الى قصر عظيم البناء شاهق فى الهواء بايوانين : أعظمهما الشمالى يطل منه على الاصطبلات السلطانية ، ويمتد النظر الى سوق الخيل والقاهرة وظواهرها الى نحو النيل ، وما يليه من بلاد الجيزة وقراها . وفى الايوان الثانى القبلى باب خاص لخروج السلطان وخواصه منه الى الايوان الكبير أيام الموكب .

ويدخل من هذا القصر الى ثلاثة قصور جوانية : منها واحد مسامت لأرض هذا القصر ، واثنان يصعد اليهما بدرج ، فى جميعها شبابيك حديد تشرف على مثل منظرة القصر الكبير .

وفى هذه القصور كلها مجارى الماء مرفوعا من النيل بدواليب تديرها الأبقار من مقره الى موضع ثم الى آخر ، حتى ينتهى الماء الى القلعة ، ويدخل الى القصور السلطانية والى دور الأمراء الخواص المجاورين للسلطان ، فيجرى الماء فى دورهم ، وتدور به جماماتهم . وهو من عجائب الأعمال لرفعته من الأرض الى السماء قريبا من خمسمائة ذراع من مكان الى مكان ، ويدخل من هذه القصور الى دور الحريم .

وهذه القصور جميعها من ظاهرها مبنية بالحجر الأسود والحجر الأصفر ، موزرة من داخلها بالرخام والفصوص المذهبة المشجرة بالصدف والمعجون وأنواع الملونات ، وسقوفها كلها مذهبة قد موهت باللازورد ، والنور يخرق فى جدرانها بطاقات من الزجاج القبرسى الملون كقطع الجوهر المؤلفة فى العقود . وجميع الأراضى قد فرشت بالرخام المنقول اليها من أقطار الأرض ، مما لا يوجد مثله .

وتشرف الدور السلطانية من بعضها على بساتين وأشجار ، وساحات للحيوانات البديعة والأبقار والأغنام والطيور الدواجن . وسيأتى ان شاء الله تعالى ذكر هذه القصور والبساتين والأحواش مفصلا .

وكان بهذا القصر الأبلق رسوم وعوايد ، تغير كثير منها وبطل معظمها ، وبقيت الى الآن بقايا من شعار المملكة ، ورسوم السلطنة . وسأقص من أنباء ذلك ان شاء الله تعالى ما لا تراه بغير هذا الكتاب مجموعا ، والله يؤتى فضله من يشاء .

« الأسمطة السلطانية » : وكانت العادة أن يمد بالقصر ، فى طرفى النهار من كل يوم ، أسمطة جليلة لعامة الأمراء خلا البرانيين — وقليل ماهم — فبكرة يمد سماط أول لا يأكل منه السلطان ، ثم ثان بعده — يسمى الخاص — قد يأكل منه السلطان وقد لايأكل ، ثم ثالث بعده — ويسمى الطارى — ومنه مأكول السلطان .

وأما فى آخر النهار فيمتد سماطان الأول والثانى المسمى بالخاص ، ثم ان استدعى بطار حضر والا فلا . ما عدا المشوى فانه ليس له عادة محفوظة النظام ، بل هو على حسب ما يرسم به .

وفى كل هذه الأسمطة يؤكل ما عليها ، وينفرق نوالات ، ثم يسقى بعدها الأقسماء المعمولة من السكر والأفاويه المطيبة بماء الورد المبردة .

وكانت العادة أن يبيت فى كل ليلة ، بالقرب من السلطان ، أطباق فيها أنواع من المطجنات والبوادر والقطر والقشطة والجبن المقلى والموز والسكباج ، وأطباق فيها من الأقسماء والماء البارد ، برسم أرباب النوبة فى السهر حول السلطان ، ليتشاغلوا بالمأكول والمشروب عن النوم . ويكون الليل مقسوما بينهم بساعات الرمل ، فاذا انتهت نوبة نبهت التى تليها ، ثم ذهبت هى فنامت الى الصباح ... هكذا أبدا سفرا وحضرا .

وكانت العادة أيضا أن يبيت فى المبيت السلطانى من القصر ، أو المخيم ان كان فى السرحة ، المصاحف الكريمة لقراءة من يقرأ من أرباب النوبة ، ويبيت أيضا الشطرنج ليتشاغل به عن النوم .

وبلغ مصروف السماط ، فى كل يوم عيد الفطر من كل سنة ، خمسين ألف درهم : عنها نحو ألفين وخمسمائة دينار ... تنهبه الغلمان والعامة . وكان يعمل فى سماط الملك الظاهر برقوق فى كل يوم خمسة آلاف رطل من اللحم ، سوى الاوز والدجاج . وكان راتب المؤيد شيخ فى كل يوم لسماطه وداره ثمانمائة رطل من اللحم .

فلما كان فى المحرم سنة ست وعشرين * وثمانمائة ، سأل الملك الأشرف برسباى عن مقدار ما يطبخ له فى كل يوم بكرة وعشيا ، فقيل له ستمائة رطل فى الوجبتين ، فأمر أن يطبخ بين يديه لأنه بلغه أنه يؤخذ مما ذكر لشاد الشرابخاناه ونحوه مائة وعشرون رطلا . فجعل راتب اللحم فى كل يوم — بزيادة أيام الخدمة ونقصان أيام عدم الخدمة — خمسمائة رطل وستة أرطال عن وجبتى الغداء والعشاء ، ومن الدجاج ستة وعشرين طائرا ، ولعمل المامونية وطلين ونصفا من السكر ، وما يعمل برسم الجمدارية فانه بعسل النحل .

ذكر العلامة السلطانية

قد جرت العادة أن السلطان يكتب خطه على كل ما يأمر به . فأما مناشير الأمراء والجند وكل من له اقطاع ، فانه يكتب عليه علامته ، وكتبها الملك الناصر محمد بن قلاوون « الله أملى » ، وعمل ذلك الملوك بعده الى اليوم .

(*) ص ٢١٠ ، جـ ٢ ، ط . بولاق .

وأما تقاليد النواب ، وتواقيع أرباب المناصب من القضاة والوزراء والكتاب وبقية أرباب الوظائف ، وتواقيع أرباب الرواتب والاطلاقات ... فانه يكتب عليها اسمه واسم أبيه ان كان أبوه ملكا . فيكتب مثلا « محمد ابن قلاوون » ، أو « شعبان بن حسين » ، أو « فرج بن برقوق » . وان لم يكن أبوه ممن تسلطن — كبرقوق أو شيخ — فانه يكتب اسمه فقط ، ومثاله « برقوق » أو « شيخ » .

وأما كتب البريد ، وخلاص الحقوق والظلامات ، فانه يكتب أيضا عليها اسمه ، وربما كرم المكتوب اليه ، فكتب اليه « أخوه فلان » أو « والده فلان » ، و « أخوه » يكتب للأكابر من أرباب الرتب .

والذي يعلم عليه السلطان : اما اقطاع ، فالرسم فيه أن يقال «خرج الأمر الشريف» . واما وظائف ورواتب واطلاقات ، فالرسم في ذلك أن يقال «رسم بالأمر الشريف» . وأعلى ما يعلم عليه ما افتتح بخطبة أولها « الحمد لله » ثم ما افتتح بخطبة أولها « أما بعد حمدا لله » ، حتى يأتي على « خرج الأمر » في المناشير أو « رسم بالأمر » في التواقيع ، ثم بعد هذا أنزل الرتب ، وهو أن يفتتح في المناشير « خرج الأمر » وفي التواقيع « رسم بالأمر » .

وتمتاز المناشير المفتتح فيها بالحمد لله أول الخطبة أن تطغر بالسواد ، وتتضمن اسم السلطان وألقابه . وقد بطلت الطغرا في وقتنا هذا .

وكانت العادة أن يطالع نواب المملكة السلطان بما يتجدد عندهم : تارة على أيدي البريدية ، وتارة على أجنحة الحمام . فتعود اليهم الأجوبة السلطانية وعليها العلامة .

فاذا ورد البريدي ، أحضره أمير جاندار — وهو من أمراء الألوف — والدوادار وكاتب السر بين يدي السلطان . فيقبل البريدي الأرض ، ويأخذ الدوادار الكتاب فيمسحه بوجه البريدي ، ثم يناوله للسلطان فيفتحه . ويجلس حينئذ كاتب السر ويقرأه على السلطان سرا ، فان كان أحد من الأمراء حاضرا تنحى حتى يفرغ من القراءة ، ويأمر السلطان فيه بأمر . وان كان الخبر على أجنحة الحمام ، فانه يكتب في ورق صغير خفيف ، ويحمل على الحمام الأزرق .

وكان لحمام الرسائل مراكز كما كان للبريد مراكز ، وكان بين كل مركزين من البريد أميال ، وفي كل مركز عدة خيول — كما بيناه في ذكر الطريق فيما بين مصر والشام — وكانت مراكز الحمام كل مركز منها ثلاثة مراكز من مراكز البريد ، فلا يتعدى الحمام ذلك المركز ، وينقل عند نزوله المركز ما على جناحه الى طائر آخر ، حتى يسقط بقلعة الجبل ، فيحضره البراج ، ويقرأ كاتب السر البطاقة . وكل هذا مما يعلم عليه بالقصر .

ومما كان يحضر الى القصر بالقلعة في كل يوم ورقة الصباح ، يرفعها والى القاهرة ووالى مصر ، وتشتمل على انهاء ما تجدد في كل يوم

وليلة بحارات البلدين وأخطاطهما ، من حريق أو قتل قتيل أو سرقة سارق ونحو ذلك ، ليأمر السلطان فيه بأمره .

« الأشرفية » : هــذا القصر ، المعــروف بالأشرفية ، أنشأه الملك الأشرف خليـــل بن قلاوون فى سنة اثنتين وتسعين وســتمائة . ولما فرغ صنع به مهما عظيما لم يعمل مثله فى الدولة التركية ، وختن أخاه الملك النــاصر محمد بن قلاوون وابن أخيه الأمير موسى بن الصالح على بن قلاوون ، وجمع سائر أرباب الملاهى وجميع الأمراء ، ووقف الخــازندارية بأكياس الذهب .

فلما قام الأمراء من الخاصــكية للرقص ، نثر الخازندارية على كل من قام للرقص حتى فرغ الختان . فأنعم على كل أمير من الأمراء بفرس كامل القماش ، وألبس خلعة عظيمة ، وأنعم على عدة منهم كل واحد بألف دينــار وفرس ، وأنعــم عــلى ثلاثين من الأمــراء الخاصــكية لكل واحد مبلغ خمســة آلاف دينار ، وأنعم على البلبيل المغنى بألف دينار .

وكان الذى عمل فى هذا المهم من الغنــم ثلاثة آلاف رأس ، ومن البقر ستمائة رأس ، ومن الخيل خمسمائة اكديش ، ومن السكر برسم المشروب ألف قنطار وثمانمائة قنطار ، وبرسم الحلوى مائة وستون قنطارا . وبلغت النفقة على هذا المهم ، فى عمــل الســماط والمشروب والأقبية والطراز والسروج وثياب النساء ، مبلغ ثلثمائة ألف دينار عينا .

« البيسرية » : ومن جملة دور القلعة قاعة البيسرية . أنشأها السلطان الملك الناصر حسن ابن محمد بن قلاوون ، وكان ابتداء بنائها * فى أول يوم من شعبان سنة احدى وســتين وسبعمائة ، ونهــاية عمارتها فى ثامن عشرى ذى الحجة من السنة المذكورة . فجاءت من الحسن فى غاية لم ير مثلها ، وعمــل لهــذه القاعة من الفرش والبسط ما لا تدخل قيمته تحت حصر . فمن ذلك تسعة وأربعون ثريا برسم وقود القنــاديل ، جملة ما دخل فيها من الفضة البيضــاء الخالصة المضروبة مائتا ألف وعشرون ألف درهم ، وكلها مطلية بالذهب . وجاء ارتفاع بناء هذه القاعة طولا فى السماء ثمانية وثمانين ذراعا .

وعمل السلطان بها برجا يبيت فيه من العاج والأبنوس مطعم يجلس بين يديه ، وأكتاف وباب يدخل منــه الى أرض كذلك ، وفيــه مقرنص قطعة واحدة يكاد يذهل الناظر اليه : بشبابيــك ذهب خــالص ، وطرازات ذهب مصوغ ، وشرافات ذهب مصــوغ ، وقبــة مصوغة من ذهب ... صرف فيه ثمانية وثلاثون ألف مثقــال من الذهب ، وصرف فى مؤنه وأجره تتمة ألف ألف درهم فضــة : عنهــا خمسون ألف دينار ذهبا . وبصــدر ايوان هذه القاعة شباك حديد ، يقارب باب زويلة ، يطل على جنينة بديعة الشكل .

« الدهيشة » : عمــرها السلطــان الملك الصالح عماد الدين اسماعيل بن محمــد بن قلاوون فى سنة خمس وأربعين وسبعمائة . وذلك أنه بلغه عن الملك المؤيد عماد الدين ، صاحب حماة ، أنه عمر بحماة دهيشة لم ين مثلها . فقصد مضاهاته ، وبعث الأمير أقجبــا

(*) ص ٢١٦ جـ ٢ ، ط . بولاق .

وابجيج المهندس لكشف دهيشة حماة ، وكتب لنائب حلب ونائب دمشق بحمل ألفى حجر بيض وألفى حجر حمر من حلب ودمشق ، وحشرت الجمال لحملها حتى وصلت الى قلعة الجبل . وصرف فى حمولة كل حجر من حلب اثنا عشر درهما ، ومن دمشق ثمانية دراهم .

واستدعى الرخام من سائر الأمراء وجميع الكتاب ، ورسم باحضار الصناع للعمل ، ووقع الشروع فيها حتى تمت فى شهر رمضان منها . وقد بلغ مصروفها خمسمائة ألف درهم ، سوى ما قدم من دمشق وحلب وغيرهما ، وعمل لها من الفرش والبسط والآلات ما يجل وصفه ، وحضر بها سائر الأغانى . وكان مهما عظيما .

« السبع قاعات » : هذه القاعات تشرف على الميدان وباب القرافة . عمرها الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وأسكنها سراريه ، ومات عن ألف ومائتى وصيفة مولدة ، سوى من عداهن من بقية الأجناس .

« الجامع بالقلعة » : هذا الجامع أنشأه السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون فى سنة ثمان عشرة وسبعمائة . وكان قبل ذلك هناك جامع دون هذا ، فهدمه السلطان ، وهدم المطبخ والحوائجخاناه والفراشخاناه ، وعمله جامعا . ثم أخربه فى سنة خمس وثلاثين وسبعمائة ، وبناه هذا البناء .

فلما تم بناؤه جلس فيه ، واستدعى جميع مؤذنى القاهرة ومصر ، وجميع القراء والخطباء ، وعرضوا بين يديه ، وسمع تأذينهم وخطابتهم وقراءتهم . فاختار منهم عشرين مؤذنا رتبهم فيه ، وقرر فيه درس فقه وقارئا يقرأ فى المصحف ، وجعل عليه أوقافا تكفيه وتفيض .

وصار من بعده من الملوك يخرجون أيام الجمع الى هذا الجامع ، ويحضر خاصة الأمراء معه من القصر ، ويجىء باقيهم من باب الجامع . فيصلى السلطان عن يمين المحراب فى مقصورة خاصة به ، ويجلس عنده أكابر خاصته ، ويصلى معه الأمراء خاصتهم وعامتهم خارج المقصورة ، عن يمنتها ويسرتها ، على مراتبهم . فاذا انقضت الصلاة دخل الى قصوره ودور حرمه ، وتفرق كل أحد الى مكانه .

وهذا الجامع متسع الأرجاء ، مرتفع البناء ، مفروش الأرض بالرخام ، مبطن السقوف بالذهب . وبصدره قبة عالية يليها مقصورة ، مستورة هى والرواقات بشبابيك الحديد المحكمة الصنعة ، ويحف صحنه رواقات من جهاته .

« الدار الجديدة » : هذه الدار عند باب سر القلعة المطل على سوق الخيل . عمرها الملك الظاهر بيبرس البندقدارى فى سنة أربع وستين وستمائة ، وعمل بها فى جمادى الأولى منها دعوة للأمراء عند فراغها .

« خزانة الكتب » : وقع بها الحريق يوم الجمعة رابع صفر سنة احدى وتسعين وستمائة . فتلف بها من الكتب ، فى الفقه والحديث والتاريخ وعامة العلوم ، شىء كثير جدا كان من ذخائر الملوك . فانتهبها الغلمان ،

وبيعت أوراقا محرقة ظفر الناس منها بنفائس غريبة ما بين ملاحم وغيرها ، وأخذوها بأبخس الأثمان .

« القاعة الصالحية » : عمرها الملك الصالح نجم الدين أيوب . وكانت سكن الملوك الى أن احترقت فى سادس ذى الحجة سنة أربع وثمانين وستمائة ، واحترق معها الخزانة السلطانية .

« باب النحاس » : هذا الباب من داخل الستارة ، وهو أجل أبواب الدور السلطانية . عمره الناصر محمد بن قلاوون ، وزاد فى سعة دهليزه .

« باب القلة » : عرف بذلك من أجل أنه كان هناك قلة بناها الملك الظاهر بيبرس ، وهدمها الملك المنصور قلاوون فى يوم الأحد عاشر شهر رجب سنة خمس وثمانين وستمائة ، وبنى مكانها قبة فرغت عمارتها فى شوال منها . ثم هدمها الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وجدد باب القلة على ما هو عليه الآن ، وعمل له بابا ثانيا .

« الرفرف » : عمره الملك الأشرف خليل بن قلاوون * ، وجعله عاليا يشرف على الجيزة كلها ، وبيضه ، وصور فيه أمراء الدولة وخواصها ، وعقد عليه قبة على عمد وزخرفها . وكان مجلسا يجلس فيه السلطان ، واستمر جلوس الملوك به ، حتى هدمه الملك الناصر محمد بن قلاوون فى سنة اثنتى عشرة وسبعمائة ، وعمل بجواره برجا بجوار الاصطبل نقل اليه المماليك .

(*) ص ٢١٢ جـ ٢ ، ط . بولاق .

« الجب » : كان بالقلعة جب يحبس فيه الأمراء ، وكان مهولا مظلما كثير الوطاويط كريه الرائحة ، يقاسى المسجون فيه ما هو كالموت أو أشد منه . عمره الملك المنصور قلاوون فى سنة احدى وثمانين وستمائة . فلم يزل الى أن قام الأمير بكتمر الساقى فى أمره ، مع الملك الناصر محمد بن قلاوون ، حتى أخرج من كان فيه من المحابيس ونقلهم الى الأبراج ، وردمه ، وعمر فوق الردم طباقا فى سنة تسع وعشرين وسبعمائة .

« الطبلخاناه تحت القلعة » : ذكر هشام بن الكلبى أن عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، لما قدم الشام ، تلقاه المقلسون من أهل الأديان بالسيوف والريحان . فكره عمر رضى الله عنه النظر اليهم ، وقال : ردوهم .

فقال له أبو عبيدة بن الجراح رضى الله عنه : انها سنة الأعاجم ، فان منعتهم ظنوا أنه نقض لعهدهم .

فقال عمر رضى الله عنه : دعوهم .

والتقليس الضرب بالطبل أو الدف .

وهذه الطبلخاناه الموجودة الآن تحت القلعة فيما بين باب السلسلة وباب المدرج ، كانت دار العدل القديمة التى عمرها الملك الظاهر بيبرس وتقدم خبرها .

فلما كانت سنة اثنتين وعشرين وسبعمائة ، هدمها الناصر محمد بن قلاوون ، وبناها هذه الطبلخاناه الموجودة الآن تحت قلعة الجبل ، فيما بين باب السلسلة وباب المدرج ، وصار ينزل الى عمارتها كل قليل .

وتولى شد العمارة بها آق سنقر ، شاد العمائر ، ووجد فى أساسها أربعة قبور كبار المقدار ، عليها قطع رخام منقوش عليها أسماء المقبورين وتاريخ وفاتهم . فنبشوا ونقلوا قريبا من القلعة ، فكانوا خلقا كبيرا عظيما فى الطول والعرض ، على بعضهم ملاءة دبيقية ملونة ساعة مستها الأيدى تمزقت وتطايرت هباء . وفيهم اثنان عليهما آلة الحرب وعدة الجهاد ، وبهما آثار الدماء والجراحات ، وفى وجه أحدهما ضربة سيف بين عينيه ، والجرح مسدود بقطنة . فلما أمسكت القطنة ، ورفعت عن الجرح فوق الحاجب ، نبع من تحتها دم يظن أنه جرح طرى . فكان فى ذلك موعظة وذكرى .

وكانت الطبلخاناه ساحة بغير سقف . فلما ولى الأمير سودون طاز أميراخور ، وسكن الاصطبل السلطانى ، عمر هذه الطباق فوق الطباق . وكان الغرض من عمارتها صحيحا ، فان المدرسة الأشرفية كانت حينئذ قائمة تجاه الطبلخاناة . ولما كان زمان الفتن بين أمراء الدولة ، تحصن فوقها طائفة ليرموا على الاصطبل والقلعة ، فأراد ببناء هذه الطباق فوق الطباق أن يجعل بها رماة حتى لا يقدر أحد يقيم فوق المدرسة الأشرفية . وقد بطل ذلك ، فان الملك الناصر فرج بن برقوق هدم المدرسة الأشرفية ، كما ذكر فى هذا الكتاب عند ذكر المدارس .

« الطباق بساحة الايوان » : عمرها الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وأسكنها المماليك السلطانية ، وعمر حارة تختص بهم .

وكانت الملوك تعنى بها غاية العناية . حتى ان الملك المنصور قلاوون كان يخرج فى غالب أوقاته الى الرحبة عند استحقاق حضور الطعام للمماليك ، ويأمر بعرضه عليه ، ويتفقد لحمهم ، ويختبر طعامهم فى جودته ورداءته . فمتى رأى فيه عيبا ، اشتد على المشرف والأستادار ، ونهرهما ، وحل بهما منه أى مكروه .

وكان يقول : كل الملوك عملوا شيئا يذكرون به ما بين مال وعقار ، وأنا عمرت أسوارا ، وعملت حصونا مانعة لى ولأولادى وللمسلمين وهم المماليك .

وكانت المماليك أبدا تقيم بهذه الطباق لا تبرح فيها . فلما تسلطن الملك الأشرف خليل ابن قلاوون ، سمح للمماليك أن ينزلوا من القلعة فى النهار ولا يبيتوا الا بها ، فكان لا يقدر أحد منهم أن يبيت بغيرها . ثم ان الملك الناصر محمد بن قلاوون سمح لهم بالنزول الى الحمام يوما فى الأسبوع ، فكانوا ينزلون بالنوبة مع الخدام ، ثم يعودون آخر نهارهم . ولم يزل هذا حالهم الى أن انقرضت أيام بنى قلاوون .

وكانت للمماليك بهذه الطباق عادات جميلة : أولها أنه اذا قدم بالمملوك تاجره عرضه على السلطان ، ونزله فى طبقة جنسه ، وسلمه لطواشى برسم الكتابة . فأول ما يبدأ به تعليمه ما يحتاج اليه من القرآن الكريم . وكانت كل طائفة لها فقيه يحضر اليها كل يوم ، ويأخذ فى تعليمها كتاب الله تعالى ومعرفة الخط ، والتمرن بآداب الشريعة ، وملازمة الصلوات والأذكار .

وكان الرسم اذ ذاك ألا تجلب التجار الا المماليك الصغار . فاذا شب الواحد من المماليك ، علمه الفقيه شيئا من الفقه ، وأقرأه فيه مقدمة . فاذا صار الى سن البلوغ ، أخذ فى تعليمه أنواع الحرب من رمى السهام ، ولعب الرمح ، ونحو ذلك . فيتسلم كل طائفة معلم حتى يبلغ الغاية فى معرفة ما يحتاج اليه . واذا ركبوا الى لعب الرمح ، أو رمى النشاب ، لا يجسر جندى ولا أمير أن يحدثهم أو يدنو منهم .

فينقل اذن الى الخدمة ، ويتنقل فى أطوارها رتبة بعد رتبة الى أن يصير من الأمراء . فلا يبلغ هذه الرتبة الا وقد تهذبت أخلاقه ، وكثرت * آدابه ، وامتزج تعظيم الاسلام وأهله بقلبه ، واشتد ساعده فى رماية النشاب وحسن لعبه بالرمح ، ومرن على ركوب الخيل . ومنهم من يصير فى رتبة فقيه عارف ، أو أديب شاعر ، أو حاسب ماهر .

هذا ، ولهم أزمة من الخدام ، وأكابر من رؤوس النوب : يفحصون عن حال الواحد منهم الفحص الشافى ، ويؤاخذونه أشد المؤاخذة ، ويناقشونه على حركاته وسكناته . فان عثر أحد من مؤدبيه الذى يعلمه القرآن ، أو الطواشى الذى هو مسلم اليه ، أو رأس النوبة الذى هو حاكم عليه ، على أنه اقترف ذنبا أو أخل برسم ، أو ترك أدبا من آداب الدين أو الدنيا ... قابله على ذلك بعقوبة مؤلمة شديدة بقدر جرمه ..

(*) ص ٢١٣ ج ٣ ، ط . بولاق .

وبلغ من تأديبهم أن مقدم المماليك كان اذا أتاه بعض مقدمى الطباق فى السحر يشاور على مملوك أنه يغتسل من جنابة ، فيبعث من يكشف عن سبب جنابته : ان كان من احتلام ، فينظر فى سراويله هل فيه جنابة أم لا ، فان لم يجد به جنابة جاءه الموت من كل مكان .

فلذلك كانوا سادة يدبرون الممالك ، وقادة يجاهدون فى سبيل الله ، وأهل سياسة يبالغون فى اظهار الجميل ، ويردعون من جار أو تعدى . وكانت لهم الادرارات الكثيرة من اللحوم والأطعمة والحلاوات والفواكه والكسوات الفاخرة ، والمعاليم من الذهب والفضة ... بحيث تتسع أحوال غلمانهم ، ويفيض عطاؤهم على من قصدهم .

ثم لما كانت أيام الظاهر برقوق ، راعى الحال فى ذلك بعض الشىء الى أن زالت دولته فى سنة احدى وتسعين وسبعمائة . فلما عاد الى المملكة ، رخص للمماليك فى سكنى القاهرة وفى التزوج . فنزلوا من الطباق من القلعة ، ونكحوا نساء أهل المدينة ، وأخلدوا الى البطالة ، ونسوا تلك العوايد .

ثم تلاشت الأحوال فى أيام الناصر فرج بن برقوق ، وانقطعت الرواتب من اللحوم وغيرها ، حتى عن مماليك الطباق مع قلة عددهم ، ورتب لكل واحد منهم فى اليوم مبلغ عشرة دراهم من الفلوس . فصار غذاؤهم فى الغالب الفول المصلوق عجزا عن شراء اللحم وغيره .

هذا ، وبقى الجلب من المماليك انما هم الرجال الذين كانوا فى بلادهم ما بين ملاح

سفينة ، ووقاد فى تنور خباز ، ومحول ماء فى غيط أشجار ونحو ذلك . واستقر رأى الناصر على أن تسليم المماليك للفقيه يتلفهم ، بل يتركون وشئونهم .

فبدلت الأرض غير الأرض ، وصارت المماليك السلطانية أرذل الناس وأدناهم ، وأخسهم قدرا وأشحهم نفسا ، وأجهلهم بأمر الدنيا وأكثرهم اعراضا عن الدين . ما فيهم الا من هو أزنى من قرد ، وألص من فأرة ، وأفسد من ذئب ... لا جرم أن خربت أرض مصر والشام — من حيث يصب النيل الى مجرى الفرات — بسوء ابالة الحكام ، وشدة عبث الولاة ، وسوء تصرف أولى الأمر . حتى انه ما من شهر الا ويظهر من الخلل العام ما لا يتدارك فرطه .

وبلغت عدة المماليك السلطانية فى أيام الملك المنصور قلاوون ستة آلاف وسبعمائة . فأراد ابنه الأشرف خليل تكميل عدتها عشرة آلاف مملوك ، وجعلهم طوائف : فأفرد طائفتى الأرمن والجركس ، وسماها البرجية لأنه أسكنها فى أبراج بالقلعة ، فبلغت عدتهم ثلاثة آلاف وسبعمائة . وأفرد جنس الخطا والقبجاق ، وأنزلهم بقاعة عرفت بالذهبية والزمرذية ، وجعل منهم جمدارية وسقاة وسماهم خاصكية ، وعمل البرجية سلاحدارية وجمقدارية وجاشنكيرية وأوشاقية .

ثم شغف الملك الناصر محمد بن قلاوون بجلب المماليك من بلاد أزبك وبلاد توريز وبلاد الروم وبغداد ، وبعث فى طلبهم ، وبذل الرغائب للتجار فى حملهم اليه ، ودفع فيهم الأموال العظيمة ، ثم أفاض على من يشتريه منهم أنواع العطاء من عامة الأصناف دفعة واحدة فى يوم واحد ، ولم يراع عادة أبيه ومن كان قبله من الملوك فى تنقل المماليك فى أطوار الخدم حتى يتدرب ويتمرن كما تقدم ، وفى تدريجه من ثلاثة دنانير فى الشهر الى عشرة دنانير ، ثم نقله من الجامكية الى وظيفة من وظائف الخدمة ... بل اقتضى رأيه أن يملأ أعينهم بالعطاء الكثير دفعة واحدة .

فأتاه من المماليك شىء كثير رغبة فيما لديه ، حتى كان الأب يبيع ابنه للتاجر الذى يجلبه الى مصر . وبلغ ثمن المملوك فى أيامه الى مائة ألف درهم فما دونها ، وبلغت نفقات المماليك فى كل شهر الى سبعين ألف درهم ، ثم تزايدت حتى صارت فى سنة ثمان وأربعين وسبعمائة مائتين وعشرين ألف درهم .

« دار النيابة » : كان بقلعة الجبل دار نيابة بناها الملك المنصور قلاوون فى سنة سبع وثمانين وستمائة ، سكنها الأمير حسام الدين طرنطاى ومن بعده من نواب السلطنة . وكانت النواب تجلس بشباكها ، حتى هدمها الملك الناصر محمد بن قلاوون فى سنة سبع وثلاثين وسبعمائة ، وأبطل النيابة ، وأبطل الوزارة أيضا . فصار موضع دار النيابة ساحة .

فلما مات الملك الناصر ، أعاد الأمير قوصون دار النيابة عند استقراره فى نيابة السلطنة ، فلم تكمل حتى قبض عليه . فولى نيابة السلطنة الأمير طشتمر حمص أخضر ، وقبض عليه . فتولى بعده نيابة السلطنة الأمير شمس

الدين آق سنقر ، فى أيام الملك الصالح اسماعيل ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون ، فجلس بها فى يوم السبت أول صفر سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة * فى شباك دار النيابة . وهو أول من جلس بها من النواب بعد تجديدها ، وتوارثها النواب بعده .

وكانت العادة أن يركب جيوش مصر يومى الأثنين والخميس فى الموكب تحت القلعة ، فيسيرون هناك من رأس الصوة الى باب القرافة ، ثم تقف العسكر مع نائب السلطنة ، وينادى على الخيل بينهم ، وربما نودى على كثير من آلات الجند والخيم والجركاوات والأسلحة ، وربما نودى على كثير من العقار . ثم يطلعون الى الخدمة السلطانية بالايوان بالقلعة على ما تقدم ذكره .

فاذا مثل النائب فى حضرة السلطان ، وقف فى ركن الايوان الى أن تنقضى الخدمة . فيخرج الى دار النيابة والأمراء معه ، ويمد السماط بين يديه كما يمد سماط السلطان ، ويجلس جلوسا عاما للناس ، وتحضره أرباب الوظائف ، وتقف قدامه الحجاب ، وتقرأ القصص ، وتقدم اليه الشكاة ، ويفصل أمورهم . فكان السلطان يكتفى بالنائب ، ولا يتصدى لقراءة القصص عليه وسماع الشكوى ، تعويلا منه على قيام النائب بهذا الأمر .

واذا قرئت القصص على النائب نظر : فان كان مرسومه يكفى فيها أصدره عنه ، وما لا يكفى فيه الا مرسوم السلطان ، أمر بكتابته عن السلطان وأصدره ، فيكتب ذلك ، وينبه فيه على انه باشارة النائب ، ويميز عن نواب السلطان بالممالك الشامية بأن يعبر عنه «بكافل المملكة الشريفة الاسلامية » .

وما كان من الأمور التى لابد له من احاطة علم السلطان بها ، فانه اما أن يعلمه بذلك منه اليه وقت الاجتماع به ، أو يرسل الى السلطان من يعلمه به ويأخذ رأيه فيه .

وكان ديوان الاقطاع — وهو الجيش — فى زمان النيابة ليس لهم خدمة الا عند النائب ، ولا اجتماع الا به ، ولا يجتمع ناظر الجيش بالسلطان فى أمر من الأمور .

فلما أبطل الملك الناصر محمد بن قلاوون النيابة ، صار ناظر الجيش يجتمع بالسلطان ، واستمر ذلك بعد اعادة النيابة . وكان الوزير وكاتب السر يراجعان النائب فى بعض الأمور دون بعض . ثم اضمحلت نيابة السلطنة فى أيام الناصر محمد بن قلاوون ، وتلاشت أوضاعها .

فلما مات أعيدت بعده ، ولم تزل الى أثناء أيام الظاهر برقوق . وآخر من وليها على أكثر قوانينها الأمير سودون الشيخى ، وبعده لم يل النيابة أحد فى الأيام الظاهرية . ثم ان الناصر فرج بن برقوق أقام الأمير تمراز فى نيابة السلطنة ، فلم يسكن دار النيابة فى القلعة ، ولا خرج عما يعرفه من حال حاجب الحجاب . ولم يل النيابة بعد تمراز أحد الى يومنا هذا .

وكانت حقيقة النائب أنه السلطان الثانى ، وكانت سائر نواب الممالك الشامية وغيرها تكاتبه فى غالب ما تكاتب فيه السلطان ،

(*) ص٢١٤ ج٢ ، ط. بولاق .

ويراجعونه فيه كما يراجع السلطان . وكان يستخدم الجند ، ويخرج الاقطاعات من غير مشاورة ، ويعين الامرة لكن بمشاورة السلطان .

وكان النائب هو المتصرف المطلق التصرف في كل أمر : فيراجع في الجيش والمال والخبر ، وهو البريد ، وكل ذى وظيفة لا يتصرف الا بأمره ، ولا يفصل أمرا معضلا الا بمراجعته . وهو الذى يستخدم الجند ، ويرتب في الوظائف ، الا ما كان منها جليلا — كالوزارة ، والقضاء ، وكتابة السر ، والجيش — فانه يعرض على السلطان من يصلح . وكان قل ألا يجاب في شيء يعينه .

وكان من عدا نائب السلطنة بديار مصر يليه في رتبة النيابة . وكل نواب الممالك تخاطب بملك الأمراء ، الا نائب السلطنة بمصر فانه يسمى « كافل الممالك » تمييزا له ، وابانة عن عظيم محله . وبالحقيقة ما كان يستحق اسم نيابة السلطنة ، بعد النائب بمصر ، سوى نائب الشام بدمشق فقط . وانما كانت النيابة تطلق أيضا على أكابر نواب الشام ، وليس لأحد منهم من التصرف ما كان لنائب دمشق . الا أن نيابة السلطنة بحلب تلي رتبة نيابة السلطنة بدمشق .

وقد اختلت الآن الرسوم ، واتضعت الرتب ، وتلاشت الأحوال ، وعادت أسماء لا معنى لها ، وخيالات حاصلها عدم . والله يفعل ما يشاء .

ذكر جيوش الدولة التركية وزيها وعوايدها

اعلم أنه قد كان بقلعة الجبل مكان معد لديوان الجيش ، وأدركت منه بقية الى أثناء دولة الظاهر برقوق . وكان ناظر الجيش وسائر كتاب الجيش لا يبرحون في أيام الخدمة نهارهم مقيمين بديوان الجيش ، وكانت لهذا الديوان عوايد قد تغير أكثرها ، ونسي غالب رسومه .

وكانت جيوش الدولة التركية بديار مصر على قسمين : منهم من هو بحضرة السلطان ، ومنهم من هو في أقطار المملكة وبلادها ، وسكان بادية كالعرب والتركمان . وجندها مختلط من أتراك وجركس وروم وأكراد وتركمان ، وغالبهم من المماليك المبتاعين .

وهم طبقات : أكابرهم من له امرة مائة فارس وتقدمة ألف فارس ، ومن هذا القبيل تكون أكابر النواب ، وربما زاد بعضهم بالعشرة فوارس والعشرين .

ثم أمراء الطبلخاناه ، ومعظمهم من تكون له امرة أربعين فارسا ، وقد يوجد فيهم من له أزيد من ذلك الى السبعين ، ولا تكون الطبلخاناه لأقل من أربعين .

ثم أمراء العشراوات ممن تكون له امرة عشرة ، وربما كان فيهم من له عشرون فارسا ، ولا يعدون * في أمراء العشراوات .

ثم جند الحلقة ، وهؤلاء تكون مناشيرهم من السلطان ، كما أن مناشير الأمراء من

(*) ص٢١٥ جـ٢ ، ط. بولاق .

السلطان ، وأما أجناد الأمراء فمناشيرهم من أمرائهم .

وكان منشور الأمير يعين فيه للأمير ثلث الاقطاع ولأجناده الثلثان ، فلا يمكن الأمير ولا مباشروه أن يشاركوا أحدا من الأجناد فيما يخصهم الا برضاهم .

وكان الأمير لا يخرج أحدا من أجناده حتى يتبين للنائب موجب يقتضى اخراجه . فحينئذ يخرجه نائب السلطان ، ويقيم عند الأمير عوضه . وكان لكل أربعين جنديا من جند الحلقة مقدم عليهم ، ليس له عليهم حكم الا اذا خرج العسكر لقتال ، فكانت مواقف الأربعين مع مقدمهم ، وترتيبهم فى موقفهم اليه .

ويبلغ بمصر اقطاع بعض أكابر أمراء المئين ، المقدمين من السلطان ، مائتى ألف دينار جيشية ، وربما زاد على ذلك . وأما غيرهم فدون ذلك يعبر أقلها الى ثمانين ألف دينار وما حولها .

وأما الطبلخاناه فمن ثلاثين ألف دينار الى ثلاثة وعشرين ألف دينار .

وأما العشراوات فأعلاها سبعة آلاف دينار الى ما دونها .

وأما اقطاعات أجناد الحلقة فأعلاها ألف وخمسمائة دينار ، وهذا القدر وما حوله اقطاعات أعيان مقدمى الحلقة ، ثم بعد ذلك الأجناد بابات ، حتى يكون أدناهم مائتين وخمسين دينارا . وسيرد تفصيل ذلك ان شاء الله تعالى .

وأما اقطاعات جند الأمراء فانها على مايراه الأمير من زيادة بينهم ونقص .

وأما اقطاعات الشام فانها لا تقارب هذا ، بل تكون على الثلثين مما ذكرنا . ما خلا نائب السلطنة بدمشق ، فانه يقارب اقطاعه على اقطاعات أكابر أمراء مصر المقربين . وجميع جند الأمراء تعرض بديوان الجيش ، ويثبت اسم الجندى وحليته ، ولا يستبدل أميره به غيره الا بتنزيل من عوض به وعرضه .

وكانت للأمراء على السلطان فى كل سنة ملابس ينعم بها عليهم ، ولهم فى ذلك حظ وافر . وينعم على أمراء المئين بخيول مسرجة ملجمة ، ومن عداهم بخيول عرى ، ويميز خاصتهم على عامتهم . وكان لجميع الأمراء — من المئين ، والطبلخاناه ، والعشراوات — على السلطان الرواتب الجارية فى كل يوم من اللحم وتوابله كلها ، والخبز ، والشعير لعليق الخيل ، والزيت . ولبعضهم الشمع والسكر والكسوة فى كل سنة . وكذلك لجميع مماليك السلطان ، وذوى الوظائف من الجند .

وكانت العادة اذا نشأ لأحد الأمراء ولد أطلق له دنانير ولحم وخبز وعليق حتى يتأهل للاقطاع فى جملة الحلقة ، ثم منهم من ينتقل الى امرة عشرة ، أو الى امرة طبلخاناه بحسب الحظ .

واتفق للأميرين طرنطاى وكتبغا أن كلا منهما زوج ولده بابنة الآخر ، وعمل لذلك المهم العظيم . ثم سأل الأمير طرنطاى — وهو اذ ذاك نائب السلطان — الأمير بيلبك الأيدمرى والأمير طيبرس ، أن يسألا السلطان

الملك المنصور قلاوون فى الانعام على ولده وولد الأمير كتبغا باقطاعين فى الحلقة .

فقال لهما : والله لو رأيتهما فى مصاف القتال يضربان بالسيف ، أو كانا فى زحفه قدامى ، أستقبح أن أعطى لهما أخبازا فى الحلقة ، خشية أن يقال أعطى الصبيان الأخباز . ولم يجب سؤالهما هذا ، وهم من قد عرفت .

لكن كان الملك العادل نور الدين محمود ابن زنكى رحمه الله اذا مات الجندى أعطى اقطاعه لولده ، فان كان صغيرا رتب معه من يلى أمره حتى يكبر . فكان أجناده يقولون : الاقطاعات أملاكنا ، يرثها أولادنا الولد عن الوالد ، فنحن نقاتل عليها . وبه اقتدى كثير من ملوك مصر فى ذلك .

وللأمراء المقدمين حوائص ذهب فى وقت الركوب الى الميدان ، ولكل أمير من الخواص على السلطان مرتب من السكر والحلوى فى شهر رمضان ، ولسائرهم الأضحية فى عيد الأضحى على مقادير رتبهم ، ولهم البرسيم لتربيع دوابهم ، ويكون فى تلك المدة بدل العليق المرتب لهم .

وكانت الخيول السلطانية تفرق على الأمراء مرتين فى كل سنة : مرة عندما يخرج السلطان الى مرابط خيوله فى الربيع عند اكتمال تربيعها ، ومرة عند لعبه بالأكرة فى الميدان .

ولخاصة السلطان المقربين زيادة كثيرة من ذلك ، بحيث يصل الى بعضهم فى السنة مائة فرس . ويفرق السلطان أيضا الخيول على المماليك السلطانية فى أوقات أخر ، وربما يعطى بعض مقدمى الحلقة ، ومن نفق له فرس من المماليك ، يحضر من لحمه والشهادة بأنه نفق ، فيعطى بدله .

ولخاصة السلطان المقربين انعام من الانعامات ، كالعقارات ، والأبنية الضخمة التى ربما أنفق على بعضها زيادة على مائة ألف دينار . ووقع هذا فى الأيام الناصرية مرارا ، كما ذكر عند ذكر الدور من هذا الكتاب .

ولهم أيضا كساوى القماش المنوع ، ولهم عند سفرهم الى الصيد وغيره العلوفات والانزال . وكانت لهم آداب لا يخلون بها : منها أنهم اذا دخلوا الى الخدمة بالايوان أو القصر وقف كل أمير فى مكانه المعروف به ، ولا يجسر أحد منهم ولا من المماليك أن يحدث رفيقه فى الخدمة ولا بكلمة واحدة ، ولا يلتفت الى نحوه أيضا ، ولا يجسر أحد منهم ، ولا من المماليك ، أن يجتمع بصاحبه فى نزهة ولا فى رمى النشاب ولا غير ذلك ، ومن بلغ السلطان عنه أنه اجتمع بآخر نفاه أو قبض عليه .

واختلف زى الأمراء والعساكر فى الدولة * التركية . وقد بينا ما كان عليه زيهم حتى غيره الملك المنصور قلاوون ، عند ذكر سوق الشرابشيين ، وصار زيهم اذا دخلوا الى الخدمة بالأقبية التترية والكلاوات فوقها ، ثم القباء الاسلامى فوقها ، وعليه تشد المنطقة والسيف .

(*) ص٢١٦ جـ٢ ، ط. بولاق .

ويتميز الأمراء والمقدمون وأعيان الجند بلبس أقبية قصيرة الأكمام فوق ذلك ، وتكون أكمامها أقصر من القباء التحتانى ، بلا تفاوت كبير فى قصر الكم والطول ، وعلى رؤوسهم كلهم كلوتات صغار غالبها من الصوف الملطى الأحمر ، وتضرب ويلف فوقها عمائم صغار .

ثم زادوا فى قدر الكلوتات وما يلف فوقها فى أيام الأمير يلبغا الخاصكى ، القائم بدولة الأشرف شعبان بن حسين ، وعرفت بالكلوتات الطرخانية ، وصاروا يسمون تلك الصغيرة ناصرية .

فلما كانت أيام الظاهر برقوق ، بالغوا فى كبر الكلوتات ، وعملوا فى شدتها عوجا ، وقيل لها كلوتات جركسية . وهم على ذلك الى اليوم .

ومن زيهم لبس المهماز على الأخفاف ، ويعمل المنديل فى الحياصة على الصولق من الجانب الأيمن ، ومعظم حوائص المماليك فضة ، وفيهم من كان يعملها من الذهب ، وربما عملت باليشم .

وكانت حوائص أمراء المئين الأكابر ، التى تخرج اليهم مع الخلع السلطانية من خزانة الخاص ، يرصع ذهبها بالجواهر .

وكان معظم العسكر يلبس الطرز ، ولا يكفت مهمازه بالذهب ، ولا يلبس الطراز الا من له اقطاع فى الحلقة . وأما من هو بالجامكية أو من أجناد الأمراء ، فلا يكفت مهمازه بالذهب ، ولا يلبس طرازا .

وكانت العساكر من الأمراء وغيرهم تلبس المنوع من الكمخا والخطاى والكبخى والمخمل والاسكندرانى والشرب ، ومن النصافى والأصواف الملونة . ثم بطل لبس الحرير فى أيام الظاهر برقوق ، واقتصروا الى اليوم على لبس الصوف الملون فى الشتاء ، ولبس النصافى المصقول فى الصيف .

وكانت العادة أن السلطان يتولى بنفسه استخدام الجند . فاذا وقف قدامه من يطلب الاقطاع المحلول ، ووقع اختياره على أحد ، أمر ناظر الجيش بالكتابة له ، فيكتب ورقة مختصرة ، تسمى « المثال » ، مضموتها حيز فلان كذا ، ثم يكتب فوقه اسم المستقر له ، ويناولها السلطان ، فيكتب عليها بخطه « يكتب » ، ويعطيها الحاجب لمن رسم له ، فيقبل الأرض . ثم يعاد المثال الى ديوان الجيش ، فيحفظ شاهدا عندهم .

ثم تكتب مربعة مكملة بخطوط جميع مباشرى ديوان الاقطاع ، وهم كتاب ديوان الجيش ، فيرسمون علاماتهم عليها ، ثم تحمل الى ديوان الانشاء والمكاتبات ، فيكتب المنشور ويعلم عليه السلطان كما تقدم ذكره . ثم يكمل المنشور بخطوط كتاب ديوان الجيش ، بعد المقابلة على حجة أصله .

واستجد السلطان الملك المنصور قلاوون طائفة سماها البحرية . وهى أن البحرية الصالحية لما تشتتوا عند قتل الفارس أقطاى فى أيام المعز أيبك ، بقيت أولادهم بمصر فى حالة رذيلة . فعندما أفضت السلطنة الى قلاوون ، جمعهم ورتب لهم الجوامك والعليق

واللحم والكسوة ، ورسم أن يكونوا جالسين على باب القلعة وسماهم البحرية . والى اليوم طائفة من الأجناد تعرف بالبحرية .

وأما البلاد الشامية فليس للنائب بالمملكة مدخل فى تأمير أمير عوض أمير مات ، بل اذا مات أمير — سواء كان كبيرا أو صغيرا — طولع السلطان بموته ، فأمر عوضه : اما ممن فى حضرته ، ويخرجه الى مكان الخدمة ، أو ممن هو فى مكان الخدمة ، أو ينقل من بلد آخر من يقع اختياره عليه .

وأما جند الحلقة فانهم اذا مات أحدهم استخدم النائب عوضه ، وكتب المثال على نحو من ترتيب السلطان ، ثم كتب المربعة وجهزها مع البريد الى حضرة السلطان ، فيقابل عليها فى ديوان الاقطاع ، ثم ان أمضاها السلطان كتب عليها « يكتب » ، فتكتب المربعة من ديوان الاقطاع ، ثم يكتب عليها المنشور كما تقدم فى الجند الذين بالحضرة ، وان لم يمضها السلطان أخرج الاقطاع لمن يريد .

ومن مات من الأمراء والجند قبل استكمال مدة الخدمة ، حوسب ورثته على حكم الاستحقاق ، ثم اما يرتجع منهم أو يطلق لهم ، على قدر حصول العناية بهم .

واقطاعات الأمراء والجند منها ما هو بلاد يستغلها مقطعها كيف شاء ، ومنها ما هو نقد على جهات يتناولها منها .

ولم يزل الحال على ذلك حتى راك الملك الناصر محمد بن قلاوون البلاد — كما تقدم فى أول هذا الكتاب ، عند الكلام على الخراج ومبلغه — فأبطل عدة جهات من المكوس ، وصارت الاقطاعات كلها بلادا .

والذى استقر عليه الحال فى اقطاعات الديار المصرية — مما رتبه الملك الناصر محمد ابن قلاوون فى الروك الناصرى ، وهو عدة الجيوش المنصورة فى الديار المصرية — أربعة وعشرون ألف فارس . تفصيل ذلك :

أمراء الألوف ومماليكهم : ألفان وأربعمائة وأربعة وعشرون فارسا . تفصيل ذلك : نائب ووزير وألوف خاصكية ثمانية أمراء ، وألوف خرجية أربعة عشر أميرا ، ومماليكهم ألفان وأربعمائة فارس .

أمراء طبلخاناه ومماليكهم : ثمانية آلاف ومائتا فارس . تفصيل ذلك : خاصكية أربعة وخمسون أميرا ، وخرجية مائة وستة * وأربعون أميرا ، ومماليكهم ثمانية آلاف فارس كشاف .

وولاة بالأقاليم : خمسمائة وأربعة وسبعون . تفصيل ذلك : ثغر الاسكندرية واحد ، والبحيرة واحد ، والغربية واحد ، والشرقية واحد ، والمنوفية واحد ، وقطيا واحد ، وكاشف الجيزة واحد ، والفيوم واحد ، والبهنسا واحد ، والأشمونين واحد ، وقوص واحد ، وأسوان واحد ، وكاشف الوجه البحرى واحد ، وكاشف الوجه القبلى واحد ، ومماليكهم خمسمائة وستون .

أمراء العشراوات ومماليكهم : ألفان ومائتا فارس . تفصيل ذلك : خاصكية ثلاثون ،

(*) ص٢١٧ جـ٢ ، ط. بولاق .

وخرجية مائة وسبعون أميرا ، ومماليكهم ألفان .

ولاة الأقاليم : سبعة وسبعون أميرا . تفصيلهم : أشمون الرمان واحد ، وقليوب واحد ، والجيزة واحد ، وتروجا واحد ، وحاجب الاسكندرية واحد ، وأطفيح واحد ، ومنفلوط واحد ، ومماليكهم سبعون فارسا .

مقدمو الحلقة والأجناد : أحد عشر ألفا ومائة وستة وسبعون فارسا . تفصيل ذلك :

مقدمو المماليك السلطانية أربعون . مقدمو الحلقة مائة وثمانون .

نقباء الألوف : أربعة وعشرون نقيبا .

مماليك السلطان وأجناد الحلقة : عشرة آلاف وتسعمائة واثنان وثلاثون فارسا . تفصيل ذلك : مماليك السلطان ألفا مملوك . أجناد الحلقة ثمانية آلاف وتسعمائة واثنان وثلاثون فارسا .

عبرة ذلك : الخاصكية الألوف والنائب والوزير : كل منهم مائة ألف دينار ، وكل دينار عشرة دراهم .

الارتفاع : ألف ألف درهم بما فيه من ثمن الغلال : كل اردب واحد من القمح بعشرين درهما ، والحبوب كل اردب منها بعشرة دراهم . من ذلك : الكلف مائة ألف درهم ، والخالص تسعمائة ألف درهم .

الألوف الخرجية : كل منهم خمسة وثمانون ألف دينار ، كل دينار عشرة دراهم .

الارتفاع : ثمانمائة ألف وخمسون ألفا ، بما فيه من ثمن الغلال على ما شرح فيه . من ذلك : الكلف سبعون ألف درهم ، والخالص لكل منهم سبعمائة وثمانون ألف درهم .

الطبلخاناه الخاصكية : كل منهم أربعون ألف دينار ، كل دينار عشرة دراهم . الارتفاع: أربعمائة ألف درهم ، بما فيه من ثمن الغلال على ما شرح فيه . من ذلك : الكلف خمسة وثلاثون ألف درهم ، والخالص لكل منهم ثلثمائة وخمسة وستون ألف درهم .

الطبلخاناه الخرجية : ثلاثون ألف دينار ، كل دينار ثمانية دراهم . الارتفاع : مائتا ألف وأربعون ألف درهم ، بما فيه من ثمن الغلال على ما شرح . من ذلك : الكلف أربعة وعشرون ألف درهم ، والخالص مائتا ألف وستة عشر ألف درهم .

العشراوات الخاصكية : كل منهم عشرة آلاف دينار ، كل دينار عشرة دراهم . الارتفاع : مائتا ألف درهم ، بما فيه من ثمن الغلال على ما شرح . من ذلك : الكلف سبعة آلاف درهم ، والخالص لكل منهم ثلاثة وتسعون ألف درهم .

العشراوات الخرجية : كل منهم سبعة آلاف دينار ، كل دينار عشرة دراهم . الارتفاع : سبعون ألف درهم ، بما فيه من ثمن الغلال على ما شرح . من ذلك : الكلف خمسة آلاف درهم ، والخالص لكل منهم خمسة وستون ألف دراهم .

الكشاف : لكل منهم عشرون ألف دينار ، كل دينار ثمانية دراهم . الارتفاع : مائة ألف

وستون ألف درهم ، بما فيه من ثمن الغلال على ما شرح . من ذلك : الكلف خمسة عشر ألف درهم ، والخالص مائة ألف وخمسة وأربعون ألف درهم .

الولاة الاصطبلخاناه : كل منهم خمسة عشر ألف دينار ، كل دينار ثمانية دراهم . الارتفاع : مائة وعشرون ألف درهم ، بما فيه من ثمن الغلال على ما شرح . من ذلك : الكلف عشرة آلاف درهم ، والخالص لكل منهم مائة ألف وعشرة آلاف درهم .

الولاة العشراوات : لكل منهم خمسة آلاف دينار ، كل دينار سبعة دراهم . الارتفاع : خمسة وثلاثون ألف درهم ، بما فيه من ثمن المغل على ما شرح . من ذلك : الكلف ثلاثة آلاف درهم ، والخالص لكل منهم اثنان وثلاثون ألف درهم .

مقدمو مماليك السلطان : كل منهم ألف ومائتا دينار ، كل دينار عشرة دراهم . الارتفاع : اثنا عشر ألف درهم ، بما فيه من ثمن الغلال على ما شرح . من ذلك : الكلف ألف درهم ، والخالص لكل منهم أحد عشر ألف درهم .

مقدمو الحلقة : كل منهم ألف دينار ، كل دينار تسعة دراهم . الارتفاع : تسعة آلاف درهم ، بما فيه من ثمن الغلال . من ذلك : الكلف تسعمائة درهم ، والخالص لكل منهم ثمانية آلاف درهم ومائة درهم .

نقباء الألوف : لكل منهم أربعمائة دينار ، كل دينار تسعة دراهم . الارتفاع : ثلاثة آلاف وستمائة درهم ، بما فيه من ثمن الغلال . من ذلك : الكلف أربعمائة درهم ، والخالص لكل منهم ثلاثة آلاف ومائتا درهم .

مماليك السلطان : ألفان .

بابة أربعمائة مملوك : لكل منهم ألف وخمسمائة دينار ، كل دينار عشرة دراهم ، عنها خمسة عشر ألف درهم .

بابة خمسمائة مملوك : كل واحد ألف وثلثمائة دينار ، سعره عشرة دراهم ، عنها ثلاثة عشر ألف درهم .

بابة خمسمائة مملوك : لكل منهم ألف دينار ومائتا دينار ، عنها اثنا عشر ألف درهم .

بابة ستمائة مملوك : لكل واحد * ألف دينار ، عنها عشرة آلاف درهم .

أجناد الحلقة : ثمانية آلاف وتسعمائة واثنان وثلاثون فارسا .

بابة ألف وخمسمائة فارس : لكل منهم تسعمائة دينار بتسعة آلاف درهم .

بابة ألف وثلثمائة وخمسين جنديا : لكل منهم ثمانمائة دينار بثمانية آلاف درهم .

بابة ألف وثلثمائة وخمسين جنديا : كل منهم سبعمائة دينار : عنها سبعة آلاف درهم .

بابة ألف وثلثمائة جندى ، لكل منهم ستمائة دينار بستة آلاف درهم .

بابة ألف وثلثمائة : كل منهم بخمسمائة دينار بخمسة آلاف درهم .

بابة ألف ومائة جندى : لكل منهم أربعمائة دينار بأربعة آلاف درهم .

(*) ص ٢١٨ جـ ٢ ، ط ، بولاق .

بابة ألف واثنين وثلاثين جنديا : لكل منهم ثلثمائة دينار ، سعر عشرة دراهم ، عنها ثلاثة آلاف درهم .

وأرباب الوظائف من الأمراء بعد النيابة والوزارة : أمير سلاح ، والدوادار ، والحجبة وأمير جاندار ، والأستادار ، والمهمندار ، ونقيب الجيوش ، والولاة .

فلما مات الملك الناصر محمد بن قلاوون ، حدث بين أجناد الحلقة نزول الواحد منهم عن اقطاعه لآخر ، بمال أو مقايضة الاقطاعات بغيرها ، فكثر الدخيل في الأجناد بذلك ، واشترت السوقة والأراذل الاقطاعات . حتى صار في زمننا أجناد الحلقة أكثرهم أصحاب حرف وصناعات ، وخربت منهم أراضي اقطاعاتهم .

وأول ما حدث ذلك أن السلطان الملك الكامل شعبان بن محمد بن قلاوون ، لما تسلطن في شهر ربيع الآخر سنة ست وأربعين وسبعمائة ، تمكن منه الأمير شجاع الدين اغرلو شاد الدواوين ، واستجد أشياء : منها المقايضة بالاقطاعات في الحلقة ، والنزول عنها .

فكان من أراد مقايضة أحد باقطاعه حمل كل منهما مالا لبيت المال يقرر عليهما ، ومن اختار حيزا بالحلقة يزن على قدر عبرته في السنة دنانير يحملها لبيت المال . فان كانت عبرة الحيز الذي يريده خمسمائة دينار في السنة ، حمل خمسمائة دينار .

ومن أراد النزول عن اقطاعه ، حمل مالا لبيت المال بحسب ما يقرر عليه اغرلو . وأفرد لذلك ، ولما يؤخذ من طالبي الوظائف والولايات ديوانا ، سماه ديوان البدل . وكان يعين في المنشور الذي يخرج بالمقايضة المبلغ الذي يقوم به كل من الجنديين .

وكان ابتداء هذا في جمادي الأولى من السنة المذكورة ، فقام الأمراء في ذلك مع السلطان حتى رسم بابطاله .

فلما ولي الأمير منجك اليوسفي الوزارة ، وسيره في المال ، فتح في سنة تسع وأربعين باب النزول والمقايضات . فكان الجندي يبيع اقطاعه لكل من بذل له فيه مالا ، فأخذ كثير من العامة والاقطاعات . فكان يبذل في الاقطاع مبلغ عشرين ألف درهم ، وأقل منه على قدر متحصله ، وللوزير رسم معلوم . ثم منع من ذلك .

فلما كانت نيابة الأمير سيف الدين قبلاى ، في سنة ثلاث وخمسين ، مشى أحوال الأجناد في المقايضات والنزولات . فاشترى الاقطاعات الباعة وأصحاب الصنائع ، وبيعت تقادم الحلقة وانتدب لذلك جماعة عرفت بالمهيسين ، بلغت عدتهم نحو الثلثمائة مهيس ، وصاروا يطوفون على الأجناد ، ويرغبونهم في النزول عن اقطاعاتهم أو المقايضة بها ، وجعلوا لهم على كل ألف درهم مائة درهم .

فلما فحش الأمر ، أبطل الأمير شيخون العمرى النزولات والمقايضات ، عندما استقر رأس نوبة واستقل بتدبير أمور الدولة ، وتقدم لمباشري ديوان الجيش ألا يأخذوا رسم المنشور والمحاسبة سوى ثلاثة دراهم ، بعدما كانوا يأخذون عشرين درهما .

ذكر الحجبة

وكانت رتبة الحجبة فى الدولة التركيـة جليلة ، وكانت تلى رتبة نيابة السلطنة ، ويقال لأكبر الحجبة حاجب الحجاب .

وموضوع الحجبـة أن متوليها ينصف من الأمراء والجند : تارة بنفسه ، وتارة بمشاورة السلطان ، وتارة بمشاورة النائب . وكان اليه تقديم من يعرض ومن يرد ، وعرض الجند ، فان لم يكن نائب السلطنة فانه هو المشار اليه فى الباب ، والقائم مقام النواب فى كثير من الأمور .

وكان حكم الحاجب لا يتعدى النظر فى مخاصمـات الأجنـاد ، واختـلافهم فى أمور الاقطاعات ، ونحو ذلك .

ولم يكن أحد من الحجـاب فيمـا سلف يتعرض للحكم فى شىء من الأمور الشرعية ، كتداعى الزوجين وأرباب الديون ، وانمـا يرجع ذلك الى قضاة الشرع .

ولقد عهدنا دائما أن الواحد من الكتاب أو الضمان ونحوهم يفر من باب الحاجب ، ويصير الى باب أحد القضاة ويستجير بحكم الشرع ، فلا يطمع أحد بعد ذلك فى أخذه من باب القاضى .

وكان فيهم من يقيم الأشـهر والأعوام فى ترسيم القاضى ، حماية له من أيدى الحجاب . ثم تغير ما هنالك ، وصار الحاجب اليوم اسما لعدة جماعة من الأمراء ينتصبون للحكم بين الناس ، لا لغرض الا لتضمين أبوابهم بمـال مقرر فى كلّ يوم على رأس نوبة النقبـاء ، وفيهم غير واحد ليس لهم على الامرة اقطاع ، وانما يرتزقون من مظالم العباد .

وصار الحاجب اليوم يحكم فى كل جليل وحقير من الناس ، سواء كان * الحكم شرعيا أو سياسـيا بزعمهم ، وان تعرض قاض من قضاة الشرع لأخذ غريم من باب الحاجب لم يمكن من ذلك .

ونقيب الحاجب اليوم ، مع رذالة الحاجب وسفالته ، وتظاهره من المنكر بما لم يكن يعهد مثله ، يتظاهر به أطراف السوقة . فانه يأخذ الغريم من باب القاضى ، ويتحـكم فيـه من الضرب وأخذ المال بما يختار ، فلا ينـكر ذلك أحد ألبتة .

وكانت أحكام الحجاب أولا يقال لها حكم السياسة ، وهى لفظة شيطانية لا يعرف أكثر أهل زمننا اليـوم أصلها ، ويتسـاهلون فى التلفظ بها ، ويقولون هذا الأمر مما لا يمشى فى الأحكام الشرعية ، وانما هو من حـكم السياسة ... ويحسبونه هينـا ، وهو عند الله عظيم . وسـأبين معنى ذلك ، وهو فصـل عزيز .

ذكر أحكام السـياسة

اعلم أن الناس فى زمننا ، بل ومنذ عهـد الدولة التركية بديار مصر والشام ، يرون أن الأحكام على قسمين : حكم الشرع ، وحكم السياسة .

ولهذه الجملة شرح : فالشريعة هى ما شرع الله تعـالى من الدين وأمـر به ، كالصـلاة والصيام والحج وسائر أعمال البر .

(*) ص٢١٦، جـ٢، طـ. بولاق

واشتق الشرع من شاطىء البحر . وذلك أن الموضع الذى على شاطىء البحر تشرع فيه الدواب ، وتسمية العرب : « الشريعة » . فيقولون للابل ، اذا وردت شريعة الماء ، وشربت : قد شرع فلان ابله ، وشرعها — بتشديد الراء — اذا أوردها شريعة الماء .

والشريعة ، والشراع ، والشرعة : المواضع التى ينحدر الماء فيها . ويقال شرع الدين يشرعه شرعا ، بمعنى سنه . قال الله تعالى : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا » .

ويقال ساس الأمر سياسة ، بمعنى قام به ، وهو سائس ، من قوم ساسة وسوس . وسوسه القوم : جعلوه يسوسهم . والسوس : الطبع والخلق ، فيقال الفصاحة من سوسه ، والكرم من سوسه ، أى من طبعه .

فهذا أصل وضع السياسة فى اللغة ، ثم رسمت بأنها القانون الموضوع لرعاية الآداب والمصالح ، وانتظام الأحوال .

والسياسة نوعان : سياسة عادلة تخرج الحق من الظالم الفاجر ، فهى من الأحكام الشرعية ، علمها من علمها ، وجهلها من جهلها . وقد صنف الناس فى السياسة الشرعية كتبا متعددة .

والنوع الآخر : سياسة ظالمة ، فالشريعة تحرمها . وليس ما يقوله أهل زماننا فى شىء من هذا ، وانما هى كلمة مغلية أصلها «ياسة» ، فحرفها أهل مصر ، وزادوا بأولها سينا فقالوا : « سياسة » ، وأدخلوا عليها الألف واللام ، فظن من لا علم عنده أنها كلمة عربية ، وما الأمر فيها الا ما قلت لك .

واسمع الآن كيف نشأت هذه الكلمة ، حتى انتشرت بمصر والشام . وذلك أن جنكز خان ، القائم بدولة التتر فى بلاد الشرق ، لما غلب الملك أونك خان ، وصارت له دولة ... قرر قواعد وعقوبات أثبتها فى كتاب سماه « ياسة » ، ومن الناس من يسميه « يسق » ، والأصل فى اسمه ياسة .

ولما تتم وضعه ، كتب ذلك نقشا فى صفائح الفولاذ ، وجعله شريعة لقومه . فالتزموه بعد حتى قطع الله دابرهم .

وكان جنكز خان لا يتدين بشىء من أديان أهل الأرض — كما تعرف هذا ان كنت أشرفت على أخباره — فصار الياسة حكما بتا ، بقى فى أعقابه لا يخرجون عن شىء من حكمه .

وأخبرنى العبد الصالح ، الداعى الى الله تعالى ، أبو هاشم أحمد بن البرهان رحمه الله ، أنه رأى نسخة من الياسة بخزانة المدرسة المستنصرية ببغداد .

ومن جملة ما شرعه جنكز خان فى الياسة أن من زنى قتل ، ولم يفرق بين المحصن وغير المحصن ، ومن لاط قتل ، ومن تعمد الكذب أو سحر أو تجسس على أحد أو دخل بين اثنين وهما يتخاصمان وأعان أحدهما على الآخر قتل ، ومن بال فى الماء أو على الرماد قتل ، ومن أعطى بضاعة فخسر فيها فانه يقتل بعد الثالثة ، ومن أطعم أسير قوم أو كساه بغير اذنهم قتل ، ومن وجد عبدا هاربا أو

أسيرا قد هرب ولم يرده علي من كان في يده قتل .

وأن الحيوان تكتف قوائمه ويشق بطنه ويمرس قلبه الي أن يموت ثم يؤكل لحمه ، وأن من ذبح حيوانا كذبيحة المسلمين ذبح ، ومن وقع حمله أو قوسه أو شيء من متاعه ، وهو يكر أو يفر فى حالة القتال ، وكان وراءه أحد ، فانه ينزل ويناول صاحبه ما سقط منه ، فان لم ينزل ولم يناوله قتل .

وشرط ألا يكون على أحد من ولد على بن أبي طالب رضى الله عنه مؤنة ولا كلفة ، وألا يكون على أحد من الفقراء ، ولا القراء ، ولا الفقهاء ، ولا الأطباء ، ولا من عداهم من أرباب العلوم وأصحاب العبادة والزهد والمؤذنين ومغسلى الأموات كلفة ولا مؤنة . وشرط تعظيم جميع الملل من غير تعصب لملة على أخرى ، وجعل ذلك كله قربة الى الله تعالي .

وألزم قومه ألا يأكل أحد من يد أحد حتى يأكل المناول منه أولا ، ولو أنه أمير ومن يناوله أسير . وألزمهم ألا يتخصص أحد بأكل شيء وغيره يراه ، بل يشركه معه فى أكله . وألزمهم ألا يتميز أحد منهم بالشبع على أصحابه ، ولا يتخطى أحد نارا ولا مائدة ولا الطبق الذي يؤكل عليه ، وأن من مر بقوم وهم يأكلون فله أن ينزل ويأكل معهم من غير اذنهم وليس لأحد منعه .

وألزمهم ألا يدخل أحد منهم يده في الماء ولكنه يتناول * الماء بشيء يغترفه به ، ومنعهم من غسل ثيابهم بل يلبسونها حتى تبلى ، ومنع أن يقال لشيء انه نجس ، وقال جميع الأشياء طاهرة ، ولم يفرق بين طاهر ونجس .

وألزمهم ألا يتعصبوا لشيء من المذاهب ، ومنعهم من تفخيم الألفاظ ووضع الألقاب ، وانما يخاطب السلطان ومن دونه ويدعى باسمه فقط .

وألزم القائم بعده بعرض العساكر وأسلحتها اذا أرادوا الخروج الى القتال ، وأنه يعرض كل ما سافر به عسكره ، وينظر حتى الابرة والخيط ، فمن وجده قد قصر فى شيء مما يحتاج اليه عند عرضه اياه عاقبه ، وألزم نساء العساكر بالقيام بما على الرجال من السخر والكلف ، فى مدة غيبتهم فى القتال ، وجعل على العساكر اذا قدمت من القتال كلفة يقومون بها للسلطان ويؤدونها اليه .

وألزمهم عند رأس كل سنة بعرض سائر بناتهم الأبكار على السلطان ليختار منهن لنفسه وأولاده . ورتب لعساكره أمراء ، وجعلهم أمراء ألوف ، وأمراء مئين ، وأمراء عشراوات . وشرع أن أكبر الأمراء اذا أذنب وبعث اليه الملك أخس من عنده حتى يعاقبه ، فانه يلقى نفسه الي الأرض بين يدي الرسول وهو ذليل خاضع ، حتى يمضى فيه ما أمر به الملك من العقوبة ولو كانت بذهاب نفسه .

وألزمهم ألا يتردد الأمراء لغير الملك ، فمن تردد منهم لغير الملك قتل ، ومن تغير عن موضعه الذي يرسم له بغير اذن قتل ، وألزم السلطان باقامة البريد حتى يعرف أخبار مملكته بسرعة .

وجعل حكم الياسة لولده جقتاى بن جنكز خان . فلما مات التزم من بعده من أولاده

(*) ص۲۲۰ ج۲ ، ط. بولاق .

وأتباعهم حكم الياسة كالتزام أول المسلمين حكم القرآن ، وجعلوا ذلك دينا لم يعرف عن أحد منهم مخالفته بوجه .

فلما كثرت وقائع التتر فى بلاد المشرق والشمال وبلاد القبجاق ، وأسروا كثيرا منهم وباعوهم ، تنقلوا فى الأقطار . واشترى الملك الصالح نجم الدين أيوب جماعة منهم سماهم البحرية ، ومنهم من ملك ديار مصر ، وأولهم المعز أيبك . ثم كانت لقطز معهم الواقعة المشهورة على عين جالوت ، وهزم التتار وأسر منهم خلقا كثيرا صاروا بمصر والشام . .

ثم كثرت الوافدية فى أيام الملك الظاهر بيبرس وملأوا مصر والشام ، وخطب للملك بركة بن يوشى بن جنكز خان على منابر مصر والشام والحرمين . فغصت أرض مصر والشام بطوائف المغل ، وانتشرت عاداتهم بها وطرائقهم . هذا وملوك مصر وأمراؤها وعساكرها قد ملئت قلوبهم رعبا من جنكز خان وبنيه ، وامتزج بلحمهم ودمهم مهابتهم وتعظيمهم . .

وكانوا انما ربوا بدار الاسلام ، ولقنوا القرآن ، وعرفوا أحكام الملة المحمدية ... فجمعوا بين الحق والباطل ، وضموا الجيد الى الردىء ، وفوضوا لقاضى القضاة كل ما يتعلق بالأمور الدينية من الصلاة والصوم والزكاة والحج ، وناطوا به أمر الأوقاف والأيتام ، وجعلوا اليه النظر فى الأقضية الشرعية ، كتداعى الزوجين وأرباب الديون ونحو ذلك .

واحتاجوا فى ذات أنفسهم الى الرجوع لعادة جنكز خان ، والاقتداء بحكم الياسة . فلذلك نصبوا الحاجب ليقضى بينهم فيما اختلفوا فيه من عوايدهم ، والأخذ على يد قويهم وانصاف الضعيف منه ، على مقتضى ما فى الياسة . وجعلوا اليه مع ذلك النظر فى قضايا الدواوين السلطانية ، عند الاختلاف فى أمور الاقطاعات ، لينفذ ما استقرت عليه أوضاع الديوان وقواعد الحساب ، وكان من أجل القواعد وأفضلها . حتى تحكم القبط فى الأموال وخراج الأراضى ، فشرعوا فى الديوان ما لم يأذن به الله تعالى ، ليصير لهم ذلك سبيلا الى أكل مال الله تعالى بغير حقه . وكان مع ذلك يحتاج الحاجب الى مراجعة النائب أو السلطان فى معظم الأمور .

هذا وستر الحياء يومئذ مسدول ، وظل العدل صاف ، وجناب الشريعة محترم ، وناموس الحشمة مهاب . فلا يكاد أحد أن يزيغ عن الحق ، ولا يخرج عن قضية الحياء ، ان لم يكن له وازع من دين ، كان له ناه من عقل ثم تقلص ظل العدل ، وسفرت أوجه الفجور ، وكشر الجور أنيابه ، وقلت المبالاة وذهب الحياء والحشمة من الناس ، حتى فعل من شاء ما شاء . وتعدت منذ عهد المحن التى كانت فى سنة ست وثمانمائة الحجاب ، وهتكوا الحرمة وتحكموا بالجور تحكما خفى معه نور الهدى ، وتسلطوا على الناس مقتا من الله لأهل مصر وعقوبة لهم بما كسبت أيديهم ... ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون .

وكان أول ما حكم الحجاب ، فى الدولة التركية بين الناس بمصر ، أن السلطان الملك الكامل شعبان بن الناصر محمد بن قلاوون ،

استدعى الأمير شمس الدين آق سنقر الناصرى نائب طرابلس ليوليه نيابة السلطنة بديار مصر ، عوضا عن الأمير سيف الدين بيغوا ، أميرا حاجبا كبيرا يحكم بين الناس ، فخلع عليه فى جمادى الأولى سنة ست وأربعين وسبعمائة . فحكم بين الناس كما كان نائب السلطنة يحكم ، وجلس بين يديه موقعان من موقعى السلطان لمكاتبة الولاة بالأعمال ونحوهم . فاستمر ذلك . ثم رسم فى جمادى الآخرة منها أن يكون الأمير رسلان بصل حاجبا مع بيغوا يحكم بالقاهرة * على عادة الحجاب .

فلما انقضت دولة الكامل بأخيه الملك المظفر حاجى بن محمد ، استقر الأمير سيف الدين أرقطاى نائب السلطنة ، فعاد أمر الحجاب الى العادة القديمة . الى أن كانت ولاية الأمير سيف الدين جرجى الحجابة ، فى أيام السلطان الملك الصالح صالح بن محمد بن قلاوون ، فرسم له أن يتحدث فى أرباب الديون ويفصلهم من غرمائهم بأحكام السياسة . ولم تكن عادة الحجاب فيما تقدم أن يحكموا فى الأمور الشرعية .

وكان سبب ذلك وقوف تجار العجم للسلطان بدار العدل فى أثناء سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة ، وذكروا أنهم ما خرجوا من بلادهم الا لكثرة ما ظلمهم التتار وجاروا عليهم ، وأن التجار بالقاهرة اشتروا منهم عدة بضائع وأكلوا أثمانها ، ثم هم يثبتون على يد القاضى الحنفى اعسارهم وهم فى سجنه ، وقد أفلس بعضهم .

فرسم للأمير جرجى باخراج غرمائهم من السجن ، وخلاص ما فى قبلهم للتجار ، وأنكر على قاضى القضاة جمال الدين عبد الله التركمانى الحنفى ما عمله ، ومنع من التحدث فى أمر التجار والمدينين . فأخرج جرجى غرماء التجار من السجن ، وعاقبهم ، حتى أخذ للتجار أموالهم منهم شيئا بعد شىء . وتمكن الحجاب من حينئذ من التحكم على الناس بما شاءوا .

« أمير جاندار » : موضوع أمير جاندار التسلم لباب السلطان ، ولرتبة البرددارية ، وطوائف الركابية ، والحرامانية ، والجندارية . وهو الذى يقدم البريد اذا قدم مع الدوادار وكاتب السر ، واذا أراد السلطان تقرير أحد من الأمراء على شىء أو قتله بذنب كان ذلك على يد أمير جاندار . وهو أيضا المتسلم للزردخاناه ، وكانت أرفع السجون قدرا ومن اعتقل بها لا تطول مدته بها ، بل يقتل أو يخلى سبيله . وهو الذى يدور بالزفة حول السلطان فى سفره مساء وصباحا .

« الأستادار » : اليه أمر البيوت السلطانية كلها ، من المطابخ والشراب خاناه والحاشية والغلمان ، وهو الذى كان يمشى بطلب السلطان فى السرحات والأسفار ، وله الحكم فى غلمان السلطان وباب داره ، واليه أمور الجاشنكيرية — وان كان كبيرهم نظيره فى الامرة من ذوى المئين — وله أيضا الحديث المطلق والتصرف التام فى استدعاء ما يحتاجه كل من فى بيت من بيوت السلطان من النفقات والكساوى وما يجرى مجرى ذلك .

ولم تزل رتبة الأستادار على ذلك . حتى كانت أيام الظاهر برقوق ، فأقام الأمير جمال

(*) ص٢٢١ جـ٢ ، ط.بولاق .

الدين محمود بن على بن أصفر عينه أستادارا ، وناط به تدبير أموال المملكة . فتصرف فى جميع ما يرجع الى أمر الوزير وناظر الخاص ، وصارا يترددان الى بابه ، ويمضيان الأمور برأيه .

فجلت من حينئذ رتبة الأستادار بحيث انه صار فى معنى ما كان فيه الوزير فى أيام الخلفاء ... سيما اذا اعتبرت حال الأمير جمال الدين يوسف الأستادار فى أيام الناصر فرج ابن برقوق ، كما ذكرناه عند ذكر المدارس من هذا الكتاب ، فانك تجده انما كان كالوزير العظيم لعموم تصرفه ، ونفوذ أمره فى سائر أحوال المملكة . واستقر ذلك لمن ولى الأستادارية من بعده ، والأمر على هذا الى اليوم .

« أمير سلاح » : هذا الأمير هو مقدم السلاحدارية ، والمتولى لحمل سلاح السلطان فى المجامع الجامعة ، وهو المتحدث فى السلاح خاناه وما يستعمل بها وما يقدم اليها ويطلق منها ، وهو أبدا من أمراء المئين .

« الدوادار » : ومن عادة الدولة أن يكون بها من أمرائها من يقال له الدوادار . وموضوعه لتبليغ الرسائل عن السلطان ، وابلاغ عامة الأمور ، وتقديم القصص الى السلطان ، والمشاورة على من يحضر الى الباب وتقديم البريد هو وأمير جاندار وكاتب السر . وهو الذى يقدم الى السلطان كل ما تؤخذ عليه العلامة السلطانية فى المناشير والتواقيع والكتب ، وكان يخرج عن السلطان بمرسوم مما يكتب ، فيعين رسالته فى المرسوم .

واختلفت آراء ملوك الترك فى الدوادار : فتارة كان من أمراء العشراوات والطبلخاناه ، وتارة كان من أمراء الألوف .

فلما كانت أيام الأشرف شعبان بن حسين ابن محمد بن قلاوون ، ولى الأمير أقتمر الحنبلى وظيفة الدوادارية — وكان عظيما فى الدولة — فصار يخرج المراسيم السلطانية بغير مشاورة كما يخرج نائب السلطنة ، ويعين فى المرسوم اذ ذاك أنه كتب برسالته . ثم نقل الى نيابة السلطنة ، وأقام الأشرف عوضه الأمير طاش تمر الدوادار ، وجعله من أكبر آمراء الألوف . فاقتدى به الملك الظاهر برقوق ، وجعل الأمير يونس الدوادار من أكبر أمراء الألوف . فعظمت منزلته ، وقويت مهابته .

ثم لما عادت الدولة الظاهرية بعد زوالها ، ولى الدوادارية الأمير بوطا ، فتحكم تحكما زائدا عن المعهود فى الدوادارية ، وتصرف كتصرف النواب ، وولى وعزل ، وحكم فى القضايا المعضلة . فصار ذلك من بعده عادة لمن ولى الدوادارية ... سيما لما ولى الأمير يشبك والأمير حكم الدوادارية فى أيام الناصر فرج ، فانهما تحكما فى جليل أمور الدولة وحقيرها من المال والبريد والأحكام والعزل والولاية . وما برح الحال على هذا فى الأيام الناصرية ، وكذلك الحال فى الأيام المؤيدية يقارب * ذلك .

« نقابة الجيوش » : هذه الرتبة كانت فى الدولة التركية من الرتب الجليلة ، ويكون متوليها كأحد الحجاب الصغار ، وله تحلية

(*) ص ٢٢٢ جـ ٢ ، ط . بولاق .

الجند في عرضهم ، ومعه يمشي النقباء . فاذا طلب السلطان أو النائب أو حاجب الحجاب أميرا أو جنديا ، كان هو المخاطب في الارسال اليه ، وهو الملزوم باحضاره . واذا أمر أحد منهم بالترسيم على أمير أو جندي ، كان نقيب الجيش هو الذي يرسم عليه . وكان من رسمه أنه هو الذي يمشي بالحراسة السلطانية في الموكب حالة السرحة وفي مدة السفر .

ثم انحطت اليوم هذه الرتبة ، وصار نقيب الجيش عبارة عن كبير من النقباء المعدين لترويع خلق الله تعالى ، وأخذ أموالهم بالباطل على سبيل القهر عند طلب أحد الى باب الحاجب . ويضيفون الى أكلهم أموال الناس بالباطل افتراءهم على الله تعالى بالكذب ، فيقولون على المال الذي يأخذونه باطلا : هذا حق الطريق ... والويل لمن نازعهم في ذلك . وهم أحد أسباب خراب الاقليم ، كما بين في موضعه من هذا الكتاب عند ذكر الأسباب التي أوجبت خراب الاقليم .

« الولاية » : وهي التي يسميها السلف الشرطة ، وبعضهم يقول صاحب العسس . والعسس : الطواف بالليل لتتبع أهل الريب ، يقول : عس يعس عسا وعسسا . وأول من عس بالليل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، أمره أبو بكر الصديق رضي الله عنه بعس المدينة .

خرج أبو داود ، عن الأعمش ، عن زيد قال : أتي عبد الله بن مسعود فقيل له : هذا فلان تقطر لحيته خمرا ، فقال عبد الله رضي الله عنه : انا قد نهينا عن التجسس ، ولكن ان يظهر لنا شيء نأخذ به .

وذكر الثعلبي عن زيد بن وهب أنه قال : قيل لابن مسعود رضي الله عنه : هل لك في الوليد بن عتبة تقطر لحيته خمرا ؟

فقال : انا قد نهينا عن التجسس ، فان ظهر لنا شيء نأخذ به .

وكان عمر رضي الله عنه يتولى في خلافته العسس بنفسه ، ومعه مولاه أسلم رضي الله عنه ، وكان ربما استصحب معه عبد الرحمن ابن عوف رضي الله عنه .

« قاعة الصاحب » : وكانت وظيفة الوزارة أجل رتب أرباب الأقلام ، لأن متوليها ثاني السلطان اذا أنصف وعرف حقه . الا أن ملوك الدولة التركية قدموا رتبة النيابة على الوزارة ، فتأخرت الوزارة حتى قعد بها مكانها ، ووليها في الدولة التركية أناس من أرباب السيوف وأناس من أرباب الأقلام ، فصار الوزير اذا كان من أرباب الأقلام يطلق عليه اسم الصاحب ، بخلاف ما اذا كان من أرباب السيوف فانه لا يقال له الصاحب .

وأصل هذه الكلمة في اطلاقها على الوزير أن الوزير اسماعيل بن عباد كان يصحب مؤيد الدولة أبا منصور بويه بن ركن الدولة الحسن ابن بويه الديلمي صاحب بلاد الري . وكان مؤيد الدولة شديد الميل اليه والمحبة له فسماه الصاحب ، وكان الوزير حينئذ أبو الفتح علي بن العميد يعاديه لشدة تمكنه من مؤيد الدولة ، فتلقب الوزراء بعد ابن عباد بالصاحب . ولا أعلم أحدا من وزراء خلفاء بني العباس ، ولا وزراء الخلفاء الفاطميين ، قيل له الصاحب .

وقد جمعت فى وزراء الاسلام كتابا جليل القدر ، وأفردت وزراء مصر فى تصنيف بديع . والذى أعرف أن الوزير صفى الدين عبد الله بن شكر ، وزير العادل والكامل من ملوك مصر من بنى أيوب ، كان يقال له الصاحب ، وكذلك من بعده من وزراء مصر الى اليوم .

وكان وضع الوزير أنه أقيم لنفاذ كلمة السلطان وتمام تصرفه . غير أنها انحطت عن ذلك بنيابة السلطنة ، ثم انقسم ما كان للوزير الى ثلاثة : هم الناظر فى المال ، وناظر الخاص ، وكاتب السر فانه يوقع فى دار العدل ما كان يوقع فيه الوزير بمشاورة واستقلال .

ثم تلاشت الوزارة فى أيام الظاهر برقوق بما أحدثه من الديوان المفرد . وذلك أنه لما ولى السلطنة أفرد اقطاعه لما كان أميرا قبل سلطنته ، وجعل له ديوانا سماه الديوان المفرد ، وأقام فيه ناظرا وشاهدين وكتابا ، وجعل مرجع هذا الديوان الى الأستادار ، وصرف ما يتحصل منه فى جوامك مماليك استجدها شيئا بعد شىء حتى بلغت خمسة آلاف مملوك ، وأضاف الى هذا الديوان كثيرا من أعمال الديار المصرية .

وبذلك قوى جانب الأستادار ، وضعفت الوزارة ، حتى صار الوزير قصارى نظره التحدث فى أمر المكوس ، فيستخرجها من جهاتها ، ويصرفها فى ثمن اللحم وحوائج المطبخ وغير ذلك .

ولقد كان الوزير الصاحب سعد الدين نصر الله بن البقرى يقول : الوزارة اليوم عبارة عن حوايج كاش عفش يشترى اللحم والحطب وحوايج الطعام ، وناظر الخاص غلام صلف يشترى الحرير والصوف والنصافى والسنجاب ، وأما ما كان للوزراء ونظار الخاص فى القديم فقد بطل .

ولقد صدق فيما قال ، فان الأمر على هذا . وما رأينا الوزارة من بعد انحطاط رتبتها يرتفع قدر متوليها الا اذا أضيفت الى الأستادارية ، كما وقع للأمير جمال الدين يوسف الأستادار والأمير فخر الدين عبد الغنى بن أبى الفرج . وأما من ولى الوزارة بمفردها ، سيما من أرباب الأقلام ، فانما هو كاتب كبير يتردد ليلا ونهارا الى باب الأستادار ، ويتصرف بأمره ونهيه .

وحقيقة الوزارة اليوم * أنها انقسمت بين أربعة ، وهم : كاتب السر ، والأستادار ، وناظر الخاص ، والوزير .

فأخذ كاتب السر من الوزارة التوقيع على القصص بالولايات ، والعزل ونحو ذلك فى دار العدل وفى داره .

وأخذ الأستادار التصرف فى نواحى أرض مصر ، والتحدث فى الدواوين السلطانية ، وفى كشف الأقاليم وولاة النواحى ، وفى كثير من أمور أرباب الوظائف .

وأخذ ناظر الخاص جانبا كبيرا من الأموال الديوانية السلطانية ليصرفها فى تعلقات الخزانة السلطانية .

وبقى للوزير شىء يسير جدا من النواحى ، والتحدث فى المكوس وبعض الدواوين ،

(*) ص٢٢٣، جـ٢، ط. بولاق .

ومصارف المطبخ السلطاني والسواقي ، وأشياء أخر . واليه مرجع ناظر الدولة ، وشاد الدواوين ، وناظر بيت المال ، وناظر الأهراء ، ومستوفي الدولة ، وناظر الجهات . وأما ناظر البيوت وناظر الاصطبلات فان أمرهما يرجع الى غيره . والله أعلم .

« نظر الدولة » : هذه الوظيفة يقال لمتوليها ناظر النظار ، ويقال له ناظر المال ، وهو يعرف اليوم بناظر الدولة ، وتلي رتبته رتبة الوزارة . فاذا غاب الوزير ، أو تعطلت الوزارة من وزير ، قام ناظر الدولة بتدبير الدولة ، وتقدم الى شاد الدواوين بتحصيل الأموال وصرفها في النفقات والكلف .

واقتصر الملك الناصر محمد بن قلاوون على ناظر الدولة مدة أعوام من غير تولية وزير ، ومشى أمور الدولة على ذلك حتى مات .

ولابد أن يكون مع ناظر الدولة مستوفون يضبطون كليات المملكة وجزئياتها . ورأس المستوفين مستوفي الصحبة ، وهو يتحدث في سائر المملكة مصرا وشاما ، ويكتب مراسيم يعلم عليها السلطان : فتكون تارة بما يعمل في البلاد ، وتارة بالاطلاقات ، وتارة باستخدام كتاب في صغار الأعمال ، ومن هذا النحو وما يجرى مجراه ، وهي وظيفة جليلة تلي نظر الدولة . وبقية المستوفين كل منهم حديثه مقيد لا يتعدى حديثه قطرا من أقطار المملكة .

وهذا الديوان — أعني ديوان النظر — هو أرفع دواوين المال ، وفيه تثبت التواقيع والمراسيم السلطانية ، وكل ديوان من دواوين المال انما هو فرع هذا الديوان ، واليه يرفع حسابه وتتناهى أسبابه ، واليه يرجع أمر الاستيمار الذى يشتمل على أرزاق ذوى الأقلام وغيرهم مياومة ومشاهرة ومسانهة من الرواتب .

وكانت أرزاق ذوى الأقلام مشاهرة من مبلغ عين وغلة ، وكان لأعيانهم الرواتب الجارية في اليوم من اللحم بتوابله أو غير توابله ، والخبز والعليق لدوابهم ، وكان لأكابرهم السكر والشمع والزيت والكسوة في كل سنة والأضحية ، وفي شهر رمضان السكر والحلوى .

وأكثرهم نصيبا الوزير ، وكان معلومه في الشهر مائتين وخمسين دينارا جيشية ، مع الأصناف المذكورة والغلة وتبلغ نظير المعلوم ، ثم ما دون ذلك من المعلوم لمن عدا الوزير ، وما دون دونه . وكان معلوم القضاة والعلماء أكثره خمسون دينارا في كل شهر ، مضافا لما بيدهم من المدارس التي يستدرون من أوقافها .

وكان أيضا يصرف على سبيل الصدقات الجارية والرواتب الدارة على جهات ما بين مبلغ وغلة وخبز ولحم وزيت وكسوة وشعير ... هذا سوى الأرض من النواحي التي يعرف المرتب عليها بالأرزاق الأحباسية .

وكانوا يتوارثون هذه المرتبات ابنا عن أب ، ويرثها الأخ عن أخيه ، وابن العم عن ابن العم ... بحيث ان كثيرا ممن مات ، وخرج ادراره من مرتبه لأجنبي ، لما جاء قريبه وقدم قصته يذكر فيها أولويته بما كان لقريبه ، أعيد اليه ذلك المرتب ممن كان خرج باسمه .

« نظر البيـوت » : كان من الوظـائف الجليلة ، وهى وظيفة متوليها منوط بالأستادار فكل ما يتحـدث فيه أسـتادار السلطان فانه يشاركه في التحدث ، وهـذا كان أيام كون الأستادار ونظره لا يتعـدى بيـوت السلطان وما تقدم ذكره . فأما منذ عظم قدر الأستادار ونفذت كلمته في جمهور أموال الدولة ، فان نظر البيوت اليوم شيء لا معنى له .

« نظر بيت المال » : كان وظيفـة جليـلة معتبرة . وموضوع متوليها التحدث فى حمول المملكة مصرا وشـاما الى بيت المال بقلعـة الجبل ، وفي صرف ما ينصرف منه تارة بالوزن وتارة بالتسبيب بالأقلام .

وكان أبدا يصعد ناظر بيت المال ، ومعـه شهود بيت المال وصيرفى بيت المال وكاتب المال ، الى قلعة الجبل . ويجلس فى بيت المال فيكون له هناك أمر ونهى وحال جليلة ، لكثرة الحمول الواردة ، وخروج الأموال المصروفة في الرواتب لأهل الدولة . وكانت أمرا عظيما بحيث أنها بلغت فى السنة نحو أربعمائة ألف دينار .

وكان لا يلي نظر بيت المال الا من هو من ذوى العدالات المبرزة . ثم تلاشى المال وبيت المال ، وذهب الاسم والمسـمى ، ولا يعرف اليوم بيت المال من القلعة ، ولا يدرى ناظر بيت المال من هو .

« نظر الاصطبلات » : هذه الوظيفة جليلة القدر الى اليوم . وموضوعها الحـديث فى أموال الاصـطبلات والمنـاخات وعليقهـا ، وأرزاق من فيها من المستخدمين ، وما بهـا من الاستعمالات والاطلاق ، وكل ما يبتـاع لها أو يبتاع بها . وأول من استجدها الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وهو أول من زاد فى رتبـة أميراخور ، واعتنى * بالأوجاقيـة والعرب الركابة .

وكان أبوه المنصور قلاوون يرغب فى خيل برقة أكثر من خيل العرب ، ولا يعرف عنه أنه اشترى فرسا بأكثر من خمسة آلاف درهم ، وكان يقول : خيل برقة نافعة ، وخيل العرب زينة ... بخلاف الناصر محمد ، فانه شـغف باستدعاء الخيول من عرب آل مهنا وآل فضل وغيـرهم ، وبسـببها كان يبـالغ فى اكرام العرب ، ويرغبهم في أثمان خيولهم حتى خرج عن الحد فى ذلك .

فكثرت رغبة آل مهنـا وغيرهم فى طلب خيول من عداهم من العربان ، وتتبعوا عتاق الخيل من مظانها ، وسمحوا بدفع الأثمـان الزائدة على قيمتها ، حتى أتتهم طوائف العرب بكرائم خيـولهم . فتمـكنت آل مهنـا من السلطان ، وبلغوا فى أيامه الرتب العليـة . وكان لا يحب خيول برقة ، واذا أخذ منهـا شيئا أعده للتفرقة على الأمراء البرانيين ، ولا يسـمح بخيـول آل مهنا الا لأعز الأمراء وأقرب الخاصكية منها .

وكان جيد المعرفة بالخيل شياتها وأنسابها ، لا يزال يذكر أسماء من أحضرها اليه ومبلغ ثمنها . فلما اشتهر عنه ذلك ، جلب اليه أهل البحرين والحسـاء والقطيف وأهل الحجـاز والعراق كرائم خيولهم ، فدفع لهم فى الفرس من عشرة آلاف درهم الى عشرين الى ثلاثين

(*) ص٢٢٤ جـ٢ ، ط.بولاق .

ألف درهم : عنها ألف وخمسمائة مثقال من الذهب ... سوى ما ينعم به على مالكه من الثياب الفاخرة له ولنسائه ، ومن السكر ونحوه ، فلم تبق طائفة من العرب حتى قادت اليه عتاق خيلها .

وبلغ من رغبة السلطان فيها أنه صرف في أثمانها دفعة واحدة ، من جهة كريم الدين ناظر الخاص ، ألف ألف درهم في يوم واحد ، وتكرر هذا منه غير مرة ، وبلغ ثمن الفرس الواحد من خيول آل مهنا الستين ألف درهم والسبعين ألف درهم ، واشترى كثيرا من الحجور بالثمانين ألفا والتسعين ألفا ، واشترى بنت الكرشاء بمائة ألف درهم : عنها خمسة آلاف مثقال من الذهب ... هذا سوى الانعامات بالضياع من بلاد الشام .

وكان من عنايته بالخيل لا يزال يتفقدها بنفسه . فاذا أصيب منها فرس أو كبر سنه ، بعث به الى الجشار . وتنزى الفحول المعروفة عنده على الحجور بين يديه ، وكتاب الاصطبل تؤرخ تاريخ نزوها ، واسم الحصان والحجرة . فتوالدت عنده خيول كثيرة اغتنى بها عن الجلب ، ومع ذلك فلم تكن عنده في منزلة ما يجلب منها . وبهذا ضخمت سعادة آل مهنا ، وكثرت أموالهم وضياعهم ، فعزا جانبهم ، وكثر عددهم ، وهابهم من سواهم من العرب .

وبلغت عدة خيول الجشارات في أيامه نحو ثلاثة آلاف فرس ، وكان يعرضها في كل سنة ويدوغ أولادها بين يديه ، ويسلمها للعربان الركابة ، وينعم على الأمراء الخاصكية بأكثرها ، ويتبجح بها ، ويقول : هذه فلانة بنت فلان ، وهذا فلان ابن فلانة ، وعمره كذا ، وشراء أم هذا كذا وكذا .

كان لا يزال يؤكد على الأمراء في تضمير الخيول ، ويلزم كل أمير أن يضمر أربعة أفراس ، ويتقدم لأميراخور أن يضمر للسلطان عدة منها ، ويوصيه بكتمان خبرها ، ثم يشيع أنها لأيدغمش أميراخور ، ويرسلها مع الخيل في حلبة السباق خشية أن يسبقها فرس أحد من الأمراء فلا يحتمل ذلك ، فانه ممن لا يطيق شيئا ينقص ملكه . وكان السباق في كل سنة بميدان القبق ينزل بنفسه ، وتحضر الأمراء بخيولها المضمرة ، فيجريها وهو على فرسه حتى تنقضي نوبها . وكانت عدتها مائة وخمسين فرسا فما فوقها .

فاتفق أنه كان عند الأمير قطلوبغا الفخري حصان أدهم سبق خيل مصر كلها في ثلاث سنين متوالية أيام السباق ، وبعث اليه الأمير مهنا فرسا شهباء على أنها ان سبقت خيل مصر فهي للسلطان ، وان سبقها فرس ردت اليه ، ولا يركبها عند السباق الا بدوي قادها .

فركب السلطان للسباق في أمرائه على عادته ، ووقف معه سليمان وموسى ابنا مهنا ، وأرسلت الخيول من بركة الحاج على عادتها ، وفيها فرس مهنا ، وقد ركبها البدوي عريا بغير سرج . فأقبلت سائر الخيول تتبعها حتى وصلت المدى ، وهي عري بغير سرج ، والبدوي عليها بقميص وطاقية . فلما وقفت بين يدي السلطان ، صاح البدوي : السعادة لك اليوم يامهنا ، لا شقيت .

فشق على السلطان أن خيله سبقت ، وأبطل التضمير من خيله . وصارت الأمراء تضمر على عادتها .

ومات الناصر محمد عن أربعة آلاف وثمانمائة فرس ، وترك زيادة على خمسة آلاف من الهجن الأصائل والنوق المهريات والقرشيات سوى أتباعها ، وبطل بعده السباق .

فلما كانت أيام الظاهر برقوق ، عنى بالخيل أيضا . ومات عن سبعة آلاف فرس ، وخمسة عشر ألف جمل .

« ديوان الانشاء » : وكان بجوار قاعة الصاحب بقلعة الجبل ديوان الانشاء . يجلس فيه كاتب السر ، وعنده موقعو الدرج وموقعو الدست ، في أيام المواكب طول النهار ، ويحمل اليهم من المطبخ السلطاني المطاعم .

وكانت الكتب الواردة ، وتعليق ما يكتب من الباب السلطاني ، موضوعه بهذه القاعة . وأنا جلست بها عند القاضي بدر الدين محمد ابن فضل الله العمري ، أيام مباشرتي التوقيع السلطاني ، الى نحو السبعين والسبعمائة .

فلما زالت * دولة الظاهر برقوق ثم عادت ، اختلت أمور كثيرة ، منها أمر قاعة الانشاء بالقلعة ، وهجرت ، وأخذ ما كان فيها من الأوراق وبيعت بالقنطار ، ونسى رسمها .

وكتابة السر رتبة قديمة ، ولها أصل في السنة . فقد خرج أبو بكر عبد الله بن أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني ، في

(*) ص٢٢٥ ، جـ٢ ط. بولاق .

كتاب « المصاحف » ، من حديث الأعمش ، عن ثابت بن عبيد ، عن زيد بن ثابت رضي الله عنه ، قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : « انها تأتيني كتب لا أحب أن يقرأها كل أحد ، فهل تستطيع أن تعلم كتاب العبرانية (أو قال السريانية) » .

فقلت : نعم .

قال : فتعلمتها في سبع عشرة ليلة .

ولم يزل خلفاء الاسلام يختارون لكتابة سرهم الواحد بعد الواحد . وكان موضوع كتابة السر في الدولة التركية ، على ما استقر عليه الأمر في أيام الناصر محمد بن قلاوون ، أن لمتوليها — المسمى بكاتب السر ، وبصاحب ديوان الانشاء ، ومن الناس من يقول ناظر ديوان الانشاء — قراءة الكتب الواردة على السلطان ، وكتابة أجوبتها اما بخطه ، أو بخط كتاب الدست أو كتاب الدرج ، بحسب الحال .

وله تسفير الأجوبة بعد أخذ علامة السلطان عليها ، وله تصريف المراسيم ورودا وصدورا ، وله الجلوس بين يدي السلطان بدار العدل لقراءة القصص ، والتوقيع عليها بخطه في المجلس . فصار يوقع فيما كان يوقع عليه بقلم الوزارة ، وصار اليه التحدث في مجلس السلطان عند عقد المشورة ، وعند اجتماع الحكام لفصل أمر مهم ، وله التوسط بين الأمراء والسلطان فيما يندب اليه عند الاختلاف أو التدبير ، واليه ترجع أمور القضاة ومشايخ العلم ونحوهم في سائر المملكة مصرا وشاما ، فيمضي من أمورهم ما

أحب ، ويشاور السلطان فيما لا بد من مشاورته فيه .

وكانت العادة أن يجلس تحت الوزير . فلما عظم تمكن القاضى فتح الدين فتح الله كاتب السر من الدولة ، جلس فوق الوزير الصاحب سعد الدين ابراهيم البشيرى . فاستمر ذلك لمن بعده .

ورتبة كاتب السر أجل الرتب ، وذلك أنها منتزعة من الملك . فان الدولة العباسية صار خلفاؤها فى أول أمرهم ، منذ عهد أبى العباس السفاح الى أيام هارون الرشيد ، يستبدون بأمورهم .

فلما صارت الخلافة الى هارون ، ألقى مقاليد الأمور الى يحيى بن جعفر البرمكى . فصار يحيى يوقع على رقاع الرافعين بخطه فى الولايات ، وازالة الظلامات ، واطلاق الأرزاق والعطيات . فجلت لذلك رتبته ، وعظمت من الدولة مكانته .

وكان هو أول من وقع من وزراء خلفاء بنى العباس ، وصار من بعده من الوزراء يوقعون على القصص كما كان يوقع .

وربما انفرد رجل بديوان السر وديوان الترسل . ثم أفردت فى أخريات دولة بنى العباس ، واستقل بها كتاب لم يبلغوا مبلغ الوزراء . وكانوا ببغداد يقال لهم كتاب الانشاء ، وكبيرهم يدعى رئيس ديوان الانشاء ويطلق عليه تارة صاحب ديوان الانشاء ، وتارة كاتب السر . ومرجع هذا الديوان الى الوزير وكان يقال له الديوان العزيز ، وهو الذى يخاطبه الملوك فى مكاتبات الخلفاء .

وكان فى الدولة السلجوقية يسمى ديوان الانشاء بديوان الطغرا ، واليه ينسب مؤيد الدين الطغرائى . والطغرا هى طرة المكتوب ، فيكتب أعلى من البسملة بقلم غليظ ألقاب الملك . وكانت تقوم عندهم مقام خط السلطان بيده على المناشير والكتب ، ويستغنى بها عن علامة السلطان ، وهى لفظة فارسية .

وفى بلاد المغرب يقال لرئيس ديوان الانشاء صاحب القلم الأعلى . وأما مصر فانه كان بها فى القديم — لما كانت دار امارة — ديوان البريد . ويقال لمتوليه صاحب البريد ، واليه مرجع ما يرد من دار الخلافة على أيدى أصحاب البريد من الكتب ، وهو الذى يطالع بأخبار مصر . وكان لأمراء مصر كتاب ينشئون عنهم الكتب والرسائل الى الخليفة وغيره .

فلما صارت مصر دار خلافة ، كان القائد جوهر يوقع على قصص الرافعين . الى أن قدم المعز لدين الله فوقع ، وجعل أمر الأموال وما يتعلق بها الى يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن ، فوليا أموال الدولة .

ثم فوض العزيز بالله أمر الوزارة ليعقوب ابن كلس . فاستبد بجميع أحوال المملكة ، وجرى مجرى يحيى بن جعفر البرمكى ، وكان يوقع ، ومع ذلك ففى أمراء الدولة من يلى البريد . وجرى الأمر فيما بعد على أن الوزراء يوقعون ، وقد يوقع الخليفة بيده .

فلما كانت أيام المستنصر بالله أبى تميم معد بن الظاهر ، وصرف أبا جعفر محمد بن جعفر بن المغربى عن وزارته ، أفرد له ديوان الانشاء ، فوليه مدة طويلة ، وأدرك أيام أمير

الجيوش بدر الجمالى . وصار يلى ديوان الانشاء بعده الأكابر ، الى أن انقرضت الدولة وهو بيد القاضى الفاضل عبد الرحيم بن على البيسانى . فاقتدت بهم الدولة الأيوبية ، ثم الدولة التركية فى ذلك . وصار الأمر على هذا الى اليوم .

وصار متولى رتبة كتابة السر أعظم أهل الدولة ، الا أنه فى الدولة التركية يكون معه من الأمراء واحد يقال له الدوادار ، منزلته منزلة صاحب البريد فى الزمن الأول . ومنزلة كاتب السر منزلة صاحب ديوان الانشاء ، الا أنه يتميز بالتوقيع على القصص تارة بمراجعة السلطان ، وتارة بغير مراجعة . فلذلك يحتاج اليه * سائر أهل الدولة من أرباب السيوف والأقلام ، ولا يستغنى عن حسن سفارته نائب الشام فمن دونه . ولله الأمر كله .

وأما فى الدولة الأيوبية ، فان كتاب الدرج كانوا فى الدولة الكاملية قليلين جدا ، وكانوا فى غاية الصيانة والنزاهة وقلة الخلطة بالناس . واتفق أن الصاحب زين الدين يعقوب ابن الزبير كان من جملتهم ، فسمع الملك الصالح نجم الدين أيوب عنه أنه يحضر فى السماعات ، فصرفه من ديوان الانشاء ، وقال : هذا الديوان لا يحتمل مثل هذا .

وكانت العادة ألا يحضر كتاب الانشاء الديوان يوم الجمعة . فعرض للملك الصالح فى بعض أيام الجمع شغل مهم ، فطلب بعض الموقعين فلم يجد أحدا منهم ، فقيل له انهم لا يحضرون يوم الجمعة ، فقال : استخدموا فى الديوان كاتبا نصرانيا يقعد يوم الجمعة لهم بطرأ . فاستخدم الأمجد بن العسال كاتب الدرج لهذا المعنى .

« نظر الجيش » : قد تقدم أنه كان يجلس بالقلعة دواوين الجيش فى أيام الموكب ، وتقدم فى ذكر الاقطاعات وذكر النيابة ما يدل على حال متولى نظر الجيش . ولابد مع ناظر الجيش أن يكون من المستوفين من يضبط كليات المملكة وجزئياتها فى الاقطاعات وغيرها .

« نظر الخاص » : هذه الوظيفة وان كان لها ذكر قديم من عهد الخلفاء الفاطميين ، فان متوليها لم يبلغ من جلالة القدر ما بلغ اليه فى الدولة التركية . وذلك أن الملك الناصر محمد بن قلاوون لما أبطل الوزارة ، وأقام القاضى كريم الدين الكبير فى وظيفة نظر الخاص ، صار متحدثا فيما هو خاص بمال السلطان ... يتحدث فى مجموع الأمر الخاص بنفسه ، وفى القيام بأخذ رأيه فيه . فبقى تحدثه فيه وبسببه كأنه هو الوزير لقربه من السلطان وزيادة تصرفه .

والى ناظر الخاص التحدث فى الخزانة السلطانية ، وكانت بقلعة الجبل ، وكانت كبيرة الوضع لأنها مستودع أموال المملكة . وكان نظر الخزانة منصبا جليلا ... الى أن استحدثت وظيفة نظر الخاص . فضعف أمر نظر الخزانة وأمر الخزانة أيضا ، وصارت تسمى الخزانة الكبرى ، وهو اسم أكبر من مسماه ، ولم يبق بها الا خلع يخلع منها أو

(*) ص٢٢٦ جـ٢ ، ط. بولاق .

ما يحضر اليها ويصرف أولا فأولا ، وصار نظر الخزانة مضافا الى ناظر الخاص .

وكان الرسم ألا يلى نظر الخزانة الا القضاة أو من يلحق بهم . وما برحت الخزانة بقلعة الجبل حتى عملها الأمير منطاش سجنا لمماليك الظاهر برقوق فى سنة تسعين وسبعمائة ، فتلاشت من حينئذ ، ونسى أمرها ، وصارت الخلع ونحوها عند ناظر الخاص فى داره .

وكانت لأهل الدولة فى الخلع عوايد ، وهم على ثلاثة أنواع : أرباب السيوف ، والأقلام ، والعلماء . فأما أرباب السيوف فكانت خلع أكابر أمراء المئين الأطلس الأحمر الرومى ، وتحته الأطلس الأصفر الرومى ، وعلى الفوقانى طرز زركش ذهب وتحته سنجاب ، وله سجف من ظاهره مع الغشاء قندس ، وكلوتة زركش بذهب وكلاليب ذهب ، وشاش لانس رفيع موصول به فى طرفيه حرير أبيض مرقوم بألقاب السلطان ، مع نقوش باهرة من الحرير الملون ، مع منطقة ذهب .

ثم تختلف أحوال المنطقة بحسب مقاديرهم ، فأعلاها ما عمل بين عمدها بواكر وسطى ، ومجنبتان بالبلخش والزمرذ واللؤلؤ ، ثم ما كان ببيكارية واحدة مرصعة ، ثم ما كان ببيكارية واحدة غير مرصعة . وأما من تقلد ولاية كبيرة منهم فانه يزاد سيفا محلى بذهب يحضر من السلاح خاناه ، ويحليه ناظر الخاص ، ويزاد فرسا مسرجا ملجما بكنبوش ذهب ، والفرس من الاصطبل ، وقماشه من الركاب خاناه . ومرجع العمل فى سروج الذهب والكنابيش الى ناظر الخاص .

وكان رسم صاحب حماة من أعلى هذه الخلع ، ويعطى بدل الشاش اللانس شاش من عمل الاسكندرية حرير شبيه بالطول ، وينسج بالذهب ، ويعرف بالمثمر ، ويعطى فرسين أحدهما كما ذكر ، والآخر يكون عوض كنبوشه زنارى أطلس أحمر .

وكانت لنائب الشام — على ما استقر فى أيام الناصر محمد بن قلاوون — مثل هذا ، وزيد لتنكز تركيبة زركش ذهب دائرة بالقباء الفوقانى .

ودون هذه الرتبة فى الخلع نوع يسمى طرز وحش ، يعمل بدار الطراز التى كانت بالاسكندرية وبمصر وبدمشق ، وهو مجوخ جاخات كتابة بألقاب السلطان ، وجاخات طرزوحش ، وجاخات ألوان ممتزجة بقصب مذهب . يفصل بين هذه الجاخات نقوش ، وطراز هذا يكون من القصب ، وربما كبر بعضهم فركب عليه طرازا مزركشا بالذهب ، وعليه فرو سنجاب وقندس كما تقدم ، وتحت القباء الطرزوحش قباء من المقترح الاسكندرانى الطرح ، وكلوتة زركش بكلاليب وشاش على ما تقدم ، وحياصة ذهب ، فتارة تكون ببيكارية ، وتارة لا يكون بها بيكارية ، وهذه لأصاغر أمراء المئين ومن يلحق بهم .

ودون هذه الرتبة فى الخلع كمخا عليه نقش من لون آخر غير لونه ، وقد يكون من نوع لونه بتفاوت بينهما ، وتحته سنجاب بقندس ، والبقية كما تقدم ، الا أن الحياصة والشاش لا يكونان بأطراف رقم ، بل تكون مجوخة بأخضر وأصفر مذهب ، والحياصة لا تكون ببيكارية .

ودون هذه المرتبة كمخا تكون واحدة بسنجاب مقندس ، والبقية على * ما ذكر ، وتكون الكلوتة خفيفة الذهب ، وجانباها يكادان يكونان خاليين بالجملة ، ولا حياصة له . ودون هذه الرتبة مجوم لون واحد ، والبقية على ما ذكر ، خلا الكلوتة والكلاليب . ودون هذه الرتبة مجوم مقندس ، وهو قباء ملون بجاخات من أحمر وأخضر وأزرق ، وغير ذلك من الألوان ، بسنجاب وقندس ، وتحته قباء اما أزرق أو أخضر ، وشاش أبيض بأطراف من نسبة ما تقدم ذكره . ثم دون هذا من هذا النوع .

وأما الوزراء والكتاب فأجل ما كانت خلعهم الكمخا الأبيض المطرز برقم حرير ساذج ، وسنجاب مقندس وتحته كمخا أخضر ، وبقيار كان من عمل دمياط مرقوم وطرحة .

ثم دون هذه الرتبة عدم السنجاب ، بل يكون القندس بدائر الكمين وطول الفرج ، ودونها ترك الطرحة ، ودونها أن يكون التحتانى مجوما ، ودون هذا أن يكون الفوقانى من الكمخا لكنه غير أبيض ، ودونه أن يكون الفوقانى مجوما أبيض ، ودونه أن يكون تحته عنابى .

وأما القضاة والعلماء فان خلعهم من الصوف بغير طراز ، ولهم الطرحة ، وأجلهم أن يكون أبيض ، وتحته أخضر ، ثم ما دون ذلك .

وكانت العادة أن أهبة الخطباء — وهى السواد — تحمل الى الجوامع من الخزانة ، وهى دلق مدور ، وشاش أسود ، وطرحة سوداء ، وعلمان أسودان مكتوبان بأبيض أو بذهب ، وثياب المبلغ قدام الخطيب مثل ذلك خلا الطرحة .

وكانت العادة اذا خلقت الأهبة المذكورة ، أعيدت الى الخزانة ، وصرف عوضها .

وكانت للسلطان عادات بالخلع : تارة فى ابتداء سلطنته ، وتشمل حينئذ الخلع سائر أرباب المملكة . بحيث خلع فى يوم واحد عند اقامة الأشرف كجك بن الناصر محمد بن قلاوون ، ألف ومائتا تشريف ، فى وقت لعبه بالكرة ، على أناس جرت عوايدهم بالخلع فى ذلك الوقت ، كالجوكندارية والولاة ومن له خدمة فى ذلك . وتارة فى أوقات الصيد عندما يسرح ، فاذا حصل أحد شيئا مما يصيده خلع عليه ، واذا أحضر أحد اليه غزالا أو نعاما خلع عليه قباء مسجفا مما يناسب خلعة مثله على قدره ، وكذلك يخلع على البزدارية وجملة الجوارح ومن يجرى مجراهم عند كل صيد .

وكانت العادة أيضا أن ينعم على غلمان الطشت خاناه والشراب خاناه والفراش خاناه ، ومن يجرى مجراهم ، فى كل سنة عند أوان الصيد . وكانت العادة أن من يصل الى الباب من البلاد ، أو يرد عليه أو يهاجر من مملكة أخرى اليه ، أن ينعم عليه مع الخلع بأنواع الادرارات والأرزاق والانعامات .

وكذلك التجار الذين يصلون الى السلطان ، ويبيعون عليه ، لهم مع الخلع الرواتب الدائمة من الخبز واللحم والتوابل والحلوى والعليق

(*) ص٢٢٧ ج٢ ، ط. بولاق .

والمسامحات ، بنظير كلّ ما يباع من الرقيق المماليك والجوارى ، مع ما يسامحون به أيضا من حقوق أخرى تطلق .

وكل واحد من التجار اذا باع على السلطان ، ولو رأسا واحدا من الرقيق ، فله خلعة مكملة بحبسه — خارجا عن الثمن وعما ينعم به عليه أو يسفر به — من مال السبيل ، على سبيل القرض ليتاجر به .

وأما جلابة الخيل من عرب الحجاز والشام والبحرين وبرقة وبلاد المغرب ، فان لهم الخلع والرواتب والعلوفات والأنزال ورسوم الاقامات ، خارجا عن مسامحات تكتب لهم بالمقررات عن تجارة يتجرون بها مما أخذوه من أثمان الخيول .

وكان يثمن الفرس بأزيد من قيمته . حتى ربما بلغ ثمنه على السلطان — الذى يأخذه محضره — نظير قيمته عليه عشر مرات ، غير الخلع وسائر ما ذكر . ولم يبق اليوم سوى ما يخلع على أرباب الدولة .

وقد استجد فى الأيام الظاهرية ، وكثر فى أيام الناصر فرج نوع من الخلع — يقال له الجبة — يلبسه الوزير ونحوه من أرباب الرتب العلية ... جعلوا ذلك ترفعا عن لبس الخلعة .

ولم تكن الملوك تلبس من الثياب الا المتوسط ، وتجعل حوائصها بغير ذهب . فلم تزد حياصة الناصر محمد على مائة درهم فضة ، ولم يزد أيضا سقط سرجه على مائة درهم فضة ، على عباءة صوف تدمرى أو شامى .

فلما كانت دولة أولاده بالغوا فى الترف ، وخالفوا فيه عوايد أسلافهم . ثم سلك الظاهر برقوق فى ملابسه بعض ما كان عليه الملوك الأكابر لا كله ، وترك لبس الحرير .

« الميدان بالقلعة » : هذا الميدان من بقايا ميدان أحمد بن طولون الذى تقدم ذكره عند ذكر القطائع من هذا الكتاب ، ثم بناه الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب فى سنة احدى عشرة وستمائة ، وعمر الى جانبه بركا ثلاثا لسقيه ، وأجرى الماء اليها ، ثم تعطل هذا الميدان مدة .

فلما قام من بعده ابنه الملك العادل أبو بكر محمد بن الكامل محمد اهتم به . ثم اهتم به الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل اهتماما زائدا ، وجدد له ساقية أخرى ، وأنشأ حوله الأشجار ، فجاء من أحسن شىء يكون الى أن مات . فتلاشى أمر الميدان بعده ، وهدمه الملك المعز أيبك سنة احدى وخمسين وستمائة ، وعفت آثاره .

فلما كانت سنة اثنتى عشرة وسبعمائة ، ابتدأ الملك الناصر محمد بن قلاوون عمارته ، فاقتطع من باب الاصطبل الى قريب باب القرافة ، وأحضر جميع جمال الأمراء ، فنقلت اليه الطين حتى كساه كله وزرعه ، وحفر به الآبار * وركب عليها السواقى ، وغرس فيه النخل الفاخر والأشجار المثمرة ، وأدار عليه هذا السور الحجر الموجود الآن ، وبنى حوضا للسبيل من خارجه .

فلما كمل ذلك نزل اليه ولعب فيه الكرة مع أمرائه ، وخلع عليهم ، واستمر يلعب فيه يومى الثلاثاء والسبت ، وصار القصر الأبلق

(*) ص٢٢٨ جـ٢ ، ط. بولاق .

يشرف على هذا الميدان ، فجاء ميدانا فسيح المدى يسافر النظر فى أرجائه .

واذا ركب السلطان اليه نزل من درج تلى قصره الجوانى . فينزل السلطان الى الاصطبل الخاص ، ثم الى هذا الميدان ، وهو راكب ، وخواص الأمراء فى خدمته . فيعرض الخيول فى أوقات الاطلاقات ، ويلعب فيه الكرة . وكان فيه عدة من أنواع الوحوش المستحسنة المنظر ، وكانت تربط به أيضا الخيول الخاصة للتفسح .

وفى هذا الميدان يصلى السلطان أيضا صلاة العيدين ، ويكون نزوله اليه فى يوم العيد وصعوده من باب خاص من دهليز القصر ، غير المعتاد النزول منه . فاذا ركب من باب قصره ، ونزل الى منفذه من الاصطبل الى هذا الميدان ، ينزل فى دهليز سلطانى قد ضرب له على أكمل ما يكون من الأبهة ، فيصلى ويسمع الخطبة . ثم يركب ويعود الى الايوان الكبير ، ويمد به السماط ، ويخلع على حامل القبة والطير ، وعلى حامل السلاح والأستادار والجاشنكير وكثير من أرباب الوظائف .

وكانت العادة أن تعد للسلطان أيضا خلعة العيد ، على أنه يلبسها كما كانت العادة فى أيام الخلفاء ، فينعم بها على بعض أكابر أمراء المئين . ولم يزل الحال على هذا الى أن كانت سنة ثمانمائة ، فصلى الملك الظاهر برقوق صلاة عيد النحر بجامع القلعة لتخوفه بعد وقعة الأمير على باى ، فهجر الميدان . واستمرت صلاة العيد بجامع القلعة من عامئذ طول الأيام الناصرية والمؤيدية .

« الحوش » : ابتدىء العمل فيه ، على أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون ، فى سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة . وكان قياسه أربعة فدادين ، وكان موضعه بركة عظيمة قد قطع ما فيها من الحجر لعمارة قاعات القلعة حتى صارت غورا كبيرا .

ولما شرع فى العمل رتب على كل أمير من أمراء المئين مائة رجل ومائة بهيمة لنقل التراب برسم الردم ، وعلى كل أمير من أمراء الطبلخاناه بحسبه ، وندب الأمير أقبغا عبد الواحد شاد العمل . فحضر من عند كل من الأمراء أستاداره ومعه جنده ودوابه للعمل ، وأحضر الأسارى ، وسخر والى القاهرة ووالى مصر الناس ، وأحضرت رجال النواحى ، وجلس أستادار كل أمير فى خيمة ، ووزع العمل عليهم بالأقصاب .

ووقف الأمير أقبغا يستحث الناس فى سرعة العمل ، وصار الملك الناصر يحضر فى كل يوم بنفسه . فنال الناس من العمل ضرر زائد ، وأخرق أقبغا بجماعة من أماثل الناس ، ومات كثير من الرجال فى العمل ، لشدة العسف وقوة الحر ، وكان الوقت صيفا . فانتهى عمله فى ستة وثلاثين يوما .

وأحضر اليه من بلاد الصعيد ومن الوجه البحرى ألفى رأس غنم ، وكثيرا من الأبقار البلق لتوقف فى هذا الحوش ، فصار مراح غنم ومربط بقر . وأجرى الماء الى هذا الحوش من القلعة ، وأقام الأغنام حوله .

وتتبع فى كل سنة المراحات ، من عيذاب وقوص الى ما دونهما من البلاد ، حتى يؤخذ ما بهما من الأغنام المختارة ، وجلبها من بلاد

النوبة ومن اليمن . فبلغت عدتها بعد موته ثلاثين ألف رأس سوى أتباعها ، وبلغ البقل الأخضر الذى يشترى لفراخ الاوز فى كل يوم خمسين درهما : عنها زيادة على مثقالين من الذهب .

فلما كانت أيام الظاهر برقوق ، عمل المولد النبوى بهذا الحوش فى أول ليلة جمعة من شهر ربيع الأول فى كل عام . فاذا كان وقت ذلك ضربت خيمة عظيمة بهذا الحوش ، وجلس السلطان وعن يمينه شيخ الاسلام سراج الدين عمر بن رسلان بن نصير البلقينى ، ويليه ولد شيخ الاسلام ومن دونه ، وعن يسار السلطان الشيخ أبو عبد الله محمد بن سلامة التوزرى المغربى ، ويليه قضاة القضاة الأربعة وشيوخ العلم ، ويجلس الأمراء على بعد من السلطان .

فاذا فرغ القراء من قراءة القرآن الكريم ، قام المنشدون واحدا بعد واحد — وهم يزيدون على عشرين منشدا — فيدفع لكل واحد منهم صرة فيها أربعمائة درهم فضة ، ومن كل أمير من أمراء الدولة شقة حرير . فاذا انقضت صلاة المغرب ، مدت أسمطة الأطعمة الفائقة فأكلت وحمل ما فيها ، ثم مدت أسمطة الحلوى السكرية من الجوارشات والعقائد ونحوها فتؤكل وتخطفها الفقهاء . ثم يكون تكميل انشاد المنشدين ووعظهم الى نحو ثلث الليل . فاذا فرغ المنشدون ، قام القضاة وانصرفوا ، وأقيم السماع بقية الليل . واستمر ذلك مدة أيامه ، ثم أيام ابنه الملك الناصر فرج .

ذكر المياه التى بقلعة الجبل

وجميع مياه القلعة من ماء النيل ، تنقل من موضع الى موضع حتى تمر فى جميع ما يحتاج اليه بالقلعة * . وقد اعتنى الملوك بعمل السواقى التى تنقل الماء من بحر النيل الى القلعة عناية عظيمة . فأنشأ الملك الناصر محمد ابن قلاوون ، فى سنة اثنتى عشرة وسبعمائة ، أربع سواق على بحر النيل تنقل الماء الى السور ، ثم من السور الى القلعة . وعمل نقالة من المصنع الذى عمله الظاهر بيبرس ، بجوار زاوية تقى الدين رجب ، التى بالرميلة تحت القلعة ، الى بئر الاصطبل .

فلما كانت سنة ثمان وعشرين وسبعمائة ، عزم الملك الناصر على حفر خليج من ناحية حلوان الى الجبل الأحمر المطل على القاهرة ، ليسوق الماء الى الميدان الذى عمله بالقلعة ، ويكون حفر الخليج فى الجبل .

فنزل لكشف ذلك ومعه المهندسون ، فجاء قياس الخليج طولا اثنين وأربعين ألف قصبة ، فيمر الماء فيه من حلوان حتى يحاذى القلعة ، فاذا حاذاها بنى هناك خبايا تحمل الماء الى القلعة ليصير الماء بها غزيرا كثيرا ، دائما صيفا وشتاء لا ينقطع ولا يتكلف لحمله ونقله ، ثم يمر من محاذاة القلعة حتى ينتهى الى الجبل الأحمر ، فيصب من أعلاه الى تلك الأرض حتى تزرع .

وعندما أراد الشروع فى ذلك ، طلب الأمير سيف الدين قطلوبك بن قراسنقر الجاشنكير ، أحد أمراء الطبلخاناه بدمشق ، بعدما فرغ من

(*) ص٢٢٩ جـ٢ ، ط.بولاق .

بناء القناة ، وساق العين الى القدس . فحضر ومعه الصناع الذين عملوا قناة عين بيت المقدس ، على خيل البريد ، الى قلعة الجبل فأنزلوا . ثم أقيمت لهم الجرايات والرواتب ، وتوجهوا الى حلوان ، ووزنوا مجرى الماء ، وعادوا الى السلطان ، وصوبوا رأيه فيما قصد ، والتزموا بعمله .

فقال : كم تريدون ؟

قالوا : ثمانين ألف دينار .

فقال : ليس هذا بكثير ... فقال : كم تكون مدة العمل فيه حتى يفرغ ؟

قالوا : عشر سنين . فاستكثر طول المدة .

ويقال ان الفخر ، ناظر الجيش ، هو الذى حسن لهم أن يقولوا هذه المدة ، فانه لم يكن من رأيه عمل هذا الخليج . وما زال يخيل للسلطان ، من كثرة المصروف عليه ومن خراب القرافة ، ما حمله على صرف رأيه عن العمل ، وأعاد قطلوبك والصناع الى دمشق . فمات قطلوبك عقيب ذلك فى سنة تسع وعشرين وسبعمائة فى ربيع الأول .

فلما كانت سنة احدى وأربعين وسبعمائة ، اهتم الملك الناصر بسوق الماء الى القلعة وتكثيره بها ، لأجل سقى الأشجار وملء الفساقى ، ولأجل مراحات الغنم والأبقار . فطلب المهندسين والبنائين ، ونزل معهم ، وسار فى طول القناطر التى تحمل الماء من النيل الى القلعة حتى انتهى الى الساحل ، فأمر بحفر بئر أخرى ليركب عليها القناطر حتى تتصل بالقناطر العتيقة ، فيجتمع الماء من بئرين ، ويصير ماء واحدا يجرى الى القلعة فيسقى الميدان وغيره . فعمل ذلك .

ثم أحب الزيادة فى الماء أيضا ، فركب ومعه المهندسون الى بركة الحبش ، وأمر بحفر خليج صغير يخرج من البحر ، ويمر الى حائط الرصد ، وينقر فى الحجر تحت الرصد عشر آبار يصب فيها الخليج المذكور ، ويركب على الآبار السواقى لتنقل الماء الى القناطر العتيقة التى تحمل الماء الى القلعة زيادة لمائها .

وكان فيما بين أول هذا المكان الذى عين لحفر الخليج ، وبين آخره تحت الرصد ، أملاك كثيرة وعدة بساتين . فندب الأمير أقبغا عبد الواحد لحفر هذا الخليج ، وشراء الأملاك من أربابها . فحفر الخليج ، وأجراه فى وسط بستان الصاحب بهاء الدين بن حنا ، وقطع أنشابه ، وهدم الدور ، وجمع عامة الحجارين لقطع الحجر ونقر الآبار .

وصار السلطان يتعاهد النزول للعمل كل قليل ، فعمل عمق الخليج من فم البحر أربع قصبات ، وعمق كل بئر فى الحجر أربعين ذراعا . فقدر الله تعالى موت الملك الناصر قبل تمام هذا العمل ، فبطل ذلك ، وانطم الخليج بعد ذلك ، وبقيت منه الى اليوم قطعة بجوار رباط الآثار .

وما زالت الحائط قائمة من الحجر فى غاية الاتقان من احكام الصنعة وجودة البناء ، عند سطح الجرف الذى يعرف اليوم بالرصد ، قائما من الأرض فى طول الجرف الى أعلاه . حتى هدمه الأمير يلبغا السالمى فى سنة اثنتى عشرة وثمانمائة ، وأخذ ما كان به من الحجر ،

فرم به القناطر التى تحمل الى اليوم الماء حتى يصل الى القلعة . وكانت تعرف بسواقى السلطان ، فلما هدمت جهل أكثر الناس أمرها ، ونسوا ذكرها .

« المطبخ » : كان أولا موضعه فى مكان الجامع ، فأدخله السلطان الملك الناصر محمد ابن قلاوون فيما زاده فى الجامع ، وبنى هذا المطبخ الموجود الآن ، وعمل عقوده بالحجارة خوفا من الحريق .

وكانت أحوال المطبخ متسعة جدا ... سيما فى سلطنة الأشرف خليل بن قلاوون ، فانه تبسط فى المآكل وغيرها . حتى لقد ذكر جماعة من الأعيان أنهم أقاموا مدة سفرهم معه يرسلون كل يوم عشرين درهما ، فيشترى لهم بها مما يأخذه الغلمان أربع خوافق صينى ، مملوءة طعاما مفتخرا بالقلوبات ونحوها ، فى كل خافقية ما ينيف على خمسة عشر رطل لحم ، أو عشرة أطيار دجاج سمان .

وبلغ راتب الحوايج خاناه ، فى أيام الملك العادل كتبغا ، كل يوم عشرين ألف رطل لحم ، وراتب البيوت والجرايات غير أرباب الرواتب فى كل يوم سبعمائة اردب قمحا .

واعتبر القاضى شرف الدين عبد الوهاب النشو ، ناظر الخاص ، أمر المطبخ السلطانى فى سنة تسع وثلاثين وسبعمائة * فوجد عدة الدجاج الذى يذبح فى كل يوم للسماط ، والمخاصى التى تخص السلطان ويبعث بها الى الأمراء سبعمائة طائر ، وبلغ مصروف الحوايج خاناه فى كل يوم ثلاثة عشر ألف درهم .

(*) ص٢٢٠ جـ٢ ، ط . بولاق .

فأكثر أولاد الناصر من مصروفها حتى توقفت أحوال الدولة فى أيام الصالح اسماعيل .

وكتبت أوراق بكلف الدولة فى سنة خمس وأربعين وسبعمائة ، فبلغت فى السنة ثلاثين ألف ألف درهم ، منها مصروف الحوايج خاناه فى كل يوم اثنان وعشرون ألف درهم . وبلغ فى أيام الناصر محمد بن قلاوون راتب السكر ، فى شهر رمضان خاصة ، ألف قنطار . ثم تزايد حتى بلغ فى شهر رمضان سنة خمس وأربعين وسبعمائة ثلاثة آلاف قنطار ، عنها ستمائة ألف درهم ، عنها ثلاثون ألف دينار مصرية .

وكان راتب الدور السلطانية ، فى كل يوم من أيام شهر رمضان ، ستين قنطارا من الحلوى برسم التفرقة للدور وغيرها . وكانت الدولة قد توقفت أحوالها ، فوفر من المصروف فى كل يوم أربعة آلاف رطل لحم ، وستمائة كماجة سميذ ، وثلثمائة اردب من الشعير ، ومبلغ ألفى درهم فى كل شهر . وأضيف الى ديوان الوزارة سوق الخيل والدواب والجمال ، وكانت بيد عدة أجناد عوضوا عنها اقطاعات بالنواحى .

واعتبر فى سنة ست وأربعين وسبعمائة متحصل الحاج على الطباخ ، فوجد له على المعاملين فى كل يوم خمسمائة درهم ، ولابنه أحمد فى كل يوم ثلثمائة درهم ... سوى الأطعمة المفتخرة وغيرها ، وسوى ما كان يتحصل له فى عمل المهمات مع كثرتها . ولقد تحصل له من ثمن الرؤوس والأكارع وسقط الدجاج والاوز ، فى مهم عمله للأمير بكتمر الساقى ، ثلاثة وعشرون ألف درهم ، عنها نحو

ألفين ومائتى دينار . فأوقعت الحوطة عليه ، وصودر ، فوجد له خمسة وعشرون دارا على البحر وفى عدة أماكن .

واعتبر مصروف الحوايج خاناه ، فى سنة ثمان وأربعين وسبعمائة ، فكان فى كل يوم اثنين وعشرين ألف رطل من اللحم .

« أبراج الحمام » : كان بالقلعة أبراج برسم الحمام التى تحمل البطائق ، وبلغت عدتها — على ما ذكره ابن عبد الظاهر فى كتاب تمائم الحمائم — الى آخر جمادى الآخرة سنة سبع وثمانين وستمائة ألف طائر وتسعمائة طائر . وكان بها عدة من المقدمين لكل مقدم منهم جزء معلوم .

وكانت الطيور المذكورة لاتبرح فى الأبراج بالقلعة ، ما عدا طائفة منها فانها فى برج بالبرقية خارج القاهرة ، يعرف ببرج الفيوم ، رتبه الأمير فخر الدين عثمان بن قزل ، أستادار الملك الكامل محمد ابن الملك العادل أبى بكر ابن أيوب ، وقيل له برج الفيوم ، فان جميع الفيوم كانت فى اقطاع ابن قزل ، وكانت البطائق ترد اليه من الفيوم ، ويبعثها من القاهرة الى الفيوم من هذا البرج ، فاستمر هذا البرج يعرف بذلك .

وكان بكل مركز حمام فى سائر نواحى المملكة ، مصرا وشاما ، ما بين أسوان الى الفرات . فلا تحصى عدة ما كان منها فى الثغور والطرقات الشامية والمصرية ، وجميعها تدرج وتنقل من القلعة الى سائر الجهات .

وكان لها بغال الحمل من الاصطبلات السلطانية ، وجامكيات البراجين والعلوفات تصرف من الأهراء السلطانية ، فتبلغ النفقة عليها من الأموال ما لا يحصى كثرة . وكانت ضريبة العلف لكل مائة طائر ربع ويبة فول فى كل يوم .

وكانت العادة ألا تحمل البطاقة الا فى جناح الطائر لأمور : منها حفظ البطاقة من المطر ، وقوة الجناح . ثم انهم عملوا البطاقة فى الذنب .

وكانت العادة اذا يطق من قلعة الجبل الى الاسكندرية فلا يسرح الطائر الا من منية عقبة بالجيزة وهى أول المراكز ، واذا سرح الى الشرقية لا يطلق الا من مسجد تبر خارج القاهرة ، واذا سرح الى دمياط لا يسرح الا من ناحية بيسوس . وكان يسير مع البراجين من يوصلهم الى هذه الأماكن من الجاندارية .

وكذلك كانت العادة فى كل مملكة يتوخى الابعاد فى التسريح عن مستقر الحمام . والقصد بذلك أنها لا ترجع الى أبراجها من قريب . وكان يعمل فى الطيور السلطانية علائم ، وهى داغات فى أرجلها أو على مناقيرها ويسميها أرباب الملعوب « الاصطلاح » .

وكان الحمام اذا سقط بالبطاقة لا يقطع البطاقة من الحمام الا السلطان بيده من غير واسطة . وكانت لهم عناية شديدة بالطائر ، حتى ان السلطان اذا كان يأكل ، وسقط الطائر ، لا يمهل حتى يفرغ من الأكل ، بل يحل البطاقة ويترك الأكل ، وهكذا اذا كان نائما لا يمهل بل ينبه .

قال ابن عبد الظاهر : وهذا الذى رأينا عليه ملوكنا ، وكذلك فى الموكب وفى لعب الأكرة ، لأنه بلمحة يفوت ، ولا يستدرك المهم

العظيم ، اما من واصل أو هارب ، واما من متجدد في الثغور .

قال : وينبغي أن تكتب البطائق في ورق الطير المعروف بذلك ، ورأيت الأوائل لا يكتبون في أولها بسملة ، وتؤرخ بالساعة واليوم لا بالسنين ، وأنا أؤرخها بالسنة ، ولا يكثر في نعوت المخاطب فيها ، ولا يذكر حشو في الألفاظ ، ولا يكتب الا لب الكلام وزبدته . ولابد وأن يكتب « سرح الطائر ورفيقه » حتى ان تأخر الواحد ترقب حضوره أو تطلب .

ولا يعمل للبطائق هامش ولا تجمل ، ويكتب آخرها حسبلة ، ولا تعنون الا اذا كانت منقولة . مثل * أن تسرح الى السلطان من مكان بعيد ، فيكتب لها عنوان لطيف حتى لا يفتحها أحد . وكل وال تصل اليه يكتب في ظهرها انها وصلت اليه ونقلها ، حتى تصل مختومة .

قال : ومما شاهدته وتوليت أمره أنه في شهور سنة ثمان وثمانين وستمائة ، حضر من جهة نائب الصبيبة نيف وأربعون طائرا صحبة البراجين ، ووصل كتابه أنه درجها الى مصر . فأقامت مدة لم يكن شغل تبطق فيه ، فقال براجوها : قد أزف الوقت عليها في القرنصة .

وجرى الحديث مع الأمير بيدار نائب السلطنة ، فتقرر كتب بطائق على عشرة منها بوصولها لا غير ، وسرحت يوم أربعاء جميعها فاتفق وقوع طائرين منها ، فأحضرت بطائقهما وحصل الاستهزاء بها .

(*) ص۲۳۱ ج۲ ، ط. بولاق .

فلما كان بعد مدة وصل كتاب السلطان أنها وصلت الى الصبيبة في ذلك اليوم بعينه ، وبطق بذلك في ذلك اليوم بعينه الى دمشق ، ووصل الخبر الى دمشق في يوم واحد . وهذا مما أنا مصرفه وحاضره والمشير به .

قال مؤلفه رحمه الله : قد بطل الحمام من سائر المملكة الا ما ينقل من قطيا الى بلبيس ، ومن بلبيس الى قلعة الجبل ، ولا تسل بعد ذلك عن شيء ، وكأني بهذا القدر وقد ذهب . ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم .

ذكر ملوك مصر منذ بنيت قلعة الجبل

اعلم أن الذين ولوا أرض مصر في الملة الاسلامية على ثلاثة أقسام :

القسم الأول : من ولي بفسطاط مصر منذ فتح الله تعالى أرض مصر على أيدي العرب ، أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي عنهم وتابعيهم ، فصارت دار اسلام ، الى أن قدم القائد أبو الحسين جوهر من بلاد افريقية بعساكر مولاه المعز لدين الله أبي تميم معد ، وبنى القاهرة . وهؤلاء يقال لهم أمراء مصر ، ومدتهم ثلثمائة وسبع وثلاثون سنة وسبعة أشهر وستة عشر يوما : أولها يوم الجمعة مستهل المحرم سنة عشرين من الهجرة ، وآخرها يوم الاثنين سادس عشر شعبان سنة ثمان وخمسين وثلثمائة . وعدة هؤلاء الأمراء مائة واثنا عشر أميرا .

والقسم الثاني : من ولي بالقاهرة منذ بنيت الى أن مات الامام العاضد لدين الله أبو محمد عبد الله رحمه الله . وهؤلاء يقال لهم الخلفاء

الفاطميون . ومدتهم بمصر مائتا سنه وثمـانى سنين وأربعة أشهر واثنـان وعشرون يوما : أولها يوم الثلاثاء سابع عشر شعبان سنة ثمان وخمسين وثلثمائة ، وآخرها يوم الأحد عاشر المحرم سنة سبع وستين وخمســمائة . وعدة هؤلاء الخلفاء أحد عشر خليفة .

والقسم الثالث : من ملك مصر بعد موت العاضد الى وقتنا هذا الذى نحن فيه . ويقال لهم الملوك والسلاطين ، وهم ثلاثة أقسام :

القســم الأول ملوك بنى أيوب ، وهـم أكراد . والقسم الثـانى البحرية وأولادهم ، وهم مماليك أتراك لبنى أيوب . والقسم الثالث مماليك أولاد البحرية ، وهم جراكسة .

وقد تقـدم فى هذا الـكتاب ذكر الأمراء والخلفاء . وستقف ان شـاء الله تعالى على ذكر من ملك من الأكراد والأتراك والجراكسة وتعرف أخبارهم على ما شرطنا من الاختصار . اذ قد وضعت لبسط ذلك كتابا سميته كتاب « السلوك لمعـرفة دول الملوك » ، وجردت تراجمهم فى كتاب « التاريخ الكبير المقفى » . فتطلبهما تجد فيهما ما لا تحتاج بعـده الى سواهما فى معناهما .

ذكر من ملك مصر من الأكراد

اعلم أن الناس قد اختلفوا فى الأكراد .

فذكر العجم أن الأكراد فضـل طعم الملك بيوراسف . وذلك أنه كان يأمر أن يذبح له كل يوم انسانان ، ويتخذ طعامه من لحومهما . وكان له وزير يسمى أرمايبل ، وكان يذبح واحدا ، ويستحيى واحدا ويبعث به الى جبال فارس . فتوالدوا فى الجبال وكثروا .

ومن الناس من ألحقهم باماء سليمـان بن داود عليهما السلام حين سلب ملكه ، ووقع على نسائه المنافقات الشيطان الذى يقال له الجسد ، وعصم الله تعالى منه المؤمنـات ، فعلق منه المنافقات .

فلما رد الله تعالى على سليمان عليه السلام ملكه ، ووضع هؤلاء الاماء الحـوامل من الشيطان قال : اكردوهم الى الجبال والأودية . فربتهم أمهاتهم ، وتناكحوا وتناسلوا . فذلك بدء نسب الأكراد .

والأكراد عنـد الفـرس من ولد كرد بن اسفندام بن منوشهر . وقيل هم ينسبون الى كرد بن مرد بن عمرو بن صعصعة بن معـاوية ابن بكر ، وقيل هم من ولد عمرو مزيقيا بن عامر بن ماء السماء ، وقيل من بنى حامد بن طارق من بقية أولاد حميد بن زهير بن الحارث ابن أسد بن عبد العزى بن قصى . وهذه أقوال الفقهاء لهم ممن أراد الحظوة لديهم لما صـار الملك اليهم .

وانما هم قبيل من قبائل العجم ، وهم قبائل عديدة : كورانيـة بنو كوران ، وهذبانية ، وبشتوية وشاصنجانية وسرنجيـة وبزوليـة ومهرانية وزرداربة وكيكانية وجاك وكرودنيلية وروادية ودسنية وهكارية وحميدية وورجكية ومروانية وجلانية وسنيكية وجونى .

وتزعم المروانيـة أنها من بنى * مروان بن الحكم ، ويزعم بعض الهكارية أنها من ولد عتبة بن أبى سفيان بن حرب .

(*) ص٢٣٢، ج١، ط. بولاق .

وأول من ملك مصر من الأكراد الأيوبية « السلطان الملك الناصر صلاح الدين » أبو المظفر يوسف بن نجم الدين أبي الشكر أيوب ابن شادي بن مروان الكردى ، من قبيل الروادية أحد بطون الهذبانية .

نشأ أبوه أيوب وعمه أسد الدين شيركوه ببلد دوين من أرض أذربيجان ، من جهة أران وبلاد الكرج ، ودخلا بغداد ، وخدما مجاهد الدين بهروز شحنة بغداد . فبعث أيوب الى قلعة تكريت ، وأقامه بها مستحفظا لها ومعه أخوه شيركوه — وهو أصغر منه سنا — فخدم أيوب الشهيد زنكى لما انهزم ، فشكر له خدمته .

واتفق بعد ذلك أن شيركوه قتل رجلا بتكريت ، فطرد هو وأخوه أيوب من قلعتها ، فمضيا الى زنكى بالموصل ، فآواهما وأقطعهما اقطاعا عنده ، ثم رتب أيوب بقلعة بعلبك مستحفظا ، ثم أنعم عليه بامرة .

واتصل شيركوه بنور الدين محمود بن زنكى فى أيام أبيه وخدمه . فلما ملك حلب بعد أبيه ، كان لنجم الدين أيوب عمل كثير فى أخذ دمشق لنور الدين . فتمكنا فى دولته حتى بعث شيركوه مع الوزير شاور بن مجير السعدى الى مصر ، فسار صلاح الدين فى خدمته من جملة أجناده .

وكان من أمر شيركوه ما كان حتى مات . فأقيم بعده ، فى وزارة العاضد ، ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب فى يوم الثلاثاء خامس عشرى جمادى الآخرة سنة أربع وستين وخمسمائة ، ولقبه بالملك الناصر ، وأنزله بدار الوزارة من القاهرة .

فاستمال قلوب الناس ، وأقبل على الجد ، وترك اللهو ، وتعاضد هو والقاضى الفاضل عبد الرحيم بن على البيسانى رحمه الله على ازالة الدولة الفاطمية ، وولى صدر الدين بن درباس قضاء القضاة ، وعزل قضاة الشيعة ، وبنى بمدينة مصر مدرسة للفقهاء المالكية ، ومدرسة للفقهاء الشافعية ، وقبض على أمراء الدولة ، وأقام أصحابه عوضهم ، وأبطل المكوس بأسرها من أرض مصر . ولم يزل يدأب فى ازالة الدولة حتى تم له ذلك ، وخطب لخليفة بغداد المستنصر بأمر الله أبى محمد الحسن العباسى .

وكان العاضد مريضا ، فتوفى بعد ذلك بثلاثة أيام ، واستبد صلاح الدين بالسلطنة من أول سنة سبع وستين وخمسمائة ، واستدعى آباه نجم الدين أيوب واخوته من بلاد الشام ، فقدموا عليه بأهاليهم . وتأهب لغزو الفرنج ، وسار الى الشوبك وهى بيد الفرنج فواقعهم ، وعاد الى أيلة فجبى الزكوات من أهل مصر ، وفرقها على أصنافها ، ورفع الى بيت المال سهم العاملين وسهم المؤلفة وسهم المقاتلة وسهم المكاتبين .

وأنزل العز بالقصر الغربى ، وأحاط بأموال القصر ، وبعث بها الى الخليفة ببغداد والى السلطان الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى بالشام ، فأتته الخلع الخليفية فلبسها ، ورتب نوب الطبلخاناه فى كل يوم ثلاث مرات . ثم سار الى الاسكندرية ، وبعث ابن

أخيه تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب على عسكر الى برقة ، وعاد الى القاهرة .

ثم سار فى سنة ثمان وخمسين الى الكرك — وهى بيد الفرنج — فحصرها وعاد بغير طائل . فبعث أخاه الملك المعظم شمس الدولة توران شاه بن أيوب الى بلاد النوبة ، فأخذ قلعة ابريم ، وعاد بغنائم وسبى كثير ، ثم سار لأخذ بلاد اليمن فملك زبيد وغيرها .

فلما مات نور الدين محمود بن زنكى ، توجه السلطان صلاح الدين فى أول صفر سنة سبعين الى الشام ، وملك دمشق بغير مانع ، وأبطل ما كان يؤخذ بها من المكوس كما أبطلها من ديار مصر ، وأخذ حمص وحماة ، وحاصر حلب وبها الملك الصالح مجير الدين اسماعيل بن العادل نور الدين محمود بن زنكى ، فقاتله أهلها قتالا شديدا فرحل عنها الى حمص ، وأخذ بعلبك بغير حصار .

ثم عاد الى حلب ، فوقع الصلح على أن يكون له ما بيده من بلاد الشام مع المعرة وكفر طاب ، ولهم ما بأيديهم . وعاد فأخذ بغزاس بعد حصار ، وأقام بدمشق ، وندب قراقوش التقوى لأخذ بلاد المغرب ، فأخذ أيجلن وعاد الى القاهرة . وكانت بين السلطان وبين الحلبيين وقعة هزمهم فيها ، وحصرهم بحلب أياما ، وأخذ بزاعة ومنبج وعزاز ، ثم عاد الى دمشق .

وقدم القاهرة فى سادس عشرى ربيع الأول سنة اثنتين وسبعين ، بعدما كانت لعساكره حروب كثيرة مع الفرنج ، فأمر ببناء سور يحيط بالقاهرة ومصر وقلعة الجبل ، وأقام على بنائه الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدى . فشرع فى بناء قلعة الجبل ، وعمل السور ، وحفر الخندق حوله . وبدأ السلطان يعمل مدرسة بجوار قبر الامام الشافعى رضى الله عنه فى القرافة ، وعمل مارستانا بالقاهرة .

وتوجه الى الاسكندرية ، فصام بها شهر رمضان ، وسمع الحديث على الحافظ أبى طاهر أحمد السلفى ، وعمر الأسطول ، وعاد الى القاهرة ، وأخرج قراقوش التقوى الى بلاد المغرب ، وأمر بقطع ما كان يؤخذ من الحجاج ، وعوض أمير مكة عنه فى كل سنة ألفى دينار وألف اردب غلة ، سوى اقطاعه بصعيد مصر وباليمن ومبلغه ثمانية آلاف اردب .

ثم سار من القاهرة فى جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين الى عسقلان — وهى بيد الفرنج — وقتل وأسر وسبى وغنم ، ومضى يريدهم بالرملة *، فقاتل البرنس أرباط متملك الكرك قتالا شديدا ، ثم عاد الى القاهرة .

ثم سار منها فى شعبان يريد الفرنج ، وقد نزلوا على حماة ، حتى قدم دمشق وقد رحلوا عنها ، فواصل الغارات على بلاد الفرنج ، وعساكره تغزو بلاد المغرب ، ثم فتح بيت الأحزان من عمل صفد ، وأخذه من الفرنج عنوة .

وسار فى سنة ست وسبعين لحرب فتح الدين قليج أرسلان صاحب قونيه من بلاد الروم وعاد ، ثم توجه الى بلاد الأرمن ، وعاد فخرب حصن بهنسا . ومضى الى القاهرة ،

(*) ص٢٣٢ جـ٢ ، ط. بولاق .

فقدمها فى ثالث عشر شعبان ، ثم خرج الى الاسكندرية ، وسمع بها موطأ الامام مالك على الفقيه أبى طاهر بن عوف ، وأنشأ بها مارستانا ودارا للمغاربة ومدرسة ، وجدد حفر الخليج ونقل فوهته ، ثم مضى الى دمياط ، وعاد الى القاهرة .

ثم سار فى خامس المحرم سنة ثمان وسبعين على أيلة ، فأغار على بلاد الفرنج ، ومضى الى الكرك ، فعاثت عساكره ببلاد طبرية وعكا ، وأخذ الشقيف من الفرنج ، ونزل السلطان بدمشق ، وركب الى طبرية فواقع الفرنج . وعاد فتوجه الى حلب ونازلها ، ثم مضى الى البيرة على الفرات ، وعدى الى الرها فأخذها ، وملك حران والرقة ونصيبين ، وحاصر الموصل فلم ينل منها غرضا ، فنازل سنجار حتى أخذها .

ثم مضى على حران الى آمد فأخذها ، وسار على عين تاب الى حلب ، فملكها فى ثامن عشر صفر سنة تسع وسبعين ، وعاد الى دمشق ، وعبر الأردن وحرق بيسان على الفرنج ، وخرب لهم عدة حصون وعاد الى دمشق ، ثم سار الى الكرك فلم ينل منها غرضا وعاد .

ثم خرج فى سنة ثمانين من دمشق فنازل الكرك ، ثم رحل عنها الى نابلس فحرقها ، وأكثر من الغارات حتى دخل دمشق ، ثم سار منها الى حماة ، ومضى حتى بلغ حران ، ونزل على الموصل وحصرها ، ثم سار عنها الى خلاط فلم يملكها ، فمضى حتى أخذ ميافارقين وعاد الى الموصل ، ثم رحل عنها وقد مرض الى حران ، فتقرر الصلح مع المواصلة على أن خطبوا له بها وبديار بكر وجميع البلاد الأرتقية ، وضرب السكة فيها باسمه .

ثم سار الى دمشق ، فقدمها فى ثانى ربيع الأول سنة اثنتين وثمانين ، وخرج منها فى أول سنة ثلاث وثمانين ، ونازل الكرك والشوبك وطبرية ، فملك طبرية فى ثالث عشرى ربيع الآخر من الفرنج . ثم واقعهم على حطين ، وهم فى خمسين ألفا ، فهزمهم بعد وقائع عديدة وأسر منهم عدة ملوك .

ونازل عكا حتى تسلمها فى ثانى جمادى الأولى ، وأنقذ منها أربعة آلاف أسير مسلم من الأسر ، وأخذ مجدل يافا وعدة حصون ، منها الناصرية وقيسارية وحيفا وصفورية والشقيف والنولة والطور وسبسطية ونابلس وتبنين وصرخد وصيدا وبيروت وجبيل ، وأنقذ من هذه البلاد زيادة على عشرين ألف أسير مسلم كانوا فى أسر الفرنج ، وأسر من الفرنج مائة ألف انسان ، ثم ملك منهم الرملة وبلد الخليل عليه السلام وبيت لحم من القدس ومدينة عسقلان ومدينة غزة وبيت جبريل .

ثم فتح بيت المقدس فى يوم الجمعة سابع عشرى رجب ، وأخرج منه ستين ألفا من الفرنج ، بعدما أسر ستة عشر ألفا ما بين ذكر وأنثى ، وقبض من مال المفاداة ثلثمائة ألف دينار مصرية ، وأقام الجمعة بالأقصى ، وبنى بالقدس مدرسة للشافعية ، وقرر على من يرد كنيسة قمامة من الفرنج قطيعة يؤديها . ثم نازل عكا وصور ، ونازل في سنة أربع وثمانين حصن كوكب ، وندب العساكر الى صفد والكرك والشوبك .

وعاد الى دمشق فدخلها سادس ربيع الأول وقد غاب عنها في هذه الغزوة أربعة عشر شهرا وخمسة أيام . ثم خرج منها بعد خمسة أيام ، فشن الغارات على الفرنج ، وأخذ منهم أنطرسوس ، وخرب سورها وحرقها ، وأخذ جبلة واللاذقية وصهيون والشغر وبكاس وبقراص . ثم عاد الى دمشق آخر شعبان ، بعدما دخل حلب ، فملكت عساكره الكرك والشوبك والسلع في شهر رمضان .

وخرج بنفسه الى صفد ، وملكها من الفرنج في رابع عشر شوال ، وملك كوكب في نصف ذي القعدة ، وسار الى القدس ، ومضى بعد النحر الى عسقلان ونزل بعكا ، وعاد الى دمشق أول صفر سنة خمس وثمانين . ثم سار منها في ثالث ربيع الأول ، ونازل شقيف أرنون ، وحارب الفرنج حروبا كثيرة ، ومضى الى عكا — وقد نزل الفرنج عليها ، وحصروا من بها من المسلمين — فنزل بمرج عكا وقاتل الفرنج من أول شعبان حتى انقضت السنة . وقد خرج الألمان من قسطنطينية في زيادة على ألف ألف يريد بلاد الاسلام ، فاشتد الأمر .

ودخلت سنة ست وثمانين والسلطان بالخروبة على حصار الفرنج ، والأمداد تصل اليه ، وقدم الألمان طرسوس يريد بيت المقدس ، فخرب السلطان سور طبرية ويافا وأرسوف وقيسارية وصيدا وجبيل . وقوى الفرنج بقدوم ابن الألمان اليهم تقوية لهم ، وقد مات أبوه بطرسوس وملك بعده ، فقدر الله تعالى موته أيضا على عكا .

ودخلت سنة سبع وثمانين ، فملك الفرنج عكا في سابع عشر جمادى الآخرة ، وأسروا من بها من المسلمين ، وحاربوا السلطان ، وقتلوا جميع من أسروه من المسلمين ، وساروا الى عسقلان . فرحل السلطان في أثرهم ، وواقعهم بأرسوف ، فانهزم * من معه وهو ثابت حتى عادوا اليه ، فقاتل الفرنج ، وسبقهم الى عسقلان وخربها ، ثم مضى الى الرملة وخرب حصنها وخرب كنيسة لد .

ودخل القدس فأقام بها الى عاشر رجب سنة ثمان وثمانين ، ثم سار الى يافا فأخذها بعد حروب . وعاد الى القدس ، وعقد الهدنة بينه وبين الفرنج مدة ثلاث سنين وثلاثة أشهر ، أولها حادي عشر شعبان ، على أن للفرنج من يافا الى عكا الى صور وطرابلس وانطاكية ، ونودى بذلك فكان يوما مشهودا .

وعاد السلطان الى دمشق ، فدخلها خامس عشري شوال — وقد غاب عنها أربع سنين — فمات بها في يوم الأربعاء سابع عشرى صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة عن سبع وخمسين سنة ، منها مدة ملكه بعد موت العاضد اثنتان وعشرون سنة وستة عشر يوما .

فقام من بعده بمصر ولده « السلطان الملك العزيز عماد الدين أبو الفتح عثمان » ، وقد كان يومئذ ينوب عنه بمصر ، وهو مقيم بدار الوزارة من القاهرة ، وعنده جل عساكر أبيه من الأسدية والسلاحية والأكراد . فأتاه ممن كان عند أخيه الملك الأفضل علي : الأمير فخر الدين جهاركس ، والأمير فارس الدين ميمون القصرى ، والأمير شمس الدين سنقر الكبير — وهم عظماء الدولة — فأكرمهم ، وقدم عليه القاضي الفاضل ، فبالغ في كرامته .

(*) ص٢٢٤ جـ٢ ، ط. بولاق .

وتنكر ما بينه وبين أخيه الأفضل ، فسار من مصر لمحاربته ، وحصره بدمشق . فدخل بينهما العادل أبو بكر ، حتى عاد العزيز الى مصر على صلح فيه دخل ، فلم يتم ذلك ، وتوحش ما بينهما ، وخرج العزيز ثانيا الى دمشق ، فدبر عليه عمه العادل حتى كاد أن يزول ملكه وعاد خائفا ، فسار اليه الأفضل والعادل حتى نزلا بلبيس ، فجرت أمور آلت الى الصلح ، وأقام العادل مع العزيز بمصر ، وعاد الأفضل الى مملكته بدمشق .

فقام العادل بتدبير أمور الدولة ، وخرج بالعزيز لمحاربة الأفضل ، فحصراه بدمشق حتى أخذاها منه بعد حروب ، وبعثاه الى صرخد . وعاد العزيز الى مصر ، وأقام العادل بدمشق حتى مات العزيز فى ليلة العشرين من محرم سنة خمس وتسعين وخمسمائة ، عن سبع وعشرين سنة وأشهر ، منها مدة سلطنته بعد أبيه ست سنين تنقص شهرا واحدا .

فأقيم بعده ابنه « السلطان الملك المنصور ناصر الدين محمد » ، وعمره تسع سنين وأشهر ، بعهد من أبيه . وقام بأمور الدولة بهاء الدين قراقوش الأسدى الأتابك ، فاختلف عليه أمراء الدولة ، وكاتبوا الملك الأفضل على بن صلاح الدين . فقدم من صرخد فى خامس ربيع الأول ، فاستولى على الأمور ، ولم يبق للمنصور معه سوى الاسم .

ثم سار به من القاهرة فى ثالث رجب يريد أخذ دمشق من عمه العادل بعدما قبض على عدة من الأمراء ، وقد توجه العادل الى ماردين ، فحصر الأفضل دمشق . وقد بلغ العادل خبره ، فعاد وسار يريده حتى دخل دمشق . فجرت حروب كثيرة آلت الى عود الأفضل الى مصر بمكيدة دبرها عليه العادل .

وخرج العادل فى أثره ، وواقعه على بلبيس ، فكسره فى سادس ربيع الآخر سنة ست وتسعين ، والتجأ الى القاهرة وطلب الصلح ، فعوضه العادل صرخد ، ودخل الى القاهرة فى يوم السبت ثامن عشره ، وأقام بأتابكية المنصور ، ثم خلعه فى يوم الجمعة حادى عشر شوال . وكانت سلطنته سنة وثمانية أشهر وعشرين يوما .

واستبد بالسلطنة بعده عم أبيه « السلطان الملك العادل سيف الدين أبو بكر محمد بن أيوب » . فخطب له بديار مصر وبلاد الشام وحران والرها وميافارقين ، وأخرج المنصور واخوته من القاهرة الى الرها ، واستناب ابنه الملك الكامل محمدا عنه ، وعهد اليه بعده بالسلطنة ، وحلف له الأمراء . فسكن قلعة الجبل ، واستمر أبوه فى دار الوزارة .

وفى أيامه توقفت زيادة النيل ، ولم يبلغ سوى ثلاثة عشر ذراعا تنقص ثلاثة أصابع ، وشرقت أراضى مصر الا الأقل ، وغلت الأسعار ، وتعذر وجود الأقوات حتى أكلت الجيف وحتى أكل الناس بعضهم بعضا ، وتبع ذلك فناء كبير ، وامتد ذلك ثلاث سنين ، فبلغت عدة من كفنه العادل وحده من الأموات فى مدة يسيرة نحو مائتى ألف وعشرين ألف انسان . فكان بلاء شنيعا .

وعقب ذلك تحرك الفرنج على بلاد المسلمين فى سنة تسع وتسعين . فكانت معهم عدة

حروب على بلاد الشام آلت الى أن عقد العادل معهم الهدنة . فعاودوا الحرب فى سنة ستمائة ، وعزموا على أخذ القدس ، وكثر عيثهم وفسادهم . وكانت لهم وللمسلمين شئون آلت الى نزولهم على مدينة دمياط فى رابع ربيع الأول سنة خمس عشرة وستمائة ... والعادل يومئذ بالشام . فخرج الملك الكامل لمحاربتهم ، فمات العادل بمرج الصفر فى يوم الخميس سابع جمادى الآخرة منها ، وحمل الى دمشق . فكانت مدة سلطنته بديار مصر تسع عشرة سنة وشهرا واحدا وتسعة عشر يوما .

وقام من بعده ابنه « السلطان الملك الكامل ناصر الدين أبو المعالى محمد » بعهد أبيه . فأقام فى السلطنة عشرين سنة وخمسة وأربعين يوما ، ومات بدمشق يوم الأربعاء حادى عشرى رجب سنة خمس وثلاثين وستمائة .

وأقيم بعده ابنه « السلطان * الملك العادل سيف الدين أبو بكر » . فاشتغل باللهو عن التدبير ، وخرجت عنه حلب ، واستوحش منه الأمراء لتقريبه الشباب . وسار أخوه الملك الصالح نجم الدين أيوب من بلاد الشرق الى دمشق ، وأخذها فى أول جمادى الأولى سنة ست وثلاثين ، وجرت له أمور آخرها أنه سار الى مصر . فقبض الأمراء على العادل ، وخلعوه يوم الجمعة ثامن ذى القعدة سنة سبع وثلاثين وستمائة . فكانت سلطنته سنتين وثلاثة أشهر وتسعة أيام .

(*) ص٢٢٥ جـ٢ ، ط. بولاق .

وقام بعده بالسلطنة أخوه « السلطان الملك الصالح نجم الدين أبو الفتوح أيوب » . فاستولى على قلعة الجبل فى يوم الأحد رابع عشرى ذى القعدة ، وجلس على سرير الملك بها — وكان قد خطب له قبل قدومه — فضبط الأمور ، وقام بأعباء المملكة أتم قيام ، وجمع الأموال التى أتلفها أخوه .

وقبض على الأمراء ، ونظر فى عمارة أرض مصر ، وحارب عربان الصعيد ، وقدم مماليكه وأقامهم أمراء ، وبنى قلعة الروضة ، وتحول من قلعة الجبل اليها وسكنها ، وملك مكة ، وبعث لغزو اليمن ، وعمر المدارس الصالحية بين القصرين من القاهرة ، وقرر بها دروسا أربعة للشافعية والحنفية والمالكية والحنابلة .

وفى أيامه نزل الفرنج على دمياط فى ثالث عشرى صفر سنة سبع وأربعين ، وعليهم الملك روا د فرنس ، وملكوها . وكان السلطان بدمشق ، فقدم عندما بلغه حركة الفرنج ، ونزل أشموم طناح وهو مريض ، فمات بناحية المنصورة مقابل الفرنج فى يوم الأحد رابع عشر شعبان منها . وكانت مدة سلطنته بعد أخيه تسع سنين وثمانية أشهر وعشرين يوما .

فقامت أم ولده خليل — واسمها شجرة الدر — بالأمر ، وكتمت موته ، واستدعت ابنه توران شاه من حصن كيفا ، وسلمت اليه مقاليد الأمور .

فقام من بعده ابنه « السلطان الملك المعظم غياث الدين توران شاه » . وقد سار من حصن كيفا فى نصف شهر رمضان ، فمر على دمشق ، وتسلطن بقلعتها فى يوم الاثنين لليلتين بقيتا

منه ، وركب الى مصر ، فنزل الصالحية طرف الرمل لأربع عشرة بقيت من ذى القعـدة . فأعلن حينئذ بموت الصالح ولم يكن أحد قبل ذلك يتفوه بموت السلطان ، بل كانت الأمور على حالهـا ، والخـدمة تعمـل بالدهليز ، والسماط يمـد ، وشـجرة الدر تدبر أمور الدولة ، وتوهم الكافة أن السلطان مريض ما لأحد عليه سبيل ولا وصول .

ثم سار المعظم من الصالحية الى المنصورة ، فقدمها يوم الخميس حادى عشريه ، فأسـاء تدبير نفسـه ، وتهـدد البحرية حتى خافوه — وهم يومئذ جمرة العسكر — فقتلوه بعد سـبعين يوما فى يوم الاثنين تاسـع عشرى المحرم سنة ثمان وأربعين وستمائة . وبموته انقضت دولة بنى أيوب من ديار مصر ، بعدما أقامت احدى وثمانين سنة وسبعة عشر يوما ، وملك منهم ثمانية ملوك .

ذكر دولة المماليك البحرية

وهم الملوك الأتراك . وكان ابتداء أمر هذه الطائفة أن السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ، كان قد أقـره أبوه السلطـان الملك الكامل محمد ببلاد الشرق ، وجعل ابنه العادل أبا بكر ولى عهده فى السلطنة بمصر .

فلما مات قام من بعده العادل فى السلطنة ، وتنكر ما بينه وبين ابن عمه الملك الجـواد مظفر الدين يونس بن مودود بن العادل أبى بكر بن أيوب ، وهو نائب دمشق ، فاستدعى الصـالح نجم الدين أيوب من بلاد الشرق ، ورتب ابنه المعظم توران شاه على بلاد الشرق ، وأقره بحصن كيفا ، وقدم دمشق وملكها .

فكاتبه أمراء مصر تحثـه على أخذها من أخيه العادل ، وخامر عليه بعضهم ، فسار من دمشق فى رمضان سنة ست وثلاثين . فانزعج العادل انزعاجا كبيرا ، وكتب الى الناصر داود صاحب الكرك ، فسار اليه ليعاونه على أخيه الصالح . فاتفق مسير الملك الصالح اسماعيل ابن العادل أبى بكر بن أيوب من حماة ، وأخذه دمشق للملك العادل أبى بكر ابن الملك الكامل محمد فى سـابع عشرى صفر سـنة سـبع وثلاثين .

والملك الصالح نجم الدين أيوب يومئـذ على نابلس . فانحل أمره ، وفارقه من معـه حتى لم يبق معـه الا مماليـكه وهم نحـو الثمانين ، وطائفة من خواصه نحو العشرين ، وأما الجميع فانهم مضوا الى دمشق . وكان الناصر داود قد فارق العادل ، وسـار من القاهرة مغاضبا له الى الـكرك ، ومضى الى الصالح نجم الدين أيوب ، وقبضه بنابلس فى ثانى عشر ربيع الأول منها ، وسجنه بالكرك .

فأقام مماليك الصالح بالكرك حتى خلص من سجنه فى سابع عشرى شهر رمضان منها . فاجتمع عليـه مماليـكه وقد عظمت مكانتهم عنده ، وكان من أمره ما كان حتى ملك مصر ، فرعى لهم ثباتهم معه حين تفرق عنه الأكراد ، وأكثر من شرائهم ، وجعلهم أمـراء دولتـه وخاصته وبطانتـه ، والمحيطين بدهليزه اذا سافر ، وأسكنهم معه فى قلعـة الروضـة ، وسماهم البحرية . وكانوا دون الألف مملوك — قيل ثمانمائة وقيل سبعمائة وخمسون — كلهم أتراك .

فلما مات الملك الصالح بالمنصورة ، أحس الفرنج بشيء من ذلك * ، فركبوا من مدينة دمياط ، وساروا على فارسكور ، وواقعوا العسكر في يوم الثلاثاء أول شهر رمضان سنة سبع وأربعين ، ونزلوا بقرية شرمشاح ثم بالبرمون ، ونزلوا تجاه المنصورة .

فكانت الحروب بين الفريقين الى خامس ذى القعدة ، فلم يشعر المسلمون الا والفرنج معهم فى المعسكر ، فقتل الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ ، وانهزم الناس ، ووصل روا د فرنس ملك الفرنج الى باب قصر السلطان . فبرزت البحرية ، وحملوا على الفرنج حملة منكرة حتى أزاحوهم ، وولوا فأخذتهم السيوف والدبابيس ، وقتل من أعيانهم ألف وخمسمائة . فظهرت البحرية من يومئذ واشتهرت .

ثم لما قدم الملك المعظم توران شاه ، أخذ فى تهديد شجرة الدر ومطالبتها بمال أبيه ، فكاتبت البحرية تذكرهم بما فعلته من ضبط المملكة حتى قدم المعظم ، وما هى فيه من الخوف منه ، فشق ذلك عليهم .

وكان قد وعد الفارس أقطاى المتوجه اليه من المنصورة لاستدعائه من حصن كيفا بامرة ، فلم يف له ، فتنكر له — وهو من أكابر البحرية — وأعرض مع ذلك عن البحرية ، واطرح جانب الأمراء وغيرهم حتى قتلوه .

وأجمعوا على أن يقيموا بعده فى السلطنة سرية أستاذهم « الملكة عصمة الدين أم خليل شجرة الدر الصالحية » . فأقاموها فى السلطنة ، وحلفوا لها فى عاشر صفر ، ورتبوا الأمير عز الدين أيبك التركمانى الصالحى أحد البحرية مقدم العسكر . وسار عز الدين أيبك الرومى من العسكر الى قلعة الجبل ، وأنهى ذلك الى شجرة الدر .

فقامت بتدبير المملكة ، وعلمت على التواقيع بما مثاله « والدة خليل » ، ونقش على السكة اسمها ، ومثاله « المستعصمة الصالحية ، ملكة المسلمين ، والدة المنصور خليل خليفة أمير المؤمنين » .

وكانت البحرية قد تسلمت مدينة دمياط من الملك روا د فرنس بعدما قرر على نفسه أربعمائة ألف دينار ، وعاد العسكر من المنصورة الى القاهرة فى تاسع صفر ، وحلفوا لشجرة الدر فى ثالث عشره . فخلعت عليهم ، وأنفقت فيهم الأموال .

ولم يوافق أهل الشام على سلطنتها ، وطلبوا الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز صاحب حلب ، فسار اليهم بدمشق ، وملكها . فانزعج العسكر بالقاهرة ، وتزوج الأمير عز الدين أيبك التركمانى بالملكة شجرة الدر ، ونزلت له عن السلطنة . وكانت مدتها ثمانين يوما .

وملك بعدها «السلطان الملك المعز عز الدين أيبك الجاشنكير التركمانى الصالحى » أحد المماليك الأتراك البحرية . وكان قد انتقل الى الملك الصالح من أولاد ابن التركمانى ، فعرف بالتركمانى ، ورقاه فى خدمه حتى صار من جملة الأمراء ، ورتبه جاشنكير . فلما مات الصالح ، وقدمته البحرية عليهم فى

(*) ص٢٣٦ ، جـ٢ ، ط. بولاق *

سلطنة شجرة الدر ، كتب اليهم الخليفة المستعصم من بغداد يذمهم على اقامة امرأة ، ووافق مع ذلك أخذ الناصر لدمشق وحركتهم لمحاربته .

فوقع الاتفاق على اقامة أيبك فى السلطنة ، فأركبوه بشعار السلطنة فى يوم السبت آخر شهر ربيع الآخر سنة ثمان وأربعين وستمائة ، ولقبوه بالملك المعز ، وجلس على تخت الملك بقلعة الجبل . فورد الخبر من الغد بأخذ الملك المغيث عمر بن العادل الصغير الكرك والشوبك ، وأخذ الملك السعيد قلعة الصبيبة .

فاجتمع رأى الأمراء على اقامة الأشرف مظفر الدين موسى بن الناصر — ويقال المسعود يوسف ابن الملك المسعود يوسف ، ويقال طسز ، ، ويقال أيضا أقسيس ابن الملك الكامل محمد ابن الملك العادل أبى بكر بن أيوب — شريكا للمعز فى السلطنة . فأقاموه معه — وعمره نحو ست سنين — فى خامس جمادى الأولى ، وصارت المراسم تبرز عن الملكين . الا أن الأمر والنهى للمعز ، وليس للأشرف سوى مجرد الاسم .

وولى المعز الوزارة لشرف الدين أبى سعيد هبة الله بن صاعد الفائزى — وهو أول قبطى ولى وزارة مصر — وخرج المعز بالعساكر وعربان مصر لمحاربة الناصر يوسف فى ثالث ذى القعدة ، وخيم بمنزلة الصالحية وترك الأشرف بقلعة الجبل ، واقتتل مع الناصر فى عاشره . فكانت النصرة له على الناصر ، وعاد فى ثانى عشره .

فنزل بالناس من البحرية بلاء لا يوصف ، ما بين قتل ونهب وسبى ، بحيث لو ملك الفرنج بلاد مصر ما زادوا فى الفساد على ما فعله البحرية . وكان كبراؤهم ثلاثة : الأمير فارس الدين أقطاى ، وركن الدين بيبرس البندقدارى ، وبلبان الرشيدى .

ثم فى محرم سنة تسع وأربعين ، خرج المعز بالأشرف والعساكر ، فنزل بالصالحية وأقام بها نحو سنتين ، والرسل تتردد بينه وبين الناصر ، وأحدث الوزير الأسعد هبة الله الفائزى مظالم لم تعهد بمصر قبله . فورد الخبر فى سنة خمسين بحركة التتر على بغداد ، فقطع المعز من الخطبة اسم الأشرف ، والفرد بالسلطنة ، وقبض على الأشرف وسجنه ، وكان الأشرف موسى آخر ملوك بنى أيوب بمصر .

ثم ان المعز جمع الأموال ، فأحدث الوزير مكوسا كثيرة سماها الحقوق السلطانية . وعاد المعز الى قلعة الجبل فى سنة احدى وخمسين ، وأوقع بعرب الصعيد ، وقبض على الشريف حصن الدين ثعلب بن ثعلب ، وأذل سائر عرب الوجهين القبلى والبحرى ، وأفناهم قتلا وأسرا وسبيا ، وزاد فى القطيعة * على من بقى منهم حتى ذلوا وقلوا ، ثم قتل الفارس أقطاى ففر منه معظم البحرية بيبرس وقلاوون فى عدد كثير منهم الى الشام وغيرها .

ولم يزل الى أن قتلته شجرة الدر فى الحمام ليلة الأربعاء رابع عشرى ربيع الأول سنة خمس وخمسين وستمائة . فكانت مدته سبع سنين تنقص ثلاثة وثلاثين يوما . وكان ظلوما غشوما ، سفاكا للدماء ، أفنى عوالم كثيرة بغير ذنب .

(*) ص٢٣٧ جـ٢ ، ط. بولاق .

وقام من بعده ابنه « السلطان الملك المنصور نور الدين على بن المعز أيبك » فى يوم الخميس خامس عشرى ربيع الأول ، وعمره خمس عشرة سنة . فدبر أمره نائب أبيه الأمير سيف الدين قطز ، ثم خلعه فى يوم السبت رابع عشرى ذى القعدة سنة سبع وخمسين وستمائة . فكانت مدته سنتين وثمانية أشهر وثلاثة أيام .

وقام من بعده « السلطان الملك المظفر سيف الدين قطز » فى يوم السبت ، وأخرج المنصور بن المعز منفيا هو وأمه الى بلاد الأشكرى ، وقبض على عدة من الأمراء .

وسار فأوقع بجمع هولاكو على عين جالوت ، وهزمهم فى يوم الجمعة خامس عشرى رمضان سنة ثمان وخمسين ، وقتل منهم وأسر كثيرا ... بعدما ملكوا بغداد ، وقتلوا الخليفة المستعصم بالله عبد الله ، وأزالوا دولة بنى العباس ، وخربوا بغداد وديار بكر وحلب ، ونازلوا دمشق فملكوها .

فكانت هذه الوقعة أول هزيمة عرفت للتتر منذ قاموا . ودخل المظفر قطز الى دمشق ، وعاد منها يريد مصر . فقتله الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى ، قريبا من المنزلة الصالحية ، فى يوم السبت نصف ذى القعدة منها . فكانت مدته سنة تنقص ثلاثة عشر يوما .

وقام من بعده « السلطان الملك الظاهر ركن الدين أبو الفتح بيبرس البندقدارى الصالحى » التركى الجنس ، أحد المماليك البحرية ، وجلس على تخت السلطنة بقلعة الجبل فى سابع عشر ذى القعدة سنة ثمان وخمسين ، فلم يزل حتى مات بدمشق فى يوم الخميس سابع عشرى المحرم سنة ست وسبعين وستمائة . فكانت مدته سبع عشرة سنة وشهرين واثنى عشر يوما .

وقام من بعده ابنه « السلطان الملك السعيد ناصر الدين أبو المعالى محمد بركة قان » وهو يومئذ بقلعة الجبل ينوب عن أبيه ، وقد عهد اليه بالسلطنة ، وزوجه بابنة الأمير سيف الدين قلاوون الألفى . فجلس على التخت فى يوم الخميس سادس عشرى صفر سنة ست وسبعين ، الى أن خلعه الأمراء فى سابع ربيع الآخر سنة ثمان وسبعين . وكانت مدته سنتين وشهرين وثمانية أيام لم يحسن فيها تدبير ملكه ، وأوحش ما بينه وبين الأمراء .

فأقيم بعده أخوه « السلطان الملك العادل بدر الدين سلامش بن الظاهر بيبرس » وعمره سبع سنين وأشهر ، وقام بتدبيره الأمير قلاوون أتابك العساكر ، ثم خلعه بعد مائة يوم ، وبعث به الى الكرك فسجن مع أخيه بركة بها .

وقام من بعده « السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الألفى العلائى الصالحى » أحد المماليك الأتراك البحرية . كان قبجاقى الجنس من قبيلة مرج أغلى ، فجلب صغيرا ، واشتراه الأمير علاء الدين آق سنقر الساقى العادلى بألف دينار ، وصار بعد موته الى الملك الصالح نجم الدين أيوب فى سنة سبع وأربعين وستمائة ، فجعله من جملة البحرية .

فتنقلت به الأحوال حتى صار أتابك العساكر فى أيام العادل سلامش ، وذكر اسمه مع العادل

على المنابر . ثم جلس على التخت بقلعة الجبل في يوم الأحد العشرين من شهر رجب سنة ثمان وسبعين ، وتلقب بالملك المنصور ، وأبطل عدة مكوس . فثار عليه الأمير شمس الدين سنقر الأشقر بدمشق ، وتسلطن ولقب نفسه بالملك الكامل في يوم الجمعة رابع عشرى ذى الحجة . فبعث اليه وهزمه ، واستعاد دمشق .

ثم قدمت التتر الى بلاد حلب وعاثوا بها . فتوجه اليهم السلطان بعساكره ، وأوقع بهم على حمص فى يوم الخميس رابع عشرى رجب سنة ثمانين وستمائة ، وهزمهم بعد مقتلة عظيمة . وعاد الى قلعة الجبل .

وتوجه فى سنة أربع وثمانين حتى نازل حصن المرقب ثمانية وثلاثين يوما ، وأخذه عنوة من الفرنج ، وعاد الى القلعة . ثم بعث العسكر فغزا بلاد النوبة في سنة سبع وثمانين وعاد بغنائم كثيرة .

ثم سار فى سنة ثمان وثمانين لغزو الفرنج بطرابلس ، فنازلها أربعة وثلاثين يوما حتى فتحها عنوة فى رابع ربيع الآخر ، وهدمها جميعها ، وأنشأ قريبا منها مدينة طرابلس الموجودة الآن ، وعاد الى قلعة الجبل . وبعث لغزو النوبة ثانيا عسكرا ، فقتلوا وأسروا وعادوا .

ثم خرج لغزو الفرنج بعكا وهو مريض ، فمات خارج القاهرة ليلة السبت سادس ذى القعدة سنة تسع وثمانين وستمائة . فكانت مدته احدى عشرة سنة وشهرين وأربعة وعشرين يوما .

وقام من بعده ابنه « السلطان الملك الأشرف صلاح الدين خليل » فى يوم الأحد سابع ذى القعدة المذكور ، وسار لفتح عكا فى ثالث ربيع الأول سنة تسعين وستمائة ، ونصب عليها اثنين وتسعين منجنيقا ، وقاتل من بها من الفرنج أربعة وأربعين يوما حتى فتحها عنوة فى يوم الجمعة سابع عشر جمادى الأولى ، وهدمها * كلها بما فيها وحرقها ، وأخذ صور وحيفا وعتليت وأنطرسوس وصيدا وهدمها ، وأجلى الفرنج من الساحل ، فلم يبق منهم أحد ، ولله الحمد ، وتوجه الى دمشق .

وعاد الى مصر ، فدخل قلعة الجبل يوم الاثنين تاسع شعبان . ثم خرج فى ثامن ربيع الآخر سنة احدى وتسعين وستمائة ، بعدما نادى بالنفير للجهاد ، فدخل دمشق وعرض العساكر ، ومضى منها فمر على حلب ، ونازل قلعة الروم ، ونصب عليها عشرين منجنيقا حتى فتحها بعد ثلاثة وثلاثين يوما عنوة ، وقتل من بها من النصارى الأرمن ، وسبى نساءهم وأولادهم ، وسماها قلعة المسلمين ، فعرفت بذلك .

وعاد الى مصر فدخل قلعة الجبل فى يوم الأربعاء ثانى ذى القعدة ، وسار فى رابع المحرم سنة اثنتين وتسعين حتى بلغ مدينة قوص من صعيد مصر ، ونادى فيها بالتجهز لغزو اليمن وعاد .

---

* ص٢٢٨ جـ ٢ : ط . بولاق .

ثم سار مخفا على الهجن فى البرية الى الكرك ، ومضى الى دمشق ، فقدمها فى تاسع جمادى الآخرة ، وقصد غزو بهنسا وأخذها من الأرمن ، فقدموا اليه وسلموها من تلقاء أنفسهم ، وسلموا أيضا مرعش وتل حمدون .

ومضى من دمشق فى ثانى رجب ، وعبر من حمص الى سلمية ، وهجم على الأمير مهنا بن عيسى وقبضه واخوته ، وحملهم فى الحديد الى قلعة الجبل ، وعاد الى دمشق .

ثم رجع الى مصر ، فقدم قلعة الجبل فى ثامن عشرى رجب ، ثم توجه للصيد فبلغ الطرانة ، وانفرد فى نفر يسير ليصطاد . فاقتحم عليه الأمير بيدار فى عدة معه ، وقتلوه فى يوم السبت ثانى عشر المحرم سنة ثلاث وتسعين وستمائة . فكانت مدته ثلاث سنين وشهرين وأربعة أيام . ثم حمل ودفن بمدرسة الأشرفية .

وأقيم من بعده أخوه « السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون » ، وعمره سبع سنين ، وقام الأمير زين الدين كتبغا بتدبيره ، ثم خلعه بعد سنة تنقص ثلاثة أيام .

وقام من بعده « السلطان الملك العادل زين الدين كتبغا المنصورى » ، أحد مماليك الملك المنصور قلاوون ، وجلس على التخت بقلعة الجبل فى يوم الأربعاء حادى عشر المحرم سنة أربع وتسعين ، وتلقب بالملك العادل .

فكانت أيامه شر أيام لما فيها من قصور مد النيل ، وغلاء الأسعار ، وكثرة الوباء فى الناس ، وقدوم الأويراتية . فقام عليه نائبه الأمير حسام الدين لاجين ، وهو عائد من دمشق بمنزلة العرجاء ، فى يوم الاثنين ثامن عشرى المحرم سنة ست وتسعين ، ففر الى دمشق ، واستولى لاجين على الأمر . فكانت مدته سنتين وسبعة عشر يوما . وقدم لاجين بالعسكر الى مصر .

وقام فى السلطنة « السلطان الملك المنصور حسام الدين لاجين المنصورى » ، أحد مماليك المنصور قلاوون ، وجلس على التخت بقلعة الجبل ، وتلقب بالملك المنصور فى يوم الاثنين ثامن عشري المحرم المذكور ، واستناب مملوكه منكوتمر . فنفرت القلوب عنه ، حتى قتل فى ليلة الجمعة حادى عشر ربيع الآخر سنة ثمان وتسعين وستمائة . فكانت مدته سنتين وشهرين وثلاثة عشر يوما .

ودبر الأمراء بعده أمور الدولة ، حتى قدم من الكرك « السلطان الملك الناصر محمد ابن قلاوون » ، وأعيد الى السلطنة مرة ثانية فى يوم الاثنين سادس جمادى الأولى ، وقام بتدبير الأمور الأميران سلار نائب السلطنة ، وبيبرس الجاشنكير أستادار ... حتى صار كأنه يريد الحج ، فمضى الى الكرك ، وانخلع من السلطنة . فكانت مدته تسع سنين وستة أشهر وثلاثة عشر يوما .

فقام من بعده « السلطان الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير » ، أحد مماليك المنصور قلاوون ، فى يوم السبت ثالث عشرى ذى الحجة سنة ثمان وسبعمائة ، حتى فر من

قلعة الجبل في يوم الثلاثاء سادس عشر رمضان سنة تسع وسبعمائة ، فكانت مدته عشرة أشهر وأربعة وعشرين يوما .

ثم قدم من الشام في العساكر « السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون » ، وأعيد الى الى السلطنة مرة ثالثة في يوم الخميس ثاني شوال منها ، فاستبد بالأمر حتى مات في ليلة الخميس حادي عشري ذي الحجة سنة احدى وأربعين وسبعمائة . وكانت مدته الثالثة اثنتين وثلاثين سنة وشهرين وخمسة وعشرين يوما ، ودفن بالقبة المنصورية على أبيه .

وأقيم بعده ابنه « السلطان الملك المنصور سيف الدين أبو بكر » بعهد أبيه ، في يوم الخميس حادي عشري ذي الحجة ، وقام الأمير قوصون بتدبير الدولة ، ثم خلعه بعد تسعة وخمسين يوما في يوم الأحد لعشرين من صفر سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة .

وأقام بعده أخاه « السلطان الملك الأشرف علاء الدين كجك بن الناصر محمد بن قلاوون » ولم يكمل له من العمر ثمان سنين . فتنكرت قلوب الأمراء على قوصون ، وحاربوه وقبضوا عليه كما ذكر في ترجمته ، وخلعوا الأشرف في يوم الخميس أول شعبان . فكانت مدته خمسة أشهر وعشرة أيام .

وقام الأمير أيدغمش بأمر الدولة ، وبعث يستدعى من بلاد الكرك « السلطان الملك الناصر شهاب الدين أحمد بن الناصر محمد بن قلاوون » — وكان مقيما بقلعة الكرك من أيام أبيه — فقدم على البريد في عشرة من أهل الكرك ليلة الخميس ثامن عشري شهر رمضان ، وعبر الدور من قلعة * الجبل بمن قدم معه ، واحتجب عن الأمراء ، ولم يخرج لصلاة العيد ، ولا حضر السماط على العادة ... الى أن لبس شعار السلطنة ، وجلس على التخت في يوم الاثنين عاشر شوال ، وقلوب الأمراء نافرة منه لاعراضه عنهم ، فساءت سيرته .

ثم خرج الى الكرك في يوم الأربعاء ثاني ذي القعدة ، واستخلف الأمير آق سنقر السلاري نائب الغيبة . فلما وصل قبة النصر نزل عن فرسه ، ولبس ثياب العرب ، ومضى مع خواصه أهل الكرك على البريد ، وترك الأطلاب فسارت على البر حتى وافته بالكرك ، فرد العسكر الى بلد الخليل ، وأقام بقلعة الكرك ، وتصرف أقبح تصرف . فخلعه الأمراء في يوم الأربعاء حادي عشرى المحرم سنة ثلاث وأربعين . فكانت مدته ثلاثة أشهر وثلاثة عشر يوما .

وأقاموا بعده أخاه « السلطان الملك الصالح عماد الدين اسماعيل » في يوم الخميس ثاني عشرى المحرم المذكور ، وقام الأمير أرغون زوج أمه بتدبير المملكة مع مشاركة عدة من الأمراء ، وسارت الأمراء والعساكر لقتال الناصر أحمد في الكرك حتى أخذ وقتل . فلما أحضرت رأسه الى السلطان الصالح ورآها فزع ، ولم يزل يعتاده المرض حتى مات ليلة الخميس رابع عشر ربيع الآخر سنة ست وأربعين وسبعمائة . فكانت مدته ثلاث سنين وشهرين وأحد عشر يوما .

(*) ص٢٣٩ جـ٢ ، بولاق .

وقام بعده أخوه « السلطان الملك الكامل سيف الدين شعبان » بعهد أخيه ، وجلس على التخت من غد . فأوحش ما بينه وبين الأمراء حتى ركبوا عليه ، فركب لقتالهم فلم يثبت من معه ، وعاد الى القلعة منهزما ، فتبعه الأمراء وخلعوه وذلك فى يوم الاثنين مستهل جمادى الآخرة سنة سبع وأربعين وسبعمائة . فكانت مدته سنة وثمانية وخمسين يوما .

فأقيم بعده أخوه « السلطان الملك المظفر زين الدين حاجى » من يومه ... فساءت سيرته ، وانهمك فى اللعب . فركب الأمراء عليه ، فركب اليهم وحاربهم ، فخانه من معه ، وتركوه حتى أخذ ، وذبح فى يوم الأحد ثانى عشر رمضان سنة ثمان وأربعين وسبعمائة . وكانت مدته سنة وثلاثة أشهر واثنى عشر يوما .

وأقيم من بعده أخوه « السلطان الملك الناصر بدر الدين أبو المغالى حسن بن محمد » فى يوم الثلاثاء رابع عشره ، وعمره احدى عشرة سنة ، فلم يكن له من الأمر شىء ، والقائم بالأمر الأمير شيخو العمرى . فلما آخذ فى الاستبداد بالتصرف خلع ، وسجن فى يوم الاثنين ثامن عشرى جمادى الآخرة سنة اثنتين وخمسين . فكانت مدته أربع سنين تنقص خمسة عشر يوما ، منها تحت الحجر ثلاث سنين ونيف ، ومدة استبداده نحو من تسعة أشهر .

وأقيم من بعده أخوه « السلطان الملك الصالح صلاح الدين صالح » فى يوم الاثنين المذكور ، فكثر لهوه ، وخرج عن الحد فى التبذل واللعب . فثار عليه الأميران شيخو وطاز ، وقبضا عليه ، وسجناه بالقلعة فى يوم الاثنين ثانى شوال سنة خمس وخمسين وسبعمائة . فكانت مدته ثلاث سنين وثلاثة أشهر وثلاثة أيام .

وأعيد « السلطان الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون » فى يوم الاثنين المذكور . فأقام حتى قام عليه مملوكه الأمير يلبغا الخاصكى ، وقتله فى ليلة الأربعاء تاسع جمادى الأولى سنة اثنتين وستين . فكانت مدته هذه ست سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام .

وأقيم من بعده ابن أخيه « السلطان الملك المنصور صلاح الدين محمد بن المظفر حاجى ابن محمد بن قلاوون » ، وعمره أربع عشرة سنة ، فى يوم الأربعاء المذكور . وقام بالأمر الأمير يلبغا ، ثم خلعه وسجنه بالقلعة فى يوم الاثنين رابع عشر شعبان سنة أربع وستين وسبعمائة .

وأقام بعده « السلطان الملك الأشرف زين الدين أبا المعالى شعبان بن حسين بن الناصر محمد بن المنصور قلاوون » ، وعمره عشر سنين ، فى يوم الثلاثاء خامس عشر شعبان المذكور ، ولم يل من بنى قلاوون من أبوه لم يتسلطن سواه .

فأقام تحت حجر يلبغا حتى قتل يلبغا فى ليلة الأربعاء عاشر ربيع الآخر سنة ثمان وستين وسبعمائة . فأخذ يستبد بملكه حتى انفرد بتدبيره ... الى أن قتل فى يوم الثلاثاء سادس ذى القعدة سنة ثمان وسبعين وسبعمائة ، بعدما أقيم بدله ابنه فى السلطنة . فكانت مدته أربع عشرة سنة وشهرين وخمسة عشر يوما .

فقام بالأمر ابنه « السلطان الملك المنصور علاء الدين على بن شعبان بن حسين » وعمره سبع سنين ، فى يوم السبت ثالث ذى القعدة المذكور ، وأبوه حى . فلم يكن حظه من السلطنة سوى الاسم ، حتى مات فى يوم الأحد ثالث عشرى صفر سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة . فكانت مدته خمس سنين وثلاثة أشهر وعشرين يوما .

فأقيم بعده أخوه « السلطان الملك الصالح زين الدين حاجى » فى يوم الاثنين رابع عشرى صفر المذكور . فقام بأمر الملك وتدبير الأمور الأمير الكبير برقوق ، حتى خلعه فى يوم الأربعاء تاسع شهر رمضان سنة أربع وثمانين وسبعمائة . فكانت مدته سنة وشهرين ينقصان أربعة أيام .

وبه انقضت دولة المماليك البحرية الأتراك وأولادهم . ومدتهم مائة وست وثلاثون سنة وسبعة أشهر وتسعة أيام : أولها يوم الخميس عاشر صفر سنة ثمان وأربعين وستمائة ، وآخرها يوم الثلاثاء * ثامن عشر شهر رمضان سنة أربع وثمانين وسبعمائة . وعدتهم أربعة وعشرون ذكرا ما بين رجل وصبى ، وامرأة واحدة ، وأولهم امرأة ، وآخرهم صبى .

ولما أقيم الناصر حسن بعد أخيه المظفر حاجى ، طلب المماليك الجراكسة ، الذين قربهم المظفر ، بسفارة الأمير أغرلو ، فانه كان يدعى أنه كان جركسى الجنس ، وجلبهم من أماكن حتى ظهروا فى الدولة ، وكبرت عمائمهم وكلوتاتهم ، فأخرجوا منفيين أنحس خروج ، وقدموا على البلاد الشامية . والله تعالى أعلم .

(*) ص ٢٤٠، ج٢، ط. بولاق .

ذكر دولة المماليك الجراكسة

وهم واللاض والروس أهل مدائن عامرة ، وجبال ذات أشجار ، ولهم أغنام وزروع ، وكلهم فى مملكة صاحب مدينة سراى قاعدة خوارزم . وملوك هذه الطوائف لملك سراى كالرعية ، فان داروه وهادوه كف عنهم ، والا غزاهم وحصرهم ، وكم مرة قتلت عساكره منهم خلائق ، وسبت نساءهم وأولادهم ، وجلبتهم رقيقا الى الأقطار .

فأكثر المنصور قلاوون من شرائهم ، وجعلهم وطائفة اللاض جميعا فى أبراج القلعة ، وسماهم البرجية ، فبلغت عدتهم ثلاثة آلاف وسبعمائة ، وعمل منهم أوشاقية وجمقدارية وجاشنكيرية وسلاحدارية .

وأولهم « السلطان الملك الظاهر أبو سعيد برقوق بن آنص » . أخذ من بلاد الجركس ، وبيع ببلاد القرم ، فجلبه خواجا فخر الدين عثمان بن مسافر الى القاهرة ، فاشتراه منه الأمير الكبير يلبغا الخاصكى وأعتقه ، وجعله من جملة مماليكه الأجلاب ، فعرف ببرقوق العثمانى .

فلما قتل يلبغا أخرج الملك الأشرف الأجلاب من مصر . فسار منهم برقوق الى الكرك ، فأقام فى عدة منهم مسجونا بها عدة سنين ، ثم أفرج عنه وعمن كان معه . فمضوا الى دمشق ، وخدموا عند الأمير منجك نائب الشام . حتى طلب الأشرف اليلبغاوية ، فقدم برقوق فى جملتهم ، واستقر فى خدمة ولدى السلطان على وحاجى مع من استقر من خشداشيته ، فعرفوا باليلبغاوية ... الى أن

خرج السلطان الى الحج . فثاروا بعد سفره ، وسلطنوا ابنه عليا .

وحكم فى الدولة منهم الأمير قرطاى الشهابى . فثار عليه خشداشيه أينبك البدرى ، فأخرجه الى الشام ، وقام بعده بتدبير الدولة ، وخرج الى الشام ، فثارت عليه اليلبغاوية — وفيهم برقوق ، وقد صار من جملة الأمراء — فعاد قبل وصوله بلبيس ، ثم قبض عليه . وقام بتدبير الدولة غير واحد فى أيام يسيرة .

فركب برقوق فى يوم الأحد ثالث عشرى ربيع الآخر سنة تسع وسبعين وسبعمائة وقت الظهيرة ، فى طائفة من خشداشيته ، وهجم على باب السلسلة ، وقبض على الأمير يلبغا الناصرى — وهو القائم بتدبير الدولة — وملك الاصطبل ، وما زال به حتى خلع الصالح حاجى .

وتسلطن فى يوم الأربعاء تاسع عشر رمضان سنة أربع وثمانين وسبعمائة ، وقت الظهر ، فغير العوايد ، وأفنى رجال الدولة ، واستكثر من جلب الجراكسة ... الى أن ثار عليه الأمير يلبغا الناصرى — وهو يومئذ نائب حلب — وسار اليه . ففر من قلعة الجبل فى ليلة الثلاثاء خامس جمادى الأولى سنة احدى وتسعين وملك الناصرى القلعة ، وأعاد الصالح حاجى ولقبه بالملك المنصور ، وقبض على برقوق ، وبعثه الى الكرك فسجنه بها .

فثار الأمير منطاش على الناصرى ، وقبض عليه ، وسجنه بالاسكندرية . وخرج يريد محاربة برقوق — وقد خرج من سجن الكرك ، وسار الى دمشق فى عسكر — فحاربه برقوق على شقحب ظاهر دمشق ، وملك ما معه من الخزائن ، وأخذ الخليفة والسلطان حاجى والقضاة وسار الى مصر .

فقدمها فى يوم الثلاثاء رابع عشر صفر سنة اثنتين وتسعين ، واستبد بالسلطنة حتى مات ليلة الجمعة للنصف من شوال سنة احدى وثمانمائة . فكانت مدته أتابكا وسلطانا احدى وعشرين سنة وعشرة أشهر وستة عشر يوما ، خلع فيها ثمانية أشهر وتسعة أيام .

وقام من بعده ابنه « السلطان الملك الناصر زين الدين أبو السعادات فرج » فى يوم الجمعة المذكور ، وعمره نحو العشر سنين ، فدبر أمر الدولة الأمير الكبير أيتمش ، ثم ثار به الأمير يشبك وغيره ، ففر الى الشام ، وقتل بها .

ولم تزل أيام الناصر كلها كثيرة الفتن والشرور والغلاء والوباء . وطرق بلاد الشام فيها الأمير تيمورلنك ، فخربها كلها وحرقها ، وعمها بالقتل والنهب والأسر ، حتى فقد منها جميع أنواع الحيوانات ، وتمزق أهلها فى جميع أقطار الأرض . ثم دهمها بعد رحيله عنها جراد لم يترك بها خضراء ، فاشتد بها الغلاء على من تراجع اليها من أهلها ، وشنع موتهم .

واستمرت بها مع ذلك الفتن ، وقصر مد النيل بمصر حتى شرقت الأراضى الا قليلا ، وعظم الغلاء والفناء . فباع أهل الصعيد أولادهم من الجوع ، وصاروا أرقاء مملوكين وشمل الخراب الشنيع عامة أرض مصر وبلاد الشام ، من حيث مصب النيل من الجنادل ، الى حيث مجرى الفرات .

وابتلى مع ذلك بكثرة فتن الأميرين نوروز الحافظى وشيخ المحمودى ، وخروجهما ببلاد * الشام عن طاعته ، فتردد لمحاربتهما مرارا حتى هزماه ، ثم قتلاه بدمشق فى ليلة السبت سادس عشر صفر سنة خمس عشرة وثمانمائة . فكانت مدته — منذ مات أبوه الى أن فر فى يوم الأحد خامس عشرى ربيع الأول سنة ثمان وثمانمائة واختفى ، وأقيم بعده أخوه عبد العزيز ، ولقب الملك المنصور — ست سنين وخمسة أشهر وأحد عشر يوما .

وأقام الناصر فى الاختفاء سبعين يوما ، ثم ظهر فى يوم السبت خامس عشر جمادى الآخرة ، واستولى على قلعة الجبل ، واستبد بملكه أقبح استبداد ... الى أن توجه لحرب نوروز وشيخ ، وقاتلهما على اللجون فى يوم الاثنين ثالث عشر المحرم سنة خمس عشرة ، فانهزم الى دمشق وهما فى اثره — وقد صار الخليفة المستعين بالله فى قبضتهما ومعه مباشرو الدولة — فنزل على دمشق وحصراه ، ثم ألزما الخليفة بخلعه من السلطنة ، فلم يجد بدا من ذلك ، وخلعه فى يوم السبت خامس عشريه ، ونودى بذلك فى الناس . فكانت مدته الثانية ست سنين وعشرة أشهر سواء .

وأقيم من بعده « الخليفة المستعين بالله أمير المؤمنين أبو الفضل العباس بن محمد العباسى » . وأصل هؤلاء الخلفاء بمصر أن أمير المؤمنين المستعصم بالله عبد الله ، آخر خلفاء بنى العباس ، لما قتله هولاكو بن تولى ابن جنكز خان فى صفر سنة ست وخمسين وستمائة ببغداد ، وخلت الدنيا من خليفة ، وصار الناس بغير امام قرشى الى سنة تسع وخمسين .

فقدم الأمير أبو القاسم أحمد ابن الخليفة الظاهر أبى نصر محمد ابن الخليفة الناصر العباسى من بغداد الى مصر فى يوم الخميس تاسع رجب منها . فركب السلطان الملك الظاهر بيبرس الى لقائه ، وصعد به قلعة الجبل ، وقام بما يجب من حقه ، وبايعه بالخلافة وبايعه الناس ، وتلقب بالمستنصر . ثم توجه لقتال التتر ببغداد ، فقتل فى محاربتهم لأيام خلت من المحرم سنة ستين وستمائة . فكانت خلافته قريبا من سنة .

ثم قدم من بعده الأمير أبو العباس أحمد ابن أبى على الحسن بن أبى بكر ، من ذرية الخليفة الراشد بالله أبى جعفر منصور بن المسترشد ، فى سابع عشرى ربيع الأول . فأنزله السلطان فى برج بقلعة الجبل ، وأجرى عليه ما يحتاج اليه ، ثم بايعه فى يوم الخميس ثامن المحرم سنة احدى وستين ، بعد ما أثبت نسبه على قاضى القضاة تاج الدين عبد الوهاب ابن بنت الأعز ، ولقبه بالحاكم بأمر الله ، وبايعه الناس كافة .

ثم خطب من الغد ، وصلى بالناس الجمعة فى جامع القلعة ، ودعى له من يومئذ على منابر أراضى مصر كلها قبل الدعاء للسلطان ، ثم خطب له على منابر الشام ، واستمر الحال على الدعاء له ولمن جاء من بعده من الخلفاء . وما زال بالبرج الى أن منعه السلطان من الاجتماع بالناس فى المحرم سنة ثلاث وستين ، فاحتجب وصار كالمسجون زيادة على سبع وعشرين سنة ... بقية أيام الظاهر بيبرس

(*) ص٢٤١ جـ٢ ، طـ بولاق .

وأيام ولديه محمد بركة وسلامش وأيام قلاوون .

فلما صارت السلطنة الى الأشرف خليل بن قلاوون ، أخرجه من سجنه مكرما فى يوم الجمعة العشرين من شهر رمضان سنة تسعين وستمائة ، وأمَّره . فصعد منبر الجامع بالقلعة ، وخطب وعليه سواده ، وقد تقلد سيفا محلى ، ثم نزل فصلى بالناس صلاة الجمعة قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة ، وخطب أيضا خطبة ثالثة فى يوم الجمعة تاسع عشرى ربيع الأول سنة احدى وتسعين ، وحج سنة أربع وتسعين .

ثم منع من الاجتماع بالناس فامتنع . حتى أفرج عنه المنصور لاجين ، فى سنة ست وتسعين ، وأسكنه بمناظر الكبش ، وأنعم عليه بكسوة له ولعياله ، وأجرى عليه ما يقوم به . وخطب بجامع القلعة خطبة رابعة ، وصلى بالناس الجمعة ، ثم حج سنة سبع وتسعين ، وتوفى ليلة الجمعة ثامن عشر جمادى الأولى سنة احدى وسبعمائة . فكانت خلافته مدة أربعين سنة ليس له فيها أمر ولا نهى ، انما حظه أن يقال أمير المؤمنين .

وكان قد عهد الى ابنه الأمير أبى عبد الله محمد المستمسك ، ثم من بعده لأخيه أبى الربيع سليمان المستكفى . فمات المستمسك فى حياته ، واشتد جزعه عليه ، فعهد لابنه ابراهيم بن محمد المستمسك . فلما مات الحاكم أقيم من بعده ابنه المستكفى بالله أبو الربيع سليمان بعهده له ، فشهد وقعة شقحب مع الملك الناصر محمد بن قلاوون وعليه سواده ، وقد أرخى له عذبة طويلة ، وتقلد سيفا عربيا محلى .

ثم تنكر عليه ، وسجنه فى برج بالقلعة نحو خمسة أشهر ، وأفرج عنه وأنزله الى داره قريبا من المشهد النفيسى بتربة شجرة الدر ، فأقام نحو ستة أشهر ، وأخرجه الى قوص فى سنة سبع وثلاثين وسبعمائة ، وقطع راتبه ، وأجرى له بقوص ما يتقوت به . فمات بها فى خامس شعبان سنة أربعين .

وعهد الى ولده ، فلم يمض الملك الناصر محمد عهده ، وبويع ابن أخيه أبو اسحاق ابراهيم بن محمد المستمسك بن أحمد الحاكم بيعة خفية لم تظهر ، فى يوم الاثنين خامس عشرى شعبان المذكور ، وأقام الخطباء أربعة أشهر لا يذكرون فى خطبهم الخليفة ، ثم خطب له فى يوم الجمعة سابع ذى القعدة منها ، ولقب بالواثق بالله .

فلما مات الناصر محمد ، وأقيم بعده ابنه المنصور أبو بكر ، استدعى أبو القاسم أحمد ابن * أبى الربيع سليمان ، وأقيم فى الخلافة ، ولقب بالحاكم بعدما كان يلقب بالمستنصر ، وكنى بأبى العباس فى يوم السبت سلخ ذى الحجة سنة احدى وأربعين وسبعمائة . فاستمر حتى مات فى يوم الجمعة رابع شعبان سنة ثمان وأربعين وسبعمائة .

فأقيم بعده أخوه المعتضد بالله أبو بكر ، وكنيته أبو الفتح ، بن أبى الربيع سليمان فى يوم الخميس سابع عشره ، واستقر مع ذلك فى نظر مشهد السيدة نفيسة رضى الله عنها ،

(*) ص٢٤٢ ، جـ٢ ، ط. بولاق (*)

ليستعين بما يرد الى ضريحها من نذر العامة على قيام أوده — فان مرتب الخلفاء كان على مكس الصاغة ، وحسبه أن يقوم بما لابد منه في قوتهم ، فكانوا أبدا في عيش غير موسع — فحسنت حال المعتضد بما يبيعه من الشمع المحمول الى المشهد النفيسى ونحوه ، الى أن توفى يوم الثلاثاء عاشر جمادى الأولى سنة ثلاث وستين . وكان يلثغ بالكاف ، وحج مرتين : احداهما سنة أربع وخمسين ، والثانية سنة ستين .

فأقيم بعده ابنه المتوكل على الله أبو عبد الله محمد ، بعهده اليه في يوم الخميس ثانى عشره ، وخلع عليه بين يدى السلطان الملك المنصور محمد ابن الملك المظفر حاجى ، وفوض اليه نظر المشهد ، ونزل الى داره . فلم يزل حتى تنكر له الأمير أينبك في أول ذى القعدة سنة ثمان وسبعين ، بعد قتل الملك الأشرف شعبان بن حسين ، وأخرجه ليسير الى قوص ، وأقام عوضه في الخلافة ابن عمه زكريا بن ابراهيم بن محمد في ثالث عشرى صفر سنة تسع وسبعين .

وكان قد أمر برد المتوكل من نفيه ، فرد الى منزله من يومه ، فأقام به حتى رضى عنه أينبك ، وأعاده في العشرين من ربيع الأول منها الى خلافته . ثم سخط عليه الظاهر برقوق ، وسجنه مقيدا في يوم الاثنين أول رجب سنة خمس وثمانين ، وقد وشى به أنه يريد الثورة وأخذ الملك .

وأقيم بعده في الخلافة الواثق بالله أبو حفص عمر بن المعتصم أبى اسحاق ابراهيم بن محمد ابن الحاكم في يوم الاثنين المذكور . فما زال خليفة حتى مات يوم السبت تاسع شوال سنة ثمان وثمانين . فأقام الظاهر بعده في الخلافة أخاه زكريا بن ابراهيم في يوم الخميس ثامن عشريه ، ولقب بالمستعصم ، وركب بالخلعة وبين يده القضاة من القلعة الى منزله .

فلما أشرف الظاهر برقوق على زوال ملكه ، وقرب الأمير يلبغا الناصرى نائب حلب بالعساكر ، استدعى المتوكل على الله من محبسه ، وأعاده الى الخلافة ، وخلع عليه في يوم الأربعاء أول جمادى الأولى سنة احدى وتسعين ، وبالغ في تعظيمه ، وأنعم عليه . فلم يزل على خلافته حتى توفى ليلة الثلاثاء ثامن عشرى رجب سنة ثمان وثمانمائة . وهو أول من اتسعت أحواله من الخلفاء بمصر ، وصار له اقطاعات ومال .

فأقيم في الخلافة بعده ابنه المستعين بالله أبو الفضل العباس ، وخلع عليه في يوم الاثنين رابع شعبان بالقلعة بين يدى الناصر فرج بن برقوق ، ونزل الى داره ، ثم سار مع الناصر الى الشام ، وحضر معه وقعة اللجون حتى انهزم . فدعاه الأميران شيخ ونوروز ، فمضى من موقفه اليهما ومعه مباشرو الدولة ، فأنزلاه ووكلا به ، وسارا به لحصار الناصر ، ثم ألزماه حتى خلعه من السلطنة . وأقامه شيخ في السلطنة ، وبايعه ومن معه في يوم السبت خامس عشرى المحرم سنة خمس عشرة وثمانمائة ، وبعث الى نوروز وهو بشمالى دمشق حتى بايعه .

فنالوا باقامته أغراضهم من قتل الناصر وانتظام أمرهم ، ثم سار به شيخ الى مصر ، وأقام نوروز بدمشق . فلما قدم به أسكنه القلعة ، ونزل هو بالحراقة من باب السلسلة ، وقام بجميع الأمور ، وترك الخليفة فى غاية الحصر حتى استبد بالسلطنة . فكانت مدة الخليفة منذ أقاموه سلطانا سبعة أشهر وخمسة أيام . ونقل الخليفة الى بعض دور القلعة ، ووكل به من يحفظه وأهله .

وقام من بعده بالسلطنة « السلطان الملك المؤيد أبو النصر شيخ المحمودى » ، أحد مماليك الظاهر برقوق ، فى يوم الاثنين أول شعبان سنة خمس عشرة وثمانمائة . فسجن الخليفة فى برج بالقلعة ، ثم حمله الى الاسكندرية فسجنه بها . ولم يزل سلطانا حتى مات فى يوم الاثنين ثامن المحرم سنة أربع وعشرين . فكانت مدته ثمان سنين وخمسة أشهر وستة أيام .

فأقيم بعده ابنه « السلطان الملك المظفر شهاب الدين أبو السعادات أحمد » وعمره سنة واحدة ونصف . فقام بأمره الأمير ططر ، وفرق ما جمعه المؤيد من الأموال ، وخرج بالمظفر يريد محاربة الأمراء بالشام ، فظفر بهم وخلع المظفر . وكانت مدته ثمانية أشهر تنقص سبعة أيام .

وقام بعده « السلطان الملك الظاهر أبو الفتح ططر » أحد مماليك الظاهر برقوق ، وجلس على التخت بقلعة دمشق فى يوم الجمعة تاسع عشرى شعبان سنة أربع وعشرين . وقدم الى قلعة الجبل ، وهو موعوك البدن ، فى يوم الخميس رابع شوال ، فثقل فى مرضه من يوم الاثنين ثانى عشريه حتى مات فى يوم لأحد رابع عشرى ذى الحجة . فكانت مدته ثلاثة أشهر ويومين .

فأقيم بعده ابنه « السلطان الملك الصالح ناصر الدين محمد » وعمره نحو عشر سنين . فقام بأمره الأمير برسباى الدقماقى ، ثم خلعه بعد أربعة أشهر * وأربعة أيام .

وقام من بعده « السلطان الملك الأشرف سيف الدين أبو النصر برسباى » أحد مماليك الظاهر برقوق ، وجلس على تخت الملك فى يوم الأربعاء ثامن شهر ربيع الآخر سنة خمس وعشرين وثمانمائة .

هذا آخر الجزء الثالث من أصل مصنفه الامام المقريزى رحمه الله تعالى ورضى عنه .

***

(ووجد على هامش بعض النسخ ما صورته) :

وتوفى الأشرف برسباى ثالث عشر ذى الحجة سنة احدى وأربعين وثمانمائة . فكانت مدته ست عشرة سنة وتسعة شهور .

ثم قام من بعده ولده « الملك العزيز يوسف » وسنه نحو خمس عشرة سنة ، ثم خلع فى تاسع عشر ربيع الأول سنة اثنتين وأربعين وثمانمائة . فكانت مدته نحو ثلاثة أشهر .

وقام من بعده « الملك الظاهر جقمق » فى تاسع عشر ربيع المذكور ، وخلع نفسه من الملك فى مرض موته .

وتولى بعده بعهده ولده « الملك المنصور عثمان » فى حادى عشرى المحرم سنة سبع

(*) ص٢٤٣ ، جـ٢ ، طـ بولاق .

وخمسين وثمانمائة . فكانت مدة الظاهر جقمق أربع عشرة سنة ونحو عشرة شهور . ثم خلع ولده المنصور عثمان فى سابع ربيع الأول سنة سبع وخمسين وثمانمائة ، فأقام فى الملك أحدا وأربعين يوما .

وتولى عوضه « الملك الأشرف اينال » فى ثامن ربيع الأول سنة سبع وخمسين وثمانمائة ، وخلع نفسه فى مرض موته فى جمادى الأولى سنة خمس وستين وثمانمائة . فكانت مدته ثمان سنين وشهرين .

وتولى بعده ولده « الملك المؤيد أحمد » ، ثم خلع فى ثامن عشر رمضان سنة خمس وستين وثمانمائة . فكانت مدته أربعة أشهر .

وتولى « الملك الظاهر خشقدم » تاسع عشر رمضان سنة خمس وستين وثمانمائة ، ومات عاشر شهر ربيع الأول سنة اثنتين وسبعين . فكانت مدته نحو ست سنين ونصف .

ثم تولى « الملك الظاهر بلباى » فى حادى عشر الشهر المذكور ، ثم خلع فى سابع جمادى الأولى من السنة المذكورة . فكانت مدته ستة وخمسين يوما .

ثم تولى « الملك الظاهر تمربغا » فى ثامن جمادى الأولى المذكور ، ثم خلع فى العشر الأول من شهر رجب الفرد سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة . وكانت مدته نحو تسعة وخمسين يوما .

وتولى « الملك الأشرف قايتباى » فى ثانى عشر رجب من السنة المذكورة ، وتوفى فى ثانى عشرى ذى القعدة سنة احدى وتسعمائة . فكانت مدته تسعا وعشرين سنة وأربعة شهور وأياما .

وتولى بعده ولده « الملك الناصر محمد » فى التاريخ المذكور ، ثم قتل بالجيزة فى آخر يوم الأربعاء النصف من ربيع الأول سنة أربع وتسعمائة . فكانت مدته سنتين وثلاثة أشهر وأياما .

ثم تولى خاله « الملك الظاهر قانصوه الأشرفى قايتباى » فى ضحوة يوم الجمعة سابع عشر ربيع الأول المذكور ، ثم خلع فى سابع ذى الحجة سنة خمس وتسعمائة . فكانت مدته نحو عشرين شهرا .

وتولى عوضه « الملك الأشرف جان بلاط الأشرفى قايتباى » ، وأتانا خبره بمنزلة الجديدة فى العود من المدينة الشريفة فى يوم الجمعة سادس عشرى ذى الحجة سنة خمس وتسعمائة . فكانت مدته ستة شهور وأياما ، ثم خلع فى يوم السبت ثامن عشر جمادى الآخرة سنة ست وتسعمائة .

وتولى « الملك العادل طومان باى الأشرفى قايتباى » ، ثم خلع سلخ رمضان من السنة المذكورة . فكانت مدته نحو مائة يوم .

وتولى بعده « الملك الأشرف قانصوه الغورى الأشرفى قايتباى » مستهل شوال من السنة المذكورة .

انتهى . والله تعالى أعلم بالصواب .

ذكر المساجد الجامعة

اعلم أن أرض مصر لما فتحت فى سنة عشرين من الهجرة ، واختط الصحابة رضى الله عنهم فسطاط مصر كما تقدم ، لم يكن بالفسطاط غير مسجد واحد ، وهو الجامع الذى يقال

له في مدينة مصر « الجامع العتيق » و « جامع عمرو بن العاص » .

وما برح الأمر على هذا الى أن قدم عبد الله ابن على بن عبد الله بن عباس ، رضى الله عنهما ، من العراق فى طلب مروان بن محمد في سنة ثلاث وثلاثين ومائة . فنزل عسكره فى شمالى الفسطاط ، وبنوا هناك الأبنية ، فسمى ذلك الموضع بالعسكر ، وأقيمت هناك الجمعة فى مسجد . فصارت الجمعة تقام بمسجد عمرو بن العاص ، وبجامع العسكر .

الى أن بنى الأمير أحمد بن طولون جامعه على جبل يشكر ، فى سنة تسع وخمسين ومائتين حين بنى القطائع ، فتلاشى من حينئذ جامع العسكر ، وصارت الجمعة تقام بجامع عمرو وبجامع ابن طولون ... الى أن قدم جوهر القائد من بلاد القيروان بالمغرب ، ومعه عساكر مولاه المعز لدين الله أبى تميم معد ، فبنى القاهرة ، وبنى الجامع الذى يعرف بالجامع الأزهر فى سنة ستين وثلثمائة . فكانت الجمعة تقام فى جامع عمرو ، وجامع ابن طولون ، والجامع الأزهر * ، وجامع القرافة الذى يعرف اليوم بجامع الأولياء .

ثم ان العزيز بالله أبا منصور نزار بن المعز لدين الله ، بنى فى ظاهر القاهرة من جهة باب الفتوح الجامع ، الذى يعرف اليوم بجامع الحاكم ، فى سنة ثمانين وثلثمائة ، وأكمله ابنه الحاكم بأمر الله أبو على منصور ، وبنى جامع المقس وجامع راشدة . فكانت الجمعة تقام فى هذه الجوامع كلها ... الى أن انقرضت دولة الخلفاء الفاطميين فى سنة سبع وستين وخمس... عطلت الخطبة من الجامع الأزهر ، واستمرت فيما عداه .

فلما كانت الدولة التركية ، حدث بالقاهرة والقرافة ومصر وما بين ذلك عدة جوامع أقيمت فيها الجمعة . وما برح الأمر يزداد حتى بلغ عدد المواضع التى تقام بها الجمعة ، فيما بين مسجد تبر خارج القاهرة من بحريها الى دير الطين قبلى مدينة مصر ، زيادة على مائة موضع . وسيأتى من ذكر ذلك ما فيه كفاية ان شاء الله تعالى .

وقد بلغت عدة المساجد التى تقام بها الجمعة مائة وثلاثين مسجدا :

منها بمدينة مصر : جامع عمرو بن العاص ، والجامع الجديد ، والمدرسة المعزية ، وجامع ابن اللبان ، وجامع القراء ، وجامع تقى الثمار ، وجامع راشدة ، وجامع الفيلة ، وجامع دير الطين ، وجامع بساتين الوزير .

ومنها بالقرافة : جامع الأولياء ، وجامع الأفرم ، وخانكاه بكتمر ، وجامع ابن عبد الظاهر ، وجامع الجوانى ، وجامع الضراب ، وجامع قوصون ، وجامع الشافعى ، وجامع الديلمى ، وجامع محمود ، وجامع بقرب تربة الست .

ومنها بالروضة : جامع المقياس ، وجامع عين ، وجامع الرئيس ، وجامع الأباريقى ، وجامع المقسى .

ومنها بالحسينية خارج القاهرة : جامع أحمد الزاهد ، وجامع آل ملك ، وجامع كراى ، وجامع الكافورى بالقرب من السميساطية ، وجامع الخندق ، وجامع نائب الكرك ، وجامع

(*) ص ٢٤٤ ، جـ ٢ ، ط . بولاق .

سويقة الجميزة ، وجامع قيدار ، وجامع ابن شرف الدين ، وجامع الظاهر ، وجامع الحاج كمال التاجر ... تجدد هو وجامع سويقة الجميزة فى أيام الظاهر برقوق .

ومنها خارج القاهرة مما يلى النيل : جامع كوم الريش . جامع جزيرة الفيل . جامع أمين الدين بن تاج الدين موسى . جامع الفخر على النيل . جامع الأسيوطى . جامع الواسطى . جامع ابن بدر . جامع الخطيرى . جامع ابن غازى . جامع المقس . جامع ابن التركمانى . جامع بنت التركمانى . جامع الطواشى . جامع باب الرخاء . جامع الزاهد . جامع ميدان القمح . جامع صاروجا . جامع ابن زيد . جامع بركة الرطلى . جامع الكيمختى .

جامع باب الشعرية . جامع ابن ميالة . جامع ابن المغربى . جامع العجمى بقنطرة الموسكى . الجامع المعلق بقنطرة الموسكى أيضا . جامع الجاكى بسويقة الريش . جامع السروجى بسويقة الريش أيضا . جامع البكجرى . جامع ابن حسون بالدكة . جامع ابن المغربى على الخليج . جامع الطباخ بخط اللوق .

جامع الست نصيرة بخط باب اللوق — حيث كان الكوم فحفر ، فاذا بقبر عرف بالست نصيرة ، وعمل عليه مسجد ، وأقيمت به الجمعة فى أيام الظاهر برقوق — جامع شاكر بجوار قنطرة قدادار ، عمر سنة ست وعشرين وثمانمائة . جامع غيط القاصد خلف قنطرة قدادار . جامع الجزيرة الوسطى .

جامع كريم الدين بخط الزريبة . جامع ابن غلاميا بخط الزريبة أيضا . الجامع الأخضر . جامع سويقة الموفق . جامع سلطان شاه بباب الخرق . جامع زين الدين الخشاب خارج باب اللوق ، كان زاوية للفقراء ، فأقيمت به الجمعة بعد سنة ثمانمائة . جامع منكلى بسويقة القيمرى .

ومنها فيما بين القاهرة ومصر : جامع بشتاك . جامع الاسماعيلى على البركة الناصرية . جامع الست مسكة . جامع آق سنقر بمجرى السقائين . جامع الشيخ محمد ابن حسن الحنفى . جامع ست حدق بالمريس . جامع الطيبرسى . جامع الرحمة عمارة الصاحب أمين الدين عبد الله بن غنام . جامع منشأة المهرانى . جامع يونس بالسبع سقايات على البركة . جامع بركة الأستادار بحدرة ابن قميحة . جامع ابن طولون . جامع المشهد النفيسى . جامع البقلى بالقبيبات . جامع شيخو . جامع قانباى برأس سويقة منعم . جامع ألماس . جامع قوصون . جامع الصالح . مدرسة الناصر حسن بسوق الخيل . جامع الجاى . جامع الماردينى . جامع أصلم .

ومنها بقلعة الجبل : جامع الناصرى . جامع التوبة . جامع الاصطبل . الجامع المؤيدى .

ومنها خارج القاهرة بالترب وما قرب من القلعة : تربة جوشن ، وتربة الظاهر برقوق ، وتربة طشتمر حمص أخضر بالصحراء ، جامع الخضرى . جامع التوبة . الجامع المؤيدى .

ومنها بالقاهرة : الجامع الأزهر ، والجامع الحاكمى ، والجامع الأقمر ، ومدرسة الظاهر برقوق ، والمدرسة الصالحية والحجارية ، والمشهد الحسينى ، وجامع الفاكهانى ،

والزمامية ، والصاحبية ، والبوبكرية ، والجامع المؤيدى ، والأشرفية ، وجامع الدوادارى قريبا من البرقية ، وجامع التوبة بالبرقية ، مدرسة ابن البقرى والباسطية ★ .

ذكر الجوامع

اعلم أنه لما اتصلت مبانى القاهرة المعزية بمبانى مدينة فسطاط مصر بحيث صارتا كأنهما مدينة واحدة ، واتخذ أهل القاهرة وأهل مصر القرافتين لدفن أمواتهم ، ذكرت ما فى هذه المواضع الأربعة من المساجد الجامعة ، وأضفت اليها ما فى جزيرة فسطاط مصر — التى يقال لها الروضة — من الجوامع أيضا ، فانها متنزه أهل البلدين ، وجمعت الى ذلك ما فى ظواهر القاهرة ومصر من الجوامع مع التعريف بحال من أسسها . وبالله التوفيق .

الجامع العتيق

هذا الجامع بمدينة فسطاط مصر — ويقال له تاج الجوامع ، وجامع عمرو بن العاص — وهو أول مسجد أسس بديار مصر فى الملة الاسلامية بعد الفتح .

خرج الحافظ أبو القاسم بن عساكر ، من حديث معاوية بن قرة ، قال : قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : من صلى صلاة مكتوبة فى مسجد مصر من الأمصار كانت له كحجة متقبلة ، فان صلى تطوعا كانت له كعمرة مبرورة .

وعن كعب : من صلى فى مسجد مصر من الأمصار صلاة فريضة عدلت حجة متقبلة ، ومن صلى نطوع عدلت عمرة متقبلة فان أصيب فى وجهه ذلك حرم لحمه ودمه على النار أن تطعمه ، وذنبه على من قتله .

وأول مسجد بنى فى الاسلام مسجد قباء ، ثم مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال هشام بن عمار : حدثنا المغيرة بن المغيرة ، حدثنا يحيى بن عطاء الخراسانى عن أبيه ، قال : لما افتتح عمر البلدان كتب الى أبى موسى ، وهو على البصرة ، يأمره أن يتخذ مسجدا للجماعة ويتخذ للقبائل مساجد ، فاذا كان يوم الجمعة انضموا الى مسجد الجماعة . وكتب الى سعد بن أبى وقاص ، وهو على الكوفة ، بمثل ذلك . وكتب الى عمرو بن العاص ، وهو على مصر ، بمثل ذلك . وكتب الى أمراء أجناد الشام ألا يتبددوا الى القرى ، وأن ينزلوا المدائن ، وأن يتخذوا فى كل مدينة مسجدا واحدا ، ولا تتخذ القبائل مساجد . فكان الناس متمسكين بأمر عمر وعهده .

وقال أبو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب ابن حفص الكندى فى كتاب « أخبار مسجد أهل الراية الأعظم » وأول أمره وبنائه ، وزيادة الأمراء فيه وغيرهم ، ومجالس الحكام والفقهاء منه ، وغير ذلك ...

قال هبيرة بن أبيض عن شيخه تجيب : ان قيسبة بن كلثوم التجيبى ، أحد بنى سوم ، سار من الشام الى مصر مع عمرو بن العاص ، فدخلها فى مائة راحلة وخمسين عبدا وثلاثين فرسا .

فلما أجمع المسلمون وعمرو بن العاص على حصار الحصن ، نظر قيسبة بن كلثوم فرأى

(★) ص٢٤٥ جـ٢ ، ط. بولاق .

جنانا تقرب من الحصن ، فعرج اليها فى أهله وعبيده فنزل ، وضرب فيها فسطاطه ، وأقام فيها طول حصارهم الحصن حتى فتحه الله عليهم .

ثم خرج قيسبة مع عمرو الى الاسكندرية وخلف أهله فيها ، ثم فتح الله عليهم الاسكندرية ، وعاد قيسبة الى منزله هذا فنزله ، واختط عمرو بن العاص داره مقابل تلك الجنان التى نزلها قيسبة ، وتشاور المسلمون أين يكون المسجد الجامع ، فرأوا أن يكون منزل قيسبة .

فسأله عمرو فيه وقال : أنا أختط لك يا أبا عبد الرحمن حيث أحببت .

فقال قيسبة : لقد علمتم يامعاشر المسلمين أنى حزت هذا المنزل وملكته ، وانى أتصدق به على المسلمين . وارتحل فنزل مع قومه بنى سوم واختط فيهم .

فبنى مسجدا فى سنة احدى وعشرين من الهجرة . وفى ذلك يقول أبو قبان بن نعيم بن بدر التجيبى :

وبابليون قد سعدنا بفتحها
وحزنا لعمر الله فيئا ومغنما

وقيسبة الخير بن كلثوم داره
أباح حماها للصلاة وسلما

فكل مصل فى فنانا صلاته
تعارف أهل المصر ما قلت فاعلما

وقال أبو مصعب قيس بن سلمة الشاعر فى قصيدته التى امتدح فيها عبد الرحمن بن قيسبة :

وأبوك سلم داره وأباحها
لجباه قوم ركع وسجود

وقال الليث بن سعد : كان مسجدنا هذا حدائق وأعنابا .

وقال الشريف محمد بن أسعد الجوانى : ومن جملة مزارعها جامع مصر ، وقد بقى الى الآن من جملة الأنشاب التى كانت فى البستان فى موضع الجامع شجرة زنزلخت ، وهى باقية الى الآن خلف المحراب الكبير والحائط الذى به المنبر .

ومن العلماء من قال : ان هذه الشجرة باقية من عهد موسى عليه السلام ، وكان لها نظير شجرة أخرى فى الوراقين احترقت فى حريق مصر سنة أربع وستين وخمسمائة .

وظهر بالجامع العتيق بئر البستان التى كانت به . وهى اليوم يستقى منها الناس الماء بموضع حلقة الفقيه ابن الجيزى المالكى .

قال الكندى : وقال يزيد بن أبى حبيب : سمعت أشياخنا ممن حضر مسجد الفتح يقولون : وقف على اقامة قبلة المسجد الجامع ثمانون رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . فيهم الزبير بن * العوام ، والمقداد ، وعبادة بن الصامت ، وأبو الدرداء ، وفضالة بن عبيد ، وعقبة بن عامر ، رضى الله عنهم .

وفى رواية : أسس مسجدنا هذا أربعة من الصحابة : أبو ذر ، وأبو بصيرة ، ومحمئة بن جزء الزبيدى ، ونبيه بن صواب .

(*) ص ٢٤٦ جـ٢ ، ط . بولاق .

وقال عبد الله بن أبي جعفر : أقام محرابنا هذا عبادة بن الصامت ، ورافع بن مالك ، وهما نقيبان .

وقال داود بن عقبة : ان عمرو بن العاص بعث ربيعة بن شرحبيل بن حسنة وعمرو بن علقمة القرشى — ثم العدوى — يقيمان القبلة ، وقال لهما قوما : اذا زالت الشمس — أو قال : انتصفت الشمس — فاجعلاها على حاجبيكما . ففعلا .

وقال الليث : ان عمرو بن العاص ، كان يعد الحبال حتى أقيمت قبلة المسجد . وقال عمرو بن العاص : شرقوا القبلة تصيبوا الحرم ... قال : فشرقت جدا . فلما كان قرة ابن شريك تيامن بها قليلا . وكان عمرو بن العاص اذا صلى فى مسجد الجامع يصلى ناحية الشرق الا الشىء اليسير .

وقال رجل من تجيب : رأيت عمرو بن العاص دخل كنيسة فصلى فيها ، ولم ينصرف عن قبلتهم الا قليلا . وكان الليث وابن لهيعة اذا صليا تيامنا . وكان عمر بن مروان — عم الخلفاء — اذا صلى فى المسجد الجامع تيامن .

وقال يزيد بن حبيب فى قوله تعالى « قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها » : هى قبلة رسول الله صلى الله عليه وسلم التى نصبها الله عز وجل مقابل الميزاب ، وهى قبلة أهل مصر وأهل الغرب . وكان يقرأها « فلنولينك قبلة ترضاها » بالنون ... وقال : هكذا أقرأناها أبو الخير .

وقال الخليل بن عبد الله الأزدي : حدثنى رجل من الأنصار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه جبريل فقال : « ضع القبلة وأنت تنظر الى الكعبة » ، ثم مال بيده فأماط كل جبل بينه وبين الكعبة . فوضع المسجد وهو ينظر الى الكعبة ، وصارت قبلته الى الميزاب .

وقال ابن لهيعة : سمعت أشياخنا يقولون : لم يكن لمسجد عمرو بن العاص محراب مجوف . ولا أدرى بناه مسلمة ، أو بناه عبد العزيز . وأول من جعل المحراب قرة بن شريك .

وقال الواقدى : حدثنا محمد بن هلال قال : أول من أحدث المحراب المجوف عمر بن عبد العزيز ليالى بنى مسجد النبى صلى الله عليه وسلم .

وذكر عمر بن شبيبة أن عثمان بن مظعون تفل فى القبلة ، فأصبح مكتئبا . فقالت له امرأته : ما لى أراك مكتئبا ؟

قال : لا شىء الا أنى تفلت فى القبلة وأنا أصلى . فعمدت الى القبلة فغسلتها ، ثم عملت خلوقا فخلقتها ، فكانت أول من خلّق القبلة .

وقال أبو سعيد سلف الحميرى : أدركت مسجد عمرو بن العاص طوله خمسون ذراعا فى عرض ثلاثين ذراعا ، وجعل الطريق يطيفه به من كل جهة ، وجعل له بابان يقابلان دار عمرو بن العاص ، وجعل له بابان فى بحريه وبابان فى غربيه .

وكان الخارج اذا خرج من زقاق القناديل وجد ركن المسجد الشرقى محاذيا لركن دار عمرو بن العاص الغربى ، وذلك قبل أن أخذ من دار عمرو بن العاص ما أخذ ، وكان طوله من القبلة الى البحرى مثل طول دار عمرو بن

العاص ، وكان سقفه مطاطأ جدا ولا صحن له ، فاذا كان الصيف جلس الناس بفنائه من كل ناحية ، وبينه وبين دار عمرو سبع أذرع .

قلت : وأول من جلس على منبر أو سرير ذي أعواد ربيعة بن محاسن .

وقال القضاعي في كتاب « الخطط » : وكان عمرو بن العاص قد اتخذ منبرا . فكتب اليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه يعزم عليه في كسره ، ويقول : أما يحسبك أن تقوم قائما والمسلمون جلوس تحت عقبيك . فكسره .

قال مؤلفه رحمه الله : وفي سنة احدى وستين ومائة ، أمر المهدي محمد بن أبي جعفر المنصور بتقصير المنابر ، وجعلها بقدر منبر النبي صلى الله عليه وسلم .

قال القضاعي : وأول من صلى عليه من الموتى ، داخل الجامع ، أبو الحسن سعيد بن عثمان ، صاحب الشرط ، في النصف من صفر . وكانت وفاته فجأة ، فأخرج ضحوة يوم الأحد السادس عشر من صفر ، وصلى عليه خلف المقصورة ، وكبر عليه خمسا . ولم يعلم أحد قبله صلى عليه في الجامع .

وذكر عمر بن شبة في « تاريخ المدينة » أن أول من عمل مقصورة بلبن عثمان بن عفان وكانت فيها كوى تنظر الناس منها الى الامام ، وأن عمر بن عبد العزيز عملها بالساج .

قال القضاعي : ولم تكن الجمعة تقام في زمن عمرو بن العاص بشيء من أرض مصر الا في هذا الجامع ... قال أبو سعيد عبد الرحمن ابن يونس : جاء نفر من يحافق الى عمرو بن العاص ، فقالوا : انا نكون في الريف أفنجمع في العيدين الفطر والأضحى ، ويؤمنا رجل منا ؟

قال : نعم .

قالوا : فالجمعة ؟

قال : لا ، ولا يصلي الجمعة بالناس الا من أقام الحدود ، وآخذ بالذنوب ، وأعطى الحقوق .

وأول من زاد في هذا الجامع مسلمة بن مخلد الأنصاري سنة ثلاث وخمسين ، وهو يومئذ أمير مصر من قبل معاوية .

قال الكندي في « كتاب أخبار مسجد أهل الراية » : ولما ضاق المسجد بأهله ، شكى ذلك الى مسلمة بن مخلد — وهو الأمير يومئذ — فكتب فيه الى معاوية بن أبي سفيان ، فكتب اليه يأمره بالزيادة فيه .

فزاد فيه من شرقيه مما يلي دار عمرو بن العاص ، وزاد فيه من بحريه ، ولم يحدث فيه حدثا من القبلي ولا من الغربي * ، وذلك في سنة ثلاث وخمسين ، وجعل له رحبة في البحري منه كان الناس يصيفون فيها ، ولاطه بالنورة ، وزخرف جدرانه وسقوفه — ولم يكن المسجد الذي لعمرو جعل فيه نورة ولا زخرف — وأمر بابتناء منار المسجد الذي في الفسطاط ، وأمر أن يؤذنوا في وقت واحد ، وأمر مؤذني الجامع أن يؤذنوا للفجر اذا مضى نصف الليل ، فاذا فرغوا من آذانهم أذن كل مؤذن في الفسطاط في وقت واحد ... قال ابن لهيعة : فكان لآذانهم دوي شديد .

(*) ص٢٤٧ ، ج٢ ، ط. بولاق .

فقـال عابـد بن هشـام الأزدى — ثم السلامانى — لمسلمة بن مخلد :

لقـد مدت لمسلمة الليـالى
على رغم العـداة مع الأمان
وساعده الزمان بكل سعـد
وبلغـه البعيـد من الأمانى
أمسلم فارتقى لا زلت تعلو
على الأيام مسلم والزمان
لقد أحكمت مسجدنا فأضحى
كأحسن ما يكون من المبانى
فتاه به البـلاد وسـاكنوها
كما تاهت بزينتها الغـوانى
وكم لك من مناقب صالحات
وأجدل بالصوامع للآذان
كأن تجاوب الأصوات فيها
اذا ما الليـل ألقى بالجران
كصوت الرعد خالطـه دوى
وأرعب كل مختطف الجنان

وقيل ان معـاوية أمره ببنـاء الصـوامع للاذان ...

قال : وجعل مسلمة للمسجد الجامع أربع صوامع فى أركانه الأربع ، وهو أول من جعلها فيه ، ولم تكن قبل ذلك ... قال : وهو أول من جعل فيه الحصر ، وانما كان قبـل ذلك مفروشا بالحصباء ، وأمر ألا يضرب بناقوس عنـد الأذان (يعنى الفجر) . وكان السلم الذى يصعد منه المؤذنون فى الطريق ... حتى كان خالد بن سعيد ، فحوله داخل المسجد .

قال القاضى القضاعى : ثم ان عبد العزيز بن مروان هدمه فى سـنة تسـع وسـبعين من الهجرة — وهو يومئذ أمير مصر من قبـل أخيه أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان — وزاد فيه من ناحية الغرب ، وأدخل فيه الرحبة التى كانت فى بحريه ، ولم يجد فى شرقيـه موضعا يوسعه به .

وذكر أبو عمر الكندى فى كتاب «الأمراء» أنه زاد فيه من جوانبه كلها .

ويقال ان عبد العزيز بن مروان لما أكمـل بناء المسجـد ، خرج من دار الذهب عنـد طلوع الفجر ، فدخل المسجد فرأى فى أهله خفة ، فأمر بأخذ الأبواب على من فيه ، ثم دعا بهم رجلا رجلا ، فيقول للرجل : ألك زوجة ؟ فيقول : لا ، فيقول : زوجوه ... ألك خادم ؟ فيقول : لا ، فيقول . اخدموه ... أحججت ؟ فيقول : لا ، فيقول : أحجوه ... أعليك دين ؟ فيقول : نعم ، فيقول : اقضوا دينـه . فأقام المسجد بعد ذلك دهرا عامرا ، ولم يزل الى اليوم .

وذكر أن عبد الله بن عبد الملك بن مروان — فى ولايتـه على مصر من قبـل أخيـه الوليد — أمر برفع سقف المسـجد الجامع — وكان مطاطأ — وذلك فى سـنة تسـع وثمانين . ثم ان قرة بن شريك العبسى هدمه مستهل سنة اثنتين وتسعين بأمر الوليـد بن عبد الملك — وهو يومئـذ أمير مصر من قبله — وابتدأ فى بنيانه فى شعبان من السنة المذكورة ، وجعل على بنائه يحيى بن حنظلة مولى بنى عامر بن لؤى ، وكانوا يجمعـون الجمعـة فى قيسارية العسـل حتى فرغ من بنائه ، وذلك فى شهر رمضـان سـنة ثلاث وتسعين ، ونصب المنبر الجديد فى سنة أربع وتسعين ، ونزع المنبر الذى كان فى المسجد .

وذكر أن عمرو بن العاص كان جعله فيه ، فلعله بعد وفاة عمر بن الخطاب رضى الله عنه . وقيل هو منبر عبد العزيز بن مروان ، وذكر أنه حمل اليه من بعض كنائس مصر . وقيل ان زكريا بن برقنى ملك النوبة أهداه الى عبد الله ابن سعد بن أبى سرح ، وبعث معه نجاره حتى ركبه ... واسم هـذا النجـار بقطر من أهل دندرة . ولم يزل هذا المنبر فى المسجد حتى زاد قرة بن شريك فى الجامع ، فنصب منبرا سواه على ما تقدم شرحه .

ولم يكن يخطب فى القرى الا على العصا . الى أن ولي عبد الملك بن موسى بن نصـير اللخمي مصر ، من قبل مروان بن محمـد ، فأمر باتخاذ المنابر في القرى ، وذلك فى سنة اثنتين وثلاثين ومائة . وذكر أنه لا يعـرف منبرا أقدم منه (يعنى من منبر قرة بن شريك) بعد منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فلم يزل كذلك الى أن قلع وكسر فى أيام العزيز بالله ، بنظر الوزير يعقوب بن كلس ، فى يوم الخميس لعشر بقين من شهر ربيـع الأول سنة تسع وسبعين وثلثمائة ، وجعـل مكانه منبر مذهب . ثم أخرج هذا المنبر الى الاسكندرية ، وجعـل فى جامع عمـرو بها ، وأنزل الى الجامع المنبر الكبير الذى هو به الآن ، وذلك فى أيام الحاكم بأمر الله فى شهر ربيع الأول سنة خمس وأربعمائة .

وصرف بنـو عبـد السميع عن الخطابة ، وجعلت خطابة الجـامع العتيـق لجعفر بن الحسن بن خداع الحسينى ، وجعل الى أخيه الخطابة بالجامع الأزهر . وصرف بنو عبـد السميع بن عمر بن الحسين * بن عبد العزيز ابن عبد الله بن عبيد الله بن العباس من جميع المنابر ، بعد أن أقاموا هم وسلفهم فيها ستين سنة .

وفى شهر ربيع الأول من هذه السنة ، وجد المنبر الجديد الذى نصب فى الجامع قد لطخ بعذرة ، فوكل به من يحفظه ، وعمل له غشاء من أدم مذهب فى شعبان من هذه السـنة ، وخطب عليه ابن خداع وهو مغشى .

وزيادة قرة من القبلى والشرقى ، وأخـذ بعض دار عمرو وابنه عبد الله بن عمرو فأدخله فى المسجد ، وأخذ منهما الطريق الذى بين المسجد وبينهما ، وعوض ولد عمرو ما هو فى أيديهم اليوم من الزباع ، وأمر قرة بعمل المحراب المجوف على ما تقدم شرحه . وهـو المحـراب المعـروف بعمرو ، لأنه فى سمت محراب المسجد القديم الذى بناه عمرو .

وكانت قبلة المسجـد القديم عند العمـد المذهبة فى صف التوابيت اليوم ، وهى أربعة عمد اثنان فى مقابلة اثنين ، وكان قرة أذهب رؤوسها ، وكانت مجالس قيس ، ولم يكن فى المسجد عمد مذهبة غيرها ، وكانت قديما حلقة أهل المدينة ، ثم زوق أكثر العمد وطوق فى أيام الاخشيد سنة أربع وعشرين وثلثمائة .

ولم يكن للجامع أيام قرة بن شريك غير هذا المحراب . فأما المحراب الأوسط الموجود اليوم ، فعرف بمحـراب عمر بن مروان عم الخلفاء ، وهو أخو عبد الملك وعبد العزيز ، ولعله أحدثه فى الجدار بعد قرة . وقد ذكر قوم أن قرة عمل هذين المحرابين .

(*) ص٢٤٨ جـ٢ ، طـ بولاق .

وصار للجامع أربعة أبواب ، وهى الأبواب الموجودة فى شرقيه الآن ، آخرها باب اسرائيل وهو باب النحاسين . وفى غربيه أربعة أبواب شارعة فى زقاق كان يعــرف بزقاق البلاط ، وفى بحريه ثلاثة أبواب .

وبيت المال الذى فى علو الفوارة بالجامع بناه أسامة بن زيد التنوخى ، متولى الخراج بمصر ، سنة سبع وتسعين فى أيام سليمان بن عبد الملك ، وأمير مصر يومئذ عبد الملك بن رفاعة الفهمى ، وكان مال المسلمين فيه .

وطرق المسجد فى ليلة سنة خمس وأربعين ومائة فى ولاية يزيد بن حاتم المهلبى من قبل المنصور ... طرقه قوم ممن كان بايع على بن محمد بن عبد الله بن حسن بن حسن بن على ابن أبى طالب رضى الله عنــه — وكان أول علوى قدم مصر — فنهبــوا بيت المال ، ثم تضاربوا عليه بسيوفهم ، فلم يصل اليهم منه الا اليسير ، فأنفذ اليهم يزيد من قتل منهم جماعة ، وانهزموا .

وذكر أن هذا المكان تسور عليــه لص فى امارة أحمد بن طولون ، وسرق منــه بدرتى دنانير . فظفر به أحمد بن طولون ، واصطنعه وعفا عنه .

وفى سنة ثمــان وسبعين وثلثمــائة ، أمر العزيز بالله بعمل الفوارة تحت قبة بيت المال ، فعملت وفرغ منها فى شهر رجب سنة تسع وسبعين وثلثمائة .

ثم زاد فيه صالح بن على بن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما — وهو يومئــذ أمير مصر من قبل أبى العباس الســفاح — فى مؤخره أربع أساطين ، وذلك فى سنة ثلاث وثلاثين ومائة ، وهو أول من ولى مصر لبنى العباس ، فيقال انه أدخل فى الجامع دار الزبير ابن العوام ، رضى الله عنه ، وكانت غربى دار النحاس .

وكان الزبير تخلى عنها ، ووهبها لمواليــه لخصومة جرت بين غلمانه وغلمــان عمرو بن العاص ، واختط الزبير فيما يلى الدار المعروفة به الآن . ثم اشترى عبد العزيز بن مروان دار الزبير من مواليه ، فقسمها بين ابنه الأصبغ وأبى بكر .

فلما قدم صالح بن على ، أخــذها عن أم عاصم بنت عاصم بن أبى بكر ، وعن طفــل يتيم وهو حسان بن الأصــبغ ، فأدخلها فى المســجد . وباب الــكحل من هذه الزيادة — وهو الباب الخامس من أبواب الجــامع الشرقية الآن — وعمر صالح بن على أيضــا مقدم المسجد الجامع عند الباب الأول موضع البلاطة الحمراء .

ثم زاد فيــه موسى بن عيسى الهــاشمى — وهو يومئذ أمير مصر من قبل الرشيد — فى شعبان سنة خمس وسبعين ومائة الرحبة التى فى مؤخره ، وهى نصف الرحبة المعروفة بأبى أيوب . ولما ضاق الطريق بهــذه الزيادة أخذ موسى بن عيسى دار الربيع بن سليمان الزهرى ، شركة بنى مســكين ، بغير عوض للربيع ، ووســع بها الطريق ، وعوض بنى مسكين .

ووصل عبد الله بن طاهر بن الحسين بن مصعب ، مولى خزاعة ، أميرا من قبل المأمون ،

فى شهر ربيع الأول سنه حدى عشرة ومائتين ، وتوجه الى الاسكندرية مستهل صفر سنة اثنتى عشرة ومائتين ، ورجع الى الفسطاط فى جمادى الآخرة من السنة المذكورة ، وأمر بالزيادة فى المسجد الجامع ، فزيد فيه مثله من غربيه . وعاد ابن طاهر الى بغداد لخمس بقين من رجب من السنة المذكورة .

وكانت زيادة ابن طاهر المحراب الكبير وما فى غربيه الى حد زيادة الخازن . فأدخل فيه الزقاق المعروف أولا بزقاق البلاط ، وقطعة كبيرة من دار الرمل ، ورحبة كانت بين يدى دار الرمل ، ودورا ذكرها القضاعى .

وذكر بعضهم أن موضع فسطاط عمرو بن العاص حيث المحراب والمنبر ... قال : وكان الذى تمم زيادة عبد الله بن طاهر ، بعد مسيره الى بغداد ، عيسى بن يزيد الجلودى . وتكامل ذرع الجامع ، سوى الزيادتين ، مائة وتسعين ذراعا بذراع العمل طولا ، فى مائة وخمسين ذراعا عراضا ... ويقال ان ذرع جامع ابن طولون مثل ذلك ، سوى الرواق المحيط بجوانبه الثلاثة .

ونصب عبد الله بن طاهر اللوح الأخضر ، فلما احترق * الجامع احترق ذلك اللوح . فجعل أحمد بن محمد العجيفى هذا اللوح مكان ذلك ، وهو هذا اللوح الأخضر الباقى الى اليوم . ورحبة الحارث هى الرحبة البحرية من زيادة الخازن ، وكانت رحبة يتبايع الناس فيها يوم الجمعة .

وذكر أبو عمر الكندى فى كتاب «الموالى» أن آبا عمرو الحارث بن مسكين بن محمد ابن يوسف — مولى محمد بن ريان بن عبد العزيز بن مروان — لما ولى القضاء من قبل المتوكل على الله فى سنة سبع وثلاثين ومائتين آمر ببناء هذه الرحبة ليتسع الناس بها ، وحول سلم المؤذنين الى غربى المسجد وكان عند باب اسرائيل ، وبلط زيادة ابن طاهر ، وأصلح بنيان السقف ، وبنى سقاية فى الحذائين ، وأمر ببناء الرحبة الملاصقة لدار الضرب ليتسع الناس بها .

وزيادة أبى أيوب أحمد بن محمد بن شجاع ابن أخت أبى الوزير أحمد بن خالد صاحب الخراج فى أيام المعتصم . كان أبو أيوب هذا أحد عمال الخراج زمن أحمد بن طولون ، وزيادته فى بقية الرحبة المعروفة برحبة أبى أيوب ، والمحراب المنسوب الى أبى أيوب هو الغربى من هذه الزيادة عند شباك الحذائين ، وكان بناؤها فى سنة ثمان وخمسين ومائتين . ويقال ان أبا أيوب مات فى سجن أحمد بن طولون بعد أن نكبه واصطفى أمواله ، وذلك فى سنة ست وستين ومائتين . وأدخل أبو أيوب فى هذه الزيادة أماكن ذكرها .

قال : وكان قد وقع فى مؤخر المسجد الجامع حريق ، فعمر وزيدت هذه الزيادة فى أيام أحمد بن طولون . ووقع فى الجامع ، فى ليلة الجمعة لتسع خلون من صفر سنة خمس وسبعين ومائتين ، حريق أخذ من بعد ثلاث حنايا من باب اسرائيل الى رحبة الحارث بن مسكين ، فهلك فيه أكثر زيادة عبد الله بن طاهر ، والرواق الذى عليه اللوح الأخضر .

(*) ص٢٤٩ ج٢ ، ط. بولاق .

فأمر خمارويه بن أحمد بن طولون بعمارته ، على يد أحمد بن محمد العجيفي ، فأعيد على ما كان عليه ، وأنفق فيه ستة آلاف وأربعمائة دينار ، وكتب اسم خمارويه في دائر الرواق الذي عليه اللوح الأخضر ، وهي موجودة الآن ، وكانت عمارته في السنة المذكورة .

وأمر عيسى النوشري ، في ولايته الثانية على مصر في سنة أربع وتسعين ومائتين ، باغلاق المسجد الجامع فيما بين الصلوات . فكان يفتح للصلاة فقط ، وأقام على ذلك أياما ، فضج أهل المسجد ففتح لهم .

وزاد أبو حفص العباسي ، في أيام نظره في قضاء مصر خلافة لأخيه محمد ، الغرفة التي يؤذن فيها المؤذنون في السطح . وكانت ولايته في رجب من سنة ست وثلاثين وثلثمائة ، وكان امام مصر والحرمين ، واليه اقامة الحج . ولم يزل قاضيا بمصر خلافة لأخيه ، الى أن صرف من القضاء بالخصيبي في ذي الحجة سنة تسع وثلاثين وثلثمائة ، وتوفي في سنة اثنتين وأربعين وثلثمائة بعد قدومه من الحج .

ثم زاد فيه أبو بكر محمد بن عبد الله الخازن رواقا واحدا من دار الضرب — وهو الرواق ذو المحراب والشباكين ، المتصل برحبة الحارث ، ومقداره تسع أذرع — وكان ابتداء ذلك في رجب سنة سبع وخمسين وثلثمائة . ومات قبل تمام هذه الزيادة ، وتممها ابنه علي بن محمد ، وفرغت في العشر الأخر من شهر رمضان سنة ثمان وخمسين وثلثمائة .

وزاد فيه الوزير أبو الفرج يعقوب بن يوسف بن كلس ، بأمر العزيز بالله ، الفوارة التي تحت قبة بيت المال — وهو أول من عمل فيه فوارة — وزاد فيه أيضا مساقف الخشب المحيطة بها ، على يد المعروف بالمقدسي الأطروش متولي مسجد بيت المقدس ، وذلك في سنة ثمان وسبعين وثلثمائة ، ونصب فيها حباب الرخام التي للماء .

وفي سنة سبع وثمانين وثلثمائة جدد بياض المسجد الجامع ، وقلع شيء كثير من الفسفساء الذي كان في أروقته ، وبيض مواضعه ، ونقشت خمسة ألواح وذهبت ، ونصبت على أبوابه الخمسة الشرقية ، وهي التي عليها الآن . وكان ذلك على يد برجوان الخادم ، وكان اسمه ثابتا في الألواح ، فقلع بعد قتله .

وقال المسيحي في تاريخه : وفي سنة ثلاث وأربعمائة أنزل من القصر الى الجامع العتيق بألف ومائتين وثمانية وتسعين مصحفا ما بين ختمات وربعات ، فيها ما هو مكتوب كله بالذهب ، ومكن الناس من القراءة فيها . وأنزل اليه أيضا بتنور من فضة ، عمله الحاكم بأمر الله برسم الجامع ، فيه مائة ألف درهم فضة . فاجتمع الناس ، وعلق بالجامع بعد أن قلعت عتبتا الباب حتى أدخل به . وكان من اجتماع الناس لذلك ما يتجاوز الوصف .

قال القضاعي : وأمر الحاكم بأمر الله بعمل الرواقين اللذين في صحن المسجد الجامع ، وقلع عمد الخشب وجسر الخشب التي كانت هنالك ، وذلك في شعبان سنة ست وأربعمائة .

وكانت العمد والجسر قد نصبها أبو أيوب أحمد بن محمد بن شجاع ، في سنة سبع وخمسين ومائتين ، زمن أحمد بن طولون .

لأن الحر اشتد على الناس فشكوا ذلك الى ابن طولون ، فأمر بنصب عمد الخشب ، وجعل عليها الستائر فى السنة المذكورة .

وكان الحاكم قد أمر بأن تدهن هذه العمد الخشب بدهن أحمر وأخضر فلم يثبت عليها ، ثم أمر بقلعها ، وجعلها بين الرواقين .

وأول ما عملت المقاصير فى الجوامع فى أيام معاوية بن أبى سفيان سنة أربع وأربعين . ولعل قرة بن شريك لما بنى الجامع بمصر عمل المقصورة * .

وفى سنة احدى وستين ومائة ، أمر المهدى بنزع المقاصير من مساجد الأمصار وبتقصير المنابر ، فجعلت على مقدار منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم أعيدت بعد ذلك .

ولما ولى مصر موسى بن أبى العباس من أهل الشاش من قبل أبى جعفر أشناس ، أمر المعتصم أن يخرج المؤذنون الى خارج المقصورة — وهو أول من أخرجهم — وكانوا قبل ذلك يؤذنون داخلها .

ثم أمر الامام المستنصر بالله بن الظاهر بعمل الحجر المقابل للمحراب ، وبالزيادة فى المقصورة فى شرقيها وغربيها حتى اتصلت بالحذائين من جانبيها ، وبعمل منطقة فضة فى صدر المحراب الكبير أثبت عليها اسم أمير المؤمنين ، وجعل لعمودى المحراب أطواق فضة . وجرى ذلك على يد عبد الله بن محمد ابن عبدون فى شهر رمضان سنة ثمان وثلاثين وأربعمائة .

قال مؤلفه رحمه الله : ولم تزل هذه المنطقة الفضة الى أن استبد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب على مملكة مصر — بعد موت الخليفة العاضد لدين الله — فى محرم سنة سبع وستين وخمسمائة . فقلع مناطق الفضة من الجوامع بالقاهرة ومن جامع عمرو ابن العاص بمصر ، وذلك فى حادى عشر شهر ربيع الأول من السنة المذكورة .

قال القضاعى : وفى شهر رمضان من سنة أربعين وأربعمائة ، جددت الخزانة التى فى ظهر دار الضرب فى طريق الشرطة مقابلة لظهر المحراب الكبير . وفى شعبان من سنة احدى وأربعين وأربعمائة ، أذهب بقية الجدار القبلى حتى اتصل الاذهاب من جدار زيادة الخازن الى المنبر ، وجرى ذلك على يد القاضى أبى عبد الله أحمد بن محمد بن يحيى بن أبى زكريا .

وفى شهر ربيع الآخر من سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة ، عملت لموقف الامام فى زمن الصيف مقصورة خشب ، ومحراب ساج منقوش بعمودى صندل . وتقلع هذه المقصورة فى الشتاء اذا صلى الامام فى المقصورة الكبيرة .

وفى شعبان سنة أربع وأربعين وأربعمائة ، زيد فى الخزانة مجلس من دار الضرب وطريق المستحم ، وزخرف هذا المجلس وحسن ، وجعل فيه محراب ، ورخم بالرخام الذى قلع من المحراب الكبير حين نصب عبد الله بن محمد بن عبدون منطقة الفضة فى صدر المحراب الكبير . وجرت هذه الزيادة على يد القاضى أبى عبد الله أحمد بن محمد بن يحيى .

وفى ذى الحجة من سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة ، عمر القاضى أبو عبد الله أحمد

(*) ص ٢٥٠ ج ٢ ، ط بولاق .

ابن محمد بن أبى زكريا غرفة المؤذنين بالسطح وحسنها ، وجعل لها روشنا على صحن الجامع وجعل بعدها ممرقا ينزل منه الى بيت المال ، وجعل للسطح مطلعا من الخزانة المستجدة فى ظهر المحراب الكبير ، وجعل له مطلعا آخر من الديوان الذى فى رحبة أبى أيوب .

وفى شعبان من سنة خمس وأربعين وأربعمائة ، بنيت المئذنة التى فيما بين مئذنة عرفة والمئذنة الكبيرة ، على يد القاضى أبى عبد الله أحمد بن أبى زكريا . انتهى ما ذكره القضاعى .

وفى سنة أربع وستين وخمسمائة ، تمكن الفرنج من ديار مصر ، وحكموا فى القاهرة حكما جائرا ، وركبوا المسلمين بالأذى العظيم ، وتيقنوا أنه لا حامى للبلاد من أجل ضعف الدولة ، وانكشفت لهم عورات الناس . فجمع مرى ملك الفرنج بالساحل جموعه ، واستجد قوما قوى بهم عساكره ، وسار الى القاهرة من بلبيس بعد أن أخذها ، وقتل كثيرا من أهلها .

فأمر شاور بن مجير السعدى — وهو يومئذ مستول على ديار مصر وزارة للعاضد — باحراق مدينة مصر . فخرج اليها فى اليوم التاسع من صفر من السنة المذكورة عشرون ألف قارورة نفط وعشرة آلاف مشعل مضرمة بالنيران ، وفرقت فيها . ونزل مرى بجموع الفرنج على بركة الحبش ، فلما رأى دخان الحريق تحول من بركة الحبش ، ونزل على القاهرة مما يلى باب البرقية ، وقاتل أهل القاهرة وقد انحشر الناس فيها .

واستمرت النار فى مصر أربعة وخمسين يوما ، والنهابة تهدم ما بها من المبانى ، وتحفر لأخذ الخبايا ... الى أن بلغ مرى قدوم أسد الدين شيركوه بعسكر من جهة الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى صاحب الشام ، فرحل فى سابع شهر ربيع الآخر من السنة المذكورة ، وتراجع المصريون شيئا بعد شىء الى مصر ، وتشعث الجامع .

فلما استبد السلطان صلاح الدين بمملكة مصر ، بعد موت العاضد ، جدد الجامع العتيق بمصر فى سنة ثمان وستين وخمسمائة ، وأعاد صدر الجامع والمحراب الكبير ، ورخمه ورسم عليه اسمه ، وجعل فى سقاية قاعة الخطابة قصبة الى السطح يرتفق بها أهل السطح ، وعمر المنظرة التى تحت المئذنة الكبيرة وجعل لها سقاية ، وعمر فى كتف دار عمرو الصغرى البحرى مما يلى الغربى قصبة أخرى الى محاذاة السطح ، وجعل لها ممشاة من السطح اليها يرتفق بها أهل السطح ، وعمر غرفة الساعات وحررت .

فلم تزل مستمرة الى أثناء أيام الملك المعز عز الدين أيبك التركمانى ، أول من ملك من المماليك ، وجدد بياض الجامع ، وأزال شعثه ، وجلى عمده ، وأصلح رخامه حتى صار جميعه مفروشا بالرخام ، وليس فى سائر أرضه شىء بغير رخام حتى تحت الحصر .

ولما تقلد قاضى القضاة تاج الدين عبد الوهاب بن الأعز أبى القاسم خلف بن رشيد * الدين محمود بن بدر ، المعروف بابن بنت الأعز العلائى الشافعى ، قضاء القضاة بالديار

(*) ص٢٥١ جـ٢ ، ط. بولاق .

المصرية ، ونظر الأحباس فى ولايته الثانية أيام الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى ، كشف الجامع بنفسه ، فوجد مؤخره قد مال الى بحريه ، ووجد سوره البحرى قد مال ، وانقلب علوه عن سمت سفله ، ورأى فى سطح الجامع غرفا كثيرة محدثة ، وبعضها مزخرف .

فهدم الجميع ، ولم يدع بالسطح سوى غرفة المؤذنين القديمة وثلاث خزائن لرؤساء المؤذنين لا غير . وجمع أرباب الخبرة ، فاتفق الرأى على ابطال جريان الماء الى فوارة الفسقية — وكان الماء يصل اليها من بحر النيل — فأمر بابطاله لما كان فيه من الضرر على جدر الجامع ، وعمر بغلات بالزيادة البحرية تشد جدار الجامع البحرى ، وزاد فى عمد الزيادة ما قوى به البغلات المذكورة ، وسد شباكين كانا فى الجدار المذكور ليتقوى بذلك ، وأنفق المصروف على ذلك من مال الأحباس .

وخشى أن يتداعى الجامع كله الى السقوط ، فحدث الصاحب الوزير بهاء الدين على بن محمد بن سليم بن حنا فى مفاوضة السلطان فى عمارة ذلك من بيت المال . فاجتمعا معا بالسلطان الملك الظاهر بيبرس ، وسألاه فى ذلك . فرسم بعمارة الجامع .

فهدم الجدار البحرى من مقدم الجامع — وهو الجدار الذى فيه اللوح الأخضر — وحط اللوح ، وأزيلت العمد والقواصر العشر ، وعمر الجدار المذكور ، وأعيدت العمد والقواصر كما كانت ، وزيد فى العمد أربعة قرن بها أربعة مما هو تحت اللوح الأخضر والصف الثانى منه ، وفصل اللوح الأخضر أجزاء ، وجدد غيره وأذهب ، وكتب علي اسم السلطان الملك الظاهر ، وجليت العمد كلها ، وبيض الجامع بأسره — وذلك فى شهر رجب سنة ست وستين وستمائة — وصلى فيه شهر رمضان بعد فراغه ، ولم تتعطل الصلاة فيه لأجل العمارة .

ولما كان فى شهور سنة سبع وثمانين وستمائة ، شكا قاضى القضاة تقى الدين أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الوهاب بن بنت الأعز ، للسلطان الملك المنصور قلاوون ، سوء حال جامع عمرو بمصر ، وسوء حال الجامع الأزهر بالقاهرة ، وأن الأحباس على أسوأ الأحوال .

وأن مجد الدين بن الحباب أخرب هذه الجهة لما كان يتحدث فيها ، وتقرب بجزيرة الفيل — الوقف الصلاحى على مدرسة الشافعية — الى الأمير علم الدين الشجاعى ، وذكر له بأن فى أطيانها زيادة ، فقاسوا ما تجدد بها من الرمال وجعلوه للوقف ، وأقطعوا الأطيان القديمة الجارية فى الوقف . وتقرب أيضا اليه بأن فى الأحباس زيادة ، من جملتها بالأعمال الغربية ما مبلغه فى السنة ثلاثون ألف درهم ، وأن ذلك لجهة عمارة الجامعين . وسأل السلطان فى اعادة ذلك ، وابطال ما أقطع منه .

فلم يجب الى ذلك ، وأمر الأمير حسام الدين طرنطاى بعمارة الجامع الأزهر ، والأمير عز الدين الأفرم بعمارة جامع عمرو . فحضر الأفرم الى الجامع بمصر ، ورسم على مباشرى الأحباس ، وكشف المساجد لغرض كان فى نفسه ، وبيض الجامع ، وجرد نصف العمد التى فيه ، فصار العمود نصفه الأسفل أبيض

وباقيه بحاله ، ودهن واجهة غرفة الساعات بالسيلقون ، وأجرى الماء من البئر التى بزقاق الأقفال الى فسقية الجامع ، ورمى ما كان بالزيادات من الأتربة .

وبطر العوام به فيما فعله بالجامع ، فصاروا يقولون : « نقل الديماس من البحر الى الجامع » لكونه دهن الغرفة بالسيلقون ، « وألبس العواميد للشيخ العريان » لكونه جرد نصفها التحتانى ، فصار أبيض الأسفل أسمر الأعلى ، كما كان الشيخ العريان ، فان نصفه الأسفل كان مستورا بمئزر أبيض وأعلاه عريان ، ولم يفعل بالجامع سوى ما ذكر .

ولما حدثت الزلزلة فى سنة اثنتين وسبعمائة تشعث الجامع . فاتفق الأميران بيبرس الجاشنكير وهو يومئذ أستادار الملك الناصر محمد بن قلاوون ، والأمير سلار وهو نائب السلطنة — واليهما تدبير الدولة — على عمارة الجامعين بمصر والقاهرة . فتولى الأمير ركن الدين بيبرس عمارة الجامع الحاكمى بالقاهرة ، وتولى الأمير سلار عمارة جامع عمرو بمصر .

فاعتمد سلار على كاتبه بدر الدين بن خطاب . فهدم الحد البحرى من سلم السطح الى باب الزيادة البحرية والشرقية ، وأعاده على ما كان عليه ، وعمل بابين جديدين للزيادة البحرية والغربية ، وأضاف الى كل عمود من الصف الأخير المقابل للجدار الذى هدمه عمودا آخر تقوية له ، وجرد عمد الجامع كلها ، وبيض الجامع بأسره ، وزاد فى سقف الزيادة الغربية رواقين ، وبلط سفل ما أسقف منها .

وخرب بظاهر مصر وبالقرافتين عدة مساجد وأخذ عمدها ليرخم بها صحن الجامع ، وقلع من رخام الجامع الذى كان تحت الحصر كثيرا من الألواح الطوال ، ورص الجميع عند باب الجامع المعروف بباب الشرابيين ، فنقل من هناك الى حيث شاء ، ولم يعمل منه فى صحن الجامع شىء ألبتة ، وكان فيما نقل من ألواح الرخام ما طوله أربعة أذرع فى عرض ذراع وسدس ... ذهب بجميع ذلك .

ولما ولى علاء الدين بن مروانة نيابة دار العدل ، قسم جامعى مصر والقاهرة ، فجعل جامع القاهرة مع نبيه الدين بن السعرتى . وجامع عمرو مع بهاء * الدين بن السكرى ، فسقفت الزيادة البحرية الشرقية — وكانت قد جعلت حاصلا للحصر — وجعل لها درابزين بين البابين يمنع الجانبين من المار من باب الجامع الى باب الزيادة المسلوك منه الى سوق النحاسين ، وبلط أرضها ، ورقع بعض رخام صحن الجامع ، وبلط بعض المجازات ، وعمل عضائد أعتاب تحوز الصحن عن مواضع الصلاة .

ولما كان فى شهور سنة ست وتسعين وستمائة ، اشترى الصاحب تاج الدين دارا بسوق الأكفانيين وهدمها ، وجعل مكانها سقاية كبيرة ، ورفعها الى محاذاة سطح الجامع ، وجعل لها ممشى يتوصل اليها من سطح الجامع ، وعمل فى أعلاها أربعة بيوت يرتفق بهم فى الخلاء ، ومكانا يرسم أزيار الماء العذب ، وهدم سقاية الغرفة التى تحت المئذنة المعروفة بالمنظرة ، وبناها برجا كبيرا من الأرض

(*) ص٢٥٢ جـ٢ ، طـ بولاق .

الى العلو حيث كان أولا ، وجعل بأعلى هذا البرج بيتا مرتفعا يختص بالغرفة المذكورة كما كان أولا ، وبيتا ثانيا من خارج الغرفة يرتفق به من هو خارج الغرفة ممن يقرب منها .

وعمر القاضى صدر الدين أبو عبد الله محمد ابن البارنبارى سقاية فى ركن دار عمرو البحرى الغربى من داره الصغرى بعدما كانت قد تهدمت ، فأعادها كأحسن ما كانت . ثم ان الجامع تشعث ومالت قواصره ، ولم يبق الا أن يسقط . وأهلّ الدولة ، بعد موت الملك الظاهر برقوق ، فى شغل من اللهو عن عمل ذلك .

فانتدب الرئيس برهان الدين ابراهيم بن عمر بن على المحلى ، رئيس التجار يومئذ بديار مصر ، لعمارة الجامع بنفسه وذويه ، وهدم صدر الجامع بأسره فيما بين المحراب الكبير الى الصحن طولا وعرضا ، وأزال اللوح الأخضر ، وأعاد البناء كما كان أولا ، وجدد لوحا أخضر بدل الأول ونصبه كما كان — وهو الموجود الآن — وجرد العمد كلها ، وتتبع جدر الجامع فرم شعثها كله ، وأصلح من رخام الصحن ما كان قد فسد ، ومن السقوف ما كان قد وهى ، وبيض الجامع كله .

فجاء كما كان ، وعاد جديدا بعدما كاد أن يسقط ... لولا أقام الله عز وجل هذا الرجل — مع ما عرف من شحه وكثرة ضنته بالمال — حتى عمره . فشكر الله سعيه ، وبيض محياه . وكان انتهاء هذا العمل فى سنة أربع وثمانمائة

ولم يتعطل منه صلاة جمعة ولا جماعة فى مدة عمارته .

قال ابن المتوج : ان ذرع هذا الجامع اثنان وأربعون ألف ذراع بذراع البز المصرى القديم — وهو ذراع الحصر المستمر الى الآن — فمن ذلك مقدمه ثلاثة عشر ألف ذراع وأربعمائة وخمسة وعشرون ذراعا ، ومؤخره مثل ذلك ، وصحنه سبعة آلاف وخمسمائة ذراع ، وكل من جانبيه الشرقى والغربى ثلاثة آلاف وثمانمائة وخمسة وعشرون ذراعا . وذرعه كله بذراع العمل ثمانية وعشرون ألف ذراع .

وعدد أبوابه ثلاثة عشر بابا : منها فى القبلى باب الزيزلختة الذى يدخل منه الخطيب — كان به شجرة زيزلخت عظيمة قطعت فى سنة ست وستين وسبعمائة — وفى البحرى ثلاثة أبواب ، وفى الشرقى خمسة ، وفى الغربى أربعة . وعدد عمده ثلثمائة وثمانية وسبعون عمودا ، فالبحرية الشرقية كانت لجلوس قاضى القضاة بها فى كل أسبوع يومين .

وكان بهذا الجامع القصص ... قال القضاعى : روى نافع ، عن ابن عمر رضى الله عنهما ، قال : لم يقص فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا أبى بكر ولا عمر ولا عثمان رضى الله عنهم ، وانما كان القصص فى زمن معاوية رضى الله عنه .

وذكر عمر بن شيبة قال : قيل للحسن : متى أحدث القصص ؟ قال : فى خلافة عثمان بن عفان . قيل : من أول من قص ؟

قال : تميم الداري .

وذكر عن ابن شهاب قال : أول من قص في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم تميم الداري ... استأذن عمر أن يذكر الناس فأبى عليه ، حتى كان آخر ولايته فأذن له أن يذكر في يوم الجمعة قبل أن يخرج عمر . فاستأذن تميم عثمان بن عفان رضي الله عنه في ذلك ، فأذن له أن يذكر يومين في الجمعة . فكان تميم يفعلّ ذلك .

وروى ابن لهيعة ، عن يزيد بن أبي حبيب ، أن عليا رضي الله عنه قنت فدعا على قوم من أهل حربه . فبلغ ذلك معاوية ، فأمر رجلا يقص بعد الصبح ، وبعد المغرب يدعو له ولأهل الشام ... قال يزيد : وكان ذلك أول القصص .

وروى عن عبد الله بن مغفل قال : أمنا علي رضي الله عنه في المغرب . فلما رفع رأسه من الركعة الثالثة ذكر معاوية أولا ، وعمرو بن العاص ثانيا ، وأبا الأعور — يعني السلمي — ثالثا ، وكان أبو موسى الرابع .

وقال الليث بن سعد : هما قصصان : قصص العامة ، وقصص الخاصة . فأما قصص العامة فهو الذي يجتمع اليه النفر من الناس يعظهم ويذكرهم ، فذلك مكروه لمن فعله ولمن استمعه . وأما قصص الخاصة فهو الذي جعله معاوية ... ولى رجلا على القصص . فاذا سلم من صلاة الصبح ، جلس وذكر الله عز وجل وحمده ومجده ، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، ودعا للخليفة ولأهل ولايته ولحشمه وجنوده ، ودعا على أهلْ حربه وعلى المشركين كافة .

ويقال ان أول من قص بمصر سليمان بن عتر التجيبي في سنة ثمان وثلاثين ، وجمع له القضاء الى القصص ، ثم عزل عن القضاء وأفرد * بالقصص . وكانت ولايته على القصص والقضاء سبعا وثلاثين سنة : منها سنتان قبل القضاء . ويقال انه كان يختم القرآن في كل ليلة ثلاث مرات ، وكان يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم ، ويسجد في المفصل ، ويسلم تسليمة واحدة ، ويقرأ في الركعة الأولى بالبقرة ، وفي الثانية بقل هو الله أحد ، ويرفع يديه في القصص اذا دعا .

وكان عبد الملك بن مروان شكا الى العلماء ما انتشر عليه من أمور رعيته ، وتخوفه من كل وجه . فأشار عليه أبو حبيب الحمصي القاضي بأن يستنصر عليهم برفع يديه الى الله تعالى . فكان عبد الملك يدعو ، ويرفع يديه ، وكتب بذلك الى القصاص . فكانوا يرفعون أيديهم بالغداة والعشي .

وفي هذا الجامع مصحف أسماء ، وهو الذي تجاه المحراب الكبير . قال القضاعي : كان السبب في كتب هذا المصحف أنْ الحجاج بن يوسف الثقفي كتب مصاحف ، وبعث بها الى الأمصار ، ووجه الى مصر بمصحف منها . فغضب عبد العزيز بن مروان من ذلك — وكان الوالي يومئذ من قبلْ أخيه عبد الملك — وقال : يبعث الى جند أنا فيه بمصحف . فأمر فكتب له هذا المصحف الذي في المسجد الجامع اليوم .

(*) ص٢٥٣ جـ٢ ، ط. بولاق .

فلما فرغ منه قال : من وجد فيه حرفا خطأ فله رأس آحمر وثلاثون دينارا . فتداوله القراء ، فأتى رجل من قراء الكوفة ، اسمه زرعة بن سهل الثقفي ، فقرأه تهجيا ، ثم جاء الى عبد العزيز بن مروان فقال له : انى قد وجدت في المصحف حرفا خطأ .

فقال : مصحفى ؟

قال : نعم .

فنظر فاذا فيه « ان هذا أخى له تسع وتسعون نعجة » ، فاذا هى مكتوبة «نجعة» قد قدمت الجيم قبل العين . فأمر بالمصحف فأصلح ما كان فيه ، وأبدلت الورقة ، ثم أمر له بثلاثين دينارا وبرأس أحمر .

ولما فرغ من هذا المصحف ، كان يحمل الى المسجد الجامع غداة كل جمعة من دار عبد العزيز ، فيقرأ فيه ثم يقص ، ثم يرد الى موضعه . فكان أول من قرأ فيه عبد الرحمن ابن حجيرة الخولانى ، لأنه كان يتولى القصص والقضاء يومئذ وذلك فى سنة ست وسبعين . ثم تولى بعده القصص أبو الخير مرثد بن عبد الله اليزنى ، وكان قاضيا بالاسكندرية قبل ذلك .

ثم توفى عبد العزيز فى سنة ست وثمانين ، فبيع هذا المصحف فى ميراثه . فاشتراه ابنه أبو بكر بألف دينار ، ثم توفى أبو بكر . فاشترته أسماء ابنة أبى بكر بن عبد العزيز بسبعمائة دينار ، فأمكنت الناس منه ، وشهرته فنسب اليها . فلما توفيت أسماء ، اشتراه أخوها الحكم بن عبد العزيز بن مروان من ميراثها بخمسمائة دينار .

فأشار عليه توبة بن نمر الحضرمى القاضى — وهو متولى القصص يومئذ بالمسجد الجامع بعد عقبة بن مسلم الهمدانى ، واليه القضاء ، وذلك فى سنة ثمان عشرة ومائة — فجعله فى المسجد الجامع ، وأجرى على الذى يقرأ فيه ثلاثة دنانير فى كل شهر من غلة الاصطبل . فكان توبة أول من قرأ فيه بعد أن أقر فى الجامع .

وتولى القصص بعد توبة أبو اسماعيل خير ابن نعيم الحضرمى القاضى فى سنة عشرين ومائة ، وجمع له القضاء والقصص . فكان يقرأ فى المصحف قائما ، ثم يقص وهو جالس ، فهو أول من قرأ فى المصحف قائما . ولم تزل الأئمة يقرأون فى المسجد الجامع فى هذا المصحف فى كل يوم جمعة . الى أن ولى القصص أبو رجب العلاء بن عاصم الخولانى فى سنة اثنتين وثمانين ومائة ، فقرأ فيه يوم الاثنين .

وكان قد جعل المطلب الخزاعى ، أمير مصر من قبل المأمون ، رزق أبى رجب العلاء عشرة دنانير على القصص . وهو أول من سلم فى الجامع تسليمتين ، بكتاب ورد من المأمون يأمر فيه بذلك . وصلى خلفه محمد بن ادريس الشافعى حين قدم الى مصر ، فقال : هكذا تكون الصلاة ، ما صليت خلف أحد أتم صلاة من أبى رجب ، ولا أحسن .

ولما ولى القصص حسن بن الربيع بن سليمان من قبل عنبسة بن اسحاق — أمير مصر من قبل المتوكل — فى سنة أربعين ومائتين ، أمر أن تترك قراءة « بسم الله

الرحمن الرحيم » في الصلاة فتركها الناس ، وأمـر أن تصـلى التراويح خمس تراويح ، وكانت تصلى قبل ذلك ست تراويح ، وزاد في قراءة المصحف يوما . فكان يقرأ يوم الاثنين ويوم الخميس ويوم الجمعة .

ولمـا ولي حمـزة بن أيوب بن ابراهيـم الهاشمي القصص — بكتاب من المكتفي — في سنة اثنتين وتسعين ومائتين ، صلى في مؤخر المسجد حين نكس ، وأمر أن يحمـل اليه المصحف ليقرأ فيه . فقيـل له : انه لم يحمـل المصحف الى أحد قبلك ، فلو قمت وقرأت فيه في مكانه ؟

فقال : لا أفعل ، ولكن ائتوني به ، فان القرآن علينا أنزل ، والينا أتى . فأتى به فقرأ فيه في المؤخر .

وهو أول من قرأ في المصحف في المؤخر ، ولم يقرأ في المصحف بعد ذلك في المؤخر . الى أن تولى أبو بكر محمـد بن الحسـن السوسي الصلاة والقصص في اليوم العشرين من شعبان سـنة ثلاث وأربعمـائة ، فنصب المصحف في مؤخر الجامع حيـال الفوارة ، وقرأ فيه أيام نكس الجامع . فاستمر الأمر على ذلك الى الآن .

ولما تولى القصص أبو بكر محمد بن عبد الله بن مسلم الملطي في سنة احدى وثلثمائة ، عزم على القراءة في المصحف في كل يوم . فتـكلم علي بن قديد في ذلك ومنع منـه ، وقال : أعزم على أن يخلق المصحف ويقطعه ؟ أيرى عبـد العزيز بن مروان حيا فيكتب له مثله ؟ فرجع الى القراءة ثلاثة * أيام .

(*) ص ٢٥٤ ، جـ ٢ ، ط ، بولاق .

وكان قد حضر الى مصر رجـل من أهل العراق ، وأحضر مصحفا ذكر أنه مصـحف عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وأنه الذي كان بين يديه يوم الدار — وكان فيه أثر الدم — وذكر أنه استخرج من خزائن المقتدر . ودفع المصحف الى عبد الله بن شعيب المعروف بابن بنت وليد القاضي ، فأخذه أبو بكر الخازن ، وجعله في الجامع وشهره ، وجعل عليه خشبا منقوشا . وكان الامام يقرأ فيه يوما ، وفي مصحف أسماء يوما . ولم يزل على ذلك الى أن رفع هذا المصحف ، واقتصر على القراءة في مصحف أسماء ، وذلك في أيام العزيز بالله لخمس خلون من المحرم سنة ثمان وسـبعين وثلثمائة .

وقد أنكر قوم أن يكون هـذا المصـحف مصحف عثمـان رضي الله عنه ، لأن نقله لم يصح ، ولم يثبت بحكاية رجل واحد .

ورأيت أنا هذا المصحف ، وعلى ظهـره ما نسخته : « بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمـد لله رب العالمين . هذا المصحف الجامع لكتاب الله ، جل ثناؤه وتقـدست أسماؤه ، حمله المبارك مسعـود بن سعـد الهيتي لجمـاعة المسلمين القراء للقرآن التالين له ، المتقربين الى الله جل ذكره بقراءته والمتعلمين له ، ليكون محفوظا أبدا مابقي ورقه ولم يذهب اسمه ... ابتغاء ثواب الله عز وجل ، ورجاء غفرانه . وجعله عدة ليوم فقره وفاقته وحاجته اليه . أناله الله ذلك برأفته ، وجعل ثوابه بينه وبين جماعة من نظر فيه » .

وقد درس ما بعـد هذا الـكلام من ظهر المصـحف . والمنـدرس يشـبه أن يكون :

« وتبصر في ورقه ، وقصد بايداعه فسطاط مصر في المسجد الجامع ، جامع المسلمين العتيق ، ليحفظ حفظ مثله مع سائر مصاحف المسلمين ، فرحم الله من حفظه ومن قرأ فيه ومن عنى به ، وكان ذلك في يوم الثلاثاء مستهل ذى القعدة سنة سبع وأربعين وثلثمائة وصلى الله على محمد سيد المرسلين وعلى آله وسلم تسليما كثيرا ، وحسبنا الله ونعم الوكيل » .

قال ابن المتوج : ودليل بطلان ما قاله هذا المعترض — ظهور التعصب على عثمان رضى الله عنه من تجيب وخلفائهم — أن الناس قد جربوا هذا المصحف ، وهو الذى على الكرسى الغربى من مصحف أسماء ، أنه ما فتح قط الا وحدث حادث فى الوجود لتحقيق ما حدث أولا . والله أعلم .

قال القضاعى : « ذكر المواضع المعروفة بالبركة من الجامع يستحب الصلاة والدعاء عندها » : منها البلاطة التى خلف الباب الأول فى مجلس ابن عبد الحكم .

ومنها باب البرادع ... روى عن رجل من صلحاء المصريين — يقال له أبو هارون الخرقى — قال : رأيت الله عز وجل فى منامى ، فقلت له : يارب أنت ترانى وتسمع كلامى ؟ قال : نعم . ثم قال : أتريد أن أريك بابا من أبواب الجنة ؟ قلت : نعم يارب . فأشار الى باب أصحاب البرادع ، أو الباب الأقصى مما يلى رحبة حارث . وكان أبو هارون هذا يصلى الظهر والعصر فيما بينهما .

وقال ابن المتوج : وعند المحراب الصغير ، الذى فى جدار الجامع الغربى ظاهر المقصورة فيما بين بابى الزيادة الغربية ، الدعاء عنده مستجاب .

قال : ومن ذلك باب مقصورة عرفة ، ومنها عند خرزة البئر التى بالجامع ، ومنها قبال اللوح الأخضر ، ومنها زاوية فاطمة . ويقال إنها فاطمة ابنة عفان لما وصى والدها أن تترك لله فى الجامع ، فتركت فى هذا المكان فعرف بها .

ومنها سطح الجامع ، والطواف به سبع مرات : يبدأ بالأولى من باب الخزانة الأولى التى يستقبلها الداخل من باب السطح وهو يتلو الى أن يصل الى زاوية السطح ، التى عند المئذنة المعروفة بعرفة ، يقف عندها ثم يدعو بما أراد ، ثم يمر وهو يتلو الى أن يصل الى الركن الشرقى — عند المئذنة المشهورة بالكبيرة — ثم يدعو بما أراد . ويمر الى الركن البحرى الشرقى ، فيقف محاذيا لغرفة المؤذنين ويدعو . ثم يمر وهو يتلو الى المكان الذى ابتدأ منه ... يفعل ذلك سبع مرات فان حاجته تقضى .

قال القضاعى : ولم يكن الناس يصلون بالجامع بمصر صلاة العيد . حتى كانت سنة ست — ويقال سنة ثمان — وثلثمائة ، فصلى فيه رجل يعرف بعلى بن أحمد بن عبد الملك الفهمى — يعرف بابن أبى شيخة — صلاة الفطر . ويقال انه خطب من دفتر نظرا ، وحفظ

عنه اتقوا الله حق تقاته ، ولا تموتن الا وأنتم « مشركون » ! فقال بعض الشعراء :

وقام في العيد لنا خاطب
فحرض الناس على الكفر

وتوفى سنة تسع وثلثمائة .

وبالجامع زوايا يدرس فيها الفقه : منها زاوية الامام الشافعي فعرفت به ، يقال انه درس بها الشافعي فعرفت به ، وعليها أرض بناحية سنديس ، وقفها السلطان الملك العزيز عثمان ابن السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ، ولم يزل يتولى تدريسها أعيان الفقهاء وجلة العلماء .

ومنها الزاوية المجدية بصدر الجامع ، فيما بين المحراب الكبير ومحراب الخمس ، داخل المقصورة الوسطى ، بجوار المحراب الكبير . رتبها مجد الدين أبو الأشبال الحارث بن مهذب الدين أبي المحاسن مهلب بن حسن بن بركات بن على بن * غياث المهلبي الأزدي البهنسي الشافعي ، وزير الملك الأشرف موسى ابن العادل أبي بكر بن أيوب بحران ، وقرر في تدريسها قريبه قاضي القضاة وجيه الدين عبد الوهاب البهنسي ، وعمل على هذه الزاوية عدة أوقاف بمصر والقاهرة . ويعد تدريسها من المناصب الجليلة ، وتوفى المجد في صفر سنة ثمان وعشرين وستمائة بدمشق عن ثلاث وستين سنة .

ومنها الزاوية الصاحبية حول عرفة . رتبها الصاحب تاج الدين محمد بن فخر الدين محمد ابن بهاء الدين بن حنا ، وجعل لها مدرسين : أحدهما مالكي ، والآخر شافعي ، وجعل عليها وقفا بظاهر القاهرة بخط البراذعيين .

ومنها الزاوية الكمالية بالمقصورة المجاورة لباب الجامع الذى يدخل اليه من سوق الغزل . رتبها كمال الدين السمنودي ، وعليها فندق بمصر موقوف عليها .

ومنها الزاوية التاجية أمام المحراب الخشب . رتبها تاج الدين السطحي ، وجعل عليها دورا بمصر موقوفة عليها .

ومنها الزاوية المعينية في الجانب الشرقي من الجامع . رتبها معين الدين الدهروطي ، وعليها وقف بمصر .

ومنها الزاوية العلائية — تنسب لعلاء الدين الضرير — وهي في صحن الجامع ، وهي لقراءة ميعاد .

ومنها الزاوية الزينية . رتبها الصاحب زين الدين لقراءة ميعاد أيضا .

ذكر ذلك ابن المتوج .

وأخبرني المقرى الأديب المؤرخ الضابط شهاب الدين أحمد بن عبد الله بن الحسن الأوحدي رحمه الله ، قال : أخبرني المؤرخ ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن الفرات ، قال : أخبرني العلامة شمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن الصائغ الحنفي أنه أدرك بجامع عمرو بن العاص بمصر ، قبل الوباء الكائن في سنة تسع وأربعين وسبعمائة ، بضعا وأربعين حلقة لاقراء العلم لا تكاد تبرح منه .

قال ابن المأمون : حدثني القاضي المكين ابن حيدرة — وهو من أعيان الشهود

(*) ص٢٥٥ جـ٢ ، ط. بولاق .

بمصر — أن من جملة الخدم التى كانت بيد والده مشارفة الجامع العتيق ، وأن القومة بأجمعهم كانوا يجتمعون قبل ليلة الوقود عنده الى أن يعملوا ثمانية عشر ألف فتيلة ، وأن المطلق برسمه خاصة فى كل ليلة برسم وقوده أحد عشر قنطارا ونصف زيتا طيبا .

ذكر المحاريب التى بديار مصر وسبب اختلافها وتعيين الصواب فيها وتبيين الخطأ منها

اعلم أن محاريب ديار مصر التى يستقبلها المسلمون فى صلواتهم أربعة محاريب :

أحدها محراب الصحابة رضى الله عنهم ، الذى أسسوه فى البلاد التى استوطنوها والبلاد التى كثر ممرهم بها من اقليم مصر . وهو محراب المسجد الجامع بمصر — المعروف بجامع عمرو — ومحراب المسجد الجامع بالجيزة ، وبمدينة بلبيس ، وبالاسكندرية ، وقوص ، وأسوان . وهذه المحاريب المذكورة على سمت واحد ، غير أن محاريب ثغر أسوان أشد تشريقا من غيرها ... وذلك أن أسوان مع مكة ، شرفها الله تعالى ، فى الاقليم الثانى ، وهو الحد الغربى من مكة بغير ميل الى الشمال — ومحراب بلبيس مغرب قليلا .

والمحراب الثانى محراب مسجد أحمد بن طولون ، وهو منحرف عن سمت محراب الصحابة . وقد ذكر فى سبب انحرافه أقوال :

منها أن أحمد بن طولون ، لما عزم على بناء هذا المسجد ، بعث الى محراب مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم من أخذ سمته ، فاذا هو مائل عن خط سمت القبلة المستخرج بالصناعة نحو العشر درج الى جهة الجنوب . فوضع حينئذ محراب مسجده هذا مائلا عن خط سمت القبلة الى جهة الجنوب بنحو ذلك ، اقتداء منه بمحراب مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقيل انه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى منامه ، وخط له المحراب . فلما أصبح وجد النمل قد أطاف بالمكان الذى خطه له رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام . وقيل غير ذلك .

وأنت ان صعدت الى سطح جامع ابن طولون ، رأيت محرابه مائلا عن محراب جامع عمرو بن العاص الى الجنوب ، ورأيت محراب المدارس التى حدثت الى جانبه قد انحرفت عن محرابه الى جهة الشرق ، وصار محراب جامع عمرو فيما بين محراب ابن طولون والمحاريب الأخر .

وقد عقد مجلس بجامع ابن طولون ، فى ولاية قاضى القضاة عز الدين عبد العزيز بن محمد بن جماعة ، حضره علماء الميقات — منهم الشيخ تقى الدين محمد بن محمد بن موسى الغزولى ، والشيخ أبو الطاهر محمد بن محمد — ونظروا فى محرابه ، فأجمعوا على أنه منحرف عن خط سمت القبلة الى جهة الجنوب ، مغربا بقدر أربع عشرة درجة . وكتب بذلك محضر ، وأثبت على ابن جماعة .

والمحراب الثالث محراب جامع القاهرة — المعروف بالجامع الأزهر — وما فى سمته من بقية محاريب القاهرة . وهى محاريب يشهد

الامتحان بتقدم واضعها في معرفة استخراج القبلة ، فانها على خط سمت القبلة من غير ميل عنه ولا انحراف ألبتة .

والمحراب الرابع محاريب المساجد التى فى قرى بلاد الساحل ، فانها تخالف محاريب الصحابة . الا أن محراب جامع منية غمر قريب من سمت محاريب الصحابة . فان الوزير أبا * عبد الله محمد بن فاتك ، المنعوت بالمأمون البطائحي — وزير الخليفة الآمر بأحكام الله أبي على منصور بن المستعلى بالله — أنشأ جامعا بمنية زفتا فى سنة ست عشرة وخمسمائة فجعل محرابه علي سمت المحاريب الصحيحة .

وفى قرافة مصر بجوار مسجد الفتح عدة مساجد تخالف محاريب الصحابة مخالفة فاحشة . وكذلك بمدينة مصر الفسطاط غير مسجد على هذا الحكم .

فأما محاريب الصحابة التى بفسطاط مصر والاسكندرية فان سمتها يقابل مشرق الشتاء — وهو مطالع برج العقرب — مع ميل قليل الى ناحية الجنوب . ومحاريب مساجد القرى ، وما حول مسجد الفتح بالقرافة ، فانها تستقبل خط نصف النهار — الذى يقال له خط الزوال — وتميل عنه الى جهة المغرب . وهذا الاختلاف بين هذين المحرابين اختلاف فاحش يفضى الى ابطال الصلاة .

وقد قال ابن عبد الحكم : قبلة أهل مصر أن يكون القطب الشمالى على الكتف الأيسر . وهذا سمت محاريب الصحابة . قال : واذا طلعت منازل العقرب ، وتكملت صورته ، فمحاذاته سمت القبلة لديار مصر وبرقة وافريقية وما والاها .

وفى الفرقدين والقطب الشمالى كفاية للمستدلين : فانهم ان كانوا مستقبلين فى مسيرهم من الجنوب جهة الشمال استقبلوا القطب والفرقدين ، وان كانوا سائرين الى الجنوب من الشمال استدبروها ، وان كانوا سائرين الى الشرق من المغرب جعلوها على الأذن اليسرى ، وان كانوا سائرين من الشرق الى المغرب جعلوها على الأذن اليمنى ، وان كان مسيرهم الى النكباء التي بين الجنوب والصبا جعلوها على الكتف الأيسر ، وان كان مسيرهم الي النكباء التى بين الجنوب والدبور جعلوها على الكتف الأيمن ، وان كان مسيرهم الى النكباء التى بين الشمال والدبور وجعلوها على الحاجب الأيمن ، وان كان مسيرهم الى النكباء التى بين الشمال والصبا جعلوها على الحاجب الأيسر .

واذا عرف ذلك ، فانه يستحيل تصويب محرابين مختلفين فى قطر واحد اذا زاد اختلافهما على مقدار ما يتسامح به فى التيامن والتياسر . وبيان ذلك أن كل قطر من أقطار الأرض ، كبلاد الشام وديار مصر ونحوهما من الأقطار ، قطعة من الأرض واقعة فى مقابلة جزء من الكعبة ، والكعبة تكون فى جهة من جهات ذلك القطر . فاذا اختلف محرابان فى قطر واحد ، فانا نتيقن أن أحدهما صواب والآخر خطأ . الا أن يكون القطر قريبا من مكة ، وخطته التى هو محدود بها متسعة اتساعا كثيرا يزيد على الجزء الذى يخصه لو وزعت الكعبة أجزاء متماثلة ، فانه حينئذ يجوز التيامن والتياسر فى محاريبه . وذلك مثل بلاد

(*) ص٢٥٦ ، جـ٢ ، ط. بولاق .

البجة ، فانها على الساحل الغربى من بحر القلزم ، ومكة واقعة فى شرقيها ، ليس بينهما الا مسافة البحر فقط وما بين جدة ومكة من البر .

وخطة بلاد البجة مع ذلك واسعة مستطيلة على الساحل : أولها عيذاب ، وهى محاذية لمدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتميل عنها فى الجنوب ميلا قليلا ، والمدينة شامية عن مكة بنحو عشرة أيام . وآخر بلاد البجة من ناحية الجنوب سواكن ، وهى مائلة فى ناحية الجنوب عن مكة ميلا كثيرا .

وهذا المقدار من طول بلاد البجة يزيد على الجزء الذى يخص هذه الخطة من الأرض ، لو وزعت الأرض أجزاء متساوية الى الكعبة ، فيتعين — والحالة هذه — التيامن أو التياسر فى طرفى هذه البلاد لطلب جهة الكعبة .

وأما اذا بعد القطر عن الكعبة بعدا كثيرا ، فانه لا يضر اتساع خطته ، ولا يحتاج فيه الى تيامن ولا تياسر لاتساع الجزء الذى يخصه من الأرض . فان كل قطر منها له جزء يخصه من الكعبة ، من أجل أن الكعبة من البلاد المعمورة كالكرة من الدائرة ، فالأقطار كلها فى استقبال الكعبة محيطة بها كاحاطة الدائرة بمركزها .

وكل قطر فانه يتوجه الى الكعبة فى جزء يخصه . والأجزاء المنقسمة — اذا قدرت الأرض كالدائرة — فانها تتسع عند المحيط ، وتتضايق عند المركز . فاذا كان القطر بعيدا عن الكعبة ، فانه يقع فى متسع الحد ، ولا يحتاج فيه الى تيامن ولا تياسر ، بخلاف ما اذا قرب القطر من الكعبة فانه يقع فى متضايق الجزء ، ويحتاج عند ذلك الى تيامن أو تياسر .

فان فرضنا أن الواجب اصابة عين الكعبة فى استقبال الصلاة لمن بعد عن مكة — وقد علمت ما فى هذه المسألة من الاختلاف بين العلماء — فانه لا يتسامح فى اختلاف المحاريب بأكثر من قدر التيامن والتياسر الذى لا يخرج عن حد الجهة ، فلو زاد الاختلاف حكم ببطلان أحد المحرابين ولابد . اللهم الا أن يكونا فى قطرين بعيدين بعضهما من بعض ، وليسا على خط واحد من مسامتة الكعبة ، وذلك كبلاد الشام وديار مصر . فان البلاد الشامية لها جانبان ، وخطتها متسعة مستطيلة فى شمال مكة ، وتمتد أكثر من الجزء الخاص بها بالنسبة الى مقدار بعدها عن الكعبة .

وفى هذين القطرين يجرى ما تقدم ذكره فى أرض البجة . الا أن التيامن والتياسر ظهوره فى البلاد الشامية أقل من ظهوره فى أرض البجة ، من أجل بعد البلاد الشامية عن الكعبة وقرب أرض البجة * . وذلك أن البلاد الشامية وقعت فى متسع الجزء الخاص بها ، فلم يظهر أثر التيامن والتياسر ظهورا كثيرا كظهوره فى أرض البجة ، لأن البلاد الشامية لها جانب شرقى وجانب غربى ووسط .

فجانبها الغربى هو أرض بيت المقدس وفلسطين الى العريش أول حد مصر ، وهذا الجانب من البلاد الشامية يقابل الكعبة على حد مهب النكباء التى بين الجنوب والصبا .

(*) ص٢٥٧ جـ٢ ، ط. بولاق .

وأما جانب البلاد الشامية الشرقي فانه ما كان مشرقا من مدينة دمشق الى حلب والفرات ، وما يسامت ذلك من بلاد الساحل ، وهذه الجهة تقابل الكعبة مشرقا عن أوسط مهب الجنوب قليلا . وأما وسط بلاد الشام فانها دمشق وما قاربها ، وتقابل الكعبة على وسط مهب الجنوب ، وهذا هو سمت مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم مع ميل يسير عنه الى ناحية المشرق .

وأما مصر فانها تقابل الكعبة فيما بين الصبا ومهب النكباء التي بين الصبا والجنوب . ولذلك لما اختلف هذان القطران — أعني مصر والشام — في محاذاة الكعبة ، اختلفت محاريبهما . وعلى ذلك وضع الصحابة رضي الله عنهم محاريب الشام ومصر على اختلاف الستين . فأما مصر بعينها وضواحيها ، وما هو في حدها أو على سمتها ، أو في البلاد الشامية ، وما في حدها أو على سمتها ... فانه لا يجوز فيها تصويب محرابين مختلفين اختلافا بينا .

فان تباعد القطر عن القطر بمسافة قريبة أو بعيدة ، وكان القطران على سمت واحد في محاذاة الكعبة ، لم يضر حينئذ تباعدهما ، ولا تختلف محاريبهما ، بل تكون محاريب كل قطر منهما على حد واحد وسمت واحد ... وذلك كمصر وبرقة وافريقية وصقلية والأندلس . فان هذه البلاد وان تباعد بعضها عن بعض ، فانها كلها تقابل الكعبة على حد واحد ، وسمتها جميعها سمت مصر من غير اختلاف ألبتة . وقد تبين بما تقرر حال الأقطار المختلفة من الكعبة في وقوعها منها .

وأما اختلاف محاريب مصر فان له أسبابا : أحدها حمل كثير من الناس قوله صلى الله عليه وسلم — الذي رواه الحافظ أبو عيسى الترمذي ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه — « ما بين المشرق والمغرب قبلة » على العموم . وهذا الحديث قد روى موقوفا على عمر وعثمان وعلي وابن عباس ومحمد ابن الحنفية رضي الله عنهم ، وروى عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا .

قال أحمد بن حنبل : هذا في كل البلدان... قال : هذا المشرق وهذا المغرب وما بينهما قبلة .

قيل له : فصلاة من صلى بينهما جائزة ؟

قال : نعم ، وينبغي أن يتحرى الوسط .

وقال أحمد بن خالد : قول عمر « ما بين المشرق والمغرب قبلة » قاله بالمدينة . فمن كانت قبلته مثل قبلة المدينة ، فهو في سعة مما بين المشرق والمغرب . ولسائر البلدان من السعة في القبلة مثل ذلك بين الجنوب والشمال .

وقال أبو عمر بن عبد البر : لا خلاف بين أهل العلم فيه .

قال مؤلفه رحمه الله : اذا تأملت وجدت هذا الحديث يختص بأهل الشام والمدينة ، وما على سمت تلك البلاد شمالا وجنوبا فقط . والدليل على ذلك أنه يلزم من حمله على العموم ابطال التوجه الى الكعبة في بعض الأقطار ، والله سبحانه قد افترض على الكافة أن يتوجهوا الى الكعبة في الصلاة حيثما كانوا بقوله تعالى « ومن حيث خرجت فول وجهك

شطر المسجد الحرام ، وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره » .

وقد عرفت — ان كنت تمهرت فى معرفة البلدان وحدود الأقاليم — أن الناس فى توجههم الى الكعبة كالدائرة حول المركز : فمن كان فى الجهة الغربية من الكعبة ، فان جهة قبلة صلاته الى المشرق . ومن كان فى الجهة الشرقية من الكعبة ، فانه يستقبل فى صلاته جهة المغرب . ومن كان فى الجهة الشمالية من الكعبة ، فانه يتوجه فى صلاته الى جهة الجنوب . ومن كان فى الجهة الجنوبية من الكعبة ، كانت صلاته الى جهة الشمال .

ومن كان من الكعبة فيما بين المشرق والجنوب ، فان قبلته فيما بين الشمال والمغرب . ومن كان من الكعبة فيما بين الجنوب والمغرب ، فان قبلته فيما بين الشمال والمشرق . ومن كان من الكعبة فيما بين المشرق والشمال ، فقبلته فيما بين الجنوب والمغرب . ومن كان من الكعبة فيما بين الشمال والمغرب ، فقبلته فيما بين الجنوب والمشرق .

فقد ظهر ما يلزم ، من القول بعموم هذا الحديث ، من خروج أهل المشرق الساكنين به وأهل المغرب أيضا ، عن التوجه الى الكعبة فى الصلاة عينا وجهة . لأن من كان مسكنه من البلاد ما هو فى أقصى المشرق من الكعبة ، لو جعل المشرق عن يساره والمغرب عن يمينه ، لكان انما يستقبل حينئذ جنوب أرضه ، ولم يستقبل قط عين الكعبة ولا جهتها .

فوجب ولابد حملَ الحديث على أنه خاص بأهل المدينة والشام وما على سمت ذلك من البلاد . بدليل أن المدينة النبوية واقعة بين مكة وبين أوسط الشام على خط مستقيم ، والجانب الغربى من بلاد الشام — التى هى أرض المقدس وفلسطين — يكون عن يمين من يستقبل بالمدينة الكعبة ، والجانب الشرقى — الذى هو حمص وحلب وما والى ذلك — واقع عن يسار من استقبل * الكعبة بالمدينة .

والمدينة واقعة فى أوسط جهة الشام على جهة مستقيمة . بحيث لو خرج خط من الكعبة ومر على استقامة الى المدينة النبوية ، لنفذ منها الى أوسط جهة الشام سواء . وكذلك لو خرج خط من مصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتوجه على استقامة ، لوقع فيما بين الميزاب من الكعبة وبين الركن الشامى .

فلو فرضنا أن هذا الخط خرق الموضع الذى وقع فيه من الكعبة ومر ، لنفذ الى بيت المقدس على استواء من غير ميل ولا انحراف ألبتة . وصار موقع هذا الخط فيما بين نكباء الشمال والدبور وبين القطب الشمالى ، وهو الى القطب الشمالى أقرب وأميل ، ومقابلته ما بين أوسط الجنوب ونكباء الصبا والجنوب ، وهو الى الجنوب أقرب .

والمدينة النبوية مشرقة عن هذا السمت ، ومغربة عن سمت الجانب الآخر من بلاد الشام — وهو الجانب الغربى — تغريبا يسيرا . فمن يستقبل مكة بالمدينة يصير المشرق عن يساره ، والمغرب عن يمينه ، وما بينهما فهو قبلته ، وتكون حينئذ الشام بأسرها وجملة بلادها خلفه . فالمدينة على هذا فى أوسط جهات البلاد الشامية .

(*) ص٢٥٨ جـ٢ ، ط. بولاق .

ويشهد بصدق ذلك ما رويناه من طريق مسلم رحمه الله ، عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما ، قال : رقيت على بيت أختى حفصة ، فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قاعدا لحاجته ، مستقبلَ الشام مستدبر القبلة . وله أيضا من حديث ابن عمر : بينا الناس فى صلاة الصبح ، اذ جاءهم آت فقال : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أنزل عليه الليلة ، وقد أمر أن يستقبل الكعبة ، فاستدار الى الكعبة .

فهذا — أعزك الله — أوضح دليل أن المدينة بين مكة والشام على حد واحد ، وأنها فى أوسط جهة بلاد الشام . فمن استقبل بالمدينة الكعبة ، فقد استدبر الشام . ومن استدبر بالمدينة الكعبة ، فقد استقبل الشام .

ويكون حينئذ الجانب الغربى من بلاد الشام ، وما على سمته من البلاد ، جهة القبلة عندهم أن يجعل الواقف مشرق الصيف عن يساره ، ومغرب الشتاء عن يمينه ، فيكون ما بين ذلك قبلته .

وتكون قبلة الجانب الشرقى من بلاد الشام وما على سمت ذلك من البلدان ، أن يجعل المصلى مغرب الصيف عن يمينه ، ومشرق الشتاء عن يساره ، وما بينهما قبلته .

ويكون أوسط البلاد الشامية — التى هى حد المدينة النبوية — قبلة المصلى بها أن يجعل مشرق الاعتدال عن يساره ، ومغرب الاعتدال عن يمينه ، وما بينهما قبلة له .

فهذا أوضح استدلال على أن الحديث خاص بأهل المدينة ، وما على سمتها من البلاد الشامية ، وما وراءها من البلدان المسامتة لها .

وهكذا أهل اليمن وما على سمت اليمن من البلاد . فان القبلة واقعة فيما هنالك بين المشرق والمغرب ، لكن على عكس وقوعها فى البلاد الشامية . فانه تصير مشارق الكواكب فى البلاد الشامية ، التى على يسار المصلى ، واقعة عن يمين المصلى فى بلاد اليمن . وكذلك كل ما كان من المغارب عن يمين المصلى بالشام ، فانه ينقلب عن يسار المصلى باليمن . وكل من قام ببلاد اليمن مستقبلا الكعبة ، فانه يتوجه الى بلاد الشام فيما بين المشرق والمغرب .

وهذه الأقطار سكانها هم المخاطبون بهذا الحديث ، وحكمه لازم لهم ، وهو خاص بهم دون من سواهم من أهل الأقطار الأخر . ومن أجل حمل هذا الحديث على العموم ، كان السبب فى اختلاف محاريب مصر .

السبب الثانى فى اختلاف محاريب مصر : أن الديار المصرية لما افتتحها المسلمون ، كانت خاصة بالقبط والروم مشحونة بهم ، ونزل الصحابة رضى الله عنهم من أرض مصر فى موضع الفسطاط — الذى يعرف اليوم بمدينة مصر — وبالاسكندرية ، وتركوا سائر قرى مصر بأيدى القبط ... كما تقدم فى موضعه من هذا الكتاب .

ولم يسكن أحد من المسلمين بالقرى ، وانما كانت رابطة تخرج الى الصعيد ، حتى اذا جاء أوان الربيع انتشر الأتباع فى القرى لرعى الدواب ومعهم طوائف من السادات . ومع ذلك فكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ينهى الجند عن الزرع ، ويبعث

الى أمراء الأجناد باعطاء الرعية أعطياتهم وأرزاق عيالهم ، وينهاهم عن الزرع .

روى الامام أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم فى كتاب « فتوح مصر » من طريق ابن وهب ، عن حيوة بن شريح ، عن بكر بن عمرو ، عن عبد الله بن هبيرة : أن عمر بن الخطاب أمر بناذره أن يخرج الى أمراء الأجناد يتقدمون الى الرعية : أن عطاءهم قائم ، وأن أرزاق عيالهم سابل ، فلا يزرعون ولا يزارعون .

قال ابن وهب : وأخبرنى شريك بن عبد الرحمن المرادى ، قال : بلغنا أن شريك بن سمى الغطفانى ، أتى الى عمرو بن العاص ، فقال : انكم لا تعطونا ما يحسبنا أفتأذن لى بالزرع ؟

فقال له عمرو : ما أقدر على ذلك .

فزرع شريك من غير اذن عمرو . فلما بلغ ذلك عمرا ، كتب الى عمر بن الخطاب يخبره أن شريك بن سمى الغطفانى حرث بأرض مصر . فكتب اليه عمر « أن ابعث الى به » .

فلما انتهى كتاب عمر الى عمرو أقرأه شريكا فقال شريك لعمرو : قتلتنى ياعمرو .

فقال عمرو : ما أنا بالذى قتلتك ، أنت صنعت هذا بنفسك .

فقال له : اذا كان هذا من رأيك فائذن لى بالخروج من غير * كتاب ، ولك على عهد الله أن أجعل يدى فى يده .

فأذن له بالخروج . فلما وقف على عمر

قال : تؤمننى ياأمير المؤمنين ؟

قال : ومن أى الأجناد أنت ؟

قال : من جند مصر .

قال : فلعلك شريك بن سمى الغطفانى .

قال : نعم ياأمير المؤمنين .

قال : لأجعلنك نكالا لمن خلفك .

قال : أوتقبل منى ما قبل الله تعالى من العباد ؟

قال : وتفعل ؟

قال : نعم .

فكتب الى عمرو بن العاص أن شريك بن سمى جاءنى تائبا فقبلت منه .

قال : وحدثنا عبد الله بن صالح بن عبد الرحمن بن شريح ، عن أبى قبيل ، قال : كان الناس يجتمعون بالفسطاط اذا قفلوا ، فاذا حضر مرافق الريف خطب عمرو بن العاص الناس فقال : قد حضر مرافق الريف ربيعكم فانصرفوا . فاذا حمض اللبن ، واشتد العود ، وكثر الذباب ، فحى على فسطاطكم ، ولا أعلمن ما جاء أحد قد أسمن نفسه وأهزل جواده .

وقال ابن لهيعة ، عن يزيد بن أبى حبيب ، قال : كان عمرو يقول للناس اذا قفلوا من غزوهم : انه قد حضر الربيع ، فمن أحب منكم أن يخرج بفرسه يربعه فليفعل ، ولا أعلمن ما جاء أحد قد أسمن نفسه وأهزل فرسه . فاذا حمض اللبن ، وكثر الذباب ، ولوى العود ، فارجعوا الى قيروانكم .

وعن ابن لهيعة ، عن الأسود بن مالك الحميرى ، عن بحير بن ذاخر المعافرى ، قال :

(*) ص٢٥٩ جـ٢ ، ط. بولاق .

رحت أنا ووالدى الى صلاة الجمعة تهجيرا — وذلك بعد حميم النصارى بأيام يسيرة — فأطلنا الركوع ، اذ أقبل رجال بأيديهم السياط يزجرون الناس ، فذعرت فقلت : ياأبت من هؤلاء ؟ فقال : يابنى هؤلاء الشرط .

فأقام المؤذنون الصلاة ، فقام عمرو بن العاص على المنبر . فرأيت رجلا ربعة ، قصير القامة ، وافر الهامة ، أدعج أبلج ، عليه ثياب موشاة كأن به العقبان تأتلق ، عليه حلة وعمامة وجبة ... فحمد الله وأثنى عليه حمدا موجزا ، وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ، ووعظ الناس وأمرهم ونهاهم .

فسمعته يحض على الزكاة وصلة الأرحام ، ويأمر بالاقتصاد ، وينهى عن الفضول ، وكثرة العيال ، واخفاض الحال فى ذلك ... فقال : « يامعشر الناس اياكم وخلالا أربعا ، فانها تدعو الى النصب بعد الراحة ، والى الضيق بعد السعة ، والى الذلة بعد العزة . اياكم وكثرة العيال ، واخفاض الحال ، وتضييع المال ، والقيل بعد القال فى غير درك ولا نوال ...

« ثم انه لابد من فراغ يؤول اليه المرء فى توديع جسمه ، والتدبير لشأنه ، وتخليته بين نفسه وبين شهواتها . ومن صار الى ذلك ، فليأخذ بالقصد والنصيب الأقل ، ولا يضيع المرء فى فراغه نصيب العلم من نفسه ، فيجوز من الخير عاطلا ، وعن حلال الله وحرامه غافلا ...

« يامعشر الناس انه قد تدلت الجوزاء ، وذلت الشعرى ، وأقلعت السماء ، وارتفع الوباء ، وقل الندى ، وطاب المرعى ، ووضعت الحوامل ، ودرجت السخائل ، وعلى الراعى بحسن رعيته حسن النظر . فحى لكم — على بركة الله تعالى — الى ريفكم ، فنالوا من خيره ولبنه وخرافه وصيده ، واربعوا خيلكم وأسمنوها وصونوها وأكرموها ، فانها جنتكم من عدوكم ، وبها مغانمكم وأنفالكم ، واستوصوا بمن جاورتموه من القبط خيرا ...

« واياكم والمومسات المعسولات ، فانهن يفسدن الدين ، ويقصرن الهمم ... حدثنى عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ان الله سيفتح عليكم بعدى مصر ، فاستوصوا بقبطها خيرا ، فان لهم فيكم صهرا وذمة » . فكفوا أيديكم ، وعفوا فروجكم ، وغضوا أبصاركم . ولا أعلمن ما أتى رجل قد أسمن جسمه وأهزل فرسه ، واعلموا أنى معترض الخيل كاعتراض الرجال ، فمن أهزل فرسه من غير علة ، حططته من فريضته قدر ذلك ...

« واعلموا أنكم فى رباط الى يوم القيامة ، لكثرة الأعداء حولكم ، وتشوف قلوبهم اليكم ، والى داركم معدن الزرع والمال والخير الواسع والبركة النامية . وحدثنى عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « اذا فتح الله عليكم مصر ، فاتخذوا فيها جندا كثيفا ، فذلك الجند خير أجناد الأرض » . فقال له أبو بكر رضى الله عنه : ولم يارسول الله ؟ قال : « لأنهم وأزواجهم فى رباط الى يوم القيامة » ...

« فاحمدوا الله معشر الناس على ما أولاكم ، فتمتعوا فى ريفكم ما طاب لكم . فاذا يبس

العود ، وسخن الماء ، وكثر الذباب ، وحمض اللبن ، وصوح البقل ، وانقطع الورد من الشجر ... فحى الى فسطاطكم على بركة الله ، ولا يقدمن أحد منكم ذو عيال الا ومعه تحفة لعياله ، على ما أطاق من سعته أو عسرته . أقول قولى هذا ، وأستحفظ الله عليكم » .

قال : فحفظت ذلك عنه . فقال والدى ، بعد انصرافنا الى المنزل ، لما حكيت له خطبته : انه يابنى يحذر الناس اذا انصرفوا اليه على الرباط كما حذرهم على الريف والدعة .

قال : وكان اذا جاء وقت الربيع كتب لكل قوم بربيعهم ولبنهم الى حيث أحبوا . وكانت القرى التى يأخذ فيها معظمهم منوف وسمنود وأهناس وطحا . وكان أهل الراية متفرقين : فكان آل عمرو بن العاص وآل عبد الله بن سعد يأخذون فى منوف ووسيم ، وكانت هذيل تأخذ فى ببا وبوصير ، وكانت عدوان تأخذ فى بوصير وقرى عك . والذى يأخذ فيه معظمهم بوصير ومنوف وسنديس وأتريب .

وكانت بلى تأخذ فى منف وطرانية ، وكانت فهم تأخذ فى أتريب وعين * شمس ومنوف ، وكانت مهرة تأخذ فى منا ونمى وبسطة ووسيم ، وكانت لخم تأخذ فى الفيوم وطرانية وقربيط ، وكانت جذام تأخذ فى قربيط وطرانية ، وكانت حضرموت تأخذ فى ببا وعين شمس وأتريب ، وكانت مراد تأخذ فى منف والفيوم ومعهم عبس بن زوف ، وكانت حمير تأخذ فى بوصير وقرى أهناس ، وكانت خولان تأخذ فى قرى أهناس والقيس والبهنسا .

(*) ص٢٦٠ جـ٢ ، ط. بولاق .

وآل وعلة يأخذون فى سفط من بوصير ، وآل أبرهة يأخذون فى منف ، وغفار وأسلم يأخذون مع وائل من جذام وسعد فى بسطة وقربيط وطرانية ، وآل يسار بن ضبة فى أتريب . وكانت المعافر تأخذ فى أتريب وسخا ومنوف ، وكانت طائفة من تجيب ومراد يأخذون باليدقون .

وكان بعض هذه القبائل ربما جاور بعضا فى الربيع ، ولا يوقف فى معرفة ذلك على أحد ... الا أن معظم القبائل كانوا يأخذون حيث وصفنا . وكان يكتب لهم بالربيع فيربعون ما أقاموا وباللبن ، وكان لغفار وليث أيضا مربع بأتريب .

قال : وأقامت مدلج بخربتا فاتخذوها منزلا وكان معهم نفر من حمير حالفوهم فيها فهى منازلهم ، ورجعت خشين وطائفة من لخم وجذام فنزلوا أكناف صان وابليل وطرانية . ولم تكن قيس بالحوف الشرقى قديما ، وانما أنزلهم به ابن الحبحاب . وذلك أنه وفد الى هشام بن عبد الملك ، فأمر له بفريضة خمسة آلاف رجل ، فجعل ابن الحبحاب الفريضة فى قيس ، وقدم بهم فأنزلهم الحوف الشرقى بمصر .

فانظر — أعزك الله — ما كان عليه الصحابة وتابعوهم عند فتح مصر من قلة السكنى بالريف . ومع ذلك فكانت القرى كلها فى جميع الاقليم ، أعلاه وأسفله ، مملوءة بالقبط والروم . ولم ينتشر الاسلام فى قرى مصر الا بعد المائة من تاريخ الهجرة ، عندما أنزل عبيد الله بن الحبحاب — مولى سلول — قيسا بالحوف الشرقى . فلما كان فى المائة الثانية من

سنى الهجرة ، كثر انتشار المسلمين بقرى مصر ونواحيها . وما برحت القبط تنقض وتحارب المسلمين الى ما بعد المائتين من سنى الهجرة .

قال أبو عمرو محمد بن يوسف الكندى فى كتاب « أمراء مصر » : وفى امرة الحر بن يوسف أمير مصر ، كتب عبيد الله بن الحبحاب — صاحب خراج مصر — الى هشام بن عبد الملك بأن أرض مصر تحتمل الزيادة . فزاد على كل دينار قيراطا ، فنقضت كورة تنو ونمى وقربيط وطرانية وعامة الحوف الشرقى . فبعث اليهم الحر بأهل الديوان فحاربوهم ، فقتل منهم خلق كثير . وذلك أول نقض القبط بمصر ، وكان نقضهم فى سنة تسع ومائة ، ورابط الحر بن يوسف بدمياط ثلاثة أشهر .

ثم نقض أهل الصعيد ، وحارب القبط عمالهم فى سنة احدى وعشرين ومائة . فبعث اليهم حنظلة بن صفوان أمير مصر ، أهل الديوان ، فقتلوا من القبط ناسا كثيرا فظفر بهم . وخرج يحنس — وهو رجل من القبط — من سمنود ، فبعث اليه عبد الملك ابن مروان موسى بن نصير أمير مصر ، فقتل يحنس فى كثير من أصحابه ، وذلك فى سنة اثنتين وثلاثين ومائة . وخالفت القبط أيضا برشيد ، فبعث اليهم مروان بن محمد الحمار — لما دخل مصر فارا من بنى العباس — عثمان ابن أبى سبعة فهزمهم .

وخرج القبط على يزيد بن حاتم بن قبيصة ابن المهلب بن أبى صفرة أمير مصر بناحية سخا ، ونابذوا العمال ، وأخرجوهم فى سنة خمسين ومائة ، وصاروا الى شبرا سنباط ، وانضم اليهم أهل البشرود والأوسية والنخوم . فأتى الخبر يزيد بن حاتم ، فعقد لنصر بن حبيب المهلبى على أهل الديوان ووجوه أهل مصر ، فخرجوا اليهم ، ولقيهم القبط وقتلوا من المسلمين ، فألقى المسلمون النار فى عسكر القبط ، وانصرف العسكر الى مصر منهزما .

وفى ولاية موسى بن على بن رباح على مصر ، خرج القبط ببلهيت فى سنة ست وخمسين ومائة ، فخرج اليهم عسكر فهزمهم . ثم نقضت القبط فى جمادى الأولى سنة ست عشرة ومائتين ، مع من نقض من أهل أسفل الأرض من العرب ، وأخرجوا العمال ، وخلعوا الطاعة لسوء سيرة العمال فيهم .

فكانت بينهم وبين الجيوش حروب امتدت الى أن قدم الخليفة عبد الله أمير المؤمنين المأمون الى مصر ، لعشر خلون من المحرم سنة سبع عشرة ومائتين ، فعقد على جيش بعث به الى الصعيد ، وارتحل هو الى سخا .

وأوقع الأفشين بالقبط فى ناحية البشرود حتى نزلوا على حكم أمير المؤمنين ، فحكم بقتل الرجال وبيع النساء والأطفال ، فبيعوا وسبى أكثرهم .

وتتبع كل من يومأ اليه بخلاف ، فقتل ناسا كثيرا ، ورجع الى الفسطاط فى صفر ، ومضى الى حلوان ، وعاد لثمان عشرة خلت من صفر . فكان مقامه بالفسطاط وسخا وحلوان تسعة وأربعين يوما .

فانظر — أعزك الله — كيف كانت اقامة الصحابة انما هى بالفسطاط والاسكندرية ، وأنه لم يكن لهم كثير اقامة بالقرى ، وأن النصارى كانوا متمكنين من القرى والمسلمون

بها قليل ، وأنهم لم ينتشروا بالنواحى الا بعد عصر الصحابة والتابعين ... يتبين لك أنهم لم يؤسسوا فى القرى والنواحى مساجد .

وتفطن لشىء آخر . وهو أن القبط ما برحوا ، كما تقدم ، يثبتون لمحاربة المسلمين دالة منهم بما هم عليه من القوة والكثرة . فلما أوقع بهم المأمون الوقعة التى قلنا * ، غلب المسلمون على أماكنهم من القرى لما قتلوا منهم وسبوا ، وجعلوا عدة من كنائس النصارى مساجد .

وكنائس النصارى مؤسسة على استقبال المشرق واستدبار المغرب ، زعما منهم أنهم أمروا باستقبال مشرق الاعتدال ، وأنه الجنة لطلوع الشمس منه . فجعل المسلمون أبواب الكنائس محاريب عندما غلبوا عليها وصيروها مساجد ، فجاءت موازية لخط نصف النهار ، وصارت منحرفة عن محاريب الصحابة انحرافا كثيرا يحكم بخطئها وبعدها عن الصواب كما تقدم .

السبب الثالث : تساهل كثير من الناس فى معرفة أدلة القبلة . حتى انك لتجد كثيرا من الفقهاء لا يعرفون منازل القمر صورة وحسابا ، وقد علم من له ممارسة بالرياضيات أن بمنازل القمر يعرف وقت السحر وانتقال الفجر فى المنازل ، وناهيك بما يترتب على معرفة ذلك من أحكام الصلاة والصيام . وهذه المنازل التى للقمر من بعض ما يستدل به على القبلة والطرقات ، وهى من مبادىء العلم وقد جهلوه ، فمن أعوزه الأدنى فحريه أن يجهل ما هو أعلى منه وأدق .

(*) ص٢٦١ جـ٢ ، ط. بولاق .

السبب الرابع : الاعتذار بنجم سهيل . فان كثيرا ما يقع الاعتذار عن مخالفة محاريب المتأخرين بأنها بنيت على مقابلة سهيل ، ومن هنا يقع الخطأ . فان هذا أمر يحتاج فيه الى تحرير ، وهو أن دائرة سهيل مطلعها جنوب مشرق الشتاء قليلا ، وتوسطها فى أوسط الجنوب ، وغروبها يميل عن أوسط الجنوب قليلا .

فلعل من تقدم من السلف أمر ببناء المساجد فى القرى على مقابلة مطالع سهيل — ومطلعه فى سمت قبلة مصر تقريبا — فجهل من قام بأمر البنيان فرق ما بين مطالع سهيل وتوسطه وغروبه ، وتساهل فوضع المحراب على مقابلة توسط سهيل — وهو أوسط الجنوب — فجاء المحراب حينئذ منحرفا عن السمت الصحيح انحرافا لا يسوغ التوجه اليه ألبتة .

السبب الخامس : أن المحاريب الفاسدة بديار مصر أكثرها فى البلاد الشمالية التى تعرف بالوجه البحرى . والذى يظهر أن الغلط دخل على من وضعها من جهة ظنه أن هذه البلاد لها حكم بلاد الشام . وذلك أن بلاد مصر التى فى الساحل كثيرة الشبه ببلاد الشام فى كثرة أمطارها وشدة بردها وحسن فواكهها ، فاستطرد الشبه حتى فى المحاريب ووضعها على سمت المحاريب الشامية ، فجاء شيئا خطأ .

وبيان ذلك أن هذه البلاد ليست بشمالية عن الشام ، حتى يكون حكمها فى استقبال الكعبة كالحكم فى البلاد الشامية ، بل هى مغربية عن الجانب الغربى من الشام بعدة أيام ،

وسمتاهما مختلفان فى استقبال الكعبة لاختلاف القطرين . فان الجانب الغربى من الشام كما تقدم مقابل ميزاب الكعبة على خط مستقيم ، وهو حيث مهب النكباء التى بين الشمال والدبور ، ووسط الشام كدمشق وما والاها شمال مكة من غير ميل ، وهم يستقبلون أوسط الجنوب فى صلاتهم بحيث يكون القطب الشمالى المسمى بالجدى وراء ظهورهم .

والمدينة النبوية بين هذا الحد من الشام وبين مكة مشرقة عن هذا الحد قليلا . فاذا كانت مصر مغربة عن الجانب الغربى من الشام بأيام عديدة ، تعين ووجب أن تكون محاريبها ولا بد مائلة الى جهة المشرق بقدر بعد مصر وتغريبها عن أوسط الشام ... وهذا أمر يدركه الحس ، ويشهد لصحته العيان . وعلى ذلك أسس الصحابة ، رضى الله عنهم ، المحاريب بدمشق وبيت المقدس مستقبلة ناحية الجنوب وأسسوا المحاريب بمصر مستقبلة المشرق مع ميل يسير عنه الى ناحية الجنوب .

فرض — رحمك الله — نفسك فى التمييز ، وعود نظرك التأمل ، واربأ بنفسك أن تقاد ، كما تقاد البهيمة ، بتقليدك من لا يؤمن عليه الخطأ . فقد نهجت لك السبيل فى هذه المسألة وألنت لك من القول ، وقربت لك حتى كأنك تعاين الأقطار وكيف موقعها من مكة .

ولى هنا مزيد بيان فيه الفرق بين اصابة العين واصابة الجهة . وهو أن المكلف لو وقف ، وفرضنا أنه خرج خط مستقيم من بين عينيه ، ومر حتى اتصل بجدار الكعبة من غير ميل عنها الى جهة من الجهات ... فانه لابد أن ينكشف لبصره مدى عن يمينه وشماله لاينتهى بصره الى غيره ان كان لاينحرف عن مقابلته .

فلو فرضنا امتداد خطين من كلا عينى الوقف — بحيث يلتقيان فى باطن الرأس على زاوية مثلثة ، ويتصلان بما انتهى اليه البصر من كلا الجانبين — لكان ذلك شكلا مثلثا ، يقسمة الخط الخارج من بين العينين الى الكعبة بنصفين ، حتى يصير ذلك الشكل بين مثلثين متساويين .

فالخط الخارج من بين عينى مستقبل الكعبة ، الذى فرق بين الزاويتين ، هو مقابلة العين التى اشترط الشافعى رحمه الله وجوب استقباله من الكعبة عند الصلاة . ومنتهى ما يكشف بصر المستقبل من الجانبين ، هو حد مقابلة الجهة التى قال جماعة من علماء الشريعة بصحة استقباله فى الصلاة .

والخطان الخارجان من العينين الى طرفيه هما آخر الجهة من اليمين والشمال . فمهما وقعت صلاة المستقبل على الخط الفاصل بين الزاويتين كان قد استقبل عين الكعبة ، ومهما وقعت صلاته منحرفة عن يمين الخط أو يساره — بحيث لا يخرج * استقباله عن منتهى حد الزاويتين المحدودتين بما يكشف بصره من الجانبين — فانه مستقبل جهة الكعبة . وان خرج استقباله عن حد الزاويتين من أحد الجانبين ، فانه يخرج فى استقباله عن حد جهة الكعبة .

وهذا الحد فى الجهة يتسع ببعد المدى ويضيق بقربه ، فأقصى ما ينتهى اليه اتساعه

(*) ص٢٦٢ جـ٢ ، ط.بولاق .

ربع دائرة الأفق ... وذلك أن الجهات المعتبرة في الاستقبال أربع : المشرق ، والمغرب ، والجنوب ، والشمال . فمن استقبل جهة من هذه الجهات ، كان أقصى ما ينتهي اليه سعة تلك الجهة ربع دائرة الأفق . وإن انكشف لبصره أكثر من ذلك ، فلا عبرة به من أجل ضرورة تساوي الجهات . فانا لو فرضنا انسانا وقف في مركز دائرة ، واستقبل جزءا من محيط الدائرة ، لكانت كل جهة من جهاته الأربع — التي هي وراءه وأمامه ويمينه وشماله — تقابل ربعا من أرباع الدائرة .

فتبين بما قلنا أن أقصى ما ينتهي اليه اتساع الجهة قدر ربع دائرة الأفق . فأي جزء من أجزاء دائرة الأفق قصده الواقف بالاستقبال في بلد من البلدان ، كانت جهة ذلك الجزء المستقبل ربع دائرة الأفق ، وكان الخط الخارج من بين عيني الواقف الى وسط تلك الجهة هو مقابلة العين ، ومنتهى الربع من جانبيه يمنة ويسرة هو منتهى الجهة التي قد استقبلها .

فما خرج من محاريب بلد من البلدان عن حد جهة الكعبة ، لا تصح الصلاة لذلك المحراب بوجه من الوجوه . وما وقع في جهة الكعبة ، صحت الصلاة اليه عند من يرى أن الفرض في استقبال الكعبة اصابة جهتها . وما وقع في مقابلة عين الكعبة ، فهو الأسد الأفضل الأولى عند الجمهور .

وان أنصفت علمت أنه مهما وقع الاستقبال في مقابلة جهة الكعبة ، فانه يكون سديدا . وأقرب منه الى الصواب ما وقع قريبا من مقابلة العين يمنة أو يسرة ، بخلاف ما وقع بعيدا عن مقابلة العين فانه بعيد من الصواب ، ولعله هو الذي يجري فيه الخلاف بين علماء الشريعة . والله أعلم .

وحيث تقرر الحكم الشرعي بالأدلة السمعية والبراهين العقلية في هذه المسألة . فاعلم أن المحاريب المخالفة لمحاريب الصحابة ، التي بقرافة مصر وبالوجه البحري من ديار مصر ، واقعة في آخر جهة الكعبة من مصر ، وخارجة عن حد الجهة . وهي مع ذلك في مقابلة مابين البجة والنوبة ، لا في مقابلة الكعبة ، فانها منصوبة على موازاة خط نصف النهار .

ومحاريب الصحابة على موازاة مشرق الشتاء تجاه مطالع العقرب ، مع ميل يسير عنها الى ناحية الجنوب . فاذا جعلنا مشرق الشتاء المذكور مقابلة عين الكعبة لأهل مصر ، وفرضنا جهة ذلك الجزء ربع دائرة الأفق ، صار سمت المحاريب التي هي موازية لخط نصف النهار خارجا عن جهة الكعبة ، والذي يستقبلها في الصلاة يصلي الى غير شطر المسجد الحرام . وهو خطر عظيم ، فاحذره .

واعلم أن صعيد مصر واقع في جنوب مدينة مصر ، وقوص واقعة في شرقي الصعيد وفيما بين مهب ريح الجنوب والصبا من ديار مصر . فالمتوجه من مدينة قوص الى عيذاب يستقبل مشرق الشتاء سواء الى أن يصل الى عيذاب ، ولا يزال كذلك اذا سار من عيذاب حتى ينتهي في البحر الى جدة ، فاذا سار من جدة في البر استقبل المشرق كذلك حتى يحل بمكة ، فاذا عاد من مكة استقبل المغرب .

فاعرف من هذا أن مكة واقعة في النصف الشرقي من الربع الجنوبي بالنسبة الى أرض

مصر . وهذا هو سمت محاريب الصحابة التى بديار مصر والاسكندرية ، وهو الذى يجب أن يكون سمت جميع محاريب اقليم مصر .

برهان آخر : وهو أن من سار من مكة يريد مصر على الجادة ، فانه يستقبل ما بين القطب الشمالى — الذى هو الجدى — وبين مغرب الصيف مدة يومين وبعض اليوم الثالث ، وفي هذه المدة يكون مهب النكباء التى بين الشمال والمغرب تلقاء وجهه . ثم يستقبل بعد ذلك فى مدة ثلاثة أيام أوسط الشمال ، بحيث يبقى الجدى تلقاء وجهه ، الى أن يصلْ الى بدر .

فاذا سار من بدر الى المدينة النبوية ، صار مشرق الصيف تلقاء وجهه تارة ، ومشرق الاعتدال تارة الى أن ينتهى الى المدينة .

فاذا رجع من المدينة الى الصفراء ، استقبل مغرب الشتاء الى أن يعدل الى ينبع ، فيصير تارة يسير شمالا وتارة يسير مغربا ، ويكون ينبع من مكة على حد النكباء التى بين الشمال ومغرب الصيف .

فاذا سار من ينبع استقبل ما بين الجدى ومغرب الثريا — وهو مغرب الصيف — وهبت النكباء تلقاء وجهه الى أن يصل الى مدين . فاذا سار من مدين ، استقبل تارة الشمال وأخرى مغرب الصيف حتى يدخل أيلة . ومن أيلة لا يزال يستقبل مغرب الاعتدال تارة ، ويميل عنه الى جهة الجنوب مع استقبال مغرب الشتاء أخرى ، الى أن يصل الى القاهرة ومصر .

فلو فرضنا خطا خرج من محاريب مصر الصحيحة التى وضعها الصحابة ، ومر على استقامه من غير ميلْ ولا انحراف ، لاتصلْ بالكعبة ولصق بها .

واعلم أن أهل مصر والاسكندرية وبلاد الصعيد وأسفل الأرض وبرقة وافريقية وطرابلس المغرب وصقلية والأندلس وسواحلْ المغرب الى السوس الأقصى والبحر المحيط ، وما على * سمت هذه البلاد ، يستقبلون فى صلاتهم من الكعبة ما بين الركن الغربى الى الميزاب .

فمن أراد أن يستقبل الكعبة فى شىء من هذه البلاد ، فليجعل بنات نعش اذا غربت خلف كتفه الأيسر ، واذا طلعت على صدغه الأيسر ، ويكون الجدى على أذنه اليسرى ، ومشرق الشمس تلقاء وجهه ، أو ريح الشمال خلف أذنه اليسرى ، أو ريح الدبور خلف كتفه الأيمن ، أو ريح الجنوب التى تهب من ناحية الصعيد على عينه اليمنى ... فانه حينئذ يستقبل من الكعبة سمت محاريب الصحابة الذين أمرنا الله باتباع سبيلهم ، ونهانا عن مخالفتهم بقوله عز وجل « ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ، ويتبع غير سبيل المؤمنين ، نوله ما تولى ، ونصله جهنم وساءت مصيرا » . ألهمنا الله بمنه اتباع طريقهم ، وصيرنا بكرمه من حزبهم وفريقهم . انه على كل شىء قدير .

جامع العسكر

هذا الجامع بظاهر مصر ، وهو حيث الفضاء الذى هو اليوم فيما بين جامع أحمد بن

(*) ص٢٦٢ جـ٢ ، ط.بولاق .

طولون وكوم الجارح بظاهر مدينة مصر ، وكان الى جانب الشرطة والدار التى يسكنها أمراء مصر ، ومن هذه الدار الى الجامع باب ، وكان يجمع فيه الجمعة ، وفيه منبر ومقصورة .

وهذا الجامع بناه الفضل بن صالح بن على ابن عبد الله بن عباس ، فى ولايته امارة مصر ، ملاصقا لشرطة العسكر — التى كان يقال لها الشرطة العليا — فى سنة تسع وستين ومائة فكانوا يجمعون فيه .

وكانت ولاية الفضل امارة مصر ، من قبل المهدى محمد بن أبى جعفر المنصور ، على الصلاة والخراج . فدخلها سلخ المحرم سنة تسع وستين ومائة فى عسكر من الجند عظيم أتى بهم من الشام ، ومصر تضطرم لما كان فى الحوف ، ولخروج دحية بن مصعب بن الأصبغ ابن عبد العزيز بن مروان . فقام فى ذلك ، وجهز الجنود حتى أسر دحية ، وضرب عنقه فى جمادى الآخرة من السنة المذكورة . وكان يقول : أنا أولى الناس بولاية مصر لقيامى فى أمر دحية ، وقد عجز عنه غيرى حتى كفيت أهل مصر أمره . فعزله موسى الهادى لما استخلف بعد موت أبيه المهدى بعد ما أقره . فندم الفضل على قتل دحية ، وأظهر توبة ، وسار الى بغداد . فمات عن خمسين سنة فى سنة اثنتين وسبعين ومائة .

ولم يزل الجامع بالعسكر الى أن ولى عبد الله بن طاهر بن الحسين بن مصعب مولى خزاعة ، على صلاة مصر وخراجها ، من قبل عبد الله أمير المؤمنين المأمون ، فى ربيع الأول سنة احدى عشرة ومائتين ، فزاد فى عمارته ، وكان الناس يصلون فيه الجمعة قبل بناء جامع أحمد بن طولون . ولم يزل هذا الجامع الى ما بعد الخمسمائة من سنى الهجرة .

قال ابن المأمون فى تاريخه من حوادث سنة سبع عشرة وخمسمائة : وكان يطلق فى الأربع ليالى الوقود — وهى مستهل رجب ، ونصفه ، ومستهل شعبان ، ونصفه — برسم الجوامع الستة : الأزهر ، والأنور ، والأقمر بالقاهرة ، والطولونى ، والعتيق بمصر ، وجامع القرافة ، والمشاهد التى تتضمن الأعضاء الشريفة ، وبعض المساجد التى يكون لأربابها وجاهة ... جملة كثيرة من الزيت الطيب ، ويختص بجامع راشدة وجامع ساحل الغلة بمصر والجامع بالمقس يسير .

ويعنى بجامع ساحل الغلة جامع العسكر ، فان العسكر حينئذ كان قد خرب وحملت أنقاضه ، وصار الجامع بساحل مصر ، وهو الساحل القديم المذكور فى موضعه من هذا الكتاب .

ذكر العسكر

كان مكان العسكر فى صدر الاسلام يعرف بعد الفتح بالحمراء القصوى . وهى كما تقدم خطة بنى الأزرق ، وخطة بنى روبيل ، وخطة بنى يشكر بن جزيلة من لخم . ثم دثرت هذه الحمراء وصارت صحراء .

فلما زالت دولة بنى أمية ، ودخلت المسودة الى مصر فى طلب مروان بن محمد الجعدى فى سنة ثلاث وثلاثين ومائة — وهى خراب

فضاء يعرف بعضه بجبل يشكر — نزل صالح ابن على بن عبـد الله بن عباس ، وأبو عون عبد الملك بن يزيد ، بعسـكرهما فى هـذا الفضاء ، وأمر عبـد الملك أبو عون أصحابه بالبناء فيه فبنوا ، وسمى من يومئذ بالعسكر .

وصار أمراء مصر اذا قدموا ينزلون فيه من بعد أبى عون ، وقال الناس من عهده : كنـا بالعسكر ، وخرجنا الى العسكر ، وكنت فى العسكر . فصارت مدينة الفسطاط والعسكر ، ونزل الأمراء من عهد أبى عون بالعسكر .

فلما ولى يزيد بن حاتم امارة مصر ، وقام على بن محمد بن عبد الله بن حسن وطـرق المسجد ، كتب أبو جعفر المنصور الى يزيد بن حاتم يأمـره أن يتحـول من العسـكر الى الفسطاط ، وأن يجعـل الديوان فى كنائس القصر وذلك فى سنة ست وأربعين ومائة .

الى أن قدم الأمير أبو العباس أحمـد بن طولون من العراق ، أميـرا على مصر ، فنزل بالعسكر بدار الامارة التى بناها صـالح بن على بعد هزيمة مروان وقتله ، وكان لها باب الى الجامع الذى بالعسكر .

وكان الأمراء ينزلون بهـذه الدار الى أن نزلها أحمد بن طولون ، ثم * تحول منها الى القطائع . وجعلها أبو الجيش خمارويه بن أحمد ابن طـولون ، عند امارته على مصر ، ديوانا للخراج . ثم فرقت حجرا حجرا بعـد دخول محمد بن سليمان الكاتب الى مصر وزوال دولة بنى طولون . وسكن محمد بن سليمان أيضا بدار فى العسكر عند المصلى القديم ، ونزلها الأمراء من بعده ... الى أن ولى الاخشـيد محمد بن طغج ، فنزل بالعسكر أيضا .

ولما بنى أحمد بن طولون القطائع اتصلت مبانيها بالعسكر ، وبنى الجامع على جبـل يشكر ، فعمر ما هنالك عمارة عظيمة ... بحيث كانت هناك دار على بركة قارون أنفق عليهـا كافور الاخشيدى مائة ألف دينار وسكنها ، وكان هناك مارستان أحمد بن طولون أنفق عليه وعلى مستغله ستين ألف دينار .

وقدمت عساكر المعز لدين الله مع كاتبـه وغلامه جوهر القائد ، فى سنة ثمان وخمسين وثلثمائة ، والعسكر عامر . غير أنه منذ بنى أحمد بن طولون القطائع هجر اسم العسكر ، وصار يقال مدينة الفسطاط والقطائع . فلمـا خرب محمد بن سليمـان الـكاتب قصر ابن طولون وميدانه — كما ذكر فى موضعه من هذا الكتاب — صارت القطائع فيها المساكن الجليلة حيث كان العسكر .

وأنزل المعز لدين الله عمه أبا على فى دار الامارة ، فلم يزل أهله بهـا الى أن خـربت القطائع فى الغلاء الـكائن بمصر فى خلافة المستنصر أعوام بضع وخمسين وأربعـمائة . فيقال انه كان هنالك ما ينيف على مائة ألف دار .

ولا ينكر ذلك . فانظر ما بين سفح الجبل — حيث القلعة الآن — وبين سـاحل مصر القديم الذى يعرف اليوم بالكبارة ، وما بين كوم الجارح من مصر وقنـاطر السـباع ... فهنـاك كانت القطائع والعسـكر . ويخص العسـكر من ذلك ما بين قنـاطر السـباع

(*) ص٢٦٤ جـ٢ ، ط. بولاق .

وحذوة ابن قميحة الى كوم الجارح ، حيث الفضاء الذي يتوسط فيما بين قنطرة السد وباب المخدم من جهة القرافة ... فهنالك كان العسكر .

ولما استولى الخراب فى المحنة زمن المستنصر ، أمر الوزير الناصر للدين عبد الرحمن اليازورى ببناء حائط يستر الخراب اذا توجه الخليفة الى مصر فيما بين العسكر والقطائع وبين الطريق ، وأمر فبنى حائط آخر عند جامع ابن طولون .

فلما كان فى خلافة الآمر بأحكام الله أبى على منصور بن المستعلى بالله ، أمر وزيره أبو عبد الله محمد بن فاتك — المنعوت بالمأمون البطائحى — فنودى مدة ثلاثة أيام فى القاهرة ومصر : بأن من كان له دار فى الخراب أو مكان يعمره ، ومن عجز عن عمارته يبيعه أو يؤجره من غير نقل شىء من أنقاضه ، ومن تأخر بعد ذلك فلا حق له ولا حكر يلزمه . وأباح تعمير جميع ذلك بغير طلب حق .

فعمر الناس ما كان منه مما يلى القاهرة ، من حيث مشهد السيدة نفيسة الى ظاهر باب زويلة ، ونقلت أنقاض العسكر ، فصار الفضاء الذى يوصل اليه من مشهد السيدة نفيسة ومن الجامع الطولونى ومن قنطرة السد ، ويسلك فيه الى حيث كوم الجارح . والعامر الآن من العسكر جبل يشكر الذى فيه جامع ابن طولون ، وما حوله الى قناطر السباع ، كما ستقفه عليه ان شاء الله تعالى .

جامع ابن طولون

هذا الجامع موضعه يعرف بجبل يشكر .. قال ابن عبد الظاهر : وهو مكان مشهور باجابة الدعاء ، وقيل ان موسى عليه السلام ناجى ربه عليه بكلمات .

وابتدأ فى بناء هذا الجامع الأمير أبو العباس أحمد بن طولون ، بعد بناء القطائع ، فى سنة ثلاث وستين ومائتين .

قال جامع السيرة الطولونية : كان أحمد بن طولون يصلى الجمعة فى المسجد القديم الملاصق للشرطة ، فلما ضاق عليه بنى الجامع الجديد مما أفاء الله عليه من المال الذى وجده فوق الجبل ، فى الموضع المعروف بتنور فرعون ، ومنه بنى العين . فلما أراد بناء الجامع قدر له ثلثمائة عمود ، فقيل له ما تجدها ، أو تنفذ الى الكنائس فى الأرياف والضياع الخراب فتحمل ذلك . فأنكر ذلك ولم يختره ، وتعذب قلبه بالفكر فى أمره .

وبلغ النصرانى الذى تولى له بناء العين — وكان قد غضب عليه وضربه ، ورماه فى المطبق — الخبر . فكتب اليه يقول : أنا أبنيه لك كما تحب وتختار بلا عمد الا عمودى القبلة .

فأحضره ، وقد طال شعره حتى نزل على وجهه ، فقال له : ويحك ، ما تقول فى بناء الجامع !

فقال : أنا أصوره للأمير حتى يراه عيانا بلا عمد الا عمودى القبلة .

فأمر بأن تحضر له الجلود ، فأحضرت ، وصوره له ، فأعجبه واستحسنه ، وأطلقه وخلع عليه ، وأطلق له للنفقة عليه مائة ألف دينار ، فقال له : أنفق وما احتجت اليه بعد ذلك أطلقناه لك .

فوضع النصرانى يده فى البناء فى الموضع الذى هو فيه ، وهو جبل يشكر ، فكان ينشر منه ويعمل الجير ، ويبنى الى أن فرغ من جميعه ، وبيضه وخلقه ، وعلق فيه القناديل بالسلاسل الحسان الطوال ، وفرش فيه الحصر ، وحمل اليه صناديق المصاحف ، ونقل اليه القراء والفقهاء ، وصلى فيه بكار بن قتيبة القاضى ، وعمل الربيع بن سليمان بابا . . فيما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : «من بنى لله مسجدا ، ولو كمفحص قطاة ، بنى الله له بيتا فى الجنة » .

فلما كان فى أول جمعة صلاها فيه أحمد ابن طولون ، وفرغت الصلاة * ، جلس محمد ابن الربيع خارج المقصورة ، وقام المستملى وفتح باب المقصورة ، وجلس أحمد بن طولون ولم ينصرف ، والغلمان قيام وسائر الحجاب ، حتى فرغ المجلس .

فلما فرغ المجلس ، خرج اليه غلام بكيس فيه ألف دينار ، وقال : يقول لك الأمير نفعك الله بما علمك ، وهذه لأبى طاهر (يعنى ابنه) . وتصدق أحمد بن طولون بصدقات عظيمة فيه ، وعمل طعاما عظيما للفقراء والمساكين . وكان يوما عظيما حسنا .

وراح أحمد بن طولون ، ونزل فى الدار التى عملها فيه للامارة — وقد فرشت وعلقت ، وحملت اليها الآلات والأوانى وصناديق الأشربة وما شاكلها — فنزل بها أحمد ، وجدد طهره ، وغير ثيابه ، وخرج من بابها الى المقصورة ، فركع وسجد شكرا لله تعالى على ما أعانه عليه من ذلك ويسره له .

فلما أراد الانصراف ، خرج من المقصورة حتى أشرف على الفوارة ، وخرج الى باب الريح . فصعد النصرانى الذى بنى الجامع ، ووقف الى جانب المركب النحاس وصاح : ياأحمد بن طولون ياأمير الأمان ، عبدك يريد الجائزة ، ويسأل الأمان ألا يجرى عليه مثل ما جرى فى المرة الأولى .

فقال له أحمد بن طولون : انزل فقد أمنك الله ، ولك الجائزة

فنزل وخلع عليه ، وأمر له بعشرة آلاف دينار ، وأجرى عليه الرزق الواسع الى أن مات .

وراح أحمد بن طولون فى يوم الجمعة الى الجامع . فلما رقى الخطيب المنبر ، وخطب — وهو أبو يعقوب البلخى — دعا للمعتمد ولولده ، ونسى أن يدعو لأحمد بن طولون ، ونزل عن المنبر . فأشار أحمد الى نسيم الخادم أن اضربه خمسمائة سوط .

فذكر الخطيب سهوه ، وهو على مراقى المنبر ، فعاد وقال : الحمد لله وصلى الله على محمد « ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما » ، اللهم وأصلح الأمير أبا العباس أحمد بن طولون مولى أمير المؤمنين . وزاد فى الشكر والدعاء له بقدر الخطبة ، ثم نزل . فنظر أحمد الى نسيم أن

(*) ص٢٦٥ ، ج٢ ، ط . بولاق *

اجعلها دنانير . ووقف الخطيب على ما كان منه ، فحمد الله تعالى على سلامته ، وهنأه الناس بالسلامة .

ورأى أحمد بن طولون الصناع يبنون فى الجامع عند العشاء — وكان فى شهر رمضان — فقال : متى يشترى هؤلاء الضعفاء افطارا لعيالهم وأولادهم ؟ اصرفوهم العصر . فصارت سنة الى اليوم بمصر .

فلما فرغ شهر رمضان قيل له : قد انقضى شهر رمضان ، فيعودون الى رسمهم . فقال : قد بلغنى دعاؤهم وقد تبركت به ، وليس هذا مما يوفر العمل علينا .

وفرغ منه فى شهر رمضان سنة خمس وستين ومائتين ، وتقرب الناس الى ابن طولون بالصلاة فيه ، وألزم أولادهم كلهم صلاة الجمعة فى فوارة الجامع ، ثم يخرجون بعد الصلاة الى مجلس الربيع بن سليمان ليكتبوا العلم مع كل واحد منهم وراق وعدة غلمان . وبلغت النفقة على هذا الجامع فى بنائه مائة ألف دينار وعشرين ألف دينار .

ويقال ان أحمد بن طولون رأى فى منامه : كأن الله تعالى قد تجلى ووقع نوره على المدينة التى حول الجامع ، الا الجامع فانه لم يقع عليه من النور شىء . فتألم وقال : والله ما بنيته الا لله خالصا ومن المال الحلال الذى لا شبهة فيه .

فقال له معبر حاذق : هذا الجامع يبقى ويخرب كل ما حوله ، لأن الله تعالى قال : « فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا » ، فكل شىء يقع عليه جلال الله عز وجل لا يثبت .

وقد صح تعبير هذه الرؤيا . فان جميع ما حول الجامع خرب دهرا طويلا — كما تقدم فى موضعه من هذا الكتاب — وبقى الجامع عامرا ، ثم عادت العمارة لما حوله كما هى الآن .

قال القضاعى رحمه الله : وذكر أن السبب فى بنائه أن أهل مصر شكوا اليه ضيق الجامع يوم الجمعة من جنده وسودانه ، فأمر بانشاء المسجد الجامع بجبل يشكر بن جديلة من لخم . فابتدأ بنيانه فى سنة ثلاث وستين ومائتين ، وفرغ منه سنة خمس وستين ومائتين .

وقيل ان أحمد بن طولون قال : أريد أن أبنى بناء ان احترقت مصر بقى ، وان غرقت بقى . فقيل له : يبنى بالجير والرماد ، والآجر الأحمر القوى النار الى السقف ، ولا يجعل فيه أساطين رخام ، فانه لا صبر لها على النار .

فبناه هذا البناء ، وعمل فى مؤخره ميضأة ، وخزانة شراب فيها جميع الشرابات والأدوية ، وعليها خدم ، وفيها طبيب جالس يوم الجمعة لحادث يحدث للحاضرين للصلاة . وبناه على بناء جامع سامرا ، وكذلك المنارة ، وعلق فيه سلاسل النحاس المفرغة والقناديل المحكمة ، وفرشه بالحصر العبدانية والسامانية .

« حديث الكنز » : قال جامع السيرة : لما ورد على أحمد بن طولون كتاب المعتمد بما استدعاه من رد الخراج بمصر اليه ، وزاده المعتمد مع ما طلب الثغور الشامية ، رغب بنفسه عن المعادن ومرافقها ، فأمر بتركها ، وكتب باسقاطها فى سائر الأعمال ، ومنع

المتقبلين من الفسخ على المزارعين ، وخطر الارتفاق على العمال .

وكان قبل اسقاط المرافق بمصر قد شاور عبد الله بن دسومة فى ذلك — وهو يومئذ أمين على أبى أيوب متولى الخراج — فقال : ان آمننى الأمير تكلمت بما عندى .

فقال له : قد أمنك الله عز وجل .

فقال : أيها الأمير ان الدنيا والآخرة ضرتان ، والحازم من لم يخلط احداهما مع الأخرى ، والمفرط من خلط بينهما فيتلف أعماله ويبطل سعيه . وأفعال الأمير — أيده الله — الخير ، وتوكله توكل الزهاد ، وليس مثله * من ركب خطة لم يحكمها . ولو كنا نثق بالنصر دائما طول العمر ، لما كان شىء عندنا آثر من التضييق على أنفسنا فى العاجل بعمارة الآجل ، ولكن الانسان قصير العمر ، كثير المصائب ، مدفوع الى الآفات . وترك الانسان ما قد أمكنه وصار فى يده تضييع ، ولعل الذى حماه نفسه يكون سعادة لمن يأتى من بعده ، فيعود ذلك توسعة لغيره بما حرمه هو ...

ويجتمع للأمير — أيده الله — بما قد عزم على اسقاطه من المرافق فى السنة بمصر دون غيرها مائة ألف دينار . وان فسخ ضياع الأمراء والمتقبلين فى هذه السنة ، لأنها سنة ظمأ توجب الفسخ ، زاد مال البلد ، وتوفر توفرا عظيما ينضاف الى مال المرافق ، فيضبط به الأمير — أيده الله — أمر دنياه . وهذه طريقة أمور الدنيا ، وأحكام أمور الرياسة والسياسة ، وكل ما عدل الأمير — أيده الله — اليه من أمر غير هذا فهو مفسد لدنياه . وهذا رأيى ، والأمير — أيده الله — على ما عساه يراه .

فقال له : تنظر فى هذا ان شاء الله .

وشغل قلبه كلامه ، فبات تلك الليلة بعد أن مضى أكثر الليل يفكر فى كلام ابن دسومة ، فرأى فى منامه رجلا من اخوانه الزهاد بطرسوس وهو يقول له : ليس ما أشار به عليك من استشرته فى أمر الارتفاق والفسخ برأى تحمد عاقبته فلا تقبله ، ومن ترك شيئا لله عز وجل عوضه الله عنه ، فأمض ما كنت عزمت عليه .

فلما أصبح أنفذ الكتب الى سائر الأعمال بذلك ، وتقدم به فى سائر الدواوين بامضائه ، ودعى بابن دسومة فعرفه بذلك . فقال له : قد أشار عليك رجلان ، الواحد فى اليقظة والآخر ميت فى النوم ، وأنت الى الحى أقرب وبضمانه أوثق .

فقال : دعنا من هذا ، فلست أقبل منك .

وركب فى غد ذلك اليوم الى نحو الصعيد . فلما أمعن فى الصحراء ساخت فى الأرض يد فرس بعض غلمانه — وهو رمل — فسقط الغلام فى الرمل ، فاذا بفتق ففتح ، فأصيب فيه من المال ما كان مقداره ألف ألف دينار .

وهو الكنز الذى شاع خبره .

وكتب به الى العراق أحمد بن طولون يخبر المعتمد به ، ويستأذنه فيما يصرفه فيه من وجوه البر وغيرها ، فبنى منه المارستان . ثم أصاب

(*) ص٢٦٦ ، جـ ٢ ، ط . بولاق .

بعده في الجبل مالا عظيما ، فبني منه الجامع ، ووقف بجميع ما بقي من المال في الصدقات . وكانت صدقاته ومعروفه لا تحصى كثرة .

ولما انصرف من الصحراء ، وحمل المال ، أحضر ابن دسومة وأراه المال ، وقال له : بئس الصاحب والمستشار أنت . هذا أول بركة مشورة الميت في النوم ، ولولا أنني أمنتك لضربت عنقك .

وتغير عليه وسقط محله عنده . ورفع اليه بعد ذلك أنه قد أجحف بالناس ، وألزمهم أشياء ضجوا منها . فقبض عليه وأخذ ماله وحبسه ، فمات في حبسه .

وكان ابن دسومة واسع الحيلة ، بخيل الكف ، زاهدا في شكر الشاكرين ، لا يهش الى شيء من أعمال البر . وكان أحمد بن طولون من أهل القرآن ، اذا جرت منه اساءة استغفر وتضرع .

وقال ابن عبد الظاهر : سمعت غير واحد يقول : انه لما فرغ أحمد بن طولون من بناء هذا الجامع ، أمر للناس بسماع ما يقوله الناس فيه من العيوب . فقال رجل : محرابه صغير ، وقال آخر : ما فيه عمود ، وقال آخر : ليست له ميضأة .

فجمع الناس وقال : أما المحراب فاني رأيت رسول الله صلي الله عليه وسلم وقد خطه لي ، فأصبحت فرأيت النمل قد أطافت بالمكان الذي خطه لي . وأما العمد فاني بنيت هذا الجامع من مال حلال وهو الكنز ، وما كنت لأشوبه بغيره ، وهذه العمد اما أن تكون من مسجد أو كنيسة فنزهته عنها . وأما الميضأة فاني نظرت ، فوجدت ما يكون بها من النجاسات فطهرته منها ، وهاأنا أبنيها خلفه . ثم أمر ببنائها .

وقيل انه لما فرغ من بنائه رأى في منامه : كأن نارا نزلت من السماء فأخذت الجامع دون ما حوله . فلما أصبح قص رؤياه فقيل له : أبشر بقبول الجامع ، لأن النار كانت في الزمان الماضي اذا قبل الله قربانا نزلت نار من السماء أخذته ، ودليله قصة قابيل وهابيل .

قال : ورأيت من يقول انه عمل به منطقة دائرة بجميعه من عنبر . ولم أر مصنفا ذكره ، الا انه مستفاض من الأفواه والنقلة .

وسمعت من يقول : انه عمر ما حوله حتى كان خلفه مصطبة ذراع في ذراع : أجرتها في كل يوم اثنا عشر درهما في بكرة النهار لشخص يبيع الغزل ويشتريه ، والظهر لخباز ، والعصر لشيخ يبيع الحمص والفول .

وقيل عن أحمد بن طولون : انه كان لا يعبث بشيء قط . فاتفق أنه أخذ درجا أبيض بيده وأخرجه ومده ، واستيقظ لنفسه وعلم أنه قد فطن به ، وأخذ عليه لكونه لم تكن تلك عادته . فطلب المعمار على الجامع ، وقال : تبنى المنارة التي للتأذين هكذا . فبنيت على تلك الصورة .

والعامة يقولون : ان العشاري الذي على المنارة المذكورة يدور مع الشمس . وليس صحيحا ، وانما يدور مع دوران الرياح . وكان الملك الكامل قد اعتنى بوقودها ليلة النصف من شعبان ثم أبطلها .

وقال المسيحي : ان الحاكم أنزل الى جامع ابن طولون ثمانمائة مصحف وأربعة عشر مصحفا .

وفى سنة ست وسبعين وثلثمائة ، فى ليلة الخميس لعشر خلون من جمادى الأولى ، احترقت الفوارة التى كانت بجامع ابن طولون فلم يبق منها شىء . وكانت فى وسط صحنه قبة مشبكة من جميع جوانبها وهى مذهبة ، على عشر عمد رخام * ، وستة عشر عمود رخام فى جوانبها ، مفروشة كلها بالرخام . وتحت القبة قصعة رخام فسحتها أربعة أذرع ، فى وسطها فوارة تفور بالماء ، وفى وسطها قبة مزوقة يؤذن فيها وفى أخرى على سلمها ، وفى السطح علامات الزوال ، والسطح بدرابزين ساج ... فاحترق جميع هذا فى ساعة واحدة .

وفى المحرم سنة خمس وثمانين وثلثمائة ، أمر العزيز بالله بن المعز ببناء فوارة عوضا عن التى احترقت . فعمل ذلك على يد راشد الحنفى ، وتولى عمارتها ابن الرومية وابن البناء . وماتت أم العزيز فى سلخ ذى القعدة من السنة . والله أعلم .

« تجديد الجامع » : وكان من خبر جامع ابن طولون أنه لما كان غلاء مصر فى زمان المستنصر ، وخربت القطائع والعسكر ، عدم الساكن هناك ، وصار ما حول الجامع خرابا . وتوالت الأيام على ذلك ، وتشعث الجامع ، وخرب أكثره ، وصار أخيرا ينزل فيه المغاربة بأباعرها ومتاعها عندما تمر بمصر أيام الحج .

فهيأ الله جل جلاله لعمارة هذا الجامع أن كان بين الملك الأشرف خليل بن قلاوون وبين الأمير بيدر أمور موحشة تزايدت وتأكدت . الى أن جمع بيدر من يثق به ، وقتل الأشرف بناحية تروجة فى سنة ثلاث وتسعين وستمائة — كما سيأتى ذكره ان شاء الله تعالى عند ذكر مدرسته — وكان ممن وافق الأمير بيدرا على قتل الأشرف الأمير حسام الدين لاجين المنصورى ، والأمير قراسنقر .

فلما قتل بيدر فى محاربة مماليك الأشرف له ، فر لاجين وقراسنقر من المعركة ، فاختفى لاجين بالجامع الطولونى ، وقراسنقر فى داره بالقاهرة . وصار لاجين يتردد بمفرده من غير أحد معه فى الجامع — وهو حينئذ خراب لا ساكن فيه — وأعطى الله عهدا ، ان سلمه الله من هذه المحنة ومكنه من الأرض ، أن يجدد عمارة هذا الجامع ، ويجعل له ما يقوم به .

ثم انه خرج منه فى خفية الى القرافة ، فأقام بها مدة وراسل قراسنقر ، فتحيل فى لحاقه به . وعملا أعمالا الى أن اجتمعا بالأمير زين الدين كتبغا المنصورى — وهو اذ ذاك نائب السلطنة فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون ، والقائم بأمور الدولة كلها — فأحضرهما الى مجلس السلطان بقلعة الجبل ، بعد أن أتقن أمرهما مع الأمراء ومماليك السلطان ، فخلع عليهما ، وصار كل منهما الى داره وهو آمن . فلم تطل أيام الملك الناصر فى هذه الولاية حتى خلعه الأمير كتبغا ، وجلس على تخت الملك ، وتلقب بالملك العادل ، فجعل لاجين نائب السلطنة بديار مصر .

وجرت أمور اقتضت قيام لاجين على كتبغا وهم بطريق الشام ، ففر كتبغا الى دمشق ، واستولى لاجين على دست المملكة ، وصار الى مصر وجلس على سرير الملك بقلعة الجبل ، وتلقب بالملك المنصور فى المحرم من سنة

(*) ص ٢٦٧ ، جـ ٢ ، ط . بولاق .

ست وتسعين وستمائة . فأقام قراسنقر في نيابة السلطنة بديار مصر ، وأخرج الناصر محمد بن قلاوون من قلعة الجبل الى كرك الشوبك فجعله في قلعتها . وأعانه أهل الشام على كتبغا حتى قبض عليه ، وجعله نائب حماة ، فأقام بها مدة سنين بعد سلطنة مصر والشام .

وخلع على الأمير علم الدين سنجر الدواداري ، وأقامه في نيابة دار العدل ، وجعل اليه شراء الأوقاف على الجامع الطولوني ، وصرفه اليه كل ما يحتاج اليه في العمارة ، وأكد عليه في ألا يسخر فيه فاعلا ولا صانعا ، وألا يقيم مستحثا للصناع ، ولا يشتري لعمارته شيئا مما يحتاج اليه من سائر الأصناف الا بالقيمة التامة ، وأن يكون ما ينفق على ذلك من ماله . وأشهد عليه بوكالته .

فابتاع منية أندونة من أراضي الجيزة — وعرفت هذه القرية بأندونة ... كاتب بمصر كان نصرانيا في زمن أحمد بن طولون ، وممن نكبه وأخذ منه خمسين ألف دينار — واشترى أيضا ساحة بجوار جامع أحمد بن طولون — مما كان في القديم عامرا ثم خرب — وحكرها .

وعمر الجامع ، وأزال كل ما كان فيه من تخريب ، وبلطه ، وبيضه ، ورتب فيه دروسا لالقاء الفقه على المذاهب الأربعة التي عمل أهل مصر عليها الآن ، ودرسا يلقى فيه تفسير القرآن الكريم ، ودرسا لحديث النبي صلى الله عليه وسلم ، ودرسا للطب . وقرر للخطيب معلوما ، ويجعل له اماما راتبا ومؤذنين وفراشين وقومة ، وعمل بجواره مكتبا لاقراء أيتام المسلمين كتاب الله عز وجل ، وغير ذلك من أنواع القربات ووجوه البر . فبلغت النفقة على عمارة الجامع وثمن مستغلاته عشرين ألف دينار .

فلما شاء الله سبحانه أن يهلك لاجين ، زين له سوء عمله عزل الأمير قراسنقر من نيابة السلطنة ، فعزله ، وولى مملوكه منكوتمر — وكان عسوقا عجولا حادا ، ولاجين مع ذلك يركن اليه ، ويعول في جميع أموره عليه ، ولا يخالف قوله ولا ينقض فعله — فشرع منكوتمر في تأخير أمراء الدولة من الصالحية والمنصورية ، وأعجل في اظهار التهجم لهم ، والاعلان بما يريده من القبض عليهم واقامة أمراء غيرهم .

فتوحشت القلوب منه ، وتمالأت على بغضه ، ومشى القوم بعضهم الى بعض ، وكاتبوا اخوانهم من أهل البلاد الشامية حتى تم لهم ما يريدون . فواعد جماعة منهم اخوانهم على قتل السلطان لاجين ونائبه منكوتمر ... فما هو الا أن صلى السلطان العشاء الآخرة من ليلة الجمعة العاشر من شهر ربيع الأول سنة ثمان وتسعين وستمائة ، واذا بالأمير كرجي — وكان ممن هو قائم * بين يديه — تقدم ليصلح الشمعة ، فضربه بسيف قد أخفاه معه أطار به زنده ، وانقض عليه البقية ممن واعدوهم بالسيوف والخناجر ، فقطعوه قطعا وهو يقول : الله الله .

وخرجوا من فورهم الى باب القلة من قلعة الجبل ، فاذا بالأمير طفج قد جلس في

(*) ٢٦٨ ج ٢ ، ط ، بولاق »

انتظارهم ومعه عدة من الأمراء — وكانوا اذ ذاك يبيتون بالقلعة دائما — فأمروا باحضار منكوتمر من دار النيابة بالقلعة ، وقتلوه بعد مضى نصف ساعة من قتل أستاذه الملك المنصور حسام الدين لاجين المنصورى ... رحمه الله ، فلقد كان مشكور السيرة .

وفى سنة سبع وستين وسبعمائة ، جدد الأمير يلبغا العمرى الخاصكى درسا بجامع ابن طولون فيه سبعة مدرسين للحنفية ، وقرر لكل فقيه من الطلبة فى الشهر أربعين درهما واردب قمح . فانتقل جماعة من الشافعية الى مذهب الحنفية .

وأول من ولى نظره بعد تجديده الأمير علم الدين سنجر الجاولى ، وهو اذ ذاك دوادار السلطان الملك المنصور لاجين . ثم ولى نظره قاضى القضاة بدر الدين محمد بن جماعة ، ثم من بعده الأمير مكين فى أيام الناصر محمد ابن قلاوون ، فجدد فى أوقافه طاحونا وفرنا وحوانيت ، فلما مات وليه قاضى القضاة عز الدين بن جماعة ، ثم ولاه الناصر للقاضى كريم الدين الكبير ، فجدد فيه مئذنتين .

فلما نكبه السلطان عاد نظره الى قاضى القضاة الشافعى . وما برح الى أيام الناصر حسن بن محمد بن قلاوون ، فولاه للأمير صرغتمش ، وتوفر فى مدة نظره من مال الوقف مائة ألف درهم فضة ، وقبض عليه وهى حاصلة . فباشره قاضى القضاة الى أيام الأشرف شعبان بن حسين ، ففوض نظره الى الأمير الجاى اليوسفى الى أن غرق .

فتحدث فيه قاضى القضاة الشافعى . الى أن فوض الملك الظاهر برقوق نظره الى الأمير قطلوبغا الصفوى فى العشرين من جمادى الآخرة سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة . وكان الأمير سطاش مدة تحكمه فى الدولة فوضه الى المذكور فى أواخر شوال سنة احدى وتسعين وسبعمائة . ثم عاد نظره الى القضاة بعد الصفوى ، وهو بأيديهم الى اليوم .

وفى سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة ، جدد الرواق البحرى الملاصق للمئذنة الحاج عبيد ابن محمد بن عبد الهادى الهويدى البازدار مقدم الدولة ، وجدد ميضأة بجانب الميضأة القديمة . وكان عبيد هذا بازدارا ، ثم ترقى حتى صار مقدم الدولة فى شهر ربيع الأول سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة ، ثم ترك زى المقدمين وتزيا بزى الأمراء ، وحاز نعمة جليلة وسعادة طائلة ، حتى مات يوم السبت رابع عشر صفر سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة .

ذكر دار الامارة

وكان بجوار الجامع الطولونى دار أنشأها الأمير أحمد بن طولون عندما بنى الجامع ، وجعلها فى الجهة القبلية ، ولها باب من جدار الجامع يخرج منه الى المقصورة بجوار المحراب والمنبر ، وجعل فى هذه الدار جميع ما يحتاج اليه من الفرش والستور والآلات . فكان ينزل بها اذا راح الى صلاة الجمعة ، فانها كانت تجاه القصر والميدان ، فيجلس فيها ويجدد وضوءه ويغير ثيابه ، وكان يقال لها دار الامارة . وموضعها الآن سوق الجامع ، حيث البزازين وغيرهم ، ولم تزل هذه الدار باقية الى أن قدم الامام المعز لدين الله أبو تميم معد

من بلاد المغرب ، فكان يستخرج فيها أموال الخراج .

قال الفقيه الحسن بن ابراهيم بن زولاق فى كتاب « سيرة المعز » : ولست عشرة بقيت من المحرم (يعنى من سنة ثلاث وستين وثلثمائة) قلد المعز لدين الله الخراج وجميع وجوه الأعمال والحسبة والسواحل والأعشار والجوالى والأحباس والمواريث والشرطيين ، وجميع ما ينضاف الى ذلك وما يطرأ فى مصر وسائر الأعمال ، أبا الفرج يعقوب بن يوسف ابن كلس وعسلوج بن الحسن ، وكتب لهما سجلا بذلك قرىء يوم الجمعة على منبر جامع أحمد بن طولون ، وجلسا غد هذا اليوم فى دار الامارة فى جامع أحمد بن طولون للنداء على الضياع وسائر وجوه الأعمال .

ثم خربت هذه الدار فيما خرب من القطائع والعسكر ، وصار موضعها ساحة ... الى أن حكرها الدويدارى عند تجديد عمارة الجامع كما تقدم . وقد ذكر بناء القيسارية فى موضعه من هذا الكتاب عند ذكر الأسواق .

ذكر الأذان بمصر
وما كان فيه من الاختلاف

اعلم أن أول من أذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم بلال بن رباح ، مولى أبى بكر الصديق رضى الله عنهما ، بالمدينة الشريفة وفى الأسفار . وكان ابن أم مكتوم — واسمه عمرو ابن قيس بن شريح من بنى عامر بن لؤى ، وقيل اسمه عبد الله وأمه أم مكتوم ، واسمها عاتكة بنت عبد الله بن عنكثة من بنى مخزوم — ربما أذن بالمدينة .

وأذن أبو محذورة ، واسمه أوس — وقيل سمرة — ابن معير بن لوذان بن ربيعة بن معير ابن عريج بن سعد بن جمح . وكان استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أن يؤذن مع بلال ، فأذن له ، وكان يؤذن فى المسجد الحرام ، وأقام بمكة ومات بها ، ولم يأت المدينة .

قال * ابن الكلبى : كان أبو محذورة لا يؤذن للنبى صلى الله عليه وسلم بمكة الا فى الفجر ، ولم يهاجر وأقام بمكة .

وقال ابن جريج : علم النبى صلى الله عليه وسلم أبا محذورة الأذان بالجعرانة حين قسم غنائم حنين ، ثم جعله مؤذنا فى المسجد الحرام .

وقال الشعبى : أذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم بلال وأبو محذورة وابن أم مكتوم . وقد جاء أن عثمان بن عفان رضى الله عنه كان يؤذن بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم عند المنبر .

وقال محمد بن سعد عن الشعبى : كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة مؤذنين : بلال ، وأبو محذورة ، وعمرو بن أم مكتوم . فاذا غاب بلال أذن أبو محذورة ، واذا غاب أبو محذورة أذن ابن أم مكتوم ... قلت : لعل هذا كان بمكة .

وذكر ابن سعد أن بلالا أذن بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى بكر رضى الله عنه ، وأن عمر رضى الله عنه أراده أن يؤذن له فأبى عليه ، فقال له : الى من ترى أن أجعل النداء ؟

(*) ص ٢٦٩ ، ج ٢ ، ط . بولاق .

فقال : الى سعد القرظ ، فانه قد أذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

فدعاه عمر رضى الله عنه ، فجعل النداء اليه والى عقبه من بعده .

وقد ذكر أن سعد القرظ كان يؤذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم بقباء .

وذكر أبو داود فى مراسيله ، والدارقطنى فى سننه ، قال بكير بن عبد الله الأشج : كانت مساجد المدينة تسعة ، سوى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كلهم يصلون بأذان بلال رضى الله عنه .

وقد كان عند فتح مصر الأذان انما هو بالمسجد الجامع ، المعروف بجامع عمرو ، وبه صلاة الناس بأسرهم . وكان من هدى الصحابة والتابعين ، رضى الله عنهم ، المحافظة على الجماعة ، وتشديد النكير على من تخلف عن صلاة الجماعة .

قال أبو عمرو الكندى فى ذكر من عرف على المؤذنين بجامع عمرو بن العاص بفسطاط مصر : وكان أول من عرف على المؤذنين أبو مسلم سالم بن عامر بن عبد المرادى — وهو من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد أذن لعمر بن الخطاب — سار الى مصر مع عمرو بن العاص يؤذن له حتى افتتحت مصر ، فأقام على الأذان ، وضم اليه عمرو بن العاص تسعة رجال يؤذنون هو عاشرهم . وكان الأذان فى ولده حتى انقرضوا .

قال أبو الخير : حدثنى أبو مسلم — وكان مؤذنا لعمرو بن العاص — أن الأذان كان أوله لا اله الا الله وآخره لا اله الا الله ، وكان أبو مسلم يوصى بذلك حتى مات ، ويقول : هكذا كان الأذان .

ثم عرف عليهم أخوه شرحبيل بن عامر — وكانت له صحبة — وفى عرافته زاد مسلمة ابن مخلد فى المسجد الجامع ، وجعل له المنار ولم يكن قبل ذلك . وكان شرحبيل أول من رقى منارة مصر للأذان .

وان مسلمة بن مخلد اعتكف فى منارة الجامع ، فسمع أصوات النواقيس عالية بالفسطاط ، فدعا شرحبيل بن عامر فأخبره بما ساءه من ذلك .

فقال شرحبيل : فانى أمدد بالأذان من نصف الليل الى قرب الفجر ، فانههم أيها الأمير أن ينقسوا اذا أذنت .

فنهاهم مسلمة عن ضرب النواقيس وقت الأذان . ومدد شرحبيل ومطط أكثر الليل ، الى أن مات شرحبيل سنة خمس وستين .

وذكر عن عثمان رضى الله عنه أنه أول من رزق المؤذنين . فلما كثرت مساجد الخطبة ، أمر مسلمة بن مخلد الأنصارى ، فى امارته على مصر ، ببناء المنار فى جميع المساجد ... خلا مساجد تجيب وخولان . فكانو يؤذنون فى الجامع أولا ، فاذا فرغوا أذن كل مؤذن فى الفسطاط فى وقت واحد ، فكان لأذانهم دوى شديد .

وكان الأذان أولا بمصر كأذان أهل المدينة ، وهو : الله أكبر ، الله أكبر ... وباقيه كما هو اليوم . فلم يزل الأمر بمصر على ذلك فى جامع عمرو بالفسطاط ، وفى جامع العسكر ، وفى جامع أحمد بن طولون وبقية المساجد ...

الى أن قدم القائد جوهر بجيوش المعز لدين الله ، وبنى القاهرة .

فلما كان في يوم الجمعة الثامن من جمادى الأولى سنة تسع وخمسين وثلاثمائة ، صلى القائد جوهر الجمعة في جامع أحمد بن طولون ، وخطب به عبد السميع بن عمر العباسي بقلنسوة وسبنى وطيلسان دبسى ، وأذن المؤذنون : حي على خير العمل . وهو أول ما أذن به بمصر .

وصلى به عبد السميع الجمعة ، فقرأ سورة الجمعة و « اذا جاءك المنافقون » ، وقنت في الركعة الثانية ، وانحط الى السجود ونسي الركوع . فصاح به علي بن الوليد قاضي عسكر جوهر : بطلت الصلاة أعد ظهرا أربع ركعات .

ثم أذن بحي على خير العمل في سائر مساجد العسكر ، الى حدود مسجد عبد الله .

وأنكر جوهر على عبد السميع أنه لم يقرأ « بسم الله الرحمن الرحيم » في كل سورة ، ولا قرأها في الخطبة . فأنكره جوهر ، ومنعه من ذلك .

ولأربع بقين من جمادى الأولى المذكور ، أذن في الجامع العتيق بحي على خير العمل ، وجهروا في الجامع بالبسملة في الصلاة . فلم يزل الأمر على ذلك طول مدة الخلفاء الفاطميين .

الا أن الحاكم بأمر الله في سنة أربعمائة ، أمر بجمع مؤذني القصر وسائر الجوامع ، وحضر قاضي القضاة مالك بن سعيد الفارقي ، وقرأ أبو علي العباسي سجلا فيه الأمر بترك « حي على خير العمل » في الأذان ، وأن يقال في صلاة الصبح « الصلاة خير من النوم » ، وأن يكون ذلك من مؤذني القصر عند قولهم « السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله » . فامتثل ذلك .

ثم عاد المؤذنون الى قول « حي على خير العمل » في ربيع الآخر سنة احدى وأربعمائة . ومنع في سنة خمس وأربعمائة مؤذني جامع القاهرة ومؤذني القصر من قولهم بعد الأذان « السلام على أمير المؤمنين » ، وأمرهم أن يقولوا بعد الأذان : « الصلاة رحمك الله » .

ولهذا الفعل أصل ... قال الواقدي : كان بلال رضي الله عنه يقف على باب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيقول : « السلام عليك يارسول الله » ، وربما قال : « السلام عليك بأبي أنت وأمي يارسول الله ، حي على الصلاة ، حي على الصلاة ، السلام عليك يارسول الله » .

قال البلاذري ، وقال غيره : كان يقول : « السلام عليك يارسول الله ورحمة الله وبركاته ، حي على الصلاة ، حي على الفلاح ، الصلاة يارسول الله » .

فلما ولي أبو بكر رضي عنه الخلافة ، كان سعد القرظ يقف على بابه فيقول : « السلام عليك يا خليفة رسول الله ورحمة الله وبركاته ، حي على الصلاة ، حي على الفلاح ، الصلاة ياخليفة رسول الله » .

فلما استخلف عمر رضي الله عنه ، كان سعد يقف على بابه فيقول : « السلام عليك ياخليفة

(*) ص ٢٧٠ جـ ٢ ، ط . بولاق .

خليفة رسول الله ورحمة الله ، حى على الصلاة حى على الفلاح ، الصلاة ياخليفة خليفة رسول الله » .

فلما قال عمر رضى الله عنه للناس : أنتم المؤمنون وأنا أميركم . فدعى أمير المؤمنين ... استطالة لقول القائل ياخليفة خليفة رسول الله ، ولمن بعده خليفة خليفة رسول الله ، كان المؤذن يقول : السلام عليك ، أمير المؤمنين ، ورحمة الله وبركاته ، حى على الصلاة ، حى على الفلاح ، الصلاة ياأمير المؤمنين » . ثم ان عمر رضى الله عنه أمر المؤذن فزاد فيها « رحمك الله » . ويقال ان عثمان رضى الله عنه زادها .

وما زال المؤذنون اذا أذنوا سلموا على الخلفاء وأمراء الأعمال ، ثم يقيمون الصلاة بعد السلام . فيخرج الخليفة أو الأمير فيصلى بالناس ... هكذا كان العمل مدة أيام بنى أمية ، ثم مدة خلافة بنى العباس ، أيام كانت الخلفاء وأمراء الأعمال تصلى بالناس .

فلما استولى العجم ، وترك خلفاء بنى العباس الصلاة بالناس ، ترك ذلك كما ترك غيره من سنن الاسلام . ولم يكن أحد من الخلفاء الفاطميين يصلى بالناس الصلوات الخمس فى كل يوم ، فسلم المؤذنون فى أيامهم على الخليفة بعد الأذان للفجر فوق المنارات .

فلما انقضت أيامهم ، وغير السلطان صلاح الدين رسومهم ، لم يتجاسر المؤذنون على السلام عليه ، احتراما للخليفة العباسى ببغداد . فجعلوا عوض السلام على الخليفة السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واستمر ذلك قبل الأذان للفجر فى كل ليلة بمصر والشام والحجاز ، وزيد فيه بأمر المحتسب صلاح الدين عبد الله البرلسى « الصلاة والسلام عليك يارسول الله » . وكان ذلك بعد سنة ستين وسبعمائة ، فاستمر ذلك .

ولما تغلب أبو على بن كتيفات بن الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالى ، على رتبة الوزارة فى أيام الحافظ لدين الله أبى الميمون عبد المجيد بن الأمير أبى القاسم محمد بن المستنصر بالله ، فى سادس عشر ذى القعدة سنة أربع وعشرين وخمسمائة ، وسجن الحافظ وقيده ، واستولى على سائر ما فى القصر من الأموال والذخائر وحملها الى دار الوزارة — وكان اماميا متشددا فى ذلك — خالف ما عليه الدولة من مذهب الاسماعيلية ، وأظهر الدعاء للامام المنتظر ، وأزال من الأذان « حى على خير العمل » ، وقولهم « محمد وعلى خير البشر » ، وأسقط ذكر اسماعيل ابن جعفر الذى تنتسب اليه الاسماعيلية .

فلما قتل فى سادس عشر المحرم سنة ست وعشرين وخمسمائة ، عاد الأمر الى الخليفة الحافظ ، وأعيد الى الأذان ما كان أسقط منه .

وأول من قال فى الأذان بالليل « محمد وعلى خير البشر » الحسين المعروف بأمير كابن شكنبه — ويقال اشكنبه ، وهو اسم أعجمى معناه الكرش — وهو على بن محمد ابن على بن اسماعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن بن على بن أبى طالب ، وكان أول تأذينه بذلك فى أيام سيف الدولة بن حمدان بحلب فى سنة سبع وأربعين وثلثمائة ... قاله الشريف محمد بن أسعد الجوانى النسابة .

ولم يزل الأذان بحلب يزاد فيه « حى على خير العمل ، ومحمد وعلى خير البشر » الى أيام نور الدين محمود . قلما فتح المدرسة الكبيرة ، المعروفة بالحلاوية ، استدعى أبا الحسن على بن الحسن بن محمد البلخى الحنفي اليها ، فجاء ومعه جماعة من الفقهاء ، وألقى بها الدروس . فلما سمع الأذان أمر الفقهاء فصعدوا المنارة وقت الأذان ، وقال لهم : مروهم يؤذنوا الأذان المشروع ، ومن امتنع كبوه على رأسه . فصعدوا وفعلوا ما أمرهم به . واستمر الأمر على ذلك .

وأما مصر فلم يزل الأذان بها على مذهب القوم . الى أن استبد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بسلطنة ديار مصر ، وأزال الدولة الفاطمية في سنة سبع وستين وخمسمائة — وكان ينتحل مذهب الامام الشافعى رضى الله عنه ، وعقيدة الشيخ أبي الحسن الأشعرى رحمه الله — فأبطل من الأذان قول « حى على خير العمل » ، وصار يؤذن فى سائر اقليم مصر والشام بأذان أهل مكة ، وفيه تربيع التكبير وترجيع الشهادتين * .

فاستمر الأمر على ذلك الى أن بنت الأتراك المدارس بديار مصر ، وانتشر مذهب أبى حنيفة رضى الله عنه فى مصر ، فصار يؤذن فى بعض المدارس التى للحنفية بأذان أهل الكوفة ، وتقام الصلاة أيضا على رأيهم ، وما عدا ذلك فعلى ما قلنا . الا أنه فى ليلة الجمعة اذا فرغ المؤذنون من التأذين ، سلموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهو شيء أحدثه محتسب القاهرة صلاح الدين عبد الله بن عبد الله البرلسى بعد سنة ستين وسبعمائة .

فاستمر الى أن كان فى شعبان سنة احدى وتسعين وسبعمائة — ومتولى الأمر بديار مصر الأمير منطاش القائم بدولة الملك الصالح المنصور أمير حاج ، المعروف بحاجى بن شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون — فسمع بعض الفقراء الخلاطين سلام المؤذنين على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ليلة جمعة ، وقد استحسن ذلك طائفة من اخوانه ، فقال لهم : أتحبون أن يكون هذا السلام فى كل أذان ؟ قالوا : نعم . فبات تلك الليلة ، وأصبح متواجدا يزعم أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى منامه ، وأنه أمره أن يذهب الى المحتسب ، ويبلغه عنه أن يأمر المؤذنين بالسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كل أذان .

فمضى الى محتسب القاهرة ، وهو يومئذ نجم الدين محمد الطنبدى — وكان شيخا جهولا ، وبلهانا مهولا ، سيىء السيرة فى الحسبة والقضاء ، متهافتا على الدرهم ولو قاده الى البلاء ، لا يحتشم من أخذ البرطيل والرشوة ، ولا يراعى فى مؤمن الا ولا ذمة ، وقد ضرى على الآثام ، وتجسد من أكل الحرام ... يرى أن العلم ارخاء العذبة وليس الجبة ، ويحسب أن رضا الله سبحانه فى ضرب العباد بالدرة وولاية الحسبة . لم تحمد الناس قط أياديه ، ولا شكرت أبدا مساعيه ، بل جهالاته شائعة ، وقبائح أفعاله ذائعة . أشخص غير مرة الى مجلس المظالم ، وأوقف مع من أوقف للمحاكمة بين يدى السلطان من أجل

(*) ص ٢٧١ ، جـ٢ ، طـ بولاق .

عيوب فوادح ، حقق فيها شكاته عليه القوادح . وما زال في السيرة مذموما ، ومن العامة والخاصة ملوما — وقال له : رسول الله يأمرك أن تتقدم لسائر المؤذنين بأن يزيدوا في كل أذان قولهم « الصلاة والسلام عليك يارسول الله » ، كما يفعل في ليالي الجمع .

فأعجب الجاهل هذا القول ، وجهل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يأمر بعد وفاته الا بما يوافق ما شرعه الله على لسانه في حياته . وقد نهى الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز عن الزيادة فيما شرعه حيث يقول : « أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله » . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اياكم ومحدثات الأمور » ... فأمر بذلك في شعبان من السنة المذكورة .

وتمت هذه البدعة ، واستمرت الى يومنا هذا في جميع ديار مصر وبلاد الشام ، وصارت العامة وأهل الجهالة ترى أن ذلك من جملة الأذان الذي لا يحل تركه ، وأدى ذلك الى أن زاد بعض أهل الالحاد في الأذان ببعض القرى السلام بعد الأذان على شخص من المعتقدين الذين ماتوا . فلا حول ولا قوة الا بالله ، وانا لله وانا اليه راجعون .

وأما التسبيح في الليل على المآذن ، فانه لم يكن من فعل سلف الأمة . وأول ما عرف من ذلك أن موسى بن عمران صلوات الله عليه ، لما كان ببني اسرائيل في التيه بعد غرق فرعون وقومه ، اتخذ بوقين من فضة مع رجلين من بني اسرائيل ... ينفخان فيهما وقت الرحيل ، ووقت النزول ، وفي أيام الأعياد ، وعند ثلث الليل الأخير من كل ليلة . فتقوم عند ذلك طائفة من بني لاوى — سبط موسى عليه السلام — ويقولون نشيدا منزلا بالوحي ، فيه تخويف وتحذير وتعظيم لله تعالى وتنزيه له تعالى ، الى وقت طلوع الفجر .

واستمر الحال على هذا كل ليلة مدة حياة موسى عليه السلام ، وبعده أيام يوشع بن نون ومن قام في بني اسرائيل من القضاة . الى أن قام بأمرهم داود عليه السلام ، وشرع في عمارة بيت المقدس ، فرتب في كل ليلة عدة من بني لاوى يقومون عند ثلث الليل الآخر : فمنهم من يضرب بالآلات ، كالعود والسنطير والبربط والدف والمزمار ، ونحو ذلك . ومنهم من يرفع عقيرته بالنشائد المنزلة بالوحي على نبي الله موسى عليه السلام ، والنشائد المنزلة بالوحي على داود عليه السلام .

ويقال ان عدد بني لاوى هذا كان ثمانية وثلاثين ألف رجل ... قد ذكر تفصيلهم في كتاب الزبور . فاذا قام هؤلاء ببيت المقدس ، قام في كل محلة من محال بيت المقدس رجال يرفعون أصواتهم بذكر الله سبحانه من غير آلات — فان الآلات كانت مما يختص ببيت المقدس فقط ، وقد نهوا عن ضربها في غير البيت — فيتسامع من قرية بيت المقدس ، فيقوم في كل قرية رجال يرفعون أصواتهم بذكر الله تعالى حتى يعم الصوت بالذكر جميع قرى بني اسرائيل ومدنهم .

وما زال الأمر على ذلك في كل ليلة الى أن خرب بخت نصر بيت المقدس ، وجلا بني اسرائيل الى بابل ، فبطل هذا العمل وغيره من بلاد بني اسرائيل مدة جلائهم في بابل سبعين سنة . فلما عاد بنو اسرائيل من بابل ، وعمروا

البيت العمارة الثانية ، أقاموا شرائعهم ، وعاد قيام بنى لاوى بالبيت فى الليل ، وقيام أهل محال القدس وأهل القرى والمدن على ما كان العمل * عليه أيام عمارة البيت الأولى .

واستمر ذلك الى أن خرب القدس بعد قتل نبى الله يحيى بن زكريا ، وقيام اليهود على روح الله ورسوله عيسى بن مريم صلوات الله عليهم علـى يد طيطش ، فبطلت شرائع بنى اسرائيل من حينئذ ، وبطل هذا القيام فيمـا بطل من بلاد بنى اسرائيل .

وأما فى الملة الاسلامية ، فكان ابتداء هذا العمل بمصر وسببه أن مسلمة بن مخلد أمير مصر بنى منارا لجامع عمرو بن العاص واعتكف فيه ، فسمع أصوات النواقيس عالية ، فشكا ذلك الى شرحبيل بن عامر عريف المؤذنين . فقال : انى أمدد الأذان من نصف الليل الى قرب الفجر ، فانههم أيها الأمير أن ينقسـوا اذا أذنت . فنهاهم مسلمة عن ضرب النواقيس وقت الأذان ، ومدد شرحبيل ومطط أكثر الليل .

ثم ان الأمير أبا العبـاس أحمد بن طولون كان قد جعل ، فى حجرة تقرب منه ، رجالا تعرف بالمكبرين عدتهم اثنـا عشر رجلا ... يبيت فى هذه الحجرة كل ليلة أربعة يجعلون الليل بينهم عقبا . فكانوا يكبرون ويسبحون ويحمدون الله سبحانه فى كل وقت ، ويقرأون القرآن بألحان ، ويتوسلون ويقولون قصائد زهدية ، ويؤذنون فى أوقات الأذان . وجعل لهم أرزاقا واسعة تجرى عليهم .

فلما مات أحمد بن طولون ، وقام من بعده ابنه أبو الجيش خمارويه ، أقرهم بحـالهم ، وأجراهم على رسمهم مع أبيه . ومن حينئـذ اتخذ الناس قيـام المؤذنين فى الليـل على المآذن ، وصار يعرف ذلك بالتسبيح .

فلما ولى السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب سلطنة مصر ، وولى القضاء صدر الدين عبد الملك بن درباس الهدبانى المارانى الشافعى — كان من رأيه ورأى السلطان اعتقاد مذهب الشيخ أبى الحسن الأشعرى فى الأصـول . فحمل الناس الى اليوم على اعتقاده حتى يكفر من خالفه ، وتقدم الأمر الى المؤذنين أن يعلنوا — فى وقت التسبيح على المآذن بالليـل — بذكر العقيدة التى تعرف بالمرشـدة . فواظب المؤذنون على ذكرها فى كل ليلة بسائر جوامع مصر والقاهرة الى وقتنا هذا .

ومما أحدث أيضا : التذكير فى يوم الجمعة من أثناء النهار بأنواع من الذكر على المآذن ، ليتهيأ الناس لصلاة الجمعة . وكان ذلك بعد السبعمائة من سنى الهجرة ... قال ابن كثير رحمه الله : فى يوم الجمعة سادس ربيـع الآخر سنة أربع وأربعين وسبعمائة ، رسم بأن يذكر بالصلاة يوم الجمعـة فى سـائر مآذن دمشق ، كما يذكر فى مآذن الجامع الأموى ، ففعل ذلك .

الجامع الأزهر

هذا الجامع أول مسجد أسس بالقـاهرة . والذى أنشأه القائد جوهر الكاتب الصقلى ، مولى الامام أبى تميم معـد الخليفـة أمير المؤمنين المعز لدين الله ، لما اختط القاهرة .

(*) ص٢٧٢ جـ٢ ، ط. بولاق .

وشرع فى بناء هذا الجامع فى يوم السبت لست بقين من جمادى الأولى سنة تسع وخمسين وثلثمائة ، وكمل بناؤه لتسع خلون من شهر رمضان سنة احدى وستين وثلثمائة ، وجمع فيه .

وكتب بدائر القبة التى فى الرواق الأول — وهى على يمنة المحراب والمنبر — مانصه بعد البسملة :

« مما أمر ببنائه عبد الله ووليه أبو تميم معد الامام المعز لدين الله أمير المؤمنين ، صلوات الله عليه وعلى آبائه وأبنائه الأكرمين ، على يد عبده جوهر الكاتب الصقلى ، وذلك فى سنة ستين وثلثمائة » . وأول جمعة جمعت فيه فى شهر رمضان لسبع خلون منه سنة احدى وستين وثلثمائة .

ثم ان العزيز بالله أبا منصور نزار بن المعز لدين الله جدد فيه أشياء . وفى سنة ثمان وسبعين وثلثمائة ، سأل الوزير أبو الفرج يعقوب بن يوسف بن كلس ، الخليفة العزيز بالله ، فى صلة رزق جماعة من الفقهاء . فأطلق لهم ما يكفى كل واحد منهم من الرزق الناض ، وأمر لهم بشراء دار وبنائها ، فبنيت بجانب الجامع الأزهر . فاذا كان يوم الجمعة حضروا الى الجامع ، وتحلقوا فيه بعد الصلاة الى أن تصلى العصر . وكان لهم أيضا من مال الوزير صلة فى كل سنة ، وكانت عدتهم خمسة وثلاثين رجلا . وخلع عليهم العزيز يوم عيد الفطر ، وحملهم على بغلات .

ويقال ان بهذا الجامع طلسما . فلا يسكنه عصفور ولا يفرخ به ، وكذا سائر الطيور من الحمام واليمام وغيره . وهو صورة ثلاثة طيور ، منقوشة كل صورة على رأس عمود ، فمنها صورتان فى مقدم الجامع بالرواق الخامس : منهما صورة فى الجهة الغربية فى العمود ، وصورة فى أحد العمودين اللذين على يسار من استقبل سدة المؤذنين . والصورة الأخرى فى الصحن فى الأعمدة القبلية مما يلى الشرقية .

ثم ان الحاكم بأمر الله جدده ، ووقف على الجامع الأزهر وجامع المقس والجامع الحاكمى ودار العلم بالقاهرة رباعا بمصر ، وضمن ذلك كتابا نسخته :

« هذا كتاب أشهد قاضى القضاة مالك بن سعيد بن مالك الفارقى ، على جميع ما نسب اليه مما ذكر ووصف فيه ، من حضر من الشهود فى مجلس حكمه وقضائه بفسطاط مصر فى شهر رمضان سنة أربعمائة ...

« أشهدهم — وهو يومئذ قاضى عبد الله ووليه المنصور أبى على الامام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين ابن الامام العزيز بالله ، صلوات الله عليهما * ، على القاهرة المعزية ومصر والاسكندرية والحرمين حرسهما الله ، وأجناد الشام والرقة والرحبة ونواحى المغرب وسائر أعمالهن ، وما فتحه الله ويفتحه لأمير المؤمنين من بلاد الشرق والغرب — بمحضر رجل متكلم ...

« أنه صحت عنده معرفة المواضع الكاملة والحصص الشائعة ، التى يذكر جميع ذلك ويحدد فى هذا الكتاب ، وأنها كانت من أملاك الحاكم الى أن حبسها على الجامع الأزهر بالقاهرة المحروسة ، والجامع براشدة والجامع

(*) ص٢٧٣ جـ٢ ، ط . بولاق .

بالمقس اللذين أمر بانشائهما وتأسيس بنائهما ، وعلى دار الحكمة بالقاهرة المحروسة التى وقفها والكتب التى فيها قبل تاريخ هذا الكتاب ...

« منها ما يخص الجامع الأزهر والجامع براشدة ودار الحكمة بالقاهرة المحروسة ، مشاعا جميع ذلك غير مقسوم . ومنها ما يخص الجامع بالمقس على شرائط يجرى ذكرها ...

« فمن ذلك ما تصدق به على الجامع الأزهر بالقاهرة المحروسة ، والجامع براشدة ودار الحكمة بالقاهرة المحروسة : جميع الدار المعروفة بدار الضرب ، وجميع القيسارية المعروفة بقيسارية الصوف ، وجميع الدار المعروفة بدار الخرق الجديدة ، الذى كله بفسطاط مصر ...

« ومن ذلك ماتصدق به على جامع المقس : جميع أربعة الحوانيت والمنازل التى علوها والمخزنين ، الذى ذلك كله بفسطاط مصر بالراية فى جانب الغرب من الدار المعروفة كانت بدار الخرق . وهاتان الداران المعروفتان بدار الخرق فى الموضع المعروف بحمام الفار ...

« ومن ذلك : جميع الحصص الشائعة من أربعة الحوانيت المتلاصقة التى بفسطاط مصر بالراية أيضا ، بالموضع المعروف بحمام الفار ، وتعرف هذه الحوانيت بحصص القيسى ... بحدود ذلك كله وأرضه وبنائه وسفله وعلوه وغرفه ومرتفقاته وحوانيته وساحاته وطرقه وممراته ومجارى مياهه ، وكل حق هو له داخل فيه وخارج عنه ...

« وجعل ذلك كله صدقة موقوفة محرمة محبسة بتة بتلة ، لا يجوز بيعها ولا هبتها ولا تمليكها ، باقية على شروطها جارية على سبلها المعروفة فى هذا الكتاب . لا يوهنها تقادم السنين ، ولا تغير بحدوث حدث ، ولا يستثنى فيها ولا يتأول ، ولا يستفتى بتجدد تحبيسها مدى الأوقات ، وتستمر شروطها على اختلاف الحالات حتى يرث الله الأرض والسموات ...

« على أن يؤجر ذلك فى كل عصر من ينتهى اليه ولايتها ، ويرجع اليه أمرها — بعد مراقبة الله واجتلاب ما يوفر منفعتها من اشهارها — عند ذوى الرغبة فى اجارة أمثالها . فيبتدأ من ذلك بعمارة ذلك ، على حسب المصلحة وبقاء العين ومرمته ، من غير اجحاف بما حبس ذلك عليه . وما فضل كان مقسوما على ستين سهما ...

« فمن ذلك للجامع الأزهر بالقاهرة المحروسة ، المذكور فى هذا الاشهاد ، الخمس والثمن وتصف السدس ونصف التسع ... يصرف ذلك فيما فيه عمارة له ومصلحة . وهو من العين المعزى الوازن ألف دينار واحدة وسبعة وستون دينارا ونصف دينار وثمن دينار ...

« من ذلك للخطيب بهذا الجامع أربعة وثمانون دينارا . ومن ذلك لثمن ألف ذراع حصر عبدانية تكون عدة له بحيث لا ينقطع من حصره عند الحاجة الى ذلك ، ومن ذلك لثمن ثلاثة عشر ألف ذراع حصر مظفورة لكسوة هذا الجامع فى كل سنة عند الحاجة اليها ، مائة دينار واحدة وثمانية دنانير . ومن ذلك لثمن ثلاثة قناطير زجاج وفراخها اثنا عشر دينارا ونصف وربع دينار . ومن ذلك

لثمن عود هندى للبخور فى شهر رمضان وأيام الجمع ، مع ثمن الكافور والمسك وأجرة الصانع ، خمسة عشر دينارا . ومن ذلك لنصف قنطار شمع بالفلفلى سبعة دنانير ...

« ومن ذلك لكنس هذا الجامع ونقل التراب ، وخياطة الحصر وثمن الخيط وأجرة الخياطة ، خمسة دنانير . ومن ذلك لثمن مشاقة لسرج القناديل ، عن خمسة وعشرين رطلا بالرطل الفلفلى ، دينار واحد . ومن ذلك لثمن فحم للبخور ، عن قنطار واحد بالفلفلى ، نصف دينار . ومن ذلك لثمن اردبين ملحا للقناديل ربع دينار . ومن ذلك ما قدر لمؤنة النحاس والسلاسل والتنانير والقباب التى فوق سطح الجامع أربعة وعشرون دينارا .

« ومن ذلك لثمن سلب ليف وأربعة أحبل وست دلاء أدم نصف دينار . ومن ذلك لثمن قنطارين خرقا لمسح القناديل نصف دينار . ومن ذلك لثمن عشر قفاف للخدمة وعشرة أرطال قنب لتعليق القناديل ، ولثمن مائتى مكنسة لكنس هذا الجامع ، دينار واحد وربع دينار . ومن ذلك لثمن أزيار فخار تنصب على المصنع ويصب فيها الماء ، مع أجرة حملها ، ثلاثة دنانير . ومن ذلك لثمن زيت وقود هذا الجامع ، راتب السنة ألف رطل ومائتا رطل مع أجرة الحمل ، سبعة وثلاثون دينارا ونصف ...

« ومن ذلك لأرزاق المصلين (يعنى الأئمة) وهم ثلاثة ، وأربعة قومة وخمسة عشر مؤذنا ، خمسمائة دينار وستة وخمسون دينارا ونصف : منها للمصلين لكل رجل منهم ديناران وثلثا دينار وثمن دينار فى كل شهر من شهور السنة ، والمؤذنون والقومة لكل رجل منهم ديناران فى كل شهر . ومن ذلك للمشرف على هذا الجامع فى كل سنة أربعة وعشرون دينارا . ومن ذلك لكنس المصنع بهذا الجامع ، ونقل ما يخرج منه من الطين والوسخ دينار واحد * ومن ذلك لمرمة ما يحتاج اليه فى هذا الجامع فى سطحه وأترابه وحياطته وغير ذلك مما قدر لكل سنة ستون دينارا ...

« ومن ذلك لثمن مائة وثمانين حمل تبن ونصف حمل جارية ، لعلف رأسى بقر للمصنع الذى لهذا الجامع ، ثمانية دنانير ونصف وثلث دينار . ومن ذلك للتبن لمخزن يوضع فيه بالقاهرة أربعة دنانير ...

« ومن ذلك لثمن فدانين قرط ، لتربيع رأسى البقر المذكورين فى السنة ، سبعة دنانير . ومن ذلك لأجرة متولى العلف ، وأجرة السقاء والحبال والقواديس وما يجرى مجرى ذلك ، خمسة عشر دينارا ونصف . ومن ذلك لأجرة قيم الميضأة ان عملت بهذا الجامع اثنا عشر دينارا » .

والى هنا انقضى حديث الجامع الأزهر ، وأخذ فى ذكر جامع راشدة ودار العلم وجامع المقس . ثم ذكر أن تنانير الفضة ثلاثة تنانير وتسعة وثلاثون قنديلا فضة : فللجامع الأزهر تنوران وسبعة وعشرون قنديلا ، ومنها لجامع راشدة تنور واثنا عشر قنديلا . وشرط أن تعلق فى شهر رمضان ، وتعاد الى مكان جرت عادتها أن تحفظ به .

وشرط شروطا كثيرة فى الأوقاف : منها أنه اذا فضل شىء واجتمع يشترى به ملك ،

(*) ص٢٧٤ جـ٢ ، ط. بولاق م

فان عاز شيئا واستهدم ولم يف الريع بعمارته بيع وعمر به ، وأشياء كثيرة . وحبس فيه أيضا عدة آدر وقياسر لا فائدة فى ذكرها ، فانها مما خربت بمصر .

قال ابن عبد الظاهر عن هذا الكتاب : ورأيت منه نسخة ، وانتقلت الى قاضى القضاة تقى الدين بن رزين . وكان بصدر هذا الجامع فى محرابه منطقة فضة ، كما كان فى محراب جامع عمرو بن العاص بمصر ... قلع ذلك صلاح الدين يوسف بن أيوب فى حادى عشر ربيع الأول سنة تسع وستين وخمسمائة ، لأنه كان فيها انتهاء خلفاء الفاطميين ، فجاء وزنها خمسة آلاف درهم نقرة ، وقلع أيضا المناطق من بقية الجوامع .

ثم ان المستنصر جدد هذا الجامع أيضا . وجدده الحافظ لدين الله ، وأنشأ فيه مقصورة لطيفة تجاور الباب الغربى الذى فى مقدم الجامع بداخل الرواقات — عرفت بمقصورة فاطمة من أجل أن فاطمة الزهراء رضى الله تعالى عنها رؤيت بها فى المنام — ثم انه جدد فى أيام الملك الظاهر بيبرس البندقدارى .

قال القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر فى كتاب « سيرة الملك الظاهر » : لما كان يوم الجمعة الثامن عشر من ربيع الأول سنة خمس وستين وستمائة ، أقيمت الجمعة بالجامع الأزهر بالقاهرة . وسبب ذلك أن الأمير عز الدين أيدمر الحلى كان جار هذا الجامع من مدة سنين ، فرعى — وفقه الله — حرمة الجار ، ورأى أن يكون كما هو جاره فى دار الدنيا أنه غدا يكون ثوابه جاره فى تلك الدار ، ورسم بالنظر فى أمره ، وانتزع له أشياء مغصوبة كان شىء منها فى أيدى جماعة وحاط أموره حتى جمع له شيئا صالحا .

وجرى الحديث فى ذلك . فتبرع الأمير عز الدين له بجملة مستكثرة من المال الجزيل ، وأطلق له من السلطان جملة من المال ، وشرع فى عمارته . فعمر الواهى من أركانه وجدرانه وبيضه وأصلح سقوفه ، وبلطه وفرشه وكساه حتى عاد حرما فى وسط المدينة ، واستجد به مقصورة حسنة ، وأثر فيه آثارا صالحة يثيبه الله عليها .

وعمل الأمير بيلبك الخازندار فيه مقصورة كبيرة ، رتب فيها جماعة من الفقهاء لقراءة الفقه على مذهب الامام الشافعى رحمه الله ، ورتب فى هذه المقصورة محدثا يسمع الحديث النبوى والرقائق ، ووقف على ذلك الأوقاف الدارة ، ورتب به سبعة لقراءة القرآن ، ورتب به مدرسا ... أثابه الله على ذلك .

ولما تكمل تجديده تحدث فى اقامة جمعة فيه . فنودى فى المدينة بذلك ، واستخدم له الفقيه زين الدين خطيبا ، وأقيمت الجمعة فيه فى اليوم المذكور . وحضر الأتابك فارس الدين ، والصاحب بهاء الدين على بن حنا ، وولده الصاحب فخر الدين محمد ، وجماعة من الأمراء والكبراء وأصناف العالم على اختلافهم ، وكان يوم جمعة مشهودا .

ولما فرغ من الجمعة ، جلس الأمير عز الدين الحلى والأتابك والصاحب ، وقرىء القرآن ، ودعى للسلطان . وقام الأمير عز الدين ودخل الى داره ، ودخل معه الأمراء ، فقدم لهم كل ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين ، وانفصلوا .

وكان قد جرى الحدث فى أمر جواز الجمعة فى الجامع ، وما ورد فيه من أقاويل العلماء ، وكتب فيها فتيا أخذ فيها خطوط العلماء بجواز الجمعة فى هذا الجامع واقامتها ، فكتب جماعة خطوطهم فيها . وأقيمت صلاة الجمعة به واستمرت ، ووجد الناس به رفقا وراحة لقربه من الحارات البعيدة من الجامع الحاكمى .

قال : وكان سقف هذا الجامع قد بنى قصيرا ، فزيد فيه بعد ذلك ذراعا . واستمرت الخطبة فيه حتى بنى الجامع الحاكمى فانتقلت الخطبة اليه . فان الخليفة كان يخطب فيه خطبة ، وفى الجامع الأزهر خطبة ، وفى جامع ابن طولون خطبة ، وفى جامع مصر خطبة .

وانقطعت الخطبة من الجامع الأزهر لما استبد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بالسلطنة . فانه قلد وظيفة القضاء لقاضى القضاة صدر الدين عبد الملك بن درباس ، فعمل بمقتضى مذهبه — وهو امتناع اقامة الخطبتين للجمعة فى بلد واحد ، كما هو مذهب الامام الشافعى — فأبطل الخطبة من الجامع الأزهر ، وأقر الخطبة * بالجامع الحاكمى من أجل أنه أوسع .

فلم يزل الجامع الأزهر معطلا من اقامة الجمعة فيه مائة عام ، من حين استولى السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، الى أن أعيدت الخطبة فى أيام الملك الظاهر بيبرس كما تقدم ذكره .

ثم لما كانت الزلزلة بديار مصر ، فى ذى الحجة سنة اثنتين وسبعمائة ، سقط الجامع الأزهر والجامع الحاكمى وجامع مصر وغيره ، فتقاسم أمراء الدولة عمارة الجوامع ، فتولى الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير عمارة الجامع الحاكمى ، وتولى الأمير سلار عمارة الجامع الأزهر ، وتولى الأمير سيف الدين بكتمر الجوكندار عمارة جامع الصالح . فجددوا مبانيها ، وأعادوا ما تهدم منها .

ثم جددت عمارة الجامع الأزهر على يد القاضى نجم الدين محمد بن حسين بن على الأسعردى ، محتسب القاهرة ، فى سنة خمس وعشرين وسبعمائة ...

ثم جددت عمارته فى سنة احدى وستين وسبعمائة عندما سكن الأمير الطواشى سعد الدين بشير الجامدار الناصرى فى دار الأمير فخر الدين أبان الزاهدى الصالحى النجمى ، بخط الأبارين بجوار الجامع الأزهر ، بعدما هدمها وعمرها داره التى تعرف هناك الى اليوم بدار بشير الجامدار .

فأحب لقربه من الجامع أن يؤثر فيه أثرا صالحا ، فاستأذن السلطان الملك الناصر حسن ابن محمد بن قلاوون فى عمارة الجامع — وكان أثيرا عنده خصيصا به — فأذن له فى ذلك .

وكان قد استجد بالجامع عدة مقاصير ، ووضعت فيه صناديق وخزائن حتى ضيقته . فأخرج الخزائن والصناديق ، ونزع تلك المقاصير ، وتتبع جدرانه وسقوفه بالاصلاح حتى عادت كأنها جديدة ، وبيض الجامع كله

(*) ص٢٧٥ جـ٢ ، ط. بولاق .

وبلطه ، ومنع الناس من المرور فيه ، ورتب فيه مصحفا ، وجعل له قارئا .

وأنشأ على باب الجامع القبلي حانوتا لتسبيل الماء العذب في كل يوم ، وعمل فوقه مكتب سبيل لاقراء أيتام المسلمين كتاب الله العزيز .

ورتب للفقراء المجاورين طعاما يطبخ كل يوم ، وأنزل اليه قدورا من نحاس جعلها فيه . ورتب فيه درسا للفقهاء من الحنفية ، يجلس مدرسهم لالقاء الفقه في المحراب الكبير ، ووقف على ذلك أوقافا جليلة باقية الى يومنا هذا . ومؤذنو الجامع يدعون في كل جمعة ، وبعد كل صلاة ، للسلطان حسن الى هذا الوقت الذي نحن فيه .

وفي سنة أربع وثمانين وسبعمائة ، ولي الأمير الطواشي بهادر ، المقدم على المماليك السلطانية ، نظر الجامع الأزهر . فتنجز مرسوم السلطان الملك الظاهر برقوق : بأن من مات من مجاوري الجامع الأزهر عن غير وارث شرعي وترك موجودا ، فانه يأخذه المجاورون بالجامع . ونقش ذلك على حجر عند الباب الكبير البحري .

وفي سنة ثمانمائة هدمت منارة الجامع ، وكانت قصيرة ، وعمرت أطول منها ، فبلغت النفقة عليها من مال السلطان خمسة عشر ألف درهم نقرة ، وكملت في ربيع الآخر من السنة المذكورة . فعلقت القناديل فيها ليلة الجمعة من هذا الشهر ، وأوقدت حتى اشتعل الضوء من أعلاها الى أسفلها . واجتمع القراء والوعاظ بالجامع ، وتلوا ختمة شريفة ، ودعوا للسلطان .

فلم تزل هذه المئذنة الى شوال سنة سبع عشرة وثمانمائة . فهدمت لميل ظهر فيها ، وعمل بدلها منارة من حجر على باب الجامع البحري بعدما هدم الباب وأعيد بناؤه بالحجر ، وركبت المنارة فوق عقده ، وأخذ الحجر لها من مدرسة الملك الأشرف خليل التي كانت تجاه قلعة الجبل .

وهدمها الملك الناصر فرج بن برقوق ، وقام بعمارة ذلك الأمير تاج الدين التاج الشوبكي ، والي القاهرة ومحتسبها ، الى أن تمت في جمادى الآخرة سنة ثمان عشرة وثمانمائة . فلم تقم غير قليل ، ومالت حتى كادت تسقط ، فهدمت في صفر سنة سبع وعشرين وأعيدت .

وفي شوال منها ابتدىء بعمل الصهريج الذي بوسط الجامع . فوجد هناك آثار فسقية ماء ، ووجد أيضا رمم أموات . وتم بناؤه في ربيع الأول ، وعمل بأعلاه مكان مرتفع له قبة يسبل فيه الماء ، وغرس بصحن الجامع أربع شجرات ، فلم تفلح وماتت .

ولم يكن لهذا الجامع ميضأة عندما بني ، ثم عملت ميضأته حيث المدرسة الأقبغاوية ، الى أن بنى الأمير أقبغا عبد الواحد مدرسته المعروفة بالمدرسة الأقبغاوية هناك . وأما هذه الميضأة التي بالجامع الآن ، فان الأمير بدر الدين جنكل بن البابا بناها ، ثم زيد فيها بعد سنة عشر وثمانمائة ميضأة المدرسة الأقبغاوية .

وفي سنة ثمان عشرة وثمانمائة ، ولي نظر هذا الجامع الأمير سودوب القاضي حاجب الحجاب ، فجرت في أيام نظره حوادث لم يتفق مثلها . وذلك أنه لم يزل في هذا الجامع منذ بني عدة من الفقراء يلازمون الاقامة فيه ،

وبلغت عدتهم فى هذه الأيام سبعمائة وخمسين رجلا ، ما بين عجم وزيالعة ومن أهل ريف مصر ومغاربة ، ولكل طائفة رواق يعرف بهم .

فلا يزال الجامع عامرا بتلاوة القرآن ودراسته وتلقينه ، والاشتغال بأنواع العلوم الفقه والحديث والتفسير والنحو ، ومجالس الوعظ وحلق الذكر . فيجد الانسان اذا دخل هذا الجامع من الانس بالله ، والارتياح وترويح النفس ، ما لا يجده فى غيره ، وصار أرباب الأموال يقصدون * هذا الجامع بأنواع البر من الذهب والفضة والفلوس اعانة للمجاورين فيه على عبادة الله تعالى ، وكل قليل تحمل اليهم أنواع الأطعمة والخبز والحلاوات لا سيما فى المواسم .

فأمر فى جمادى الأولى من هذه السنة باخراج المجاورين من الجامع ، ومنعهم من الاقامة فيه ، واخراج ما كان لهم فيه من صناديق وخزائن وكراسى المصاحف ... زعما منه أن هذا العمل مما يثاب عليه ، وما كان الا من أعظم الذنوب وأكثرها ضررا . فانه حل بالفقراء بلاء كبير من تشتت شملهم وتعذر الأماكن عليهم ، فساروا فى القرى ، وتبذلوا بعد الصيانة ، وفقد من الجامع أكثر ما كان فيه من تلاوة القرآن ودراسة العلم وذكر الله .

ثم لم يرضه ذلك حتى زاد فى التعدى ، وأشاع أن أناسا يبيتون بالجامع ويفعلون فيه منكرات . وكانت العادة قد جرت بمبيت كثير من الناس فى الجامع ما بين تاجر وفقيه وجندى وغيرهم ، منهم من يقصد بمبيته البركة ، ومنهم من لا يجد مكانا يأويه ، ومنهم من يستروح بمبيته هناك ... خصوصا فى ليالى الصيف وليالى شهر رمضان ، فانه يمتلىء صحنه وأكثر رواقاته .

فلما كانت ليلة الأحد الحادى عشر من جمادى الآخرة ، طرق الأمير سودوب الجامع بعد العشاء الآخرة والوقت صيف ، وقبض على جماعة وضربهم فى الجامع ، وكان قد جاء معه من الأعوان والغلمان وغوغاء العامة ومن يريد النهب جماعة ، فحل بمن كان فى الجامع أنواع البلاء ، ووقع فيهم النهب ، فأخذت فرشهم وعمائمهم ، وفتشت أوساطهم ، وسلبوا ما كان مربوطا عليها من ذهب وفضة .

وعمل ثوبا أسود للمنبر وعلمين مزوقين ، بلغت النفقة على ذلك خمسة عشر ألف درهم على ما بلغنى . فعاجل الله الأمير سودوب ، وقبض عليه السلطان فى شهر رمضان ، وسجنه بدمشق .

جامع الحاكم

هذا الجامع بنى خارج باب الفتوح ، أحد أبواب القاهرة ، وأول من أسسه أمير المؤمنين العزيز بالله نزار بن المعز لدين الله معد ، وخطب فيه وصلى بالناس الجمعة ، ثم أكمله ابنه الحاكم بأمر الله . فلما وسع أمير الجيوش بدر الجمالى القاهرة ، وجعل أبوابها حيث هى اليوم ، صار جامع الحاكم داخل القاهرة ، وكان يعرف أولا بجامع الخطبة ، ويعرف اليوم بجامع الحاكم ، ويقال له الجامع الأنور .

(*) ص٢٧٦ جـ٢ ، ط.بولاق .

قال الأمير مختار عز الملك محمد بن عبيد الله بن أحمد المسيحى فى « تاريخ مصر » . وفيه (يعنى شهر رمضان سنة ثمانين وثلثمائة) خط أساس الجامع الجديد بالقاهرة مما يلى باب الفتوح من خارجه ، وبدىء بالبناء فيه وتحلق فيه الفقهاء الذين يتحلقون فى جامع القاهرة (يعنى الجامع الأزهر) ، وخطب فيه العزيز بالله .

وقال فى حوادث سنة احدى وثمانين وثلثمائة : لأربع خلون من شهر رمضان ، صلى العزيز بالله فى جامعه صلاة الجمعه وخطب . وكان فى مسيره بين يديه أكثر من ثلاثة آلاف ، وعليه طيلسان ، وبيده القضيب ، وفى رجله الحذاء . وركب لصلاة الجمعة فى رمضان سنة ثلاث وثمانين وثلثمائة الى جامعه ومعه ابنه منصور ، فجعلت المظلة على منصور ، وسار العزيز بغير مظلة

وقال فى حوادث سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة : وأمر الحاكم بأمر الله أن يتم بناء الجامع الذى كان الوزير يعقوب بن كلس بدأ فى بنيانه عند باب الفتوح ، فقدر للنفقة عليه أربعون ألف دينار ، فابتدىء فى العمل فيه . وفى صفر سنة احدى وأربعمائة زيد فى منارة جامع باب الفتوح ، وعمل لها أركان طول كل ركن مائة ذراع .

وفى سنة ثلاث وأربعمائة ، أمر الحاكم بأمر الله بعمل تقدير ما يحتاج اليه جامع باب الفتوح من الحصر والقناديل والسلاسل ، فكان تكسير ما ذرع للحصر ستة وثلاثين ألف ذراع ، فبلغت النفقة على ذلك خمسة آلاف دينار .

قال : وتم بناء الجامع الجديد بباب الفتوح وعلق على سائر أبوابه ستور ديبيقيه عملت له ، علق فيه تنانير فضه عدتها أربع . وكثير من قناديل فضة ، وفرش جميعه بالحصر التى عملت له ، ونصب فيه المنبر ، وتكامل فرشه وتعليقه

وأذن فى ليلة الجمعة سادس شهر رمضان سنة ثلاث وأربعمائة لمن بات فى الجامع الأزهر أن يمضوا اليه . فمضوا ، وصار الناس طول ليلتهم يمشون من كل واحد من الجامعين الى الآخر — بغير مانع لهم ، ولا اعتراض من أحد من عسس القصر ولا أصحاب الطوف — الى الصبح وصلى فيه الحاكم بأمر الله بالناس صلاة الجمعة ، وهى أول صلاة أقيمت فيه بعد فراغه .

وفى ذى القعدة سنة أربع وأربعمائة ، حبس الحاكم عدة قياسر وأملاك على الجامع الحاكمى بباب الفتوح .

قال ابن عبد الظاهر : وعلى باب الجامع الحاكمى مكتوب « انه أمر بعمله الحاكم أبو على المنصور فى سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة » وعلى منبره مكتوب « انه أمر بعمل هذا المنبر للجامع الحاكمى المنشأ بظاهر باب الفتوح فى سنة ثلاث وأربعمائة » .

ورأيت فى سيرة الحاكم « وفى يوم الجمعة أقيمت الجمعة فى الجامع الذى كان الوزير أنشأه بباب الفتوح » .

ورأيت فى سيرة الوزير المذكور « فى يوم الأحد عاشر * رمضان سنة تسع وسبعين

(*) ص٢٧٧ جـ٢ ، ط. بولاق .

وثلثمائة ، خط أساس الجامع الجديد بالقاهرة ، خارج الطابية مما يلى باب الفتوح » .

قال : وكان هذا الجامع خارج القاهرة ، فجدد بعد ذلك باب الفتوح . وعلى البدنة التى تجاور باب الفتوح وبعض البرج مكتوب « ان ذلك بنى سنة ثلاثين وأربعمائة فى زمن المستنصر بالله ووزارة أمير الجيوش » . فيكون بينهما سبع وثمانون سنة .

قال : والفسقية وسط الجامع بناها الصاحب عبد الله بن على بن شكر ، وأجرى الماء اليها ، وأزالها القاضى تاج الدين بن شكر وهو قاضى القضاة فى سنة ستين وستمائة . والزيادة التى الى جانبه قيل انها بناء ولده الظاهر على ولم يكملها . وكان قد حبس فيها الفرنج ، فعملوا فيها كنائس هدمها الملك الناصر صلاح الدين ، وكان قد تغلب عليها ، وبنيت اصطبلات .

وبلغنى أنها كانت فى الأيام المتقدمة قد جعلت أهراء للغلال . فلما كان فى الأيام الصالحية ، ووزارة معين الدين حسن بن شيخ الشيوخ للملك الصالح أيوب ولد الكامل ، ثبت عند الحاكم أنها من الجامع ، وأن بها محرابا ، فانتزعت وأخرج الخيل منها ، وبنى فيها ما هو الآن فى الأيام المعزية على يد الركن الصيرفى ، ولم يسقف .

ثم جدد هذا الجامع فى سنة ثلاث وسبعمائة وذلك أنه لما كان يوم الخميس ثالث عشرى ذى الحجة سنة اثنتين وسبعمائة ، تزلزلت أرض مصر والقاهرة وأعمالهما ، ورجف كل ما عليهما واهتز ، وسمع للحيطان قعقعة وللسقوف قرقعة ، ومارت الأرض بما عليها وخرجت عن مكانها .

وتخيل الناس أن السماء قد انطبقت على الأرض ، فهربوا من أماكنهم ، وخرجوا عن مساكنهم ، وبرزت النساء حاسرات ، وكثر الصراخ والعويل ، وانتشرت الخلائق ، فلم يقدر أحد على السكون والقرار ، لكثرة ما سقط من الحيطان ، وخر من السقوق والمآذن وغير ذلك من الأبنية . وفاض ماء النيل فيضا غير المعتاد ، وألقى ماكان عليه من المراكب التى بالساحل قدر رمية سهم ، وانحسر عنها فصارت على الأرض بغير ماء .

واجتمع العالم فى الصحراء خارج القاهرة ، وباتوا ظاهر باب البحر بحرمهم وأولادهم فى الخيم ، وخلت المدينة ، وتشعثت جميع البيوت حتى لم يسلم ولا بيت من سقوط أو تسقط أو ميل . وقام الناس فى الجوامع يبتهلون ، ويسألون الله سبحانه طول يوم الخميس وليلة الجمعة ويوم الجمعة . فكان مما تهدم فى هذه الزلزلة الجامع الحاكمى . فانه سقط كثير من البدنات التى فيه ، وخرب أعالى المئذنتين ، وتشعثت سقوفه وجدرانه .

فانتدب لذلك الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير . ونزل اليه ومعه القضاة والأمراء فكشفه بنفسه ، وأمر برم ما تهدم منه واعادة ما سقط من البدنات ، فأعيدت وفى كل بدنة منها طاق ، وأقام سقوف الجامع وبيضه حتى عاد جديدا ، وجعل له عدة أوقاف بناحية الجيزة وفى الصعيد وفى الاسكندرية ، تغل كل سنة شيئا كثيرا ، ورتب فيه دروسا أربعة لاقراء الفقه على مذاهب الأئمة الأربعة ،

ودرسا لاقراء الحديث النبوى ، وجعل لكل درس مدرسا وعدة كثيرة من الطلبة .

فرتب فى تدريس الشافعية قاضى القضاة بدر الدين محمد بن جماعة الشافعى ، وفى تدريس الحنفية قاضى القضاة شمس الدين أحمد السروجى الحنفى ، وفى تدريس المالكية قاضى القضاة زين الدين على بن مخلوف المالكى ، وفى تدريس الحنابلة قاضى القضاة شرف الدين الجوانى ، وفى درس الحديث الشيخ سعد الدين مسعودا الحارثى ، وفى درس النحو الشيخ أثير الدين أبا حيان ، وفى درس القراءات السبع الشيخ نور الدين الشطنوفى ، وفى التصدير لافادة العلوم علاء الدين على بن اسماعيل القونوى ، وفى مشيخة الميعاد المجد عيسى بن الخشاب .

وعمل فيه خزانة كتب جليلة ، وجعل فيه عدة متصدرين لتلقين القرآن الكريم ، وعدة قراء يتناوبون قراءة القرآن ، ومعلما يقرىء أيتام المسلمين كتاب الله عز وجل . وحفر فيه صهريجا بصحن الجامع ليملأ فى كل سنة من ماء النيل ، ويسبل منه الماء فى كل يوم ، ويستقى منه الناس يوم الجمعة ، وأجرى على جميع من قرره فيه معاليم داره . وهذه الأوقاف باقية الى اليوم ، الا أن أحوالها اختلت كما اختل غيرها . فكان ما أنفق عليه زيادة على أربعين ألف دينار .

وجرى فى بنائه لهذا الجامع أمر يتعجب منه . وهو ما حدثنى به شيخنا الشيخ المعروف المسند المعمر ، أبو عبد الله محمد بن ضرغام ابن شكر المقرى بمكة فى سنة سبع وثمانين وسبعمائة ... قال : أخبرنى من حضر عمارة الأمير بيبرس للجامع الحاكمى عند سقوطه فى سنة الزلزلة أنه لما شرع البناة فى ترميم ما وهى من المئذنة التى هى من جهة باب الفتوح ، ظهر لهم صندوق فى تضاعيف البنيان . فأخرجه الموكل بالعمارة وفتحه ، فاذا فيه قطن ملفوف على كف انسان بزنده ، وعليه أسطر مكتوبة لم يدر ما هى ، والكف طرية كأنها قريبة عهد بالقطع ثم رأيت هذه الحكاية بخط مؤلف السيرة الناصرية موسى ابن محمد بن يحيى أحد مقدمى الحلقة .

ثم جدد هذا الجامع ، وبلط جميعه فى أيام الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون فى ولايته الثانية ، على يد الشيخ * قطب الدين محمد الهرماس فى سنة ستين وسبعمائة . ووقف قطعة أرض على الهرماس وأولاده ، وعلى زيادة فى معلوم الامام بالجامع ، وعلى ما يحتاج اليه فى زيت الوقود ومرمة فى سقفه وجدرانه .

وجرى فى عمارة الجامع على يد الهرماس ما حدثنى به الشيخ المعمر شمس الدين محمد ابن على ، امام الجامع الطيبرسى بشاطىء النيل قال : أخبرنى محمد بن عمر البوصيرى ، قال : حدثنا قطب الدين محمد الهرماس أنه رأى بالجامع الحاكمى حجرا ظهر من مكان قد سقط ، منقوشة عليه هذه الأبيات الخمسة :

ان الذى أسررت مكنون اسمه
وكتمته كيما أفوز بوصله
مال له جذر تساوى فى الهجا
طرفاه يضرب بعضه فى مثله

(*) ص٢٧٨ جـ٢ ، ط. بولاق

فيصير ذاك المال الا أنه
في النصف منه تصاب أحرف كله
واذا نطقت بربعه متكلما
من بعد أوله نطقت بكله
لا نقط فيه اذا تكامل عده
فيصير منقوطا بجملة شكله

قال : وهذه الأبيات لغز فى الحجر المكرم .

وقال العلامة شمس الدين محمد بن النقاش فى كتاب « العبر فى أخبار من مضى وغبر » : وفى هذه السنة (يعنى سنة احدى وستين وسبعمائة) صودر الهرماس ، وهدمت داره التى بناها أمام الجامع الحاكمى ، وضرب ونفى هو وولده . فلما كان يوم الثلاثاء التاسع والعشرون من ذى القعدة ، استفتى السلطان الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون فى وقف حصة طندتا .

وهى الأرض التى كان قد سأله الهرماس أن يقفها على مصالح الجامع الحاكمى . فعين له خمسمائة وستين فدانا من طين طندتا ، وطلب الموقعين وأمرهم أن يكتبوا صورة وقفها ، ويحضروه ليشهدوا عليه به — وكان قد تقرر من شروطه فى أوقافه ما قيل انه رواية عن أبى حنيفة ، رحمة الله تعالى عليه ، من أن للواقف أن يشترط فى وقفه التعيير والزيادة والنقص وغير ذلك — فأحضر السكركى الموقع اليه الكتاب مطويا ، فقرأ منه طرته وخطبته وأوله ، ثم طواه وأعاده اليه مطويا ، وقال : اشهدوا بما فيه — دون قراءة وتأمل — فشهدوا هم بالتفصيل الذى كتبوه وقرروه مع الهرماس .

ولما اطلع السلطان على ذلك بعد نفى الهرماس ، طلب السكركى وسأله عن هذه الواقعة . فأجاب بما قد ذكرنا ، والله أعلم بصحة ذلك ، غير أن المعلوم المقرر أن السلطان ما قصد الا مصالح الجامع ... نعم سأله أزدمر الخازندار : هل وقفت حصة لطيفة على أولاد الهرماس ، فانه قد ذكر ذلك ؟

فقال : نعم أنا وقفت عليهم جزءا يسيرا لم أعلم مقداره . وأما التفصيل المذكور فى كتاب الوقف فلم أتحققه ولم أطلع عليه .

فاستفتى المفتين فى هذه الواقعة . فأما المفتون — كابن عقيل ، وابن السبكى ، والبلقينى والبسطامى ، والهندى ، وابن شيخ الجبل ، والبغدادى ونحوهم — فأجابوا ببطلان الحكم المترتب على هذه الشهادة الباطلة وبطلان التنفيذ ... وكان الحنفى حكم والبقية نفذوا . وأما الحنفى فقال : ان الوقف اذا صدر صحيحا على الأوضاع الشرعية . فانه لا يبطل بما قاله الشاهد ، وهو جواب عن نفس الواقعة وأما الشافعى فكتب ما مضمونه . ان الحنفى ان اقتضى مذهبه بطلان ما صححه أولا ، نفذ بطلانه وحاصل ذلك أن القضاة أجابوا بالصحة ، والمفتين أجابوا بالبطلان .

فطلب السلطان المفتين والقضاة . فلم يحضر من الحكام غير نائب الشافعى ، وهو تاج الدين محمد بن اسحاق بن المناوى ، والقضاة الثلاثة الشافعى والحنفى والحنبلى وجدوا مرضى لم يمكنهم الحضور الى سرياقوس — فان السلطان كان قد سرح اليها على العادة فى كل سنة — فجمعهم السلطان فى

برج من القصر الذى بميدان سرياقوس غشاء الآخرة ، وذكر لهم القضية ، وسألهم عن حكم الله تعالى فى الواقعة . فأجاب الجميع بالبطلان ... غير المناوى فانه قال : مذهب أبى حنيفة أن الشهادة الباطلة اذا اتصل بها الحكم صح ولزم .

فصرخت عليه المفتون شافعيهم وحنفيهم ، أما شافعيهم فانه قال : ليس هذا مذهبك ولا مذهب الجمهور ، ولا هو الراجح فى الدليل والنظر . وقال له ابن عقيل : هذا مما ينقض به الحكم لو حكم به حاكم ، وادعى قيام الاجماع على ذلك . وقال له سراج الدين البلقينى : ليس هذا مذهب أبى حنيفة ، ومذهبه فى العقود والفسوخ ما ذكرت من أن حكم الحاكم يكون هو المعتمد فى التحليل والتحريم . وأما الأوقاف ونحوها فحكم الحاكم فيها لا أثر له كمذهب الشافعى .

وادعوا أن الاجماع قائم على ذلك ، وقاموا على المناوى فى ذلك قومة عظيمة ، فقال : نحن نحكم بالظاهر .

فقالوا له : ما لم يظهر الباطن بخلافه .

فقال : قال النبى صلى الله عليه وسلم : « نحن نحكم بالظاهر » .

قالوا : هذا الحديث كذب على النبى صلى الله عليه وسلم ، وانما الحديث الصحيح حديث « انما أنا بشر ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ... » الحديث * .

قال المناوى : الأحكام ما هى بالفتاوى .

قالوا له : فبماذا تكون ؟ أفى الوجود حكم شرعى بغير فتوى من الله ورسوله ؟

وكان قد قال فى مجلس ابن الدريهم القائم على نفيس اليهودى — المدعو برأس الجالوت بين اليهود — لا يلتفت لقول المفتين .

فقيل له فى هذا المجلس : هاأنت قد قلت مرتين ان المفتين لا يعتبر قولهم ، وان الفتاوى لا يعتد بها . وقد أخطأت فى ذلك أشد الخطأ ، وأنبأت عن غاية الجهل ، فان منصب الفتوى أول من قام به رب العالمين ، اذ قال فى كتابه المبين : « يستفتونك ، قل الله يفتيكم فى الكلالة » ، وقال يوسف عليه السلام : « قضى الأمر الذى فيه تستفتيان » ، وقال النبى صلى الله عليه وسلم لعائشة رضى الله عنها : « قد أفتانى الله ربى فيما استفتيته » .

وكل حكم جاء على سؤال سائل تكفل ببيانه قرآن أو سنة فهو فتوى ، والقائم به مفت ، فكيف تقول : لا يلتفت الى الفتوى أو الى المفتين ؟ فقال سراج الدين الهندى وغيره : هذا كفر ، ومذهب أبى حنيفة أن من استخف بالفتوى أو المفتين فهو كافر .

فاستدرك نفسه بعد ذلك وقال : لم أرد الا أن الفتوى اذا خالفت المذهب فهى باطلة .

قالوا له : وأخطأت فى ذلك أيضا ، لأن الفتوى قد تخالف المذهب المعين ، ولا تخالف الحق فى نفس الأمر .

قال : فأردت بالفتوى التى تخالف الحق .

قالوا : فأطلقت فى موضع التقييد ، وذلك خطأ .

(*) ص٢٧٩ جـ٢ ، ط.بولاق .

فقال السلطان حينئذ : فاذا قدر هــذا ، وادعيت أن الفتوى لا أثر لها ، فنبطل المفتين والفتوى من الوجود .

فتلكأ وحار وقال : كيف أعمل فى هذا ؟

فتبـين لبعض الحـاضرين انه استشــكل المسألة ، ولم يتبين له وجهها ، فقال : لا شك أن مولانا السلطان لم ينكر صدور الوقف ، وانما أنكر المصارف ، وأن تكون الجهة التى عينـها هى هـرماس وشـهوده وقضـاته ، وللسلطان آن يحكم فيها بعلمه ، ويبطـل ما قرره من عند أنفسهم .

قال : كيف يحكم لنفسه ؟ قيل له : ليس هذا حكما لنفسه لأنه مقر بأصل الوقف ، وهو للمستحقين ليس له فيه شىء ، وانمـا بطل وصف الوقف ، وهو المصرف الذى قرر على غير جهة الوقف . وله أن يوقع الشهادة على نفسه ، بحكم أن مصرف هذا الوقف الجهة الفلانية دون الفلانية .

ولم يزالوا يذكرون له أوجها تبين بطلان الوقف اما بأصله أو بوصفه ، الى أن قال : يبطل بوصفه دون أصله . وأذعن لذلك بعـد اتعاب من العلماء ، وازعاج شديد من السلطان فى بيان وجوه ذكروها تبين وجه الحق ، وأنه انما وقفه على مصالح الجامع المذكور . وهذا مما لا يشك فيه عاقل ولا يرتاب .

فالتفت بعد ذلك وقال للحاضرين : كيف نعمل فى ابطاله ؟

فقالوا : بما قررناه من اشهاد السلطان على نفسه بتفصيل صحيح ، وأنه لم يزل كذلك منذ صــدر منه الوقف ... الى هذا الحد وغير ذلك من الوجوه .

فجعل يوهم السلطان أن الشــهود الذين شهدوا فى هذا الوقف ، متى بطلّ هذا الوقف ثبت عليهم التساهل ، وجرحوا بذلك ، وقدح ذلك فى عدالتهم ، ومتى جرحوا الآن ، لزم بطلان شهادتهم فى الأوقاف المتقدمة على هذا التاريخ .

وخيل بذلك للسلطان حتى ذكر له اجماع المسلمين على أن جرح الشاهد لا ينعطف على ما مضى من شــهاداته السالفــة ، ولو كفــر — والعياذ بالله — وهذا مما لا خلاف فيه . ثم استقر رأيه على أن يبطله بشاهدين يشهدان أن السلطان لما صدر منه هذا الوقف كان قد اشترط لنفســه التغيير والتبـديل والزيادة والنقص ، وقام على ذلك .

قال مؤلفه رحمه الله : انظر تثبت القضاة ، وقايس بين هذه الواقعة وما كان من تثبت القاضى تاج الدين المناوى — وهو يومئــذ خليفة الحكم — ومصادمته الجبال ، وبين ما ستقف عليه من التساهل والتنـاقض فى خبر أوقاف مدرسة جمال الدين يوسف الأستادار ، وميز بعقلك فرق ما بين القضيتين . وهــذه الأرض التى ذكــرت ، هى الآن بيــد أولاد الهرماس ، بحكم الكتاب الذى حاول السلطان نقضه فلم يوافق المنـاوى . والجــامع الآن متهدم ، وسقوفه كلها ما من زمن الا ويسقط منها الشىء بعد الشىء فلا يعاد .

وكانت ميضأة هذا الجامع صغيرة بجــوار ميضأته الآن فيما بينها وبين باب الجــامع ، وموضــعها الآن مخزن تعلوه طبقــة عمرها

شخص من الباعة يعرف بابن كرسون المراطى وهذه الميضأة الموجودة الآن أحدثت ، وأنشأ الفسقية التى فيها ابن كرسون فى أعوام بضع وثمانين وسبعمائة ، وبيض مئذنتى الجامع . واستجد المئذنة التى بأعلى البـاب المجـاور للمنبر رجل من الباعة ، وكملت فى جمـادى الآخرة سنة سبع وعشرين وثمانمائة وخرق سقف الجامع حتى صـار المؤذنون ينزلون من السطح الى الدكة التى يكبرون فوقهـا وراء الامام .

هيئة صلاة الجمعة فى أيام الخلفاء الفاطميين

قال المسيحى . وفى يوم الجمعة غرة رمضان سنة ثمانين وثلثمائة ، ركب العزيز بالله الى جامع القاهرة بالمظلة المذهبة ، وبين يديه نحو خمسة آلاف ماش ، وبيده القضيب وعليـه الطيلسـان والسـيف ، فخطب وصلى صلاة الجمعة ، وانصرف فأخذ رقاع المتظلمين بيده ، وقرأ منها عدة فى الطريق . وكان يوما عظيما ذكرته الشعراء .

قال ابن الطـوير : اذا انقضى ركوب أول شهر رمضان استراح * فى أول جمعة . فاذا كانت الثانية ركب الخليفة الى الجامع الأنور الكبير ، فى هيئة المواسم ، بالمظلة وما تقـدم ذكره من الآلات ، ولباسه فيـه ثياب الحرير البيض ، توقيرا للصلاة ، من الذهب والمنديل والطيلسان المقور الشعرى .

فيدخل من باب الخطابة والوزير معه ، بعد أن يتقدمه فى أوائل النهار صاحب بيت المال — وهو المقدم ذكره فى الأستاذين — وبين يديه الفرش المختصة بالخليفة اذا صار اليه فى هذا اليوم ، وهو محمول بأيدى الفراشـين المميزين ، وهو ملفوف فى العراصى الديبقية .

فيفرش فى المحـراب ثلاث طراحات ، اما سامان أو ديبقى أبيض ، أحسن ما يكون من صنفهما ، كل منهما منقوش بالحمرة . فتجعل الطراحات متطابقات ، ويعلق سـتران يمنـة ويسرة . وفى السـتر الأيمن كتـابه مرقومة بالحرير الأحمر واضحة منقوطة ، أولها البسملة والفاتحة وسورة الجمعة وفى الستر الأيسر مثل ذلك وسورة اذا جاءك المنافقون ... قد أسبلا وفرشا فى التعليق بجـانبى المحـراب لاصقين بجسمه .

ثم يصعد قاضى القضـاة المنبر وفى يده مدخنة لطيفة خيزران . يحضرها اليه صـاحب بيت المال فيها جمرات ، ويجعل فيها ند مثلث لا يشم مثله الا هنـاك ، فيبخر الذروة التى عليها الغشاء كالقبة لجلوس الخليفة للخطابة ، ويكرر ذلك ثلاث دفعات .

فيأتى الخليفة فى هيئة موقرة من الطبـل والبوق ، وحوالى ركابه — خارج أصـحاب الركاب — القراء ، وهم قراء الحضرة ، من الجانبين ، يطربون بالقراءة نوبة بعد نوبة ... يستفتحون بذلك من ركوبه من الكرسى على ما تقدم طول طريقـه الى قاعة الخطـابة من الجـامع . ثم تحفظ المقصـورة من خارجها بترتيب أصحاب الباب واسفهسلار العساكر ، ومن داخلها الى آخرها صبيان الخاص وغيرهم ممن يجرى مجراهم ، ومن داخلها من باب خروجه الى المنبر واحد فواحد .

فيجلس فى القاعة ، وان احتاج الى تجديد وضـوء فعل ، والوزير فى مكان آخر . فاذا

(*) ص٢٨٠ جـ٢ ، ط. بولاق .

أذن بالجمعة دخل اليه قاضى القضاة فقال له : السلام على أمير المؤمنين الشريف القاضى ورحمة الله وبركاته ، الصلاة يرحمك الله .

فيخرج ماشيا وحواليه الأستاذون المحنكون والوزير وراءه ، ومن يليهم من الحواص وبأيديهم الأسلحة من صبيان الخاص ، وهم أمراء وعليهم هذا الاسم .

فيصعد المنبر الى أن يصل الى الذروة تحت تلك القبة المبخرة فاذا استوى جالسا والوزير على باب المنبر ووجهه اليه ، فيشير اليه بالصعود فيصعد الى أن يصل اليه ، فيقبل يديه ورجليه بحيث يراه الناس ، ثم يزرر عليه تلك القبة لأنها كالهودج ، ثم ينزل مستقبلا فيقف ضابطا لباب المنبر فان لم يكن ثم وزير صاحب سيف ، زرر عليه قاضى القضاة كذلك ، ووقف صاحب الباب ضابطا للمنبر .

فيخطب خطبة قصيرة من مسطور يحضر اليه من ديوان الانشاء ، يقرأ فيها آية من القرآن الكريم — ولقد سمعته مرة فى خطابته بالجامع الأزهر وقد قرأ فى خطبته « رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى . » الآية — ثم يصلى على أبيه وجده (يعنى بهما محمدا صلى الله عليه وسلم وعلى بن أبى طالب رضى الله عنه) ، ويعظ الناس وعظا بليغا قليل اللفظ .

وتشتمل الخطبة على ألفاظ جزلة ، ويذكر من سلف من آبائه حتى يصل الى نفسه ، فقال وأنا أسمعه : « اللهم وأنا عبدك وابن عبدك ، لا أملك لنفسى ضرا ولا نفعا » ويتوسل بدعوات فخمة تليق بمثله ، ويدعو للوزير ان كان ، وللجيوش بالنصر والتأليف ، وللعساكر بالظفر ، وعلى الكافرين والمخالفين بالهلاك والقهر ، ثم يختم بقوله « اذكروا الله يذكركم » ، فيطلع اليه من زرر عليه ، ويفك ذلك التزرير وينزل القهقرى . وسبب التزرير عليهم قراءتهم من مسطور لا كعادة الخطباء .

فينزل الخليفة ، ويصير على تلك الطراحات الثلاث فى المحراب وحده اماما ، ويقف الوزير وقاضى القضاة صفا ، ومن ورائهما الأستاذون المحنكون والأمراء المطوقون ، وأرباب الرتب من أصحاب السيوف والأقلام ، والمؤذنون وقوف وظهورهم الى المقصورة لحفظه . فاذا سمع الوزير الخليفة أسمع القاضى ، فأسمع القاضى المؤذنين ، وأسمع المؤذنون الناس .

هذا والجامع مشحون بالعالم للصلاة وراءه ، فيقرأ ما هو مكتوب فى الستر الأيمن فى الركعة الأولى ، وفى الركعة الثانية ما هو مكتوب فى الستر الأيسر ، وذلك على طريق التذكار خيفة الارتجاج . فاذا فرغ خرج الناس وركبوا أولا فأولا ، وعاد طالبا القصر والوزير وراءه ، وضربت البوقات والطبول فى العود .

فاذا أتت الجمعة الثانية ركب الى الجامع الأزهر من الشباكين ، على المنوال الذى ذكرناه والقالب الذى وصفناه . فاذا كانت الجمعة الثالثة أعلم بركوبه الى مصر للخطابة فى جامعها ، فيزين له من باب القصر أهل القاهرة الى جامع ابن طولون ، ويزين له أهل مصر من جامع ابن طولون الى الجامع بمصر ... يرتب ذلك والى مصر : كل أهل معيشة فى مكان . فيظهر المختار من الآلات والستور المثمنات ، ويهتمون بذلك ثلاثة أيام

بلياليهن ، والوالى مار وعائد بينهم ، وقد ندب من يحفظ الناس ومتاعهم .

فيركب يوم الجمعة المذكور شاقا * لذلك كله على الشارع الأعظم ، الى مسجد عبد الله الخراب اليوم ، الى دار الأنماط ، الى الجامع بمصر . فيدخل اليه من المعونة — ومنها باب متصل بقاعة الخطيب — بالزى الذى تقدم ذكره فى خطبة الجامعين بالقاهرة وعلى ترتيبهما . فاذا قضى الصلاة عاد الى القاهرة من طريقه بعينها ، شاقا بالزينة الى أن يصل الى القصر ، ويعطى أرباب المساجد التى يمر عليها كل واحد دينارا .

وقال ابن المأمون : ووصل من الطراز الكسوة المختصة بغرة شهر رمضان وجمعتيه : برسم الخليفة للغرة بدلة كبيرة موكبية مكملة مذهبة ، وبرسم الجامع الأزهر للجمعة الأولى من الشهر بدلة موكبية حرير مكملة منديلها وطيلسانها بياض ، وبرسم الجامع الأنور للجمعة الثانية بدلة منديلها وطيلسانها شعرى ، وما هو برسم أخى الخليفة للغرة خاصة بدلة مذهبة ، وبرسم أربع جهات للخليفة أربع حلل مذهبات ، وبرسم الوزير للغرة خلعة مذهبة مكملة موكبية ، وبرسم الجمعتين بدلتان حريريتان . ولم يكن لغير الخليفة وأخيه الوزير فى ذلك شىء فنذكره .

جامع راشدة

هذا الجامع عرف بجامع راشدة لأنه فى خطة راشدة . قال القضاعى : خطة راشدة بن أدوب بن جديلة من لخم ، هى متاخمة للخطة التى قبلها الى الدير المعروف كان بأبى تكموس ثم هدم ، وهو الجامع الكبير الذى براشدة . وقد دثرت هذه الخطة ، ومنها المقبرة المعروفة بمقبرة راشدة ، والجنان التى كانت تعرف بكهمس بن معر ، ثم عرفت بالماردانى ، وهى اليوم تعرف بالأمير تميم .

وقال المسيحى فى حوادث سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة : وابتدىء بناء جامع راشدة فى سابع عشر ربيع الآخر ، وكان مكانه كنيسة حولها مقابر لليهود والنصارى ، فبنى بالطوب ، ثم هدم وزيد فيه وبنى بالحجر ، وأقيمت به الجمعة .

وقال فى سنة خمس وتسعين وثلثمائة : وفيه (يعنى شهر رمضان) فرش جامع راشدة ، وتكامل فرشه وتعليق قناديله وما يحتاج اليه . وركب الحاكم بأمر الله عشية يوم الجمعة الخامس عشر منه ، وأشرف عليه .

وقال فى سنة ثمان وتسعين وثلثمائة : وفيه (يعنى شهر رمضان) صلى الحاكم بجامعه الذى أنشأه براشدة صلاة الجمعة وخطب . وفى شهر رمضان سنة أربعمائة ، أنزل بقناديل وتنور من فضة زنتها ألوف كثيرة ، فعلقت بجامع راشدة . وفى سنة احدى وأربعمائة هدم ، وابتدىء فى عمارته من صفر .

وفى شهر رمضان سنة ثلاث وأربعمائة : صلى الحاكم فى جامع راشدة صلاة الجمعة ، وعليه عمامة بغير جوهر وسيف محلى بفضة بيضاء دقيقة ، والناس يمشون بركابه من غير أن يمنع أحد منه . وكان يأخذ قصصهم ، ويقف وقوفا طويلا لكل منهم .

(*) ص٢٨١ جـ٢ ، ط. بولاق .

واتفق يوم الجمعة حادى عشر جمادى الآخرة سنة أربع عشرة وأربعمائة أن خطب فيه خطبتان معا على المنبر . وذلك أن أبا طالب على بن عبد السميع العباسى استقر فى خطابته باذن قاضى القضاة أبى العباس أحمد بن محمد بن العوام ، بعد سفر العفيف البخارى الى الشام . فتوصل ابن عصفورة الى أن خرج له أمر أمير المؤمنين الظاهر لاعزاز دين الله ، أبى الحسن على بن الحاكم بأمر الله ، أن يخطب . فصعدا جميعا المنبر ، ووقف أحدهما دون الآخر وخطبا معا . ثم بعد ذلك استقر أبو طالب خطيبا ، وأن يكون ابن عصفورة يخلفه .

وقال ابن المتوج : هذا الجامع فيما بين دير الطين والفسطاط . وهو مشهور الآن بجامع راشدة ، وليس بصحيح ، وانما جامع راشدة كان جامعا قديم البناء بجوار هذا الجامع عمر فى زمن الفتح .. عمرته راشدة . وهى قبيلة من القبائل ، كقبيلة تجيب ومهرة ، نزلت فى هذا المكان ، وعمروا فيه جامعا كبيرا أدركت أنا بعضه ومحرابه . وكان فيه نخل كثير من نخل المقل ، ومن جملة ما رأيت فيه نخلة من المقل عددت لها سبعة رؤوس مفرعة منها ... فذاك الجامع هو المعروف بجامع راشدة .

وأما هذا الموجود الآن فمن عمارة الحاكم ، ولم يكن فى بناء الجوامع أحسن من بنائه . وقيل عمرته حظية الحليفه وكان اسمها راشدة ، وليس بصحيح ، والأول هو الصحيح . وفيه الآن نخل وسدر وبئر وساقية رجل ، وهو مكان خلوة وانقطاع ، ومحل عبادة وفراغ من تعلقات الدنيا .

قال مؤلفه : هذا وهم من ابن المتوج فى موضعين :

« أولهما » : أن راشدة عمرت هذا الجامع فى زمن فتح مصر ، وهذا قول لم يقله أحد من مؤرخى مصر . فهذا الكندى ثم القضاعى — وعليهما يعول فى معرفة خطط مصر — ومن قبلهما ابن عبد الحكم ... لم يقل أحد منهم ان راشدة عمرت زمن الفتح مسجدا ، ولا يعرف من هذا السلف رحمهم الله ، فى جند من أجناد الأمصار التى فتحتها الصحابة رضى الله عنهم ، أنهم أقاموا خطبتين فى مسجد واحد .

وقد حكينا ما تقدم عن المسيحى — وهو مشاهد — ما نقله من بناء الجامع المذكور فى موضع الكنيسة بأمر الحاكم بأمر الله ، وتغييره لبنائه غير مرة ، وتبعه القضاعى على ذلك . وقد وعد القضاعى والكندى فى كتابيهما * ، المذكور فيهما خطط مصر ، ما كان بمصر من مساجد الخطبة القديمة والمحدثة ، وذكرا مساجد راشدة ، ولم يذكرا فيها جامعا اختطته راشدة ، وذكرا هذا الدير ، وعين القضاعى اسمه ، هدم وبنى فى مكانه جامع راشدة . وناهيك بهما معرفة لآثار مصر وخططها .

و « الوهم الثانى » : الاستدلال على الوهم الأول بمشاهدة بقايا مسجد قديم ولا أدرى كيف يستدل بذلك ؟ فمن أنكر أن يكون قد كان هناك مسجد ؟ بل المدعى أنه كان لراشدة مساجد ، لكن كونها اختطت جامعا هذا غير صحيح .

(*) ص٢٨٢ جـ٢ ، ط. بولاق .

وقال ابن أبي طى فى أخبار سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة فى كتابه « تاريخ حلب » : كانت النصارى اليعقوبية قد شرعوا فى انشاء كنيسة كانت قد اندرست لهم بظاهر مصر ، فى الموضع المعروف براشدة ، فثار قوم من المسلمين ، وهدموا ما بنى النصارى . وأنهى الى الحاكم ذلك ، وقيل له : ان النصارى ابتدأوا بناءها ، وقال النصارى : انها كانت قبل الاسلام .

فأمر الحاكم حسين بن جوهر بالنظر فى حال الفريقين ، فمال فى الحكم مع النصارى ، وتبين للحاكم ذلك ، فأمر أن تبنى تلك الكنيسة مسجدا جامعا ، فبنى فى أسرع وقت ، وهو جامع راشدة ، وراشدة اسم للكنيسة ، وكان بجواره كنيستان : احداهما لليعقوبية ، والأخرى للنسطورية ، فهدمتا أيضا ، وبنيتا مسجدين .

وكان فى حارة الروم بالقاهرة آدر للروم وكنيستان لهم ، فهدمتا وجعلتا مسجدين أيضا ، وحول الروم الى الموضع المعروف بالحمراء ، وأسس الروم ثلاث كنائس عوضا عما هدم لهم . وهذا أيضا مصرح بأن جامع راشدة أسسه الحاكم ، وفيه وهم لكونه جعل راشدة اسما للكنيسة ، وانما راشدة اسم لقبيلة من العرب نزلوا عند الفتح هناك ، فعرفت تلك البقاع بخطة راشدة .

وقد جدد جامع راشدة مرارا ، وأدركته عامرا تقام فيه الجمعة ، ويمتلىء بالناس لكثرة من حوله من السكان ، وانما تعطل من اقامة الجمعة بعد حوادث سنة ست وثمانمائة .

وقال الشريف محمد بن أسعد الجوانى النسابة : راشدة بطن من لخم ، وهم ولد راشدة بن الحارث بن أد بن جديلة ، من لخم ابن عدى بن الحارث بن مرة بن أدد — وقيل راشدة بن أدوب — ويقال لراشدة خالفة ، ولهم خطة بمصر بالجبل المعروف بالرصد المطل على بركة الجيش ، وقد دثرت الخطة ، ولم يبق فى موضعها الا الجامع الحاكمى المعروف بجامع راشدة .

جامع المقس

هذا الجامع أنشأه الحاكم بأمر الله على شاطىء النيل بالمقس فى ••• ••• ••• لأن المقس كان خطة كبيرة . وهى بلد قديم من قبل الفتح كما تقدم ذكر ذلك فى هذا الكتاب .

وقال فى الكتاب الذى تضمن وقف الحاكم بأمر الله الأماكن بمصر على الجوامع — كما ذكر فى خبر الجامع الأزهر — ما نصه : « ويكون جميع ما بقى ، مما تصدق به على هذه المواضع ، يصرف فى جميع ما يحتاج اليه فى جامع المقس المذكور من عمارته ، ومن ثمن الحصر العبدانية والمظفورة ، وثمن العود للبخور وغيره ، على ما شرح من الوظائف فى الذى تقدم » .

وكان لهذا الجامع نخل كثير فى الدولة الفاطمية ، ويركب الخليفة الى منظرة كانت بجانبه عند عرض الأسطول ، فيجلس بها لمشاهدة ذلك ، كما ذكر فى موضعه من هذا الكتاب عند ذكر المناظر .

وفى سنة سبع وثمانين وخمسمائة انشقت زربية من هذا الجامع فى شهر رمضان لكثرة زيادة ماء النيل ، وخيف على الجامع السقوط فأمر بعمارتها .

ولما بنى السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب هذا السور الذى على القاهرة ، وأراد أن يوصله بسور مصر من خارج باب البحر الى الكوم الأحمر — حيث منشأة المهرانى اليوم — وكان المتولى لعمارة ذلك الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدى ، أنشأ بجوار جامع المقس برجا كبيرا عرف بقلعة المقس فى مكان المنظرة التى كانت للخلفاء .

فلما كان فى سنة سبعين وسبعمائة ، جدد بناء هذا الجامع الوزير الصاحب شمس الدين عبد الله المقسى ، وهدم القلعة وجعل مكانها جنينة ، واتهمه الناس بأنه وجد هنالك مالا كثيرا ، وأنه عمر منه الجامع المذكور ، فصار العامة اليوم يقولون : جامع المقسى . ويظن من لا علم عنده أن هذا الجامع من انشائه ، وليس كذلك بل انما جدده وبيضه .

وقد انحسر ماء النيل عن تجاه هذا الجامع كما ذكر فى خبر بولاق والمقس ، وصار هذا الجامع اليوم على حافة الخليج الناصرى . وأدركنا ما حوله فى غاية العمارة ، وقد تلاشت المساكن التى هناك ، وبها الى اليوم بقية يسيرة .

ونظر هذا الجامع اليوم بيد أولاد الوزير المقسى . فانه جدده ، وجعل عليه أوقافا لمدرس وخطيب وقومة ومؤذنين وغير ذلك .

وقال جامع السيرة الصلاحية : وهذا المقسم على شاطىء النيل يزار ، وهناك مسجد يتبرك به الأبرار ، وهو المكان الذى قسمت فيه الغنيمة عند استيلاء الصحابة رضى الله عنهم على مصر . فلما أمر السلطان صلاح الدين بادارة السور * على مصر والقاهرة ، تولى ذلك بهاء الدين قراقوش ، وجعل نهايته التى تلى القاهرة عند المقس ، وبنى فيه برجا يشرف على النيل ، وبنى مسجده جامعا ، واتصلت العمارة منه الى البلد ، وصار تقام فيه الجمع والجماعات .

« العزيز بالله » : أبو النصر نزار بن المعز لدين الله أبى تميم معد . ولد بالمهدية من بلاد أفريقية فى يوم الخميس الرابع عشر من المحرم سنة أربع وأربعين وثلثمائة ، وقدم مع أبيه الى القاهرة وولى العهد . فلما مات المعز لدين الله أقيم من بعده فى الخلافة يوم الرابع عشر من شهر ربيع الآخر سنة خمس وستين وثلثمائة ، فأذعن له سائر عساكر أبيه ، واجتمعوا عليه ، وسير بذهب الى بلاد المغرب فرق فى الناس ، وأقر يوسف بن ملكين على ولاية أفريقية ، وخطب له بمكة .

ووافى الشام عسكر القرامطة ، فصاروا مع أفتكين التركى وقوى بهم ، وساروا الى الرملة وقاتلوا عساكر العزيز بيافا . فبعث العزيز جوهرا القائد بعساكر كثيرة ، وملك الرملة ، وحاصر دمشق مدة ، ثم رحل عنها بغير طائل . فأدركه القرامطة ، وقاتلوه بالرملة وعسقلان نحو سبعة عشر شهرا . ثم خلص من تحت سيوف أفتكين وسار الى العزيز ، فوافاه وقد

(*) ص٢٨٣ جـ٢ ، ط. بولاق .

برز من القاهرة فسار معه . ودخل العزيز الى الرملة ، وأسر أفتكين فى المحرم سنة ثمان وستين وثلثمائة ، فأحسن اليه وأكرمه اكراما زائدا .

فكتب اليه الشريف أبو اسماعيل ابراهيم الرئيس يقول : يامولانا لقد استحق هذا الكافر كل عذاب ، والعجب من الاحسان اليه . فلما لقيه قال : ياابراهيم قرأت كتابك فى أمر أفتكين ، وأنا أخبرك . اعلم أنا قد وعدناه الاحسان والولاية ، فلما قبل وجاء الينا نصب فازاته وخيامه حذاءنا ، وأردنا منه الانصراف ، فلج وقاتل . فلما ولى منهزما ، وسرت الى فازاته ودخلتها ، سجدت لله شكرا ، وسألته أن يفتح لى بالظفر به ، فجىء به بعد ساعة أسيرا ، أترى يليق بى غير الوفاء ؟

ولما وصل العزيز الى القاهر ، اصطنع أفتكين ، وواصله بالعطايا والخلع ... حتى قال : لقد احتشمت من ركوبى مع الخليفة مولانا العزيز بالله ونظرى اليه بما غمرنى من فضله واحسانه .

فلما بلغ العزيز ذلك قال لعمه حيدرة : ياعم أحب أن أرى النعم عند الناس ظاهرة ، وأرى عليهم الذهب والفضة والجواهر ، ولهم الخيل واللباس والضياع والعقار ، وأن يكون ذلك كله من عندى .

ومات بمدينة بلبيس من مرض طويل بالقولنج والحصاة ، فى اليوم الثامن والعشرين من شهر رمضان سنة ست وثمانين وثلثمائة ، فحمل الى القاهرة ، ودفن بتربة القصر مع آبائه . وكانت مدة خلافته بعد أبيه المعز احدى وعشرين سنة وخمسة أشهر ونصفا ، ومات وعمره اثنتان وأربعون سنة وثمانية أشهر وأربعة عشر يوما ، وكان نقش خاتمه « بنصر العزيز الجبار ، ينتصر الامام نزار » .

ولما مات وحضر الناس الى القصر للتعزية ، أفحموا عن أن يوردوا فى ذلك المقام شيئا ، ومكثوا مطرقين لا ينبسون . فقام صبى من أولاد الأمراء الكنانيين ، وفتح باب التعزية وأنشد :

انظر الى العلياء كيف تضام
ومآتم الأحساب كيف تقام
خبرتنى ركب الركاب ولم يدع
للسفر وجه ترحل فأقاموا

فاستحسن الناس ايراده ، وكأنه طرق لهم كيف يوردون المراثى . فنهض الشعراء والخطباء حينئذ وعزوا ، وأنشد كل واحد ما عمل فى التعزية .

وخلف من الأولاد ابنه المنصور ، وولى الخلافة من بعده ، وابنة تدعى «سيدة الملك» . وكان أسمر طوالا ، أصهب الشعر ، أعين أشهل ، عريض المنكبين ، شجاعا كريما ، حسن العفو والقدرة ، لا يعرف سفك الدماء ألبتة ، مع حسن الخلق والقرب من الناس ، والمعرفة بالخيل وجوارح الطير . وكان محبا للصيد مغرى به ، حريصا على صيد السباع .

ووزر له يعقوب بن كلس اثنتى عشرة سنة وشهرين وتسعة عشر يوما ، ثم من بعده على ابن عمر العداس سنة واحدة ، ثم أبو الفضل

جعفر بن الفرات سنة ، ثم أبو عبد الله الحسين ابن الحسن البازيار سنة وثلاثة أشهر ، ثم أبو محمد بن عمار شهرين ، ثم الفضل بن صالح الوزيرى أياما ، ثم عيسى بن نسطورس سنة وعشرة أشهر . وكانت قضاته أبو طاهر محمد ابن أحمد ، ثم أبو الحسن على بن النعمان ، ثم أبو عبد الله محمد بن النعمان .

وخرج الى السفر أولا فى صفر سنة سبع وستين وعاد من العباسية ، وخرج ثانيا وظفر بأفتكين ، وخرج ثالثا فى صفر سنة اثنتين وسبعين ورجع بعد شهر الى قصره بالقاهرة ، وخرج رابعا فى ربيع الأول سنة أربع وستين فنزل منية الأصبغ وعاد بعد ثمانية أشهر واثنى عشر يوما ، وخرج خامسا فى عاشر ربيع الآخر سنة خمس وثمانين فأقام مبرزا أربعة عشر شهرا وعشرين يوما ، ومات فى هذه الخرجة ببلبيس .

وهو أول من اتخذ من أهل بيته وزيرا أثبت اسمه على الطرز ، وقرن اسمه باسمه ، وأول من لبس منهم الخفين والمنطقة ، وأول من اتخذ منهم الأتراك * واصطنعهم وجعل منهم القواد ، وأول من رمى منهم بالنشاب ، وأول من ركب منهم بالذؤابة الطويلة والحنك ، وضرب بالصوالجة ولعب بالرمح ، وأول من عمل مائدة فى الشرطة السفلى فى شهر رمضان يفطر عليها أهل الجامع العتيق ، وأقام طعاما فى جامع القاهرة لمن يحضر فى رجب وشعبان ورمضان ، واتخذ الحمير لركوبه اياها .

وكانت أمه أم ولد اسمها « درزارة » ، وكان يضرب بأيامه المثل فى الحسن ، فانها كانت كلها أعيادا وأعراسا لكثرة كرمه ومحبته للعفو واستعماله لذلك . ولا أعلم له بمصر من الآثار غير تأسيس الجامع الحاكمى ، وما عدا ذلك فذهب اسمه ومحى رسمه .

« الحاكم بأمر الله » : أبو على منصور بن العزيز بالله نزار بن المعز لدين الله أبى تميم معد ولد بالقصر من القاهرة المعزية ليلة الخميس الثالث والعشرين من شهر ربيع الأول سنة خمس وسبعين وثلثمائة ، فى الساعة التاسعة ، والطالع من برج السرطان سبع وعشرين درجة ، وسلم عليه بالخلافة فى مدينة بلبيس بعد الظهر من يوم الثلاثاء عشرى شهر رمضان سنة ست وثمانين وثلثمائة .

وسار الى القاهرة فى يوم الأربعاء بسائر أهل الدولة ، والعزيز فى قبة على ناقة بين يديه ، وعلى الحاكم دراعة مصمت وعمامة فيها الجوهر ، وبيده رمح وقد تقلد السيف ، ولم يفقد من جميع ما كان مع العساكر شىء . ودخل القصر قبل صلاة المغرب ، وأخذ فى جهاز أبيه العزيز بالله ودفنه .

ثم بكر سائر أهل الدولة الى القصر يوم الخميس ، وقد نصب للحاكم سرير من ذهب عليه مرتبة مذهبة فى الايوان الكبير . وخرج من قصره راكبا وعليه معممة الجوهر ، والناس وقوف فى صحن الايوان ، فقبلوا له الأرض ، ومشوا بين يديه حتى جلس على السرير . فوقف من رسمه الوقوف ، وجلس من له عادة أن يجلس ، وسلم الجميع عليه

(*) ص٢٨٤ جـ٢ ، ط. بولاق .

بالامامة واللقب الذى اختير له وهو « الحاكم بأمر الله » . وكان سنه يومئذ احدى عشرة سنة وخمسة أشهر وستة أيام .

فجعل أبا محمد الحسن بن عمار الكندى واسطة ولقب بأمين الدولة ، وأسقط مكوسا كانت بالساحل ، ورد الى الحسين بن جوهر القائد البريد والانشاء فكان يخلفه ابن سورين ، وأقر عيسى بن نسطورس على ديوان الخاص ، وقلد سليمان بن جعفر بن فلاح الشام . فخرج ينجوتكين من دمشق ، وسار منها لمدافعة سليمان بن جعفر بن فلاح . فبلغ الرملة ، وانضم اليه ابن الجراح الطائى فى كثير من العرب ، وواقع ابن فلاح ، فانهزم وفر ، ثم أسر فحمل الى القاهرة وأكرم .

واختلف أهل الدولة على ابن عمار ، ووقعت حروب آلت الى صرفه عن الوساطة وله فى النظر أحد عشر شهرا غير خمسة أيام ، فلزم داره وأطلقت له رسوم وجرايات .

وأقيم الطواشى برجوان الصقلى مكانه فى الوساطة لثلاث بقين من رمضان سنة سبع وثمانين وثلثمائة ، فجعل كاتبه فهد بن ابراهيم يوقع عنه ولقبه بالرئيس ، وصرف سليمان بن فلاح عن الشام بجيش بن الصمصامة .

وقلد فحل بن اسماعيل الكتامى مدينة صور ، وقلد يانس الخادم برقة ، وميسورا الخادم طرابلس ، ويمنا الخادم غزة وعسقلان . فواقع جيش الروم على فاهية ، وقتل منهم خمسة آلاف رجل ، وغزا الى أن دخل مرعش . وقلد وظيفة قضاء القضاة أبا عبد الله الحسين بن على بن النعمان فى صفر سنة تسع وثمانين وثلثمائة بعد موت قاضى القضاة محمد بن النعمان .

وقتل الأستاذ برجوان لأربع بقين من ربيع الآخر سنة تسع وثمانين وثلثمائة ، وله فى النظر سنتان وثمانية أشهر غير يوم واحد ، ورد النظر فى أمور الناس وتدبير المملكة والتوقيعات الى الحسين بن جوهر ، ولقب بقائد القواد ، فخلفه الرئيس بن فهد ، واتخذ الحاكم مجلسا فى الليل يحضر فيه عدة من أعيان الدولة ثم أبطله .

ومات جيش بن الصمصامة فى ربيع الآخر سنة تسعين وثلثمائة . فوصل ابنه بتركته الى القاهرة ، ومعه درج بخط أبيه فيه وصية وثبت بما خلفه مفصلا ، وأن ذلك جميعه لأمير المؤمنين الحاكم بأمر الله ، لا يستحق أحد من أولاده منه درهما . وكان مبلغ ذلك نحو المائتى ألف دينار ما بين عين ومتاع ودواب ... قد أوقف جميع ذلك تحت القصر .

فأخذ الحاكم الدرج ونظره ، ثم أعاده الى أولاد جيش ، وخلع عليهم ، وقال لهم بحضرة وجوه الدولة : قد وقفت على وصية أبيكم رحمه الله ، وما وصى به من عين ومتاع ، فخذوه هنيئا مباركا لكم فيه . فانصرفوا بجميع التركة .

وولى دمشق فحل بن تميم ومات بعد شهور ، فولى على بن فلاح ، ورد النظر فى المظالم لعبد العزيز بن محمد بن النعمان ، ومنع الناس كافة من مخاطبة أحد أو مكاتبته

بسيدنا ومولانا الا أمير المؤمنين وحده ، وأبيح دم من خالف ذلك ، وفى شوال قتل ابن عمار .

وفى سنة احدى وتسعين واصل الحاكم الركوب فى الليل ، كل ليلة ، فكان يشق الشوارع والأزقة . وبالغ الناس فى الوقود والزينة ، وأنفقوا الأموال الكثيرة فى المآكل والمشارب والغناء واللهو ، وكثر تفرجهم على ذلك حتى خرجوا فيه عن الحد فمنع النساء من الخروج فى الليل ، ثم منع الرجال من الجلوس فى الحوانيت .

وفى رمضان سنة * اثنتين وتسعين ، قلد تموصلت بن بكار دمشق عوضا عن ابن فلاح ، وابتدأ فى عمارة جامع راشدة فى سنة ثلاث وتسعين ، وقتل فهد بن ابراهيم وله منذ نظر فى الرياسة خمس سنين وتسعة أشهر واثنا عشر يوما ، فى ثامن جمادى الآخرة منها ، وأقيم فى مكانه على بن عمر العداس ، وسار الأمير ماروح لامارة طرية ، ووقع الشروع فى اتمام الجامع خارج باب الفتوح ، وقطع الحاكم الركوب فى الليل ، ومات تموصلت فولى دمشق بعده مفلح اللحيانى الخادم

وقتل على بن عمر العداس والأستاذ زيدان الصقلى وعدة كثيرة من الناس . وقلد امارة برقة صندل الأسود فى المحرم سنة أربع وتسعين وصرف الحسين بن النعمان عن القضاء فى رمضان منها ، وكانت مدة نظره فى القضاء خمس سنين وستة أشهر وثلاثة وعشرين يوما ، واليه كانت الدعوة أيضا ، فيقال له قاضى القضاة وداعى الدعاة . وقلد عبد العزيز بن محمد بن النعمان وظيفة القضاء والدعوة ، مع ما بيده من النظر فى المظالم .

وفى سنة خمس وتسعين ، أمر النصارى واليهود بشد الزنار ولبس الغيار ، ومنع الناس من أكل الملوخية والجرجير والتوكلية والدلينس ، وذبح الأبقار السليمة من العاهة الا فى أيام الأضحية ، ومنع من بيع الفقاع وعمله ألبتة ، وألا يدخل أحد الحمام الا بمئزر ، وألا تكشف امرأة وجهها فى طريق ولا خلف جنازة ولا تتبرج ، ولا يباع شىء من السمك بغير قشر ، ولا يصطاد أحد من الصيادين . وتتبع الناس فى ذلك كله ، وشدد فيه ، وضرب جماعة بسبب مخالفتهم ما أمروا به ونهوا عنه مما ذكر .

وخرجت العساكر لقتال بنى قرة أهل البحيرة . وكتب على أبواب المساجد وعلى الجوامع بمصر ، وعلى أبواب الحوانيت والحجر والمقابر ، سب السلف ولعنهم ، وأكره الناس على نقش ذلك وكتابته بالأصباغ فى سائر المواضع . وأقبل الناس من سائر النواحى فدخلوا فى الدعوة ، وجعل لهم يومان فى الأسبوع ، وكثر الازدحام ومات فيه جماعة ، ومنع الناس من الخروج بعد المغرب فى الطرقات ، وألا يظهر أحد بها لبيع ولا شراء . فخلت الطرق من المارة ، وكسرت أوانى الخمور ، وأريقت من سائر الأماكن ، واشتد خوف الناس بأسرهم ، وقويت الشناعات وزاد الاضطراب .

فاجتمع كثير من الكتاب وغيرهم تحت القصر ، وضجوا يسألون العفو . فكتب عدة أمانات لجميع الطوائف من أهل الدولة

(*) ص٢٨٥ جـ٢ ، ط. بولاق .

وغيرهم من الباعة والرعية ، وأمر بقتل الكلاب فقتل منها ما لا ينحصر حتى فقدت ، وفتحت دار الحكمة بالقاهرة وحمل اليها الكتب ، ودخل اليها الناس . فاشتد الطلب على الركابية المستخدمين فى الركاب ، وقتل منهم كثير ، ثم عفى عنهم وكتب لهم أمان . ومنع الناس كافة من الدخول من باب القاهرة ، ومنع الناس من المشى ملاصق القصر ، وقتل قاضى القضاة حسين بن النعمان وأحرق بالنار ، وقتل عددا كثيرا من الناس ضربت أعناقهم

وفى سنة ست وتسعين خرج أبو ركوة يدعو الى نفسه ، وادعى أنه من بنى أمية . فقام بأمره بنو قرة لكثرة ما أوقع بهم الحاكم وبايعوه ، واستجاب له لواتة ومزانة وزنادة ، وأخذ برقة ، وهزم جيوش الحاكم غير مرة وغنم ما معهم ، فخرج لقتاله القائد فضل بن صالح فى ربيع الأول وواقعه ، فانهزم منه فضل ، واشتد الاضطراب بمصر ، وتزايدت الأسعار .

واشتد الاستعداد لمحاربة أبى ركوة ، ونزلت العساكر بالجيزة ، وسار أبو ركوة ، فواقعه القائد فضل ، وقتل عدة ممن معه . فعظم الأمر ، واشتد الخوف ، وخرج الناس فباتوا بالشوارع خوفا من هجوم عساكر أبى ركوة . واستمرت الحروب ، فانهزم أبو ركوة فى ثالث ذى الحجة الى الفيوم ، وتبعه القائد فضل — بعد أن بعث الى القاهرة بستة آلاف رأس ومائة أسير — الى أن قبض عليه ببلاد النوبة ، وأحضر الى القاهرة فقتل بها ، وخلع على القائد فضل ، وسيرت البشائر بقتله فى الأعمال .

وفى سنة سبع وتسعين أمر بمحو سب السلف ، فمحى سائر ما كتب من ذلك . وغلت الأسعار لنقص ماء النيل ، فانه بلغ ستة عشر أصبعا من سبعه عشر ذراعا ثم نقص ، ومات ينجوتكين فى ذى الحجة ، واشتد الغلاء فى سنة ثمان وتسعين ، وولى على بن فلاح دمشق ، وقبض جميع ما هو محبس على الكنائس وجعل فى الديوان ، وأحرق عدة صلبان على باب الجامع بمصر ، وكتب الى سائر الأعمال بذلك .

وفى سادس عشر رجب قرر مالك بن سعيد الفارقى فى وظيفة قضاء القضاة ، وتسلم كتب الدعوة التى تقرأ بالقصر على الأولياء ، وصرف عبد العزيز بن النعمان عن ذلك ، وصرف قائد القواد الحسين بن جوهر عما كان يليه من النظر فى سابع شعبان ، وقرر مكانه صالح بن على الروذبادى ، وقرر فى ديوان الشام مكانه أبو عبد الله الموصلى الكاتب ، وأمر حسين بن جوهر وعبد العزيز بلزوم دورهما ، ومنعا من الركوب وسائر أولادهما ، ثم عفا عنهما بعد أيام وأمرا بالركوب .

وتوقفت زيادة النيل ، فاستسقى الناس مرتين ، وأمر بابطال عدة مكوس ، وتعذر وجود الخبز لغلائه وقلته ، وفتح الخليج فى رابع توت والماء على خمسة عشر * ذراعا ، فاشتد الغلاء .

وفى تاسع المحرم — وهو نصف توت — نقص ماء النيل ولم يوف ستة عشر ذراعا ،

(*) ص٢٨٦ جـ٢ ، ط. بولاق .

فمنع الناس من التظاهر بالغناء ، ومن ركوب البحر للتفرج ، ومنع من بيع المسكرات ، ومنع الناس كافة من الخروج قبل الفجر وبعد العشاء الى الطرقات . واشتد الأمر على الكافة لشدة ما داخلهم من الخوف ، مع شدة الغلاء وتزايد الأمراض في الناس والموت

فلما كان في رجب انحط الأسعار ، وقرىء سجل فيه : يصوم الصائمون على حسابهم ويفطرون ، ولا يعارض أهل الرؤية فيما هم عليه صائمون ومفطرون . وصلاة الخمسين للذى جاءهم فيها يصلون ، وصلاة الضحى وصلاة التراويح لا مانع لهم منها ، ولا هم عنها يدفعون . يخمس في التكبير على الجنائز المخمسون ، ولا يمنع من التربيع عليها المربعون . يؤذن بحى على خير العمل المؤذنون ولا يؤذى من بها لا يؤذنون . لا يسب أحد من السلف ، ولا يحتسب على الواصف فيهم بما وصف والحالف منهم بما حلف . لكل مسلم مجتهد في دينه اجتهاده

ولقب صالح بن على الروذبادى بثقة ثقات السيف والقلم ، وأعيد القاضى عبد العزيز بن النعمان الى النظر في المظالم . وتزايدت الأمراض ، وكثر الموت ، وعزت الأدوية ، وأعيدت المكوس التى رفعت ، وهدمت كنائس كانت بطريق المقس ، وهدمت كنيسة كانت بحارة الروم من القاهرة ونهب ما فيها وقتل كثير من الخدام ومن الكتاب ومن الصقالبة ، بعدما قطعت أيدى بعضهم من الكتاب بالشطور على الخشبة من وسط الذراع ، وقتل القائد فضل بن صالح في ذى القعدة .

وفي حادى عشر صفر صرف صالح بن على الروذبادى ، وقرر مكانه ابن عبدون النصرانى الكاتب ، فوقع عن الحاكم ونظر ، وكتب بهدم كنيسة قمامة ، وجدد ديوان — يقال له الديوان المفرد — برسم من يقبض ماله من المقتولين وغيرهم ، وكثرت الأمراض ، وعزت الأدوية ، وشهر جماعة وجد عندهم فقاع وملوخية ودلينس وضربوا ، وهدم دائر القصر .

واشتد الأمر على النصارى واليهود في الزامهم لبس الغيار ، وكتب ابطال أخذ الخمس والنجاوى والفطرة ، وفر الحسين بن جوهر وأولاده وعبد العزيز بن النعمان ، وفر أبو القاسم الحسين بن المغربى ، وكتب عدة أمانات لعدة طوائف من شدة خوفهم ، وقطعت قراءة مجالس الحكمة بالقصر ، ووقع التشديد في المنع من المسكرات ، وقتل كثير من الكتاب والخدام والفراشين ، وقتل صالح بن على الروذبادى في شوال .

وفي رابع المحرم سنة احدى وأربعمائة ، صرف الكافى بن عبدون عن النظر والتوقيع ، وقرر بدله أحمد بن محمد القشورى الكاتب في الوساطة والسفارة ، وحضر الحسين بن جوهر وعبد العزيز بن النعمان الى القاهرة فأكرما ، ثم صرف ابن القشورى بعد عشرة أيام من استقراره وضربت عنقه ، وقرر بدله زرعة بن عيسى بن نسطورس الكاتب النصرانى ، ولقب بالشافى .

ومنع الناس من الركوب في المراكب في الخليج ، وسدت أبواب الدور التى على

الخليج والطاقات المطلة عليه ، وأضيف الى قاضي القضاة مالك بن سعيد النظر فى المظالم ، وأعيدت مجالس الحكمة وأخذ مال النجوى ، وقتل ابن عبدون وأخذ ماله ، وضرب جماعة وشهروا من أجل بيعهم الملوخية والسمك الذى لا قشر له وبسبب بيع النبيذ .

وقتل الحسين بن جوهر وعبد العزيز بن النعمان فى ثانى عشر جمادى الآخرة سنة احدى وأربعمائة رأحيط بأموالهما ، وأبطلت عدة مكوس ، ومنع الناس من الغناء واللهو ومن بيع المغنيات ومن الاجتماع بالصحراء .

وفى هذه السنة خلع حسان بن مفرج بن دغفل بن الجراح طاعة الحاكم ، أقام أبا الفتوح حسين بن جعفر الحسنى أمير مكة خليفة ، وبايعه ودعا الناس الى طاعته ومبايعته ، وقاتل عساكر الحاكم .

وفى سنة اثنتين وأربعمائة ، منع من بيع الزبيب وكوتب بالمنع من حمله ، وألقى فى بحر النيل منه شىء كثير وأحرق شىء كثير . ومنع النساء من زيارة القبور ، فلم ير فى الأعياد بالمقابر امرأة واحدة ، ومنع من الاجتماع على شاطىء النيل للتفرج ، ومنع من بيع العنب الا أربعة أرطال فما دونها ، ومنع من عصره ، وطرح كثير منه وديس فى الطرقات ، وغرق كثير منه فى النيل ، ومنع من حمله ، وقطعت كروم الجيزة كلها ، وسير الى الجهات بذلك .

وفى سنة ثلاث وأربعمائة نزع السعر ، وازدحم الناس على الخبز . وفى ثانى ربيع الأول منها هلك عيسى بن نسطورس ، فأمر النصارى بلبس السواد وتعليق صلبان الخشب فى أعناقهم ، وأن يكون الصليب ذراعا فى مثله ، وزنته خمسة أرطال ، وأن تكون مكشوفا بحيث يراه الناس ، ومنعوا من ركوب الخيل ، وأن يكون كوبهم البغال والحمير بسروج الخشب والسيور السود بغير حلية ، وأن يشدوا الزنانير ، ولا يستخدموا مسلما ولا يشتروا عبدا ولا أمة ، وتتبعت آثارهم فى ذلك فأسلم منهم عدة

وقرر حسين بن طاهر الوزان فى الوساطة والتوقيع عن الحاكم فى تاسع عشرى ربيع الأول منها ، ولقب أمين الأمناء ونقش الحاكم على خاتمه « بنصر الله العظيم الولى ★ ينتصر الامام أبو علي » ، وضرب جماعة بسبب اللعب بالشطرنج وهدمت الكنائس ، وأخذ جميع ما فيها وما لها من الرباع ، وكتب بذلك الى الأعمال فهدمت بها

وفيها لحق أبو الفتح بمكة ، ودعا للحاكم وضرب السكة باسمه وأمر الحاكم ألا يقبل أحد له الأرض ، ولا يقبل ركابه ولا يده عند السلام عليه فى المواكب ، فان الانحناء الى الأرض لمخلوق من صنيع الروم ، وألا تزاد على قولهم السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، ولا تصلى أحد عليه فى مكاتبة ولا مخاطبة ، ويقتصر فى مكاتبته على سلام الله وتحياته ونوامى بركاته على أمير المؤمنين ، ويدعى له بما يتفق من الدعاء لا غير فلم يقل الخطباء يوم الجمعة سوى · اللهم صلّ على محمد المصطفى ، وسلم على أمير المؤمنين على المرتضى ، اللهم وسلم على أمراء المؤمنين آباء

(★) ص٢٨٧ جـ٢ ، ط. بولاق .

أمير المؤمنين ، اللهم اجعل أفضل سلامك على عبدك وخليفتك .

ومنع من ضرب الطبـول والأبواق حـول القصر ، فصاروا يطوفون بغير طبل ولا بوق . وكثرت انعامات الحاكم ، فتوقف أمين الأمناء حسين بن طاهر الوزان فى امضائها . فكتب اليه الحاكم بخطه بعد البسملة : « الحمد لله كما هو أهله :

أصبحت لا أرجو ولا أتقى
الا الهى وله الفضل
جدى نبيى وامامى أبى
ودينى الاخلاص والعدل

المال مال الله عز وجل ، والخلق عبـاد الله ، ونحن أمناؤه فى الأرض . أطلق أرزاق الناس ولا تقطعها والسلام » .

وركب الحاكم يوم عيد الفطر الى المصـلى بغير زينة ولا جنائب ولا أبهة ، سوى عشرة أفراس تقاد بسروج ولجم محلاة بفضة بيضاء خفيفة ، وبنود ساذجة ، ومظلة بيضاء بغير ذهب ، عليـه بياض بغير طرز ولا ذهب ولا جوهر فى عمامته ، ولم يفرش المنبر ، ومنع النـاس من سب السـلف ، وضرب فى ذلك وشهر ، وصلى صلاة عيـد النحر كما صلى صلاة عيد الفطر من غير أبهة ، ونحر عنه عبد الرحيم بن الياس بن أحمد بن المهدى ، وأكثر الحاكم من الركوب الى الصحراء بحـذاء فى رجله وفوطة على رأسه .

وفى سنة أربع وأربعمائة ألزم اليهود أن يكون فى أعناقهم جرس اذا دخلوا الحمام ، وأن يكون فى أعناق النصارى صلبان ، ومنع الناس من الكلام فى النجوم ، وأقيم المنجمون من الطرقات ، وطلبوا فتغيبوا ونفوا . وكثرت هبات الحاكم وصدقاته وعتقه ، وأمر اليهود والنصارى بالخروج من مصر الى بلاد الروم وغيرها .

وأقيم عبد الرحيم بن الياس ولى العهد ، وأمر أن يقال فى السلام عليه « السلام على ابن عم أمير المؤمنين وولى عهد المسلمين » ، وصـار يجلس بمكان فى القصر ، وصـار الحاكم يركب بدراعة صوف بيضاء ، ويتعمم بفوطة وفى رجله حذاء عربى بقبالين ، وعبد الرحيم يتـولى النظر فى أمور الدولة كلها . وأفرط الحاكم فى العطاء ، ورد ما كان أخذ من الضياع والأملاك الى أربابها .

وفى ربيع الآخر أمر بقطع يدى أبى القاسم الجرجانى ، وكان يكتب للقائد غين ، ثم قطع يد غين فصار مقطوع اليدين ، وبعث اليـه الحاكم بعد قطع يديه بألف من الذهب والثياب ثم بعد ذلك أمر بقطع لسانه فقطع ، وأبطل عدة مكوس ، وقتل الكلاب كلها ، وأكثر من الركوب فى الليل .

ومنع النساء من المشى فى الطرقات ، فلم تر امرأة فى طريق ألبتة ، وأغلقت حماماتهن ، ومنع الأساكفة من عمل خفـافهن ، وتعطلت حوانيتهم . واشتدت الاشاعة بوقوع السيف فى الناس فتهاربوا ، وغلقت الأسواق فلم يبع شىء . ودعى لعبـد الرحيم بن اليـاس على المنابر ، وضربت السكة باسمه بولاية العهد .

وفى سنة خمس وأربعمائة قتل مالك بن سعيد الفارقى فى ربيع الآخر . وكانت مدة نظره فى قضاء القضاة ست سنين وتسعة أشهر وعشرة أيام ، وبلغ اقطاعه فى السنة خمسة عشر ألف دينار . وتزايد ركوب الحاكم حتى كان يركب فى كل يوم عدة مرات ، واشترى الحمير وركبها بدل الخيل .

وفى جمادى الآخرة منها قتل الحسين بن طاهر الوزان ، فكانت مدة نظره فى الوساطة سنتين وشهرين وعشرين يوما ، فأمر أصحاب الدواوين بلزوم دواوينهم . وصار الحاكم يركب حمارا بشاشية مكشوفة بغير عمامة ، ثم أقام عبد الرحيم بن أبى السيد الكاتب وأخاه أبا عبد الله الحسين فى الوساطة والسفارة ، وأقر فى وظيفة قضاء القضاة أحمد بن محمد ابن أبى العوام .

وخرج الحاكم عن الحد فى العطاء حتى أقطع نواتية المراكب والمشاعلية وبنى قرة ، فمما أقطع الاسكندرية والبحيرة ونواحيهما . وقتل ابنى أبى السيد ، فكانت مدة نظرهما اثنين وستين يوما . وقلد الوساطة فضل بن جعفر بن الفرات ، ثم قتله فى اليوم الخامس من ولايته . وغلب بنو قرة على الاسكندرية وأعمالها .

وأكثر الحاكم من الركوب ، فركب فى يوم ست مرات : مرة على فرس ، ومرة على حمار ، ومرة فى محفة تحمل على الأعناق ، ومرة فى عشارى فى النيل بغير عمامة . وأكثر من اقطاع الجند والعبيد الاقطاعات ، وأقام ذا الرياستين قطب الدولة أبا الحسن على بن جعفر بن فلاح فى الوساطة والسفارة .

وولى عبد * الرحيم بن الياس دمشق فسار اليها فى جمادى الآخرة سنة تسع وأربعمائة ، فأقام فيها شهرين ، ثم هجم عليه قوم فقتلوا جماعة ممن عنده ، وأخذوه فى صندوق وحملوه الى مصر ، ثم أعيد الى دمشق ، فأقام بها الى ليلة عيد الفطر وأخرج منها .

فلما كان لليلتين بقيتا من شوال سنة عشر وأربعمائة ، فقد الحاكم — وقيل ان أخته قتلته ، وليس بصحيح — وكان عمره ستا وثلاثين سنة وسبعة أشهر ، وكانت مدة خلافته خمسا وعشرين سنة وشهرا ، وكان جوادا ، سفاكا للدماء ، قتل عددا لا يحصى ، وكانت سيرته من أعجب السير ، وخطب له على منابر مصر والشام وأفريقية والحجاز .

وكان يشتغل بعلوم الأوائل ، وينظر فى النجوم ، وعمل رصدا ، واتخذ بيتا فى المقطم ينقطع فيه عن الناس لذلك . ويقال انه كان يعتريه جفاف فى دماغه ، فلذلك كثر تناقضه . وما أحسن ما قال فيه بعضهم : كانت أفعاله لا تعلل ، وأحلام وساوسه لا تأول .

وقال المسبحى : وفى محرم سنة خمس عشرة وأربعمائة ، قبض على رجل من بنى حسين ثار بالصعيد الأعلى ، فأقر بأنه قتل الحاكم بأمر الله فى جملة أربعة أنفس تفرقوا فى البلاد ، وأظهر قطعة من جلدة رأس الحاكم ، وقطعة من الفوطة التى كانت عليه . فقيل له : لم قتلته ؟

فقال : غيرة لله وللاسلام .

فقيل له : كيف قتلته ؟

(*) ص٢٨٨ جـ٢ ، ط. بولاق .

فأخرج سكينا ضرب بها فؤاده فقتل نفسه ، وقال : هكذا قتلته . فقطع رأسه ، وأنفذ به الى الحضرة مع ما وجد معه .

وهذا هو الصحيح فى خبر قتل الحاكم ، لا ما تحكيه المشارقة فى كتبهم من أن أخته قتلته .

جامع الفيلة

هذا الجامع بسطح الجرف المطل على بركة الحبش — المعروف الآن بالرصد — بناه الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالى فى شعبان سنة ثمان وسبعين وأربعمائة ، وبلغت النفقة على بنائه ستة آلاف دينار .

وانما قيل له جامع الفيلة لأن فى قبلته تسع قباب فى أعلاه ذات قناطر ، اذا رآها الانسان من بعيد شبهها بمدرعين على فيلة ، كالتى كانت تعمل فى المواكب أيام الأعياد ، وعليها السرير وفوقها المدرعون ، أيام الخلفاء .

ولما كمل أقام فى خطابته الشريف الزكى أمين الدولة أبا جعفر محمد بن محمد بن هبة الله بن على الحسينى الأفطسى النسابة الكاتب الشاعر الطرابلسى بعد صرفه من قضاء الغربية .

فلما رقى المنبر أول خطبة أقيمت فى هذا الجامع ، قال : بسم الله الحمد لله ، وارتج عليه فلم يدر ما يقول . وكان هناك الشيخ أبو القاسم على بن منجب بن الصيرفى الكاتب وولده مختص الدولة أبو المجد ، وأبو عبد الله ابن بركات النحوى ووجوه الدولة . فلما أضجر من حضر ، نزل عن المنبر وقد حم ، فتقدم قيم الجامع وصلى ، ومضى الشريف الى داره فاعتل ومات .

وكان قد ولى قضاء عسقلان وغيرها ، ثم قدم الى مصر فولى الحكم بالمحلة ، وولى ديوان الأحباس . وكان أحد الأعيان الأدباء العارفين بالنسب ، ومن الشعراء المجيدين والنحاة اللغويين . ولد بطرابلس الشام فى سنة اثنتين وستين وأربعمائة ، وقدم الى القاهرة فى سنة احدى وخمسمائة ومدح الأفضل ، ومات فى سنة سبع عشرة أو ثمان عشرة وخمسمائة .

وقد ترشح للنقابة بمصر ولم ينلها مع تطلعه اليها ، وذيل كتاب أبى الغنائم الزيدى النسابة . ومن شعره بديهيا ، وقد نام مع جاريته على سطوح ، فطلع القمر عليهما فارتاعا من كشف الجيران عليهما :

ولما تلاقينا وغاب رقيبنا
ورمت التشكى فى خلو وفى سر
بدا ضوء بدر فافترقنا لضوئه
فيامن رأى بدرا ينم على بدر

وأهل المطالب يذكرون أن الأفضل وجد بموضع الصهريج مطلبا ، فختم عليه أشهرا الى أن نقله ، وعمله صهريجا وبنى عليه هذا المسجد .

وهذا الشرف الذى عليه جامع الفيلة منظرة فى غاية الحسن لأن فى قبليه بركة الحبش ، وبستان الوزير المغربى ، والعدوية ودير

النسطورية ، وبئر أبى سلامة وهى بئر مدورة برسم الغنم ، وبئر النعش كان يستقى منها أصحاب الزوايا ، وهى بجوار عفصة الصغرى ، وهى بئر أبى موسى بن أبى خليد . وسميت بئر النعش لأنها على هيئة النعش ، وماؤها يهضم الطعام وهو أصح الأمواه .

وشرقى هذا الجبل جبل المقطم ، والجبانة والمغافر والقرافة ، وآخر الأكحول ، وريحان ورعين والكلاع والأكسوع .

وغربى هذا الجبل المعشوق والنيل ، وبستان اليهودى الى القبلة ، وطموه والأهرام وراشدة .

ويحرى هذا الجبل بستان الأمير تميم ، وقنطرة خليج بنى وائل ، ودير المعدلين ، وعقبة يحصب ، ومحرس قسطنطين ، والشرف وغير ذلك .

وهذا الجامع لا تقام فيه اليوم جمعة ولا جماعة ، لخراب * ما حوله من القرافة وراشدة ، وينزل فيه أحيانا طائفة من العرب بابلهم يقال لهم المسلمية . وعما قليل يدثر كما دثر غيره .

جامع المقياس

هذا الجامع بجوار مقياس النيل من جزيرة الفسطاط أنشأه ... ...

جامع الأقمر

قال ابن عبد الظاهر : كان مكانه علافون والحوض مكان المنظرة ، فتحدث الخليفة الآمر مع الوزير المأمون بن البطايحى فى انشائه جامعا . فلم يترك قدام القصر دكانا ، وبنى تحت الجامع المذكور فى أيامه دكاكين ومخازن من جهة باب الفتوح لا من صوب القصر .

وكمل الجامع المذكور فى أيامه ، وذلك فى سنة تسع عشرة وخمسمائة ، وذكر أن اسم الآمر والمأمون عليه .

وقال غيره : واشترى له حمام شمول ودار النحاس بمصر ، وحبسهما على سدنته ووقود مصابيحه ومن يتولى أمره ويؤذن فيه . وما زال اسم المأمون والآمر على لوح فوق المحراب ، وفيه تجديد الملك الظاهر بيبرس للجامع المذكور . ولم تكن فيه خطبة ، لكنه يعرف بالجامع الأقمر .

فلما كان فى شهر رجب سنة تسع وتسعين وسبعمائة ، جدده الأمير الوزير المشير الأستادار يلبغا بن عبد الله السالمى ، أحد المماليك الظاهرية ، وأنشأ بظاهر بابه البحرى حوانيت يعلوها طباق ، وجدد فى صحن الجامع بركة لطيفة يصل اليها الماء من ساقية ، وجعلها مرتفعة ينزل منها الماء الى من يتوضأ من بزابيز نحاس ، ونصب فيه منبرا .

فكانت أول جمعة جمعت فيه رابع شهر رمضان من السنة المذكورة . وخطب فيه شهاب الدين أحمد بن موسى الحلبى — أحد نواب القضاة الحنفية — وارتج عليه ، واستمر الى أن مات فى سابع عشرى شهر ربيع الأول سنة احدى وثمانمائة . وبنى على يمنة المحراب البحرى مئذنة ، وبيض الجامع كله ، ودهن صدره بلازورد وذهب .

(*) ص٢٨٩ ، جـ٢ ، ط. بولاق .

فقلت له : قد أعجبنى ما صنعت بهذا الجامع ، ما خلا تجديد الخطبة فيه وعمل بركة الماء . فان الخطبة غير محتاج اليها هاهنا لقرب الخطب من هذا الجامع ، وبركة الماء تضيق الصحن ، وقد أنشأت ميضأة بجوار بابه الذى من جهة الركن المخلق .

فاحتج لعمل المنبر بأن ابن الطوير قال فى كتاب « نزهة المقلتين فى أخبار الدولتين » عند ذكر جلوس الخليفة فى المواليد الستة : ويقدم خطيب الجامع الأزهر فيخطب كذلك ، ثم يحضر خطيب الجامع الأقمر ويخطب كذلك .

قال : فهذا أمر قد كان فى الدولة الفاطمية ، وما أنا بالذى أحدثته ، وأما البركة ففيها عون على الصلاة لقربها من المصلين . وجعل فوق المحراب لوحا مكتوبا فيه ما كان فيه أولا ، وذكر فيه تجديده لهذا الجامع ، ورسم فيه نعوته وألقابه ، وجدد أيضا حوض هذا الجامع الذى تشرب منه الدواب ، وهو فى ظهر الجامع تجاه الركن المخلق .

وبئر هذا الجامع قديمة قبل الملة الاسلامية ، كانت فى دير من ديارات النصارى بهذا الموضع . فلما قدم القائد جوهر بجيوش المعز لدين الله ، فى سنة ثمان وخمسين وثلثمائة ، أدخل هذا الدير فى القصر — وهو موضع الركن المخلق تجاه الحوض المذكور — وجعل هذه البئر مما ينتفع به فى القصر .

وهى تعرف ببئر العظام ، وذلك أن جوهرا نقل من الدير المذكور عظاما كانت فيه من رمم قوم يقال انهم من الحواريين ، فسميت بئر العظام ، والعامة تقول الى اليوم بئر المعظمة ، وهى بئر كبيرة فى غاية السعة . وأول ما أعرف من اضافتها الى الجامع الأقمر أن العماد الدمياطى ركب على فوهتها هذه المحال التى بها الآن ، وهى من جيد المحال ، وكان تركيبها بعد السبعمائة فى أيام قاضى القضاة عز الدين عبد العزيز بن جماعة الشافعى .

وبهذا الجامع درس من قديم الزمان . ولم تزل مئذنته التى جددها السالمى والبركة الى سنة خمس عشرة وثمانمائة . فولى نظر الجامع بعض الفقهاء ، فرأى هدم المئذنة من أجل ميل حدث بها فهدمها ، وأبطل الماء من البركة لافساد الماء بمروره جدار الجامع القبلى . والخطبة قائمة به الى الآن .

« الآمر بأحكام الله » : أبو على المنصور ابن المستعلى بالله أبى القاسم أحمد بن المستنصر بالله أبى تميم معد بن الظاهر لاعزاز دين الله أبى الحسن على بن الحاكم بأمر الله أبى على منصور . ولد يوم الثلاثاء ثالث عشر المحرم سنة تسعين وأربعمائة ، وبويع له بالخلافة يوم مات أبوه ، وهو طفل له من العمر خمس سنين وأشهر وأيام ، فى يوم الثلاثاء سابع عشر صفر سنة خمس وتسعين . أحضره الأفضل بن أمير الجيوش ، وبايع له ونصبه مكان أبيه ، ونعته بالآمر بأحكام الله .

وركب الأفضل فرسا ، وجعل فى السرج شيئا وأركبه عليه لينمو شخص الآمر ، وصار ظهره فى حجر الأفضل ، فلم يزل تحت حجره حتى قتل الأفضل ليلة عيد الفطر سنة خمس عشرة وخمسمائة . فاستوزر بعده القائد أبا

عبد الله محمد * بن فاتك البطايحى ، ولقبه بالمأمون . فقام بأمر دولته الى أن قبض عليه فى ليلة السبت رابع شهر رمضان سنة تسع عشرة وخمسمائة .

فتفرغ الآمر لنفسه ، ولم يبق له ضد ولا مزاحم ، وبقى بغير وزير ، وأقام صاحبى ديوان : أحدهما جعفر بن عبد المنعم ، والآخر سامرى يقال له أبو يعقوب ابراهيم ، ومعهما مستوف يعرف بابن أبى نجاح كان راهبا .

ثم تحكم هذا الراهب فى الناس ، وتمكن من الدواوين ، فابتدأ فى مطالبة النصارى ، وحقق فى جهاتهم الأموال ، وحملها أولا فأولا . ثم أخذ فى مصادرة بقية المباشرين والمعاملين والضمناء والعمال ، وزاد الى أن عم ضرره جميع الرؤساء والقضاة والكتاب والسوقة ، بحيث لم يخل أحد من ضرره . فلما تفاقم أمره قبض عليه الآمر ، وضرب بالنعال حتى مات بالشرطة ، فجر الى كرسى الجسر ، وسمر على لوح وطرح فى النيل ، وحذف حتى خرج الى البحر المالح .

فلما كان يوم الثلاثاء رابع عشر ذى القعدة سنة أربع وعشرين وخمسمائة ، وثب جماعة على الآمر وقتلوه كما ذكر عند خبر الهودج . وكان كريما سمحا الى الغاية ، كثير النزهة ، محبا للمال والزينة ، وكانت أيامه كلها لهوا وعيشة راضية ، لكثرة عطائه وعطاء حواشيه ، بحيث لم يوجد بمصر والقاهرة اذ ذاك من يشكو زمانه ألبتة ... الى أن نكد بالراهب على الناس ، فقبحت سيرته ، وكثر ظلمه واغتصابه للأموال .

وفى أيامه ملك الفرنج كثيرا من المعاقل والحصون بسواحل الشام . فملكت عكا فى شعبان سنة سبع وتسعين ، وغزة فى رجب سنة اثنتين وخمسمائة ، وطرابلس فى ذى الحجة منها ، وبانياس وجبيل وقلعة تبنين فيها أيضا ، وملكوا صور فى سنة ثمان عشرة وخمسمائة .

وكثرت المرافعات فى أيامه ، وأحدثت رسوم لم تكن ، وعمر الهودج بالروضة ودكة ببركة الحبش ، وعمر تنيس ودمياط ، وجدد قصر القرافة . وكانت نفسه تحدثه بالسفر والغارة الى بغداد ، ومن شعره فى ذلك :

دع اللوم عنى لست منى بموثق
فلا بد لى من صدمة المتحقق
وأسقى جيادى من فرات ودجلة
وأجمع شمل الدين بعد التفرق

وقال :

أما والذى حجت الى ركن بيته
جراثيم ركبان مقلدة شهبا
لأقتحمن الحرب حتى يقال لى
ملكت زمام الحرب فاعتزل الحربا
وينزل روح الله عيسى بن مريم
فيرضى بنا صحبا ونرضى به صحبا

وكان أسمر شديد السمرة ، يحفظ القرآن ويكتب خطا ضعيفا وهو الذى جدد رسوم الدولة ، وأعاد اليها بهجتها بعدما كان الأفضل أبطل ذلك ، ونقل الدواوين والأسمطة من القصر بالقاهرة الى دار الملك بمصر كما ذكر هناك .

(*) ص٢٩٠ جـ٢ ، ط . بولاق .

وقضاته ابن ذكا النابلسى ، ثم نعمة الله بن بشير ، ثم الرشيد محمد بن قاسم الصقلى ، ثم الجليس بن نعمة الله بن بشير النابلسى ، ثم صرفه ثانيا بمسلم بن الرسغى ، وعزله بأبى الحجاج يوسف بن آيوب المغربى ، ثم مات ، فولى محمد بن هبة الله بن ميسر . وكتاب انشائه سنا الملك أبو محمد الزبيدى الحسنى ، والشيخ أبو الحسن بن أبى أسامة ، وتاج الرياسة أبو القاسم بن الصيرفى ، وابن أبى الدم اليهودى . وكان نقش خاتمه « الامام الآمر بأحكام الله أمير المؤمنين » ، ووقع فى آخر أيامه غلاء قلق الناس منه .

وكان جريئا على سفك الدماء ، وارتكاب المحظورات واستحسان القبائح . وقتل وعمره أربع وثلاثون سنة وتسعة أشهر وعشرون يوما : منها مدة خلافته تسع وعشرون سنة وثمانية أشهر ونصف ، وما زال محجورا عليه حتى قتل الأفضل . وكان يركب للنزهة دائما عندما استبد فى يومى السبت والثلاثاء ، ويتحول فى أيام النيل بحرمه الى اللؤلؤة على الخليج ، واختص بغلاميه برغش وهزار الملوك .

« يلبغا السالمى » أبو المعالى عبد الله الأمير سيف الدين الحنفى الصوفى الظاهرى . كان اسمه فى بلاده يوسف ، وهو حر الأصل ، وآباؤه مسلمون . فلما جلب من بلاد المشرق سمى يلبغا ، وقيل له السالمى نسبة الى سالم تاجره الذى جلبه . فترقى فى خدم السلطان الملك الظاهر برقوق ، الى أن ولاه نظر خانقاه الصلاح سعيد السعداء ، فى ثامن عشر جمادى الآخرة سنة سبع وتسعين وسبعمائة ، فأخرج كتاب الوقف ، وقصد أن يعمل بشرط الواقف وأخرج منها جماعة من بياض الناس . فجرت أمور ذكرت فى خبر الخانقاه .

وفى سابع عشرى صفر سنة ثمانمائة ، أنعم عليه الملك الظاهر بامرة عشرة عوضا عن الأمير بهادر قطيلس ، ثم نقله الى امرة طبلخاناة ، ثم جعله ناظرا على الخانقاه الشيخونية بالصليبة فى تاسع شعبان سنة احدى وثمانمائة . فعسف بمباشريها ، وأراد حملهم على مر الحق فنفرت منه القلوب * .

ولما مرض الظاهر جعله أحد الأوصياء على تركته . فقام بتحليف المماليك السلطانية للملك الناصر فرج بن برقوق ، والانفاق عليهم بحضرة الناصر ، فأنفق عليهم كل دينار من حساب أربعة وعشرين درهما . ولما انقضت النفقة نودى فى البلد أن صرف كل دينار ثلاثون درهما ، ومن امتنع نهب ماله وعوقب ، فحصل للناس من ذلك شدة .

وكان قد كثر القبض على الأمراء بعد موت الظاهر . فتحدث مع الأمير الكبير أيتمش ، القائم بتدبير دولة الناصر فرج بعد موت أبيه ، فى أن يكون على كل أمير من المقدمين خمسون ألف درهم ، وعلى كل أمير من الطبلخاناه عشرون ألف درهم ، وعلى كل أمير عشرة خمسة آلاف درهم ، وعلى كل أمير خمسة ألفا درهم وخمسمائة درهم . فرسم بذلك ، وعمل به مدة أيام الناصر ، وحصل به رفق للأمراء ومباشريهم .

ثم خلع عليه واستقر أستادار السلطان ، عوضا عن الأمير الوزير تاج الدين عبد الرزاق

(*) ص٢٩١ جـ٢ ، ط. بولاق .

عشرى ذى القعدة من السنة المذكورة . فأبطل تعريف منية بنى خصيب ، وضمان العرصة وأخصاص الكيالين ، وكتب بذلك مرسوما سلطانيا ، وبعث به الى والى الأشمونين ، وأبطل وقر الشون السلطانية ، وما كان مقررا على البرد دار وهو فى الشهر سبعة آلاف درهم ، وما كان مقررا على مقدم المستخرج وهو فى الشهر ثلاثة آلاف درهم .

وكانت سماسرة الغلال تأخذ ممن يشترى شيئا من الغلة ، على كل اردب درهمين سمسرة وكيالة ولواحة وأمانة ، فألزمهم ألا يأخذوا عن كل اردب سوى نصف درهم ، وهدد على ذلك بالغرامة والعقوبة . وركب فى صفر سنة ثلاث وثمانمائة الى ناحية المنية وشبرا الخيمة من الضواحى بالقاهرة وكسر منها ما ينيف على أربعين ألف جرة خمر ، وخرب بها كنيسة كانت للنصارى ، وحمل عدة جرار فكسرها تحت قلعة الجبل وعلى باب زويلة ، وشدد على النصارى ، فلم يمكنه أمراء الدولة من حملهم على الصغار والمذلة فى ملبسهم .

وأمر فضرب الذهب كل دينار زنته مثقال واحد ، وأراد بذلك ابطال ما حدث من المعاملة بالذهب الافرنجى فضرب ذلك ، وتعامل الناس به مدة ، وصار يقال دينار سالمى الى أن ضرب الناصر فرج دنانير وسماها الناصرية ، وصار يحكم فى الأحكام الشرعية . فقلق منه أمراء الدولة وقاموا فى ذلك ، فمنع من الحكم الا فيما يتعلق بالديوان المفرد وغيره مما هو من لوازم الأستادار .

فرج وقد انهزم من تيمورلنك ، وشرع فى اقامة شعار المملكة والنفقة على العساكر التى رجعت منهزمة . فأخذ من بلاد الأمراء وبلاد السلطان عن كل ألف دينار فرسا أو خمسمائة درهم ثمنها ، وجبى من أملاك القاهرة ومصر وظواهرهما أجرة شهر ، وأخذ من الرزق عن كل فدان عشرة دراهم ، وعن الفدان من القصب المزروع والقلقاس والنيلة نحو مائة درهم ، وجبى من البساتين عن كل فدان مائة درهم .

وقام بنفسه وكبس الحواصل ليلا ونهارا ومعه جماعة من الفقهاء وغيرهم ، وأخذ مما فيها من الذهب والفضة والفلوس نصف ما يجد — سواء كان صاحب المال غائبا أو حاضرا — فعم ذلك أموال التجار والأيتام وغيرهم من سائر من وجد له مال ، وأخذ ما كان فى الجوامع والمدارس وغيرها من الحواصل . فشمل الناس من ذلك ضرر عظيم ، وصار يؤخذ من كل مائة درهم ثلاثة دراهم عن أجرة صرف ، وستة دراهم عن أجرة الرسول ، وعشرة دراهم عن أجرة نقيب . فنفرت منه القلوب ، وانطلقت الألسن بذمه والدعاء عليه .

وعرض مع ذلك الجند ، وألزم من له قدرة على السفر بالتجهز للسفر الى الشام لقتال تيمورلنك ، ومن وجده عاجزا عن السفر ألزمه بحمل نصف متحصل اقطاعه . فقبض عليه فى يوم الاثنين رابع عشر رجب سنة ثلاث وثمانمائة ، وسلم للقاضى سعد الدين ابراهيم ابن غراب ، وقرر مكانه فى الأستادارية . فلم

يزل الى يوم عيد الفطر من السنة المذكورة ، فأمر باطلاقه بعد أن حصر وأهين اهانة كبيرة ، ثم قبض عليه وضرب ضربا مبرحا حتى أشفى على الموت .

وأطلق فى نصف ذى القعدة وهو مريض ، فأخرج الى دمياط وأقام بها مدة ، ثم أحضر الى القاهرة ، وقلد وظيفة الوزارة فى سنة خمس وثمانمائة وجعل مشيرا . فأبطل مكوس البحيرة — وهو ما يؤخذ على ما يذبح من البقر والغنم — واستعمل فى أموره العسف ، وترك مداراة الأمراء واستعجل . فقبض عليه وعوقب ، وسجن الى أن أخرج فى رمضان سنة سبع وثمانمائة ، وقلد وظيفة الاشارة — وكانت للأمير جمال الدين يوسف الأستادار — فلم يترك عادته فى الاعجاب برأيه ، والاستبداد بالأمور ، واستعجال الأشياء قبل أوانها .

فقبض عليه فى ذى الحجة منها ، وسلم للأمير جمال الدين يوسف ، فعاقبه وبعث به الى الاسكندرية ، فسجن بها الى أن سعى جمال الدين فى قتله ، بمال بذله للناصر فيه حتى أذن له فى ذلك ، فقتل خنقا عصر يوم الجمعة وهو صائم السابع عشر من جمادى الآخرة سنة احدى عشرة وثمانمائة * ، رحمه الله .

وكان كثير النسك من الصلاة والصوم والصدقة . لا يخل بشىء من نوافل العبادات ، ولا يترك قيام الليل سفرا ولا حضرا ، ولا يصلى قط الا بوضوء جديد ، وكلما أحدث توضأ ، واذا توضأ صلى ركعتين . وكان يصوم يوما ويفطر يوما ، ويخرج فى كثرة الصدقات عن الحد ، ويقرأ فى كل ثلاثة أيام ختمة ، ولا يترك أوراده فى حال من الأحوال مع المروءة والهمة .

وسمع كثيرا من الحديث ، وقرأ بنفسه على المشايخ ، وكتب الخط المليح ، وقرأ القراءات السبع ، وعرف التصوف والفقه والحساب والنجوم ... الا أنه كان متهورا فى أخذ الأموال ، عسوفا لجوجا مصمما ، لا ينقاد الى أحد ، ويستبد برأيه فيغلط غلطات لا تحتمل ، ويستخف بغيره ، ويعجب بنفسه ، ويريد أن يجعل غاية الأمور بدايتها . فلذلك لم يتم له أمر .

(*) ص٢٩٢ جـ٢ ، ط. بولاق .

جامع الظافر

هذا الجامع بالقاهرة فى وسط السوق الذى كان يعرف قديما بسوق السراجين ، ويعرف اليوم بسوق الشوايين . كان يقال له الجامع الأفخر ، ويقال له اليوم جامع الفاكهيين ، وهو من المساجد الفاطمية . عمّره الخليفة الظافر بنصر الله أبو المنصور اسماعيل ابن الحافظ لدين الله أبى الميمون عبد المجيد ابن الآمر بأحكام الله منصور ، ووقف حوانيته على سدنته ومن يقرأ فيه .

قال ابن عبد الظاهر : بناه الظافر ، وكان قبل ذلك زريبة تعرف بدار الكباش ، وبناه فى سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة . وسبب بنائه أن خادما رأى من مشرف عال ذباحا وقد أخذ رأسين من الغنم ، فذبح أحدهما ورمى

سكينته ، ومضى ليقضي حاجته ، فأتى رأس الغنم الآخر وأخذ السكين بفمه ورماها فى البالوعة ، فجاء الجزار يطوف على السكين فلم يجدها ، وأما الخادم فانه استصرخ وخلصه منه . وطولع بهذه القضية أهل القصر ، فأمروا بعمله جامعا ، ويسمى الجامع الأفخر ، وبه حلقة تدريس وفقهاء ومتصدرون للقرآن . وأول ما أقيمت به الجمعة فى ... ... (١) .

جامع الصالح

هذا الجامع من المواضع التى عمرت فى زمن الخلفاء الفاطميين ، وهو خارج باب زويلة .

قال ابن عبد الظاهر : كان الصالح طلائع ابن رزيك — لما خيف على مشهد الامام الحسين رضى الله عنه اذ كان بعسقلان من هجمة الفرنج ، وعزم على نقله — قد بنى هذا الجامع ليدفنه به . فلما فرغ منه لم يمكنه الخليفة من ذلك ، وقال : لا يكون الا داخل القصور الزاهرة . وبنى المشهد الموجود الآن ودفن به .

وتم الجامع المذكور ، واستمر جلوس زين الدين الواعظ به وجضور الصالح اليه . فيقال ان الصالح لما حضرته الوفاة جمع أهله وأولاده ، وقال لهم فى جملة وصيته : ماندمت قط فى شىء عملته الا فى ثلاثة : الأول بنائى هذا الجامع على باب القاهرة فانه صار عونا لها ، والثانى توليتى لشاور الصعيد الأعلى ، والثالث خروجى الى بلبيس بالعساكر وانفاقى الأموال الجمة ، ولم أتم بهم الى الشام وأفتح بيت المقدس ، وأستأصل ساقة الفرنج . وكان قد أنفق فى العساكر فى تلك الدفعة مائة ألف دينار .

وبنى فى الجامع المذكور صهريجا عظيما ، وجعل ساقية على الخليج قريب باب الخرق تملأ الصهريج المذكور أيام النيل ، وجعل المجارى اليه . وأقيمت الجمعة فيه فى الأيام المعزية ، فى سنة بضع وخمسين وستمائة ، بحضور رسول بغداد الشيخ نجم الدين عبد الله البادرانى ، وخطب به أصيل الدين أبو بكر الأسعردى وهى الى الآن . ولما حدثت الزلزلة سنة اثنتين وسبعمائة تهدم ، فعمر على يد الأمير سيف الدين بكتمر الجوكندار .

« طلائع بن رزيك » : أبو الغارات الملك الصالح ، فارس المسلمين ، نصير الدين . قدم فى أول أمره الى زيارة مشهد الامام على بن أبى طالب رضى الله عنه ، بأرض النجف من العراق ، فى جماعة من الفقراء ، وكان من الشيعة الامامية ، وامام مشهد على رضى الله عنه يومئذ السيد ابن معصوم . فزار طلائع وأصحابه ، وباتوا هنالك .

فرأى ابن معصوم فى منامه على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وهو يقول له : قد ورد عليك الليلة أربعون فقيرا من جملتهم رجل يقال له طلائع بن رزيك من أكبر محبينا ، قل له اذهب فقد وليناك مصر .

فلما أصبح أمر أن ينادى : من فيكم طلائع ابن رزيك فليقم الى السيد ابن معصوم . فجاء طلائع وسلم عليه ، فقص عليه ما رأى .

(*) هكذا بياض فى الاصل .

فسار حينئذ الى مصر ، وترقى فى الخدم حتى ولى منية بنى خصيب . فلما قتل نصر بن عباس الخليفة الظافر ، بعث نساء القصر الى طلائع يستغثن به فى الأخذ بثأر الظافر ، وجعلن فى طى الكتب شعور النساء .

فجمع طلائع عندما وردت عليه الكتب الناس ، وسار يريد القاهرة لمحاربة الوزير عباس . فعندما قرب من البلد فر عباس ، ودخل طلائع الى القاهرة ، فخلع عليه خلع الوزارة ، ونعت بالملك الصالح فارس المسلمين نصير * الدين . فباشر البلاد أحسن مباشرة ، واستبد بالأمر لصغر سن الخليفة الفائز بنصر الله الى أن مات .

فأقام من بعده عبد الله بن محمد ، ولقبه بالعاضد لدين الله ، وبايع له ، وكان صغيرا لم يبلغ الحلم ، فقويت حرمة طلائع ، وازداد تمكنه من الدولة . فثقل على أهل القصر لكثرة تضييقه عليهم ، واستبداده بالأمر دونهم ، فوقف له رجال بدهاليز القصر ، وضربوه حتى سقط على الأرض على وجهه ، وحمل جريحا لا يعى الى داره ، فمات يوم الاثنين تاسع عشر شهر رمضان سنة ست وخمسين وخمسمائة .

وكان شجاعا كريما ، جوادا فاضلا ، محبا لأهل الأدب جيد الشعر ، رجل وقته فضلا وعقلا وسياسة وتدبيرا . وكان مهابا فى شكله عظيما فى سطوته ، وجمع أموالا عظيمة ، وكان محافظا على الصلوات فرائضها ونوافلها شديد المغالاة فى التشيع

(*) ص ٢٩٣ ، جـ ٢ ط . بولاق

صنف كتابا سماه « الاعتماد فى الرد على أهل العناد » جمع له الفقهاء وناظرهم عليه ، وهو يتضمن امامة على بن أبى طالب رضى الله عنه ، والكلام على الأحاديث الواردة فى ذلك . وله شعر كثير يشتمل على مجلدين فى كل فن ، فمنه فى اعتقاده :

يا أمة سلكت ضلالا بينا
حتى استوى اقرارها وجحودها
ملتم الى أن المعاصى لم يكن
الا بتقدير الاله وجودها
لو صح ذا كان الاله بزعمكم
منع الشريعة أن تقام حدودها
حاشا وكلا أن يكون الهنا
ينهى عن الفحشاء ثم يريدها

وله قصيدة سماها « الجوهرية فى الرد على القدرية » . وجدد الجامع الذى بالقرافة الكبرى ، ووقف ناحية بلقس : على أن يكون ثلثاها على الأشراف من بنى حسن وبنى حسين ابنى على بن أبى طالب رضى الله عنهم ، وسبع قراريط منها على أشراف المدينة النبوية ، وجعل فيها قيراطا على بنى معصوم امام مشهد على رضى الله عنه .

ولما ولى الوزارة مال على المستخدمين بالدولة وعلى الأمراء ، وأظهر مذهب الامامية وهو مخالف لمذهب القوم ، وباع ولايات الأعمال للأمراء بأسعار مقررة ، وجعل مدة كل متول ستة أشهر . فتضرر الناس من كثرة تردد الولاة على البلاد ، وتعبوا من ذلك . وكان له مجلس فى الليل يحضره أهل العلم ويدونون شعره ، ولم يترك مدة أيامه غزو الفرنج

وتسيير الجيوش لقتالهم فى البر والبحر ، وكان يخرج البعوث فى كل سنة مرارا .

وكان يحمل فى كل عام الى أهل الحرمين مكة والمدينة من الأشراف سائر ما يحتاجون اليه من الكسوة وغيرها . حتى يحمل اليهم ألواح الصبيان التى يكتب فيها ، والأقلام والمداد وآلات النساء ، ويحمل كل سنة الى العلويين الذين بالمشاهد جملا كبيرة . وكان أهل العلم يفدون اليه من سائر البلاد ، فلا يخيب أمل قاصد منهم .

ولما كان فى الليلة التى قتل صبيحتها قال : فى هذه الليلة ضرب فى مثلها أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه . وأمر بقربة ممتلئة ، فاغتسل وصلى على رأى الامامية مائة وعشرين ركعة أحيا بها ليله ، وخرج ليركب ، فعثر وسقطت عمامته عن رأسه وتشوشت .

فقعد فى دهليز دار الوزارة ، وأمر باحضار ابن الضيف — وكان يتعمم للخلفاء والوزراء وله على ذلك الجارى الثقيل — فلما أخذ فى اصلاح العمامة ، قال رجل للصالح : نعيذ بالله مولانا ، ويكفيه هذا الذى جرى أمرا يتطير منه ، فان رأى مولانا أن يؤخر الركوب فعل .

فقال : الطيرة من الشيطان ، ليس الى تأخير الركوب سبيل .

وركب فكان من ضربه ما كان ، وعاد محمولا ، فمات منها كما تقدم .

ذكر الأحباس وما كان يعمل فيها

اعلم أن الأحباس فى القديم لم تكن تعرف الا فى الرباع وما يجرى مجراها من المبانى ، وكلها كانت على جهات بر . فأما المسجد الجامع العتيق بمصر ، فكان يلى امامته فى الصلوات الخمس ، والخطابة فيه يوم الجمعة والصلاة بالناس صلاة الجمعة ، أمير البلد : فتارة يجمع للأمير بين الصلاة والخراج ، وتارة يفرد الخراج عن الأمير ، فيكون الأمير اليه أمر الصلاة بالناس والحرب ، ولآخر أمر الخراج وهو دون مرتبة أمير الصلاة والحرب . وكان الأمير يستخلف عنه فى الصلاة صاحب الشرطة اذا شغله أمر .

ولم يزل الأمر على ذلك الى أن ولى مصر عنبسة بن اسحاق بن شمر ، من قبل المستنصر ابن المتوكل ، على الصلاة والخراج . فقدمها لخمس خلون من ربيع الآخر سنة ثمان وثلاثين ومائتين ، وأقام الى مستهل رجب سنة اثنتين وأربعين ومائتين وصرف . فكان آخر من ولى مصر من العرب ، وآخر أمير صلى بالناس فى المسجد الجامع ، وصار يصلى بالناس رجل يرزق من بيت المال ، وكذلك المؤذنون ونحوهم .

وأما الأراضى فلم يكن سلف الأمة من الصحابة والتابعين يتعرضون لها ، وانما حدث ذلك بعد عصرهم * . حتى ان أحمد بن طولون لما بنى الجامع والمارستان والسقاية ، وحبس على ذلك الأحباس الكثيرة ، لم يكن فيها سوى الرباع ونحوها بمصر ، ولم يتعرض الى شىء من أراضى مصر ألبتة . وحبس أبو بكر محمد بن على الماردانى بركة الحبش وسيوط وغيرهما على الحرمين وعلى جهات بر ، وحبس غيره أيضا .

(*) ص ٢٩٤ ، جـ ٢ ، ط . بولاق .

فلما قدمت الدولة الفاطمية من الغرب الى مصر ، بطل تحبيس البلاد ، وصار قاضى القضاة يتولى أمر الأحباس من الرباع ، واليه أمر الجوامع والمشاهد ، وصار للأحباس ديوان مفرد . وأول ما قدم المعز أمر فى ربيع الآخر سنة ثلاث وستين وثلثمائة بحمل مال الأحباس من المودع الى بيت المال الذى لوجوه البر ، وطولب أصحاب الأحباس بالشرائط ليحملوا عليها وما يجب لهم فيها . وللنصف من شعبان ضمن الأحباس محمد بن القاضى أبى الطاهر محمد بن أحمد ، بألف ألف وخمسمائة ألف درهم فى كل سنة ، يدفع الى المستحقين حقوقهم ، ويحمل ما بقى الى بيت المال .

وقال ابن الطوير « الخدمة فى ديوان الأحباس » · وهو أوفر الدواوين مباشرة ، ولا يخدم فيه الا أعيان كتاب المسلمين من الشهود المعدلين بحكم أنها معاملة دينية ، وفيها عدة مدبرين ينوبون عن أرباب هذه الخدم فى ايجاب أرزاقهم من ديوان الرواتب ، وينجزون لهم الخروج باطلاق أرزاقهم .

ولا يوجب لأحد من هؤلاء خرج الا بعد حضور ورقة النعريف من جهة مشارف الجوامع والمساجد باستمرار خدمته ذلك الشهر جميعه ، ومن تأخر تعريفه تأخر الايجاب له ، وان تمادى ذلك استبدل به أو توفر ما باسمه لمصلحة أخرى خلا جوارى المشاهد فانها لا توفر ، لكنها تنقل من مقصر الى ملازم .

وكان يطلق لكلّ مشهد خمسون درهما فى الشهر برسم الماء لزوارها ، ويجرى من معاملة سواقى السبيل بالقرافة والنفقة عليها من ارتفاعه ، فلا تخلو المصانع ولا الأحواض من الماء أبدا ، ولا يعترض أحد من الانتفاع به . وكان فيه كاتبان ومعينان .

وقال المسيحى فى حوادث سنة ثلاث وأربعمائة : وأمر الحاكم بأمر الله باثبات المساجد التى لا غلة لها ولا أحد يقوم بها ، وما له منها غلة لا تقوم بما يحتاج اليه ... فأثبت فى عمل ورفع الى الحاكم بأمر الله . فكانت عدة المساجد على الشرح المذكور ثمانمائة وثلاثين مسجدا ، ومبلغ ما تحتاج اليه من النفقة فى كل شهر تسعة آلاف ومائتان وعشرون درهما ، على أن لكل مسجد فى كل شهر اثنى عشر درهما .

وقال فى حوادث سنة خمس وأربعمائة : وقرىء يوم الجمعة ثامن عشرى صفر سجل بتحبيس عدة ضياع — وهى أطفيح وصول وطوخ ، وست ضياع أخر ، وعدة قياسر وغيرها — على القراء والفقهاء والمؤذنين بالجوامع ، وعلى المصانع والقوام بها ، ونفقة المارستانات وأرزاق المستخدمين فيها ، وثمن الأكفان .

وقال الشريف بن أسعد الجوانى : كان القضاة بمصر اذا بقى لشهر رمضان ثلاثة أيام ، طافوا يوما على المساجد والمشاهد بمصر والقاهرة : يبدأون بجامع المقس ، ثم القاهرة ، ثم المشاهد ، ثم القرافة ، ثم جامع مصر ، ثم مشهد الرأس ... لنظر حصر ذلك وقناديله وعمارته وما تشعث منه ، وما زال الأمر على ذلك الى أن زالت الدولة الفاطمية .

فلما استقرت دولة بنى أيوب ، أضيفت الأحباس أيضا الى القاضى . ثم تفرقت جهات

الأحباس فى الدولة التركية ، وصارت الى يومنا هذا ثلاث جهات :

الأولى تعرف بالأحباس : ويلى هذه الجهة دوادار السلطان وهو أحد الأمراء ، ومعه ناظر الأحباس ولا يكون الا من أعيان الرؤساء وبهذه الجهة ديوان فيه عدة كتاب ومدبر . وأكثر ما فى ديوان الأحباس الرزق الأحباسية — وهى أراض من أعمال مصر — على المساجد والزوايا للقيام بمصالحها ، وعلى غير ذلك من جهات البر .

وبلغت الرزق الأحباسية فى سنة أربعين وسبعمائة ، عندما حررها النشو ناظر الخاص فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون ، مائة ألف وثلاثين ألف فدان . عمل النشو بها أوراقا ، وحدث السلطان فى اخراجها عمن هى باسمه ، وقال : جميع هذه الرزق أخرجها الدواوين بالبراطيل ، والتقرب الى الأمراء والحكام ، وأكثرها بأيدى أناس من فقهاء الأرياف لا يدرون الفقه ، يسمون أنفسهم الخطباء ولا يعرفون كيف يخطبون ، ولا يقرأون القرآن ، وكثير منها بأسماء مساجد وزوايا معطلة وخراب . وحسن له أن يقيم شادا وديوانا يسير فى النواحى ، وينظر فى المساجد التى هى عامرة ، ويصرف لها من رزقها النصف ، وما عدا ذلك يجرى فى ديوان السلطان . فعاجله الله ، وقبض عليه قبل عمل شىء من ذلك .

الجهة الثانية تعرف بالأوقاف الحكمية بمصر والقاهرة : ويلى هذه الجهة قاضى القضاة الشافعى ، وفيها ما حبس من الرباع على الحرمين وعلى الصدقات والأسرى وأنواع القرب . ويقال لمن يتولى هذه الجهة ناظر الأوقاف : فتارة ينفرد بنظر أوقاف مصر والقاهرة رجل واحد من أعيان نواب القاضى ، وتارة ينفرد بأوقاف القاهرة ناظر من الأعيان ويلى نظر أوقاف مصر * آخر ، ولكل من أوقاف البلدين ديوان فيه كتاب وجباة .

وكانت جهة عامرة يتحصل منها أموال جمة ، فيصرف منها لأهل الحرمين أموال عظيمة فى كل سنة ، تحمل من مصر اليهم مع من يثق به قاضى القضاة ، وتفرق هناك صررا ، ويصرف منها أيضا بمصر والقاهرة لطلبة العلم ولأهل الستر وللفقراء شىء كثير . الا أنها اختلت وتلاشت فى زمننا هذا ، وعما قليل ان دام ما نحن فيه لم يبق لها أثر ألبتة

وسبب ذلك أنه ولى قضاء الحنفية كمال الدين عمر بن العديم فى أيام الملك الناصر فرج ، وولاية الأمير جمال الدين يوسف تدبير الأمور والمملكة ، فتظاهرا معا على اتلاف الأوقاف . فكان جمال الدين اذا أراد أخذ وقف من الأوقاف ، أقام شاهدين يشهدان بأن هذا المكان يضر بالجار والمار ، وأن الحظ فيه أن يستبدل به غيره . فيحكم له قاضى القضاة كمال الدين عمر بن العديم باستبدال ذلك .

وشره جمال الدين فى هذا الفعل كما شره فى غيره ، فحكم له المذكور باستبدال القصور العامرة والدور الجليلة بهذه الطريقة .

(*) ص٢٩٥، ج٢ ، ط.بولاق .

والناس على دين ملكهم . فصـار كلّ من يريد بيع وقف أو شراء وقف ، سعى عند القاضي المذكور بجاه أو مال ، فيحكم له بما يريد من ذلك . واستدرج غيره من القضـاة الى نوع آخر ، وهو أن تقام شهود القيمة فيشهدون بأن هذا الوقف ضار بالجار والمار ، وأن الحظ والمصلحة فى بيعه أنقاضا . فيحكم قاضى شافعى المذهب ببيع تلك الأنقاض .

واستمر الأمر على هذا الى وقتنا هذا الذى نحن فيه ، ثم زاد بعض سفهاء قضاة زمننا فى المعنى ، وحكم ببيع المساجد الجامعة اذا خرب ما حولها ، وأخذ ذرية واقفها ثمن أنقاضها ، وحـكم آخر منهم ببيع الوقف ودفع الثمن لمستحقه من غير شراء بدل .

فامتدت الأيدى لبيـع الأوقاف حتى تلف بذلك سائر ما كان فى قرافتى مصر من الترب ، وجميع ما كان من الدور الجليلة والمسـاكن الأنيقة بمصر الفسطاط ، ومنشأة المهـرانى ومنشأة الكتاب ، وزربية قوصون ، وحـكر ابن الأثير ، وسويقـة الموفق ، وما كان فى الحـكورة مـن ذلك ، وما كان بالجوانيـة والعطوفية وغيرها من حارات القاهرة وغيرها . فكان ما ذكر أحد أسباب الخراب كما هـو مذكور فى موضعه من هذا الكتاب .

الجهة الثالثة الأوقاف الأهلية : وهى التى لها ناظر خاص اما من أولاد الواقف أو من ولاة السلطان أو القاضى . وفى هذه الجهة الخوانك والمدارس والجوامع والترب ، وكان متحصلها قد خرج عن الحـد فى الكثرة لما حدث فى الدولة التركية من بنـاء المدارس والجوامع والترب وغيرها ، وصاروا يفردون أراضى من أعمال مصر والشامات وفيها بلاد مقررة ، ويقيمون صـورة يتملـكونها بها ، ويجعلونها وقفا على مصارف كما يريدون .

فلما استبد الأمير برقوق بأمر بلاد مصر ، قبل أن يتلقب باسم السلطنة ، هم بارتجـاع هذه البلاد ، وعقد مجلسا فيه شيخ الاسلام سراج الدين عمر بن رسلان البلقينى ، وقاضى القضاة بدر الدين محمد بن أبى البقاء وغيره ، فلم يتهيأ له ذلك . فلما جلس على تخت الملك صار أمراؤه يسـتأجرون هذه النـواحى من جهات الأوقاف ، ويؤجرونها للفلاحين بأزيد مما استأجروا .

فلمـا مات الظاهر فحش الأمر فى ذلك ، واسـتولى أهل الدولة على جميـع الأراضى الموقوفة بمصر والشامات ، وصار أجودهم من يدفع فيها لمن يستحق ريعها عشر ما يحصـل له ، والا فكثير منهم لا يدفع شيئا ألبتة ... لا سيما ما كان من ذلك فى بلاد الشام ، فانه استهلك وأخذ . ولذلك كان أسوأ الناس حالا فى هذه المحن التى حدثت منـذ سـنة ست وثمانمائة الفقهاء ، لخـراب الموقوف عليهـم وبيعه ، واستيلاء أهل الدولة على الأراضى .

الجامع بجوار تربة الشافعى بالقرافة

هذا الجامع كان مسجدا صغيرا . فلما كثر الناس بالقرافة الصغرى ، عندما عمر السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب المدرسة بجوار قبر الامام الشافعى رضى الله عنه ، وجعل لها مدرسا وطلبة ... زاد الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب فى المسجد المذكور ،

ونصب به منبرا ، وخطب فيه ، وصليت الجمعة به فى سنة سبع وستمائة .

جامع محمود بالقرافة

هذا المسجد قديم ، والخطبة فيه متجددة ، وينسب لمحمود بن سالم بن مالك الطويل ، من أجناد السرى بن الحكم أمير مصر بعد سنة مائتين من الهجرة .

قال القضاعى : المسجد المعروف بمحمود ، يقال ان محمودا هذا كان رجلا جنديا من جند السرى بن الحكم أمير مصر ، وانه هو الذى بنى هذا المسجد . وذلك أن السرى بن الحكم ركب يوما ، فعارضه رجل فى طريقه فكلمه ووعظه بما غاظه ، فالتفت عن يمينه فرأى محمودا ، فأمره بضرب عنق * الرجل ، ففعل .

فلما رجع محمود الى منزله تفكر وندم ، وقال : رجل يتكلم بموعظة بحق ، فيقتل بيدى وأنا طائع غير مكره على ذلك ! فهلا امتنعت . وكثر أسفه وبكاؤه ، وآلى على نفسه أن يخرج من الجندية ولا يعود فيها ، ولم ينم ليلته من الغم والندم .

فلما أصبح غدا الى السرى فقال له : انى لم أنم فى هذه الليلة على قتل الرجل ، وأنا أشهد الله عز وجل وأشهدك أنى لا أعود فى الجندية ، فأسقط اسمى منهم ، وان أردت نعمتى فهى بين يديك . وخرج من بين يديه ، وحسنت توبته ، وأقبل على العبادة ، واتخذ المسجد المعروف بمسجد محمود وأقام فيه .

وقال ابن المتوج « المسجد الجامع المشهور بسفح المقطم » : هذا الجامع من مساجد الخطبة ، وهو بسفح الجبل المقطم بالقرافة الصغرى . وأول من خطب فيه السيد الشريف شهاب الدين الحسين بن محمد قاضى العسكر والمدرس بالمدرسة الناصرية الصلاحية بجوار جامع عمرو — وبه عرفت بالشريفية — وسفير الخلافة المعظمة ، وتوفى فى شوال سنة خمس وخمسين وستمائة ، وكان أيضا نقيب الأشراف .

جامع الروضة بقلعة جزيرة القسطاط

قال ابن المتوج : هذا الجامع عمره السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب . وكان أمام بابه كنيسة تعرف بابن لقلق بترك اليعاقبة ، وكان بها بئر مالحة ، وذلك مما عد من عجائب مصر أن فى وسط النيل جزيرة بوسطها بئر مالحة . وهذه البئر التى رأيتها كانت قبالة باب المسجد الجامع ، وانما ردمت بعد ذلك .

وهذا الجامع لم يزل بيد بنى الرداد ، ولهم نواب عنهم فيه . ثم لما كانت أيام السلطان الملك المؤيد شيخ المحمودى ، هدم هذا الجامع فى شهر رجب سنة ثلاث وعشرين وثمانمائة ، ووسعه بدور كانت الى جانبه ، وشرع فى عمارته فمات قبل الفراغ منه .

جامع غين بالروضة

قال ابن المتوج : المسجد الجامع بروضة مصر يعرف بجامع غين ، وهو القديم ، ولم تزل الخطبة قائمة فيه الى أن عمر جامع المقياس ، فبطلت الخطبة منه ، ولم تزل الخطبة بطالة منه الى الدولة الظاهرية . فكثرت عمائر

(*) ص٢٩٦ جـ٢ ، ط. بولاق .

النـــاس حوله فى الروضـــة ، وقل الناس فى القلعة ، وصاروا يجدون مشقة فى مشيهم من أوائل الروضة .

وعمر الصاحب محيى الدين أحمد ، ولد الصاحب بهاء الدين على بن حنا ، داره على خوخة الفقيه نصر قبالة هذا الجامع فحسن له اقامة الجمعة فى هذا الجامع لقربه منه ومن الناس ، فتحدث مع والده ، فشاور السلطان الملك الظـــاهر بيبرس ، فوقع منـــه بمـــوقع — لكثرة ركوبه بحر النيل ، واعتنائه بعمارة الشوانى ولعبها فى البحر ، ونظره الى كثرة الخلائق بالروضة — ورسم باقامة الخطبة فيه مع بقاء الخطبة بجامع القلعة لقوة نيتـــه فى عمارتها على ما كانت عليه .

فأقيمت الخطبة به فى سنة ستين وستمائة . وولى خطابته أقضى القضاة جمال الدين بن الغفارى ، وكان ينوب بالجيزة فى الحكم ، ثم ناب فى الحكم بمصر عن قاضى القضاة وجيه الدين البهنسى ، وكان امامه فى حال عطلتـــه من الخطبة ، فلما أقيمت فيه الخطبة ، أضيفت اليه الخطابة فيه مع الامامة .

« غبن » : أحـــد خـــدام الخليفة الحاكم بأمر الله . خلع عليه فى تاسع ربيع الآخر سنة اثنتين وأربعمائة ، وقلده سيفا ، وأعطاه سجلا قرىء فاذا فيه أنه لقب بقائد القواد ، وأمر أن يكتب بذلك ويـــكاتب به ، وركب وبين يديه عشرة أفراس بسروجها ولجمها .

وفى ذى القعدة من السنة المذكورة ، أنفذ اليه الحاكم خمســـة آلاف دينـــار وخمســـة وعشرين فرســـا بسروجها ولجمهـــا ، وقلده الشرطتين والحسبة بالقاهرة ومصر والجيزة ، والنظر فى أمور الجميع وأموالهم وأحوالهم كلها ، وكتب له سجلا بذلك قرىء بالجامع العتيق . فنزل الى الجامع معه سائر العسكر والخلع عليه ، وحمل على فرسين .

وكان فى سجله مراعاة أمر النبيذ وغيره من المسكرات ، وتتبع ذلك والتشديد فيه ، وفى المنع من عمل الفقاع وبيعه ، ومن أكل الملوخيا والسمك الذى لا قشر له ، والمنع من الملاهى كلها ، والتقدم بمنع النساء من حضور الجنائز والمنع من بيع العسل ، وألا يتجاوز فى بيعـــه أكثر من ثلاثة أرطال لمن لا سبق اليه ظنـــه أن يتخذ منه مسكرا فاستمر ذلك الى غرة صـــفر ســـنة أربع وأربعمـــائة ، فصرف عن الشرطتين والحسبة بمظفر الصقلى .

فلما كان يوم الاثنين ثامن عشر ربيع الآخر منها ، أمر بقطع يدى كاتبه أبى القاسم على ابن أحمد الجرجانى فقطعتا جميعا . وذلك أنه كان يكتب عند السيدة الشريفة أخت الحاكم ، فانتقل من خدمتها الى خدمة غبن خوفا على نفسه من خدمتها ، فسخطت لذلك ، فبعث اليها يستعطفها ، ويذكر فى رقعتـــه شيئا وقفت عليه ، فارتابت منـــه ، فظنت أن ذلك حيلة عليها ، وأنفذت الرقعـــة فى طى رقعتها الى الحاكم . فلما وقف عليها اشتد غضبه ، وأمر بقطع يديه جميعا فقطعتا .

وقيل بل كان غبن هو الذى يوصل رقاع عقيل ، صاحب الخبر ، الى الحـــاكم فى كل يوم * . فيـــأخذها من عقيـــل وهى مختومة

(*) ص٢٩٧، جـ٢، ط. بولاق .

بخاتمه ، ويدفعها لكاتبه أبى القاسم الجرجانى حتى يخلو له وجه الحاكم ، فيأخذها حينئذ من كاتبه ويوقفه عليها .

وكان الجرجانى يفك الختم ويقرأ الرقاع . فلما كان فى يوم من الأيام فك رقعة ، فوجد فيها طعنا على غين أستاذه وقد ذكر فيها بسوء ، فقطع ذلك الموضع وأصلحه وأعاد ختم الرقعة .

فبلغ ذلك عقيلا صاحب الخبر ، فبعث الى الحاكم يستأذنه فى الاجتماع به خلوه فى أمر مهم ، فأذن له ، وحدثه بالخبر ، فأمر حينئذ بقطع يدى الجرجانى فقطعتا ، ثم بعد قطع يديه بخمسة عشر يوما ، فى ثالث جمادى الأولى ، قطعت يده غين الأخرى ، وكان قد أمر بقطع يده قبل ذلك بثلاث سنين وشهر ، فصار مقطوع اليدين معا .

ولما قطعت يده حملت فى طبق الى الحاكم . فبعث اليه بالأطباء ، ووصله ألف الذهب وعدة من أسفاط ثياب ، وعاده جميع أهل الدولة . فلما كان ثالث عشره أمر بقطع لسانه ، فقطع وحمل الى الحاكم ، فسير اليه الأطباء ، ومات بعد ذلك .

جامع الأفرم

قال ابن المتوج : هذا الجامع بسفح الرصد . عمره الأمير عز الدين أيبك بن عبد الله — المعروف بالأفرم — أمير جاندار الملكى الصالحى النجمى ، فى شهور سنة ثلاث وستين وستمائة ، لما عمر المنظرة هناك ، وعمر بجوارها رباطا للفقراء ، وقررهم عدة تنعقد بهم الجمعة ، وقرر اقامتهم فيه ليلا ونهارا ، وقرر كفايتهم واعانتهم على الاقامة ، وعمر لهم هذا الجامع يستغنون به عن السعى الى غيره .

وذكر أن الأفرم أيضا عمر مسجدا بجسر الشعيبية ، فى شعبان سنة ثلاث وتسعين وستمائة ، جامعا هدم فيه عدة مساجد .

الجامع بمنشاة المهرانى

قال ابن المتوج : والسبب فى عمارة هذا الجامع أن القاضى الفاضل كان له بستان عظيم فيما بين ميدان اللوق وبستان الخشاب الذى أكله البحر ، وكان يمير مصر والقاهرة من ثماره وأعنابه ، ولم تزل الباعة ينادون على العنب « رحم الله الفاضل يا عنب » الى مدة سنين عديدة بعد أن أكله البحر .

وكان قد عمر الى جانبه جامعا وبنى حوله ، فسميت بمنشأة الفاضل ، وكان خطيبه أخا الفقيه موفق الدين بن المهدوى الديباجى العثمانى ، وكان قد عمر بجواره دارا وبستانا وغرس فيه أشجارا حسنة ، ودفع اليه فيه ألف دينار مصرية فى أول الدولة الظاهرية ، وكان الصرف قد بلغ فى ذلك الوقت كل دينار ثمانية وعشرين درهما ونصف درهم نقرة . فاستولى البحر على الجامع والدار والمنشأة ، وقطع جميع ذلك حتى لم يبق له أثر .

وكان خطيبه موفق الدين يسكن بجوار الصاحب بهاء الدين على بن محمد بن حنا ، ويتردد اليه والى والده محيى الدين ، فوقف وضرع اليهما وقال : أكون غلام هذا الباب ويخرب جامعى . فرحمه الصاحب وقال :

السمع والطاعة ، يدبر الله . ثم فكر فى هذه البقعة التى فيها هذا الجامع الآن ، وكانت تعرف بالكوم الأحمر ، مرصدة لعمل أقمنة الطوب الآجرية ، سميت بالكوم الأحمر .

وكان الصاحب فخر الدين محمد بن الصاحب بهاء الدين على بن محمد بن حنا قد عمر منظرة قبالة هذا الكوم — وهى التى صارت دار ابن صاحب الموصل — وكان فخر الدين كثير الاقامة فيها مدة الأيام المعزية ، فقلق من دخان الأقمنة التى على الكوم الأحمر ، وشكا ذلك لوالده ولصهره الوزير شرف الدين هبة الله بن صاعد الفائزى . فأمرا بتقويمه ، فقوم ما بين بستان الحلى وبحر النيل ، وابتاعه الصاحب بهاء الدين .

فلما مات ولده فخر الدين ، وتحدث مع الملك الظاهر بيبرس فى عمارة جامع هناك ، ملكه هذه القطعة من الأرض ، فعمر السلطان بها هذا الجامع ، ووقف عليه بقية هذه الأرض المذكورة فى شهر رمضان سنة احدى وسبعين وستمائة ، وجعل النظر فيه لأولاده وذريته ، ثم من بعدهم لقاضى القضاة الحنفى .

وأول من خطب فيه الفقيه موفق الدين محمد بن أبى بكر المهدوى العثمانى الديباجى الى أن توفى يوم الأربعاء ثالث عشر شوال سنة خمس وثمانين وستمائة . وقد تعطلت اقامة الجمعة من هذا الجامع لخراب ما حوله وقلة الساكنين هناك ، بعد أن كانت تلك الخطة فى غاية العمارة . وكان صاحبنا شمس الدين محمد بن الصاحب قد عزم على نقل هذا الجامع من مكانه ، فاخترمته المنية قبل ذلك .

جامع دير الطين

قال ابن المتوج * هذا الجامع بدير الطين فى الجانب الشرقى ، عمره الصاحب تاج الدين ابن الصاحب فخر الدين ★ ، ولد الصاحب بهاء الدين المشهور بابن حنا ، فى المحرم سنة اثنتين وسبعين وستمائة ، وذلك أنه لما عمر بستان المعشوق ومناظره ، وكثرت اقامته بها ، وبعد عليه الجامع — وكان جامع دير الطين ضيقا لا يسع الناس — فعمر هذا الجامع ، وعمر فوقه طبقة يصلى فيها ، ويعتكف اذا شاء ويخلو بنفسه فيها . وكان ماء النيل فى زمنه يصل الى جدار هذا الجامع .

وولى خطابته للفقيه جمال الدين محمد ابن الماشطة ، ومنعه من لبس السواد لأداء الخطبة فاستمر الى حين وفاته فى عاشر رجب سنة تسع وسبعمائة . وأول خطبة أقيمت فيه يوم الجمعة سابع صفر سنة اثنتين وسبعين وستمائة . وقد ذكرت ترجمة الصاحب تاج الدين عند ذكر رباط الآثار من هذا الكتاب .

★ محمد بن على بن محمد بن سليم بن حنا » . أبو عبد الله الوزير الصاحب فخر الدين ابن الوزير الصاحب بهاء الدين . ولد فى سنة اثنتين وعشرين وستمائة ، وتزوج بابنة الوزير الصاحب شرف الدين هبة الله بن صاعد الفائزى ، وناب عن والده فى الوزارة ، وولى ديوان الأحباس ووزارة الصحبة فى أيام الظاهر بيبرس .

(*) ص٢٩٨، جـ٢ ، طـ بولاق .

وسمع الحديث بالقاهرة ودمشق وحدث ، وله شعر جيد ، ودرس بمدرسة أبيه الصاحب بهاء الدين التى كانت فى زقاق القناديل بمصر . وكان محبا لأهل الخير والصلاح ، مؤثرا لهم ، متفقدا لأحوالهم . وعمر رباطا حسنا بالقرافة الكبرى ، رتب فيه جماعة من الفقراء .

ومن غريب ما يتعظ به الأريب أن الوزير الصاحب زين الدين يعقوب بن عبد الرفيع بن الزبير ، الذى كان بنو حنا يعادونه وعنه أخذوا الوزارة ، مات فى ثالث عشر ربيع الآخر سنة ثمان وستين وستمائة بالسجن . فأخرج كما تخرج الأموات الطرحاء على الطرقات من الغرباء ، ولم يشيع جنازته أحد من الناس مراعاة للصاحب بن حنا .

وكان فخر الدين هذا يتنزه فى أيام الربيع بمنية القائد — وقد نصبت له الخيام ، وأقيمت المطابخ ، وبين يديه المطربون — فدخل عليه البشير بموت الوزير يعقوب بن الزبير ، وأنه أخرج الى المقابر من غير أن يشيع جنازته أحد من الناس . فسر بذلك ولم يتمالك نفسه ، وأمر المطربين فغنوه ، ثم قام على رجليه ورقص هو وسائر من حضره ، وأظهر من الفرح والخلاعة ما خرج به عن الحد ، وخلع على البشير بموت المذكور خلعا سنية .

فلم يمض على ذلك سوى أقل من أربعة أشهر ، ومات فى حادى عشرى شعبان من السنة المذكورة ، ففجع به أبوه ، وكانت له جنازة عظيمة . ولما دلى فى لحده ، قام شرف الدين محمد بن سعيد البوصيرى — صاحب البردة — فى ذلك الجمع الموقور بتربة ابن حنا من القرافة ، وأنشد :

نم هنيئا محمد بن على
بجميل قدمت بين يديكا
لم تزل عوننا على الدهر حتى
غلبتنا يد المنون عليكا
أنت أحسنت فى الحياة الينا
أحسن الله فى الممات اليكا

فتباكى الناس ، وكان لها محل كبير ممن حضر . رحمة الله عليهم أجمعين .

وفى هذا الجامع يقول السراج الوراق :

بنيتم على تقوى من الله مسجدا
وخير مبانى العابدين المساجد
فقل فى طراز معلم فوق بركة
على حسنها الزاهى لها البحر حاسد
لها حلل حسنى ولكن طرازها
من الجامع المعمور بالله واحد
هو الجامع الاحسان والحسن الذى
أقر له زيد وعمرو وخالد
وقد صافحت شهب الدجى شرفاته
فما هى بين الشهب الا فراقد
وقد أرشد الضلال عالى مناره
فلا حائر عنه ولا عنه حائد
ونالت نواقيس الديارات وجمة
وخوف فلم يمدد اليهن ساعد
فتبكى عليهن البطاريق فى الدجى
وهن لديهم ملقيات كواسد
بذا قضت الأيام ما بين أهلها
مصائب قوم عند قوم فوائد

هذا الجامع خارج القاهرة . وكان موضعه ميدانا ، فأنشأه الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى جامعا .

قال جامع السيرة الظاهرية : وفى ربيع الآخر (يعنى سنة خمس وستين وستمائة) اهتم السلطان بعمارة جامع بالحسينية ، وسير الأتابك فارس الدين أقطاى المستعرب والصاحب فخر الدين محمد بن الصاحب بهاء الدين على بن حنا وجماعة من المهندسين ، لكشف مكان يليق أن يعمل جامعا ، فتوجهوا لذلك ، واتفقوا على مناخ الجمال السلطانية . فقال السلطان : لا والله ، لا جعلت الجامع مكان الجمال ، وأولى ما جعلته ميدانى الذى ألعب فيه بالكرة وهو نزهتى

فلما كان يوم الخميس ثامن شهر ربيع الآخر ركب السلطان ، وصحبته خواصه والوزير الصاحب بهاء الدين على بن حنا والقضاة ، ونزل الى ميدان قراقوش ، وتحدث فى أمره ، وقاسه ورتب أموره وأمور بنائه ، ورسم بأن يكون بقية الميدان وقفا على الجامع تحكر ، ورسم بين يديه هيئة الجامع ، وأشار أن يكون بابه مثل باب المدرسة الظاهرية ، وأن يكون على محرابه قبة على قدر قبة الشافعى رحمة الله عليه .

وكتب فى وقته الكتب الى البلاد باحضار عمد رخام من سائر البلاد ، وكتب باحضار الجمال والجواميس والأبقار والدواب من سائر الولايات ، وكتب باحضار الآلات من الحديد والأخشاب النقية برسم الأبواب والسقوف وغيرها

ثم توجه لزيارة الشيخ الصالح خضر بالمكان الذى أنشأه له ، وصلى الظهر هناك ، ثم توجه الى المدرسة بالقاهرة فدخلها ، والفقهاء والقراء على حالهم . وجلس بينهم ، ثم تحدث وقال : هذا مكان قد جعلته لله عز وجل ، وخرجت عنه وقفا لله ، اذا مت لا تدفنونى هنا ، ولا تغيروا معالم هذا المكان ، فقد خرجت عنه لله تعالى . ثم قام من ايوان الحنفية ، وجلس بالمحراب فى ايوان الشافعية وتحدث وسمع القرآن والدعاء ، ورأى جميع الأماكن ، ودخل الى قاعة ولده الملك السعيد المبنية قريبا منها ، ثم ركب الى قلعة الجبل ، وولى عدة مشدين على عمارة الجامع .

وكان الى جانب الميدان قاعة ومنظرة عظيمة بناها السلطان الملك الظاهر . فلما رسم ببناء الجامع ، طلبها الأمير سيف الدين قشتمر العجمى من السلطان ، فقال الأرض قد خرجت عنها لهذا الجامع فاستأجرها من ديوانه والبناء والأصناف وهتك ابابها ، وشرع فى العمارة فى منتصف جمادى الآخرة منها .

وفى أول جمادى الآخرة سنة ست وستين وستمائة ، سار السلطان من ديار مصر يريد بلاد الشام ، فنزل على مدينة يافا ، وتسلمها من الفرنج بأمان ، فى يوم الأربعاء العشرين من جمادى الآخرة المذكور ، وسير أهلها فتفرقوا فى البلاد ، وشرع فى هدمها ، وقسم أبراجها على الأمراء ، فابتدأ فى ذلك من ثانى عشريه ، وقاسوا شدة فى هدمها لحصانتها

(*) ص٢٩٦ ج٢ ، ط. بولاق .

وقوة بنائها ، لا سيما القلعة فانها كانت حصينة عاليــة الارتفاع ، ولها أساسات الى الأرض الحقيقية .

وباشر السلطان الهدم بنفســه وبخواصــه ومماليكه ، حتى غلمان البيــوتات التى له . وكان ابتداء هدم القلعة فى ســابع عشريه ، ونقضت من أعلاها ، نظفت زلاقتها واستمر الأجناد فى ذلك ليلا ونهــارا ، .أخــذ من أخشــابها جملة ، ومن ألواح الرخــام التى وجدت فيها ، ووسق منها مركبا من المراكب التى وجدت فى يافا ، رسيرها الى القاهرة ، ورسم بأن يعمل من ذلك الخشب مقصورة فى الجــامع الظاهرى بالميــدان من الحسينية ، والرخام يعمل بالمحراب ، فاستعمل كذلك .

ولما عاد السلطان الى مصر فى حادى عشرى ذى الحجة منها — وقد فتح فى هذه السفرة يافا وطرابلس وأنطاكية وغيرها — أقام الى أن أهلت سنة سبع وستين وستمائة فلمــا كملت عمارة الجــامع فى شــوال منها ركب السلطان ، ونزل الى الجامع وشاهده ، فرآه فى غاية ما يكون من الحسن ، ، أعجبه نجازه فى أقرب وقت ومدة مع علو الهمة فخلع على مباشريه — وكان الذى تولى بناءه الصاحب بهاء الدين بن حنا ، والأمير علم الدين سنجر السرورى متولى القاهرة — وزار الشــيخ خضرا ، وعاد الى قلعته

وفى شــوال منهــا تمت عمارة الجــامع الظاهرى ، ورتب به خطيبــا حنفى المذهب ، ووقف عليه حكر ما بقى من أرض الميــدان ، ونزل السلطان اليه ، ورتب أوقافه ، ونظر فى أموره .

« بيبــرس » الملك الظــاهر ركن الدين البنــدقدارى : أحد المماليــك البحرية الذين اختص بهم السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب ، وأسكنهم قلعة الروضة .

كان أولا من مماليــك الأمير علاء الدين أيدكين البندقدارى . فلما سخط عليــه الملك الصالح أخذ مماليكه — ومنهم الأمير بيبرس هذا — وذلك فى سنة أربع وأربعين وستمائة وقدمه على طائفة من الجمدارية

وما زال يترقى فى الخدم الى أن قتل المعز أيبك التركمانى ، الفارس أقطاى الجمدار ، فى شعبان سنة اثنتين وخمسين وستمائة وكانت البحرية قد انحازت اليه ، فركبوا فى نحــو السبعمائة ، فلما ألقيت اليهم رأس أقطــاى نه فوا ، واتفقــوا على الخروج الى الشــام — ، كانت أعيانهم يومئذ بيبرس البندقدارى ، وقلاوون الألفى ، وسنقر الأشقر ، وبيسرى ، ونرامق ، وتنكز — فسا, وا الى الملك الناصر صاحب الشام .

ولم يزل بيبرس ببلاد الشام الى أن قتــل المعز أيبك ، رقام من بعده ابنه المنصور على ، وقبض عليه نائبه الأمير سيف الدين قطز ، وجلس عــلى تحت المملكه ، وتلقب بالملك المظفر ، فقدم عليه بيبرس ، فأمره المظفر قطز . ولما خرج قطز الى ملاقاة التتــار ، وكان من نصرته عليهم ما كان ، رحل الى دمشق . فوشى اليه بأن الأمير بيبرس قد تنــكر له وتغيــر عليه ، وأنه عازم على القيام بالحرب .

فأسرع قطز بالخروج من دمشق الى جهة مصر وهو مضمر لبيبرس السوء ، وعلم بذلك خواصه . فبلغ ذلك بيبرس * ، فاستوحش من قطز ، وأخذ كل منهما يحترس من الآخر على نفسه ، وينتظر الفرصة فبادر بيبرس وواعد الأمير سيف الدين بلبان الرشيدى ، والأمير سيف الدين بيدغان الركنى — المعروف بسم الموت — والأمير سيف الدين بلبان الهارونى والأمير بدر الدين آنص الأصبهانى .

فلما قربوا فى مسيرهم من القصر بين الصالحية والسعيدية عند القرين ، انحرف قطز عن الدرب الصيد فلما قضى منه وطره وعاد — والأمير بيبرس يسايره هو أصحابه — طلب بيبرس منه امرأة من سبى التتار ، فأنعم عليه بها . فتقدم ليقبل يده — وكانت اشارة بينه وبين أصحابه — فعندما رأوا بيبرس قد قبض على يد السلطان المظفر قطز ، بادر الأمير بكتوت الجوكندار وضربه بسيف على عاتقه أبانه ، واختطفه الأمير آنص وألقاه عن فرسه الى الأرض ، ورماه بهادر المعزى بسهم فقتله . وذلك يوم السبت خامس عشر ذى القعدة سنة ثمان وخمسين وستمائة .

ومضوا الى الدهليز للمشورة ، فوقع الاتفاق على الأمير بيبرس ، فتقدم اليه أقطاى المستعرب الجمدار — المعروف بالأتابك — وبايعه وحلف له ، ثم بقية الأمراء ، وتلقب بالملك الظاهر وذلك بمنزلة القصير . فلما تمت البيعة ، وحلف الأمراء كلهم ، قال له الأمير أقطاى المستعرب :

ياخوند لا يتم لك أمر الا بعد دخولك الى القاهرة وطلوعك الى القلعة .

فركب من وقته ومعه الأمير قلاوون ، والأمير بلبان الرشيدى ، والأمير بيليك الخازندار وجماعة .. يريدون قلعة الجبل . فلقيهم فى طريقهم الأمير عز الدين أيدمر الحلبى ، نائب الغيبة عن المظفر قطز ، وقد خرج لتلقيه . فأخبروه بما جرى وحلفوه ، فتقدمهم الى القلعة ، ووقف على بابها حتى وصلوا فى الليل ، فدخلوا اليها .

وكانت القاهرة قد زينت لقدوم السلطان الملك المظفر قطز ، وفرح الناس بكسر التتار وعود السلطان فما راعهم ، وقد طلع النهار ، الا والمشاعلى ينادى : معاشر الناس ترحموا على الملك المظفر ، وادعوا لسلطانكم الملك الظاهر بيبرس . فدخل على الناس من ذلك غم شديد ووجل عظيم ، خوفا من عود البحرية الى ما كانوا عليه من الجور والفساد وظلم الناس .

فأول ما بدأ به الظاهر أنه أبطل ما كان قطز أحدثه من المظالم عند سفره — وهو تصقيع الأملاك وتقويمها ، وأخذ زكاة ثمنها فى كل سنة ، وجباية دينار من كل انسان ، وأخذ ثلث الترك الأهلية — فبلغ ذلك فى السنة ستمائة ألف دينار . وكتب بذلك مسموحا قرىء على المنابر فى صبيحة دخوله الى القلعة ، وهو يوم الأحد سادس عشر ذى القعدة المذكور .

وجلس بالايوان وحلف العساكر ، واستناب الأمير بدر الدين بيليك الخازندار بالديار

(*) ص٣٠٠ ج٢ ، ط. بولاق .

المصرية . واستقر الأمير فارس الدين أقطاى المستعرب أتابكا على عادته ، والأمير جمال الدين أقوش التجيبى أستادارا ، والأمير عز الدين أيبك الأفرم الصالحى أمير جاندار ، والأمير لاجين الدرفيل وبلبان الرومى دوادارية ، والأمير بهاء الدين يعقوب الشهرزورى أميراخور على عادته ، وبهاء الدين على بن حنا وزيرا ، والأمير ركن الدين التاجى الركنى والأمير سيف الدين بكجرى حجابا . ورسم باحضار البحرية الذين تفرقوا فى البلاد بطالين ، وسير الكتب الى الأقطار بما تجدد له من النعم ، ودعاهم الى الطاعة . فأذعنوا له ، وانقادوا اليه .

وكان الأمير علم الدين سنجر الحلبى نائب دمشق ، لما قتل قطز ، جمع الناس وحلفهم ، وتلقب بالملك المجاهد . وثار علاء الدين — الملقب بالملك السعيد — ابن صاحب الموصل فى حلب ، وظلم أهلها وأخذ منهم خمسين ألف دينار . فقام عليه جماعة — ومقدمهم الأمير حسام الدين لاجين العزيزى — وقبضوا عليه . فسير الظاهر الى لاجين بنيابة حلب .

فلما دخلت سنة تسع وخمسين قبض الظاهر على جماعة من الأمراء المعزية : منهم الأمير سنجر الغتمى ، والأمير بهادر المعزى ، والشجاع بكتوت .

ووصل الى السلطان الامام أبو العباس أحمد ابن الخليفة الظاهر العباسى من بغداد فى تاسع رجب ، فتلقاه السلطان فى عساكره ، وبالغ فى اكرامه ، وأنزله بالقلعة . وحضر سائر الأمراء والمقدمين ، والقضاة وأهل العلم والمشايخ ، بقاعة الأعمدة من القلعة بين يدى أبى العباس . فتأدب السلطان الظاهر ، ولم يجلس على مرتبة ولا فوق كرسى .

وحضر العربان الذين قدموا من العراق وخادم من طواشية بغداد ، وشهدوا بأن العباس أحمد ولد الخليفة الظاهر ابن الخليفة الناصر . وشهد معهم بالاستفاضة الأمير جمال الدين يحيى نائب الحكم بمصر ، وعلم الدين ابن رشيق ، وصدر الدين موهوب الجزرى ، ونجيب الدين الحرانى ، وسديد الزمنتى نائب الحكم بالقاهرة ... عند قاضى القضاة تاج الدين عبد الوهاب ابن بنت الأعز الشافعى ، وأسجل على نفسه بثبوت نسب أبى العباس أحمد وهو قائم على قدميه ، ولقب بالامام المستنصر بالله .

وبايعه الظاهر على كتاب الله وسنة نبيه ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والجهاد فى سبيل الله ، وأخذ أموال الله بحقها وصرفها فى مستحقها . فلما تمت البيعة ، قلد المستنصر بالله السلطان الملك الظاهر أمر البلاد الاسلامية وما سيفتحه الله على يديه من بلاد الكفار . وبايع الناس المستنصر على طبقاتهم ، وكتب الى الأطراف * بأخذ البيعة له واقامة الخطبة باسمه على المنابر ، ونقشت السكة فى ديار مصر باسمه واسم الملك الظاهر معا .

فلما كان يوم الجمعة سابع عشر رجب ، خطب الخليفة بالناس فى جامع القلعة .

(*) ص٢٠١ جـ٢ ، ط. بولاق .

وركب السلطان فى يوم الاثنين رابع شعبان الى خيمة ضربت له بالبستان الكبير ظاهر القاهرة ، وأفيضت عليه الخلع الخليفية — وهى جبة سوداء ، وعمامة بنفسجية ، وطوق من ذهب — وقلد بسيف عربى ، وجلس مجلسا عاما حضره الخليفة والوزير وسائر القضاة والأمراء والشهود ، وصعد القاضى فخر الدين بن لقمان كاتب السر منبرا نصب له ، وقرأ تقليد السلطان المملكة وهو بخطه من انشائه . ثم ركب السلطان بالخلعة والطوق ، ودخل من باب النصر ، وشق القاهرة وقد زينت له ، وحمل الصاحب بهاء الدين بن حنا التقليد على رأسه قدام السلطان والأمراء مشاة بين يديه . وكان يوما مشهودا .

وأخذ السلطان فى تجهيز الخليفة ليسير الى بغداد . فرتب له الطواشى بهاء الدين صندلا الصالحى شرابيا ، والأمير سابق الدين بوزبا الصيرفى أتابكا ، والأمير جعفرا أستادارا ، والأمير فتح الدين بن الشهاب أحمد أمير جاندار ، والأمير ناصر الدين بن صيرم خازندار ، والأمير سيف الدين بلبان الشمسى وفارس الدين أحمد بن أزدمر اليعمورى دواداريه ، والقاضى كمال الدين محمد السنجارى وزيرا ، وشرف الدين أبا حامد كاتبا .

وعين له خزانة وسلاحخاناه ، ومماليك عدتهم نحو الأربعين منهم سلاحدارية وجمدارية وزردكاشية ورمحدارية ، وجعل له طشتخاناه وفراشخاناه وشرابخاناه واماما ومؤذنا وسائر أرباب الوظائف ، واستخدم له خمسمائة فارس ، وكتب لمن قدم معه من العراق باقطاعات ، وأذن له فى الركوب والحركة حيث اختار .

وحضر الملك الصالح اسماعيل بن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ، وأخوه الملك المجاهد سيف الدين اسحاق صاحب الجزيرة ، وأخوهما المظفر . فأكرمهم السلطان ، وأقرهم على ما بأيديهم ، وكتب لهم تقاليد ، وجهزهم فى خدمة الخليفة .

وسار الخليفة فى سادس شوال ، والسلطان فى خدمته ، الى دمشق . فنزل السلطان فى القلعة ، ونزل الخليفة فى التربة الناصرية بجبل الصالحية . وبلغت نفقة السلطان على الخليفة ألف ألف وستين ألف دينار .

وخرج من دمشق فى ثالث عشر ذى القعدة ، ومعه الأمير بلبان الرشيدى والأمير سنقر الرومى وطائفة من العسكر ، وأوصاهما السلطان أن يكونا فى خدمة الخليفة حتى يصل الى الفرات ، فاذا عبر الفرات أقاما بمن معهما من العسكر بالبر الغربى من جهات حلب لانتظار ما يتجدد من أمر الخليفة بحيث ان احتاج اليهم ساروا اليه .

فسار الى الرحبة ، وتركه أولاد صاحب الموصل وانصرفوا الى بلادهم . وسار الى مشهد على ، فوجد الامام الحاكم بأمر الله قد جمع سبعمائة فارس من التركمان وهو على عانة ، ففارقه التركمان ، وصار الحاكم الى المستنصر طائعا له . فأكرمه وأنزله معه ، وسارا الى عانة ، ورحلا الى الحديثة ، وخرجا منها الى هيت .

وكانت له حروب مع التتار فى ثالث محرم سنة ستين وستمائة ، قتل فيها أكثر أصحابه ، وفر الحاكم وجماعة من الأجناد ، وفقد المستنصر فلم يوقف له على خبر . فحضر الحاكم الى قلعة الجبل ، وبايعه السلطان والناس ، واستمر بديار مصر فى مناظر الكبش وهو جد الخلفاء الموجودين اليوم .

وفى سنة ست وستين قرر الظاهر بديار مصر أربعة قضاة ، وهم شافعى ومالكى وحنفى وحنبلى ، فاستمر الأمر على ذلك الى اليوم . وحدث غلاء شديد بمصر ، وعدمت الغلة . فجمع السلطان الفقراء وعدهم ، وأخذ لنفسه خمسمائة فقير يمونهم ، ولابنه السعيد بركة خان خمسمائة فقير ، وللنائب بيلبك الخارندار ثلثمائة فقير ، وفرق الباقى على سائر الأمراء ، ورسم لكل انسان فى اليوم برطلى خبز . فلم ير بعد ذلك فى البلد أحد من الفقراء يسأل .

وفى ثالث شوال سنة اثنتين وستين ، أركب السلطان ابنه السعيد بركة بشعار السلطنة ومشى قدامه ، وشق القاهرة والكل مشاة بين يديه من باب النصر الى قلعه الجبل ، وزينت البلد .

وفيها رتب السلطان لعب القبق بميدان العيد خارج باب النصر ، وختن الملك السعيد ومعه ألف وستمائة وخمسة وأربعون صبيا من أولاد الناس سوى أولاد الأمراء والأجناد ، وأمر لكل صغير منهم بكسوة على قدره ومائة درهم ورأس من الغنم ، فكان مهما عظيما ، وأبطل ضمان المزر وجهاته ، وأمر بحرق النصارى فى سنة ثلاث وستين ، فتشفع فيهم على أن يحملوا خمسين ألف دينار ، فتركوا .

وفى سنة أربع وستين افتتح قلعة صفد ، وجهز العساكر الى سيس ومقدمهم الأمير قلاوون الألفى ، فحصر مدينة أبناس وعدة قلاع .

وفى سنة خمس وستين ، أبطل ضمان الحشيش من ديار مصر ، وفتح يافا والشقيف وأنطاكية .

وفى سنة سبع وستين حج ، فسار على غزة الى الكرك ومنها الى المدينة النبوية ، وغسل الكعبة بماء الورد بيده ، ورجع الى دمشق ، فأراق جميع الخمور ، وقدم الى مصر فى سنة ثمان وستين .

وفى * سنة سبعين خرج الى دمشق .

وفى سنة احدى وسبعين خرج من دمشق سائقا الى مصر — ومعه بيسرى ، وأقوش الرومى ، وجرسك الخازندار ، وسنقر الألفى — فوصل الى قلعة الجبل ، وعاد الى دمشق . فكانت مدة غيبته أحد عشر يوما ، ولم يعلم بغيبته من فى دمشق حتى حضر .

ثم خرج سائقا من دمشق يريد كبس التتار ، فخاض الفرات وقدامه قلاوون وبيسرى ، وأوقع بالتتار على حين غفلة ، وقتل منهم شيئا كثيرا ، وساق خلفهم بيسرى الى سروج ، وتسلم السلطان البيرة .

ووقع بمصر فى سنة اثنتين وسبعين وباء هلك به خلق كثير .

(*) ص٣٠٢ جـ٢ ، ط. بولاق .

وفى سـنة ثلاث وسـبعين ، غزا السلطان سيس ، وافتتح قلاعا عديدة .

وفى سنة أربع وسبعين ، تزوج السعيد بن السلطان بابنة الأمير قلاوون ، وخرج العسكر الى بلاد النوبة فوافع ملكهم ، وقتـل منهم كثيرا وفر باقيهم .

وفى سنة خمس وسـبعين ، سار السلطان لحرب التتار ، فوافعهم على الابلسـتين وفد انضم اليهم الروم ، فانهزموا وقتل منهم كثير ، وتسلم السلطان قيسـارية ونزل فيهـا بدار السلطان .

ثم خرج الى دمشق ، فوعك بها من اسهال وحمي مات منها يوم الخميس تاسـع عشرى محرم سنة ست وسبعين وسـتمائة ، وعمره نحو من سبع وخمسين سـنة ، ومدة ملكه سبع عشرة سنة وشهران .

وكان ملكا جلبلا ، عسـوفا عجولا ، كثير المصادرات لرعيته ودواوينه ، سريع الحركة ، فارسـا مقـداما . وترك من الذكور ثلاثة : السعيـد محمـد بركة خان وملك بعـده ، وسلامش وملك أيضا ، والمسعود خضر ، ومن البنـات سـبع بنـات . وكان طويلا مليح الشكل .

وفتح الله على يديه مما كان مع الفرنج : قيسـارية وأرسـوف وصفد وطبرية ويافا والشقيف وأنطاكية وبقراص والقصير وحصن الأكراد والقرين وحصن عكا وصافيتا ومرقية وحلبا ، وناصف الفرنج على المرقب وبانيـاس وانطرسوس ، وأخذ من صاحب سيس درساك ودركوس وتلميش وكفردين ورعبان ومرزبان وكينوك وأدنة والمصيصة .

وصار اليه من البلاد التى كانت مع المسلمين دمشـق وبعلبك وعجلون وبصرى وصرخد والصلت وحمص وتدمر والرحبـة وتل ناشر وصهيون وبلاطيس وقلعة الكهف والقدموس والعليقة والخوانى والرصافة ومصياف والقليعة والكرك والشوبك ؛ وفتح بلاد النوبة وبرقه .

وعمر الحرم النبوى وقبة الصخرة ببيت المقـدس ، وزاد فى أوقاف الخليـل عليـه السلام ، وعمر قناطر شبرامنت بالجيزية وسور الاسـكندرية ومنار رشـيد ، وردم فم بحـر دمياط ، ووعر طريقه ، وعمر الشوانى ، وعمر قلعة دمشق وقلعة الصبيبة وقلعه بعلبك وقلعة الصلت وقلعة صرخد وقلعـة عجلون وقلعـة بصرى وقلعة شيزر وقلعة حمص .

وعمر المدرسـة بين القصرين بالقـاهرة ، والجامع الكبير بالحسينية خارج القـاهرة ، وحفـر خليج الاسـكندرية القـديم وباشره بنفسه ، وعمر هناك قرية سـماها الظاهرية ، وحفر بحر أشموم طناح على يد الأمير بلبان الرشيدى ، وجدد الجامع الأزهر بالقاهرة ، وأعاد اليه الخطبة ، وعمر بلد السعيـدية من الشرقيـة بديار مصر ، وعمر القصر الأبلق بدمشق وغير ذلك .

ولما مات كتم موته الأمير بدر الدين بيلبك الخازندار عن العسـكر ، وجعله فى تابوت وعلقه ببيت من قلعـة دمشـق ، وأظهر أنه مريض ، ورتب الأطباء يحضرون على العادة ، وأخذ العساكر والخزائن ومعه محفة محمولة

في الموكب محترمة ، وأوهم الناس أن السلطان فيها وهو مريض ، فلم يجسر أحد أن يتفوه بموت السلطان ، وسار الى أن وصل الى قلعة الجبل بمصر وأشيع موته . رحمه الله تعالى .

جامع ابن اللبان

هذا الجامع بجسر الشعيبية — المعروف بجسر الأفرم — عمره الأمير عز الدين أيبك الأفرم ، فى سنة ثلاث وتسعين وستمائة .

قال ابن المتوج : وكان سبب عمارته أنه لما كثرت الخلائق فى خطة هذا الجامع ، قصد الأفرم أن يجعل خطبة فى المسجد ، المعروف بمسجد الجلالة ، الذى ببركة الشقاف ظاهر سور الفسطاط المستجد ، وأن يزيد فيه ويعمره كما يختار . فمنعه الفقيه مؤتمن الدين الحارث ابن مسكين ، ورده عن غرضه .

فحسن له الصاحب تاج الدين محمد بن الصاحب فخر الدين محمد بن الصاحب بهاء الدين على بن حنا عمارة هذا الجامع فى هذه البقعة لقربه منه . فعمره فى شعبان سنة ثلاث وتسعين وستمائة ، لكنه هدم بسببه عدة مساجد .

وعرف هذا الجامع فى زمننا هذا بالشيخ محمد بن اللبان الشافعى لاقامته فيه . وأدركناه عامرا ، وقد انقطعت منه فى هذه المحن اقامة الجمعة والجماعة ، لخراب ما حوله وبعد البحر عنه .

الجامع الطيبرسى *

هذا الجامع عمره الأمير علاء الدين طيبرس الخازندار ، نقيب الجيوش ، بشاطىء النيل فى أرض بستان الخشاب ، وعمر بجواره خانقاه فى جمادى الأولى سنة سبع وسبعمائة . وكان من أحسن متنزهات مصر وأعمرها .

وقد خرب ما حوله من الحوادث والمحن التى بعد سنة ست وثمانمائة ، بعد ما كانت العمارة منه متصلة الى الجامع الجديد بمصر ، ومنه الى الجامع الخطيرى ببولاق ، ويركب الناس المراكب للفرجة من هذا الجامع الى الجامعين المذكورين مصعدين ومنحدرين فى النيل ، ويجتمع بهذا الجامع الناس للنزهة ، فتمر به أوقات ومسرات لا يمكن وصفها . وقد خرب هذا الجامع وأقفر من المساكن ، وصار مخوفا بعدما كان ملهى وملعبا ... سنة الله فى الذين خلوا من قبل .

ولطيبرس هذا المدرسة الطيبرسية بجوار الجامع الأزهر من القاهرة .

الجامع الجديد الناصرى

هذا الجامع بشاطىء النيل من ساحل مصر الجديد . عمره القاضى فخر الدين محمد بن فضل الله ، ناظر الجيش ، باسم السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون . وكان الشروع فيه يوم التاسع من المحرم سنة احدى عشرة وسبعمائة ، وانتهت عمارته فى ثامن صفر سنة اثنتى عشرة وسبعمائة .

(*) ص٣٠٢ جـ٢ ، ط. بولاق .

وأقيم فى خطابته قاضى القضاة بدر الدين محمد بن ابراهيم بن جماعة الشافعى ، ورتب فى امامته الفقيه تاج الدين بن مرهف . فأول ما صلى فيه صلاة الظهر من يوم الخميس ثامن صفر المذكور ، وأقيمت فيه الجمعة يوم الجمعة تاسع صفر ، وخطب عن قاضى القضاة بدر الدين ابنه جمال الدين .

ولهذا الجامع أربعة أبواب ، وفيه مائة وسبعة وثلاثون عمودا ، منها عشرة من صوان فى غاية السمك والطول ، وجملة ذرعه أحد عشر ألف ذراع وخمسمائة ذراع بذراع العمل : من ذلك طوله من قبليه الى بحريه مائة وعشرون ذراعا ، وعرضه من شرقيه الى غربيه مائة ذراع ، وفيه ستة عشر شباكا من حديد ، وهو يشرف من قبليه على بستان العالمة ، وينظر من بحريه بحر النيل .

وكان موضع هذا الجامع فى القديم غامرا بماء النيل ، ثم انحسر عنه النيل وصار رملة ، فى زمن الملك الصالح نجم الدين أيوب ، يمرغ الناس فيها دوابهم أيام احتراق النيل . فلما عمر الملك الصالح قلعة الروضة وحفر البحر ، طرح الرمل فى هذا الموضع ، فشرع الناس فى العمارة على الساحل .

وكان موضع هذا الجامع شونة . وقد ذكر خبر ذلك عند ذكر الساحل الجديد بمصر ، فانظره . وما برح هذا الجامع من أحسن متنزهات مصر الى أن خرب ما حوله . وفيه الى الآن بقية ، وهو عامر .

«محمد بن قلاوون» السلطان الملك الناصر أبو الفتح ناصر الدين ابن الملك المنصور — كان يلقب بحرفوش ، وأمه أشلون ابنة شنكاى — ولد يوم السبت النصف من المحرم سنة أربع وثمانين وستمائة ، بقلعة الجبل من ديار مصر ، وولى الملك ثلاث مرات :

الأولى بعد مقتل أخيه الملك الأشرف خليل بن قلاوون ، فى رابع عشر المحرم سنة ثلاث وتسعين وستمائة ، وعمره تسع سنين تنقص يوما واحدا . فأقام فى الملك سنة الا ثلاثة أيام ، وخلع بمملوك أبيه كتبغا المنصورى يوم الأربعاء حادى عشر المحرم سنة أربع وتسعين وستمائة .

وأعيد الى المملكة ثانيا بعد قتل الملك المنصور لاجين يوم الاثنين سادس جمادى الأولى سنة ثمان وتسعين وستمائة . فأقام عشر سنين وخمسة أشهر وستة عشر يوما ، وعزل نفسه وسار الى الكرك . فولى الملك من بعده الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير ، وتلقب بالملك المظفر ، فى يوم السبت ثالث عشرى شوال سنة ثمان وسبعمائة .

ثم حضر من الكرك الى الشام وجمع العساكر . فخامر على بيبرس معظم جيش مصر وانحل أمره ، فترك الملك فى يوم الثلاثاء سادس عشر شهر رمضان سنة تسع وسبعمائة . وطلع الملك الناصر الى قلعة الجبل يوم عيد الفطر من السنة المذكورة ، واستولى على ممالك مصر والشام والحجاز .

فأقام فى الملك من غير منازع له فيه الى أن مات بقلعة الجبل فى ليلة الخميس الحادى والعشرين من ذى الحجة سنة احدى وأربعين وسبعمائة ، وعمره سبع وخمسون سنة وأحد

عشر شهرا وخمسة أيام . وله فى ولايتـه الثالثـة مـدة اثنتين وثلاثين سـنة وشهرين وعشرين يوما . وجملة اقامتـه فى الملك عن المدد الثلاث ثلاث وأربعون سنة وثمانية أشهر وتسعة أيام .

ولما مات ترك ليلته ومن الغد حتى تم الأمر لابنـه أبى بكر المنصـور فى يوم الخميس المذكور . ثم أخذ فى جهازه ، فوضع فى محفة بعد العشاء الآخرة بساعة ، وحمل على بغلين ، وأنزل من القلعة الى الاصطبل السلطانى .

وسار به الأمير ركن الدين بيبرس الأحمدى أمير جاندار ، والأمير نجم الدين أيوب والى القاهرة ، والأمير قطلوبغا الذهبى ، وعلم دار خوطا جار الدوادار . وعبروا به الى القاهرة من باب النصر ، وقد غلقت الحوانيت كلها ، ومنع الناس من * الوقوف للنظر اليه ، وقدام المحفة شمعة واحدة فى يد علمدار فلما دخلوا به من باب النصر ، كان قدامه مسرجة فى يد شاب وشمعـة واحدة ، وعبروا به المدرسـة المنصورية بين القصرين ليدفن عند أبيه الملك المنصور قلاوون .

وكان الأمير علم الدين سنجر الجـاولى ، ناظر المارستان ، قد جلس ومعه القضاة الأربعة وشيخ الشيوخ ركن الدين شـيخ خانقـاه سرياقوس ، والشـيخ ركن الدين عمر ابن الشـيخ ابراهيم الجعبرى فحطت المحفـة وأخرج منها ، فوضع بجـانب الفسقيـة التى بالقبة ، وأمر ابن أبى الظاهر مغسل الأموات بتغسيله ، فقال : هذا ملك ، ولاأنفرد بتغسيله الا أن يقوم أحد منكم ويجرده على الدكة ، فانى أخشى أن يقال كان معه فص أو خاتم أو فى عنقه خرزة .

فقام قطلوبغا الذهبى وعلمدار ، وجرداه مع الغاسل من ثيابه . فكان على رأسه قبع أبيض من قطن ثيابه ، وعلى بدنه بغلطاق صدر أبيض وسراويل فنزعا ، وترك القميص عليه وغسـل به ، ووجـد فى رجله الموجـوعة بخشـان مفتوحان . فغسل من فوق القميص ، وكفن فى نصفية ، وعملت له أخرى طراحة ومخـدة ، ووضع فى تابوت من خشب ، وصلى عليـه قاضى القضاة عز الدين عبد العزيز بن محمد ابن جماعة الشافعى بمن حضر .

وأنزل الى قبر أبيه فى سحلية من خشب قد ربطت بحبل ، ونزل معه الى القبر الغاسـل والأمير سنجر الجاولى ، ودفع الى الغاسـل ثلثمائة درهم ، فباع ما نابه من الثياب بثلاثة عشر درهما سوى القبع فانه فقـده ، وذكر الغاسل أنه كان محنكا بخرقة معقـدة بثلاث عقد .

فسبحان من لا يحول ولا يزول ... هـذا ملك أعظم المعمور من الأرض مات غريبا ، وغسل طريحا ، ودفن وحيـدا . ان فى ذلك لعبرة لأولى الألباب .

وفى ليلة السبت قرأ القراء عند القبر بالقبة القرآن ، وحضر بعض الأمراء .

وترك من الأولاد اثنى عشر ولدا ذكرا ، وهم : أحمد وهو أسنهم ، وكان بالكرك ، وأبو بكر وتسلطن من بعـده ، وشقيقـه رمضان ، ويوسف واسماعيل وتسلطن أيضا ، وشعبـان وتسلطن ، وحسـين ، وكجـك

(*) ص٣٠٤ جـ٢ ، ط. بولاق .

وتسلطن ، وأمير حاج ، وحسن — ويدعى قمارى — وتسلطن ، وصالح وتسلطن ، ومحمد . وترك من البنات ثمانيا متزوجات ، سوى من خلف من الصغار . وخلف من الزوجات جاريته طغاى ، وابنة الأمير تنكز نائب الشام .

ومات وليس له نائب بديار مصر ، ولا وزير ، ولا حاجب متصرف .. سوى أن برسبغا الحاجب تحكم فى متعلقات أمور الاقطاعات وليس معه عصا الحجوبية ، وبدر الدين بكتاش نقيب الجيوش ، وأقبغا عبد الواحد أستادار السلطان مقدم المماليك ، وبيبرس الأحمدى أمير جاندار ، ونجم الدين أيوب والى القاهرة ، وجمال الدين جمال الكفاه ناظر الجيوش ، والموفق ناظر الدولة ، وصارم الدين أزبك شاد الدواوين ، وعز الدين عبد العزيز بن جماعة قاضى القضاة بديار مصر .

ونائب دمشق الأمير ألطنبغا ، نائب .... الأمير طشتمر حمص أخضر ونائب طرابلس الحاج أرقطاى ، ونائب صفد الأمر أصلم ، ونائب غزة الأمير آق سنقر السلارى ، وصاحب حماه الملك الأفضل ناصر الدين محمد بن المؤيد اسماعيل .

والأمراء مقدمو الألوف بديار مصر يوم وفاته خمسة وعشرون أميرا وهم . بدر الدين جنكلى ابن البابا ، والحاج آل ملك ، وبيبرس الأحمدى ، وعلم الدين سنجر الجاولى ، وسيف الدين كوكاى ، ونجم الدين محمود وزير بغداد ... هؤلاء برانية كبار .

والباقى مماليكه وخواصه ، وهم : ولده الأمير أبو بكر ، والأمير قوصون ، والأمير بشتاك ، وطقزدمر ، وأقبغا عبد الواحد الأستادار ، وأيدغمش أميراخور ، وقطلوبغا الفخرى ، ويلبغا اليحياوى ، وملكتمر الحجازى ، وألطنبغا الماردانى ، وبهادر الناصرى ، وآق سنقر الناصرى ، وقمارى الكبير ، وقمارى أمير شكار ، وطرغاى ، وأرتبغا أمير جاندار ، وبرسبغا الحاجب ، وبلدغى ابن العجوز أمير سلاح ، وبيغرا .

وكان السلطان أبيض اللون ، قد وخطه الشيب ، وفى عينيه حول ، برحله اليمنى ريح شوكة تنغص عليه أحيانا رتؤلمه ، وكان لا يكاد يمس بها الأرض ، ولا يمشى الا متكئا على أحد أو متوكئا على شيء ، ولا يصل الى الأرض الا أطراف أصابعه . وكان شديد البأس ، جيد الرأى ، يتولى الأمور بنفسه ، ويجود لخواصه .

وكان مهابا عند أهل مملكته ، بحيث أن الأمراء اذا كانوا عنده بالخدمه لا يجسر أحد أن يكلم آخر كلمة واحدة ، ولا يلتفت بعضهم الى بعض خوفا منه . ولا يمكن واحدا منهم أن يذهب الى بيت أحد ألبتة ، لا فى وليمة ولا غيرها ، فان فعل أحد مهم شيئا من ذلك قبض عليه ، وأخرجه من يومه منفيا .

وكان مسددا عارفا بأمور رعيته وأحوال مملكته ، وأبطل نيابة السلطنة من ديار مصر من سنة سبع وعشرين وسبعمائة ، وأبطل الوزارة ، وصار يتحدث بنفسه فى الجليل من الأمور والحقير ، ويستجلب خاطر كل

أحد من صغير وكبير ... لا سيما حواشيه . فلذلك عظمت حاشية المملكة وأتباع السلطنة ، وتخولوا فى النعم الجزيلة ، حتى الحولة والكلابزية والأسرى من الأرمن والفرنج ، وأعطى البازدارية الأخباز فى الحلقة : فمنهم من كان اقطاعه الألف دينار فى السنة ، وزوج عدة منهم بجواريه ، وأفنى * خلقا كثيرا من الأمراء بلغ عددهم نحو المائتى أمير .

وكان اذا كبر أحد من أمرائه قبض عليه وسلبه نعمته ، وأقام بدله صغيرا من مماليكه الى أن يكبر ، فيمسكه ويقيم غيره ... ليأمن بذلك شرهم . وكان كثير التخيل حازما ، حتى انه اذا تخيل من ابنه قتله .

وفى آخر أيامه شره فى جمع المال ، فصادر كثيرا من الدواوين والولاة وغيرهم ، ورمى البضائع على التجار حتى خاف كل من له مال . وكان مخادعا كثير الحيل ، لا يقف عند قول ، ولا يوف بعهد ، ولا يبر فى يمين .

وكان محبا للعمارة . عمر عدة أماكن ، منها جامع قلعة الجبل وهدمه مرتين ، وعمر القصر الأبلق بالقلعة ومعظم الأماكن التى بالقلعة ، وعمر المجرى الذى ينقل الماء عليه من بحر النيل الى القلعة على السور ، وعمر الميدان تحت القلعة ، ومناظر الميدان على النيل .

وعمر قناطر السباع على الخليج ، ومناظر سرياقوس والخانقاه بسرياقوس ، وحفر الخليج الناصرى بظاهر القاهرة ، وعمر الجامع الجديد على شاطىء النيل بظاهر مصر ، وجدد جامع الفيلة الذى بالرصد ، والمدرسة الناصرية بين القصرين من القاهرة ، وغير ذلك مما يرد فى موضعه من هذا الكتاب .

وما زال يعمر منذ عاد الى ولاية الملك فى المرة الثالثة الى أن مات . وبلغ مصروف العمارة فى كل يوم من أيامه سبعة آلاف درهم فضة : عنها ثلثمائة وخمسون دينارا ... سوى من يسخره من المقيدين وغيرهم فى عمل ما يعمره .

وحفر عدة من الخلجانات والترع ، وأقام الجسور بالبلاد ... حتى انه كان ينصرف من الأخباز على ذلك ربع متحصل الاقطاعات . وحفر خليج الاسكندرية ، وبحر المحلة مرتين ، وبحر اللبينى بالجيزة ، وعمل جسر شيبين ، وعمل جسر أحباس بالشرقية والقليوبية مدة ثلاث سنين متوالية فلم ينجع ، فأنشأه بنيانا بالطوب والجير ، وأنفق فيه أموالا عظيمة .

وراك ديار مصر وبلاد الشام .

وعرض الجيش بعد حضوره فى سنة اثنتى عشرة وسبعمائة ، وقطع ثمانمائة من الجند ، ثم قطع فى مرة أخرى ثلاثة وأربعين جنديا فى سنة احدى وأربعين وسبعمائة ، ثم قطع خمسة وستين أيضا فى رمضان سنة احدى وأربعين وسبعمائة قبل وفاته بشهرين .

وفتح من البلاد جزيرة أرواد فى سنة اثنتين وسبعمائة ، وفتح ملطية فى سنة خمس عشرة وسبعمائة ، وفتح أناس فى ربيع الأول سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة وخربها ، ثم عمرها الأرمن . فأرسل اليها جيشا فأخذها ، ومعها عدة بلاد من بلاد الأرمن ، فى سنة سبع

(*) ص٢٠٥ جـ٢ ، ط. بولاق .

وثلاثين وسبعمائة ، وأقام بها نائبا من أمراء حلب .

وعمر قلعة جعبر بعد أن دثرت ، وضربت السكة باسمه فى شوال سنة احدى وأربعين وسبعمائة قبل موته ... تولى ذلك الشيخ حسن بن حسين ، بحضور الأمير شهاب الدين أحمد قريب السلطان ، وقد توجه من مصر بهذا السبب . وخطب له أيضا فى أرتنا ببلاد الروم ، وضربت السكة باسمه ، وكذلك ببلاد ابن قرمان وجبال الأكراد وكثير من بلاد الشرق .

وكان من الذكاء المفرط على جانب عظيم . يعرف مماليك أبيه ومماليك الأمراء بأسمائهم ووقائعهم ، وله معرفة تامة بالخيل وقيمها ، مع الحشمة والسيادة ... لم يعرف عنه قط أنه شتم أحدا من خلق الله ، ولا سفه عليه ، ولا كلمه بكلمة سيئة ، وكان يدعو الأمراء أرباب الأشغال بألقابهم .

وكانت همته علية ، وسياسته جيدة ، وحرمته عظيمة الى الغاية ، ومعرفته بمهادنة الملوك لا مرمى وراءها ... يبذل فى ذلك من الأموال ما لا يوصف كثرة ، فكان كتابه ينفذ أمره فى سائر أقطار الأرض كلها . وهو مع ما ذكرنا مؤيد فى كل أموره ، مظفر فى جميع أحواله ، مسعود فى سائر حركاته ، ما عانده أحد أو أضمر له سوءا الا وندم على ذلك أو هلك .

واشتهر فى حياته بديار مصر أنه ان وقعت قطرة من دمه على الأرض لا يطلع نيل مصر مدة سبع سنين . فمتعه الله من الدنيا بالسعادة العظيمة فى المدة الطويلة ، مع كثرة الطمأنينة والأمن ، وسعة الأموال . واقتنى كل حسن ومستحسن من الخيل والغلمان والجوارى ، وساعده الوقت فى كل ما يحب ويختار الى أن أتاه الموت .

الجامع بالمشهد النفيسى

قال ابن المتوج : هذا الجامع أمر بانشائه الملك الناصر محمد بن قلاوون ، فعمر فى شهور سنة أربع عشرة وسبعمائة ، وولى خطابته علاء الدين محمد بن نصر الله بن الجوهرى شاهد الخزانة السلطانية ، وأول خطبته فيه يوم الجمعة ثامن صفر من السنة المذكورة ، وحضر أمير المؤمنين المستكفى بالله أبو الربيع سليمان وولده وابن عمه ، والأمير كهرداش متولى شد العمائر السلطانية وعمارة هذا الجامع ورواقاته والفسقية المستجدة .

وقيل ان جميع المصروف على هذا الجامع من حاصل المشهد النفيسى ، وما يدخل اليه من النذور ومن الفتوح .

جامع الأمير حسين *

هذا الجامع كان موضعه بستانا بجوار غيط العدة . أنشأه الأمير حسين بن أبى بكر بن اسماعيل بن حيدر بك مشرف الرومى . قدم مع أبيه من بلاد الروم الى ديار مصر فى سنة خمس وسبعين وستمائة ، وتخصص بالأمير حسام الدين لاجين المنصورى قبل سلطنته ،

(*) ص ٣٠٦ ج ٢ ، ط . بولاق .

فكانت له منه مكانة مكينة ، وصار أمير شكار ، وكان فيه بر ، وله صدقة ، وعنده تفقد لأصحابه .

وأنشأ أيضا القنطرة المعروفة بقنطرة الأمير حسين على خليج القاهرة ، وفتح لخوخة فى سور القاهرة بجوار الوزيرية ، و...ى عليه من أجل فتحها ما قد ذكر عند ذكرها فى الخوخ من هذا الكتاب ، وتوفى فى سابع المحرم سنة تسع وعشرين وسبعمائه ، ودفن بهذا الجامع .

جامع الماس

هذا الجامع بالشارع خارج باب زويلة . بناه الأمير سيف الدين ألماس الحاجب ، وكمل فى سنة ثلاثين وسبعمائة .

وكان ألماس هذا أحد مماليك الناصر محمد ابن قلاوون ، فرقاه الى أن صار من أكبر الأمراء ولما أخرج الأمير أرغون الى نيابة حلب ، وبقى منصب النيابة شاغرا ، عظمت منزلة ألماس ، وصار فى منزلة النيابة الا انه لم يسم بالنائب ، ويركب الأمراء الأكابر والأصاغر فى خدمته ، ويجلس فى باب القلة من قلعة الجبل فى منزلة النائب ، والحجاب وقوف بين يديه .

وما برح على ذلك حتى توجه السلطان الى الحجاز فى سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة . فتركه فى القلعة هو والأمير جمال الدين أقوش نائب الكرك ، والأمير أقبغا عبد الواحد ، والأمير طشتمر حمص أخضر ... هؤلاء الأربعة لا غير ، وبقية الأمراء اما معه فى الحجاز واما فى اقطاعاتهم ، وأمرهم ألا يدخلوا القاهرة حتى يحضر من الحجاز .

فلما قدم من الحجاز نقم عليه ، وأمسكه فى صفر سنة أربع وثلاثين وسبعمائة وكان لغضب السلطان عليه أسباب : منها أنه لما أقام فى غيبة السلطان بالقلعة كان يراسل الأمير جمال الدين أقوش نائب الكرك ويوادده ، وبدت منه فى مدة الغيبة أمور فاحشة من معاشرة الشباب ومن كلام فى حق السلطان ، فوشى به أقبغا

وكان مع ذلك قد كثر ماله وزادت سعادته ، فهوى شابا من أبناء الحسينية يعرف بعمير ، وكان ينزل اليه ويجمع الأويراتية ، ويحضر الشباب ويشرب ... فحرك ذلك عليه ما كان ساكنا ويقال ان السلطان لما مات الأمير بكتمر الساقى ، وجد فى تركته جزدان فيه جواب ألماس الى بكتمر الساقى « انى حافظ القلعة الى أن يرد على منك ما أعتمده » .

فلما وقف السلطان على ذلك أمر النشو بن هلال الدولة ، وشاهد الخزانة ، بايقاع الحوطة على موجوده فوجدا له ستمائة ألف درهم فضة ، ومائة ألف درهم فلوسا ، وأربعة آلاف دينار ذهبا ، وثلاثين حياصة ذهبا كاملة بكفتياتها وخلعها وجواهر وتحفا .

وأقام ألماس عند أقبغا عبد الواحد ثلاثة أيام ، وقتل خنقا بمحبسه فى الثانى عشر من صفر سنة أربع وثلاثين وسبعمائة ، وحمل من القلعة الى جامعه فدفن به ، وأخذ جميع ما كان فى داره من الرخام فقلع منها ، وكان رخاما فاخرا الى الغاية وكان أسمر طوالا ،

غتيما لا يفهم شيئا بالعربى ، سادجا بجلس فى بيته فوق لباد على ما اعتاده .

وبهـذا الجـامع رخام كثير نقله من جزائر البحر وبلاد الشام والروم .

جامع قوصـون

هذا الجامع بالشارع خارج باب زويلة . ابتدأ عمارته الأمير قوصون فى سنة ثلاثين وسبعمائة . وكان موضعه دارا بجوار حارة المصامدة من جانبها الغربى تعرف بدار آقوش نميلة ، ثم عرفت بدار الأمير جمال الدين قتال السبع الموصلى ، فأخذها من ولده وهدمها .

وتولى بناءه شاد العمائر ، واستعمل فيـه الأسرى . وكان قـد حضر من بلاد توريز بنّاء ، فبنى مئذنتى هذا الجامع على مثـال المئذنة التى عملها خواجا على شـاه . وزير السلطان أبى سعيد ، فى جامعه بمدينة توريز

وأول خطبة أقيمت فيه يوم الجمعة من شهر رمضان سنة ثلاثين وسبعمائة ، وخطب يومئذ قاضى القضاة جلال الدين القزوينى بحضـور السلطان ولما انقضت صلاة الجمعة أركبـه الملك الناصر بغلة بخلعة سـنية ، ثم منعـه السلطان الملك الناصر أن يستقر فى خطابته ، فولى فخر الدين شكر

« قوصون » الأمير الكبير سيف الدين حضر من بلاد بركة الى مصر صحبة خوند ابنة أزبك ، امرأة الملك الناصر محمد بن قلاوون ، فى ثالث عشرى ربيـع الآخر سـنة عشرين وسبعمائة ، ومعه قليل عصى وطسـما ونحو ذلك مما قيمته خمسمائة درهم ، ليتجر فيه .

فطاف بذلك فى أسواق القاهرة وتحت القلعة ، وفى داخل قلعة الجبل

فاتفق فى بعض الأيام أنه دخل الى الاصطبل السلطانى ليبيع ما معه فأحبه بعض الأوشاقية — وكان صبيا جميلا طويلا ، له من العمر ما يقارب * الثمانى عشرة سنة — فصار يتردد الى الأوشاقى الى أن رآه السلطان فوقع منه بموقع ، فسأل عنـه ، فعرف بأنه يحضر ليبيع ما معه ، وأن بعض الأوشاقية تولع به ، فأمر باحضاره اليه ، وابتاع منه نفسه ليصير من جملة المماليك السلطانية ، فنزله من جملة السقاة ، وشغف به وأحبه حبا كثيرا .

فأسلمه للأمير بكتمر الساقى ، وجعله أمير عشرة ، ثم أعطاه امرة طبلخاناه ، ثم جعله أمير مائة مقـدم ألف ، ورقاه حتى بلّغـه أعلى المراتب . فأرسل الى البلاد ، وأحضر اخوته سوسـون وغيره من أقاربه ، وأمّر الجميع واختص به السلطان بحيث لم ينل أحد عنده ما ناله ، وزوجه بابنتـه ، وتزوج السلطـان أخته فلما احتضر السلطان ، جعله وصـيا على أولاده ، وعهد لابنه أبى بكر ، فأقيم فى الملك من بعده

وأخذ قوصون فى أسباب السلطنة ، وخلع أبا بكر المنصور بعد شـهرين ، وأخرجه الى مدينة قوص ببلاد الصعيـد ثم قتله ، وأقام كجـك ابن السلطان وله من العمـر خمس سنين ، ولقبه بالملك الأشرف ، وتقلد نـيابة السلطنة بديار مصر ، فأمر من حاشيته وأقاربه ستين أميرا ، وأكثر من العطاء وبذل الأموال والانعام ، فصار أمر الدولة كله بيده .

(*) ص٣٠٧ جـ٢ ، ط. بولاق .

هذا وأحمد ابن السلطان الملك الناصر مقيم بمدينة الكرك . فخافه قوصون ، أخذ فى التدبير عليه ، فلم يتم له ما أراد من ذلك ، وحرك على نفسه ما كان ساكنا فطلب أحمد الملك لنفسه ، وكاتب الأمراء النواب بالمملكة الشامية والمصريه ، فأدعنوا اليه

وكان بمصر من الأمراء الامير أيدغمش ، والأمير آل ملك ، قمارى ، والماردانى وغيرهم فتخيل قوصون منهم ، أخذ فى أسباب القبض عليهم فعلموا بذلك رخافوا الفوت ، فركبوا لحربه وحصروه بقلعة الجبل حتى قبضوا عليه فى ليله الأربعاء آخر شهر رجب سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة ، رنهبت داره وسائر دور حواشيه وأسبابه ، وحمل الى الاسكندرية صحبة الأمير قبلاى فقتل بها .

وكان كريما : فرق فى كل سنة للأضحية ألف رأس غنما وثلثمائة بقرة ، وفرق ثلاثين حياصة ذهبا ، وبفرق كل سنة عده أملاك فيها ما يبلغ ثمنه ثلاثين ألف درهم . وله من الآثار بديار مصر — سوى هذا الجامع — الخانقاه بباب القرافة ، والجامع تجاهها ، وداره التى بالرميلة تحت القلعة تجاه باب السلسلة ، وحكر قوصون

جامع المارداني

هذا الجامع بجوار خط التبانة خارج باب زويلة ، كان مكانه أولا مقابر أهل القاهرة ، ثم عمر أماكن فلما كان فى سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة ، أخذت الأماكن من أربابها ، وتولى شراءها النشو فلم ينصف فى أثمانها وهدمت ، وبنى مكانها هذا الجامع .

فبلغ مصروفه زيادة على ثلثمائة ألف درهم عنها نحو خمسه عشر ألف دينار .. سوى ما حمل اليه من الأحشاب والرخام وغيره من جهة السلطنة ، وأخذ ما كان فى جامع راشدة من العمد فعملت فيه ، وجاء من أحسن الجوامع .

وأول خطبة أقيمت فيه يوم الجمعة رابع عشرى رمضان سنة أربعين وسبعمائة ، وخطب فيه الشيخ ركن الدين عمر بن ابراهيم الجعبرى ولم يتناول معلوما .

« ألطنبغا المارداني الساقى » .. أمَّر الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وقدمه وزوجه ابنته فلما مات السلطان ، تولى بعده ابنه الملك المنصور أبو بكر ، ذكر أنه وشى بأمره الى الأمير قوصون وقال : قد عزم على امساكك . فتحيل قوصون وخلع أبا بكر وقتله بقوص ... هذا مع أن ألطنبغا كان قد عظم عند المنصور أكثر مما كان عند أبيه .

فلما أقيم الأشرف كجك ، وماج الناس ، وحضر الأمير قطلوبغا من الشام ، وشعب الأمراء على قوصون . كان ألطنبغا أصل ذلك كله . ثم نزل الى الأمير أيدغمش أميراخور ، واتفق معه على أن يقبض على قوصون ، وطلع الى قوصون وشاغله . وخذله عن الحركة طول الليل والأمراء الكبار المشايخ عنده ، وما زال يساهره حتى نام وكان من قيام الأمراء ، وركوبهم عليه ما كان الى أن أمسك ، وأخرج الى الاسكندرية .

ولما قدم ألطنبغا نائب الشام وأقام ، تقدم المارداني وقبض على سيفه ، ولم يجسر غيره على ذلك ، فقويت بهذه الحركات نفسه ،

وصار يقف فوق ألتمر تاشى وهـو آغاته . فشق ذلك عليه ، وكتم فى نفسه الى أن ملك الصالح اسماعيل ، فتمكن حينئذ ألتمر تاشى ، وصار الأمر له ، وعمـل على الماردانى ، فلم يشعر بنفسه الا وقد أخرج على خمس أرؤس من خيل البريد الى نيابة حماة فى شهر ربيع الأول سنة ثلاث وأربعين .

فسار اليها وبقى فيها نحو شهرين الى أن مات أيدغمش نائب الشام ، ونقـل طقزدمر من نيابة حلب الى نيابة دمشق . فنقل الماردانى من نيابة حماه الى نيابة حلب ، وسار اليها فى أول رجب من السنة المذكورة ، وجـاء الأمير يلبغا اليحياوى الى نيابة حماه . فأقام الماردانى يسيرا فى حلب ومرض ، ومات مستهل صفر سنة أربع وأربعين وسبعمائة .

وكان شابا طويلا رقيقـا ، حلو الصـورة لطيفا ، معشق الخطرة كريما ، صائب الحدس عاقلا * .

جامع اصلم

هذا الجامع داخل الباب المحروق . أنشأه الأمير بهاء الدين أصلم السلاحدار فى سـنة ست وأربعين وسبعمائة .

« أصلم » : أحد مماليك الملك المنصـور قلاوون الألفى . فلما فرقت المماليك السلطانية فى نيابة كتبغا ، بعد قتل الملك الأشرف خليل ابن قلاوون وسلطنة الناصر محمد بن قلاوون ، كان أصلم من نصـيب الأمير سـيف الدين أقوش المنصورى ، ثم انتقل الى الأمير سلار .

(*) ص٢٠٨ جـ٢، ط.بولاق

فلما حضر الملك الناصر محمد من الكرك ، بعد سلطنة بيبرس الجاشـنكير ، خرج اليـه أصلم بسنجا الملك ، وبشره بهروب بيبرس . فأنعم عليه بامرة عشرة ، ثم تنقل الى أن صار أمير مائة مقدم ألف ، وخرج فى التجريدة الى اليمن ، فلما عاد اعتقله السلطان خمس سنين لكلام نقل عنه ، ثم أخرجه وأعاده الى منزلته ، ثم جهزه لنيابة صفد .

ومات الناصر وأصلم بصفد . فخرج الأمير قوصـون مع ألطنبغا نائب الشام الى حلب لامساك طشتمر ، فسار الى قارى ، ثم رجـع وانضم الى الفخرى ، وأقام عنده على خان لاجين ، وتوجه معه صحبة عساكر الشام الى مصر ، فرسم له الملك الناصر أحمد بن محمد ابن قلاوون بامرة مائة فى مصر على عادته .

وكان أحد المشايخ ، ويجلس رأس الحلقة ، ويجيد رمى النشاب ، مع سلامة صدر وخير ، الى أن مات فى يوم السبت عاشر شعبان سنة سبع وأربعين وسبعمائة .

وأنشأ بجـوار هذا الجـامع دارا سـنية وحوض ماء للسبيل . وبهذا الجامع درس ، وله أوقاف ، وهو من أحسن الجوامع .

جامع بشتاك

هذا الجـامع خارج القـاهرة بخط قبـو الكرمانى على بركة الفيل . عمره الأمير بشتاك فكمل فى شعبان سنة ست وثلاثين وسبعمائة ، وخطب فيه تاج الدين عبد الرحيم ابن قاضى القضاة جلال الدين القزوينى فى يوم الجمعة سابع عشره . وعمر تجاهه خانقاه على الخليج

الكبير ، ونصب بينهما ساباطا يتوصل به من أحدهما الى الآخر .

وكان هذا الخط يسكنه جماعة من الفرنج والأقباط ، ويرتكبون من القبائح ما يليق بهم . فلما عمر هذا الجامع ، وأعلن فيه بالأذان واقامة الصلوات ، اشمأزت قلوبهم لذلك ، وتحولوا من هذا الخط . وهو من أبهج الجوامع ، أحسنها رخاما وأنزهها ، وأدركناه اذا قويت زيادة ماء النيل فاضت بركة الفيل وغرقته ، فيصير لجة ما ، لكن منذ انحسر ماء النيل عن البلد الى جهة الغرب بطل ذلك .

وله من الآثار سوى ذلك قصر بشتاك بين القصرين . وقد تقدم ذكره .

جامع آق سنقر

هذا الجامع بسويقة السباعين على البركة الناصرية . عمره الأمير آق سنقر شاد العمائر السلطانية ، واليه تنسب قنطرة آق سنقر التى على الخليج الكبير بخط قبو الكرمانى قبالة الحبانية ، وأنشأ أيضا دارا جليلة وحمامين بخط البركة الناصرية

وكان من جملة الأوشاقية فى أول أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون ، ثم عمله أميراخور ، ونقله منها فجعله شاد العمائر السلطانية . وأقام فيها مدة فأثرى ثراء كبيرا ، وعمر ما ذكر ، وجعل على الجامع عدة أوقاف . فعزل وصودر وأخرج من مصر الى حلب ، ثم نقل منها الى دمشق ، فمات بها فى سنة أربعين وسبعمائة .

جامع آق سنقر

هذا الجامع قريب من قلعة الجبل ، فيما بين باب الوزير والتبانة ، كان موضعه فى القديم مقابر أهل القاهرة . وأنشأه الأمير آق سنقر الناصرى ، وبناه بالحجر ، وجعل صفوفه عقودا من حجارة ورخمه ، واهتم فى بنائه اهتماما زائدا حتى كان يقعد على عمارته بنفسه ، ويشيل التراب مع الفعلة بيده ، ويتأخر عن غدائه اشتغالا بذلك وأنشأ بجانبه مكتبا لاقراء أيتام المسلمين القرآن ، حانوتا لسقى الناس الماء العذب

ووجد عند حفر أساس هذا الجامع كثيرا من الأموات ، وجعل عليه ضيعة من قرى حلب تغل فى السنة مائة وخمسين ألف درهم فضة : عنها نحو سبعة آلاف دينار ، ورتب فيه درسا فيه عدة من الفقهاء ، وولى الشيخ شمس الدين محمد ابن اللبان الشافعى خطابته ، وأقام له سائر ما يحتاج اليه من أرباب الوظائف ، وبنى بجواره مكانا ليدفن فيه ، ونقل اليه ابنه فدفنه هناك .

وهذا الجامع من أجل جوامع مصر . الا أنه لما حدثت الفتن ببلاد الشام ، وخرجت النواب عن طاعة سلطان مصر منذ مات الملك الظاهر برقوق ، امتنع حضور مغل وقف هذا الجامع لكونه فى بلاد حلب ، فتعطل الجامع من أرباب وظائفه الا الأذان والصلاة واقامة الخطبة فى الجمع والأعياد .

ولما كانت سنة خمس عشرة وثمانمائة ، أنشأ * فى وسطه الأمير طوغان الدوادار بركة

(*) ص٣٠٦ جـ٢ ، ط. بولاق .

ماء وسقفها ، ونصب عليها عمدا من رخام لحمل السقف أخذها من جامع الخندق ، فهدم الجامع بالخندق من أجل ذلك ، وصــار الماء ينقل الى هذه البركة من ساقيــة الجامع التى كانت للميضأة .

فلما قبض الملك المؤيد شيخ الظاهرى على طوغان ، فى يوم الخميس تاسع عشر جمادى الأولى سنة ست عشرة وثمانمائة ، وأخرجه الى الاسكندرية واعتقله بها ، أخذ شخص الثور الذى كان يدير الساقية — فان طوغان كان أخذه منه بغير ثمن ، كما هى عادة أمرائنا — فبطل الماء من البركة .

« آق ســنقر » الســلارى الأمير شمس الدين : أحد مماليك السلطان الملك المنصــور قلاوون . ولما فرقت المماليك فى نيابة كتبغــا على الأمراء ، صار الأمير آق سنقر الى الأمير سلار ، فقيل له السلارى لذلك ولما عاد الملك الناصر محمد بن قلاوون من الكرك ، اختص به ، ورقاه فى الخدم حتى صار أحد الأمراء المقدمين ، وزوجه بابنتــه ، وأخرجه لنيــابة صفد ، فباشرها بعفة الى الغاية ، ثم نقله من نيابة صفد الى نيابة غزة .

فلما مات الناصر ، وأقيم من بعده ابنه الملك المنصور أبو بكر ، وخلع بالأشرف كجــك ، وجاء الفخرى لحصار الكرك . قام آق سنقر بنصرة أحمد ابن السلطان فى الباطن . وتوجه الفخرى الى دمشق لما توجه الطنبغا الى حلب ليطرد طشتمر نائب حلب ، فاجتمع به وقوى عــزمه ، وقال له : توجــه أنت الى دمشــق واملكها ، وأنا أحفظ لك غزة .

وقام فى هذه الواقعة قياما عظيما ، وأمسك الدروب . فلم يحضر أحد من الشام أو مصر ، من البريد وغيره ، الا وقبض عليه وحمل الى الكرك ، وحلف الناس للناصر أحمــد ، وقام بأمره ظاهرا وباطنا ثم جاء الى الفخــرى وهو على خان لاجين ، وقوى عزمه وعضده ، وما زال عنده بدمشق الى أن جاء ألطنبغا من حلب والتقوا ، وهرب ألطنبغا ، فاتبعه آق سنقر الى غزة وأقام بها ، ووصلت العساكر الشامية الى مصر .

فلما أمسك الناصر أحمد طشتمر النائب ، وتوجه به الى الكرك ، أعطى نيابة ديار مصر لآق سنقر ، فباشر النيابة وأحمد فى الكرك . الى أن ملك الملك الصالح اسماعيل بن محمد ، فأقره على النيابة ، وسار فيها سيرة مشكورة . فكان لا يمنع أحدا شيئا طلبه كائنا من كان ، ولا يرد سائلا يسأل ولو كان ذلك غير ممكن . فارتزق الناس فى أيامه ، واتسعت أحوالهم ، وتقدم من كان متأخرا حتى كان الناس يطلبون ما لا حاجة لهم به .

ثم ان الصالح أمسكه هو وبيغرا أميرجاندار وأولاجا الحاجب وقراجا الحاجب ، من أجل أنهم نسبوا الى الممالأة والمداجاة مع النــاصر أحمد ، وذلك يوم الخميس رابع المحرم ســنة أربع وأربعين وســبعمائة ، وكان ذلك آخر العهد به ، واستقر بعده فى النيابة الحاج آل ملك . ثم أفرج عن بيغرا وأولاجا وقراجا فى شهر رمضان سنة خمس وأربعين وسبعمائة .

جامع آل ملك

هذا الجامع فى الحسينية خارج باب النصر ، أنشأه الأمير سيف الدين الحاج آل ملك ، وكمل ، وأقيمت فيه الخطبة يوم الجمعة تاسع جمادى الأولى سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة ، وهو من الجوامع المليحة ، وكانت خطته عامرة بالمساكن وقد خربت .

« آل ملك » الأمير سيف الدين : أصله مما أخذ فى أيام الملك الظاهر من كسب الابلستين ، لما دخل الى بلاد الروم فى سنة ست وسبعين وستمائة ، وصار الى الأمير سيف الدين قلاوون وهو أمير قبل سلطنته ، فأعطاه لابنه الأمير على . وما زال يترقى فى الخدم الى أن صار من كبار الأمراء المشايخ رؤوس المشورة فى أيام الملك الناصر محمد ابن قلاوون .

وكان لما خلع الناصر وتسلطن بيبرس يتردد بينهما من مصر الى الكرك ، فأعجب الناصر عقله وتأنيه ، وسير من الكرك يقول للمظفر : لا يعود يجىء الى رسولا غير هذا . فلما قدم الناصر الى مصر عظمه ، ولم يزل كبيرا موقرا مبجلا .

فلما ولى الناصر أحمد السلطنة أخرجه الى نيابة حماة ، فأقام بها الى أن تولى الصالح اسماعيل فأقدمه الى مصر ، وأقام بها على حاله الى أن أمسك الأمير آق سنقر السلارى نائب السلطنة بديار مصر ، فولاه النيابة مكانه فشدد فى الخمر الى الغاية وحد شاربها ، وهدم خزانة البنود وأراق خمورها ، وبنى بها مسجدا وحكرها للناس ، فسكنت الى اليوم كما تقدم ذكره ، وأمسك الزمام زمانا .

وكان يجلس للحكم فى الشباك بدار النيابة من قلعة الجبل طول نهاره ، لا يمل ذلك ولا يسأم ، وتروح أرباب الوظائف ولا يبقى عنده الا النقباء البطالة ، وكان له فى قلوب الناس مهابة وحرمة . الى أن تولى الكامل شعبان ، فأخرجه أول سلطنته الى دمشق نائبا بها عوضا عن الأمير طقزدمر .

فلما كان فى أول الطريق حضر اليه من أخذه ، وتوجه به الى صفد نائبا بها ، فدخلها آخر ربيع الآخر سنة سبع وأربعين وسبعمائة . ثم سأل الحضور الى مصر ، فرسم له بذلك ، فلما توجه ووصل الى غزة أمسكه نائبها ، ووجهه الى الاسكندرية فى سنة سبع وأربعين فخنق بها .

وكان * خيرا فيه دين وعبادة ، يميل الى أهل الخير والصلاح وتعتقد بركته ، وخرج له أحمد بن أيبك الدمياطى مشيخة ، وحدث بها ، وقرئت عليه مرات وهو جالس فى شباك النيابة بقلعة الجبل . وعمر هذا الجامع ودارا مليحة عند المشهد الحسينى من القاهرة ، ومدرسته بالقرب منها .

وكان بركه من أحسن ما يكون ، وخيله مشهورة موصوفة ، وكان يقول : كل أمير لا يقوم رمحه ، ويسكب الذهب الى أن يساوى السنان ، ما هو أمير ... وحمة الله عليه .

(*) ص٢١٠ جـ٢ ، ط. بولاق .

جامع الفخر

فى ثلاثة مواضع · فى بولاق خارج القاهرة وفى الروضة تجاه مدينة مصر ، فى جزيرة الفيل على النيل ما بين بولاق ومنية السيرج

أما جامع الفخر بناحية بولاق فانه موجود تقام فيه الجمعة الى اليوم وكان أولا عند ابتداء بنائه يعرف موضعه بخط خص الكيالة ، وهو مكان كان يؤخذ فيه مكس الغلال المتاعة وقد ذكر ذلك عند ذكر اقسام مال مصر من هذا الكتاب .

وجامع الروضة باق تقام فيه الجمعة

وأما الجامع بجزيرة الفيل فانه كان باقيا الى نحو سنة تسعين وسبعمائة وصلبت فيه الجمعة غير مرة ثم خرب وموضعه باق بجوار دار تشرف على النيل ، تعرف بدار الأمير شهاب الدين أحمد بن عمر بن قطينة قريبا من الدار الحجازية

و « الفخر » هذا هو محمد بن فضل الله القاضى فخر الدين ، ناظر الجيش المعروف بالفخر كان فى نصرانيته متألها ثم أكره على الاسلام ، فامتنع وهم بقتل نفسه وتغيب أياما ثم أسلم وحسن اسلامه ، وأبعد النصارى ولم يقرب أحدا منهم ، وحج غير مرة ، وتصدق فى آخر عمره مدة فى كل شهر بثلاثة آلاف درهم نقرة

وبنى عدة مساجد بديار مصر ، وأنشأ عدة أحواض ماء للسبيل فى الطرقات وبنى مارستانا بمدينة الرملة ومارستانا بمدينة بلبيس ، وفعل انواعا من الخير ، وكان حنفى المذهب ، وزار القدس عدة مرار ، وأحرم مرة من القدس بالحج ، وسار الى مكة محرما ، وكان اذا خدمه أحد مرة واحدة صار صاحبه طول عمر

وكان كثير الاحسان ، لا يزال فى قضاء حوائج الناس ، مع عصبية شديدة لأصحابه . وانتفع به خلق كثير لوجاهته عند السلطان واقدامه عليه . بحيث لم تكن لأحد من أمراء الدولة عند الملك الناصر محمد بن قلاوون ما له من الاقدام ولقد قال السلطان مرة لجندى طلب منه اقطاعا لا تطول ، والله لو أنك ابن قلاوون ما أعطاك القاضى فخر الدين خيرا يعل أكثر من ثلاثة آلاف درهم .

وقال له السلطان فى يوم من الأيام وهو بدار العدل يافخر الدين تلك القضية طلعت فاشوش فقال له ما قلت لك انها عجوز نحس . يريد بذلك بنت كوكاى امرأة السلطان عندما ادعت أنها حبلى

وله من الأخبار كثير وكان أولا كاتب المماليك السلطانية ، ثم صار من كتابة المماليك الى وظيفة نظر الجيش ، ونال من الوجاهة ما لم ينله غيره فى زمانه

وكان الأمير أرغون ، نائب السلطنة بديار مصر ، يكرهه ، واذا جلس للحكم يعرض عنه ويدير كتفه الى وجه الفخر . فعمل عليه الفخر حتى سار للحج ، فقال للسلطان ياخوند ، ما يقتل الملوك الا النواب . بيدرا قتل أخاك الملك الأشرف ، ولاجين قتل بسبب نائبه منكوتمر وخيل للسلطان الى أن أمر بسير الأمير أرغون من طريق الحجاز الى نيابة حلب .

وحسن للسلطان ألا يستوزر أحدا بعد الأمير بدر الجمالى . فلم يول أحدا بعده الوزارة ، وصارت المملكة كلها — من أحوال الجيوش ، وأمور الأموال وغيرها — منعلقة بالفخر الى أن غضب عليه السلطان ونكبه ، وصادره على أربعمائة ألف درهم نقرة ، وولى وظيفة نظر الجيش الشيخ قطب الدين موسى ابن شيخ السلامية .

ثم رضى عن الفخر ، وأمر باعادة ما أخذ منه من المال اليه — وهو أربعمائة ألف درهم نقرة — فامتنع وقال : أنا خرجت عنها للسلطان فليبن بها جامعا . وبنى بها الجامع الناصرى — المعروف الآن بالجامع الجديد — خارج مدينة مصر بموردة الحلفاء

وزار مرة القدس وعبر كنيسة قمامة ، فسمع وهو يقول عندما رأى الضوء بها : ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا . وباشر آخر عمره بغير معلوم ، وكان لا يأخذ من ديوان السلطان معلوما سوى كماجة ، ويقول أتبرك بها .

ولما مات فى رابع عشر رجب سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة ، وله من العمر ما ينيف على سبعين سنة ، وترك موجودا عظيما الى الغاية .. قال السلطان لعنه الله ، خمس عشرة سنة ما يدعنى أعمل ما أريد . وأوصى للسلطان بمبلغ أربعمائة ألف درهم نقرة ، فأخذ من تركته أكثر من ألف ألف درهم نقرة .

ومن حين مات الفخر كثر تسلط السلطان الملك الناصر وأخذه أموال الناس . والى الفخر تنسب قنطرة الفخر التى على فم الخليج الناصرى المجاور لميدان السلطان بموردة الجبس ، وقنطرة الفخر التى على الخليج المجاور للخليج الناصرى . وأدركت ولده فقيرا يتكفف الناس بعد مال لا يحد كثرة *.

جامع نائب الكرك

هذا الجامع بظاهر الحسينية ، مما يلى الخليج ، كان عامرا ، وعمر ما حوله عمارة كبيرة ، ثم خرب بخراب ما حوله من عهد الحوادث فى سنة ست وثمانمائة . عمره الأمير جمال الدين أقوش ، المعروف بنائب الكرك ، وقد تقدم ذكره عند ذكر الدور من هذا الكتاب .

جامع الخطيرى ببولاق

هذا الجامع موضعه الآن بناحية بولاق خارج القاهرة . كان موضعه قديما مغمورا بماء النيل الى نحو سنة سبعمائة . فلما انحسر ماء النيل عن ساحل المقس ، صار ما قدام المقس رمالا لا يعلوها ماء النيل الا أيام الزيادة ثم صارت بحيث لا يعلوها الماء ألبتة . فزرع موضع هذا الجامع بعد سنة سبعمائة ، وصار متنزها يجتمع عنده الناس .

ثم بنى هناك شرف الدين بن زنبور ساقية ، وعمر بجوارها رجل يعرف بالحاج محمد ابن عز الفراش دارا تشرف على النيل ، وتردد

(*) ص٣١١ ج٢ ، ط. بولاق .

اليها ، فلما مات أخذها شخص يقال له تاج الدين بن الأزرق ناظر الجهات ، وسكنها ، فعرفت بدار الفاسقين لكثرة ما يجرى فيها من أنواع المحرمات

فاتفق أن النشو ناظر الخاص قبض على ابن الأزرق وصادره ، فباع هذه الدار فى جملة ما باعه من موجوده فاشتراها منه الأمير عز الدين أيدمر الخطيرى وهدمها ، وبنى مكانها هذا الجامع ، وسماه جامع التوبة ، وبالغ فى عمارته ، وتأنق فى رخامه ، فجاء من أجل جوامع مصر وأحسنها

وعمل له منبرا من رخام فى غاية الحسن ، وركب فيه عدة شبابيك من حديد تشرف على النيل الأعظم ، وجعل فيه خزانة كتب جليلة نفيسة ، ورتب فيه درسا للفقهاء الشافعية ، ووقف عليه عدة أوقاف منها داره العظيمة التى هى فى الدرب الأصفر تجاه خانقاه بيبرس .

وكان جملة ما أنفق فى هذا الجامع أربعمائة ألف درهم نقرة ، وكملت عمارته فى سنة سبع وثلاثين وسبعمائة ، وأقيمت به الجمعة فى يوم الجمعة عشرى جمادى الآخرة فلما خلص ابن الأزرق من المصادرة حضر الى الأمير الخطيرى وادعى أنه باع داره وهو مكره ، فدفع اليه ثمنها مرة ثانية .

ثم ان البحر قوى على هذا الجامع وهدمه ، فأعاد بناءه بجملة كثيرة من المال ، ورمى قدام زريبته ألف مركب مملوءة بالحجارة . ثم انهدم بعد موته ، وأعيدت زريبته .

« أيدمر الخطيرى » الأمير عز الدين مملوك شرف الدين أوحد بن الخطيرى الأمير مسعود ابن خطير . انتقل الى الملك الناصر محمد بن قلاوون ، فرقاه حتى صار أحد أمراء الألوف ، بعدما حبسه بعد مجيئه من الكرك الى مصر مدة ثم أطلقه ، وعظم مقداره الى أن بقى يجلس رأس الميسرة ومعه امرة مائة وعشرين فارسا .

وكان لا يمكنه السلطان من المبيت فى داره بالقاهرة ، فينزل اليها بكرة ويطلع الى القلعة بعد العصر . كذا أبدا ، فكانوا يرون ذلك تعظيما له . وكان منور الشيبة كريما ، يحب التزوج الكثير والفخر ، بحيث أنه لما زوج السلطان ابنته بالأمير قوصون ، ضرب دينار بن وزنهما أربعمائة مثقال ذهبا ، وعشرة آلاف درهم فضة ، برسم نقوط امرأته فى العرس اذا طلعت الى زفاف ابنة السلطان على قوصون .

وقيل له مرة : هذا السكر الذى يعمل فى الطعام ما يضر أن يعمل غير مكرر ، فقال : لا يعمل الا مكررا ، فانه يبقى فى نفسى أنه غير مكرر .

وكان لا يلبس قباء مطرزا ولا مصقولا ، ولا يدع أحدا عنده يلبس ذلك ، وكان يخرج الزكاة ، وأنشأ بجانب هذا الجامع ربعا كبيرا تنافس الناس فى سكناه . ولم يزل على حاله حتى مات يوم الثلاثاء مستهل شهر رجب سنة سبع وثلاثين وسبعمائة ، ودفن بتربته خارج باب النصر .

ولم يزل هذا الجامع مجمعا يقصده سائر الناس للتنزه فيه على النيل ، ويرغب كل أحد فى السكنى بجواره ، وبلغت الأماكن التى

بجواره من الأسواق والدور الغاية فى العمارة حتى صار ذلك الخط أعمر أخطاط مصر وأحسنها .

فلما كانت سنة ست وثمانمائة ، انحسر ماء النيل عما تجاه جامع الخطيرى ، وصار رملة لا يعلوها الماء الا فى أيام الزيادة ، وتكاثر الرمل تحت شبابيك الجامع ، وقربت من الأرض بعدما كان الماء تحته لا يكاد يدرك قراره . وهو الآن عامر ، الا أن الاجتماعات التى كانت فيه قبل انحسار النيل عما قبالته قلت ، واتضع حال ما يجاوره من السوق والدور . ولله عاقبة الأمور .

جامع قيدان

هذا الجامع خارج القاهرة ، على جانب الخليج الشرقى ، ظاهر باب الفتوح مما يلى قناطر الاوز تجاه أرض البعل . كان مسجدا قديم البناء ، فجدده الطواشى بهاء الدين قراقوش الأسدى فى محرم سنة سبع وتسعين وخمسمائة ، وجدد حوض السبيل الذى فيه ، ثم ان الأمير مظفر الدين قيدان الرومى عمل به منبرا لاقامة الخطبة يوم الجمعة ، وكان * عامرا بعمارة ما حوله .

فلما حدث الغلاء فى سنة ست وسبعين وسبعمائة ، أيام الملك الأشرف شعبان بن حسين ، خرب كثير من تلك النواحى وبيعت أنقاضها ، وكانت الغرقة أيضا ، فصار ما بين القنطرة الجديدة المجاورة لسوق جامع الظاهر ، وبين قناطر الاوز المقابلة لأرض البعل ، يبابا لا عامر له ولا ساكن فيه .

وخرب أيضا ما وراء ذلك من شرقيه الى جامع نائب الكرك ، وتعطل هذا الجامع ، ولم يبق منه غير جدر آيلة الى العدم ثم جدده مقدم بعض المماليك السلطانية فى حدود الثلاثين والثمانمائة ، ثم وسع فيه الشيخ أحمد ابن محمد الأنصارى العقاد — الشهير بالأزرارى — ومات فى ثانى عشر ربيع الأول سنة ثلاث وأربعين وثمانمائة .

جامع الست حدق

هذا الجامع بخط المريس ، فى جانب الخليج الكبير مما يلى الغرب ، بالقرب من قنطرة السد التى خارج مدينة مصر . أنشأته الست حدق ، دادة الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وأقيمت فيه الخطبة يوم الجمعة لعشرين من جمادى الآخرة سنة سبع وثلاثين وسبعمائة . والى حدق هذه ينسب حكر الست حدق الذى ذكر عند ذكر الأحكار من هذا الكتاب .

جامع ابن غازى

هذا الجامع خارج باب البحر من القاهرة بطريق بولاق . أنشأه نجم الدين بن غازى دلال المماليك ، وأقيمت فيه الخطبة فى يوم الجمعة ثانى عشر جمادى الأولى سنة احدى وأربعين وسبعمائة ، والى اليوم تقام فيه الجمعة ، وبقية الأيام لا يزال مغلق الأبواب لقلة السكان حوله .

(*) ص ٣١٢ ج ٢ ، ط . بولاق .

جامع التركمانى

هذا الجامع فى المقس ، وهو من الجوامع المليحة البناء . أنشأه الأمير بدر الدين محمد التركمانى ، وكان ما حوله عامرا عمارة زائدة ، ثم تلاشى من الوقت الذى كان فيه الغلاء زمن الملك الأشرف شعبان بن حسين ، وما برح حاله يختل الى أن كانت الحوادث والمحن من سنة ست وثمانمائة ، فخرب معظم ما هنالك ، وفيه الى اليوم بقايا عامرة لا سيما بجوار هذا الجامع .

« التركمانى » محمد ، وينعت بالأمير بدر الدين محمد ابن الأمير فخر الدين عيسى التركمانى : كان أولا شادا ، ثم ترقى فى الخدم حتى ولى الجيزة ، وتقدم فى الدولة الناصرية . فولاه السلطان الملك الناصر محمد ابن قلاوون شاد الدواوين ، والدولة حينئذ ليس فيها وزير ، فاستقل بتدبير الدولة مدة أعوام . وكان يلى نظر الدولة تلك الأيام كريم الدين الصغير ، فغص به ، وما زال يدبر عليه حتى أخرجه السلطان من ديار مصر ، وعمله شاد الدواوين بطرابلس .

فأقام هناك مدة سنتين ، ثم عاد الى القاهرة بشفاعة الأمير تنكز نائب الشام ، وولى كشف الوجه البحرى مدة ، ثم أعطى امرة طبلخاناه ، وأعطى أخوه على امرة عشرة ، وولده ابراهيم أيضا امرة عشرة .

وكان مهابا صاحب حرمة باسطة وكلمة نافذة . ومات عن سعادة طائلة بالمقس ، فى ربيع الأول سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة ، وهو أمير .

جامع شيخو

هذا الجامع بسويقة منعم ، فيما بين الصليبة والرميلة ، تحت قلعة الجبل . أنشأه الأمير الكبير سيف الدين شيخو الناصرى ، رأس نوبة الأمراء ، فى سنة ست وخمسين وسبعمائة ، ورفق بالناس فى العمل فيه وأعطاهم أجورهم ، وجعل فيه خطبة وعشرين صوفيا ، وأقام الشيخ أكمل الدين محمد بن محمود الرومى الحنفى شيخهم . ثم لما عمر الخانقاه تجاه الجامع ، نقل حضور الأكمل والصوفية اليها ، وزاد عدتهم . وهذا الجامع من أجل جوامع ديار مصر .

« شيخو » الأمير الكبير سيف الدين : أحد مماليك الناصر محمد بن قلاوون . حظى عند الملك المظفر حاجى بن محمد بن قلاوون ، وزادت وجاهته حتى شفع فى الأمراء ، وأخرجهم من سجن الاسكندرية . ثم انه استقر فى أول دولة الملك الناصر حسن أحد أمراء المشورة .

وفى آخر الأمر كانت القصص تقرأ عليه بحضرة السلطان فى أيام الخدمة ، وصار زمام الدولة بيده ، فساسها أحسن سياسة بسكون وعدم شر ، وكان يمنع كل حزب من الوثوب على الآخر ، فعظم شأنه الى أن رسم السلطان بامساك الأمير يلبغا روس نائب السلطنة بديار مصر وهو مسافر بالحجاز ، وكان شيخو قد خرج متصيدا الى ناحية طمان بالغربية .

قلما كان يوم السبت رابع عشرى شوال * سنة احدى وخمسين وسبعمائة ، أمسك السلطان الأمير منجك الوزير ، وحلف الأمراء لنفسه ، وكتب تقليد شيخو بنيابة طرابلس ، وجهزه اليه مع الأمير سيف الدين طيبال الجاشنكير ، فسار اليه رسفره من را فوصل الى دمشق ليلة الثلاثاء ابع ذى القعدة ، فظهر مرسوم السلطان باقامة شيخو فى دمشق على اقطاع الأمير بيلبك السالمى ، وبتجهيز بيلبك الى القاهرة فخرج بيلبك من دمشق ، وأقام شيخو على اقطاعه بها

فما وصل بيلبك الى القاهرة الا وقد وصل الى دمشق مرسوم بامساك شيخو ، تجهيره الى السلطان ، وتقييد مماليكه اعتقالهم بقلعة دمشق ، فأمسك وجهر مقيدا ، فلما صل الى قطيا توجهوا به الى الاسكندرية . فلم يزل معتقلا بها الى أن خلع السلطان الملك الناصر حسن ، وتولى أخوه الملك الصالح صالح ، فأفرج عن شيخو مسجك الوزير عده من الأمراء ، فوصلوا الى القاهرة فى رابع شهر رجب سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة ، وأنزل فى الأشرفية بقلعة الجبل واستمر على عادته .

وخرج مع الملك الصالح الى الشام فى واقعة يلبغا روس ، وتوجه الى حلب هو والأمير طاز وأرغون الكاملى خلف يلبغا روس ، وعاد مع السلطان الى القاهرة ، وصمم حتى أمسك يلبغا روس ومن معه من الأمراء بعدما وصلوا الى بلاد الروم ، وحزت رؤوسهم . وأمسك أيضا ابن دلغار ، وأحضر الى القاهرة ، ووسط وعلق على باب زويلة .

ثم خرج بنفسه فى طلب الأحدب الذى خرج بالصعيد ، وتجاوز فى سعره قوص ، وأمسك عدة كثيرة ووسطهم حتى سكنت الفتن بأرض مصر ، وذلك فى آخر سنة أربع وخمسين وأول سنة خمس وخمسين ثم خلع الملك الصالح ، وأقام بدله الملك الناصر حسنا فى ثانى شوال ، وأخرج الأمير طاز من مصر الى حلب نائبا بها رمعه اخوته وصارت الأمور كلها راجعة اليه ، وزادت عظمته ، وكثرت أمواله وأملاكه ومستأجراته حتى كاد يكاثر أمواج البحر بما ملك ، وقيل له قارون عصره وعزيز مصره .

وأنشأ خلقا كثيرا ، فقوى بذلك حزبه ، وجعل فى كل مملكة من حهته عدة أمراء ، وصارت نوابه بالشام وفى كل مدسة أمراء كبار ، وخدموه حتى قيل كان يدخل كل يوم ديوانه — من اقطاعه أملاكه رمستأجراته بالشام وديار مصر — مبلغ مائتى ألف درهم نقرة وأكثر ، وهذا شيء لم يسمع مثله فى الدولة التركية وذلك سوى الانعامات السلطانية ، والتقادم التى ترد اليه من الشام ومصر ، وما كان يأخذ من انبراطيل على ولاية الأعمال .

وجامعه هذا وخانقاهه التى بخط الصليبة لم يعمر مثلهما قبلهما ، ولا عمل فى الدولة التركية مثل أوقافهما ، وحسن ترتيب المعاليم بهما .

ولم يزل على حاله الى أن كان يوم الخميس ثامن شعبان سنة ثمان وخمسين وسبعمائة ؛ فخرج عليه شخص من المماليك السلطانية

(*) ص٣١٢ جـ٢ ، ط. بولاق

المرتجعة عن الأمير منجك الوزير يقال له باى ، فجاء وهو جالس بدار العدل ، وضربه بالسيف فى وجهه وفى يده . فارتجت القلعة كلها ؛ وكثر هرج الناس حتى مات من الناس جماعة من الزحمة ، وركب من الأمراء الكبار عشرة وهم بالسلاح عليهم الى قبة النصر خارج القاهرة .

ثم أمسك باى ، فجاء وقرر ، فلم يعترف بشىء على أحد ، وقال : أنا قدمت اليه قصة لينقلنى من الجامكية الى الاقطاع ، فما قضى شغلى ، فأخذت فى نفسى من ذلك فسجن مدة ، ثم سمر وطيف به الشوارع . وبقى شيخو عليلا من تلك الجراحة لم يركب ، الى أن مات ليلة الجمعة سادس عشرى ذى القعدة سنة ثمان وخمسين وسبعمائة ، ودفن بالخانقاه الشيخونية ، وقبره بها يقرأ عنده القرآن دائما .

جامع الجاكى

هذا الجامع كان بدرب الجاكى ، عند سويقة الريش من الحكر ، فى بر الخليج الغربى . أصله مسجد من مساجد الحكر ، ثم زاد فيه الأمير بدر الدين محمد بن ابراهيم المهمندار ، وجعله جامعه ، وأقام فيه منبرا فى سنة ثلاث عشرة وسبعمائة . فصار أهل الحكر يصلون فيه الجمعة الى أن حدثت المحن من سنة ست وثمانمائة ، فخرب الحكر ، وبيعت أنقاض معظم الدور التى هناك .

وتعطل هذا الجامع من ذكر الله واقامة الصلاة لخراب ما حوله ، فحكم بعض قضاة الحنفية ببيع هذا الجامع . فاشتراه شخص من الوعاظ يعرف بالشيخ أحمد الواعظ الزاهد — صاحب جامع الزاهد بخط المقس — وهدمه ، وأخذ أنقاضه فعملها فى جامعه الذى بالمقس فى أول سنة سبع عشرة وثمانمائة .

جامع التوبة

هذا الجامع بجوار باب البرقية فى خط بين السورين . كان موضعه مساكن أهل الفساد وأصحاب الرآى . فلما أنشأ الأمير الوزير علاء الدين مغلطاى الجمالى خانقاهه ، المعروفة بالجمالية ، قريبا من خزانة البنود بالقاهرة * ، كره مجاورة هذه الأماكن لداره وخانقاهه ، فأخذها وهدمها ، وبنى هذا الجامع فى مكانها ، وسماه جامع التوبة ، فعرف بذلك الى اليوم . وهو الآن تقام فيه الجمعة ، غير أنه لا يزال طول الأيام مغلق الأبواب لخلوه من ساكن ، وقد خرب كثير مما يجاوره ، وهناك بقايا من أماكن .

جامع صاروجا

هذا الجامع مطل على الخليج الناصرى بالقرب من بركة الحاجب ، التى تعرف ببركة الرطلى ، كان خطة تعرف بجامع العرب . فأنشأ بها هذا الجامع ناصر الدين محمد ، أخو الأمير صاروجا نقيب الجيش ، بعد سنة ثلاثين وسبعمائة . وكانت تلك الخطة قد عمرت عمارة زائدة ، وأدركت منها بقية جيدة

(*) ص٣١٤ جـ٢ ، ط.بولاق .

الى أن دثرت فصارت كيمانا . وتقام الجمعة الى اليوم فى هذا الجامع أيام النيل .

جامع الطباخ

هذا الجامع خارج القاهرة ، بخط باب اللوق بجوار بركة الشقاف ، كان موضعه وموضع بركة الشقاف من جملة الزهرى . أنشأه الأمير جمال الدين أقوش ، وجدده الحاج على الطباخ فى المطبخ السلطانى أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون ، ولم يكن له وقف ، فقام بمصالحه من ماله مدة . ثم انه صودر فى سنة ست وأربعين وسبعمائة ، فتعطل مدة نزول الشدة بالطباخ ، ولم تقم فيه تلك المدة الصلاة .

« على بن الطباخ » : نشأ بمصر ، وخدم الملك الناصر محمد بن قلاوون وهو بمدينة الكرك . فلما قدم الى مصر جعله خوان سلار ، وسلمه المطبخ السلطانى ، فكثر ماله لطول مدته وكثرة تمكنه ، ولم يتفق لأحد من نظرائه ما اتفق له من السعادة الطائلة . وذلك أن الأفراح وما كان يصنع من المهمات والأعراس ونحوها ، مما كان يعمل فى الدور السلطانية وعند الأمراء والمماليك والحواشى ، مع كثرة ذلك فى طول تلك الأعوام ... كانت كلها انما يتولى أمرها هو بمفرده .

فمما اتفق له فى عمل مهم ابن بكتمر الساقى ، على ابنة الأمير تنكز نائب الشام ، أن السلطان الملك الناصر استدعاه آخر النهار الذى عمل فيه المهم المذكور ، وقال له : ياحاج على اعمل لى الساعة لونا من طعام الفلاحين ، وهو خروف رميس يكون ملهوج .

فولى ووجهه معبس ، فصاح به السلطان : ويلك مالك معبس الوجه ؟!

فقال : كيف ما أعبس وقد حرمتنى الساعة عشرين ألف درهم نقرة !

فقال : كيف حرمتك ؟

قال : قد تجمع عندى رؤوس غنم وبقر وأكارع وكروش وأعضاد وسقط دجاج واوز وغير ذلك مما سرقته من المهم ، وأريد أقعد وأبيعه ، وقد قلت لى اطبخ ، وبينا أفرغ من الطبيخ تلف الجميع .

فتبسم السلطان وقال له : رح اطبخ وضمان الذى ذكرت على .

وأمر باحضار والى القاهرة ومصر ، فلما حضرا ألزمهما بطلب أرباب الزفر الى القلعة ، وتفرقة ما ناب الطباخ من المهم عليهم واستخراج ثمنه . فللحال حضر المذكورون ، وبيع عليهم ذلك ، فبلغ ثمنه ثلاثة وعشرين ألف درهم نقرة . وهذا مهم واحد من ألوف ، مع الذى كان له من المعاليم والجرايات ومنافع المطبخ .

ويقال انه كان يتحصل له من المطبخ السلطانى فى كل يوم — على الدوام والاستمرار — مبلغ خمسمائة درهم نقرة ، ولولده أحمد مبلغ ثلثمائة درهم نقرة . فلما تحدث النشو فى الدولة خرج عليه تخاريج ، وأغرى به السلطان ، فلم يسمع فيه كلاما .

وما زال على حاله الى أن مات الملك الناصر وقام من بعده أولاده الملك المنصور أبو بكر ، والملك الأشرف كجك ، والملك الناصر أحمد ،

والملك الصالح اسماعيل ، والملك الكامل شعبان ... فصادره فى سنة ست وأربعين وسبعمائة ، وأخذ منه مالا كثيرا .

ومما وجد له خمس وعشرون دارا مشرفة على النيل وغيره . فتفرقت حواشى الملك الكامل أملاكه ، فأخذت أم السلطان ملكه الذى كان على البحر — وكانت دارا عظيمة جدا — وأخذت أنقاض داره التى بالمحمودية من القاهرة ، وأقيم عوضه بالمطبخ السلطانى ، وضرب ابنه أحمد .

جامع الأسيوطى

هذا الجامع بطرف جزيرة الفيل ، مما يلى ناحية بولاق ، كان موضعه فى القديم غامرا بماء النيل . فلما انحسر عن جزيرة الفيل ، وعمرت ناحية بولاق ، أنشأ هذا الجامع القاضى شمس الدين محمد بن ابراهيم بن عمر السيوطى ناظر بيت المال ، ومات فى سنة تسع وأربعين وسبعمائة .

ثم جدد عمارته بعدما تهدم وزاد فيه ناصر الدين محمد بن محمد بن عثمان بن محمد — المعروف بابن البارزى — الحموى كاتب السر ، وأجرى فيه الماء ، وأقام فيه الخطبة يوم الجمعة سادس عشرى * جمادى الأولى سنة اثنتين وعشرين وثمانمائة . فجاء فى أحسن هندام وأبدع زى ، وصلى فيه السلطان الملك المؤيد شيخ الجمعة فى أول جمادى الآخرة سنة ثلاث وعشرين وثمانمائة .

(*) ص٣١٥ جـ٢ ، ط . بولاق .

جامع الملك الناصر حسن

هذا الجامع يعرف بمدرسة السلطان حسن ، وهو تجاه قلعة الجبل فيما بين القلعة وبركة الفيل ، وكان موضعه بيت الأمير يلبغا اليحياوى الذى تقدم ذكره عند ذكر الدور .

وابتدأ السلطان عمارته فى سنة سبع وخمسين وسبعمائة ، وأوسع دوره ، وعمله فى أكبر قالب وأحسن هندام وأضخم شكل . فلا يعرف فى بلاد الاسلام معبد من معابد المسلمين يحكى هذا الجامع ... أقامت العمارة فيه مدة ثلاث سنين لا تبطل يوما واحدا ، وأرصد لمصروفها فى كل يوم عشرون ألف درهم : عنها نحو ألف مثقال ذهبا .

ولقد أخبرنى الطواشى مقبل الشامى أنه سمع السلطان حسنا يقول : انصرف على القالب الذى بنى عليه عقد الايوان الكبير مائة ألف درهم نقرة . وهذا القالب مما رمى على الكيمان بعد فراغ العقد المذكور .

قال : وسمعت السلطان يقول : لولا أن يقال ملك مصر عجز عن اتمام بناء بناه لتركت بناء هذا الجامع من كثرة ما صرف عليه .

وفى هذا الجامع عجائب من البنيان : منها أن ذرع ايوانه الكبير خمسة وستون ذراعا فى مثلها — ويقال انه أكبر من ايوان كسرى الذى بالمدائن من العراق بخمسة أذرع — ومنها القبة العظيمة التى لم يبن بديار مصر والشام والعراق والمغرب واليمن مثلها ، ومنها المنبر الرخام الذى لا نظير له ، ومنها البوابة

العظيمة ، ومنها المدارس الأربع التي بدور قاعة الجامع ... الى غير ذلك .

وكان السلطان قد عزم على أن يبنى أربع منابر يؤذن عليها ، فتمت ثلاث منابر . الى أن كان يوم السبت سادس شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وستين وسبعمائة ، فسقطت المنارة التي على الباب ، فهلك تحتها نحو ثلثمائة نفس من الأيتام الذين كانوا قد رتبوا بمكتب السبيل الذى هناك ومن غير الأيتام ، وسلم من الأيتام ستة أطفال . فأبطل السلطان بناء هذه المنارة وبناء نظيرتها ، وتأخر هناك منارتان هما قائمتان الى اليوم .

ولما سقطت المنارة المذكورة ، لهجت عامة مصر والقاهرة بأن ذلك منذر بزوال الدولة ، فقال الشيخ بهاء الدين أبو حامد أحمد بن على بن محمد السبكى في سقوطها :

أبشر فسعدك ياسلطان مصر أتى
بشيره بمقال سار كالمثل

ان المنارة لم تسقط لمنقصة
لكن لسر خفى قد تبين لى

من تحتها قرىء القرآن فاستمعت
فالوجد فى الحال أداها الى الميل

لو أنزل الله قرآنا على جبل
تصدعت رأسه من شدة الوجل

تلك الحجارة لم تنقض بل هبطت
من خشية الله لا للضعف والخلل

وغاب سلطانها فاستوحشت ورمت
بنفسها لجوى فى القلب مشتعل

فالحمد لله حظ العين زال سا
قد كان قدره الرحمن فى الأزل

لا يعرى البؤس بعد اليوم مدرسة
شيدت بتيانها بالعلم والعمل

ودمت حتى ترى الدنيا بها امتلأت
علما فليس بمصر غير مشتغل

فاتفق قتل السلطان بعد سقوط المنارة بثلاثة وثلاثين يوما . ومات السلطان قبل أن يتم رخام هذا الجامع ، فأتمه من بعده الطواشى بشير الجمدار . وكان قد جعل السلطان على هذا الجامع أوقافا عظيمة جدا ، فلم يترك منها الا شيء يسير ، وأقطع أكثر البلاد التي وقفت عليه بديار مصر والشام لجماعة من الأمراء وغيرهم .

وصار هذا الجامع ضدا لقلعة الجبل ... قلما تكون فتنة بين أهل الدولة الا ويصعد عدة من الأمراء وغيرهم الى أعلاه ، ويصير الرمى منه على القلعة . فلم يحتمل ذلك الملك الظاهر برقوق ، وأمر فهدمت الدرج التى كان يصعد منها الى المنارتين والبيوت التى كان يسكنها الفقهاء ، ويتوصل من هذه الدرج الى السطح الذى كان يرمى منه على القلعة ، وهدمت البسطة العظيمة والدرج التى كانت بجانبى هذه البسطة التي كانت قدام باب الجامع حتى لا يمكن الصعود الى الجامع .

وسد من وراء الباب النحاس الذى لم يعمل فيما عهد باب مثله ، وفتح شباك من شبابيك أحد مدارس هذا الجامع ، ليتوصل منه الى داخل الجامع عوضا عن الباب

المسدود . فصار هذا الجامع تجاه باب القلعة المعروف بباب السلسلة ، وامسح صعود المؤذنين الى المنارتين ، وبقى الأذان على درج هذا الباب . وكان ابتداء هدم ما ذكر فى يوم الأحد ثامن صفر سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة .

ثم لما شرع السلطان الملك المؤيد شيخ فى عمارة الجامع بجوار * باب زويلة ، اشترى هذا الباب النحاس والتنور النحاس الذى كان معلقا هناك بخمسمائة دينار ، ونقلا فى يوم الخميس سابع عشرى شوال سنة تسع عشرة وثمانمائة ، فركب الباب على البوابة ، وعلق التنور تجاه المحراب . فلما كان فى يوم الخميس تاسع شهر رمضان سنة خمس وعشرين وثمانمائة ، أعيد الأذان فى المئذنتين كما كان ، وأعيد بناء الدرج والبسطة ، وركب باب بدل الباب الذى أخذه المؤيد ، واستمر الأمر على ذلك .

« الملك الناصر أبو المعالى الحسن بن محمد ابن قلاوون » : جلس على تخت الملك وعمره ثلاث عشرة سنة ، فى يوم الثلاثاء رابع عشر شهر رمضان سنة ثمان وأربعين وسبعمائة ، بعد أخيه الملك المظفر حاجى وأركب من باب الستارة بقلعة الجبل ، وعليه شعار السلطنة ، وفى ركابه الأمراء ، الى أن نزل بالايوان السلطانى . ومدبرو الدولة يومئذ : الأمير يلبغا روس ، والأمير ألجيبغا المظفرى ، والأمير شيخو ، والأمير طاز ، وأحمد شاد الشرابخاناه ، وأرغون الاسماعيلى .

(*) ص٣١٦ جـ٢ ، ط. بولاق .

فخلع على يلبغا روس ، واستقر فى نيابة السلطنة بديار مصر عوضا عن الحاج أرقطاى ، وقرر أرقطاى فى نيابة السلطنة بحلب ، وخلع على الأمير سيف الدين منجك اليوسفى واستقر فى الوزارة والأستادارية ، وقرر الأمير أرغون شاه فى نيابة السلطنة بدمشق

فلما دخلت سنة تسع وأربعين كثر انكشاف الأراضى من ماء النيل بالبر الشرقى ، فيما يلى بولاق الى مصر ، فاهتم الأمراء بسد البحر مما يلى الجيزة ، وفوض ذلك للأمير منجك ، فجمع مالا كثيرا وأنفقه على ذلك فلم يفد ، فقبض على منجك فى ربيع الأول .

وحدث الوباء العظيم فى هذه السنة ، وأخرج أحمد شاد الشرابخاناه لنيابة صفد ، وألجيبغا لنيابة طرابلس . فاستمر ألجيبغا بها الى شهر ربيع الأول سنة خمسين ، فركب الى دمشق ، وقتل أرغون شاه بغير مرسوم . فأنكر عليه وأمسك ، وقتل بدمشق .

وفى سنة احدى وخمسين سار من دمشق عسكر عدته أربعة آلاف فارس ، ومن حلب ألفا فارس الى مدينة سنجار ، ومعهم عدة كثيرة من التركمان ، فحصروها مدة حتى طلب أهلها الأمان ثم عادوا . وترشد السلطان ، واستبد بأمره ، وقبض على منجك ويلبغا روس ، وقبض بمكة على الملك المجاهد صاحب اليمن وقيد ، وحمل الى القاهرة فأطلق ، ثم سجن بقلعة الكرك .

فلما كان يوم الأحد سابع عشر جمادى الآخرة ، ركب الأمراء على السلطان — وهم لاز واخوته ، ويلبغا الشمسى ، وبيغرا —

ووقفوا تحت القلعة ، وصعد الأمير طاز وهو لابس الى القلعة فى عدة وافرة ، وقبض على السلطان وسجنه بالدور ، فكانت مدة ولايته ثلاث سنين وتسعة أشهر . وأقيم بدله أخوه الملك الصالح صالح .

فأقام السلطان حسن مجمعا على الاشتغال بالعلم ، وكتب بخطه نسخة من كتاب « دلائل النبوة » للبيهقى ، الى يوم الاثنين ثانى شوال سنة خمس وخمسين وسبعمائة ، فأقامه الأمير شيخو العمرى فى السلطنة وقبض على الصالح — وكانت مدة سجنه ثلاث سنين وثلاثة أشهر وأربعة عشر يوما — فرسم بامساك الأمير طاز واخراجه لنيابة حلب .

وفى ربيع الأول سنة سبع وخمسين ، هبت ريح عاصفة من ناحية الغرب — من أول النهار الى آخر الليل — اصفر سها الجو ثم احمر ثم اسود ، فتلف منها شيء كثير

وفى شعبان سنة تسع وخمسين ضرب الأمير شيخو بعض المماليك بسيف ، فلم يزل عليلا حتى مات .

وفى سنة تسع وخمسين ، كان ضرب الفلوس الجدد ، فعمل كل فلس زنة مثقال . وقبض على الأمير طاز نائب حلب ، وسجن بالاسكندرية ، وقرر مكانه فى نيابة حلب الأمير منجك اليوسفى ، وأمسك الأمير صرغتمش فى شهر رمضان منها . وكانت حرب بين مماليكه ومماليك السلطان انتصر فيها المماليك السلطانية ، وقبض على عدة أمراء ، فأنعم السلطان على مملوكه يلبغا العمرى الخاصكى بتقدمة ألف ، عوضا عن تنكز بغا الماردانى أمير مجلس بحكم وفاته .

وفى سنة ستين فر منجك من حلب فلم يوقف به على خبر . فأقر على نيابة حلب الأمير بيدمر الخوارزمى ، وسار لغزو سيس ، فأخذ أدنة بأمان ، وأخذ طرسوس والمصيصة وعدة بلاد ، وأقام بها نوابا وعاد فلما كانت سنة اثنتين وستين عدى السلطان الى بر الجيزة ، وأقام بناحية كوم برا مدة طويلة لوباء كان بالقاهرة . فتنكر الحال بينه وبين الأمير يلبغا الى ليلة الأربعاء تاسع جمادى الأولى ، فركب السلطان فى جماعة ليكبس على الأمير يلبغا — وكان قد أحس بذلك وخرج عن الخيام ، وكمن بمكان وهو لابس فى جماعته — فلم يظفر السلطان به ورجع .

فثار به يلبغا فانكسر بمن معه ، وفر يريد قلعة الجبل ، فتبعه يلبغا ، وقد انضم اليه جمع كثير ، ودخل السلطان الى القلعة فلم يثبت ، وركب معه أيدمر الدوادار ليتوجه الى بلاد الشام ، ونزل الى بيت الأمير شرف الدين موسى بن الأركشى أمير حاجب ، فبعث فى الحال الى الأمير يلبغا يعلمه بمجيء السلطان اليه ، فبعث من قبضه هو والأمير أيدمر . ومن حينئذ لم يوقف له على خبر ألبته ، مع كثرة فحص أتباعه * وحواشيه عن قبره وما آل اليه أمره . فكانت مدة ولايته هذه الثانية ست سنين وسبعة أشهر وأياما .

وكان ملكا حازما مهابا شجاعا ، صاحب حرمة وافرة وكلمة نافذة ودين متين ، حلف غير مرة أنه ما لاط ولا شرب خمرا ولا زنى . الا أنه كان يبخل ، ويعجب بالنساء ولا يكاد يصبر عنهن ، ويبالغ فى اعطائهن المال .

(*) ص٣١٧ جـ٢ ، ط . بولاق .

وعادى فى دولته أقباط مصر ، وقصد اجتثاث أصلهم ، وكره المماليك ، وشرع فى اقامة أولاد الناس أمراء ، وترك عشرة بنين وست بنات . وكان أشقر أنمش ، وقتل وله من العمر بضع وعشرون سنة ، ولم يكن قبله ولا بعده فى الدولة التركية مثله .

جامع القرافة

هذا الجامع يعرف الآن بجامع الأولياء ، وهو بالقرافة الكبرى ، وكان موضعه يعرف فى القديم عند فتح مصر بخطة المغافر ، وهو مسجد بنى عبد الله بن مانع بن مورع ، يعرف بمسجد القبة .

قال القضاعى : كان القراء يحضرون فيه ، ثم بنى عليه المسجد الجامع الجديد ... بنته السيدة المعزية فى سنة ست وستين وثلثمائة — وهى أم العزيز بالله نزار ولد المعز لدين الله : أم ولد من العرب يقال لها تغريد ، وتدعى درزان — وبنته على يد الحسن بن عبد العزيز الفارسى المحتسب فى شهر رمضان من السنة المذكورة . وهو على نحو بناء الجامع الأزهر بالقاهرة .

وكان بهذا الجامع بستان لطيف فى غربيه وصهريج . وبابه الذى يدخل منه ذو المصاطب الكبير الأوسط ، تحت المنار العالى الذى عليه ، مصفح بالحديد الى حضرة المحراب . والمقصورة من عدة أبواب ، وعدتها أربعة عشر بابا مربعة مطوية الأبواب ، قدام كل باب قنطرة قوس على عمودى رخام ثلاثة صفوف . وهو مكندج مزوق باللازورد والزنجفر والزنجار وأنواع الأصباغ ، وفيه مواضع مدهونة ، والسقوف مزوقة ملونة كلها ، والحنايا والعقود التى على العمد مزوقة بأنواع الأصباغ ... من صنعة البصريين ، وبنى المعلم المزوقين شيوخ الكتامى والنازوك .

وكان قبالة الباب السابع من هذه الأبواب قنطرة قوس مزوقة ، فى منحنى حافتيها شاذروان مدرج بدرج ، وآلات سود وبيض وحمر وخضر وزرق وصفر . اذا تطلع اليها من وقف فى سهم قوسها ، شائلا رأسه اليها ، ظن أن المدرج المزوق كأنه خشب كالمقرنص . واذا أتى الى أحد قطرى القوس نصف الدائرة ، ووقف عند أول القوس منها ورفع رأسه ، رأى ذلك الذى توهمه مسطحا لا نتو فيه ... وهذه من أفخر الصنائع عند المزوقين . وكانت هذه القنطرة من صنعة بنى المعلم ، وكان الصناع يأتون اليها ليعملوا مثلها فما يقدرون .

وقد جرى مثل ذلك للقصير وابن عزيز فى أيام البازورى ، سيد الوزراء ، الحسن بن على بن عبد الرحمن ، وكان كثيرا ما يحرض بينهما ، ويغرى بعضهما على بعض ، لأنه كان أحب ما اليه كتاب مصور أو النظر الى صورة أو تزويق . ولما استدعى ابن عزيز من العراق فأفسده ، وكان قد أتى به فى محاربة القصير ، لأن القصير كان يشتط فى أجرته ويلحقه عجب فى صنعته ، وهو حقيق بذلك لأنه فى عمل الصورة كابن مقلة فى الخط ، وابن عزيز كابن البواب .

وقد أمعن شرح ذلك فى الكتاب المؤلف فيه ، وهو طبقات المصورين المعوت بضوء النبراس وأنس الجلاس فى أخبار المزوقين من الناس » .

وكان البازورى قد أحضر بمجلسه القصير وابن عزيز ، فقال ابن عزيز : أنا أصور صورة اذا رآها الناظر ظن أنها خارجة من الحائط

فقال القصير : لكن أنا أصورها فاذا نظرها الناظر ظن أنها داخلة فى الحائط .

فقالوا . هذا أعجب .

فأمرهما أن يصنعا ما وعدا به

فصورا صورة راقصتين فى صورة حنيتين مدهونتين متقابلتين هذه ترى كأنها داخلة فى الحائط ، وتلك ترى كأنها خارجة من الحائط . فصور القصير راقصة بثياب بيض فى صورة حنية دهنها أسود كأنها داخلة فى صورة الحنية ، وصور ابن عزيز راقصة بثياب حمر فى صورة حنية صفرا كأنها بارزة من الحنية . فاستحسن البازورى ذلك ، وخلع عليهما ، ووهبهما كثيرا من الذهب

وكان بدار النعمان بالقرافة ، من عمل الكتامى ، صورة يوسف عليه السلام فى الجب وهو عريان والجب كله أسود ، اذا نظره الانسان ظن أن جسمه باب من دهن لون الجب .

وكان هذا الجامع من محاسن الساء ، كان بنو الجوهرى يعظون بهذا الجامع على كرسى فى الثلاثة أشهر ، فتمر لهم مجالس مجلة تروق وتشوق ، ويقوم خادمهم زهر البان — وهو شيخ كبير — ومعه زنجلة ، اذا توسط أحدهم فى الوعظ ، ويقول

وتصدقى لا تأمنى أن تسألى
فاذا سألت عرفت ذل السائل

ويدور على الرجال والنساء ، فيلقى له فى الزنجلة ما يسره الله تعالى ، فاذا فرغ من التطواف ، وضع الزنجلة أمام الشيخ ، فاذا فرغ من وعظه فرق على الفقراء ما قسم لهم ، وأخذ الشيخ ما قسم له وهو الباقى ، ونزل عن الكرسى .

وكان * جماعة من الرؤساء يلزمون النوم بهذا الجامع ، ويجلسون به فى ليالى الصيف للحديث فى القمر فى صحنه ، وفى الشتاء يناموت عند المنبر ، كان يحصل لقيمه القاضى أبى حفص الأشربة والحلوى وغير ذلك .

قال الشريف محمد بن أسعد الجوانى النسابة حدثنى الأمير أبو على تاج الملك جوهر — المعروف بالشمس — الجيوشى ، قال : اجتمعنا ليلة جمعة بجماعة من الأمراء بنو معز الدولة وصالح وحاتم وراجح وأولادهم وغلمانهم ، وجماعة ممن يلوذ بنا كان الموفق القاضى ابن داود وأبى المجد بن الصيرفى وأبى الفضل رزونة وأبى الحسن الرضيع . فعملنا سماطا وجلسنا ، واستدعينا بمن فى الجامع وأبى حفص فأكلنا ، ورفعنا الباقى الى بيت الشيخ أبى حفص قيّم الجامع ، ثم تحدثنا ونمنا .

وكانت ليلة باردة ، فنمنا عند المنبر . واذا انسان نصف الليل ، ممن نام فى هذا الجامع

(*) ص٢١٨ جـ٢ ، ط. بولاق .

من عابرى السبيل ، قد قام قائما وهو يلطم على رأسه ، ويصيح : وامالاه ، وامالاه !

فقلنا له : ويلك ! ما شأنك ، وما الذى دهاك ، ومن سرقك ، وما سرق لك ؟

فقال : ياسيدى أنا رجل من أهل طرا ، وقال لى أبو كريت الحاوى ، أمسى على الليل ونمت عندكم ، وأكلت من خيركم — وسع الله عليكم — ولى جمعة أجمع فى سلتى من نواحى طرا ، والحى الكبير والجبل ، كل غريبة من الحيات والأفاعى ما لم يقدر عليه قط حاو غيرى ، وقد انفتحت الساعة السلة ، وخرجت الأفاعى وأنا نائم لم أشعر .

فقلت له ايش تقول ؟

فقال : اى والله ، ياللنجدات !

فقلنا : ياعدو الله أهلكتنا ومعنا صبيان وأطفال .

ثم انا نبهنا الناس ، وهربنا الى المنبر وطلعنا وازدحمنا فيه ، ومنا من طلع على قواعد العمد فتسلق وبقى واقفا

وأخذ ذلك الحاوى يحسس ، وفى يده كنف الحيات ، ويقول قبضت الرقطاء ثم يفتح السلة ويضع فيها ، ثم يقول قبضت أم قرنين ويفتح ويضع فيها ، ويقول قبضت الفلانى والفلانية من الثعابين والحيات — وهى معه بأسماء — ويقول : أبو تليس وأبو زعير ، ونحن نقول : اه ... الى أن قال : بس انزلوا ما بقى على هم ، ما بقى يهمكم كبير شىء .

قلنا : كيف ؟

قال : ما بقى الا البتراء وأم رأسين ، انزلوا فما عليكم منهما .

قلنا : كذا ، عليك لعنة الله ياعدو الله ، لا نزلنا للصبح ، فالمغرور من تغر

وصحنا بالقاضى أبى حفص القيم ، فأرقد الشمعة ، ولبس صاغات الخطب خوف على رجليه وجاء فنزلنا فى الضوء ، وطلعنا المئذنة فنمنا الى بكرة ، وتفرق شملنا بعد تلك الليلة .

وجمع القاضى القيم عياله ثانى يوم ، وأدخلوا عصيا تحت المنبر وسعفا ، وشالوا الحصر ، فلم يظهر لهم شىء وبلغ الحديث والى القرافة ابن شعلة الكتامى ، فأخذ الحاوى ، فلم يزل به حتى جمع ما قدر عليه ، وقال : ما أخليه الا الى السلطان وكان الوزير اذ ذاك يانس الأرمنى .

وهذه القضية تشبه قضية جرت لجعفر بن الفضل بن الفرات وزير مصر — المعروف بابن حزابة — وذلك أنه كان يهوى النظر الى الحيات والأفاعى والعقارب وأم أربعة وأربعين وما يجرى هذا المجرى من الحشرات وكان فى داره قاعة لطيفة مرخمة فيها سلل الحيات ، ولها قيم فراش حاو من الحواة ، ومعه مستخدمون برسم الخدمة ونقل السلال وحطها

وكان كل حاو فى مصر وأعمالها يصيد ما يقدر عليه من الحيات ، ويتباهون فى ذوات العجب من أجناسها وفى الكبار وفى الغريبة المنظر . وكان الوزير يثيبهم على ذلك أوفى

ثواب ، ويبذل لهم الجمل حتى يجتهدوا فى تحصيلها . وكان له وقت يجلس فيه على دكة مرتفعة ، ويدخل المستخدمون المراة ، فيخرجون ما فى السلل ويطرحونه الى ذلك الرخام ويحرشون بين الهوام ، هو تتعجب من ذلك ويستحسنه .

فلما كان ذات يوم أنفذ رقعة الى الشيخ الجليل ابن المدبر الكاتب — وكان من أعيان كتاب أيامه ودبوانه ، كان عزيزا عنده وكان يسكن الى جوار دار ابن الفرات — يقول له فيها : « نشعر الشيخ الجليل — أدام الله سلامته — أنه لما كان البارحة عرض علينا الحواة الحشرات الجاري بها العادات : انساب الى داره منها الحية البتراء وذات القرنين والعقربان الكبير وأبو صوفه ، وما حصلوا لنا الا بعد عناء مشقة ، وبحملة بذلناها للحواة ، ونحن نأمر الشيخ — وفقه الله — بالتقدم الى حاشيته وصبيته بصون ما وجد منها ، الى أن تنفذ الحواة لأخذها وردها الى سللها » .

فلما وقف ابن المدبر على الرقعة قلبها ، وكتب فى ذيلها « أتانى أمر سيدنا الوزير — خلد الله نعمته وحرس مدته — بما أشار اليه فى أمر الحشرات والذى يعتمد عليه فى ذلك ، أن الطلاق يلزمه ثلاثا ان بات هو واحد من أهله فى الدار ، والسلام » .

وفى سنة ست عشرة وخمسمائة أمر الوزير أبو عبد الله محمد بن فاتك — المنعوت بالأجل المأمون البطائحى — وكله أبا البركات محمد ابن عثمان برم شعث هذا الجامع ، وأن يعمر بجانبه طاحونا للسبيل ، ويبتاع لها الدواب ، ويتخير من الصالحين الساكنين بالقرافة من يجعله أمينا عليها ، ويطلق له ما يكفيه مع علف الدواب وجميع المؤن ، ويشترط عليه أن يواسى بين الضعفاء ، ويحمل عنهم كلفة طحن أقواتهم ، ويؤدى الأمانة فيها .

ولم يزل هذا الجامع على عمارته الى أن احترق فى السنة التى احترق فيها جامع عمرو ابن العاص سنة أربع وستين وخمسمائة ، نزول مرى ملك الفرنج على القاهرة وحصارها ، كما تقدم ذكره عند ذكر خراب الفسطاط من هذا الكتاب وكان الذى تولى احراق هذا الجامع ابن سماقة باشارة الأستاذ مؤتمن الخلافة جوهر ، وهو الذى أمر المذكور بحريق جامع عمرو بمصر وسئل عن ذلك فقال : لئلا يخطب فيه لبنى العباس .

ولم يبق من هذا الجامع بعد حريقه سوى المحراب الأخضر وكان مؤذن هذا الجامع فى أيام المستنصر ابن بقاء المحدث ابن بنت عبد الغنى بن سعيد الحافظ ثم جددت عمارة هذا الجامع فى أيام المستنصر بعد حريقه وأدركته لما كانت القرافة الكبرى عامرة سكنى السودان التكاررة ، وهو مقصود للبركة . فلما كانت الحوادث والمحن فى سنة ست وثمانمائة قل الساكن بالقرافة ، وصار هذا الجامع طول الأيام معلوقا ، وربما أقيمت فيه الجمعة .

جامع الجيزة

بناه محمد بن عبد الله الخازن ، فى المحرم سنة خمسين وثلثمائة ، بأمر الأمير على بن عبد

(*) ص٣١٦ جـ٢ ، ط. بولاق (*)

الله بن الاخشيد . فتقدم كافور الى الخازن ببنائه ، فانه كان قد هدمه النيل ، وسقط فى سنة أربعين وثلثمائة ، وعمل له مستغلا . وكان الناس قبل ذلك بالجيزة يصلون الجمعة فى مسجد جامع همدان ، وهو مسجد مزاحف بن عامر بن بكتل ، وقيل ان عقبة بن عامر فى امرته على مصر أمرهم أن يجمعوا فيه .

قال التميمى : وشارف بناء جامع الجيزة مع أبى بكر الخازن أبو الحسن بن جعفر الطحاوى ، واحتاجوا الى عمد للجامع ، فمضى الخازن فى الليل الى كنيسة بأعمال الجيزة ، فقلع عمدها ونصب بدلها أركانا ، وحمل العمد الى الجامع . فترك أبو الحسن بن الطحاوى الصلاة فيه مذ ذاك تورعا .

قال التميمى : وقد كان (يعنى ابن الطحاوى) يصلى فى جامع الفسطاط القديم ، وبعض عمده أو أكثرها ورخامه من كنائس الاسكندرية وأرياف مصر ، وبعضه بناء قرة بن شريك عامل الوليد بن عبد الملك .

جامع منجك

هذا الجامع يعرف موضعه بالثغرة تحت قلعة الجبل خارج باب الوزير . أنشأه الأمير سيف الدين منجك اليوسفى ، فى مدة وزارته بديار مصر ، فى سنة احدى وخمسين وسبعمائة ، وصنع فيه صهريجا فصار يعرف الى اليوم بصهريج منجك ، ورتب فيه صوفية ، وقرر لهم فى كل يوم طعاما ولحما وخبزا ، وفى كل شهر معلوما ، وجعل فيه منبرا ، ورتب فيه خطيبا يصلى بالناس فيه صلاة الجمعة .

وجعل على هذا الموضع عدة أوقاف . منها ناحية بلقينة بالغربية ، وكانت مرصدة برسم الحاشية ، فقومت بخمسة وعشرين ألف دينار ، فاشتراها من بيت المال ، وجعلها واقفا على هذا المكان .

« منجك » الأمير سيف الدين اليوسفى : لما امتنع أحمد ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون بالكرك ، وقام فى مملكة مصر بعده أخوه الملك الصالح عماد الدين اسماعيل ، وكان من محاصرته بالكرك ما كان الى أن أخذ ... فتوجه اليه وقطع رأسه ، وأحضرها الى مصر — وكان حينئذ أحد السلاحدارية — فأعطى امرة بديار مصر ، وتنقل فى الدول .

الى أن كانت سلطنة الملك المظفر حاجى ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون ، فأخرجه من مصر الى دمشق ، وجعله حاجبا بها موضع ابن طغريل . فلما قتل الملك المظفر ، وأقيم بعده أخوه الملك الناصر حسن ، أقيم الأمير سيف الدين يلبغا روس فى نيابة السلطنة بديار مصر — وكان أخا منجك — فاستدعاه من دمشق ، وحضر الى القاهرة فى ثامن شوال سنة ثمان وأربعين وسبعمائة ، فرسم له بامرة تقدمة ألف ، وخلع عليه خلع الوزارة .

فاستقر وزيرا وأستادارا ، وخرج فى دست الوزارة والأمراء فى خدمته من القصر الى قاعة الصاحب بالقلعة ، فجلس بالشباك ، ونفذ أمور الدولة . ثم اجتمع الأمراء ، وقرأ عليهم أوراقا تتضمن ما على الدولة من المصروف ، ووفر من جامكية المماليك مبلغ ستين ألف درهم فى الشهر ، وقطع كثيرا من جوامك

الخدم والجوارى والبيوتات السلطانية ، ونقص رواتب الدور من زوجات السلطان وجواريه ، وقطع رواتب الأغانى .

وعرض الاصطبل السلطانى ، وقطع منه عدة أميراخورية وسراخورية وسواس وغلمان ، ووفر من راتب الشعير نحو الخمسين اردبا فى كل يوم ، وقطع جميع الكلابزية وكانوا خمسين جوقة ، وأبقى منهم جوقتين ، ووفر جماعة من الأسرى والعتالين والمستخدمين فى العمائر ، وأبطل العمارة من بيت السلطان . وكانت الحوائجخاناه تحتاج فى كل يوم الى أحد وعشرين ألف درهم نقرة ، فاقتطع منها مبلغ ثلاثة آلاف درهم ، وبقى مصروفها فى اليوم ثمانية عشر ألف درهم نقرة .

وشرع ينكث على الدواوين ، ويحط على القاضى موفق الدين ناظر الدولة ، وعلى القاضى علم الدين بن زنبور ناظر الخواص ، ورسم ألا يستقر فى المعاملات سوى شاهد واحد وعامل وشاد بغير معلوم ، وأغلظ على الكتاب والدواوين وهددهم وتوعدهم . فخافوه واجتمع بعضهم ببعض ، واشتوروا * فى أمرهم ، واتفقوا على مال يتوزعونه بينهم على قدر حال كل منهم ، وحملوه الى منجك سرا . فلم يمض من استقراره فى الوزارة شهر حتى صار الكتاب وأرباب الدواوين أحباءه وأخلاءه ، وتمكنوا منه أعظم ما كانوا قبل وزارته ، وحسنوا له أخذ الأموال .

فطلب ولاة الأقاليم ، وقبض على آقبغا والى العربية ، وألزمه بحمل خمسمائة ألف درهم نقرة ، وولى عوضه الأمير أستدمر القلنجى ، ثم صرفه وولى بدله قطليجا مملوك بكتمر ، واستقر بأستدمر القلنجى فى ولاية القاهرة ، وأضاف له التحدث فى الجهات ، وولى البحرية لرجل من جهته ، وولى قوص لآخر ، وأوقع الحوطة على موجود اسماعيل الواقدى متولى قوص ، وأخذ جميع خواصه ، وولى طعاى كشف الوجه القبلى عوضا عن علاء الدين على بن الكورانى ، وولى ابن المزوق قوص وأعمالها ، وولى مجد الدين موسى الهدبانى الأشمونين عوضا عن ابن الأزكشى .

وتسامعت الولاة وأرباب الأعمال بأن الوزير فتح باب الأخذ على الولايات ، فهرع الناس اليه من جهات مصر والشام وحلب وقصدوا بابه . ورتب عنده جماعة برسم قضاء الأشغال ، فأتاهم أصحاب الأشغال والحوائج .

وكان السلطان صغيرا حظه من السلطنة أن يجلس بالايوان يومين فى الأسبوع ، ويجتمع أهل الحل والعقد مع سائر الأمراء فيه فاذا انقضت خدمة الايوان خرج الأمير منكليبغا الفخرى الأمير بيغرا والأمير يلبغا تتر والمجدى وأرلان وغيرهم من الأمراء ، ويدخل الى القصر الأمير يلبغا روس نائب السلطنة والأمير سيف الدين منجك الوزير والأمير سيف الدين شيخو العمرى والأمير ألجيبغا المظفرى والأمير طيبرق ، ويتفق الحال بينهم على ما يرونه

هذا والوزير أخو النائب متمكن تمكنا زائدا . وقدم من دمشق جماعة للسعى عند الوزير فى وظائف — منهم ابن السلعوس ،

(*) ص ٣٢٠ جـ٢ ، ط. بولاق .

وصلاح الدين بن المؤيد ، وابن الأجل ، وابن عبد الحق — وتحدثوا مع ابن الأطروش محتسب القاهرة فى أغراضهم ، فسعى لهم حتى تقرروا فيما عينوا .

ولما دخلت سنة تسع وأربعين ، عرف الوزير السلطان والأمراء أنه لما ولى الوزارة لم يجد فى الأهراء ولا فى بيت المال شيئا ، وسأل أن يكون هذا بمحضر من الحكام . فرسم للقضاة بكشف ذلك ، فركبوا الى الأهراء بمصر والى بيت المال بقلعة الجبل ، وقد حضر الدواوين وسائر المباشرين ، وأشهدوا عليهم أن الأمير منجك لما باشر الوزارة لم يكن بالأهراء ولا ببيت المال قدح غلة ولا دينار ولا درهم ، وقرئت المحاضر على السلطان والأمراء .

فلما كان بعد ذلك توقف أمر الدولة على الوزير ، فشكا الى الأمراء من كثرة الرواتب . فاتفق الرأى على قطع نحو ستين سواقا ، فقطعهم ، ووفر لحومهم وعليقهم وسائر ما باسمهم من الكساوى وغيرها . وقطع من العرب الركابة والنجابة ، ومن أرباب الوظائف فى بيت السلطان ومن الكتاب والمباشرين ، ما جملته فى اليوم أحد عشر ألف درهم .

وفتح باب المقايضات باقطاعات الأجناد ، وباب النزول عن الاقطاعات بالمال ، فحصل من ذلك مالا كثيرا ، وحكم على أخيه نائب السلطنة بسبب ذلك ، وصار الجندى يبيع اقطاعه لكل من أراد سواء كان المنزول له جنديا أو عاميا ، وبلغ ثمن الاقطاع من عشرين ألف درهم الى ما دونها .

وأخذ يسعى أن تضاف وظيفة نظر الخاص الى الوزارة ، وأكثر من الحط على ناظر الخاص ، فاحترس ابن زنبور منه ، وشرع فى ابعاده مرة بعد مرة مع الأمير شيخو . فمنع شيخو منجك من التحدث فى الخاص وخرج عليه ، فشق ذلك على منجك ، وافترقا عن غير رضا .

فتغير يلبغا روس النائب على شيخو رعاية لأخيه ، وسأل أن يعفى من النيابة ، ويعفى منجك من الوزارة، واستقراره فى الأستادارية والتحدث فى عمل حفر البحر ، وأن يستقر أستدمر العمرى — المعروف برسلان بصل — فى الوزارة . فطلب ، وكان قد حضر من الكشف ، وألبس خلع الوزارة فى يوم الاثنين الرابع والعشرين من شهر ربيع الأول .

وكان منجك قد عزل من الوزارة فى ثالث ربيع الأول المذكور ، وتولى أمر شد البحر . فجبى من الأجناد من كل مائة دينار درهما ، ومن التجار والمتعيشين فى مصر والقاهرة من كل واحد عشرة دراهم الى خمسة دراهم الى درهم ، ومن أصحاب الأملاك والدور فى مصر والقاهرة : على كل قاعة ثلاثة دراهم ، وعلى كل طبقة درهمين ، وعلى كل مخزن أو اصطبل درهما . وجعل المستخرج فى خان مسرور بالقاهرة ، والمشد على المستخرج الأمير بيلك ، فجبى مال كبير .

وأما أستدمر فان أحوال الدولة توقفت فى أيامه ، فسأل فى الاعفاء فأعفى ، وأعيد منجك الى الوزارة بعد أربعين يوما وقد تمنع تمنعا كبيرا . ولما عاد الى الوزارة فتح باب الولايات بالمال ، فقصده الناس وسعوا عنده ، فولى

وعزل ، وأخذ في ذلك مالا كثيرا . فيقال انه أخذ من الأمير مازان لما نقله من المنوفية الى الغربيـة ، ومن ابن الغسـانى لـما نقله من الأشمونين الى البهنساوية ، ومن ابن سلمان لما ولاه منوف ، ستة آلاف دينـار ووفر اقطاع شاد الدواوين ، وجعله باسم المماليك السلطانية ووفر * جوامكهم ورواتبهم .

وشرع أوباش الناس في السعى عنده فى الوظائف والمباشرات بمال ، وأتوه من البلاد ، فقضى أشغالهم ، ولم يرد أحدا طلب شيئا . ووقع فى أيامه الفناء العظيم ، فانحلت اقطاعات كثيرة ، فاقتضى رأى الوزير أن يوفر الجوامك والرواتب التى للحاشية ، وكتب لسائر أرباب الوظائف وأصحاب الأشـغال والمماليـك السلطانية مثالات بقـدر جوامك كل منهم ، وكذلك لأرباب الصدقات . فأخذ جمـاعة من الأقباط ومن الكتاب ومن الموقعين اقطاعات فى نظير جوامـكهم ، وتوفر فى الدولة مال كبير عن الجوامك والرواتب .

ولما دخلت سنة خمسين رسم الأمير منجك الوزير لمتولى القاهرة بطلب أصحاب الأرباع ، وكتابة جميع أملاك الحارات والأزقة وسـائر أخطاط مصر والقـاهرة ، ومعـرفة أسـماء سـكانها ، والفحص عن أربابها ... ليعـرف من توفر عنه ملك بموته فى الفناء . فطلبـوا الجميع وأمعنوا فى النظر ، فكان يوجد فى الحارة الواحدة والزقاق الواحد ما يزيد على عشرين دارا خالية لا يعرف أربابها ، فختموا على ما وجـدوه من ذلك ، ومن الفنـادق والخانات والمخازن حتى يحضر أربابها .

وفى شعبان عزل ولاة الأعمال ، وأحضرهم الى القاهرة وولى غيرهم ، وأضاف الى كل وال كشف الجسور التى فى عمله ، وضمن الناس سائر جهات القاهرة ومصر بحيث انه لا يتحدث أحد معه من المقدمين والدواوين والشادين ، وزاد فى المعاملات ثلثمائة ألف درهم ، وخلع عليه وبودى له بمصر والقاهرة ، فاشتد ظلمه وعسفه ، وكثرت حوادثه .

فلما كانت ليالى عيد الفطر ، عرف الوزير الأمراء أن سماط العيد ينصرف عليه جملة ولا ينتفع به أحد ، فأبطله ولم يعمل تلك السنة .

وفى ذى القعدة توقف حال الدولة ، ووقف مماليـك السلطـان وسـائر المعـاملين والحوائجكاشية ، وانزعج السلطان والأمراء بسبب ذلك على الوزير فاحتج بكثرة الكلف وطلب الموفق ناظر الدولة فقال ان الانعامات قد كثرت ، والـكلف تزايدت ، وقد كانت الحوائجخاناه فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون فى اليوم ينصرف فيها مبلغ ثلاثة عشر ألف درهم ، واليـوم ينصرف فيـها اثـنان وعشرون ألف درهم .

فكتبت أوراق بتحصل الدولة ومصروفها وبمتحصل الخاص ومصروفه . فجاءت أوراق الدولة ومتحصلها عشرة آلاف ألف درهم ، وكلفها أربعة عشر ألف ألف درهم وسـتمائة ألف درهم . ووجـد الانعـام من الخـاص والجيش ، بمـا خرج من البـلاد زيادة على اقطاعات الأمراء ، فكان زيادة على عشرين ألف دينار ، سوى جملة من الغلال ، وأن الذى استجد على الدولة من حين وفاة الملك الناصر

(*) ص٢٢١ جـ٢ ، ط. بولاق .

فى ذى الحجة سنة احدى وأربعين الى مستهل المحرم سنة خمسين وسبعمائة .

وكانت جملة الانعامات والاقطاعات بنواحى الصعيد والفيوم وبلاد الملك والوجه البحرى وما أعطى من الرزق للخدام والجوارى ، سبعمائة ألف ألف وألف ألف وستمائة ألف ... معينة بأسماء أربابها من أمير وخادم وجارية .

وكانت النساء قد أسرفن فى عمل القمصان والبغالطيق ، حتى كان يفصل من القميص كثير على الأرض ، وسعة الكم ثلاثة أذرع — ويسمينه البهطلة — وكان يغرم على القميص ألف درهم وأكثر ، وبلغ ازار المرأة الى ألف درهم ، وبلغ الخف والسرموزة الى خمسمائة درهم وما دونها الى مائة درهم ... فأمر الوزير منجك بقطع أكمام النساء ، وأخرق بهن ، وأمر الوالى بتتبع ذلك ، ونودى بمنع النساء من عمل ذلك ، وقبض على جماعة منهن ، وركب على سور القاهرة صور نساء عليهن تلك القمصان بهيئة نساء قد قتلن عقوبة على ذلك . فانكففن عن لبسها .

ومنع الأساكفة من عمل الأخفاف المثمنة ، ونودى فى القياسر من باع ازار حرير ماله للسلطان ، فنودى على ازار ثمنه سبعمائة وعشرون درهما فبلغ ثمانين درهما ، ولم يجسر أحد أن يشتريه . وبالغ الوزير فى الفحص عن ذلك حتى كشف دكاكين غسالى الثياب ، وقطع ما وجد من ذلك . فامتنع النساء من لبس ما أحدثنه من تلك المنكرات .

ولما عظم ضرر الفار أيضا من كثرة شكاية الناس فيه ، فلم يسمع فيه الوزير قولا ، وقام فى أمره الأمير مغلطاى أميراخور ، فاستوحش منه الوزير .

واتفق أنه كان قد حج محمد بن يوسف مقدم الدولة فى محمل كبير بلغ عليق جماله فى اليوم مائتى عليقة . ولما قدم فى المحرم مع الحاج ، أهدى للنائب وللوزير وللأمير طاز وللأمير صرغتمش هدايا جليلة ، ولم يهد للأمير شيخو ولا للأمير ملغطاى شيئا . ثم لما عاب عليه الناس ذلك أهدى بعد عدة أيام للأمير شيخو هدية ، فردها عليه .

ثم انه أنكر على الوزير فى مجلس السلطان ما يفعله ولاة البر ، وما عليه مقدم الدولة من كثرة المال ، وأغلظ فى القول . فرسم بعزل الولاة ، والقبض على المقدم محمد بن يوسف وابن عمه المقدم أحمد بن زيد . فلم يسع الوزير غير السكوت .

فلما كان فى رابع عشرى شوال سنة احدى وخمسين ، قبض على الوزير منجك وقيد ، ووقعت الحوطة على سائر حواصله ، فوجدت له زردخاناه حمل خمسين جملا ، ولم يظهر من النقد * كثير مال فأمر بعقوبته . فلما خوف أقر بصندوق فيه جوهر ، وقال : سائر ما كان يتحصل لى من النقد كنت أشترى به أملاكا وضياعا وأصناف المتاجر . فأحيط بسائر أمواله وحمل الى الاسكندرية مقيدا ، واستقر الأمير بلبان السنانى نائب البيرة أستادارا عوض منجك بعد حضوره منها ، وأضيفت الوزارة الى القاضى علم الدين بن زنبور ناظر الخاص .

(*) ص٣٢٢ جـ٢ ، ط. بولاق

فلم يزل منجك مسجونا بالاسكندرية الى أن خلع الملك الناصر حسن . وأقيم بدله فى المملكة أخوه الملك الصالح صالح ، فأمر بالافراج عن الأمير شيخو والأمير منجك ، فحضرا الى القاهرة فى رجب سنة اثنتين وخمسين . ولما استقر الأمير منجك بالقاهرة ، بعث اليه الأمير شيخو خمس رؤوس خيل وألفى دينار ، وبعث اليه جميع الأمراء بالتقادم .

وأقام بطالا يجلس على حصير فوقه ثوب سرج عتيق ، وكلما أتاه أحد من الأمراء يبكى ويتوجع ويقول : أخذ جميع مالى حتى صرت على الحصير . ثم كتب فتوى تتضمن أن رجلا مسجونا فى قيد ، هدد بالقتل ان لم يبع أملاكه ، وأنه خشى على نفسه القتل فوكل فى بيعها . فكتب له الفقهاء « لا يصح بيع المكره » . ودار على الأمراء ، وما زال بهم حتى تحدثوا له مع السلطان فى رد أملاكه عليه .

فعارضهم الأمير صرغتمش ، ثم رضى أن يرد عليه من أملاكه ما أنعم به السلطان على مماليكه . فاسترد عدة أملاك ، وأقام الى أن قام يلبغا روس بحلب ، فاختفى منجك وطلب فلم يوجد ، وأطلق النداء عليه بالقاهرة ومصر ، وهدد من أخفاه ، وألزم عربان العائد باقتفاء أثره ، فلم يوقف له على خبر ، وكبس عليه عدة أماكن بالقاهرة ومصر ، وفتش عليه حتى فى داخل الصهريج الذى بجامعه فأعيى أمره .

وأدرك السلطان السفر لحرب يلبغا روس ، فشرع فى ذلك الى يوم الخميس رابع شعبان ، فخرج الأمير طاز بمن معه .

وفى يوم الاثنين سابعه عرض الأمير شيخو والأمير صرغتمش أطلابهما ، وقد وصل الأمير طاز الى بلبيس ، فحضر اليه من أخبره أنه رأى بعض أصحاب منجك ، فسير اليه وأحضره وفتشه ، فوجد معه كتاب منجك الى أخيه يلبغا روس ، وفيه أنه مختف عند الحسام الصفدى أستاداره . فبعث الكتاب الى الأمير شيخو ، فوافاه والأطلاب خارجة ، فاستدعى بالحسام وسأله فأنكره ، فعاقبه الأمير صرغتمش فلم يعترف .

فركب الى بيت الحسام بجوار الجامع الأزهر وهجمه ، فاذا بمنجك ومعه مملوك ، فكتفه وسار به مشهورا بين الناس — وقد هرعوا من كل مكان — الى القلعة ، فسجن بالاسكندرية الى أن شفع فيه الأمير شيخو ، فأفرج عنه فى ربيع الأول سنة خمس وخمسين ورسم أن يتوجه الى صفد بطالا . فسار اليها من غير أن يعبر الى القاهرة .

فلما خلع الملك الصالح صالح ، وأعيد السلطان حسن فى شوال منها ، نقل منجك من صفد ، وأنعم عليه بنيابة طرابلس عوضا عن أيتمش الناصرى ، فسار اليها ، وأقام بها الى أن قبض على الأمير طاز نائب حلب فى سنة تسع وخمسين ، فولى منجك عوضا عنه .

ولم يزل بحلب الى أن فر منها فى سنة ستين فلم يعرف له خبر ، وعوقب بسببه خلق كثير . ثم قبض عليه بدمشق فى سنة احدى وستين ، فحمل الى مصر ، وعليه بشت صوف عسلى وعلى رأسه مئزر صوف ، فلم يؤاخذه السلطان ، وأعطاه امرة طبلخاناه ببلاد الشام ،

وجعله طرخاناه يقيم حيث شاء من البلاد الاسلامية ، وكتب له بذلك .

فلما قتل السلطان حسن ، وأقيم من بعده فى المملكة الملك المنصور محمد بن المظفر حاجى فى جمادى الأولى سنة اثنتين وستين ، خامر الأمير بيدمر نائب الشام على الأمير يلبغا العمرى القائم بتدبير دولة الملك المنصور ، ووافقه جماعة من الأمراء منهم الأمير منجك ، فخرج الأمير يلبغا بالمنصور والعساكر من قلعة الجبل الى البلاد الشامية ، فوافى دمشق .

ومشى الناس بينه وبين الأمير بيدمر حتى حتى تم الصلح ، وحلف الأمير يلبغا أنه لا يؤذى بيدمر ولا منجك ، فنزلا من قلعة دمشق ، وقيدهما وبعث بهما الى الاسكندرية فسجنا بها . الى أن خلع الأمير يلبغا المنصور ، وأقام بدله الملك الأشرف شعبان بن حسين ، وقتل الأمير يلبغا ، فأفرج الملك الأشرف عن منجك ، وولاه نيابة السلطنة بدمشق عوضا عن الأمير على الماردانى فى جمادى الأولى سنة تسع وستين .

فلم يزل فى نيابة دمشق الى أن حضر الى السلطان زائرا فى سنة سبعين بتقادم كثيرة جليلة ، وعاد الى دمشق ، وأقام بها الى أن استدعاه السلطان فى سنة خمس وسبعين الى مصر ، وفوض اليه نيابة السلطنة بديار مصر ، وعمله أتابك العساكر ، وجعل تدبير المملكة اليه ، وأن يخرج الأمهات للبلاد الشامية ، وأن يولى ولاة أقاليم مصر والكشاف ، ويخرج الاقطاعات بمصر من عبرة ستمائة دينار الى ما دونها .

وكانت عادة النواب قبله الا يخرج من الاقطاعات الا ما عبرته أربعمائة دينار فما دونها . فعمل النيابة على قالب جائر وحرمة وافرة الى أن مات حتف أنفه فى يوم الخميس التاسع والعشرين من ذى الحجة سنة ست وسبعين وسبعمائة ، وله من العمر نيف وستون سنة ، وشهد جنازته سائر الأعيان ، ودفن بتربته المجاورة لجامعه هذا .

وله سوى الجامع * المذكور من الآثار بديار مصر خان منجك فى القاهرة ، ودار منجك برأس سويقة العزى بالقرب من مدرسة السلطان حسن ، وله بالبلاد الشامية عدة آثار من خانات وغيرها . رحمه الله .

الجامع الأخضر

هذا الجامع خارج القاهرة بخط فم الخور . عرف بذلك لأن بابه وقبته فيهما نقوش وكتابات خضر . والذى أنشأه خازندار الأمير شيخو واسمه ... ...

جامع البكجرى

هذا الجامع بحكر البكجرى قريبا من الدكة تعطلت الصلاة فيه منذ خربت تلك الجهات .

جامع السروجى

هذا الجامع بحكر ... ...

جامع كرجى

هذا الجامع بحكر أقوش .

(*) ص٣٢٣ جـ٢ ، ط. بولاق .

جامع الفاخرى

هذا الجامع بسويقة الخادم الطواشى شهاب الدين فاخر المنصورى ، مقدم المماليك السلطانية ، ومات فى سابع ذى الحجة سنة سبع وثمانمائة . وكان ذا مهابة وأخلاق حسنة ، مع سطوة شديدة .

« ولهم بلبان الفاخرى » : الأمير سيف الدين ، نقيب الجيوش ، مات فى سنة سبع وتسعين وستمائة ، وولى نقابة الجيش بعد طيبرس الوزيرى ، وكان جوادا عارفا بأمر الأجناد ، خيرا كثير الترف .

جامع ابن عبد الظاهر

هذا الجامع بالقرافة الصغرى ، قبلى قبر الليث بن سعد ، كان موضعه يعرف بالخندق . أنشأه القاضى فتح الدين محمد بن عبد الله بن عبد الظاهر بن نشوان بن عبد الظاهر الجذامى السعدى الروحى ، من ولد روح بن زنباع الجذامى ، بجوار قبر أبيه . وأول ما أقيمت به الخطبة فى يوم الجمعة الرابع والعشرين من صفر سنة ثلاث وثمانين وستمائة ، وكان يوما مشهودا لكثرة من حضر من الأعيان . ولد بالقاهرة فى ربيع الآخر سنة ثمان وثلاثين وستمائة ، وسمع من ابن الجميزى وغيره ، وحدث وكتب فى الانشاء ، وساد فى دولة المنصور قلاوون بعقله ورأيه وهمته ، وتقدم على والده القاضى محيى الدين — وهو ماهر فى الانشاء والكتابة — بحيث كان من جملة من يصرفهم بأمره ونهيه ، وكان الملك المنصور يعتمد عليه ويثق به .

ولما ولى القاضى فخر الدين بن لقمان الوزارة ، قال له الملك المنصور : من يلى عوضك كتابة السر ؟

فقال : القاضى فتح الدين ابن عبد الظاهر .

فولاه كتابة السر عوضا عن ابن لقمان ، وتمكن من السلطان وحظى عنده ... حتى ان الوزير فخر الدين بن لقمان ناول السلطان كتابا ، فأحضر ابن عبد الظاهر لقراءته على عادته ، فلما أخذ الكتاب من السلطان ، أمر الوزير أن يتأخر حتى يقرأه ، فتأخر الوزير . ثم ان ابن لقمان صرف عن الوزارة ، وأعيد الى ديوان الانشاء ، فتأدب معه

فلما ولى وزارة الملك الأشرف خليل بن قلاوون شمس الدين بن السلعوس ، قال لفتح الدين : اعرض على كل يوم ما تكتبه .

فقال : لا سبيل لك الى ذلك ، ولا يطلع على أسرار السلطان الا هو ، فان اخترتم والا عينوا عوضى .

فلما بلغ السلطان ذلك قال . صدق .

ولم يزل على حاله الى أن مات — وأبوه حى — بدمشق فى النصف من شهر رمضان سنة احدى وتسعين وسبعمائة . فوجد فى تركته قصيدة مرثية قد عملها فى رفيقه تاج الدين أحمد بن سعيد بن محمد بن الأثير ، لما مرض وطال مرضه ، فاتفق أن عوفى ابن الأثير ، ولم يتأخر ابن عبد الظاهر بعد عافيته سوى ليال يسيرة ومرض ومات . فرثاه ابن الأثير بعد موته ، وولى وظيفة كتابة السر عوضا عنه .

ولم يكن ابن عبد الظاهر مجيدا فى صناعة الانشاء ، الا أنه دبر الديوان وباشره أحسن مباشرة . ومن شعره :

ان شئت تنظرنى وتنظر حالتى
فانظر اذا هب النسيم قبولا
فتراه مثلى رقة ولطافة
ولأجل قلبك لا أقول عليلا
فهو الرسول اليك منى ليتنى
كنت اتخذت مع الرسول سبيلا *

ولم يزل هذا الجامع عامرا الى أن حدثت المحن فى سنة ست وثمانمائة ، واختلت القرافة لخراب ما حوله ، وهو اليوم قائم على أصوله.

جامع بساتين الوزير التى على بركة الحبش

... ...

جامع الخندق

هذا الجامع بناحية الخندق خارج القاهرة ، ولم يزل عامرا بعمارة الخندق . فلما خربت مساكن الخندق تلاشى أمره ، ونقلت منه الجمعة ، وبقى معطلا الى شعبان سنة خمس عشرة وثمانمائة . فأخذ الأمير طوغان الحسنى الدوادار عمده الرخام وسقوفه ، وترك جدرانه ومنارته وهى باقية ، وعما قليل تدثر كما دثر غيرها مما حولها .

جامع جزيرة الفيل

... ...

(*) ص٣٢٤ جـ٢ ، ط. بولاق

جامع الطواشى

هذا الجامع خارج القاهرة فيما بين باب الشعرية وباب البحر . أنشأه الطواشى جوهر السحرتى اللالا ، وهو من خدام الملك الناصر محمد بن قلاوون ، ثم انه تأمر فى تاسع عشرى شهر رجب سنة خمس وأربعين وسبعمائة .

جامع كراى

هذا الجامع بالريدانية خارج القاهرة . عمره الأمير سيف الدين كراى المنصورى ، فى سنة احدى وسبعمائة ، لكثرة ما كان هناك من السكان . فلما خربت تلك الأماكن تعطل هذا الجامع ، وهو الآن قائم ، وجميع ما حوله داثر وعما قليل يدثر .

جامع القلعة

هذا الجامع بقلعة الجبل . أنشأه الملك الناصر محمد بن قلاوون فى سنة ثمان عشرة وسبعمائة . وكان أولا مكانه جامع قديم ، وبجواره المطبخ السلطانى والحوائجخاناه والطشتخاناه والفراشخاناه ، فهدم الجميع وأدخلها فى هذا الجامع ، وعمره أحسن عمارة ، وعمل فيه من الرخام الفاخر الملون شيئا كثيرا ، وعمر فيه قبة جليلة ، وجعل عليه مقصورة من حديد بديعة الصنعة ، وفى صدر الجامع مقصورة من حديد أيضا برسم صلاة السلطان .

فلما تم بناؤه جلس فيه السلطان بنفسه ، واستدعى جميع المؤذنين بالقاهرة ومصر ، وسائر الخطباء والقراء ، وأمر الخطباء فخطب كل منهم بين يديه ، وقام المؤذنون فأذنوا وقرأ القراء فاختار الخطيب جمال الدين محمد بن محمد بن الحسن القسطلانى ، خطيب جامع عمرو ، وجعله خطيبا بهذا الجامع ، واختار عشرين مؤذنا رتبهم فيه ، وجعل به قراء ودرسا وقارىء مصحف ، وجعل له من الأوقاف ما يفضل عن مصارفه .

فجاء من أجل جوامع مصر وأعظمها ، وبه الى اليوم يصلى سلطان مصر صلاة الجمعة ، والذى يخطب فيه ويصلى بالناس الجمعة قاضى القضاة الشافعى

جامع قوصون

هذا الجامع داخل باب القرافة تجاه خانقاه قوصون . أنشأه الأمير سيف الدين قوصون ، وعمر بجانبه حماما ، فعمرت تلك الجهة من القرافة بجماعة الخانقاه والجامع ، وهو باق الى يومنا .

جامع كوم الريش

هذا الجامع عمارة دولات شاه .

جامع الجزيرة الوسطى

أنشأه الطواشى مثقال ، خادم تذكار ابنة الملك الظاهر بيبرس ، وهو عامر الى يومنا هذا .

جامع ابن صارم

هذا الجامع بخط بولاق خارج القاهرة . أنشأه محمد بن صارم شيخ بولاق فيما بين بولاق وباب البحر .

جامع الكيمختى

هذا الجامع يعرف اليوم بجامع الجنينة ، وهو بجانب موضع الكيمخت على شاطىء الخليج من جملة أرض * الطبالة . كان موضعه دارا اشتراها معلم الكيمخت ، وكان يعرف بالحموى ، وعملها جامعا .

فضمن المعلم بعده رجل يعرف بالرومى ، فوقف عليه مواضع ، وجدد له مئذنة فى جمادى الأولى سنة اثنتين وثمانمائة ، ووسع فى الجامع قطعة كانت مشرا . وكان قبل ذلك قد جدد عمارته شخص يعرف بالفقيه زين الدين ريحان بعد سنة تسعين وسبعمائة ، وعمر بجانبه مساكن ، وهو الآن عامر بعمارة ما حوله

جامع الست مسكة

هذا الجامع بالقرب من قنطرة آق سنقر التى على الخليج الكبير خارج القاهرة . أنشأته الست مسكة ، جارية الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وأقيمت فيه الجمعة عاشر جمادى الآخرة سنة احدى وأربعين وسبعمائة وقد ذكرت مسكة هذه عند ذكر الأحكار .

(*) ص٣٢٥ جـ٢ ط. بولاق .

جامع ابن الفلك

هذا الجامع بسويقة الجميزة من الحسينية خارج القاهرة . أنشأه مظفر الدين بن الفلك .

جامع التكروري

هذا الجامع في ناحية بولاق التكروري . وهذه الناحية من جملة قرى الجيزة ، كانت تعرف بمنية بولاق ، ثم عرفت ببولاق التكروري . فانه كان نزل بها الشيخ أبو محمد يوسف بن عبد الله التكروري ، وكان يعتقد فيه الخير ، وجربت بركة دعائه ، وحكيت عنه كرامات كثيرة .

منها أن امرأة خرجت من مدينة مصر تريد البحر ، فأخذ السودان ابنها ، وساروا به في مركب ، وفتحوا القلع ، فجرت السفينة . وتعلقت المرأة بالشيخ تستغيث به ، فخرج من مكانه حتى وقف على شاطىء النيل ، ودعا الله سبحانه وتعالى ، فسكن الريح ووقفت السفينة عن السير ، فنادى من في المركب يطلب منهم الصبي ، فدفعوه اليه وناوله لأمه .

وكان بمصر رجل دباغ أتاه عفص ، فأخذه منه أصحاب السلطان ، فأتى الى الشيخ وشكا اليه ضرورته ، فدعا ربه ، فرد الله عليه عفصه بسؤال أصحاب السلطان له في ذلك .

وكان يقال له : لم لا تسكن المدينة ؟ فيقول : انى أشم رائحة كريهة اذا دخلتها . ويقال انه كان في خلافة العزيز بن المعز ، وان الشريف محمد بن أسعد الجواني جمع له جزءا في مناقبه . ولما مات بنى عليه قبة ، وعمل بجانبه جامع جدده ووسعه الامير محسن الشهابي مقدم المماليك ، وولى تقدمة المماليك عوضا عن الطواشي عنبر السحرتي أول صفر سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة ، ومات في ...

ثم ان النيل مال على ناحية بولاق هذه فيما بعد سنة تسعين وسبعمائة ، وأخذ منها قطعة عظيمة كانت كلها مساكن . فخاف أهل البلد أن يأخذ ضريح الشيخ والجامع لقربهما منه ، فنقلوا الضريح والجامع الى داخل البلد ، وهو باق الى يومنا هذا .

جامع البرقية

هذا الجامع بالقرب من باب البرقية بالقاهرة عمره الأمير مغلطاى الفخرى أخو الأمير ألماس الحاجب ، وكمل في المحرم سنة ثلاثين وسبعمائة . وكان ظالما عسوفا متكبرا جبارا ، قبض عليه مع أخيه ألماس في سنة أربع وثلاثين وسبعمائة ، وقتل معه .

جامع الحراني

هذا الجامع بالقرافة الصغرى في بحرى الشافعي . عمره ناصر الدين بن الحراني الشرايبشي في سنة تسع وعشرين وسبعمائة .

جامع بركة

هذا الجامع بالقرب من جامع ابن طولون ، يعرف خطه بحدرة ابن قميحة . عمره شخص من الجند يعرف ببركة ، كان يباشر أستادارية الأمراء ، ومات بعد سنة احدى وثمانمائة .

جامع بركة الرطلى

هذا الجامع كان يعرف موضعه ببركة الفول من جملة أرض الطبالة . فلما عمرت بركة الرطلى ، كما تقدم ذكره ، أنشىء هذا الجامع . وكان ضيقا قصير السقف ، وفيه قبة تحتها قبر يزار ، وهو قبر الشيخ خليل بن عبد ربه ، خادم الشيخ عبد العال * ، وتوفى فى المحرم سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة . فلما سكن الوزير الصاحب سعد الدين ابراهيم بن بركة البشيرى بجوار هذا الجامع ، هدمه ووسع فيه ، وبناه هذا البناء فى سنة أربع عشرة وثمانمائة .

وولد البشيرى فى سابع ذى القعدة سنة ست وستين وسبعمائة ، وتنقل فى الخدم الديوانية حتى ولى نظر الدولة الى أن قتل الأمير جمال الدين يوسف الأستادار ، فاستقر بعده فى الوزارة ، بسفارة فتح الدين فتح الله ابن كاتب السر ، فى يوم الثلاثاء رابع عشر جمادى الأولى سنة اثنتى عشرة وثمانمائة .

فباشر الوزارة بضبط جيد لمعرفته الحساب والكتابة . الا أنها كانت أيام محن احتاج فيها الى وضع يده ، وأخذ الأموال بأنواع الظلم . فلما قتل الملك الناصر فرج ، واستبد الملك المؤيد شيخ ، صرفه عن الوزارة فى يوم الخميس خامس جمادى الأولى سنة ست عشرة وثمانمائة ، ودفن بالقرافة .

وهذا الجامع عامر بعمارة ما حوله .

(*) ص٣٢٦ جـ٢ ، ط . بولاق .

جامع الضوة

هذا الجامع فيما بين الطبلخاناه السلطانية وباب القلعة ، المعروف بباب المدرج ، على رأس الضوة . أنشأه الأمير الكبير شيخ المحمودى ، لما قدم من دمشق بعد قتل الملك الناصر فرج ، واقامة الخليفة أمير المؤمنين المستعين بالله العباسى ابن محمد فى سنة خمس عشرة وثمانمائة ، وسكن بالاصطبل السلطانى ، فشرع فى بناء دار يسكنها . فلما استبد بسلطنة مصر ، وتلقب بالملك المؤيد ، استغنى عن هذه الدار ،وكانت لم تكمل ، فعملها جامعا وخانقاه ، وصارت الجمعة تقام به .

جامع الحوش

هذا الجامع فى داخل قلعة الجبل بالحوش السلطانى . أنشأه السلطان الملك الناصر فرج ابن برقوق فى سنة اثنتى عشرة وثمانمائة ، فصار يصلى فيه الخدام وأولاد الملوك من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاوون الى أن قتل الناصر فرج .

جامع الاصطبل

هذا الجامع فى الاصطبل السلطانى من قلعة الجبل . عمره ... ...

جامع ابن التركمان

هذا الجامع بالمقس خارج القاهرة .

جامع ...

هذا الجامع بخط السبع سقايات ، فيما بين القاهرة ومصر ، يطل على بركة قارون . أنشأه ... ...

جامع الباسطى

هذا الجامع فى بولاق خارج القاهرة . أدركت موضعه ، وهو مطل على النيل طول السنة . أنشأه شخص من عرض الفقهاء يعرف ... ... فى سنة سبع عشرة وثمانمائة .

جامع الحنفى

هذا الجامع خارج القاهرة . أنشأه الشيخ شمس الدين محمد بن حسن بن على الحنفى فى سنة سبع عشرة وثمانمائة .

جامع ابن الرفعة

هذا الجامع خارج القاهرة بحكر الزهرى . أنشأه الشيخ فخر الدين عبد المحسن بن الرفعة ابن أبى المجد العدوى .

جامع الاسماعيلى

أنشأه الأمير أرغون الاسماعيلى ، على البركة الناصرية ، فى شعبان سنة ثمان وأربعين وسبعمائة .

جامع الزاهد

هذا الجامع بخط المقس خارج القاهرة ، كان موضعه كوم تراب ، فنقله الشيخ المعتقد أحمد ابن ... ... المعروف بالزاهد ، وأنشأ موضعه هذا الجامع ، فكمل فى شهر رمضان سنة ثمان عشرة وثمانمائة ، وهدم بسببه عدة * مساجد قد خرب ما حولها ، وبنى بأنقاضها هذا الجامع .

وكان ساكنا مشهورا بالخير ، يعظ الناس بالجامع الأزهر وغيره ، ولطائفة من الناس فيه عقيدة حسنة ، ولم يسمع عنه الا خير . مات يوم الجمعة سابع عشر شهر ربيع الأول سنة تسع عشرة وثمانمائة أيام الطاعون ، ودفن بجامعه .

جامع ابن المغربى

هذا الجامع بالقرب من بركة قرموط ، مطل على الخليج الناصرى . أنشأه صلاح الدين يوسف بن المغربى رئيس الأطباء بديار مصر ، وبنى بجانبه قبة دفن فيها ، وعمل به درسا وقراء ومنبرا يخطب عليه فى يوم الجمعة . وكان عامرا بعمارة ما حوله ، فلما خرب خط بركة قرموط تعطل ، وهو آيل الى أن ينقض ويباع كما بيعت أنقاض غيره .

جامع الفخرى

هذا الجامع بجوار دار الذهب — التى عرفت بدار بهادر الأعسر — المجاورة لقبو الذهب من خط بين السورين فيما بين الخوخة وباب سعادة ، ويتوصل اليه أيضا من درب العداس المجاور لحارة الوزيرية .

أنشأه الأمير فخر الدين عبد الغنى ، ابن الأمير تاج الدين عبد الرزاق بن أبى الفرج

(*) ص٣٢٧ جـ٢ ، ط. بولاق

الأستادار ، فى سنة احدى وعشرين وثمانمائة وخطب فيه يوم الجمعة ثامن عشرى شعبان من السنة المذكورة ، وعمل فيه عدة دروس .

وأول من خطب فيه الشيخ ناصر الدين محمد بن عبد الوهاب بن محمد البارنباری الشافعى ، ثم تركه تنزها عنه .

وفى يوم الأحد ثامن شهر رمضان ، جلس فيه الشيخ شمس الدين محمد بن عبد الدائم البرماوى الشافعى للتدريس ، وأضيف اليه مشيخة التصوف ، وقرر قاضى القضاة شمس الدين محمد الديرى ، المقدسى الحنفى ، فى تدريس الحنفية ، وفى تدريس المالكية قاضى القضاة جمال الدين عبد الله بن مقداد المالكى ، وحضر البرماوى وظيفة التصوف بعد عصر يومه . فمات الأمير فخر الدين فى نصف شوال منها ولم يكمل ، فدفن هناك .

الجامع المؤيدى

هذا الجامع بجوار باب زويلة من داخله . كان موضعه خزانة شمائل حيث يسجن أرباب الجرائم ، وقيسارية سنقر الأشقر ، ودرب الصفيرة ، وقيسارية بهاء الدين أرسلان . أنشأه السلطان الملك المؤيد أبو النصر شيخ المحمودى الظاهرى .

فهو الجامع الجامع لمحاسن البنيان ، الشاهد — بفخامة أركانه وضخامة بنيانه — أن منشئه سيد ملوك الزمان . يحتقر الناظر له عند مشاهدته عرش بلقيس وايوان كسرى أنو شروان ، ويستصغر من تأمل بديع أسطوانه الخورنق وقصر غمدان ، ويعجب من عرف أوليته من تبديل الأبدال ، وتنقل الأمور من حال الى حال ... بينا هو سجن تزهق فيه النفوس ويضام المجهود ، اذ صار مدارس آيات ، وموضع عبادات ، ومحل سجود ! فالله يعمره ببقاء منشيه ، ويعلى كلمة الايمان بدوام ملك بانيه .

همم الملوك اذا أرادوا ذكرها
من بعدهم فبألسن البنيان
أوماترى الهرمين قد بقيا وكم
ملك محاه حوادث الأزمان
ان البناء اذا تعاظم قدره
أضحى يدل على عظيم الشان

وأول ما ابتدىء به فى أمر هذا الجامع : أن رسم ، فى رابع شهر ربيع الأول سنة ثمان عشرة وثمانمائة ، بانتقال سكان قيسارية سنقر الأشقر التى كانت تجاه قيسارية الفاضل . ثم نزل جماعة من أرباب الدولة فى خامسه من قلعة الجبل ، وابتدىء فى الهدم فى القيسارية المذكورة وما يجاورها ، فهدمت الدور التى كانت هناك فى درب الصفيرة ، وهدمت خزانة شمائل فوجد بها من رمم القتلى ورؤوسهم شىء كثير ، وأفرد لنقل ما خرج من التراب عدة من الجمال والحمير بلغت علائقهم فى كل يوم خمسمائة عليقة .

وكان السبب فى اختيار هذا المكان دون غيره ، أن السلطان حبس فى خزانة شمائل هذه ، أيام تغلب الأمير منطاش وقبضه على المماليك الظاهرية ، فقاسى فى ليلة من البق والبراغيث شدائد ، فنذر لله تعالى ان تيسر له ملك مصر أن يجعل هذه البقعة مسجدا لله عز وجل ، ومدرسة لأهل العلم ، فاختار لذلك هذه البقعة وفاء لنذره .

وفى رابع جمادى الآخرة كان ابتداء حفر الأساس ، وفى خامس صفر سنة تسع عشرة وثمانمائة وقع الشروع فى البنـاء . واستقر فيه بضع وثلاثون بنَّاء ومائة فاعل ، ووفيت لهم ولمباشريهم أجورهم من غير أن يكلف أحد فى العمل فوق طاقته ، ولا سخر فيه أحـد بالقهر فاستمر العمـل الى يوم الخميس * سابع عشر ربيع الأول فأشهد عليه السلطان أنه وقف هذا مسجدا لله تعالى ، ووقف عليه عدة مواضع بديار مصر ببلاد الشام . وتردد ركوب السلطان الى هذه العمارة عدة مرار .

وفى شعبـان طلت عمـد الرخام وألواح الرخام لهـذا الجـامع ، فأخـذ من الدور والمساجد وغيرها وفى يوم الخميس سابع عشرى شوال ، نقل باب مدرسـة السلطان حسن بن محمد بن قلاوون ، والتنور النحاس المكفت ، الى هذه العمارة ، وقد اشتراهمـا السلطان بخمسمائة دينار . وهذا الباب هـو الذى عمل لهـذا الجامع ، وهذا التنور هو التنور المعلق تجاه المحراب .

وكان الملك الظاهر برقوق قد سـد باب مدرسة السلطان حسن ، وقطع البسطة التى كانت قدامه كما تقدم ، فبقى مصراعا البـاب والسد من ورائهما حتى نقلا مع التنور الذى كان معلقا هناك .

وفى ثامن عشريه دفنت ابنة صغيرة للسلطان فى موضع القبة الغربية من هذا الجامع ، وهى ثانى ميت دفن بها .

وانعقدت جملة ما صرف فى هذه العمارة ، الى سلخ ذى الحجة سنة تسع عشرة ، عـلى أربعين ألف دينار .

ثم نزل السلطان فى عشرى المحرم الى هذه العمـارة ، ودخل خزانة الـكتب التى عملت هناك ، وقد حمل اليها كتبا كثيرة فى أنواع العلوم كانت بقلعة الجبـل وقدم له ناصر الدين محمد البارزى ، كاتب السر ، خمسمائة مجلد قيمتها ألف دينار ، فأقر ذلك بالخزانة ، وأنعم على ابن البـارزى بأن يكون خطيبـا وخازن الكتب هو ومن بعده من ذريته .

وفى سابع عشر شهر ربيع الآخر منها سقط عشرة من الفعلة : مات منهم أربعة ، وحمـل ستة بأسـوأ حال . وفى يوم الجمعـة ثانى جمادى الأولى أقيمت الجمعة به ولم يكمل منه سوى الايوان القبلى ، وخطب وصلى بالناس عز الدين عبد السلام المقدسى — أحد نواب القضاة الشافعية — نيابة عن ابن البـارزى كاتب السر .

وفى يوم السبت خامس شهر رمضان منها ابتدىء بهدم ملك بجـوار ربع الملك الظاهر بيبرس ، مما اشتراه الأمير فخر الدين عبـد الغنى بن أبى الفرج الأستادار ، ليعمل ميضأة واستمر العمل هناك .

ولازم الأمير فخر الدين الاقامة بنفسه ، واستعمل مماليكه وألزامه فيـه ، وجـد فى العمل كل يوم ، فكملت فى سلخه بعد خمسة وعشرين يوما . ووقـع الشروع فى بنـاء حوانيت عـلى بابها من جهـة تحت الربع ، ويعلوها طباق .

(*) ص٣٢٨ جـ٢ ، ط. بولاق

وبلغت النفقة على الجامع الى أخريات شهر رمضان هذا ، سوى عمارة الأمير فخر الدين المذكور ، زيادة على سبعين ألف دينار . وتردد السلطان الى النظر فى هذا الجامع غير مرة .

فلما كان فى أثناء شهر ربيع الآخر سنة احدى وعشرين ، ظهر بالمئذنة التى أنشئت على بدنة باب زويلة التى تلى الجامع اعوجاج الى جهة دار التفاح ، فكتب محضر بجماعة المهندسين أنها مستحقة الهدم ، وعرض على السلطان ، فرسم بهدمها .

فوقع الشروع فى الهدم يوم الثلاثاء رابع عشريه ، واستمر فى كل يوم ، فسقط يوم الخميس سادس عشريه منها حجر هدم ملكا تجاه باب زويلة هلك تحته رجل ، فغلق باب زويلة خوفا على المارة من يوم السبت الى آخر يوم الجمعة سادس عشرى جمادى الأولى مدة ثلاثين يوما ، ولم يعهد وقوع مثل هذا قط منذ بنيت القاهرة .

وقال أدباء العصر فى سقوط المنارة المذكورة شعرا كثيرا . منه ما قاله حافظ الوقت شهاب الدين أحمد بن على بن حجر الشافعى رحمه الله :

لجامع مولانا المؤيد رونق
منارته تزهو من الحسن والزين
تقول وقد مالت عليهم تمهلوا
فليس على جسمى أضر من العين

فتحدث الناس أنه فى قوله بالعين قصد التورية لتخدم فى العين التى تصيب الأشياء فتتلفها ، وفى الشيخ بدر الدين محمود العينتابى ، فانه يقال له العينى أيضا .

فقال المذكور يعارضه :

منارة كعروس الحسن اذ جليت
وهدمها بقضاء الله والقدر
قالوا أصيبت بعين ، قلت ذا غلط
ما أوجب الهدم الا خسة الحجر

يعرض بالشهاب ابن حجر . وكل منهما لم يصب الغرض ، فان العينى بدر الدين محمودا ناظر الأحباس ، والشيخ شهاب الدين أحمد ابن حجر ، كل منهما ليس له فى المئذنة تعلق حتى تخدم التورية ، وأقعد منهما بالتورية من قال :

على البرج من باب زويلة أسست
منارة بيت الله والمعهد المنجى
فأخلى بها البرج اللعين أمالها
ألا فاصرخوا ياقوم باللعن للبرج

وذلك أن الذى ولى تدبير أمر الجامع المؤيدى هذا ، وولى نظر عمارته ، بهاء الدين محمد بن البرجى ، فخدمت التورية فى البرجى كما ترى .

وتداول هذا الناس ، فقال آخر * :

عتبنا على ميل المنار زويلة
وقلنا تركت الناس بالميل فى هرج
فقال قرينى برج نحس أمالنى
فلا بارك الرحمن فى ذلك البرج

وقال الأديب شمس الدين محمد بن أحمد ابن كمال الجوجرى أحد الشهود :

منارة لثواب الله قد بنيت
فكيف هدت فقالوا نوضح الخبرا

(*) ص٣٢٩ جـ٢ ، ط. بولاق .

أصابت العين أحجارا بها انفلقت
ونظرة العين قالوا تفلق الحجرا

وقال آخر :

منارة قد هدمت بالقضا
والناس فى هرج وفى رهج
أمالها البرج فمالت به
فلعنة الله على البرج

وفى ثالث جمادى الأولى سنة اثنتين وعشرين ، استقر الشيخ شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن على بن حجر فى تدريس الشافعية ، والشيخ يحيى بن محمد بن أحمد العجيسى السحاتى المغربى فى تدريس المالكية ، وعز الدين عبد العزيز بن على بن الفخر البغدادى فى تدرس الحنابلة ، وخلع عليهم بحضرة السلطان . فدرس ابن حجر بالمحراب فى يوم الخميس ثالث عشره ، ونزل السلطان وأقبل ليحضر عنده وهو فى القاء الدرس ، ومنعه من القيام له فلم يقم ، واستمر فيما هو بصدده ، وجلس السلطان عنده مليا . ثم درس يحيى المغربى فى يوم الخميس خامس عشره ، ودرس فيه أيضا الفخر البغدادى ، وحضر معهما قضاة القضاة والمشايخ .

وفى سابع عشره استقر بدر الدين محمود ابن أحمد بن موسى بن أحمد العينتابى ناظر الأحباس فى تدريس الحديث النبوى ، واستقر شمس الدين محمد بن يحيى فى تدريس القراءات السبع .

وفى يوم الجمعة حادى عشرى شوال منها ، نزل السلطان الى هذا الجامع ، وقد تقدم الى المباشرين من أمسه بتهيئة السماط العظيم للمدة فيه ، والسكر الكثير لتملأ البركة التى بالصحن من السكر المذاب ، والحلوى الكثيرة .. فهيىء ذلك كله . وجلس السلطان بكرة النهار بالقرب من البركة فى الصحن على تخت ، واستعرض الفقهاء ، فقرر من وقع اختياره عليه فى الدروس . ومد السماط العظيم بأنواع المطاعم ، وملئت البركة بالسكر المذاب ، فأكل الناس ونهبوا ، وارتووا من السكر المذاب ، وحملوا منه ومن الحلوى ما قدروا عليه .

ثم طلب قاضى القضاة شمس الدين محمد ابن سعد الديرى الحنفى ، وخلع عليه كاملية صوف بفرو سمور ، واستقر فى مشيخة التصوف وتدريس الحنفية ، وجلس بالمحراب والسلطان عن يمينه ، ويليه ابنه المقام الصارمى ابراهيم ، وعن يساره قضاة القضاة ومشايخ العلم ، وحضر أمراء الدولة ومباشروها . فألقى درسا مفيدا الى أن قرب وقت الصلاة ، فدعا بفض المجلس . ثم حضرت الصلاة ، فصعد ناصر الدين محمد بن البارزى كاتب السر المنبر ، فخطب وصلى ، ثم خلع عليه واستقر خطيبا وخازن الكتب ، وخلع على شهاب الدين أحمد الأذرعى الامام ، واستقر فى امامة الخمس . وركب السلطان ، وكان يوما مشهودا .

ولما مات المقام الصارمى ابراهيم ابن السلطان دفن بالقبة الشرقية ، ونزل السلطان حتى شهد دفنه فى يوم الجمعة ثانى عشرى جمادى الآخرة سنة ثلاث وعشرين ، وأقام حتى صلى به الخطيب محمد البارزى كاتب

السر صلاة الجمعة ، بعدما خطب خطبة بليغة ، ثم عاد الى القلعة . وأقام القراء على قبره يقرأون القرآن أسبوعا ، والأمراء وسائر أهل الدولة يترددون اليه ، وكانت ليالى مشهودة .

وفى يوم السبت آخره ، استقر فى نظر الجامع المذكور : الأمير مقبل الدوادار ، وكاتب السر ابن البارزى . فنزلا اليه جميعا ، وتفقدا أحواله ، ونظرا فى أموره . فلما مات ابن البارزى فى ثامن شوال منها ، انفرد الأمير مقبل بالتحدث .

الى أن مات السلطان فى يوم الاثنين ثامن المحرم سنة أربع وعشرين وثمانمائة ، فدفن بالقبة الشرقية ، ولم تكن عمرت ، فشرع فى عمارتها حتى كملت فى شهر ذى القعدة منها . وكذلك الدرج التى يصعد منها الى باب هذا الجامع من داخل باب زويلة لم تعمل الا فى شهر رمضان منها ، وبقيت بقايا كثيرة من حقوق هذا الجامع لم تعمل : منها القبة التى تقابل القبة المدفون تحتها السلطان ، والبيوت المعدة لسكن الصوفية وغير ذلك ، فأفرد لعمارتها نحو من عشرين ألف دينار . واستقر نظر هذا الجامع بعد موت السلطان بيد كاتب السر .

الجامع الاشرفى

هذا الجامع فيما بين المدرسة السيوفية وقيسارية العنبر ... كان موضعه حوانيت تعلوها رباع ، ومن ورائها ساحات كانت قياسر بعضها وقف على المدرسة القطبية . فابتدأ الهدم فيها ، بعدما استبدلت بغيرها ، أول شهر رجب سنة * ست وعشرين وثمانمائة ، وبنى مكانها . فلما عمر الايوان القبلى ، أقيمت به الجمعة فى سابع جمادى الأولى سنة سبع وعشرين ، وخطب به الحموى الواعظ وقد ولى الخطابة المذكورة .

الجامع الباسطى

هذا الجامع بخط الكافورى من القاهرة . كان موضعه من جملة أراضى البستان ، ثم صار مما اختط كما تقدم ذكره . فأنشأه القاضى زين الدين عبد الباسط بن خليل بن ابراهيم الدمشقى ، ناظر الجيوش ، فى سنة اثنتين وعشرين وثمانمائة ، ولم يسخر أحدا فى عمله ، بل وفى لهم أجورهم . حتى كمل فى أحسن هندام ، وأكيس قالب ، وأبدع زى ، ترتاح النفوس لرؤيته ، وتبتهج عند مشاهدته ، فهو الجامع الزاهر ، والمعبد الباهى الباهر .

ابتدىء فيه باقامة الجمعة فى يوم الجمعة الثانى من صفر سنة ثلاث وعشرين ، ورتب فى خطابته فتح الدين أحمد بن محمد بن النقاش ، أحد شهود الحوانيت وموقعى القضاة ، ثم رتب به صوفية ، وولى مشيخة التصوف عز الدين عبد السلام بن داود ابن عثمان المقدسى الشافعى أحد نواب الحكم ... فكان ابتداء حضورهم بعد عصر يوم السبت أول شهر رجب منها . وأجرى للفقراء الصوفية الخبز فى كل يوم ، والمعلوم فى كل شهر ، وبنى لهم مساكن ، وحفر صهريجا يملأ من ماء النيل ، ويسبل فى كل يوم . فعم نفعه ، وكثر خيره .

(*) ص٣٣٠ جـ٢ ، ط. بولاق

ثم تجدد فى بولاق جامع ابن الجابى وجامع ابن السنيتى ، وتجدد فى مصر جامع الحسنات بخط دار النحاس ، وفى حكر الصبان الجامع المعروف بالمستجد ، وبجامع الفتح ، وفى حارة الفقراء جامع عبد اللطيف الطواشى الساقى .

وتجدد فى خارج القاهرة بسويقة صفية جامع ابن درهم ونصف ، وفى خط معدية فريج جامع كزل بغا ، وفى رأس درب النيدى جامع حارس الطير . وفى سويقة عصفور جامع القاضى أمين الدين ، بجانب زاوية الفقيه المعتقد أبى عبد الله محمد الفارقانى ، بنى فى سنة اثنتين وثلاثين وثمانمائة . وبخط البراذعيين ورأس حارة الحرمين جامع الحاج محمد — المعروف بالمسكين مهتار — ناظر الخاص .

وتجدد فى المراغة جامع الشيخ أبى بكر المعرف ، بناه الحاج أحمد القماح . وأقيمت خطبة بخانكاه الأمير جانى بك الأشرفى خارج باب زويلة ، وتوفى يوم الخميس سابع عشرى ربيع الأول سنة احدى وثلاثين وثمانمائة . وبخط باب اللوق جامع مقدم السقائين قريبا من جامع الست نصرة ، وبخط تحت الربع خارج باب زويلة جامع . وتجدد بالصحراء ، قريبا من تربة الظاهر برقوق ، خطبة فى تربة السلطان الملك الأشرف برسباى الدقماقى .

وتجدد فى آخر سويقة أمير الجيوش بالقاهرة جامع أنشأه الفقير المعتقد محمد الغمرى ، وأقيمت به الجمعة فى يوم الجمعة رابع ذى الحجة سنة ثلاث وأربعين وثمانمائة قبل أن يكمل . وتجدد فى زاوية الشيخ أبى العباس البصير ، التى عند قنطرة الخرق ، خطبة . وتجدد فى حدود الكماجيين ، من أراضى اللوق ، خطبة بزاوية مطلة على غيط العدة .

وتجدد بالصحراء خطبة فى تربة الأمير مشيين الدولة كافور الزمام ، وتوفى فى خامس عشر ربيع الآخر سنة ثلاثين وثمانمائة . وتجدد بخط الكافورى خطبة ... أحدثها بنو وفاء فى جامع لطيف جدا . وتجدد بمدرسة ابن البقرى ، من القاهرة أيضا ، خطبة فى أيام المؤيد شيخ .

وتجدد بحارة الديلم خطبة فى مدرسة أنشأها الطواشى مشير الدولة المذكور . وتجدد عند قنطرة قدادار خطبة أنشأها شاكر البناء . وخطبة بالقرب منها فى جامع أنشأه الحاج ابراهيم البردادار الشهير بالحمصانى ، أحد الفقراء الأحمدية السطوحية ، فى حدود الثلاثين والثمانمائة .

ذكر مذاهب أهل مصر ونحلهم منذ افتتح عمرو ابن العاص رضى الله عنه أرض مصر الى أن صاروا الى اعتقاد مذاهب الائمة رحمهم الله تعالى وما كان من الأحداث فى ذلك

اعلم أن الله عز وجل لما بعث نبينا محمدا ، صلى الله عليه وسلم ، رسولا الى كافة الناس جميعا — عربهم وعجمهم — وهم كلهم أهل شرك وعبادة لغير الله تعالى الا بقايا من أهل الكتاب . . كان من أمره ، صلى الله عليه وسلم ، مع قريش ما كان حتى هاجر من مكة الى المدينة . فكانت الصحابة رضوان الله عليهم حوله ، صلى الله عليه وسلم ، يجتمعون اليه فى كل وقت مع ما كانوا فيه من ضنك المعيشة وقلة القوت .

فمنهم من كان يحترف في الأسواق ، ومنهم من كان يقوم على نخله ، ويحضر رسول الله صلى الله عليه وسلم في كل وقت ، ومنهم طائفة عندما تجد أدنى فراغ مما هم بسبيله من طلب القوت .

فاذا سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مسألة ، أو حكم بحكم ، أو أمر بشيء ، أو فعل شيئا ... وعاه من حضر عنده من الصحابة ، وفات من غاب عنه علم ذلك . ألا ترى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قد خفى عليه * ما عمله حمل بن مالك بن النابغة — رجل من الأعراب من هذيل — فى دية الجنين ، وخفى عليه ؟

وكان يفتى فى زمن النبى ، صلى الله عليه وسلم ، من الصحابة : أبو بكر وعمر وعثمان وعلى وعبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن مسعود وأبى بن كعب ومعاذ بن جبل وعمار ابن ياسر وحذيفة بن اليمان وزيد بن ثابت وأبو الدرداء وأبو موسى الأشعرى وسلمان الفارسى ، رضى الله عنهم .

فلما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واستخلف أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، تفرقت الصحابة رضى الله عنهم : فمنهم من خرج لقتال مسيلمة وأهل الردة ، ومنهم من خرج لقتال أهل الشام ، ومنهم من خرج لقتال أهل العراق ... وبقى من الصحابة بالمدينة مع أبى بكر رضى الله عنه عدة .

فكانت القضية اذا نزلت بأبى بكر رضى الله عنه ، قضى فيها بماعنده من العلم بكتاب الله أو سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فان لم يكن عنده فيها علم من كتاب الله ، ولا من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سأل من بحضرته من الصحابة رضى الله عنهم عن ذلك ، فان وجد عندهم علما من ذلك رجع اليه والا اجتهد فى الحكم .

ولما مات أبو بكر ، وولى أمر الأمة من بعده عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فتحت الأمصار وزاد تفرق الصحابة ، رضى الله عنهم ، فيما افتتحوه من الأقطار . فكانت الحكومة تنزل بالمدينة أو غيرها من البلاد ، فان كان عند الصحابة الحاضرين لها فى ذلك أثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حكم به ، والا اجتهد أمير تلك البلدة فى ذلك . وقد يكون فى تلك القضية حكم عن النبى ، صلى الله عليه وسلم ، موجود عند صاحب آخر .

وقد حضر المدنى ما لم يحضر المصرى ، وحضر المصرى ما لم يحضر الشامى ، وحضر الشامى ما لم يحضر البصرى ، وحضر البصرى ما لم يحضر الكوفى ، وحضر الكوفى ما لم يحضر المدنى ... كل هذا موجود فى الآثار ، وفيما علم من مغيب بعض الصحابة عن مجلس النبى صلى الله عليه وسلم فى بعض الأوقات وحضور غيره ، ثم مغيب الذى حضر أمس وحضور الذى غاب ، فيدرى كل واحد منهم ما حضر ، ويفوته ما غاب عنه . فمضى الصحابة رضى الله عنهم على ما ذكرنا ، ثم خلف بعدهم التابعون الآخذون عنهم .

وكل طبقة من التابعين فى البلاد التى تقدم ذكرها ، فانما تفقهوا مع من كان عندهم من

(*) ص٣٣١ جـ٢ ، ط. بولاق .

الصحابة ، فكانوا لا يتعدون فتاويهم الا اليسير مما بلغهم عن غير من كان فى بلادهم من الصحابة رضى الله عنهم : كاتباع أهل المدينة فى الأكثر فتاوى عبد الله بن عمر رضى الله عنهما ، واتباع أهل الكوفة فى الأكثر فتاوى عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، واتباع أهل مكة فى الأكثر فتاوى عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ، واتباع أهل مصر فى الأكثر فتاوى عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما .

ثم أتى من بعد التابعين رضى الله عنهم فقهاء الأمصار — كأبى حنيفة ، وسفيان ، وابن أبى ليلى بالكوفة ، وابن جريج بمكة ، ومالك وابن الماجشون بالمدينة ، وعثمان البتى وسوار بالبصرة ، والأوزاعى بالشام ، والليث بن سعد بمصر — فجروا على تلك الطريق من أخذ كل واحد منهم عن التابعين من أهل بلده فيما كان عندهم ، واجتهادهم فيما لم يجدوا عندهم وهو موجود عند غيرهم .

وأما مذاهب أهل مصر ، فقال أبو سعيد بن يونس : ان عبيد بن مخمر المغافرى — يكنى أبا أمية : رجل من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، شهد فتح مصر ، روى عنه أبو قبيل — يقال انه كان أول من أقرأ القرآن بمصر .

وذكر أبو عمرو الكندى ، أن أبا ميسرة عبد الرحمن بن ميسرة ، مولى الملامس الحضرمى ، كان فقيها عفيفا شريفا ، ولد سنة عشر ومائة ، وكان أول الناس اقرا بمصر بحرف نافع قبل الخمسين ومائة ، وتوفى سنة ثمان وثمانين ومائة .

وذكر عن أبى قبيل وغيره أن يزيد بن أبى حبيب أول من نشر العلم بمصر فى الحلال والحرام — وفى رواية ابن يونس : ومسائل الفقه — وكانوا قبل ذلك انما يتحدثون فى الفتن والترغيب

وعن عون بن سليمان الحضرمى ، قال : كان عمر بن عبد العزيز قد جعل الفتيا بمصر الى ثلاثة رجال : رجلان من الموالى ، ورجل من العرب . فأما العربى فجعفر بن ربيعة ، وأما الموليان فيزيد بن أبى حبيب وعبد الله بن أبى جعفر . فكأن العرب أنكروا ذلك ، فقال عمر بن عبد العزيز : ما ذنبى ان كانت الموالى تسمو بأنفسها صعدا وأنتم لا تسمون .

وعن ابن أبى قديد : كانت البيعة اذا جاءت للخليفه ، أول من بايع عبد الله بن أبى جعفر ، ويزيد بن أبى حبيب ، ثم الناس بعد .

وقال أبو سعيد بن يونس فى « تاريخ مصر » عن حيوة بن شريح ، قال : دخلت على حسين بن شفى بن مانع الأصبحى وهو يقول : فعل الله بفلان ، فقلت : ماله ؟ فقال : عمد الى كتابين كان شفى سمعهما من عبد الله ابن عمرو بن العاص رضى الله عنهما : أحدهما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كذا ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كذا ، والآخر مايكون من الأحداث الى يوم القيامة ، فأخذهما فرمى بهما بين الخولة والرباب . قال أبو سعيد بن يونس : يعنى بقوله «الخولة والرباب» * مركبين كبيرين من سفن الجسر ، كانا يكونان عند رأس الجسر ، فما يلى

(*) ص٣٣٢ جـ٢ ط. بولاق .

الفسطاط ، يجوز من تحتها — لكبرهما — المراكب .

وذكر أبو عمرو الكندى أن أبا سعيد عثمان بن عتيق ، مولى غافق ، أول من رحل من أهل مصر الى العراق فى طلب الحديث ، توفى سنة أربع وثمانين ومائة . انتهى .

وكان حال أهل الاسلام من أهل مصر وغيرها من الأمصار ، فى أحكام الشريعة ، على ما تقدم ذكره . ثم كثر الترحل الى الآفاق وتداخل الناس والتقوا ، وانتدب أقوام لجمع الحديث النبوى وتقييده .

فكان أول من دون العلم محمد ابن شهاب الزهرى ، وكان أول من صنف وبوب سعيد ابن عروبة والربيع بن صبيح بالبصرة ، ومعمر ابن راشد باليمن ، وابن جريج بمكة ، ثم سفيان الثورى بالكوفة ، وحماد بن سلمة بالبصرة ، والوليد بن مسلم بالشام ، وجرير ابن عبد الحميد بالرى ، وعبد الله بن المبارك بمرو وخراسان ، وهشيم بن بشير بواسط . وتفرد بالكوفة أبو بكر بن أبى شيبة بتكثير الأبواب ، وجودة التصنيف ، وحسن التأليف .

فوصلت أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم من البلاد البعيدة الى من لم تكن عنده ، وقامت الحجة على من بلغه شيء منها ، وجمعت الأحاديث المبينة لصحة أحد التأويلات المتأولة من الأحاديث ، وعرف الصحيح من السقيم ، وزيف الاجتهاد المؤدى الى خلاف كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم والى ترك عمله ، وسقط العذر عمن خالف ما بلغه من السنن ببلوغه اليه وقيام الحجة عليه .

وعلى هذا الطريق كان الصحابة رضى الله عنهم ، وكثير من التابعين ، يرحلون فى طلب الحديث الواحد الأيام الكثيرة ... يعرف ذلك من نظر فى كتب الحديث ، وعرف سير الصحابة والتابعين .

فلما قام هارون الرشيد فى الخلافة ، وولى القضاء أبا يوسف يعقوب بن ابراهيم — أحد أصحاب أبى حنيفة رحمه الله تعالى — بعد سنة سبعين ومائة . فلم يقلد ببلاد العراق وخراسان والشام ومصر الا من أشار به القاضى أبو يوسف ، رحمه الله ، واعتنى به .

وكذلك لما قام بالأندلس الحكم المرتضى بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم ، بعد أبيه ، وتلقب بالمنتصر فى سنة ثمانين ومائة ، اختص بيحيى بن يحيى بن كثير الأندلسى — وكان حج وسمع الموطأ من مالك الا أبوابا ، وحمل عن ابن وهب وعن ابن القاسم وغيره علما كثيرا ، وعاد الى الأندلس ، فنال من الرياسة والحرمة ما لم ينله غيره ، وعادت الفتيا اليه ، وانتهى السلطان والعامة الى بابه — فلم يقلد ، فى سائر أعمال الأندلس ، قاض الا باشارته واعتنائه . فصاروا على رأى مالك ، بعدما كانوا على رأى الأوزاعى .

وقد كان مذهب الامام مالك أدخله الى الأندلس زياد بن عبد الرحمن — الذى يقال له بسطور — قبل يحيى بن يحيى ، وهو أول من أدخل مذهب مالك الأندلس . وكانت أفريقية الغالب عليها السنن والآثار ... الى أن قدم عبد الله بن فروج ، أبو محمد الفارسى ،

بمذهب أبى حنيفة ، ثم غلب أسد بن الفرات ابن سـنان ، قاضى أفريقيـة ، بمذهب أبى حنيفة .

ثم لما ولى سحنون بن سعيد التنوخى قضاء أفريقية بعـد ذلك ، نشر فيهم مذهب مالك ، وصار القضاء فى أصـحاب سـحنون دولا يتصاولون على الدنيا تصاول الفحـول على الشول . الى أن تولى القضاء بها بنو هاشم — وكانوا مالكية — فتوارثوا القضاء كمـا تتوارث الضي[illegible] ثم ان [illegible] بن باديس حمل جميع أهل افريقية على التمسك بمذهب مالك وترك ماعداه من المذاهب ، فرجع أهل أفريقية وأهـل الأندلس كلهم الى مذهب مالك الى اليوم ، رغبة فيما عند السلطان وحرصا على طلب الدنيا ، اذ كان القضاء والافتاء فى جميع تلك المدن وسـائر القرى ، لا يكون الا لمن تسمى بالفقه على مذهب مالك ، فاضـطرت العامة الى أحكامهم وفتاواهم ، ففشـا هذا هناك فشوا طبق تلك الأقطار .

كما فشا مذهب أبى حنيفة ببلاد المشرق . حيث أن أبا حامد الأسفرايني ، لما تمكن من الدولة فى أيام الخليفة القادر بالله أبى العباس أحمد ، قرر معه استخلاف أبى العباس أحمد ابن محمد البارزى الشافعى ، عن أبى محمد ابن الأكفانى الحنفى قاضى بغـداد ، فأجيب اليه بغير رضا الأكفانى .

وكتب أبو حامد الى السلطان محمـود بن سبكتكين وأهل خراسان أن الخليفـة نقـل القضاة عن الحنفية الى الشافعية . فاشتهر ذلك بخراسان ، وصار أهل بغداد حزبين .

وقدم بعد ذلك أبو العلاء صاعد بن محمد ، قاضى نيسابور ورئيس الحنفيـة بخراسان ، فأتاه الحنفية ، فثارت بينهم وبين أصـحاب أبى حامد فتنة ارتفع أمرها الى السلطان .

فجمع الخليفة القائز الأشراف والقضـاة ، وأخرج اليهم رسالة تتضمن : أن الأسفرايني أدخل على أمير المؤمنين مداخل أوهمه فيها النصح والشفقة والأمانة ، وكانت على أصول الدخل والخيانة . فلما تبين له أمره ، ووضح عنده خبث اعتقاده ، فيما سأل فيـه من تقليد البارزى الحكم بالحضرة ، من الفساد والفتنة والعدول بأمير المؤمنين عما كان عليه أسلافه من ايثار الحنفية وتقليـدهم واستعمالهم ... صرف البارزى ، وأعاد الأمر الى حقه ، وأجراه على قديم * رسمه ، وحمل الحنفيين على ما كانوا عليه من العنـاية والكرامة والحـرمة والاعزاز ، وتقدم اليهم بألا يلقوا أبا حامد ، ولا يقضوا له حقا ، ولا يردوا عليه سلاما .

وخلع على أبى محمد الأكفانى ، وانقطع أبو حامد عن دار الخلافة ، وظهر التسخط عليـه والانحراف عنه ، وذلك فى سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة ، واتصل ببلاد الشام ومصر .

أول من قدم بعلم مالك الى مصر عبد الرحيم ابن خالد بن يزيد بن يحيى ، مولى جمح ، وكان فقيها ... روى عنه الليث وابن وهب ورشيد بن سعد ، وتوفى بالاسكندرية سنة ثلاث وسـتين ومائة . ثم نشره بمصر عبـد الرحمن بن القاسم ، فاشـتهر مذهب مالك بمصر ، أكثر من مذهب أبى حنيفة ، لتوفر

(*) ص٣٢٣ جـ٢ ، ط . بولاق (*)

أصحاب مالك بمصر . ولم يكن مذهب أبى حنيفة ، رحمه الله ، يعرف بمصر .

قال ابن يونس . وقدم اسماعيل بن اليسع الكوفى قاضيا بعد ابن لهيعة ، وكان من خير قضاتنــا ، غير انه كان يذهب الى قول أبى حنيفة ، ولم يكن أهل مصر يعرفون مذهب أبى حنيفة ، وكان مذهبه ابطال الأحبــاس ، فثقل أمره على أهل مصر ، وسئموه .

ولم يزل مذهب مالك مشتهرا بمصر حتى قدم الشافعى محمد بن ادريس الى مصر ، مع عبد الله بن العبــاس بن موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس ، فى سنة ثمان وتسعين ومائة . فصحبه من أهل مصر جماعة من أعيانها — كبنى عبد الحكم ، والربيع بن سليمان ، وأبى ابراهيم اسماعيل بن يحيى المزنى ، وأبى يعقــوب يوسف بن يحيى البويطى — وكتبــوا عن الشافعى ما ألفه ، وعملوا بما ذهب اليه . ولم يزل أمر مذهبه يقوى بمصر ، وذكره ينتشر .

قال أبو عمرو الكندى فى كتاب « أمراء مصر » : ولم يزل أهــل مصر عــلى الجهر بالبسملة فى الجامع العتيــق الى ســنة ثلاث وخمسين ومائتين .. قال : ومنع أرجون ، صاحب شرطة مزاحم ابن خاقان أمير مصر ، من الجهر بالبســملة فى الصلوات بالمســجد الجامع ، وأمر الحسين ابن الربيع امام المسجد الجامع بتركها ، وذلك فى رجب ســنة ثلاث وستين ومائتين ولم يزل أهل مصر عــلى الجهر بها فى المسجد الجامع منذ الاســلام الى أن منع منها أرجون .

قال : وأمر أن تصلى التراويح فى شــهر رمضان خمس تراويح ، ولم يزل أهل مصر يصلون ســت تراويح ، حتى جعلها أرجــون خمسا فى شهر رمضان ســنة ثلاث وخمسين ومائتين ، ومنع من التثويب ، وأمر بالأذان يوم الجمعة فى مؤخر المسجد ، وأمر بالتغليس بصلاة الصبح ، وذلك أنهم أسفروا بها .

وما زال مذهب مالك ومذهب الشافعى ، رحمهمــا الله تعالى ، بعمل بهما أهل مصر ، ويولى القضاء من كان يذهب اليهما أو الى مذهب أبى حنيفة رحمــه الله الى أن قدم القائد جوهر من بلاد أفريقية ، فى سنة ثمان وخمسين وثلثمائة ، بجيوش مولاه المعز لدين الله أبى تميم معد ، وبنى مدينة القاهرة فمن حينئذ فشا بديار مصر مذهب الشيعة ، وعمل به فى القضاء والفتيا ، وأنكر ما خالفه ، ولم يبق مذهب سواه .

وقد كان التشيع بأرض مصر معروفا قبــل ذلك . . قال أبو عمرو الكندى فى « كتاب الموالى » عن عبد الله بن لهيعة أنه قال : قال يزيد بن أبى حبيب . نشأت بمصر وهى علوية ، فقلبتها عثمانية

وكان ابتداء التشيع فى الاسلام أن رجلا من اليهود ، فى خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه ، أسلم فقيل له عبد الله ابن سبأ ، وعرف بابن السوداء ، وصار يتنقل من الحجاز الى أمصار المسلمين يريد اضلالهم فلم يطق ذلك .

فرجع الى كيــد الاســلام وأهله ، ونزل البصرة فى سنة ثلاث وثلاثين ، فجعل يطرح على أهلها مسائل ولا يصرح . فأقبــل عليــه

جماعة ، ومالوا اليه ، وأعجبوا بقوله . فبلغ ذلك عبد الله بن عامر — وهو يومئـذ على البصرة — فأرسل اليه ، فلما حضر عنـده سأله : ما أنت ؟

فقال : رجل من أهل الكتاب ، رغبت فى الاسلام وفى جوارك .

فقال : ما شيء بلغنى عنك ؟ أخرج عنى .

فخرج حتى نزل الكوفة ، فأخرج منها ، فسار الى مصر واستقر بها ، وقال : فى الناس العجب ممن يصدق أن عيسى يرجع ، ويكذب أن محمدا يرجع .

وتحدث فى الرجعة حتى قبلت منه . فقال بعد ذلك : انه كان لكل نبى وصى ، وعلى بن أبى طالب وصى محمد صلى الله عليه وسلم ، فمن أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أن على بن أبى طالب وصيه فى الخلافة على أمته . واعلموا أن عثمان أخذ الخلافة بغير حق ، فانهضوا فى هذا الأمر ، وابدأوا بالطعن على أمرائكم ، فأظهروا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر تستميلوا به الناس .

وبث دعاته ، وكاتب من مال اليه من أهل الأمصار وكاتبوه ، ودعوا فى السر الى ما عليه رأيهم ، وصاروا يكتبون الى الأمصار كتبا يضعونها فى عيب ولاتهم ، فيكتب أهل كل مصر منهم الى أهل المصر الآخر بما يضعون حتى ملأوا بذلك الأرض اذاعة .

وجاء الى أهل المدينة من جميع الأمصار . فأتوا عثمان رضى الله عنـه فى سنة خمس وثلاثين ، وأعلموه ما أرسل به أهل الأمصار من شكوى عمالهم . فبعث محمد بن مسلمة الى الكوفة ، وأسامة بن زيد الى البصرة ، وعمار بن ياسر الى مصر ، وعبد الله بن عمر الى الشام ... لكشف سير العمال . فرجعوا الى عثمان ، الا عمارا ، وقالوا : ما أنكرنا شيئا * .

وتأخر عمار ، فورد الخبر الى المدينة بأنه قد استماله عبد الله ابن السوداء فى جماعة . فأمر عثمان عماله أن يوافوه بالمواسم ، فقدموا عليه واستشاروه ، فكل أشار برأى . ثم قدم المدينة بعد الموسم ، فكان بينه وبين على بن أبى طالب كلام فيه بعض الجفاء بسبب اعطائه أقاربه ، ورفعه لهم على من سواهم .

وكان المنحرفون عن عثمان قد تواعدوا يوما يخرجون فيه بأمصارهم اذا سار عنها الأمراء ، فلم يتهيأ لهم الوثوب . وعندما رجع الأمراء من الموسم ، تكاتب المخالفون فى القدوم الى المدينة لينظروا فيما يريدون .

وكان أمير مصر من قبـل عثمان رضى الله عنه عبد الله بن سعد بن أبى سرح العامرى . فلما خرج فى شهر رجب من مصر فى سنة خمس وثلاثين ، استخلف بعده عقبة بن عامر الجهنى ... فى قول الليث بن سعـد . وقال يزيد بن أبى حبيب : بل استخلف على مصر السائب بن هشـام العامرى ، وجعـل على الخراج سليم بن عنز التجيبى .

فانتزى محمد بن أبى حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف ، فى شوال من السنة المذكورة ، وأخرج عقبة بن عامر من

(*) ص ٣٣٤ جـ ٢ ، ط بولاق .

الفسطاط ، ودعا الى خلع عثمان رضى الله عنه ، وأسعر البلاد ، وحرض على عثمان بكل شيء يقدر عليه .

فكان يكتب الكتاب على لسان أزواج رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، ويأخذ الرواحل فيضمرها ، ويجعل رجالا على ظهور البيوت ووجوههم الى وجه الشمس لتلوح وجوههم تلويح المسافر ، ثم يأمرهم أن يخرجوا الى طريق المدينة بمصر ، ثم يرسلون رسلا يخبرون بهم الناس ليلقوهم . وقد أمرهم اذا لقيهم الناس أن يقولوا : ليس عندنا خبر ، الخبر فى الكتب .

فيجيء رسول أولئك الذين دس فيذكر مكانهم ، فيتلقاهم ابن أبى حذيفة — والناس يقولون تتلقى رسل أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم — فاذا لقوهم قالوا لهم : ما الخبر ؟ قالوا : لا خبر عدنا ، عليكم بالمسجد ليقرأ عليكم كتاب أزواج النبى صلى الله عليه وسلم .

فيجتمع الناس فى المسجد اجتماعا ليس فيه تقصير ، ثم يقوم القارىء بالكتاب فيقول : انا نشكو الى الله واليكم ما عمل فى الاسلام ، وما صنع فى الاسلام . فيقوم أولئك الشيوخ من نواحى المسجد بالبكاء فيبكون ، ثم ينزل عن المنبر ، ويتفرق الناس بما قرىء عليهم .

فلما رأت ذلك شيعة عثمان رضى الله عنه ، اعتزلوا محمد بن أبى حذيفة ، ونابذوه — وهم . معاوية بن خديج ، وخارجة بن حذافة ، وبسر بن أرطاة ، ومسلمة بن مخلد ، وعمرو بن قحزم الخولانى ، ومقسم بن بجرة ، وحمزة بن سرح بن كلال ، وأبو الكنود سعد ابن مالك الأزدى ، وخالد بن ثابت الفهمى — فى جمع كثير ، وبعثوا سلمة بن مخرمة التجيبى الى عثمان ليخبره بأمرهم ، وبصنيع ابن أبى حذيفة .

فبعث عثمان ، رضى الله عنه ، سعد بن أبى وقاص ليصلح أمرهم . فبلغ ذلك ابن أبى حذيفة ، فخطب الناس وقال : ألا ان الكذا والكذا قد بعث اليكم سعد بن مالك ليفل جماعتكم ، ويشتت كلمتكم ، ويوقع التجادل بينكم ... فانفروا اليه .

فخرج منهم مائة أو نحوها ، وقد ضرب فسطاطه وهو قائل ، فقلبوا عليه فسطاطه ، وشجوه وسبوه . فركب راحلته ، وعاد راجعا من حيث جاء ، وقال : ضربكم الله بالذل والفرقة ، وشتت أمركم ، وجعل بأسكم بينكم ، ولا أرضاكم بأمير ، ولا أرضاه عنكم .

وأقبل عبد الله بن سعد حتى بلغ جسر القلزم . فاذا بخيل لابن أبى حذيفة ، فمنعوه أن يدخل ، فقال . ويلكم دعونى أدخل على جندى فأعلمهم بما جئت به ، فانى قد جئتهم بخير فأبوا أن يدعو فقال : والله لوددت أنى دخلت عليهم ، وأعلمهم بما جئت به ، ثم مت . فانصرف الى عسقلان .

وأجمع محمد بن أبى حذيفة على بعث جيش الى أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، رضى الله عنه ، فقال : من يتشرط فى هذا البعث . فكثر عليه من يتشرط ، فقال : انما يكفينا منكم ستمائة رجل .

فتشرط من أهل مصر ستمائة رجل على كل مائة منهم رئيس ، وعلى جماعتهم عبد الرحمن ابن عديس البلوى ، وهم : كنانة بن بشر بن سليمان التجيبى ، وعروة بن سليم الليثى ، وأبو عمـرو بن بديل بن ورقاء الخزاعى ، وسودان بن ريان الأصبحى ، وذرع بن يشكر النافعى .

وسجن رجال من أهل مصر فى دورهم ، منهم بسر بن أرطاة ومعاوية بن خديج . فبعث ابن أبى حذيفة الى معاوية بن خديج — وهو أرمد — ليكرهه على البيعة . فلما بلغ ذلك كنانة بن بشر — وكان رأس الشيعة الأولى — دفع عن معاوية ما كره .

ثم قتل عثمان رضى الله عنه فى ذى الحجة سنة خمس وثلاثين ، فدخل الركب الى مصر وهم يرتجزون :

خذها اليك واحذرن أبا الحسن

انا نمر الحرب امرار الوسن

بالسيف كى تخمد نيران الفتن

فلما دخلوا المسجد صاحوا : انا لسـنا قتلة عثمان ، ولكن الله قتله .

فلما رأى ذلك شيعة عثمان ، قاموا وعقدوا لمعاوية بن خديج عليهم ، وبايعوه على الطلب بدم عثمان . فسار بهم معاوية الى الصعيد ، فبعث اليهم ابن أبى حذيفة ، فالتقوا بدقناس من كورة البهنسا ، فهزم أصـحاب ابن أبى حذيفة ، ومضى معاوية حتى بلغ برقة ، ثم رجع الى * الاسـكندرية . فبعث ابن أبى حذيفة بجيش آخر عليهم قيس بن حرمل ، فاقتتلوا بخربتا أول شهر رمضان سنة ست وثلاثين ، فقتل قيس .

(*) ص ٣٣٥ جـ ٢ ، ط بولاق .

وسار معـاوية بن أبى سفيـان الى مصر ، فنزل سلمنت من كورة عين شمس فى شوال . فخرج اليه ابن أبى حذيفـة فى أهل مصر ، فمنعوه أن يدخلها . فبعث اليه معاوية : انا لا نريد قتال أحد ، انما جئنا نسأل القـود لعثمان ، ادفعوا الينا قاتليه عبـد الرحمن بن عديس وكنانة بن بشر ، وهما رأس القوم .

فامتنع ابن أبى حذيفة وقال : لو طلبت منا جديا أرطب السرة بعثمان ما دفعناه اليك !

فقال معاوية بن أبى سفيان لابن أبى حذيفة : اجعل بيننا وبينكم رهنا ، فلا يكون بيننـا وبينكم حرب .

فقال ابن أبى حذيفة : فانى أرضى بذلك .

فاستخلف ابن أبى حذيفة على مصر الحكم ابن الصلت بن مخرمة ، وخرج فىء الرهن هو وابن عيسى وكنانة بن بشر وأبو شمر بن أبرهة وغيرهم من قتلة عثمان . فلما بلغوا لد سجنهم بها معاوية ، وسـار الى دمشق . فهربوا من السجن ، غير أبى شمر بن أبرهة فانه قال : لا أدخله أسيرا وأخرج منـه آبقا ، وتبعهم صاحب فلسطين فقتلهم .

واتبـع عبـد الرحمن بن عديس رجل من الفرس ، فقال له عبد الرحمن بن عديس : اتق الله فى دمى ، فانى بايعت النبى صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة .

فقال له : الشجر فى الصحراء كثير . فقتله .

وقال محمد بن أبي حذيفة في الليلة التي قتل في صباحها عثمان فان يكن القصاص لعثمان فسنقتل من الغد . فقتل من الغد .

وكان قتل ابن أبي حذيفة ، عبد الرحمن ابن عديس ، وكنانة بن بشر ، ومن كان معهم من الرهن ، في ذي الحجة سنة ست وثلاثين .

فلما بلغ علي بن أبي طالب رضي الله عنه مصاب ابن أبي حذيفة ، بعث قيس بن سعد ابن عبادة الأنصاري على مصر ، وجمع له الخراج والصلاة فدخلها مستهل شهر ربيع الأول سنة سبع وثلاثين ، واستمال الخارجية بخربتا ، ودفع اليهم أعطياتهم ، ووفد عليه وفدهم فأكرمهم وأحسن اليهم ومصر يومئذ من جيش علي رضي الله عنه الا أهل خربتا الخارجين بها .

فلما ولي علي رضي الله عنه قيس بن سعد — وكان من ذوي الرأي — جهد معاوية ابن أبي سفيان وعمرو بن العاص ، على أن يخرجاه من مصر ليغلبا على أمرها ، فامتنع عليهما بالدهاء والمكايدة ، فلم يقدرا على أن يلجا مصر حتى كاد معاوية قيسا من قبل علي رضي الله عنه .

فكان معاوية يحدث رجالا من ذوي رأي قريش فيقول . ما ابتدعت من مكايدة قط أعجب الي من مكايدة كدت بها قيس بن سعد حين امتنع مني ... قلت لأهل الشام : لا تسبوا قيسا ولا تدعوا الى غزوه ، فان قيسا لنا شيعة تأتينا كتبه ونصيحته سرا ألا ترون ماذا يفعل باخوانكم النازلين عنده بخربتا ؟ يجري عليهم أعطياتهم وأرزاقهم ، ويؤمن سربهم ، ويحسن الى كل راكب يأتيه منهم .

قال معاوية . وطفقت أكتب بذلك الى شيعتي من أهل العراق فسمع بذلك جواسيس علي بالعراق ، فأنهاه اليه محمد بن أبي بكر وعبد الله بن جعفر فاتهم قيسا ، فكتب اليه يأمره بقتال أهل خربتا ، وبخربتا يومئذ عشرة آلاف

فأبى قيس أن يقاتلهم ، وكتب الى علي رضي الله عنه : « انهم وجوه أهل مصر وأشرافهم ، وأهل الحفاظ منهم ، وقد رضوا مني أن أؤمن سربهم ، وأجري عليهم أعطياتهم وأرزاقهم وقد علمت أن هواهم مع معاوية ، فلست بكائدهم بأمر أهون علي وعليك من الذي أفعل بهم وهم أسود العرب منهم : بسر بن أرطاة ، وسلمة بن مخلد ، ومعاوية ابن خديج » .

فأبى عليه الا قتالهم . فأبى قيس أن يقاتلهم ، وكتب الى علي رضي الله عنه : « ان كنت تتهمني فاعزلني وابعث غيري » .

وكتب معاوية رضي الله عنه الى بعض بني أمية بالمدينة : « أن جزى الله قيس بن سعد خيرا ، فانه قد كف عن اخواننا من أهل مصر الذين قاتلوا في دم عثمان ، واكتموا ذلك فاني أخاف أن يعزله علي ان بلغه ما بينه وبين شيعتنا » .

حتى بلغ عليا رضي الله عنه ذلك ، فقال من معه من رؤساء أهل العراق وأهل المدينة : بدل قيس وتحول .

فقال علي : ويحكم انه لم يفعل فدعوني .

قالوا : لتعزلنه فانه قد بدل .

فلم يزالوا به حتى كتب اليه : « اني قد احتجت الى قربك ، فاستخلف على عملك وأقدم » .

فلما قرأ الكتاب قال : هذا من مكر معاوية ولولا الكذب لمكرت به مكرا يدخل عليه بيته .

فوليها قيس بن سعد الى أن عزل عنها أربعة أشهر وخمسة أيام ، وصرف لخمس خلون من رجب سنة سبع وثلاثين . ثم وليها الأشتر مالك بن الحارث بن عبد يغوث النخعي من قبل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه . وذلك أن عبد الله بن جعفر كان اذا أراد ألا يمنعه علي شيئا قال له بحق جعفر ، فقال له : أسألك بحق جعفر الا بعثت الأشتر الى مصر ، فان ظهرت فهو الذي تحب ، والا استرحت منه .

ويقال كان الأشتر قد ثقل على علي رضي الله عنه وأبغضه وقلاه ، فولاه وبعثه . فلما قدم قلزم مصر ، لقي بما يلقى العمال به هناك ، فشرب شربة عسل فمات . فلما أخبر علي بذلك قال : لليدين وللفم . وسمع عمرو ابن العاص بموت الأشتر فقال : ان لله جنودا من عسل ، أو قال : ان لله جنودا من العسل .

ثم وليها محمد بن أبي بكر * الصديق من قبل علي رضي الله عنهم ، وجمع له صلاتها وخراجها . فدخلها للنصف من شهر رمضان سنة سبع وثلاثين ، فلقيه قيس بن سعد فقال له : « انه لا يمنعني نصحي لك عزله اياي ، ولقد عزلني عن غير وهن ولا عجز ، فاحفظ ما أوصيك به يدم صلاح حالك : دع معاوية ابن خديج ومسلمة بن مخلد وبسر بن أرطاة ومن ضوى اليهم على ما هم عليه ، لا تكفهم عن رأيهم ، فان أتوك ولم يفعلوا فاقبلهم ، وان تخلفوا عنك فلا تطلبهم ...

« وانظر هذا الحي من مضر فأنت أولى بهم مني : فألن لهم جناحك ، وقرب عليهم مكانك ، وارفع عنهم حجابك . وانظر هذا الحي من مدلج ، فدعهم وما غلبوا عليه يكفوا عنك شأنهم ، وأنزل الناس من بعد على قدر منازلهم ، فان استطعت أن تعود المرضى ، وتشهد الجنائز ، فافعل فان هذا لا ينقصك ، ولن تفعل ، انك والله ما علمت لتظهر الخيلاء وتحب الرياسة ، وتسارع الى ما هو ساقط عنك . والله موفقك » .

فعمل محمد بخلاف ما أوصاه به قيس ، فبعث الى ابن خديج والخارجة معه يدعوهم الى بيعته فلم يجيبوه ، فبعث الى دور الخارجة فهدمها ، ونهب أموالهم ، وسجن ذراريهم ، فنصبوا له الحرب ، وهموا بالنهوض اليه . فلما علم أنه لا قوة له بهم أمسك عنهم ، ثم صالحهم على أن يسيرهم الى معاوية ، وأن ينصب لهم جسر أنتقيوس يجوزون عليه ، ولا يدخلون الفسطاط . ففعلوا ولحقوا بمعاوية .

فلما أجمع علي رضي الله عنه ومعاوية على الحكمين ، أغفل علي أن يشترط على معاوية ألا يقاتل أهل مصر . فلما انصرف علي الى العراق ، بعث معاوية رضي الله عنه عمرو بن العاص رضي الله عنه في جيوش أهل الشام

(*) ص٣٣٦ ج٢ ، ط. بولاق .

الى مصر . فاقتتلوا قتالا شديدا انهزم فيه أهل مصر ، ودخل عمرو بأهل الشام الفسطاط .

وتغيب محمد بن أبى بكر ، فأقبل معاوية ابن خديج فى رهط ممن يعينه على من كان يمشى فى قتل عثمان ، وطلب ابن أبى بكر ، فدلتهم عليه امرأة ، فقال : احفظونى فى أبى بكر .

فقال معاوية بن خديج : قتلت ثمانين رجلا من قومى فى عثمان ، وأتركك وأنت صاحبه . فقتله ثم جعله فى جيفة حمار ميت فأحرقه بالنار .

فكانت ولاية محمد بن أبى بكر خمسة أشهر ، ومقتله لأربع عشرة خلت من صفر سنة ثمان وثلاثين .

ثم ولى عمرو بن العاص مصر من بعده ، فاستقبل بولايته هذه الثانية شهر ربيع الأول ، وجعل اليه الصلاة والخراج — كانت مصر قد جعلها معاوية له طعمة بعد عطاء جندها والنفقة على مصلحتها — ثم خرج الى الحكومة ، واستخلف على مصر ابنه عبد الله ابن عمرو ، وقتل خارجة بن حذافة ، ورجع عمرو الى مصر فأقام بها .

وتعاقد بنو ملجم — عبد الرحمن وقيس ويزيد — على قتل على رضى الله عنه وعمرو ومعاوية رضى الله عنهما ، وتواعدوا على ليلة من رمضان سنة أربعين ، فمضى كل منهم الى صاحبه .

فلما قتل على بن أبى طالب رضى الله عنه ، واستقر الأمر لمعاوية ، كانت مصر — جندها وأهل شوكتها — عثمانية ، وكثير من أهلها علوية .

فلما مات معاوية ومات ابنه يزيد بن معاوية ، كان على مصر سعيد بن يزيد الأزدى على صلاتها . فلم يزل أهل مصر على الشنآن له ، والاعراض عنه والتكبر عليه ، منذ ولاه يزيد بن معاوية ، حتى مات يزيد فى سنة أربع وستين .

ودعا عبد الله بن الزبير الى نفسه . فقامت الخوارج بمصر فى أمره ، وأظهروا دعوته — وكانوا يحسبونه على مذهبهم — وأوفدوا منهم وفدا اليه ، فسار منهم نحو الألفين من مصر ، وسألوا أن يبعث اليهم بأمير يقومون معه ويوازرونه . وكان كريب بن أبرهة الصباح ، وغيره من أشراف مصر يقولون : ماذا نرى من العجب أن هذه الطائفة المكتتمة تأمر فينا وتنهى ، ونحن لا نستطيع أن نرد أمرهم . ولحق بابن الزبير ناس كثير من أهل مصر .

وكان أول من قدم مصر برأى الخوارج حجر بن الحارث بن قيس المذحجى — وقيل حجر بن عمرو — ويكنى بأبى الورد ، وشهد مع على صفين ، ثم صار من الخوارج ، وحضر مع الحرورية النهروان . فخرج وصار الى مصر برأى الخوارج ، أقام بها حتى خرج منها الى ابن الزبير فى امارة مسلمة بن مخلد الأنصارى على مصر .

فلما مات يزيد بن معاوية ، وبويع ابن الزبير بعده بالخلافة ، بعث الى مصر بعبد الرحمن بن جحدم الفهرى . فقدمها فى طائفة من الخوارج ، فوثبوا على سعيد بن يزيد ،

فاعتزلهم . واستمر ابن جحدم ، وكثرت الخوارج بمصر منها وممن قدم من مكة ، فأظهروا فى مصر التحكيم ، ودعوا اليه ، فاستعظم الجند ذلك . وبايعه الناس على غل فى قلوب ناس من شيعة بنى أمية : منهم كريب بن أبرهة ، ومقسم بن بجرة ، وزياد بن حناطة التجيبى ، وعابس بن سعيد وغيرهم . فصار أهل مصر حينئذ ثلاث طوائف : علوية ، وعثمانية ، وخوارج .

فلما بويع مروان بن الحكم بالشام فى ذى القعدة سنة أربع وستين ، كانت شيعته من أهل مصر مع ابن جحدم ، فكاتبوه سرا حتى أتى مصر فى أشراف كثيرة ، وبعث ابنه عبد العزيز بن مروان فى جيش الى أيلة ليدخل من هنالك مصر .

وأجمع ابن جحدم على حربه ومنعه ، فحفر الخندق فى شهر — وهو الخندق الذى بالقرافة — وبعث بمراكب فى البحر ليخالف الى عيالات أهل الشام ، وقطع بعثا فى البر ، وجهز جيشا آخر الى أيلة * لمنع عبد العزيز من المسير منها . فعرفت المراكب ، ونجا بعضها ، وانهزمت الجيوش . ونزل مروان عين شمس ، فخرج اليه ابن جحدم فى أهل مصر ، فتحاربوا واستحر القتل ، فقتل من الفريقين خلق كثير .

ثم ان كريب بن أبرهة وعابس بن سعيد وزياد بن حناطة وعبد الرحمن بن موهب المعافرى ، دخلوا فى الصلح بين أهل مصر وبين مروان فتم ، ودخل مروان الى الفسطاط لغرة جمادى الأولى سنة خمس وستين . فكانت ولاية ابن جحدم تسعة أشهر .

ووضع العطاء فبايعه الناس ، الا نفرا من المعافر قالوا : لا نخلع بيعة ابن الزبير . فقتل منهم ثمانين رجلا ... قدمهم رجلا رجلا فضرب أعناقهم وهم يقولون : انا قد بايعنا ابن الزبير طائعين ، فلم نكن لننكث بيعته . وضرب عنق الأكدر بن حسام بن عامر ، سيد لخم وشيخها ، وحضر هو وأبوه فتح مصر ، وكانا ممن ثار الى عثمان رضى الله عنه ، فتنادى الجند : قتل الأكدر . فلم يبق أحد حتى لبس سلاحه ، فحضر باب مروان منهم زيادة على ثلاثين ألفا .

وخشى مروان ، وأغلق بابه حتى أتاه كريب ابن أبرهة ، وألقى عليه رداءه ، وقال للجند : انصرفوا ، أنا له جار . فما عطف أحد منهم ، وانصرفوا الى منازلهم ، وكان للنصف من جمادى الآخرة . ويومئذ مات عبد الله بن عمرو ابن العاص ، فلم يستطع أحد أن يخرج بجنازته الى المقبرة لشغب الجند على مروان . ومن حينئذ غلبت العثمانية على مصر ، فتظاهروا فيها بسب على رضى الله عنه ، وانكفت ألسنة العلوية والخوارج .

فلما كانت ولاية قرة بن شريك العبسى على مصر ، من قبل الوليد بن عبد الملك فى سنة تسعين ، خرج الى الاسكندرية فى سنة احدى وتسعين . فتعاقدت السراة من الخوارج بالاسكندرية على الفتك به — وكانت عدتهم نحوا من مائة — فعقدوا لرئيسهم المهاجر بن أبى المثنى التجيبى ، أحد بنى فهم ، عليهم عند منارة الاسكندرية .

(*) ص ٣٣٧ جـ ٢ ، ط بولاق .

وبالقرب منهم رجل يكنى أبا سليمان ، فبلغ قرة ما عزموا عليه . فأتى لهم قبل أن يتفرقوا ، فأمر بحبسهم فى أصل منارة الاسكندرية ، وأحضر قرة وجوه الجند فسألهم فأقروا فقتلهم ، ومضى رجل ممن كان يرى رأيهم الى أبى سليمان فقتله . فكان يزيد بن أبى حبيب اذا أراد أن يتكلم بشىء فيه تقية من السلطان تلفت وقال : احذروا أبا سليمان . ثم قال الناس كلهم من ذلك اليوم : أبو سليمان .

فلما قام عبد الله بن يحيى — الملقب بطالب الحق — فى الحجاز على مروان بن محمد الجعدى ، قدم الى مصر داعيته ودعا الناس ، بايع له ناس من تجيب وغيرهم . فبلغ ذلك حسان بن عتاهية ، صاحب الشرطة ، فاستخرجهم ، فقتلهم حوثرة بن سهيل الباهلى أمير مصر من قبل مروان بن محمد .

فلما قتل مروان ، وانقضت أيام بنى أمية ببنى العباس فى سنة ثلاث وثلاثين ومائة ، خمدت جمرة أصحاب المذهب المروانى — وهم الذين كانوا يسبون على بن أبى طالب ويتبرأون منه — وصاروا منذ ظهر بنو العباس يخافون القتل ، ويخشون أن يطلع عليهم أحد . الا طائفة كانت بناحية الواحات وغيرها ، فانهم أقاموا على مذهب المروانية دهرا حتى فنوا ، ولم يبق لهم الآن بديار مصر وجود ألبتة .

فلما كان فى امارة حميد بن قحطبة على مصر ، من قبل أبى جعفر المنصور ، قدم الى مصر على بن محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن على بن أبى طالب داعية لأبيه وعمه ، فذكر ذلك لحميد فقال : هذا كذب . ودس اليه أن تغيب ، ثم بعث اليه من الغد فلم يجده ، فكتب بذلك الى أبى جعفر المنصور ، فعزل حميدا ، وسخط عليه فى ذى القعدة سنة أربع وأربعين ومائة .

وولى يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبى صفرة . فظهرت دعوة بنى حسن بن على بمصر ، وتكلم الناس بها ، وبايع كثير منهم لعلى بن محمد بن عبد الله — وهو أول علوى قدم مصر — وقام بأمر دعوته خالد بن سعيد ابن ربيعة بن حبيش الصدفى . وكان جده ربيعة بن حبيش من خاصة على بن أبى طالب وشيعته ، وحضر الدار فى قتل عثمان رضى الله عنه .

فاستشار خالد أصحابه الذين بايعوا له . فأشار عليه بعضهم أن يبيت يزيد بن حاتم فى العسكر — وكان الأمراء قد صاروا ، منذ قدمت عساكر بنى العباس ، ينزلون فى العسكر الذى بنى خارج الفسطاط من شماليه ... كما ذكر فى موضعه من هذا الكتاب — وأشار عليه آخرون أن يحوز بيت المال ، وأن يكون خروجهم فى الجامع . فكره خالد أن يبيت يزيد بن حاتم ، وخشى على اليمانية .

وخرج منهم رجل قد شهد أمرهم حتى أتى الى عبد الله بن عبد الرحمن بن معاوية بن خديج — وهو يومئذ على الفسطاط — فخبره أنهم الليلة يخرجون . فمضى عبد الله بن يزيد ابن حاتم وهو بالعسكر ، فكان من أمرهم ما كان لعشر من شوال سنة خمس وأربعين ومائة ، فانهزموا .

ثم قدمت الخطباء برأس ابراهيم بن عبد الله ابن الحسن بن الحسين ، فى ذى الحجة من السنة المذكورة ، الى مصر ونصبوه فى المسجد الجامع ، وقامت الخطباء فذكروا أمره . وحمل على بن محمد الى أبى جعفر المنصور ، وقيل انه * اختفى عند عسامة بن عمرو بقرية طرة ، فمرض بها ومات فقبر هناك . وحمل عسامة الى العراق ، فحبس الى أن رده المهدى محمد بن أبى جعفر الى مصر .

وما زالت شيعة على بمصر الى أن ورد كتاب المتوكل على الله الى مصر ، يأمر فيه باخراج آل أبى طالب من مصر الى العراق . فأخرجهم اسحاق بن يحيى الختلى أمير مصر ، وفرق فيهم الأموال ليتجملوا بها ، وأعطى كل رجل ثلاثين دينارا ، والمرأة خمسة عشر دينارا . فخرجوا لعشر خلون من رجب سنة ست وثلاثين ومائتين ، وقدموا العراق ، فأخرجوا الى المدينة فى شوال منها .

واستتر من كان بمصر على رأى العلوية . حتى ان يزيد بن عبد الله أمير مصر ضرب رجلا من الجند فى شىء وجب عليه ، فأقسم عليه بحق الحسن والحسين الا عفا عنه ، فزاده ثلاثين درة . ورفع ذلك صاحب البريد الى المتوكل ، فورد الكتاب على يزيد بضرب ذلك الجندى مائة سوط فضربها ، وحمل بعد ذلك الى العراق فى شوال سنة ثلاث وأربعين ومائتين .

وتتبع يزيد الروافض فحملهم الى العراق ، ودل فى شعبان على رجل ، يقال له محمد بن على بن الحسن بن على بن الحسين بن على ابن أبى طالب ، أنه بويع له . فأحرق الموضع الذى كان به ، وأخذه فأقر على جمع من الناس بايعوه ، فضرب بعضهم بالسياط ، وأخرج العلوى هو وجمع من آل أبى طالب الى العراق فى شهر رمضان .

ومات المتوكل فى شوال . فقام من بعده ابنه محمد المستنصر ، فورد كتابه الى مصر : بألا يقبل علوى ضيعة ، ولا يركب فرسا ، ولا يسافر من الفسطاط الى طرف من أطرافها ، وأن يمنعوا من اتخاذ العبيد الا العبد الواحد . ومن كان بينه وبين أحد من الطالبيين خصومة من سائر الناس ، قبل قول خصمه فيه ، ولم يطالب ببينة ، وكتب الى العمال بذلك . ومات المستنصر فى ربيع الآخر ، وقام المستعين ، فأخرج يزيد ستة رجال من الطالبيين الى العراق فى رمضان سنة خمسين ومائتين ، ثم أخرج ثمانية منهم فى رجب سنة احدى وخمسين .

وخرج جابر بن الوليد المدلجى بأرض الاسكندرية فى ربيع الآخر سنة اثنتين وخمسين ، واجتمع اليه كثير من بنى مدلج . فبعث اليه محمد بن عبيد الله بن يزيد بجيش من الاسكندرية ، فهزمهم وظفر بما معهم ، وقوى أمره ، وأتاه الناس من كل ناحية ، وضوى اليه كل من يومى اليه بشدة ونجدة ، فكان ممن أتاه عبد الله المريسى — وكان لصا خبيثا — ولحق به جريج النصرانى ، وكان من شرار النصارى وأولى بأسهم .

ولحق به أبو حرملة فرج النوبى — وكان فاتكا — فعقد له جابر على سنهور ، وسخا ، وشرقيون ، وبنا . فمضى أبو حرملة فى جيش

(*) ص٣٢٨ جـ٢ ، ط. بولاق .

عظيم ، فأخرج العمال ، وجبى الخراج . ولحق به عبد الله بن أحمد بن محمد بن اسماعيل بن محمد بن عبد الله بن على بن الحسين بن على ابن أبى طالب — الذى يقال له ابن الأرقط — فقوده أبو حرملة ، وضم اليه الأعراب ، وولاه بنا وبوصير وسمنود .

فبعث يزيد أمير مصر بجمع من الأتراك فى جمادى الآخرة ، فقاتلهم ابن الأرقط ، وقتل منهم . ثم ثبتوا له ، فانهزم وقتل من أصحابه كثير ، وأسر منهم كثير . ولحق ابن الأرقط بأبى حرملة فى شرقيون ، فصار الى عسكر يزيد ، فانهزم أبو حرملة ، وقدم مزاحم بن خاقان من العراق فى جيش ، فحارب أبا حرملة حتى أسر فى رمضان .

واستأمن ابن الأرقط ، فأخذ وأخرج الى العراق فى ربيع الأول سنة ثلاث وخمسين ومائتين ، ففر منهم ، ثم ظفر به وحبس ، ثم حمل الى العراق فى صفر سنة خمس وخمسين ومائتين بكتاب ورد على أحمد بن طولون . ومات أبو حرملة فى السجن لأربع بقين من ربيع الآخر سنة ثلاث وخمسين ، وأخذ جابر بعد حروب ، وحمل الى العراق فى رجب سنة أربع وخمسين .

وخرج فى امرة أرجون التركى رجل من العلويين يقال له بغا الأكبر — وهو أحمد بن ابراهيم بن عبد الله بن طباطبا بن اسماعيل بن ابراهيم بن حسن بن حسين بن على — بالصعيد ، فحاربه أصحاب أرجون ، وفر منهم فمات . ثم خرج بغا الأصغر — وهو أحمد بن محمد بن عبد الله بن طباطبا — فيما بين الاسكندرية وبرقة فى جمادى الأولى سنة خمس وخمسين ومائتين — والأمير يومئذ أحمد بن طولون — وسار فى جمع الى الصعيد . فقتل فى الحرب ، وأتى برأسه الى الفسطاط فى شعبان .

وخرج ابن الصوفى العلوى بالصعيد — وهو ابراهيم بن محمد بن يحيى بن عبد الله ابن محمد بن عمر بن على بن أبى طالب — ودخل اسنا فى ذى القعدة سنة خمس وخمسين ، ونهبها وقتل أهلها . فبعث اليه ابن طولون بجيش فحاربوه ، فهزمهم فى ربيع الأول سنة ست وخمسين بهو . فبعث ابن طولون اليه بجيش آخر ، فالتقيا باخميم فى ربيع الآخر ، فانهزم ابن الصوفى ، وترك جميع ما معه ، وقتلت رجالته .

فأقام ابن الصوفى بالواح سنتين ، ثم خرج الى الأشمونين فى المحرم سنة تسع وخمسين ، وسار الى أسوان لمحاربة أبى عبد الرحمن العمرى ، فظفر به العمرى وبجميع جيشه ، وقتل منهم مقتلة عظيمة ، ولحق ابن الصوفى بأسوان فقطع لأهلها ثلثمائة ألف نخلة . فبعث اليه ابن طولون بعشا ، فاضطرب أمره مع أصحابه فتركهم ، ومضى الى عيذاب فركب البحر الى مكة ، فقبض عليه بها ، وحمل الى ابن طولون فسجنه ثم أطلقه * ، فصار الى المدينة ومات بها .

وفى امارة هارون بن خمارويه بن أحمد بن طولون ، أنكر رجل من أهل مصر أن يكون أحد خيرا من أهل البيت ، فوثبت اليه العامة ، فضرب بالسياط يوم الجمعة فى جمادى الأولى سنة خمس وثمانين ومائتين .

(*) ص٣٣٩ جـ٢ ، ط. بولاق .

وفي امارة ذكا الأعور على مصر ، كتب على أبواب الجامع العتيق ذكر الصحابة والقرآن ، فرضيه جمع من الناس ، وكرهه آخرون . فاجتمع الناس في رمضان سنة خمس وثلثمائة الى دار ذكا يتشكرون على ما أذن لهم فيه ، فوثب الجند بالناس ، فنهب قوم ، وجرح آخرون ، ومحى ما كتب على أبواب الجامع ، ونهب الناس في المسجد والأسواق ، وأفطر الجند يومئذ .

وما زال أمر الشيعة يقوى بمصر . الى أن دخلت سنة خمسين وثلثمائة ، ففي يوم عاشوراء كانت منازعة بين الجند وبين جماعة من الرعية ، عند قبر كلثوم العلوية ، بسبب ذكر السلف والنوح ، قتل فيها جماعة من الفريقين . وتعصب السودان على الرعية ، فكانوا اذا لقوا أحدا قالوا له : من خالك ؟ فان لم يقل معاوية والا بطشوا به وشلحوه . ثم كثر القول : معاويه خال علي .

وكان على باب الجامع العتيق شيخان من العامة يناديان في كل يوم جمعة في وجوه الناس من الخاص والعام : معاوية خالي وخال المؤمنين ، وكاتب الوحي ، ورديف رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان هذا أحسن ما يقولونه ... والا فقد كانوا يقولون : معاوية خال علي من هاهنا — ويشيرون الى أصل الأذن — ويلقون أبا جعفر مسلما الحسيني ، فيقولون له ذلك في وجهه وكان بمصر أسود يصيح دائما : معاوية خال علي ، فقتل بتنيس أيام القائد جوهر .

ولما ورد الخبر بقيام بني حسن بمكة ، ومحاربتهم الحاج ونهبهم ، خرج خلق من المصريين في شوال ، فلقوا كافور الاخشيدي بالميدان ظاهر مدينة مصر ، وضجوا وصاحوا : معاوية خال علي ، وسألوه أن يبعث لنصرة الحاج على الطالبيين .

وفي شهر رمضان سنة ثلاث وخمسين وثلثمائة ، أخذ رجل — يعرف بابن أبي الليث الملطي — ينسب الى التشيع ، فضرب مائتي سوط ودرة ، ثم ضرب في شوال خمسمائة سوط ودرة ، وجعل في عنقه غل وحبس ، وكان يتفقد في كل يوم لئلا يخفف عنه ، ويبصق في وجهه ، فمات في محبسه فحمل ليلا ودفن . فمضت جماعة الى قبره لينشوه ، وبلغوا الى القبر ، فمنعهم جماعة من الاخشيدية والكافورية ، فأبوا وقالوا : هذا قبر رافضي . فثارت فتنة ، وضرب جماعة ، ونهبوا كثيرا حتى تفرق الناس .

وفي سنة ست وخمسين ، كتب في صفر على المساجد ذكر الصحابة والتفضيل . فأمر الأستاذ كافور الاخشيدي بازالته ، فحدثه جماعة في اعادة ذكر الصحابة على المساجد ، فقال : ما أحدث في أيامي ما لم يكن ، وما كان في أيام غيري فلا أزيله ، وما كتب في أيامي أزيله . ثم أمر من طاف وأزاله من المساجد كلها .

ولما دخل جوهر القائد بعساكر المعز لدين الله الى مصر ، وبنى القاهرة ، أظهر مذهب الشيعة ، وأذن في جميع المساجد الجامعة وغيرها : « حي على خير العمل » ، وأعلن بتفضيل علي بن أبي طالب على غيره ، وجهر بالصلاة عليه وعلى الحسن والحسين وفاطمة الزهراء رضوان الله عليهم .

فشكا اليه جماعة من أهل المسجد الجامع أمر عجوز عمياء تنشد فى الطريق ، فأمر بها فحبست . فسر الرعية بذلك ، ونادوا بذكر الصحابة ، ونادوا : معاوية خال على وخال المؤمنين . فأرسل جوهر حين بلغه ذلك رجلا الى الجامع ، فنادى : أيها الناس أقلوا القول ودعوا الفضول ، فانما حبسنا العجوز صيانة لها ، فلا ينطقن أحد الا حلت به العقوبة الموجعة . ثم أطلق العجوز .

وفى ربيع الأول سنة اثنتين وستين ، عزر سليمان بن عروة المحتسب جماعة من الصيارفة فشغبوا وصاحوا : معاوية خال على بن أبى طالب . فهم جوهر أن يحرق رحبة الصيارفة ، لكن خشى على الجامع .

وأمر الامام بجامع مصر أن يجهر بالبسملة فى الصلاة — وكانوا لا يفعلون ذلك — وزيد فى صلاة الجمعة القنوت فى الركعة الثانية ، وأمر فى المواريث بالرد على ذوى الأرحام ، وألا يرث مع البنت أخ ولا أخت ولا عم ولا جد ولا ابن أخ ولا ابن عم ، ولا يرث مع الولد الذكر أو الأنثى الا الزوج أو الزوجة والأبوان والجدة ، ولا يرث مع الأم الا من يرث مع الولد .

وخاطب أبو الطاهر محمد بن أحمد قاضى مصر القائد جوهرا فى بنت وأخ ، وأنه كان حكم قديما للبنت بالنصف ، وللأخ بالباقى . فقال : لا أفعل . فلما ألح عليه ، قال : ياقاضى هذا عداوة لفاطمة عليها السلام فأمسك أبو الطاهر ، ولم يراجعه بعد فى ذلك .

وصار صوم شهر رمضان والفطر على حساب لهم . فأشار الشهود على القاضى أبى الطاهر ألا بطلب الهلال ، لأن الصوم والفطر على الرؤية قد زال . فانقطع طلب الهلال من مصر ، وصام القاضى وغيره مع القائد جوهر كما يصوم ، وأفطروا كما يفطر .

ولما دخل المعز لدين الله الى مصر ، ونزل بقصره من القاهرة المعزية ، أمر فى رمضان سنة اثنتين وستين وثلثمائة ، فكتب على سائر الأماكن بمدينة مصر « خير الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم * أمير المؤمنين على ابن أبى طالب عليه السلام » .

وفى صفر سنة خمس وستين وثلثمائة ، جلس على بن النعمان القاضى بجامع القاهرة — المعروف بالجامع الأزهر — وأملى مختصر أبيه فى الفقه عن أهل البيت ، ويعرف هذا المختصر بالاقتصار ، وكان جمعا عظيما ، وأثبت أسماء الحاضرين .

ولما تولى يعقوب بن كلس الوزارة للعزيز بالله نزار بن المعز ، رتب فى داره العلماء من الأدباء والشعراء والفقهاء والمتكلمين ، وأجرى لجميعهم الأرزاق ، وألف كتابا فى الفقه ، ونصب له مجلسا — وهو يوم الثلاثاء — يجتمع فيه الفقهاء وجماعة من المتكلمين وأهل الجدل ، وتجرى بينهم المناظرات .

وكان يجلس أيضا فى يوم الجمعة ، فيقرأ مصنفاته على الناس بنفسه ، ويحضر عنده القضاة والفقهاء والقراء والنحاة وأصحاب

(*) ص ٣٤٠ جـ ٢ ، ط. بولاق .

الحديث ، ووجوه أهل العلم والشهود فاذا انقضى المجلس من القراءة ، قام الشعراء لانشاد مدائحهم فيه ، وجعل للفقهاء فى شهر رمضان الأطعمة .

وألف كتابا فى الفقه يتضمن ما سمعه من المعز لدين الله ومن ابنه العزيز بالله ، وهو مبوب على أبواب الفقه ، يكون قدره مثل نصف صحيح البخارى ... ملكته ووقفت عليه وهو يشتمل على فقه الطائفة الاسماعيلية . وكان يجلس لقراءة هذا الكتاب على الناس بنفسه ، وبين يديه خواص الناس وعوامهم ، وسائر الفقهاء والقضاة والأدباء . وأفتى الناس به ، ودرسوا فيه بالجامع العتيق

وأجرى العزيز بالله لجماعة من الفقهاء ، يحضرون مجلس الوزير ويلازمونه ، أرزاقا تكفيهم فى كل شهر ، وأمر لهم ببناء دار الى جانب الجامع الأزهر ، فاذا كان يوم الجمعة تحلقوا فيه بعد الصلاة الى أن تصلى صلاة العصر . وكان لهم من مال الوزير أيضا صلة فى كل سنة ، وعدتهم خمسة وثلاثون رجلا ، وخلع عليهم العزيز بالله فى يوم عيد الفطر ، وحملهم على بغال .

وفى سنة اثنتين وسبعين وثلثمائة ، أمر العزيز بن المعز بقطع صلاة التراويح من جميع البلاد المصرية . وفى سنة احدى وثمانين وثلثمائة ضرب رجل بمصر ، وطيف به المدينة ، من أجل أنه وجد عنده كتاب الموطأ لمالك بن أنس رحمه الله .

وفى شهر ربيع الأول سنة خمس وثمانين وثلثمائة ، جلس القاضى محمد بن النعمان على كرسى بالقصر فى القاهرة لقراءة علوم أهل البيت ، على الرسم المتقدم له ولأخيه بمصر ولأبيه بالمغرب ، فمات فى الزحمة أحد عشر رجلا .

وفى جمادى الأولى سنه احدى وتسعين وثلثمائة ، قبض على رجل من أهل الشام سئل عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، رضى الله عنه ، فقال : لا أعرفه . فاعتقله قاضى القضاة الحسن بن النعمان ، قاضى أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله على القاهرة المعزية ومصر والشامات والحرمين والمغرب ، وبعث اليه وهو فى السجن أربعة من الشهود وسألوه ، فأقر بالنبى صلى الله عليه وسلم وأنه نبى مرسل ، وسئل عن على بن أبى طالب فقال : لا أعرفه .

فأمر قائد القواد الحسين بن جوهر باحضاره فخلا به ورفق فى القول له ، فلم يرجع عن انكاره معرفة على بن أبى طالب . فطولع الحاكم بأمره ، فأمر بضرب عنقه ، فضرب عنقه وصلب .

وفى سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة ، قبض على ثلاثة عشر رجلا ، وضربوا وشهروا على الجمال ، وحبسوا ثلاثة أيام من أجل أنهم صلوا صلاة الضحى .

وفى سنة خمس وتسعين وثلثمائة ، قرىء سجل فى الجوامع بمصر والقاهرة والجزيرة : بأن تلبس النصارى واليهود الغيار والزنار ، وغيارهم السواد غيار العاصين العباسيين ، وأن يشدوا الزنار . وفيه وقوع وفحش فى حق أبى بكر وعمر رضى الله عنهما .

وقرىء سجل آخر فيه منع الناس من أكل الملوخيا المحببة كانت لمعاوية بن أبى سفيان ، ومنعهم من أكل البقلة المسماة بالجرجير المنسوبة لعائشة رضى الله عنها ، ومن المتوكلية المنسوبة الى المتوكل ، والمنع من عجين الخبز بالرجل ، والمنع من أكل الدلينس ، ومن ذبح البقر الا ذا عاهة — ما عدا أيام النحر فانه يذبح فيها البقر فقط — والوعيد للنخاسين متى باعوا عبدا أو أمة لذمى .

وقرىء سجل آخر بأن يؤذن لصلاة الظهر فى أول الساعة السابعة ، ويؤذن لصلاة العصر فى أول الساعة التاسعة .

وقرىء أيضا سجل بالمنع من عمل الفقاع وبيعه فى الأسواق ، لما يؤثر عن على بن أبى طالب رضى الله عنه من كراهية شرب الفقاع ، وضرب فى الطرقات والأسواق بالحرس ، ونودى ألا يدخل أحد الحمام الا بمئزر ، ولا تكشف امرأة وجهها فى طريق ولا خلف جنازة ولا تتبرج ، ولا يباع شىء من السمك بغير قشر ، ولا يصطاده أحد من الصيادين . وقبض على جماعة وجدوا فى الحمام بغير مئزر ، فضربوا وشهروا .

وكتب فى صفر من هذه السنة على سائر المساجد ، وعلى الجامع العتيق بمصر من ظاهره وباطنه من جميع جوانبه ، وعلى أبواب الحوانيت والحجر ، وعلى المقابر والصحراء ... سب السلف ولعنهم ، ونقش ذلك ولون بالأصباغ والذهب ، وعمل ذلك على أبواب الدور والقياسر ، وأكره الناس على ذلك .

وتسارع الناس الى الدخول فى الدعوة . فجلس لهم قاضى القضاة عبد * العزيز بن محمد بن النعمان ، فقدموا من سائر النواحى والضياع . فكان للرجال يوم الأحد ، وللنساء يوم الأربعاء ، وللأشراف وذوى الأقدار يوم الثلاثاء . وازدحم الناس على الدخول فى الدعوة ، فمات عدة من الرجال والنساء .

ولما وصلت قافلة الحاج ، مر بهم من سب العامة وبطشهم ما لا يوصف . فانهم أرادوا حمل الحاج على سب السلف فأبوا ، فحل بهم مكروه شديد .

وفى جمادى الآخرة من هذه السنة ، فتحت دار الحكمة بالقاهرة ، وجلس فيها القراء ، وحملت الكتب اليها من خزائن القصور ، ودخل الناس اليها ، وجلس فيها القراء والفقهاء والمنجمون والنحاة وأصحاب اللغة والأطباء ، وحصل فيها من الكتب فى سائر العلوم ما لم ير مثله مجتمعا ، وأجرى على من فيها من الخدام والفقهاء الأرزاق السنية ، وجعل فيها ما يحتاج اليه من الحبر والأقلام والمحابر والورق .

وفى يوم عاشوراء من سنة ست وتسعين وثلثمائة ، كان من اجتماع الناس ما جرت به العادة ، وأعلن بسب السلف فيه . فقبض على رجل نودى عليه : هذا جزاء من سب عائشة وزوجها صلى الله عليه وسلم ، ومعه من الرعاع ما لا يقع عليه حصر ، وهم يسبون السلف ، فلما تم النداء عليه ضرب عنقه . واستهل شهر رجب من هذه السنة بيوم الأربعاء ، فخرج أمر الحاكم بأمر الله أن يؤرخ بيوم الثلاثاء .

(*) ص ٣٤١ ج ٢ ، ط. بولاق .

وفى سنة سبع وتسعين وثلثمائة ، قبض على جماعة ممن يعمل الفقاع ، ومن السماكين ومن الطباخين . وكبست الحمامات فأخذ عدة ممن وجد بغير مئزر ، فضرب الجميع لمخالفتهم الأمر ، وشهروا .

وفى تاسع ربيع الآخر ، أمر الحاكم بأمر الله بمحو ما كتب على المساجد وغيرها من سب السلف ، وطاف متولى الشرطة ، وألزم كل أحد بمحو ما كتب على المساجد من ذلك .

ثم قرىء سجل فى ربيع الآخر سنة تسع وتسعين وثلثمائة : بألا يحمل شىء من النبيذ والمزر ، ولا يتظاهر به ، ولا بشىء من الفقاع والدلينس والسمك الذى لا قشر له والترمس العفن .

وقرىء سجل فى رمضان على سائر المنابر : بأنه يصوم الصائمون على حسابهم ويفطرون ، ولا يعارض أهل الرؤية فيما هم عليه صائمون ومفطرون . صلاة الخمس الدين فيما جاءهم فيها يصلون ، وصلاة الضحى وصلاة التراويح لا مانع لهم منها ، ولاهم عنها يدفعون . يخمس فى التكبير على الجنائز المخمسون ، ولا يمنع من التربيع عليها المربعون . يؤذن بحى على خير العمل المؤذنون ، ولا يؤذى من بها لا يؤذنون . ولا يسب أحد من السلف ، ولا يحتسب على الواصف فيهم بما وصف ، والحالف منهم بما حلف . لكل مسلم مجتهد فى دينه واجتهاده ، والى الله ربه مغاده ، عنده كتابه وعليه حسابه .

وفى صفر سنة أربعمائة ، شهر جماعة بعدما ضربوا بسبب بيع الفقاع والملوخيا والدلينس والترمس .

وفى تاسع عشر شهر شوال ، أمر الحاكم بأمر الله برفع ما كان يؤخذ من الخمس والزكاة والفطرة والنجوى ، وأبطل قراءة مجالس الحكمة فى القصر ، وأمر برد التثويب فى الأذان ، وأذن للناس فى صلاة الضحى وصلاة التراويح ، وأمر المؤذنين بأسرهم فى الأذان بألا يقولوا « حى على خير العمل » وأن يقولوا فى الأذان للفجر « الصلاة خير من النوم » .

ثم أمر فى ثانى عشرى ربيع الآخر سنة ثلاث وأربعمائة باعادة قول « حى على خير العمل » فى الأذان ، وقطع التثويب ، وترك قولهم « الصلاة خير من النوم » ، ومنع من صلاة الضحى وصلاة التراويح ، وفتح باب الدعوة ، وأعيدت قراءة المجالس بالقصر على ما كانت . وكان بين المنع من ذلك والأذن فيه خمسة أشهر .

وضرب فى جمادى من هذه السنة جماعة ، وشهروا بسبب بيع الملوخيا والسمك الذى لا قشر له وشرب المسكرات ، وتتبع السكارى فضيق عليهم .

وفى يوم الثلاثاء سابع عشرى شعبان سنة احدى وأربعمائة ، وقع قاضى القضاة مالك بن سعيد الفارقى الى سائر الشهود والأمناء ، بخروج الأمر المعظم بأن يكون الصوم يوم الجمعة ، والعيد يوم الأحد .

وفى شعبان سنة اثنتين وأربعمائة ، قرىء سجل يشدد فيه النكير على بيع الملوخيا والفقاع والسمك الذى لا قشر له ، ومنع النساء من الاجتماع فى المآتم ومن اتباع الجنائز ، وأحرق الحاكم بأمر الله فى هذا

الشهر الزبيب الذى فى مخازن التجار ، وأحرق ما وجد من الشطرنج ، وجمع صيادى السمك وحلفهم بالأيمان المؤكدة ألا يصطادوا سمكا بغير قشر ، ومن فعل ذلك ضربت عنقه .

وأحرق فى خمسة عشر يوما ألفين وثمانمائة وأربعين قطعة زبيب : بلغ ثمن النفقة عليها خمسمائة دينار ، ومنع من بيع العنب الا أربعة أرطال فما دونها ، ومنع من اعتصاره ، وطرح عنبا كثيرا فى الطرقات وأمر بدوسه . فامتنع الناس من التظاهر بشىء من العنب فى الأسواق ، واشتد الأمر فيه ، وغرق منه ما حمل فى النيل .

وأحصى ما بالجيزة من الكروم ، فقطف ما عليها من العنب ، وطرح ما جمعه من ذلك تحت أرجل البقر لتدوسه ، وفعل مثل ذلك فى جهات كثيرة . وختم على مخازن العسل ، وغرق منه فى أربعة أيام * خمسة آلاف جرة واحدى وخمسين جرة فيها العسل ، وغرق من عسل النحل قدر احدى وخمسين زيرا .

وفى جمادى الآخرة سنة ثلاث وأربعمائة ، اشتد الانكار على الناس بسبب بيع الفقاع والزبيب والسمك الذى لا قشر له ، وقبض على جماعة وجد عندهم زبيب فضربت أعناقهم وسجنت عدة منهم وأطلقوا .

وفى شوال اعتقل رجل ، ثم شهر ونودى عليه : هذا جزاء من سب أبا بكر وعمر ، ويثير الفتن . فاجتمع خلق كثير بباب القصر ، فاستغاثوا لا طاقة لنا بمخالفة المصريين ، ولا بمخالفة الحشوية من العوام ، ولا صبر لنا على ما جرى ، وكتبوا قصصا . فصرفوا ، ووعدوا بالمجىء فى غد . فبات كثير منهم بباب القصر ، واجتمعوا من الغد فصاحوا وضجوا .

فخرج اليهم قائد القواد غين فنهاهم ، وأمرهم عن أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله أن يمضوا الى معايشهم . فانصرفوا الى قاضى القضاة مالك بن سعيد الفارقى وشكوا اليه ، فتبرم من ذلك ، فمضوا وفيهم من يسب السلف ، ويعرض بالناس . فقرىء سجل فى القصر بالترحم على السلف من الصحابة ، والنهى عن الخوض فى ذلك .

وركب مرة فرأى لوحا على قيسارية فيه سب السلف ، فأنكره ، وما زال واقفا حتى قلع . وضرب بالجرس فى سائر طرقات مصر والقاهرة ، وقرىء سجل بتتبع الألواح المنصوبة على سائر أبواب القياسر والحوانيت والدور والخانات والأرباع ، المشتملة على ذكر الصحابة والسلف الصالح رحمهم الله بالسب واللعن ، وقلع ذلك وكسره وتعفيه أثره ، ومحو ما على الحيطان من هذه الكتابة ، وازالة جميعها من سائر الجهات حتى لا يرى لها أثر فى جدار ولا نقش فى لوح ، وحذر فيه من المخالفة ، وهدد بالعقوبة . ثم انتقض ذلك كله ، وعاد الأمر الى ما كان عليه .

الى أن قتل الخليفة الآمر بأحكام الله أبو على منصور بن المستعلى بالله أبى القاسم أحمد بن المستنصر بالله أبى تميم معد ، وثار أبو على أحمد — الملقب كتيفات — بن الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش ، واستولى

(*) ص٣٤٢ جـ٢ ، ط. بولاق .

على الوزارة في سنة أربع وعشرين وخمسمائة وسجن الحافظ لدين الله أبا الميمون عبد المجيد ابن الأمير أبي القاسم محمد ابن الخليفة المستنصر بالله ، وأعلن بمذهب الامامية ، والدعوة للامام المنتظر ، وضرب دراهم نقشها « الله الصمد . الامام محمد » .

ورتب في سنة خمس وعشرين أربعة قضاة : اثنان أحدهما امامي والآخر اسماعيلي ، واثنان أحدهما مالكي والآخر شافعي . فحكم كل منهما بمذهبه ، وورث على مقتضاه ، وأسقط ذكر اسماعيل بن جعفر الصادق ، وأبطل من الأذان « حي على خير العمل » وقولهم « محمد وعلي خير البشر » .

فلما قتل في المحرم سنة ست وعشرين ، عاد الأمر الى ما كان عليه من مذهب الاسماعيلية . وما برح حتى قدمت عساكر الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي من دمشق عليها أسد الدين شيركوه ، وولي وزارة مصر للخليفة العاضد لدين الله أبي محمد عبد الله ابن الأمير يوسف بن الحافظ لدين الله ، ومات .

فقام في الوزارة بعده ابن أخيه السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ، في جمادى الآخرة سنة أربع وستين وخمسمائة ، وشرع في تغيير الدولة وازالتها ، وحجر على العاضد ، وأوقع بأمراء الدولة وعساكرها ، وأنشأ بمدينة مصر مدرسة للفقهاء الشافعية ومدرسة للفقهاء المالكية ، وصرف قضاة مصر الشيعة كلهم ، وفوض القضاء لصدر الدين عبد الملك بن درباس المارانى الشافعي ، فلم يستنب عنه في اقليم مصر الا من كان شافعي المذهب . فتظاهر الناس من حينئذ بمذهب مالك والشافعي ، واختفى مذهب الشيعة والاسماعيلية والامامية حتى فقد من أرض مصر كلها .

وكذلك كان السلطان الملك العادل نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي بن آق سنقر حنفيا ، فيه تعصب . فنشر مذهب أبي حنيفة رحمه الله ببلاد الشام ، ومنه كثرت الحنفية بمصر ، وقدم اليها أيضا عدة من بلاد الشرق ، وبنى لهم السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب المدرسة السيوفية بالقاهرة ، وما زال مذهبهم ينتشر ويقوى ، وفقهاؤهم تكثر بمصر والشام من حينئذ .

وأما العقائد فان السلطان صلاح الدين حمل الكافة على عقيدة الشيخ أبي الحسن علي بن اسماعيل الأشعري ، تلميذ أبي علي الجبائي ، وشرط ذلك في أوقافه التي بديار مصر : كالمدرسة الناصرية بجوار قبر الامام الشافعي من القرافة ، والمدرسة الناصرية التي عرفت بالشريفية بجوار جامع عمرو بن العاص بمصر ، والمدرسة المعروفة بالقمحية بمصر ، وخانكاه سعيد السعداء بالقاهرة .

فاستمر الحال على عقيدة الأشعري بديار مصر وبلاد الشام وأرض الحجاز واليمن ، وبلاد المغرب أيضا لادخال محمد بن تومرت رأي الأشعري اليها . حتى انه صار هذا الاعتقاد بسائر هذه البلاد ، بحيث ان من خالفه

ضرب عنقه ، والأمر على ذلك الى اليوم . ولم يكن فى الدولة الأيوبية بمصر كثير ذكر لمذهب أبى حنيفة وأحمد بن حنبل ، ثم اشتهر مذهب أبى حنيفة وأحمد بن حنبل فى آخرها .

فلما كانت * سلطنة الملك الظاهر بيبرس البندقدارى ، ولى بمصر والقاهرة أربعة قضاة وهم شافعى ومالكى وحنفى وحنبلى . فاستمر ذلك من سنة خمس وستين وستمائة ، حتى لم يبق فى مجموع أمصار الاسلام مذهب يعرف من مذاهب أهل الاسلام سوى هذه المذاهب الأربعة وعقيدة الأشعرى .

وعملت لأهلها المدارس والخوانك والزوايا والربط فى سائر ممالك الاسلام ، وعودى من تمذهب بغيرها وأنكر عليه . ولم يول قاض ، ولا قبلت شهادة أحد ، ولا قدم للخطابة والامامة والتدريس أحد ... ما لم يكن مقلدا لأحد هذه المذاهب . وأفتى فقهاء هذه الأمصار فى طول هذه المدة بوجوب اتباع هذه المذاهب ، وتحريم ما عداها . والعمل على هذا الى اليوم .

واذ قد بينا الحال فى سبب اختلاف الأمة منذ توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الى أن استقر العمل على مذهب مالك ، والشافعى ، وأبى حنيفة ، وأحمد بن حنبل ، رحمة الله عليهم ... فلنذكر اختلاف عقائد أهل الاسلام منذ كان ، الى أن التزم الناس عقيدة الشيخ أبى الحسن الأشعرى ، رحمه الله ورضى عنه .

(*) ص٣٤٣ ج٢ ، ط. بولاق .

ذكر فرق الخليقة واختلاف عقائدها وتباينها

اعلم أن الذين تكلموا فى أصول الديانات قسمان ، هما : من خالف ملة الاسلام ، ومن أقر بها . فأما المخالفون لملة الاسلام ، فهم عشر طوائف :

الأولى : الدهرية .

والثانية : أصحاب العناصر .

والثالثة : الثنوية وهم المجوس ، ويقولون بأصلين هما النور والظلمة ، ويزعمون أن النور هو يزدان والظلمة هو أهرمن ، ويقرون بنبوة ابراهيم عليه السلام .

وهم ثمان فرق : الكيومرتية أصحاب كيومرت الذى يقال انه آدم . والزروانية أصحاب زوران الكبير . والزرادشتية أصحاب زرادشت بن بيورشت الحكيم . والثنوية أصحاب الاثنين الأزليين . والمانوية أصحاب مانى الحكيم . والمزركية أصحاب مزرك الخارجى . والبيصانية أصحاب بيصان القائل بالأصلين القديمين . والفرقونية القائلون بالأصلين ، وأن الشر خرج على أبيه ، وأنه تولد من فكرة فكرها فى نفسه ، فلما خرج على أبيه — الذى هو الاله بزعمهم — عجز عنه ، ثم وقع الصلح بينهما على يد الندمات وهم الملائكة ومنهم من يقول بالتناسخ ، ومنهم من ينكر الشرائع والأنبياء ، ويحكمون العقول ، ويزعمون أن النفوس العلوية تفيض عليهم الفضائل .

والطائفة الرابعة : الطبائعيون .

والطائفة الخامسة : الصابئة القائلون بالهياكل والأرباب السماوية والأصنام الأرضية وانكار النبوات ، وهم أصناف ، وبينهم وبين الحنفاء مناظرات وحروب مهلكة ، وتولدت من مذاهبهم الحكمة الملطية ، ومنهم أصحاب الروحانيات ، وهم عباد الكواكب وأصنامها التى عملت على تمثالها .

والحنفاء هم القائلون بأن الروحانيات منها ما وجودها بالقوة ، ومنها ما وجودها بالفعل ، فما هو بالقوة يحتاج الى من يوجده بالفعل ، ويقرون بنبوة ابراهيم وأنه منهم . وهم طوائف : الكاظمة أصحاب كاظم بن تارح ، ومن قوله أن الحق فى الجمع بين شريعة ادريس وشريعة نوح وشريعة ابراهيم عليهم السلام . ومنهم البيدانية أصحاب بيدان الأصغر ، ومن قوله اعتقاد نبوة من يفهم عالم الروح ، وأن النبوة من أسرار الالهية . ومنهم القنطارية أصحاب قنطار بن أرفخشد ، ويقر بنبوة نوح .

ومن فرق الصابئة أصحاب الهياكل ، ويرون أن الشمس اله كل اله ، والحرانية ومن قولهم المعبود واحد بالذات ، وكثير بالأشخاص فى رأى العين ، وهى : المدبرات السبع من الكواكب ، والأرضية الجزئية ، والعالمة الفاضلة .

والطائفة السادسة : اليهود .

والسابعة : النصارى

والثامنة : أهل الهند القائلون بعبادة الأصنام ، ويزعمون أنها موضوعة قبل آدم .

ولهم حكم عقلية وأحكام وضعها الشلم أعظم حكامهم ، والمهندم قبله ، والبراهمة قبل ذلك ... فالبراهمة أصحاب برهام أول من أنكر نبوة البشر .

ومنهم البردة : زهاد عباد رجال الرماد الذين يهجرون اللذات الطبيعية ، وأصحاب الرياضة التامة ، وأصحاب التناسخ . وهم أقسام : أصحاب الروحانية ، والبهادرية ، والناسوتية ، والباهرية ، والكابلية أهل الجبل ، ومنهم الطبسيون ، أصحاب الرياضة الفاعلة ، حتى ان منهم من يجاهد نفسه حتى يسلطها على جسده ، فيصعد فى الهواء على قدر قوته .

وفى اليهود : عباد النار ، وعباد الشمس والقمر والنجوم ، وعباد الأوثان .

والطائفة التاسعة : الزنادقة ، وهم طوائف منهم القرامطة .

والعاشرة : الفلاسفة أصحاب الفلسفة . وكلمة فيلسوف معناها محب الحكمة ، فان فيلو محب ، وسوفا حكمة ، والحكمة قولية وفعلية ، وعلم الحكماء انحصر فى أربعة أنواع : الطبيعى ، والمدنى ، والرياضى ، والالهى . والمجموع ينصرف الى : علم ما ، وعلم كيف ، وعلم كم . فالعلم الذى يطلب فيه ماهيات الأشياء هو الالهى ، والذى يطلب فيه كيفيات الأشياء هو الطبيعى ، والذى يطلب فيه كميات الأشياء * هو الرياضى .

ووضع بعد ذلك أرسطو صنعة المنطق ، وكانت بالقوة فى كلام القدماء ، فأظهرها ورتبها .

(*) ص٣٤٤ جـ٢ ، ط. بولاق .

اسم الفلاسفة يطلق على جماعة من الهند - وهم الطبسيون والبراهمة - ولهم رياضة شديدة ، وينكرون النبوة أصلا . ويطلق أيضا على العرب بوجه أنقص ، وحكمتهم ترجع الى أفكارهم والى ملاحظة طبيعية ، ويقرون بالنبوات ، وهم أضعف الناس في العلوم .

ومن الفلاسفة حكماء الروم وهم طبقات : فمنهم أساطين الحكمة وهم أقدمهم ، ومنهم المشاءون ، وأصحاب الرواق ، وأصحاب أرسطو ... وفلاسفة الاسلام .

فمن فلاسفة الروم الحكماء السبعة أساطين الحكمة - أهل ملطية وقونية - وهم : تاليس الملطي ، وانكساغورس ، وانكسمالس وابنادقيس ، وفيثاغورس ، وسقراط ، وأفلاطون . ودون هؤلاء : فلوطس ، وبقراط ، وديمقراطيس ، وأسعر ، والنساس .

ومنهم حكماء الأصول من القدماء ، ولهم القول بالسيمياء ، ولهم أسرار الخواص والحيل والكيمياء والأسماء الفعالة والحروف ، ولهم علوم توافق علوم الهند وعلوم اليونانيين . وليس من موضوع كتابنا هذا ذكر تراجمهم ، فلذلك تركناها .

القسم الثاني : فرق أهل الاسلام الذين عناهم النبي ، صلى الله عليه وسلم ، بقوله : « ستفترق أمتي ثلاثا وسبعين فرقة : ثنتان وسبعون هالكة ، وواحدة ناجية » .

وهذا الحديث أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « افترقت اليهود على احدى وسبعين (أو اثنتين وسبعين) فرقة ، وتفرقت النصارى على احدى وسبعين (أو اثنتين وسبعين) فرقة ، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة » . قال البيهقي : حسن صحيح .

وأخرجه الحاكم وابن حبان في صحيحه بنحوه . فأخرجه في المستدرك من طريق الفضل ابن موسى ، عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة به ، وقال : هذا حديث كثير في الأصول .

وقد روي عن سعد بن أبي وقاص ، وعبد الله بن عمر ، وعوف بن مالك ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بمثله . وقد احتج مسلم بمحمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة ، واتفقا جميعا على الاحتجاج بالفضل ابن موسى ، وهو ثقة .

واعلم أن فرق المسلمين خمسة : أهل السنة والمرجئة ، والمعتزلة ، والشيعة ، والخوارج . وقد افترقت كل فرقة منها على فرق : فأكثر افتراق أهل السنة في الفتيا ، ونبذ يسيرة من الاعتقادات . وبقية الفرق الأربع : منها من يخالف أهل السنة الخلاف البعيد ، ومنهم من يخالفهم الخلاف القريب .

فأقرب فرق المرجئة من قال : الايمان انما هو التصديق بالقلب واللسان معا فقط ، وان الأعمال انما هي فرائض الايمان وشرائعه فقط ، وأبعدهم أصحاب جهم بن صفوان ومحمد بن كرام . وأقرب فرق المعتزلة أصحاب الحسين النجار وبشر بن غياث المريسي ، وأبعدهم أصحاب أبي الهذيل العلاف .

وأقرب مذاهب الشيعة أصحاب الحسن بن صالح بن حى ، وأبعدهم الامامية . وأما الغالية فليسوا بمسلمين ، ولكنهم أهل ردة وشرك . وأقرب فرق الخوارج أصحاب عبد الله بن يزيد الأباضى ، وأبعدهم الأزارقة . وأما البطيخية ومن جحد شيئا من القرآن ، أو فارق الاجماع من العجاردة وغيرهم ، فكفار باجماع الأمة .

وقد انحصرت الفرق الهالكة فى عشر طوائف :

« الفرقة الأولى المعتزلة » : الغلاة فى نفى الصفات الالهية ، القائلون بالعدل والتوحيد ، وأن المعارف كلها عقلية حصولا ووجوبا قبل الشرع وبعده ، وأكثرهم على أن الامامة بالاختيار . وهم عشرون فرقة :

احداها الواصلية : أصحاب واصل بن عطاء أبى حذيفة الغزال — مولى بنى ضبة ، وقيل مولى بنى مخزوم — ولد بالمدينة سنة ثمانين ، ونشأ بالبصرة ، ولقى أبا هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية ، ولازم مجلس الحسن بن الحسين البصرى ، وأكثر من الجلوس بسوق الغزل ليعرف النساء المتعففات ، فيصرف اليهن صدقته ، فقيل له الغزال من أجل ذلك .

وكان طويل العنق جدا ، حتى عابه عمرو بن عبيد بذلك ، فقال : من هذه عنقه لا خير عنده . فلما برع واصل قال عمرو : ربما أخطأت الفراسة . وكان يلثغ بالراء ، ومع ذلك كان فصيحا لسنا مقتدرا على الكلام قد أخذ بجوامعه ، فلذلك أمكنه أن أسقط حرف الراء من كلامه . واجتناب الحروف صعب جدا ، لا سيما مثل الراء لكثرة استعمالها .

وله رسالة طويلة لم يذكر فيها حرف الراء ، أحد بدائع الكلام ، وكان لكثرة صمته يظن به الخرس ، توفى سنة احدى وثلاثين ومائة . وله كتاب المنزلة بين المنزلتين ، وكتاب الفتيا ، وكتاب التوحيد ، وعنه أخذ جماعة ، وأخباره كثيرة . ويقال لهم أيضا الحسنية ، نسبة الى الحسن البصرى .

وأخذ واصل العلم عن أبى هاشم عبد الله ابن محمد بن الحنفية ، وخالفه فى الامامة . واعتزاله يدور على أربع قواعد هى : نفى الصفات ، والقول بالقدر ، والقول بمنزلة بين المنزلتين ، وأوجب الخلود فى النار على من ارتكب كبيرة .

فلما بلغ الحسن البصرى عنه * هذا ، قال : هؤلاء اعتزلوا ... فسموا من حينئذ المعتزلة . وقيل ان تسميتهم بذلك حدثت بعد الحسن ، وذلك أن عمرو بن عبيد لما مات الحسن ، وجلس قتادة مجلسه ، اعتزله فى نفر معه ، فسماهم قتادة المعتزلة .

القاعدة الرابعة : القول بأن احدى الطائفتين من أصحاب الجمل وصفين مخطئة لا بعينها . وكان فى خلافة هشام بن عبد الملك .

والثانية العمروية : أصحاب عمرو ، ومن قوله ترك قول على بن أبى طالب وطلحة والزبير رضى الله عنهم . وقال ابن منبه : اعتزل عمرو بن عبيد وأصحاب له الحسن ، فسموا المعتزلة .

والثالثة الهذلية : أتباع أبى الهذيل محمد ابن الهذيل العلاف شيخ المعتزلة . أخذ عن

(*) ص٣٤٥ جـ٢ ، ط. بولاق .

عثمان بن خالد الطويل ، عن واصل بن عطاء ، ونظر فى الفلسفة ، ووافقهم فى كثير ، وقال : جميع الطاعات من الفرائض والنوافل ايمان .

وانفرد بعشر مسائل وهى : أن علم الله وقدرته وحياته هى ذاته ، وأثبت ارادات لا محل لها يكون البارى مريدا لها . وقال : بعض كلام الله لا فى محل وهو قوله كن ، وبعضه فى محل كالأمر والنهى . وقال فى أمور الآخرة كمذهب الجبرية . وقال : تنتهى مقدورات الله حتى لا يقدر على احداث شىء ، ولا على افناء شىء ، ولا احياء شىء ، ولا اماتة شىء ، وتنقطع حركات أهل الجنة والنار ، ويصيرون الى سكون دائم .

وقال : الاستطاعة عرض من الأعراض نحو السلامة والصحة ، وفرّق بين أعمال القلوب وأعمال الجوارح . وقال : تجب معرفة الله قبل ورود السمع ، وان المرء المقتول ان لم يقتل مات فى ذلك الوقت ، ولا يزاد العلم ولا ينقص بخلاف الرزق . وقال : ارادة الله عين المراد ، والحجة لا تقوم فيما غاب الا بخبر عشرين .

والرابعة النظامية : أتباع ابراهيم بن سيار النظام — بتشديد الظاء المعجمة — زعيم المعتزلة ، وأحد السفهاء . انفرد بعدة مسائل ، وهى قوله : ان الله تعالى لا يوصف بالقدرة على الشرور والمعاصى ، وانها غير مقدورة لله . وقال : ليس لله ارادة ، وأفعال العباد كلها حركات ، والنفس والروح هو الانسان ، والبدن انما هو آلة فقط ، وان كل ما جاوز القدرة من الفعل فهو من الله وهو فعله .

وأنكر الجوهر الفرد ، وأحدث القول بالطفرة ، وقال : الجوهر مؤلف من أعراض اجتمعت ، وزعم أن الله خلق الموجودات دفعة على ما هى عليه ، وأن الاعجاز فى القرآن من حيث الاخبار عن الغيب فقط ، وأنكر أن يكون الاجماع حجة ، وطعن فى الصحابة رضى الله تعالى عنهم ، وقال قبحه الله : أبو هريرة أكذب الناس ، وزعم أنه ضرب فاطمة ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومنع ميراث العترة ، وأوجب معرفة الله بالفكر قبل ورود الشرع ، وحرم نكاح الموالى العربيات ، وقال : لا تجوز صلاة التراويح ، ونهى عن ميقات الحج ، وكذب بانشقاق القمر ، وأحال رؤية الجن ، وزعم أن من سرق مائتى دينار فما دونها لم يفسق ، وأن الطلاق بالكتابة لا يقع وان كان بنية ، وأن من نام مضطجعا لا ينتقض وضوؤه ما لم يخرج منه الحدث ، وقال : لا يلزم قضاء الصلوات اذا فاتت .

والخامسة الأسوارية : أتباع أبى على عمرو ابن قائد الأسوارى ، القائل ان الله تعالى لا يقدر أن يفعل ما علم أنه لا يفعله .

والسادسة الاسكافية : أتباع أبى جعفر محمد بن عبد الله الاسكافى . ومن قوله : ان الله تعالى لا يقدر على ظلم العقلاء ، ويقدر على ظلم الأطفال والمجانين ، وانه لا يقال ان الله خالق المعازف والطنابير ، وان كان هو الذى خلق أجسامها .

والسابعة الجعفرية : أتباع جعفر بن حرب ابن ميسرة . ومن قوله : ان فى فساق هذه الأمة من هو شر من اليهود والنصارى

والمجوس ، وأسقط الحد عن شارب الخمر ، وزعم أن الصغائر من الذنوب توجب تخليد فاعلها فى النار ، وأن رجلا لو بعث رسولا الى امرأة ليخطبها ، فجاءته فوطئها من غير عقد لم يكن عليه حد ، ويكون وطؤه اياها طلاقا لها .

والثامنة البشرية : أتباع بشر بن المعتمر . ومن قوله الطعم واللون والرائحة والادراكات كلها من السمع يجوز أن تحصل متولدة ، وصرف الاستطاعة الى سلامة البنية والجوارح وقال : لو عذب الله الطفل الصغير لكان ظالما وهو يقدر على ذلك ، وقال : ارادة الله من جملة أفعاله ، ثم هى تنقسم الى صفة فعل وصفة ذات ، وقال باللطف المخزون ، وأن الله لم يخلقه لأن ذلك يوجب عليه الثواب ، وأن التوبة الأولى متوقفة على الثانية ، وأنها لا تنفع الا بعدم الوقوع فى الذى وقع فيه ، فان وقع لم تنفعه التوبة الأولى .

والتاسعة المزدارية : أتباع أبى موسى عيسى ابن صبيح — المعروف بالمزدار — تلميذ بشر بن المعتمر . وكان زاهدا ، وقيل له راهب المعتزلة ، وانفرد بمسائل : منها قوله ان الله قادر على أن يظلم ويكذب ولا يطعن ذلك فى الربوبية ، وجوز وقوع الفعل الواحد من فاعلين على سبيل التولد ، وزعم أن القرآن مما يقدر عليه ، وأن بلاغته وفصاحته لا تعجز الناس ، بل يقدرون على الاتيان بمثلها وأحسن منها . وهو أصل المعتزلة فى القول بخلق القرآن ، وقال : من أجاز رؤية الله بالأبصار بلا كيف فهو كافر ، والشاك فى كفره كافر أيضا .

والعاشرة الهشامية : أتباع هشام بن عمرو الفوطى الذى يبالغ فى القدر ، ولا ينسب الى الله فعلا من الأفعال * . حتى انه أنكر أن يكون الله هو الذى ألف بين قلوب المؤمنين ، وأنه يحبب الايمان للمؤمنين ، وأنه أضل الكافرين . وعاند ما فى القرآن من ذلك ، وقال : لا تنعقد الامامة فى زمن الفتنة واختلاف الناس ، وان الجنة والنار غير مخلوقتين ، ومنع أن يقال حسبنا الله ونعم الوكيل ، وقال : لأن الوكيل دون الموكل .

وقال : لو أسبغ أحد الوضوء ، ودخل فى الصلاة بنية القربة لله تعالى والعزم على اتمامها ، وركع وسجد مخلصا فى ذلك كله ، الا أن الله علم أنه يقطعها فى آخرها ، فان أول صلاته معصية . ومنع أن يكون البحر انفلق لموسى ، وأن عصاه انقلبت حية ، وأن عيسى أحيا الموتى باذن الله ، وأن القمر انشق للنبى صلى الله عليه وسلم . وأنكر كثيرا من الأمور التى تواترت ، كحصر عثمان بن عفان رضى الله عنه وقتله بالغلبة ، وقال انما جاءته شرذمة قليلة تشكو عماله ، ودخلوا عليه وقتلوه فلا يدرى قاتله .

وقال : ان طلحة والزبير وعلى بن أبى طالب رضى الله عنهم ما جاءوا للقتال فى حرب الجمل ، وانما برزوا للمشاورة ، وتقاتل أتباع الفريقين فى ناحية أخرى . وان الأمة اذا اجتمعت كلها ، وتركت الظلم والفساد ، احتاجت الى امام يسوسها ، فأما اذا عصت وفجرت وقتلت واليها فلا تنعقد الامامة لأحد . وبنى على ذلك أن امامة على رضى الله عنه

(*) ص٣٤٦ جـ٢ ، ط. بولاق .

لم تنعقد ، لأنها كانت في حال الفتنة بعد قتل عثمان — وهو أيضا مذهب الأصم ، وواصل ابن عطاء ، وعمرو بن عبيد — وأنكر اقتضاض الأبكار في الجنة ، وأنكر أن الشيطان يدخل في الانسان ، وانما يوسوس له من خارج ، والله يوصل وسوسته الى قلب ابن آدم . وقال : لا يقال خلق الله الكافر لأنه اسم العبد والكفر جميعا ، وأنكر أن يكون في أسماء الله الضار النافع .

والحادية عشرة الحائطية : أتباع أحمد ابن حائط ، أحد أصحاب ابراهيم بن سيار النظام ، وله بدع شنيعة : منها أن للخلق الهين : أحدهما خالق وهو الاله القديم ، والآخر مخلوق وهو عيسى بن مريم . وزعم أن المسيح ابن الله ، وأنه هو الذى يحاسب الخلق في الآخرة ، وأنه هو المعنى بقول الله تعالى في القرآن « هل ينظرون الا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام » . وزعم في قول النبى صلى الله عليه وسلم « ان الله خلق آدم على صورته » أن معناه خلقه اياه على صورة نفسه ، وأن معنى قوله عليه السلام « انكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر » انما أراد به عيسى .

وزعم أن في الدواب والطيور والحشرات ، حتى البق والبعوض والذباب ، أنبياء لقول الله سبحانه « وان من أمة الا خلا فيها نذير » ، وقوله تعالى « وما من دابة في الأرض ، ولا طائر يطير بجناحيه ، الا أمم أمثالكم ، ما فرطنا في الكتاب من شيء » ، ولقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها » .

وذهب مع ذلك الى القول بالتناسخ ، وزعم أن الله ابتدأ الخلق في الجنة ، وانما خرج من خرج منها بالمعصية . وطعن في النبى صلى الله عليه وسلم من أجل تعدد نكاحه ، وقال : ان أبا ذر الغفارى أنسك وأزهد منه ... قبحه الله . وزعم أن كل من نال خيرا في الدنيا انما هو بعمل كان منه ، ومن ناله مرض أو آفة فبذنب كان منه . وزعم أن روح الله تناسخت في الأئمة .

والثانية عشرة الحمارية : أتباع قوم من معتزلة عسكر مكرم . ومن مذهبهم أن الممسوخ انسان كافر معتقد الكفر ، وأن النظر أوجب المعرفة وهو لا فاعل له ، وكذلك الجماع أوجب الولد فشك في خالق الولد ، وأن الانسان يخلق أنواعا من الحيوانات بطريق التعفين . وزعموا أنه يجوز أن يقدر الله العبد على خلق الحياة والقدرة .

والثالثة عشرة المعمرية : أتباع معمر بن عباد السلمى ، وهو أعظم القدرية غلوا ، وبالغ في رفع الصفات والقدرة بالجملة ، وانفرد بمسائل : منها أن الانسان يدبر الجسد وليس بحال فيه ، والانسان عنده ليس بطويل ولا عريض ، ولا ذى لون وتأليف وحركة ، ولا حال ولا متمكن ، وأن الانسان شيء غير هذا الجسد ، وهو حى عالم قادر مختار ، وليس هو بمتحرك ، ولا ساكن ، ولا متلون ، ولا يرى ، ولا يلمس ، ولا يحل موضعا ، ولا يحويه مكان . فوصف الانسان بوصف الالهية عنده ، فان مدبر العالم موصوف عنده كذلك .

وزعم أن الانسان منعم فى الحياة ، وموزر فى النار ، وليس هو فى الجنة ولا فى النار حالا ولا متمكنا . وقال : ان الله لم يخلق غير الأجسام ، والأعراض تابعة لها متولدة منها ، وأن الأعراض لا تتناهى فى كل نوع ، وأن الارادة من الله للشيء غير الله وغير خلقه ، وأن الله ليس بقديم لأن ذلك أخذ من قدم يقدم فهو قديم .

والرابعة عشرة الثمامية : أتباع ثمامة بن أشرس النميرى . وجمع بين النقائض ، وقال : العلوم كلها ضرورية ، فكل من لم يضطر الى معرفة الله فليس بمأمور بها ، وهو كالبهائم ونحوها . وزعم أن اليهود والنصارى والزنادقة يصيرون يوم القيامة ترابا كالبهائم ، لا ثواب لهم ، ولا عقاب عليهم ألبتة ، لأنهم غير مأمورين ، اذ هم غير مضطرين الى معرفة الله تعالى . وزعم أن الأفعال كلها متولدة لا فاعل لها ، وأن الاستطاعة هى السلامة وصحة الجوارح ، وأن العقل هو الذى يحسن ويقبح ، فتجب معرفة الله قبل ورد الشرع * ، وأن لا فعل للانسان الا الارادة وما عداها فهو حدث .

والخامسة عشرة الجاحظية : أتباع أبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ . وله مسائل تميز بها عن أصحابه : منها أن المعارف كلها ضرورية ، وليس شيء من ذلك من أفعال العباد ، وانما هى طبيعية ، وليس للعباد كسب سوى الارادة ، وأن العباد لا يخلدون فى النار بل يصيرون من طبيعتها ، وأن الله لا يدخل أحدا النار ، وانما النار تجذب أهلها بنفسها وطبيعتها ، وأن القرآن المنزل من قبيل الأجساد ، ويمكن أن يصير مرة رجلا ومرة حيوانا ، وأن الله لا يريد المعاصى ، وأنه لا يرى ، وأن الله يريد بمعنى أنه لا يغلط ، ولا يصح فى حقه السهو فقط ، وأنه يستحيل العدم على الجواهر من الأجسام .

والسادسة عشرة الخياطية : أصحاب أبى الحسين بن أبى عمرو الخياط ، شيخ أبى القاسم الكعبى ، من معتزلة بغداد . زعم أن المعدوم شيء ، وأنه فى العدم جسم ان كان فى حدوثه جسما ، وعرض ان كان فى حدوثه عرضا .

والسابعة عشرة الكعبية : أتباع أبى القاسم عبد الله بن أحمد بن محمود البلخى ، المعروف بالكعبى ، من معتزلة بغداد . انفرد بأشياء : منها أن ارادة الله ليست صفة قائمة بذاته ، ولا هو مدبر لذاته ، ولا ارادته حادثة فى محل ، وانما يرجع ذلك الى العلم فقط ، والسمع والبصر يرجع الى ذلك أيضا . وأنكر الرؤية ، وقال : اذا قلنا انه يرى المرئيات ، فانما ذلك يرجع الى علمه بها وتمييزها قبل أن توجد .

والثامنة عشرة الجبائية : أتباع أبى على محمد بن عبد الوهاب الجبائى ، من معتزلة البصرة ، تفرد بمقالات : منها أن الله تعالى يسمى مطيعا للعبد اذا فعل ما أراد العبد منه ، وأن الله محبل للنساء بخلق الولد فيهن ، وأن كلام الله عرض يوجد فى أمكنة كثيرة ، وفى مكان بعد مكان ، من غير أن يعدم من مكانه الأول ، ثم يحدث فى الثانى . وكان يقف فى فضل على على أبى بكر ، وفضل أبى بكر

(*) ص٣٤٧ جـ٢ ، ط. بولاق .

على على ، ومع ذلك يقول : ان أبا بكر خير من عمر وعثمان ، ولا يقول ان عليا خير من عمر وعثمان .

والتاسعة عشرة البهشمية : أتباع أبى هاشم عبد السلام بن أبى على الجبائى . انفرد ببدع فى مقالاته : منها القول باستحقاق الذم من غير ذنب . وزعم أن القادر منا يجوز أن يخلو عن الفعل والترك ، وأن القادر المأمور المنهى اذا لم يفعل فعلا ولا ترك ، يكون عاصيا مستحق العقاب والذم لا على الفعل لأنه لم يفعل ما أمر به ، وأن الله يعذب الكافرين والعصاة لا على فعل مكتسب ولا على محدث منه .

وقال : التوبة لا تصح من قبيح ، مع الاصرار على قبيح آخر يعلمه أو يعتقده قبيحا وان كان حسنا ، وان التوبة لا تصح مع الاصرار على منع حسنة واجبة عليه ، وان توبة الزانى بعد ضعفه عن الجماع لا تصح . وزعم أن الطهارة غير واجبة ، وانما أمر العبد بالصلاة فى حال كونه متطهرا ، وأن الطهارة تجزىء بالماء المغصوب ، ولا تجزىء الصلاة فى الأرض المغصوبة . وزعم أن الزنج والترك والهنود قادرون على أن يأتوا بمثل هذا القرآن . وقال أبو على وابنه أبو هاشم : الايمان هو الطاعات المفروضة .

والفرقة العشرون من المعتزلة الشيطانية : أتباع محمد بن نعمان — المعروف بشيطان الطاق — وهو من الروافض . شارك كلا من المعتزلة والروافض فى بدعهم ، وقلما يوجد معتزلى الا وهو رافضى الا قليلا منهم . انفرد بطامة وهى أن الله لا يعلم الشىء الا ما قدره وأراده ، وأما قبل تقديره فيستحيل أن يعلمه ، ولو كان عالما بأفعال عباده لاستحال أن يمتحنهم ويختبرهم .

وللمعتزلة أسام : منها الثنوية ... سموا بذلك لقولهم : الخير من الله ، والشر من العبد . ومنهم الكيسانية ، والناكثية ، والأحمدية ، والوهمية ، والبترية ، والواسطية ، والواردية ... سموا بذلك لقولهم : لا يدخل المؤمنون النار وانما يردون عليها ، ومن أدخل النار لا يخرج منها قط . ومنهم الحرقية لقولهم : الكفار لا تحرق الا مرة ، والمفنية القائلون بفناء الجنة والنار ، والواقفية القائلون بالوقف فى خلق القرآن . ومنهم اللفظية القائلون ألفاظ القرآن غير مخلوقة ، والملتزقة القائلون الله بكل مكان ، والقبرية القائلون بانكار عذاب القبر .

« الفرقة الثانية المشبهة » : وهم يغلون فى اثبات صفات الله تعالى ضد المعتزلة ، وهم سبع فرق :

الهشامية : أتباع هشام بن الحكم ، ويقال لهم أيضا الحكمية ، ومن قولهم : الاله تعالى كنور السبيكة الصافية يتلألأ من جوانبه . ويرمون مقاتل بن سليمان بأنه قال : هو لحم ودم على صورة الانسان ، وهو طويل عريض عميق ، وأن طوله مثل عرضه ، وعرضه مثل عمقه ، وهو ذو لون وطعم ورائحة ، وهو سبعة أشبار بشبر نفسه . ولم يصح هذا القول عن مقاتل .

والجولقية : أتباع هشام بن سالم الجولقى ، وهو من الرافضه ايضا . ومن شنيع

قوله أن الله تعالى على صورة الانسان ، نصفه الأعلى مجوف ، ونصفه الأسفل مصمت ، وله شعر أسود ، وليس بلحم ودم ، بل هو نور ساطع ، وله خمس حواس كحواس الانسان ، ويد ورجل وفم وعين وأذن وشعر * أسود ، لا الفرج واللحية .

والبيانية : أتباع بيان بن سمعان ، القائل : هو على صورة الانسان ، ويهلك كله الا وجهه لظاهر الآية « كل شيء هالك الا وجهه » .

والمغيرية : أتباع مغيرة بن سعيد العجلى ، وهو أيضا من الروافض . ومن شنائعه قوله أن أعضاء معبودهم على صورة حروف الهجاء ، فالألف على صورة قدميه . وزعم أنه رجل من نور على رأسه تاج من نور ، وزعم أن الله كتب بأصبعه أعمال العباد من طاعة ومعصية ، ونظر فيهما وغضب من معاصيهم فعرق ، فاجتمع من عرقه بحران عذب ومالح ، وزعم أنه بكل مكان لا يخلو عنه مكان .

والمنهالية : أصحاب منهال بن ميمون .

والزرارية : أتباع زرارة بن أعين .

واليونسية : أتباع يونس بن عبد الرحمن القمى ، وكلهم من الروافض . وسيأتي ذكرهم ان شاء الله تعالى .

ومنهم أيضا : السابية ، والشاكية ، والعملية والمستثنية ، والبدعية ، والعشرية ، والأثرية .

ومنهم الكرامية : أتباع محمد بن كرام السجستانى ، وهم طوائف : الهيضمية ، والاسحاقية ، والجندية وغير ذلك . الا أنهم يعدون فرقة واحدة لأن بعضهم لا يكفر بعضا وكلهم مجسمة ... الا أن فيهم من قال : هو قائم بنفسه ، ومنهم من قال : هو أجزاء مؤتلفة ، وله جهات ونهايات .

ومن قول الكرامية أن الايمان هو قول مفرد ، وهو قول « لا اله الا الله » ، وسواء اعتقد أو لا . وزعموا أن الله جسم ، وله حد ونهاية من جهة السفل ، وتجوز عليه ملاقاة الأجسام التى تحته ، وأنه على العرش والعرش مماس له ، وأنه محل الحوادث من القول والارادة والادراكات والمرئيات والمسموعات ، وأن الله لو علم أحدا من عباده لا يؤمن به لكان خلقه اياهم عبثا ، وأنه يجوز أن يعزل نبيا من الأنبياء والرسل ، ويجوز عندهم على الأنبياء كل ذنب لا يوجب حدا ولايسقط عدالة ، وأنه يجب على الله تعالى تواتر الرسل ، وأنه يجوز أن يكون امامان فى وقت واحد ، وأن عليا ومعاوية كانا امامين فى وقت واحد ، الا أن عليا كان على السنة ومعاوية على خلافها .

وانفرد ابن كرام فى الفقه بأشياء : منها أن المسافر يكفيه من صلاة الخوف تكبيرتان ، وأجاز الصلاة فى ثوب مستغرق فى النجاسة . وزعم أن الصلاة والصوم والزكاة والحج وسائر العبادات تصح بغير نية ، وتكفى نية الاسلام ، وأن النية تجب فى النوافل ، وأنه يجوز الخروج من الصلاة بالأكل والشرب والجماع عمدا ثم البناء عليها . وزعم بعض الكرامية أن لله علمين : أحدهما يعلم به جميع المعلومات ، والآخر يعلم به العلم الأول .

(*) ص٢٤٨ جـ٢ ، طـ بولاق .

« الفرقة الثالثة القدرية » : الغلاة فى اثبات القدرة للعبد فى اثبات الخلق والايجاد ، وأنه لا يحتاج فى ذلك الى معاونة من جهة الله تعالى .

« الفرقة الرابعة المجبرة » : الغلاة فى نفى استطاعة العبد قبل الفعل وبعده ومعه ، ونفى الاختيار له ، ونفى الكسب .

وهاتان الفرقتان متضادتان ، ثم افترقت المجبرة على ثلاث فرق :

الجهمية : أتباع جهم بن صفوان الترمذى ، مولى راسب ، وقتل فى آخر دولة بنى أمية . وهو ينفى الصفات الالهية كلها ، ويقول : لا يجوز أن يوصف البارى تعالى بصفة يوصف بها خلقه ، وان الانسان لا يقدر على شىء ، ولا يوصف بالقدرة ولا الاستطاعة ، وان الجنة والنار يفنيان وتنقطع حركات أهلهما ، وان من عرف الله ولم ينطق بالايمان لم يكفر لأن العلم لا يزول بالصمت ، وهو مؤمن مع ذلك .

وقد كفره المعتزلة فى نفى الاستطاعة ، وكفره أهل السنة بنفى الصفات وخلق القرآن ونفى الرؤية . وانفرد بجواز الخروج على السلطان الجائر ، وزعم أن علم الله حادث لا بصفة يوصف بها غيره .

والبكرية : أتباع بكر ، ابن أخت عبد الواحد ، وهو يوافق النظام فى أن الانسان هو الروح ، ويزعم أن البارى تعالى يرى فى القيامة فى صورة يخلقها ويكلم الناس منها ، وأن صاحب الكبيرة منافق فى الدرك الأسفل من النار ، وحاله أسوأ من حال الكافر . وحرم أكل الثوم والبصل ، وأوجب الوضوء من قرقرة البطن .

والضرارية : أتباع ضرار بن عمر . وانفرد بأشياء : منها أن الله تعالى يرى فى القيامة بحاسة زائدة سادسة ، وأنكر قراءة ابن مسعود ، وشك فى دين عامة المسلمين وقال لعلهم كفار ، وزعم أن الجسم أعراض مجتمعة كما قالت النجارية .

ومن جملة المجبرة البطيخة أتباع اسماعيل البطيخى ، والصباحية أتباع أبى صباح بن معمر ، والفكرية ، والخوفية .

« الفرقة الخامسة المرجئة » : الارجاء اما مشتق من الرجاء ، لأن المرجئة يرجون لأصحاب المعاصى الثواب من الله تعالى ، فيقولون : لا يضر مع الايمان معصية ، كما أنه لا ينفع مع الكفر طاعة . أو يكون مشتقا من الارجاء ، وهو التأخير ، لأنهم أخروا حكم أصحاب الكبائر الى الآخرة .

وحقيقة المرجئة أنهم الغلاة فى اثبات الوعد * والرجاء ، ونفى الوعيد والخوف عن المؤمنين . وهم ثلاثة أصناف : صنف جمعوا بين الرجاء والقدر ، وهم غيلان وأبو شمر من بنى حنيفة . وصنف جمعوا بين الارجاء والجبر ، مثل جهم بن صفوان . وصنف قال بالارجاء المحض .

وهم أربع فرق :

اليونسية : أتباع يونس بن عمرو ، وهو غير يونس بن عبد الرحمن القمى الرافضى .

(*) ص٣٤٩ جـ٢ ، ط. بولاق .

زعم أن الايمان معرفة الله والخضوع له ، والمحبة ، والاقرار بأنه واحد ليس كمثله شيء .

والغسانية : أتباع غسان بن أبان الكوفي ، المنكر نبوة عيسى عليه السلام ، وتلمذ لمحمد ابن الحسن الشيباني ، ومذهبه في الايمان كمذهب يونس . الا أنه يقول : كلّ خصلة من خصال الايمان تسمى بعض الايمان ، ويونس يقول : كل خصلة ليست بايمان ولا بعض ايمان .

وزعم غسان أن الايمان لا يزيد ولا ينقص . وعند أبي حنيفة ، رحمه الله ، الايمان معرفة بالقلب واقرار باللسان ، فلا يزيد ولا ينقص كقرص الشمس .

والثوبانية : أتباع ثوبان المرجي ، ثم الخارجي المعتزلي ، وكان يقال له جامع النقائص ، هاجر الخصائص . ومن قوله : الايمان هو المعرفة والاقرار ، والايمان فعل ما يجب في العقل فعله . فأوجب الايمان بالعقل قبل ورود الشرع ، وفارق الغسانية واليونسية في ذلك .

والتؤمنية : أتباع أبي معاذ التؤمني الفيلسوف . زعم أن من ترك فريضة لا يقال له فاسق على الاطلاق ، ولكن ترك الفريضة فسق . وزعم أن هذه الخصال التي تكون جملتها ايمانا ، فواحدة ليست بايمان ولا بعض ايمان ، وأن من قتل نبيا كفر لا لأجل القتل ، بل لاستخفافه به وبغضه له .

ومن فرق المرجئة : المريسية أتباع بشر بن غياث المريسي . كان عراقي المذهب في الفقه ، تلميذا للقاضي أبي يوسف يعقوب الحضرمي ؛ وقال بنفي الصفات وخلق القرآن ، فأكفرته الصفاتية بذلك . وزعم أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى ، ولا استطاعة مع الفعل ، فأكفرته المعتزلة بذلك . وزعم أن الايمان هو التصديق بالقلب ، وهو مذهب ابن الربوبدي .

ولما ناظره الشافعي في مسألة خلق القرآن ونفي الصفات ، قال له : نصفك كافر لقولك بخلق القرآن ونفي الصفات ، ونصفك مؤمن لقولك بالقضاء والقدر وخلق اكتساب العباد . وبشر معدود من المعتزلة لنفيه الصفات ، وقوله بخلق القرآن .

ومن فرق المرجئة : الصالحية أتباع صالح ابن عمرو بن صالح ، والجحدرية أتباع جحدر بن محمد التميمي ، والزيادية أتباع محمد بن زياد الكوفي ، والشبيبية أتباع محمد بن شبيب ، والناقضية ، والبهشمية .

ومن المرجئة جماعة من الأئمة : كسعيد بن جبير ، وطلق بن حبيب ، وعمرو بن مرة ، ومحارب بن دثار ، وعمرو بن ذر ، وحماد ابن سليمان ، وأبي مقاتل . وخالفوا القدرية والخوارج والمرجئة في أنهم لم يكفروا بالكبائر ولا حكموا بتخليد مرتكبها في النار ، ولا سبوا أحدا من الصحابة ، ولا وقعوا فيهم .

وأول من وضع الارجاء أبو محمد الحسن بن محمد — المعروف بابن الحنفية — بن علي بن أبي طالب ، وتكلم فيه . وصارت المرجئة بعده أربعة أنواع : الأول مرجئة الخوارج ، الثاني مرجئة القدرية ، الثالث مرجئة الجبرية ، الرابع مرجئة الصالحية .

وكان الحسن بن محمد ابن الحنفية يكتب كتبه الى الأمصار يدعو الى الارجاء . الا أنه لم يؤخر العمل عن الايمان كما قال بعضهم ، بل قال : أداء الطاعات وترك المعاصي ليس من الايمان ، لا يزول بزوالها .

وقال ابن قتيبة : أول من وضع الارجاء بالبصرة حسان بن بلال بن الحارث المزنى . وذكر بعضهم أن أول من وضع الارجاء أبا سلت السمان ، ومات سنة اثنتين وخمسين ومائة .

« الفرقة السادسة الحرورية » : الغلاة فى اثبات الوعيد والخوف على المؤمنين ، والتخليد فى النار مع وجود الايمان . وهم قوم من النواصب الخوارج ، وهم مضادون المرجئة فى النفى والاثبات والوعد والوعيد .

ومن مفرداتهم أن من ارتكب كبيرة فهو مشرك ... ومذهب عامة الخوارج أنه كافر وليس بمشرك ، وقال بعضهم هو منافق فى الدرك الأسفل من النار . فعند الحرورية أن الاسم يتغير بارتكاب الكبيرة الواحدة ، فلا يسمى مؤمنا بل كافرا مشركا ، والحكم فيه أنه يخلد فى النار ، واتفقوا على أن الايمان هو اجتناب كل معصية .

وقيل لهم الحرورية ، لأنهم خرجوا الى حروراء لقتال على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وعدتهم اثنا عشر ألفا ، ثم سار على رضى الله عنه اليهم وناظرهم ، ثم قاتلهم وهم أربعة آلاف ، فانضم اليهم جماعة حتى بلغوا اثنى عشر ألفا .

« الفرقة السابعة النجارية » : أتباع الحسن ابن محمد بن عبد الله النجار أبى عبد الله . كان حائكا ، وقيل انه كان يعمل الموازين ، وانه كان من أهل قم ... كان من جملة المجبرة ومتكلميهم ، وله مع النظام عدة مناظرات : منها أنه ناظره مرة ، فلما لم يلحن بحجته رفسه النظام ، وقال له : قم أخزى الله من ينسبك الى شىء من العلم والفهم * . فانصرف محموما ، واعتل حتى مات .

وهم أكثر معتزلة الرى وجهاتها . وهم يوافقون أهل السنة فى مسألة القضاء والقدر ، واكتساب العباد ، وفى الوعد والوعيد ، وامامة أبى بكر رضى الله عنه . ويوافقون المعتزلة فى نفى الصفات ، وخلق القرآن ، وفى الرؤية . وهم ثلاث فرق : البرغوثية ، والزعفرانية ، والمستدركة .

« الفرقة الثامنة الجهمية » : أتباع جهم بن صفوان . وهم يوافقون أهل السنة فى مسألة القضاء والقدر مع ميل الى الجبر ، وينفون الصفات والرؤية ، ويقولون بخلق القرآن . وهم فرقة عظيمة وعدادهم فى المعطلة المجبرة .

« الفرقة التاسعة الروافض » : الغلاة فى حب على بن أبى طالب ، وبغض أبى بكر وعمر وعثمان وعائشة ومعاوية فى آخرين من الصحابة رضى الله عنهم أجمعين . وسموا رافضة لأن زيد بن على بن الحسين بن على ابن أبى طالب ، رضى الله عنهم ، امتنع من لعن أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، وقال : هما وزيرا جدى محمد ، صلى الله عليه وسلم ،

(*) ص ٣٥٠ جـ٢ ، ط. بولاق .

فرفضوا رأيه . ومنهم من قال : لأنهم رفضوا رأى الصحابة رضى الله عنهم ، حيث بايعوا أبا بكر وعمر رضى الله عنهما .

وقد اختلف الناس فى الامام بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم : فذهب الجمهور الى أنه أبو بكر الصديق رضى الله عنه . وقال العباسية والربوبدية أتباع أبى هريرة الربوبدى — وقيل أتباع أبى العباس الربوبدى — هو العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه ، لأنه العم والوارث ، فهو أحق من ابن العم . وقال العثمانية وبنو أمية : هو عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه . وذهب آخرون الى غير ذلك . وقال الرافضة : هو على بن أبى طالب .

ثم اختلفوا فى الامامة اختلافا كثيرا حتى بلغت فرقهم ثلثمائة فرقة ، والمشهور منها عشرون فرقة :

الزيدية والصباحية : أقروا امامة أبى بكر رضى الله عنه ، ورأوا أنه لا نص فى امامة على رضى الله عنه ، واختلفوا فى امامة عثمان رضى الله عنه : فأنكرها بعضهم ، وأقر بعضهم أنه الامام بعد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، لكن قالوا على أفضل من أبى بكر ، وامامة المفضول جائزة .

وقال الغلاة : هو على بالنص ، ثم الحسن وبعده الحسين ، وصار بعد الحسين الأمر شورى . وقال بعضهم : لم يرد النص الا بامامة على فقط ، وقال آخرون : نص على على بالوصف لا بالعين والاسم ، وقال بعضهم : قد جاء النص على امامة اثنى عشر آخرهم المهدى المنتظر .

وفرقهم العشرون هى :

الامامية : وهم مختلفون فى الامامة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم . فزعم أكثرهم أن الامامة فى على بن أبى طالب وأولاده بنص النبى صلى الله عليه وسلم ، وأن الصحابة كلهم قد ارتدوا الا عليا وابنيه الحسن والحسين وأبا ذر الغفارى وسلمان الفارسى وطائفة يسيرة . وأول من تكلم فى مذهب الامامية على بن اسماعيل بن هيثم التمار ، وكان من أصحاب على بن أبى طالب .

وذهبت القطعية منهم الى أن الامامة فى على ، ثم فى الحسن ، ثم فى الحسين ، ثم فى على بن الحسين ، ثم فى محمد بن على ، ثم فى جعفر بن محمد ، ثم فى موسى بن جعفر ، ثم فى على بن موسى . وقطعوا الامامة عليه ، فسموا القطعية لذلك ، ولم يكتبوا امامة محمد بن موسى ولا امامة الحسين بن محمد ابن على بن موسى .

وقالت الناووسية : جعفر بن محمد لم يمت ، وهو حى ينتظر .

وقالت المباركية أتباع مبارك : الامام بعد جعفر بن محمد ابنه اسماعيل بن جعفر ، ثم محمد بن اسماعيل .

وقالت الشميطية أتباع يحيى بن شميط الأحمسى — كان مع المختار قائدا من قواده ، فأنفذه أميرا على جيش البصرة يقاتل مصعب ابن الزبير فقتل بالمدار — الامامة بعد جعفر فى ابنه محمد وأولاده .

وقالت المعمرية أتباع معمر : الامامة بعد جعفر في ابنه عبد الله بن جعفر وأولاده . ويقال لهم الفطحية لأن عبد الله بن جعفر كان أفطح الرجلين .

وقالت الواقفية : الامام بعد جعفر ابنه موسى بن جعفر ، وهو حي لم يمت ، وهو الامام المنتظر . وسموا الواقفية لوقوفهم على امامة موسى .

وقالت الزرارية أتباع زرارة بن أعين : الامام بعد جعفر ابنه عبد الله ، الا أنه سأله عن مسائل فلم يمكنه الجواب عنها ، فادعى امامة موسى بن جعفر من بعد أبيه .

وقالت المفضلية أتباع المفضل بن عمرو : الامام بعد جعفر ابنه موسى ، وانه مات فانتقلت الامامة الى ابنه محمد بن موسى .

وقالت المفوضة من الامامية : ان الله تعالى خلق محمدا ، صلى الله عليه وسلم ، وفوض اليه خلق العالم وتدبيره . وقال بعضهم : بل فوض ذلك الى علي بن أبي طالب .

والفرقة الثانية من فرق الروافض : الكيسانية أتباع كيسان مولى علي بن أبي طالب ، وأخذ عن محمد ابن الحنفية — وقيل بل كيسان اسم المختار بن عبيد الثقفي الذى قام لأخذ ثأر الحسين رضى الله عنه — زعموا أن الامام بعد علي ابنه محمد ابن الحنفية ، لأنه أعطاه الراية يوم الجمل ، ولأن الحسين أوصى اليه عند خروجه الى الكوفة .

ثم اختلفوا في الامام بعد ابن الحنفية . فقال بعضهم : رجع الأمر بعده الى أولاد الحسن * والحسين ، وقيل بل انتقل الى أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية . وقالت الكربية أتباع أبي كرب بأن ابن الحنفية حي لم يمت ، وهو الامام المنتظر . ومن قول الكيسانية أن البدا جائز على الله ... وهو كفر صريح .

والفرقة الثالثة : الخطابية أتباع أبي الخطاب محمد بن أبي ثور — وقيل محمد بن أبي يزيد — الأجدع . ومذهبه الغلو في جعفر بن محمد الصادق ، وهو أيضا من المشبهة ، وأتباعه خمسون فرقة ، وكلهم متفقون على أن الأئمة — مثل علي وأولاده — كلهم أنبياء ، وأنه لابد من رسولين لكل أمة : أحدهما ناطق ، والآخر صامت ، فكان محمد ناطقاً ، وعلي صامتا ، وأن جعفر بن محمد الصادق كان نبيا ، ثم انتقلت النبوة الى أبي الخطاب الأجدع ، وجوزوا كلهم شهادة الزور لموافقيهم ، وزعموا أنهم عالمون بما هو كائن الى يوم القيامة .

وقالت المعمرية منهم : الامام بعد أبي الخطاب رجل اسمه معمر ، وزعموا أن الدنيا لا تفنى ، وأن الجنة هي ما يصيبه الانسان من الخير في الدنيا ، والنار ضد ذلك . وأباحوا شرب الخمر والزنى وسائر المحرمات ، ودانوا بترك الصلاة ، وقالوا بالتناسخ ، وأن الناس لا يموتون وانما ترفع أرواحهم الى غيرهم .

وقالت البزيغية منهم : ان جعفر بن محمد اله ، وليس هو الذى يراه الناس وانما تشبه على الناس ، وزعموا أن كل مؤمن يوحى

(*) ص٢٥١ جـ٢ ، ط. بولاق .

اليه ، وأن منهم من هو خير من جبريل ومیکائیل ومحمد صلى الله عليه وسلم ، وزعموا أنهم يرون أمواتهم بكرة وعشيا .

وقالت العميرية منهم ، أتباع عمير بن بيان العجلى ، مثل ذلك كله ، وخالفوهم فى أن الناس لا يموتون .

وافترقت الخطابية بعد قتل أبى الخطاب فرقا : منها فرقة زعمت أن الامام بعد أبى الخطاب عمير بن بيان العجلى ، ومقالتهم كمقالة البزيغية ، الا أن هؤلاء اعترفوا بموتهم ، ونصبوا خيمة على كناسة الكوفة يجتمعون فيها على عبادة جعفر الصادق . فبلغ ذلك يزيد بن عمير ، فصلب عمير بن بيان فى كناسة الكوفة .

ومن فرقهم المفضلية أتباع مفضل الصيرفي . زعم أن جعفر بن محمد اله ، فطرده ولعنه .

وزعمت الخطابية بأجمعها أن جعفر بن محمد الصادق أودعهم جلدا يقال له « جفر » فيه كل ما يحتاجون اليه من علم الغيب وتفسير القرآن . وزعموا - لعنهم الله - أن قوله تعالى « ان الله يأمركم أن تذبحوا بقرة » معناه عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها ، وأن الخمر والميسر أبو بكر وعمر رضى الله عنهما ، وأن الجبت والطاغوت معاوية بن أبى سفيان وعمرو ابن العاص رضى الله عنهما .

والفرقة الرابعة : الزيدية أتباع زيد بن على ابن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم ، القائلون بامامته وامامة من اجتمع فيه ست خصال : العلم ، والزهد ، والشجاعة ، وأن يكون من أولاد فاطمة الزهراء رضى الله عنها حسنيا أو حسينيا ، ومنهم من زاد صباحة الوجه ، وألا يكون فيه آفة . وهم يوافقون المعتزلة فى أصولهم كلها الا فى مسألة الامامة .

وأخذ مذهب زيد بن على عن واصل بن عطاء ، وكان يفضل عليا على أبى بكر وعمر مع القول بامامتهما .

وهم أربع فرق : الجارودية أتباع أبى الجارود ، ويكنى أبا النجم ، زياد بن المنذر العبدى . زعم أن النبى صلى الله عليه وسلم نص على امامة على بالوصف لا بالتسمية ، وأن الناس كفروا بتركهم مبايعة على رضى الله عنه والحسن والحسين وأولادهما .

والجريرية أتباع سليم بن جرير . ومن قوله لم يكفر الناس بتركهم مبايعة على ، بل أخطأوا بترك الأفضل وهو على ، وكفروا الجارودية بتكفيرهم الصحابة ، الا أنهم كفروا عثمان بن عفان بالأحداث التى أحدثها ، وقالوا لم ينص علىّ على امامة أحد ، وصار الأمر من بعده شورى .

ومنهم البترية أتباع الحسن بن صالح بن كثير الأبتر . وقولهم أن عليا أفضل وأولى بالامامة ، غير أن أبا بكر كان اماما ، ولم تكن امامته خطأ ولا كفرا ، بل ترك على الامامة له ، وأما عثمان فيتوقف فيه .

ومنهم اليعقوبية أتباع يعقوب . وهم يقولون بأمامة أبى بكر وعمر ، ويتبرأون ممن تبرأ منهما ، وينكرون رجعة الأموات الى الدنيا قبل يوم القيامة ، ويتبرأون ممن دان بها ... الا أنهم متفقون على تفضيل علىّ على

أبي بكر وعمر ، من غير تفسيقهما ولاتكفيرهما ولا لعنهما ، ولا الطعن على أحد من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين .

والفرقة الخامسة : السبائية أتباع عبد الله ابن سبأ الذى قال شفاها لعلى بن أبى طالب : أنت الاله . وكان من اليهود ، ويقول فى يوشع بن نون مثل قوله ذلك فى على ، وزعم أن عليا لم يقتل ، وأنه حي لم يمت ، وأنه فى السحاب ، وأن الرعد صوته والبرق سوطه ، وأنه ينزل الى الأرض بعد حين ... قبحه الله .

والفرقة السادسة : الكاملية أتباع أبى كامل . أكفر جميع الصحابة بتركهم بيعة على ، وكفر عليا بتركه قتالهم ، وقال بتناسخ الأنوار الالهية فى الأئمة .

والفرقة السابعة : البيانية أتباع بيان بن سمعان . زعم أن روح الاله حل فى الأنبياء ، ثم فى على ، وبعده فى محمد ابن الحنفية ، ثم فى ابنه أبى هاشم عبد الله بن محمد ، ثم حل بعد أبى هاشم فى بيان بن سمعان ... يعنى نفسه * ، لعنه الله .

والفرقة الثامنة : المغيرية أتباع مغيرة بن سعيد العجلى ، مولى خالد بن عبد الله ، طلب الامامة لنفسه بعد محمد بن عبد الله بن الحسن ، فخرج على خالد بن عبد الله القسرى بالكوفة فى عشرين رجلا فعطعطوا به ، فقال خالد : أطعمونى ماء ، وهو على المنبر ، فعير بذلك .

والمغيرة هذا قال بالتشبيه الفاحش ، وادعى النبوة ، وزعم أن معجزته علمه بالاسم الأعظم ، وأنه يحيى الموتى ، وزعم أن الله لما أراد أن يخلق العالم كتب بأصبعه أعمال عباده ، فغضب من معاصيهم فعرق ، فاجتمع من عرقه بحران : أحدهما مالح والآخر عذب ، فخلق من البحر العذب الشيعة ، وخلق الكفرة من البحر الملح . وزعم أن المهدى يخرج وهو محمد بن عبد الله ابن الحسن بن الحسين بن على بن أبى طالب .

والفرقة التاسعة : الهشامية ، وهم صنفان : أحدهما أتباع هشام بن الحكم ، والثانى أتباع هشام الجولقى . وهما يقولان لاتجوز المعصية على الامام ، وتجوز على الأنبياء ، وأن محمدا عصى ربه فى أخذ الفداء من أسرى بدر ... كذبا لعنهما الله . وهما أيضا مع ذلك من المشبهة .

والفرقة العاشرة : الزرارية أتباع زرارة بن أعين ، أحد الغلاة فى الرفض ، ويزعم مع ذلك أن الله تعالى لم يكن فى الأزل عالما ولا قادرا حتى اكتسب لنفسه جميع ذلك ... قبحه الله .

والفرقة الحادية عشرة : الجناحية أتباع عبد الله بن معاوية ذى الجناحين ابن أبى طالب . وزعم أنه اله ، وأن العلم ينبت فى قلبه كما تنبت الكمأة ، وأن روح الاله دارت فى الأنبياء كما كانت فى على وأولاده ، ثم صارت فيه .

ومذهبهم استحلال الخمر والميتة ونكاح المحارم ، وأنكروا القيامة ، وتأولوا قوله تعالى « ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا اذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات » ، وزعموا أن كل ما فى القرآن من تحريم الميتة والدم ولحم

(*) ص٣٥٢ ج٢ ، ط بولاق .

الخنزير ، كناية عن قوم يلزم بغضهم ، مثل أبى بكر وعمر وعثمان ومعاوية ، وكل ما فى القرآن من الفرائض التى أمر الله بها كناية عمن يلزم موالاتهم ، مثل على والحسن والحسين وأولادهم .

والثانية عشرة : المنصورية أتباع أبى منصور العجلى ، أحد الغلاة المشبهة ، زعم أن الامامة انتقلت اليه بعد محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب ، وأنه عرج به الى السماء بعد انتقال الامامة اليه ، وأن معبوده مسح بيده على رأسه ، وقال له : يابنى بلغ عنى آية الكسف الساقط من السماء فى قوله تعالى « وان يروا كسفا من السماء ساقطا يقولوا سحاب مركوم ... » الآية . وزعم أن أهل الجنة قوم تجب موالاتهم مثل على بن أبى طالب وأولاده ، وأن أهل النار قوم تجب معاداتهم مثل أبى بكر وعمر وعثمان ومعاوية ، رضى الله عنهم .

والثالثة عشرة : الغرابية . زعموا — لعنهم الله — أن جبريل أخطأ ، فانه أرسل الى على ابن أبى طالب فجاء الى محمد صلى الله عليه وسلم ، وجعلوا شعارهم اذا اجتمعوا أن يقولوا : « العنوا صاحب الريش » ، يعنون جبريل عليه السلام ، وعليهم اللعنة .

والرابعة عشرة : الذمية (بفتح الذال المعجمة) زعموا — أخزاهم الله — أن على ابن أبى طالب بعثه الله نبيا ، وأنه بعث محمدا صلى الله عليه وسلم ليظهر أمره ، فادعى النبوة لنفسه ، وأرضى عليا بأن زوجه ابنته وموله . ومنهم العليانية أتباع عليان بن ذراع السدوسى — وقيل الأسدى — كان يفضل عليا على النبى صلى الله عليه وسلم ، ويزعم أن عليا بعث محمدا . وكان — لعنه الله — يذم النبى صلى الله عليه وسلم ، لزعمه أن محمدا بعث ليدعو الى على ، فدعا الى نفسه .

ومن العليانية من يقول بالهية محمد وعلى جميعا ، ويقدمون محمدا فى الالهية ، ويقال لهم الميمية . ومنهم من قال بالهية خمسة — وهم أصحاب الكساء : محمد ، وعلى ، وفاطمة ، والحسن ، والحسين — وقالوا : خمستهم شىء واحد ، والروح حالة فيهم بالسوية لا فضل لواحد منهم على الآخر ، وكرهوا أن يقولوا « فاطمة » بالهاء ، فقالوا « فاطم » . قال بعضهم :

توليت بعد الله فى الدين خمسة
نبيا ، وسبطيه ، وشيخا ، وفاطما

والخامسة عشرة : اليونسية أتباع يونس بن عبد الله القمى ، أحد الغلاة المشبهة .

والسادسة عشرة : الرزامية أتباع رزام بن سابق . زعم أن الامامة انتقلت بعد على بن أبى طالب الى ابنه محمد بن الحنفية ، ثم الى ابنه أبى هاشم ، ثم الى على بن عبد الله بن عباس بالوصية ، ثم الى ابنه محمد بن على ، فأوصى بها محمد الى أبى العباس عبد الله بن محمد السفاح ، الظالم المتردد فى المذاهب ، الجاهل بحقوق أهل البيت .

والسابعة عشرة : الشيطانية أتباع محمد بن النعمان شيطان الطاق . وقد شارك المعتزلة والرافضة فى جميع مذهبهم ، وانفرد بأعظم الكفر — قاتله الله — وهو أنه زعم أن الله

لا يعلم الشيء حتى يقدره ، وقبل ذلك يستحيل علمه .

والثامنة عشرة : البسلمية وهم من الراوندية زعموا أن الامامة ، بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، صارت فى على وأولاده الحسن والحسين * ومحمد ابن الحنفية ، ثم فى أبى هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية ، وانتقلت منه الى على بن عبد الله بن عباس بوصيته اليه ، ثم الى أبى العباس السفاح ، ثم الى أبى سلمة صاحب دولة بنى العباس .

وقام بناحية كش ، فيما وراء النهر ، رجل من أهل مرو أعور — يقال له هاشم — ادعى أن أبا سلمة كان الها انتقل اليه روح الله ، ثم انتقل اليه بعده . فانتشرت دعوته هناك ، واحتجب عن أصحابه ، واتخذ له وجها من ذهب ، فعرف بالمصيغ .

ثم ان أصحابه طلبوا رؤيته . فوعدهم أن يريهم نفسه ان لم يحترقوا ، وعمل تجاه مرآه مرآة محرقة تعكس شعاع الشمس . فلما دخلوا عليه احترق بعضهم ، ورجع الباقون وقد فتنوا ، واعتقدوا أنه اله لا تدركه الأبصار ، ونادوا فى حروبهم بالهيته .

والتاسعة عشرة : الجعفرية .

والعشرون : الصباحية ، وهم والزيدية أمثل الشيعة ، فانهم يقولون بامامة أبى بكر ، وأنه لا نص فى امامة على ، مع أنه عندهم أفضل وأبو بكر مفضول .

ومن فرق الروافض : الحلوية ، والشاعية ، والشريكية يزعمون أن عليا شريك محمد صلى الله عليه وسلم ، والتناسخية القائلون ان الأرواح تتناسخ ، واللاعنة ، والمخطئة الذين يزعمون أن جبريل أخطأ ، والاسحاقية ، والخلفية الذين يقولون لا تجوز الصلاة خلف غير الامام ، والرجعية القائلون سيرجع على ابن أبى طالب وينتقم من أعدائه ، والمتربصية الذين يتربصون خروج المهدى ، والامرية ، والجبية ، والجلالية ، والكريبية أتباع أبى كريب الضرير ، والحزنية أتباع عبد الله بن عمرو الحزنى .

« الفرقة العاشرة الخوارج » : ويقال لهم النواصب والحرورية — نسبة الى حروراء : موضع خرج فيه أولهم على على رضى الله عنه — وهم الغلاة فى حب أبى بكر وعمر وبغض على بن أبى طالب ، رضوان الله عليهم أجمعين ، ولا أجهل منهم ، فانهم القاسطون المارقون . خرجوا على على رضى الله عنه ، وانفصلوا عنه بالجملة وتبرأوا منه ، ومنهم من صحبه ، ومنهم من كان فى زمنه . وهم جماعة قد دون الناس أخبارهم ، وهم عشرون فرقة .

الأولى : يقال لهم الحكمية ، لأنهم خرجوا على على رضى الله عنه فى صفين ، وقالوا : لا حكم الا لله ولا حكم للرجال ، وانحازوا عنه الى حروراء ، ثم الى النهروان . وسبب ذلك أنهم حملوه على التحاكم الى من حكم بكتاب الله ، فلما رضى بذلك — وكانت قضية الحكمين : أبى موسى الأشعرى وهو عبد الله ابن قيس ، وعمرو بن العاص — غضبوا من ذلك ، ونابذوا عليا ، وقالوا فى شعارهم : لا

(*) من ٣٥٢ ج٢ ، ط بولاق .

حكم الا لله ولرسوله . وكان امامهم في التحكيم عبد الله بن الكواء .

والثانية : الأزارقة أتباع أبى راشد نافع ابن الأزرق بن قيس بن نهار بن انسان بن أسد بن صبرة بن ذهل بن الدول بن حنيفة ، الخارج بالبصرة فى أيام عبد الله بن الزبير . وهم على التبرى من عثمان وعلى والطعن عليهما ، وأن دار مخالفيهم دار كفر ، وأن من أقام بدار الكفر فهو كافر ، وأن أطفال مخالفيهم فى النار ويحل قتلهم . وأنكروا رجم الزانى ، وقالوا من قذف محصنة حد ، ومن قذف محصنا لا يحد ، ويقطع السارق فى القليل والكثير .

والثالثة : النجدات — ولم يقل فيهم النجدية ليفرق بينهم وبين من انتسب الى بلاد نجد — فانهم أتباع نجد بن عويمر . وهو عامر الحنفى الخارج باليمامة ، وكان رأسا ذا مقالة مفردة ، وتسمى بأمير المؤمنين ، وبعث عطية بن الأسود الى سجستان ، فأظهر مذهبه بمرو ، فعرفت أتباعه بالعطوية .

ومذهبهم أن الدين أمران : أحدهما معرفة الله تعالى ومعرفة رسوله ، وتحريم دماء المسلمين وأموالهم . والثانى الاقرار بما جاء من عند الله تعالى جملة ، وما سوى ذلك من التحريم والتحليل وسائر الشرائع فان الناس يعذرون بجهلها ، وأنه لا يأثم المجتهد اذا أخطأ ، وأن من خالف أن يعذب المجتهد فقد كفر . واستحلوا دماء أهل الذمة فى دار التقية ، وقالوا من نظر نظرة محرمة ، أو كذب كذبه ، أو أصر على صغيرة ولم يتب منها ، فهو كافر . ومن زنى أو سرق أو شرب خمرا من غير أن يصر على ذلك ، فهو مؤمن غير كافر .

والرابعة : الصفرية أتباع زياد بن الأصفر ، ويقال أتباع النعمان بن صفر ، وقيل بل نسبوا الى عبد الله بن صفار ، وهو أحد بنى مقاعس ، وهو الحارث بن عمرو بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم بن أد بن طابخة بن الياس بن مضر بن نزار ، وقيل عبد الله الصفار من بنى صويمر بن مقاعس ، وقيل سموا بذلك لصفرة علتهم ، وزعم بعضهم أن الصفرية بكسر الصاد .

وقد وافق الصفرية الأزارقة فى جميع بدعهم ، الا فى قتل الأطفال . ويقال للصفرية أيضا الزيادية ، ويقال لهم أيضا النكار من أجل أنهم ينقصون نصف علىّ وثلث عثمان وسدس عائشة ، رضى الله عنهم .

والخامسة : العجاردة أتباع عبد الكريم بن عجرد .

والسادسة : الميمونية أتباع ميمون بن عمران . وهم طائفة من العجاردة وافقوا الأزارقة الا فى شيئين : أحدهما قولهم تجب البراءة من الأطفال حتى يبلغوا ويصفوا الاسلام ، والثانى استحلال أموال المخالفين لهم . فلم تستحل الميمونية مال أحد خالفهم ما لم يقتل المالك ، فاذا قتل صار ماله فيئا ... الا أنهم * ازدادوا كفرا على كفرهم ، وأجازوا نكاح بنات البنات وبنات البنين ، وبنات أولاد الاخوة وبنات أولاد الأخوات فقط .

(*) ص٣٥٤ جـ٢ ، ط. بولاق .

والسابعة : الشعيبية وهم طائفة من العجاردة وافقوا الميمونيــة فى جميع بدعهم ، الا فى الاستطاعة والمشيئة ، فان الميمونية مالت الى القدرية .

والثامنة : الحمزية أتبــاع حمزة بن أدرك الشامى ، الخارج بخراسان فى خلافة هارون ابن محمد الرشيد ، وكثر عيثـه وفساده ، ثم فض جموع عيسى بن على عامل خراسان ، وقتل منهم خلقا كثيرا ، فانهزم منه عيسى الى كابل ، وآل أمر حمزة الى أن غرق فى كرمان بواد هناك ، فعرفت أصحابه بالحمزية .

وكان يقــول بالقــدر ، فكفرته الأزارقة بذلك . وقال أطفــال المشركين فى النار ، فكفرته القدرية بذلك . وكان لا يستحل غنائم أعدائه ، بل يأمر باحراق جميــع ما يغنمــه منهم .

والتاسعــة : الحــازمية ، وهم فــرقة من العجاردة قالوا فى القدر والمشيئة كقول أهل السنة ، وخالفوا الخوارج فى الولاية والعداوة فقالوا : لم يزل الله تعــالى محبا لأوليــائه ومبغضا لأعدائه .

والعاشرة : المعلومية ، مع المجهولية تباينــا فى مسألتين : احداهما قالت المعلومية : من لم يعرف الله تعالى بجميع أسمائه فهو كافر ، وقالت المجهولية : لا يكون كافرا . والثانيــة وافقت المعلومية أهل السنة فى مسألة القدر والمشيئة ، والمجهوليــة وافقت القــدرية فى ذلك .

والحادية عشرة : الصلتية أتباع عثمان بن أبى الصلت ، وهم طائفة من العجاردة انفردوا بقولهم : من أسلم توليـنــاه لــكن تتبرأ من أطفاله ، لأنه ليس للأطفال اسلام حتى يبلغوا .

والثانية عشرة والثالثــة عشرة : الأحسنية والمعبدية ، وهما فرقتان من الثعالبــة أتباع ثعلبة بن عامر . وكان ثعلبة هذا مع عبد الكريم ابن عجرد ، ثم اختلفا فى الأطفال : فقال عبد الكريم : نتبرأ منهم قبل البلوغ ، وقال ثعلبة : لا نتبرأ منهم بل نقول نتولى الصغار .

فلم تزل الثعالبــة على هذا الى أن خرج رجل ، عرف بالأخنس ، فقال : نتوقف عن جميع من فى دار التقيــة ، الا من عرفنا منه ايمانا فانا نتولاه ، ومن عرفنا منه كفرا تبرأنا منه ، ولا يجوز أن نبدأ أحدا بقتال . فتبرأت منه الثعالبة ، وسموه بالأخنس ، لأنه خنس منهم ، أى رجع عنهم .

ثم خرجت فرقة من الثعالبة ، قيــل لهــا المعبدية أتباع معبد ، فخالفت الثعالبة فى أخذ الزكاة من العبيد والبهائم ، وكفرت كل فرقة منهما الأخرى .

والرابعة عشرة : الشيبانية أتباع شيبان بن سلمة ، الخارج فى أيام أبى مسلم الخراسانى القائم بدعوة الخلفاء العباسيين ، وكان معه ، فتبرأت منه الثعالبة لمعاونته لأبى مسلم . وهو أول من أظهر القول بالتشبيه ... تعالى الله عن ذلك .

والخامسة عشرة : الشبيبية أتباع شبيب بن يزيد بن أبى نعيم ، الخارج فى خلافة عبــد الملك بن مروان ، وصاحب الحروب العظيمة مع الحجاج بن يوسف الثقفى . وهم على ما كانت عليه الحكمية الأولى ، الا أنهم انفردوا

عن الخوارج بجواز امامة المرأة وخلافتها . واستخلف شبيب هـذا أمه غزالة ، فدخلت الكوفة ، وقامت خطيبـة ، وصلت الصـبح بالمسجد الجامع ، فقرأت فى الركعـة الأولى بالبقرة ، وفى الثانية بآل عمران ... وأخبار شبيب طويلة .

والسادسة عشرة : الرشيدية أتباع رشيد ، ويقال لهم أيضا العشرية من أجل أنهم كانوا يأخذون نصف العشر مما سقت الأنهار . فقال لهم زياد بن عبد الرحمن : يجب فيه العشر ، فتبرأت كل فرقة من الأخرى وكفرتها بذلك .

والسابعة عشرة : المكرمية أتباع أبى المكرم ، ومن قوله : تارك الصلاة كافر ، وليس كفره لترك الصلاة لكن لجهله بالله . وكذا قوله فى سائر الكبائر .

والثامنة عشرة : الحفصية أتباع حفص بن المقدام ، أحد أصحاب عبد الله بن أباض . تفرد بقوله : من عرف الله تعالى ، وكفر بما سواه من رسول وغيره ، فهو كافر وليس بمشرك . فأنكر ذلك الاباضية وقالوا : بل هو مشرك .

والتاسعة عشرة : الأباضية أتباع عبد الله بن أباض من بنى مقاعس ، واسمه الحـارث بن عمرو — ويقال بل ينسبون الى « أباض » (بضم الهمزة) وهى قرية بالعرض من اليمامة نزل بها نجد بن عامر — وخرج عبد الله بن أباض فى أيام مروان وكان من غلاة الحكمة .

والفرقة العشرون : اليزيدية أتباع يزيد بن أبى أنيسة ، وكان أباضيا ، فانفرد بـبدعة قبيحة . وهى أن الله تعالى سيبعث رسولا من العجم ، وينزل عليه كتابا جملة واحدة ينسخ به شريعة محمد صلى الله عليه وسلم .

ومن فرق الخوارج أيضا : الحارثيـة ، والأصومية أتباع يحيى بن أصوم ، والبيهسية أتباع أبى البيهس الهيصم بن خالد من بنى سعيد بن ضبعـة : كان فى زمن الحجاج ، وقتـل بالمدينـة وصلب ، واليعقوبية أتباع يعقوب بن على الكوفى .

ومن فرقهم : الفضلية أتباع فضل بن عبد الله ، والشمراخية أتباع عبد الله بن شمراخ ، والضحاكية أتباع الضحاك .

والخـوارج يقـال لهم الشراة : واحدهم شارى ، مشتق من شرى الرجل اذا ألح ، أو معنـاه يسـتشرى * بالشر ، أو من قـول الخوارج : شرينا أنفسـنا لدين الله ، فنحن لذلك شراة . وقيل انه من قولهم : شاريته أى لاححته وماريته ، وقيل شرى الرجل غضبا اذا استطار غضبا ، وقيـل لهم هذا لشـدة غضبهم على المسلمين .

ذكر الحال فى عقائد أهل الاسلام منـذ ابتداء الملة الاسلامية الى أن انتشر مذهب الأشعرية

اعلم أن الله تعالى لما بعث من العرب نبيـه محمدا ، صلى الله عليه وسلم ، رسولا الى الناس جميعا ، وصـف لهم ربهم سـبحانه وتعالى ، بما وصف به نفسه الكريمة فى كتابه العزيز الذى نزل به على قلبه صلى الله عليـه

(*) ص٣٥٥ ج٢ ، ط. بولاق .

وسلم الروح الأمين ، وبما أوحي اليه ربه تعالى .

فلم يسأله صلى الله عليه وسلم أحد من العرب بأسرهم — قرويهم وبدويهم — عن معنى شيء من ذلك ، كما كانوا يسألونه صلى الله عليه وسلم عن أمر الصلاة والزكاة والصيام والحج ، وغير ذلك مما لله فيه سبحانه أمر ونهي ، وكما سألوه صلى الله عليه وسلم عن أحوال القيامة والجنة والنار . اذ لو سأله انسان منهم عن شيء من الصفات الالهية ، لنقل كما نقلت الأحاديث الواردة عنه صلى الله عليه وسلم فى أحكام الحلال والحرام ، وفى الترغيب والترهيب وأحوال القيامة والملاحم والفتن ، ونحو ذلك مما تضمنته كتب الحديث معاجمها ومسانيدها وجوامعها .

ومن أمعن النظر فى دواوين الحديث النبوى ، ووقف على الآثار السلفية ، علم أنه لم يرد قط ، من طريق صحيح ولا سقيم ، عن أحد من الصحابة رضى الله عنهم — على اختلاف طبقاتهم وكثرة عددهم — أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن معنى شيء مما وصف الرب سبحانه به نفسه الكريمة فى القرآن الكريم ، وعلى لسان نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، بل كلهم فهموا معنى ذلك ، وسكتوا عن الكلام في الصفات ... نعم ، ولا فرق أحد منهم بين كونها صفة ذات أو صفة فعل .

وانما أثبتوا له تعالى صفات أزلية من العلم والقدرة والحياة والارادة والسمع والبصر والكلام والجلال والاكرام والجود والانعام والعز والعظمة ، وساقوا الكلام سوقا واحدا .

وهكذا أثبتوا ، رضى الله عنهم ، ما أطلقه الله سبحانه على نفسه الكريمة من الوجه واليد ونحو ذلك ، مع نفى مماثلة المخلوقين . فأثبتوا رضى الله عنهم بلا تشبيه ، ونزهوا من غير تعطيل ، ولم يتعرض مع ذلك أحد منهم الى تأويل شيء من هذا ، ورأوا بأجمعهم اجراء الصفات كما وردت .

ولم يكن عند أحد منهم ما يستدل به على وحدانية الله تعالى ، وعلى اثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، سوى كتاب الله ، ولا عرف أحد منهم شيئا من الطرق الكلامية ولا مسائل الفلسفة . فمضى عصر الصحابة رضى الله عنهم على هذا ... الى أن حدث فى زمنهم القول بالقدر ، وأن الأمر أنفة : أى أن الله تعالى لم يقدر على خلقه شيئا مما هم عليه .

وكان أول من قال بالقدر فى الاسلام معبد ابن خالد الجهنى ، وكان يجالس الحسن بن الحسين البصرى ، فتكلم فى القدر بالبصرة ، وسلك أهل البصرة مسلكه لما رأوا عمرو بن عبيد ينتحله . وأخذ معبد هذا الرأى عن رجل من الأساورة يقال له أبو يونس سنسويه ، ويعرف بالأسوارى . فلما عظمت الفتنة به ، عذبه الحجاج وصلبه بأمر عبد الملك بن مروان سنة ثمانين . ولما بلغ عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما مقالة معبد فى القدر تبرأ من القدرية .

واقتدى بمعبد فى بدعته هذه جماعة ، وأخذ السلف رحمهم الله فى ذم القدرية ، وحذروا منهم كما هو معروف فى كتب الحديث . وكان عطاء بن يسار قاضيا يرى القدر ، وكان يأتى هو ومعبد الجهنى الى

الحسن البصرى ، فيقولان له : ان هؤلاء يسفكون الدماء ، ويقولون : انما تجرى أعمالنا على قدر الله . فقال : كذب أعداء الله فطعن عليه بهذا ومثله .

وحدث أيضا فى زمن الصحابة رضى الله عنهم مذهب الخوارج ، وصرحوا بالتكفير بالذنب ، والخروج على الامام وقتاله . فناظرهم عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ، فلم يرجعوا الى الحق ، وقاتلهم أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وقتل منهم جماعة كما هو معروف فى كتب الأخبار .

ودخل فى دعوة الخوارج خلق كثير ، ورمى جماعة من أئمة الاسلام بأنهم يذهبون الى مذهبهم ، وعد منهم غير واحد من رواة الحديث كما هو معروف عند أهله .

وحدث أيضا فى زمن الصحابة رضى الله عنهم مذهب التشيع لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه ، والغلو فيه . فلما بلغه ذلك أنكره ، وحرق بالنار جماعة ممن غلا فيه ، وأنشد :

لما رأيت الأمر أمرا منكرا
أججت نارى ودعوت قنبرا

وقام فى زمنه رضى الله عنه عبد الله بن وهب ابن سبأ — المعروف بابن السوداء السبأى — وأحدث القول بوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلى بالامامة من بعده ، فهو وصى رسول الله صلى الله علىه وسلم ، وخليفته على أمته من بعده بالنص . وأحدث القول برجعة على بعد موته الى الدنيا ، وبرجعة رسول الله صلى الله عليه وسلم * أيضا .

(*) ص ٣٥٦ ج٢ ، ط بولاق .

وزعم أن عليا لم يقتل ، وأنه حى ، وأن فيه الجزء الالهى ، وأنه هو الذى يجىء فى السحاب ، وأن الرعد صوته والبرق سوطه ، وأنه لابد أن ينزل الى الأرض فيملأها عدلا كما ملئت جورا .

ومن ابن سبأ هذا تشعبت أصناف الغلاة من الرافضة ، وصاروا يقولون بالوقف — يعنون أن الامامة موقوفة على أناس معينين — كقول الامامية بأنها فى الأئمة الاثنى عشر ، وقول الاسماعيلية بأنها فى ولد اسماعيل بن جعفر الصادق . وعنه أيضا أخذوا القول بغيبة الامام ، والقول برجعته بعد الموت الى الدنيا ، كما تعتقده الامامية الى اليوم فى صاحب السرداب ، وهو القول بتناسخ الأرواح . وعنه أخذوا أيضا القول بأن الجزء الالهى يحل فى الأئمة بعد على بن أبى طالب ، وأنهم بذلك استحقوا الامامة بطريق الوجوب ، كما استحق آدم عليه السلام سجود الملائكة ، وعلى هذا الرأى كان اعتقاد دعاة الخلفاء الفاطميين ببلاد مصر .

وابن سبأ هذا هو الذى أثار فتنة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه حتى قتل — كما ذكر فى ترجمة ابن سبأ من كتاب « التاريخ الكبير المقفى » — وكان له عدة أتباع فى عامة الأمصار ، وأصحاب كثيرون فى معظم الأقطار . فكثرت لذلك الشيعة ، وصاروا ضدا للخوارج ، وما زال أمرهم يقوى وعددهم يكثر .

ثم حدث بعد عصر الصحابة رضى الله عنهم مذهب جهم بن صفوان ببلاد المشرق ، فعظمت الفتنة به . فانه نفى أن يكون لله تعالى صفة ،

وأورد على أهل الاسلام شكوكا أثرت فى الملة الاسلامية آثارا قبيحة تولد عنها بلاء كبير . وكان قبيل المائة من سنى الهجرة ، فكثر أتباعه على أقواله التى تؤول الى التعطيل .

فأكبر أهل الاسلام بدعته ، وتمالئوا على انكارها وتضليل أهلها ، وحذروا من الجهمية وعادوهم فى الله ، وذموا من جلس اليهم ، وكتبوا فى الرد عليهم ما هو معروف عند أهله .

وفى أثناء ذلك حدث مذهب الاعتزال ، منذ زمن الحسن بن الحسين البصرى رحمه الله بعد المائتين من سنى الهجرة ، وصنفوا فيه مسائل فى العدل والتوحيد ، واثبات أفعال العباد ، وأن الله تعالى لا يخلق الشر ، وجهروا بأن الله لا يرى فى الآخرة ، وأنكروا عذاب القبر على البدن ، وأعلنوا بأن القرآن مخلوق محدث ... الى غير ذلك من مسائلهم .

فتبعهم خلائق فى بدعهم ، وأكثروا من التصنيف فى نصرة مذهبهم بالطرق الجدلية . فنهى أئمة الاسلام عن مذهبهم ، وذموا علم الكلام ، وهجروا من ينتحله . ولم يزل أمر المعتزلة يقوى ، وأتباعهم تكثر ، ومذهبهم ينتشر فى الأرض .

ثم حدث مذهب التجسيم المضاد لمذهب الاعتزال . فظهر محمد بن كرام بن عراق بن حزابة أبو عبد الله السجستانى ، زعيم الطائفة الكرامية ، بعد المائتين من سنى الهجرة ، وأثبت الصفات حتى انتهى فيها الى التجسيم والتشبيه ، وحج وقدم الشام ، ومات بزغرة فى صفر سنة ست وخمسين ومائتين ، فدفن بالمقدس .

وكان هناك من أصحابه زيادة على عشرين ألفا على التعبد والتقشف ، سوى من كان منهم ببلاد المشرق وهم لا يحصون لكثرتهم ، وكان اماما لطائفتى الشافعية والحنفية . وكانت بين الكرامية بالمشرق وبين المعتزلة مناظرات ، ومناكرات ، وفتن كثيرة متعددة أزماتها .

هذا وأمر الشيعة يفشو فى الناس . حتى حدث مذهب القرامطة المنسوبين الى حمدان الأشعث ، المعروف بقرمط من أجل قصر قامته وقصر رجليه وتقارب خطوه . وكان ابتداء أمر قرمط هذا فى سنة أربع وستين ومائتين ، وكان ظهوره بسواد الكوفة ، فاشتهر مذهبه بالعراق .

وقام من القرامطة ببلاد الشام صاحب الحال والمدثر والمطوق . وقام بالبحرين منهم أبو سعيد الجنابى من أهل جنابة ، وعظمت دولته ودولة بنيه من بعده ، حتى أوقعوا بعساكر بغداد ، وأخافوا خلفاء بنى العباس ، وفرضوا الأموال التى تحمل اليهم فى كل سنة على أهل بغداد وخراسان والشام ومصر واليمن ، وغزوا بغداد والشام ومصر والحجاز ، وانتشرت دعاتهم بأقطار الأرض .

فدخل جماعات من الناس فى دعوتهم ، ومالوا الى قولهم الذى سموه علم الباطن . وهو تأويل شرائع الاسلام ، وصرفها عن ظواهرها الى أمور زعموها من عند أنفسهم ، وتأويل آيات القرآن ودعواهم فيها تأويلا بعيدا ، انتحلوا القول به بدعا ابتدعوها بأهوائهم ، فضلوا وأضلوا عالما كثيرا .

هذا وقد كان المأمون عبد الله بن هارون الرشيد ، سابع خلفاء بنى العباس ببغداد ، لما شغف بالعلوم القديمة ، بعث الى بلاد الروم من عرّب له كتب الفلاسفة ، وأتاه بها فى أعوام بضع عشرة سنة ومائتين من سنى الهجرة ، فانتشرت مذاهب الفلاسفة فى الناس ، واشتهرت كتبهم بعامة الأمصار ، وأقبلت المعتزلة والقرامطة والجهمية وغيرهم عليها ، وأكثروا من النظر فيها والتصفح لها . فانجر على الاسلام وأهله من علوم الفلاسفة ما لا يوصف من البلاء والمحنة فى الدين ، وعظم بالفلسفة ضلال أهل البدع ، وزادتهم كفرا الى كفرهم .

فلما قامت دولة بنى بويه ببغداد فى سنة أربع وثلاثين وثلثمائة ، واستمروا الى * سنة سبع وثلاثين وأربعمائة ، وأظهروا مذهب التشيع ... قويت بهم الشيعة ، وكتبوا على أبواب المساجد فى سنة احدى وخمسين وثلثمائة « لعن الله معاوية بن أبى سفيان ، ولعن من أغضب فاطمة ، ومن منع الحسن أن يدفن عند جده ، ومن نفى أبا ذر الغفارى ، ومن أخرج العباس من الشورى » . فلما كان الليل حكه بعض الناس ، فأشار الوزير المهلبى أن يكتب باذن معز الدولة « لعن الله الظالمين لأهل البيت » ولا يذكر أحد فى اللعن غير معاوية ، ففعل ذلك .

وكثرت ببغداد الفتن بين الشيعة والسنية ، وجهر الشيعة فى الأذان بحى على خير العمل فى الكرخ . وفشا مذهب الاعتزال بالعراق وخراسان وما وراء النهر ، وذهب اليه جماعة من مشاهير الفقهاء .

وقوى مع ذلك أمر الخلفاء الفاطميين بأفريقية وبلاد المغرب ، وجهروا بمذهب الاسماعيلية ، وبثوا دعاتهم بأرض مصر ، فاستجاب لهم خلق كثير من أهلها ، ثم ملكوها سنة ثمان وخمسين وثلثمائة ، وبعثوا بعساكرهم الى الشام .

فانتشرت مذاهب الرافضة فى عامة بلاد المغرب ومصر والشام وديار بكر والكوفة والبصرة وبغداد وجميع العراق وبلاد خراسان وما وراء النهر ، مع بلاد الحجاز واليمن والبحرين ، وكانت بينهم وبين أهل السنة من الفتن والحروب والمقاتل ما لا يمكن حصره لكثرته .

واشتهرت مذاهب الفرق من القدرية والجهمية والمعتزلة والكرامية والخوارج والروافض والقرامطة والباطنية حتى ملأت الأرض . وما منهم الا من نظر فى الفلسفة ، وسلك من طرقها ما وقع عليه اختياره ، فلم تبق مصر من الأمصار ، ولا قطر من الأقطار ، الا وفيه طوائف كثيرة ممن ذكرنا .

وكان أبو الحسن على بن اسماعيل الأشعرى قد أخذ عن أبى على محمد بن عبد الوهاب الجبائى ، ولازمه عدة أعوام . ثم بدا له فترك مذهب الاعتزال ، وسلك طريق أبى محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن كلاب ، ونسج على قوانينه فى الصفات والقدر ، وقال بالفاعل المختار ، وترك القول بالتحسين والتقبيح العقليين ، وما قيل فى مسائل الصلاح

(*) ص٢٥٧ جـ٢ ، ط. بولاق .

والأصلح ، وأثبت أن العقل لا يوجب المعارف قبل الشرع ، وأن العلوم وان حصلت بالعقل فلا تجب به ولا يجب البحث عنها الا بالسمع ، وأن الله تعالى لا يجب عليه شيء ، وأن النبوات من الجائزات العقلية والواجبات السمعية ... الى غير ذلك من مسائله التى هى موضوع أصول الدين .

وحقيقة مذهب الأشعرى ، رحمه الله ، أنه سلك طريقا بين النفى الذى هو مذهب الاعتزال ، وبين الاثبات الذى هو مذهب أهل التجسيم ، وناظر على قوله هذا ، واحتج لمذهبه .

فمال اليه جماعة ، وعولوا على رأيه : منهم القاضى أبو بكر محمد بن الطيب الباقلانى المالكى ، وأبو بكر محمد بن الحسن بن فورك ، والشيخ أبو اسحاق ابراهيم بن محمد ابن مهران الأسفراينى ، والشيخ أبو اسحاق ابراهيم بن على بن يوسف الشيرازى ، والشيخ أبو حامد محمد بن محمد بن أحمد الغزالى ، وأبو الفتح محمد بن عبد الكريم ابن أحمد الشهرستانى ، والامام فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين الرازى ، وغيرهم ممن يطول ذكره . ونصروامذهبه ، وناظروا عليه ، وجادلوا فيه ، واستدلوا له فى مصنفات لا تكاد تحصر . فانتشر مذهب أبى الحسن الأشعرى فى العراق من نحو سنة ثمانين وثلثمائة ، وانتقل منه الى الشام .

فلما ملك السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ديار مصر ، كان هو وقاضيه صدر الدين عبد الملك بن عيسى بن درباس المارانى على هذا المذهب ، قد نشآ عليه منذ كانا فى خدمة السلطان الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى بدمشق ، وحفظ صلاح الدين فى صباه عقيدة ألفها له قطب الدين أبو المعالى مسعود بن محمد بن مسعود النيسابورى ، وصار يحفظها صغار أولاده ، فلذلك عقدوا الخناصر ، وشدوا البنان على مذهب الأشعرى ، وحملوا فى أيام دولتهم كافة الناس على التزامه .

فتمادى الحال على ذلك جميع أيام الملوك من بنى أيوب ، ثم فى أيام مواليهم الملوك من الأتراك . واتفق مع ذلك توجه أبى عبد الله محمد بن تومرت ، أحد رحالات المغرب ، الى العراق ، وأخذ عن أبى حامد الغزالى مذهب الأشعرى . فلما عاد الى بلاد المغرب ، وقام فى المصامدة يفقههم ويعلمهم ، وضع لهم عقيدة لقفها عنه عامتهم ، ثم مات .

فخلفه بعد موته عبد المؤمن بن على القيسى ، وتلقب بأمير المؤمنين ، وغلب على ممالك المغرب هو وأولاده من بعده مدة سنين ، وتسموا بالموحدين ... فلذلك صارت دولة الموحدين ببلاد المغرب تستبيح دماء من خالف عقيدة ابن تومرت ، اذ هو عندهم الامام المعلوم المهدى المعصوم ، فكم أراقوا بسبب ذلك من دماء خلائق لا يحصيها الا الله خالقها سبحانه وتعالى ، كما هو معروف فى كتب التاريخ .

فكان هذا هو السبب فى اشتهار مذهب الأشعرى ، وانتشاره فى أمصار الاسلام بحيث نسى غيره من المذاهب وجهل . حتى لم يبق اليوم مذهب يخالفه ، الا أن * يكون مذهب

(*) ص ٣٥٨ جـ ٢ ، ط . بولاق .

الحنابلة ، أتباع الامام أبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل رضي الله عنه ، فانهم كانوا على ما كان عليه السلف لا يرون تأويل ما ورد من الصفات . الى أن كان بعد السبعمائة من سنى الهجرة ، اشتهر بدمشق وأعمالها تقى الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحكم بن عبد السلام بن تيمية الحرانى ، فتصدى للانتصار لمذهب السلف ، وبالغ فى الرد على مذهب الأشاعرة ، وصدع بالنكير عليهم وعلى الرافضة وعلى الصوفية .

فافترق الناس فيه فريقان : فريق يقتدى به ، ويعول على أقواله ، ويعمل برأيه ، ويرى أنه شيخ الاسلام وأجل حفاظ أهل الملة الاسلامية . وفريق يبدعه ويضلله ، ويزرى عليه باثباته الصفات ، وينتقد عليه مسائل : منها ما له فيه سلف ، ومنها ما زعموا أنه خرق فيه الاجماع ولم يكن له فيه سلف . وكانت له ولهم خطوب كثيرة ، وحسابه وحسابهم على الله الذى لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، وله الى وقتنا هذا عدة أتباع بالشام وقليل بمصر .

هذا وبين الأشاعرة والماتريدية أتباع أبى منصور محمد بن محمد بن محمود الماتريدى ، وهم طائفة الفقهاء الحنفية مقلدو الامام أبى حنيفة النعمان بن ثابت وصاحبيه أبى يوسف يعقوب بن ابراهيم الحضرمى ومحمد بن الحسن الشيبانى رضى الله عنهم ، من الخلاف فى العقائد ما هو مشهور فى موضعه . وهو اذا تتبع يبلغ بضع عشرة مسألة ، كان بسببها فى أول الأمر تباين وتنافر ، وقدح كل منهم فى عقيدة الآخر ... الا أن الأمر آل آخرا الى الاغضاء ، ولله الحمد .

فهذا — أعزك الله — بيان ما كانت عليه عقائد الأمة — من ابتداء الأمر الى وقتنا هذا — قد فصلت فيه ما أجمله أهل الأخبار ، وأجملت ما فصلوا . فدونك ، طالب العلم ، تناول ما قد بذلت فيه جهدى ، وأطلت بسببه سهرى وكدى فى تصفح دواوين الاسلام وكتب الأخبار . فقد وصل اليك صفوا ، ونلته عفوا بلا تكلف مشقة ولا بذل مجهود ، ولكن الله يمن على من يشاء من عباده .

« أبو الحسن » على بن اسماعيل بن أبى بشر اسحاق بن سالم بن اسماعيل بن عبد الله ابن موسى بن بلال بن أبى بردة عامر بن أبى موسى — واسمه عبد الله بن قيس — الأشعرى البصرى : ولد سنة ست وستين ومائتين ، وقيل سنة سبعين ، وتوفى ببغداد سنة بضع وثلاثين وثلثمائة ، وقيل سنة أربع وعشرين وثلثمائة .

سمع زكريا الساجى ، وأبا خليفة الجمحى ، وسهل بن نوح ، ومحمد بن يعقوب المقرى ، وعبد الرحمن بن خلف الضبى المصرى ، وروى عنهم فى تفسيره كثيرا ، وتلمذ لزوج أمه أبى على محمد بن عبد الوهاب الجبائى ، واقتدى برأيه فى الاعتزال عدة سنين حتى صار من أئمة المعتزلة ، ثم رجع عن القول بخلق القرآن وغيره من آراء المعتزلة .

وصعد يوم الجمعة بجامع البصرة كرسيا ، ونادى بأعلى صوته : من عرفنى فقد عرفنى ، ومن لم يعرفنى فأنا أعرفه بنفسى . أنا فلان

ابن فلان ، كنت أقول بخلق القرآن ، وأن الله لا يرى بالأبصار ، وأن أفعال الشر أنا أفعلها . وأنا تائب مقلع ، معتقد الرد على المعتزلة ، مبين لفضائحهم ومعايبهم .

وأخذ من حينئذ في الرد عليهم ، وسلك بعض طريق أبي محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن كلاب القطان ، وبنى على قواعده ، وصنف خمسة وخمسين تصنيفا : منها كتاب « اللمع » ، وكتاب « الموجز » ، وكتاب « ايضاح البرهان » ، وكتاب « التبيين على أصول الدين » ، وكتاب « الشرح والتفصيل في الرد على أهل الافك والتضليل » ، وكتاب « الابانة » ، وكتاب « تفسير القرآن » يقال انه في سبعين مجلدا . وكانت غلته من ضيعة وقفها بلال بن أبي بردة على عقبه ، وكانت نفقته في السنة سبعة عشر درهما ، وكانت فيه دعابة ومزح كثير .

وقال مسعود بن شيبة في كتاب التعليم : كان حنفي المذهب ، معتزلي الكلام ، لأنه كان ربيب أبي على الجبائي ، وهو الذي رباه وعلمه الكلام . وذكر الخطيب أنه كان يجلس أيام الجمعات في حلقة أبي اسحاق المروزي الفقيه في جامع المنصور .

وعن أبي بكر بن الصيرفي : كان المعتزلة قد رفعوا رؤوسهم حتى أظهر الله تعالى الأشعري ، فحجزهم في أقماع السماسم .

وجملة عقيدته : أن الله تعالى عالم بعلم ، قادر بقدرة ، حي بحياة ، مريد بارادة ، متكلم بكلام ، سميع بسمع ، بصير ببصر ، وأن صفاته أزلية قائمة بذاته تعالى ، لا يقال هي هو ولا هي غيره ، ولا لا هي هو ولا غيره ، وعلمه واحد يتعلق بجميع المعلومات ، وقدرته واحدة تتعلق بجميع ما يصح وجوده ، وارادته واحدة تتعلق بجميع ما يقبل الاختصاص ، وكلامه واحد : هو أمر ونهي ، وخبر واستخبار ، ووعد ووعيد .

وهذه الوجوه راجعة الى اعتبارات في كلامه لا الى نفس الكلام ، والألفاظ المنزلة على لسان الملائكة الى الأنبياء دلالات على الكلام الأزلي . فالمدلول — وهو القرآن المقروء — قديم أزلي ، والدلالة — وهي العبارات ، وهي القراءة — مخلوقة محدثة .

قال : وفرق بين القراءة والمقروء ، والتلاوة والمتلو . كما فرق بين الذكر والمذكور ... قال : والكلام معنى قائم بالنفس ، والعبارة دالة على ما في النفس ، وانما تسمى العبارة كلاما مجازا .

قال : وأراد الله تعالى جميع الكائنات : خيرها وشرها ونفعها وضرها . ومال * في كلامه الى جواز تكليف ما لا يطاق ، لقوله : ان الاستطاعة مع الفعل ، وهو مكلف بالفعل قبله ، وهو غير مستطيع قبله ، على مذهبه ... قال : وجميع أفعال العباد مخلوقة مبدعة من الله تعالى ، مكتسبة للعبد ، والكسب عبارة عن الفعل القائم بمحل قدرة العبد .

قال : والخالق هو الله تعالى حقيقة ، لا يشاركه في الخلق غيره ، فأخص وصفه هو

(*) ص٣٥٦ جـ٢ ، ط. بولاق

القدرة والاختراع ، وهذا تفسير اسمه الباريء ...

قال : وكل موجود يصح أن يرى ، والله تعالى موجود ، فيصح أن يرى ، وقد صح السمع بأن المؤمنين يرونه فى الدار الأخرى فى الكتاب والسنة ، ولا يجوز أن يرى فى مكان ولا صورة مقابلة واتصال شعاع ، فان ذلك كله محال . وماهية الرؤية له فيها رأيان : أحدهما أنه علم مخصوص يتعلق بالوجود دون العدم ، والثانى أنه ادراك وراء العلم . وأثبت السمع والبصر صفتين أزليتين ، هما ادراكان وراء العلم . وأثبت اليدين والوجه صفات خبرية ، ورد السمع بها فيجب الاعتراف به .

وخالف المعتزلة فى الوعد والوعيد ، والسمع والعقل من كل وجه . وقال : الايمان هو التصديق بالقلب ، والقول باللسان . والعمل بالأركان فروع الايمان : فمن صدق بالقلب ، أى أقر بوحدانية الله تعالى ، واعترف بالرسل تصديقا لهم فيما جاءوا به ، فهو مؤمن . وصاحب الكبيرة اذا خرج من الدنيا من غير توبة ، حكمه الى الله : اما أن يغفر له برحمته أو يشفع له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واما أن يعذبه بعدله ، ثم يدخله الجنة برحمته ، ولا يخلد فى النار مؤمن .

قال : ولا أقول انه يجب على الله سبحانه قبول توبته بحكم العقل ، لأنه هو الموجب لا يجب عليه شيء أصلا ، بل قد ورد السمع بقبول توبة التائبين ، واجابة دعوة المضطرين . وهو المالك لخلقه يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد ، فلو أدخل الخلائق بأجمعهم النار لم يكن جورا ، ولو أدخلهم الجنة لم يكن حيفا ، ولا يتصور منه ظلم ، ولا ينسب اليه جور ، لأنه الملك المطلق .

والواجبات كلها سمعية ، فلا يوجب العقل شيئا ألبتة ، ولا يقتضى تحسينا ولا تقبيحا . فمعرفة الله تعالى ، وشكر المنعم ، واثابة الطائع ، وعقاب العاصى ... كل ذلك بحسب السمع دون العقل . ولا يجب على الله شيء : لا صلاح ولا أصلح ولا لطف ، بل الثواب والصلاح واللطف والنعم ، كلها تفضل من الله تعالى . ولا يرجع اليه تعالى نفع ولا ضر ، فلاينتفع بشكر شاكر ، ولايتضرر بكفر كافر ، بل يتعالى ويتقدس عن ذلك .

وبعث الرسل جائز لا واجب ولا مستحيل . فاذا بعث الله تعالى الرسول ، وأيده بالمعجزة الخارقة للعادة ، وتحدى ودعا الناس ، وجب الاصغاء اليه ، والاستماع منه ، والامتثال لأوامره ، والانتهاء عن نواهيه . وكرامات الأولياء حق ، والايمان بما جاء فى القرآن والسنة من الاخبار عن الأمور الغائبة عنا — مثل اللوح والقلم ، والعرش والكرسى ، والجنة والنار — حق وصدق .

وكذلك الاخبار عن الأمور التى ستقع فى الآخرة : مثل سؤال القبر ، والثواب والعقاب فيه ، والحشر والمعاد ، والميزان والصراط ، وانقسام فريق فى الجنة وفريق فى السعير ... كل ذلك حق وصدق يجب الايمان والاعتراف به . والامامة تثبت بالاتفاق والاختيار دون النص والتعيين على واحد معين ، والأئمة مترتبون فى الفضل ترتبهم فى الامامة .

قال : ولا أقول فى عائشة وطلحة والزبير ، رضى الله عنهم ، الا أنهم رجعوا عن الخطأ . وأقول : ان طلحة والزبير من العشرة المبشرين بالجنة ، وأقول فى معاوية وعمرو بن العاص : انهما بغيا على الامام الحق على بن أبى طالب رضى الله عنهم ، فقاتلهم مقاتلة أهل البغى . وأقول : ان أهل النهروان الشراة هم المارقون عن الدين ، وان عليا رضى الله عنه كان على الحق فى جميع أحواله ، والحق معه حيث دار .

فهذه جملة من أصول عقيدته التى عليها الآن جماهير أهل الأمصار الاسلامية ، والتى من جهر بخلافها أريق دمه .

والأشاعرة يسمون « الصفاتية » لاثباتهم صفات الله تعالى القديمة . ثم افترقوا فى الألفاظ الواردة فى الكتاب والسنة — كالاستواء ، والنزول ، والاصبع واليد ، والقدم ، والصورة ، والجنب ، والمجىء — على فرقتين : فرقة تؤول جميع ذلك على وجوه محتملة اللفظ . وفرقة لم يتعرضوا للتأويل ، ولا صاروا الى التشبيه ، ويقال لهؤلاء الأشعرية الأسرية .

فصار للمسلمين فى ذلك خمسة أقوال : أحدها اعتقاد ما يفهم مثله من اللغة ، وثانيها السكوت عنها مطلقا ، وثالثها السكوت عنها بعد نفى ارادة الظاهر ، ورابعها حملها على المجاز ، وخامسها حملها على الاشتراك . ولكل فريق أدلة وحجاج تضمنتها كتب أصول الدين « ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك ولذلك خلقهم » ، « والله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » .

« فصل » : اعلم أن الله سبحانه طلب من الخلق معرفته بقوله تعالى « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون » ... قال ابن عباس وغيره : يعرفون . فخلق تعالى الخلق ، وتعرف اليهم بألسنة الشرائع المنزلة ، فعرفه من عرفه سبحانه منهم على ما عرّفهم فيما تعرّف به اليهم .

وقد كان الناس ، قبل انزال الشرائع ببعثة الرسل عليهم السلام ، علمهم * بالله تعالى انما هو بطريق التنزيه له عن سمات الحدوث ، وعن التركيب ، وعن الافتقار ، ويصفونه سبحانه بالاقتدار المطلق . وهذا التنزيه هو المشهور عقلا ، ولا يتعداه عقل أصلا .

فلما أنزل الله شريعته على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، وأكمل دينه ، كان سبيل العارف بالله أن يجمع فى معرفته بالله بين معرفتين : احداهما المعرفة التى تقتضيها الأدلة العقلية ، والأخرى المعرفة التى جاءت بها الاخبارات الالهية ، وأن يرد علم ذلك الى الله تعالى ، ويؤمن به وبكل ما جاءت به الشريعة على الوجه الذى أراده الله تعالى ، من غير تأويل بفكره ، ولا تحكم فيه برأيه .

وذلك أن الشرائع انما أنزلها الله تعالى لعدم استقلال العقول البشرية بادراك حقائق الأشياء على ما هى عليه فى علم الله . وأنى لها ذلك وقد تقيدت بما عندها من اطلاق ما هنالك ؟ فان وهبها علما بمراده من الأوضاع الشرعية ، ومنحها الاطلاع على حكمه فى ذلك ... كان من فضله تعالى .

(*) ص٣٦٠ جـ٢ ، ط. بولاق .

فلا يضيف العارف هذه المنة الى فكره ، فان تنزيهه لربه تعالى بفكره يجب أن يكون مطابقا لما أنزله سبحانه على لسان رسوله ، صلى الله عليه وسلم ، من الكتاب والسنة . والا فهو تعالى منزه عن تنزيه عقول البشر بأفكارها ، فانها مقيدة بأوطارها ، فتنزيهها كذلك مقيد بحسبها وبموجب أحكامها وآثارها ... الا اذا خلت عن الهوى ، فانها حينئذ يكشف الله لها الغطاء عن بصائرها ، ويهديها الى الحق . فتنزه الله تعالى عن التنزيهات العرفية بالأفكار العادية .

وقد أجمع المسلمون قاطبة على جواز رواية الأحاديث الواردة فى الصفات ونقلها وتبليغها ، من غير خلاف بينهم فى ذلك . ثم أجمع أهل الحق منهم على أن هذه الأحاديث مصروفة عن احتمال مشابهة الخلق ، لقول الله تعالى : « ليس كمثله شىء ، وهو السميع البصير » ، ولقول الله تعالى : « قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفوا أحد » .

وهذه السورة يقال لها سورة الاخلاص . وقد عظم رسول الله صلى الله عليه وسلم شأنها ، ورغب أمته فى تلاوتها ... حتى جعلها تعدل ثلث القرآن من أجل أنها شاهدة بتنزيه الله تعالى ، وعدم الشبه والمثل له سبحانه . وسميت سورة الاخلاص ، لاشتمالها على اخلاص التوحيد لله عن أن يشوبه ميل الى تشبيهه بالخلق . وأما الكاف التى فى قوله تعالى « ليس كمثله شىء » فانها زائدة . وقد تقرر أن الكاف والمثل فى كلام العرب أتيا للتشبيه ، فجمعهما الله تعالى ، ثم نفى بهما عنه ذلك .

فاذا ثبت اجماع المسلمين على جواز رواية هذه الأحاديث ونقلها ، مع اجماعهم على أنها مصروفة عن التشبيه ، لم يبق فى تعظيم الله تعالى بذكرها الا نفى التعطيل ... لكون أعداء المرسلين سموا ربهم سبحانه أسماء نفوا فيها صفاته العلا . فقال قوم من الكفار : هو طبيعة ، وقال آخرون منهم : هو علة ، الى غير ذلك من الحادهم فى أسمائه سبحانه .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الأحاديث المشتملة على ذكر صفات الله العلا ، ونقلها عنه أصحابه البررة ، ثم نقلها عنهم أئمة المسلمين . حتى انتهت الينا ، وكل منهم يرويها بصفتها من غير تأويل لشىء منها ، مع علمنا أنهم كانوا يعتقدون أن الله سبحانه وتعالى « ليس كمثله شىء وهو السميع البصير » ... ففهمنا من ذلك أن الله تعالى أراد — بما نطق به رسوله ، صلى الله عليه وسلم ، من هذه الأحاديث ، وتناولها عنه الصحابة رضى الله عنهم وبلغوها لأمته — أن يغص بها فى حلوق الكافرين ، وأن يكون ذكرها نكتا فى قلوب كل ضال معطل مبتدع يقفو أثر المبتدعة من أهل الطبائع وعباد العلل . فلذلك وصف الله تعالى نفسه الكريمة بها فى كتابه ، ووصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم أيضا بما صح عنه وثبت .

فدل على أن المؤمن اذا اعتقد أن الله «ليس كمثله شىء ، وهو السميع البصير » ، وأنه أحد صمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له

كفوا أحد ... كان ذكره لهذه الأحاديث تمكين الاثبات ، وشجا فى حلوق المعطلة . وقد قال الشافعى رحمه الله : الاثبات أمكن ... نقله الخطابى . ولم يبلغنا عن أحد من الصحابة والتابعين وتابعيهم أنهم أولوا هذه الأحاديث .

والذى يمنع من تأويلها اجلال الله تعالى عن أن تضرب له الأمثال ، وأنه اذا نزل القرآن بصفة من صفات الله تعالى ، كقوله سبحانه « يد الله فوق أيديهم » ، فان نفس تلاوة هذا يفهم منها السامع المعنى المراد به ، وكذا قوله تعالى « بل يداه مبسوطتان » عند حكايته تعالى عن اليهود نسبتهم اياه الى البخل ، فقال تعالى : « بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء » ، فان نفس تلاوة هذا مبينة للمعنى المقصود .

وأيضا فان تأويل هذه الأحاديث يحتاج أن يضرب لله تعالى فيها المثل ، نحو قولهم فى قوله تعالى « الرحمن على العرش استوى » : الاستواء الاستيلاء ، كقولك « استوى الأمير على البلد » . وأنشدوا : « قد استوى بشر على العراق » ، فلزمهم تشبيه البارى تعالى ببشر .

وأهل الاثبات نزهوا جلال الله عن أن يشبهوه بالأجسام حقيقة ولا مجازا ، وعلموا — مع ذلك — أن هذا النطق يشتمل على كلمات متداولة بين الخالق وخلقه ، وتحرجوا أن يقولوا مشتركة ، لأن الله * تعالى لا شريك له . ولذلك لم يتأول السلف شيئا من أحاديث الصفات ، مع علمنا قطعا أنها عندهم مصروفة عما يسبق اليه ظنون الجهال من مشابهتها لصفات المخلوقين .

وتأمل تجد الله تعالى لما ذكر المخلوقات المتولدة من الذكر والأنثى فى قوله سبحانه « خلق لكم من أنفسكم أزواجا ومن الأنعام أزواجا يذرؤكم فيه » ، علم سبحانه ما يخطر بقلوب الخلق فقال عز من قائل : « ليس كمثله شىء ، وهو السميع البصير » .

واعلم أن السبب فى خروج أكثر الطوائف عن ديانة الاسلام : أن الفرس كانت من سعة الملك ، وعلو اليد على جميع الأمم ، وجلالة الخطر فى أنفسها ... بحيث انهم كانوا يسمون أنفسهم الأحرار والأسياد ، وكانوا يعدون سائر الناس عبيدا لهم . فلما امتحنوا بزوال الدولة عنهم على أيدى العرب — وكانت العرب عند الفرس أقل الأمم خطرا — تعاظمهم الأمر ، وتضاعفت لديهم المصيبة ، وراموا كيد الاسلام بالمحاربة فى أوقات شتى ، وفى كل ذلك يظهر الله تعالى الحق .

وكان من قائميهم شنفاد وأشنيس والمقفع وبابك وغيرهم ، وقبل هؤلاء رام ذلك عمار — الملقب خداشا — وأبو مسلم السروح ، فرأوا أن كيده على الحيلة أنجع ، فأظهر قوم منهم الاسلام ، واستمالوا أهل التشيع باظهار محبة أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم واستبشاع ظلم على بن أبى طالب رضى الله عنه ، ثم سلكوا بهم مسالك شتى حتى أخرجوهم عن طريق الهدى .

فقوم أدخلوهم الى القول بأن رجلا ينتظر ، يدعى المهدى ، عنده حقيقة الدين ، اذ لا يجوز أن يؤخذ الدين عن كفار ، اذ نسبوا أصحاب

(*) ص ٢٦١ ج ٢ ، ط . بولاق .

رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الكفر . وقوم خرجوا الى القول بادعاء النبوة لقوم سموهم به . وقوم سلكوا بهم الى القول بالحلول ، وسقوط الشرائع . وآخرون تلاعبوا بهم ، فأوجبوا عليهم خمسين صلاة فى كل يوم وليلة . وآخرون قالوا : بل هى سبع عشرة صلاة ، فى كل صلاة خمس عشرة ركعة . وهو قول عبد الله بن عمرو بن الحارث الكندى قبل أن يصير خارجيا صفريا .

وقد أظهر عبد الله بن سبأ الحميرى اليهودى الاسلام ليكيد أهله ، فكان هو أصل اثارة الناس على عثمان بن عفان رضى الله عنه . وأحرق على رضى الله عنه منهم طوائف أعلنوا بالهيته . ومن هذه الأصول حدثت الاسماعيلية والقرامطة .

والحق الذى لا ريب فيه أن دين الله تعالى ظاهر لا باطن فيه ، وجوهر لا سر تحته ، وهو كله لازم كل أحد لا مسامحة فيه . ولم يكتم رسول الله صلى الله عليه وسلم من الشريعة ولا كلمة ، ولا أطلع أخص الناس به ، من زوجة أو ولد عم ، على شيء من الشريعة كتمه عن الأحمر والأسود ورعاة الغنم . ولا كان عنده صلى الله عليه وسلم سر ، ولا رمز ، ولا باطن غير ما دعا الناس كلهم اليه . ولو كتم شيئا لما بلغ كما أمر ، ومن قال هذا فهو كافر باجماع الأمة .

وأصل كل بدعة فى الدين البعد عن كلام السلف ، والانحراف عن اعتقاد الصدر الأول . حتى بالغ القدرى فى القدر فجعل العبد خالقا لأفعاله ، وبالغ الجبرى فى مقابلته فسلب عنه الفعل والاختيار ، وبالغ المعطل فى التنزيه فسلب عن الله تعالى صفات الجلال ونعوت الكمال ، وبالغ المشبه فى مقابلته فجعله كواحد من البشر ، وبالغ المرجىء فى سلب العقاب ، وبالغ المعتزلى فى التخليد فى العذاب ، وبالغ الناصبى فى دفع على رضى الله عنه عن الامامة ، وبالغت الغلاة حتى جعلوه الها ، وبالغ السنى فى تقديم أبى بكر رضى الله عنه ، وبالغ الرافضى فى تأخيره حتى كفره .

وميدان الظن واسع ، وحكم الوهم غالب . فتعارضت الظنون ، وكثرت الأوهام ، وبلغ كل فريق فى الشر والعناد والبغى والفساد الى أقصى غاية وأبعد نهاية ، وتباغضوا وتلاعنوا ، واستحلوا الأموال واستباحوا الدماء ، وانتصروا بالدول واستعانوا بالملوك . فلو كان أحدهم اذا بالغ فى أمر ، نازع الآخر فى القرب منه — فان الظن لا يبعد عن الظن كثيرا ، ولا ينتهى فى المنازعة الى الطرف الآخر من طرفى التقابل — لكنهم أبوا الا ما قدمنا ذكره من التدابر والتقاطع . « ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك » .

ذكر المدارس

قال ابن سيده : درس الكتاب يدرسه درسا ودراسة ، ودارسه من ذلك كأنه عاوده حتى انقاد لحفظه ، وقد قرىء بهما « وليقولوا درست » ودارست ، ذاكرتهم ، وحكى درست أى قرئت ، وقرىء درست ودرست ، أى هذه أخبار قد عفت وانمحت ، ودرّست أشد مبالغة ، والدراس المدارسة .

وقال ابن جنى : ودرسته اياه وأدرسته .

ومن الشاذ قراءة ابن حيوة « وبما كنتم تدرسون » . والمدرس : الموضع الذى يدرس فيه .

وقد ذكر الواقدى أن عبد الله ابن أم مكتوم قدم مهاجرا الى المدينة مع مصعب بن عمير رضى الله عنهما — وقيل قدم بعد بدر بيسير — فنزل دار القراء .

ولما أراد الخليفة المعتضد بالله أبو العباس أحمد بن الموفق بالله أبى أحمد طلحة بن المتوكل على الله جعفر ، بناء قصره * فى الشماسية ببغداد ، استزاد فى الذرع بعد أن فرغ من تقدير ما أراد . فسئل عن ذلك ، فذكر أنه يريده ليبنى فيه دورا ومساكن ومقاصير ، يرتب فى كل موضع رؤساء كل صناعة ومذهب من مذاهب العلوم النظرية والعملية ، ويجرى عليهم الأرزاق السنية ، ليقصد كل من اختار علما أو صناعة رئيس ما يختاره فيأخذ عنه .

والمدارس مما حدث فى الاسلام ، ولم تكن تعرف فى زمن الصحابة ولا التابعين ، وانما حدث عملها بعد الأربعمائة من سنى الهجرة . وأول من حفظ عنه أنه بنى مدرسة فى الاسلام أهل نيسابور ، فبنيت بها المدرسة البيهقية ، وبنى بها أيضا الأمير نصر بن سبكتكين مدرسة ، وبنى بها أخو السلطان محمود بن سبكتكين مدرسة ، وبنى بها أيضا المدرسة السعيدية ، وبنى بها أيضا مدرسة رابعة .

وأشهر ما بنى فى القديم المدرسة النظامية ببغداد ، لأنها أول مدرسة قرر بها للفقهاء معاليم ، وهى منسوبة الى الوزير نظام الملك أبى على الحسن بن على بن اسحاق بن العباس الطوسى ، وزير ملك شاه بن ألب أرسلان ابن داود بن ميكال بن سلجوق فى مدينة بغداد .

وشرع فى بنائها فى سنة سبع وخمسين وأربعمائة ، وفرغت فى ذى القعدة سنة تسع وخمسين وأربعمائة ، ودرس فيها الشيخ أبو اسحاق الشيرازى الفيروزبادى ، صاحب كتاب «التنبيه فى الفقه» على مذهب الامام الشافعى رضى الله عنه ورحمه . فاقتدى الناس به من حينئذ فى بلاد العراق وخراسان وما وراء النهر ، وفى بلاد الجزيرة وديار بكر .

وأما مصر فانها كانت حينئذ بيد الخلفاء الفاطميين ، ومذهبهم مخالف لهذه الطريقة ، وانما هم شيعة اسماعيلية كما تقدم .

وأول ما عرف اقامة درس من قبل السلطان ، بمعلوم جار لطائفة من الناس بديار مصر ، فى خلافة العزيز بالله نزار بن المعز ووزارة يعقوب بن كلس . فعمل ذلك بالجامع الأزهر ، كما تقدم ذكره ، ثم عمل فى دار الوزير يعقوب بن كلس مجلس يحضره الفقهاء فكان يقرأ فيه كتاب فقه على مذهبهم ، وعمل أيضا مجلس بجامع عمرو بن العاص من مدينة فسطاط مصر لقراءة كتاب الوزير . ثم بنى الحاكم بأمر الله أبو على منصور بن العزيز دار العلم بالقاهرة ، كما ذكر فى موضعه من هذا الكتاب .

فلما انقرضت الدولة الفاطمية ، على يد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، أبطل مذاهب الشيعة من ديار مصر ، وأقام بها مذهب

(*) ص ٣٦٢ ج٢ ، ط. بولاق .

الامام الشافعى ومذهب الامام مالك ، واقتدى بالملك العادل نور الدين محمود بن زنكى . فانه بنى بدمشق وحلب وأعمالهما عدة مدارس للشافعية والحنفية ، وبنى لكل من الطائفتين مدرسة بمدينة مصر .

وأول مدرسة أحدثت بديار مصر المدرسة الناصرية بجوار الجامع العتيق بمصر ، ثم المدرسة القمحية المجاورة للجامع أيضا ، ثم المدرسة السيوفية التى بالقاهرة . ثم اقتدى بالسلطان صلاح الدين ، فى بناء المدارس بالقاهرة ومصر وغيرهما من أعمال مصر وبالبلاد الشامية والجزيرة ، أولاده وأمراؤه . ثم حذا حذوهم من ملك مصر بعدهم من ملوك الترك وأمرائهم وأتباعهم الى يومنا هذا .

وسأذكر ما بديار مصر من المدارس ، وأعرف بحال من بناها ، على ما اعتدته فى هذا الكتاب من التوسط دون الاسهاب ، وبالله أستعين .

المدرسة الناصرية

بجوار الجامع العتيق من مدينة مصر من قبليه .

هذه المدرسة عرفت أولا بالمدرسة الناصرية ، ثم عرفت بابن زين التجار — وهو أبو العباس أحمد بن المظفر بن الحسين الدمشقى ، المعروف بابن زين التجار ، أحد أعيان الشافعية ... درس بهذه المدرسة مدة طويلة . ومات فى ذى القعدة سنة احدى وتسعين وخمسمائة — ثم عرفت بالمدرسة الشريفية ، وهى الى الآن تعرف بذلك ، وكان موضعها يقال له الشرطة .

وذكر الكندى أنها خطة قيس بن سعد بن عبادة الأنصارى ، وعرفت بدار الفلفل . وقال ابن عبد الحكم : كانت فضاء قبل ذلك .

وقيل كانت هى والدار التى الى جانبها لنافع بن عبد الله بن قيس الفهرى ، فأخذها منه قيس بن سعد . وسميت دار الفلفل لأن أسامة ابن زيد التنوخى ، صاحب الخراج بمصر ، ابتاع من موسى بن وردان فلفلا بعشرين ألف دينار ليهديه الى صاحب الروم ، فخزنه فيها . ولما فرغ عيسى بن يزيد الجلودى من بناء زيادة الجامع ، بنى هذه الدار شرطة فى سنة ثلاث عشرة ومائتين ، ثم صارت سجنا تعرف بالمعونة .

فهدمها السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، فى أول المحرم سنة ست وستين وخمسمائة ، وأنشأها مدرسة برسم الفقهاء الشافعية — وكان حينئذ يتولى وزارة مصر للخليفة العاضد ، وكان هذا من أعظم ما نزل بالدولة — وهى أول مدرسة عملت بديار مصر . ولما كملت وقف عليها الصاغة — وكانت بجوارها — وقد خربت ، ويقى منها شىء يسير قرأت عليها اسم * الخليفة العزيز بالله ، ووقف عليها أيضا قرية تعرف ......

وأول من ولى التدريس بها لبن زين النجار فعرفت به ، ثم درس بها بعده ابن قطيقة بن الوزان ، ثم من بعده كمال الدين أحمد بن

(*) ص٣٦٣ جـ٢ ، ط. بولاق

شيخ الشيوخ ، وبعده الشريف القاضي شمس الدين أبو عبد الله محمد بن الحسين بن محمد الحنفى — قاضى العسكر الأرموى — فعرفت به ، وقيل لها المدرسة الشريفية من عهده الى اليوم . ولولا ما يتناوله الفقهاء من المعلوم بها لخربت ، فان الكيمان ملاصقة لها بعدما كان حولها أعمر موضع فى الدنيا .

وقد ذكر حبس المعونة عند ذكر السجون من هذا الكتاب .

المدرسة القمحية

هذه المدرسة بجوار الجامع العتيق بمصر . كان موضعها يعرف بدار الغزل — وهو قيسارية يباع فيها الغزل — فهدمها السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وأنشأ موضعها مدرسة للفقهاء المالكية ، وكان الشروع فيها للنصف من المحرم سنة ست وستين وخمسمائة ، ووقف عليها قيسارية الوراقين وعلوها بمصر ، وضيعة بالفيوم تعرف بالحنبوشية ، ورتب فيها أربعة من المدرسين عند كل مدرس عدة من الطلبة .

وهذه المدرسة أجل مدرسة للفقهاء المالكية ، ويتحصل لهم من ضيعتهم التى بالفيوم قمح يفرق فيهم ، فلذلك صارت لا تعرف الا بالمدرسة القمحية الى اليوم . وقد أحاط بها الخراب ، ولولا ما يتحصل منها للفقهاء لدثرت .

وفى شعبان سنة خمس وعشرين وثمانمائة ، أخرج السلطان الملك الأشرف برسباى الدقماقى ناحيتى الأعلام والحنبوشية — وكانتا من وقف السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب على هذه المدرسة — وأنعم بهما على مملوكين من مماليكه ليكونا اقطاعا لهما .

مدرسة يازكوج

هذه المدرسة بسوق الغزل فى مدينة مصر . وهى مدرسة معلقة بناها ... ...

مدرسة ابن الأرسوفى

هذه المدرسة كانت بالبزازين التى تجاور خط النخالين بمصر . عرفت بابن الأرسوفى التاجر العسقلانى ، وكان بناؤها فى سنة سبعين وخمسمائة ، وهو عفيف الدين عبد الله ابن محمد الأرسوفى ، مات بمصر فى يوم الاثنين حادى عشرى ربيع الأول سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة .

مدرسة منازل العز

هذه المدرسة كانت من دور الخلفاء الفاطميين . بنتها أم الخليفة العزيز بالله بن المعز ، وعرفت بمنازل العز ، وكانت تشرف على النيل ، وصارت معدة لنزهة الخلفاء ، وممن سكنها ناصر الدولة حسين بن حمدان الى أن قتل ، وكان بجانبها حمام يعرف بحمام الذهب من جملة حقوقها ، وهى باقية .

فلما زالت الدولة الفاطمية على يد السلطان صلاح الدين يوسف ، أنزل فى منازل العز الملك المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب . فسكنها مدة ، ثم انه اشتراها والحمام

والاصطبل المجاور لها من بيت المال فى شهر شعبان سنة ست وستين وخمسمائة ، وأنشأ فندقين بمصر بخط الملاحين ، وأنشأ ربعا بجوار أحد الفندقين ، واشترى جزيرة مصر التى تعرف اليوم بالروضة .

فلما أراد أن يخرج من مصر الى الشام ، وقف منازل العز على فقهاء الشافعية ، ووقف عليها الحمام وما حولها ، وعمر الاصطبل فندقا ، عرف بفندق النخلة ، ووقفه عليها ، ووقف عليها الروضة .

ودرس بها شهاب الدين الطوسى ، وقاضى القضاة عماد الدين أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد العلى السكرى ، وعدة من الأعيان . وهى الآن عامرة بعمارة ما حولها .

الملك المظفر تقى الدين أبو سعيد عمر بن نور الدولة شاهنشاه بن نجم الدين أيوب بن شادى بن مروان : هو ابن أخى السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب . قدم الى القاهرة فى ... ... ، واستنابه السلطان على دمشق فى المحرم سنة احدى وسبعين . ثم نقله الى نيابة حماة ، وسلم اليه سنجار لما أخذها فى ثانى رمضان سنة ثمان وسبعين . فأقام بها .

ولحق السلطان على حلب ، فقدم عليه فى سابع صفر سنة تسع وسبعين ، فأقام الى أن بعثه الى القاهرة نائبا عنه بديار مصر — عوضا عن الملك العادل أبى بكر بن أيوب — فقدمها فى شهر رمضان سنة تسع وسبعين ، وأنعم عليه بالفيوم وأعمالها مع القايات وبوش ، وأبقى عليه مدينة حماة .

ثم خرج بعساكر مصر الى السلطان ، وهو بدمشق ، فى سنة ثمانين لأجل أخذ الكرك من الفرنج * فسار اليها وحصرها مدة ، ثم رجع مع السلطان الى دمشق ، وعاد الى القاهرة فى شعبان ، وقد أقام السلطان على مملكة مصر * ابنه الملك العزيز عثمان ، وجعل الملك المظفر كافلا له وقائما بتدبير دولته . فلم يزل على ذلك الى جمادى الأولى سنة اثنتين وثمانين ، فصرف السلطان أخاه الملك العادل عن حلب وأعطاه نيابة مصر .

فغضب الملك المظفر ، وعبر بأصحابه الى الجيزة يريد المسير الى بلاد المغرب واللحاق بغلامه بهاء الدين قراقوش التقوى . فبلغ السلطان ذلك ، فكتب اليه ، ولم يزل به حتى زال ما به . وسار الى السلطان ، فقدم عليه دمشق فى ثالث عشرى شعبان ، فأقره على حماه والمعرة ومنبج وأضاف اليه ميافارقين ، فلحق به أصحابه ما خلا مملوكه زين الدين بوزيا ، فانه سار الى بلاد المغرب .

وكانت له فى أرض مصر وبلاد الشام أخبار وقصص ، وعرفت له مواقف عديدة فى الحرب مع الفرنج ، وآثار فى المصافات . وله فى أبواب البر أفعال حسنة ، وله بمدينة الفيوم مدرستان : احداهما للشافعية ، والأخرى للمالكية . وبنى مدرسة بمدينة الرها ، وسمع الحديث من السلفى وابن عوف .

وكان عنده فضل وأدب ، وله شعر حسن ، وكان جوادا شجاعا مقداما ، شديد البأس ، عظيم الهمة ، كثير الاحسان . ومات فى نواحى خلاط ليلة الجمعة تاسع شهر رمضان سنة

(*) ص٣٦٤ جـ٢ ، ط. بولاق .

سبع وثمانين وخمسمائة ، ونقل الى حماة ، فدفن بها فى تربة بناها على قبره ابنـه الملك المنصور محمد .

مدرسة العادل

هذه المدرسة بخط الساحل ، بجوار الربع العـادلي من مدينـة مصر الذى وقف على الشافعى . عمرها الملك العـادل أبو بكر بن أيوب ، أخو السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، فدرس بها قاضى القضاة تقى الدين أبو على الحسين بن شرف الدين أبى الفضل عبد الرحيم ابن الفقيه جلال الدين أبى محمد عبد الله بن نجم بن شاس بن نزار بن عشائر بن عبد الله بن محمد بن شاس ، فعرفت به ، وقيل لها مدرسة ابن شاس الى اليوم . وهى عامرة ، وعرف خطها بالقشاشين ، وهى للمالكية .

مدرسة ابن رشيق

هذه المدرسة للمالكية ، وهى بخط حمام الريش من مدينة مصر . كان الكاتم من طوائف التكرور ، لما وصلوا الى مصر فى سنة بضع وأربعين وستمائة قاصـدين الحج ، دفعـوا للقاضى علم الدين بن رشيق مالا بنـاها به ، ودرس بها فعرفت به ، وصـار لهـا فى بلاد التكرور سمعة عظيمة ، وكانوا يبعثون اليها فى غالب السنين المال .

المدرسة الفائزية

هذه المدرسـة فى مصر بخط ... ... أنشأها الصاحب شرف الدين هبة الله بن صاعد ابن وهيب الفائزى ، قبل وزارته ، فى سنة ست وثلاثين وستمائة . ودرس بها القـاضى محيى الدين عبد الله ابن قاضى القضاة شرف الدين محمد بن عين الدولة ، ثم قاضى القضاة صـدر الدين موهـوب الجـزرى ، وهى للشافعية .

المدرسة القطبية

هذه المدرسة بالقاهرة ، فى خط سـويقة الصاحب بداخل درب الحريرى ، كانت هى والمدرسة السيفية من حقوق دار الديباج التى تقـدم ذكرها . وأنشأ هذه المدرسـة الأمير قطب الدين خسرو بن بلبـل بن شـجاع الهدبانى ، فى سنة سبعين وخمسمائة ، وجعلها وقفا على الفقهاء الشافعيـة . وهو أحد أمراء السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب .

المدرسة السيوفية

هذه المدرسة بالقاهرة ، وهى من جملة دار الوزير المأمون البطائحى . وقفهـا السلطـان السيد الأجل الملك الناصر صلاح الدين أبو المظفر يوسف بن أيوب على الحنفية ، وقرر فى تدريسها الشيخ مجد الدين محمد بن محمد الجبتى ، ورتب له فى كل شـهر أحد عشر دينارا ، وباقى ريع الوقف يصرفه على ما يراه لطلبة الحنفية المقررين عنده على قدر طبقاتهم ، وجعل النظر للجبتى ، ومن بعده الى من له النظر فى أمور المسلمين .

وعرفت بالمدرسـة السـيوفية من أجل أن سوق السيوفيين كان حينئذ على بابها ، وهى

الآن تجاه سوق الصنادقيين . وقد وهم القاضى محيى الدين عبد الله بن عبد الظاهر ، فانه قال فى كتاب « الروضة الزاهرة فى خطط المعزية القاهرة » : مدرسة السيوفية ، وهى للحنفية ، وقفها عز الدين فرحشاه قريب صلاح الدين .

وما أدرى كيف وقع له هذا الوهم ؟ فان كتاب وقفها موجود قد وقفت عليه ، ولخصت منه ما ذكرته ، وفيه أن واقفها السلطان صلاح الدين * ، وخطه على كتاب الوقف ، ونصه « الحمد لله وبه توفيقى » . وتاريخ هذا الكتاب تاسع عشرى شعبان سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة .

ووقف على مستحقيها اثنين وثلاثين حانوتا ، بخط سويقة أمير الجيوش وباب الفتوح وحارة برجوان ، وذكر فى آخر كتاب وقفها : أن الواقف أذن لمن حضر مجلسه من العدول في الشهادة والقضاء على لفظه بما تضمنه المسطور ، فشهدوا بذلك ، وأثبتوا شهادتهم آخره ، وحكم حاكم المسلمين على صحة هذا الوقف بعدما خاصم رجل من أهل هذا الوقف فى ذلك ، وأمضاه .

لكنه لم يذكر فى الكتاب اسجال القاضى بثبوته ، بل ذكر رسم شهادة الشهود على الواقف ، وهم : على بن ابراهيم بن نجا بن غنائم الأنصارى الدمشقى ، والقاسم بن يحيى ابن عبد الله بن قاسم الشهرزورى ، وعبد الله ابن عمر بن عبد الله الشافعى ، وعبد الرحمن ابن على بن عبد العزيز بن قريش المخزومى ، وموسى بن حكر بن موسك الهذبانى ، فى آخرين .

وهذه المدرسة هى أول مدرسة وقفت على الحنفية بديار مصر ، وهى باقية بأيديهم .

المدرسة الفاضلية

هذه المدرسة بدرب ملوخيا من القاهرة . بناها القاضى الفاضل عبد الرحيم بن على البيسانى بجوار داره ، فى سنة ثمانين وخمسمائة ، ووقفها على طائفتى الفقهاء الشافعية والمالكية ، وجعل فيها قاعة للاقراء : أقرأ فيها الامام أبو محمد الشاطبى ناظم الشاطبية ، ثم تلميذه أبو عبد الله محمد بن عمر القرطبى ، ثم الشيخ على بن موسى الدهان وغيرهم . ورتب لتدريس فقه المذهبين الفقيه أبا القاسم عبد الرحمن بن سلامة الاسكندرانى .

ووقف بهذه المدرسة جملة عظيمة من الكتب فى سائر العلوم ، يقال انها كانت مائة ألف مجلد ، وذهبت كلها . وكان أصل ذهابها أن الطلبة التى كانت بها لما وقع الغلاء بمصر فى سنة أربع وتسعين وستمائة ، والسلطان يومئذ الملك العادل كتبغا المنصورى ، مسهم الضر ، فصاروا يبيعون كل مجلد برغيف خبز ، حتى ذهب معظم ما كان فيها من الكتب ، ثم تداولت أيدى الفقهاء عليها بالعارية فتفرقت .

وبها الى الآن مصحف قرآن كبير القدر جدا ، مكتوب بالخط الأول الذى يعرف بالكوفى ، تسميه الناس مصحف عثمان بن عفان — ويقال ان القاضى الفاضل اشتراه

(*) ص٣٦٥ جـ٢ ، ط. بولاق .

ينيف وثلاثين ألف دينار على أنه مصحف أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه — وهو فى خزانة مفردة له بجانب المحراب من غربيه وعليه مهابة وجلالة .

والى جانب المدرسة كتاب برسم الأيتام . وكانت هذه المدرسة من أعظم مدارس القاهرة وأجلها ، وقد تلاشت لخراب ما حولها .

« عبد الرحيم » بن على بن الحسن بن أحمد بن الفرج بن أحمد : القاضى الفاضل محيى الدين أبو على ، ابن القاضى الأشرف اللخمى العسقلانى البيسانى المصرى الشافعى ، كان أبوه يتقلد قضاء مدينة بيسان ، فلهذا نسبوا اليها .

وكانت ولادته بمدينة عسقلان فى خامس عشر جمادى الآخرة سنة تسع وعشرين وخمسمائة . ثم قدم القاهرة ، وخدم الموفق يوسف بن محمد بن الجلال ، صاحب ديوان الانشاء فى أيام الحافظ لدين الله ، وعنه أخذ صناعة الانشاء ، ثم خدم بالاسكندرية مدة .

فلما قام بوزارة مصر العادل رزيك بن الصالح طلائع بن رزيك ، خرج أمره الى والى الاسكندرية بتسييره الى الباب ، فلما حضر استخدمه بحضرته وبين يديه فى ديوان الجيش . فلما مات الموفق بن الجلال فى سنة ست وستين وخمسمائة — وكان القاضى الفاضل ينوب عنه فى ديوان الانشاء — عينه الكامل بن شاور ، وسعى له عند أبيه الوزير شاور بن مجير ، فأقره عوضا عن ابن الجلال فى ديوان الانشاء .

فلما ملك أسد الدين شيركوه احتاج الى كاتب ، فأحضره وأعجبه اتقانه وسمته ونصحه فاستكتبه . الى أن ملك صلاح الدين يوسف ابن أيوب ، فاستخلصه وحسن اعتقاده فيه ، فاستعان به على ما أراد من ازالة الدولة الفاطمية حتى تم مراده ، فجعله وزيره ومشيره ... بحيث كان لا يصدر أمرا الا عن مشورته ، ولا ينفذ شيئا الا عن رأيه ، ولا يحكم فى قضية الا بتدبيره . فلما مات صلاح الدين استمر على ما كان عليه ، عند ولده الملك العزيز عثمان ، فى المكانة والرفعة وتقلد الأمر .

فلما مات العزيز ، وقام من بعده ابنه الملك المنصور بالملك ، ودبر أمره عمه الأفضل ... كان معهما على حاله . الى أن وصل الملك العادل أبو بكر بن أيوب من الشام لأخذ ديار مصر ، وخرج الأفضل لقتاله ، فمات منكوبا أحوج ما كان الى الموت ، عند تولى الاقبال واقبال الادبار ، فى سحر يوم الأربعاء سابع عشر ربيع الآخر سنة ست وتسعين وخمسمائة ودفن بتربته من القرافة الصغرى .

قال ابن خلكان : وزر للسلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وتمكن منه غاية التمكن ، وبرز فى صناعة الانشاء ، وفاق المتقدمين * ، وله فيه الغرائب مع الاكثار ... أخبرنى أحد الفضلاء الثقات ، المطلعين على حقيقة أمره ، أن مسودات رسائله فى المجلدات والتعليقات فى الأوراق اذا جمعت ما تقصر عن مائة ، وهو مجيد فى أكثرها .

وقال عبد اللطيف البغدادى : دخلنا عليه فرأيت شيخا ضئيلا كله رأس وقلب ، وهو

(*) ص٣٦٦ جـ٢ ، ط. بولاق .

يكتب ويملى على اثنين ، ووجهه وشفتاه تلعب ألوان الحركات ، لقوة حرصه فى اخراج الكلام ، وكأنه يكتب بجملة أعضائه .

وكان له غرام فى الكتابة وتحصيل الكتب ، وكان له الدين والعفاف والتقى ، والمواظبة على أوراد الليل ، والصيام وقراءة القرآن . وكان قليل اللذات ، كثير الحسنات ، دائم التهجد ، ويشتغل بعلوم الادب وتفسير القرآن . غير أنه كان خفيف البضاعة من النحو ، ولكن قوة الدراية توجب له قلة اللحن . وكان لايكاد يضيع من زمانه شيئا الا فى طاعة ، وكتب فى الانشاء ما لم يكتبه غيره .

وحكى لى ابن القطان أحد كتابه قال : لما خطب صلاح الدين بمصر للامام المستضىء بأمر الله ، تقدم الى القاضى الفاضل بأن يكاتب الديوان العزيز وملوك الشرق . ولم يكن يعرف خطابهم واصطلاحهم ، فأوعز الى العماد الكاتب أن يكتب . فكتب واحتفل ، وجاء بها مفضوضة ليقرأها الفاضل متصحا بها ، فقال : لا أحتاج أن أقف عليها . وأمر بختمها وتسليمها الى النجاب ، والعماد يبصر .

قال : ثم أمرنى أن ألحق النجاب ببلبيس ، وأن أفض الكتب ، وأكتب صدورها ونهايتها ، ففعلت ورجعت بها اليه . فكتب على حذوها وعرضها على السلطان ، فارتضاها ، وأمر بارسالها الى أربابها مع النجاب .

وكان متقللا فى مطعمه ومنكحه وملبسه ، ولباسه البياض لا يبلغ جميع ما عليه دينارين ، ويركب معه غلام وركابى ، ولا يمكن أحدا أن يصحبه ، ويكثر زيارة القبور وتشييع الجنائز وعيادة المرضى ، وله معروف فى السر والعلانية ، وأكثر أوقاته يفطر بعدما يتهور الليل .

وكان ضعيف البنية ، رقيق الصورة ، له حدبة يغطيها الطيلسان . وكان فيه سوء خلق يكمد به فى نفسه ، ولا يضر أحدا به . ولأصحاب الأدب عنده نفاق ، يحسن اليهم ولا يمن عليهم ، ويؤثر أرباب البيوت والغرباء ، ولم يكن له انتقام من أعدائه الا بالاحسان اليهم أو بالاعراض عنهم . وكان دخله فى كل سنة ، من اقطاع ورباع وضياع خمسين ألف دينار ، سوى متاجره للهند والمغرب وغيرهما .

وكان يقتنى الكتب من كل فن ، ويجتلبها من كل جهة ، وله نساخ لا يفترون ومجلدون لا يبطلون . قال لى بعض من يخدمه فى الكتب : ان عددها قد بلغ مائة ألف وأربعة وعشرين ألفا . وهذا قبل موته بعشرين سنة .

وحكى لى ابن صورة الكتبى أن ابنه القاضى الأشرف التمس منى أن أطلب له نسخة الحماسة ليقرأها ، فأعلمت القاضى الفاضل ، فاستحضر من الخادم الحماسات ، فأحضر له خمسا وثلاثين نسخة ، وصار ينفض نسخة نسخة ويقول : هذه بخط فلان ، وهذه عليها خط فلان .. حتى أتى على الجميع وقال : ليس فيها ما يصلح للصبيان . وأمرنى أن أشترى له نسخة بدينار .

المدرسة الأزكشية

هذه المدرسة بالقاهرة على رأس السوق الذى كان يعرف بالخروفيين ، ويعرف اليوم بسويقة أمير الجيوش . بناها الأمير سيف الدين أيازكوج الأسدى — مملوك أسد الدين شيركوه ، وأحد أمراء السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب — وجعلها وقفا على الفقهاء من الحنفية فقط فى سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة .

وكان أيازكوج رأس الأمراء الأسدية بديار مصر فى أيام السلطان صلاح الدين وأيام ابنه الملك العزيز عثمان ، وكان الأمير فخر الدين جهاركس رأس الصلاحية . ولم يزل على ذلك الى أن مات فى يوم الجمعة ثامن عشر ربيع الآخر سنة تسع وتسعين وخمسمائة ، ودفن بسفح المقطم ، بالقرب من رباط الأمير فخر الدين بن قزل .

المدرسة الفخرية

هذه المدرسة بالقاهرة ، فيما بين سويقة الصاحب ودرب العداس . عمرها الأمير الكبير فخر الدين أبو الفتح عثمان بن قزل البارومى ، أستادار الملك الكامل محمد بن العادل ، وكان الفراغ منها فى سنة اثنتين وعشرين وستمائة ، وكان موضعها أخيرا يعرف بدار الأمير حسام الدين ساروج بن آرتق شاد الدواوين .

ومولد الأمير فخر الدين فى سنة احدى وخمسين وخمسمائة بحلب ، وتنقل فى الخدم حتى صار أحد الأمراء بديار مصر ، وتقدم فى أيام الملك الكامل ، وصار أستاداره ، واليه أمر المملكة وتدبيرها الى أن سافر السلطان من القاهرة يريد بلاد المشرق . فمات بحران بعد مرض طويل فى ثامن عشر ذى الحجة سنة تسع وعشرين وستمائة .

وكان خيرا كثير الصدقة ، يتفقد أرباب البيوت . وله من الآثار ، سوى هذه المدرسة ، المسجد الذى تجاهها ، وله أيضا رباط بالقرافة * ، والى جانبه كتاب سبيل ، وبنى بمكة رباطا .

المدرسة السيفية

هذه المدرسة بالقاهرة ، فيما بين خط البندقانيين وخط الملحيين ، وموضعها من جملة دار الديباج قال ابن عبد الظاهر كانت دارا وهى من المدرسة القطبية ، فسكنها شيخ الشيوخ (يعنى صدر الدين محمد بن حموية) ، وبنيت فى وزارة صفى الدين عبد الله بن على بن شكر ان سيف الاسلام ، ووقفها وولى فيها عماد الدين ولد القاضى صدر الدين (يعنى ابن درباس) وسيف الاسلام هذا اسمه طغتكين بن أيوب .

« طغتكين » : ظهير الدين سيف الاسلام الملك المعز بن نجم الدين أيوب بن شادى ابن مروان الأيوبى . سيره أخوه صلاح الدين يوسف بن أيوب الى بلاد اليمن فى سنة سبع وسبعين وخمسمائة ، فملكها واستولى على كثير من بلادها . وكان شجاعا كريما ، مشكور السيرة ، حسن السياسة .

(*) ص٣٦٧ جـ٢ ، طـ بولاق .

قصده الناس من البلاد الشاسعة يستمطرون احسانه وبره . وسار اليه شرف الدين بن عنين ، ومدحه بعدة قصائد بديعة ، فأجزل صلاته ، وأكثر من الاحسان اليه ، واكتسب من جهته مالا وافرا ، وخرج من اليمن . فلما قدم الى مصر — والسلطان اذ ذاك الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين — ألزمه أرباب ديوان الزكاة بدفع زكاة ما معه من المتجر ، فعمل :

ما كل من يتسمى بالعزيز لها
أهل ، ولا كل برق سحبه غدقه

بين العزيزين فرق فى فعالهما :
هذاك يعطى ، وهذا يأخذ الصدقه

وتوفى سيف الاسلام فى شوال سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة بالمنصورة ، وهى مدينة باليمن اختطها رحمه الله تعالى .

المدرسة العاشورية

هذه المدرسة بحارة زويلة من القاهرة ، بالقرب من المدرسة القطبية الجديدة ورحبة كوكاى ... قال ابن عبد الظاهر : كانت دار اليهودى ابن جميع الطبيب ، وكان يكتب لقراقوش ، فاشترتها منه الست عاشوراء بنت ساروح الأسدى — زوجة الأمير أيازكوج الأسدى — ووقفتها على الحنفية ، وكانت من الدور الحسنة .

وقد تلاشت هذه المدرسة ، وصارت طول الأيام مغلوقة لا تفتح الا قليلا ، فانها فى زقاق لا يسكنه الا اليهود ومن يقرب منهم فى النسب .

المدرسة القطبية

هذه المدرسة فى أول حارة زويلة برحبة كوكاى . عرفت بالست الجليلة الكبرى عصمة الدين مؤنسة خاتون — المعروفة بدار اقبال العلائى — ابنة الملك العادل أبى بكر بن أيوب ، وشقيقة الملك الأفضل قطب الدين أحمد واليه نسبت . وكانت ولادتها فى سنة ثلاث وستمائة ، ووفاتها ليلة الرابع والعشرين من ربيع الآخر سنة ثلاث وتسعين وستمائة .

وكانت قد سمعت الحديث ، وخرج لها الحافظ أبو العباس أحمد بن محمد الظاهرى أحاديث ثمانيات حدثت بها . وكانت عاقلة دينة فصيحة ، لها أدب وصدقات كثيرة ، وتركت مالا جزيلا ، وأوصت ببناء مدرسة يجعل فيها فقهاء وقراء ، ويشترى لها وقف يغل . فبنيت هذه المدرسة ، وجعل فيها درس للشافعية ودرس للحنفية ، وقراء . وهى الى اليوم عامرة .

المدرسة الخروبية

هذه المدرسة على شاطىء النيل من مدينة مصر . أنشأها تاج الدين محمد بن صلاح الدين أحمد بن محمد بن على الخروبى ، لما أنشأ بيتا كبيرا مقابل بيت أخيه عز الدين قبليه على شاطىء النيل ، وجعل فيه هذه المدرسة . وهى ألطف من مدرسة أخيه ، وبجنبها مكتب سبيل ، ووقف عليها أوقافا ، وجعل بها مدرس حديث فقط ، ومات بمكة فى آخر المحرم سنة خمس وثمانين وسبعمائة .

مدرسة المحلي

هذه المدرسة على شاطىء النيـل ، داخل صناعة التمر ، ظاهر مدينة مصر . أنشـأها رئيس التجار برهان الدين ابراهيم بن عمر بن علي المحلي ابن بنت العلامة شمس الدين محمد ابن اللبان ، وينتمي في نسبه الي طلحة بن عبيد الله ، أحد العشرة رضى الله عنهم ، وجعل هذه المدرسة بجوار داره التي عمرها في مدة سبع سنين ، وأنفق في بنائها زيادة على * خمسين ألف دينار ، وجعل بجوارها مكتب سبيل ، لكن لم يجعل بها مدرسا ولا طلبة .

وتوفي ثاني عشري ربيع الأول سنة ست وثمانمائة عن مال عظيم ، أخذ منـه السلطان الملك الناصر فرج بن برقوق مائـة ألف دينار ، وكان مولده سنة خمس وأربعين وسبعمائة ، ولم يكن مشكور السيرة في الديانة ، وله من المآثر تجديد جامع عمرو بن العاص ، فانه كان قد تداعى الى السقوط ، فقام بعمارته حتى عاد قريبا مما كان عليه .. شكر الله له ذلك .

المدرسة الفارقانية

هذه المدرسة بابها شارع في سويقة حارة الوزيرية من القاهرة . فتحت في يوم الاثنين رابع جمـادى الأولى سـنة ست وسـبعين وستمائة ، وبها درس للطائفة الشافعية ، ودرس للطائفة الحنفية .

أنشأها الأمير شـمس الدين آق سـنقر الفارقاني السلاحدار . كان مملوكا للأميـر نجم الدين أمير حاجب ، ثم انتقل الى الملك الظاهر بيبرس ، فترقى عنده في الخدم حتى صار أحد الأمراء الأكابر ، وولاه الأستادارية ، وناب عنه بديار مصر مدة غيبته ، وقدمه على العساكر غير مرة ، وفتح له بلاد النوبة وكان وسيما جسيما ، شجاعا مقداما حازما ، صاحب دراية بالأمور وخبرة بالأحوال والتصرفات ، مدبرا للدول ، كثير البر والصدقة .

ولما مات الملك الظاهر ، وقام من بعده في ملك مصر ابنه الملك السعيد بركة قان ، ولاه نيابة السلطنة بديار مصر بعد موت الأمير بدر الدين بيلبك الخازندار ، فأظهر الحزم ، وضم اليـه طائفـة : منهم شمس الدين أقـوش ، وقطليجـا الرومي ، وسـيف الدين قليـج البغدادي ، وسيف الدين بيجو البغـدادي ، وسيف الدين شعبان أمير شـكار ، وبكتمر السلاحدار .

وكانت الخاصـكية تكرهه ، فاتفقـوا مع مماليك بيلبك الخازندار على القبض عليه ، وتحدثوا مع الملك السعيد في ذلك ، ومازالوا به حتى قبضوا عليه بمساعدة الأمير سـيف الدين كوندك الساقي لهم ، وكان قد ربي مع السعيد في المكتب ، فلم يشعر وهو قاعد بباب القلة من القلعة ، الا وقد سحب وضرب ونتفت لحيته وجر — وقد ارتكب في اهانتـه أمر شنيع — الى البرج فسجن به ليالي قليلة ، ثم أخرج منه ميتا في أثناء سنة ست وسـبعين وستمائة ، وجهل قبره .

(*) ص٣٦٨ جـ٢ ، ط. بولاق .

المدرسة المهذبية

هذه المدرسة خارج باب زويلة ، من خط حارة حلب ، بجوار حمام قمارى . بناها الحكيم مهذب الدين أبو سعيد محمد بن علم الدين بن أبى الوحش بن أبى الخير بن أبى سليمان بن أبى حليقة ، رئيس الأطباء

كان جده الرشيد أبو الوحش نصرانيا متقدما فى صناعة الطب ، فأسلم ابنه علم الدين فى حياته ، وكان لا يولد له ولد فيعيش ، فرأت أمه ، وهى حامل به ، قائلا يقول : هبوا له حلقة فضة قد تصدق بوزنها ، وساعة يوضع من بطن أمه تثقب أذنه وتوضع فيها الحلقة ، ففعلت ذلك فعاش ، فعاهدت أمه أباه ألا يقلعها من أذنه ، فكبر وجاءته أولاد وكلهم يموت ، فولد له ابنه مهذب الدين أبو سعيد ، فعمل له حلقة فعاش .

وكان سبب اشتهاره بأبى حليقة : أن الملك الكامل محمد بن العادل أمر بعض خدامه أن يستدعى بالرشيد الطبيب من الباب — وكان جماعة من الأطباء بالباب — فقال الخادم : من هو منهم ؟

فقال السلطان : أبو حليقة .

فخرج فاستدعاه بذلك ، فاشتهر بهذا الاسم . ومات الرشيد فى سنة ست وسبعين وستمائة .

المدرسة الخروبية

هذه المدرسة بظاهر مدينة مصر ، تجاه المقياس بخط كرسى الجسر . أنشأها كبير الخرارية بدر الدين محمد بن محمد بن على الخروبى — بفتح الخاء المعجمة ، وتشديد الراء المهملة وضمها ، ثم واو ساكنة بعدها باء موحدة ، ثم ياء آخر الحروف — التاجر فى مطابخ السكر وفى غيرها بعد سنة خمسين وسبعمائة

وجعل مدرس الفقه بها الشيخ بهاء الدين عبد الله بن عبد الرحمن بن عقيل ، والمعيد الشيخ سراج الدين عمر البلقينى . ومات سنة اثنتين وستين وسبعمائة .

وأنشأ أيضا ربعين بخط دار النحاس من مصر على شاطىء النيل ، وربعين مقابل المقياس بالقرب من مدرسته .

ولبدر الدين هذا أخ من أبيه أسن منه ، يقال له صلاح الدين أحمد بن محمد بن على الخروبى ، عاش بعد أخيه ، وأنجب فى أولاده وأدركت لهم أولادا نجباء وكان أولا قليل المال ، ثم تمول . أنشأ تربة كبيرة بالقرافة ، فيما بين تربة الامام الشافعى وتربة الليث بن سعد ، مقابل السروتين . وجددها حفيده نور الدين على بن عز الدين محمد بن صلاح الدين وأضاف اليها مطهرة حسنة ، ومات سنة تسع وستين وسبعمائة

وشرط بدر الدين فى مدرسته ألا يلى بها أحد من العجم وظيفة * من الوظائف ، فقال فى كل وظيفة منها : ويكون من العرب دون العجم . وكانت له مكارم ، جهز مرة ابن عقيل الى الحج بنحو خمسمائة دينار .

(*) ص٣٦٦ جـ٢ ، ط. بولاق .

المدرسة الخروبية

هذه المدرســة بخط الشــون ، قبلى دار النحاس من ظاهر مدينــة مصر . أنشأها عز الدين محمد بن صلاح الدين أحمد بن محمد ابن على الخروبى ، وهى أكبر من مدرسة عمه بدر الدين . الا أنه مات سنة ست وســبعين وسبعمائة ، قبــل استيفــاء ما أراد أن يجعل فيها ، فليس لها مدرس ولا طلبة ، ومولده سنة ست عشرة وسبعمائة ، ونشأ فى دنيــا عريضة . رحمه الله تعالى .

المدرسة الصاحبية البهائية

هذه المدرسة كانت بزقاق القناديل من مدينة مصر ، قرب الجامع العتيق . أنشأها الوزير الصاحب بهاء الدين على بن محمد بن سليم ابن حنا فى سنة أربع وخمسين وستمائة .

وكان اذ ذاك زقاق القناديل أعمر أخطاط مصر ، وانما قيل له زقاق القناديل من أجل أنه كان سكن الأشراف ، وكانت أبواب الدور يعلق عــلى كل باب منهــا قنــديل ... قال القضاعي : ويقال انه كان به مائة قنديل توقد كل ليلة على أبواب الأكابر .

وابن حنا هذا هو على بن محمد بن سليم — بفتح السين المهملة وكسر اللام ، ثم ياء آخر الحروف بعدها ميم — ابن حنا — بحاء مهملة مكسورة ، ثم نون مشددة مفتــوحة بعدها ألف — الوزير الصاحب بهاء الدين . ولد بمصر فى سنة ثلاث وستمائة ، وتنقلت به الأحوال فى كتابة الدواوين الى أن ولى المناصب الجليلة ، واشتهرت كفايته ، وعرفت فى الدولة نهضته ودرايته .

فاستوزره السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى ، فى ثامن شهر ربيع الأول سنة تسع وخمسين وستمائة ، بعد القبض على الصــاحب زين الدين يعقــوب بن الزبير ، وفوض اليه تدبير المملكة وأمور الدولة كلها . فنزل من قلعة الجبل بخلع الوزارة — ومعه الأمير سيف الدين بلبان الرومى الدوادار ، وجميع الأعيان والأكابر — الى داره .

واستبد بجميع التصرفات ، وأظهر عن حزم وعزم وجودة رأى . وقام بأعباء الدولة ، من ولايات العمــال وعزلهم ، من غير مشــاورة السلطان ، ولا اعتراض أحد عليه . فصار مرجع جميع الأمور ، ومصدرها عنه ، ومنشأ ولايات الخطط والأعمال من قلمه ، وزوالها عن أربابها لا يصدر الا من قبله . وما زال على ذلك طول الأيام الظاهرية .

فلما قام الملك السعيد بركة خان بأمر المملكة بعد موت أبيه الملك الظاهر ، أقره على ما كان عليه فى حياة والده ، فدبر الأمور ، وساس الأحوال . وما تعرض له أحد بعــداوة ولا سوء ، مع كثرة من كان ينــاويه من الأمراء وغيرهم ، الا وصده الله عنه ، ولم يجد ما يتعلق به عليه ، ولا ما يبلغ به مقصوده منه .

وكان عطاؤه واسعا ، وصلاته وكلفه للأمراء والأعيان ، ومن يلوذ به ويتعلق بخدمته ، تخرج عن الحد فى الكثرة ، وتتجــاوز القــدر فى السعة ... مع حسن ظن بالفقراء ، وصــدق العقيدة فى أهل الخير والصــلاح ، والقيام

بمعونتهم ، وتفقد أحوالهم ، وقضاء أشغالهم ، والمبادرة الى امتثال أوامرهم ، والعفة عن الأموال — حتى انه لم يقبل من أحد في وزارته هدية ، الا أن تكون هدية فقير أو شيخ معتقد يتبرك بما يصل من أثره — وكثرة الصدقات في السر والعلانية .

وكان يستعين على ما التزمه من المبرات ولزمه من الكلف بالمتاجر ، وقد مدحه عدة من الناس ، فقبل مديحهم وأجزل جوائزهم . وما أحسن قول الرشيد الفارقي فيه :

وقائل قال لي نبه لنا عمرا
فقلت ان عليا قد تنبه لي

مالي اذا كنت محتاجا الى عمر
من حاجة فليم حسبي انتباه علي

وقول سعد الدين بن مروان الفارقي في كتاب « الدرج » المختص به أيضا :

يمم عليا فهو بحر الندى
وناده في المضلع المعضل

فرفده بحر على مجدب
ووفده معض الى مفصل

يسرع ان سيل نداه وهل
أسرع من سيل أتى من علي

الا أنه أحدث في وزارته حوادث عظيمة ، وقاس أراضي الأملاك بمصر والقاهرة ، وأخذ عليها مالا ، وصادر أرباب الأموال وعاقبهم حتى مات كثير منهم تحت العقوبة ، واستخرج جوالي الذمة مضاعفة .

ورزيء بفقد ولديه : الصاحب فخر الدين محمد ، والصاحب زين الدين . فعوضه الله عنهما بأولادهما ، فما منهم الا نجيب صدر * رئيس فاضل مذكور . وما مات حتى صار جد جد ، وهو علي المكانة وافر الحرمة ، في ليلة الجمعة مستهل ذي الحجة سنة سبع وسبعين وستمائة ، ودفن بتربته من قرافة مصر .

ووزر من بعده الصاحب برهان الدين الخضر بن حسن بن علي السنجاري ، وكان بينه وبين ابن حنا عداوة ظاهرة وباطنة ، وحقود بارزة وكامنة . فأوقع الحوطة على الصاحب تاج الدين محمد بن حنا بدمشق ، وكان مع الملك السعيد بها ، وأخذ خطه بمائة ألف دينار ، وجهزه على البريد الى مصر ليستخرج منه ومن أخيه زين الدين أحمد ، ابن عمه عز الدين تكملة ثلثمائة ألف دينار ، وأحيط بأسبابه ومن يلوذ به من أصحابه ومعارفه وغلمانه ، وطولبوا بالمال .

وأول من درس بعده المدرسة الصاحب فخر الدين محمد ، ابن بانيها الوزير الصاحب بهاء الدين ، الى أن مات يوم الاثنين حادي عشري شعبان سنة ثمان وستين وستمائة .

فوليها من بعده ابنه محيي الدين أحمد بن محمد الى أن توفي يوم الأحد ثامن شعبان سنة اثنتين وسبعين وستمائة . فدرس فيها بعده الصاحب زين الدين أحمد بن الصاحب فخر الدين محمد بن الصاحب بهاء الدين الى أن مات في يوم الأربعاء سابع صفر سنة أربع وسبعمائة . فدرس بها ولده الصاحب شرف الدين .

(*) ص ٢٧٠ ج٢ ، ط. بولاق .

وتوارثها ابناء الصاحب ، يلون نظرها وتدريسها ، الصاحب بهاء الدين .

الى أن كان آخرهم صاحبنا الرئيس شمس الدين محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن الصاحب بهاء الدين ... وليها بعد أبيه عز الدين ، ووليها عز الدين بعد بدر الدين أحمد بن محمد بن محمد بن الصاحب بهاء الدين .

فلما مات صاحبنا شمس الدين محمد بن الصاحب ، لليلة بقيت من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة وثمانمائة ، وضع بعض نواب القضاة يده على ما بقى لها من وقف .

وأقامت هذه المدرسة مدة أعوام معطلة من ذكر الله واقام الصلاة ، لا يأويها أحد لخراب ما حولها ، وبها شخص يبيت بها كى لا يسرق ما بها من أبواب ورخام .

وكان لها خزانة كتب جليلة ، فنقلها شمس الدين محمد بن الصاحب ، وصارت تحت يده الى أن مات ، فتفرقت فى أيدى الناس ، وكان قد عزم على نقلها الى شاطىء النيل بمصر ، فمات قبل ذلك .

ولما كان فى سنة اثنتى عشرة وثمانمائة ، أخذ الملك الناصر فرج بن برقوق عمد الرخام التى كانت بهذه المدرسة — وكانت كثيرة العدد ، جليلة القدر — وعمل بدلها دعائم تحمل السقوف . الى أن كانت أيام الملك المؤيد شيخ ، وولى الأمير تاج الدين الشوبكى الدمشقى ولاية القاهرة ومصر وحسبة البلدين وشد العمائر السلطانية ، فهدم هذه المدرسة فى أخريات سنة سبع عشرة وأوائل سنة ثمانى عشرة وثمانمائة .

وكانت من اجل مدارس الدنيا ، واعظم مدرسة بمصر يتنافس الناس من طلبة العلم فى النزول بها ، ويتشاحنون فى سكنى بيوتها ، حتى يصير البيت الواحد من بيوتها يسكن فيه الاثنان من طلبة العلم والثلاثة ، ثم تلاشى أمرها حتى هدمت ، وسيجهل عن قريب موضعها . ولله عاقبة الأمور .

المدرسة الصاحبية

هذه المدرسة بالقاهرة فى سويقة الصاحب . كان موضعها من جملة دار الوزير يعقوب بن كلس ، ومن جملة دار الديباج أنشأها الصاحب صفى الدين عبد الله بن على بن شكر ، وجعلها وقفا على المالكية ، وبها درس نحو وخزانة كتب ، وما زالت بيد أولاده .

فلما كان فى شعبان سنة ثمان وخمسين وسبعمائة ، جدد عمارتها القاضى علم الدين ابراهيم بن عبد اللطيف بن ابراهيم — المعروف بابن الزبير — ناظر الدولة فى أيام الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون ، واستجد فيها منبرا ، فصار يصلى بها الجمعة الى يومنا هذا ، ولم يكن قبل ذلك بها منبر ، ولا تصلى فيها الجمعة

« عبد الله بن على بن الحسين » بن عبد الخالق بن الحسين بن الحسن بن منصور بن ابراهيم بن عمار بن منصور بن على ، صفى الدين أبو محمد الشيبنى ، الدميرى المالكى — المعروف بابن شكر — ولد بناحية دميرة ، احدى قرى مصر البحرية ، فى تاسع صفر سنة ثمان وأربعين وخمسمائة ، ومات أبوه ،

فتزوجت أمه بالقاضي الوزير الأعز فخر الدين مقدام ، ابن القاضي الأجل أبي العباس أحمد ابن شكر المالكي ، فرباه ، ونوه باسمه لأنه كان ابن عمه ، فعرف به وقيل له ابن شكر .

وسمع صفي الدين من الفقيه أبي الظاهر اسماعيل بن مكي بن عوف ، وأبي الطيب عبد المنعم بن يحيي وغيره ، وحدث بالقاهرة ودمشق ، وتفقه على مذهب مالك ، وبرع فيه ، وصنف كتابا في الفقه كان كل من حفظه نال منه حظا وافرا ، وقصد بذلك أن يتشبه بالوزير عون الدين بن هبيرة .

كانت بداية أمره أنه لما سلم السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب أمر الأسطول لأخيه الملك العادل أبي بكر بن أيوب ، وأفرد له من الأبواب الديوانية الزكاة بمصر ، والحبس الجيوشي بالبرين ، والنطرون ، والخراج وما معه من ثمن القرظ ، وساحل السنط ، والمراكب الديوانية ، واسنا وطنبدي . استخدم العادل في مباشرة ديوان هذه المعاملة الصفي بن شكر هذا ، وكان ذلك * في سنة سبع وثمانين وخمسمائة .

ومن حينئذ اشتهر ذكره ، وتخصص بالملك العادل . فلما استقل بمملكة مصر ، في سنة ست وتسعين وخمسمائة ، عظم قدره ، ثم استوزره بعد الصيعة بن النجار ، فحل عنده محل الوزراء الكبار والعلماء المشاورين ، وباشر الوزارة بسطوة وجبروت وتعاظم ، وصادر كتاب الدولة ، واستصفى أموالهم . ففر منه القاضي الأشرف ابن القاضي الفاضل الى بغداد ، واستشفع بالخليفة الناصر ، وأحضر كتابه الى الملك العادل يشفع فيه . وهرب منه القاضي علم الدين اسماعيل بن أبي الحجاج صاحب ديوان الجيش ، والقاضي الأسعد أسعد بن مماتي صاحب ديوان المال ، والتجآ الى الملك الظاهر بحلب ، فأقاما عنده حتى ماتا .

وصادر بني حمدان ، وبني الجباب ، وبني الجليس ، وأكابر الكتاب ... والسلطان لا يعارضه في شيء . ومع ذلك فكان يكثر التغضب على السلطان ، ويتجنى عليه وهو يحتمله ، الى أن غضب في سنة سبع وستمائة ، وحلف أنه ما بقي يخدم . فلم يحتمله ، وولي الوزارة عوضا عنه القاضي الأعز فخر الدين مقدام بن شكر ، وأخرجه من مصر بجميع أمواله ، وحرمه وغلمانه ، وكان نقله على ثلاثين جملا ، وأخذ أعداؤه في اغراء السلطان به ، وحسنوا له أن يأخذ ماله ، فأبى عليهم ، ولم يأخذ منه شيئا

وصار الى آمد ، فأقام بها عند ابن أرتق الي أن مات الملك العادل في سنة خمسين وستمائة فطلبه الملك الكامل محمد ابن الملك العادل لما استبد بسلطنة ديار مصر بعد أبيه ، وهو في نوبة قتال الفرنج على دمياط ، حين رأى أن الضرورة داعية لحضوره بعدما كان يعاديه . فقدم عليه في ذى القعدة منها ، وهو بالمنزلة العادلية قريبا من دمياط .

فتلقاه وأكرمه ، وحادثه فيما نزل به من موت أبيه ، ومحاربة الفرنج ، ومخالفة الأمير عماد الدين أحمد بن المشطوب ، واضطراب أرض مصر بثورة العربان وكثرة خلافهم .

(*) ص٣٧١ جـ٢ ، ط. بولاق .

فشجعه ، وتكفل له بتحصيل المال وتدبير الأمور » وسار الى القاهرة ، فوضع يده فى مصادرات أرباب الأموال بمصر والقاهرة من الكتاب والتجار ، وقرر على الأملاك مالا ، وأحدث حوادث كثيرة ، وجمع مالا عظيما أمد به السلطان »

فكثر تمكنه منه ، وقويت يده ، وتوفرت مهابته ... بحيث انه لما انقضت نوبة دمياط ، وعاد الملك الكامل الى قلعة الجبل ، كان ينزل اليه ، ويجلس عنده بمنظرته التى كانت على الخليج ، ويتحدث معه فى مهمات الدولة . ولم يزل على ذلك الى أن مات بالقاهرة ، وهو وزير ، فى يوم الجمعة ثامن شعبان سنة اثنتين وعشرين وستمائة .

وكان بعيد الغور ، جماعا للمال ضابطا له من الانفاق فى غير واجب قد ملأت هيبته الصدور ، وانقاد له على الرغم والرضا الجمهور ، وأخمد جمرات الرجال ، وأضرم رمادا لم يخطر ايقاده على بال ، وبلغ عند الملك الكامل بحيث انه بعث اليه بابنيه الملك الصالح نجم الدين أيوب والملك العادل أبى بكر ، ليزوراه فى يوم عيد ، فقاما على رأسه قياما ، وأنشد زكى الدين أبو القاسم عبد الرحمن بن وهيب القوصى قصيدة ، زاد فيها حين رأى الملكين قياما على رأسه :

لو لم تقم لله حق قيامه

ما كنت تقعد والملوك قيام

وقطع فى وزارته الأرزاق ، وكانت جملتها أربعمائة ألف دينار فى السنة ، وتسارع أرباب الحوائج والأطماع ومن كان يخافه الى بابه ، وملأوا طرقاته ... وهو يهينهم ، ولا يحفل بشيخ منهم وهو عالم ، وأوقع بالرؤساء وأرباب البيوت ، حتى استأصل شأفتهم عن آخرهم ، وقدم الأراذل فى مناصبهم .

وكان جلدا قويا .. حل به مرة دوسطاريا قوية وأزمنت ، فيئس منه الأطباء ، وعندما اشتد به الوجع ، وأشرف على الهلاك ، استدعى بعشرة من وجوه الكتاب كانوا فى حبسه ، وقال : أنتم فى راحة وأنا فى الألم ... كلا والله ! واستحضر المعاصير وآلات العذاب وعذبهم ، فصاروا يصرخون من العذاب ، وهو يصرخ من الألم طول الليل الى الصبح ، وبعد ثلاثة أيام ركب .

وكان يقول كثيرا : لم يبق فى قلبى حسرة الا كون البيسانى لم تتمرغ شيبته على عتباتى — يعنى القاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى فانه مات قبل وزارته — وكان درى اللون تعلوه حمرة ، ومع ذلك فكان طلق المحيا ، حلو اللسان ، حسن الهيئه ، صاحب دهاء ، مع هوج وخبث ، فى طيش ورعونة مفرطة ، وحقد لا تخبو ناره ، ينتقم ويظن أنه لم ينتقم فيعود .

وكان لا ينام عن عدوه ، ولا يقبل معذرة أحد ، ويتخذ الرؤساء كلهم أعداءه ، ولايرضى لعدوه بدون الهلاك والاستئصال ، ولا يرحم أحدا اذا انتقم منه ، ولا يبالى بعاقبة ، وكان له ولأهله كلمة يرونها ، ويعملون بها كما يعمل بالأقوال الالهية ، وهى « اذا كنت دقماقا فلا تكن وتدا » ، وكان الواحد منهم يعيدها فى اليوم مرات ، ويجعلها حجة عند انتقامه

وكان قد استولى على الملك العادل ظاهرا وباطنا ، ولا يمكن أحدا من الوصول اليه ...

حتى الطبيب والحاجب والفراش عليهم عيون له ، لا يتكلم أحد منهم بفضل كلمة خوفا منه. وكان أكبر أغراضه ابادة أرباب البيوت ، ومحو آثارهم ، وهدم ديارهم ، وتقريب الأسقاط وشراء الفقهاء ، وكان لا يأخذ من مال السلطان فلسا ولا ألف دينار ، ويظهر أمانة مفرطة ، فاذا لاح له مال عظيم احتجبه وبلغ اقطاعه فى السنة مائة ألف دينار وعشرين ألف دينار .

وكان قد عمى ، فأخذ يظهر جلدا عظيما وعدم استكانة ، اذا حضر اليه الأمراء والأكابر ، وجلسوا على خوانه ، يقول قدموا اللون الفلانى للأمير فلان ، والصدر فلان ، والقاضى فلان ، وهو يبنى أمورا فى معرفة مكان المشار اليه برموز ومقدمات يكابر فيها دوائر الزمان .

وكان يتشبه فى ترسله بالقاضى الفاضل ، وفى محاضراته بالوزير عون الدين بن هبيرة حتى اشتهر عنه ذلك ولم يكن فيه أهلية هذا ، ولكنه كان من دهاة الرجال . وكان اذا لحظ شخصا لا يقنع له الا بكثرة الغنى وتهاية الرفعة ، واذا غضب على أحد لا يقنع فى شأنه الا بمحو أثره من الوجود ، وكان كثيرا ما ينشد :

اذا حقرت امرأ فاحذر عداوته

من يزرع الشوك لم يحصد به عنبا

وينشد كثيرا :

تود عدوى ثم تزعم أننى

صديقك ان الرأى عنك لعازب

وأخذه مرة مرض من حمى قوية ، وتحدث به النافض وهو فى مجلس السلطان ينفذ الأشغال ، فما تأثر ، ولا ألقى جنبه الى الأرض حتى ذهب هو كذلك .

وكان يتعزز على الملوك الجبابرة ، وتقف الرؤساء على بابه من نصف الليل ومعهم المشاعل والشمع ، وعند الصباح يركب فلا يراهم ولا يرونه ، لأنه اما أن يرفع رأسه الى السماء تيها واما أن يعرج الى طريق غير التى هم بها ، واما أن يأمر الجنادرة التى فى ركابه بضرب الناس وطردهم من طريقه ، ويكون الرجل قد وقف على بابه طول الليل ، اما من أوله ، أو من نصفه ، بغلمانه ودوابه ، فيطرد عنه ولا يراه .

وكان له نواب يأخذ من الناس مالا كثيرا ، ومع ذلك يهينهم اهانة مفرطة ، وعليه للصاحب فى كل يوم خمسة دنانير منها ديناران برسم الفقاع ، ثلاثة دنانير برسم الحلوى وكسوة غلمانه ، ونفقاته عليه أيضا ، ومع ذلك اقتنى عقارا وقرى .

ولما كان بعد موت الصاحب ، قدم من بغداد رسول الخليفة الظاهر — وهو محيى الدين أبو المظفر بن الجوزى — ومعه خلعة الخليفة للملك الكامل ، وخلع لأولاده ، وخلعة للصاحب صفى الدين ، فلبسها فخر الدين سليمان كاتب الانشاء

وقبض الملك الكامل على أولاده تاج الدين يوسف ، وعز الدين محمد ، وحبسهما ، وأوقع الحوطة على سائر موجوده . رحمه الله وعفا عنه .

(*) ص٢٧٢ ج٢ ، ط. بولاق .

المدرسة الشريفية

هذه المدرسة بدرب كركامة ، على رأس حارة الجودرية ، من القاهرة . وقفها الأمير الكبير الشريف فخر الدين أبو نصر اسماعيل ابن حصن الدولة فخر العرب ثعلب بن يعقوب ابن مسلم بن أبي جميل دحية بن جعفر بن موسى بن ابراهيم بن اسماعيل بن جعفر بن محمد بن على بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، رضى الله عنه ، الجعفرى الزينبى ، أمير الحاج والزائرين ، وأحد أمراء مصر في الدولة الأيوبية ، وتمت في سنة اثنتى عشرة وستمائة ، وهى من مدارس الفقهاء الشافعية .

قال ابن عبد الظاهر : وجرى له في وقفها حكاية مع الفقيه ضياء الدين بن الوراق . وذلك أن الملك العادل سيف الدين أبا بكر (يعنى ابن أيوب) لما ملك مصر — وكان قد دخلها على أنه نائب للملك المنصور محمد بن العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف ، فقوى عليه ، وقصد الاستبداد بالملك — فأحضر الناس للحلف ، وكان من جملتهم الفقيه ضياء الدين بن الوراق ، فلما شرع الناس في الحلف ، قال الفقيه ضياء الدين : ما هذا الحلف ؟ بالأمس حلفتم للمنصور ، فان كانت تلك الأيمان باطلة فهذه باطلة ، وان كانت تلك صحيحة فهذه باطلة .

فقال الصاحب صفي الدين بن شكر للعادل : أفسدَ عليك الأمور هذا الفقيه — وكان الفقيه لم يحضر الى ابن شكر ولا سلم عليه — فأمر العادل بالحوطة على جميع موجود الفقيه وماله وأملاكه ، واعتقاله بالرصد مرسما عليه فيه ، لأنه كان مسجده ، فأقام مدة سنين على هذه الصورة .

فلما كان في بعض الأيام وجد غرة من المترسمين ، فحضر الى دار الوزارة بالقاهرة . فبلغ العادل حضوره فخرج اليه ، فقال له الفقيه : اعلم والله أنى لا حاللتك ولا أبرأتك ، أنت تتقدمنى الى الله في هذه المدة ، وأنا بعدك أطالبك بين يدى الله تعالى . وتركه وعاد الى مكانه .

فحضر الشريف فخر الدين بن ثعلب الى الملك العادل ، فوجده متألما حزينا ، فسأله ، فعرفه ، فقال : يامولانا ، ولم تجرد السم في نفسك ؟

فقال : خذ كل ما وقعت الحوطة عليه ، وكل ما استخرج من أجرة أملاكه ، وطيب خاطره .

وأما الفقيه ضياء الدين ، فانه أصبح ، وحضرت اليه جماعة من الطلبة * للقراءة عليه ، فقال لهم : رأيت البارحة النبى صلى الله عليه وسلم وهو يقول : يكون فرجك على يد رجل من أهل بيتى صحيح النسب .

فبينما هم في الحديث ، واذا بغبرة ثارت من جهة القرافة ، فانكشفت عن الشريف بن ثعلب ، ومعه الموجود كله . فلما حضر عرفه الجماعة المنام ، فقال : ياسيدى اشهد علىّ أن جميع ما أملكه وقف وصدقة ، شكرا لهذه الرؤيا .

وخرج عن كلّ ما يملكه ، وكان من جملة ذلك المدرسة الشريفية لأنها كانت مسكنه ، ووقف عليها أملاكه ، وكذلك فعل في غيرها .

(*) ص٣٧٣ جـ٢ ، ط. بولاق .

ولم يحالل الفقيه الملك العادل ، ومات الملك العادل بعد ذلك ، ومات الفقيه بعده بمدة ، ومات الشريف اسماعيل بن ثعلب بالقاهرة فى سابع عشر رجب سنة ثلاث عشرة وستمائة .

المدرسة الصالحية

هـذه المدرسـة بخـط بين القصرين من القاهرة . كان موضعها من جملة القصر الكبير الشرقى ، فبنى فيـه الملك الصالح نجم الدين أيوب هاتين المدرستين ، فابتدأ بهدم موضع أيوب هاتين المدرستين ، فابتدأ بهدم موضـع هذه المدارس فى قطعة من القصر ، فى ثالث عشر ذى الحجة سنة تسع وثلاثين وستمائة ، ودك أساس المدارس فى رابع عشر ربيع الآخر سنة أربعين ، ورتب فيها دروسا أربعة للفقهاء المنتمين الى المذاهب الأربعة فى سنة احـدى وأربعين وستمائة . وهو أول من عمل بديار مصر دروسا أربعة فى مكان .

ودخل فى هذه المدارس باب القصر المعروف بباب الزهومة ، وموضعه قاعة شيخ الحنابلة الآن ، ثم اختط ما وراء هذه المدارس فى سنة بضع وخمسين وستمائة ، وجعل حكر ذلك للمدرسة الصالحية .

وأول من درس بها من الحنابلة قاضى القضاة شمس الدين أبو بكر محمد بن العماد ابراهيم ابن عبد الواحد بن على بن سرور ، المقدسى الحنبلى الصالحى .

وفى يوم السبت ثالث عشرى شوال سنة ثمان وأربعين وستمائة ، أقام الملك المعز عز الدين أيبـك التركمـانى ، الأمير علاء الدين أيدكين البندقدارى الصالحى فى نيابة السلطنة بديار مصر فـواظب الجلـوس بالمدارس الصالحية هذه مع نواب دار العدل ، وانتصب لكشف المظالم ، واستمر جلوسه بها مدة .

ثم ان الملك السعيد ناصر الدين محمد بركة خان ابن الملك الظاهر بيبرس ، وقف الصـاغة التى تجاهها ، وأماكن بالقاهرة وبمدينة المحلة الغربية ، وقطع أراضى جزائر بالأعمال الجيزية والأطفيحية ، على مدرسين أربعة ، عنـد كل مدرس معيدان وعدة طلبة ، وما يحتاج اليه من أئمة ومؤذنين وقومة وغير ذلك وثبت وقف ذلك على يد قاضى القضاة تقى الدين محمـد ابن الحسين بن رزين الشافعى ، ونفذه قاضى القضاة شمس الدين أبو البركات محمـد بن هبة الله بن شكر المالكى ، وذلك فى سـنة سبع وسبعين وسمائة ، وهى جارية فى وقفها الى اليوم .

فلما كان فى يوم الجمعة حادى عشرى ربيع الأول سنة ثلاثين وسبعمائة ، رتب الأمير جمال الدين أقوش — المعروف بنائب الكرك — جمال الدين الغزاوى خطيبا بايوان الشافعية من هذه المدرسة ، وجعـل له فى كل شـهر خمسين درهما ، ووقف عليـه وعلى مؤذنين وقفا جاريا ، فاستمرت الخطبة هناك الى يومنا هذا .

« قبة الصالح » : هذه القبة بجوار المدرسة الصالحية ، كان موضعها قاعة شيخ المالكية . بنتها عصمة الدين ، والدة خليل ، شجرة الدر لأجل مولاها الملك الصالح نجم الدين أيوب عندما مات — وهو على مقاتلة الفرنج بناحية المنصورة — فى ليلة النصف من شعبان سنة

سبع وأربعين وستمائة . فكتمت زوجته شجرة الدر موته خوفا من الفرنج ، ولم تعلم بذلك أحدا سوى الأمير فخر الدين بن يوسف ابن شيخ الشيوخ ، والطواشي جمال الدين محسن فقط ، فكتما موته عن كل أحد .

وبقيت أمور الدولة على حالها ، وشجرة الدر تخرج المناشير والتواقيع والكتب ، وعليها علامة بخط خادم يقال له سهيل ، فلا يشك أحد في أنه خط السلطان . وأشاعت أن السلطان مستمر المرض ، ولا يمكن الوصول اليه ، فلم يجسر أحد أن يتفوه بموت السلطان ... الى أن أنفذت الى حصن كيفا ، وأحضرت الملك المعظم توران شاه بن الصالح .

وأما الملك الصالح فان شجرة الدر أحضرته في حراقة من المنصورة الى قلعة الروضة ، تجاه مدينة مصر ، من غير أن يشعر به أحد الا من ائتمنته على ذلك . فوضع في قاعة من قاعات قلعة الروضة الى يوم الجمعة السابع والعشرين من شهر رجب سنة ثمان وأربعين وستمائة ، فنقل الى هذه القبة بعد ما كانت شجرة الدر قد عمرتها على ما هي عليه .

وخلعت نفسها من سلطنة مصر ، ونزلت عنها لزوجها عز الدين أيبك قبل نقله ، فنقله المعز أيبك ، ونزل ومعه الملك الأشرف موسى ابن الملك المسعود ، وسائر المماليك البحرية والجمدارية والأمراء ، من قلعة الجبل الى قلعة الروضة . وأخرج الملك الصالح في تابوت ، وصلى عليه بعد صلاة الجمعة ، وسائر الأمراء وأهل الدولة قد لبسوا البياض حزنا عليه ، وقطع المماليك شعور رؤوسهم ، وساروا به الى هذه القبة ، فدفن ليلة السبت * .

فأصبح السلطانان ، ونزلا الى القبة ، وحضر القضاة وسائر المماليك ، وأهل الدولة وكافة الناس ، وغلقت الأسواق بالقاهرة ومصر ، وعمل عزاء للملك الصالح بين القصرين بالدفوف مدة ثلاثة أيام ، آخرها يوم الاثنين ، ووضع عند القبر سناجق السلطان وبقجته وتركاشه وقوسه ، ورتب عنده القراء على ما شرطت شجرة الدر في كتاب وقفها ، وجعلت النظر فيها للصاحب بهاء الدين على بن حنا وذريته ، وهي بيدهم الى اليوم .

وما أحسن قول الأديب جمال الدين أبي المظفر عبد الرحمن بن أبي سعيد محمد بن محمد بن عمر بن أبي القاسم بن تخمش الواسطي — المعروف بابن السنيرة الشاعر — لما مر هو والأمير نور الدين تكريت بالقاهرة بين القصرين ، ونظر الى تربة الملك الصالح هذه وقد دفن بقاعة شيخ المالكية ، فأنشد :

بنيت لأرباب العلوم مدارسا
لتنجو بها من هول يوم المهالك

وضاقت عليك الأرض لم تلق منزلا
تحل به الا الى جنب مالك

وذلك أن هذه القبة التي فيها قبر الملك الصالح ، مجاورة لايوان الفقهاء المالكية المنتمين الى الامام مالك بن أنس رضي الله عنه ، فقصد التورية بمالك الامام المشهور ، ومالك خازن النار . أعاذنا الله منها .

(*) ص٣٧٤ جـ٢ ، ط. بولاق .

المدرسة الكاملية

هذه المدرسة بخط بين القصرين من القاهرة ، وتعرف بدار الحديث الكاملية ، أنشأها السلطان الملك الكامل ناصر الدين محمد ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب بن شادي بن مروان ، في سنة اثنتين وعشرين وستمائة ، وهي ثاني دار عملت للحديث .

فان أول من بنى دارا على وجه الأرض الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى بدمشق . ثم بنى الكامل هذه الدار ، ووقفها على المشتغلين بالحديث النبوى ، ثم من بعدهم على الفقهاء الشافعية ، ووقف عليها الربع الذى بجوارها على باب الخرنشف ، ويمتد الى الدرب المقابل للجامع الأقمر .

وهذا الربع من انشاء الملك الكامل ، وكان موضعه من جملة القصر الغربى ، ثم صار موضعا يسكنه القماحون . وكان موضع المدرسة سوقا للرقيق ، ودارا تعرف بابن كستول .

وأول من ولى تدريس الكاملية : الحافظ أبو الخطاب عمر بن الحسن بن على بن دحية ، ثم أخوه أبو عمرو عثمان بن الحسن بن على ابن دحية ، ثم الحافظ عبد العظيم المنذرى ، ثم الرشيد العطار .

وما برحت بيد أعيان الفقهاء . الى أن كانت الحوادث والمحن منذ سنة ست وثمانمائة فتلاشت كما تلاشى غيرها ، وولى تدريسها صبى لا يشارك الأناسى الا بالصورة ، ولا يمتاز عن البهيمة الا بالنطق ، واستمر فيها دهرا لا يدرس بها ، حتى نسيت أو كادت تنسى دروسها . ولا حول ولا قوة الا بالله .

« الملك الكامل » ناصر الدين أبو المعالى محمد ابن الملك العادل سيف الدين أبى بكر محمد بن نجم الدين أيوب بن شادى بن مروان الكردى الأيوبى ، خامس ملوك بنى أيوب الأكراد بديار مصر ، ولد فى خامس عشرى ربيع الأول سنة ست وسبعين وخمسمائة ، وخلف أباه الملك العادل على بلاد الشرق .

فلما استولى على مملكة مصر ، قدم الملك الكامل الى القاهرة فى سنة ست وتسعين وخمسمائة ، ونصبه أبوه نائبا عنه بديار مصر ، وأقطعه الشرقية ، وجعله ولى عهده ، وحلف له الأمراء ، وأسكنه قلعة الجبل ، وسكن العادل فى دار الوزارة بالقاهرة ، وصار يحكم بديار مصر مدة غيبة الملك العادل ببلاد الشام وغيرها بمفرده .

فلما مات الملك العادل ببلاد الشام ، استقل الملك الكامل بمملكة مصر فى جمادى الآخرة سنة خمس عشرة وستمائة ، وهو على محاربة الفرنج بالمنزلة العادلية قريبا من دمياط ، وقد ملكوا البر الغربى ، فثبت لقتالهم مع ما حدث من الوهن بموت السلطان .

وثارت العربان بنواحى أرض مصر ، وكثر خلافهم ، واشتد ضررهم . وقام الأمير عماد الدين أحمد ابن الأمير سيف الدين أبى الحسين على بن أحمد الهكارى ، المعروف بابن المشطوب — وكان أجل الأمراء الأكابر ، وله لفيف من الأكراد الهكارية — يريد خلع

الملك الكامل ، وتمليك أخيه الملك الفائز ابراهيم بن العادل ، ووافقه على ذلك كثير من الأمراء .

فلم يجد الكامل بدا من الرحيل فى الليل جريدة ، وسار من العادلية الى أشموم طناح ونزل بها ، وأصبح العسكر بغير سلطان . فركب كل واحد هواه ، ولم يعرج واحد منهم على آخر ، وتركوا أثقالهم وسائر ما معهم . فاغتنم الفرنج الفرصة ، وعبروا الى بر دمياط ، واستولوا على جميع ما تركه المسلمون ، وكان شيئا عظيما .

وهم الملك الكامل بمفارقة أرض مصر ، ثم ان الله تعالى ثبته ، وتلاحقت به العساكر ، وبعد يومين قدم عليه أخوه الملك المعظم عيسى صاحب دمشق بأشموم فاشتد عضده بأخيه ، وأخرج ابن المشطوب من العسكر الى الشام ، ثم أخرج الفائز ابراهيم الى الملوك الأيوبية بالشام والشرق يستنفرهم * لجهاد الفرنج .

وكتب الملك الكامل الى أخيه الملك الأشرف موسى شاه يستحثه على الحضور ، وصدر المكاتبة بهذه الأبيات :

يامسعدى ان كنت حقا مسعفى
فانهض بغير تلبث وتوقف
واحثث قلوصك مرقلا أو موجفا
بتجشم فى سيرها وتعسف
واطو المنازل ما استطعت ولا تنخ
الا على باب المليك الأشرف
واقر السلام عليه من عبد له
متوقع لقدومه متشوف

واذا وصلت الى حماه فقل له
عنى بحسن توصل وتلطف
ان تأت عبدك عن قليل تلقه
ما بين كل مهند ومثقف
أو تبط عن نجاده فلقاؤه
بك فى القيامة فى عراص الموقف

وجد الكامل فى قتال الفرنج ، وأمر بالنفير فى ديار مصر ، رأتته الملوك من الأطراف . فقدر الله أخذ الفرنج لدمياط ، بعدما حاصروها ستة عشر شهرا واثنين وعشرين يوما ، ووضعوا السيف فى أهلها . فرحل الكامل من أشموم ، ونزل بالمنصورة ، وبعث يستنفر الناس ، وقوى الفرنج حتى بلغت عدتهم نحو المائتى ألف راجل وعشرة آلاف فارس .

وقدم عامة أهل أرض مصر ، وأتت النجدات من البلاد الشامية وغيرها فصار المسلمون فى حمع عظيم الى الغاية ، بلغت عدة فرسانهم خاصة نحو الأربعين ألفا . وكانت بين الفريقين خطوب آلت الى وقوع الصلح ، وتسلم المسلمون مدينة دمياط فى تاسع عشرى رجب سنة ثمان عشرة وستمائة ، بعدما أقامت بيد الفرنج سنة وأحد عشر شهرا تنقص ستة أيام ، وسار الفرنج الى بلادهم .

وعاد السلطان الى قلعة الجبل ، وأخرج كثيرا من الأمراء الذين وافقوا ابن المشطوب من القاهرة الى الشام ، وفرق أخبازهم على مماليكه . ثم تخوف من أمرائه فى سنة احدى وعشرين بميلهم الى أخيه الملك المعظم ، فقبض على جماعة منهم ، وكاتب أخاه الملك الأشرف فى موافقته على المعظم . فقويت الوحشة بين

(*) ص٢٧٥ جـ٢ ، ط.بولاق .

الكامل والمعظم ، واشتد خوف الكامل من عسكره ، وهم أن يخرج من القاهرة لقتال المعظم ، فلم يجسر على ذلك .

وقدم الأشرف الى القاهرة ، فسر بذلك سرورا كثيرا ، وتحالفا على المعاضدة ، وسافر من القاهرة فمال مع المعظم فتحير الكامل فى أمره ، وبعث الى ملك الفرنج يستدعيه الى عكا ، ووعده بأن يمكنه من بلاد الساحل ، وقصد بذلك أن يشغل سر أخيه المعظم قلما بلغ ذلك المعظم خطب للسلطان جلال الدين الخوارزمى ، وبعث يستنجد به على الكامل ، وأبطل الخطبة للكامل .

فخرج الكامل من القاهرة يريد محاربته فى رمضان سنة أربع وعشرين ، وسار الى العباسة ، ثم عاد الى قلعة الجبل ، وقبض على عدة من الأمراء ومماليك أبيه لمكاتبتهم المعظم ، وأنفق فى العسكر . فاتفق موت الملك المعظم فى سلخ ذى القعدة ، وقيام ابنه الملك الناصر داود بسلطنة دمشق ، وطلبه من الكامل الموادعة ، فبعث اليه خلعة سنية وسنجقا سلطانيا ، وطلب منه أن ينزل له عن قلعة الشوبك ، فامتنع الناصر من ذلك ، فوقعت المنافرة بينهما

وعهد الملك الكامل الى ابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وأركبه بشعار السلطنة ، وأنزله بدار الوزارة ، وخرج من القاهرة فى العساكر يريد دمشق ، فأخذ نابلس والقدس . فخرج الناصر داود من دمشق ومعه عمه الأشرف ، وسارا الى الكامل يطلبان منه الصلح .

فلما بلغ ذلك الكامل رحل من نابلس يريد القاهرة ، فقدمها الناصر والأشرف ، وأقام بها الناصر ، وسار الأشرف والمجاهد الى الكامل ، فأدركاه بتل العجوز ، فأكرمهما وقرر مع الأشرف انتزاع دمشق من الناصر واعطاءها للأشرف ، على أن يكون للكامل ما بين عقبة أفيق الى القاهرة ، وللأشرف من دمشق الى عقبة أفيق ، وأن يعين بجماعة من ملوك بنى أيوب .

فاتفق قدوم الملك الانبرطور الى عكا باستدعاء الملك الكامل له ، فتحير الكامل فى أمره لعجزه عن محاربته ، أخذ يلاطفه . وشرع الفرنج فى عمارة صيدا — وكانت مناصفة بين المسلمين والفرنج وسورها خراب — فلما بلغ الناصر موافقة الأشرف للكامل ، عاد من نابلس الى دمشق ، واستعد للحرب . فسار اليه الأشرف من تل العجوز ، وحاصره بدمشق .

وأقام الكامل بتل العجوز ، وقد تورط مع الفرنج ، فلم يجد بدا من اعطائهم القدس ، على ألا يجدد سوره ، وأن تبقى الصخرة والأقصى مع المسلمين ، ويكون حكم قرى القدس الى المسلمين ، وأن القرى التى فيما بين عكا ويافا وبين لد والقدس للفرنج . وانعقدت الهدنة على ذلك لمدة عشر سنين وخمسة أشهر وأربعين يوما ، أولها ثامن ربيع الأول سنة ست وعشرين .

ونودى * فى القدس بخروج المسلمين منه ، وتسليمه الى الفرنج . فكان أمرا مهولا من شدة البكاء والصراخ ، وخرجوا بأجمعهم

(*) ص٣٧٦ جـ٢ ، ط. بولاق .

فصاروا الى مخيم الكامل ، وأذنوا على بابه في غير وقت الأذان . فشق عليه ذلك ، وأخذ منهم الستور وقناديل الفضة والآلات وزجرهم ، وقيل لهم امضوا حيث شئتم . فعظم على المسلمين هذا ، وكثر الانكار على الملك الكامل ، وشنعت المقالة فيه .

وعاد الانبرطور الى بلاده بعدما دخل القدس ، وكان مسيره في آخر جمادى الآخرة سنة ست وعشرين . وسير الكامل الى الآفاق بتسكين قلوب المسلمين وانزعاجهم لأخذ الفرنج القدس ، ورحل من تل العجوز يريد دمشق ، والأشرف على مخاصرتها ، فجد في القتال .

واشتد الأمر على الناصر الى أن ترامى في الليل على الملك الكامل ، فأكرمه وأعاده الى قلعة دمشق ، وبعث من تسلمها منه ، وعوضه عن دمشق الكرك والشوبك والصلت والبلقاء والأغوار ونابلس وأعمال القدس ، ثم ترك الشوبك للكامل مع عدة مما ذكر .

وتسلم الكامل دمشق في أول شعبان ، وأعطاها للأشرف ، وأخذ منه ما معه من بلاد الشرق ، وهي حران والرها وسروج وغير ذلك . ثم سار الكامل ، فأخذ حماه ، وتوجه منها فقطع الفرات ، ثم سار الى جعبر والرقة ، ودخل حران والرها ، ورتب أمورها ، وأتته الرسل من ماردين وآمد والموصل وأربل وغير ذلك ، وأقيمت له الخطبة بماردين ، وبعث يستدعي عساكر الشام لقتال الخوارزمي وهو بخلاط .

ثم رحل الكامل من حران لأمور حدثت ، وسار الى مصر . فدخلها في شهر رجب سنة سبع وعشرين ، وقد تغير على ولده الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وخلعه من ولاية العهد ، وعهد الى ابنه الملك العادل أبي بكر ، ثم سار الى الاسكندرية في سنة ثمان وعشرين ، ثم عاد الى مصر ، وحفر بحر النيل فيما بين المقياس وبر مصر ، وعمل فيه بنفسه ، واستعمل فيه الملوك من أهله والأمراء والجند . فصار الماء دائما فيما بين مصر والمقياس ، وانكشف البر فيما بين المقياس والجيزة في أيام احتراق النيل .

وخرج من القاهرة الى بلاد الشام ، في آخر جمادى الآخرة سنة تسع وعشرين ، واستخلف على ديار مصر ابنه العادل ، وأسكنه قلعة الجبل ، وأخذ الصالح معه . فدخل دمشق من طريق الكرك ، وخرج منها لقتال التتر ، وجعل ابنه الصالح على مقدمته ، فسار الى حران ، فرحل التتر عن خلاط . ثم رحل الى الرها ، وسار الى آمد ونازلها حتى أخذها ، وأنعم على ابنه الصالح بحصن كيفا وبعثه اليه ، وعاد الى مصر في سنة ثلاثين ، فقبض على عدة من الأمراء .

ثم خرج في سنة احدى وثلاثين الى دمشق ، وسار منها ودخل الدربند ، وقد أعجبته كثرة عساكره ، فانه اجتمع معه ثمانية عشر طلبا لثمانية عشر ملكا ، وقال : هذه العساكر لم تجتمع لأحد من ملوك الاسلام ، ونزل على النهر الأزرق بأول بلد الروم ، وقد نزلت عساكر الروم ، وأخذت عليه رأس الدربند ومنعوه ، فتحير لقلة الأقوات عنده ، ولاختلاف ملوك بني أيوب عليه ، ورحل الى مصر وقد فسد ما بينه وبين الأشرف وغيره .

وأخذ ملك الروم الرها وحران بالسيف . فتجهز الكامل وخرج بعساكره من القاهرة فى سنة ثلاث وثلاثين ، وسار الى الرها ، ونازلها حتى أخذها وهدم قلعتها ، وأخذ حران بعد قتال شديد ، وبعث من كان فيها من الروم الى القاهرة فى القيود — وكانوا زيادة على ثلاثة آلاف نفس — ثم خرج الى دنيسر ، وعاد الى دمشق ، وسار منها الى القاهرة ، فدخلها فى سنة أربع وثلاثين .

ثم خرج فى سنة خمس وثلاثين ، ونزل على دمشق وقد امتنعت عليه ، فضايقها حتى أخذها من أخيه الملك الصالح اسماعيـل ، وعوضـه عنها بعلبـك وبصرى وغيرهما فى تاسع عشر جمادى الأولى ، ونزل بالقلعة ، وأخذ يتجهز لأخذ حلب .

وقد نزل به زكام ، فدخـل فى ابتـدائه الحمام ، فاندفعت المواد الى معدته فتورم ، وثارت فيه حمى ، فنهاه الأطباء عن القيء ، وحذروه منه ، فلم يصبر وتقيأ ، فمات لوقته فى آخر نهـار الأربعاء حادى عشرى رجب سنة خمس وثلاثين وستمائة عن ستين سنة . منها ملكه أرض مصر نحو أربعين سنة ، استبد فيها بعد موت أبيه مدة عشرين سنة وخمسة وأربعين يوما .

وكان يحب العلم وأهله ، ويؤثر مجالستهم ، وشغف بسماع الحديث النبوى وحدث ، وبنى دار الحديث الكاملية بالقاهرة وكان نـاظر العلماء ، ويمتحنهم بمسائل غريبـة من فقـه ونحو ، فمن أجاب عنها حظى عنده وكان يبيت عنده بقلعة الجبل عدة من أهل العلم ، على أسرة بجانب سريره ، ليسامروه . وكان للعلم والأدب عنده نفاق ، فقصـده النـاس لذلك ، وصار يطلق الأرزاق الدارة لمن يقصده لهذا .

وكان مهابا حازما ، سديد الرأى ، حسن التدبير ، عفيفا عن الدماء وكان يباشر أمور مملكته بنفسه ، من غير اعتماد على وزير ولا غيره ، ولم يستوزر بعد الصاحب صفى الدين عبد الله بن على بن شكر أحدا ، وانما كان ينتدب من يختاره لتدبير الأشغال ، ويحضر عنده الدواوين ، ويحاسبهم بنفسه .

واذا ابتدأت زيادة النيل خرج ، وكشـف الجسور ، ورتب الأمراء لعملها . فاذا انتهى عمل الجسور خرج ثانيا * وتفقدها بنفسه ، فان وقف فيها على خلل عاقب متوليها أشـد العقوبة . فعمرت أرض مصر فى أيامه عمارة جيدة

وكان يخرج من زكوات الأموات التى تجبى من الناس سهمى الفقراء والمساكين ، ويعين مصرف ذلك لمستحقيـه شرعا ، ويفرز منـه معاليم الفقهاء والصلحاء . وكان يجلس كل ليلة جمعة مجلسا لأهل العلم ، فيجتمعون عنده للمنـاظرة . وكان كثير السياسـة ، حسن المداراة ، وأقام على كل طريق خفراء لحفظ المسافرين . الا أنه كان مغرما بجمع المال ، مجتهدا فى تحصـيله ، وأحـدث فى البلاد حوادث سماها « الحقوق » لم تعرف قبله .

ومن شعره قوله ، رحمه الله تعالى :

اذا تحققتم ما عنـد صاحبـكم
من الغرام فذاك القدر يكفيـه

(*) ص٣٧٧ جـ٢ ، ط. بولاق .

أنتم سكنتم فؤادى وهو منزلكم
وصاحب البيت أدرى بالذى فيه

وقال له الطبيب علم الدين أبو النصر جرجس بن أبى حليقة ، فى اليوم الذى مات فيه : كيف نوم السلطان فى ليلته ؟ فأنشد :

ياخليلى خبرانى بصدق
كيف طعم الكرى فانى نسيت

ودفن أولا بقلعة دمشق ، ثم نقل الى جوار جامع بنى أمية ، وقبره هناك . رحمه الله تعالى .

المدرسة الصيرمية

هذه المدرسة من داخل باب الجملون الصغير ، بالقرب من رأس سويقة أمير الجيوش ، فيما بينها وبين الجامع الحاكمى بجوار الزيادة . بناها الأمير جمال الدين شويخ ابن صيرم ، أحد أمراء الملك الكامل محمد ابن أبى بكر بن أيوب ، وتوفى فى تاسع عشر صفر سنة ست وثلاثين وستمائة .

المدرسة المسرورية

هذه المدرسة بالقاهرة داخل درب شمس الدولة . كانت دار شمس الخواص مسرور ، أحد خدام القصر ، فجعلت مدرسة بعد وفاته بوصيته ، وأن يوقف الفندق الصغير عليها . وكان بناؤها من ثمن ضيعة بالشام كانت بيده بيعت بعد موته ، وتولى ذلك القاضى كمال الدين خضر ، ودرس فيها .

وكان مسرور ممن اختص بالسلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، فقدمه على حلقته ، ولم يزل مقدما الى الأيام الكاملية ، فانقطع الى الله تعالى ، ولزم داره الى أن مات ، ودفن بالقرافة الى جانب مسجده . وكان له بر واحسان ومعروف ، ومن آثاره بالقاهرة فندق يعرف اليوم بخان مسرور الصغير ، وله ربع بالشارع .

المدرسة القوصية

هذه المدرسة بالقاهرة ، فى درب سيف الدولة ، بالقرب من درب ملوخيا . أنشأها الأمير الكردى والى قوص .

مدرسة بحارة الديلم

... ...

المدرسة الظاهرية

هذه المدرسة بالقاهرة من جملة خط بين القصرين . كان موضعها من القصر الكبير يعرف بقاعة الخيم ، وقد تقدم ذكرها فى أخبار القصر . ومما دخل فى هذه المدرسة باب الذهب المذكور فى أبواب القصر .

فلما أوقع الملك الظاهر بيبرس البندقدارى الحوطة على القصور والمناظر — كما تقدم ذكره — نزل القاضى كمال الدين طاهر ابن الفقيه نصر وكيل بيت المال ، وقوم قاعة الخيم هذه ، وابتاعها الشيخ شمس الدين محمد بن العماد ابراهيم المقدسى ، شيخ الحنابلة ومدرس

المدرسة الصالحية النجمية ، ثم باعها المذكور للسلطان ، فأمر بهدمها وبناء موضعها مدرسة .

فابتدىء بعمارتها فى ثانى ربيع الآخر سنة ستين وستمائة ، وفرغ منها فى سنة اثنتين وستين وستمائة . ولم يقع الشروع فى بنائها حتى رتب السلطان وقفها — وكان بالشام — فكتب بما رتبه الى الأمير جمال الدين بن يغمور ، وألا يستعمل فيها أحدا بغير أجرة ، ولا ينقص من أجرته شيئا .

فلما كان يوم الأحد خامس صفر سنة اثنتين وستين وستمائة ، اجتمع أهل العلم بها — وقد فرغ منها — وحضر القراء ، وجلس أهل الدروس كل طائفة فى ايوان : منها الشافعية بالايوان القبلى ، ومدرسهم الشيخ تقى الدين محمد بن الحسن بن رزين الحموى .. والحنفية بالايوان البحرى ، ومدرسهم الصدر مجد الدين عبد الرحمن بن الصاحب كمال الدين عمر بن العديم الحلبى ، وأهل الحديث بالايوان الشرقى ، ومدرسهم الشيخ شرف الدين عبد المؤمن بن خلف الدمياطى ، والقراء بالقراءات السبع بالايوان الغربى ، وشيخهم الفقيه كمال الدين المحلى ، وقرروا كلهم الدروس ، وتناظروا فى علومهم ، ثم مدت الأسمطة لهم فأكلوا ، وقام الأديب أبو الحسين الجزار فأنشد (*)

ألا هكذا يبنى المدارس من بنى
ومن يتعالى فى الثواب وفى الثنا
لقد ظهرت للظاهر الملك همة
بها اليوم فى الدارين قد بلغ المنا
تجمع فيها كل حسن مفرق
فراقت قلوبا للأنام وأعينا
ومذ جاورت قبرالشهيد فنفسه الـ
ـنفيسة منها فى سرور وفى هنا
وما هى الا جنة الخلد أزلفت
له فى غد فاختار تعجيلها هنا

وقال السراج الوراق أيضا قصيدة منها :

مليك له فى العلم حب وأهله
فلله حب ليس فيه ملام
فشيدها للعلم مدرسة غدا
عراق اليها شيق وشآم
ولا تذكرن يوما نظامية لها
فليس يضاهى ذا النظام نظام
ولا تذكرن ملكا فبيبرس مالك
وكل مليك فى يديه غلام
ولما بناها زعزعت كل بيعة
متى لاح صبح فاستقر ظلام
وقد برزت كالروض فى الحسن أنبأت
بأن يديه فى النوال غمام
ألم تر محرابا كأن أزاهرا
تفتح عنهن الغداة كمام

وقال الشيخ جمال الدين يوسف بن الخشاب :

قصد الملوك حماك والخلفاء
فافخر فان محلك الجوزاء
أنت الذى أمراؤه بين الورى
مثل الملوك وجنده أمراء

(*) ص٣٧٨ ج٢ ، ط. بولاق .

ملك تزينت الممالك باسمه
وتجملت بمدحه الفصحاء

وترفعت لعلاه خير مدارس
حلت بها علماء الفضلاء

يبقى كما يبقى الزمان وملكه
باق له ولحاسديه فناء

كم للفرنج وللتتار بباله
رسل مناها العفو والاعفاء

وطريقه لبلادهم موطوءة
وطريقهم لبلاد عذراء

دامت له الدنيا ودام مخلدا
ما أقبل الاصباح والامساء

فلما فرغ هؤلاء الثلاثة من انشادهم ، أفيضت عليهم الخلع . وكان يوما مشهودا .

وجعل بها خزانة كتب تشتمل على أمهات الكتب فى سائر العلوم ، وبنى بجانبها مكتبا لتعليم أيتام المسلمين كتاب الله تعالى ، وأجرى لهم الجرايات والكسوة ، وأوقف عليها ربع السلطان خارج باب زويلة ، فيما بين باب زويلة وباب الفرج ، ويعرف ذلك الخط اليوم به ، فيقال خط تحت الربع

وكان ربعا كبيرا لكنه خرب منه عدة دور فلم تعمر . وتحت هذا الربع عدة حوانيت هى الآن من أجل الأسواق ، والناس فى سكناها رغبة عظيمة ، ويتنافسون فيها تنافسا يرتفعون فيه الى الحكام .

وهذه المدرسة من أجل مدارس القاهرة ، الا أنها قد تقادم عهدها فرثت ، وبها الى الآن بقية صالحة ، ونظرها تارة يكون بيد الحنفية ، وأحيانا بيد الشافعية ، ويسارع فى نظرها أولاد الظاهر فيدفعون عنه ، والله عاقبة الأمور .

المدرسة المنصورية

هذه المدرسة من داخل باب المارستان الكبير المنصورى بخط بين القصرين بالقاهرة . أنشأها هى والقبة * التى تجاهها والمارستان الملك المنصور قلاوون الألفى الصالحى ، على يد الأمير علم الدين سنجر الشجاعى ، ورتب بها دروسا أربعة لطوائف الفقهاء الأربعة ، ودرسا للطب ، ورتب بالقبة درسا للحديث النبوى ، ودرسا لتفسير القرآن الكريم وميعادا وكانت هذه المدارس لا يليها الا أجل الفقهاء المعتبرين ، ثم هى اليوم كما قيل .

تصدر للتدريس كل مهوس
بليد يسمى بالفقيه المدرس

فحق لأهل العلم أن يتمثلوا
ببيت قديم شاع فى كل مجلس

لقد هزلت حتى بدا من هزالها
كلاها وحتى سامها كل مفلس

« القبة المنصورية » هذه القبة تجاه المدرسة المنصورية ، وهما جميعا من داخل باب المارستان المنصورى ، وهى من أعظم المبانى الملوكية وأجلها قدرا وبها قبر تضمن الملك المنصور سيف الدين قلاوون ، وابنه الملك الناصر محمد بن قلاوون ، والملك الصالح عماد الدين اسماعيل بن محمد بن قلاوون .

(*) ص۳۷۹ جـ۲ ، ط. بولاق .

وبها قاعة جليلة فى وسطها فسقية يصل اليها الماء من فوارة بديعة الزى ، وسائر هذه القاعة مفروش بالرخام الملون . وهذه القاعة معدة لاقامة الخدام الملوكية ، الذين يعرفون اليوم فى الدولة التركية بالطواشية : واحدهم « طواشى » ، وهذه لفظة تركية أصلها بلغتهم « طابوشى » ، فتلاعبت بها العامة وقالت : طواشى ، وهو الخصى .

ولهؤلاء الخدام فى كل يوم ما يكفيهم من الخبز النقى واللحم المطبوخ ، وفى كل شهر من المعاليم الوافرة ما فيه غنية لهم . وأدركتهم ولهم حرمة وافرة ، وكلمة نافذة ، وجانب مرعى ، ويعد شيخهم من أعيان الناس يجلس على مرتبة ، وبقية الخدام فى مجالسهم لا يبرحون فى عبادة .

وكان يستقر فى وظائف هذه الخدمة أكابر خدام السلطان ، ويقيمون عنهم نوابا يواظبون الاقامة بالقبة ، ويرون — مع سعة أحوالهم ، وكثرة أموالهم — من تمام فخرهم وكمال سيادتهم، انتماءهم الى خدمة القبة المنصورية ، ثم تلاشى الحال بالنسبة الى ما كان ، والخدام بهذه القاعة الى اليوم .

وقصد الملوك باقامة الخدام فى هذه القاعة ، التى يتوصل الى القبة منها ، اقامة ناموس الملك بعد الموت كما كان فى مدة الحياة ، وهم الى اليوم لا يمكنون أحدا من الدخول الى القبة الا من كان من أهلها .

ولله در يحيى بن حكم البكرى الجيانى المغربى — الملقب بالغزال لجماله — حيث يقول :

أرى أهل الثراء اذا توفوا
بنوا تلك المقابر بالصخور

أبوا الا مباهاة وتيها
على الفقراء حتى فى القبور

وفى هذه القبة دروس للفقهاء على المذاهب الأربعة ، وتعرف بدروس وقف الصالح . وذلك أن الملك الصالح عماد الدين اسماعيل ابن محمد بن قلاوون ، قصد عمارة مدرسة ، فاخترمته المنية دون بلوغ غرضه . فقام الأمير أرغون العلائى ، زوج أمه ، فى وقف قرية ، تعرف بدهمشا الحمام من الأعمال الشرقية ، عن أم الملك الصالح . فأثبته بطريق الوكالة عنها ، ورتب ما كان الملك الصالح اسماعيل قرره فى حياته لو أنشأ مدرسة ، وجعل ذلك الأمير أرغون مرتبا لمن يقوم به فى القبة المنصورية . وهو وقف جليل يتحصل منه فى كل سنة نحو الأربعة آلاف دينار ذهبا .

ثم لما كانت الحوادث ، وخربت الناحية المذكورة ، تلاشى أمر وقف الصالح ، وفيه الى اليوم بقية . وكان لا يلى تدريس دروسه الا قضاة القضاة ، فوليه الآن الصبيان ، ومن لا يؤهل — لو كان الانصاف — له .

وفى هذه القبة أيضا قراء يتناوبون القراءة بالشبابيك المطلة على الشارع طول الليل والنهار ، وهم من جهة ثلاثة أوقاف : فطائفة من جهة وقف الملك الصالح اسماعيل ، وطائفة من جهة الوقف السيفى ، وهو منسوب الى الملك المنصور سيف الدين أبى بكر ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون .

وبهذه القبة امام راتب يصلى بالخدام والقراء وغيرهم الصلوات الخمس ، ويفتح له باب فيما بين القبة والمحرب يدخل منه من يصلى من الناس ، ثم يغلق بعد انقضاء الصلاة .

وبهذه القبة خزانة جليلة . كان فيها عدة أحمال من الكتب فى أنواع العلوم ، مما وقفه الملك المنصور وغيره ، وقد ذهب معظم هذه الكتب ، وتفرق فى أيدى الناس .

وفى هذه القبة خزانة بها ثياب المقبورين بها ، ولهم فراش معلوم بمعلوم لتعهدهم ، ويوضع ما يتحصل من مال أوقاف المارستان بهذه القبة تحت أيدى الخدام

وكانت العادة أنه اذا أمّر السلطان أحدا من أمراء مصر والشام ، فانه ينزل من قلعة الجبل وعليه التشريف والشربوش ، وتوقد له القاهرة ، فيمر الى المدرسة الصالحية بين القصرين ، وعمل ذلك من عهد سلطنة المعز أيبك ومن بعده . فنقل ذلك الى القبة المنصورية ، وصار الأمير يحلف عند القبر المذكور ويحضر تحليفه * صاحب الحجاب ، وتمد أسمطة جليلة بهذه القبة ، ثم ينصرف الأمير ، ويجلس له فى طول شارع القاهرة الى القلعة أهل الأغانى لتزفه فى نزوله وصعوده . وكان هذا من جملة متنزهات القاهرة ، وقد بطل ذلك منذ انقرضت دولة بنى قلاوون .

ومن جملة أخبار هذه القبة أنه لما كان فى يوم الخميس مستهل المحرم سنة تسعين وستمائة ، بعث الملك الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون بجملة مال تصدق به فى هذه القبة ، ثم أمر بنقل أبيه من القلعة

فخرج سائر الأمراء ، ونائب السلطنة الأمير بيدرا بدر الدين ، والوزير الصاحب شمس الدين محمد بن السلعوس التنوخى وحضروا بعد صلاة العشاء الآخرة ، ومشوا بأجمعهم قدام تابوت الملك المنصور الى الجامع الأزهر ، وحضر فيه القضاة ومشايخ الصوفية . فتقدم قاضى القضاة تقى الدين بن دقيق العيد ، وصلى على الجنازة ، وخرج الجمع أمامها الى القبة المنصورية حتى دفن فيها ، وذلك فى ليلة الجمعة ثانى المحرم ، وقيل عاشره

ثم عاد الوزير والنائب من الدهليز خارج القاهرة الى القبة المنصورية ، لعمل مجتمع بسبب قراءة ختمة كريمة ، فى ليلة الجمعة ثامن عشرى صفر منها ، وحضر المشايخ والقراء والقضاة فى جمع موفور ، وفرق فى الفقراء صدقات جزيلة ، ومدت أسمطة كثيرة ، وتفرقت الناس أطعمتها حتى امتلأت الأيدى بها ، وكانت احدى الليالى الغر ، كثر الدعاء فيها للسلطان وعساكر الاسلام بالنصر على أعداء الملة ، وحضر الملك الأشرف بكرة يوم الجمعة الى القبة المنصورية ، وفرق مالا كثيرا .

وكان الملك الأشرف قد برز يريد المسير لجهاد الفرنج ، وأخذ مدينة عكا ، فسار لذلك ، وعاد فى العشرين من شعبان — وقد فتح الله له مدينة عكا عنوة بالسيف ، وخرب أسوارها — وكان عبوره الى القاهرة من باب النصر ، وقد زينت القاهرة زينة عظيمة .

(*) ص٣٨٠ جـ٢ ، ط.بولاق .

فعندما حاذى باب المارستان ، نزل الى القبة المنصورية ، وقد غصت بالقضاة والأعيان والقراء والمشايخ والفقهاء ، فتلقوه كلهم بالدعاء حتى جلس . فأخذ القراء فى القراءة ، وقام نجم الدين محمد بن فتح الدين محمد بن عبد الله بن مهلهل بن غياث بن نصر — المعروف بابن العنبرى الواعظ — وصعد منبرا نصب له ، فجلس عليه ، وافتتح ينشد قصيدة تشمل على ذكر الجهاد وما فيه من الأجر ، فلم يسعد فيها بحظ ، وذلك أنه افتتحها بقوله .

زر والديك وقف على قبريهما
فكأننى بك قد نقلت اليهما

فعندما سمع الأشرف هذا البيت تطير منه ، ونهض قائما وهو سب الأمير بيدرا نائب السلطنة لشدة حنقه ، وقال . ما وجد هذا شيئا يقوله سوى هذا البيت !

فأخذ بيدرا فى تسكين حنقه ، والاعتذار له عن ابن العنبرى بأنه قد انفرد فى هذا الوقت بحسن الوعظ ، ولا نظير له فيه ، الا أنه لم يرزق سعادة فى هذا الوقت . فلم يصغ السلطان الى قوله وسار ، فانفض المجلس على غير شىء ، وصعد السلطان الى قلعة الجبل .

ثم بعد أيام سأل السلطان عن وقف المارستان ، وأحب أن يجدد له وقفا من بلاد عكا التى افتتحها بسيفه ، فاستدعى القضاة ، وشاورهم فيما هم به من ذلك . فرغبوه فيه ، وحثوه على المبادرة اليه .

فعين أربع ضياع من ضياع عكا وصور ليقفها على مصالح المدرسة والقبة المنصورية ، ما تحتاج اليه من ثمن زيت وشمع ومصابيح وبسط وكلفة الساقية ، وعلى خمسين مقرئا يرتبون لقراءه القرآن الكريم بالقبة ، وامام راتب يصلى بالناس الصلوات الخمس فى محراب القبة ، وستة خدام يقيمون بالقبة — وهى الكابرة ، وتل الشيوخ ، وكرداتة وضواحيها من عكا ، ومن ساحل صور معركة وصدفين — وكتب بذلك كتاب وقف ، وجعل النظر فى ذلك لوزيره الصاحب شمس الدين محمد بن السلعوس .

فلما تم ذلك ، تقدم بعمل مجتمع بالقبة لقراءة ختمة كريمة ، وذلك ليلة الاثنين رابع ذى القعدة سنة تسعين سبمائة فاجتمع القراء والوعاظ والمشايخ والفقراء والقضاة لذلك ، وخلع على عامة أرباب الوظائف والوعاظ ، وفرقت فى الناس صدقات جمة .

وعمل مهم عظيم احتفل فيه الوزير احتفالا زائدا ، وبات الأمير بدر الدين بيدرا نائب السلطنة والأمير الوزير شمس الدين محمد بن السلعوس بالقبة . وحضر السلطان ، ومعه الخليفة الحاكم بأمر الله أحمد ، وعليه سواده ، فخطب الخليفة خطبة بليغة حرض فيها على أخذ العراق من التتار . فلما فرغ من المهم ، أفاض السلطان على الوزير تشريفا سنيا .

وفى يوم الخميس حادى عشر ربيع الأول سنة احدى وتسعين وستمائة ، اجتمع القراء والوعاظ والفقهاء والأعيان بالقبة المنصورية لقراءة ختمة شريفة ، ونزل السلطان الملك الأشرف ، وتصدق بمال كثير .

وآخر من نزل الى القبة المنصورية من ملوك بنى قلاوون ، السلطان الملك الناصر حسن بن

محمد بن قلاوون فى سنة احدى وستين وسبعمائة ، وحضر عنده بالقبة مشايخ العلم ، وبحثوا فى العلم ، وزار قبر أبيه وجده ، ثم خرج فنظر فى أمر المرضى بالمارستان ، وتوجه الى قلعة الجبل * »

المدرسة الناصرية

هذه المدرسة بجوار القبة المنصورية من شرقيها . كان موضعها حماما ، فأمر السلطان الملك العادل زين الدين كتبغا المنصورى بانشاء مدرسة موضعها . فابتدىء فى عملها ، ووضع أساسها ، وارتفع بناؤها عن الأرض الى نحو الطراز المذهب الذى بظاهرها . فكان من خلعه ما كان .

فلما عاد السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون الى مملكة مصر فى سنة ثمان وتسعين وستمائة ، أمر باتمامها ، فكملت فى سنة ثلاث وسبعمائة . وهى من أجل مبانى القاهرة ، وبابها من أعجب ما عملته أيدى بنى آدم فانه من الرخام الأبيض البديع الزى الفائق الصناعة ، ونقل الى القاهرة من مدينة عكا .

وذلك أن الملك الأشرف خليل بن قلاوون ، لما فتح عكا عنوة فى سابع عشر جمادى الأولى سنة تسعين وستمائة ، أقام الأمير علم الدين سنجر الشجاعى لهدم أسوارها وتخريب كنائسها . فوجد هذه البوابة على باب كنيسة من كنائس عكا ، وهى من رخام ، قواعدها وأعضادها وعمدها كل ذلك متصل بعضه ببعض ، فحمل الجميع الى القاهرة ، وأقام عنده الى أن قتل الملك الأشرف .

وتمادى الحال على هذا أيام سلطنة الملك الناصر محمد الأولى فلما خلع ، وتملك كتبغا ، أخذ دار الأمير سيف الدين بلبان الرشيدى ليعملها مدرسة ، فدل على هذه البوابة ، فأخذها من ورثة الأمير بيدرا — فانها كانت قد انتقلت اليه — وعملها كتبغا على باب هذه المدرسة .

فلما خلع من الملك ، وأقيم الناصر محمد ، اشترى هذه المدرسة قبل اتمامها والاشهاد بوقفها ، وولى شراءها وصيه قاضى القضاة زين الدين على بن محلوف المالكى ، وأنشأ بجوار هذه المدرسة من داخل بابها قبة جليلة ، لكنها دون قبة أبيه ، ولما كملت نقل اليها أمه بنت سكباى بن قراجين .

ووقف على هذه المدرسة قيسارية أمير على بخط الشرابشيين من القاهرة ، والربع الذى يعلوها — وكان يعرف بالدهيشة — ووقف عليها أيضا حوانيت بخط باب الزهومة من القاهرة ، ودار الطعم خارج مدينة دمشق

فلما مات ابنه أنوك من الخاتون طغاى ، فى يوم الجمعة سابع عشر ربيع الأول سنة احدى وأربعين وسبعمائة ، وعمره ثمانى عشرة سنة ، دفنه بهذه القبة ، وعمل عليها وقفا يختص بها . وهو باق الى اليوم يصرف لقراء وغير ذلك .

وأول من رتب فى تدرس المدرسة الناصرية من المدرسين : قاضى القضاة زين الدين على بن مخلوف المالكى ليدرس فقه المالكية بالايوان الكبير القبلى ، وقاضى القضاة شرف الدين عبد الغنى الحرانى ليدرس فقه الحنابلة بالايوان الغربى ، وقاضى القضاة أحمد بن

(*) ص ٣٨١ ج ٢ ، ط . بولاق .

السروجي الحنفي ليدرس فقه الحنفية بالايوان الشرقى ، والشيخ صدر الدين محمد بن المرحل — المعروف بابن الوكيل — الشافعى ليدرس فقه الشافعية بالايوان البحرى . وقرر عند كل مدرس منهم عدة من الطلبة ، وأجرى عليهم المعاليم ، ورتب بها اماما يؤم بالناس فى الصلوات الخمس ، وجعل بها خزانة كتب جليلة .

وأدركت هذه المدرسة وهى محترمة الى الغاية يجلس بدهليزها عدة من الطواشية ، ولا يمكن غريب أن يصعد اليها . وكان يفرق بها على الطلبة والقراء وسائر أرباب الوظائف بها السكر فى كل شهر ، لكل أحد منهم نصيب ، ويفرق عليهم لحوم الأضاحى فى كل سنة . وقد بطل ذلك ، وذهب ما كان لها من الناموس . وهى اليوم عامرة من أجل المدارس .

المدرسة الحجازية

هذه المدرسة برحبة باب العيد من القاهرة ، بجوار قصر الحجازية ، كان موضعها بابا من أبواب القصر يعرف بباب الزمرذ . أنشأتها الست الجليلة الكبرى خوند تتر الحجازية ابنة السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ، زوجة الأمير بكتمر الحجازى ، وبه عرفت .

وجعلت بهذه المدرسة درسا للفقهاء الشافعية قررت فيه شيخنا شيخ الاسلام سراج الدين عمر بن رسلان البلقينى ، ودرسا للفقهاء المالكية ، وجعلت بها منبرا يخطب عليه يوم الجمعة ، ورتبت لها اماما راتبا يقيم بالناس الصلوات الخمس ، وجعلت بها خزانة كتب .

وأنشأت بجوارها قبة من داخلها لتدفن تحتها ، ورتبت بشباك هذه القبة عدة قراء يتناوبون قراءة القرآن الكريم ليلا ونهارا ، وأنشأت بها منارا عاليا من حجارة ليؤذن عليه . وجعلت بجوار المدرسة مكتبا للسبيل ، فيه عدة من أيتام المسلمين ، ولهم مؤدب يعلمهم القرآن الكريم ، ويجرى عليهم فى كل يوم لكل منهم من الخبز النقى خمسة أرغفة ومبلغ من الفلوس ، ويقام لكل منهم بكسوتى الشتاء والصيف .

وجعلت على هذه الجهات عدة أوقاف جليلة يصرف منها لأرباب الوظائف المعاليم السنية . وكان يفرق فيهم كل سنة ، أيام عيد الفطر ، الكعك والخشكنانك ، وفى عيد الأضحى اللحم ، وفى شهر رمضان يطبخ لهم الطعام . وقد بطل ذلك ، ولم يبق غير المعلوم فى كل شهر .

وهى من المدارس الكيسة ، وعهدى بها محترمة الى الغاية * ، يجلس بها عدة من الطواشية ، ولا يمكنون أحدا من عبور القبة التى فيها قبر خوند الحجازية الا القراء فقط وقت قراءتهم خاصة .

واتفق مرة أن شخصا من القراء كان فى نفسه شىء من أحد رفقائه ، فأتى الى كبير الطواشية بهذه القبة ، وقال له : ان فلانا دخل اليوم الى القبة وهو بغير سراويل . فغضب الطواشى من هذا القول ، وعد ذلك ذنبا عظيما وفعلا محذورا ، وطلب ذلك المقرىء ، وأمر به فضرب بين يديه ، وصار يقول له : تدخل على خوند بغير سراويل ! وهم باخراجه من

(*) ص ٣٨٢ ، ج ٢ ، ط ، بولاق .

وظيفة القراءة لولا ما حصل من شفاعة الناس فيه .

وكان لا يلى نظر هذه المدرسة الا الأمراء الأكابر ، ثم صار يليها الخدام وغيرهم وكان انشاؤها فى سنة احدى وستين وسبعمائة .

ولما ولى الأمير جمال الدين يوسف البجاسى وظيفة أستادارية السلطان الملك النـاصر فرج ابن برقوق ، وعمر بجانب هذه المدرسة داره ثم مدرسته ، صار يحبس فى المدرسة الحجازية من يصادره أو يعاقبه ، حتى امتلأت بالمسجونين والأعوان المرسمين عليهم ، فزالت تلك الأبهة وذهب ذلك الناموس . واقتدى بجمال الدين من سكن بعده من الأستادارية فى داره ، وجعلوا هذه المدرسة سجنا ، ومع ذلك فهى من أبهج مدارس القاهرة الى الآن .

المدرسة الطيبرسية

هذه المدرسة بجـوار الجـامع الأزهر من القاهرة ، وهى غربيه مما يلى الجهة البحرية . أنشأها الأمير علاء الدين طيبرس الخازندارى نقيب الجيوش ، وجعلها مسجدا لله تعالى زيادة فى الجامع الأزهر ، وقرر بها درسا للفقهاء الشافعية ، وأنشأ بجوارها ميضأة وحوض ماء سبيل ترده الدواب .

وتأنق فى رخامها وتذهيب سقوفها ، حتى جاءت فى أبدع زى ، وأحسن قالب ، وأبهج ترتيب ، لما فيها من اتقـان العمل وجـودة الصناعة ، بحيث انه لم يقدر أحد على محاكاة ما فيها من صناعة الرخام ، فان جميعه أشكال المحاريب ، وبلغت النفقة عليها جملة كثيرة ، وانتهت عمارتها فى سنة تسع وسبعمائة . ولها بسط تفرش فى يوم الجمعة كلها منقوشـة بأشكال المحاريب أيضا ، وفيها خزانة كتب ، ولها امام راتب

« طيبرس » بن عبد الله الوزيرى كان فى ملك الأمير بدر الدين بيلبك مملوك الخازندار الظاهرى نائب السلطنة ، ثم انتقل الى الأمير بدر الدين بيدرا ، وتنقل فى خدمته حتى صار نائب الصبيبة ، ورأى ماما للمنصور لاجين يدل على أنه يصير سلطان مصر ، وذلك قبل أن يتقلد السلطنة وهو نائب الشـام ، فوعده ان صارت اليه السلطنة أن يقدمه وينوه به

فلما تملك لاجين استدعاه ، وولاه نقـابة الجيش بديار مصر — عوضـا عن بلبـان الفاخرى — فى سنة سبع وتسعين وستمائة . فباشر النقابة مباشرة مشكورة الى الغاية ، من اقامة الحرمة ، وأداء الأمانة ، والعفة المفرطة ، بحيث انه ما عرف عنه أنه قبل من أحد هدية ألبتة ، مع التزام الديانة والمواظبة على فعـل الخير والغنى الواسع .

وله من الآثار الجميلة الجـامع والخـانقاه بأراضى بستان الخشاب ، المطلة على النيـل خارج القاهرة ، فيما بينها وبين مصر بجـوار المنشأة . وهو أول من عمر فى أراضى بستان الخشاب ، وقد تقدم ذكر ذلك ، ومن آثاره أيضا هذه المدرسة البديعة الزى ، وله على كل من هذه الأماكن أوقاف جليلة .

ولم يزل فى نقابة الجيش الى أن مات فى العشرين من شهر ربيع الآخر سنة تسع عشرة وسبعمائة ، ودفن فى مكان بمدرسته هذه ، وقبره بها الى وقتنا هذا . ووجد له من بعده مال كثير جدا ، وأوصى الى الأمير علاء الدين

على الكورانى ، وجعل الناظر على وصيته الأمير أرغون نائب نائب السلطنة .

واتفق أنه لما فرغ من بناء هذه المدرسة ، أحضر اليه مباشروه حساب مصروفها . فلما قدم اليه استدعى بطشت فيه ماء ، وغسل أوراق الحساب بأسرها من غير أن يقف على شيء منها ، وقال : شيء خرجنا عنه لله تعالى لا نحاسب عليه .

ولهذه المدرسة شبابيك فى جدار الجامع تشرف عليه ، ويتوصل من بعضها اليه ، وما عمل دلك حتى استفتى الفقهاء فيه ، فأفتوه بجواز فعله وقد تداولت أيدى نظار السوء على أوقاف طيبرس هذا ، فخرب أكثرها ، وخرب الجامع والخانقاه ، وبقيت هذه المدرسة ... عمرها الله بذكره .

المدرسة الاقبغاوية

هذه المدرسة بجوار الجامع الأزهر ، على يسرة من يدخل اليه من بابه الكبير البحرى ، وهى تشرف بشبابيك على الجامع مركبة فى جداره ، فصارت تجاه المدرسة الطيبرسية . كان موضعها دار الأمير الكبير عز الدين أيدمر الحلى ، نائب السلطنة فى أيام الملك الظاهر بيبرس ، وميضأة للجامع ، فأنشأها الأمير علاء الدين أقبغا عبد الواحد * ، أستادار الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وجعل بجوارها قبة ومنارة من حجارة منحوتة .

وهى أول مئذنة عملت بديار مصر من الحجر بعد المنصورية ، وانما كانت قبل ذلك تبنى بالآجر ... بناها هى والمدرسة المعلم ابن السيوفى ، رئيس المهندسين فى الأيام الناصرية ، وهو الذى تولى بناء جامع الماردينى خارج باب زويلة ، وبنى مئذنته أيضا .

وهى مدرسة مظلمة ، ليس عليها من بهجة المساجد ، ولا أنس بيوت العبادات ، شيء ألبتة . وذلك أن أقبغا عبد الواحد اغتصب أرض هذه المدرسة ، بأن أقرض ورثة أيدمر الحلى مالا ، وأمهل حتى تصرفوا فيه ، ثم أعسفهم فى الطلب ، وألجأهم الى أن أعطوه دراهم ، فهدمها وبنى موضعها هذه المدرسة .

وأضاف الى اغتصاب البقعة أمثال ذلك من الظلم ، فبناها بأنواع من الغصب والعسف ، وأخذ قطعة من سور الجامع حتى ساوى بها المدرسة الطيبرسية ، وحشر لعملها الصناع من البنائين والنجارين والحجارين والمرخمين والفعلة ، وقرر مع الجميع أن يعمل كل منهم فيها يوما فى كل أسبوع بغير أجرة .

فكان يجتمع فيها فى كل أسبوع سائر الصناع الموجودين بالقاهرة ومصر ، فيجدون فى العمل نهارهم كله بغير أجرة ، وعليهم مملوك من مماليكه ، ولاه شد العمارة ، لم ير الناس أظلم منه ، ولا أعتى ولا أشد بأسا ، ولا أقسى قلبا ولا أكثر عنتا . فلقى العمال منه مشقات لا توصف ، وجاء مناسبا لمولاه .

وحمل مع هذا الى هذه العمارة سائر ما يحتاج اليه ، من الأمتعة وأصناف الآلات ، وأنواع الاحتياجات من الحجر والخشب والرخام والدهان وغيره ، من غير أن يدفع فى شيء منه ثمنا ألبتة ، وانما كان يأخذ ذلك اما بطريق الغصب من الناس ، أو على سبيل

(*) ص ٣٨٣ ، ج ٢ ، ط بولاق .

الخيانة من عمائر السلطان ، فانه كان من جملة ما بيده شد العمائر السلطانية .

وناسب هذه الأفعال أنه ما عرف عنه قط أنه نزل الى هذه العمارة الا وضرب فيها من الصناع عدة ضربا مؤلما ، فيصير ذلك الضرب زيادة على عمله بغير أجرة ، فيقال فيه كملت خصالك هذه بعمارى . فلما فرغ من بنائها ، جمع فيها سائر الفقهاء وجميع القضاة .

وكان الشريف شرف الدين على بن شهاب الدين الحسين بن محمد بن الحسين — نقيب الأشراف ومحتسب القاهرة حينئذ — يؤمل أن يكون مدرسها ، وسعى عنده فى ذلك ، فعمل بسطا على قياسها بلغ ثمنها ستة آلاف درهم فضة ، ورشاه بها ، ففرشت هناك .

ولما تكامل حضور الناس بالمدرسة — وفى الذهن أن الشريف يلى التدريس ، وعرف أنه هو الذى أحضر البسط التى قد فرشت — قال الأمير أقبغا لمن حضر : لا أولى فى هذه الأيام أحدا . وقام ... فتفرق الناس .

وقرر فيها درسا للشافعية ولى تدريسه ... ودرسا للحنفية ولى تدريسه ....[1] وجعل فيها عدة من الصوفية ولهم شيخ ، وقرر بها طائفة من القراء يقرأون القرآن بشباكها ، وجعل لها اماما راتبا ومؤذنا وفراشين وقومة ومباشرين ، وجعل النظر للقاضى الشافعى بديار مصر ، وشرط فى كتاب وقفه ألا يلى النظر أحد من ذريته ، ووقف على هذه الجهات حوانيت خارج باب زويلة بخط تحت الربع ، وقرية بالوجه القبلى .

وهذه المدرسة عامرة الى يومنا هذا . الا أنه تعطل منها الميضأة ، وأضيفت الى ميضأة الجامع لتغلب بعض الأمراء — بمواطأة بعض النظار — على بئر الساقية التى كانت برسمها .

« أقبغا عبد الواحد » الأمير علاء الدين : أحضره الى القاهرة التاجر عبد الواحد بن بدال ، فاشتراه منه الملك الناصر محمد بن قلاوون ، ولقبه باسم تاجره الذى أحضره ، فحظى عنده ، وعمله شاد العمائر ، فنهض فيها نهضة أعجب منه السلطان ، وعظمه حتى عمله أستادار السلطان بعد الأمير مغلطاى الجمالى ، فى المحرم سنة اثنين وثلاثين وسبعمائة ، وولاه مقدم المماليك فقويت حرمته ، وعظمت مهابته ، حتى صار سائر من فى بيت السلطان يخافه ويخشاه .

ومابرح على ذلك الى أن مات الملك الناصر ، وقام من بعده ابنه الملك المنصور أبو بكر ، فقبض عليه فى يوم الاثنين سلخ المحرم سنة اثنتين وأربعين وسبعمائه ، وأمسك أيضا ولديه ، وأحيط بماله وسائر أملاكه ، ورسم عليه الأمير طيبغا المجدى ، وبيع موجوده من الخيل والجمال والجوارى والقماش والأسلحة والأوانى ... فظهر له شىء عظيم الى الغاية : من ذلك أنه بيع بقلعة الجبل — وبها كانت تعمل حلقات مبيعة — سراويل امرأته بمبلغ مائتى ألف درهم فضة : عنها نحو عشرة آلاف دينار ذهب ، وبيع له أيضا قبقاب وشرموزة وخف نسائى بمبلغ خمسة وسبعين ألف درهم

(1) هكذا بياض فى الاصل

فضة : عنها زيادة على ثلاثة آلاف دينار ، وبيعت بدلة مقانع بمائة ألف درهم .

وكثرت المرافعات عليه من التجار وغيرهم . فبعث السلطان اليه شاد الدواوين يعرفه أنه أقسم بتربة الشهيد (يعنى أباه) أنه متى لم يعط هؤلاء حقهم ، والا سمرتك على جمل ، وطفت بك المدينة . فشرع أقبغا فى استرضائهم وأعطاهم نحو المائتى ألف درهم فضة . ثم نزل اليه الوزير نجم الدين محمود بن سرور — المعروف بزاز بغداد — بصحبة الحاج ابراهيم بن صابر مقدم الدولة ، لمطالبته بالمال ، فأخذا منه لؤلؤا وجواهر نفيسة ، وصعدا بها الى السلطان .

وكان سبب هذه النكبة أنه كان قد تحكم فى أمور الدولة السلطانية وأرباب الأشغال ، أعلاهم وأدناهم ، بما اجتمع له من الوظائف . وكان عنده فراش غضب عليه وأوجعه ضربا ، فانصرف من عنده ، وخدم فى دار الأمير أبى بكر ولد السلطان ، فبعث أقبغا يستدعى بالفراش اليه ، فمنعه منه أبو بكر ، وأرسل اليه مع أحد مماليكه يقول له : انى أريد أن تهبنى هذا الغلام ، ولا تشوش عليه . فلما بلغه المملوك الرسالة ، اشتد حنقه وسبه سبا فاحشا ، وقال له : قل لأستاذك يسير الفراش وهو جيد له .

وكان قبل ذلك اتفق أن الأمير أبا بكر خرج من خدمة السلطان الى بيته ، فاذا الأمير أقبغا قد بطح مملوكا وضربه ، فوقف أبو بكر بنفسه ، وسأل أقبغا فى العفو عن المملوك ، وشفع فيه ، فلم يلتفت أقبغا اليه ، ولا نظر الى وجهه ، فخجل أبو بكر من الناس — لكونه وقف قائما بين يدى أقبغا وشفع عنده ، فلم يقم من مجلسه لوقوفه ، بل استمر قاعدا وأبو بكر واقف على رجليه ، ولا قبل مع ذلك شفاعته — ومضى وفى نفسه منه حنق كبير .

فلما عاد اليه مملوكه ، وبلغه كلام أقبغا بسبب هذا الفراش ، أكد ذلك عنده ما كان من الاحنة ، وأخذ فى نفسه الى أن مات أبوه الملك الناصر ، وعهد اليه من بعده . وكان قد التزم أنه ان ملكه الله ليصادرن أقبغا ، وليضربنه بالمقارع ، وقال للفراش : اقعد فى بيتى ، واذا حضر أحد لأخذك عرفت ما أعمل معه . وأخذ أقبغا يترقب الفراش ، وأقام أناسا للقبض عليه ، فلم يتهيأ له مسكه .

فلما أفضى الأمر الى أبى بكر ، استدعى الأمير قوصون — وكان هو القائم حينئذ بتدبير أمور الدولة — وعرفه ما التزمه من القبض على أقبغا ، وأخذ ماله وضربه بالمقارع ، وذكر له ولعدة من الأمراء ما جرى له منه . وكان لقوصون بأقبغا عناية ، فقال للسلطان : السمع والطاعة ، يرسم السلطان بالقبض عليه ومطالبته بالمال ، فاذا فرغ ماله يفعل السلطان ما يختاره .

وأراد بذلك تطاول المدة فى أمر أقبغا . فقبض عليه ، ووكل به رسل ابن صابر ، حتى انه بات ليلة قبض عليه من غير أن يأكل شيئا . وفى صبيحة تلك الليلة تحدث الأمراء مع السلطان فى نزوله الى داره محتفظا به ، حتى يتصرف فى ماله ، ويحمله شيئا بعد شيء .

(*) ص ٣٨٤ ، جـ ٢ ، ط . بولاق .

فنزل مع المجدى ، وباع ما يملكه ، وأورد المال .

فلما قبض على الحاج ابراهيم بن صابر ، وأقيم ابن شمس موضعه ، أرسله السلطان الى بيت أقبغا ليعصره ويضربه بالمقارع ويعذبه . فبلغ ذلك الأمير قوصون ، فمنع منه ، وشنع على السلطان كونه أمر بضربه بالمقارع ، وأمر بمراجعته . فحنق من ذلك ، وأطلق لسانه على الأمير قوصون ، فلم يزل به من حضره من الأمراء حتى سكت على مضض .

وكان قوصون يدبر في انتقاض دولة أبي بكر الى أن خلعه ، وأقام بعده أخاه الملك الأشرف كجك بن محمد بن قلاوون ، وعمره نحو السبع سنين ، وتحكم في الدولة . فأخرج أقبغا هو وولده من القاهرة ، وجعله من جملة أمراء الدولة بالشام . فسار من القاهرة في تاسع ربيع الأول سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة ، على خبز الأمير مسعود بن خطير بدمشق ، ومعه عياله فأقام بها .

الى أن كانت فتنة الملك الناصر أحمد بن محمد بن قلاوون ، وعصيانه بالكرك على أخيه الملك الصالح عماد الدين اسماعيل بن محمد بن قلاوون ، فاتهم أقبغا بأنه بعث مملوكا من مماليكه الى الكرك ، وأن الناصر أحمد خلع عليه ، وضربت البشائر بقلعة الكرك ، وأشاع أن أمراء الشام قد دخلوا في طاعته وحلفوا له ، وأن أقبغا قد بعث اليه مع مملوكه يبشره بذلك .

فلما وصل الى الملك الصالح كتاب عساف أخي شطي بذلك ، وصل في وقت وروده كتاب نائب الشام الأمير طقزدمر ، يخبر فيه بأن جماعة من أمراء الشام قد كاتبوا أحمد بالكرك وكاتبهم ، وقد قبض عليهم ، ومن جملتهم أقبغا عبد الواحد . فرسم بحمله مقيدا ، فحمل من دمشق الى الاسكندرية ، وقتل بها في آخر سنة أربع وأربعين وسبعمائة .

وكان من الظلم والطمع والتعاظم على جانب كبير ، وجمع من الأموال شيئا كثيرا وأقام جماعة من أهل الشر لتتبع أولاد الأمراء ، وتعرف أحوال من افتقر منهم ، فاذا احتاج الى شيء ، فلا يزالون به حتى يعطوه مالا على سبيل القرض بفائدة جزيلة الى أجل ، فاذا استحق المال أعسفه في الطلب ، وألجأه الى بيع ما له من الأملاك ، وحلها ان كانت وقفا بعنايته به ، وعين لعمل هذه الحيل شخصا يعرف بابن القاهري . وكان اذا دخل لأحد من القضاة في شراء ملك أو حل وقف ، لا يقدر على مخالفته ، ولا يجد بدا من موافقته

ومن غريب ما يحكى عن طمع أقبغا أن مشد الحاشية دخل عليه ، وفي أصبعه خاتم بفص أحمر من زجاج له بريق ، فقال له أقبغا . ايش هو هذا الخاتم ؟

فأخذ يعظمه ، وذكر أنه من تركة أبيه .

فقال . بكم حسبوه عليك ؟

فقال . بأربعمائة درهم .

فقال : أرنيه .

فناوله اياه ، فأخذه وتشاغل عنه ساعة ، ثم قال له : والله فضيحة أن نأخذ خاتمك ، ولكن خذه أنت وهات ثمنه !

ودفعه اليه ، وألزمه باحضار الأربعمائة درهم فما وسعه الا أن * أحضرها اليه . فعاقبه الله بذهاب ماله وغيره ، وموته غريبا .

المدرسة الحسامية

هذه المدرسة بخط المسطاح من القاهرة ، قريبا من حارة الوزيرية بناها الأمير حسام الدين طرنطاى المنصورى ، نائب السلطنة بديار مصر ، الى جانب داره ، وجعلها برسم الفقهاء الشافعية . وهى فى وقتنا هذا تجاه سوق الرقيق ، ويسلك منها الى درب العداس والى حارة الوزيرية والى سويقة الصاحب وباب الخوخة وغير ذلك

وكان بجانبها طبقة لحياط ، فطلبت منه بثلاثة أمثال ثمنها فلم يبعها ، وقيل لطرنطاى : لو طلبته لاستحيى منك . فلم يطلبه ، وتركه وطبقته ، وقال : لا أشوش عليه

« طرنطاى » بن عبد الله : الأمير حسام الدين المنصورى . رباه الملك المنصور قلاوون صغيرا ، ورقاه فى خدمه . الى أن تقلد سلطنة مصر ، فجعله نائب السلطنة بديار مصر ، عوضا عن الأمير عز الدين أيبك الأفرم الصالحى ، وخلع عليه فى يوم الخميس رابع عشر رمضان سنة ثمان وسبعين وستمائة . فباشر ذلك مباشرة حسنة .

الى أن كانت سنة خمس وثمانين ، فخرج من القاهرة بالعساكر الى الكرك — وفيها الملك المسعود نجم الدين خضر ، وأخوه بدر الدين سلامش ، ابنا الملك الظاهر بيبرس — فى رابع المحرم ، وسار اليها . فوافاه الأمير بدر الدين الصوانى بعساكر دمشق فى ألفى فارس ، ونازلا الكرك ، وقطعا الميرة عنها ، واستفسدا رجال الكرك حتى أخذا خضرا وسلامش بالامان فى خامس صفر ، وتسلم الأمير عز الدين أيبك الموصلى ، نائب الشوبك مدينة الكرك ، واستقر فى نيابة السلطنة بها ، وبعث الأمير طرنطاى بالبشارة الى قلعة الجبل فوصل البريد بذلك فى ثامن صفر

ثم قدم بابنى الظاهر ، فخرج السلطان الى لقائه فى ثانى عشر ربيع الأول ، وأكرم الأمير طرنطاى ، ورفع قدره ، ثم بعثه الى أخذ صهيون — وبها سنقر الأشقر — فسار بالعساكر من القاهرة فى سنة ست وثمانين ، ونازلها وحصرها حتى نزل اليه سنقر بالأمان ، وسلم اليه قلعة صهيون ، وسار به الى القاهرة . فخرج السلطان الى لقائه وأكرمه .

ولم يزل على مكانته الى أن مات الملك المنصور ، وقام فى السلطنة بعده ابنه الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون ، فقبض عليه فى يوم السبت ثالث عشر ذى القعدة سنة تسع وثمانين ، وعوقب حتى مات يوم الاثنين خامس عشره بقلعة الجبل ، وبقى ثمانية أيام بعد قتله مطروحا بحبس القلعة .

ثم أخرج فى ليلة الجمعة سادس عشرى ذى القعدة ، وقد لف فى حصير ، وحمل على جنوية الى زاوية الشيخ أبى السعود بالقرافة . فغسله الشيخ عمر السعودى شيخ الزاوية ، وكفنه من ماله ، ودفنه خارج الزاوية ليلا ، وبقى هناك الى سلطنة العادل كتبغا ، فأمر

(*) ص ٣٨٥ ، ج ٢ ، ط . بولاق

بنقل جثته الى تربته التى أنشأها بمدرسته هذه .

وكان سبب القبض عليه وقتله أن الملك الأشرف كان يكرهه كراهة شديدة فانه كان يطرح جانبه فى أيام أبيه ، ويغض منه ويهين نوابه ، ويؤذى من يخدمه ، لأنه كان يميل الى أخيه الملك الصالح علاء الدين على بن قلاوون . فلما مات الملك الصالح على ، وانتقلت ولاية العهد الى الأشرف خليل بن قلاوون ، مال اليه من كان ينحرف عنه فى حياة أخيه ... الا طرنطاى ، فانه ازداد تماديا فى الاعراض عنه ، وجرى على عادته فى أذى من ينسب اليه ، وأغرى الملك المنصور بشمس الدين محمد بن السلعوس — ناظر ديوان الأشرف — حتى ضربه ، وصرفه عن مباشرة ديوانه .

والأشرف مع ذلك يتأكد حنقه عليه ، ولا يجد بدا من الصبر الى أن صار له الأمر بعد أبيه ، ووقف الأمير طرنطاى بين يديه فى نيابة السلطنة على عادته ، وهو منحرف عنه لما أسلفه من الاساءة عليه . وأخذ الأشرف فى التدبير عليه .. الى أن نقل له عنه أنه يتحدث سرا فى افساد نظام المملكة ، واخراج الملك عنه ، وأنه قصد أن يقتل السلطان وهو راكب فى الميدان الأسود الذى تحت قلعة الجبل عند ما يقرب من باب الاصطبل ، فلم يحتمل ذلك .

وعندها سير أربعة ميادين — والأمير طرنطاى ومن وافقه عند باب سارية — حتى انتهى الى رأس الميدان ، وقرب من باب الاصطبل ، وفى الظن أنه يعطف الى باب سارية ليكمل التسيير على العادة ، فعطف الى جهة القلعة ، وأسرع ودخل من باب الاصطبل . فبادر الأمير طرنطاى عندما عطف السلطان ، وساق فيمن معه ليدركوه ، ففاتهم وصار بالاصطبل فيمن خف معه من خواصه .

وما هو الا أن نزل الأشرف من الركوب ، فاستدعى بالأمير طرنطاى ، فمنعه الأمير زين الدين كتبغا المنصورى من الدخول اليه ، وحذره منه وقال له . والله انى أخاف عليك منه ، فلا تدخل عليه الا فى عصبة تعلم أنهم يمنعونك منه ان وقع أمر تكرهه

فلم يرجع اليه ، وغره أن أحدا لا يجسر عليه لمهابته فى القلوب ومكانته من الدولة ، وأن الأشرف لا يبادره بالقبض عليه ، وقال لكتبغا : والله لو كنت نائما ما جسر خليل ينبهنى .

وقام ومشى الى السلطان ، ودخل ومعه كتبغا . فلما وقف على عادته ، بادر اليه جماعة قد أعدهم السلطان * وقبضوا عليه ، فأخذه اللكم من كل جانب ... والسلطان يعدد ذنوبه ، ويذكر له اساءته ويسبه . فقال له : ياخوند ، هذا جميعه قد عملته معك ، وقدمت الموت بين يدى ، ولكن والله لتندمن من بعدى .

هذا والأيدى تتناوب عليه ، حتى ان بعض الخاصكية قلع عينه ، وسحب الى السجن . فخرج كتبغا وهو يقول . ايش أعمل ؟ ويكررها . فأدركه الطلب ، وقبض عليه أيضا ، ثم آل أمر كتبغا بعد ذلك الى أن ولى سلطنة مصر .

(*) ص ٣٨٦ ، جـ ٢ ، ط ، بولاق .

وأوقع الأشرف الحوطة على أموال طرنطاى، وبعث الى داره الأمير علم الدين سنجر الشجاعى . فوجد له من العين ستمائة ألف دينار ، ومن الفضة سبعة عشر ألف رطل ومائة رطل مصرى . عنها زيادة على مائة وسبعين قنطارا فضة سوى الأوانى ، ومن العدد والأسلحة والأقمشة والآلات والخيول والمماليك ما يتعذر احصاء قيمته ، ومن الغلات والأملاك شىء كثير جدا ووجد له من البضائع والأموال المسفرة على اسمه ، والودائع والمقارضات ، والقنود والأعمال ، والأبقار والأغنام ، والرقيق وغير ذلك . شىء يجل وصفه هذا سوى ما أخفاه مباشروه بمصر والشام .

فلما حملت أمواله الى الأشرف ، جعل يقلبها ويقول :

من عاش بعد عدوه يوما فقد بلغ المنى

واتفق بعد موت طرنطاى أن ابنه سأل الدخول على السلطان الأشرف ، فأذن له فلما وقف بين يديه ، جعل المنديل على وجهه — وكان أعمى — ثم مد يده وبكى ، وقال : شىء لله ! وذكر أن لأهله أياما ما عندهم ما يأكلونه . فرق له وأفرج عن أملاك طرنطاى ، وقال : تبلغوا بريعها ... فسبحان من بيده القبض والبسط .

المدرسة المنكوتمرية

هذه المدرسة بحارة بهاء الدين من القاهرة . بناها بجوار داره الأمير سيف الدين منكوتمر الحسامى ، نائب السلطنة بديار مصر ، فكملت فى صفر سنة ثمان وتسعين وستمائة . وعمل بها درسا للمالكية قرر فيه الشيخ شمس الدين محمد بن أبى القاسم بن عبد السلام بن جميل التونسى المالكى ، ودرسا للحنفية درّس فيه ... ... [1] ، وجعل فيها خزانة كتب ، وجعل عليها وقفا ببلاد الشام . وهى اليوم بيد قضاة الحنفية يتولون نظرها ، وأمرها متلاش ، وهى من المدارس الحسنة .

« منكوتمر » : هو أحد مماليك الملك المنصور حسام الدين لاجين المنصورى ترقى فى خدمته ، واختص به اختصاصا زائدا الى أن ولى مملكة مصر بعد كتبغا فى سنة ست وتسعين وستمائة ، فجعله أحد الأمراء بديار مصر ، ثم خلع عليه خلع نيابة السلطنة — عوضا عن الأمير شمس الدين قراسنقر المنصورى — يوم الأربعاء النصف من ذى القعدة .

فخرج سائر الأمراء فى خدمته الى دار النيابة ، وباشر النيابة بتعاظم كثير ، وأعطى المنصب حقه من الحرمة الوافرة والمهابة التى تخرج عن الحد ، وتصرف فى سائر أمور الدولة من غير أن يعارضه السلطان فى شىء ألبتة ، وبلغت عبرة اقطاعه فى السنة زيادة على مائة ألف دينار .

ولما عمل الملك المنصور الروك ، المعروف بالروك الحسامى ، فوض تفرقة منالات اقطاعات الأجناد له ، فجلس فى شباك دار النيابة بقلعة الجبل ، ووقف الحجاب بين يديه ، وأعطى لكل تقدمة منالات ، فلم يجسر

(١) هكذا بياض فى الاصل

أحد أن يتحدث في زيادة ولا نقصان ، خوفا من سوء خلقه وشدة حمقه .

وبقي أياما في تفرقة المنالات ، والناس على خوف شديد فان أقل الاقطاعات كان في أيام الملك المنصور قلاوون عشرة آلاف درهم في السنة ، وأكثره ثلاثين ألف درهم ، فرجع في الروك الحسامي أكثر اقطاعات الحلقة الى مبلغ عشرين ألف درهم وما دونها .

فشق ذلك على الأجناد ، وتقدم طائفة منهم ورموا منالاتهم التي فرقت عليهم ، لأن الواحد منهم وجد مناله بحق النصف مما كان له قبل الروك ، وقالوا لمنكوتمر : اما أن تعطونا ما يقوم بكلفنا ، والا فخذوا أخباركم ونحن نخدم الأمراء أو نصير بطالين .

فغضب منكوتمر ، وأخرق بهم ، وتقدم الى الحجاب فضربوهم ، وأخذوا سيوفهم ، وأودعوهم السجون . وأخذ حاجب الأمراء يفحش ، ويقول : أنما قوام شكا من خبزه ، ونقول نقول للسلطان ، فعلت به فعلت ، اش يقول للسلطان ؟ ان رضى يخدم الا الى لعنة الله فشق ذلك على الأمراء ، وأسروا له الشر .

ثم انه لم يزل بالسلطان حتى قبض على الأمير بدر الدين بيسري ، وحسن له اخراج أكابر الأمراء من مصر ، فجردهم الى سيس ، وأصبح وقد خلا له الجو فلم يرض بذلك حتى تحدث مع خوشداشيته بأنه لا بد أن ينشيء له دولة جديدة ، ويخرج طغجي وكرجي من مصر .

ثم انه جهز حمدان بن صلغاي الى حلب في صورة أنه يستعجل العساكر من سيس ، وقرر معه القبض على عدة من الأمراء ، وأمره عدة * أمراء جعلهم له عدة وذخرا وتقدم الى الصاحب فخر الدين الخليلي بأن يعمل أوراقا تتضمن أسماء أرباب الرواتب ليقطع أكثرها .

فلم تدخل سنة ثمان وتسعين ، حتى استوحشت خواطر الناس بمصر والشام من منكوتمر ، وزاد حتى أراد السلطان أن يبعث بالأمير طغا الى نيابة طرابلس ، فتنصل طغا من ذلك فلم يعفه السلطان منه وألح منكوتمر في اخراجه ، واغلظ للأمير كرجي في القول وحط على سلار وبيبرس الجاشنكير وأنظارهم وبعض منهم ، وكان كرجي شرس الأخلاق ، ضيق العطن ، سريع الغضب ، فهم غير مرة بالفتك بمنكوتمر ، وطغجي يسكن غضبه .

فبلغ السلطان فساد قلوب الأمراء والعسكر فبعث قاضي القضاة حسام الدين الحسن بن أحمد بن الحسن الرومي الحنفي الى منكوتمر يحدثه في ذلك ويرجعه عما هو فيه فلم ينصت الى قوله وقال . أنا ما لي حاجة بالنيابة ، أريد أخرج مع الفقراء .

فلما بلغ السلطان عنه ذلك استدعاه ، وطيب خاطره ، ووعده بسفر طغجي بعد أيام ، ثم القبض على كرجي بعده فنقل هذا للأمراء ، فتحالفوا وقتلوا السلطان ، كما قد ذكر في خبره ، وأول من بلغه خبر مقتل السلطان الأمير منكوتمر ، فقام الى شباك النيابة بالقلعة ، فرأى باب القلة وقد انفتح ،

(*) ۲۸۷ ، ج ۲ ، ص بولاق .

وخرج الأمراء ، والشموع تقد ، والضجة قد ارتفعت ، فقال : والله قد فعلوها . وأمر فغلقت أبواب دار النيابة ، وألبس مماليكه آلة الحرب .

فبعث الأمراء اليه بالأمير الحسام أستادار ، فعرفه بمقتل السلطان ، وتلطف به حتى نزل وهو مشدود الوسط بمنديل ، وسار به الى باب القلة ... والأمير طفجي قد جلس في مرتبة النيابة . فتقدم الى طفجي ، وقبل يده ، فقام اليه ، وأجلسه بجانبه . وقام الأمراء فى أمر منكوتمر يشفعون فيه ، فأمر به الى الجب وأنزلوه فيه .

وعندما استقر به أدليت له القفة التي نزل فيها ، وتصايحوا عليه بالصعود ، فطلع عليهم . واذا كرجي قد وقف على رأس الجب في عدة من المماليك السلطانية ، فأخذ يسب منكوتمر ويهينه ، وضربه بلت ألقاه ، ودبحه بيده على الجب ، وتركه وانصرف فكان بين قتل أستاذه وقتله ساعة من الليل ، رذلك فى ليلة الجمعة عاشر ربيع الأول سنة ثمان وتسعين .

المدرسة القراسنقرية

هذه المدرسة تجاه خانقاه الصلاح سعيد السعداء ، فيما بين رحبة باب العيد وباب النصر ، كان موضعها ، وموضع الربع الذى بجانبها الغربى ، مع خانقاه بيبرس وما فى صفها ، الى حمام الأعسر وباب الجوانية ... كل ذلك من دار الوزارة الكبرى التى تقدم ذكرها . أنشأها الأمير شمس الدين قراسنقر المنصورى ، نائب السلطنة ، سنة سبعمائة . وبنى بجوار بابها مسجدا معلقا ، ومكتبا لاقراء أيتام المسلمين كتاب الله العزيز ، وجعل بهذه المدرسة درسا للفقهاء ، ووقف على ذلك داره التى بحارة بهاء الدين وغيرها . ولم يزل نظر هذه المدرسة بيد ذرية الواقف الى سنة خمس عشرة وثمانمائة ، ثم انقرضوا .

وهى من المدارس المليحة . وكنا نعهد البريدية اذا قدموا من الشام وغيرها لا ينزلون الا فى هذه المدرسة حتى يتهيأ سفرهم ، وقد بطل ذلك من سنة تسعين وسبعمائة .

« قراسنقر بن عبد الله » : الأمير شمس الدين الجوكندار المنصورى . صار الى الملك المنصور قلاوون ، وترقى فى خدمته الى أن ولاه نيابة السلطنة بحلب ، فى شعبان سنة اثنتين وثمانين وستمائة ، عوضا عن الأمير علم الدين سنجر الباشقردى ، فلم يزل فيها الى أن مات الملك المنصور ، وقام من بعده ابنه الملك الأشرف خليل بن قلاوون .

فلما توجه الأشرف الى فتح قلعة الروم ، عاد بعد فتحها الى حلب ، وعزل قراسنقر عن نيابتها ، وولى عوضه الأمير سيف الدين بلبان الطناحى ، وذلك فى أوائل شعبان سنة احدى وتسعين وكانت ولايته على حلب تسع سنين .

فلما خرج السلطان من مدينة حلب ، خرج فى خدمته ، وتوجه مع الأمير بدر الدين بيدرا — نائب السلطنة بديار مصر — فى عدة من الأمراء لقتال أهل جبال كسروان . فلما عاد سار مع السلطان من دمشق الى القاهرة ، ولم يزل بها الى أن ثار الأمير بيدرا على الأشرف ، فتوجه معه وأعان على قتله . فلما

قتلَ بيدرا فر قراسنقر ولاجين فى نصف المحرم سنة ثلاث وتسعين وستمائة ، واختفيا بالقاهرة .

الى أن استقر الأمر للملك الناصر محمد ابن قلاوون ، وقام فى نيابة السلطنة وتدبير الدولة الأمير زين الدين كتبغا ، فظهرا فى يوم عيد الفطر . وكانا عند فرارهما ، يوم قتل بيدرا ، أطلعا الأمير بيحاص الزينى — مملوك الأمير كتبغا نائب السلطنة — على حالهما ، فأعلم أستاذه بأمرهما ، وتلطف به حتى تحدث فى شأنهما مع السلطان ، فعفا عنهما .

ثم تحدث مع الأمير بكتاش الفخرى الى أن ضمن له التحدث مع الأمراء ، وسعى فى الصلح بينهما * وبين الأمراء والمماليك حتى زالت الوحشة ، وظهرا من بيت الأمير كتبغا . فأحضرهما بين يدى السلطان ، وقبلا الأرض ، وأفيضت عليهما التشاريف ، وجعلهما أمراء على عادتهما ، ونزلا الى دورهما ، فحمل اليهما الأمراء ما جرت العادة به من التقادم .

فلم يزل قراسنقر على امرته الى أن خلع الملك الناصر محمد بن قلاوون من السلطنة ، وقام من بعده الملك العادل زين الدين كتبغا ، فاستمر على حاله ... الى أن ثار الأمير حسام الدين لاجين ، نائب السلطنة بديار مصر ، على الملك العادل كتبغا بمنزلة العوجاء من طريق دمشق . فركب معه قراسنقر وغيره من الأمراء الى أن فر كتبغا ، واستمر الأمر لحسام الدين لاجين ، وتلقب بالملك المنصور .

فلما استقر بقلعة الجبل ، خلع على الأمير قراسنقر ، وجعله نائب السلطنة بديار مصر فى صفر سنة ست وتسعين وستمائة . فباشر النيابة الى يوم الثلاثاء للنصف من ذى القعدة فقبض عليه ، وأحيط بموجوده وحواصله ونوابه ودواوينه بديار مصر والشام ، وضيق عليه ، واستقر فى نيابة السلطنة بعده الأمير منكوتمر .

وعد السلطان من أسباب القبض عليه اسرافه فى الطمع ، وكثرة الحمايات ، وتحصيل الأموال على سائر الوجوه ، مع كثرة ما وقع من شكاية الناس من مماليكه ، ومن كاتبه شرف الدين يعقوب . فانه كان قد تحكم فى بيته تحكما زائدا ، وعظمت نعمته ، وكثرت سعادته ، وأسرف فى اتخاذ المماليك والخدم ، وانهمك فى اللعب الكثير ، وتعدى طوره ... وقراسنقر لا يسمع فيه كلاما : وحدثه السلطان بسببه ، وأغلظ فى القول ، وألزمه بضربه وتأديبه أو اخراجه من عنده ، فلم يعبأ بذلك .

وما زال قراسنقر فى الاعتقال الى أن قتلَ الملك المنصور لاجين ، وأعيد الملك الناصر محمد بن قلاوون الى السلطنة ، فأفرج عنه وعن غيره من الأمراء ، ورسم له بنيابة الصبيبة . فخرج اليها ، ثم نقل منها الى نيابة حماه بعد موت صاحبها الملك المظفر تقى الدين محمود ، بسفارة الأمير بيبرس الجاشنكير والأمير سلار .

ثم نقل من نيابة حماه بعد ملاقاة التتر الى نيابة حلب . واستقر عوضه فى نيابة حماه الأمير زين الدين كتبغا ، الذى تولى سلطنة

(*) ص ٣٨٨ ، جـ ٢ ، ط . بولاق

مصر والشام ، وذلك في سنة تسع وتسعين وستمائة ، وشهد وقعة شقحب مع الملك الناصر محمد بن قلاوون .

ولم يزل على نيابة حلب الى أن خلع الملك الناصر ، وتسلطن الملك المظفر بيبرس الجاشنكير ، وصاحب الناصر في الكرك . فلما تحرك لطلب الملك ، واستدعى نواب الممالك ، أجابه قراسنقر ، وأعانه برأيه وتدبيره ، ثم حضر اليه وهو بدمشق ، وقدم له شيئا كثيرا ، وسار معه الى مصر حتى جلس على تخت ملكه بقلعة الجبل ، فولاه نيابة دمشق ، عوضا عن الأمير عز الدين الأفرم ، في شوال سنة تسع وسبعمائة .

وخرج اليها ، فسار الى عزة في عدة من النواب ، فقبضوا على المظفر بيبرس الجاشنكير ، وسار به هو والأمير سيف الدين الحاج بهادر الى الخطارة ، فتلقاهم الأمير أسندمر كرجي ، فتسلم منهم بيبرس ، فقيده وأركبه بغلا ، أمر قراسنقر والحاج بهادر بالسير الى مصر . فشق على قراسنقر تقييد بيبرس ، وتوهم السر من الناصر ، وانزعج لذلك انزعاجا كثيرا ، ألقى كلوتته عن رأسه الى الأرض ، وقال لفراشه الدنيا فانية ، ياليتنا متنا ولا أنا هذا اليوم فترجل من حضر من الأمراء ، ورفعوا كلوتته ووضعوها على رأسه .

ورجع من فوره ، ومعه الحاج بهادر ، الى ناحية الشام ، وقد ندم على تشييع المظفر بيبرس ، فجد في سيره الى أن ... دمشق ، وفي نفس السلطان منه كونه لم يحضر مع بيبرس ، وكان قد أراد القبض عليه ، فبعث الأمير نوغاي القبجاقي أميرا بالشام ليكون له عينا على الأمير قراسنقر ، ففطن قراسنقر لذلك وشرع نوغاي يتحدث في حق قراسنقر بما لا يليق ، حتى ثقل عليه مقامه ، فقبض عليه بأمر السلطنة ، وسجن بقلعة دمشق

ثم ان السلطان صرفه عن نيابة دمشق ، وولاه نيابة حلب بسؤاله ، وذلك في المحرم سنة احدى عشرة وسبعمائة وكتب السلطان الى عدة من الأمراء بالقبض عليه مع الأمير أرغون الدوادار ، فلم يتمكن من التحدث في ذلك لكثرة ما ضبط قراسنقر أموره ، ولازمه عند قدومه عليه بتقليد نيابة حلب ، بحيث لم يتمكن أرغون من الحركة الى مكان الا وقراسنقر معه

فكثر الحديث بدمشق أن أرغون انما حضر لمسك قراسنقر ، حتى بلغ ذلك الأمراء ، وسمعه قراسنقر فاستدعى بالأمراء ، وحضر الأمير أرغون ، فقال قراسنقر بلغني كذا ، وهاأنا أقول ان كان حضر معك مرسوم بالقبض على فلا حاجة الى فتنة ، أنا طائع السلطان ، وهذا سيفي خذه ، ومد يده وحل سيفه من وسطه .

فقال أرغون ، وقد علم أن هذا الكلام مكيدة ، وأن قراسنقر لا يمكن من نفسه : انى لم أحضر الا لتقليد الأمير نيابة حلب بمرسوم السلطان وسؤال الأمير ، وحاشا لله أن السلطان يذكر في حق الأمير شيئا من هذا

فقال قراسنقر : غدا نركب ونسافر .

وانفض المجلس ، فبعث الى الأمراء ؛ ألا يركب أحد منهم لوداعه ، ولا يخرج من إسه وفرق ما عنده من العوائص ومن الدراهم على مماليكه ليتحملوا به على * أوساطهم ، وأمرهم بالاحتراس ، وقدم غلمانه وحواشيه في الليل وركب وقت الصباح فى طلب عظيم — وكانت عدة مماليكه سنمائة مملوك قد جعلهم حوله ثلاث حلقات — وأركب أرغون الى جانبه .

وسار على غير الجادة حتى قارب حلب ، ثم عبرها فى العشرين من المحرم ، وأعاد أرغون بعدما أنعم عليه بألف دينار رحلعة وخيل وتحف ، وأقام بمدينة حلب خائفا يترقب ، وشرع يعمل الحيلة فى الخلاص ، وصادق العربان ، واختص بالأمير حسام الدين مهنا أمير العرب وابنه موسى ، وأقدمه الى حلب ، وأوقفه على كتب السلطان اليه بالقبض عليه ، وأنه لم يفعل ذلك ، ولم يزل به حتى أفسد ما بينه وبين السلطان

ثم انه بعث يستأذن السلطان فى الحج . فأعجب السلطان ذلك ، وظن أنه بسفره يتم له التدبير عليه لما كان فيه من الاحتراز الكبير ، وأذن له فى السفر ، وبعث اليه بألفى دينار مصرية ، فخرج من حلب ومعه أربعمائة مملوك معدة بالفرس والجنيب والهجن ، وسار حتى قارب الكرك ، فبلغه أن السلطان كتب الى النواب ، وأخرج عسكرا من مصر اليه .

فرجع من طريق السماوة الى حلب ، وبها الأمير سيف الدين قرطاى نائب الغيبة ، فمنعه من العبور الى المدينة ، ولم يمكن أحدا من مماليك قراسنقر أن يخرج اليه — وكانت مكاتبة السلطان قد قدمت عليه بذلك — فرحل حينئذ الى مهنا أمير العرب واستجار به ، فأكرمه ربعث الى السلطان يشفع فيه ، فلم يجد السلطان بدا من قبول شفاعه مهنا ، وخير قراسنقر فيما يريد ، ثم أخرج عسكرا من مصر والشام لقتال مهنا وأخذ قراسنقر .

فبلغه ذلك ، فاحترس على نفسه ، وكتب الى السلطان يسأله فى صرخد ، وقصد بذلك المطاولة ، فأجابه الى ذلك ، ومكنه من أخذ حواصله التى بحلب ، وأعطى مملوكه ألف دينار ، فلما قدم عليه لم يطمئن وعبر الى بلاد الشرق فى سنة ثنتى عشرة وسبعمائة فى عدة من الأمراء يريد خربندا ، فلما وصل الى الرحبة ، بعث بابنه فراج — ومعه شئ من أثقاله وخيوله وأمواله — الى السلطان بمصر ليعتذر من قصده خربندا ، ورحل بمن معه الى ماردين .

فتلقاه المغل ، وقام له نواب خربندا بالاقامات الى أن قرب الأردو . فركب خربندا اليه ، وتلقاه وأكرمه ومن معه ، وأنزلهم منزلا يليق بهم ، وأعطى قراسنقر المراغة من عمل أدربيجان ، وأعطى الأمير جمال الدين أقوش الأفرم همدان ... وذلك فى أوائل سنة ثنتى عشرة وسبعمائة ، فلم يزل هناك الى أن مات خربندا ، وقام من بعده أبو سعيد بركة بن خربندا .

فشق ذلك على السلطان ، وأعمل الحيلة فى قتل قراسنقر والأفرم ، وسير اليهما الفداوية ، فجرت بينهم خطوب كثيرة ، ومات قراسنقر بالاسهال ببلد المراغة فى سنة ثمان وعشرين

(*) ص ٣٨٩ ، جـ ٢ ط : بولاق .

وسبعمائة ، يوم السبت سابع عشرى شوال ، قبل موت السلطان بيسير .

فلما بلغ السلطان موته فى حادى عشر ذى القعدة عند ورود الخبر اليه ، قال : ما كنت أشتهى يموت الا من تحت سيفى ، وأكون قد قدرت عليه ، وبلغت مقصودى منه . وذلك أنه كان قد جهز اليه عددا كثيرا من الفداوية ، قتل منهم بسببه مائة وعشرون فداويا بالسيف سوى من فقد ، ولم يوقف له على خبر .

وكان قراسنقر جسيما جليلا ، صاحب رأى وتدبير ومعرفة ، وبشاشة وجه ، وسماحة نفس ، وكرم زائد ، بحيث لا يستكثر على أحد شيئا ، مع حسن الشاكلة ، وعظم المهابة ، والسعادة الطائلة ، وبلغت عدة مماليكه ستمائة مملوك ، ما منهم الا من له نعمة ظاهرة وسعادة وافرة . وله من الآثار بالقاهرة هذه المدرسة ، ودار جليلة بحارة بهاء الدين فيها كان سكنه .

المدرسة الغزنوية

هذه المدرسة برأس الموضع المعروف بسويقة أمير الجيوش ، تجاه المدرسة اليازكوجية . بناها الأمير حسام الدين قايماز النجمى ، مملوك نجم الدين أيوب والد الملوك ، وأقام بها الشيخ شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن يوسف بن على بن محمد الغزنوى البغدادى المقرىء الفقيه الحنفى ، ودرس بها ، فعرفت به .

وكان اماما فى الفقه ، وسمع على الحافظ السلفى وغيره ، وقرأ بنفسه ، وسكن بمصر آخر عمره . وكان فاضلا ، حسن الطريقة ، متدينا ، وحدث بالقاهرة بكتاب الجامع لعبد الرزاق بن همام ، فرواه عنه جماعة ، وجمع كتابا فى الشيب والعمر . وقرأ عليه أبو الحسن السخاوى ، وأبو عمرو بن الحاجب .

ومولده ببغداد فى ربيع الأول سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة ، وتوفى بالقاهرة يوم الاثنين النصف من ربيع الأول سنة تسع وتسعين وخمسمائة .

وهى من مدارس الحنفية .

المدرسة البوبكرية

هذه المدرسة بجوار درب العباسى ، قريبا من حارة الوزيرية ، بالقاهرة . بناها الأمير سيف الدين أسنبغا ابن الأمير * سيف الدين بكتمر البوبكرى الناصرى ، ووقفها على الفقهاء الحنفية ، وبنى بجانبها حوض ماء للسبيل وسقاية ومكتبا للأيتام ، وذلك فى سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة ، وبنى قبالتها جامعا فمات قبل اتمامه .

وكان يسكن دار بدر الدين الأمير طرنطاى المجاورة للمدرسة الحسامية ، تجاه سوق الجوارى ، فلذلك أنشأ هذه المدرسة بهذا المكان لقربه منه . ثم لما كانت سنة خمس عشرة وثمانمائة جدد بهذه المدرسة منبرا ، وصار يقام بها الجمعة .

« أسنبغا » بن بكتمر الأمير ... ...

المدرسة البقرية

هذه المدرسة فى الزقاق الذى تجاه باب الجامع الحاكمى المجاور للمنبر ، ويتوصل من

(*) ص ٣٩٠ ، جـ ٢ ، ط . بولاق *

هذا الزقاق الى ناحية العطوف . بناها الرئيس شمس الدين شاكر بن غزيل (تصغير غزال) — المعروف بابن البقرى — أحد مسالمة القبط ، وناظر الذخيرة أيام الملك الناصر الحسن بن محمد بن قلاوون . وهو خال الوزير الصاحب سعد الدين نصر الله بن البقرى .

وأصله من قرية تعرف بدار البقر ، احدى قرى الغربية ، نشأ على دين النصارى ، وعرف الحساب ، وباشر الخراج ... الى أن أقدمه الأمير شرف الدين بن الأزكشى — أستادار السلطان ، ومشير الدولة فى أيام الناصر حسن — فأسلم على يديه ، وخاطبه بالقاضى شمس الدين ، وخلع عليه ، واستقر به فى نظر الذخيرة السلطانية — وكان نظرها حينئذ من الرتب الجليلة — وأضاف اليه نظر الأوقاف والأملاك السلطانية ، ورتبه مستوفيا بمدرسة الناصر حسن .

فشكرت طريقته ، وحمدت سيرته ، وأظهر سيادة وحشمة ، وقرب أهل العلم من الفقهاء ، وتفضل بأنواع من البر . وأنشأ هذه المدرسة فى أبدع قالب وأبهج ترتيب ، وجعل بها درسا للفقهاء الشافعية ، وقرر فى تدريسها شيخنا سراج الدين عمر بن على الأنصارى — المعروف بابن الملقن — الشافعى ، ورتب فيها ميعادا وجعل شيخه صاحبنا الشيخ كمال الدين بن موسى الدميرى الشافعى ، وجعل امام الصلوات بها المقرىء الفاضل زين الدين أبا بكر بن الشهاب أحمد النحوى . وكان الناس يرحلون اليه فى شهر رمضان لسماع قراءته فى صلاة التراويح ، لشجا صوته ، وطيب نغمته ، وحسن أدائه ، ومعرفته بالقراءات السبع والعشر والشواذ .

ولم يزل ابن البقرى على حال السيادة والكرامة الى أن مرض مرض موته ، فأبعد عنه من يلوذ به من النصارى ، وأحضر الكمال الدميرى وغيره من أهل الخير . فما زالوا عنده حتى مات — وهو يشهد شهادة الاسلام — فى سنة ست وسبعين وسبعمائة ، ودفن بمدرسته هذه ، وقبره بها تحت قبة فى غاية الحسن ، وولى نظر الذخيرة بعده أبو غالب .

ثم استجد فى هذه المدرسة منبر ، وأقيمت بها الجمعة فى تاسع جمادى الأولى سنة أربع وعشرين وثمانمائة ، باشارة علم الدين داود الكويز كاتب السر .

المدرسة القطبية

هذه المدرسة بأول حارة زويلة ، مما يلى الخرشف ، فى رحبة كوكاى . عرفت بالست الجليلة عصمة الدين خاتون مؤنسة القطبية — المعروفة بدار اقبال العلائى — ابنة السلطان الملك العادل سيف الدين أبى بكر بن أيوب بن شادى . وكان وقفها فى سنة خمس وستمائة ، وبها درس للفقهاء الشافعية ، وتصدير قراءات وفقهاء يقرأون .

مدرسة ابن المغربى

هذه المدرسة آخر درب الصقالبة ، فيما بين سويقة المسعودى وحارة زويلة . بناها صلاح الدين يوسف بن ... ... ابن المغربى رئيس

الأطباء تجاه داره ، ومات قبل اكمالها ، فدفن بعد موته فى قبة تجاه جامعه المطل على الخليج الناصرى بقرب بركة قرموط ، وصارت هذه المدرسة قائمة بغير اكمال . الى أن هدمها بعض ذريته فى سنة أربع عشرة وثمانمائة ، وباع أنقاضها ، فصار موضعها طاحونة .

المدرسة البيدرية

هذه المدرسة برحبة الأيدمرى ، بالقرب من باب قصر الشوك ، فيما بينه وبين المشهد الحسينى . بناها الأمير بيدر الأيدمرى .

المدرسة البديرية *

هذه المدرسة بجوار باب سر المدرسة الصالحية النجمية . كان موضعها من جملة تربة القصر التى تقدم ذكرها ، فنبش شخص من الناس — يعرف بناصر الدين محمد بن محمد بن بدير العباسى — ما هنالك من قبور الخلفاء ، وأنشأ هذه المدرسة فى سنة ثمان وخمسين وسبعمائة ، وعمل فيها درس فقه للفقهاء الشافعية ، درس فيه شيخنا شيخ الاسلام سراج الدين عمر بن نصير بن رسلان البلقينى ، وهى مدرسة صغيرة لا يكاد يصعد اليها أحد .

والعباسى هذا من قرية بطرف الرمل يقال لها العباسة . وله فى مدينة بلبيس مدرسة ، وقد تلاشت بعدما كانت عامرة مليحة .

(*) ص٣٩١ جـ٢ ، ط . بولاق .

المدرسة الملكية

هذه المدرسة بخط المشهد الحسينى من القاهرة . بناها الأمير الحاج سيف الدين آل ملك الجوكندار تجاه داره ، وعمل فيها درسا للفقهاء الشافعية وخزانة كتب معتبرة ، وجعل لها عدة أوقاف . وهى الى الآن من المدارس المشهورة ، وموضعها من جملة رحبة قصر الشوك ، وقد تقدم ذكرها عند ذكر الرحاب من هذا الكتاب . ثم صار موضع هذه المدرسة دارا تعرف بدار ابن كرمون ، صهر الملك الصالح .

المدرسة الجمالية

هذه المدرسة بجوار درب راشد من القاهرة ، على باب الزقاق المعروف قديما بدرب سيف الدولة نادر . بناها الأمير الوزير علاء الدين مغلطاى الجمالى ، وجعلها مدرسة للحنفية وخانقاه للصوفية .

وولى تدريسها ومشيخة التصوف بها : الشيخ علاء الدين على بن عثمان التركمانى الحنفى ، وتداولها ابنه قاضى القضاة جمال الدين عبد الله التركمانى الحنفى ، وابنه قاضى القضاة صدر الدين محمد بن عبد الله بن على التركمانى الحنفى ، ثم قريبهم حميد الدين حماد ، وهى الآن بيد ابن حميد الدين المذكور .

وكان شأن هذه المدرسة كبيرا . يسكنها أكابر فقهاء الحنفية ، وتعد من أجل مدارس القاهرة ، ولها عدة أوقاف بالقاهرة وظواهرها

وفى البلاد الشامية . وقد تلاشى أمر هـذه المدرسة لسوء ولاة أمرها وتخريبهم أوقافها ، وتعطل منها حضـور الدرس والتصـوف ، وصارت منزلا يسكنه أخلاط ممن ينسب الى اسم الفقه ، وقرب الخراب منها ، وكان بناؤها فى سنة ثلاثين وسبعمائة .

« مغلطاى » بن عبد الله الجمالى : الأمير علاء الدين — عرف بخرز ، وهى بالتركيـة عبارة عن الدين بالعربيـة — اشتراه الملك الناصر محمد بن قلاوون ، ونقله وهو شـاب من الجامكية الى الامرة ، على اقطاع الأمير صـارم الدين ابراهيـم الابراهيمى ، نقيب المماليك السلطانية — المعروف بزير الأمرة — فى صفر سنة ثمان عشرة وسبعمائة ، وصـار السلطان ينتدبه فى التوجه الى المهمات الخاصة به ، ويطلعه على سره .

ثم بعثه أمير الركب الى الحجاز فى هذه السنة . فقبض على الشريف أسد الدين رميثة ابن أبى نمى صاحب مكة ، وأحضره الى قلعة الجبل فى ثامن عشر المحرم سنة تسع عشرة وسبعمائة مع الركب . فأنكر عليه السلطـان سرعة دخوله ، لما أصاب الحاج من المشقة فى الاسراع بهم .

ثم انه جعل أستادار السلطان ، لما قبض على القاضى كريم الدين عبد الكريم ابن المعلم هبة الله ناظر الخواص ، عند وصوله من دمشـق بعد سفره اليها لاحضار شمس الدين غبريال . فيوم حضر خلع عليه ، وجعل أستادارا عوضا عن الأمير سـيف الدين بكتمـر العلائى ، وذلك فى جمادي الأولى سـنة ثلاث وعشرين وسبعمائة .

ثم أضاف اليه الوزارة ، وخلع عليه فى يوم الخميس ثامن رمضان سـنة أربع وعشرين ، عوضا عن الصاحب أمين الملك عبـد الله بن الغنام ، بعدما استعفى من الوزارة واعتذر بأنه رجل غتمى ، فلم يعفه السلطان ، وقال : أنا أخلى من يباشر معك ، ويعرفك ما تعمـل . وطلب شمس الدين غبريال ناظر دمشق منها ، وجعله ناظر الدولة رفيقا للوزير الجمالى .

فرفعت قصة الى السلطان ، وهو فى القصر من القلعة ، فيها الحط على السلطان بسبب تولية الجمالى الوزارة وألماس حاجبا ، وأنه بسبب ذلك أضاع أوضاع المملكة وأهانها ، وفرط فى أموال المسلمين والجيش ، وأن هذا لم يفعله أحد من الملوك ... فقد وليت الحجابة لمن لا يعرف يحكم ، ولا يتكلم بالعربى ، ولا يعرف الأحـكام الشرعيـة . ووليت الوزارة والأستادارية لشاب لا يعرف يكتب اسمـه ، ولا يعرف ما يقال له ، ولا يتصرف فى أمور المملكة ، ولا فى الأموال الديوانية ، الا أرباب الأقلام ، فانهم يأكلون المال ويحيلـون على الوزير .

فلما وقف السلطان عليها ، أوقف عليهـا القـاضى فخر الدين محمـد بن فضـل الله — المعروف بالفخر ناظر الجيش — فقـال : هذه ورقة الكتاب البطالين ممن انقطع * رزقه وكثر حسـده . وقرر مع السلطان أن يلزم الوزير ناظر الدولة وناظر الخواص باحضـار أوراق فى كل يوم تشتمل على أصل الحاصل ، وما حمل فى ذلك اليوم من البلاد الجهات وما

(*) ص٣٩٢ جـ٢ ، ط. بولاق .

صرف ، وأنه لا يصرف لأحد شيء ألبتة الا بأمر السلطان وعلمه .

فلما حضر الوزير الجمالى ، أنكر عليه السلطان ، وقال له : ان الدواوين تلعب بك . وأمر فأحضر التاج اسحاق وغبريال ومجد الدين بن لعيبة ، وقرر معهم أن يحضروا آخر كل يوم أوراقا بالحاصل والمصروف ، وقد فصلت بأسماء ما يحتاج الى صرفه والى شرائه وبيعه . فصاروا يحضرون كل يوم الأوراق الى السلطان ، وتقرأ عليه ، فيصرف ما يختار ، ويوقف ما يريد . ورسم أيضا أن مال الجيزة كله يحمل الى السلطان ، ولا يصرف منه شيء .

ثم لما كانت الفتنة بثغر الاسكندرية بين أهلها وبين الفرنج ، وغضب السلطان على أهل الاسكندرية ، بعث بالجمالى اليها . فسار من القاهرة فى أثناء رجب سنة سبع وعشرين وسبعمائة ، ودخل اليها ، فجلس بالخمس ، واستدعى بوجوه أهل البلد ، وقبض على كثير من العامة ، ووسط بعضهم ، وقطع أيدى جماعة وأرجلهم ، وصادر أرباب الأموال حتى لم يدع أحدا له ثروة حتى ألزمه بمال كثير . فباع الناس حتى ثياب نسائهم فى هذه المصادرة . وأخذ من التجار شيئا كثيرا ، مع ترفقه بالناس فيما يرد عليه من الكتب بسفك الدماء ، وأخذ الأموال .

ثم أحضر العدد التى كانت بالثغر مرصدة برسم الجهاد ، فبلغت ستة آلاف عدة ، ووضعها فى حاصل ، وختم عليه . وخرج من الاسكندرية بعد عشرين يوما ، وقد سفك دماء كثيرة ، وأخذ منها مائتى ألف دينار للسلطان ، وعاد الى القاهرة ، فلم يزل على حاله الى أن صرف عن الوزارة فى يوم الأحد ثانى شوال سنة ثمان وعشرين . ورسم أن توفر وظيفة الوزارة من ولاية وزير ، فلم يستقر أحد فى الوزارة ، وبقى الجمالى على وظيفة الأستادارية .

وكان سبب عزله عن الوزارة توقف حال الدولة ، وقلة الواصل اليها . فعمل عليه الفخر ناظر الجيش والتاج اسحاق ، بسبب تقديمه لمحمد بن لعيبة ، فانه كان قد استقر فى نظر الدولة والصحبة والبيوت ، وتحكم فى الوزير وتسلم قياده . فكتبت مرافعات فى الوزير ، وأنه أخذ مالا كثيرا من مال الجيزة ، فخرج الأمير أيتمش المجدى بالكشف عليه ، وهم السلطان بايقاع الحوطة به . فقام فى حقه الأمير بكتمر الساقى حتى عفى عنه ، وقبض على كثير من الدواوين .

ثم انه سافر الى الحجاز ، فلما عاد توفى بسطح عقبة أيلة ، فى يوم الأحد سابع عشر المحرم سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة ، فصبر وحمل الى القاهرة ، ودفن بهذه الخانقاه فى يوم الخميس حادى عشرى المحرم المذكور ، بعدما صلى عليه بالجامع الحاكمى . وولى السلطان بعده الأستادارية الأمير أقبغا عبد الواحد . وكان ينوب عن الجمالى فى الأستادارية ألطنقش مملوك الأفرم ... نقله اليها من ولاية الشرقية .

وكان الجمالى حسن الطباع ، يميل الى الخير مع كثرة الحشمة ، ومما شكر عليه فى وزارته أنه لم يخل على أحد بولاية مباشرة ،

وأنشأ ناسا كثيرا ، وقصد من سائر الأعمال .
وكان يقبل الهدايا ويحب التقادم ، فحلت له الدنيا ، وجمع منها شيئا كثيرا . وكان اذا أخذ من أحد شيئا على ولاية ، لا يعزله حتى يعرف أنه قد اكتسب قدر ما وزنه له ولو أكثر عليه في السعي ، فاذا عرف أنه أخذ ما غرمه ، عزله وولى غيره ، ولم يعرف عنه أنه صادر أحدا ، ولا اختلس مالا . وكانت أيامه قليلة الشر ، الا أنه كان يعزل ويولى بالمال ، فتزايد الناس في المناصب ، وكان له عقب بالقاهرة غير صالحين ولا مصلحين .

المدرسة الفارسية

هذه المدرسة بخط الفهادين ، من أول العطوفية بالقاهرة ، كان موضعها كنيسة تعرف بكنيسة الفهادين . فلما كانت واقعة النصارى في سنة ست وخمسين وسبعمائة ، هدمها الأمير فارس الدين البكى — قريب الأمير سيف الدين آل ملك الجوكندار — وبنى هذه المدرسة ، ووقف عليها وقفا يقوم بما تحتاج اليه .

المدرسة السابقية

هذه المدرسة داخل قصر الخلفاء الفاطميين ، من جملة القصر الكبير الشرقى الذى كان داخل دار الخلافة ، ويتوصل الى هذه المدرسة الآن من تجاه حمام البيسرى بخط بين القصرين ، وكان يتوصل اليها أيضا من باب القصر — المعروف بباب الريح — من خط الركن المخلق ، وموضعه الآن قيسارية الأمير جمال الدين يوسف الأستادار .

بنى هذه المدرسة الطواشى الأمير سابق الدين مثقال الأنوكى ، مقدم المماليك السلطانية الأشرفية ، وجعل بها درسا للفقهاء الشافعية .. قرر فى تدريسه شيخنا شيخ الشيوخ سراج الدين عمر بن على الأنصارى ، المعروف بابن * الملقن الشافعى ، وجعل فيها تصدير قراءات وخزانة كتب وكتابا يقرأ فيه أيتام المسلمين ، وبنى بينها وبين داره — التى تعرف بقصر سابق الدين — حوض ماء للسبيل . هدمه الأمير جمال الدين يوسف الأستادار لما بنى داره المجاورة لهذه المدرسة .

وولى سابق الدين تقدمة المماليك ، بعد الطواشى شرف الدين مختص الطغتمرى ، فى صفر سنة ثلاث وستين وسبعمائة . ثم تنكر عليه الأمير يلبغا الخاصكى ، القائم بدولة الملك الأشرف شعبان بن حسين ، وضربه ستمائة عصا وسجنه ، ونفاه الى أسوان فى آخر شهر ربيع الأول سنة ثمان وستين . فلم يكن غير قليل حتى قتل الأمير يلبغا ، فاستدعى الأشرف سابق الدين بن قوص ، وصرف ظهير الدين مختارا — المعروف بشاذروان — عن التقدمة ، وأعاده اليها . فاستمر الى أن مات سنة ست وسبعين وسبعمائة .

المدرسة القيسرانية

هذه المدرسة بجوار المدرسة الصاحبية ، بسويقة الصاحب ، فيما بينها وبين باب الخوخة . كانت دارا يسكنها القاضى الرئيس شمس الدين محمد بن ابراهيم القيسرانى ، أحد موقعى الدست بالقاهرة ، فوقفها قبل

(*) ص٣٩٣ ج٢ ، ط.بولاق .

موته مدرسة ، وذلك فى ربيع الأول سنة احدى وخمسين وسبعمائة ، وتوفى سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة .

وكان حشما كبير الهمة . سعى بالأمير سيف الدين بهادر الدمرداشى فى كتابة السر السر بالقاهرة ، مكان علاء الدين على بن فضل الله العمرى ، فلم يتم ذلك ، ومات الأمير بهادر ، فانحط جانبه . وكانت دنياه واسعة جدا ، وله عدة مماليك يتوصل بهم الى السعي فى أغراضه عند أمراء الدولة ، وكان ينسب الى شح كبير .

المدرسة الزمامية

هذه المدرسة بخط رأس البندقانيين من القاهرة ، فيما بين البندقانيين وسويقة الصاحب . بناها الأمير الطواشى زين الدين مقبل الرومى ، زمام الآدر الشريفة للسلطان الظاهر برقوق ، فى سنة سبع وتسعين وسبعمائة ، وجعل بها درسا وصوفية ومنبرا يخطب عليه فى كل جمعة .

وبينها وبين المدرسة الصاحبية دون مدى الصوت ، فيسمع كل من صلى بالموضعين تكبير الآخر . وهذا وأنظاره بالقاهرة من شنيع ماحدث فى غير موضع ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم على ازالة هذه المبتدعات .

المدرسة الصغيرة

هذه المدرسة فيما بين البندقانيين وطواحين الملحيين ، ويعرف خطها ببيت محب الدين ناظر الجيوش ، ويعرف أيضا بخط بين العواميد . بنتها الست أيدكين ، زوجة الأمير سيف الدين بكجا الناصرى ، فى سنة احدى وخمسين وسبعمائة .

مدرسة تربة أم الصالح

هذه المدرسة بجوار المدرسة الأشرفية ، بالقرب من المشهد النفيسى فيما بين القاهرة ومصر ، موضعها من جملة ما كان بستانا . أنشأها الملك المنصور قلاوون على يد الأمير علم الدين سنجر الشجاعى ، فى سنة اثنتين وثمانين وستمائة ، برسم أم الملك الصالح علاء الدين على بن الملك المنصور قلاوون .

فلما كمل بناؤها ، نزل اليها الملك المنصور ومعه ابنه الصالح على ، وتصدق عند قبرها بمال جزيل ، ورتب لها وقفا حسنا على قراء وفقهاء وغير ذلك . وكانت وفاتها فى سادس عشر شوال سنة ثلاث وثمانين وستمائة .

مدرسة ابن عرام

هذه المدرسة بجوار جامع الأمير حسين ، بحكر جوهر النوبى من بر الخليج الغربى ، خارج القاهرة . أنشأها الأمير صلاح الدين خليل بن عرام ، وكان من فضلاء الناس ، تولى نيابة الاسكندرية ، وكتب تاريخا ، وشارك فى علوم .

فلما قتل الأمير بركة بسجن الاسكندرية ، ثارت مماليكه على الأمير الكبير برقوق حنقا لقتله . فأنكر الأمير برقوق قتله ، وبعث الأمير يونس النوروزى دواداره لكشف ذلك ،

فنبش عنه قبره ، فاذا فيه ضربات عدة احداهن فى رأسه ، فاتهم ابن عرام بقتله من غير اذن له فى ذلك . فأخرج بركة من قبره — وكان بثيابه من غير غسل ولا كفن — وغسله وكفنه .

وأحضر ابن عرام معه ، فسجن بخزانة شمائل داخل باب زويلة من القاهرة ، ثم عصر ، وأخرج يوم الخميس خامس عشر رجب سنة اثنتين وثمانين وسبعمائة من خزانة شمائل ، وأمر به فسمر عريان بعد ما ضرب عند باب القلة * بالمقارع ستة وثمانين بحضرة الأمير قطلودمر الخازندار والأمير مامور حاجب الحجاب .

فلما أنزل من القلعة ، وهو مسمر على الجمل ، أنشد :

لك قلبى تحله فدمى لم تحله
لك من قلبى المكا ن فلم لا تحله
قال ان كنت مالكا فلى الأمر كله

وما هو الا أن وقف بسوق الخيل تحت القلعة . واذا بمماليك بركة قد أكبت عليه تضربه بسيوفها حتى تقطع قطعا ، وحز رأسه وعلق على باب زويلة ، وتلاعبت أيديهم : فأخذ واحد أذنه ، وأخذ واحد رجله ، واشترى آخر قطعة من لحمه ولاكها . ثم جمع ما وجد منه ، ودفن بمدرسته هذه .

فقال فى ذلك صاحبنا الأديب شهاب الدين أحمد بن العطار :

بدت أجزاء عرام خليل
مقطعة من الضرب الثقيل
وأبدت أبحر الشعر المراثى
محررة بتقطيع الخليل

المدرسة المحمودية

هذه المدرسة بخط الموازنيين ، خارج باب زويلة تجاه دار القردمية ، يشبه أن موضعها كان فى القديم من جملة الحارة التى كانت تعرف بالمنصورية . أنشأها الأمير جمال الدين محمود بن على الأستادار فى سنة سبع وتسعين وسبعمائة ، ورتب بها درسا ، وعمل فيها خزانة كتب لا يعرف اليوم بديار مصر ولا الشام مثلها ، وهى باقية الى اليوم ، لا يخرج لأحد منها كتاب الا أن يكون فى المدرسة ، وبهذه الخزانة كتب الاسلام من كل فن . وهذه المدرسة من أحسن مدارس مصر .

« محمود » بن على بن أصفر عينه : الأمير جمال الدين الأستادار . ولى شد باب رشيد بالاسكندرية مدة ، وكانت واقعة الفرنج بها فى سنة سبع وستين وسبعمائة وهو مشد ، فيقال ان ماله الذى وجد له حصله يومئذ ، ثم انه سار الى القاهرة .

فلما كانت أيام الظاهر برقوق ، خدم أستادارا عند الأمير سودون باق ، ثم استقر شاد الدواوين الى أن مات الأمير بهادر المنجكى أستادار السلطان ، فاستقر عوضا عنه فى وظيفة الأستادارية يوم الثلاثاء ثالث جمادى الآخرة سنة تسعين وسبعمائة ، ثم خلع عليه فى يوم الخميس خامسه ، واستقر مشير الدولة . فصار يتحدث فى دواوين السلطنة الثلاثة ، وهى : الديوان المفرد الذى

(*) ص٢٩٤ ج٢ ، ط بولاق .

يتحدث فيه الأستادار ، وديوان الوزارة ويعرف بالدولة ، وديوان الخاص المتعلق بنظر الخواص . وعظم أمره ، ونفذت كلمته لتصرفه فى سائر أمور المملكة .

فلما زالت دولة الملك الظاهر برقوق بحضور الأمير يلبغا الناصرى نائب حلب ، فى يوم الاثنين خامس جمادى الآخرة سنة احدى وتسعين وسبعمائة ، بعساكر الشام الى القاهرة واختفى الظاهر ، ثم أمسكه ... هرب هو وولده ، فنهبت دوره .

ثم انه ظهر من الاستتار فى يوم الخميس ثامن جمادى الآخرة ، وقدم للأمير يلبغا الناصرى مالا كثيرا ، فقبض عليه ، وقيده ، وسجنه بقلعة الجبل . وأقيم بدله فى الأستادارية الأمير علاء الدين أقبغا الجوهرى .

فلما زالت دولة يلبغا الناصرى بقيام الأمير منطاش عليه ، قبض على أقبغا الجوهرى فيمن قبض عليه من الأمراء ، وأفرج عن الأمير محمود فى يوم الاثنين ثامن شهر رمضان ، وألبسه قباء مطرزا بذهب ، وأنزله الى داره . ثم قبض عليه ، وسجن بخزانة الخاص فى يوم الأحد سادس عشر ذى الحجة ، فى عدة من الأمراء والمماليك ، عند عزم منطاش على السفر لحرب برقوق عند خروجه من الكرك ، ومسيره الى دمشق . فكانت جملة ما حمله الأمير محمود من الذهب العين ، للأمير يلبغا الناصرى وللأمير منطاش ، ثمانية وخمسين قنطارا من الذهب المصرى ، منها ثمانية عشر قنطارا فى ليلة واحدة .

فلم يزل فى الاعتقال الى أن خرج المماليك مع الأمير بوطا ، فى ليلة الخميس ثانى صفر سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة ، فخرج معهم ، وأقام بمنزله ... الى أن عاد الملك الظاهر برقوق الى المملكة فى رابع عشر صفر ، فخلع عليه ، واستقر أستادار السلطان على عادته ، فى يوم الاثنين تاسع عشرى جمادى الأولى من السنة المذكورة ، عوضا عن الأمير قرقماش الطشتمرى بعد وفاته . ثم خلع على ولده الأمير ناصر الدين محمد بن محمود فى يوم الخميس ثانى عشرى صفر سنة أربع وتسعين وسبعمائة ، واستقر نائب السلطنة بثغر الاسكندرية عوضا عن الأمير ألطنبغا المعلم .

فقويت حرمة الأمير محمود ، ونفذت كلمته ... الى يوم الاثنين حادى عشر رجب من السنة المذكورة . فثار عليه المماليك السلطانية بسبب تأخر كسوتهم ، ورموه من أعلى القلعة بالحجارة * ، وأحاطوا به وضربوه يريدون قتله . لولا أن الله أغاثه بوصول الخبر الى الأمير الكبير أيتمش — وكان يسكن قريبا من القلعة — فركب بنفسه ، وساق حتى أدركه ، وفرق عنه المماليك ، وسار به الى منزله حتى سكنت الفتنة ، ثم شيعه الى داره .

فكانت هذه الواقعة مبدأ انحلال أمره . فان السلطان صرفه عن الأستادارية ، وولى الأمير الوزير ركن الدين عمر بن قايماز فى يوم الخميس رابع عشرة ، وخلع على الأمير محمود قباء بطرز ذهب ، واستقر على امرته .

(*) ص٢٩٥ جـ٢ ، ط. بولاق .

ثم صرف ابن قايماز عن الأستادارية ، وأعيد محمود في يوم الاثنين خامس عشر رمضان ، وأنعم على ابن قايماز بامرة طبلخاناة ، فجدد بثغر الاسكندرية دار ضرب عمل فيها فلوس ناقصة الوزن ، ومن حينئذ اختل حال الفلوس بديار مصر .

ثم لما خرج الملك الظاهر الى البلاد الشامية في سنة ست وتسعين ، سار في ركابه ، ثم حضر الى القاهرة في يوم الأربعاء سابع صفر سنة سبع وتسعين وسبعمائة ، قبل حضور السلطان ، وكان دخوله يوما مشهودا . فلما عاد السلطان الى قلعة الجبل ، حدث منه تغير على الأمير محمود في يوم السبت ثالث عشرى ربيع الأول ، وهم بالايقاع به .

فلما صار الى داره ، بعث اليه الأمير علاء الدين على بن الطبلاوى يطلب منه خمسمائة ألف دينار ، وان توقف يحيط به ويضربه بالمقارع ، فنزل اليه ، وقرر الحال على مائة وخمسين ألف دينار . فطلع على العادة الى القلعة في يوم الاثنين خامس عشريه ، فسبه المماليك السلطانية ورجموه ، ثم ان السلطان غضب عليه ، وضربه في يوم الاثنين ثالث ربيع الآخر بسبب تأخر النفقة ، وأخذ أمره ينحل .

فولى السلطان الأمير صلاح الدين محمد ابن الأمير ناصر الدين محمد ابن الأمير تنكز أستادارية الأملاك السلطانية في يوم الاثنين خامس رجب ، وولى علاء الدين على بن الطبلاوى في رمضان التحدث في دار الضرب بالقاهرة والاسكندرية ، والتحدث في المتجر السلطاني ، فوقع بينه وبين الأمير محمود كلام كثير ، ورافعه ابن الطبلاوى بحضرة السلطان ، وخرج عليه من دار الضرب ستة آلاف درهم فضة .

فألزم السلطان محمودا بحمل مائة وخمسين ألف دينار فحملها ، وخلع عليه عند تكميله حملها في يوم الأحد تاسع عشرى رمضان ، وخلع أيضا على ولده الأمير ناصر الدين ، وعلى كاتبه سعد الدين ابراهيم بن غراب الاسكندرانى ، وعلى الأمير علاء الدين على ابن الطبلاوى . ثم ان محمودا وعك بدنه ، فنزل اليه السلطان في يوم الاثنين ثالث عشرى ذى القعدة يعوده ، فقدم له عدة تقادم ، قبل بعضها ورد بعضها ، وتحدث الناس أنه استقلها .

فلما كان يوم السبت سادس صفر سنة ثمان وتسعين ، بعث السلطان الى الأمير محمود الطواشى شاهين الحسنى ، فأخذ زوجتيه وكاتبه سعد الدين ابراهيم بن غراب ، وأخذ مالا وقماشا على حمالين وصار بهما الى القلعة ... هذا ومحمود مريض لازم الفراش . ثم عاد من يومه وأخذ الأمير ناصر الدين محمد بن محمود ، وحمله الى القلعة .

ثم نزل ابن غراب ومعه الأمير الى باى الخازندار في يوم الأحد سابعه ، وأخذا من ذخيرة بدار محمود خمسين ألف دينار . وفي يوم الخميس حادى عشره ، صرف محمود عن الأستادارية ، واستقر عوضه الأمير سيف الدين قطلوبك العلائى أستادار الأمير الكبير أيتمش ، وقرر سعد الدين بن غراب ناظر الديوان المفرد ، فاجتمع مع ابن الطبلاوى على عداوة محمود والسعى في اهلاكه ، وسلم ابن

محمود الى ابن الطبلاوى فى تاسع عشر ربيع الأول ليستخلص منه مائة ألف دينار .

ونزل الطواشى صندل المنجكى والطواشى شاهين الحسنى فى ثالث عشريه ومعهما ابن الطبلاوى ، فأخذا من خربة خلف مدرسة محمود زيرين كبيرين وخمسة أزيار صغارا وجد فيها ألف ألف درهم فضة ، فحملت الى القلعة ، ووجد أيضا بهذه الخربة جرتان : فى احداهما ستة آلاف دينار ، وفى الأخرى أربعة آلاف درهم فضة وخمسمائة درهم . وقبض على مباشرى محمود ومباشرى ولده ، وعوقب محمود .

ثم أوقعت الحوطة على موجود محمود فى يوم الخميس سابع جمادى الأولى ، ورسم عليه ابن الطبلاوى فى داره ، وأخذ مماليكه وأتباعه ، ولم يدع عنده غير ثلاثة مماليك صغار ، وظهرت أموال محمود شيئا بعد شيء . ثم سلم الى الأمير فرج شاد الدواوين فى خامس جمادى الآخرة ، فنقله الى داره وعاقبه وعصره فى ليلته ثم نقل فى شعبان الى دار ابن الطبلاوى ، فضربه وسعطه وعصره ، فلم يعترف بشيء .

وحكى عنه أنه قال : لو عرفت أنى أعاقب ما اعترفت بشيء من المال . وظهر منه فى هذه المحنة ثبات وجلد وصبر ، مع قوة نفس وعدم خضوع ، حتى انه كان يسب ابن الطبلاوى اذا دخل اليه ، ولا يرفع له قدرا . ثم ان السلطان استدعاه الى ما بين يديه يوم السبت أول صفر سنة تسع وتسعين ، وحضر سعد الدين بن غراب ، فشافهه بكل سوء ، ورافعه فى وجهه حتى استغضب السلطان على محمود ، وأمر بمعاقبته حتى يموت .

فأنزل الى بيت الأمير حسام الدين حسين ، ابن أخت ألفرس شاد الدواوين — وكان أستادار محمود — فلم يزل عنده فى العقوبة الى أن نقل من داره الى خزانة * شمائل فى ليلة الجمعة ثالث جمادى الأولى ، وهو مريض ، فمات بها فى ليلة الأحد تاسع رجب سنة تسع وتسعين وسبعمائة ، ودفن من الغد بمدرسته ، وقد أناف على الستين سنة .

وكان كثير الصلاة والعبادة ، مواظبا على قيام الليل . الا أنه كان شحيحا مسيكا ، شرها فى الأموال ، رمى الناس منه فى رماية البضائع بدواه ، اذا نسبت الى ما حدث من بعده كانت عاقبة ونعمة ، وأكثر من ضرب الفلوس بديار مصر حتى فسد بكثرتها حال اقليم مصر .

وكان جملة ما حمل من ماله ، بعد نكبته هذه ، مائة قنطار ذهبا وأربعين قنطارا : عنها ألف ألف دينار وأربعمائة ألف دينار عينا ، وآلف ألف درهم فضة . وأخذ له من البضائع والغلال والقنود والأعسال ما قيمته ألف ألف درهم وأكثر .

المدرسة المهذبية

هذه المدرسة بحارة حلب ، خارج القاهرة ، عند حمام قمارى . بناها الحكيم مهذب الدين محمد بن أبى الوحش — المعروف بابن أبى حليقة (تصغير حلقة) — رئيس الأطباء بديار

(*) ص٣٦٦ جـ٢ ، ط: بولاق .

مصر . ولى رياسة الأطباء في حادي عشر رمضان سنة أربع وثمانين وستمائة ، واستقر مدرس الطب بالمارستان المنصوري .

المدرسة السعدية

هذه المدرسة خارج القاهرة بقرب حدرة البقر ، على الشارع المسلوك فيه من حوض ابن هنس الى الصليبة ، وهي فيما بين قلعة الجبل وبركة الفيل . كان موضعها يعرف بخط بستان سيف الاسلام ، وهي الآن في ظهر بيت قوصون المقابل لباب السلسلة من قلعة الجبل . بناها الأمير شمس الدين سنقر السعدي ، نقيب المماليك السلطانية ، في سنة خمس عشرة وسبعمائة ، وبنى بها أيضا رباطا للنساء .

وكان شديد الرغبة في العمائر ، محبا للزراعة ، كثير المال ، ظاهر الغنى . وهو الذي عمر القرية ، التي تعرف اليوم بالنحريرية ، من أعمال الغربية — وكانت اقطاعه — ثم انه أخرج من مصر بسبب نزاع وقع بينه وبين الأمير قوصون في أرض أخذها منه ، فسار الى طرابلس ، وبها مات في سنة ثمان وعشرين وسبعمائة .

المدرسة الطفجية

هذه المدرسة بخط حدرة البقر أيضا . أنشأها الأمير سيف الدين طفجي الأشرفي ، ولها وقف جيد .

« طفجي » الأمير سيف الدين : كان من جملة مماليك الملك الأشرف خليل بن قلاوون ، ترقى في خدمته حتى صار من جملة أمراء ديار مصر . فلما قتل الملك الأشرف ، قام طفجي في المماليك الأشرفية ، وحارب الأمير بيدرا ، المتولي لقتل الأشرف ، حتى أخذه وقتله .

فلما أقيم الملك الناصر محمد بن قلاوون في المملكة ، بعد قتل بيدرا ، صار طفجي من أكابر الأمراء ، واستمر على ذلك بعد خلع الملك الناصر بكتبغا مدة أيامه . الى أن خلع الملك العادل كتبغا ، وقام في سلطنة مصر الملك المنصور لاجين ، وولى مملوكه الأمير سيف الدين منكوتمر نيابة السلطنة بديار مصر ، فأخذ يواحش أمراء الدولة بسوء تصرفه .

واتفق أن طفجي حج في سنة سبع وتسعين وستمائة ، فقرر منكوتمر مع المنصور أنه اذا قدم من الحج يخرجه الى طرابلس ، ويقبض على أخيه الأمير سيف الدين كرجي . فعندما قدم طفجي من الحجاز ، في صفر سنة ثمان وتسعين وستمائة ، رسم له بنيابة طرابلس ، فثقل عليه ذلك ، وسعى باخوته الأشرفية حتى أعفاه السلطان من السفر .

فسخط منكوتمر ، وأبى الا سفر طفجي ، وبعث اليه يلزمه بالسفر — وكان لاجين منقادا لمنكوتمر لا يخالفه في شيء — فتواعد طفجي وكرجي مع جماعة من المماليك ، وقتلوا لاجين . وتولى قتله كرجي وخرج ، فاذا طفجي في انتظاره على باب القلة من قلعة الجبل ، فسر بذلك ، وأمر باحضار من بالقلعة من الأمراء — وكانوا حينئذ يبيتون بالقلعة دائما — وقتل منكوتمر في تلك الليلة ، وعزم على أنه يتسلطن ، ويقيم كرجي في نيابة السلطنة ، فخذله الأمراء .

وكان الأمير بدر الدين بكتاش الفخري مير سلاح قد خرج فى غزاة وقرب حضوره ، فاستمهلوه بما يريد الى أن يحضر ، فأخر سلطنته ، وبقى الأمراء فى كل يوم يحضرون معه فى باب القلة ، ويجلس فى مجلس النيابة والأمراء عن يمينه وشماله ، ويمد سماط السلطان بين يديه . فلما حضر أمير سلاح بمن معه من الأمراء ، نزل طفجى والأمراء الى لقائهم بعدما امتنع امتناعا كثيرا ، وترك كرجى يحفظ القلعة بمن معه من المماليك الأشرفية ، وقد نوى طفجى الشر للأمراء الذين قد خرج الى لقائهم ، وعرف ذلك الأمراء المقيمون عنده فى القلعة ، فاستعدوا له ، وسار هو والأمراء الى أن لقوا الأمير بكتاش * ، ومعه من الأشرفية أربعمائة فارس تحفظه حتى يعود من اللقاء الى القلعة .

فعندما واقاه بقبة النصر وتعانقا ، أعلمه بقتل السلطان ، فشق عليه . وللوقت جرد الأمراء سيوفهم ، وارتفعت الضحة ، فساق طفجى من الحلقة والأمراء وراءه الى أن أدركه قراقوش الظاهرى ، وضربه بسيف ألقاه عن فرسه الى الأرض ميتا ، ففر كرجى ، ثم أخذ وقتل ، وحمل طفجى فى مزبلة من مزابل الحمامات على حمار الى مدرسته هذه ، فدفن بها ، وقبره هناك الى اليوم .

وكان قتله فى يوم الخميس سادس عشر ربيع الأول سنة ثمان وتسعين وستمائة ، بعد خمسة أيام من قتل لاجين ومنكوتمر .

(*) ص٣٩٧ جـ٢ ، ط. بولاق .

المدرسة الجاولية

هذه المدرسة بجوار الكبش ، فيما بين القاهرة ومصر . أنشأها الأمير علم الدين سنجر الجاولى ، فى سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة ، وعمل بها درسا وصوفية ، ولها الى هذه الأيام عدة أوقاف .

« سنجر » بن عبد الله : الأمير علم الدين الجاولى . كان مملوك جاولى ، أحد أمراء الملك الظاهر بيبرس ، وانتقل بعد موت الأمير جاولى الى بيت قلاوون ، وخرج فى أيام الأشرف خليل بن قلاوون الى الكرك ، واستقر فى جملة البحرية بها الى أيام العادل كتبغا ، فحضر من عند نائب الكرك ومعه حوائجخاناه فرفعه كتبغا ، وأقامه على الخوشخاناه السلطانية . وصحب الأمير سلار وواخاه ، فتقدم فى الخدمة ، وبقى أستادارا صغيرا فى أيام بيبرس وسلار ، فصار يدخل على السلطان الملك الناصر ويخرج ، ويراعى مصالحه فى أمر الطعام ، ويتقرب اليه .

فلما حضر من الكرك ، جهزه الى غزة نائبا فى جمادى الأولى سنة احدى عشرة وسبعمائة ، عوضا عن الأمير سيف الدين قطلو أقتمر عبد الخالق بعد امساكه ، وأضاف اليه مع غزة الساحل والقدس وبلد الخليل وجبل نابلس ، وأعطاه اقطاعا كبيرا ، بحيث كان للواحد من مماليكه اقطاع يعمل عشرين ألفا وخمسة وعشرين ألفا .

وعمل نيابة غزة على القالب الجائر ... الى أن وقعت بينه وبين الأمير تنكز ، نائب

الشام ، بسبب دار كانت له تجاه جامع تنكز خارج دمشــق من شمالها ، أراد تنكز أن يبتاعها منه ، فأبى عليه . فكتب فيه الى الملك الناصر محمد بن قلاوون ، فأمسكه فى ثامن عشرى شعبــان ســنة عشرين وسـبعمائة ، واعتقله نحوا من ثمان سنين ، ثم أفرج عنه فى سنة تسع وعشرين ، وأعطاه امرة أربعين . ثم بعــد مدة أعطــاه امرة مائة ، وقدمه على ألف ، وجعله من أمراء المشورة .

فلم يزل عــلى هــذا الى أن مات الملك الناصر ، فتولى غسله ودفنه . فلما ولى الملك الصالح اسماعيل بن محمد بن قلاوون سلطنة مصر ، أخرجه الى نيابة حماة ، فأقام بها مدة ثلاثة أشهر . ثم نقله الى نيــابة غزة ، فحضر اليها ، وأقام بها نحو ثلاثة أشهر أيضــا . ثم أحضره الى القاهرة ، وقرره على ما كان عليه ، وولى نظر المارستان بعد نائب الكرك عندما أخرج الى نيابة طرابلس . ثم توجه لحصار الناصر أحمد بن محمــد بن قلاوون ، وهو ممتنع فى الكرك ، فأشرف عليــه فى بعض الأيام الناصر أحمد من قلعة الكرك ، وسبه وشيخه .

فقال له الجاولى : نعم أنا شــيخ نحس ، ولكن الساعة ترى حالك مع الشيخ النحس . ونقل المنجنيق الى مكان يعرفه ، ورمى به ، فلم يخط القلعة ، وهدم منها جانبا ، وطلع بالعسكر وأمسك أحمد ، وذبحه صبرا ، وبعث برأسه الى الصالح اسماعيل ، وعاد الى مصر . فلم يزل عــلى حاله الى أن مات فى منــزله بالكبش ، يوم الخميس تاسع رمضان سنة خمس وأربعين وسبعمائة ، ودفن بمدرسته . وكانت جنازته حافلة الى الغاية .

قد سمع الحديث وروى ، وصنف شرحا كبيرا على مسند الشافعى رحمه الله ، وأفتى فى آخر عمره على مذهب الشافعى ، وكتب خطه على فتاوى عديدة .

وكان خبيرا بالأمور ، عارفا بسياسة الملك ، كفوا لما وليه من النيابات وغيرها ... لا يزال يذكر أصحابه فى غيبتهم عنه ، ويكرمهم اذا حضروا عنده ، وانتفع به جماعة من الكتاب والعلمــاء والأكابر . وله من الآثار الجميلة الفاضلة جامع بمدينة غزة فى غاية الحسن ، وله بها أيضا حمام مليح ، ومدرسة للفقهاء الشافعية ، وخان للسبيل .

وهــو الذى مدن غزة ، وبنى بها أيضــا مارستانا ، ووقف عليه عن الملك الناصر أوقافا جليلة ، وجعل نظره لنواب غزة ، وعمر بها أيضا الميدان والقصر ، وبنى ببلد الخليل عليه السلام جامعا سقفه منه حجر نقر ، وعمــل الخان العظيم بقاقون ، والخان بقرية الكثيب ، والقناطر بغابة أرسوف ، وخان رســلان فى حمراء بيسان ، ودارا بالقرب من باب النصر داخل القاهرة ، ودارا بجوار مدرســته على الكبش . وسائر عمائره ظريفة أنيقة ، محكمة متقنة مليحة . وكان ينتمى الى الأمير ســلار ويجل ذكره .

المدرسة الفارقانية *

هذه المدرسة خارج باب زويلة من القاهرة ، فيما بين خدرة البقر وصليبــة جــامع ابن

(*) ص٣٩٨ جـ٢ ، طـ بولاق

طولونَ ، وهى الآن بجوار حمـام الفارقانى تجاه البندقدارية . بناها والحمام المجاور لها الأمير ركن الدين بيبرس الفارقانى . وهـو غير الفارقانى المنسوب اليه المدرسة الفارقانية بحارة الوزيرية من القاهرة .

المدرسة البشيرية

هذه المدرسة خارج القاهرة ، بحكر الخازن المطل على بركة الفيل ، كان موضعها مسجدا يعرف بمسجد سـنقر السعـدى الذى بنى المدرسة السعدية . فهـدمه الأمير الطواشى سعد الدين بشـير الجمدار الناصرى ، وبنى موضعه هذه المدرسة فى سنة احدى وستين وسبعمائة ، وجعل بها خزانة كتب ، وهى من المدارس اللطيفة .

المدرسة المهمندارية

هذه المدرسة خارج باب زويلة ، فيما بين جامع الصالح وقلعة الجبل ، يعرف خطها اليوم بخط جامع الماردانى خارج الدرب الأحمر . وهى تجاه مصلى الأموات ، على يمنـة من سلك من الدرب الأحمر طالبا جامع الماردانى ، ولها باب آخر فى حارة اليانسية .

بناها الأمير شهابَ الدين أحمد بن أقوشَ العزيزى ، المهمنـدار ونقيب الجيـوش ، فى سنة خمس وعشرين وسبعمائة ، وجعلها مدرسة وخانقاه ، وجعـل طلبـة درسها من الفقهاء الحنفية ، وبنى الى جانبها القيسـارية والربع الموجودين الآنَ .

مدرسة الجاى

هذه المدرسة خارج باب زويلة بالقرب من قلعة الجبل . كان موضعها وما حولها مقبرة ، ويعرف الآن خطـها بخط سويقـة العزى . أنشأها الأمير الكبير سيف الدين الجاى فى سنة ثمان وستين وسبعمائة ، وجعل بها درسا للفقهاء الشافعية ودرسا للفقهاء الحنفية وخزانة كتب ، وأقام بهـا منبرا يخطب عليـه يوم الجمعة . وهى من المدارس المعتبرة الجليلة ، ودرس بهـا شيخنـا جلال الدين البنـانى الحنفى ، وكانت سكنه .

« الجاى » بن عبد الله اليوسفى : الأمير سيف الدين . تنقل فى الخدم حتى صـار من جملة الأمراء بديار مصر . فلمـا أقام الأمير الأستدمر الناصرى بأمر الدولة ، بعد قتـل الأمير يلبغا الخاصكى العمرى ، فى شوال سنة ثمان وستين وسبعمائة ، قبض على الجاى فى عدة من الأمراء ، وقيدهم وبعث بهم الى الاسكندرية ، فسجنوا الى عاشر صفر سـنة تسع وستين .

فأفرج الملك الأشرف شعبـانَ بن حسين عنه ، وأعطاه امرة مائة وتقدمة ألف ، وجعله أمير سلاح برانى . ثم جعله أمير سلاح أتابك العساكر وناظر المارستان المنصورى ، عوضا عن الأمير منكلى بغا الشمسى ، فى سنة أربع وسبعين وسبعمائة . وتزوج بخـوند بركة أم السلطان الملك الأشرف ، فعظم قدره ، واشتهر ذكره ، وتحكم فى الدولة تحكما زائدا الى يوم الثلاثاء سادس المحرم سنة خمس وسبعين وسـبعمائة . فركب يريد محـاربة السلطانَ

بسبب طلبه ميراث أم السلطان بعد موتها ، فركب السلطان وأمراؤه .

وبات الفريقان ليلة الأربعاء على الاستعداد للقتال الى بكرة نهار الأربعاء ، فواقع الجاي مع أمراء السلطان احدى عشرة وقعة ، انكسر فى آخرها الجاى ، وفر الى جهة بركة الحبش ، وصعد من الجبل من عند الجبل الأحمر الى قبة النصر ، ووقف هناك . فاشتد على السلطان ، فبعث اليه خلعة بنيابة حماه ، فقال : لا أتوجه الا ومعى مماليكى كلهم ، وجميع أموالى ، فلم يوافقه السلطان على ذلك ، وبات الفريقان على الحرب ، فانسل أكثر مماليك الجاى فى الليل الى السلطان .

وعندما طلع النهار يوم الخميس ، بعث السلطان عساكره لمحاربة الجاى بقبة النصر ، فلم يقاتلهم ، وولى منهزما — والطلب وراءه — الى ناحية الخرقانية بشاطىء النيل قريبا من قليوب . فتحير وقد أدركه العسكر ، فألقى نفسه بفرسه فى البحر يريد النجاة الى البر الغربى ، فغرق بفرسه ، ثم خلص الفرس وهلك الجاى ، فوقع النداء بالقاهرة وظواهرها على احضار مماليكه ، فأمسك منهم جماعة .

وبعث السلطان الغطاسين الى البحر تتطلبه ، فتبعوه حتى أخرجوه الى البر فى يوم الجمعة تاسع المحرم سنة خمس وسبعين وسبعمائة . فحمل فى تابوت على لباد أحمر الى مدرسته هذه ، وغسل وكفن ودفن بها . وكان مهابا جبارا عسوفا عتيا ، تحدث فى الأوقاف ، فشدد على الفقهاء ، وأهان جماعة منهم . وكان معروفا بالاقدام والشجاعة .

مدرسة أم السلطان

هذه المدرسة خارج باب زويلة بالقرب من قلعة الجبل ، يعرف خطها الآن بالتبانة ، وموضعها كان قديما مقبرة لأهل * القاهرة . أنشأتها الست الجليلة الكبرى بركة ، أم السلطان الملك الأشرف شعبان بن حسين ، فى سنة احدى وسبعين وسبعمائة ، وعملت بها درسا للشافعية ودرسا للحنفية ، وعلى بابها حوض ماء للسبيل . وهى من المدارس الجليلة ، وفيها دفن ابنها الملك الأشرف بعد قتله .

« بركة » : الست الجليلة خوند ، أم الملك الأشرف شعبان بن حسين ، كانت أمة مولدة . فلما أقيم ابنها فى مملكة مصر ، عظم شأنها ، وحجت فى سنة سبعين وسبعمائة بتجمل كثير وبرج زائد ، وعلى محفتها العصائب السلطانية والكئوسات تدق معها . وسار فى خدمتها من الأمراء المقدمين : بشتاك العمرى رأس نوبة ، وبهادر الجمالى ، ومائة مملوك من المماليك السلطانية أرباب الوظائف . ومن جملة ما كان معها قطار جمال محملة محائر ، قد زرع فيها البقل والخضراوات الى غير ذلك مما يجل وصفه .

فلما عادت فى سنة احدى وسبعين وسبعمائة ، خرج السلطان بعساكره الى لقائها ، وسار الى البويب فى سادس عشر المحرم ، وتزوجت بالأمير الكبير الجاى اليوسفى ، وبها طال واستطال . ماتت فى ثامن عشر ذى القعدة سنة أربع وسبعين وسبعمائة .

(*) ص٣٦٩، جـ٢، ط. بولاق .

وكانت خيرة عفيفة ، لها بر كثير ومعروف معروف ، تحدث الناس بحجتها عدة سنين لما كان لها من الأفعال الجميلة فى تلك المشاهد الكريمة ، وكان لها اعتقاد فى أهل الخير ، ومحبة فى الصالحين ، وقبرها موجود بقبة هذه المدرسة . وأسف السلطان على فقدها ، ووجد وجدا كبيرا لكثرة حبه لها .

واتفق أنها لما ماتت أنشد الأديب شهاب الدين أحمد بن يحيى الأعرج السعدى :

في ثامن العشرين من ذى قعدة
كانت صبيحة موت أم الأشرف

فالله يرحمها ويعظم أجره
ويكون فى عاشور موت اليوسفى

فكان كما قال . وغرق الجاى اليوسفى ، كما تقدم ذكره ، فى يوم عاشوراء

المدرسة الأيتمشية

هذه المدرسة خارج القاهرة ، داخل باب الوزير ، تحت قلعة الجبل برأس التبانة . أنشأها الأمير الكبير سيف الدين أيتمش البجاسى ، ثم الظاهرى ، فى سنة خمس وثمانين وسبعمائة ، وجعل بها درس فقه للحنفية ، وبنى بجانبها فندقا كبيرا يعلوه ربع ، ومن ورائها خارج باب الوزير حوض ماء للسبيل وربعا ، وهى مدرسة ظريفة .

« أيتمش » بن عبد الله : الأمير الكبير سيف الدين البجاسى ، ثم الظاهرى ، كان أحد المماليك اليلبغاوية .

المدرسة المجدية الخليلية

هذه المدرسة بمصر يعرف موضعها بدرب البلاد . عمرها الشيخ الامام مجد الدين أبو محمد عبد العزيز ابن الشيخ الامام أمين الدين أبى على الحسين بن الحسن بن ابراهيم الخليلى الدارى ، فتمت فى شهر ذى الحجة سنة ثلاث وستين وستمائة ، وقرر فيها مدرسا شافعيا ومعيدين وعشرين نفرا طلبة ، واماما راتبا ومؤذنا ، وقيما لكنسها وفرشها ووقود مصابيحها وادارة ساقيتها ، وأجرى الماء الى فسقيتها .

ووقف عليها غيطا بناحية بارنبار من أعمال المزاحميتين ، وبستانا بمحلة الأمير من المزاحميتين بالغربية ، وغيطا بناحية نطوبس ، وربع غيط بظاهر ثغر رشيد ، وبستانا ونصف بستان بناحية بلقس ، ورباعا بمدينة مصر .

ومجد الدين هذا هو والد الصاحب الوزير فخر الدين عمر بن الخليلى . ودرس بهذه المدرسة الصاحب فخر الدين الى حين وفاته . وتوفى مجد الدين بدمشق فى ثالث عشر ربيع الآخر سنة ثمانين وستمائة ، وكان مشهورا بالصلاح .

المدرسة الناصرية بالقرافة

هذه المدرسة بجوار قبة الامام محمد بن ادريس الشافعى ، رضى الله عنه ، من قرافة مصر . أنشأها السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ، ورتب بها مدرسا يدرس الفقه على مذهب الشافعى ، وجعل له

فى كلّ شهر من المعلوم عن التدريس أربعين دينارا معاملة صرف : كل دينــار ثلاثة عشر درهما وثلث درهم ، وعن معلوم النظر فى أوقاف المدرسة عشرة دنانير ، ورتب له من الخبــز فى كل يوم ســتين رطلا بالمصرى وراويتين من ماء النيل ، وجعل فيها معيدين وعدة من الطلبة .

ووقف عليــها حمــاما بجــوارها ، وفرنا تجاهها ، وحوانيت بظاهرها ، والجزيرة التى يقال لها جــزيرة الفيــل ببحر النيــل خارج القاهرة .

وولى تدريسها جماعة من الأكابر والأعيان ثم خلت من مدرس ثلاثين سنة ، واكتفى فيها بالمعيدين وهم عشرة أنفس . فلما كانت سنة ثمان وسبعين وستمائة * ، ولى تدريسها قاضى القضاة تقى الدين محمد بن رزين الحموى بعد عزله من وظيفــة القضاء ، وقرر له نصــف المعلوم . فلما مات وليها الشيخ تقى الدين بن دقيق العيد بربع المعلوم . فلما ولى الصاحب برهان الدين الخضر الســنجارى التدريس ، قرر له المعلوم الشاهد به كتاب الوقف .

المدرسة المسلمية

هــذه المدرســة بمدينــة مصر فى خط السيوريين . أنشأها كبير التجار ناصر الدين محمد بن مسلم — بضم الميم وفتح الســين المهملة وتشديد اللام — البالسى الأصل ، ابن بنت كبير التجار شمس الدين محمد بن بسير — بفتح الباء أول الحروف وكسر الســين المهملة ، ثم ياء آخر الحروف بعدها راء — ومات فى سنة ست وسبعين وسبعمائة قبل أن تتم .

فوصى بتكملتها ، وأفرد لها مالا ، ووقف عليها دورا وأرضا بناحية قليوب ، وشرط أن يكون فيها مدرس مالــكى ومدرس شــافعى ومؤدب أطفــال وغير ذلك . فكملها مولاه ووصيه الكبير كافور الخصى الرومى بعــد وفاة أستاذه . وهى الآن عامرة .

وبلغ ابن مسلم هذا من وفور المال وعظم السعادة ، ما لم يبلغــه أحد ممن أدركناه ، بحيث انه جاء نصيب أحد أولاده نحو مائتى ألف دينار مصرية ، وكان كثير الصدقات على الفقراء ، مقترا على نفســه الى الغاية ، وله أيضا مطهرة عظيمة بالقرب من جامع عمرو بن العاص ونفعها كبير ، وله أيضا دار جليلة على ساحل النيل بمصر . وكان أبوه تاجرا سفارا بعدما كان حمالا ، فصاهر ابن بسير ، ورزق محمدا هذا من ابنته .

فنشأ على صيانة ، ورزق الحظ الوافر فى التجارة وفى العبيــد . فكان يبعث أحدهم بمال عظيم الى الهند ، ويبعث آخر بمثل ذلك الى بلاد التــكرور ، ويبعث آخــر الى بلاد الحبشة ، ويبعث عدة آخرين الى عدة جهات من الأرض ، فمــا منهم من يعــود الا وقد تضاعفت فوائد ماله أضعافا مضاعفة .

مدرسة اينال

هذه المدرسة خارج باب زويلة ، بالقرب من باب حارة الهلالية ، بخط القمــاحين . كان

(*) ص٤٠٠ جـ٢ ، ط. بولاق .

موضعها في القديم من حقوق حارة المنصورة ، أوصى بعمارتها الأمير الكبير سيف الدين اينال اليوسفي ، أحد المماليك اليلبغاوية ، فابتدأ بعملها في سنة أربع وتسعين ، وفرغت في سنة خمس وتسعين وسبعمائة .

ولم يعمل فيها سوى قراء يتناوبون قراءة القرآن على قبره فانه لما مات في يوم الأربعاء رابع عشر جمادى الآخرة سنة أربع وتسعين وسبعمائة ، دفن خارج باب النصر حتى انتهت عمارة هذه المدرسة ، فنقل اليها ودفن فيها .

و « اينال » هذا ولي نيابة حلب ، وصار في آخر عمره أتابك العساكر بديار مصر حتى مات وكانت جنازته كثيرة الجمع مشى فيها السلطان الملك الظاهر برقوق والعساكر .

مدرسة الأمير جمال الدين الاستادار

هذه المدرسة برحبة باب العيد من القاهرة . كان موضعها قيسارية يعلوها طاق كلها وقف فأخذها وهدمها ، وابتدأ بشق الأساس في يوم السبت خامس جمادى الأولى سنة عشر وثمانمائة ، وجمع لها الآلات من الأحجار والأخشاب والرخام وغير ذلك .

وكان بمدرسة الملك الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون ، التي كانت بالصوة تجاه الطبلخاناه من قلعة الجبل ، بقية من داخلها فيها شبابيك من نحاس مكفت بالذهب والفضة ، وأبواب مصفحة بالنحاس البديع الصنعة المكفت ، ومن المصاحف والكتب في الحديث والفقه وغيره من أنواع العلوم جملة .

فاشترى ذلك من الملك الصالح المنصور حاجي بن الأشرف بمبلغ ستمائة دينار — وكانت قيمتها عشرات أمثال ذلك — ونقلها الى داره . وكان مما فيها عشرة مصاحف ، طول كل مصحف منها أربعة أشبار الى خمسة ، في عرض يقرب من ذلك ، أحدها بخط ياقوت ، وآخر بخط ابن البواب ، وباقيها بخطوط منسوبة ، ولها جلود في غاية الحسن ، معمولة في أكياس الحرير الأطلس . ومن الكتب النفيسة عشرة أحمال ، جميعها مكتوب في أوله الاشهاد على الملك الأشرف بوقف ذلك ، ومقره في مدرسته .

فلما كان يوم الخميس ثالث شهر رجب سنة احدى عشرة وثمانمائة ، وقد انتهت عمارتها ، جمع بها الأمير جمال الدين القضاة والأعيان ، وأجلس الشيخ همام الدين محمد بن أحمد الخوارزمي الشافعي على سجادة المشيخة ، وعمله شيخ التصوف ومدرس الشافعية ، ومد سماطا جليلا أكل عليه كل من حضر ، وملأ البركة التي بوسط المدرسة ماء قد أذيب فيه سكر مزج بماء الليمون ، وكان يوما مشهودا .

وقرر في تدريس الحنفية بدر الدين * محمود بن محمد المعروف بالشيخ زاده الخرزياني ، وفي تدريس المالكية شمس الدين محمد بن البساطي ، وفي تدريس الحنابلة فتح الدين أبا الفتح محمد بن نجم الدين محمد بن الباهلي ، وفي تدريس الحديث النبوي شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر ، وفي تدريس التفسير شيخ الاسلام قاضي القضاة جلال

(*) ص ٤٠١ ، جـ ٢ ، ط . بولاق .

الدين عبد الرحمن بن البلقيني . فكان يجلس من ذكرنا واحدا بعد واحد فى كل يوم ... الى أن كان آخرهم شـيخ التفسير ، وكان مسك الختام ، وما منهم الا من يحضر معه ، ويلبسه ما يليق به من الملابس الفاخرة .

وقرر عند كل من المدرسين الستة طائفـة من الطلبة ، وأجرى لكل واحد ثلاثة أرطال من الخبز فى كل يوم ، وثلاثين درهما فلوسا فى كل شهر ، وجعل لكل مدرس ثلثمائة درهم فى كل شهر ، ورتب بها اماما وقومة ومؤذنين وفراشين ومباشرين ، وأكثر من وقف الدور عليها ، وجعل فائض وقفها مصروفا لذريته . فجاءت فى أحسن هندام ، وأتم قالب ، وأفخر زى ، وأبدع نظام . الا أنهـا وما فيها من الآلات ، وما وقف عليها ، أخذ من الناس غصبا ، وعمل فيها الصناع بأبخس أجرة مع العسف الشديد .

فلما قبض عليه السلطان ، وقتله فى جمادى الأولى سنة اثنتى عشرة وثمانمائة ، واستولى على أمواله ... حسن جماعة للسلطان أن يهدم هذه المدرسة ، ورغبوه فى رخامها فانه غاية فى الحسن ، وأن يسترجع أوقافها فان متحصلها كثير ، فمال الى ذلك ، وعزم عليه .

فكـرّه ذلك للسلطان الرئيس فتح الدين فتح الله كاتب السر ، واستشنع أن يهدم بيت بنى على اسم الله يعلن فيه بالأذان خمس مرات فى اليوم والليلة ، وتقام به الصلوات الخمس فى جماعة عديدة ، ويحضره فى عصر كل يوم مائة وبضعـة عشر رجلا يقرأون القرآن فى وقت التصـوف ، ويذكرون الله ويدعـونه ، وتتحلق به الفقهـاء لدرس تفسـير القرآن الكريم وتفسير حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وفقه الأئمة الأربعة ، ويعلّم فيه أيتام المسلمين كتاب الله عز وجل ، ويجرى على هؤلاء المذكورين الأرزاق فى كل يوم ومن المال فى كل شهر .

ورأى أن ازالة مثل هذا وصمة فى الدين ، فتجرد له ، وما زال بالسلطان يرغبه فى ابقائها — على أن يزال منها اسم جمال الدين وتنسب اليه ، فانه من الفتن هدم مثلها ونحو ذلك — حتى رجع الى قوله ، وفوض أمرها اليـه . فدبر ذلك أحسن تدبير .

وهو أن موضع هذه المدرسة كان وقفا على بعض الترب ، فاستبدل به جمال الدين أرضا من جملة أراضى الخراج بالجيزة ، وحكم له قاضى القضاة كمال الدين عمر بن العديم بصحة الاستبدال ، وهدم البناء ، وبنى موضعه هذه المدرسة ، وتسلم متـولى موضـعها الأرض المستبدل بها . الى أن قتـل جمال الدين ، وأحيط بأمواله ، فدخل فيما أحيط به هـذه الأرض المستبدل بها .

وادعى السلطان أن جمال الدين افتات عليه فى أخـذ هـذه الأرض ، وأنه لم يأذن فى بيعها من بيت المال . فأفتى حينئذ محمد شمس الدين المدنى المالكى بأن بناء هذه المدرسـة — الذى وقفه جمال الدين على الأرض التى لم يملكها بوجه صحيح — لا يصح ، وأنه باق على ملكه الى حين موته .

فندب عند ذلك شهود القيمة الى تقويم بناء المدرسة ، فقوموها باثنى عشر ألف دينـار ذهبـا ، وأثبتوا محضر القيمـة على بعض القضاة . فحمل المبلغ الى أولاده جمال الدين

حتى تسلموه ، وباعوا بناء المدرسة للسلطان ، ثم استرد السلطان منهم المبلغ المذكور ، وأشهد عليه أنه وقفه أرض هذه المدرسة بعدما استبدل بها ، وحكم حاكم حنفى بصحة الاستبدال .

ثم وقف البناء الذى اشتراه ، وحكم بصحته أيضا ، ثم استدعى بكتاب وقف جمال الدين ولخصه ثم مزقه ، وجدد كتاب وقف يتضمن بجميع ما قرره جمال الدين فى كتاب وقفه من أرباب الوظائف ، ومالهم من الخبز فى كل يوم ، ومن المعلوم فى كل شهر ، وأبطل ما كان لأولاد جمال الدين من فائض الوقف .

وأفرد لهذه المدرسة مما كان جمال الدين جعله وقفا عليها عدة مواضع تقوم بكفاية مصارفها ، وزاد فى أوقافها أرضا بالجيزة ، وجعل ما بقى من أوقاف جمال الدين على هذه المدرسة : بعضه وقفا على أولاده ، وبعضه وقفا على التربة التى أنشأها فى قبة أبيه الملك الظاهر برقوق خارج باب النصر . وحكم القضاة الأربعة بصحة هذا الكتاب ، بعدما حكموا بصحة كتاب وقف جمال الدين ، ثم حكموا ببطلانه .

ثم لما تم ذلك محى من هذه المدرسة اسم جمال الدين ورنكه ، وكتب اسم السلطان الملك الناصر فرج بدائر صحنها من أعلاه ، وعلى قناديلها وبسطها وسقوفها . ثم نظر السلطان فى كتبها العلمية الموقوفة بها ، فأقر منها جملة كتب بظاهر كل سفر منها فصل يتضمن وقف السلطان له ، وحمل كثير من كتبها الى قلعة الجبل ، وصارت هذه المدرسة تعرف بالناصرية بعدما كان يقال لها الجمالية .

ولم تزل على ذلك حتى قتل الناصر ، وقدم الأمير شيخ الى القاهرة ، واستولى على أمور الدولة . فتوصل شمس الدين محمد ، أخو جمال الدين ، وزوج ابنته لشرف الدين أبى بكر بن العجمى ، موقع الأستادار الأمير شيخ ، حتى أحضر قضاة القضاة ، وحكم الصدر على ابن الآدمى قاضى القضاة الحنفى برد * أوقاف جمال الدين الى ورثته ، من غير استيفاء الشروط فى الحكم ، بل تهور فيه وجازف .

ولذلك أسباب : منها عناية الأمير شيخ بجمال الدين الأستادار . فانه لما انتقل اليه اقطاع الأمير بحاس بعد موت الملك الظاهر برقوق ، استقر جمال الدين أستاداره كما كان أستادار بحاس ، فخدمه خدمة بالغة ، وخرج الأمير شيخ الى بلاد الشام ، واستقر فى نيابة طرابلس ، ثم فى نيابة الشام ، وخدمة جمال الدين له ولحاشيته ومن يلوذ به مستمرة .

وأرسل مرة الأمير شيخ من دمشق بصدر الدين بن الآدمى المذكور فى الرسالة الى الملك الناصر ، وجمال الدين حينئذ عزيز مصر ، فأنزله وأكرمه وأنعم عليه ، وولاه قضاء الحنفية وكتابة السر بدمشق ، وأعاده اليه . وما زال معتنيا بأمور الأمير شيخ ، حتى انه اتهم بأنه قد مالأه على السلطان ، فقبض عليه السلطان الملك الناصر بسبب ذلك ونكبه .

فلما قتل الناصر ، واستولى الأمير شيخ على الأمور بديار مصر ، ولى قضاء الحنفية

(*) ص۲-٤٠ جـ۲ ، ط. بولاق .

بديار مصر لصدر الدين علي بن الآدمي المذكور ، وولي أستاداره بدر الدين حسن بن محب الدين الطرابلسي أستادار السلطان . فخدم شرف الدين أبو بكر بن العجمي — زوج ابنة أخي جمال الدين — عنده موقعا وتمكن منه ، فأغراه بفتح الدين فتح الله كاتب السر ، حتى أثخن جراحة عند الملك المؤيد شيخ ، ونكبه بعدما تسلطن . استعان أيضا بقاضي القضاة صدر الدين بن الآدمي ، فانه كان عشيره وصديقه من أيام جمال الدين ، ثم استمال ناصر الدين محمد بن البارزي ، موقع الأمير الكبير شيخ .

فقام الثلاثة مع شمس الدين ، أخي جمال الدين ، حتى أعيد الى مشيخة خانكاه بيبرس وغيرها من الوظائف التي أخذت منه عندما قبض عليه الملك الناصر وعاقبه . وتحدثوا مع الأمير الكبير في رد أوقاف جمال الدين الى أخيه وأولاده ، فان الناصر غصبها منهم ، وأخذ أموالهم وديارهم بظلمه الى أن فقدوا القوت ، ونحو هذا من القول — حتى حركوا منه حقدا كامنا على الناصر ، وعلموا منه عصبته لجمال الدين . هذا وغرض القوم في الباطن تأخير فتح الدين والايقاع به ، فانه ثقل عليهم وجوده معهم .

فأمر عند ذلك الأمير الكبير بعقد مجلس حضره قضاة القضاة والأمراء وأهل الدولة ، عنده بالحراقة من باب السلسلة ، في يوم السبت تاسع عشري شهر رجب سنة خمس عشرة ، وتقدم أخو جمال الدين ليدعي على فتح الدين فتح الله كاتب السر ، وكان قد علم بذلك ، ووكل بدر الدين حسنا البرديني — أحد نواب الشافعية — في سماع الدعوى ورد الأجوبة .

فعندما جلس البرديني للمحاكمة مع أخي جمال الدين ، نهره الأمير الكبير وأقامه ، وأمر بأن يكون فتح الله هو الذي يدعى عليه ، فلم يجد بدا من جلوسه . فما هو الا أن ادعى عليه أخو جمال الدين بأنه وضع يده على مدرسة أخيه جمال الدين وأوقافه بغير طريق . فبادر قاضي القضاة صدر الدين علي بن الآدمي الحنفي ، وحكم برفع يده وعود أوقاف جمال الدين ومدرسته الى ما نص عليه جمال الدين ، ونفذ بقية القضاة حكمه ، وانفضوا على ذلك .

فاستولى أخو جمال الدين وصهره شرف الدين على حاصل كبير ، كان قد اجتمع بالمدرسة من فاضل ريعها ومن مال بعثه الملك الناصر اليها ، ففرقوه . حتى كتبوا كتابا اخترعوه من عند أنفسهم ، جعلوه كتاب وقف المدرسة ، زادوا فيه أن جمال الدين اشترط النظر على المدرسة لأخيه شمس الدين المذكور وذريته — الى غير ذلك مما لفقوه بشهادة قوم استمالوهم فمالوا . ثم أثبتوا هذا الكتاب على قاضي القضاة صدر الدين بن الآدمي ، ونفذه بقية القضاة .

فاستمر الأمر على هذا البهتان المختلق والافك المفترى مدة ، ثم ثار بعض صوفية هذه المدرسة ، واثبت محضرا بأن النظر لكاتب السر فلما ثبت ذلك ، نزعت يد أخي جمال الدين عن التصرف في المدرسة ، ونزل عن نظرها ناصر الدين محمد بن البارزي كاتب السر ، واستمر الأمر على هذا .

فكانت قصة هذه المدرسة من أعجب ماسمع به فى تناقض القضاة ، وحكمهم بابطال ما صححوه ، ثم حكمهم بتصحيح ما أبطلوه ... كل ذلك ميلا مع الجاه ، وحرصا على بقاء رياستهم . ستكتب شهادتهم ويسألون .

المدرسة الصرغتمشية

هذه المدرسة خارج القاهرة ، بجوار جامع الأمير أبى العباس أحمد بن طولون ، فيما بينه وبين قلعة الجبل . كان موضعها قديما من جملة قطائع ابن طولون ، ثم صار عدة مساكن أخذها الأمير سيف الدين صرغتمش الناصرى رأس نوبة النوب وهدمها ، وابتدأ فى بناء المدرسة يوم الخميس من شهر رمضان سنة ست وخمسين وسبعمائة ، وانتهت فى جمادى الأولى سنة سبع وخمسين .

وقد جاءت من أبدع المبانى وأجلها ، وأحسنها قالبا ، وأبهجها منظرا . فركب الأمير صرغتمش فى يوم الثلاثاء تاسعه ، وحضر اليه الأمير سيف الدين شيخو العمرى مدبر * الدولة ، والأمير طاشتمر القاسمى حاجب الحجاب ، والأمير توقتاى الدوادار ، وعامة أمراء الدولة ، وقضاة القضاة الأربعة ، ومشايخ العلم .

ورتب مدرس الفقه بها قوام الدين أمير كاتب بن أمير عمر العميد بن العميد أمير غازى الأتقانى ، فألقى القوام الدرس ، ثم مد سماط جليل بالهمة الملوكية ، وملئت البركة التى بها سكرا قد أذيب بالماء ، فأكل الناس وشربوا ، وأبيح ما بقى من ذلك للعامة فانتهبوه . وجعل الأمير صرغتمش هذه المدرسة وقفا على الفقهاء الحنفية الآفاقية ، ورتب بها درسا للحديث النبوى ، وأجرى لهم جميعا المعاليم من وقف رتبه لهم . وقال أدباء العصر فيها شعرا كثيرا ، فقال العلامة شمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن الصائغ الحنفى :

ليهنك ياصرغتمش ما بنيته
لأخراك فى دنياك من حسن بنيان
به يزدهى الترخيم كالزهر بهجة
فلله من زهر ولله من بانى

وخلع فى هذا اليوم على القوام خلعة سنية ، وأركبه بغلة رائعة ، وأجازه بعشرة آلاف درهم على أبيات مدحه بها فى غاية السماجة وهى :

أرأيتم من حاز الرتبا
وأتى قربا ونفى ريبا
فبدا علما وسما كرما
ونما قدما ولقد غلبا
بتقى وهدى وندى وجدى
فعدا وسدى وجبى وحبا
أبدى سننا أحيا سننا
حلى زمنا عند الأدبا
هذا صرغتمش قد سكبت
أيام امارته السحبا
وأزال الجدب الى خصب
والضنك الى رغد قلبا
باعانة جبار ربى
ذى العرش وقد بذل النشبا
ملك فطن ركن لسن
حسن بسن ربى الأدبا

(*) ص٤٠٢ جـ٢ ، ط. بولاق .

ملك الكبرا ملك الأمرا
ملك العلما ملك الأدبا
بحر طام غيث هام
قدر سام حامى الغربا
بشاشته وسماحته
وحماسته جلى الكربا
ودياناته وصياناته
وأماناته حاز الرتبا
أبهى أصلا أسنى نسلا
أعطى فضلا مأوى الغربا
نعم المأوى مصر لما
شملت قوما نبلا نجبا
فنمت نورا وسمت نورا
وعلت دورا ربأت طربا
نسقت دررا وسقت دررا
ودعت غررا بحبوب أدبا
وخطابته افتخرت وعلت
وسمت وورت وحبت أدبا
جدد درسا ثم اجن جنى
منها ومنى ... طلبا
من نازعنى نسبى علما
فأراب الله نعمته سببا
يكنون أبا لحنيفة ث
م قوام الدين بدا لقبا
عش فى رحب لترى عجبا
من منتجب عجب عجبا

« صرغتمش » الناصرى : الأمير سيف الدين رأس نوبة . جلبه الخواجا الصواف فى سنة سبع وثلاثين وسبعمائة ، فاشتراه السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون بمائتى ألف درهم فضة .. عنها يومئذ نحو أربعة آلاف مثقال ذهبا ، وخلع على الخواجا تشريفا كاملا بحياصة ذهب ، وكتب له توقيعا بمسامحة مائة ألف درهم من متجره ، فلم يعبأ به السلطان وصار فى أيامه من جملة الجمدارية .

وحكى عن القاضى شرف الدين عبد الوهاب ناظر الخاص ، أن السلطان أنعم على صرغتمش هذا بعشر طاقات أدبم طائفى ، فلما جاء الى المشو ، تردد اليه مرارا حتى دفعها اليه ولم يزل خامل الذكر ، الى أن كانت أيام المظفر حاجى بن محمد بن قلاوون ، فبعثه مسفرا مع الأمير فخر الدين اياز السلاح دار ، لما استقر فى نيابة حلب ، فلما عاد من حلب ترقى فى الخدمة ، وتمكن عند المظفر ، وتوجه فى خدمة الصالح بن محمد بن قلاوون الى دمشق فى نوبة يلبغا روس ، وصار السلطان يرجع الى رأيه .

فلما عاد من دمشق ، أمسك * الوزير علم الدين عبد الله بن زنبور بغير أمر السلطان وأخذ أمواله ، وعارض فى أمره الأمير شيخو والأمير طاز ، من حينئذ عظم ، ولم يزل حتى خلع السلطان الملك الصالح ، وأعيد الناصر حسن بن محمد بن قلاوون . فلما أخرج الأمير شيخو ، انفرد صرغتمش بتدبير أمور المملكة ، وفخم قدره ، ونفذت كلمته ، فعزل قضاة مصر والشام ، وغير النواب بالمماليك .

والسلطان يحقد عليه ، الى أن أمسكه فى العشرين من شهر رمضان سنة تسع وخمسين ،

(*) ص٤٠٤ جـ٢ ، ط. بولاق .

وقبض معه على الأمير طشتمر القاسمى حاجب الحجاب ، والأمير ملكتمر المحمدى وجماعة ، وحملهم الى الاسكندرية ، فسجنوا بها ، وبها مات صرغتمش بعد شهرين واثنى عشر يوما من سجنه فى ذى الحجة سنة تسع وخمسين وسبعمائة .

وكان مليح الصورة ، جميل الهيئة . يقرأ القرآن الكريم ، ويشارك فى الفقه على مذهب الحنفية ، ويبالغ فى التعصب لمذهبه ، ويقرب العجم ويكرمهم ، ويجلهم اجلالا زائدا ، ويشدو طرفا من النحو . وكانت أخلاقه شرسة ، ونفسه قوية ، فاذا بحث فى الفقه أو اللغة اشتط .

ولما تحدث فى الأوقاف وفى البريد ، خاف الناس منه ، فلم يكن أحد يركب خيل البريد الا بمرسومه . ومنع كل من يركب البريد أن يحمل معه قماشا ودراهم على خيل البريد ، واشتد فى أمر الأوقاف ، فعمرت فى مباشرته . ولما قبض عليه أخذ السلطان أمواله ، وكانت شيئا كثيرا يكل عنه الوصف .

ذكر المارستانات

قال الجوهرى فى الصحاح : والمارستان بيت المرضى ، معرب عن ابن السكيت .

وذكر الأستاذ ابراهيم بن وصيف شاه فى كتاب « أخبار مصر » : أن الملك مناقيوش ابن أشمون ، أحد ملوك القبط الأول بأرض مصر ، أول من عمل البيمارستانات لعلاج المرضى ، وأودعها العقاقير ، ورتب فيها الأطباء ، وأجرى عليهم ما يسعهم . ومناقيوش هذا هو الذى بنى مدينة أخميم ، وبنى مدينة سنتريه .

وقال زاهد العلماء أبو سعيد منصور بن عيسى : أول من اخترع المارستان وأوجده بقراط بن أيوقليدس ، وذلك أنه عمل بالقرب من داره — فى موضع من بستان كان له — موضعا مفردا للمرضى ، وجعل فيه خدما يقومون بمداواتهم ، وسماه « أصدولين » أى مجمع المرضى .

وأول من بنى المارستان فى الاسلام ودار المرضى الوليد بن عبد الملك ، وهو أيضا أول من عمل دار الضيافة ، وذلك فى سنة ثمان وثمانين . وجعل فى المارستان الأطباء ، وأجرى لهم الأرزاق ، وأمر بحبس المجذمين لئلا يخرجوا ، وأجرى عليهم وعلى العميان الأرزاق .

وقال جامع السيرة الطولونية — وقد ذكر بناء جامع ابن طولون — وعمل فى مؤخره ميضأة وخزانة شراب فيها جميع الشرابات والأدوية ، وعليها خدم ، وفيها طبيب جالس يوم الجمعة لحادث يحدث للحاضرين للصلاة .

مارستان ابن طولون

هذا المارستان موضعه الآن فى أرض العسكر — وهى الكيمان والصحراء التى فيما بين جامع ابن طولون وكوم الجارح ، وفيما بين قنطرة السد التى على الخليج ظاهر مدينة مصر ، وبين السور الذى يفصل بين القرافة وبين مصر — وقد دثر هذا المارستان فى جملة ما دثر ، ولم يبق له أثر .

وقال أبو عمر الكندى فى « كتاب الأمراء » : وأمر أحمد بن طولون أيضا ببناء المارستان للمرضى ، فبنى لهم فى سنة تسع وخمسين ومائتين .

وقال جامع السيرة الطولونية : وفى سنة احدى وستين ومائتين ، بنى أحمد بن طولون المارستان ، ولم يكن قبل ذلك بمصر مارستان . ولما فرغ منه حبس عليه دار الديوان ، ودوره فى الأساكفة ، والقيسارية ، وسوق الرقيق . وشرط فى المارستان ألا يعالج فيه جندى ولا مملوك ، وعمل حمامين للمارستان : احداهما للرجال ، والأخرى للنساء ، حبسهما على المارستان وغيره .

وشرط أنه اذا جيء بالعليل تنزع ثيابه ونفقته ، وتحفظ عند أمين المارستان ، ثم يلبس ثيابا ويفرش له ، ويغدى عليه ويراح بالأدوية والأغذية والأطباء حتى يبرأ ، فاذا أكل فروجا ورغيفا ، أمر بالانصراف ، وأعطى ماله وثيابه .

وفى سنة اثنتين وستين ومائتين ، كان ما حبسه على المارستان والعين والمسجد فى الجبل — الذى يسمى بتنور فرعون — وكان الذى أنفق على المارستان ومستغله : ستين ألف دينار . وكان يركب بنفسه فى كل يوم جمعة ، ويتفقد خزائن المارستان وما فيها والأطباء ، وينظر الى المرضى وسائر الأعلاء والمحبوسين من المجانين .

فدخل مرة حتى وقف بالمجانين . فناداه واحد منهم مغلول : أيها الأمير ، اسمع كلامى ، ما أنا بمجنون ، وانما عملت على حيلة ، وفى نفسى شهوة رمانة عريشية أكبر ما يكون ، فأمر له بها من ساعته ، ففرح بها وهزها فى يده ورازها ، ثم غافل * أحمد بن طولون ، ورمى بها فى صدره ، فنضحت على ثيابه ، ولو تمكنت منه لأتت على صدره . فأمرهم أن يحتفظوا به ، ثم لم يعاود بعد ذلك النظر فى المارستان .

مارستان كافور

هذا المارستان بناه كافور الاخشيدى ، وهو قائم بتدبير دولة الأمير أبى القاسم أنوجور ابن محمد الاخشيدى ، بمدينة مصر فى سنة ست وأربعين وثلثمائة .

مارستان المغافر

هذا المارستان كان فى خطة المغافر التى موضعها ما بين العامر من مدينة مصر وبين مصلى خولان التى بالقرافة . بناه الفتح بن خاقان فى أيام أمير المؤمنين المتوكل على الله ، وقد باد أثره .

المارستان الكبير المنصورى

هذا المارستان بخط بين القصرين من القاهرة . كان قاعة ست الملك ابنة العزيز بالله نزار بن المعز لدين الله أبى تميم معد ، ثم عرف بدار الأمير فخر الدين جهاركس ، بعد زوال الدولة الفاطمية ، وبدار موسك ، ثم عرف بالملك المفضل قطب الدين أحمد ابن الملك

(*) ص ٤٠٥ ، جـ ٢ ، ط . بولاق .

العادل أبى بكر بن أيوب ، وصار يقال لها الدار القطبية .

ولم تزل بيد ذريته الى أن أخذها الملك المنصور قلاوون الألفى الصالحى ، من مؤنسة خاتون ، ابنة الملك العادل — المعروفة بالقطبية — وعوضت عن ذلك قصر الزمرذ برحبة باب العيد ، فى ثامن عشرى ربيع الأول سنة اثنتين وثمانين وستمائة ، بسفارة الأمير علم الدين سنجر الشجاعى مدبر الممالك ، ورسم بعمارتها مارستانا وقبة ومدرسة .

فتولى الشجاعى أمر العمارة ، وأظهر من الاهتمام والاحتفال ما لم يسمح بمثله ، حتى تم الغرض فى أسرع مدة وهى أحد عشر شهرا وأيام . وكان ذرع هذه الدار عشرة آلاف وستمائة ذراع ، وخلفت ست الملك بها ثمانية آلاف جارية ، وذخائر جليلة منها قطعة ياقوت أحمر زنتها عشرة مثاقيل ، وكان الشروع فى بنائها مارستانا أول ربيع الآخر سنة ثلاث وثمانين وستمائة .

وكان سبب بنائه أن الملك المنصور لما توجه وهو أمير الى غزاة الروم ، فى أيام الظاهر بيبرس سنة خمس وسبعين وستمائة ، أصابه بدمشق قولنج عظيم ، فعالجه الأطباء بأدوية أخذت له من مارستان نور الدين الشهيد فبرأ ، وركب حتى شاهد المارستان فأعجب به ، ونذر ان آتاه الله الملك أن يبنى مارستانا .

فلما تسلطن ، أخذ فى عمل ذلك ، فوقع الاختيار على الدار القطبية ، وعوض أهلها عنها قصر الزمرذ . وولى الأمير علم الدين سنجر الشجاعى أمر عمارته ، فأبقى القاعة على حالها ، وعملها مارستانا ، وهى ذات ايوانات أربعة ، بكل ايوان شاذروان ، وبدور قاعتها فسقية يصير اليها من الشاذروانات الماء .

واتفق أن بعض الفعلة كان يحفر فى أساس المدرسة المنصورية ، فوجد حق أشنان من نحاس ، ووجد رفيقه قمقما نحاسا مختوما برصاص ، فأحضرا ذلك الى الشجاعى ، فاذا فى الحق فصوص ماس وياقوت وبلخش ولؤلؤ ناصع يدهش الأبصار ، ووجد فى القمقم ذهبا — كان جملة ذلك نظير ما غرم على العمارة — فحمله الى أسعد الدين كوهيا الناصرى العدل ، فرفعه الى السلطان .

ولما نجزت العمارة ، وقف عليها الملك المنصور من الأملاك — بديار مصر وغيرها — ما يقارب ألف ألف درهم فى كل سنة . ورتب مصارف المارستان ، والقبة ، والمدرسة ، ومكتب الأيتام ، ثم استدعى قدحا من شراب المارستان ، وشربه وقال : قد وقفت هذا على مثلى فمن دونى ، وجعلته وقفا على الملك والمملوك والجندى والأمير والكبير والصغير والحر والعبد الذكور والاناث . ورتب فيه العقاقير والأطباء وسائر ما يحتاج اليه من به مرض من الأمراض .

وجعل السلطان فيه فراشين من الرجال والنساء لخدمة المرضى ، وقرر لهم المعاليم ، ونصب الأسرة للمرضى ، وفرشها بجميع الفرش المحتاج اليها فى المرض ، وأفرد لكل طائفة من المرضى موضعا : فجعل أواوين المارستان الأربعة للمرضى بالحميات ونحوها ،

وأفرد قاعة للرمدى ، وقاعة للجرحى ، وقاعة لمن به اسهال ، وقاعة للنساء ، ومكانا للمبرودين ينقسم بقسمين : قسم للرجال ، وقسم للنساء .

وجعل الماء يجرى فى جميع هذه الأماكن ، وأفرد مكانا لطبخ الطعام والأدوية والأشربة ومكانا لتركيب المعاجين والأكحال والشيافات ونحوها ، ومواضع يخزن فيها الحواصل ، وجعل مكانا يفرق فيه الأشربة والأدوية ، ومكانا يجلس فيه رئيس الأطباء لالقاء درس طب ، ولم يحص * عدة المرضى ، بل جعله سبيلا لكل من يرد عليه من غنى وفقير ، ولا حدد مدة لاقامة المريض به ، بل يرتب منه لمن هو مريض بداره سائر ما يحتاج اليه .

ووكل الأمير عز الدين أيبك الأفرم الصالحى ، أمير جندار ، فى وقف ما عينه من المواضع وترتيب أرباب الوظائف وغيرهم . وجعل النظر لنفسه أيام حياته ، ثم من بعده لأولاده ، ثم من بعدهم لحاكم المسلمين الشافعى . فضمن وقفه كتابا تاريخه يوم الثلاثاء ثالث عشرى صفر سنة ثمانين وستمائة .

ولما قرىء عليه كتاب الوقف ، قال للشجاعى : ما رأيت خط الأسعد كاتبى مع خطوط القضاة ، أبصر ايش فيه زغل حتى ما كتب عليه . فما زال يقرب لذهنه أن هذا مما لا يكتب عليه الا قضاة الاسلام حتى فهم ذلك .

(*) ص٤٠٦ جـ٢ ، ط. بولاق

فبلغ مصروف الشراب منه فى كل يوم خمسمائة رطل سوى السكر . ورتب فيه عدة ما بين أمين ومباشر ، وجعل مباشرين للادارة — وهم الذين يضبطون ما يشترى من الأصناف ، وما يحضر منها الى المارستان — ومباشرين لاستخراج مال الوقف ، ومباشرين فى المطبخ ، ومباشرين فى عمارة الأوقاف التى تتعلق به .

وقرر فى القبة خمسين مقرئا يتناوبون قراءة القرآن ليلا ونهارا ، ورتب بها اماما راتبا ، وجعل بها رئيسا للمؤذنين عندما يؤذنون فوق منارة ليس فى اقليم مصر أجل منها ، ورتب بهذه القبة درسا لتفسير القرآن فيه مدرس ومعيدان وثلاثون طالبا ، ودرس حديث نبوى ، وجعل بها خزانة كتب وستة خدام طواشية لا يزالون بها . ورتب بالمدرسة اماما راتبا ، ومتصدرا لاقراء القرآن ، ودروسا أربعة للفقه على المذاهب الأربعة . ورتب بمكتب السبيل معلمين يقرئان الأيتام ، ورتب للأيتام رطلين من الخبز فى كل يوم لكل يتيم مع كسوة الشتاء والصيف .

فلما ولى الأمير جمال الدين أقوش نائب الكرك نظر المارستان ، أنشأ به قاعة للمرضى ، ونحت الحجارة المبنى بها الجدر كلها حتى صارت كأنها جديدة ، وجدد تذهيب الطراز بظاهر المدرسة القبة ، وعمل خيمة تظل الأقفاص طولها مائة ذراع .. قام بذلك من ماله دون مال الوقف . ونقل أيضا حوض ماء كان برسم شرب البهائم من جانب باب المارستان ، وأبطله لتأذى الناس بنتن رائحة

ما يجتمع قدامه من الأوساخ ، وأنشأ سبيل ماء يشرب منه الناس عوض الحوض المذكور .

وقد تورع طائفة من أهل الديانة عن الصلاة في المدرسة المنصورية والقبة ، وعابوا المارستان لكثرة عسف الناس في عمله . وذلك أنه لما وقع اختيار السلطان على عمل الدار القطبية مارستانا ، ندب الطواشي حسام الدين بلالا المغيثي للكلام في شرائها . فساس الأمر في ذلك حتى أنعمت مؤنسة خاتون ببيعها ، على أن تعوض عنها بدار تلمها وعيالها ، فعوضت قصر الزمرذ برحبة باب العيد مع مبلغ مال حمل اليها ، ووقع البيع على هذا .

فندب السلطان الأمير سنجر الشجاعي للعمارة . فأخرج النساء من القطبية من غير مهلة ، وأخذ ثلثمائة أسير ، وجمع صناع القاهرة ومصر ، وتقدم اليهم بأن يعملوا بأجمعهم في الدار القطبية ، ومنعهم أن يعملوا لأحد في المدينتين شغلا ، وشدد عليهم في ذلك — وكان مهابا — فلازموا العمل عنده ، ونقل من قلعة الروضة ما احتاج اليه من العمد الصوان والعمد الرخام والقواعد والأعتاب والرخام البديع وغير ذلك .

وصار يركب اليها كل يوم ، وينقل الأنقاض المذكورة على العجل الى المارستان ، ويعود الى المارستان ، فيقف مع الصناع على الأساقيل حتى لا يتوانوا في عملهم . وأوقف مماليكه بين القصرين ، فكان اذا مر أحد — ولو جل — ألزموه أن يرفع حجرا ويلقيه في موضع العمارة ، فينزل الجندي والرئيس عن فرسه حتى يفعل ذلك .

فترك أكثر الناس المرور من هناك ، ورتبوا — بعد الفراغ من العمارة وترتيب الوقف — فتيا صورتها « ما يقول أئمة الدين في موضع أخرج أهله منه كرها ، وعمر بمستحثين يعسفون الصناع ، وأخرب ما عمره الغير ، ونقل اليه ما كان فيه فعمر به ... هل تجوز الصلاة فيه أم لا ؟ » . فكتب جماعة من الفقهاء « لا تجوز فيه الصلاة » .

فما زال المجد عيسى بن الخشاب حتى أوقف الشجاعي على ذلك . فشق عليه ، وجمع القضاة ومشايخ العلم بالمدرسة المنصورية ، وأعلمهم بالفتيا . فلم يجبه أحد منهم بشيء ... سوى الشيخ محمد المرجاني ، فانه قال : أنا أفتيت بمنع الصلاة فيها ، وأقول الآن انه يكره الدخول من بابها . ونهض قائما ، فانفض الناس .

واتفق أيضا أن الشجاعي ما زال بالشيخ محمد المرجاني يلح في سؤاله أن يعمل ميعاد وعظ بالمدرسة المنصورية ، حتى أجاب بعد تمنع شديد . فحضر الشجاعي والقضاة ، وأخذ المرجاني في ذكر ولاة الأمور من الملوك والأمراء والقضاة ، وذم من يأخذ الأراضي غصبا ويستحث العمال في عمائره ، وينقص من أجورهم ، وختم بقوله تعالى : « ويوم يعض الظالم على يديه يقول ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا . ياويلتى ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا » . وقام .

فسأله الشجاعي الدعاء له ، فقال : ياعلم الدين * قد دعا لك ودعا عليك من هو خير مني ، وذكر قول النبي صلى الله عليه وسلم

(*) ص٤٠٧ جـ٢ ، ط. بولاق .

« اللهم من ولى من أمر أمتى شيئا فرفق بهم فارفق به ، ومن شق عليهم فاشـــقق عليه » . وانصرف .

فصار الشجاعى من ذلك فى قلق ، وطلب الشيخ تقى الدين محمـــد بن دقيق العيـــد — وكان له فيه اعتقاد حسن — وفاوضـــه فى حديث الناس فى منع الصلاة فى المدرسة ، وذكر له أن السلطان انما أراد محـــاكاة نور الدين الشهيد والاقتداء به ، لرغبته فى عمـــل الخير ، فوقع الناس فى القدح فيـــه ، ولم يقدحوا فى نور الدين .

فقال له : ان نور الدين أسر بعض ملوك الفرنج وقصـــد قتله ، ففدى نفســـه بتسليم خمسة قلاع ، وخمســـمائة ألف دينـــار حتى أطلقه ، فمات فى طريقه قبل وصوله مملكته ، وعمر نور الدين بذلك المال مارستانه بدمشق من غير مستحث . فمن أين ياعلم الدين تجد مالا مثل هذا المال ، وسلطانا مثل نور الدين ؟ غير أن السلطان له نيته ، وأرجو له الخيـــر بعمارة هذا الموضع . وأنت ان كان وقوفك فى عمله بنية نفع الناس فلك الأجر ، وان كان لأجل أن يعلم أستاذك علو همتك فما حصلت على شىء .

فقال الشجاعى : الله المطلع على النيات .

وقرر ابن دقيق العيد فى تدريس القبة .

قال مؤلفه : ان كان التحرج من الصلاة لأجل أخذ الدار القطبيـــة من أهلهـــا بغير رضاهم ، واخراجهم منها بعسف ، واستعمال أنقاض القلعة بالروضة . فلعمرى ما تملك بنى أيوب الدار القطبية ، وبناؤهم قلعة الروضة ، واخراجهم أهل القصـــور من قصورهم التى كانت بالقاهرة ، واخراج سكان الروضة من مساكنهم ... الا كأخذ قلاوون الدار المذكورة وبنائها بما هدمه من القلعة المذكورة ، واخراج مؤنسة وعيالها من الدار القطبيـــة . وأنت ان أمعنت النظر ، وعرفت ما جرى ، تبين لك أن ما القوم الا سارق من ســـارق ، وغاصب من غاصب .

وان كان التحرج من الصلاة لأجل عســـف العمال ، وتسخير الرجال ... فشىء آخر . بالله عرفنى — فانى غير عارف — من منهـــم لم يسلك فى أعماله هذا السبيل ؟ غير أن بعضهم أظلم من بعض .

وقد مدح غير واحد من الشـــعراء هـــذه العمارة ، منهم شرف الدين البوصيرى فقال :

ومدرسة ود الخـــورنق أنه
لديها حقير والسدير غدير

مدينـــة علم والمدارس حولها
قرى أو نجوم بدرهن منير

تبدت فأخفى الظاهرية نورها
وليس يظهر للنجوم ظهـــور

بناء كأن النحـــل هندس شـــكله
ولانت له كالشمع فيه صـــخور

بناها سعيد فى بقاع سعيدة
بها سعدت قبـــل المدارس نور

ومن حيثما وجهت وجهك نحوها
تلقتك منـــها نضرة وسرور

اذا قام يدعـــو الله فيـــها مؤذن
فما هو الا للنجـــوم سمير

المارستان المؤيدى

هذا المارستان فوق الصوة ، تجاه طبلخاناه قلعة الجبل — حيث كانت مدرسة الأشرف شعبان بن حسين التى هدمها الناصر فرج بن برقوق — وبابه هو حيث كان باب المدرسة ، الا أنه ضيق عما كان . أنشأه المؤيد شيخ فى مدة أولها جمادى الآخرة سنة احدى وعشرين وثمانمائة ، وآخرها رجب سنة ثلاث وعشرين ، ونزل فيه المرضى فى نصف شعبان ، وعملت مصارفه من جملة أوقاف الجامع المؤيدى المجاور لباب زويلة .

فلما مات الملك المؤيد ، فى ثامن المحرم سنة أربع وعشرين ، تعطل قليلا . ثم سكنه طائفة من العجم المستجدين فى ربيع الأول منها ، وصار منزلا للرسل الواردين من البلاد الى السلطان . ثم عمل فيه منبر ، ورتب له خطيب وامام ومؤذنون وبواب وقومة ، وأقيمت به الجمعة فى شهر ربيع الآخر سنة خمس وعشرين وثمانمائة . فاستمر جامعا تصرف معاليم أرباب وظائفه المذكورين من وقف الجامع المؤيدى .

ذكر المساجد

قال ابن سيده : المسجد الموضع الذى سجد فيه . وقال الزجاج : كل موضع يتعبد فيه فهو مسجد ، ألا ترى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « جعلت لى الأرض مسجدا وطهورا » ، وقوله عز وجل : « ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه » . المعنى على هذا المذهب أنه من أظلم ممن خالف قبلة الاسلام .

وقد كان حكمه ألا يجىء على مفعِل ، لأن حق اسم المكان والمصدر من فعل يفعل أن يجىء على مفعَل ، ولكنه أحد الحروف التى شذت فجاءت * على مفعِل .

قال سيبويه : وأما المسجد فانهم جعلوه اسما للبيت ، ولم يأت على فعل يفعل . كما قال فى المدق : انه اسم للجلود ... يعنى أنه ليس على الفعل ، ولو كان على الفعل لقيل مدق لأنه آلة ، والآلات تجىء على مفعل كمخزن ومكنس ومكسح .

والمسجدة الجمرة المسجود عليها ، وقوله تعالى « وأن المساجد لله » قيل هى مواضع السجود من الانسان : الجبهة ، واليدان ، والركبتان ، والرجلان .

وقال الشريف محمد بن أسعد الجوانى فى كتاب « النقط على الخطط » عن القاضى أبى عبد الله القضاعى : انه كان فى مصر الفسطاط من المساجد ستة وثلاثون ألف مسجد .

وقال المسيحى فى حوادث سنة ثلاث وأربعمائة : وأحصى أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله المساجد التى لا غلة لها ، فكانت ثمانمائة مسجد . فأطلق لها فى كل شهر من بيت المال تسعة آلاف ومائتين عشرين درهما . وفى سنة خمس وأربعمائة حبس الحاكم بأمر الله سبع ضياع ، منها أطفيح وطوخ ، على القراء

(*) ص٤٠٨ جـ٢ ، ط. بولاق .

والمؤذنين بالجوامع ، وعلى ملء المصانع والمارستان ، وفى ثمن الأكفان .

وذكر ابن المتوج أن عدة المساجد بمصر فى زمنه أربعمائة وثمانون مسجدا ... ذكرها .

المسجد بجوار دير البعل

قد تقدم [1] فى أخبار الكنائس والديارات من هذا الكتاب خبر دير البعل ، وأنه يعرف بدير الفطير .

ولما كان فى سنة خمس وسبعين وستمائة ، خرج جماعة من المسلمين الى دير البعل ، فرأوا آثار محاريب بجوار الدير ، فعرفوا الصاحب بهاء الدين بن حنا ذلك ، فسير المهندسين لكشف ما ذكر ، فعادوا اليه وأخبروه أنه آثار مسجد . فشاور الملك الظاهر بيبرس ، وعمره مسجدا بجانب الدير . وهو عامر الى الآن وبت به ، وهو من أحسن مشترفات مصر ، وله وقف جيد ومرتب يقوم به نصارى الدير .

مسجد ابن الجباس

هذا المسجد خارج باب زويلة ، بالقرب من مصلى الأموات ، دون باب اليانسية . عرف بالشيخ أبى عبد الله محمد بن على بن أحمد ابن محمد بن جوشن ، المعروف بابن الجباس — بجيم وباء موحدة بعدها ألف وسين مهملة — القرشى العقيلى ، الفقيه الشافعى المقرىء . كان فاضلا صالحا ، زاهدا عابدا مقرئا . كتب بخطه كثيرا ، وسمع الحديث النبوى . ومولده يوم السبت سابع عشر ذى القعدة سنة اثنتين وثلاثين وستمائة بالقاهرة ، ووفاته ... ...

مسجد ابن البناء

هذا المسجد داخل باب زويلة ، وتسميه العوام سام بن نوح النبى عليه السلام ، وهو من مختلقاتهم التى لا أصل لها ، وانما يعرف بمسجد ابن البناء .

وسام بن نوح لعله لم يدخل أرض مصر ألبتة . فان الله سبحانه وتعالى لما نجى نبيه نوحا من الطوفان ، خرج معه من السفينة أولاده الثلاثة ، وهم : سام ، وحام ، ويافث . ومن هذه الثلاثة ذرأ الله سائر بنى آدم ، كما قال تعالى : « وجعلنا ذريته هم الباقين » .

فقسم نوح الأرض بين أولاده الثلاثة :

فصار لسام بن نوح العراق وفارس الى الهند ، ثم الى حضرموت وعمان والبحرين وعالج ويبرين والدو ووبار والدهنا ، وسائر أرض اليمن والحجاز . ومن نسله الفرس والسريانيون والعبرانيون والعرب والنبط والعماليق .

وصار لحام بن نوح الجنوب مما يلى أرض مصر مغربا الى المغرب الأقصى . ومن نسله الحبشة والزنج ، والقبط سكان مصر وأهل النوبة ، والأفارقة وأهل أفريقية ، وأجناس البربر .

(1) قوله « قد تقدم ... الخ » فيه انه لم يتقدم ذلك ، وانما أخبار الكنائس والديارات سيأتى ذكرها فى اخر الكتاب . اهـ . مصححه .

وصار ليافث بن نوح بحر الخزر مشرقا الى الصين . ومن نسله الصقالبة والفرنج والروم والغوط وأهل الصين واليونانيون والترك .

وقد بلغني أن هذا المسجد كان كنيسة لليهود القرايين ، تعرف بسام بن نوح ، وأن الحاكم بأمر الله أخذ هذه الكنيسة لما هدم الكنائس ، وجعلها مسجدا . وتزعم اليهود القرايون الآن بمصر أن سام بن نوح مدفون هنا ، وهم الى الآن يحلفون من أسلم منهم بهذا المسجد ... أخبرني به قاضي اليهود ابراهيم بن فرج الله بن عبد الكافي الداودي العاناني . وليس هذا بأول شيء اختلقته العامة .

و «ابن البناء» هذا : هو محمد بن عمر بن أحمد بن جامع بن البناء أبو عبد الله الشافعي المقرىء . سمع من القاضي مجلي وأبي عبد الله الكيزاني وغيره ، وحدث وأقرأ القرآن ، وانتفع به جماعة وهو منقطع بهذا المسجد .

وكان يعرف خطه بخط بين الباباين ، ثم عرف بخط الأقفاليين ، ثم هو الآن يعرف بخط الضبيين وباب * القوس .

ومات ابن البناء هذا في العشر الأوسط من شهر ربيع الآخر سنة احدى وتسعين وخمسمائة .

واتفق لي عند هذا المسجد أمر عجيب . وهو أني مررت من هناك يوما أعوام بضع وثمانين وسبعمائة — والقاهرة يومئذ لا يمر الانسان بشارعها حتى يلقى عناء من شدة ازدحام الناس ، لكثرة مرورهم ركبانا ومشاة — فعندما حاذيت أول هذا المسجد اذا برجل يمشي أمامي ، وهو يقول لرفيقه : والله ياأخي ما مررت بهذا المكان قط الا وانقطع نعلي » فوالله ما فرغ من كلامه حتى وطىء شخص ، من كثرة الزحام ، على مؤخر نعله — وقد مد رجله ليخطو — فانقطع تجاه باب المسجد . فكان هذا من عجائب الأمور وغرائب الاتفاق .

مسجد الحلبيين

هذا المسجد فيما بين باب الزهومة ودرب شمس الدولة ، على يسرة من سلك من حمام خشيبة طالبا البندقانيين . بني على المكان الذي قتل فيه الخليفة الظافر نصر بن عباس الوزير ، ودفنه تحت الأرض .

فلما قدم طلائع بن رزيك من الأشمونين الى القاهرة ، باستدعاء أهل القصر له ليأخذ بثأر الخليفة ، وغلب على الوزارة ... استخرج الظافر من هذا الموضع ، ونقله الى تربة القصر ، وبنى موضعه هذا المسجد ، وسماه المشهد ، وعمل له بابين : أحدهما هذا الباب الموجود ، والباب الثاني كان يتوصل منه الى دار المأمون البطائحي — التي هي اليوم مدرسة تعرف بالسيوفية — وقد سد هذا الباب .

وما برح هذا المسجد يعرف بالمشهد . الى أن انقطع فيه محمد ابن أبي الفضل بن سلطان ابن عمار بن تمام ، أبو عبد الله الحلبي الجعبري ، المعروف بالخطيب . وكان صالحا كثير العبادة ، زاهدا منقطعا عن الناس ورعا ،

(*) ص٤٠٩ جـ٢ ، ط. بولاق .

وسمع الحديث وحدث . وكان مولده فى شهر رجب سنة أربع وعشرين وستمائة بقلعة جعبر ، ووفاته بهذا المسجد — وقد طالت اقامته فيه — يوم الاثنين سادس عشر جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة وسبعمائة ، ودفن بمقابر باب النصر رحمه الله .

وهذا المسجد من أحسن مساجد القاهرة وأبهجها .

مسجد الكافورى

هذا المسجد كان فى البستان الكافورى من القاهرة . بناه الوزير المأمون أبو عبد الله محمد فاتك البطائحى فى سنة ست عشرة وخمسمائة وتولى عمارته وكيله أبو البركات محمد بن عثمان ، وكتب اسمه عليه . وهو باق الى اليوم بخط الكافورى ، ويعرف هناك بمسجد الخلفاء ، وفيه نخل وشجر ، وهو مرخم برخام حسن .

مسجد رشيد

هذا المسجد خارج باب زويلة ، بخط تحت الربع ، على يسرة من سلك من دار التفاح يريد قنطرة الخرق . بناه رشيد الدين البهائى .

المسجد المعروف بزرع النوى

هذا المسجد خارج باب زويلة ، بخط سوق الطيور ، على يسرة من سلك من رأس المنجبية طالبا جامع قوصون والصليبة . وتزعم العامة أنه بنى على قبر رجل يعرف بزرع النوى ، وهو من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وهذا أيضا من افتراء العامة الكذب . فان الذين أفردوا أسماء الصحابة رضى الله عنهم — كالامام أبى عبد الله محمد بن اسماعيل البخارى فى تاريخه الكبير ، وابن أبى خيثمة ، والحافظ أبى عبد الله بن منذر ، والحافظ أبى نعيم الأصفهانى ، والحافظ أبى عمر بن عبد البر ، والفقيه الحافظ أبى محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم — لم يذكر أحد منهم صحابيا يعرف بزرع النوى .

وقد ذكر فى أخبار القرافة من هذا الكتاب من قبر بمصر من الصحابة ، وذكر فى أخبار مدينة فسطاط مصر أيضا من دخل مصر من الصحابة ، وليس هذا منهم . وهذا ان كان هناك قبر ، فهو لأمين الأمناء أبى عبد الله الحسين بن طاهر الوزان .

وكان من أمره أن الخليفة الحاكم بأمر الله أبا على منصور بن العزيز بالله ، خلع عليه للوساطة بينه وبين الناس ، والتوقيع عن الحضرة ، فى شهر ربيع الأول سنة ثلاث وأربعمائة . وكان قبل ذلك يتولى بيت المال ، فاستخدم فيه أخاه أبا الفتح مسعودا . وكان قد ظفر بمال يكون عشرات •••• •••• [1] وصياغات وأمتعة وطرائف وفرش وغير ذلك ، فى عدة آدر بمصر ، وجميعه مما خلفه قائد القواد الحسين بن جوهر القائد * . فباع المتاع ، وأضاف ثمنه الى العين ، فحصل منه

(1) قوله « يكون عشرات .. » هكذا فى النسخ . وانظر ما معناه ، ولعل المراد ما بين نقود وصياغات .. الخ ، كما يؤخذ مما بعد . وليحرر . اهـ . مصححه

مال كثير ، وطالع الحاكم بأمر الله به أجمع لورثة * قائد القواد ، ولم يتعرض منه لشيء .

وكثرت صلات الحاكم وعطاؤه وتوقيعاته ، فانطلق فى ذلك . فاتصل به عن أمين الأمناء بعض التوقف ، فخرجت اليه رقعة بخطه فى الثامن والعشرين من شهر رجب سنة ثلاث وأربعمائة نسختها : « بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله كما هو أهله :

أصبحت لا أرجو ولا أتقى
الا الهى وله الفضل
جدى نبيى وامامى أبى
ودينى الاخلاص والعدل

ما عندكم ينفد ، وما عند الله باق ، المال مال الله عز وجل ، والخلق عيال الله ، ونحن أمناؤه فى الأرض ، أطلق أرزاق الناس ولا تقطعها ، والسلام » .

ولم يزل على ذلك الى أن بطل أمره فى جمادى الآخرة من سنة خمس وأربعمائة ... وذلك أنه ركب مع الحاكم على عادته . فلما حصل بحارة كتامة خارج القاهرة ، ضرب رقبته هناك ، ودفن فى هذا الموضع تخمينا . واستحضر الحاكم جماعة الكتاب بعد قتله ، وسأل رؤساء الدواوين عما يتولاه كل واحد منهم ، وأمرهم بلزوم دواوينهم وتوفرهم على الخدمة .

وكانت مدة نظر ابن الوزان فى الوساطة والتوقيع عن الحضرة — وهى رتبة الوزارة — سنتين وشهرين وعشرين يوما . وكان توقيعه عن الحضرة الامامية « الحمد لله وعليه توكلى » .

(*) ص٤١٠ ج٢ ، ط. بولاق .

مسجد الذخيرة

هذا المسجد تحت قلعة الجبل ، بأول الرميلة ، تجاه شبابيك مدرسة السلطان حسن ابن محمد بن قلاوون التى تلى بابها الكبير الذى سده الملك الظاهر برقوق . أنشأه ذخيرة الملك جعفر متولى الشرطة .

قال ابن المأمون فى تاريخه : وفى هذه السنة (يعنى سنة ست عشرة وخمسمائة) استخدم ذخيرة الملك جعفر فى ولاية القاهرة والحسبة بسجل أنشأه ابن الصيرفى ، وجرى من عسفه وظلمه ما هو مشهور ، وبنى المسجد الذى ما بين الباب الجديد الى الجبل الذى هو به معروف .

وسمى « مسجد لا بالله » بحكم أنه كان يقبض الناس من الطريق ويعسفهم ، فيحلفونه ويقولون له : «لا بالله» ، فيقيدهم ويستعملهم فيه بغير أجرة ، ولم يعمل فيه منذ أنشأه الا صانع مكره أو فاعل مقيد . وكتبت عليه هذه الأبيات المشهورة :

بنى مسجدا لله من غير حله
وكان بحمد الله غير موفق
كمطعمة الأيتام من كد فرجها
لك الويل لاتزنى ولاتتصدقى

وكان قد أبدع فى عذاب الجناة وأهل الفساد ، وخرج عن حكم الكتاب . فابتلى بالأمراض الخارجة عن المعتاد ، ومات بعدما عجل الله له ما قدمه ، وتجنب الناس تشييعه والصلاة عليه ، وذكر عنه فى حالتى غسله وحلوله بقبره ما يعيذ الله كل مسلم من مثله .

وقال ابن عبد الظاهر : مسجد الذخيرة تحت قلعة الجبل . وذكر ما تقدم عن ابن المأمون .

مسجد رسلان

هذا المسجد بحارة اليانسية . عرف بالشيخ الصالح رسلان لاقامته به ، وقد حكيت عنه كرامات ، ومات به فى سنة احدى وتسعين وخمسمائة ، وكان يتقوت من أجرة خياطته للثياب . وابنه عبد الرحمن بن محمد بن رسلان أبو القاسم كان فقيها محدثا مقرئا . مات فى سنة سبع وعشرين وستمائة .

مسجد ابن الشيخى

هذا المسجد بخط الكافورى مما يلى باب القنطرة وجهة الخليج ، مجاور لدار ابن الشيخى . أنشأه المهتار ناصر الدين محمد بن علاء الدين على الشيخى ، مهتار السلطان بالاصطبلات السلطانية ، وقرر فيه شيخنا تقى الدين محمد بن حاتم . فكان يعمل فيه ميعادا يجتمع الناس فيه لسماع وعظه .

وكان ابن الشيخى هذا حشما فخورا خيرا ، يحب أهل العلم والصلاح ويكرمهم ، ولم نر بعده فى رتبته مثله ، ومات ليلة الثلاثاء أول يوم من شهر ربيع الأول سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة .

مسجد يانس

هذا المسجد كان تجاه باب سعادة خارج القاهرة .

قال ابن المأمون فى تاريخه : وكان الأجل المأمون (يعنى الوزير * محمد بن فاتك البطائحى) قد ضم اليه عدة من مماليك الأفضل بن أمير الجيوش من جملتهم يانس ، وجعله مقدما على صبيان مجلسه ، وسلم اليه بيت ماله ، وميزه فى رسومه .

فلما رأى المذكور فى ليلة النصف من شهر رجب (يعنى سنة ست عشرة وخمسمائة) ما عمل فى المسجد المستجد قبالة باب الخوخة من الهمة ووفور الصدقات وملازمة الصلوات وما حصل فيه من المثوبات ، كتب رقعة يسأل فيها أن يفسح له فى بناء مسجد بظاهر باب سعادة .

فلم يجبه المأمون الى ذلك ، وقال له : ما ثم مانع من عمارة المساجد ، وأرض الله واسعة . وانما هذا الساحل فيه معونة للمسلمين وموردة للسقائين ، وهو مرسى مراكب الغلة ، والمضرة فى مضايقة المسلمين فيه منه ، ولو لم يكن المسجد المستجد قبالة باب الخوخة محرسا لما استجد ، حتى انا لم نخرج بساحته الأولى ، فان أردت أن تبنى قبلى مسجد الريفى ، أو على شاطىء الخليج ، فالطريق ثم سهلة . فقبل الأرض وامتثل الأمر .

فلما قبض على المأمون ، وأمّر الخليفة يانس المذكور ، ولم يزل ينقله الى أن استخدمه فى حجبة بابه ... سأله فى مثل ذلك ، فلم يجبه . الى أن أخذ الوزارة ، فبناه فى المكان المذكور ، وكانت مدته يسيرة ، فتوفى

(*) ص ٤١١ جـ٢ ، ط. بولاق .

قبل اتمامه واكماله ، فكمله أولاده بعد وفاته . انتهى .

وقد تقدم خبر وزارة أبي الفتح ناظر الجيوش ياس الأرمنى هذا عند ذكر الحارة اليانسية من هذا الكتاب .

مسجد باب الخوخة

هذا المسجد تجاه باب الخوخة بجوار مدرسة أبي غالب .

قال ابن المأمون فى تاريخه من حوادث سنة ست عشرة وخمسمائة : ولما سكن المأمون الأجل دار الذهب وما معها (يعنى فى أيام النيل للنزهة عند سكن الخليفة الآمر بأحكام الله بقصر اللؤلؤة المطل على الخليج) رأى قبالة باب الخوخة محرسا . فاستدعى وكيله ، وأمره بأن يزيل المحرس المذكور ، ويبنى موضعه مسجدا . وكان الصناع يعملون فيه ليلا ونهارا ، حتى انه تفطر بعد ذلك واحتيج الى تجديده .

المسجد المعروف بمعبد موسى

هذا المسجد بخط الركن المخلق من القاهرة ، تجاه باب الجامع الأقمر المجاور لحوض السبيل ، وعلى يمنة من سلك من بين القصرين طالبا رحبة باب العيد . أول من اختطه القائد جوهر عندما وضع القاهرة .

قال ابن عبد الظاهر : ولما بنى القائد جوهر القصر ، دخل فيه دير العظام — وهو المكان المعروف الآن بالركن المخلق ، قبالة حوض الجامع الأقمر وقريب دير العظام ، والمصريون يقولون بئر العظمة — فكره أن يكون فى القصر دير . فنقل العظام التى كانت به وأرمى الى دير بناه فى الخندق ، لأنه كان يقال انها كانت عظام جماعة من الحواريين ، وبنى مكانها مسجدا من داخل السور (يعنى سور القصر) .

وقال جامع سيرة الظاهر بيبرس : وفى ذى الحجة سنة سنين وستمائة ، ظهر بالمسجد الذى بالركن المخلق من القاهرة حجر مكتوب عليه « هذا معبد موسى بن عمران عليه السلام » . فجددت عمارته ، وصار يعرف بمعبد موسى من حينئذ ، ووقف عليه ربع بجانبه ، وهو باق الى وقتنا هذا .

مسجد نجم الدين

هذا المسجد ظاهر باب النصر . أنشأه الملك الأفضل نجم الدين أبو سعيد أيوب بن شادى يعقوب بن مروان الكردى ، والد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وجعل الى جانبه حوض ماء للسبيل ترده الدواب فى سنة ست وستين وخمسمائة .

ونجم الدين هذا قدم هو وأخوه أسد الدين شيركوه من بلاد الأكراد الى بغداد ، وخدم بها ، وترقى فى الخدم حتى صار دزدارا بقلعة تكريت ومعه أخوه . ثم انه انتقل عنها الى خدمة الملك المنصور عماد الدين أتابك زنكى بالموصل ، فخدمه حتى مات ، فتعلق بخدمة ابنه الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى ، فرقاه وأعطاه بعلبك ، وحج من دمشق سنة خمس وخمسمائة .

فلما قدم ابنه صلاح الدين يوسف بن أيوب مع عمه أسد الدين شيركوه ، من عند نور الدين محمود الى القاهرة ، وصار الى وزارة العاضد بعد موت شيركوه ، قدم عليه أبوه نجم الدين فى جمادى الآخرة سنة خمس وستين وخمسمائة ، وخرج العاضد الى لقائه ، وأنزله بمناظر اللؤلؤة .

فلما استبد صلاح الدين بسلطنة مصر بعد موت الخليفة العاضد ، أقطع أباه نجم الدين الاسكندرية والبحيرة ، الى أن مات بالقاهرة فى يوم الثلاثاء لثلاث بقين من ذى الحجة سنة ثمان وستين وخمسمائة — وقيل فى ثامن عشره — من سقطة عن ظهر فرسه خارج باب النصر ، فحمل الى داره ، فمات بعد أيام .

وكان خيرا جوادا ، متدينا ، محبا لأهل العلم والخير * ، وما مات حتى رأى من أولاده عدة ملوك ، وصار يقال له أبو الملوك . ومدحه العماد الأصبهانى بعدة قصائد ، ورثاه الفقيه عمارة بقصيدته التى أولها :

هى الصدمة الأولى فمن بان صبره
على هول ملقاه تعاظم أمره

مسجد صواب

هذا المسجد خارج القاهرة بخط الصليبة . عرف بالطواشى شمس الدين صواب ، مقدم المماليك السلطانية ، ومات فى ثامن رجب سنة اثنتين وأربعين وستمائة ، ودفن به . وكان خيرا ، دينا ، فيه صلاح .

(*) ص ١٢٤ ج ٢ ، ط . بولاق

المسجد بجوار المشهد الحسينى

هذا المسجد ... أنهى فى مستهل شهر رجب سنة اثنتين وستين وستمائة للملك الظاهر ركن الدين بيبرس — وهو بدار العدل — أن مسجدا على باب مشهد السيد الحسين عليه السلام ، والى جانبه مكان من حقوق القصر ، بيع وحمل ثمنه للديوان ، وهو ستة آلاف درهم .

فسأل السلطان عن صورة المسجد وهذا الموضع ، وهل كل منهما بمفرده أو عليهما حائط دائر ؟ فقيل له ان بينهما زرب قصب ، فأمر برد المبلغ ، وأبقى الجميع مسجدا ، وأمر بعمارة ذلك مسجدا لله تعالى .

مسجد الفجل

هذا المسجد بخط بين القصرين ، تجاه بيت البيسرى ، أصله من مساجد الخلفاء الفاطميين . أنشأه على ما هو عليه الآن الأمير بشتاك لما أخذ قصر أمير سلاح ودار أقطوان الساقى وأحد عشر مسجدا وأربعة معابد كانت من عمارة الخلفاء ، وأدخلها فى عمارته التى تعرف اليوم بقصر بشتاك ، ولم يترك من المساجد والمعابد سوى هذا المسجد فقط ، ويجلس فيه بعض نواب القضاة المالكية للحكم بين الناس .

وتسميه العامة مسجد الفجل ، وتزعم أن النيل الأعظم كان يمر بهذا المكان ، وأن الفجل كان يغسل موضع هذا المسجد فعرف بذلك . وهذا القول كذب لا أصل له . وقد تقدم فى

هذا الكتاب ما كان عليه موضع القاهرة قبل بنائها ، وما علمت أن النيل كان يمر هناك أبدا ، وبلغنى أنه عرف بمسجد الفجل من أجل أن الذى كان يقوم به كان يعرف بالفجل ، والله أعلم .

مسجد تبر

هذا المسجد خارج القاهرة مما يلى الخندق . عرف قديما بالبئر والجميزة ، وعرف بمسجد تبر ، وتسميه العامة مسجد التبن وهو خطأ . وموضعه خارج القاهرة قريبا من المطرية .

قال القضاعى : مسجد تبر بنى على رأس ابراهيم بن عبد الله بن حسن بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنه . أنفذه المنصور فسرقه أهل مصر ، ودفنوه هناك وذلك فى سنة خمس وأربعين ومائة ، ويعرف بمسجد البئر والجميزة .

وقال الكندى فى كتاب « الأمراء » : ثم قدمت الخطباء الى مصر برأس ابراهيم بن عبد الله بن حسن بن الحسين بن على بن أبى طالب ، فى ذى الحجة سنة خمس وأربعين ومائة ، لينصبوه فى المسجد الجامع ، وقامت الخطباء فذكروا أمره .

وتبر هذا أحد الأمراء الأكابر فى أيام الأستاذ كافور الاخشيدى . فلما قدم جوهر القائد من المغرب بالعساكر ، ثار تبر الاخشيدى هذا فى جماعة من الكافورية والاخشيدية وحاربه ، فانهزم بمن معه الى أسفل الأرض . فبعث جوهر يستعطفه ، فلم يجب ، وأقام على الخلاف ، فسير اليه عسكرا حاربه بناحية صهرجت فانكسر ، وصار الى مدينة صور التى كانت على الساحل فى البحر .

فقبض عليه بها ، وأدخل الى القاهرة على فيل ، فسجن الى صفر سنة ستين وثلثمائة . فاشتدت المطالبة عليه ، وضرب بالسياط ، وقبضت أمواله ، وحبس عدة من أصحابه بالمطبق فى القيود الى ربيع الآخر منها . فجرح نفسه ، وأقام أياما مريضا ومات ، فسلخ بعد موته ، وصلب عند كرسى الجبل .

وقال ابن عبد الظاهر : انه حشى جلده تبنا وصلب ، فربما سمت العامة مسجده بذلك لما ذكرناه . وقيل ان تبرا هذا خادم الدولة المصرية ، وقبره بالمسجد المذكور ... قال مؤلفه : هذا وهم ، وانما هو تبر الاخشيدى .

مسجد القطبية

هذا المسجد كان حيث المدرسة المنصورية بين القصرين ، والله أعلم * .

ذكر الخوانك

الخوانك جمع خانكاه ، وهى كلمة فارسية معناها بيت . وقيل أصلها خونقاه ، أى الموضع الذى يأكل فيه الملك . والخوانك حدثت فى الاسلام فى حدود الأربعمائة من سنى الهجرة ، وجعلت لتخلى الصوفية فيها لعبادة الله تعالى .

(*) ص٤١٢ ، جـ٢ ، ط. بولاق .

قال الأستاذ أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري رحمه الله : اعلموا أن المسلمين بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لم يتسم أفاضلهم في عصرهم بتسمية علم سوى « صحبة رسول الله » صلى الله عليه وسلم ، اذ لا فضيلة فوقها ، فقيل لهم « الصحابة » . ولما أدرك أهل العصر الثاني ، سمى من صحب الصحابة «التابعين» ، ورأوا ذلك أشرف سمة ، ثم قيل لمن بعدهم « أتباع التابعين » .

ثم اختلف الناس ، وتباينت المراتب ، فقيل لخواص خواص الناس ممن لهم شدة عناية بأمر الدين « الزهاد » و « العباد » . ثم ظهرت البدع ، وحصل التداعي بين الفرق ، فكل فريق ادعوا أن فيهم زهادا . فانفرد خواص أهل السنة — المراعون أنفسهم مع الله ، الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة — باسم « التصوف » ، واشتهر هذا الاسم لهؤلاء الأكابر قبل المائتين من الهجرة .

قال : وهذه التسمية غلبت على هذه الطائفة . فيقال : رجل صوفي ، وللجماعة : الصوفية ، ومن يتوصل الى ذلك يقال له : متصوف ، وللجماعة : المتصوفة . وليس يشهد لهذا الاسم من حيث العربية قياس ولا اشتقاق ، والأظهر فيه أنه كاللقب . فأما قول من قال انه من الصوف ، وتصوف اذا لبس الصوف — كما يقال تقمص اذا لبس القميص — فذلك وجه ، ولكن القوم لم يختصوا بلبس الصوف .

ومن قال انهم ينسبون الى صفة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالنسبة الى الصفة لا تجيء على نحو الصوفي . ومن قال انه من الصفاء ، فاشتقاق الصوفي من الصفاء بعيد في مقتضى اللغة . وقول من قال انه مشتق من الصف ، فكأنهم في الصف الأول بقلوبهم من حيث المحاضرة مع الله تعالى ، فالمعنى صحيح لكن اللغة لا تقتضي هذه النسبة من الصف . ثم ان هذه الطائفة أشهر من أن يحتاج في تعيينهم الى قياس لفظ واستحقاق اشتقاق ، والله أعلم .

وقال الشيخ شهاب الدين أبو حفص عمر ابن محمد السهروردي رحمه الله : والصوفي يضع الأشياء في مواضعها ، ويدبر الأوقات والأحوال كلها . بالعلم يقيم الخلق مقامهم ، ويقيم أمر الحق مقامه ، ويستر ما ينبغي أن يستر ، ويظهر ما ينبغي أن يظهر ، ويأتي بالأمور من مواضعها ... بحضور عقل ، وصحة توحيد ، وكمال معرفة ، ورعاية صدق واخلاص .

فقوم من المفتونين لبسوا ألبسة الصوفية لينسبوا اليهم ، وما هم منهم بشيء ، بل هم في غرور وغلط يتسترون بلبسة الصوفية توقيا تارة ودعوة أخرى ، وينتهجون مناهج أهل الاباحة ، ويزعمون أن ضمائرهم خلصت الى الله تعالى ، وأن هذا هو الظفر بالمراد ، والارتسام بمراسم الشريعة ... رتبة العوام والقاصرين الأفهام ، وهذا هو عين الالحاد والزندقة والابعاد . ولله در القائل :

تنازع الناس في الصوفي واختلفوا
فيه ، وظنوه مشتقا من الصوف
ولست أنحل هذا الاسم غير فتى
صافى وصوفي حتى سمى الصوفي

قال مؤلفه : ذهب والله ما هنالك ، وصارت الصوفية كما قال الشيخ فتح الدين محمد بن محمد بن سيد الناس اليعمري :

ماشروط الصوفي في عصرنا اليو
م سوى ستة بغير زياده

وهي (...) العلوق والسكر والسط
لة والرقص والغنا والقياده

واذا ما هذى وأبدى اتحادا
وحلولا من جهله أو اعاده

وأتى المنكرات عقلا وشرعا
فهو شيخ الشيوخ ذو السجاده

ثم تلاشى الآن حال الصوفية ومشايخها حتى صاروا من سقط المتاع ، لا ينسبون الى علم ولا ديانة ، والى الله المشتكى .

وأول من اتخذ بيتا للعبادة زيد بن صوحان ابن صبرة . وذلك أنه عمد الى رجال من أهل البصرة قد تفرغوا للعبادة — وليس لهم تجارات ولا غلات — فبنى لهم دورا ، وأسكنهم فيها ، وجعل لهم ما يقوم بمصالحهم من مطعم ومشرب وملبس وغيره .

فجاء يوما ليزورهم ، فسأل عنهم . فاذا عبد الله بن عامر ، عامل البصرة لأمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه ، قد دعاهم ، فأتاه ، فقال له : ياابن عامر ، ما تريد من هؤلاء القوم ؟

قال : أريد أن أقربهم فيشفعوا فأشفعهم ، ويسألوا فأعطيهم ، ويشيروا على فأقبل منهم .

فقال : لا ، ولا كرامة ! فتأتي الى قوم قد انقطعوا الى الله تعالى ، فتدنسهم بدنياك ، وتشركهم في أمرك . حتى اذا ذهبت أديانهم ، أعرضت عنهم ، فطاحوا لا الى الدنيا ولا الى الآخرة ... قوموا فارجعوا الى مواضعكم . فقاموا . فأمسك ابن عامر ، فما نطق بلفظة ... ذكره أبو نعيم * .

الخانكاه الصلاحية
دار سعيد السعداء دويرة الصوفية

هذه الخانكاه بخط رحبة باب العيد من القاهرة . كانت أولا دارا تعرف في الدولة الفاطمية بدار سعيد السعداء — وهو الأستاذ قنبر ، ويقال عنبر ، وذكر ابن ميسر أن اسمه بيان ، ولقبه سعيد السعداء — أحد الأستاذين المحنكين خدام القصر ، عتيق الخليفة المستنصر . قتل في سابع شعبان سنة أربع وأربعين وخمسمائة ، ورمى برأسه من القصر ، ثم صلبت جثته بباب زويلة من ناحية الخرق .

وكانت هذه الدار مقابل دار الوزارة . فلما كانت وزارة العادل رزيك بن الصالح طلائع ابن رزيك سكنها ، وفتح من دار الوزارة اليها سردابا تحت الأرض ليمر فيه . ثم سكنها الوزير شاور بن مجير في أيام وزارته ، ثم ابنه الكامل .

فلما استبد الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادى بملك مصر بعد موت الخليفة العاضد ، وغير رسوم الدولة الفاطمية ، ووضع من قصر الخلافة ، وأسكن فيه أمراء دولته الأكراد ... عمل هذه الدار برسم الفقراء الصوفية الواردين من البلاد الشاسعة ،

(*) ص٤١٤ جـ٢ ، ط. بولاق .

ووقفها عليهم فى سنة تسع وستين وخمسمائة ، وولى عليهم شيخا ، ووقف عليهم بستان الحبانية بجوار بركة الفيل خارج القاهرة ، وقيسارية الشراب بالقاهرة ، وناحية دهمرو من البهنساوية .

وشرط أن من مات من الصوفية ، وترك عشرين دينارا فما دونها كانت للفقراء ، ولا يتعرض لها الديوان السلطانى ، ومن أراد منهم السفر يعطى تسفيره . ورتب للصوفية فى كل يوم طعاما ولحما وخبزا ، وبنى لهم حماما بجوارهم .

فكانت أول خانكاه عملت بديار مصر ، وعرفت بدويرة الصوفية ، ونعت شيخها بشيخ الشيوخ . واستمر ذلك بعده الى أن كانت الحوادث والمحن منذ سنة ست وثمانمائة ، واتضحت الأحوال ، وتلاشت الرتب ، فلقب كل شيخ خانكاه بشيخ الشيوخ .

وكان سكانها من الصوفية يعرفون بالعلم والصلاح ، وترجى بركتهم . وولى مشيختها الأكابر والأعيان — كأولاد شيخ الشيوخ بن حمويه — مع ما كان لهم من الوزارة والامارة ، وتدبير الدولة ، وقيادة الجيوش ، وتقدمة العساكر . ووليها ذو الرياستين ، الوزير الصاحب ، قاضى القضاة تقى الدين عبد الرحمن ، ابن ذى الرياستين الوزير الصاحب قاضى القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز ، وجماعة من الأعيان . ونزل بها الأكابر من الصوفية .

وأخبرنى الشيخ أحمد بن على القصار ، رحمه الله ، أنه أدرك الناس فى يوم الجمعة يأتون من مصر الى القاهرة ، ليشاهدوا صوفية خانقاه سعيد السعداء ، عندما يتوجهون منها الى صلاة الجمعة بالجامع الحاكمى ، كى تحصل لهم البركة والخير بمشاهدتهم .

وكان لهم فى يوم الجمعة هيئة فاضلة . وذلك أنه يخرج شيخ الخانقاه منها ، وبين يديه خدام الربعة الشريفة — قد حملت على رأس أكبرهم — والصوفية مشاة بسكون وخفر الى باب الجامع الحاكمى الذى يلى المنبر ، فيدخلون الى مقصورة كانت هناك على يسرة الداخل من الباب المذكور — تعرف بمقصورة البسملة ، فانه بها الى اليوم بسملة قد كتبت بحروف كبار — فيصلى الشيخ تحية المسجد تحت سحابة منصوبة له دائما ، وتصلى الجماعة . ثم يجلسون ، وتفرق عليهم أجزاء الربعة ، فيقرأون القرآن حتى يؤذن المؤذنون ، فتؤخذ الأجزاء منهم ، ويشتغلون بالتركع واستماع الخطبة وهم منصتون خاشعون .

فاذا قضيت الصلاة والدعاء بعدها ، قام قارىء من قراء الخانقاه ، ورفع صوته بقراءة ما تيسر من القرآن ، ودعا للسلطان صلاح الدين ولواقف الجامع ولسائر المسلمين . فاذا فرغ قام الشيخ من مصلاه ، وسار من الجامع الى الخانقاه والصوفية معه كما كان توجههم الى الجامع . فيكون هذا من أجمل عوايد القاهرة .

وما برح الأمر على ذلك . الى أن ولى الأمير يلبغا السالمى نظر الخانقاه المذكورة ، فى يوم الجمعة ثامن عشر جمادى الآخرة سنة

سبع وتسعين وسبعمائة ، فنزل اليها وأخرج كتاب الوقف ، وأراد العمل بما فيه من شرط الواقف . فقطع من الصوفيـة المنزلين بها عشرات ممن له منصب ومن هو مشهور بالمال ، وزاد الفقـراء المجـردين — وهـم المقيمون بها — فى كل يوم رغيفا من الخبز ، فصار لكل مجرد أربعة أرغفـة بعدما كانت ثلاثة ، ورتب بالخانقاه وظيفتى ذكر بعد صلاة العشاء الآخرة ، وبعد صلاة الصبح .

فكثر النكير على السالمى ممن أخرجهم ، وزاد الأشلاء ، فقـال بعض أدباء العصر فى ذلك :

ياأهل خانقة الصلاح أراكم
ما بين شاكٍ للزمان وشـاتم

يكفيكم ما قد أكلتم باطلا
من وقفها وخرجتم بالسـالم

وكان سبب ولاية السالمى نظر الخانقـاه المذكورة ، أن العادة كانت قديما أن الشيخ هو الذى يتحدث فى نظرها . فلما كانت أيام الظاهر برقوق ولى مشيختها شخص ، يعرف بالشيخ محمـد البـلالى ، قدم من البـلاد الشامية ، وصار للأمير سودون الشـيخونى — نائب السلطنة بديار مصر — فيه اعتقاد . فلما سـعى له فى المشيخة * ، واستقر فيها بتعيينه ، سأله أن يتحدث فى النظر اعانة له ، فتحدث .

وكانت عدة الصوفية بها نحو الثلثمـائة رجل : لكل منهم فى اليوم ثلاثة أرغفة زنتها ثلاثة أرطال خبز ، وقطعة لحم زنتهـا ثلث رطل فى مرق ، ويعمـل لهم الحلوى فى كل شهر ، ويفرق فيهم الصابون ، ويعطى كل منهم فى السنة عن ثمن كسوة قدر أربعين درهما . فنزل الأمير سودون عندهم جماعة كثيرة عجز ريع الوقف عن القيـام لهم بجميع ما ذكر ، فقطعت الحلوى والصابون والكسوة .

ثم ان ناحية دهمرو شرقت فى سنة تسـع وتسعين لقصور ماء النيل ، فوقع العزم على غلق مطبخ الخانقاه وابطـال الطعـام ، فلم تحتمل الصوفية ذلك ، وتكررت شـكواهم للملك الظاهر برقوق . فولى الأمير يلبغـا السـالمى النظر ، وأمـره أن يعمـل بشرط الواقف .

فلما نزل الى الخانقاه وتحدث فيها ، اجتمع بشيخ الاسلام سراج الدين عمر بن رسـلان البلقينى ، وأوقفه على كتاب الوقف . فأفتاه بالعمل بشرط الواقف ، وهو أن الخانقـاه تكون وقفا على الطائفة الصوفيـة الواردين من البلاد الشاسعة والقاطنين بالقاهرة ومصر ، فان لم يوجدوا كانت على الفقراء من الفقهاء الشافعية والمالكية الأشعرية الاعتقاد .

ثم انه جمع القضاة وشيخ الاسلام وسائر صوفية الخانقاه بها ، وقرأ عليهم كتاب الوقف وسأل القضاة عن حكم الله فيه . فانتـدب للكلام رجلان من الصوفية هما زين الدين أبو بكر القمنى وشهاب الدين أحمد العبادى الحنفى ، وارتفعت الأصوات ، وكثر اللغط . فأشار القضاة على السالمى أن يعمل بشرط الواقف ، وانصرفوا . فقطع منهم نحو الستين رجلا منهم المذكوران .

(*) ص٤١٥ ج٢ ، ط . بولاق .

فامتعض العبادى ، وغضب من ذلك ، وشنع بأن السالمى قد كفر ، وبسط لسانه بالقول فيه ، وبدت منه سماجات ، فقبض عليه السالمى وهو ماش بالقاهرة ، فاجتمع عدة من الأعيان وفرقوا بينهما ، فبلغ ذلك السلطان ، فأحضر القضاة والفقهاء ، وطلب العبادى فى يوم الخميس ثامن شهر رجب ، وادعى عليه السالمى . فاقتضى الحال تعزيره ، فعزر وكشف رأسه ، وأخرج من القلعة ماشيا بين يدى القضاة ووالى القاهرة الى باب زويلة ، فسجن بحبس الديلم ، ثم نقل منه الى حبس الرحبة .

فلما كان يوم السبت حادى عشره ، استدعى الى دار قاضى القضاة جمال الدين محمود القيصرى الحنفى ، وضرب بحضرة الأمير علاء الدين على بن الطبلاوى ، والى القاهرة ، نحو الأربعين ضربة بالعصا تحت رجليه . ثم أعيد الى الحبس ، وأفرج عنه فى ثامن عشره بشفاعة شيخ الاسلام فيه .

ولما جدد الأمير يلبغا السالمى الجامع الأقمر ، وعمل له منبرا ، وأقيمت به الجمعة فى شهر ربيع الأول سنة احدى وثمانمائة ... ألزم الشيخ بالخانقاه والصوفية أن يصلوا الجمعة به . فصاروا يصلون الجمعة فيه الى أن زالت أيام السالمى ، فتركوا الاجتماع بالجامع الأقمر ، ولم يعودوا الى ما كانوا عليه من الاجتماع بالجامع الحاكمى ، ونسى ذلك .

ولم يكن بهذه الخانقاه مئذنة ، والذى بنى هذه المئذنة شيخ ولى مشيختها ، فى سنة بضع وثمانين وسبعمائة ، يعرف بشهاب الدين أحمد الأنصارى . وكان الناس يمرون فى صحن الخانقاه بنعالهم ، فجدد شخص من الصوفية بها — يعرف بشهاب الدين أحمد العثمانى — هذا الدرابزين ، وغرس فيه هذه الأشجار ، وجعل عليها وقفا لمن يتعاهدها بالخدمة .

خانقاه ركن الدين بيبرس

هذه الخانقاه من جملة دار الوزارة الكبرى ، التى تقدم ذكرها عند ذكر القصر من هذا الكتاب ، وهى أجل خانقاه بالقاهرة بنيانا وأوسعها مقدارا وأتقنها صنعة . بناها الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير المنصورى ، قبل أن يلى السلطنة وهو أمير ، فبدأ فى بنائها فى سنة ست وسبعمائة ، وبنى بجانبها رباطا كبيرا يتوصل اليه من داخلها ، وجعل بجانب الخانقاه قبة بها قبره .

ولهذه القبة شبابيك تشرف على الشارع المسلوك فيه من رحبة باب العيد الى باب النصر . من جملتها الشباك الكبير الذى حمله الأمير أبو الحارث البساسيرى من بغداد لما غلب الخليفة القائم العباسى ، وأرسل بعمامته وشباكه الذى كان بدار الخلافة فى بغداد وتجلس الخلفاء فيه ، وهو هذا الشباك كما ذكر فى أخبار دار الوزارة من هذا الكتاب .

فلما ورد هذا الشباك من بغداد ، عمل بدار الوزارة ، واستمر فيها . الى أن عمر الأمير بيبرس الخانقاه المذكورة ، فجعل هذا الشباك بقبة الخانقاه ، وهو بها الى يومنا

هذا . وانه لشباك جليل القدر حشم ، يكاد يتبين عليه أبهة الخلافة .

ولما شرع في بنائها رفق بالناس ولاطفهم ، ولم يعسف فيها أحدا في بنائها ، ولا أكره صانعا ، ولا غصب من آلاتها شيئا ، وانما اشترى دار الأمير عز الدين الأفرم التى كانت بمدينة مصر ، واشترى دار الوزير هبة الله بن صاعد الفائزى ، وأخذ ما كان فيهما من الأنقاض ، واشترى أيضا دار الأنماط التى كانت برأس حارة الجودرية من القاهرة ونقضها وما حولها ، واشترى أملاكا كانت قد * بنيت في أرض دار الوزارة من ملاكها بغير اكراه وهدمها . فكان قياس أرض الخانقاه والرباط والقبة نحو فدان وثلث .

وعندما شرع في بنائها حضر اليه الأمير ناصر الدين محمد ، ابن الأمير بكتاش الفخرى أمير سلاح ، وأراد التقرب لخاطره ، وعرفه أن بالقصر الذى فيه سكن أبيه مغارة تحت الأرض كبيرة ، يذكر أن فيها ذخيرة من ذخائر الخلفاء الفاطميين ، وأنهم لما فتحوها لم يجدوا بها سوى رخام كثير ، فسدوها ولم يتعرضوا لشىء مما فيها . فسر بذلك ، وبعث عدة من الأمراء فتحوا المكان ، فاذا فيه رخام جليل القدر عظيم الهيئة ، فيه ما لايوجد مثله لعظمه ، فنقله من المغارة ، ورخم منه الخانقاه والقبة وداره التى بالقرب من البندقانيين وحارة زويلة ، وفضل منه شىء كثير عهدى أنه مختزن بالخانقاه ، وأظنه أنه باق هناك .

ولما كملت في سنة تسع وسبعمائة ، قرر بالخانقاه أربعمائة صوفى ، وبالرباط مائة من الجند وأبناء الناس الذين قعد بهم الوقت ، وجعل بها مطبخا يفرق على كل منهم في كل يوم اللحم والطعام وثلاثة أرغفة من خبز البر ، وجعل لهم الحلوى ، ورتب بالقبة درسا للحديث النبوى له مدرس وعنده عدة من المحدثين ، ورتب القراء بالشباك الكبير يتناوبون القراءة فيه ليلا ونهارا ، ووقف عليها عدة ضياع بدمشق وحماة ، ومنية المخلص بالجيزة من أرض مصر ، وبالصعيد والوجه البحرى ، والربع والقيسارية بالقاهرة .

فلما خلع من السلطنة ، وقبض عليه الملك الناصر محمد بن قلاوون وقتله ، أمر بغلقها فغلقت ، وأخذ سائر ما كان موقوفا عليها ، ومحا اسمه من الطراز الذى بظاهرها فوق الشبابيك ، وأقامت نحو عشرين سنة معطلة . ثم انه أمر بفتحها في أول سنة ست وعشرين وسبعمائة ففتحت ، وأعاد اليها ما كان موقوفا عليها .

واستمرت الى أن شرقت أراضى مصر لقصور مد النيل ، أيام الملك الأشرف شعبان ابن حسين في سنة ست وسبعين وسبعمائة ، فبطل طعامها ، وتعطل مطبخها ، واستمر الخبز ومبلغ سبعة دراهم لكل واحد في الشهر بدل الطعام ، ثم صار لكل واحد منهم في الشهر عشرة دراهم . فلما قصر مد النيل في سنة ست وتسعين وسبعمائة بطل الخبز أيضا ، وغلق المخبز من الخانقاه ، وصار الصوفية يأخذون في كل شهر مبلغا من الفلوس معاملة القاهرة ، وهم على ذلك الى اليوم .

(*) ص ٤١٦ جـ ٢ ؛ ط . بولاق .

وقد أدركتها ولا يمكّن بوابها غير أهلها من العبور اليها والصلاة فيها لما لها فى النفوس من المهابة ، ويمنع الناس من دخولها حتى الفقهاء والأجناد ، وكان لا ينزل بها أمرد وفيها جماعة من أهل العلم والخير . وقد ذهب ما هنالك ، فنزل بها اليوم عدة من الصغار ومن الأساكفة وغيرهم من العامة . الا أن أوقافها عامرة ، وأرزاقها دارة بحسب نقود مصر .

ومن حسن بناء هذه الخانقاه أنه لم يحتج فيها الى مرمة منذ بنيت الى وقتنا هذا . وهى مبنية بالحجر ، وكلها عقود محكمة بدل السقوف الخشب ، وقد سمعت غير واحد يقول : انه لم تبن خانقاه أحسن من بنائها .

«الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير المنصورى» : اشتراه الملك المنصور قلاوون صغيرا ، ورقاه فى الخدم السلطانية الى أن جعله أحد الأمراء ، وأقامه جاشنكير ، وعرف بالشجاعة .

فلما مات الملك المنصور ، خدم ابنه الملك الأشرف خليلا ... الى أن قتله الأمير بيدرا بناحية تروجة . فكان أول من ركب على بيدرا فى طلب ثأر الملك الأشرف ، وكان مهابا بين خشداشيته ، فركبوا معه ، وكان من نصرتهم على بيدرا وقتله ما قد ذكر فى موضعه .

فاشتهر ذكره ، وصار أستادار السلطان فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون فى سلطنته الثانية ، رفيقا للأمير سلار نائب السلطنة ، وبه قويت الطائفة البرجية من المماليك ، واشتد بأسهم ، وصار الملك الناصر تحت حجر بيبرس وسلار الى أن أنف من ذلك ، وصار الى الكرك .

فأقيم بيبرس فى السلطنة يوم السبت ثالث عشرى شوال سنة ثمان وسبعمائة . فاستضعف جانبه ، وانحط قدره ، ونقصت مهابته ، وتغلب عليه الأمراء والمماليك ، واضطربت أمور المملكة لمكان الأمير سلار ، وكثرة حاشيته ، وميل القلوب الى الملك الناصر .

وفى أيامه عمل الجسر من قليوب الى مدينة دمياط ، وهو مسيرة يومين طولا فى عرض أربع قصبات من أعلاه وست قصبات من أسفله ، حتى انه كان يسير عليه ستة من الفرسان معا بحذاء بعضهم . وأبطل سائر الخمارات من السواحل وغيرها من بلاد الشام ، وسامح بما كان من المقرر عليها للسلطان ، وعوض الأجناد بدله ، وكبست أماكن الريب والفواحش بالقاهرة ومصر ، وأريقت الخمور ، وضرب أناس كثير فى ذلك بالمقارع ، وتتبع أماكن الفساد ، وبالغ فى ازالته ، ولم يراع فى ذلك أحدا من الكتاب ولا من الأمراء . فخف المنكر ، وخفى الفساد .

الا أن الله أراد زوال دولته ، فسولت له نفسه أن بعث الى الملك الناصر بالكرك يطلب منه ما خرج به معه من الخيل والمماليك ، وحمل الرسول اليه بذلك مشافهة أغلظ عليه فيها . فحنق من ذلك ، وكاتب نواب الشام وأمراء مصر فى السر يشكو ما حل به ، وترفق بهم وتلطف بهم * فرقوا له ، وامتعضوا لما به ،

(*) ص٤١٧ ، جـ٢ ، ط. بولاق .

ونزل الناصر من الكرك ، وبرز عنها . فاضطرب الأمر بمصر ، واختل الحال من بيبرس ، وأخذ العسكر يسير من مصر الى الناصر شيئا بعد شيء ... وسار الناصر من ظاهر الكرك يريد دمشق فى غرة شعبان سنة تسع وسبعمائة . فعندما نزل الكسوة ، خرج الأمراء وعامة أهل دمشق الى لقائه ومعهم شعار السلطنة ، ودخلوا به الى المدينة — وقد فرحوا به فرحا كثيرا — فى ثانى عشر شعبان ، ونزل بالقلعة ، وكاتب النواب . فقدموا عليه ، وصارت ممالك الشام كلها تحت طاعته ، يخطب له بها ، ويجبى اليه مالها .

ثم خرج من دمشق بالعساكر يريد مصر ، وأمر بيبرس كل يوم فى نقص ... الى أن كان يوم الثلاثاء سادس عشر رمضان . فترك بيبرس المملكة ، ونزل من قلعة الجبل ومعه خواصه الى جهة باب القرافة ، والعامة تصيح عليه وتسبه ، وترجمه بالحجارة — عصبية للملك الناصر ، وحبا له — حتى سار عن القرافة . ودعا الحرس بالقلعة ، فى يوم الأربعاء للملك الناصر ، فكانت مدة سلطنة بيبرس عشرة أشهر وأربعة وعشرين يوما .

وقدم الملك الناصر الى قلعة الجبل أول يوم من شوال ، وجلس على تخت المملكة ، واستولى على السلطنة مرة ثالثة . ونزل بيبرس بأطفيح ، ثم صار منها الى إخميم ، فلما صار بها تفرق عنه من كان معه من الأمراء والمماليك ، فصاروا الى الملك الناصر ، فتوجه فى نفر يسير على طريق السويس يريد بلاد الشام ، فقبض عليه شرقى غزة ، وحمل مقيدا الى الملك الناصر .

فوصل قلعة الجبل يوم الأربعاء ثالث عشر ذى القعدة ، وأوقف بين يدى السلطان ، وقبل الأرض ، فعنفه ، وعدد عليه ذنوبا ، ووبخه ، ثم أمر به فسجن فى موضع الى ليلة الجمعة خامس عشره ، وفيها لحق بربه تعالى . فحمل الى القرافة ، ودفن فى تربة الفارس أقطاى ، ثم نقل منها بعد مدة الى تربته بسفح المقطم فقبر بها زمانا طويلا ، ثم نقل منها ثالث مرة الى خانقاهه ، ودفن بقبتها ، وقبره هناك الى يومنا هذا . وأدركت بالخانقاه المذكورة شيخا من صوفيتها أخبرنى أنه حضر نقله من تربته بالقرافة الى قبة الخانقاه ، وأنه تولى وضعه فى مدفنه بنفسه .

وكان رحمه الله خيرا عفيفا ، كثير الحياء ، وافر الحرمة ، جليل القدر ، عظيما فى النفوس ، مهاب السطوة فى أيام امرته . فلما تلقب بالسلطنة ، ووسم باسم الملك ، اتضع قدره ، واستضعف جانبه ، وطمع فيه ، وتغلب عليه الأمراء والمماليك ، ولم تنجح مقاصده ، ولا سعد فى شىء من تدبيره الى أن انقضت أيامه ، وأناخ به حمامه ، رحمه الله .

الخانقاه الجمالية

هذه الخانقاه بالقرب من درب راشد ، يسلك اليها من رحبة باب العيد . بناها الأمير الوزير مغلطاى الجمالى فى سنة ثمانين وسبعمائة . وقد تقدم ذكرها عند ذكر المدارس من هذا الكتاب .

الخانقاه الظاهرية

هذه الخانقاه بخط بين القصرين ، فيما بين المدرسة الناصرية ودار الحديث الكاملية . أنشأها الملك الظاهر برقوق فى سنة ست وثمانين وسبعمائة . وقد ذكرت عند ذكر الجوامع من هذا الكتاب .

الخانقاه الشرابيشية

هذه الخانقاه فيما بين الجامع الأقمر وحارة برجوان ، فى آخر المنحر الذى كان للخلفاء ، وهو يعرف اليوم بالدرب الأصفر ، ويتوصل منها الى الدرب الأصفر تجاه خانقاه بيبرس ، وبابها الأصلى من زقاق ضيق بوسط سوق حارة برجوان . أنشأها الصدر الأجل نور الدين على بن محمد بن محاسن الشرابيشى ، وكان من ذوى الغنى واليسار ، صاحب ثراء متسع ، وله عدة أوقاف على جهات البر والقربات ، ومات فى ... ...[1] .

الخانقاه المهمندارية

هذه الخانقاه خارج باب زويلة ، فيما بين رأس حارة اليانسية وجامع الماردينى . بناها الأمير شهاب الدين أحمد بن أقوش العزيزى ، المهمندار ونقيب الجيوش ، فى سنة خمس وعشرين وسبعمائة . وقد ذكرت فى المدارس من هذا الكتاب .

(١) هكذا بياض فى الاصل .

خانقاه بشتاك *

هذه الخانقاه خارج القاهرة ، على جانب الخليج من البر الشرقى ، تجاه جامع بشتاك . أنشأها الأمير سيف الدين بشتاك الناصرى ، وكان فتحها أول يوم من ذى الحجة سنة ست وثلاثين وسبعمائة ، واستقر فى مشيختها شهاب الدين القدسى ، وتقرر عنده عدة من الصوفية ، وأجرى لهم الخبز والطعام فى كل يوم .

فاستمر ذلك مدة ، ثم بطل ، وصار يصرف لأربابها عوضا عن ذلك فى كل شهر مبلغ ، وهى عامرة الى وقتنا هذا . وقد نسب اليها جماعة ، منهم الشيخ الأديب البارع بدر الدين محمد بن ابراهيم ، المعروف بالبدر البشتكى .

خانقاه ابن غراب

هذه الخانقاه خارج القاهرة ، على الخليج الكبير من بره الشرقى ، بجوار جامع بشتاك من غربيه . أنشأها القاضى الأمير سعد الدين ابراهيم بن عبد الرزاق بن غراب الاسكندرانى ناظر الخاص ، وناظر الجيوش ، وأستادار السلطان ، وكاتب السر ، وأحد أمراء الألوف الأكابر . أسلم جده غراب ، وباشر بالاسكندرية حتى ولى نظر الثغر ، ونشأ ابنه عبد الرزاق هناك ، فولى أيضا نظر الاسكندرية ، وولد له ماجد وابراهيم .

فلما تحكم الأمير جمال الدين محمود بن على فى الأموال أيام الملك الظاهر برقوق ، اختص بابراهيم ، وحمله الى القاهرة وهو

(*) ص٤١٨ جـ٢ ، ط.بولاق .

صبى ، واعتنى به ، واستكتبه فى خاص أمواله حتى عرفها .

فتنكر محمود عليه لأمر بدا منه فى ماله ، وهم به ، فبادر الى الأمير علاء الدين على بن الطبلاوى ، وترامى عليه — وهو يومئذ قد نافس محمودا — فأوصله بالسلطان ، وأمكنه من سماع كلامه ، فملأ أذنه بذكر أموال محمود ، ووغر صدره عليه حتى نكبه ، واستصفى أمواله كما ذكر فى خبره عند ذكر مدرسة محمود من هذا الكتاب .

وولى ابن غراب نظر الديوان المفرد فى حادى عشر صفر سنة ثمان وتسعين وسبعمائة وعمره عشرون سنة أو نحوها — وهى أول وظيفة وليها — فاختص بابن الطبلاوى ولازمه وملأ عينه بكثرة المال . فتحدث له فى وظيفة نظر الخاص ، عوضا عن سعد الدين أبى الفرج ابن تاج الدين موسى ، فوليها فى تاسع عشر ذى القعدة ، وغص بمكان ابن الطبلاوى ، فعمل عليه عند السلطان حتى غيره غليه ، وولاه أمره ، فقبض عليه فى داره وعلى سائر أسبابه فى شعبان فى سنة ثمانمائة .

ثم أضيف اليه نظر الجيوش ، عوضا عن شرف الدين محمد الدمامينى ، فى تاسع ذى القعدة سنة ثمانمائة ، فعف عن تناول الرسوم وأظهر من الفخر والحشمة والمكارم أمرا كبيرا . وقدر الله موت السلطان فى شوال سنة احدى وثمانمائة ، بعدما جعله من جملة أوصيائه ، فباطن الأمير يشبك الخازندار على ازالة الأمير الكبير أيتمش القائم بدولة الناصر فرج بن برقوق ، وعمل لذلك أعمالا ، حتى كانت الحرب — بعد موت السلطان الملك الظاهر — بين الأمير أيتمش وبين الأمير يشبك ، فى ربيع الأول سنة اثنتين وثمانمائة ، التى انهزم فيها أيتمش وعدة من الأمراء الى الشام .

وتحكم الأمير يشبك . فاستدعى عند ذلك ابن غراب أخاه فخر الدين ماجدا من الاسكندرية ، وهو يلى نظرها ، الى قلعة الجبل ، وفوضت اليه وزارة الملك الناصر فرج ابن برقوق ، فقاما بسائر أمور الدولة ... الى أن ولى الأمير يلبغا السالمى الأستادارية . فسلك معه عادته من المنافسة ، وسعى به عند الأمير يشبك حتى قبض عليه ، وتقلد وظيفة الأستادارية عوضا عن السالمى ، فى رابع عشر رجب سنة ثلاث وثمانمائة ، مضافا الى نظر الخاص ونظر الجيوش . فلم يغير زى الكتاب ، وصار له ديوان كدواوين الأمراء ، ودقت الطبول على بابه ، وخاطبه الناس وكاتبوه بالأمير ، وسار فى ذلك سيرة ملوكية من كثرة العطاء ، وزيادة الأسمطة ، والاتساع فى الأمور ، والازدياد من المماليك والخيول ، والاستكثار من الخول والحواشى ... حتى لم يكن أحد يضاهيه فى شىء من أحواله . الى أن تنازع الأميران حكم وسودون طاز مع الأمير يشبك ، فكان هو المتولى كبر تلك الحروب .

ثم انه خرج من القاهرة مغاضبا لأمراء الدولة ، وصار الى ناحية تروجة يريد جمع العربان ومحاربة الدولة ، فلم يتم له ذلك وعاد ، فدخل القاهرة على حين غفلة ، فنزل عند جمال الدين يوسف الأستادار ، فقام

بإصلاح أمره مع الأمراء حتى حصل له الغرض ، فظهر واستولى على ما كان عليه .

الى أن تنكرت رجال الدولة على الملك الناصر ، فقام مع الأمير يشبك بحرب السلطان الى أن انهزم الأمير يشبك بأصحابه الى الشام ، فخرج معه في سنة تسع وثمانمائة ، وأمده ومن معه بالأموال العظيمة حتى صاروا عند الأمير شيخ نائب الشام ، واستنفز العساكر لقتال الملك الناصر ، وحرضهم على المسير الى حربه ، وخرج من دمشق مع العساكر يريد القاهرة .

وكان من وقعة السعيدية ما كان ، على ما هو مذكور فى خبر الملك الناصر ، عند ذكر الخانقاه الناصرية من هذا الكتاب . فاختفى الأمير يشبك وطائفة من الأمراء بالقاهرة ، ولحق ابن غراب بالأمير اينال باى ابن قجماس — وهو يومئذ كبير الأمراء * الناصرية — وملأ عينه بالمال . فتوسط له مع الملك الناصر حتى أمنه ، وأصبح فى داره وجميع الناس على بابه .

ثم تقلد وظيفة نظر الجيوش ، واختص بالسلطان ، وما زال به حتى استرضاه على الأمير يشبك ومن معه من الأمراء ، وظهروا من الاستتار ، وصاروا بقلعة الجبل ، فخلع عليهم السلطان وأمَّرهم ، وصاروا الى دورهم . فثقل على ابن غراب مكان فتح الدين فتح الله كاتب السر ، فسعى به حتى قبض عليه ، وولى مكانه كتابة السر ليتمكن من أغراضه .

فلما استقر فى كتابة السر ، أخذ فى نقض دولة الناصر ، الى أن تم له مراده ، فصارت الدولة كلها على الناصر ، فخلا به ، وخيل له ، وحسن له الفرار ، فانقاد له ، وترامى عليه ، فأعد له رجلين أحدهما من مماليكه ، ومعهما فرسان ، ووقفا بهما وراء القلعة . وخرج الناصر وقت القائلة ، ومعه مملوك من مماليكه يقال له بيغوت ، وركبا الفرسين ، وسارا الى ناحية طرا ، ثم عادا مع قاصدى ابن غراب فى مركب من المراكب النيلية ليلا الى دار ابن غراب ، ونزلا عنده ، وقد خفى ذلك على جميع أهل الدولة .

وقام ابن غراب بتولية عبد العزيز بن برقوق ، وأجلسه على تخت الملك عشاء ، ولقبه بالملك المنصور ، ودبر الدولة كما أحب مدة سبعين يوما . الى أن أحس من الأمراء بتغير ، فأخرج الناصر ليلا ، وجمع عليه عدة من الأمراء والمماليك ، وركب معه بلامة الحرب الى القلعة . فلم يلبث أصحاب المنصور وانهزموا ، ودخل الناصر الى القلعة ، واستولى على المملكة ثانيا ، فألقى مقاليد الدولة الى ابن غراب ، وفوض اليه ما وراء سريره ، ونظمه فى خاصته ، وجعله من أكابر الأمراء ، وناط به جميع الأمور .

فأصبح مولى نعمة كل من السلطان والأمراء : يمن عليهم بأنه أبقى لهم مهجهم ، وأعاد اليهم سائر ما كانوا قد سلبوه من ملكهم ، وأمدهم بماله وقت حاجتهم وفاقتهم اليه ، ويفخر ويتكثر بأنه أقام دولة وأزال دولة ، ثم أزال ما أقام وأقام ما أزال ، من

(*) ص٤١٩ جـ٢ ، ط. بولاق .

غير حاجة ولا ضرورة ألجأته الى شيء من ذلك ، وأنه لو شاء أخذ الملك لنفسه .

وترك كتابة السر لغلامه وأحد كتابه فخر الدين بن المزوق ، ترفعا عنها واحتقارا بها ، ولبس هيئة الأمراء — وهى الكلوتة والقباء — وشد السيف فى وسطه ، وتحول من داره التى على بركة الفيل الى دار بعض الأمراء بحدرة البقر . فغاضبه القضاة ، وكان عند الانتهاء الانحطاط .

ونزل به مرض الموت ، فنال فى مرضه من السعادة ما لم يسمع بمثله لأحد من أبناء جنسه ، وصار الأمير يشبك ومن دونه من الأمراء يترددون اليه ، وأكثرهم اذا دخل عليه وقف قائما على قدميه حتى ينصرف ، الى أن مات يوم الخميس تاسع عشر شهر رمضان سنة ثمان وثمانمائة ، ولم يبلغ ثلاثين سنة .

وكانت جنازته أحد الأمور العجيبة بمصر ، لكثرة من شهدها من الأمراء والأعيان وسائر أرباب الوظائف ، بحيث استأجر الناس السقائف والحوانيت لمشاهدتها ، ونزل السلطان للصلاة عليه وصعد الى القلعة ، فدفن خارج باب المحروق .

وكان من أحسن الناس شكلا ، وأحلاهم منظرا ، وأكرمهم يدا ، مع تدين وتعفف عن القاذورات ، وبسط يد بالصدقات . الا أنه كان غدارا ، لا يتوانى عن طلب عدوه ، ولا يرضى من نكبته بدون اتلاف النفس . فكم ناطح كبشا ، وثل عرشا ، وعالج جبالا شامخة ، واقتلع دولا من أصولها الراسخة .

وهو أحد من قام بتخريب اقليم مصر ، فانه ما زال يرفع سعر الذهب حتى بلغ كل دينار الى مائتى درهم وخمسين درهما من الفلوس ، بعدما كان بنحو خمسة وعشرين درهما ، ففسدت بذلك معاملة الاقليم ، وقلت أمواله ، وغلت أسعار المبيعات ، وساءت أحوال الناس . الى أن زالت البهجة ، وانطوى بساط الرقة ، وكاد الاقليم يدمر — كما ذكر ذلك عند ذكر الأسباب التى نشأ عنها خراب مصر من هذا الكتاب — عفا الله عنه وسامحه . فلقد قام بمواراة آلاف من الناس الذين هلكوا فى زمان المحنة سنة ست وسنة سبع وثمانمائة وتكفينهم ، فلم ينس الله ذلك ، وستره كما ستر المسلمين « وما كان ربك نسيا » .

الخانقاه البندقدارية

هذه الخانقاه بالقرب من الصليبة . كان موضعها يعرف قديما بدويرة مسعود ، وهى الآن تجاه المدرسة الفارقانية وحمام الفارقانى . أنشأها الأمير علاء الدين أيدكين البندقدارى الصالحى النجمى ، وجعلها مسجدا لله تعالى وخانقاه ، ورتب فيها صوفية وقراء فى سنة ثلاث وثمانين وستمائة . وفى سنة ثمان وأربعين وستمائة ، استنابه الملك المعز أيبك ، فواظب الجلوس بالمدارس الصالحية مع نواب دار العدل .

والى أيدكين هذا ينسب الملك الظاهر بيبرس البندقدارى ، لأنه كان أولا مملوكه ، ثم انتقل منه الى الملك الصالح نجم الدين

أيوب ، فعرف بين المماليك البحرية ببيبرس البندقداري .

وعاش أيدكين الى أن صار بيبرس سلطان مصر ، وولاه نيابة السلطنة بحلب في سنة تسع وخمسين وستمائة — وكان الغلاء بها شديدا — فلم تطل أيامه ، وفارقها بدمشق ، بعد محاربة سنقر الأشقر * والقبض عليه ، في حادي عشر صفر سنة تسع وخمسين وستمائة فأقام في النيابة نحو شهر ، وصرفه الأمير علاء الدين طيبرس الوزيرى .

فلما خرج السلطان الى الشام فى سنة احدى وستين وستمائة ، وأقام بالطور ، أعطاه امرة بمصر وطبلخاناه فى ربيع الآخر منها .
ومات في ربيع الآخر سنة أربع وثمانين وستمائة ، ودفن بقبة هذه الخانقاه .

خانقاه شيخو

هذه الخانقاه في خط الصليبة ، خارج القاهرة ، تجاه جامع شيخو . أنشأها الأمير الكبير سيف الدين شيخو العمرى فى سنة ست وخمسين وسبعمائة . كان موضعها من جملة قطائع أحمد بن طولون ، وآخر ما عرف من خبره أنه كان مساكن للناس ، فاشتراها الأمير شيخو من أربابها ، وهدمها فى المحرم من هذه السنة .

فكانت مساحة أرضها زيادة على فدان . فاختط فيها الخانقاه وحمامين وعدة حوانيت يعلوها بيوت لسكنى العامة ، ورتب بها دروسا عدة : منها أربعة دروس لطوائف الفقهاء الأربعة — وهم الشافعية والحنفية والمالكية والحنابلة — ودرسا للحديث النبوى ، ودرسا لاقراء القرآن بالروايات السبع ، وجعل لكل درس مدرسا وعنده جماعة من الطلبة ، وشرط عليهم حضور الدرس وحضور وظيفة التصوف .

وأقام شيخنا أكمل الدين محمد بن محمود في مشيخة الخانقاه ومدرس الحنفية ، وجعل اليه النظر فى أوقاف الخانقاه ، وقرر فى تدريس الشافعية الشيخ بهاء الدين أحمد بن على السبكي ، وفى تدريس المالكية الشيخ خليلا — وهو متجند الشكل وله اقطاع فى الحلقة — وفى تدريس الحنابلة قاضى القضاة موفق الدين الحنبلي ، ورتب لكل من الطلبة فى اليوم الطعام واللحم والخبز ، وفى الشهر الحلوى والزيت والصابون ، ووقف عليها الأوقاف الجليلة .

فعظم قدرها ، واشتهر فى الأقطار ذكرها ، وتخرج بها كثير من أهل العلم ، وأربت فى العمارة على كل وقف بديار مصر . الى أن مات الشيخ أكمل الدين فى شهر رمضان سنة ست وثمانين وسبعمائة ، فوليها من بعده جماعة .

ولما حدثت المحن كان بها مبلغ كبير من المال الذى فاض عن مصروفها ، فأخذه الملك الناصر فرج ، وأخذت أحوالها تتناقص حتى صار المعلوم يتأخر صرفه لأرباب الوظائف بها عدة أشهر ، وهى الى اليوم على ذلك .

الخانقاه الجاولية

هذه الخانقاه على جبل يشكر ، بجوار مناظر الكبش ، فيما بين القاهرة ومصر .

(*) ص ٤٢٠ جـ ٢ ، ط . بولاق .

أنشأها الأمير علم الدين سنجر الجاولى فى سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة ، وقد تقدم ذكرها فى المدارس .

خانقاه الجيبغا المظفرى

هذه الخانقاه خارج باب النصر ، فيما بين قبة النصر وتربة عثمان بن جوشن السعودى . أنشأها الأمير سيف الدين الجيبغا المظفرى ، وكان بها عدة من الفقراء يقيمون بها ، ولهم فيها شيخ ، ويحضرون فى كل يوم وظيفة التصوف ، ولهم الطعام والخبز .

وكان بجانبها حوض ماء لشرب الدواب ، وسقاية بها الماء العذب لشرب الناس ، وكتّاب يقرأ فيه أطفال المسلمين الأيتام كتاب الله تعالى ويتعلمون الخط ، ولهم فى كل يوم الخبز وغيره . وما برحت على ذلك الى أن أخرج الأمير برقوق أوقافها فتعطلت ، وأقام بها جماعة من الناس مدة ، ثم تلاشى أمرها . وهى الآن باقية من غير أن يكون فيها سكان ، وقد تعطل حوضها ، وبطل مكتب السبيل .

« الجيبغا المظفرى » الخاصكى : تقدم فى أيام الملك المظفر حاجى ابن الملك الناصر محمد ابن قلاوون تقدما كثيرا ، بحيث لم يشاركه أحد فى رتبته . فلما قام الملك الناصر حسن ابن محمد بن قلاوون فى السلطنة ، أقره على رتبته ، وصار أحد أمراء المشورة الذين يصدر عنهم الأمر والنهى .

فلما اختلف أمراء الدولة ، أخرج الى دمشق فى ربيع الأول سنة تسع وأربعين وسبعمائة ، وأقام بدمشق الى شعبان ، وسار الى نيابة طرابلس — عوضا عن الأمير بدر الدين مسعود بن الخطيرى — فلم يزل على نيابتها الى شهر ربيع الأول سنة خمسين وسبعمائة . فكتب الى الأمير أرغون شاه نائب دمشق يستأذنه فى التصيد الى الناعم ، فأذن له ، وسار من طرابلس ، وأقام على بحيرة حمص أياما يتصيد .

ثم ركب ليلا بمن معه ، وساق الى خان لاجين ظاهر دمشق ، فوصله أول النهار ، وأقام به يومه . ثم ركب منه بمن معه ليلا ، وطرق أرغون شاه وهو بالقصر الأبلق ، وقبض عليه وقيده فى ليلة الخميس ثالث عشرى شهر ربيع الأول ، وأصبح وهو * بسوق الخيل ، فاستدعى الأمراء ، وأخرج لهم كتاب السلطان بامساك أرغون شاه ، فأذعنوا له ، واستولى على أموال أرغون شاه .

فلما كان يوم الجمعة رابع عشريه ، أصبح أرغون شاه مذبوحا ، فأشاع الجيبغا أن أرغون شاه ذبح نفسه . وفى يوم الثلاثاء أنكر الأمراء أمره ، وثاروا لحربه ، فركب وقاتلهم ، وانتصر عليهم ، وقتل جماعة منهم ، وأخذ الأموال ، وخرج من دمشق ، وسار الى طرابلس فأقام بها .

وورد الخبر من مصر الى دمشق بانكار كل ماوقع ، والاجتهاد فى مسك الجيبغا . فخرجت عساكر الشام اليه ، ففر من طرابلس ، فأدركه عسكر طرابلس عند بيروت ، وحاربوه حتى قبضوا عليه ، وحمل الى عسكر دمشق ، فقيد

(*) ص٤٢١ جـ٢ ، ط. بولاق .

وسجن بقلعة دمشق فى ليلة السبت سادس عشر ربيع الآخر ، هو وفخر الدين اياس ، ثم وسط بمرسوم السلطان تحت قلعة دمشق بحضور عساكر دمشق ، ووسط معه الأمير فخر الدين اياس ، وعلقا على الخشب فى ثامن عشر ربيع الآخر سنة خمسين وسبعمائة ، وعمره دون العشرين سنة ، فما طر شاربه وكأنه البدر حسنا والغصن اعتدالا .

خانقاه سرياقوس

هذه الخانقاه خارج القاهرة من شماليها ، على نحو بريد منها ، بأول تيه بنى اسرائيل بسماسم سرياقوس . أنشأها السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وذلك أنه لما بنى الميدان والأحواش فى بركة الجب — كما ذكر فى موضعه من هذا الكتاب عند ذكر بركة الجب — اتفق أنه ركب على عادته للصيد هناك ، فأخذه ألم عظيم فى جوفه كاد يأتى عليه ، وهو يتجلد ويكتم ما به حتى عجز .

فنزل عن الفرس والألم يتزايد به ، فتنذر لله ان عافاه الله ليبنين فى هذا الموضع موضعا يعبد الله تعالى فيه ، فخف عنه ما يجده ، وركب فقضى نهمته من الصيد ، وعاد الى قلعة الجبل ، فلزم الفراش مدة أيام ، ثم عوفى .

فركب بنفسه ، ومعه عدة من المهندسين ، واختط على قدر ميل من ناحية سرياقوس هذه الخانقاه ، وجعل فيها مائة خلوة لمائة صوفى ، وبنى بجانبها مسجدا تقام به الجمعة ، وبنى بها حماما ومطبخا . وكان ذلك فى ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة .

فلما كانت سنة خمس وعشرين وسبعمائة ، كمل ما أراد من بنائها ، وخرج اليها بنفسه ومعه الأمراء والقضاة ومشايخ الخوانك ، ومدت هناك أسمطة عظيمة بداخل الخانقاه فى يوم الجمعة سابع جمادى الآخرة . وتصدر قاضى القضاة بدر الدين محمد بن جماعة الشافعى لاسماع الحديث النبوى ، وقرأ عليه ابنه عز الدين عبد العزيز عشرين حديثا تساعيا ، وسمع السلطان ذلك ، وكان جمعا موفورا ، وأجاز قاضى القضاة الملك الناصر ومن حضر برواية ذلك ، وجميع ما يجوز له روايته .

وعندما انقضى مجلس السماع ، قرر السلطان في مشيخة هذه الخانكاه الشيخ مجد الدين موسى بن أحمد بن محمود الأقصراى ، ولقبه بشيخ الشيوخ . فصار يقال له ذلك ولكل من ولى بعده ، وكان قبل ذلك لا يلقب بشيخ الشيوخ الا شيخ خانقاه سعيد السعداء .

وأحضرت التشاريف السلطانية ، فخلع على قاضى القضاة بدر الدين ، وعلى ولده عز الدين وعلى قاضى القضاة المالكية ، وعلى الشيخ مجد الدين أبى حامد موسى بن أحمد بن محمود الأقصراى شيخ الشيوخ ، وعلى الشيخ علاء الدين القونوى شيخ خانقاه سعيد السعداء ، وعلى الشيخ قوام الدين أبى محمد عبد المجيد بن أسعد بن محمد الشيرازى شيخ الصوفية بالجامع الجديد الناصرى خارج مدينة مصر ، وعلى جماعة كثيرة ، وخلع على سائر الأمراء وأرباب الوظائف ، وفرق بها ستين ألف درهم فضة ، وعاد الى قلعة الجبل .

فرغب الناس في السكنى حول هذه الخانقاه وبنوا الدور والحوانيت والخانات ، حتى صارت بلدة كبيرة تعرف بخانقاه سرياقوس ، وتزايد الناس بها حتى أنشئ فيها سوى حمام الخانقاه عدة حمامات . وهي الى اليوم بلدة عامرة ، ولا يؤخذ بها مكس ألبتة مما يباع من سائر الأصناف احتراما لمكان الخانقاه ، ويعمل هناك في يوم الجمعة سوق عظيم ، ترد الناس اليه من الأماكن البعيدة ، يباع فيه الخيل والجمال والحمير والبقر والغنم والدجاج والاوز وأصناف الغلات وأنواع الثياب وغير ذلك .

وكانت معاليم هذه الخانكاه من أسنى معلوم بديار مصر : يصرف لكل صوفي في اليوم من لحم الضأن السليخ رطل قد طبخ في طعم شهي ، ومن الخبز النقي أربعة أرطال . ويصرف له في كل شهر مبلغ أربعين درهما فضة : عنها ديناران ، ورطل حلوى ، ورطلان زيتا من زيت الزيتون ، ومثل ذلك من الصابون . ويصرف له ثمن كسوة في كل سنة ، وتوسعة في كل شهر رمضان وفي العيدين وفي مواسم رجب وشعبان وعاشوراء وكلما قدمت فاكهة يصرف له مبلغ لشرائها .

وبالخانقاه خزانة بها السكر والأشربة والأدوية ، وبها الطبائعي والجرائحي والكحال ومصلح الشعر . وفي كل رمضان يفرق * على الصوفية كيزان لشرب الماء ، وتبيض لهم قدورهم النحاس ، ويعطون حتى الأشنان لغسل الأيدي من وضر اللحم ... يصرف ذلك من الوقف لكل منهم . وبالحمام الحلاق لتدليك أبدانهم وحلق رؤوسهم . فكان المنقطع بها لا يحتاج الى شيء غيرها ، ويتفرغ للعبادة ، ثم استجد بعد سنة تسعين وسبعمائة بها حمام أخرى برسم النساء .

وما برحت على ما ذكرنا . الى أن كانت المحن من سنة ست وثمانمائة ، فبطل الطعام ، وصار يصرف لهم في ثمنه مبلغ من نقد مصر ، وهي الآن على ذلك . وأدركت من صوفيتها شخصا شيخا ، يعرف بأبي ظاهر ، ينام أربعين يوما بلياليها لايستيقظ فيها ألبتة ، ثم يستيقظ أربعين يوما لا ينام في ليلها ولا نهارها ... أقام على ذلك عدة أعوام ، وخبره مشهور عند أهل الخانقاه ، وأخبرني أنه لم يكن في النوم الا كغيره من الناس ، ثم كثر نومه حتى بلغ ما تقدم ذكره ، ومات بهذه الخانقاه في نحو سنة ثمانمائة .

ومما قيل في الخانقاه وما أنشأه السلطان بها :

سر نحو سرياقوس وانزل بفنا
أرجائها ياذا النهى والرشد
تلق محلا للسرور والهنا
فيه مقام للتقى والزهد
نسيمه يقول في مسيره
تنبهي ياعذبات الرند
وروضه الريان من خليجه
يقول دع ذكر أراضي نجد

خانقاه أرسلان

هذه الخانقاه فيما بين القاهرة ومصر ، من جملة أراضي منشأة المهراني . أنشأها الأمير بهاء الدين أرسلان الدوادار .

(*) ص٤٢٢ جـ٢ ، ط. بولاق .

« أرسلان » : الأمير بهاء الدين الدوادار الناصرى . كان أولا عند الأمير سلار ، أيام نيابته مصر ، خصيصا به حظيا عنده . فلما قدم الملك الناصر محمد بن قلاوون من الكرك بعساكر الشام ، ونزل بالريدانية ظاهر القاهرة فى شهر رمضان سنة تسع وسبعمائة ، اطلع أرسلان على أن جماعة قد اتفقوا على أن يهجموا على السلطان ، ويفتكوا به يوم العيد أول شوال ، فجاء اليه وعرفه الحال ، وقال له : اخرج الساعة ، واطلع القلعة واملكها .

فقام السلطان ، وفتح باب سر الدهليز ، وخرج من غير الباب ، وصعد قلعة الجبل ، وجلس على سرير الملك ... فرعى السلطان له هذه المناصحة . ولما أخرج الأمير عز الدين أيدمر الدوادار من وظيفته ، رتب أرسلان فى الدوادارية .

وكان يكتب خطا مليحا ، ودربه القاضى علاء الدين بن عبد الظاهر وخرجه وهذبه ، فصار يكتب بخطه الى كتاب السر عن السلطان فى المهمات بعبارة مسددة وافية بالمقصود ، واستولى على السلطان بحيث لم يكن لغيره فى أيامه ذكر ، ولم يشتهر فخر الدين وكريم الدين بعظمة الا بعده ، واجتهدا فى ابعاده فما قدرا على ذلك .

وفى أيام توليته الدوادارية السلطانية ، أنشأ هذه الخانكاه على شاطىء النيل . وكان ينزل فى كل ليلة ثلاثاء اليها من القلعة ويبيت بها ، ويحتفل الناس للحضور اليها ، ويرسل عن السلطان الى مهنا أمير العرب ، ونفع الناس نفعا كبيرا ، وقلدهم مننا جسيمة ، ومات فى ثالث عشرى شهر رمضان سنة سبع عشرة وسبعمائة ، فوجد فى تركته ألف ثوب أطلس ، ونفائس كثيرة ، وعدة تواقيع ومناشير معلمة . فأنكر السلطان معرفتها ، ونسب اليه اختلاسها .

وأول من ولى مشيختها تقى الدين أبوالبقاء محمد بن جعفر بن محمد بن عبد الرحيم الشريف الحسينى القنائى الشافعى ، جد الشيخ عبد الرحيم القنائى الصالح المشهور ، وأبوه ضياء الدين جعفر كان فقيها شافعيا . وكان أبو البقاء هذا عالما عارفا زاهدا ، قليل التكلف ، متقللا من الدنيا ، سمع الحديث وأسمعه . وولد فى سنة خمس وأربعين وستمائة ، ومات ليلة الاثنين رابع عشر جمادى الأولى سنة ثمان وعشرين وسبعمائة ، ودفن بالقرافة .

فتداول مشيختها القضاة الاخنائية ... الى أن كانت آخرا بيد شيخنا قاضى القضاة صدر الدين عبد الوهاب بن أحمد الاخنائى . فلما مات فى سنة تسع وثمانين وسبعمائة ، تلقاها عنه عز الدين بن الصاحب ، ثم وليها من بعده ابنه شمس الدين محمد بن الصاحب ، رحمه الله .

خانقاه بكتمر

هذه الخانقاه بطرف القرافة فى سفح الجبل مما يلى بركة الحبش . أنشأها الأمير بكتمر الساقى ، وابتدأ الحضور بها فى يوم الثلاثاء ثامن شهر رجب سنة ست وعشرين وسبعمائة . وأول من استقر فى مشيختها الشمسى شمس الدين الرومى ، ورتب له عن معلوم المشيخة

فى كل شهر مائة درهم ، وعن معلوم الامامة مبلغ خمسين درهما ، ورتب معه عشرين صوفيا : لكل منهم فى الشهر مبلغ ثلاثين درهما ... فجاءت من أجل مابنى بمصر . ورتب بها صوفية وقراء ، وقرر لهم الطعام والخبز فى كل يوم ، والدراهم والحلوى والزيت والصابون فى كل شهر ، وبنى بجانبها حماما ، وأنشأ * هناك بستانا .

فعمرت تلك الخطة ، وصار بها سوق كبير وعدة سكان ، وتنافس الناس فى مشيختها . الى أن كانت المحن من سنة ست وثمانمائة ، فبطل الطعام والخبز منها ، وانتقل السكان منها الى القاهرة وغيرها ، وخربت الحمام والبستان ، وصار يصرف لأرباب وظائفها مبلغ من نقد مصر ، وأقام فيها رجل يحرسها ، وتمزق ما كان فيها من الفرش والآلات النحاس والكتب والربعات والقناديل النحاس المكفت والقناديل الزجاج المذهب ، وغير ذلك من الأمتعة والنفائس الملوكية ، وخرب ما حولها لخلوه من السكان .

« بكتمر الساقى » : الأمير سيف الدين ، كان أحد مماليك الملك المظفر بيبرس الجاشنكير . فلما استقر الملك الناصر محمد ابن قلاوون فى المملكة بعد بيبرس ، أخذه فى جملة من أخذ من مماليك بيبرس ، ورقاه حتى صار أحد الأمراء الأكابر ، وكتب الى الأمير تنكز ، نائب السلطنة بدمشق ، بعد أن قبض على الأمير سيف الدين طغاى الكبير يقول له : هذا بكتمر الساقى يكون لك بدلا من من طغاى ، اكتب اليه بما تريد من حوائجك .

فعظم بكتمر ، وعلا محله ، وطار ذكره . وكان السلطان لا يفارقه ليلا ولا نهارا الا اذا كان فى الدور السلطانية ، ثم زوجه بجاريته وحظيته ، فولدت لبكتمر ابنه أحمد ، وصار السلطان لا يأكل الا فى بيت بكتمر مما تطبخه له أم أحمد فى قدر من فضة ، وينام عندهم ، ويقوم ، واعتقد الناس أن أحمد ولد السلطان لكثرة ما يطيل حمله وتقبيله .

ولما شاع ذكر بكتمر ، وتسامع الناس به ، قدموا اليه غرائب كل شىء ، وأهدوا اليه كل نفيس ، وكان السلطان اذا حمل اليه أحد من النواب تقدمة لابد أن يقدم لبكتمر مثلها أو قريبا منها ، والذى يصل الى السلطان يهب له غالبه . فكثرت أمواله ، وصارت اشارته لا ترد ، وهو عبارة عن الدولة ، واذا ركب كان بين يديه مائتا عصا نقيب ، وعمر له السلطان القصر على بركة الفيل .

ولما مات بطريق الحجاز فى سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة ، خلف من الأموال والقماش والأمتعة والأصناف والزدخاناه ما يزيد على العادة والحد ، ويستحى العاقل من ذكره . فأخذ السلطان من خيله أربعين فرسا ، وقال : هذه لى ما وهبته اياها . وبيع الباقى من الخيل على ما أخذه الخاصكية بثمن بخس بمبلغ ألف ألف درهم فضة ومائتى ألف درهم وثمانين ألف درهم فضة ، خارجا عما فى الجشارات .

وأنعم السلطان بالزدخاناه والسلاحخاناه التى له على الأمير قوصون بعدما أخذ منها سرجا واحدا وسيفا : القيمة عن ذلك ستمائة

(*) ص٤٢٣ جـ٢ - ط. بولاق .

ألف دينار . وأخذ له السلطان ثلاثة صناديق جوهرا مثمنا لا تعلم قيمة ذلك .

ويبع له من الصينى ، والكتب والختم والربعات ونسخ البخارى ، والدوايات الفولاذ والمطعمة ، والبصم بسقط الذهب وغير ذلك ، ومن الوبر والأطلس ، وأنواع القماش السكندرى والبغدادى وغير ذلك ... شيء كثير الى الغاية المفرطة . ودام البيع لذلك مدة شهور .

وامتنع القاضى شرف الدين النشو ، ناظر الخاص ، من حضور البيع ، واستعفى من ذلك ، فقيل له : لأى شيء فعلت ذلك ؟ قال : ما أقدر أصبر على غبن ذلك ، لأن المائة درهم تباع بدرهم .

ولما خرج مع السلطان الى الحجاز ، خرج بتجمل زائد وحشمة عظيمة ، وهو ساقة الناس كلهم ، وكان ثقله وجماله نظير ما للسلطان ، ولكن يزيد عليه بالزركش وآلات الذهب . ووجد فى خزائته بطريق الحجاز بعد موته خمسمائة تشريف : منها ما هو أطلس بطرز زركش ، وما دون ذلك من خلع أرباب السيوف وأرباب الأقلام ، ووجد معه قيود وجنازير .

وتنكر السلطان له فى طريق الحجاز ، واستوحش كل منهما من صاحبه . فاتفق أنهم فى العود مرض ولده أحمد ، ومرض من بعده ، فمات ابنه قبله بثلاثة أيام ، فحمل فى تابوت مغشى بجلد جمل ، ولما مات بكتمر دفن مع ولده بنخل ، وحث السلطان فى المسير . وكان لا ينام فى تلك السفرة الا فى برج خشب ، وبكتمر عنده وقوصون على الباب ، والأمراء المشايخ كلهم حول البرج بسيوفهم ، فلما مات بكتمر ، ترك السلطان ذلك ، فعلم الناس أن احترازه كان خوفا من بكتمر .

ويقال ان السلطان دخل عليه ، وهو مريض فى درب الحجاز ، فقال له : بينى وبينك الله .

فقال له : كل من فعل شيئا يلتقيه .

ولما مات صرخت زوجته أم ابنه أحمد ، وبكت وأعولت ... الى أن سمعها الناس تتكلم بالقبيح فى حق السلطان ، من جملته : أنت تقتل مملوكك ، أنا ابنى ايش كان ؟ فقال لها : بس ، تفشرين ، هاتى مفاتيح صناديقه ، فأنا أعرف كل شيء أعطيته من الجواهر ، فرمت بالمفاتيح اليه ، فأخذها .

ولما وصل السلطان الى قلعة الجبل أظهر الحزن والندامة عليه ، وأعطى أخاه قمارى امرة مائة وتقدمة ألف ، وكان يقول : ما بقى يجيئنا مثل بكتمر . وأمر فحملت جثته وجثة ابنه الى خانقاه هذه ، ودفنتا بقبتها .

وبدت من السلطان أمور منكرة بعد موت بكتمر . فانه كان يحجر على السلطان ، ويمنعه من مظالم كثيرة ، وكان يتلطف بالناس ، ويقضى حوائجهم ، ويسوسهم أحسن سياسة ، ولا يخالفه السلطان فى شيء ، ومع ذلك فلم يكن له حماية ولا رعاية ، ولا لغلمانه ذكر ، ومن المغرب يغلق * باب اصطبله .

وكان مما له على السلطان من المرتب فى كل يوم مخفيتان ، يأخذ عنهما من بيت المال

(*) ص٤٢٤ ، جـ٢ ، ط. بولاق

كل يوم سبعمائة درهم : عن كل مخفية ثلثمائة وخمسين درهما . وكان السلطان اذا أنعم على أحد بشيء أو ولاه وظيفة ، قال له : روح الى الأمير بكتمر ، وبوس يده . وكان جيد الطباع ، حسن الأخلاق ، لين الجانب ، سهل الانقياد . رحمه الله .

خانقاه قوصون

هذه الخانقاه فى شمالى القرافة ، مما يلى قلعة الجبل ، تجاه جامع قوصون . أنشأها الأمير سيف الدين قوصون ، وكملت عمارتها فى سنة ست وثلاثين وسبعمائة ، وقرر فى مشيختها الشيخ شمس الدين أبا الثناء محمود ابن أبى القاسم أحمد الأصفهانى ، ورتب له معلوما سنيا من الدراهم والخبز واللحم والصابون والزيت ، وسائر ما يحتاج اليه حتى جامكية غلام بغلته ، واستقر ذلك فى الوقف من بعده لكل من ولى المشيخة بها .

وقرر بها جماعة كثيرة من الصوفية ، ورتب لهم الطعام واللحم والخبز فى كل يوم ، وفى الشهر المعلوم من الدراهم ومن الحلوى والزيت والصابون . وما زالت على ذلك الى أن كانت المحن من سنة ست وثمانمائة ، فبطل الطعام والخبز منها ، وصار يصرف لمستحقيها مال من نقد مصر ، وتلاشى أمرها من بعد ما كانت من أعظم جهات البر ، وأكثرها نفعا وخيرا . وقد تقدم ذكر قوصون عند ذكر جامعه من هذا الكتاب .

خانقاه طغاى النجمى

هذه الخانقاه بالصحراء خارج باب البرقية ، فيما بين قلعة الجبل وقبة النصر . أنشأها الأمير طغاى تمر النجمى ، فجاءت من المبانى الجليلة ، ورتب بها عدة من الصوفية ، وجعل شيخهم الشيخ برهان الدين الرشيدى ، وبنى بجانبها حماما ، وغرس فى قبليها بستانا ، وعمل بجانب الحمام حوض ماء للسبيل ترده الدواب ، ووقف على ذلك عدة أوقاف .

ثم ان الحمام والحوض تعطلا مدة . فلما ماتت أرزباى ، زوجة القاضى فتح الدين فتح الله كاتب السر ، فى سنة ثمان وثمانمائة ، دفنها خارج باب النصر ، وأحب أن يبنى على قبرها ويوقف عليها أوقافا . ثم بدا له فنقلها الى هذه الخانقاه ، ودفنها بالقبة التى فيها ، وأدار الساقية ، وملأ الحوض ، ورتب لقراء هذه الخانقاه معلوما ، وعزم على تجديد ما تشعث من بنائها وادارة حمامها . ثم بدا له فأنشأ بجانب هذه الخانقاه تربة ، ونقل زوجته مرة ثالثة اليها ، وجعل أملاكه وقفا على تربته .

« طغاى تمر النجمى » : كان دوادار الملك الصالح اسماعيل بن محمد بن قلاوون . فلما مات الصالح ، استقر على حاله فى أيام أخويه الملك الكامل شعبان والملك المظفر حاجى . وكان من أحسن الأشكال ، وأبدع الوجوه . تقدم فى الدول ، وصارت له وجاهة عظيمة ، وخدمه الناس .

ولم يزل على حاله الى أن لعب به أغرلو فيمن لعب ، وأخرجه الى الشام ، وألحقه بمن

أخذه من غزة ، وذلك فى أوائل جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين وسبعمائة .

وطغاى هذا أول دوادار أخذ امرة مائة وتقدمة ألف ، وذلك فى أول دولة المظفر حاجى . ولما كانت واقعة الأمير ملكتمر الحجازى والأمير آق سنقر وعدة من الأمراء ، فى تاسع عشر ربيع الآخر سنة ثمان وأربعين وسبعمائة ، رمى طغاى تمر سيفه ، وبقى بغير سيف بعض يوم ، ثم ان المظفر أعطاه سيفه . واستمر فى الدوادارية نحو شهر ، وأخرج هو والأمير نجم الدين محمود الوزير ، والأمير سيف الدين بيدمر البدرى على الهجن الى الشام ، فأدركهم الأمير سيف الدين منجك ، وقتلهم فى الطريق .

خانقاه أم أنوك

هذه الخانقاه خارج باب البرقية بالصحراء . التى أنشأتها الخاتون طغاى ، تجاه تربة الأمير طاشتمر الساقى ، فجاءت من أجل المبانى ، وجعلت بها صوفية وقراء ، ووقفت عليها الأوقاف الكثيرة ، وقررت لكل جارية من جواريها مرتبا يقوم بها .

« طغاى الخوندة الكبرى » : زوجة السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وأم ابنة الأمير أنوك ، كانت من جملة امائه ، فأعتقها وتزوجها ، ويقال انها أخت الأمير أقبغا عبد الواحد ، وكانت بديعة الحسن ، باهرة الجمال . رأت من السعادة ما لم يره غيرها من نساء الملوك الترك بمصر ، وتنعمت فى ملاذ ما وصل سواها لمثلها ، ولم يدم السلطان على محبة امرأة سواها ، وصارت خوندة بعد ابنة توكاى ، وأكبر نسائه حتى من ابنة الأمير تنكز .

وحج بها القاضى كريم الدين الكبير ، واحتفل بأمرها ، وحمل لها البقول فى محاير طين على ظهور الجمال ، وأخذ لها الأبقار الحلابة ، فسارت معها طول الطريق لأجل اللبن الطرى وعمل الجبن ، وكان يقلى لها الجبن فى الغداء * والعشاء . وناهيك بمن وصل الى مداومة البقل والجبن فى كل يوم — وهما أخس ما يؤكل — فما عساه يكون بعد ذلك ! وكان القاضى كريم الدين ، والأمير مجلس وعدة من الأمراء ، يترجلون عند النزول ، ويمشون بين يدى محفتها ، ويقبلون الأرض لها كما يفعلون بالسلطان .

ثم حج بها الأمير بشتاك فى سنة تسع وثلاثين وسبعمائة ، وكان الأمير تنكز اذا جهز من دمشق تقدمة الى السلطان ، لابد أن يكون لخوند طغاى منها جزء وافر . فلما مات السلطان الملك الناصر ، استمرت عظمتها من بعده الى أن ماتت ، فى شهر شوال سنة تسع وأربعين وسبعمائة أيام الوباء ، عن ألف جارية وثمانين خادما خصيا وأموال كثيرة جدا .

وكانت عفيفة طاهرة ، كثيرة الخير والصدقات والمعروف . جهزت سائر جواريها ، وجعلت على قبر ابنها — بقبة المدرسة الناصرية بين القصرين — قراء ، ووقفت على ذلك وقفا ، وجعلت من جملته خبزا يفرق على الفقراء ، ودفنت بهذه الخانقاه ، وهى من أعمر الأماكن الى يومنا هذا .

(*) ص٤٢٥ جـ٢ ، ط.بولاق .

خانقاه يونس

هذه الخانقاه من جملة ميدان القبق ، بالقرب من قبة النصر ، خارج باب النصر . أدركت موضعها وبه عواميد تعرف بعواميد السباق ، وهي أول مكان بني هناك .

أنشأها الأمير يونس النوروزي الدوادار . كان من مماليك الأمير سيف الدين جرجي الادريسي ، أحد الأمراء الناصرية ، وأحد عتقائه ، فترقى في الخدم من آخر أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون الى أن صار من جملة الطائفة اليلبغاوية . فلما قتل الأمير يلبغا الخاصكي ، خدم بعده الأمير أستدمر الناصري الأتابك ، وصار من جملة دواداريته .

وما زال يتنقل في الخدم الى أن قام الأمير برقوق — بعد قتل الملك الأشرف شعبان — فكان ممن أعانه ، وقاتل معه ، فرعى له ذلك ، ورقاه الى أن جعله أمير مائة مقدم ألف ، وجعله دواداره لما تسلطن . فسلك في رياسته طريقة جليلة ، ولزم حالة جميلة : من كثرة الصيام والصلاة ، واقامة الناموس الملوكي ، وشدة المهابة ، والاعراض عن اللعب ، ومداومة العبوس ، وطول الجلوس ، وقوة البطش لسرعة غضبه ، ومحبة الفقراء ، وحضور السماع والشغف به ، واكرام الفقهاء وأهل العلم .

وأنشأ بالقاهرة ربعا وقيسارية بخط البندقانيين ، وتربة خارج باب الوزير تحت القلعة ، وأنشأ بظاهر دمشق مدرسة بالشرف الأعلى ، وأنشأ خانا عظيما خارج مدينة غزة ، وجعل بجانب هذه الخانقاه مكتبا يقرأ فيه أيتام المسلمين كتاب الله تعالى ، وبنى بها صهريجا ينقل اليه ماء النيل .

وما زال على وفور حرمته ونفوذ كلمته ، الى أن خرج الأمير يلبغا الناصري ، نائب حلب ، على الملك الظاهر برقوق في سنة احدى وتسعين وسبعمائة . وجهز السلطان الأمير أيتمش ، والأمير يونس هذا ، والأمير جهاركس الخليلي ، وعدة من الأمراء والمماليك ... لقتاله . فلقوه بدمشق وقاتلوه فهزمهم ، وقتل الخليلي ، وفر أيتمش الى دمشق .

ونجا يونس بنفسه يريد مصر . فأخذه الأمير عيفا بن شطي ، أمير الأمراء ، وقتله يوم الثلاثاء ثاني عشري شهر ربيع الآخر سنة احدى وتسعين وسبعمائة ، ولم يعرف له قبر بعدما أعد لنفسه عدة مدافن في غير ما مدينة من مصر والشام .

خانقاه طيبرس

هذه الخانقاه من جملة أراضي بستان الخشاب ، فيما بين القاهرة ومصر ، على شاطيء النيل . أنشأها الأمير علاء الدين طيبرس الخازندار ، نقيب الجيوش ، في سنة سبع وسبعمائة ، بجوار جامعه ، المقدم ذكره عند ذكر الجوامع من هذا الكتاب ، وقرر بها عدة من الصوفية ، وجعل لهم شيخا ، وأجرى لهم المعاليم .

ولم تزل عامرة الى أن حدثت المحن من سنة ست وثمانمائة . فابتاع شخص الوكالة والربعين — المعروفين بربع بكتمر —

والحمامين ، ونقض ذلك ... فخرب الخط ، وصار مخوفا . فلما كان فى سنة أربع عشرة وثمانمائة ، نقل الحضور من هذه الخانقاه الى المدرسة الطيبرسية بجوار الجامع الأزهر ، وهى الآن بصدد أن تدثر ، وتمحى آثارها .

خانقاه أقبغـــا

هذه الخانقاه هى موضـع من المدرسـة الأقبغاوية ، بجوار الجـامع الأزهر ، أفرده الأمير أقبغا عبد الواحد ، وجعل فيه طائفـة يحضرون وظيفة التصوف ، وأقام لهم شيخا ، وأفرد لهم وقفا يختص بهم ، وهى باقية الى يومنا هذا . وله أيضا خانقاه بالقرافة .

الخانقاه الخروبية *

هذه الخانقاه بسـاحل الجيـزة ، تجـاه المقيـاس ، كانت منظـرة من أعظم الدور وأحسنها . أنشأها زكي الدين أبو بكر بن على الخروبى كبير التجار ، ثم توارثها من بعـده أولاد الخروبى التجار بمصر ، فلم تزل بأيديهم الى أن نزلها السلطان المؤيد شيخ ، فى يوم الاثنين ثانى عشر شهر رجب الفرد سنة اثنتين وعشرين وثمانمائة ، وأقام بها . فاقتضى رأيه أن يجعلها خانقاه ، فاسـتدعى بابن الخروبى ليشتريها منه ، فتبرع بما يخصه منها ، وصار اليه باقيها .

فتقدم الى الأمير سيف الدين أبي بكر بن المسروى الأستادار بعملها خانقاه ، وسار منها فى يوم الأربعاء سادس عشره ، فأخذ الأمير أبو بـكر فى عملهـا حتى كملت فى آخر السنة . واستقر فى مشيختها شـمس الدين محمد بن الحمتى الدمشقى الحنبلى ، وخلع عليـه يـوم السـبت سـنة ثلاث وعشرين وثمانمـائة ، ورتب له فى كـل يـوم عشرة مؤيدية : عنها مبلغ سبعين درهما فلوسا ، سوى الخبز والسكن ، وقرر عنده عشرة من الفقراء ، لكل منهم مع الخبز مؤيدى فى كل يوم . فجاءت من أحسن شيء .

ذكر الربط

الربط : جمع رباط ، وهو دار يسكنها أهل طريق الله ... قال ابن سـيده : الرباط من الخيل الخمس فما فوقها ، والرباط والمرابطة ملازمة ثغر العدو ، وأصله أن يربط كل واحد من الفريقين خيله ، ثم صار لزوم الثغر رباطا ، وربما سميت الخيـل نفسها رباطا ، والرباط المواظبة على الأمر .

قال الفارسي : هو ثان من لزوم الثغر ، ولزوم الثغر ثان من رباط الخيل . وقـوله تعالى « وصـابروا ورابطوا » ، قيل معنـاه جاهدوا ، وقيل واظبوا على مواقيت الصلاة .

وقال أبو حفص السـهروردى فى كتـاب « عوارف المعارف » : وأصل الرباط ما تربط فيه الخيول ، ثم قيل لكل ثغر يدفع أهله عمن وراءهم رباط ، فالمجاهد المرابط يدفع عمن وراءه ، والمقيم فى الرباط على طاعة الله يدفع بدعائه البلاء عن العباد والبلاد .

وروى داود بن صالح قال : قال لى أبو سلمة بن عبد الرحمن : يابن أخى ، هل تدرى

(*) ص٤٢٦ جـ٢ ، ط. بولاق .

فى أى شىء نزلت هـذه الآية « اصبروا وصابروا ورابطوا » ؟

قلت : لا .

قال : ياابن أخى ، لم يكن فى زمن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، غزو تربط فيه الخيل ، ولكنه انتظار الصلاة بعد الصلاة .

فالرباط جهاد النفس ، والمقيم فى الرباط مرابط مجاهد نفسه . واجتمـاع أهل الربط اذا صح على الوجه الموضـوع له الربط ، وتحقـق أهل الربط بحسن المعـاملة ورعاية الأوقات وتوقى ما يفسـد الأعمـال ويصحح الأحوال ، عادت البركة على البلاد والعتاد .

وشرائط سكان الرباط قطع المعـاملة مع الخلق ، وفتـح المعـاملة مع الحـق ، وترك الاكتساب اكتفاء بكفالة مسبب الأسـباب ، وحبس النفس عن المخـالطات ، واجتنـاب التبعات ، ومواصلة الليـل والنهار بالعبـادة متعوضا بها عن كل عادة ، والاشتغال بحفظ الأوقـات ، وملازمـة الأوراد ، وانتظـار الصلوات ، واجتنـاب الغفلات ... ليـكون بذلك مرابطا مجاهدا .

والرباط هو بيت الصوفية ومنزلهم ، ولكل قوم دار ، والرباط دارهم ، وقد شابهوا أهل الصفة فى ذلك ، فالقوم فى الرباط مرابطون متفقون على قصد واحد وعزم واحد وأحوال متناسبة ، ووضع الرباط لهذا المعنى .

قال مؤلفه رحمـه الله : ولاتخـاذ الربط والزوايا أصل من السنة . وهو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اتخذ لفقراء الصحابة ، الذين لا يأوون الى أهل ولا مال ، مكانا من مسجده كانوا يقيمـون فيـه ، عرفوا بأهل الصفة .

رباط الصاحب

هذا الرباط مطل على بركة الحبش . أنشأه الصاحب فخر الدين أبو عبد الله محمـد بن الوزير الصاحب بهاء الدين أبى الحسن على ابن محمد بن سليم بن حنا ، ووقف عليه أبوه الصاحب بهاء الدين بعـد موته عقارا بمدينة مصر ، وشرط أن يسـكنه عشرة من الفقراء المجردين غير المتأهلين ، وذلك فى ذى الحجة سـنة ثمـان وستين وستمائة . وهو باق الى يومنا هذا ، وليس فيه أحد ، ويستأدى ريع وقفه من لا يقوم بمصالحه .

رباط الفخرى

هذا الرباط خارج باب الفتوح ، فيما بينه وبين باب النصر . بناه الأمير عز الدين أيبك الفخرى ، أحد أمراء الملك الظاهر بيبرس .

رباط البغدادية

هذا الرباط بداخل الدرب الأصفر ، تجاه خانقاه بيبرس ، حيث كان المنحر الذى ذكر عند ذكر القصر من هذا * الكتـاب ، ومن الناس من يقـول رواق البغـدادية . وهذا الرباط بنته الست الجليلة تذكار باى خاتون ابنـة الملك الظاهر بيبرس ، فى سـنة أربع وثمانين وستمائة ، للشيخة الصالحـة زينب

(*) ص٤٢٧ جـ٢ ، ط. بولاق ‌.

ابنة أبى البركات ، المعروفة ببنت البغدادية ، فأنزلتها به ومعها النساء الخيرات . وما برح الى وقتنا هذا يعرف سكانه من النساء بالخير ، وله دائما شيخة تعظ النساء وتذكرهن وتفقههن .

وآخر من أدركنا فيه الشيخة الصالحة ، سيدة نساء زمانها ، أم زينب فاطمة بنت عباس البغدادية ، توفيت فى ذى الحجة سنة أربع عشرة وسبعمائة ، وقد أنافت على الثمانين . وكانت فقيهة وافرة العلم ، زاهدة قانعة باليسير ، عابدة واعظة ، حريصة على النفع والتذكير ، ذات اخلاص وخشية وأمر بالمعروف ، انتفع بها كثير من نساء دمشق ومصر ، وكان لها قبول زائد ، ووقع فى النفوس .

وصار بعدها كل من قام بمشيخة هذا الرباط من النساء يقال لها البغدادية . وأدركنا الشيخة الصالحة البغدادية أقامت به عدة سنين على أحسن طريقة ، الى أن ماتت يوم السبت لثمان بقين من جمادى الآخرة سنة ست وتسعين وسبعمائة .

وأدركنا هذا الرباط ، وتودع فيه النساء اللاتى طلقن أو هجرن ، حتى يتزوجن أو يرجعن الى أزواجهن ، صيانة لهن ... لما كان فيه من شدة الضبط ، وغاية الاحتراز ، والمواظبة على وظائف العبادات . حتى ان خادمة الفقيرات به كانت لا تمكن أحدا من استعمال ابريق ببزبوز ، وتؤدب من خرج عن الطريق بما تراه .

ثم لما فسدت الأحوال من عهد حدوث المحن بعد سنة ست وثمانمائة ، تلاشت أمور هذا الرباط ، ومنع مجاوروه من سجن النساء المعتدات به ، وفيه الى الآن بقايا من خير ، ويلى النظر عليه قاضى القضاة الحنفى .

رباط الست كليلة

هذا الرباط خارج درب بطوط ، من جملة حكر سنجر اليمنى ، ملاصق للسور الحجر بخط سوق الغنم وجامع أصلم . وقفه الأمير علاء الدين البراباه على الست كليلة ، المدعوة دولاى ، ابنة عبد الله التتارية ، زوج الأمير سيف الدين البرلى السلاحدار الظاهرى ، وجعله مسجدا ورباطا ، ورتب فيه اماما ومؤذنا ، وذلك فى ثالث عشرى شوال سنة أربع وتسعين وستمائة .

رباط الخازن

هذا الرباط بقرب قبة الامام الشافعى رحمة الله عليه من قرافة مصر . بناه الأمير علم الدين سنجر بن عبد الله الخازن ، والى القاهرة ، وفيه دفن . وهذا الخازن هو الذى ينسب اليه حكر الخازن خارج القاهرة .

الرباط المعروف برواق ابن سليمان

هذا الرواق بحارة الهلالية ، خارج باب زويلة ، عرف بأحمد بن سليمان بن أحمد بن سليمان بن ابراهيم بن أبى المعالى بن العباس ، الرحبى البطائحى الرفاعى ، شيخ الفقراء الأحمدية الرفاعية بديار مصر .

كان عبدا صالحا ، له قبول عظيم من أمراء الدولة وغيرهم ، وينتمى اليه كثير من الفقراء

الأحمدية ، وروى الحديث عن سبط السلفى وحدث ، وكانت وفاته ليلة الاثنين سادس ذى الحجة سنة احدى وتسعين وستمائة بهذا الرواق .

رباط داود بن ابراهيم

هذا الرباط بخط بركة الفيل . بنى فى سنة ثلاث وستين وستمائة .

رباط ابن أبى المنصور

هذا الرباط بقرافة مصر . عرف بالشيخ صفى الدين الحسين بن على بن أبى المنصور الصوفى المالكى ... كان من بيت وزارة ، فتجرد وسلك طريق أهل الله ، على يد الشيخ أبى العباس أحمد بن أبى بكر الجزار التجيبى المغربى ، وتزوج ابنته ، وعرف بالبركة ، وحكيت عنه كرامات ، وصنف كتاب « الرسالة » ذكر فيها عدة من المشايخ ، وروى الحديث وحدث ، وشارك فى الفقه وغيره .

وكانت ولادته فى ذى القعدة سنة خمس وتسعين وخمسمائة ، ووفاته برباطه هذا يوم الجمعة ثانى عشر شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وثمانين وستمائة .

رباط المشتهى *

هذا الرباط بروضة مصر يطل على النيل . وكان به الشيخ المسلك ... ... [1] .

وللّه در شيخنا العارف الأديب شهاب الدين أحمد بن أبى العباس الشاطر الدمنهورى حيث يقول :

بروضة المقياس صوفية
هم منية الخاطر والمشتهى
لهم على البحر أياد علت
وشيخهم ذاك له المنتهى

وقال الامام العلامة شمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن الصائغ الحنفى :

ياليلة مرت بنا حلوة
ان رمت تشبيها لها عبتها
لا يبلغ الواصف فى وصفها
حدا ولا يلقى له منتهى
بت مع المعشوق فى روضة
ونلت من خرطومه المشتهى

رباط الآثار

هذا الرباط خارج مصر ، بالقرب من بركة الحبش ، مطل على النيل ، ومجاور للبستان المعروف بالمعشوق .

قال ابن المتوج : هذا الرباط عمره الصاحب تاج الدين محمد بن الصاحب فخر الدين محمد ، ولد الصاحب بهاء الدين على بن حنا ، بجوار بستان المعشوق ، ومات رحمه الله قبل تكملته ، ووصى أن يكمل من ريع بستان المعشوق ، فاذا كملت عمارته يوقف عليه ، ووصى الفقيه عز الدين بن مسكين ، فعمر فيه شيئا يسيرا وأدركه الموت الى رحمة الله تعالى ، وشرع الصاحب ناصر الدين محمد ،

(*) ص٤٢٨ جـ٢ ، ط. بولاق .
(١) هكذا بياض فى الاصل .

ولد الصاحب تاج الدين ، فى تكملته ، فعمر فيه شيئا جيدا . انتهى .

وانما قيل له رباط الآثار ، لأن فيه قطعة خشب وحديد — يقال ان ذلك من آثار رسول الله صلى الله عليه وسلم — اشتراها الصاحب تاج الدين المذكور ، بمبلغ ستين ألف درهم فضة ، من بنى ابراهيم أهل ينبع ، وذكروا أنها لم تزل عندهم موروثة من واحد الى آخر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحملها الى هذا الرباط ، وهى به الى اليوم يتبرك الناس بها ، ويعتقدون النفع بها .

وأدركنا لهذا الرباط بهجة ، وللناس فيه اجتماعات ، ولسكانه عدة منافع ممن يتردد اليه أيام كان ماء النيل تحته دائما . فلما انحسر الماء من تجاهه ، وحدثت المحن من سنة ست وثمانمائة ، قل تردد الناس اليه ، وفيه الى اليوم بقية .

ولما كانت أيام الملك الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون ، قرر فيه درسا للفقهاء الشافعية ، وجعل له مدرسا وعنده عدة من الطلبة ، ولهم جار فى كل شهر من وقف وقفه عليهم ، وهو باق أيضا . وفى أيام الملك الظاهر برقوق ، وقف قطعة أرض لعمل الجسر المتصل بالرباط ، وبهذا الرباط خزانة كتب ، وهو عامر بأهله .

« الوزير الصاحب » : تاج الدين محمد ابن الصاحب فخر الدين محمد ابن الوزير الصاحب بهاء الدين على بن سليم بن حنا . ولد فى سابع شعبان سنة أربعين وستمائة ، وسمع من سبط السلفى وحدث ، وانتهت اليه رياسة عصره . وكان صاحب صيانة وسؤدد ومكارم ، وشاكلة حسنة وبزة فاخرة الى الغاية .

وكان يتناهى فى المطاعم والملابس والمناكح والمساكن ، ويجود بالصدقات الكثيرة ، مع التواضع ومحبة الفقراء وأهل الصلاح ، والمبالغة فى اعتقادهم . ونال فى الدنيا من العز والجاه ما لم يره جده الصاحب الكبير بهاء الدين ، بحيث انه لما تقلد الوزير الصاحب فخر الدين بن الخليلى الوزارة ، سار من قلعة الجبل — وعليه تشريف الوزارة — الى بيت الصاحب تاج الدين ، وقبل يده وجلس بين يديه ، ثم انصرف الى داره .

وما زال على هذا القدر من وفور العز ، الى أن تقلد الوزارة فى يوم الخميس رابع عشرى صفر سنة ثلاث وتسعين وستمائة ، بعد قتل الوزير الأمير سنجر الشجاعى ، فلم ينجب ، وتوقفت الأحوال فى أيامه ، حتى احتاج الى احضار تقاوى النواحى المرصدة بها للتخضير واستهلكها . ثم صرف فى يوم الثلاثاء خامس عشرى جمادى الأولى ، سنة أربع وتسعين وستمائة ، بفخر الدين عثمان ابن الخليلى .

وأعيد الى الوزارة مرة ثانية فلم ينجح ، وعزل وسلم مرة للشجاعى ، فجرده من ثيابه ، وضربه شيبا واحدا بالمقارع فوق قميصه ، ثم أفرج عنه على مال ، ومات فى رابع جمادى الآخرة سنة سبع وسبعمائة ، ودفن فى تربتهم بالقرافة ، وكان له شعر جيد .

ولله در شيخنا الأديب جلال الدين محمد ابن خطيب داريا ، الدمشقى البيسانى ، حيث يقول فى الآثار :

ياعين ان بعد الحبيب وداره
وناءت مرابعه وشط مزاره
فلقد ظفرت من الزمان بطائل
ان لم تريه فهذه آثاره

وقد سبقه لذلك الصلاح خليل بن أيبك الصفدى فقال * :

أكرم بآثار النبى محمد
من زاره استوفى السرور مزاره
ياعين دونك فانظرى وتمتعى
ان لم تريه فهذه آثاره

واقتدى بهما فى ذلك أبو الحزم المدنى فقال :

ياعين كم ذا تسفحين مدامعا
شوقا لقرب المصطفى ودياره
ان كان صرف الدهر عاقك عنهما
فتمتعى ياعين فى آثاره

رباط الأفرم

هذا الرباط بسفح الجرف الذى عليه الرصد ، وهو يشرف على بركة الحبش ، وكان من أحسن متنزهات أهل مصر . أنشأه الأمير عز الدين أيبك الأفرم ، أمير خازندار ، الصالحى النجمى ، ورتب فيه صوفية وشيخا واماما ، وجعل فيه منبرا يخطب عليه للجمعة والعيدين ، وقرر لهم معاليم من أوقاف أرصدها لهم ، وذلك فى سنة ثلاث وستين وستمائة . وهو باق ، الا أنه لم يبق به ساكن لخراب ما حوله ، وله الى اليوم متحصل من وقفه .

والأفرم هذا هو الذى ينسب اليه جسر الأفرم خارج مصر ، وقد ذكر عند ذكر الجسور من هذا الكتاب .

الرباط العلائى

هذا الرباط خارج مصر ، بخط بين الزقاقين شرقى الخليج الكبير — يعرف اليوم بخانقاه المواصلة — وهو آيل الى الدثور لخراب ما حوله . أنشأه الملك علاء الدين أبو الحسن على ، ابن الملك المجاهد سيف الدين اسحاق صاحب الجزيرة ، ابن الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ، بجوار داره وحمامه وطاحونه ، وجعل له فيه مدفنا ، ووقف عليه بستان الجرف ، وبستانا بناحية شبرا ، وعدة حصص من قرى فلسطين والساحل ، وأحكارا ودورا بجانب الرباط .

ومات يوم الجمعة ثامن ربيع الآخر سنة احدى وثلاثين وسبعمائة ، ومولده يوم الجمعة ثامن عشرى المحرم سنة سبع وخمسين وستمائة بجزيرة ابن عمر ، وكان من الحلقة ، وسمع الحديث من النجيب الحرانى وابن عرنين وابن علاف ، ودفن فيه .

وبه الى الآن بقية ، ويحضره الفقهاء يوما فى الأسبوع ، وهم عشرة شيخهم منهم ، ومنهم قارىء ميعاد وقراء . وكان أولا معمورا بسكنى أهله دائما فيه ، وفى هذا الوقت لا يمكن سكناه لكثرة الخوف من السراق .

(*) ص٤٢٩ جـ٢ ، ط . بولاق .

ذكر الزوايا
زاوية الدمياطى

هذه الزاوية فيما بين خط السبع سقايات وقنطرة السد ، خارج مصر ، الى جانب حوض السبيل المعد لشرب الدواب . أنشأها الأمير عز الدين أيبك الدمياطى الصالحى النجمى ، أحد الأمراء المقدمين الأكابر فى أيام الملك الظاهر بيبرس ، وبها دفن لما مات بالقاهرة ليلة الأربعاء تاسع شعبان سنة ست وتسعين وستمائة . والى الآن يعرف الحوض المجاور لها بحوض الدمياطى .

زاوية الشيخ خضر

هذه الزاوية خارج باب الفتوح من القاهرة بخط زقاق الكحل ، تشرف على الخليج الكبير ، عرفت بالشيخ خضر بن أبى بكر بن موسى المهرانى العدوى ، شيخ السلطان الملك الظاهر بيبرس .

كان أولا قد انقطع بجبل المزة خارج دمشق ، فعرفه الأمير سيف الدين قشتمر العجمى ، وتردد اليه ، فقال له : لابد أن يتسلطن الأمير بيبرس البندقدارى . فأخبر بيبرس بذلك .

فلما صارت المملكة اليه بعد قتل الملك المظفر قطز ، اشتمل على اعتقاده ، وقربه ، وبنى له زاوية بجبل المزة ، وزاوية بظاهر بعلبك ، وزاوية بحماه ، وزاوية بحمص ، وهذه الزاوية خارج القاهرة ، ووقف عليها أحكارا تغل فى السنة نحو الثلاثين ألف درهم ، وأنزله بها .

وصار ينزل اليه فى الأسبوع مرة أو مرتين ، ويطلعه على غوامض أسراره ، ويستشيره فى أموره ، ولا يخرج عما يشير به ، ويأخذه معه فى أسفاره ، وأطلق يده ، وصرفه فى مملكته .

فهدم كنيسة اليهود بدمشق ، وهدم كنيسة للنصارى بالقدس ، كانت تعرف بالمصلبة ، وعملها زاوية ، وقتل قسيسها بيده ، وهدم كنيسة للروم بالاسكندرية — كانت من كراسى النصارى ، ويزعمون أن بها رأس يحيى بن زكريا — وعملها مسجدا سماه الخضر . فاتقى جانبه الخاص والعام حتى الأمير بدر الدين بيلبك الخازندار نائب السلطنة ، والصاحب بهاء الدين على بن حنا ، وملوك الأطراف .

وكان يكتب الى صاحب حماه ، وجميع الأمراء اذا طلب حاجة ، ما مثاله * : « الشيخ خضر .... الحمارة » . وكان ربع القامة كث اللحية ، يتعمم عسراوى ، وفى لسانه عجمة ، مع سعة صدر ، وكرم شمائل ، وكثرة عطاء من تفرقة الذهب والفضة ، وعمل الأسمطة الفاخرة . وكانت أحواله عجيبة لا تتكيف ، وأقوال الناس فيه مختلفة : منهم من يثبت صلاحه ويعتقده ، ومنهم من يرميه بالعظائم .

وكان يخبر السلطان بأمور تقع ، منها أنه لما حاصر أرسوف — وهى أول فتوحاته — قال له : متى نأخذ هذه المدينة ؟ فعين له يوما يأخذها فيه ، فأخذها فى ذلك اليوم بعينه ، واتفق له مثل ذلك فى فتح قيسارية ، فلذلك كثر اعتقاده فيه .

(*) ص٤٣٠ جـ٢ ، ط. بولاق .

وما أحسن قول الشريف محمد بن رضوان الناسخ في ملازمة السلطان له في أسفاره :

ما الظاهر السلطان الا مالك الـ
دنيا بذاك لنا الملاحم تخبر
ولنا دليل واضح كالشمس في
وسط السماء لكل عين تنظر
لما رأينا الخضر يقدم جيشه
أبدا علمنا أنه الاسكندر

وما برح على رتبته الى ثامن عشر شوال سنة احدى وسبعين وستمائة ، فقبض عليه ، واعتقل بقلعة الجبل ، ومنع الناس من الإجتماع به . ويقال ان ذلك بسبب ان السلطان كان أعطاه تحفا قدمت من اليمن ، منها كر يمنى مليح الى الغاية ، فأعطاه خضر لبعض المردان .

فبلغ ذلك الأمير بدر الدين الخازندار النائب — وكان قد ثقل عليه بكثرة تسلطه ، حتى لقد قال له مرة بحضرة السلطان : كأنك تشفق على السلطان وعلى أولاده مثل ما فعل قطز بأولاد المعز — فأسرها في نفسه ، وبلغ خبر الكر اليمنى الى السلطان . فاستدعاه ، وحضر جماعة حاققوه على أمور كثيرة منكرة — كاللواط والزنا ونحوه — فاعتقله ، ورتب له ما يكفيه من مأكول وفاكهة وحلوى .

ولما سافر السلطان الى بلاد الروم ، قال خضر لبعض أصحابه : ان السلطان يظهر على الروم ، ويرجع الى دمشق فيموت بها بعد أن أموت أنا بعشرين يوما .

فكان كذلك ، ومات خضر في محبسه بقلعة الجبل في سادس المحرم ، أو سابعه ، من سنة ست وسبعين وستمائة ، وقد أناف على الخمسين ، فسلم الى أهله ، وحملوه الى زاويته هذه ، ودفنوه فيها .

وكان السلطان قد كتب بالافراج عنه ، فقدم البريد بعد موته ، ومات السلطان بدمشق ، في سابع عشرى المحرم المذكور ، بعد خضر بعشرين يوما .

وهذه الزاوية باقية الى اليوم .

زاوية ابن منظور

هذه الزاوية خارج القاهرة ، بخط الدكة بجوار المقس ، عرفت بالشيخ جمال الدين محمد بن أحمد بن منظور بن يس بن خليفة ابن عبد الرحمن ، أبو عبد الله ، الكتانى العسقلانى الشافعى الصوفى ، الامام الزهد .

كانت له معارف وأتباع ومريدون ومعرفة بالحديث . حدث عن أبى الفتوح الجلالى ، وروى عنه الدمياطى والدوادارى وعدة من الناس ، ونظر في الفقه ، واشتهر بالفضيلة ، وكانت له ثروة وصدقات . ومولده في ذى القعدة سنة سبع وتسعين وخمسمائة ، ووفاته بزاويته في ليلة الثانى والعشرين من شهر رجب الفرد سنة ست وتسعين وستمائة .

وكانت هذه الزاوية أولا تعرف بزاوية شمس الدين بن كرا البغدادى .

زاوية الظاهرى

هذه الزاوية خارج باب البحر ، ظاهر القاهرة عند حمام طرغاى ، على الخليج الناصرى . كانت أولا تشرف طاقاتها على بحر

النيل الأعظم ، فلما انحسر الماء عن ساحل المقس ، وحفر الملك الناصر محمد بن قلاوون الخليج الناصرى ، صارت تشرف على الخليج المذكور من بره الشرقى ، واتصلت المناظر هناك ... الى أن كانت الحوادث من سنة ست وثمانمائة . فخربت حمام طرغاى ، وبيعت أنقاضها وأنقاض كثير مما كان هناك من المناظر ، وأنشىء هناك بستان عرف أولا بعبد الرحمن ، صيرفى الأمير جمال الدين الأستادار ، لأنه أولا أنشأه ، ثم انتقل عنه .

و « الظاهرى » هذا : هو أحمد بن محمد ابن عبد الله أبو العباس جمال الدين الظاهرى . كان أبوه محمد بن عبد الله عتيق الملك الظاهر شهاب الدين غازى ، وبرع حتى صار اماما حافظا ، وتوفى ليلة الثلاثاء لأربع بقين من ربيع الأول سنة ست وتسعين وستمائة بالقاهرة ، ودفن بتربته خارج باب النصر .

وابنه عثمان بن أحمد بن محمد بن عبد الله فخر الدين بن جمال الدين الظاهرى الحلبى ، الامام العلامة المحدث الصالح ، ولد فى سنة سبعين وستمائة ، وأسمعه أبوه بديار مصر والشام ، وكان مكثرا ، ومات بزاويته هذه فى سنة ثلاثين وسبعمائة .

زاوية الجميزة*

هذه الزاوية موضعها من جملة أراضى الزهرى ، وهى الآن خارج باب زويلة بالقرب من معدية فريج . أنشأها الأمير سيف الدين جبرك السلاحدار المنصورى ، أحد أمراء الملك المنصور قلاوون ، فى سنة اثنتين وثمانين وستمائة ، وجعل فيها عدة من الفقراء الصوفية .

زاوية الحلاوى

هذه الزاوية بخط الأبارين من القاهرة ، بالقرب من الجامع الأزهر . أنشأها الشيخ مبارك الهندى السعودى الحلاوى ، أحد الفقراء من أصحاب الشيخ أبى السعود بن أبى العشائر البارينى الواسطى ، فى سنة ثمان وثمانين وستمائة ، وأقام بها الى أن مات ، ودفن فيها .

فقام من بعده ابنه الشيخ عمر بن على بن مبارك ، وكانت له سماعات ومرويات ، ثم قام من بعده ابنه شيخنا جمال الدين عبد الله ابن الشيخ عمر بن على ابن الشيخ مبارك الهندى ، وحدث ، فسمعنا عليه بها الى أن مات فى صفر سنة ثمان وثمانمائة ، وبها الآن ولده ، وهى من الزوايا المشهورة بالقاهرة .

زاوية نصر

هذه الزاوية خارج باب النصر من القاهرة . أنشأها الشيخ نصر بن سليمان أبو الفتح المنجبى ، الناسك القدوة ، وحدث بها عن ابراهيم بن خليل وغيره . وكان فقيها معتزلا عن الناس ، متخليا للعبادة ، يتردد اليه أكابر الناس وأعيان الدولة .

وكان للأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير فيه اعتقاد كبير . فلما ولى سلطنة مصر ، أجل قدره وأكرم محله ، فهرع الناس اليه ، وتوسلوا به فى حوائجهم .

(*) ص ٤٣١ ، ج ٢ ، ط . بولاق .

وكان يتغالى فى محبة العارف محيى الدين محمد بن عربى الصوفى ، ولذلك كانت بينه وبين شيخ الاسلام أحمد بن تيميــة مناكرة كبيرة ، ومات رحمه الله عن بضع وثمانين سنة فى ليلة السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة تسع عشرة وسبعمائة ، ودفن بها .

زاوية الخدام

هذه الزاوية خارج باب النصر ، فيما بين شقة باب الفتوح من الحسينية وبين شـقة الحسينية خارج باب النصر ، أنشأها الطواشى بلال الفراجى ، وجعلها وقفـا على الخـدام الجبش الأجنـاد فى سـنة سـبع وأربعين وستمائة .

زاوية تقى الدين

هذه الزاوية تحت قلعة الجبل . أنشـأها الملك الناصر محمد بن قلاوون ، بعد سـنة عشرين وسبعمائة ، لسكنى الشيخ تقى الدين رجب بن أشيرك العجمى . وكان وجيها محترما عند أمراء الدولة ، ولم يزل بها الى أن مات يوم السبت ثامن شهر رجب سنة أربع عشرة وسبعمائة . وما زالت منزلا لفقراء العجم الى وقتنا هذا .

زاوية الشريف مهدى

هذه الزاوية بجوار زاوية الشيخ تقى الدين المذكور . بنـاها الأمير صرغتمش فى سـنة ثلاث وخمسين وسبعمائة .

زاوية الطراطرية

هــذه الزاوية بالقرب من موردة البلاط . بناها الملك الناصر محمد بن قلاوون ، بوساطة القاضى شرف الدين النشـو ناظر الخاص ، برسم الشـيخين الأخوين محمـد وأحمـد — المعروفين بالطراطرية — فى سنة أربعين وسبعمائة .

وكانا من أهل الخير والصلاح ، ونزلا أولا فى مقصورة بالجامع الأزهر ، فعرفت بهما . ثم عرفت بعدهما بمقصورة الحسام الصفدى ، والد الأمير الوزير ناصر الدين محمـد بن الحسام ، وهذه المقصورة بآخر الرواق الأول مما يلى الركن الغربى .

ولم تزل هـذه الزاوية عامرة ... الى أن كانت المحن من سنة ست وثمانمائة ، وخرب خط زربية قوصون وما فى قبليه الى منشـأة المهرانى ، وما فى بحريه الى قرب بولاق .

زاوية القلندرية

القلندرية طائفة تنتمى الى الصوفية ، وتارة تسمى أنفسها ملامتية . وحقيقة القلندرية أنهم قـوم طرحـوا التقيـد بآداب المجالسـات والمخاطبات ، وقلت أعمالهم من الصوم والصلاة الا الفرائض ، ولم يبالوا بتنـاول شىء من اللذات * المبـاحة ، واقتصروا عـلى رعاية الرخصة ، ولم يطلبـوا حقـائق العزيمـة ، والتزموا ألا يدخروا شيئا ، وتركوا الجمـع والاسنكثار من الدنيـا ، ولم يتقشفوا ، ولا

(*) ص٤٣٢ جـ٢ ، ط. بولاق .

زهدوا ولا تعبدوا ، وزعموا أنهم قد قنعوا بطيب قلوبهم مع الله تعالى ، واقتصروا على ذلك ، وليس عندهم تطلع الى طلب مزيد سوى ما هم عليه من طيب القلوب .

والفرق بين الملامتى والقلندرى : أن الملامتى يعمل فى كتم العبادات ، والقلندرى يعمل فى تخريب العادات . والملامتى يتمسك بكل أبواب البر والخير ، ويرى الفضل فيه ، الا أنه يخفى أحواله وأعماله ، ويوقف نفسه موقف العوام فى هيئته وملبوسه ، تسترا للحال حتى لا يفطن له ، وهو مع ذلك متطلع الى المزيد من العبادات . والقلندى لا يتقيد بهيئة ، ولا يبالى بما يعرف من حاله وما لا يعرف ، ولا ينعطف الا على طيب القلوب وهو رأس ماله ... ...

هذه الزاوية خارج باب النصر من القاهرة ، من الجهة التى فيها الترب والمقابر التى تلى المساكن . أنشأها الشيخ حسن الجوالقى القلندرى ، أحد فقراء العجم القلندرية على رأى الجوالقة . ولما قدم الى ديار مصر ، تقدم عند أمراء الدولة التركية ، وأقبلوا عليه واعتقدوه ، فأثرى ثراء زائدا فى سلطنة الملك العادل كتبغا ، وسافر معه من مصر الى الشام .

فاتفق أن السلطان اصطاد غزالا ، ودفعه اليه ليحمله الى صاحب حماه . فلما أحضره اليه ، ألبسه تشريفا من حرير طرز وخش وكلوتة زركش ، فقدم بذلك على السلطان ، فأخذ الأمراء فى مداعبته ، وقالوا له على سبيل الانكار : كيف تلبس الحرير والذهب وهما حرام على الرجال ؟ فأين التزهد وسلوك طريق الفقراء ؟ ونحو ذلك .

فعندما حضر صاحب حماه الى مجلس السلطان على العادة ، قال له : ياخوند ، أيش عملت معى ؟ الأمراء أنكروا على ، والفقراء تطالبنى . فأنعم عليه بألف دينار . فجمع الفقراء والناس ، وعمل وقتا عظيما بزاوية الشيخ على الحريرى خارج دمشق .

وكان سمح النفس ، جميل العشرة ، لطيف الروح ، يحلق لحيته ولا يحتم ، ثم انه ترك الحلق ، وصارت له لحية ، وتعمم عمامة صوفية ، وكانت له عصبة ، وفيه مروءة وعصبية ، ومات بدمشق فى سنة اثنتين وعشرين وسبعمائة . وما زالت هذه الزاوية منزلا لطائفة القلندرية ، ولهم بها شيخ ، وفيها منهم عدد موفور .

وفي شهر ذي القعدة سنة احدى وستين وسبعمائة ، حضر السلطان الملك الناصر حسن ابن محمد بن قلاوون بخانقاه أبيه الملك الناصر ، فى ناحية سرياقوس خارج القاهرة ، ومد له شيخ الشيوخ سماطا ... كان من جملة من وقف عليه بين يدى السلطان الشريف على ، شيخ زاوية القلندرية هذه ، فاستدعاه السلطان ، وأنكر عليه حلق لحيته واستتابه ، وكتب له توقيعا سلطانيا ، منع فيه هذه الطائفة من تحليق لحاهم ، وأن من تظاهر بهذه البدعة قوبل على فعله المحرم ، وأن يكون شيخا على طائفته كما كان ما دام وداموا متمسكين بالسنة النبوية .

وهذه البدعة لها منذ ظهرت ما يزيد على أربعمائة سنة ، وأول ما ظهرت بدمشق فى

سنة بضع عشرة وستمائة ، وكتب الى بلاد الشـام بالزام القلنـدرية بترك زى الأعاجم والمجوس ، ولا يمكن أحد من الدخول الى بلاد الشام حتى يترك هـذا الزى المبتـدع واللباس المستبشع ، ومن لا يلتزم بذلك يعزر شرعا ، ويقلع من قراره قلعا . فنودى بذلك فى دمشق وأرجائها يوم الأربعاء سادس عشر ذى الحجة .

قبة النصر

هذه القبة زاوية يسـكنها فقراء العجم ، وهى خارج القاهرة بالصحراء ، تحت الجبل الأحمر ، بآخر ميدان القبق من بحريه . جددها الملك الناصر محمد بن قلاوون ، على يد الأمير جمال الدين أقوش نائب الكرك .

زاوية الركراكى

هذه الزاوية خـارج القـاهرة فى أرض المقس . عرفت بالشيخ المعتقد أبى عبـد الله محمد الركراكى ، المغربى المالكى ، لاقامتـه بها . وكان فقيها مالكيا ، متصـديا لأشغال المغاربة ، يتبرك الناس به ، الى أن مات بها يوم الجمعة ثانى عشر جمادى الأولى سـنة أربع وتسعين وسبعمائة ، ودفن بها .

و « الركراكى » نسبة الى ركراكة ، بلدة بالمغرب ، هى أحد مراسى سـواحل المغرب بقرب البحر المحيط ، تنزل فيه السفن ، فلا تخرج الا بالرياح العاصفة فى زمن الشـتاء عند تكدر الهواء .

زاوية ابراهيم الصائغ

هذه الزاوية بوسط الجسر الأعظم ، تطل على بركة الفيل ، عمرها الأمير سيف الدين طغاى بعد سنة عشرين * وسبعمائة ، وأنزل فيها فقيرا عجميا من فقراء الشـيخ تقى الدين رجب ، يعرف بالشـيخ عز الدين العجمى ، وكان يعرف صناعة الموسيقى ، وله نغمة لذيذة وصوت مطرب وغناء جيد ، فأقام بها الى أن مات فى سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة . فغلب عليها الشيخ ابراهيم الصائغ الى أن مات يوم الاثنين رابع عشر شـهر رجب سـنة أربع وخمسين وسبعمائة ، فعرفت به .

زاوية الجعبرى

هذه الزاوية خارج باب النصر من القاهرة . تنسب الى الشيخ برهان الدين ابراهيـم بن معضاد بن شداد بن ماجد الجعبرى ، المعتقد الواعظ ، كان يجلس للوعظ ، فتجتمع اليـه الناس ، ويذكرهم ويروى الحديث ، ويشارك فى علم الطب وغيره من العلوم ، وله شـعر حسن ، وروى عن السـخاوى ، وحدث عن البزراكى .

وكان له أصحاب يبالغون فى اعتقـاده ، ويغلون فى أمره ، وكان لا يراه أحد الا أعظم قدره وأجله وأثنى عليه ، وحفظت عنه كلمات طعن عليه بسببها ، وعمر حتى جاوز الثمانين سنة .

فلمـا مرض أمر أن يخرج به الى مكان قبره ، فلما وقف عليه قال : قبير وحال دبير .

(*) ص٤٣٢ جـ٢ ، ط.بولاق .

ومات بعد ذلك بيوم فى يوم السبت رابع عشرى المحرم سنة سبع وثمانين وستمائة .

والجعابرة عدة ، منهم ... ...

زاوية أبى السعود

هذه الزاوية خارج باب القنطرة من القاهرة ، على حافة الخليج ، عرفت بالشيخ المبارك أيوب السعودى . كان يذكر أنه رأى الشيخ أبا السعود بن أبى العشائر ، وسلك على يديه ، وانقطع بهذه الزاوية ، وتبرك الناس به ، واعتقدوا اجابة دعائه ، وعمر وصار يحمل لعجزه عن الحركة . حتى مات ، عن مائة سنة ، أول صفر سنة أربع وعشرين وسبعمائة .

زاوية الحمصى

هذه الزاوية خارج القاهرة ، بخط حكر خزائن السلاح والأوسية ، على شاطىء خليج الذكر من أرض المقس بجوار الدكة . أنشأها الأمير ناصر الدين محمد — ويدعى طيقوش — ابن الأمير فخر الدين ألطنبغا الحمصى ، أحد الأمراء فى الأيام الناصرية . كان أبوه من أمراء الظاهر بيبرس .

ورتب بهذه الزاوية عشرة من الفقراء شيخهم منهم ، ووقف عليها عدة أماكن فى جوارها وحصة من قرية بورين من قرى ساحل الشام ، وغير ذلك فى سنة تسع وسبعمائة . فلما خرب ما حولها ، وارتدم خليج الذكر ، تعطلت .

وهى الآن قد عزم مستحقو ريعها على هدمها ، لكثرة ما أحاط بها من الخراب من سائر جهاتها ، وصار السلوك اليها مخوفا بعد ما كانت تلك الخطة فى غاية العمارة ، وفى جمادى سنة عشرين وسبعمائة هدمت .

زاوية المغربل

هذه الزاوية خارج القاهرة ، بدرب الزراق من الحكر ، عرفت بالشيخ المعتقد على المغربل ومات فى يوم الجمعة خامس جمادى الأولى سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة . ولما كانت الحوادث من سنة ست وثمانمائة ، خربت الحكورة ، وهدم درب الزراق وغيره .

زاوية القصرى

هذه الزاوية بخط المقس خارج القاهرة . عرفت بالشيخ أبى عبد الله محمد بن موسى عبد الله بن حسن القصرى ، الرجل الصالح الفقيه المالكى المغربى ، قدم من قصر كتامة بالمغرب الى القاهرة ، وانقطع بهذه الزاوية ، على طريقة جميلة من العبادة وطلب العلم ، الى أن مات بها فى التاسع من شهر رجب سنة ثلاث وثلاثين وستمائة .

زاوية الجاكى

هذه الزاوية فى سويقة الريش ، من الحكورة خارج القاهرة ، بجانب الخليج الغربى . عرفت بالشيخ المعتقد حسين بن ابراهيم بن على الجاكى ، ومات بها فى يوم الخميس العشرين من شوال سنة سبع وثلاثين وسبعمائة ، ودفن خارج باب النصر ، وكانت جنازته عظيمة جدا .

وأقام الناس يتبركون بزيارة قبره . الى أن كانت سنة سبع عشرة وثمانمائة ، فأقبل الناس الى زيارة قبره ، وكان لهم هناك مجتمع عظيم فى كل يوم ، ويحملون النذور الى * قبره ، ويزعمون أن الدعاء عنده لا يرد ... فتنة أضل الشيطان بها كثير من الناس ، وهم على ذلك الى يومنا هذا .

زاوية الأبناسي

هذه الزاوية بخط المقس . عرفت بالشيخ الفقيه برهان الدين ابراهيم بن حسين بن موسى بن أيوب الأبناسي الشافعي . قدم من الريف ، وبرع فى الفقه ، واشتهر بسلامة الباطن ، وعرف بالخير والصلاح ، وكتب على الفتوى ، ودرس بالجامع الأزهر وغيره ، وتصدى لأشغال الطلبة عدة سنين ، وولى مشيخة الخانقاه الصلاحية سعيد السعداء .

وطلبه الأمير سيف الدين برقوق — وهو يومئذ أتابك العساكر — حتى يقلده قضاء القضاة بديار مصر . فغيب فرارا من ذلك ، وتنزها عنه ، الى أن ولى غيره . وكانت ولادته قبيل سنة خمس وعشرين وسبعمائة ، ووفاته بمنزلة المويلح من طريق الحجاز — بعد عوده من الحج — فى ثامن المحرم سنة اثنتين وثمانمائة ، ودفن بعيون القصب .

زاوية اليونسية

هذه الزاوية خارج القاهرة ، بالقرب من باب اللوق ، تنزلها الطائفة اليونسية : واحدهم يونسى — بضم الياء المعجمة باثنتين من تحتها ، وبعد الياء واو ، ثم نون بعدها سين مهملة ، فى آخرها ياء آخر الحروف — نسبة الى يونس .

و «يونس» المنسوب اليه الطائفة اليونسية غير واحد : فمنهم يونس بن عبد الرحمن القمى ، مولى آل يقطين ، وهو الذى يزعم أن معبوده على عرشه ، تحمله ملائكته وان كان هو أقوى منها ، كالكركى تحمله رجلاه وهو أقوى منهما ... وقد كفر من زعم ذلك ، فان الله تعالى هو الذى يحمل العرش وحملته . وهذه الطائفة اليونسية من غلاة الشيعة .

واليونسية أيضا فرقة من المرجئة ينتمون الى يونس السموى . وكان يزعم أن الايمان هو المعرفة بالله والخضوع له ، وهو ترك الاستكبار عليه والمحبة له ، فمن اجتمعت فيه هذه الخلال فهو مؤمن . وزعم أن ابليس كان عارفا بالله ، غير أنه كفر باستكباره عليه .

ولهم يونس بن يونس بن مساعد الشيبانى ثم المخارقى ، شيخ الفقراء اليونسية ، شيخ صالح له كرامات مشهورة ، ولم يكن له شيخ ، بل كان مجذوبا ، جذب الى طريق الخير . توفى بأعمال دارا ، فى سنة تسع عشرة وسبعمائة ، وقد ناهز تسعين سنة ، وقبره مشهور يزار ويتبرك به ، واليه تنسب هذه الطائفة اليونسية .

زاوية الخلاطى

هذه الزاوية خارج باب النصر من القاهرة ، بالقرب من زاوية الشيخ نصر المنجبى .

(*) ص٤٣٤، جـ٢ ، ط. بولاق .

عرفت ... ... وكانت لهم وجاهة : منهم ناصر الدين محمد بن علاء الدين على بن محمد بن حسين الخلاطى ، مات فى نصف جمادى الأولى سنة سبع وثلاثين وسبعمائة ، ودفن بها .

الزاوية العدوية

هذه الزاوية بالقرافة . تنسب الى الشيخ عدى بن مسافر بن اسماعيل بن موسى بن مروان بن الحسن بن مروان ، الهكارى القرشى الأموى ، وكان قد صحب عدة من المشايخ — كعقيل المنبجى ، وحماد الدباس ، وعبد القادر السهروردى ، وعبد القادر الجيلى — ثم انقطع فى جبل الهكارية من أعمال الموصل ، وبنى له زاوية ، فمال اليه أهل تلك النواحى كلها ميلا لم يسمع لأرباب الزوايا مثله ، حتى مات سنة سبع — وقيل سنة خمس — وخمسين وخمسمائة ، ودفن فى زاويته .

وقدم ابن أخيه الى هذه البلاد — وهو زين الدين — فأكرم وأنعم عليه بامرة ، ثم تركها وانقطع فى قرية بالشام — تعرف ببيت قار — على هيئة الملوك : من اقتناء الخيول المسومة والمماليك والجوارى والملابس ، وعمل الأسمطة الملوكية .

فافتتنت به بعض نساء الطائفة القيمرية ، وبالغت فى تعظيمه ، وبذلت له أموالا عظيمة ، وحاشيتها تلومها فيه ، فلا تصغى الى قولهم . فاحتالوا حتى أوقفوها عليه ، وهو عاكف على المنكرات ، فما زادها ذلك الا ضلالا ، وقالت : أنتم تنكرون هذا عليه ، انما الشيخ يتدلل على ربه .

وأتاه الأمير الكبير علم الدين سنجر الدوادار ومعه الشهاب محمود لتحليفه ، فى أول دولة الأشرف خليل بن قلاوون ، الى قريته . فاذا هو كالملك فى قلعته : للتجمل الظاهر والحشمة الزائدة ، والفرش الأطلس ، وآنية الذهب والفضة ، والنضار الصينى وأشياء تفوت العد ... الى غير ذلك من الأشربة المختلفة الألوان ، والأطعمة المنوعة .

فلما دخلا عليه لم يحتفل بهما ، وقبل الأمير سنجر يده وهو جالس لم يقم ، وبقى قائما قدامه يحدثه ، وزين الدين يسأله ساعة ، ثم أمره أن يجلس ، فجلس على ركبتيه متأدبا بين يديه ، فلما حلفاه * ، أنعم عليهما بما يقارب خمسة عشر ألف درهم .

وتخلف من طائفته الشيخ عز الدين أميران ، وأنعم عليه بامرة دمشق ، ثم نقل الى امرة بصفد ، ثم أعيد الى دمشق ، وترك الامرة وانقطع بالمزة ، وتردد اليه الأكراد من كل قطر ، وحملوا اليه الأموال . ثم انه أراد أن يخرج على السلطان بمن معه من الأكراد فى كل بلد ، فباعوا أموالهم ، واشتروا الخيل والسلاح ، ووعد رجاله بنيابات البلاد ، ونزل بأرض اللجون .

فبلغ ذلك السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ، فكتب الى الأمير تنكز نائب لشام بكشف أخبارهم ، وأمسك السلطان من كان بهذه الزاوية العدوية ، ودرك على أمير طبر ،

(*) ص٤٢٥ ج٢، ط بولاق .

واختلفت الأخبار : فقيل انهم يريدون سلطنة مصر ، وقيل يريدون ملك اليمن . فقلق السلطان لأمرهم ، وأهمه ... الى أن أمسك الأمير تنكز عز الدين المذكور ، وسجنه فى سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة حتى مات ، وفرق الأكراد ، ولو لم يتدارك لأوشك أن يكون لهم نوبة .

زاوية السدار

هذه الزاوية برأس حاة الديلم . بناها الفقير المعتقد على بن السدّار فى سنة سبعين وسبعمائة ، وتوفى سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة .

ذكر المشاهد التى يتبرك الناس بزيارتها
مشهد زين العابدين

هذا المشهد فيما بين الجامع الطولونى ومدينة مصر ... تسميه العامة مشهد زين العابدين ، وهو خطأ . وانما هو مشهد رأس زيد بن على — المعروف بزين العابدين — ابن الحسين بن على بن أبى طالب عليه السلام ، ويعرف فى القديم بمسجد محرس الخصى .

قال القضاعى : مسجد محرس الخصى بنى على رأس زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ، حين أنفذه هشام بن عبد الملك الى مصر ، ونصب على المنبر بالجامع ، فسرقه أهل مصر ، ودفنوه فى هذا الموضع .

وقال الكندى فى كتاب « الأمراء » : وقدم الى مصر ، فى سنة اثنتين وعشرين ومائة ، أبو الحكم بن أبى الأبيض القيسى خطيبا برأس زيد بن على ، رضوان الله عليه ، يوم الأحد لعشر خلون من جمادى الآخرة ، واجتمع الناس اليه فى المسجد .

وقال الشريف محمد بن أسعد الجوانى فى كتاب « الجوهر المكنون فى ذكر القبائل والبطون » : وبنو زيد بن على زين العابدين ابن الحسين بن على بن أبى طالب عليهم السلام ، الشهيد بالكوفة ، ولم يبق له عليه السلام غير رأسه التى بالمشهد ، الذى بين الكومين بمصر ، بطريق جامع ابن طولون وبركة الفيل ، وهو من الخطط يعرف بمسجد محرس الخصى .

ولما صلب ، كشفوا عورته ، فنسج العنكبوت فسترها ، ثم انه بعد ذلك أحرق ، وذرى فى الريح ، ولم يبق منه الا رأسه التى بمصر . وهو مشهد صحيح لأنه طيف بها بمصر ، ثم نصبت على المنبر بالجامع بمصر فى سنة اثنتين وعشرين ومائة ، فسرقت ودفنت فى هذا الموضع الى أن ظهرت ، وبنى عليها مشهد .

وذكر ابن عبد الظاهر أن الأفضل بن أمير الجيوش ، لما بلغته حكاية رأس زيد ، أمر بكشف المسجد — وكان وسط الأكوام ، ولم يبق من معالمه الا محراب — فوجد هذا العضو الشريف .

قال محمد بن منجب بن الصيرفى : حدثنى الشريف فخر الدين أبو الفتوح ناصر الزيدى خطيب مصر — وكان من جملة من حضر الكشف — قال : لما خرج هذا العضو رأيته ،

وهو هامة وافرة ، وفى الجبهة أثر فى سعة الدرهم ، فضمخ وعطر ، وحمل الى دار حتى عمر هذا المشهد .

وكان وجدانه يوم الأحد تاسع عشرى ربيع الأول سنة خمس وعشرين وخمسمائة . وكان الوصول به فى يوم الأحد ، ووجدانه فى يوم الأحد .

« زيد بن على » بن الحسين بن على بن أبى طالب — كنيته أبو الحسن — الامام الذى تنسب اليه الزيدية ، إحدى طوائف الشيعة ، سكن المدينة ، وروى عن أبيه على ابن الحسين — الملقب زين العابدين — وعن أبان بن عثمان ، وعبيد الله بن أبى رافع ، وعروة بن الزبير . وروى عنه محمد بن شهاب الزهرى ، وزكريا بن أبى زائدة ، وخلق ... ذكره ابن حبان فى الثقات ، وقال : رأى جماعة من الصحابة .

وقيل لجعفر بن محمد الصادق عن الرافضة : انهم يتبرأون من عمك زيد .

فقال : برىء الله ممن تبرأ من عمى . كان والله أقرأنا لكتاب الله ، وأفقهنا فى دين الله ، وأوصلنا للرحم ، والله ما ترك فينا لدنيا ولا لآخرة مثله .

وقال أبو اسحاق السبيعى : رأيت زيد بن على ، فلم أر فى أهله مثله ، ولا أعلم منه ولا أفضل ، وكان أفصحهم لسانا ، وأكثرهم زهدا وبيانا .

وقال الشعبى : والله ما ولد النساء أفضل من زيد بن على ، ولا أفقه ولا أشجع ولا أزهد .

وقال أبو حنيفة : شاهدت زيد بن على كما شاهدت آهله ، فما رأيت فى زمانه أفقه منه ولا أعلم ، ولا أسرع جوابا ولا أبين قولا ، لقد كان منقطع القرين .

وقال الأعمش * : ما كان فى أهل زيد بن على مثل زيد ، ولا رأيت فيهم أفضل منه ، ولا أفصح ولا أعلم ولا أشجع ، ولقد وفى له من تابعه لاقامتهم على المنهج الواضح .

وسئل جعفر بن محمد الصادق عن خروجه ، فقال : خرج على ما خرج عليه آباؤه .

وكان يقال لزيد حليف القرآن ، وقال : خلوت بالقرآن ثلاث عشرة سنة أقرأه وأتدبره ، فما وجدت فى طلب الرزق رخصة ، وما وجدت « ابتغوا من فضل الله » الا العبادة والفقه .

وقال عاصم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب : لقد أصيب عندكم رجل ما كان فى زمانكم مثله ، ولا أراه يكون بعده مثله ... زيد بن على . لقد رأيته وهو غلام حدث ، وانه ليسمع الشىء من ذكر الله فيغشى عليه ، حتى يقول القائل : ما هو بعائد الى الدنيا !

وكان نقش خاتم زيد « اصبر تؤجر ، اصدق تنج » . وقرأ مرة قوله تعالى « وان تتولوا يستبدل قوما غيركم ، ثم لا يكونوا أمثالكم » . فقال : ان هذا لوعيد وتهديد من الله . ثم قال : اللهم لا تجعلنا ممن تولى عنك فاستبدلت به بدلا .

(*) ص٤٣٦ جـ٢ ، ط. بولاق .

وكان اذا كلمه انسان ، وخاف أن يهجم على أمر يخاف منه مأثما ، قال له : ياعبد الله ، أمسك أمسك ، كف كف ، اليك اليك ، عليك بالنظر لنفسك . ثم يكف عنه ولا يكلمه .

وقد اختلف في سبب قيام زيد ، وطلبه الأمر لنفسه . فقيل ان زيد بن على ، وداود ابن على بن عبد الله بن عباس ، ومحمد بن عمر بن على بن أبى طالب ، قدموا على خالد ابن عبد الله القسرى بالعراق ، فأجازهم ورجعوا الى المدينة . فلما ولى يوسف بن عمر العراق ، بعد عزل خالد ، كتب الى هشام ابن عبد الملك ، وذكر له أن خالدا ابتاع أرضا بالمدينة من زيد بعشرة آلاف دينار ، ثم رد الأرض عليه .

فكتب هشام الى عامل المدينة أن يسيرهم اليه ، ففعل ، فسألهم هشام عن ذلك ، فأقروا بالجائزة ، وأنكروا ما سوى ذلك ، وحلفوا . فصدقهم وأمرهم بالمسير الى العراق ليقابلوا خالدا ، فساروا على كره ، وقابلوا خالدا ، فصدقهم ، وعادوا نحو المدينة . فلما نزلوا القادسية ، راسل أهل الكوفة زيدا ، فعاد اليهم .

وقيل بل ادعى خالد القسرى أنه أودع زيدا وداود بن على ونفرا من قريش مالا ، فكتب يوسف بن عمر بذلك الى الخليفة هشام بن عبد الملك ، فأحضرهم هشام من المدينة ، وسيرهم الى يوسف ليجمعهم وخالدا ، فقدموا عليه ، فقال يوسف لزيد : ان خالدا زعم أنه أودع عندك مالا .

فقال زيد : كيف يودعنى وهو يشتم آبائى على منبره ؟

فأرسل الى خالد ، فأحضره فى عباءة ، وقال له : هذا زيد قد أنكر أنك أودعته شيئا .

فنظر خالد اليه والى داود ، وقال ليوسف : أتريد أن تجمع اثمك مع اثمنا فى هذا ؟ كيف أودعه وأنا أشتم آباءه وأشتمه على المنبر ؟

فقال زيد لخالد : ما دعاك الى ما صنعت ؟

فقال : شدد على العذاب ، فادعيت ذلك ، وأملت أن يأتى الله بفرج قبل قدومك .

فرجعوا ، وأقام زيد وداود بالكوفة .

وقيل ان يزيد بن خالد القسرى هو الذى ادعى أن المال وديعة عند زيد . فلما أمرهم هشام بالمسير الى العراق الى يوسف ، استقالوه خوفا من شر يوسف وظلمه ، فقال : أنا أكتب اليه بالكف عنكم . وألزمهم بذلك .

فساروا على كره ، فجمع يوسف بينهم وبين يزيد ، فقال يزيد : ليس لى عندهم قليل ولا كثير .

فقال له يوسف : أتهزأ بأمير المؤمنين ؟

فعذبه يومئذ عذابا كاد يهلكه ، ثم أمر بالقرشيين فضربوا ، وترك زيدا ، ثم استحلفهم وأطلقهم ، فلحقوا بالمدينة ، وأقام زيد بالكوفة .

وكان زيد قال لهشام لما أمره بالمسير الى يوسف : والله ما آمن ان بعثتنى اليه ألا تجتمع أنا وأنت حيين أبدا .

قال : لا بد من المسير اليه ... فسار اليه .

وقيل كان السبب فى ذلك أن زيدا كان يخاصم ابن عمه جعفر بن الحسن بن الحسين

بن على فى وقوف على [1] رضى الله عنه : فزيد يخاصم عن بنى حسين ، وجعفر يخاصم عن بنى حسن ، فكانا يبلغان كل غاية ، ويقومان فلا يعيدان مما كان بينهما حرفا .

فلما مات جعفر ، نازعه عبد الله بن الحسن ابن الحسن . فتنازعا يوما بين يدى خالد بن عبد الملك بن الحارث بالمدينة ، فأغلظ عبد الله لزيد ، وقال : ياابن السندية . فضحك زيد ، وقال : قد كان اسماعيل عليه السلام ابن أمة ، ومع ذلك فقد صبرت أمى بعد وفاة سيدها ، ولم يصبر غيرها ... يعنى فاطمة بنت الحسين أم عبد الله ، فانها تزوجت بعد أبيه الحسن بن الحسن .

ثم ان زيدا ندم ، واستحيى من فاطمة فانها عمته ، ولم يدخل اليها زمانا . فأرسلت اليه : ياابن أخى ، انى لأعلم أن أمك عندك ، كأم عبد الله عنده . وقالت لعبد الله : بئسما قلت لأم زيد ، أما والله لنعم دخيلة القوم كانت .

وذكر أن خالدا قال لهما : اغدوا علينا غدا فلست ابن عبد الملك ان لم أفصلْ بينكما .

فباتت المدينة تغلى كالمرجل : يقول قائل قال زيد كذا ، ويقول قائل قال عبد الله كذا . فلما كان من الغد ، جلس خالد فى المسجد ، واجتمع الناس ، فمن بين شامت ومهموم .

فدعا بهما خالد وهو يحب أن يتشاتما . فذهب عبد الله يتكلم ، فقال زيد : لاتعجل ياأبا محمد ، أعتق زيد كل ما يملك ان خاصمك الى خالد أبدا . ثم أقبلَ الى خالد ، فقال له : لقد جمعت ذرية رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، لأمر ما كان يجمعهم عليه أبو بكر ولا عمر .

فقال خالد : أما لهذا السفيه أحدٌ ؟

فتكلم رجل من الأنصار من آل * عمرو بن حزم ، فقال : ياابن أبى تراب وابن حسين السفيه ، أما ترى لوال عليك حقا ولا طاعة ؟!

فقال زيد : اسكت أيها القحطانى ، فانا لا نجيب مثلك .

قال : ولم ترغب عنى ؟ فوالله انى لخير منك وخير من أبيك ، وأمى خير من أمك .

فتضاحك زيد ، وقال : يامعشر قريش ، هذا الدين قد ذهب ، أفتذهب الأحسابُ ؟ فوالله ليذهب دين القوم وما تذهب أحسابهم .

فقام عبد الله بن واقد بن عبد الله بن عمر ابن الخطاب ، فقال : كذبت والله أيها القحطانى ، فوالله لهو خير منك نفسا وأبا وأما ومحتدا . وتناوله بكلام كثير ، وأخذ كفا من حصباء وضرب بها الأرض ، وقال : والله انه ما لنا على هذا من صبر ، وقام .

ثم شخص زيد الى هشام بن عبد الملك ، فجعل هشام لا يأذن له ، وهو يرفع اليه القصص . فكلما يرفع قصة ، يكتب هشام فى أسفلها « ارجع الى منزلك » ، فيقول زيد : والله لا أرجع الى خالد أبدا .

ثم انه أذن له يوما بعد طول حبس ، فصعد زيد — وكان بادنا — فوقف فى بعض الدرج

(*) ص٤٣٧ جـ٢ ، ط. بولاق .

(1) قوله « فى وقوف على ... » الخ ، هكذا فى النسخ ، ولعله محرف من رقوق (جمع رق) بمعنى الصحيفة ، لاشتمالها على حكم ونصائح مثلا ، وليحرر ، اهـ ... مصححه .

وهو يقول : والله لا يحب الدنيا أحد الا ذل . ثم صعد — وقد جمع له هشام أهل الشام — فسلم ، ثم جلس . فرمى عليه هشام طويلة ، فحلف لهشام على شيء ، فقال هشام : لا أصدقك .

فقال : ياأمير المؤمنين ، ان الله لم يرفع أحدا عن أن يرضى بالله ، ولم يضع أحدا عن ألا يرضى بذلك منه .

فقال هشام : أنت زيد المؤمل للخلافة وما أنت والخلافة — لا أم لك — وأنت ابن أمة ؟

فقال زيد · لا أعلم أحدا عند الله أفضل من نبى بعثه ، ولقد بعث الله نبيا وهو ابن أمة ، ولو كان به تقصير عن منتهى غاية لم يبعث ، وهو اسماعيل بن ابراهيم ، والنبوة أعظم منزلة من الخلافة عند الله ، ثم لم يمنعه الله من أن جعله أبا للعرب ، وأبا لخير البشر محمد صلى الله عليه وسلم ، ومايقصر برجل أبوه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبعد أمى فاطمة لا أفخر بأم .

فوثب هشام من مجلسه ، وتفرق الشاميون عنه ، وقال لحاجبه : لايبيت هذا فى عسكرى أبدا .

فخرج زيد وهو يقول : ما كره قوم قط جر السيوف الا ذلوا . وسار الى الكوفة ، فقال له محمد بن عمر بن على بن أبى طالب : أذكرك الله يازيد لما لحقت بأهلك ، ولا تأت أهل الكوفة ، فانهم لا يفون لك .

فلم يقبل ، وقال : خرج بنا هشام أسراء على غير ذنب من الحجاز الى الشام ، ثم الى الجزيرة ، ثم الى العراق ، ثم الى تيس ثقيف يلعب بنا . وأنشد :

بكرت تخوفنى الحتوف كأننى
أصبحت عن عرض الحياة بمعزل
فأجبتها ان المنية منزل
لابد أن أسقى بكاس المنهل
ان المنية لو تمثل مثلت
مثلى اذا نزلوا بضيق المنزل
فاثنى حبالك لا أبا لك واعلمى
انى امرؤ سأموت ان لم أقتل

أستودعك الله ، وانى أعطى الله عهدا أن دخلت يدى فى طاعة هؤلاء ما عشت .

وفارقه ، وأقبل الى الكوفة ، فأقام بها مستخفيا تنتقل فى المنازل . فأقبلت الشيعة تختلف اليه تبايعه ، فبايعه جماعة من وجوه أهل الكوفة .

وكانت بيعته : انا ندعوكم الى كتاب الله وسنة نبيه ، وجهاد الظالمين ، والدفع عن المستضعفين ، واعطاء المحرومين ، وقسم هذا الفيء بين أهله بالسواء ، ورد المظالم ، وافعال الخير ، ونصرة أهل البيت ... أتبايعون على ذلك ؟

فاذا قالوا : نعم ، وضع يده على أيديهم ويقول : عليك عهد الله وميثاقه وذمته وذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم : لتؤمنن بيعتى ، ولتقاتلن عدوى ، ولتنصحن لى فى السر والعلانية . فاذا قال : نعم ، مسح يده على يده ، ثم قال : اللهم فاشهد .

فبايعه خمسة عشر ألفا — وقيل أربعون ألفا — وأمر أصحابه بالاستعداد . فأقبل من

يريد أن يفي ، ويخرج معه يستعد وتهيأ . فشاع أمره فى الناس هذا على قول من زعم أنه أتى الكوفة من الشام ، واختفى بها يبايع الناس .

وأما على قول من زعم أنه أتى الى يوسف ابن عمر ، لمرافعة خالد بن عبد الله القسرى ، أو ابنه يزيد بن خالد ، فانه قال : أقام زيد بالكوفة ظاهرا ، ومعه داود بن علي بن عبد الله بن عباس ، وأقبلت الشيعة تختلف اليه ، وتأمره بالخروج ويقولون : انا لنرجو أن تكون أنت المنصور ، وان هذا الزمان الذى يهلك فيه بنو أمية .

فأقام بالكوفة ، ويوسف بن عمر يسأل عنه ، فيقال هو هاهنا ، ويبعث اليه ليسير ، فيقول : نعم ، ويعتل بالوجع . فمكث ما شاء الله . ثم أرسل اليه يوسف بالمسير عن الكوفة ، فاحتج بأنه يحاكم آل طلحة بن عبيد الله بملك بينهما بالمدينة . فأرسل اليه ليوكل وكيلا ويرحل عنها .

فلما رأى الجد من يوسف فى أمره ، سار حتى أتى القادسية — وقيل الثعلبية — فتبعه أهل الكوفة ، وقالوا له نحن أربعون ألفا ، لم يتخلف عنك أحد ، نضرب عنك بأسيافنا ، وليس هاهنا من أهل الشام الا عدة يسيرة ، وبعض قبائلنا يكفيهم باذن الله ، وحلفوا له بالأيمان المغلظة .

فجعل يقول : انى أخاف أن تخذلونى وتسلمونى ، كفعلكم بأبى وجدى . فيحلفون له .

فقال له داود بن على : لا يغرك يابن عمى هؤلاء ، أليس قد خذلوا من كان أعز عليهم منك : جدك على بن أبى * طالب حتى قتل ، والحسن من بعده بايعوه ، ثم وثبوا عليه وانتزعوا رداءه وجرحوه ؟ أوليس قد أخرجوا جدك الحسين ، وحلفوا له ، ثم خذلوه وأسلموه ، ولم يرضوا بذلك حتى قتلوه ؟ فلا ترجع معهم .

فقالوا . يازيد ، ان هذا لا يريد أن تظهر أنت ، ويزعم أنه وأهل بيته أولى بهذا الأمر منكم .

فقال زيد لداود ان عليا كان يقاتله معاوية بذهبه ، وان الحسين قاتله يزيد والأمر مقبل عليهم .

فقال له داود : انى أخاف ان رجعت معهم ألا يكون أحد أشد عليك منهم ، وأنت أعلم .

ومضى داود الى المدينة ، ورجع زيد الى الكوفة فأتاه سلمة بن كهيل ، فذكر له قرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم وحقه ، فأحسن ، ثم قال له : نشدتك الله ، كم بايعك ؟

قال : أربعون ألفا .

قال : فكم بايع جدك ؟

قال : ثمانون ألفا .

قال : فكم حصل معه ؟

قال : ثلثمائة .

قال : نشدتك الله ، أنت خير أم جدك ؟

قال : جدى .

قال : فهذا القرن خير أم ذلك القرن ؟

قال : ذلك القرن .

(*) ص٤٢٨ جـ٢ ، ط.بولاق .

قال : أفتطمع أن يفي لك هؤلاء وقد غدر أولئك بجدك ؟

قال : قد بايعوني ، ووجبت البيعة في عنقي وعنقهم .

قال : أفتأذن لي أن أخرج من هذا البلد ، فلا آمن أن يحدث حدث فأهلك نفسي ؟

فأذن له ، فخرج الى اليمامة .

وكتب عبد الله بن الحسن بن الحسن الى زيد : « أما بعد . فان أهل الكوفة نفج العلانية ، حور السريرة ، هوج في الرد ، أجزع في اللقا ، تقدمهم ألسنتهم ، ولا تتابعهم قلوبهم ، ولقد تواترت كتبهم الى بدعوتهم ، فصممت عن ندائهم ، وألبست قلبي عشاء من ذكرهم ، يأسا منهم ، واطراحا لهم . وما لهم مثل الا ما قال على بن أبي طالب صلوات الله عليه : ان أهملتم خضتم ، وان خورتم خرتم ، وان اجتمع الناس على امام طعنتم ، وان أجبتم الى مشاقة نكصتم » .

فلم يصغ زيد الى شيء من ذلك ، وأقام على حاله يبايع الناس ، ويتجهز للخروج ، وتزوج بالكوفة امرأتين ، وكان ينتقل تارة عند هذه في بني سلمة قومها ، وتارة عند هذه في الأزد قومها ، وتارة في بني عبس ، وتارة في بني تغلب وغيرهم . الى أن ظهر في سنة اثنتين وعشرين ومائة ، فأمر أصحابه بالاستعداد ، وأخذ من كان يريد الوفاء بالبيعة يتجهز .

فبلغ ذلك يوسف بن عمر ، فبعث في طلب زيد ، فلم يوجد . وخاف زيد أن يؤخذ ، فتعجل قبل الأجل الذي جعله بينه وبين أهل الكوفة ، وعلى الكوفة يومئذ الحكم بن الصلت في ناس من أهل الشام ، ويوسف ابن عمر بالحيرة .

فلما علم أصحاب زيد أن يوسف بن عمر قد بلغه الخبر ، وأنه يبحث عن زيد ، اجتمع الى زيد جماعة من رؤوسهم ، فقالوا : رحمك الله ، ما قولك في أبي بكر وعمر ؟

فقال زيد : رحمهما الله وغفر لهما ، ما سمعت أحدا من أهل بيتي يقول فيهما الا خيرا ، وان أشد ما أقول فيما ذكرتم : انا كنا أحق بسلطان رسول الله صلى الله عليه وسلم من الناس أجمعين ، فدفعونا عنه ، ولم يبلغ ذلك عندنا بهم كفرا ، وقد ولوا فعدلوا في الناس ، وعملوا بالكتاب والسنة .

قالوا : فلم يظلمك هؤلاء اذا كان أولئك لم يظلموا ؟ واذا كان هؤلاء لم يظلموا فلم تدعو الى قتالهم ؟

فقال : ان هؤلاء ليسوا كأولئك ، هؤلاء ظالمون لي ولأنفسهم ولكم ، وانما ندعوهم الى كتاب الله وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، والى السنن أن تحيى ، والى البدع أن تطفأ ، فان أجبتمونا سعدتم ، وان أبيتم فلست عليكم بوكيل .

ففارقوه ونكثوا بيعته ، وقالوا : قد سبق الامام (يعنون محمدا الباقر ، وكان قد مات) ، وقالوا : جعفر ابنه امامنا اليوم بعد أبيه . فسماهم زيد الرافضة ، وهم يزعمون أن المغيرة سماهم الرافضة حين فارقوه .

وكانت طائفة قد أتت جعفر بن محمد الصادق قبل قيام زيد ، وأخبروه ببيعته ،

فقال : بايعوه لهو والله أفضلنا وسيدنا . فعادوا وكتموا ذلك .

وكان زيد قد واعد أصحابه أول ليلة من صفر . فبلغ ذلك يوسف بن عمر ، فبعث الى الحكم عامله على الكوفة يأمره بأن يجمع الناس بالمسجد الأعظم يحصرهم فيه ، فجمعهم وطلبوا زيدا ، فخرج ليلا من دار معاوية بن اسحاق بن زيد بن حارثة الأنصارى ، وكان بها ، ورفعوا النيران ، ونادوا : يامنصور ، حتى طلع الفجر .

فلما أصبحوا نادى أصحاب زيد بشعارهم وثاروا ، فأغلق الحكم دروب السوق وأبواب المسجد على الناس ، وبعث الى يوسف بن عمر وهو بالحيرة ، فأخبره الخبر ، فأرسل اليه خمسين فارسا ليعرفوا الخبر ، فساروا حتى عرفوا الخبر ، وعادوا اليه .

فسارت الحيرة بأشراف الناس ، وبعث ألفين من الفرسان وثلثمائة رجالة معهم النشاب . وأصبح زيد ، فكان جميع من وافاه تلك الليلة مائتى رجل وثمانية عشر رجلا ، فقال : سبحان الله ! أين الناس ؟ فقيل : انهم فى المسجد الأعظم محصورون ، فقال : والله ما هذا بعذر لمن بايعنا .

وأقبل فلقيه على جبانة الصايديين خمسمائة من أهل الشام ، فحمل عليهم فيمن معه حتى هزمهم ، وانتهى الى دار أنس بن عمر الأزدى — وكان فيمن بايعه وهو فى الدار — فنودى فلم يجب ، فناداه زيد فلم يخرج اليه ، فقال زيد : ما أخلفكم ؟ قد فعلتموها ، الله حسيبكم .

ثم سار ويوسف بن عمر ينظر اليه ، وهو فى مائتى رجل ، فلو قصده زيد لقتله . والريان يتبع آثار زيد بالكوفة فى أهل الشام ، فأخذ زيد فى المسير ، حتى دخل الكوفة ، فسار بعض أصحابه الى الجبانة ، وواقعوا أهل * الشام ، فأسر أهل الشام منهم رجلا ، ومضوا به الى يوسف بن عمر فقتله .

فلما رأى زيد خذلان الناس اياه ، قال : قد فعلوها حسبى الله ، وسار ، وهو يهزم من لقيه ، حتى انتهى الى باب المسجد ، فجعل أصحابه يدخلون راياتهم من فوق الباب ، ويقولون : ياأهل المسجد اخرجوا من / الذل الى العز ، أخرجوا الى الدين والدنيا ، فانكم لستم فى دين ولا دنيا .

وزيد يقول : والله ما خرجت ، ولا قمت مقامى هذا ، حتى قرأت القرآن ، وأتقنت الفرائض ، وأحكمت السنن والآداب ، وعرفت التأويل كما عرفت التنزيل ، وفهمت الناسخ والمنسوخ ، والمحكم والمتشابه ، والخاص والعام ، وما تحتاج اليه الأمة فى دينها مما لابد لها منه ولا غنى لها عنه ، وانى لعلى بينة من ربى .

فرماهم أهل المسجد بالحجارة من فوق المسجد ، فانصرف زيد فيمن معه ، وخرج اليه ناس من أهل الكوفة ، فنزل دار الرزق ، فأتاه الريان وقاتله ، وخرج أهل الشام مساء يوم الأربعاء أسوأ شىء ظنا .

فلما كان من الغد ، أرسل يوسف بن عمر عدة عليهم العباس بن سعد المزنى ، فلقيهم

(*) ص٤٣٩ جـ٢ ، ط. بولاق .

زيد ، فاقتتلوا قتالا شديدا ، فانهزم أصحاب العباس ، وقتل منهم نحو من سبعين . فلما كان العشى ، عبى يوسف بن عمر الجيوش وسرحهم ، فالتقاهم زيد بمن معه ، وحمل عليهم حتى هزمهم وهو يتبعهم .

فبعث يوسف طائفة من الماشية ، فرموا أصحاب زيد ، وهو يقاتل حتى دخل الليل ، فرمى بسهم فى جبهته اليسرى ثبت فى دماغه . فرجع أصحابه ، ولا يظن أهل الشام أنهم رجعوا للمساء والليل ، فأنزلوا زيدا فى دار ، وأتوه بطبيب فانتزع النصل ، فضج زيد ومات رحمه الله ، لليلتين خلتا من صفر سنة اثنتين وعشرين ومائة ، وعمره اثنتان وأربعون سنة .

ولما مات اختلف أصحابه فى أمره ، فقال بعضهم : نطرحه فى الماء ، وقال بعضهم : بل نحز رأسه ونلقيه فى القتلى ، فقال ابنه يحيى ابن زيد : والله لا يأكل لحم أبى الكلاب ، وقال بعضهم : ندفنه فى الحفرة التى يؤخذ منها الطين ، ونجعل عليه الماء ، ففعلوا ذلك ، وأجروا عليه الماء . وكان معه مولى سندى فدل عليه ، وقيل رآهم قصار فدل عليه .

وتفرق الناس من أصحاب زيد ، وسار ابنه يحيى نحو كربلاء ، وتتبع يوسف بن عمر الجرحى فى الدور حتى دل على زيد فى يوم جمعة ، فأخرجه ، وقطع رأسه وبعث به الى هشام بن عبد الملك ، فدفع لمن وصل به عشرة آلاف درهم ، ونصبه على باب دمشق ، ثم أرسله الى المدينة ، وسار منها الى مصر .

وأما جسده فان يوسف بن عمر صلبه بالكناسة ، ومعه ثلاثة ممن كانوا معه ، وأقام الحرس عليه . فمكث زيد مصلوبا أكثر من سنتين حتى مات هشام ، وولى الوليد من بعده ، وبعث الى يوسف بن عمر أن أنزل زيدا وأحرقه بالنار ، فأنزله وأحرقه ، وذرى رماده فى الريح .

وكان زيد لما صلب وهو عريان ، استرخى بطنه على عورته حتى مايرى من سوءته شيء .

ومر زيد مرة بمحمد بن الحنفية ، فنظر اليه وقال : أعيذك بالله أن تكون زيد بن على المصلوب بالعراق .

وقال عبد الله بن حسين بن على بن الحسين ابن على · سمعت أبى يقول اللهم ان هشاما رضى بصلب زيد فاسلبه ملكه ، وان يوسف ابن عمر أحرق زيدا اللهم فسلط عليه من لا يرحمه ، اللهم وأحرق هشاما فى حياته ان شئت ، والا فأحرقه بعد موته

قال · فرأيت والله هشاما محرقا لما أخذ بنو العباس دمشق ، ورأيت يوسف بن عمر بدمشق مقطعا على كل باب من أبواب دمشق منه عضو ، فقلت : ياأبتاه وافقت دعوتك ليلة القدر .

فقال : لا يابنى ، بل صمت ثلاثة أيام من شهر رجب ، وثلاثة أيام من شعبان ، وثلاثة أيام من شهر رمضان ... كنت أصوم الأربعاء والخميس والجمعة ، ثم أدعو الله عليهما من صلاة العصر يوم الجمعة حتى أصلى المغرب .

وبعد قتل زيد ، انتقض ملك بنى أمية وتلاشى ، الى أن أزالهم الله تعالى ببنى العباس .

وهذا المشهد باق بين كيمان مدينة مصر ، يتبرك الناس بزيارته ويقصدونه ، لا سيما فى يوم عاشوراء ، والعامة تسميه « زين العابدين » ، وهو وهم ، وانما زين العابدين أبوه ، وليس قبره بمصر ، بل قبره بالبقيع .

ولما قتل الامام زيد سودت الشيعة ، أى لبست السواد ، وكان أول من سود على زيد شيخ بنى هاشم فى وقته الفضل بن عبد الرحمن بن العباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم ، ورثاه بقصيدة طويلة ، وشعره حجة احتج به سيبويه ، توفى سنة تسع وعشرين ومائة .

مشهد السيدة نفيسة

قال الشريف النقيب النسابة ، شرف الدين أبو على ، محمد بن أسعد بن على بن معمر ابن عمر الحسينى ، الجوانى المالكى ، فى كتاب « الروضة الأنيسة بفضل مشهد السيدة نفيسة رضى الله عنها » : نفيسة ابنة الحسن بن زيد بن الحسن بن على بن أبى طالب عليهم السلام ، أمها أم ولد ، واخوتها القاسم ومحمد وعلى وابراهيم وزيد وعبيد الله ويحيى واسماعيل واسحاق وأم كلثوم ، أولاد الحسن بن زيد بن الحسن بن على ، فأمهم [1] أم سلمة ، واسمها زينب ابنة الحسن ابن الحسن بن على ، وأمها أم ولد .

تزوج أم كلثوم ، أخت نفيسة ، عبد الله

(١) قوله « فأمهم .. الخ » هكذا فى النسخ ، ولا يخفى ما فى هذه العبارة من السقامة والتنافى ، والظاهر أن فيها سقطا ، والاصل فأما القاسم ومحمد ويحيى وأم كلثوم فأمهم .. الخ كما يدل على ذلك قوله « فأمهم » بالفاء ، وكذلك بقية العبارة حيث بين فيها أمهات ستة منهم ، وليحرر . أ هـ . مصححه .

ابن على بن * عبد الله بن عباس رضى الله عنهم ، ثم خلف عليه الحسن بن زيد بن على ابن الحسن بن على .

وأما على وابراهيم وزيد ، اخوة نفيسة من أبيها ، فأمهم أم ولد تدعى أم عبد الحميد .

وأما عبيد الله بن الحسن بن زيد ، فأمه الزائدة بنت بسطام بن عمير بن قيس الشيبانى .

وأما اسماعيل واسحاق فهما لأمى ولد . وكان اسماعيل من أهل الفضل والخير ، صاحب صوم ونسك ، وكان يصوم يوما ويفطر يوما . وأما يحيى بن زيد فله مشهد معروف بالمشاهد ، يأتى ذكره ان شاء الله تعالى .

وتزوج بنفيسة رضى الله عنها ، اسحاق ابن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب عليهم السلام ، وكان يقال له اسحاق المؤتمن ، وكان من أهل الصلاح والخير والفضل والدين ... روى عنه الحديث ، وكان ابن كاسب اذا حدث عنه يقول : حدثنى الثقة الرضى اسحاق بن جعفر . وكان له عقب بمصر منهم بنو الرقى ، وبحلب بنو زهرة . ولدت نفيسة من اسحاق ولدين ، هما القاسم وأم كلثوم ، لم يعقبا .

وأما جد نفيسة ، وهو زيد بن الحسن بن على ، فروى عن أبيه وعن جابر وابن عباس ، وروى عنه ابنه . وكانت بينه وبين عبد الله ابن محمد بن الحنفية خصومة ، وفدا لأجلها

(*) ص٤٤٠ ج٢ ، ط.بولاق .

على الوليد بن عبد الملك ، وكان يأتي الجمعة من ثمانية أميال ، وكان اذا ركب نظر الناس اليه ، وعجبوا من عظم خلقه ، وقالوا : جده رسول الله .

وكتب اليه الوليد بن عبد الملك يسـأله أن يبايع لابنه عبد العزيز ، ويخلع سليمان بن عبد الملك ، ففرق منه وأجابه . فلمـا اسـتخلف سليمان ، وجد كتاب زيد بذلك الى الوليد ، فكتب الى أبى بكر بن حزم أمير المدينـة : « ادع زيد بن الحسن فأقره الكتاب ، فان عرفه فاكتب الى ، وان هو نكل فقـدمه ، فأصبر يمينه عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه ما كتبه ، ولا أمر به » .

فخاف زيد الله واعترف ، فكتب بذلك أبو بكر ، فكتب سليمان أن يضربه مائة سوط ، وأن يدرعه عباءة ويمشيه حافيا . فحبس عمر ابن عبد العزيز الرسول ، وقال حتى أكلم أميـر المؤمنين فيما كتب به فى حق زيد . فقال للرسـول لا تخرج فان أمير المؤمنين مريض . فمات سليمان ، وأحرق عمر الكتاب .

وأما والد نفيسة ، وهو الحسن بن زيد ، فهو الذى كان والى المدينة النبوية من قبل أبى جعفر عبد الله بن محمد المنصور ، وكان فاضلا أديبا عالما ، وأمه أم ولد ، توفى أبوه وهو غلام ، وترك عليه دينـا أربعـة آلاف دينار ، فحلف الحسن ولده ألا يظل رأسـه سقف الا سقف مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو بيت رجل يكلمه فى حاجة ، حتى يقضى دين أبيه . فوفاه ، وقضـاه بعد ذلك .

ومن كرمه أنه أتى بشاب شارب متأدب ، وهو عامل على المدينة ، فقال : ياابن رسول الله لا أعود ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «أقيلوا ذوى الهيئات عثراتهم» ، وأنا ابن أبى أمامة بن سهل بن حنيف ، وقد كان أبى مع أبيك كما قد علمت .

قال : صدقت ، فهل أنت عائد ؟

قال : لا والله .

فأقاله ، وأمر له بخمسين دينارا ، وقال له : تزوج بها وعد الى . فتاب الشـاب ، وكان الحسن بن زيد يجرى عليه النفقة .

وكانت نفيسة من الصـلاح والزهد على الحد الذى لا مزيد عليه ، فيقال انها حجت ثلاثين حجة . وكانت كثيرة البكاء ، تديم قيام الليل وصيام النهار ، فقيل لها : ألا ترفقين بنفسك ؟

فقالت : كيف أرفق بنفسى وأمامى عقبـة لا يقطعها الا الفائزون .

وكانت تحفظ القرآن وتفسيره . وكانت لا تأكل الا فى كل ثلاث ليال أكلة واحدة ، ولا تأكل من غير زوجها شيئا .

وقد ذكر أن الامام الشـافعى محمد بن ادريس كان زارها ، وهى من وراء الحجاب ، وقال لها : ادعى لى ، وكان صحبته عبد الله ابن عبد الحكم . وماتت رضى الله عنها بعد موت الامام الشافعى رحمة الله عليـه بأربع سنين ، لأن الشافعى توفى سلخ شهر رجب سنة أربع ومائتين ، وقيـل انها كانت فيمن صلى على الامام الشافعى .

وتوفيت السيدة نفيسة فى شهر رمضان سنة ثمان ومائتين ، ودفنت فى منزلها ، وهو الموضع الذى به قبرها الآن ، ويعرف بخط درب السباع ودرب بزرب . وأراد اسحاق بن الصادق — وهو زوجها — أن يحملها ليدفنها بالمدينة ، فسأله أهل مصر أن يتركها ، ويدفنها عندهم لأجل البركة .

وقبر السيدة نفيسة أحد المواضع المعروفة باجابة الدعاء بمصر ، وهى أربعة مواضع : سجن نبى الله يوسف الصديق عليه السلام ، ومسجد موسى صلوات الله عليه وهو الذى بطرا ، ومشهد السيدة نفيسة رضى الله عنها ، والمخدع الذى على يسار المصلى فى قبلة مسجد الاقدام بالقرافة . فهذه المواضع لم يزل المصريون ، ممن أصابته مصيبة أو لحقته فاقة أو جائحة ، يمضون الى أحدها ، فيدعون الله تعالى ، فيستجيب لهم ... مجرب ذلك . انتهى .

ويقال انها حفرت قبرها هذا ، وقرأت فيه تسعين ومائة ختمة ، وانها لما احتضرت خرجت من الدنيا ، وقد انتهت فى حزبها الى قوله تعالى « قل لمن ما فى السموات والأرض قل لله ، كتب على نفسه الرحمة » . ففاضت نفسها رحمها الله تعالى مع قوله « الرحمة » .

ويقال ان الحسن بن زيد — والد السيدة نفيسة — كان مجاب الدعوة ممدوحا ، وان شخصا وشى به الى أبى جعفر المنصور أنه يريد الخلافة * لنفسه ، فانه كان قد انتهت اليه رياسة بنى حسن ، فأحضره من المدينة ، وسلبه ماله ، ثم انه ظهر له كذب الناقل عنه ، فمن عليه ورده الى المدينة مكرما . فلما قدمها بعث الى الذى وشى به بهدية ، ولم يعتبه على ما كان منه .

ويقال انه كان مجاب الدعوة . فمرت به امرأة ، وهو فى الأبطح ، ومعها ابن لها على يدها ، فاختطفه عقاب ، فسألت الحسن بن زيد أن يدعو الله لها برده ، فرفع يديه الى السماء ودعا ربه ، فاذا بالعقاب قد ألقى الصغير من غير أن يضره بشىء ، فأخذته أمه . وكان يعد بألف من الكرام .

ولما قدمت السيدة نفيسة الى مصر ، مع زوجها اسحاق بن جعفر ، نزلت بالمنصوصة ، وكان بجوارها دار فيها قوم من أهل الذمة ، ولهم ابنة مقعدة لم تمش قط . فلما كان فى يوم من الأيام ، ذهب أهلها فى حاجة من حوائجهم ، وتركوا المقعدة عند السيدة نفيسة ، فتوضأت وصبت من فضل وضوئها على الصبية المقعدة ، وسمت الله تعالى ، فقامت تسعى على قدميها ليس بها بأس ألبتة .

فلما قدم أهلها وعاينوها تمشى ، أتوا الى السيدة نفيسة — وقد تيقنوا أن مشى ابنتهم كان ببركة دعائها — وأسلموا بأجمعهم على يديها ، فاشتهر ذلك بمصر ، وعرف أنه من بركاتها .

وتوقف النيل عن الزيادة فى زمنها ، فحضر الناس اليها ، وشكوا اليها ما حصل من توقف النيل ، فدفعت قناعها اليهم ، وقالت لهم : ألقوه فى النيل ، فألقوه فيه ، فزاد حتى بلغ الله به المنافع .

(*) ص٤٤١ جـ٢ ، ط. بولاق .

وآسر ابن لامرأة ذمية في بلاد الروم ، فأتت الى السيدة نفيسة ، وسألتها الدعاء أن يرد الله ابنها عليها . فلما كان الليل لم تشعر الذمية الا بابنها ،وقد هجم عليها دارها ، فسألته عن خبره ، فقال : ياأماه لم أشعر الا ويد قد وقعت على القيد الذى كان فى رجلى ، وقائل يقول : أطلقوه قد شفعت فيه نفيسة بنت الحسن ، فوالذي يحلف به ياأماه ، لقد كسر قيدي ، وما شعرت بنفسي الا وأنا واقف بباب هذه الدار . فلما أصبحت الذمية ، أتت الى السيدة نفيسة ، وقصت عليها الخبر ، وأسلمت هى وابنها ، وحسن اسلامهما .

وذكر غير واحد من علماء الأخبار بمصر أن هذا قبر السيدة نفيسة بلا خلاف ، وقد زار قبرها من العلماء والصالحين خلق لايحصى عددهم . ويقال ان أول من بنى على قبر السيدة نفيسة عبيد الله بن السرى بن الحكم أمير مصر ، ومكتوب فى اللوح الرخام الذى على باب ضريحها — وهو الذى كان مصفحا بالحديد — بعد البسملة ما نصه « نصر من الله وفتح قريب لعبد الله ووليه ، معد أبى تميم الامام المستنصر بالله ، أمير المؤمنين ، صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه المكرمين . أمر بعمارة هذا الباب السيد الأجل أمير الجيوش ، سيف الاسلام ، ناصر الأنام ، كافل قضاة المسلمين ، وهادى دعاة المؤمنين ، عضد الله به الدين ، وأمتع بطول بقائه المؤمنين ، وأدام قدرته ، وأعلى كلمته ، وشد عضده بولده الأجل الأفضل ، سيف الامام ، جلال الاسلام ، شرف الأنام ، ناصر الدين خليل أمير المؤمنين ، زاد الله فى علائه ، وأمتع المؤمنين بطول بقائه ، فى شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة » .

والقبة التى على الضريح جددها الخليفة الحافظ لدين الله فى سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة وأمر بعمل الرخام الذى بالمحراب .

مشهد السيدة كلثوم

هى كلثوم بنت القاسم بن محمد بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسن بن على بن أبي طالب . موضعه بمقابر قريش بمصر بجوار الخندق . وهى أم جعفر بن موسى بن اسماعيل بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق . كانت من الزاهدات العابدات .

سنا وثنا

يقال انهما من أولاد جعفر بن محمد الصادق . كانتا تتلوان القرآن الكريم فى كل ليلة ، فماتت احداهما ، فصارت الأخرى تتلو ، وتهدى ثواب قراءتها لأختها حتى ماتت .

ذكر مقابر مصر والقاهرة المشهورة

القبر مدفن الانسان ، وجمعه قبور . والمقبرة موضع القبر . قال سيبويه : المقبرة ليس على الفعل ، ولكنه اسم ، وقبره يقبره دفنه ، وأقبره جعل له قبرا .

واعلم أن لأهل مدينة مصر ولأهل القاهرة عدة مقابر ، وهى القرافة : فما كان منها فى سفح الجبل يقال له القرافة الصغرى ، وما

كان منها في شرق مصر بجوار المساكن يقال له القرافة الكبرى . وفي القرافة الكبرى كانت مدافن أموات المسلمين منذ افتتحت أرض مصر ، واختط العرب مدينة الفسطاط ، ولم يكن لهم مقبرة سواها .

فلما قدم القائد جوهر ، من قبل المعز لدين الله ، وبنى القاهرة ، وسكنها الخلفاء ، اتخذوا بها تربة * ، عرفت بتربة الزعفران ، قبروا فيها أمواتهم ، ودفن رعيتهم من مات منهم في القرافة . الى أن اختطت الحارات خارج باب زويلة ، فقبر سكانها موتاهم خارج باب زويلة مما يلي الجامع ، فيما بين جامع الصالح وقلعة الجبل ، وكثرت المقابر بها عند حدوث الشدة العظمى أيام الخليفة المستنصر .

ثم لما مات أمير الجيوش بدر الجمالي ، دفن خارج باب النصر ، فاتخذ الناس هنالك مقابر موتاهم ، وكثرت مقابر أهل الحسينية في هذه الجهة . ثم دفن الناس الأموات خارج القاهرة ، في الموضع الذي عرف بميدان القبق ، فيما بين قلعة الجبل وقبة النصر ، وبنوا هناك الترب الجليلة ، ودفن الناس أيضا خارج القاهرة فيما بين باب الفتوح والخندق .

ولكل مقبرة من هذه المقابر أخبار ، سوف أقص عليك من أنبائها ما انتهت الى معرفته قدرتي ان شاء الله تعالى .

ويذكر أهل العناية بالأمور المتقادمة أن الناس في الدهر الأول لم يكونوا يدفنون موتاهم . الى أن كان زمن دوناي — الذي يدعى سيد البشر ، لكثرة ما علم الناس من المنافع — فشكا اليه أهل زمانه ما يتأذون به من خبث موتاهم ، فأمرهم أن يدفنوهم في خوابي ، ويسدوا رؤوسها ، ففعلوا ذلك . فكان دوناي أول من دفن الموتى .

وذكر أن دوناي هذا كان قبل آدم بدهر طويل ، مبلغه عشرون ألف سنة ، وهي دعوى لا تصح . وفي القرآن الكريم ما يقتضي أن قابيل بن آدم أول من دفن الموتى ، والله أصدق القائلين . وقد قال الشافعي رحمه الله : وأكره أن يعظم مخلوق حتى يجعل قبره مسجدا ، مخافة الفتنة عليه وعلى من بعده .

ذكر القرافة

روى الترمذي من حديث أبي طيبة عبد الله بن مسلم ، عن عبد الله بن بريدة ، عن أبيه رفعه : « من مات من أصحابي بأرض ، بعث قائدا ونورا لهم يوم القيامة » . قال : وهذا حديث غريب ، وقد روى عن أبي طيبة عن ابن بريدة مرسلا ، وهذا أصح .

قال أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله ابن عبد الحكم في كتاب « فتوح مصر » : حدثنا عبد الله بن صالح ، حدثنا الليث بن سعد ، قال : سأل المقوقس عمرو بن العاص أن يبيعه سفح المقطم بسبعين ألف دينار . فعجب عمرو من ذلك ، وقال . أكتب في ذلك الى أمير المؤمنين . فكتب بذلك الى عمر رضي الله عنه . فكتب اليه عمر : « سله لم أعطاك به ما أعطاك ، وهي لا تزدرع ، ولا يستنبط بها ماء ، ولا ينتفع بها ؟ » .

(*) ص٤٤٢ جـ٢ ، ط . بولاق .

فسأله فقال : انا لنجد صفتها فى الكتب أن فيها غراس الجنة . فكتب بذلك الى عمر رضى الله عنه . فكتب اليه عمر : « انا لا نعلم غراس الجنة الا المؤمنين ، فاقبر فيها من مات قبلك من المسلمين ، ولا تبعه بشىء » .

فكان أول من دفن فيها رجل من المغافر ، يقال له عامر ، فقيل عمرت .

فقال المقوقس لعمرو : ما ذلك ، ولا على هذا عاهدتنا . فقطع لهم الحد الذى بين المقبرة وبينهم .

وعن ابن لهيعة : أن المقوقس قال لعمرو : انا لنجد فى كتابنا أن ما بين هذا الجبل وحيث نزلتم ، نبت فيه شجر الجنة . فكتب بقوله الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه . فقال : صدق ، فاجعلها مقبرة للمسلمين .

فقبر فيها ممن عرف من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسة نفر : عمرو بن العاص السهمى ، وعبد الله بن حذافة السهمى ، وعبد الله بن جزء الزبيدى ، وأبو بصيرة الغفارى ، وعقبة بن عامر الجهنى ، ويقال ومسلمة بن مخلد الأنصارى انتهى .

ويقال ان عامرا هو الذى كان أول من دفن بالقرافة ، قبره الآن تحت حائط مسجد الفتح الشرقى ، وقالت فيه امرأة من العرب :

قامت بواكيه على قبره
من لى من بعدك ياعامر
تركتنى فى الدار ذا غربة
قد ذل من ليس له ناصر

وروى أبو سعيد عبد الرحمن بن أحمد بن يونس فى « تاريخ مصر » ، من حديث حرملة ابن عمران ، قال : حدثنى عمير بن أبى مدرك الخولانى ، عن سفيان بن وهب الخولانى ، قال : بينا نحن نسير مع عمرو بن العاص فى سفح هذا الجبل ، ومعنا المقوقس ، فقال له عمرو : يامقوقس ، ما بال جبلكم هذا أقرع ، ليس عليه نبات ولا شجر على نحو بلاد الشام ؟

فقال : لا أدرى ، ولكن الله أغنى أهله بهذا النيل عن ذلك ، ولكنه نجد تحته ما هو خير من ذلك .

قال : وما هو ؟

قال : ليدفنن تحته (أو ليقبرن تحته) قوم يبعثهم الله يوم القيامة لا حساب عليهم .

قال عمرو : اللهم اجعلنى منهم .

قال حرملة بن عمران : فرأيت قبر عمرو بن العاص ، وقبر أبى بصيرة ، وقبر عقبة بن عامر فيه .

وخرج أبو عيسى الترمذى ، من حديث أبى طيبة عبد الله بن مسلم ، عن عبد الله بن بريدة ، عن أبيه رفعه : « من مات من أصحابى بأرض بعث قائدا لهم ونورا يوم القيامة » .

وقال القاضى أبو عبد الله محمد بن سلامة القضاعى : القرافة هم بنو غض بن سيف بن وائل بن المغافر ، وفى نسخة بنو غصن .

وقال أبو عمرو الكندى : بنو جحض بن سيف بن وائل بن الجيزى بن شراحيل * بن

(*) ص٤٤٣ ج١ ، ط بولاق .

المعافر بن يعفر ، وقيل ان قرافة اسم أم عزافر وجحض ابنى سيف بن وائل بن الجيزى ، قد صحف القضاعى فى قوله « غصن » بالغين المعجمة ، والأقرب ما قاله الكندى ، لأنه أقعد بذلك .

وقال ياقوت : والقرافة — بفتح القاف وراء مخففة وألف خفيفة وفاء — الأول : مقبرة بمصر مشهورة ، مسماة بقبيلة من المعافر يقال لهم بنو قرافة . الثانى : القرافة محلة بالاسكندرية ، منسوبة الى القبيلة أيضا .

وقال الشريف محمد بن أسعد الجوانى فى كتاب « النقط » — وقد ذكر جامع القرافة ، الذى يقال له اليوم جامع الأولياء — : وكان جماعة من الرؤساء يلزمون النوم بهذا الجامع ، ويجلسون فى ليالى الصيف يتحدثون فى القمر فى صحنه ، وفى الشتاء ينامون عند المنبر ، وكان يحصل لقيمه الأشربة والحلوى والجرايات .

وكان الناس يحبون هذا الموضع ، ويلزمونه لأجل من يحضر من الرؤساء ، وكانت الطفيلية يلزمون المبيت فيه ليالى الجمع ، وكذلك أكثر المساجد التى بالقرافة والجبل والمشاهد ، لأجل ما يحمل اليها ، ويعمل فيها من الحلاوات واللحومات والأطعمة .

وقال موسى بن محمد بن سعيد فى كتاب « المغرب عن أخبار المغرب » : وبت ليالى كثيرة بقرافة الفسطاط ، وهى فى شرقيها ، بها منازل الأعيان بالفسطاط والقاهرة ، وقبور عليها مبان معتنى بها ، وفيها القبة العالية العظيمة المزخرفة — التى فيها قبر الامام الشافعى رضى الله عنه — وبها مسجد جامع ، وترب كثيرة عليها أوقاف للقراء ، ومدرسة كبيرة للشافعية .

ولا تكاد تخلو من طرب ، ولا سيما فى الليالى المقمرة ، وهى معظم مجتمعات أهل مصر ، وأشهر متنزهاتهم ، وفيها أقول :

ان القرافة قد حوت ضدين من
دنيا وأخرى فهى نعم المنزل
يغشى الخليع بها السماع مواصلا
ويطوف حول قبورها المتبتل
كم ليلة بتنا بها ونديمنا
لحن يكاد يذوب منه الجندل
والبدر قد ملأ البسيطة نوره
فكأنما قد فاض منه جدول
وبدا يضاحك أوجها حاكينه
لما تكامل وجهه المتهلل

وفوق القرافة من شرقيها جبل المقطم ، وليس له علو ولا عليه اخضرار ، وانما يقصد للبركة ، وهو نبيه الذكر فى الكتب ، وفى سفحه مقابر أهل الفسطاط والقاهرة .

والاجماع على أنه ليس فى الدنيا مقبرة أعجب منها ، ولا أبهى ولا أعظم ولا أنظف من أبنيتها وقبابها وحجرها ، ولا أعجب تربة منها كأنها الكافور والزعفران ، مقدسة فى جميع الكتب ، وحين تشرف عليها تراها مدينة بيضاء ، والمقطم عال عليها كأنه حائط من ورائها .

وقال شافع بن على :

تعجبت من أمر القرافة اذ غدت
على وحشة الموتى لها قلبنا يصبو
فألفيتها مأوى الأحبة كلهم
ومستوطن الأحباب يصبو له القلب

وقال الأديب أبو سعيد محمد بن أحمد العميدى :

اذا ما ضاق صدرى لم أجد لى
مقر عبادة الا القرافه
لئن لم يرحم المولى اجتهادى
وقلة ناصرى لم ألق رافه

واعلم أن الناس فى القديم انما كانوا يقبرون موتاهم فيما بين مسجد الفتح وسفح المقطم ، واتخذوا الترب الجليلة أيضا فيما بين مصلى خولان وخط الغافر — التى موضعها الآن كيمان تراب — وتعرف الآن بالقرافة الكبرى .

فلما دفن الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب ابنه ، فى سنة ثمان وستمائة ، بجوار قبر الامام محمد بن ادريس الشافعى ، وبنى القبة العظيمة على قبر الشافعى ، وأجرى لها الماء من بركة الحبش بقناطر متصلة منها ... نقل الناس الأبنية من القرافة الكبرى الى ما حول الشافعى ، وأنشأوا هناك الترب . فعرفت بالقرافة الصغرى ، وأخذت عمائرها فى الزيادة ، وتلاشى أمر تلك . وأما القطعة التى تلى قلعة الجبل فتجددت بعد السبعمائة من سنى الهجرة .

وكان ما بين قبة الامام الشافعى ، رحمة الله عليه ، وباب القرافة ميدانا واحدا تتسابق فيه الأمراء والأجناد ، ويجتمع الناس هنالك للتفرج على السباق ، فتصير الأمراء تسابق على حدة ، والأجناد تسابق فى جهة وهم منفردون عن الأمراء ، والشرط فى السباق من تربة الأمير بيدرا الى باب القرافة .

ثم استجد أمراء دولة الناصر محمد بن قلاوون فى هذه الجهة الترب . فبنى الأمير يلبغا التركمانى ، والأمير طقتمر الدمشقى ، والأمير قوصون وغيرهم من الأمراء . وتبعهم الجند وسائر الناس ، فبنوا الترب والخوانك والأسواق والطواحين والحمامات ، حتى صارت العمارة من بركة الحبش الى باب القرافة ، ومن حد مساكن مصر الى الجبل .

وانقسمت الطرق فى القرافة ، وتعددت بها * الشوارع ، ورغب كثير من الناس فى سكناها ، لعظم القصور التى أنشئت بها ، وسميت بالترب ، ولكثرة تعاهد أصحاب الترب لها ، وتواتر صدقاتهم ومبراتهم لأهل القرافة .

وقد صنف الناس فيمن قبر بالقرافة ، وأكثروا من التأليف فى ذلك ، ولست بصدد شىء مما صنفوا فى ذلك ، وانما غرضى أن أذكر ما تشتمل عليه القرافة .

وفى سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة ظهر بالقرافة شىء ، يقال له القطربة ، تنزل من جبل المقطم ، فاختطفت جماعة من أولاد سكانها ، حتى رحل أكثرهم خوفا منها .

وكان شخص من أهل كبارة مصر — يعرف بحميد الفوال — خرج من اطفيح على حماره ،

(*) ص٤٤٤ جـ٢ ، ط. بولاق .

فلما وصل الى حلوان عشاء ، رأى امرأة جالسة على الطريق ، فشكت اليه ضعفا وعجزا فحملها خلفه ، فلم يشعر بالحمار الا وقد سقط ، فنظر الى المرأة ، فاذا بها قد أخرجت جوف الحمار بمخاليبها ، ففر وهو يعدو الى والى مصر ، وذكر له الخبر ، فخرج بجماعته الى الموضع ، فوجد الدابة قد آكل جوفها .

ثم صارت بعد ذلك تتبع الموتى بالقرافة ، وتنبش قبورهم ، وتأكل أجوافهم ، وتتركهم مطروحين ، فامتنع الناس من الدفن فى القرافة زمنا حتى انقطعت تلك الصورة .

ذكر المساجد الشهيرة بالقرافة الكبيرة

اعلم أن القرافة بمصر اسم لموضعين : القرافة الكبيرة ، حيث الجامع الذى يقال له جامع الأولياء ، والقرافة الصغيرة ، وبها قبر الامام الشافعى . وكانتا فى أول الأمر خطتين لقبيلة من اليمن ، هم من المغافر بن يعفر ، يقال لهم بنو قرافة .

ثم صارت القرافة الكبيرة جبانة ، وهى حيث مصلى خولان والبقعة ، وما هو حول جامع الأولياء ، فانه كان يشتمل على مساجد وربط وسوق وعدة مساكن : منها ما خرب ، ومنها ما هو باق ، وسترى من ذلك ما يتيسر ذكره .

مسجد الأقدام

هذا المسجد بالقرافة بخط المغافر . قال القضاعى : ذكر الكندى أن الجند بنوه ، وليس من الخطط .

وسمى الاقدام لأن مروان بن الحكم لما دخل مصر ، وصالح أهلها وبايعوه ، امتنع من بيعته ثمانون رجلا من المغافر سوى غيرهم ، وقالوا : لا تنكث بيعة ابن الزبير . فأمر مروان بقطع أيديهم وأرجلهم ، وقتلهم على بئر بالمغافر فى هذا الموضع ، فسمى المسجد بهم لأنه بنى على آثارهم . والآثار الأقدام ، يقال جئت على قدم فلان ، أى على أثره . وقيل بل أمرهم بالبراءة من على بن أبى طالب ، رضى الله عنه ، فلم يتبرأوا منه ، فقتلهم هناك .

وقيل انما سمى مسجد الأقدام لأن قبيلتين اختلفتا فيه : كل تدعى أنه من خطتها . فقيس ما بينه وبين كل قبيلة بالأقدام ، وجعل لأقربهما منه .

والقديم من هذا المسجد هو محرابه ، والأروقة المحيطة به ، وأما خارجه فزيادة الاخشيد ، والزيادة الجديدة التى فى بحريه لسمعون — الملقب بسهم الدولة — متولى الستارة ، وكان من أهل السنة والخير .

ويقال انما سمى مسجد الأقدام لأنه كان يتداوله العباد ، وكانت حجارته كذانا ، فأثر فيها موضع أقدامهم ، فسمى لذلك مسجد الأقدام .

مسجد الرصد

هذا المسجد بناه الأفضل أبو القاسم شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالى ، بعد بنائه للجامع المعروف بجامع الفيلة ، لأجل رصد الكواكب بالآلة التى يقال لها ذات الحلق ، كما ذكر فيما تقدم .

مسجد شقيق الملك

هذا المسجد بجوار مسجد الرصد . بناه شقيق الملك خسروان صاحب بيت المال ، أحد خدام القصر فى أيام الخليفة الحافظ لدين الله فى سنة احدى وأربعين وخمسمائة ، وعمل فيه للحافظ ضيافة عظيمة حضر فيها بنفسه ومعه الأمراء والأستاذون وكافة الرؤساء .

وكان فيه كرم وسمو همة ، وكان لمساجد القرافة والجبل عنده رونامج بأسماء أربابها ، فينفذ اليهم فى أيام العنب والتين لكل مسجد قفص رطب ، ويرسل فى كل ليلة من ليالى الوقود لكل مسجد خروف شواء وسطل جوذآب وجام حلوى ، ولاسيما اذا كان بائتا فى هذا المسجد ، فانه لا يأكل حتى يسير ذلك لمن اسمه عنده .

وكان يعمل جفان القطائف المحشوة باللوز والسكر والكافور والمسك ، وفيها ما فيه بدل اللوز الفستق ، ويستدعى من لا يقدر على ذلك من أهل الجبل والقرافة وذوى البيوت المنقطعين ، ويأمر * اذا حضروا بسكب الحلو والشيرج عليه بالجرار ، ويأمرهم بالأكل منه والحمل معهم وكان أحبهم اليه من يأكل طعامه ، ويستدعى بره وانعامه ، رحمه الله .

مسجد الانطاكى

هذا المسجد كان أيضا بالرصد .

(*) ص٤٤٥ جـ٢ ، ط. بولاق .

وما برحت هذه المساجد الثلاثة بالرصد يسكنها الناس الى ما بعد سنة ثمانين وسبعمائة . ثم خربت ، وصار الرصد من الأماكن المخوفة بعد ما أدركته متنزها للعامة .

مسجد النارنج

هذا المسجد عامر الى يومنا هذا ، فيما بين الرصد والقرافة الكبرى ، بجانب سقاية ابن طولون — المعروفة بعفصة الكبرى — غربيها الى البحرى قليلا ، وهو المطل على بركة الحبش شرقى الكتفى وقبلى القرافة . بنته الجهة الآمرية ، المعروفة بجهة الدار الجديدة ، فى سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة ... أخرجت له اثنى عشر ألف دينار على يد الأستاذين افتخار الدولة يمن ، ومعز الدولة الطويل المعروف بالوحش .

وتولى العمارة والانفاق عليه الشريف أبو طالب موسى بن عبد الله بن هاشم بن مشرف ابن جعفر بن المسلم بن عبيد الله بن جعفر بن محمد بن ابراهيم بن محمد اليمانى بن عبيد الله بن موسى الكاظم ، الحسينى الموسوى ، المعروف بابن أخى الطيب بن أبى طالب الوراق وسمى مسجد النارنج لأن نارنجه لا ينقطع أبدا .

مسجد الأندلس

هذا المسجد فى شرقى القرافة الصغرى بجانب مسجد الفتح ، فى الموضع الذى يعرف عند الزوار بالبقعة ، وهو مصلى المغافر على الجنائز . ويقال انه بنى عند فتح مصر ، وقيل بنى فى خلافة معاوية بن أبى سفيان . ثم بنته

بجهة مكنون — واسمها علم الآمرية — أم ابنة الآمر ، التى يقال لها ست القصور ، فى سنة ست وعشرين وخمسمائة ، على يد المعروف بالشيخ أبى تراب .

و « جهة مكنون » هذه كان الخليفة الآمر بأحكام الله كتب صداقها ، وجعل المقدم منه أربعة عشر ألف دينار ، وكان لها صدقات وبر وخير وفضل ، وعندها خوف من الله ، وكانت تبعث الى الأشراف بصلات جزيلة ، وترسل الى أرباب البيوت والمستورين أموالا كثيرة .

ولما وهب الآمر لهزار الملوك ولبرغش ، فى كل يوم ، مائتى ألف دينار عينا . لكل منهما مائة ألف دينار ... حضر اليها عشاء على عادته ، فأغلقت باب مقصورتها قبل دخوله ، وقالت له : والله ما تدخل الى ، أو تهب لى مثل ما وهبت لواحد من غلاميك .

فقال : الساعة .

ثم استدعى بالفراشين فحضروا ، فقال : هاتوا مائة ألف دينار الساعة .

ولم يزل واقفا الى أن حضرت عشرة كيسة ، فى كل كيس عشرة آلاف دينار ، ويحمله عشرة من الفراشين . ففتحت له الباب ، ودخل اليها .

ومكنون هذا هو الأستاذ الذى كان برسم خدمتها — ويقال له مكنون القاضى لسكونه وهدوئه — وكان فيه خير وبر كبير .

وبجانب مسجد الأندلس هذا رباط من غربيه . بنته جهة مكنون هذه ، فى سنة ست وعشرين وخمسمائة ، برسم العجائز الأرامل .

فلما كان فى سنة أربع وسبعين وخمسمائة ، بنى الحاجب لؤلؤ العادلى ، برحبة الأندلس والرباط ، بستانا وأحواضا ومقعدا ، وجمع بين مصلى الأندلس وبين الرباط بحائط بينهما ، وعمل ذلك لحلول العفيف حاتم بن مسلم المقدسى الشافعى به .

ولما مات السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى بدمشق ، فى المحرم سنة ست وسبعين وستمائة ، وقام من بعده فى السلطنة ابنه الملك السعيد محمد بركة خان ، عمل لأبيه عزاء بالأندلس هذا . فاجتمع هناك القراء والفقهاء ، وأقيمت المطابخ ، وهيئت المطاعم الكثيرة ، وفرقت على الزوايا ، ومدت أسمطة عظيمة بالخيام التى ضربت حول الأندلس . فأكل الناس على اختلاف طبقاتهم وقرأ القراء ختمة شريفة ، وعد هذا الوقت من المهمات العظيمة المشهورة بديار مصر .

وكان ذلك فى المحرم سنة سبع وسبعين وستمائة ، على رأس سنة من موت الملك الظاهر ، فقال فى ذلك القاضى محيى الدين عبد الله بن عبد الظاهر :

يأيها الناس اسمعوا
قولا بصدق قد كسى
ان عزا السلطان فى
غرب وشرق ما نسى
أليس ذا مأتمه
يعمل فى الأندلس *

ثم عمل بعد ذلك مجتمع فى المدرسة الناصرية بجوار قبة الشافعى من القرافة ،

(*) ص٤٤٦ جـ٢ ، ط. بولاق .

ومجتمع بجامع ابن طولون ، ومجتمع بجامع الظاهر من الحسينية خارج القاهرة ، ومجتمع بالمدرسة الظاهرية بين القصرين ، ومجتمع بالمدرسة الصالحية ، ومجتمع بدار الحديث الكاملية ، ومجتمع بالخانقاه الصلاحية لسعيد السعداء ، ومجتمع بالجامع الحاكمي .

وأقيم في كل واحد من هذه المجتمعات الأطعمة الكثيرة ، وعمل للتكاررة خوان ، وللفقراء خوان حضره كثير من أهل الخير والصلاح ، فقيل في ذلك :

فشكرا لها أوقات بر تقبلت
لقد كان فيها الخير والبر أجمعا
لقد عمت النعمى بها كل موطن
سقتها العوادى مربعا ثم مربعا
ولما مضى السلطان لم يمض جوده
وخلّف فينا بره متنوعا
فتى عيش فى معروفه بعد موته
كما كان بعد السيل مجراه مرتعا
فدام له منا الدعاء مكررا
مدى دهرنا والله يسمع من دعا

مسجد البقعة

هذا المسجد مجاور لمسجد الفتح من غربيه . بناه الأمير أبو منصور صافي الأفضلي .

مسجد الفتح

هذا المسجد مشهور بجوار قبر الناطق . بناه شرف الاسلام سيف الامام يانس الرومى وزير مصر . وسمى بالفتح لأن منه كان انهزام الروم الى قصر الشمع ، حين قدم الزبير بن العوام والمقداد بن الأسود فيمن سواهما ، مددا لعمرو بن العاص ، وكان الفتح .

ويقال ان محرابه اللطيف الذى بجانبه الشرقى قديم ، وان تحت حائطه الشرقى قبر عامر الذى كان أول من دفن بالقرافة . ومحراب مسجد الفتح منحرف عن خط سمت القبلة الى جهة الجنوب انحرافا كثيرا كما ذكر عند ذكر محاريب مصر من هذا الكتاب ، واستشهد يومئذ جماعة دفنوا فى مجرى الحصا ، فكان يرى على قبورهم فى الليل نور .

مسجد أم عباس جهة العادل بن سلار

هذا المسجد كان بجوار مصلى خولان بالمغافر غربى المقابر . بنته بلاوة زوج العادل ابن السلار ، سلطان مصر فى خلافة الظافر ، سنة سبع وأربعين وخمسمائة ، على يد المعروف بالشريف عز الدولة الرضوى بن القفاص ، وكانت بلاوة مغربية ، وهى أم الوزير عباس الصنهاجى الباديسى . وقد دثر هذا المسجد .

مسجد الصالح

هذا المسجد كان بخط جامع القرافة ، المعروف بجامع الأولياء ، عرف بمسجد بنى عبيد الله ، وبمسجد القبة ، وبمسجد العزاء . والذى بناه الصالح طلائع بن رزيك وزير مصر ، وكان فى أعلاه مناظر ، وعمارته متقنة الزى ، وأدركته عامرا الى ما بعد سنة ثمانمائة .

مسجد ولى عهد أمير المؤمنين

هو الأمير أبو هاشم العباس بن شعيب بن داود المهدى ، أحد الأقارب فى الأيام الحاكمية كان الى جانب مسجد الصالح ، وبجانبه تربته . وكان المسجد من حجر ، وبابه محمول على أربع حنايا ، وتحت الحنايا باب المسجد ، وفى شرقيه أيضا أربع حنايا .

وكانت دار أبى هاشم هذا بمصر دار الأفراح . ومن ولده الشريف الأمير الكبير أبو الحسن على ابن الأمير عباس بن شعيب بن أبى هاشم المذكور ، ويعرف بالشريف الطويل وبالنباش .

مسجد الرحمة

هذا المسجد كان فى صدر القرافة الكبرى ، بالقرب من تربة ركن الاسلام محمود ابن أخت الملك الصالح طلائع بن رزيك .

قال الكندى : ومنها مسجد القرافة ، وهم بنو محصن بن سيف بن وائل بن الجيزى ، قبلى القرافة على يمينك اذا أممت مسجد الأقدام ، مقابله فسقية صغيرة ، وله منارة ، يعرف بمسجد الرحمة . وعرف هذا المسجد بأبى تراب * الصواف ، وكيل الجهة التى بنت مسجد الأندلس ورباطه ومسجد رقية ، وأبو تراب هذا تولى بناءه ، وكان يقوم بخدمته الشيخ نسيم .

وأبو تراب هو الذى أخرج اليه ولد الآمر فى قفة من خوص فيها حوائج طبيخ من كراث وبصل وجزر ، وهو طفل فى القماط ، فى أسفل القفة والحوائج فوقه ، ووصل به الى القرافة ، وأرضعته المرضعة بهذا المسجد ، وخفى أمره عن الحافظ حتى كبر وصار يسمى قفيفة . فلما حان نقعه ، نم عليه أبو عبد الله الحسين بن أبى الفضل عبد الله بن الحسين الجوهرى الواعظ ، بعدما مات الشيخ أبو تراب ، عند الحافظ . فأخذ الصبى وفصده فمات ، وخلع على ابن الجوهرى ، ثم نفى الى دمياط ، فمات بها فى جمادى سنة ثمان وعشرين وخمسمائة .

مسجد مكنون

هو بجانب مسجد الرحمة . بناه الأستاذ مكنون القاضى ، الذى تقدم ذكره فى مسجد الأندلس .

مسجد جهة ريحان

هذا المسجد كان فى وجه مسجد أبى تراب ، قبالة دار البقر ، من القرافة الكبرى . وجدده أستاذ الجهة الحافظية ، واسمه ريحان فى سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة .

مسجد جهة بيان

هذا المسجد كان فى بطحاء مسجد الأقدام بجوار ترب المادرانيين . بنته الجهة الحافظية ، المعروفة بجهة بيان الحسامى ، على يد أبى الفضل الصعيدى المعروف بابن الموفق .

وحكى الخليفة عن هذه الجهة خبرا عجيبا ... قال القاضى المكين أبو الطاهر

(*) ص٤٤٧ جـ٢ ، ط. بولاق .

اسماعيلَ بن سـلامة : قالَ لي أمير المؤمنين الحافظ يوما : ياقاضي أبا الطاهر .

قلت : لبيك ياأمير المؤمنين .

قال : أحدثك بحديث عجيب .

قلت : نعم .

قال : لما جرى من أبى على بن الأفضـلَ ما جرى ، بينا أنا فى الموضـع الذى كنت معتقلا فيه ، رأيت كأنى قد جلست فى مجلس من مجالس القصر أعرفه ، وكأن الخلافة قد أعيدت الى ، وكأن المغنيات قد دخلن يهنيننى ويغنين بين يدى ، وفى جملتهن جارية معها عود (يعنى هذه الجارية المذكورة) فأنشأت تغنى قول أبى العتاهية :

أتته الخلافة منقادة
اليه تجرر أذيالها
فلم تك تصلح الا له
ولم يك يصلح الا لها
ولو نالها أحد غيـره
لزلزت الأرض زلزالها

وكأنى قمت الى خزانة بالمجلس أخذت منها حقـة فيها جوهر فملأت فمها منـه .. ثم استيقظت . فوالله ياقاضى ما كان الا يومان حتى كسر على الحبس ، لما قتل أبو على بن الأفضـل ، وقيـل لي : السـلام على أمير المؤمنين .

فلمـا خرجت ، وأقمت أياما ، جلست فى ذلك المجلس الذى رأيته فى النوم ، ودخل الجوارى يهنيننى ، فغنت احداهن — وهى ذات عود — ذلك الصـوت بعينـه ، فقلت لها : على رسلك حتى نقضى نحن أيضا من حقك ما يجب علينـا ، وقمت الى الخزانة ، وأخذت الحق الذى فيه الجوهر ، ثم جئت اليهـا وقلت لهـا : افتحى فاك ، ففتحتـه وحشوته جوهرا ، وقلت لها : ان لك علينا فى كل سنة فى مثلَ هذا اليوم مثل ذلك .

مسجد توبة

هو ابن ميسرة الكتامى مغنى المستنصر . كان فى شرقى الأقهوب ، وقبالته تربة تنسب الى الطبالة صاحبة أرض الطبالة ، وكلاهما فى القرافة الكبرى

مسجد درى

هذا المسجد كان فى القرافة الـكبرى فى رحبة الأقهوب . بناه شهاب الدولة درى ، غلام المظفر أخى الأفضل بن أمير الجيوش ، فى سنة ثلاث وثلاثين وخمسـمائة ، وكان أرمنيا فأسلم ، وصـار من المتشـددين فى مذهب الامامية ، وقرأ الجمل للزجاجى فى النحو ، واللمع لابن جنى .

وكانت له خرائط من القطن الأبيض يلبسها فى يديه ورجليـه ، وكان يتـولى خـزائن الكسوات ، ولا يدخل على بسط السلاطين ، ولا على بسط الخليفة الحافظ لدين الله ، ولا يدخل * مجلسه الا بالخرائط فى رجليـه ، ولا يأخذ من أحد رقعة الا فى يده خريطة ، يظن أن من لمسه نجسه ، وسوسة منه .

فان اتفق أنه صافح أحدا ، أو أمسـك رقعة بيده من غير خريطة ، لا يمس ثوبه ولا بدنه حتى يغسلهـا ، فان مس ثوبه غسـل

(*) ص٤٤٨ جـ٢ ، ط.بولاق .

الثوب . وكان الاستاذون يعبثون به ، ويرمون في بساط الخليفة الحافظ العنب ، فاذا مشى عليه وانفجر ، ووصل ماؤه الى رجليه ، سبهم وحرد ، فيضحك الخليفة ، ولا يؤاخذه .

وعمل مرة الوزير رضوان بن ولخشي دواة حليتها ألف دينار مرصعة ، فدخل عليه شهاب الدولة درى الصغير هذا ، وقد أحضرت الدواة المذكورة ، فقال له : يامولانا أحسن من مداد هذه الدواة ، ووقع على هذه ، فيكون ذلك زكاتها ، اذ لله فيه رضا ولنبيه .

وناوله رقعة الشريف القاضي ، سنا الملك أسعد الجواني النحوي ، يطلب فيها راتبا لابنه الشريف أبي عبد الله محمد في الشهر ثلاثة دنانير ، فوقع عليها . فلما كان في الليل رأى في نومه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، وهو يقول : جزاك الله خيرا على فعلك اليوم .

مسجد ست غزال

هذا المسجد كان في القرافة الكبرى بجوار تربة النعمان . بنته ست غزال في سنة ست وثلاثين وخمسمائة ، وكانت غزال هذه صاحبة دواة الخليفة ، لا تعرف شيئا الا احكام الدوى والليق ومسح الأقلام والدواة ، وكان برسم خدمتها الأستاذ مأمون الدولة الطويل .

مسجد رياض

هو لوقافة الحافظ لدين الله ، كانت تقف بين يديه بالقصر . وكان بجوار المصنعة الصغرى الطولونية التي يجيء الماء اليها من عفصة الكبرى ، وكان فيه حوش به عدة بيوت للنساء المنقطعات .

مسجد عظيم الدولة

هذا المسجد كان معلقا بخط سوق القرافة الكبرى ، وكان عظيم الدولة هذا صقلبيا ، صاحب الستر وحامل المظلة . وكان بجوار هذا المسجد مسجد التمساح ، ومسجد السدرة ، ومسجد جهة مراد .

وكان القاضي أبو عبد الله محمد بن أبي الفرج هبة الله بن الميسر لما عمل قدامه منارة النحاس الرومية ذات السواعد ، واجتاز بها من تحت سدرة المسجد في ليلة الوقود ، نصف شهر رجب سنة ثلاثين وخمسمائة ، عاقتها السدرة ، فأمر بقطع بعضها ، فقيل له : لا تفعل فان قطع السدر محذور ، وقد روى أبو داود في كتاب « السنن » له أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من قطع سدرة صوب الله رأسه في النار » ، فقطعها على ركوب نصف شعبان ، فما أسنى ، وصرف في المحرم ، ونفي الى تنيس وقتل .

مسجد أبي صادق

هذا المسجد كان غربي مسجد الأقدام . بناه ابن سعدون ، أبو الحسن علي بن محمد البغدادي ، بعد سنة عشرين وأربعمائة ، وجدده أخوه أبو عبد الله الحسين بن محمد ابن الحسن بن سعدون البغدادي سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة .

وهو مسجد أبي صادق مرشد المديني المالكي المحدث ، وكان قارىء المصحف

بالجامع ومصليا به ، ومصـدرا فيـه لاقراء السبع . وكان فيه حنـة على الحيوانات ، لا سيما على القطط والكلاب ، وكان مشـارف الجامع ، وجعل عليه جاريا من الغدد كل يوم لأجـل القطط . وكان عنـد داره ، بزقاق الأقفال من مصر ، كلاب يطعمها ويسقيها ، وربما تبع دابته منها شيء معه في الأسواق .

قال الشريف محمـد بن أسعـد الجواني النسابة في كتاب « النقط على الخطط » : حدثني الشيخ منجب ، غلام أبي صادق ، قال : كان لمولاي الشيخ أبي صادق كلب لا يفارقه أبدا : اذا كان راكبا يمشي خلفه ، فاذا وقفت بغلته قام تحت يديها ، فاذا رآه الناس قالوا : هذا أبو صادق وكلبه .

وحدثني قال : ولدت كلبة في مسـتوقد حمام ، وكان المؤذن يأتي خلف مولاي سحرا كل يوم لقراءة المصحف ، وكان مولاي يأخذ في كمه كل يوم رغيفا . فاذا حاذى موضـع الكلبة قلع طيلسانه ، وقطع الخبز للكلبة ، ويرمي لها بنفسه الى أن تأكل ، ثم يستدعي الوقاد ويعطيه قيراطا ، ويقول له : اغسـل قدحها واملأه ماء حلوا ، ويستحلفـه على ذلك * . فلما كبر أولادها ، صار يأخذ بعـد رغيفين الى أن كبروا وتفرقوا .

وحدثني قال : كان قد جعل كراء حانوت ، برسم القطاط بجامع العتيق ، من الأحباس . وكان يؤتى بالكبد مقطعة ، فيجلس ويقسـم عليها ، وان قطة كانت تحمل شيئا من ذلك وتمضي به ، وفعلت ذلك مرارا . فقال مولاي للشيخ أبي الحسن بن فرج : امض خلف هذه القطة ، وانظر الى أين تؤدي ذلك . فمضى ابن فرج فاذا بها تؤديه الى أولادها ، فعاد اليـه وأخبره . فكان بعد ذلك يقطع غددا صغارا على قدر مساغ القطط الصغار ، وغددا كبارا للكبار ، ويرسل بجزء الصغار اليهم الى أن كبروا .

(*) ص٤٤٩ جـ٢ ، بولاق .

مسجد الفراش

هذا المسجد كان بالقرافة الكبرى . بنـاه أحمد فراش الأفضـل بن أمير الجيـوش . وبجواره مسجد بناء زيد بن حسام ، ومسجد الاجابة القديم ، وتربة العطار ، ودار البقر ، وقناطر الاطفيحي ... كل ذلك بالقـرب من جامع القرافة .

مسجد تاج الملوك

هذا المسجد قدام دار النعمان وتربتـه من القرافة الكبرى . بناه تاج الملوك بدران بن أبي الهيجاء الـكردي الماردانى ، وهو أخو سيف الدين حسين بن أبي الهيجاء ، صـهر بني رزيك ، وكان مجتمع أهل مصر عنده في الأعياد والمواسم وليالي الوقود .

مسجد الثمار

هذا المسجد كان ملاصقا للزيادة التي في بحري مسجد الأقدام . وفيه قبور بني الثمار .

مسجد الحجر

هذا المسجد كان بحري مسجد عمـار بن يونس مولى المغافر ، وشرقي قصر الزجاج من

القرافة الكبرى . بنته مولاة علي بن يحيى بن طاهر — المعروف بابن أبي الخارجي الموصلي — في ربيع الأول سنة ثلاثين وأربعمائة .

مسجد القاضي يونس

هذا المسجد كان غربي مسجد الحجر المذكور . بناه الشيخ عدى الملك بن عثمان ، صاحب دار الضيافة ، ثم صار بيد قاضي القضاة بمصر : الموفق كمال الدين أبي الفضائل يونس بن محمد بن الحسن — المعروف بجوامرد — خطيب القدس القرشي . وكان من الأعيان ، ولم يشرب قط من ماء النيل بل من ماء الآبار ، ولم يأكل قط للسلطان خبزا ، وكان يروى الحديث عن جده .

مسجد الوزيرية

هذا المسجد كان بالقرافة الكبرى ، وله منارة بجوار باب رباط الحجازية . وكانت الحجازية اعظة زمانها ، وكانت من الخيرات لها القبول التام ، وتدعى أم الخير ، وكان لها من الصيت كما كان لابن الجوهري ، وكانت على غاية من الكرم وحسن الأخلاق والشيم .

ومن مكارم أخلاقها ، وحسن طباعها وكياسة انطباعها ، ما حكاه الجوانى النسابة في كتاب « النقط على الخطط » ، قال : حدثنى الشيخ أبو الحسن بن السراج ، المؤذن بالجامع بمصر ، قال : كان قدام الباب الأول من أبواب جامع مصر بياع رطب يقعد على الأرض وبين يديه أقفاص رطب من أحسن الأرطاب .

فبينا الحجازية الواعظة هذه ذات يوم قد قاربت الخروج من باب الجامع ، وهي في حفدتها وجواريها ، واذا ذلك الرطاب ينادى على قفص رطب قدامه : معاشر الناس ، اشتروا الطيبة الحجازية على أربعة ، على أربعة . يزيد على أربعة أرطال رطب بدرهم .

فلما سمعته الحجازية ، وقفت قبل أن تخرج من باب الجامع ، وأنفذت اليه بعض الجوارى فصاحت به . فلما أتاها قالت له : يا أخى ، قولك « الحجازية على أربعة » مشكل ، لا ترجع تنادى كذا ، وهذا رطى هدية مني لك ربح هذا القفص ، ولا تناد كذا . فأخذه وقبل يدها ، وقال : السمع والطاعة .

مسجد ابن العكر *

هذا المسجد غربي مسجد أبي صادق ، بحضرة مسجد الأقدام قبالة قصر المكتفي ، وبحذاء مسجد النارنج . بناه القاضي العادل ابن العكر .

مسجد ابن كباس

هذا المسجد كان مجاورا لقناطر الأطفيحية ، على يسار من أم طريق الأمع . بناه القاضي ابن كباس .

(*) ص ٤٥٠ ، جـ ٢ ، ط بولاق .

مسجد الشهمية

هذا المسجد كان شرقى مسجد الأقدام ، وغربى قناطر ابن طولون ، مجاورا لتربة القاضى بن قابوس . كان يعرف بمسجد الفقاعة من الكلاع ، ويعرف أيضا بمسجد شادن الفضلى ، غلام الوزير جعفر بن الفضل بن الفرات .

مسجد زنكادة

هذا المسجد كان غربى مسجد عمار بن يونس . بناه زنكادة المخنث ، بعدما تاب ، فى سنة خمس وثلاثين وخمسمائة .

جامع القرافة

هذا الجامع يعرف اليوم بجامع الأولياء وهو مسجد بنى عبد الله بن مانع بن مزروع ، ويعرف بمسجد القبة ، وقد ذكر عند ذكر الجوامع من هذا الكتاب .

مسجد الأطفيحى

هذا المسجد كان فى البطحاء ، بحرى مجرى جامع الفيلة الى الشرق ، مخالطا لخطط الكلاع ورعين والأكنوع والأكحول . ويقال له مسجد رطاطة بن سعد الأطفيحى ، من أهل أطفيح ، شيخ له سمت ، كتب الحديث فى سنة ثمان وخمسين وأربعمائة وما قبلها ، وسمع من الحبال ، وهو فى طبقته ، وهو رفيق الفراء ، وابن مشرف ، وابن الحطية ، وأبى صادق ، وسلك طريق أهل القناعة والزهد والعزلة كأبى عباس ابن الحطية .

وكان الأفضل الكبير شاهنشاه ، صاحب مصر ، قد لزمه ، واتخذ السعى اليه مفترضا ، والحديث معه شهوة وغرضا لا ينقطع عنه . وكان فكه الحديث ، قد وقف من أخبار الناس والدول على القديم والحديث ، وقصده الناس لأجل حلول السلطان عنده لقضاء حوائجهم ، فقضاها . صار مسجده موئلا للحاضر والبادى ، وصدى لاجابة صوت النادى .

وشكا الشيخ الى الأفضل تعذر الماء ووصوله اليه ، فأمر ببناء القناطر ، التى كانت فى عرض القرافة ، من المجرى الكبيرة الطولونية . فبنيت الى المسجد الذى به الأطفيحى ، ومضى عليها من النفقة خمسة آلاف دينار ، وعمل الأطفيحى صهريج ماء شرقى المسجد عظيما محكم الصنعة ، وحماما وبستانا كان به نخلة سقطت بعد سنة خمسين وخمسمائة .

وعمل الأفضل له مقعدا بحذاء المسجد الى الشرق ، علو زيادة فى المسجد شرقيه ، وقاعة صغيرة مرخمة . اذا جاء عنده جلس فيها ، وخلا بنفسه ، واجتمع معه وحادثه وكان هذا المقعد على هيئة المنظرة بغير ستائر ، كل من قصد الأطفيحى من الكتفى يراه .

وكان الأفضل لا يأخذه عنه القرار . يخرج فى أكثر الأوقات من دار الملك — باكرا أو ظهرا أو عصرا — بغتة ، فيترجل ، ويدق الباب وقارا للشيخ — كما كان الصحابة رضى الله عنهم يقرعون أبواب النبى صلى الله عليه وسلم — بظفر الابهام والمسبحة ، كما يحصب بهما الحاصب .

فان كان الشيخ يصلى ، لا يزال واقفا حتى يخرج من الصلاة ويقول من ؟ فيقول: ولدك شاهنشاه ، فيقول نعم ثم نفتح فيصافحه الأفضل ، ويمر بيده التى لمس بها يد الشيخ على وجهه ، ويدخل . فيقول الشيخ : نصرك الله ، أيدك الله سددك الله ، هذه الدعوات الثلاث لا غير أبدا . فيقول الأفضل : آمين .

وبنى له الأفضل المصلى ذات المحاريب الثلاثة ، شرقى المسجد الى القبلى قليلا ، ويعرف بمصلى الاطفيحى . كان يصلى فيه على جنائز موتى القرافة

وكان سبب اختصاص الأفضل بهذا الشيخ أنه لما كان محاصرا نزار بن المستنصر بالاسكندرية ، وناصر الدولة أفتكين الأرمنى ، أحد مماليك أمير الجيوش بدر ، وكانت أم الأفضل اذ ذاك — وهى عجوز لها سمت ووقار — تطوف كل يوم وفى الجمعة الجوامع والمساجد والرباطات والأسواق ، وتستقص الأخبار ، وتعلم محب ولدها الأفضل من مبغضه .

وكان الأطفيحى قد سمع بخبرها فجاءت يوم * جمعة الى مسجده ، وقالت له : ياسيدى ولدى فى العسكر مع الأفضل ، الله يأخذ لى الحق منه ، فانى خائفة على ولدى ، فادع الله لى أن يسلمه .

فقال لها الشيخ : ياأمة الله ، أما تستحيين تدعين على سلطان الله فى أرضه ، المجاهد عن دينه ؟ الله تعالى ينصره ويظفره ويسلمه ويسلم ولدك ، ما هو ان شاء الله الا منصور مؤيد مظفر كأنك به وقد فتح الاسكندرية ، وأسر أعداءه ، وأتى على أحسن قضيه وأجمل طوية ، فلا تشغلى لك سرا ، فما تكون الا خيرا ان شاء الله تعالى .

ثم انها اجتازت بعد ذلك بالفار الصيرفى بالقاهرة بالسراجين ، وهو والد الأمير عبد الكريم الآمرى صاحب السيف ، وكان عبد الكريم قد ولى مصر بعد ذلك فى الأيام الحافظية ، وكان عبد الكريم هذا له فى أيام الآمر وجاهة عظيمة وصولة ثم افتقر .

فوقفت أم الأفضل على الصيرفى تصرف دينارا ، وتسمع ما يقول لأنه كان اسماعيليا متغاليا ، فقالت له : ولدى مع الأفضل ، وما أدرى ما خبره ؟

فقال لها الفار المذكور : لعن الله المذكور الأرمنى الكلب ، العبد السوء ابن العبد السوء ، مضى يقاتل مولاه ومولى الخلق . كأنك والله ياعجوز برأسه جائزا من ههنا على رمح ، قدام مولاه نزار ومولاى ناصر الدولة ، ان شاء الله تعالى ، الله يلطف بولدك ، من قال لك تخليه يمضى مع هذا الكلب المنافق ؟ وهو لا يعرف من هى .

ثم وقفت على ابن بابان الحلبى — وكان بزازا بسوق القاهرة — فقالت له مثل ما قالت للفار الصيرفى وقال لها مثل ما قال لها .

فلما أخذ الأفضل نزار وناصر الدولة ، وفتح الاسكندرية حدثتا والدته الحديث ، وقالت : ان كان لك أب بعد أمير الجيوش ، فهذا الشيخ الاطفيحى . فلما خلع عليه

(*) ص ٤٥٩ جـ ٢ ، ط بولاق .

المستعلى بالقصر ، وعاد الى دار الملك بمصر ، اجتاز بالبزازين يوما ، فلما نظر الى ابن بابان الحلبى ، قال : انزلوا بهـذا ، فنزلوا به ، فقال : رأسه ، فضربت عنقه تحت دكانه ثم قال لعبد على أحد مقدمى ركابه قف هاهنا لا يضيع له شيء الى أن يأتى أهله ، فيتسلموا قماشه .

ثم وصل الى دكان الفار الصيرفى ، فقال : انزلوا بهـذا ، فنزلوا به ، فقال رأسه ، فضربت عنقه تحت دكانه . وقال ليوسف الأصغر ، أحد مقدمى الركاب . اجلس على حانوته الى أن يـأتى أهـله وينسلمـوا موجوده ، واياك رماله وصندوقه ، وان ضاع منه درهم ضربت عنقك مكانه ، كان لنا خصم أخذناه ، وقد فعلنا به ما يردع غيره عن فعله ، وما لنا ماله ولا فقر أهله

ثم أتى الأفضـل الى الشـيخ أبى طاهر الأطفيحى ، وقربه وخصصـه ، الى أن كان من أمره ما شرحناه .

مسجد الزيات

هذا المسجد مجاور بيت الخواص غربيه ، ومسـجد ابن أبى الرداد يعـرف بمسـجد الأنطاكى ، ومسجد الفاخورى يعرف بمسجد البطحاء ، ومسجد ابن أبى الصغير ، قبـلى مسـجد بنى مانع ، وهو جـامع القرافة . ومسـجد الشريفـة بنى فى سـنة احـدى وخمسمائة ، ومسجد ابن أبى كامل الطرابلسى كان بحارة القرن ، بناه الأعز بن أبى كامل . والمعبـد الذى كان على رأس العقبـة التى يتوصل منها الى الرصد ، بناه أبو محمـد عبد الله الطباخ ، ويقـال انه كان بالقـرافة الكبرى اثنا عشر ألف مسجد .

« القصر المعروف بباب ليون بالشرف » : هذا القصر كان على طرف الجبـل ، بالشرف الذى يعرف اليوم ..... [1] وجاء الفتح وهو مبنى بالحجارة ، ثم صار فى موضعه مسجد عرف بمسجد المقس .

والمقس ضيعة كانت تعرف بأم دنين ، سميت المقس لأن العاشر كان يقعـد بها وصـاحب المكس ، فقلب فقيل « المقس » ، وليون اسم بلد بمصر ، بلغة السودان والروم وقد ذكر المقس عنـد ذكر ظـواهر القـاهرة من هذا الكتاب ، والله تعالى أعلم .

ذكر الجواسق التى بالقرافة

قال ابن سيده : الجوسق الحصن ، وقيل : هو شبيه بالحصن ... معرب .

وقال الشريف محمد بن أسعـد الجوانى النسابة فى « كتاب النقط على الخطط » : الجواسـق بالقرافة والجبـانة كانت تسـمى القصـور ، وكان بالقرافة قصر الـكتفى ، وقصر بنى كعب ، وقصر بنى عقبـة ، وقصر أبى قبيل ، وقصر العزيز ، وقصر البغدادى ، وقصر يشب ، وقصر ابن كرامة .

« جوسق بنى عبد الحكم » : كان جوسقا كبيرا له حوش ، وكان فى وسط القرافة ، بحضرة مسجد بنى سريع ، الذى يقـال له

(1) هكذا بياض بالاصل .

الجامع العتيق ، وهو أحد الجواسق الثلاثة ، وهو جوسق عبد الله بن عبد الحكم الفقيه الامام ، وجدد هذا الجوسق ابن اللهيب المغربي * .

«جوسق بني غالب ، ويعرف ببني بابشاد» : كان بالمغافر ، بني في سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة ، والى جانبه قبر الشيخ أبي الحسن طاهر بن بابشاد .

« جوسق ابن ميسر » : كان بجوار جوسق بني غالب . بناه أبو عبد الله محمد ابن القاضي أبي الفرج هبة الله .

وكان أبو الفرج هو الخطيب بجامع مصر ويوم الغدير ، وهو شافعي المذهب ، وهو هبة الله بن هبة الله بن الميسر ، وذلك في جمادي الآخرة سنة خمس عشرة وخمسمائة .

وأبو عبد الله هذا هو الذي كان بعد ذلك قاضي القضاة بمصر ، وهو الذي حبس القياسر التي كانت في القشاشين بمصر ، وكان يحمل قدامه المنارة الرومية النحاس ذات السواعد التي عليها الشمع ليالي الوقودات .

وكان فيه كرم . سمع بأن المادراني عمل في أيامه الكعك الصغير ، المحشو بالسكر — المسمى « افطن له » — فأمر هو بعمل لب الفستق الملبس بالسكر الأبيض الفانيذ المطيب بالمسك ، وعمل منه في أول الحال شيئا عوض لبه لب ذهب في صحن واحد ، فمضى فيه جملة ، وخطف قدامه ، تخاطفه الحاضرون ، ولم يعد لعمله بل الفستق الملبس ، وهو أول من أخرجه بمصر .

وكان قد سمع في سيرة أبي بكر المادراني أنه عمل هذا الافطن له ، وجعل في كل واحد خمسة دنانير ، ووقف أستاذ على السماط ، فقال لأحد الجلساء : «افطن له» ، وكان على السماط عدة صحون من ذلك الجنس ، لكن ما فيها ما فيه دنانير الا صحن واحد . فلما رمز الأستاذ لأحد الجلساء على سماط المادراني بقوله « افطن له » — وأشار الى الصحن — تناول الرجل منه ، فأصاب ذلك فاعتمد له ، فحصل له جملة . ورآه الناس وهو اذا أكل يخرج شيئا من فمه ويجمع بيده ، ويحط في حجره ، فتنبهوا وتزاحموا عليه ، فقيل لذلك المعمول من ذلك الوقت : « افطن له » .

وقتل هذا القاضي في تنيس ، في أيام بهرام الوزير النصراني الأرمني ، سنة ست وعشرين وخمسمائة .

« جوسق ابن مقشر » : كان جوسقا طويلا ذا تربة الى جانبه .

« جوسق الشيخ أبي محمد » عامل ديوان الأشراف الطالبيين . وجوسق ابن عبد المحسن بخط الأكحول . وجوسق البغدادي الجرجراي — كان قبره الى جانبه — خرب في سنة عشرين وخمسمائة وجوسق الشريف أبي اسماعيل ابراهيم بن نسيب الدولة الكلثمي الموسوي نقيب مصر .

« جوسق المادراني » : هذا الجوسق لم يبق من جواسق القرافة غيره . وهو جوسق كبير جدا على هيئة الكعبة ، بالقرب من مصلى خولاق في بحريه ، على جانبيه الممر من مقطع الحجارة . بناه أبو بكر محمد بن على المادراني في وسط قبورهم من الجبانة .

(*) ص٤٥٢ جـ٢ ، ط. بولاق .

وكان الناس يجتمعون عند هذا الجوسق في الأعياد ، ويوقد جميعه في ليلة النصف من شعبان كل سنة وقودا عظيما ، ويتحلق القراء حوله لقراءة القرآن ، فيمر للناس هنالك أوقات ، في تلك الليلة وفي الأعياد ، بديعة حسنة .

« جوسق حب الورقة » : كان هذا الجوسق بحضرة تربة ابن طباطبا . أدركته عامرا ، وقد خرب فيما خربه السفهاء من ترب القرافة وجواسقها ، زعما منهم أن فيها خبايا .

وكان أكابر أمراء المغافر ، ومن بعدهم ومن يجري مجراهم ، لكل منهم جوسق بالقرافة يتنزه فيه ، ويعبد الله تعالى هناك ، وكان من هذه الجواسق ما تحته حوض ماء لشرب الدواب وفسقية وبستان .

وكان بالقرافة عدة قصور وهي التي تسمى بالجواسق ، لها مناظر وبساتين ، الا أن الجواسق أكثرها بغير بساتين ولا بئر ، بل مناظر مرتفعة ، ويقال لها كلها قصور .

« قصر القرافة » : بنته السيدة تغريد ، أم العزيز بالله ، في سنة ست وستين وثلثمائة ، على يد الحسن بن عبد العزيز الفارسي المحتسب ، هو والحمام الذي كان في غربيه ، وبنت البئر والبستان ، المعروف بالتاج ، المعروف بحصن أبي المعلوم ، وبنت جامع القرافة .

ثم جدده الآمر بأحكام الله ، وبيضه في سنة عشرين وخمسمائة ، وعمل شرقي بابه مصطبة للصوفية ، وكان مقدمهم الشيخ أبو اسحاق ابراهيم ، المعروف بالمادح ، وكان الآمر يجلس في الطاق بالمنظر الذي بناه بأعلى القصر ، ويرقص أهل الطريقة قدامه .

وقد ذكر هذا القصر عند ذكر مناظر الخلفاء من هذا الكتاب ، ولم يزل هذا القصر الى ربيع الآخر سنة سبع وستين وخمسمائة .

ذكر الرباطات التي كانت بالقرافة *

كان بالقرافة الكبيرة عدة دور ، يقال للدار منها رباط ، على هيئة ما كانت عليه بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، يكون فيها العجائز والأرامل العابدات ، وكانت لها الجرايات والفتوحات ، وكان لها المقامات المشهورة من مجالس الوعظ .

« رباط بنت الخواص » : كان تجاه مسجد بيد الفقيه مجلي بن جميع بن نجا الشافعي ، مؤلف كتاب « الذخائر » ، وقاضي القضاة بمصر .

« رباط الأشراف » : كان برحبة جامع القرافة ... يعرف بالقراء ، وبيني عبد الله ، وبمسجد القبة ، وهو شرقي بستان ابن نصر . بناه أبو بكر محمد بن علي المادرائي ، ووقفه على نساء الأشراف .

« رباط الأندلس » : بنته الجهة المعروفة بجهة مكنون الآمرية كما تقدم .

« رباط ابن العكاري » : كان بحضرة مسجد بني سريع ، المعروف بالجامع العتيق .

« رباط الحجازية » : بنته ، وحبسته على الحجازية ، فوز جارية علي بن أحمد الجرجراي الوزير ، هو والمسجد الذي تقدم ذكره .

(*) ص٤٥٣ جـ٢ ، ط. بولاق .

« رباط رياض » : كان بجوار مسجد الحاجة رياض .

ذكر المصليات والمحاريب التى بالقرافة

وكان فى القرافة عدة مصليات وعدة محاريب ، منها :

« مصلى الشريفة » : كان بدرب القرافة بحدرة الجباسين وخطة الصدف . بناه أبو محمد عبد الله بن الأرسوفى الشامى التاجر سنة سبع وسبعين وخمسمائة .

« مصلى المغافر » : وهو الأندلس . جدده ابن برك الاخشيدى ، ثم بنته جهة مكنون الآمرية فى سنة ست وعشرين وخمسمائة .

« مصلى عقبة القرافة ، يعرف بمصلى الأندلسى » : كان ذا مصطبة مربعة على يسرة الطالع الى القرافة . بناه يوسف بن أحمد الأندلسى الأنصارى فى شهر رمضان سنة خمس عشرة وخمسمائة .

« مصلى القرافة » : جدده الفقيه ابن الصباغ المالكى فى سنة عشرين وخمسمائة ، وكان بحضرة مسجد أبى تراب تجاه دار التبن .

« مصلى الفتح » : كان ملاصقا لمسجد الفتح . بناه أبو محمد القلعى المغربى المنجم الحافظى .

« مصلى جهة العادل » : أبى الحسن بن السلار وزير مصر .

« مصلى الاطفيحى » : بجوار مسجد الاطفيحى الذى تقدم ذكره .

« مصلى الجرجانى » : بناه الوزير على بن أحمد الجرجانى وكانت بالقرافة الكبرى والجبانة عدة محاريب خربت كلها .

« مصلى خولان » : هذه المصلى عرفت بطائفة من العرب الذين شهدوا فتح مصر ، يقال لهم خولان ، وهم من قبائل اليمن ، واسمه نكل بن عمرو بن مالك بن زيد بن عريب . وفى هذه المصلى مشهد الأعياد ، ويؤم الناس ويخطب لهم بها فى يوم العيد ، خطيب جامع عمرو بن العاص . وليست هذه المصلى هى التى أنشأها المسلمون عند فتح أرض مصر ، وانما كانت مصلى العيد فى أول الاسلام غير هذه .

قال القضاعى : مصلى العيد كان مصلى عمرو بن العاص مقابل اليحموم ، وهو الجبل المطل على القاهرة ، فلما ولى عبد الله بن سعد بن أبى سرح مصر ، أمر بتحويله ، فحول الى موضعه ، المعروف اليوم بالمصلى القديم ، عند درب السباع ، ثم زاد فيه عبد الله بن طاهر سنة عشر ومائتين ، ثم بناه أحمد ابن طولون فى سنة ست وخمسين ومائتين ، واسمه باق عليه الى اليوم .

قال الكندى : ولما قدم شفى الأصبحى الى مصر ، وأهل مصر قد اتخذوا مصلى بحذاء ساقية أبى عون عند العسكر ، قال : ما لهم وضعوا مصلاهم فى الجبل الملعون ، وتركوا الجبل المقدس (يعنى المقطم) ؟

قال : فقدموا مصلاهم الى * موضعه الذى هو به اليوم (يعنى المصلى القديم المذكور) .

(*) ص٤٥٤ جـ٢ ، ط. بولاق .

وقال الكندي : ثم ضاق المصلى بالناس فى أمارة عنبسة بن اسحاق الضبى على مصر ، فى أيام المتوكل على الله ، فأمر عنبسة بابتناء المصلى الجديد . فابتدىء ببنائه فى العشر الأخير من شهر رمضان سنة أربعين ومائتين ، وصلى فيه يوم النحر من هذه السنة .

وعنبسة هو آخر عربى ولى مصر ، وآخر أمير صلى بالناس فى المسجد ، وهو المصلى الذى بالصحراء عند الجارودى . ثم جدده الحاكم ، وزاد فيه ، رجعل له قبة وذلك فى سنة ثلاث وأربعمائة .

وكان أمراء مصر اذا خرجوا الى صلاة العيد بالمصلى ، أوقفوا جيشا فى سفح الجبل — مما يلى بركة الحبش — ليراعى الناس حتى ينصرفوا من الصلاة ، خوفا من البجة . فانهم قدموا غير مرة ، ركبانا على النجب ، حتى كبسوا الناس فى مصلاهم ، وقتلوا ونهبوا ، ثم رجعوا من حيث أتوا .

فخرج عبد الحميد بن عبد الله بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ، غضبا لله وللمسلمين مما أصابهم من البجة ، فكمن لهم بالصعيد فى طريقهم ، حتى أقبلوا ، كعادتهم فى أخذ الناس فى مصلى العيد ، فكبسهم ، وقتل الأعور رئيسهم . بعدما أقبلوا الى المصلى فى العيد فى سنة ست وخمسين ومائتين — وأمير مصر أحمد بن طولون — على النجب ، وكبسوا الناس فى مصلاهم ، وقتلوا ونهبوا منهم ، وعادوا سالمين .

ثم دخل العمرى الى بلاد البجة غازيا ، فقتل منهم مقتلة عظيمة ، وضايقهم فى بلادهم الى أن أعطوه الجزية — ولم يكونوا أعطوا أحدا قبله الجزية — وسار فى المسلمين وأهل الذمة سيرة حسنة ، وسالم النوبة . . الى أن بدأ النوبة بالغدر فى الموضع المعروف بالمريس . فمال عليهم وحاربهم ، وخرب ديارهم ، وسبى منهم عالما كبيرا ، حتى كان الرجل من أصحابه يبتاع الحاجة من الزيات والبقال بنوبى أو نوبية لكثرتهم معهم .

فجاءوا الى أحمد بن طولون ، وشكوا له من العمرى . فبعث اليه جيشا ليحاربه ، فأوقع بالجيش وهزمهم ، وكانت لهم أنباء وقصص . الى أنّ قتله غلامان من أصحابه ، وأحضرا رأسه الى أحمد بن طولون ، فأنكر فعلهما ، وضرب أعناقهما ، وغسل الرأس ودفنه .

ذكر المساجد والمعابد التى بالجبل والصحراء

وكان بجبل المقطم وبالصحراء — التى تعرف اليوم بالقرافة الصغرى — عدة مساجد وعدة مغاير ينقطع العباد بها ، منها ما قد دثر ، ومنه شىء قد بقى أثره .

« مسجد التنور » : هذا المسجد فى أعلى جبل المقطم من وراء قلعة الجبل فى شرقيها ، أدركته عامرا ، وفيه من يقيم به .

قال القضاعى : المسجد المعروف بالتنور بالجبل ، هو موضع تنور فرعون . كان يوقد له عليه ، فاذا رأوا النار علموا بركوبه ، فاتخذوا له ما يريد ، وكذلك اذا ركب منصرفا من عين شمس ، ثم بناه أحمد بن طولون

مسجداً في صفر سنة تسع وخمسين ومائتين .
ووجدت في كتاب قديم أن يهودا بن يعقوب ، أخا يوسف عليه السلام ، لما دخل مع اخوته على يوسف ، وجرى من أمر الصواع ما جرى ، تأخر عن اخوته ، وأقام في ذروة الجبل المقطم في هذا المكان ، وكان مقابلا لتنور فرعون الذي كان يوقد له فيه النار .

ثم خلا ذلك الموضع الى زمن أحمد بن طولون ، فأخبر بفضل الموضع ، وبمقام يهوذا فيه . فابتنى فيه هذا المسجد والمنارة التي فيه ، وجعل فيه صهريجا فيه الماء ، وجعل الانفاق عليه مما وقفه على البيمارستان بمصر والعين التي بالمغافر وغير ذلك .

ويقال ان تنور فرعون لم يزل في هذا الموضع بحاله . الى أن خرج اليه قائد من قواد أحمد بن طولون ، يقال له وصيف قاطرميز ، فهدمه وحفر تحته ، وقدر أن تحته مالا ، فلم يجد فيه شيئا ، وزال رسم التنور وذهب .

وأنشد أبو عمر الكندي في كتاب « أمراء مصر » من أبيات لسعيد القاص :

وتنور فرعون الذي فوق قلة
على جبل عال على شاهق ...
بنى مسجدا فيه ورق بناؤه
ويهدى به في الليل ان ضل ... يسرى
يخال سنا قنديله وضياءه
سهيلا اذا ما لاح في الليل للسفر

« القرقوبى » : قال القضاعي : المسجد المعروف بالقرقوبى هو على قرنة الجبل المطل على كهف السودان . بناه أبو الحسن القرقوبى الشاهد ، وكيل التجار بمصر ، في سنة خمس عشرة وأربعمائة . وكان في موضعه محراب حجارة يعرف بمحراب ابن الفقاعي ، الرجل الصالح ، وهو على يسار المحراب * .

« مسجد أمير الأمراء » رفق المستنصرى : على قرنة الجبل البحرية ، المطلة على وادي مسجد موسى عليه السلام .

« كهف السودان » : مغار في الجبل لا يعلم من أحدثه ، ويقال ان قوما من السودان نقروه فنسب اليهم ، وكان صغيرا مظلما ، فبناه الأحدب الأندلسي القزاز ، وزاد في سفله مواضع نقرها ، وبنى علوه ، ويقال انه أنفق فيه أكثر من ألف دينار ، ووسع المجاز الذي يسلك منه اليه ، وعمل الدرج النقر التي يصعد عليها اليه ، وبدأ في بنيانه مستهل سنة احدى وعشرين وأربعمائة ، وفرغ منه في شعبان من هذه السنة .

« العارض » : هذا المكان مغارة في الجبل عرفت بأبي بكر محمد جد مسلم القاري لأنه نقرها ، ثم عمرت بأمر الحاكم بأمر الله ، وأنشئت فيها منارة هي باقية الى اليوم . وتحت العارض قبر الشيخ العارف عمر بن الفارض رحمه الله ، ولله در القائل :

جز بالقرافة تحت ذيل العارض
وقل السلام عليك ياابن الفارض

وقد ذكر القضاعي أربع عشرة مغارة في الجبل ، منها ما هو باق ، وليس في ذكرها فائدة .

« اللؤلؤة » : هذا المكان مسجد في سفح الجبل باق الى يومنا هذا . كان مسجدا

(*) ص٤٥٥ جـ١ ، ط. بولاق .

خرابا ، فبنـاه الحـاكم بأمر الله ، وسمـاه اللؤلؤة . قيـل كان بنـاؤه فى سـنة ست وأربعمائة ، وهو بناء حسن .

« مسجد الهرعاء » : فيمـا بين اللؤلؤة ومسجد محمـود ، وهو مسجد قديم يتبرك بالصلاة فيه ، وقد ذكر مسجد محمد عنـد ذكر الجوامع من هذا الكتاب لأنه تقام فيـه الجمعة .

« دكة القضاة » قال القضاعى : هى دكة مرتفعة عن المساجد فى الجبل ، كان القضاة بمصر يخرجون اليها لنظر الأهلة كل سنة ، ثم بنى عليها مسجد .

« مسجد فائق » مولى خمارويه بن أحمد ابن طولون : كان فى سفح الجبل مما يلى طريق مسجد موسى عليه السلام .

« مسجد موسى » : بناه الوزير أبو الفضل جعفر بن الفضل بن الفرات .

« مسجد زهرون بالصحراء » : هو مسجد أبى محمد الحسن بن عمر الخولانى ، ثم عرف بابن المبيض . وكان زهرون قيمـه ، فنسب اليه .

« مسجد الفقاعى » : هو أبو الحسن على ابن الحسن بن عبد الله ، كان أبوه فقاعيـا بمصر ، وهو مسـجد كبير ، بنـاه كافور الاخشيدى ، ثم جدده وزاد فيه مسعود بن محمد صـاحب الوزير أبى القـاسم على بن أحمد الجرجراى .

وكان فى وسط هذا المسجد محراب مبنى بطوب . يقال انه من بناء حاطب بن أبى بلتعة رسول رسول الله صلى الله عليـه وسلم الى المقوقس ، ويقال انه أول محراب اختط فى مصر ، وكان أبو الحسن التميمى قد زاد فيه بناء قبل ذلك .

« مسجد الكنز » : هذا المسجد كان شرقى الخندق ، وبحرى قبر ذى النون المصرى . وكان مسجدا صغيرا يعرف بالزمام ، ومات قبل تمامه ، فهدمه أبو طاهر محمد بن على القرشى القرقوبى ، ووسعه وبناه .

وحكى أنه لما هدمه رأى قائلا يقول فى المنـام : على أذرع من هذا المسجـد كنزا . فاسـتيقظ وقال : هذا من الشيطان ، فرأى هذا القائل ثلاث مرات . فلما أصبح أمر بحفر الموضع فاذا فيه قبر ، وظهر له لوح كبير تحته ميت فى لحد ، كأعظم ما يكون من النـاس جثة ورأسا ، وأكفانه طرية لم يبل منها الا ما يلى جمجمة الرأس ، فانه رأى شعر رأسـه قد خرج من الكفن ، واذا له جمة . فراعه ما رأى ، وقال : هذا هو الكنز بلا شك ، وأمر باعادة اللوح والتراب كما كان ، وأخرج القبر عن سائر الحيطان ، وأبرزه للناس ، فصار يزار ويترك به .

« مسجد فى غربى الخندق » : أنشأه أبو الحسن بن النجـار الزيات فى سـنة احدى وأربعين وأربعمائة .

« مسجـد لؤلؤ الحـاجب » بالقـرافة الصغرى : بنى بجانبه مقبرة ، وحفر عنـدها بئرا حتى انتهى الحفار الى قرب الماء ، فقال الحفار : انى أجد فى البئر شيئا كأنه حجر .

فقال له لؤلؤ : تسبب فى قلعه . فلما قلعه فار الماء وأخرجه ، واذا هو * اسطام مركب ، وهو الخشبة التى تبنى عليها السفينة .

وهذا يصدق ما قاله أرسطاطاليس فى كتاب « الآثار العلوية » قال . ان أهل مصر يسكنون فيما انحسر عنه البحر الأحمر (يعنى بحر الشام) .

وقد ذكر خبر لؤلؤ هذا عند ذكر حمام لؤلؤ .

« مقام المؤمن » : قيل انه مؤمن آل فرعون لأنه أقام فيه . وهذا بعيد من الصحة .

« قناطر ابن طولون وبئره » : هذه القناطر قائمة الى اليوم من بئر أحمد بن طولون التى عند بركة الحبش ، وتعرف هذه البئر عندنا بئر عفصة ، ولا تزال هذه القناطر الى أثناء القرافة الكبرى ، ومن هناك خفيت لتهدمها ، وهى من أعظم المبانى .

قال القضاعى « قناطر أحمد بن طولون وبئرهُ بظاهر المغافر » : كان السبب فى بناء هذه القناطر أن أحمد بن طولون ركب فمر بمسجد الأقدام وحده ، وتقدم عسكره وقد كده العطش ، وكان فى المسجد خياط ، فقال : ياخياط ، أعندك ماء ؟

قال : نعم . فأخرج له كوزا فيه ماء وقال : اشرب ولا تمد (يعنى لا تشرب كثيرا) .

فتبسم أحمد بن طولون ، وشرب فمد فيه حتى شرب أكثره ، ثم ناوله اياه ، وقال : يافتى سقيتنا وقلت لا تمد !

فقال : نعم ، أعزك الله ، موضعنا ههنا منقطع ، وانما أخيط جمعتى حتى أجمع ثمن راوية .

فقال له : والماء عندكم هاهنا معوز ؟

فقال : نعم .

فمضى أحمد بن طولون . فلما حصل فى داره قال : جيئونى بخياط فى مسجد الأقدام ، فما كان بأسرع من أن جاءوا به . فلما رآه قال : سر مع المهندسين حتى يخطوا عندك موضع سقاية ويجروا الماء ، وهذه ألف دينار خذها .

وابتدأ فى الانفاق ، وأجرى على الخياط فى كل شهر عشرة دنانير ، وقال له : بشرنى ساعة يجرى الماء فيها . فجدوا فى العمل ، فلما جرى الماء أتاه مبشرا ، فخلع عليه وحمله ، واشترى له دارا يسكنها ، وأجرى عليه الرزق السنى الدارّ .

وكان قد أشير عليه بأن يجرى الماء من عين أبى خليد المعروفة بالنعش . فقال : هذه العين لا تعرف أبدا الا بأبى خليد ، وانى أريد أن أستنبط بئرا . فعدل عن العين الى الشرق ، فاستنبط بئره هذه ، وبنى عليها القناطر ، وأجرى الماء الى الفسقية التى بقرب درب سالم .

وقال جامع السيرة الطولونية : وأما رغبته فى أبواب الخير فكانت ظاهرة بينة واضحة . فمن ذلك بناء الجامع والبيمارستان ، ثم العين التى بناها بالمغافر ، وبناها بنية صحيحة ورغبة قوية ، حتى انها ليس لها نظير ، ولهذا اجتهد

(*) ص٤٥٦ جـ٢ ، ط. بولاق .

المادرانيــون ، وأنفقــوا الأموال الخطيــرة ليحكوها ، فأعجزهم ذلك ، لأنها وقعت فى موضع جيرانه كلهم محتاجون اليها .

وهى مفتوحة طول النهار لمن كشف وجهه للأخذ منهــا ، ولمن كان له غلام أو جارية ، والليل للفقراء والمســاكين ... فهى حيــاة ومعونة . واتخذ لها مسغلا فيه فضل وكفاية لمصالحها .

والذى تولى لأحمد بن طولون بنــاء هذه العين رجل نصرانى ، حسن الهندســة حاذق بها ، وانه دخل الى أحمد بن طولون فى عشية من العشايا ، فقال له : اذا فرغت مما تحــاج اليه ، فأعلمنى لنركب اليها لنراها .

فقال : يركب الأمير اليهــا فى غد فقــد فرغت .

وتقدم النصرانى فرأى موضعا بها يحتاج الى قصرية جير وأربع طوبات ، فبــادر الى عمل ذلك . وأقبل أحمــد بن طولون يتأمل العين ، فاستحسن جميع ما شاهده فيها ، ثم أقبل الى الموضع الذى فيــه قصرية الجير ، فوقف بالاتفاق عليها ، فلرطوبة الجير غاصت يد الفرس فيه فكبا بأحمد ، ولسوء ظنه قدر أن ذلك لمكروه أراد به النصرانى ، فأمر به فشق عنه ما عليه من الثياب ، وضربه خمسمائة سوط ، وأمر به الى المطبق ، وكان المسكين يتوقع من الجائزة مثل ذلك دنانير ، فاتفق له اتفاق سوء .

وانصرف أحمد بن طولون وأقام النصرانى . الى أن أراد أحمد بن طولون بنــاء الجامع ، فقدر له ثلثمائة عمود ، فقيل له ما تجدها أو تنفذ الى الكنائس فى الارياف والضياع الخراب فتحمل ذلك ، فأنكره ولم يختره ، وتعذب قلبه بالفكر فى أمره .

وبلغ النصرانى وهو فى المطبق الخبــر ، فكتب اليه : أنا أبنيه لك كما تحب وتختــار بلا عمد الا عمودى القبلة ، فأحضره — وقد طال شعره حتى تدلى على وجهه — فبناه .

قال : ولما بنى أحمــد بن طــولون هذه السقاية ، بلغــه أن قوما لا يســتحلون شرب مائها .

قال محمد بن عبــد الله بن عبــد الحكم الفقيه : كنت ليلة فى دارى ، اذ طرقت بخادم من خدام أحمد بن طولون ، فقال لى : الأمير يدعوك . فركبت مذعورا مرعوبا ، فعدل بى عن الطريق ، فقلت : أين تذهب بى ؟

فقال : الى الصحراء والأمير فيها .

فأيقنت بالهلاك ، وقلت للخادم : الله الله فىَّ ، فانى شيخ كبير ضعيف مسن ، فتدرى ما يراد منى فارحمنى .

فقال لى : احذر أن يكون لك فى السقاية قول .

وسرت معه واذا بالمشاعل فى الصحراء ، وأحمد بن طولون راكب على باب الســقاية وبين يديه الشمع ، فنزلت وسلمت عليه ، فلم يرد على ، فقلت : أيها الأمير ان الرســول أعنتنى وكدنى وقد عطشت ، فيأذن لى الأمير فى الشرب ، فأراد الغلمــان أن يســقونى ، فقلت : أنا آخذ لنفسى .

فاستقيت وهو يرانى ، وشربت فازددت فى الشرب حتى كدت أنشق ، ثم قلت : أيها الأمير ، سقاك الله من أنهار الجنة فلقد أرويت * وأغنيت ، لا أدرى ما أصف : أطيب الماء فى حلاوته وبرده ، أم صفائه ، أم طيب ريح السقاية ؟

قال : فنظر الى وقال : أريدك لأمر وليس هذا وقته ، فاصرفوه . فصرفت .

فقال لى الخادم : أصبت .

فقلت : أحسن الله جزاءك ، فلولاك لهلكت .

وكان مبلغ النفقة على هذه العين فى بنائها ومستغلها أربعين ألف دينار .

وأنشد أبو عمرو الكندى فى كتاب « الأمراء » لسعيد القاص أبياتا فى رثاء دولة بنى طولون ، منها فى العين والسقاية :

وعين معين الشرب عين زكية
وعين أجاج للرواة وللطهر

كأن وفود النيل فى جنباتها
تروح وتغدو بين مد الى جزر

فأرك بها مستنبطا لمعينها
من الأرض من بطن عميق الى ظهر

بناء لو ان الجن جاءت بمثله
لقيل لقد جاءت بمستفظع نكر

يمر على أرض المغافر كلها
وشعبان والأحمور والحى من بشر

قبائل لا نوء السحاب يمدها
ولا النيل يرويها ولا جدول يجرى

(*) ص٤٥٧ ج٢ ، ط. بولاق .

وقال الشريف محمد بن اسعد الجوانى النسابة فى كتاب « الجوهر المكنون فى ذكر القبائل والبطون » : سريع فخذ من الأشعريين وهم ولد سريع بن ماتع ، من بنى الأشعر بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، وهم رهط أبى قبيل التابعى الذى خطته اليوم الكوم ، شرقى قناطر سقاية أحمد بن طولون — المعروفة بعفصة الكبيرة — بالقرافة

« الخندق » . هذا الخندق كان بقرافة مصر قد دثر ، وعلى شفيره الغربى قبر الامام الشافعى رضى الله عنه ، وكان من النيل الى الجبل . حفر مرتين . مرة فى زمن مروان بن الحكم ، ومرة فى خلافة الأمين محمد بن هارون الرشيد ، ثم حفره أيضا القائد جوهر .

قال القضاعى : الخندق هو الخندق الذى فى شرقى الفسطاط فى المقابر . كان الذى أثار حفره مسير مروان بن الحكم الى مصر ، وذلك فى سنة خمس وستين ، وعلى مصر يومئذ عبد الرحمن بن عقبة بن جحدم الفهرى ، من قبل عبد الله بن الزبير رضى الله عنه .

فلما بلغه مسير مروان الى مصر ، أعد واستعد وشاور الجند فى أمره . فأشاروا عليه بحفر الخندق ، والذى أشار به عليه ربيعة بن حبيش الصدفى . فأمر ابن جحدم باحضار المحاريث من الكور لحفر الخندق على الفسطاط ، فلم تبق قرية من قرى مصر الا حضر من أهلها النفر .

وكان ابتداء حفره غرة المحرم سنة خمس وستين ، فما كان شيء أسرع من فراغهم منه ... حفروه في شهر واحد . وكانت الحرب من ورائه يغدون اليها ويروحون ، فسميت تلك الأيام أيام الخندق والتراويح لرواحهم الى القتال . وكانت المعافر أكثر قبائل أهل مصر عددا ... كانوا عشرين ألفا .

ونزل مروان عين شمس ، لعشر حلون من شهر ربيع الآخر سنة خمس وستين ، في اثنى عشر ألفا ، وقيل عشرين ألفا ، فخرج أهل مصر الى مروان ، فحاربوه يوما واحدا بعين شمس ، ثم تحاجزوا ، ورجع أهل مصر الى خندقهم فتحصنوا به ، وصبحهم جيوش مروان على باب الخندق .

فاصطف أهل مصر على الخندق ، فكانوا يخرجون الى أصحاب مروان فيقاتلونهم نوبا نوبا ، وأقاموا على ذلك عشرة أيام ، ومروان مقيم بعين شمس .

وكتب مروان الى شيعته من أهل مصر — كريب بن أبرهة بن الصباح الحميرى ، وزياد بن حناطة التجيبى ، وعابس بن سعيد المرادى — يقول : انكم ضمنتم لى ضمانا لم تقوموا به ، وقد طالت الأيام والممانعة .

فقام كريب وزياد وعابس الى ابن جحدم ، فقالوا له : أيها الأمير ، انه لا قوام لنا بما ترى ، وقد رأينا أن نسعى فى الصلح بينك وبين مروان ، وقد مل الناس الحرب وكرهوها وقد خفنا أن يسلمك الناس الى مروان فيكون محكما فيك .

فقال : ومن لى بذلك ؟

فقال كريب : أنا لك به .

فسعى كريب وصاحباه فى الصلح على أمان كتبه مروان لأهل مصر وغيرهم ممن شرب ماء النيل ، وعلى أن سلم لابن جحدم من بيت المال عشرة آلاف دينار ، وثلثمائة ثوب بقطرية ، ومائة ريطة ، وعشرة أفراس ، وعشرين بغلا ، وخمسين بعيرا . فتم الصلح على ذلك .

ودخل مروان الفسطاط مستهل جمادى الأولى سنة خمس وستين ، فنزل دار الفلفل ، ودفع الى ابن جحدم جميع ما صالحه عليه ، وسار ابن جحدم الى الحجاز ، ولم يلق كل واحد منهما الآخر .

وتفرق المصريون ، وأخذوا فى دفن قتلاهم والبكاء عليهم ، فسمع مروان البكاء ، فقال : ما هذه النوادب ؟ فقيل على القتلى ، قال : لا أسمع نائحة تنوح الا أحللت بمن هى فى داره العقوبة . فسكتن عند ذلك .

ودفن أهل مصر قتلاهم فيما بين الخندق والمقطم ، وهى المقابر التى يسميها المصريون مقابر الشهداء ، ودفن أهل الشام قتلاهم فيما بين الخندق ومنية الأصبغ . وكان قتلى أهل مصر ما بين الستمائة الى السبعمائة ، وقتلى أهل الشام * نحو الثلثمائة .

ولما برز مروان من الفسطاط سائرا الى الشام ، سمع وجبة النساء يندبن قتلاهن ، قال : ويحهن ، ما هذا ؟ قالوا : النساء على مقابرهن يندبن قتلاهن ، فعرج عليهن ، فأمر بالانصراف . قالوا : كذا هن كل يوم .

(*) ص٤٥٨ جـ٢ ، ط. بولاق .

قال : فامنعوهن الا من سبب .

وخرج مروان من مصر الى الشام لهلال رجب سنة خمس وستين ، وكان مقامه بالفسطاط شهرين ، واستخلف ابنه عبد العزيز على مصر، وضم اليه بشر بن مروان — وكان حدثا — ثم ولى عبد الملك بشرا بعد ذلك البصرة .

قال : ثم دثر هذا الخندق ... الى أيام خلع الأمين بمصر ، وبيعة المأمون ، وولى البلد عباد بن محمد بن حبان — مولى كندة — من قبل المأمون . فكتب الأمين بمصر الى أهل الحوفين فى القيام ببيعته ، وقتال عباد وأهل مصر ، فتجمع أهل الحوف لذلك واستعدوا .

وبلغ أهل مصر ، فأشاروا على عباد بحفر الخندق ، فحفروا خندقا من النيل الى الجبل ، واحتفروا هذا الخندق العتيق . فكان القتال عليه أياما متفرقة الى أن قتل الأمين ، وتمت بيعة المأمون . ثم لم يحفر بعد ذلك الى يومنا هذا .

وذكر ابن زولاق أن القائد جوهرا لما اختط القاهرة ، وكثر الارجاف بمسير القرامطة الى مصر ، حفر خندق السرى بن الحكم بباب مدينة مصر ، وعمل عليه بابا فى ذى القعدة سنة ستين وثلثمائة ، وحفر خندقا فى وسط مقبرة مصر ، وهو الخندق الذى حفره ابن بجحدم .

ابتدأ حفره من بركة الحبش حتى وصله بخندق عبد الرحمن بن جحدم ، حتى بلغ به قبر محمد بن ادريس الشافعى ، ثم حفر من الجبل الى أن وصل لخندق ابن جحدم وسط المقابر ، وبدأ به يوم السبت التاسع من شوال سنة احدى وستين وثلثمائة ، وفرغ منه فى مدة يسيرة .

« القباب السبع » : هذه القباب بآخر القرافة الكبرى مما يلى مدينة مصر . قال ابن سعيد فى كتاب « المعرب » والقباب السبع ، المشهورة بظاهر الفسطاط ، هى مشاهد على سبعة من بنى المغربى ، قتلهم الخليفة الحاكم بعد فرار الوزير أبى القاسم الحسين بن على ابن المغربى الى أبى الفتوح حسن بن جعفر بمكة .

وفى ذلك يقول أبو القاسم بن المغربى :

اذا شئت أن ترنو الى الطف باكيا
فدونك فانظر نحو أرض المقطم
تجد من رجال المغربى عصابة
مضمخة الأجسام من حلل الدم
فكم تركوا محراب آى معطل
وكم تركوا من سورة لم تختم

وقد ذكرت أخبار بنى المغربى عند ذكر بساتين الوزير من بركة الحبش . ويتعلق بهذا الموضع من خبرهم أن أبا الحسن ، على بن الحسين بن على بن محمد بن المغربى ، لما خرج من بغداد ، وصار الى مصر ، فى أيام العزيز بالله بن المعز لدين الله ، فى سنة احدى وثمانين وثلثمائة ، رتب له فى كل سنة ستة آلاف دينار ، وصار من شيوخ الدولة .

فقال يوما لمؤدب ولده أبى القاسم حسين — وهو على بن منصور بن طالب ، المعروف بأبى الحسن دوخلة بن القادح — سرا : أنا أخاف همة ابنى أبى القاسم أن تنزو به الى أن

يوردنا موردا لا صـدر عنـه ، فان كانت الأنفاس منا تحفظ وتكتب ، فاكتبها واحفظها وطالعني بها .

فقال أبو القاسـم في بعض الأيام لمؤدبه هذا : الى متى نرضى بالخمـول الذي نحن فيه ؟

فقال له : وأي خمـول هذا ؟ تأخذون من مولانا في كل سنة ستة آلاف دينار ، وأبوكم من شيوخ الدولة .

فقال : أريد أن تصار الى أبوابنا الكتائب والمواكب والمقانب ، ولا أرضى بأن يجـرى علينا كالولدان والنسوان .

فأعاد ذلك على أبيه ، فقال : ما أخوفني أن يخضب أبو القاسم هذه من هذه . وقبض على لحيته وهامته وعلم ذلك أبو القاسم ، فصارت بينه وبين مؤدبه وحشة .

وكان ذلك في خـلافة الحـاكم بأمر الله منصور بن العزيز ، وتحدث القائد أبي عبد الله الحسين بن جوهر ، وكان الحاكم قد أكثر من قتل رؤساء دولته ، وصار يبعث الى القـائد كلما قتل رئيسا برأسه ، ويقول : هذا عدوى وعدوك .

فقبض على أبي الحسن على بن الحسـين المغربي ، والد الوزير أبي القاسم الحسين ، وعلى أخيه أبي عبد الله محمد بن الحسين ، وعلى محسن ومحمد أخوى الوزير المذكور لثلاث خلون من ذى القعدة سنة أربعمـائة ، وفر الوزير أبو القاسم الحسين بن المغـربي من مصر ، في زى حمـال ، لليـال من ذى القعدة ، ولحق بحسان بن الجراح ، وكان من أمره ما كان .

ذكر الأحواض والآبار التي بالقرافة

« حوض القرافة » . أمر ببنائه السـيدة ست الملك ، عمة الحاكم بأمر الله ابنة المعـز لدين الله ، في شعبـان سـنة ست * وستين وثلثمائة ، واختل في أيام العادل أبي الحسن ابن السلار ، وزير مصر في سنة ست وأربعين وخمسمائة ، فأمر بعمارته .

ثم انشق في سنة ثمـانين وخمسـمائة . فجدده القاضي السعيد ، ثقـة الثقـات ذو الرياستين : أبو الحسن على بن عثمـان بن يوسف بن ابراهيم بن يوسف بن أحمد بن يعقوب بن مسلم بن منبه ، أحد بني عبد الله ابن عبد الرحمن بن أبي ربيعة بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم المخزومي ، صاحب النظـر في ديوان مصر ، ومصـنف كتـاب « المنهاج في أحكام الخراج » ، وهو كتاب جليل الفائدة .

ولم تزل آثار هـذا القـاضي حميـدة ، ومقاصـده سـديدة ، وعنده نخوة قرشـية ومروءة وعصبية . وهو وان طاب أصولا فقد زكا فروعا ، وان تفرقت في سواه فضـائل فقد جمعها الله جميعا ، ولم يزل مذ كان يسـعى في الأمانة على صراط مستقيم ، آخذا بقوله تعالى اخبارا عن الكريم ابن الكريم « اجعلني على خزائن الأرض اني حفيظ عليم » .

(*) ص٤٥٩ جـ٢ ، ط. بولاق .

« الحوض بجوار قصر القرافة » : فى ظهر الحمام العزيزى ، بحضرة فرن القرافة ، أمرت ببنائه أم الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله — واسمها السيدة رصد — على يد وكيلها الشريف المحدث أبى ابراهيم أحمد بن القاسم ابن الميمون بن حمزة الحسينى العبدلى ، شيخ القراء وابن الخطاب والفلكى .

« حوض بحضرة الأشعوب » : وهو قصر بنى عقيب .

« حوض فى داخل قصر أبى المعلوم » : مجاور للبئر الكبيرة ذات الدواليب . بناه المحتسب الفارسى ، مع عمارة البئر والميضأة ، فى أيام السيدة أم العزيز . ويقال ان الحوض والبئر من بناء المادرانى ، وانما جددته عمة الحاكم .

« حوض » بقصر بنى كعب وبجانبه بئر . أنشأه الحاجب لؤلؤ ، وهو من حقوق قصر بنى كعب . وقد خربت هذه الأحواض ودثرت .

ذكر الآبار التى ببركة الحبش والقرافة

« بئر أبى سلامة » : وتعرف بيئر الغنم ، وهى قبلى النوبية ، وموضعها أحسن موضع فى البركة ، وهى التى عنى أبو الصلت أمية ابن عبد العزيز بقوله :

لله يومى ببركة الحبش
والأفق بين الضياء والغبش

والنيل تحت الرياح مضطرب
كصارم فى يمين مرتعش

ونحن فى روضة مفوفة
دبج بالنور عطفها ووشى

قد نسجتها يد الغمام لنا
فنحن من نسجها على فرش

وأثقل الناس كلهم رجل
دعاه داعى الهوى فلم يطش

فعاطنى الراح ان تاركها
من سورة الهم غير منتعش

واسقنى بالكبار مترعة
فهن أشفى لشدة العطش

«بئر غربى دير مرحنا وبستان العبيدى» : ودير مرحنا يعرف اليوم فى زماننا بدير الطين ، وهو عامر بالنصارى .

« بئر الدرج » : شرقى بساتين الوزير ، لها درج ينزل به اليها ، عملها الحاكم بأمر الله ، وشرقيها قبور النصارى ، وبعدهم الى جهة الجبل قبور اليهود ، البستان المجاور لعفصة الصغرى — أول بركة الحبش — على لسان الجبل الخارج الى البركة ، مجاورة لبئر النعش وبئر السقايين ، وهى المعروفة ببئر أبى موسى خليد ، وقد صار هذا البستان الى المهذب بن الوزير .

«بئر الزقاق» : شرقى بئر عفصة الصغرى ، والزقاق معروف اذ ذاك فى الجبل ، وفى أوله بئر مربعة كان يسقى منها البقر والغنم .

ذكر السبعة التى تزار بالقرافة

اعلم أن زيارة القرافة كانت أولا يوم الأربعاء ، ثم صارت ليلة الجمعة ، وأما زيارة

يوم السبت فقيل انها قديمة ، وقيل * متأخرة .

وأول من زار يوم الأربعاء ، رابتدأ بالزيارة من مشهد السيدة نفيسة ، الشيخ الصالح أبو محمد عبد الله بن رافع بن يرحم بن رافع ، الساوعي الشافعي المغافري ، الزوار المعروف بعابد . ومولده سنة احدى وستين وخمسمائة ، روفاته بالهلالية خارج باب زويلة في ليلة الثاني والعشرين من شعبان سنة ثمان ثلاثين وستمائة ، ودفن بسفح المقطم على تربة بني نهار بحرى تربة الربيعي .

وأول من زار ليلة الجمعة الشيخ الصالح المقرى أبو الحسن على بن أحمد بن جوشن — المعروف بابن الجباس — والد شرف الدين محمد بن على بن أحمد بن الجباس ، فجمع الناس وزار بهم فى ليلة الجمعة فى كل أسبوع ، وزار معه فى بعض الليالى السلطان الملك الكامل ناصر الدين أبو المعالى محمد ابن العادل أبى بكر بن أيوب ، ومشى معه أكابر العلماء .

وكان سبب تجرد أبى الحسن بن الجباس وانقطاعه الى الله تعالى ، أنه دولب مطبخ سكر شركة رجل ، فوقف عليهما مال للديوان فسجنا بالقصر ، فقرأ ابن الجباس فى بعض الليالى سورة الرعد ، فسمعه السلطان الملك العادل أبو بكر بن أيوب ، فقام حتى وقف عليه وسأله عن خبره ، فأعلمه بأنه سجن على مبلغ كذا ، فأمر بالافراج عنه ، فأبى الا أن يفرج عن رفيقه أيضا ، فأفرج عنهما جميعا .

واتفق أنه مر فى بعض ليالى الزيارة بزاوية الفخر الفارسي ، فخرج ، وقال : ما هذه البدعة ؟ فى غد أبطلها ثم دخل الزاوية وخرج بعد ساعة ، وأمر برد ابن الجباس ، فلما جاءه قال . دم على ما أنت عليه ، فانى رأيت الساعة قوما ، فقالوا هل تعطيننا ما يعطينا ابن الجباس فى ليالى الجمع ؟ فعلمت أن ذلك هو الدعاء والقراءة

وأما زيارة يوم السبت ، فقد تقدم أنه اختلف فيها وحكى الموفق بن عثمان ، عن القضاعى ، أنه كان يحث على زيارة سبعة قبور ، وأن رجلا شكا اليه ضيق حاله والدين ، فقال له : عليك بزيارة سبعة قبور .

« أولهم » الشيخ أبو الحسن على بن محمد بن سهل بن الصائغ الدينورى ، وتوفى ليلة الثلاثاء لثلاث عشرة بقيت من شهر رجب سنة احدى وثلاثين وثلثمائة .

« والثانى » : عبد الصمد بن محمد بن أحمد بن اسحاق بن ابراهيم البغدادى ، صاحب الخلفاء ، وتوفى سنة خمس وثلاثين وثلثمائة .

« والثالث » : أبو ابراهيم اسماعيل ابن ... ... (١) المزنى . وتوفى سنة أربع وستين ومائتين .

« والرابع » : القاضى بكار بن قتيبة . وتوفى سنة سبعين ومائتين .

(*) ص٤٦٠ ، جـ٢ ، ط بولاق .

(١) هكذا بياض فى الاصل . ورايت فى بعض الكتب ، المتضمنة لاسماء الرواة والفقهاء وغيرهم ، مانصه : (مزنى) ــ اكبر اصحابنا علما ، واعلم غلمان الشافعى ، الذى مهد المذهب ؟ ولين كلام الشافعى ــ اسمه : اسماعيل بن يحيى بن اسماعيل بن عمرو بن اسحاق بن مسلم بن بهدلة بن عبد الله المزنى ، من قبيلة مزينة ، يكنى ابا ابراهيم ، مات بمصر سنة اربع وستين . ا هـ . بحروفه . اهـ . مصححه .

«والخامس» : القاضى المفضل بن فضالة . وتوفى سنة اثنتين وخمسين ومائتين .

« والسادس » : القاضى أبو بكر عبد الملك ابن الحسن القمنى . وتوفى فى ذى الحجة سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة .

«والسابع» : أبو الفيض ذو النون ثوبان ابن ابراهيم المصرى . وتوفى سنة خمس وأربعين ومائتين .

وكانوا أولا يزورون بعد صلاة الصبح ، وهم مشاة على أقدامهم . الى أن كانت أيام شيخ الزوار محمد العجمى السعودى ، فزار راكبا فى يوم السبت بعد طلوع الشمس ، لأن رجليه كانتا معوجتين لا يستطيع المشى عليهما ، وذلك فى أواخر سنة ثمانمائة . وتوفى فى عاشر شهر رمضان سنة تسع وثمانمائة .

فجاء بعده الزائر شمس الدين محمد بن عيسى المرجوشى السعودى ، ومحيى الدين عبد القادر بن علاء الدين محمد بن علم الدين بن عبد الرحمن — الشهير بابن عثمان — ففعلا ذلك ، ومات ابن عثمان فى سابع شهر ربيع الآخر سنة خمس عشرة وثمانمائة . فاستمرت الزيارة على ذلك .

وقد حكى صاحب كتاب « محاسن الأبرار ومجالس الأخيار » سبعة غير من ذكرنا ، وسماهم المحققين ، وهم : صلة بن مؤمل ، وأبو محمد عبد العزيز بن أحمد بن على بن جعفر الخوارزمى ، وسالم العفيف ، وأبو الفضل بن الجوهرى ، وأبو عبد الله محمد ابن عبد الله بن الحسين — عرف بالبزار — وأبو الحسن على — عرف بطير الوحش — وأبو الحسن على بن صالح الأندلسى الكحال .

وذكر أيضا سبعة آخر ، وهم عقبة بن عامر الجهنى ، والامام أبو عبد الله محمد بن ادريس الشافعى ، وأبو بكر الدقاق ، وأبو ابراهيم اسماعيل المزنى ، وأبو العباس أحمد الجزار ، والفقيه ابن دحية ، والفقيه ابن فارس اللخمى .

وزيارتهم يوم الجمعة بعد صلاة الصبح ، والعمل عليها فى الزيارة الآن . الا انهم يجتمعون طوائف، لكل طائفة شيخ ، ويقيمون مناور كبارا وصغارا ، ويخرجون فى ليالى الجمع ، وفى كل سبت بكرة النهار ، وفى كل يوم أربعاء بعد الظهر ، وهم يذكرون الله ، فيزورون ، ويجتمع معهم من الرجال والنساء خلائق لا تحصى ، ومنهم من يعمل ميعاد وعظ ، ويقال لشيخ كل طائفة الشيخ الزائر . فتمر لهم فى الزيارة أمور منها ما يستحسن ، ومنها ما ينكر ، ولكل عبد ما نوى .

فمن أشهر مزارات القرافة « قبر الامام أبى عبد الله محمد بن ادريس الشافعى » رحمة الله ورضوانه * عليه . وتوفى يوم الجمعة آخر يوم من شهر رجب سنة أربع ومائتين بفسطاط مصر ، وحمل على الأعناق حتى دفن فى مقبرة بنى زهرة ، أولاد عبد الله بن عبد الرحمن بن عوف الزهرى رضى الله عنه وعرفت أيضا بتربة أولاد ابن عبد الحكم .

(*) ص٤٦١ جـ٢ ، ط. بولاق .

قال القضاعی : وقد جرب الناس خير هذه التربة المباركة والقبر المبارك . وينقل عن المزنی أنه قال فيه :

سقى الله هذا القبر من وبل مزنه
من العفو ما يغنيه عن طلل المزن

لقد كان كفؤا للعــداة ومعقــلا
وركنا لهذا الدين بل أيمــا ركن

هكذا وقفت عليه ، ثم رأيت بعد ذلك أن المزنی رحمه الله لما دفن ، مر رجل على قبره ، واذا بهاتف يقول ... فذكر البيتين .

وقال آخر :

لله درء الثرى كم ضم من كرم
بالشــافعی حليف العلم والأثر

ياجوهر الجوهر المكنون من مضر
ومن قريش ومن ســاداتها الأخر

لما تولبت ولی العلم مكتئبا
وضر موتك أهل البدو والحضر

ولآخر :

أكرم به رجلا ما مثله رجــل
مشارك لرسول الله فی نسبه

أضحى بمصردفينا فی مقطمها
نعم المقطم والمدفون فی تربه

ومناقب الشــافعی رحمه الله كثيرة ، قد صنف الأئمــة فيها عدة مصــنفات ، وله فی تاريخی الكبير المقفی ترجمة كبيرة . ومن أبدع ما حكی من مناقبه : أن الوزير نظام الملك ، أبا علی الحسن بن علی بن اسحاق ، لما بنی المدرسة النظامية ببغــداد ، فی ســنة أربع وسبعين وأربعمــائة ، أحب أن ينقــل الامام الشــافعی من مقبرته بمصر الى مدرســته ، وكتب الى أمير الجيوش بدر الجمالی — وزير الامام المستنصر بالله معد — يسأله فی ذلك ، وجهز له هدية جليلة .

فركب أمير الجيوش فی موكبــه ، ومعــه أعيان الدولة ووجوه المصريين من العلمــاء وغيرهم ، وقد اجتمع الناس لرؤيته . فلمــا نبش القبر ، شق ذلك على النــاس وماجوا ، وكثر اللغط ، وارتفعت الأصوات ، وهمــوا برجم أمير الجيوش والثورة به ، فسكتهم ، وبعث يعلم الخليفة أمير المؤمنين المســتنصر بصورة الحال .

فأعاد جوابه بامضاء ما أراد نظام الملك ، فقرىء كتابه بذلك على الناس عنــد القبر ، وطردت العامة والغوغاء من حوله ، ووقع الحفر حتى انتهوا الى اللحد . فعندما أرادوا قلع ما عليه من اللبن ، خرج من اللحد رائحة عطــرة أســكرت من حضر فوق القبر حتى وقعوا صرعى ، فما أفاقوا الا بعــد ســاعة ، فاستغفروا مما كان منهم ، وأعادوا ردم القبر كما كان ، وانصرفوا .

وكان يوما من الأيام المذكورة ، وتزاحــم الناس على قبر الشافعی يزورونه مدة أربعين يوما بلياليها ، حتى كان من شدة الازدحام لا يتوصل اليه الا بعناء ومشقة زائدة . وكتب أمير الجيــوش محضرا بمــا وقع ، وبعث به وبهــدية عظيمة مع كتابه الى نظام الملك ، فقرىء هذا المحضر والكتاب بالنظامية ببغداد وقد اجتمع العالم على اختلاف طبقاتهم لسماع ذلك ، فكان يوما مشهودا ببغداد .

وكتب نظام الملك الى عامة بلدان المشرق — من حدود الفرات الى ما وراء النهر — بذلك ، وبعث مع كتبه بالمحضر وكتاب أمير الجيوش ، فقرئت في تلك الممالك بأسرها ، فزاد قدر الامام الشافعي عند كافة أهل الأقطار وعامة جميع أهل الأمصار بذلك .

وقد أوردت في كتاب « امتاع الأسماع بما للرسول من الأنباء والأحوال والحفدة والمتاع صلى الله عليه وسلم » نظير هذه الواقعة ، وقع لضريح رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولم يزل قبر الشافعي يزار ، ويتبرك به . الى أن كان يوم الأحد ، لسبع خلت من جمادى الأولى سنة ثمان وستمائة ، فانتهى بناء هذه القبة التي على ضريحه ، وقد أنشأها الملك الكامل المظفر المنصور أبو المعالي ناصر الدين محمد ، ظهير أمير المؤمنين ، ابن السلطان الملك العادل سيف الدين أبى بكر بن أيوب ، وبلغت النفقة عليها خمسين ألف دينار مصرية ، وأخرج في وقت بنائها بعظام كثيرة من مقابر كانت هناك ، ودفنت في موضع من القرافة .

وبهذه القبة أيضا قبر السلطان الملك العزيز عثمان ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وقبر أمه شمسة . وقيل فيها عدة أشعار ، منها قول الأديب الكاتب ضياء الدين أبى الفتح موسى بن ملهم :

مررت على قبة الشافعي
فعاين طرفي عليها العشارى

فقلت لصحبى لا تعجبوا
فان المراكب فوق البحار *

وقال علاء الدين أبو على عثمان بن ابراهيم النابلسي :

لقد أصبح الشافعى الاما
م فينا له مذهب مذهب

ولو لم يكن بحر علم لما
غدا وعلى قبره مركب

وقال آخر :

أتيت لقبر الشافعي أزوره
تعرضنا فلك وما عنده بحر

فقلت تعالى الله تلك اشارة
تشير بأن البحر قد ضمه القبر

وقال شرف الدين أبو عبد الله محمد بن سعيد بن حماد البوصيرى صاحب البردة :

بقبة قبر الشافعي سفينة
رست في بناء محكم فوق جلمود

ومذ غاض طوفان العلوم بقبره اسـ
ـتوى الفلك من ذاك الضريح على الجودي

ومنها « قبر الامام الليث بن سعد » رحمه الله . قد اشتهر قبره عند المتأخرين .

وأول ما عرفته من خبر هذا القبر : أنه وجدت مصطبة في آخر قباب الصدف — وكانت قباب الصدف أربعمائة قبة فيما يقال — عليها مكتوب « الامام الفقيه الزاهد العالم الليث بن سعد بن عبد الرحمن أبو الحارث المصرى ، مفتي أهل مصر » .

(*) ص٤٦٢ جـ٢ ، ط. بولاق م

كما ذكر فى كتاب « هادى الراغبين فى زيارة قبور الصالحين » لأبى محمد عبد الكريم بن عبد الله بن عبد الكريم بن على بن محمد بن على بن طلحة ، وفى كتاب « مرشد الزوار » للموفق ابن عثمان ، وذكر الشيخ محمد الأزهرى فى كتابه « فى الزيارة » : أن أول من بنى عليه وحيز كبير التجار أبو زيد المصرى ، بعد سنة أربعين وستمائة

ولم يزل البناء يتزايد الى أن جدد الحاج سيف الدين المقدم عليه قبته ، فى أيام الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون ، قبيل سنة ثمانين وسبعمائة ثم جددت فى أيام الناصر فرج بن الظاهر برقوق ، على يد الشيخ أبى الخير محمد ابن الشيخ سليمان المادح ، فى محرم سنة احدى عشرة وثمانمائة .

ثم جددت فى سنة اثنتين وثلاثين وثمانمائة على يد امرأة قدمت من دمشق ، فى أيام المؤيد شيخ ، عرفت بمرحبا بنت ابراهيم بن عبد الرحمن أخت عبد الباسط ، وكان لها معروف وبر ، توفيت فى تاسع عشرى ذى القعدة سنة أربعين وثمانمائة .

ويجتمع بهذه القبة ، فى ليلة كل سبت ، جماعة من القراء ، فيتلون القرآن الكريم تلاوة حسنة حتى يختموا ختمة كاملة عند السحر ، ويقصد المبيت عندهم ، للتبرك بقراءة القرآن ، عدة من الناس . ثم تفاحش الجمع ، وأقبل النساء والأحداث والغوغاء ، فصار أمرا منكرا ، لا ينصتون لقراءة ، ولا يتعظون بمواعظ ، بل يحدث منهم على القبور ما لا يجوز . ثم زادوا فى التعدى حتى حفروا ما هنالك خارج القبة من القبور ، وبنوا مبانى اتخذوها مراحيض وسقايات ماء .

ويزعم من لا علم عنده أن هذه القراءة ، فى كل ليلة سبت عند قبر الليث بزعمهم ، قديمة من عهد الامام الشافعى . وليس ذلك بصحيح ، وانما حدثت بعد السبعمائة من سنى الهجرة بمنام ذكر بعضهم أنه رآه ، وكانوا اذ ذاك يجتمعون للقراءة عند قبر أبى بكر الأدفوى .

ذكر المقابر خارج باب النصر

اعلم أن المقابر ، التى هى الآن خارج باب النصر ، انما حدثت بعد سنة ثمانين وأربعمائة . وأول تربة بنيت هناك تربة أمير الجيوش بدر الجمالى لما مات ودفن فيها ، وكان خطها يعرف برأس الطابية .

قال الشريف أمين الدولة ، أبو جعفر محمد ابن هبة الله العلوى الأفطسى ، وقد مر بتربة الأفضل :

أجرى دما أجفانيه جدث برأس الطابيه
صدع الزمان صفاتيه ... ... [1]
بال وما بليت أيا ديه على الباقيه

وبخارج باب النصر ، فى أوائل المقابر ، قبر زينب بنت أحمد بن محمد بن عبد الله بن جعفر بن الحنفية يزار ، وتسميه العامة مشهد الست زينب .

---

(1) هكذا بياض فى الأصل .

ثم تتابع دفن الناس موتاهم في الجهة ، التي هي اليوم من بحرى مصلى الأموات الى نحو الريدانية ، وكان ما في شرقى هذه المقبرة الى الجبل براحا واسعا — يعرف بميدان القبق ، وميدان العيد ، والميدان الأسود — وهو ما بين قلعة الجبل الى قبة النصر تحت الجبل الأحمر .

فلما كان بعد سنة عشرين * وسبعمائة ، ترك الملك الناصر محمد بن قلاوون النزول الى هذا الميدان وهجره . فأول من ابتدأ فيه بالعمارة الأمير شمس الدين قراسنقر ، فاختط تربته التى تجاور اليوم تربة الصوفية ، وبنى حوض ماء للسبيل ، وجعل فوقه مسجدا . وهذا الحوض بجوار باب تربة الصوفية ، أدركته عامرا هو وما فوقه ، وقد تهدم وبقيت منه بقية .

ثم عمر بعده نظام الدين آدم ، أخو الأمير سيف الدين سلار ، تجاه تربة قراسنقر مدفنا وحوض ماء للسبيل ومسجدا معلقا ، وتتابع الأمراء والأجناد وسكان الحسينية فى عمارة الترب هناك ، حتى انسدت طريق الميدان ، وعمروا الجوانية أيضا . وأخذ صوفية الخانقاه الصلاحية لسعيد السعداء قطعة قدر فدانين وأداروا عليها سورا من حجر ، وجعلوها مقبرة لمن يموت منهم ، وهى باقية الى يومنا هذا ، وقد وسعوا فيها بعد سنة تسعين وسبعمائة بقطعة من تربة قراسنقر .

وما برح الناس يقصدون تربة الصوفية هذه زيارة من فيها من الأموات ، ويرغبون فى الدفن بها . الى أن تولى مشيخة الخانقاه الشيخ شمس الدين محمد البلالى ، فسمح لكل أحد أن يقبر ميته بها على مال يأخذه منه ، فقبر بها كثير من أعوان الظلمة ومن لم تشكر طريقته ، فصارت مجمع نسوان ومجلس لعب .

وعمر أيضا بجوار تربة الصوفية الأمير مسعود بن خطير تربة ، وعمل لها منارة من حجارة لا نظير لها فى هيئتها ، وهى باقية . وعمر أيضا مجد الدين السلامى تربة ، وعمر الأمير سيف الدين كوكاى تربة ، وعمر الأمير طاجاى الدوادار ، على رأس القبق مقابل قبة النصر ، تربة . وعمر الأمير سيف الدين طشتمر الساقى على الطريق تربة . وبنى الأمراء الى جانبه عدة ترب ، وبنى الطواشى محسن البهاء تربة عظيمة ، وبنت خوند طغاى تربة تجاه تربة طشتمر الساقى ، وجعلت لها وقفا . وبنى الأمير طغاى تمر النجمى الدوادار تربة ، وجعلها خانقاه ، وأنشأ بجوارها حماما وحوانيت ، وأسكنها للصوفية والقراء . وبنى الأمير منكلى بغا الفخرى تربة ، والأمير طشتمر طللية تربة ، والأمير أرنان تربة . وبنى كثير من الأمراء وغيرهم الترب ، حتى اتصلت العمارة من ميدان القبق الى تربة الروضة خارج باب البرقية .

وما مات الملك الناصر حتى بطل من الميدان السباق بالخيل ، ومنعت طريقه من كثرة العمائر . وأدركت بعد سنة ثمانين وسبعمائة عدة عواميد من رخام منصوبة — يقال لها عواميد السباق — فيما بين قبة النصر وقريب من القلعة .

(*) ص٤٦٣ جـ٢ ، ط. بولاق .

وأول من عمر فى البراح الذى كان فيه عواميد السباق الأمير يونس الدوادار ، فى أيام الملك الظاهر ، تربته الموجودة هناك . ثم عمر الأمير قجماس ، ابن عم الملك الظاهر برقوق ، تربة بجانب تربة يونس . وأحيط على قطعة كبيرة حائط ، وقبر فيها من مات من مماليك السلطان ، وقبر فيها الشيخ علاء الدين السيرامى شيخ الخانقاه الظاهرية ، والشيخ المعتقد طلحة ، والشيخ المعتقد أبو بكر البجائى .

فلما مرض الملك الظاهر برقوق ، أوصى أن يدفن تحت أرجل هؤلاء الفقراء ، وأن يبنى على قبره تربة ، فدفن حيث أوصى ، وأخذت قطعة مساحتها عشرة آلاف ذراع ، وجعلت خانقاه ، وجعل فيها قبة على قبر السلطان وقبور الفقراء المذكورين ، وتجدد من حينئذ هناك عدة ترب جليلة ، حتى صار الميدان شوارع وأزقة .

ونقل الملك الناصر فرج بن برقوق سوق الجمال وسوق الحمير من تحت القلعة الى تجاه التربة التى عمرها على قبر أبيه ، فاستمر ذلك أياما فى سنة أربع عشرة وثمانمائة ، ثم أعيدت الأسواق الى مكانها . وكان قصده أن يبنى هناك خانا كبيرا ينزل فيه المسافرون ، ويجعل بجانبه سوقا ، وبنى طاحونا وحماما وفرنا لتعمر تلك الجهة بالناس ، فمات قبل بناء الخان ، وخلت الحمام والطاحون والفرن بعد قتله .

ذكر كنائس اليهود

قال الله عز وجل : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا » ، قال المفسرون : الصوامع للصابئين ، والبيع للنصارى ، والصلوات كنائس اليهود ، والمساجد للمسلمين ؛ قاله ابن قتيبة . والكنيس كلمة عبرانية معناها بالعربية الموضع الذى يجتمع فيه للصلاة .

ولهم بديار مصر عدة كنائس : منها كنيسة دموه بالجيزة ، وكنيسة جوجر من القرى الغربية ، وبمصر الفسطاط كنيسة بخط المصاصة فى درب الكرمة ، وكنيستان بخط قصر الشمع ، وبالقاهرة كنيسة بالجودرية ، وفى حارة زويلة خمس كنائس .

« كنيسة دموه » : هذه الكنيسة أعظم معبد لليهود بأرض مصر . فانهم لا يختلفون فى أنها الموضع الذى كان يأوى اليه موسى ابن عمران ، صلوات الله عليه ، حين كان يبلغ رسالات الله عز وجل الى فرعون ، مدة * مقامه بمصر ، منذ قدم من مدين الى أن خرج ببنى اسرائيل من مصر . ويزعم يهود أنها بنيت هذا البناء الموجود ، بعد خراب بيت المقدس الخراب الثانى على يد طيطش ببضع وأربعين سنة ، وذلك قبل ظهور الملة الاسلامية بما ينيف على خمسمائة سنة .

وبهذه الكنيسة شجرة زيزلخت فى غاية الكبر ، لا يشكون فى أنها من زمن موسى

(*) ص٤٦٤ جـ٢ ، ط. بولاق .

عليـه السـلام ، ويقولون : ان موسى عليه السلام غرس عصاه فى موضعها ، فأنبت الله هناك هذه الشجرة ، وأنها لم تزل ذات أغصان نضرة ، وساق صاعد فى السماء ، مع حسـن استواء وثخن فى استقامة .

الى أن أنشـأ الملك الأشرف شعبـان بن حسين مدرسته تحت القلعة ، فذكر له حسن هذه الشجرة ، فتقـدم بقطعها لينتفع بها فى العمارة ، فمضوا الى ما أمروا به من ذلك ، فأصبحت وقد تكورت وتعقفت ، وصـارت شنيعة المنظر ، فتركوها ، واستمرت كذلك مدة . فاتفق أن زنى يهودى بيهودية تحتها ، فتهدلت أغصانها ، وتحات ورقها ، وجفت حتى لم يبق بها ورقة خضراء ، وهى باقية كذلك الى يومنا هذا .

ولهذه الكنيسة عيد يرحل اليهود بأهاليهم اليها فى عيد الخطاب ، وهو فى شهر سيوان ، ويجعلون ذلك بدل حجهم الى القدس .

وقد كان لموسى عليه السلام أنباء قد قصها الله تعالى فى القرآن الـكريم وفى التوراة ، وروى أهل الـكتاب وعلمـاء الأخبـار من المسلمين كثيرا منها . وسأقص عليك فى هذا الموضع منها ما فيه كفاية ، اذ كان ذلك من شرط هذا الكتاب .

موسى بن عمران

وفى التوراة : عمرام بن قاهث بن لاوى بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم خليل الرحمن ، صلوات الله وسلامه عليهم ، أمه يوحانذ بنت لاوى ، فهى عمـة عمران والد موسى . ولد بمصر فى اليوم السابع من شهر آذار سـنة ثلاثين ومائة لدخول يعقـوب على يوسـف عليهما السلام بمصر .

وكان بنو اسرائيل — منذ مات لاوى بن يعقوب فى سنة أربع وتسعين لدخول يعقوب مصر — فى البـلاء مع القبط وذلك أن يوسف عليه السلام لما مات فى سة ثمانين من قدوم يعقوب مصر ، كان الملك اد ذاك بمصر دارم بن الريان — وهـو الفرعـون الرابع عندهم ، وتسميه القبط دريموس — فاستوزر بعده رجلا من الكهنة يقال له بلاطس ، فحمله على أذى النـاس ، وخالف ما كان عليـه يوسف .

وساءت سيرة الملك حتى اغتصب كل امرأة جميلة بمدينـة منف وغيرها من النواحى فشق ذلك من فعله على الناس ، وهموا بخلعه من الملك . فقام الوزير بلاطس فى الوسـاطة بينه وبين الناس ، وأسقط عنهم الخراج لثلاث سنين ، وفرق فيهم مالا حتى سكنوا

واتفق أن رجلا من الاسرائيليين ضرب بعض سدنة الهياكل فأدماه ، وعاب دين الكهنة ، فغضب القبط ، وسألوا الوزير أن يخرج بنى اسرائيل من مصر ، فأبى .

وكان دارم الملك قد خرج الى الصعيد ، فبعث اليه يخبره بأمر الاسرائيلى ، وما كان من القبط فى طلبهم اخراج بنى اسرائيل من مصر ، فأرسل اليه ألا يحدث فى القوم حدثا دون موافاته .

فشغب القبط ، وأجمعوا على خلع الملك واقامة غيره . فسار اليهم الملك ، وكانت بينه

وبينهم حروب قتل فيها خلق كثير ، ظفر فيها الملك ، وصلبَ ممن خالفه بحافتى النيل طوائف لا تحصى ، وعاد الى أكثر مما كان عليه من ابتزاز النساء ، وأخذ الأموال ، واستخدام الأشراف والوجوه من القبط ومن بنى سرائيل فأجمع الكل على ذمه .

واتفق أنه ركب فى النيل ، فهاجت به الريح ، وأغرقه الله ومن معه ، ولم توجد جثته الا عند شطنوف . فأقام الوزير من بعده فى الملك ابنه معاديوش ، وكان صبيا — ويسميه بعضهم معدان — فاستقام الأمر له ، ورد النساء اللاتى اغتصبهن أبوه ، وهو خامس الفراعنة . فكثر بنو اسرائيل فى زمنه ، ولهجوا بثلب الأصنام وذمها .

وهلك بلاطس الوزير ، قام من بعده فى الوزارة كاهن يقال له املاده ، فأمر بافراد بنى اسرائيل ناحية فى البلد ، بحيث لا يختلط بهم غيرهم ، فأقطعوا موضعا فى قبلى مدينة منف صاروا اليه ، وبنوا فيه معبدا كانوا يتلون به صحف ابراهيم عليه السلام .

فخطب رجل من القبط بعض نسائهم ، فأبوا أن ينكحوه — وقد كان هَوِيها — فأكبر القبط فعلهم ، وصاروا الى الوزير ، وشكوا من بنى اسرائيل ، وقالوا : هؤلاء قوم يعيبوننا ، ويرغبون عن مناكحتنا ، ولا نحب أن يجاورونا ما لم يدينوا بديننا .

فقال لهم الوزير : قد علمتم اكرام طوطيس الملك لجدهم ، ونهراوش من بعده ، وقد علمتم بركة يوسف ، حتى جعلتم قبره وسط النيل ، فأخصب جانبا مصر بمكانه . وأمرهم بالكف عن بنى اسرائيل ، فأمسكوا .

الى أن احتجب معدان وقام من بعده فى الملك ابنه اكسامس — الذى يسميه بعضهم كاسم — بن معدان بن الريان بن الوليد بن دومع العمليقى ، وهو السادس من فراعنة مصر ، وكان أولهم يقال له فرعان ، فصار ذلك اسما لكل من تجبر وعلا أمره .

وطالت أيام كاسم ، ومات وزير أبيه ، فأقام من بعده رجلا من بيت المملكة * يقال له ظلما بن قومس . وكان شجاعا ساحرا ، كاهنا كاتبا حكيما ، دهيا متصرفا فى كل فن ، وكانت نفسه تنازعه الملك — ويقال انه من ولد أشمون الملك ، وقبل من ولد صا — فأحبه الناس ، وعمر الخراب ، وبنى مدنا من الجانبين ، ورأى فى نجومه أنه سيكون حدث وشدة .

وشكا القبط اليه من الاسرائيليين ، فقال : هم عبيدكم . فكان القبطى اذا أراد حاجة ، سخر الاسرائيلى وضربه ، فلا يغير عليه أحد ولا ينكر عليه ذلك ، فان ضرب الاسرائيلى أحدا من القبط قتل ألبتة ، وكذلك كانت تفعل نساء القبط بالنساء الاسرائيليات . فكانت أول شدة وذل أصاب بنى اسرائيل ، وكثر ظلمهم وأذاهم من القبط .

واستبد الوزير ظلما بأمر البلد ، كما كان العزيز مع نهراوش ، وتوفى اكسامس الملك ، فاتهم ظلما بأنه سمه ، فركب فى سلاحه ، وأقام لاطس الملك مكان أبيه . وكان ابنه جريئا معجبا ، فصرف ظلما بن قومس عما كان عليه من خلافته ، واستخلف رجلا يقال

(*) ص٤٦٥ جـ٢ ، ط. بولاق .

له « لاهوق » من ولد صا ، وأنفذ ظلما عاملا على الصعيد ، وسير معه جماعة من الاسرائيليين ، وزاد تجبره وعتوه ، وأمر الناس جميعا أن يقوموا على أرجلهم فى مجلسه ، ومد يده الى الأموال ، ومنع الناس من فضول ما بأيديهم ، وقصرهم على القوت ، وابتز كثيرا من النساء ، وفعل أكثر مما فعله ملك تقدمه ، واستعبد بنى اسرائيل ، فأبغضه الخاص والعام .

وكان ظلما لما صرف عن الوزارة ، وخرج الى الصعيد ، أراد ازالة الملك ، والخروج عن طاعته . فجبى المال ، وامتنع من حمله ، وأخذ المعادن لنفسه ، وهم أن يقيم ملكا من ولد قبطرين ويدعو الناس الى طاعته ، ثم انصرف عن ذلك ، ودعا لنفسه ، وكاتب الوجوه والأعيان ، فافترق الناس ، وتطاول كل واحد من أبناء الملوك الى الملك ، وطمع فيه . ويقال ان روحانيا ظهر لظلما ، وقال له : ان أطعتنى قلدتك مصر زمانا طويلا ، فأجابه وقرب اليه أشياء ، منها غلام من بنى اسرائيل ، فصار عونا له .

وبلغ الملك خبر خروج ظلما عن طاعته ، فوجه اليه قائدا قلده مكانه ، وأمره أن يقبض على ظلما ، ويبعث به اليه موثقا ، فصار اليه ، وخرج ظلما للقائه ، وحاربه فظفر به ، واستولى على ما معه ، فجهز اليه الملك قائدا آخر فهزمه ، وسار فى أثره — وقد كثف جمعه — فبرز اليه الملك ، واحتربا ، فكانت لظلما على الملك فقتله ، واستولى على مدينة نف ، ونزل قصر المملكة .

وهذا هو فرعون موسى عليه السلام ، وبعضهم يسميه الوليد بن مصعب ، وقيل هو من العمالقة ، وهو سابع الفراغنة . ويقال انه كان قصيرا ، طويل اللحية ، أشهل العينين ، صغير العين اليسرى ، فى جبينه شامة ، وكان أعرج . وقيل انه كان يكنى بأبى مرة ، وان اسمه الوليد بن مصعب ، وانه أول من خضب بالسواد لما شاب ؛ دله عليه ابليس »

وقيل انه كان من القبط ، وقيل انه دخل منف على أتان يحمل النطرون ليبيعه ، وكان الناس قد اضطربوا فى تولية الملك ، فحكموه ورضوا بتولية من يوليه عليهم . وذلك أنهم خرجوا الى ظاهر مدينة منف ينتظرون أول من يظهر عليهم ليحكموه ، فكان هو أول من أقبل بحماره ، فلما حكموه ورضوا بحكمه ، أقام نفسه ملكا عليهم . وأنكر قوم هذا ، وقالوا : كان القوم أدهى من أن يقلدوا ملكهم من هذه سبيله .

فلما جلس فى الملك اختلف الناس عليه ، فبذل لهم الأموال ، وقتل من خالفه بمن أطاعه حتى اعتدل أمره ، ورتب المراتب ، وشيد الأعمال ، وبنى المدن ، وخندق الخنادق ، وبنى بناحية العريش حصنا ، وكذلك على جميع حدود مصر ، واستخلف هامان — وكان يقرب منه فى نسبه — وأثار الكنوز ، وصرفها فى بناء المدائن والعمارات ، وحفر خليج سردوس وغيره ، وبلغ الخراج بمصر فى زمنه سبعة وتسعين ألف ألف دينار ، بالدينار الفرعونى ، وهو ثلاثة مثاقيل .

وفرعون هو أول من عرف العرفاء على الناس . وكان ممن صحبه من بنى اسرائيل

رجل يقال له امرى — وهو الذى يقال له بالعبرانية عمرام وبالعربية عمران — بن قاهث ابن لاوى ، وكان قدم مصر مع يعقوب عليه السلام ، فجعله حرسا لقصره يتولى حفظه وعنده مفاتيحه وأغلاقه بالليل .

وكان فرعون قد رأى فى كهانته ونجومه أنه يجرى هلاكه على يد مولود من الاسرائيليين ، فمنعهم من المناكحة ثلاث سنين التى رأى أن ذلك المولود يولد فيها . فأتت امرأة امرى اليه فى بعض الليالى بشىء قد أصلحته له ، فواقعها ، فاشتملت منه على هارون ، وولدته لثلاث وسبعين من عمره ، فى سنة سبع وعشرين ومائة لقدوم يعقوب الى مصر ، ثم أتته مرة أخرى ، فحملت بموسى لثمانين سنة من عمره .

ورأى فرعون فى نجومه أنه قد حمل بذلك المولود ، فأمر بذبح الذكران من بنى اسرائيل ، وتقدم الى القوابل بذلك . فولد موسى عليه السلام فى سنة ثلاثين ومائة لقدوم يعقوب الى مصر ، وفى سنة أربع وعشرين وأربعمائة لولادة ابراهيم الخليل عليه السلام ، ولمضى ألف وخمسمائة وست سنين من الطوفان .

وكان من أمر ما قصه الله سبحانه من قذف أمه له فى التابوت ، فألقاه النيل الى تحت قصر الملك ، وقد أرصدت أمه أخته على بعد لتنظر من يلتقطه فجاءت ابنة * فرعون الى البحر مع جواريها ، فرأته واستخرجته من التابوت ، فرحمته وقالت ' هذا من العبرانيين من لنا بظئر ترضعه ؟

فقالت لها أخته : أنا آتيك بها .

وجاءت بأمه ، فاسترضعتها له ابنة فرعون الى أن فصل ، فأتت به الى ابنة فرعون ، وسمته موسى ، وتبنته ونشأ عندها .

وقيل بل أخذته امرأة فرعون ، واسترضعت أمه ، ومنعت فرعون من قتله . الى أن كبر وعظم شأنه ، فرد اليه فرعون كثيرا من أمره ، وجعله من قواده — وكانت له سطوة — ثم وجهه لغزو اليونانيين ، وقد عاثوا فى أطراف مصر ، فخرج فى جيش كثيف وأوقع بهم ، فأظفره الله ، وقتل منهم كثيرا وأسر كثيرا ، وعاد غانما ، فسر ذلك فرعون ، وأعجب به هو وامرأته . واستولى موسى ، وهو غلام ، على كثير من أمر فرعون ، فأراد فرعون أن يستخلفه ، حتى قتل رجلا من أشراف القبط له قرابة من فرعون ، فطلبه .

وذلك أنه خرج يوما يمشى فى الناس — وله صولة بما كان له فى بيت فرعون من المربى والرضاع — فرأى عبرانيا يضرب ، فقتل المصرى الذى ضربه ودفنه ، وخرج يوما آخر فاذا برجلين من بنى اسرائيل ، وقد سطا أحدهما على الآخر ، فزجره ، فقال له : ومن جعل لك هذا ؟ أتريد أن تقتلنى كما قتلت المصرى بالأمس ؟

ونما الخبر الى فرعون فطلبه ، وألقى الله فى نفسه الخوف لما يريد من كرامته ، فخرج من منف ، ولحق بمدين عند عقبة أيلة — وبنو مدين أمة عظيمة ، من بنى ابراهيم عليه السلام ، كانوا ساكنين هناك — وكان فراره وله من العمر أربعون سنة ، فنزل عند

(*) ص٤٦٦ ج١ ، ط. بولاق .

يَنّ ، وهو شعيب عليه السلام ، من ولد مدين بن ابراهيم ، وكان من تزويجه ابنته ، ورعايته غنمه ، ما كان ، فأقام هنالك تسعا وثلاثين سنة ، نكح فيها صفوراء ابنة شعيب . وبنو اسرائيل مع فرعون وأهل مصر — كما قال الله تعالى — يسومونهم سوء العذاب ويستعبدونهم .

فلما مضى من سنة الثمانين لموسى شهر وأسبوع ، كلمه الله جل اسمه — وكان ذلك فى اليوم الخامس عشر من شهر نيسان — وأمره أن يذهب الى فرعون ، وشد عضده بأخيه هارون ، وأيده بآيات : منها قلب العصا حية ، وبياض يده من غير سوء ، وغير ذلك من الآيات العشر التى أحلها الله بفرعون وقومه ، وكان مجىء الوحى من الله تعالى اليه وهو ابن ثمانين سنة .

ثم قدم مصر فى شهر أيار ، ولقى أخاه هارون ، فسر به ، وأطعمه جلبانا فيه ثريد ، وتنبأ هارون وهو ابن ثلاث وثمانين سنة ، وغدا به الى فرعون ، وقد أوحى اليهما أن يأتيا الى فرعون ليبعث معهما بنى اسرائيل ، فيستنقذانهم من هلكة القبط وجور الفراعنة ، ويخرجون الى الأرض المقدسة التى وعدهم الله بملكها على لسان ابراهيم واسحاق ويعقوب ، فأبلغا ذلك بنى اسرائيل عن الله ، فآمنوا بموسى واتبعوه .

ثم حضرا الى فرعون ، فأقاما ببابه أياما — وعلى كل منهما جبة صوف ، ومع موسى عصاه — وهما لا يصلان الى فرعون لشدة حجابه . حتى دخل عليه مضحك كان يلهو به ، فعرفه أن بالباب رجلين يطلبان الاذن عليك ، يزعمان أن الههما قد أرسلهما اليك ، فأمر بادخالهما . فلما دخلا عليه خاطبه موسى بما قصه الله فى كتابه ، وأراه آية العصا وآيته فى بياض اليد .

فغاظ فرعون ما قاله موسى ، وهم بقتله ، فمنعه الله سبحانه بأن رأى صورة قد أقبلت ، ومسحت على أعينهم فعموا . ثم انه لما فتح عن عينيه ، أمر قوما آخرين بقتل موسى ، فأتتهم نار أحرقتهم ، فارداد غيظه ، وقال لموسى : من أين لك هذه النواميس العظام ؟ أسحرة بلدى علموك هذا ، أم تعلمته بعد خروجك من عندنا ؟

فقال : هذا ناموس السماء ، وليس من نواميس الأرض .

قال فرعون : ومن صاحبه ؟

قال : صاحب البنية العليا .

قال : بل تعلمتها من بلدى .

وأمر بجمع السحرة والكهنة وأصحاب النواميس ، وقال : اعرضوا علىّ أرفع أعمالكم ، فانى أرى نواميس هذا الساحر رفيعة جدا . فعرضوا عليه أعمالهم ، فسره ذلك ، وأحضر موسى ، وقال له : لقد وقفت على سحرك ، وعندى من يفوق عليك .

فواعدهم يوم الزينة . وكان جماعة من البلد قد اتبعوا موسى فقتلهم فرعون .

ثم انه جمع بين موسى وبين سحرته ، وكانوا مائتى ألف وأربعين ألفا ، يعملون من الأعمال ما يحير العقول ، ويأخذ القلوب ، من دخن ملونات ترى الوجوه مقلوبة مشوهة :

منها الطويل والعريض ، والمقلوب جهته الى أسفل ولحيته الى فوق ، ومنها ما له قرون ، ومنها ما له خرطوم وأنياب ظاهرة كأنياب الفيلة ، ومنها ما هو عظيم فى قدر الترس الكبير ، ومنها ما له آذان عظام ، وشبه وجوه القرود ، بأجساد عظيمة تبلغ السحاب ، وأجنحة مركبة على حيات عظيمة تطير فى الهواء ، ويرجع بعضها على بعض فيبتلعه ، وحيات يخرج من أفواهها نار تنتشر فى الناس ، وحيات تطير وترجع فى الهواء ، وتنحدر على كل من حضر لتبتلعه ، فيتهارب الناس منها ، وعصى تحلق فى الهواء ، فتصير حيات برؤوس وشعور وأذناب تهم بالناس أن تنهشهم ، ومنها ما له قوائم ، ومنها تماثيل مهولة .

وعملوا له دخنا تغشى أبصار الناس عن النظر فلا يرى بعضهم بعضا ، ودخنا تظهر صورا كهيئة الثيران فى الجو على دواب يصدم بعضها بعضا ، ويسمع لها ضجيج ، وصورا خضرا على * دواب خضر ، وصورا سودا على دواب سود هائلة .

فلما رأى فرعون ذلك ، سره ما رأى هو ومن حضره ، واغتم موسى ومن آمن به ، حتى أوحى الله اليه « لا تخف انك أنت الأعلى . وألق ما فى يمينك تلقف ما صنعوا » .

وكان للسحرة ثلاثة رؤساء — ويقال بل كانوا سبعين رئيسا — فأسر اليهم موسى : قد رأيت ما صنعتم ، فان قهرتكم أتؤمنون بالله ؟ قالوا : نفعل . فغاظ فرعون مسارة موسى لرؤساء السحرة ؛ هذا والناس يسخرون من موسى وأخيه ، ويهزأون بهما وعليهما دراعتان من صوف ، وقد احتزما بليف .

فلوح موسى بعصاه حتى غابت عن الأعين ، وأقبلت فى هيئة تنين عظيم له عينان يتوقدان ، والنار تخرج من فيه ومنخريه ، فلا يقع على أحد الا برص ، ووقع من ذلك على ابنة فرعون فبرصت . وصار التنين فاغرا فاه ، فالتقط جميع ما عملته السحرة ، ومائتى مركب كانت مملوءة حبالا وعصيا وسائر من فيها من الملاحين — وكانت فى النهر الذى يتصل بدار فرعون — وابتلع عمدا كثيرة وحجارة قد كانت حملت الى هناك ليبنى بها .

ومر التنين الى قصر فرعون ليبتلعه — وكان فرعون جالسا فى قبة على جانب القصر ليشرف على عمل السحرة — فوضع نابه تحت القصر ، ورفع نابه الآخر الى أعلاه ، ولهب النار يخرج من فيه حتى أحرق مواضع من القصر ، فصاح فرعون مستغيثا بموسى عليه السلام ، فزجر موسى التنين ، فانعطف ليبتلع الناس ، ففروا كلهم من بين يديه ، وانساب يريدهم ، فأمسكه موسى ، وعاد فى يده عصا كما كان .

ولم ير الناس من تلك المراكب ، وما كان فيها من الحبال والعصى والناس ، ولا من العمد والحجارة ، وما شربه من ماء النهر حتى بانت أرضه أثرا . فعند ذلك قالت السحرة : ما هذا من عمل الآدميين ، وانما هو من فعل جبار قدير على الأشياء ! فقال

(*) ص٤٦٧ جـ٢ ، ط. بولاق .

لهم موسى : أوفوا بعهدكم ، والا سلطته عليكم يبتلعكم كما ابتلع غيركم .

فآمنوا بموسى ، وجاهروا فرعون ، وقالوا : هذا من فعل اله السماء ، وليس هذا من فعل أهل الأرض . فقال : قد عرفت أنكم قد واطأتموه علي وعلى ملكى حسدا منكم لى . وأمر فقطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف ، وصلبوا ، وجاهرته امرأته ، والمؤمن الذى كان يكتم ايمانه .

وانصرف موسى ، فأقام بمصر يدعو فرعون أحد عشر شهرا ، من شهر ايار الى شهر نيسان المستقبل ، وفرعون لايجيبه ، بل اشتد جوره على بنى اسرائيل واستعبادهم ، واتخاذهم سخريا فى مهنة الأعمال . فأصابت فرعون وقومه الجوائح العشر ، واحدة بعد أخرى ، وهو يتثبت لهم عند وقوعها ، ويفزع الى موسى فى الدعاء بانجلائها ، ثم يلح عند انكشافها ، فانها كانت عذابا من الله عز وجل عذب الله بها فرعون وقومه .

فمنها أن ماء مصر صار دما حتى هلك أكثر أهل مصر عطشا ، وكثرت عليهم الضفادع حتى وسخت جميع مواضعهم ، وقذرت عليهم عيشهم وجميع مآكلهم ، وكثر البعوض حتى حبس الهواء ومنع النسيم ، وكثر عليهم ذباب الكلاب حتى جرح أبدانهم ونغص عليهم حياتهم ، وماتت دوابهم وأغنامهم فجأة ، وعم الناس الجرب والجدرى حتى زاد منظرهم قبحا على مناظر الجذمى .

ونزل من السماء برد مخلوط بصواعق أهلك كل ما أدركه من الناس والحيوانات ، وذهب بجميع الثمار ، وكثر الجراد والجنادب التى أكلت الأشجار ، واستقصت أصول النبات ، وأظلمت الدنيا ظلمة سوداء غليظة حتى كانت من غلظها تحس بالأجسام . وبعد ذلك كله نزل الموت فجأة على بكور أولادهم ، بحيث لم يبق لأحد منهم ولد بكر الا فجع به فى تلك الليلة ، ليكون لهم فى ذلك شغل عن بنى اسرائيل .

وكانت الليلة الخامسة عشرة ، من شهر نيسان سنة احدى وثمانين لموسى ، فعند ذلك سارع فرعون الى ترك بنى اسرائيل ، فخرج موسى عليه السلام من ليلته هذه ، ومعه بنو اسرائيل ، من عين شمس .

وفى التوراة أنهم أمروا عند خروجهم أن يذبح أهل كل بيت حملا من الغنم ان كان كفايتهم ، أو يشتركوا مع جيرانهم ان كان أكثر ، وأن ينضحوا من دمه على أبوابهم ليكون علامة ، وأن يأكلوا شواءرأسه وأطرافه ومعاه ، ولا يكسروا منه عظما ، ولا يدعوا منه شيئا خارج البيوت ، وليكن خبزهم فطيرا ، وذلك فى اليوم الرابع عشر من فصل الربيع ، وليأكلوا بسرعة ، وأوساطهم مشدودة وخفافهم فى أرجلهم وعصيهم فى أيديهم ، ويخرجوا ليلا ، وما فضل من عشائهم ذلك أحرقوه بالنار . وشرع هذا عيدا لهم ولأعقابهم ، ويسمى هذا عيد الفصح .

وفيها أنهم أمروا أن يستعيروا منهم حليا كثيرا يخرجون به ، فاستعاروه وخرجوا فى تلك الليلة بما معهم من الدواب والأنعام ، وأخرجوا معهم تابوت يوسف عليه السلام ؛ استخرجه موسى من المدفن الذى كان فيه

بالهام من الله تعالى . وكانت عدتهم ستمائة ألف رجل محارب ، سوى النساء والصبيان والغرباء ، وشغل القبط عنهم بالمآتم التى كانوا فيها على موتاهم ، فساروا ثلاث مراحل ليلا ونهارا ، حتى وافوا الى فوهة الجبروت — وتسمى نار موسى — وهو ساحل البحر بجانب الطور .

فانتهى خبرهم الى فرعون فى يومين وليلة ، فندم بعد خروجهم ، وجمع قومه ، وخرج فى كثرة ، كفاك * عن مقدارها قول الله عز وجل ، اخبارا عن فرعون ، أنه قال عن بنى اسرائيل — وعدتهم ما قد ذكر ، على ما جاء فى التوراة — « ان هؤلاء لشرذمة قليلون . وانهم لنا لغائظون » . ولحق بهم فى اليوم الحادى والعشرين من نيسان ، فأقام العسكران ليلة الواحد والعشرين على شاطىء البحر .

وفى صبيحة ذلك اليوم ، أمر موسى أن يضرب البحر بعصاه ويقتحمه ، ففلق الله لبنى اسرائيل البحر اثنى عشر طريقا ، عبر كل سبط من طريق ، وصارت المياه قائمة عن جانبهم كأمثال الجبال ، وصير قاع البحر طريقا مسلوكا لموسى ومن معه ، وتبعهم فرعون وجنوده فلما خاض بنو اسرائيل الى عدوة الطور ، انطبق البحر على فرعون وقومه ، فأغرقهم الله جميعا ، ونجا موسى وقومه

ونزل بنو اسرائيل جميعا فى الطور ، وسبحوا مع موسى بتسبيح طويل قد ذكر فى التوراة . وكانت مريم ، أخت موسى وهارون ، تأخذ الدف بيديها ، ونساء بنى اسرائيل فى أثرها بالدفوف والطبول ، وهى ترتل التسبيح لهن ، ثم ساروا فى البر ثلاثة أيام ، وأقفرت مصر من أهلها ومر موسى بقومه ، ففنى زادهم فى اليوم الخامس من ايار ، فضجوا الى موسى ، فدعا ربه ، فنزل لهم المن من السماء ، فلما كان اليوم الثالث والعشرون من أيار عطشوا وضجوا الى موسى ، فدعا ربه ، ففجر له عينا من الصخرة .

ولم يزل يسير بهم حتى وافوا طور سينين غرة الشهر الثالث لخروجهم من مصر ، فأمر الله موسى بتطهير قومه ، واستعدادهم لسماع كلام الله سبحانه ، فطهرهم ثلاثة أيام فلما كان فى اليوم الثالث — وهو السادس من الشهر — رفع الله الطور ، وأسكنه نوره ، وظلل حواليه بالغمام ، وأظهر فى الآفاق الرعود والبروق والصواعق ، وأسمع القوم من كلامه عشر كلمات ، وهى : « أنا الله ربكم واحد ، لا يكن لكم معبود من دونى ، لا تحلف باسم ربك كاذبا ، اذكر يوم السبت واحفظه ، بر والديك وأكرمهما ، لا تقتل النفس ، لا تزن ، لا تسرق ، لا تشهد بشهادة زور ، لا تحسد أخاك فيما رزقه » .

فصاح القوم وارتعدوا ، وقالوا لموسى : لا طاقة لنا باستماع هذا الصوت العظيم ، كن السفير بيننا وبين ربنا ، وجميع ما يأمرنا به سمعنا وأطعنا .

فأمرهم بالانصراف ، وصعد موسى الى الجبل فى اليوم الثانى عشر ، فأقام فيه أربعين يوما ، ودفع الله اليه اللوحين الجوهر المكتوب عليهما العشر كلمات ، ونزل فى اليوم الثانى

(*) ص٤٦٨ جـ٢ ، ط. بولاق .

والعشرين من شهر تموز ، فرأى العجل ، فارتفع الكتاب وثقلا على يديه ، فألقاهما وكسرهما ، ثم برد العجل وذراه على الماء ، وقتل من القوم من استحق القتل .

وصعد الى الجبل فى اليوم الثالث والعشرين من تموز ، ليشفع فى الباقين من القوم ، ونزل فى اليوم الثانى من أيلول بعد الوعد من الله له بتعويضه لوحين آخرين مكتوبا عليهما ما كان فى اللوحين الأولين . فصعد الى الجبل ، وأقام أربعين ليلة أخرى ، وذلك من ثالث أيلول الى اليوم الثانى عشر من تشرين .

ثم أمره الله باصلاح القبة ، وكان طولها ثلاثين ذراعا فى عرض عشرة أذرع ، وارتفاع عشرة أذرع ، ولها سرادق مضروب حواليها مائة ذراع فى خمسين ذراعا ، وارتفاع خمسة أذرع فأخذ القوم فى اصلاحها ، وما ترين به من السنور من الذهب والفضة والجواهر ، ستة أشهر الشتاء كله ولما فرغ منها نصبت فى اليوم الأول من نيسان فى أول السنة الثانية .

ويقال ان موسى عليه السلام حارب هنالك العرب ، مثل طسم وجديس والعماليق وجرهم وأهل مدين ، حتى أفناهم جميعا ، وانه وصل الى جبل فاران ، وهو مكة ، فلم ينج منهم الا من اعتصم بملك اليمن ، أو انتمى الى بنى اسماعيل عليه السلام .

وفى ثلثى الشهر الباقى من هذه السنة ، ظعن القوم فى برية الطور بعد أن نزلت عليهم التوراة ، وجملة شرائعها ستمائة وثلاث عشرة شريعة .

وفى آخر الشهر الثالث حرمت عليهم أرض الشام أن يدخلوها ، وحكم الله تعالى عليهم أن يتيهوا فى البرية أربعين سنة لقولهم نخاف أهلها لأنهم جبارون . فأقاموا تسع عشرة سنة فى رقيم ، وتسع عشرة سنة فى أحد وأربعين موضعا مشروحة فى التوراة .

وفى اليوم السابع من شهر أيلول من السنة الثانية ، خسف الله بقارون وبأوليائه — بدعاء موسى عليه السلام عليهم — لما كذبوا . وفى شهر نيسان من السنة الأربعين ، توفيت مريم ابنة عمران ، أخت موسى عليه السلام ، ولها مائة وست وعشرون سنة وفى شهر آب منها ، مات هارون عليه السلام ، وله مائة وثلاث وعشرون سنة .

ثم كان حرب الكنعانيين وسيحون ، والعوج صاحب البثنية من أرض حوران ، فى الشهور التى بعد ذلك الى شهر شباط فلما أهل شباط أخذ موسى فى اعادة التوراة على القوم ، وأمر بكتب نسختها وقراءتها ، وحفظ ما شاهدوه من آثاره ، وما أخذوه عنه من الفقه ، وكان نهاية ذلك فى اليوم السادس من آذار .

وقال لهم فى اليوم السابع منه : انى فى يومى هذا استوفيت عشرين ومائة سنة ، وان الله قد عرفنى أنه يقبضنى فيه ، وقد أمرنى أن أستخلف عليكم يوشع بن نون ، ومعه السبعون رجلا الذين اخترتهم قبل هذا الوقت ، ومعهم العازر بن هارون * أخى ، فاسمعوا له وأطيعوا ، وأنا أشهد عليكم الله

(*) ص٤٦٦ جـ٢ ، ط. بولاق .

الذى لا اله الا هو والأرض والسموات أن نعبدوا الله ، ولا تشركوا به شيئا ، ولا تبدلوا شرائع التوراة بغيرها .

ثم فارقهم ، وصعد الجبل ، فقبضه الله تعالى هنالك ، وأخفاه ، ولم يعلم أحد منهم قبره ، ولا شاهده . وكان بين وفاة موسى وبين الطوفان ألف وستمائة وست وعشرون سنة ، وذلك في أيام منوجهر ملك الفرس .

وزعم قوم أن موسى كان ألثغ : فمنهم من جعل ذلك خلقة ، ومنهم من زعم أنه انما اعتراه حين قالت امرأة فرعون لفرعون : لا تقتل طفلا لا يعرف الجمر من التمر . فلما دعا له فرعون بهما جميعا ، تناول جمرة فأهوى بها الى فيه ، فاعتراه من ذلك ما اعتراه . وذكر محمد بن عمر الواقدى أن لسان موسى كانت عليه شامة فيها شعرات ، ولا يدل القرآن على شيء من ذلك ، فليس في قوله تعالى « واحلل عقدة من لسانى » دليل على شيء من ذلك دون شيء .

فأقاموا بعده ثلاثين يوما يبكون عليه ، الى أن أوحى الله تعالى الى يوشع بن نون بترحيلهم ، فقادهم وعبر بهم الأردن فى اليوم العاشر من نيسان ، فوافوا أريحا ، فكان منهم ما هو مذكور فى مواضعه . فهذه جملة خبر موسى عليه السلام .

«كنيسة جوجر» : هذه الكنيسة من أجل كنائس اليهود . ويزعمون أنها تنسب لنبى الله الياس عليه السلام ، وأنه ولد بها ، وكان يتعاهدها في طول اقامته بالأرض الى أن رفعه الله اليه .

« الياس » : هو فينحاس بن العازر بن هارون عليه السلام ، ويقال الياسين بن ياسين عيزار بن هارون ، ويقال هو الياهو — وهى عبرانية معناها قادر أزلى — وعرب فقيل الياس .

ويذكر أهل العلم من بنى اسرائيل أنه ولد بمصر ، وخرج به أبوه العازر من مصر مع موسى عليه السلام وعمره نحو الثلاث سنين ، وأنه هو الخضر الذى وعده الله بالحياة ، وأنه لما خرج بلعام بن باعورا ليدعو على موسى صرف الله لسانه حتى يدعو على نفسه وقومه .

وكان من زنى بنى اسرائيل بنساء الأمورانيين وأهل مواب ما كان ، فغضب الله تعالى عليهم ، وأوقع فيهم الوباء ، فمات منهم أربعة وعشرون ألفا ... الى أن هجم فينحاس هذا على حباء فيه رجل على امرأة يزنى بها ، فنظمهما جميعا برمحه ، وخرج وهو رافعهما ، وشهرهما غضبا لله ، فرحمهم الله سبحانه ، ورفع عنهم الوباء وكانت له أيضا آثار مع نبى الله يوشع بن نون ، ولما مات يوشع قام من بعده فينحاس هذا هو وكالاب ابن يوفنا ، فصار فينحاس اماما ، وكالاب يحكم بينهم .

وكانت الأحداث فى بنى اسرائيل ، فساح الياس ، ولبس المسوح ، ولزم القفار ، وقد وعده الله عز وجل فى التوراة بدوام السلامة فأول ذلك بعضهم بأنه لا يموت فامتد عمره الى أن ملك يهوشافاط بن أسا بن أفيا بن رحبعم بن سليمان بن داود ، عليهما السلام ،

على سبط يهودا فى بيت المقدس ، وملك أحؤب بن عمرى على الأسباط من بنى اسرائيل بمدينة شمرون المعروفة اليوم بنابلس .

وساءت سيرة أحؤب حتى زادت فى القبح على جميع من مضى قبله من ملوك بنى اسرائيل ، وكان أشدهم كفرا ، وأكثرهم ركونا للمنكر ، بحيث أربى فى الشر على أبيه وعلى سائر من تقدمه ، وكانت له امرأة يقال لها سيصيال ابنة أشاعل ملك صيدا ، أكفر منه بالله وأشد عتوا واستكبارا ، فعبدا وثن بعل الذى قال له فيه جل ذكره : « أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين . الله ربكم ورب آبائكم الأولين » ، وأقاما له مذبحا بمدينة شمرون .

فأرسل الله عز وجل الى أحؤب عبده الياس رسولا لينهاه عن عبادة وثن بعل ، ويأمره بعبادة الله تعالى وحده ، وذلك قول الله عز وجل من قائل : « وان الياس لمن المرسلين . اذ قال لقومه ألا تتقون . أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين . الله ربكم ورب آبائكم الأولين . فكذبوه ... » ، ولما أيس من ايمانهم بالله وتركهم عبادة الوثن ، أقسم فى مخاطبته أحؤب ألا يكون مطر ولا ندى ، ثم تركه .

فأمره الله سبحانه أن يذهب ناحية الأزدن . فمكث هناك مختفيا — وقد منع الله قطر السماء حتى هلكت البهائم وغيرها — فلم يزل الياس مقيما فى استتاره الى أن جف ما كان عنده من الماء . وفى طول اقامته كان الله جل جلاله يبعث اليه بغربان تحمل له الخبز واللحم ، فلما جف ماؤه الذى كان يشرب منه لامتناع المطر ، أمره الله أن يسير الى بعض مدائن صيدا .

فخرج حتى وافى باب المدينة ، فاذا امرأة تحتطب ، فسألها ماء يشربه وخبزا يأكله ، فأقسمت له أن ما عندها الا مثل غرفة دقيق فى اناء وشىء من زيت فى جرة ، وأنها تجمع الحطب لتقتات منه هى وابنها . فبشرها الياس عليه السلام ، وقال لها : لا تجزعى وافعلى ما قلت لك ، واعملى لى خبزا قليلا قبل أن تعملى لنفسك ولولدك ، فان الدقيق لا يعجز من الاناء ولا الزيت من الجرة حتى ينزل المطر ، ففعلت ما أمرها به ، وأقام عندها ، فلم ينقص الدقيق ولا الزيت بعد ذلك . الى أن مات ولدها ، وجزعت عليه ، فسأل الياس ربه تعالى فأحيا الولد .

وأمره الله أن يسير الى أحؤب ملك بنى اسرائيل لينزل المطر عند اخباره له بذلك ، فسار اليه ، وقال له : اجمع بنى (*) اسرائيل وأبناء بعال . فلما اجتمعوا قال لهم الياس : الى متى هذا الضلال ؟ ان كان الرب الله فاعبدوه ، وان كان بعال هو الله ، فارجعوا بنا اليه . وقال : ليقرب كل منا قربانا ، فأقرب أنا لله ، وقربوا أنتم لبعال ، فمن تقبل منه قربانه ، ونزلت نار من السماء فأكلته ، فالهه الذى يعبد .

فلما رضبوا بذلك ، أحضروا ثورين ، واختاروا أحدهما وذبحوه ، وصاروا ينادون عليه : يال بعال ، يال بعال ، والياس يسخر بهم ويقول : لو رفعتم أصواتكم قليلا فلعل

(*) ص٤٧٠ جـ٢ ، ط. بولاق .

الهيكم نائم أو مشغول . وهم يصرخون ويجرحون أيديهم بالسكاكين ودماؤهم تسيل ، فلما أيسوا من أن تنزل النار وتأكل قربانهم ، دعا الياس القوم الى نفسه ، وأقام مذبحا ، وذبح ثوره وجعله على المذبح ، وصب الماء فوقه ثلاث مرات ، وجعل حول المذبح خندقا محفورا . فلم يزل يصب الماء فوق اللحم حتى امتلأ الخندق من الماء ، وقام يدعو الله عز اسمه ، وقال فى دعائه : اللهم أظهر لهذه الجماعة أنك الرب ، وأنى عبدك عامل بأمرك . فأنزل الله سبحانه نارا من السماء أكلت القربان ، وحجارة المذبح التى كان فوقها اللحم ، وجميع الماء الذى صب حوله .

فسجد القوم أجمعون ، وقالوا : نشهد أن الرب الله ، فقال الياس : خذوا أبناء بعال ، فأخذوا وجىء بهم ، فذبحهم كلهم ذبحا ، وقال لأحوب : انزل وكل واشرب ، فان المطر نازل ، فنزل المطر على ما قال .

وكان الجهد قد اشتد ، لانقطاع المطر مدة ثلاث سنين وأشهر ، وغزر المطر حتى لم يستطع أحوب أن ينصرف لكثرته ، فغضبت سيصيال ، امرأة أحوب ، لقتل أبناء بعال ، وحلفت بآلهتها لتجعلن روح الياس عوضهم .

ففزع الياس ، وخرج الى المفاوز وقد اغتم غما شديدا ، فأرسل الله اليه ملكا معه خبز ولحم وماء ، فأكل وشرب ، وقواه الله حتى مكث بعد هذه الأكلة أربعين يوما لا يأكل ولا يشرب . ثم جاءه الوحى بأن يمضى الى دمشق ، فسار اليها ، وصحب اليسع بن شابات — ويقال بن حظور — فصار تلميذه . فخرج من أريحا ومعه اليسع حتى وقف على الأردن ، فنزع رداءه ولفه ، وضرب به ماء الأردن ، فافترق الماء عن جانبيه وصار طريقا .

فقال الياس حينئذ لليسع : اسأل ما شئت قبل أن يحال بينى وبينك ، فقال اليسع : اسأل أن يكون روحك فىّ مضاعفا ، فقال : لقد سألت جسيما ، ولكن ان أبصرتنى اذا رفعت عنك يكون ما سألت ، وان لم تبصرنى لم يكن . وبينما هما يتحدثان اذ ظهر لهما كالنار فرق بينهما ، ورفع الياس الى السماء واليسع ينظره ، فانصرف وقام فى النبوة مقام الياس .

وكان رفع الياس فى زمن يهورام بن يهوشافاط ، وبين وفاة موسى عليه السلام وبين آخر أيام يهورام خمسمائة وسبعون سنة ، ومدة نبوة موسى عليه السلام أربعون سنة . فعلى هذا يكون مدة عمر الياس ، من حين ولد بمصر الى أن رفع بالأردن الى السماء ، ستمائة سنة وبضع سنين .

والذى عليه علماء أهل الكتاب ، وجماعة من علماء المسلمين ، أن الياس حى لم يمت . الا أنهم اختلفوا فيه ، فقال : بعضهم انه هو فينحاس كما تقدم ذكره ، ومنع هذا جماعة وقالوا : هما اثنان ، والله أعلم .

« كنيسة المصاصة » : هذه الكنيسة يجلها اليهود ، وهى بخط المصاصة من مدينة مصر ، ويزعمون أنها رممت فى خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وموضعها يعرف بدرب الكرمة ، وبنيت فى سنة خمس عشرة وثلثمائة للاسكندر ، وذلك قبل الملة الاسلامية بنحو ستمائة واحدى

وعشرين سنة ، ويزعم اليهود أن هذه الكنيسة كانت مجلسا لنبى الله الياس .

« كنيسة الشاميين » : هذه الكنيسة بخط قصر الشمع من مدينة مصر . وهى قديمة مكتوب على بابها بالخط العبرانى — حفرا فى الخشب — أنها بنيت فى سنة ست وثلاثين وثلثمائة للاسكندر ، وذلك قبل خراب بيت المقدس الخراب الثانى — الذى خربه طيطش — بنحو خمس وأربعين سنة ، وقبل الهجرة بنحو ستمائة سنة وبهذه الكنيسة نسخة من التوراة لا يختلفون فى أنها كلها بخط عزرا النبى ، الذى يقال له بالعربية العزير .

« كنيسة العراقيين » : هذه الكنيسة أيضا بخط قصر الشمع .

« كنيسة بالجودرية » . هذه الكنيسة بحارة الجودرية من القاهرة . وهى خراب منذ أحرق الخليفة الحاكم بأمر الله حارة الجودرية على اليهود ، كما تقدم ذكر ذلك فى الحارات ، فانظره .

« كنيسة القرائين » : هذه الكنيسة كان يسلك اليها من تجاه باب سر المارستان المنصورى فى حدرة ينتهى اليها بحارة زويلة ، وقد سدت الخوخة التى كانت هناك ، فصار لا يتوصل اليها الا من حارة زويلة . وهى كنيسة تختص بطائفة اليهود القرائين .

« كنيسة دار الحدرة » : هذه الكنيسة بحارة زويلة ، فى درب يعرف الآن بدرب الرايض ، وهى من كنائس ... ... [1] *

(*) ص٤٧١ جـ٢ ، ط. بولاق .

(1) هكذا بياض فى الأصل .

« كنيسة الربانيين » : هذه الكنيسة بحارة زويلة ، بدرب يعرف الآن بدرب البادين ، يسلك منه الى تجاه السبع قاعات والى سويقة المسعودى وغيرها وهى كنيسة تختص بالربانيين من اليهود .

« كنيسة ابن شميخ » . هذه الكنيسة بجوار المدرسة العاشورية من حارة زويلة . وهى مما يختص به طائفة القرائين .

« كنيسة السمرة » هذه الكنيسة بحارة زويلة ، فى خط درب ابن الكورانى ، تختص بالسمرة .

وجميع كنائس القاهرة المذكورة محدثة فى الاسلام بلا خلاف .

ذكر تاريخ اليهود وأعيادهم

قد كانت اليهود أولا تؤرخ بوفاة موسى عليه السلام ، ثم صارت تؤرخ بتاريخ الاسكندر بن فيلبش . وشهور سنتهم اثنا عشر شهرا ، وأيام السنة ثلثمائة وأربعة وخمسون يوما . فأما الشهور فانها : تشرى ، مرحشوان ، كسليو ، طبيث ، شفط ، آذر ، نيسن ، أيار ، سيوان ، تموز ، آب ، أيلول .

وأيام سنتهم أيام سنة القمر ، ولو كانوا يستعملونها على حالها لكانت أيام سنتهم وعدد شهورهم شيئا واحدا ، ولكنه لما خرج بنو اسرائيل من مصر مع موسى عليه السلام الى التيه ، وتخلصوا من عذاب فرعون وما كانوا فيه من العبودية ، وائتمروا بما أمروا به — كما وصف فى السفر الثانى من التوراة — اتفق ذلك ليلة اليوم الخامس

عشر من نيسن ، والقمر تام الضوء ، والزمان ربيع .

فأمروا بحفظ هذا اليوم ، كما قال فى السفر الثانى من التوراة : احفظوا هذا اليوم سنة ، لخلوفكم الى الدهر فى أربعة عشر من الشهر الأول وليس معنى الشهر الأول هذا شهر تشرى ، ولكنه عنى به شهر نيسن ، من أجل أنهم أمروا أن يكون شهر الناسخ رأس شهورهم ، ويكون أول السنة .

فقال موسى عليه السلام للشعب : اذكروا اليوم الذى خرجتم فيه من التعبد ، فلا تأكلوا خميرا فى هذا اليوم ، فى الشهر الذى ينضر فيه الشجر فلذلك اضطروا الى استعمال سنة الشمس ، ليقع اليوم الرابع عشر من شهر نيسن فى أوان الربيع حين تورق الأشجار وتزهو الثمار ، والى استعمال سنة القمر ليكون جرمه فيه بدرا تام الضوء فى برج الميزان .

وأحوجهم ذلك الى الحاق الأيام التى يتقدم بها عن الوقت المطلوب بالشهور اذا اسوفيت أيام شهر واحد ، فألحقوها بها شهرا تاما سموه آذار الأول سموا آذار الأصل آذار الثانى لأنه ردف سميا له وتلاه ، وسموا السنة الكبيسة « عبورا » اشتقاقا من معبار ، وهى المرأة الحبلى بالعبرانية ، لأنهم شبهوا دخول الشهر الزائد فى السة بحمل المرأة ما ليس من جملتها ، ولهم فى استخراج ذلك حسابات كثيرة مذكورة فى الأزياج .

وهم فى عمل الأشهر مفترقون فرقتين :

احداهما الربانية : واستعمالهم اياها على وجه الحساب بمسير الشمس والقمر الوسط ، سواء رؤى الهلال أو لم ير ، فان الشهر عندهم هو مدة مفروضة تمضى من لدن الاجتماع الكائن بين الشمس والقمر فى كل شهر . وذلك أنهم كانوا — وقت عودهم من الجالية ببابل الى بيت المقدس — ينصبون على رؤوس الجبال دبادب ، ويقيمون رقباء للفحص عن الهلال ، وألزموهم بايقاد النار ، وتدخين دخان يكون علامة لحصول الرؤية .

وكانت بينهم وبين السامرة العداوة المعروفة فذهبت السامرة ، ورفعوا الدخان فوق الجبل قبل الرؤية بيوم ، ووالوا بين ذلك شهورا اتفق فى أوائلها أن السماء كانت متغيمة ... حتى فطن لذلك من فى بيت المقدس ، ورأوا الهلال غداة اليوم الرابع أو الثالث من الشهر مرتفعا عن الأفق من جهة المشرق ، فعرفوا أن السامرة فتنتهم ، فالتجأوا الى أصحاب التعاليم فى ذلك الزمان ليأمنوا بما يتلقونه من حسابهم مكايد الأعداء ، واعتلوا لجواز العمل بالحساب ، ونيابته عن العمل بالرؤية ، بعلل ذكروها . فعمل أصحاب الحساب لهم الأدوار ، وعلموهم استخراج الاجتماعات ورؤية الهلال .

وأنكر بعض الربانية حديث الرقباء ورفعهم الدخان ، وزعموا أن سبب استخراج هذا الحساب هو أن علماءهم علموا أن آخر أمرهم الى الشتات ، فخافوا اذا تفرقوا فى الأقطار ، وعولوا على الرؤية ، أن تختلف عليهم فى البلدان المختلفة ، فيتشاجروا ، فلذلك

استخرجوا هذه الحسابات ، واعتنى بها اليعازر بن فروح ، وأمروهم بالتزامها والرجوع اليها حيث كانوا .

والفرقة الثانية هم المبادية [1] الذين يعلمون مبادي الشهور من الاجتماع ، ويسمون القراء والأسمعية ، لأنهم يراعون العمل بالنصوص دون الالتفات الى النظر والقياس . ولم يزالوا على ذلك الى أن قدم عانان رأس الجالوت من بلاد المشرق ، فى نحو الأربعين ومائة من الهجرة ، الى دار السلام بالعراق ، فاستعمل الشهور برؤية الأهلة ، على مثل ما شرع فى الاسلام ، ولم يبال * أى يوم وقع من الأسبوع ، وترك حساب الربانيين ، وكبس الشهور بأن نظر كل سنة الى زرع الشعير بنواحى العراق والشام ، فيما بين أول شهر نيسن الى أن يمضى منه أربعة عشر يوما ، فان وجد باكورة تصلح للفريك والحصاد ترك السنة بسيطة ، وان وجدها لم تصلح لذلك كبسها حينئذ .

وتقدمت المعرفة بهذه الحالة أن من أخذ برأيه يخرج لسبعة تبقى من شفط ، فينظر بالشام والبقاع المشابهة له فى المزاج الى زرع الشعير ، فان وجد السفا — وهو شوك السنبل — قد طلع عد منه الى الفاسح خمسين يوما ، وان لم يره طالعا كبسها بشهر : فبعضهم يردف الكبس بشفط ، فيكون فى السنة شفط وشفط مرتين ، وبعضهم يردفه بآذر ، فيكون آذر وآذر فى السنة مرتين . وأكثر استعمال العانانية لشفط دون آذر ، كما أن الربانية تستعمل آذر دون غيره ، فمن يعتمد من الربانية عمل الشهور بالحساب ، يقول ان شهر تشرى لا يكون أوله يوم الأحد والأربعاء ، وعدته عندهم ثلاثون يوما أبدا ، وفيه عيد رأس السنة ، وهو عيد البشارة بعتق الأرقاء ، وهذا العيد فى أول يوم منه .

ولهم أيضا فى اليوم العاشر منه صوم الكبور ، ومعناه الاستغفار . وعند الربانيين أن هذا الصوم لا يكون أبدا يوم الأحد ولا الثلاثاء ولا الجمعة ، وعند من يعتمد فى الشهور الرؤية أن ابتداء هذا الصوم من غروب الشمس فى ليلة العاشر الى غروبها من ليلة الحادى عشر ، وذلك أربع وعشرون ساعة . والربانيون يجعلون مدة الصوم خمسا وعشرين ساعة الى أن تشتبك النجوم ، ومن لم يصم منهم هذا الصوم قتل شرعا ، وهم يعتقدون أن الله يغفر لهم فيه جميع الذنوب ، ما خلا الزنا بالمحصنات ، وظلم الرجل أخاه ، وجحد الربوبية .

وفيه أيضا عيد المظلة ، وهو سبعة أيام ، يعيدون فى أولها ، ولا يخرجون من بيوتهم كما هو العمل يوم السبت . وعدة أيام المظلة الى آخر اليوم الثانى والعشرين تمام سبعة أيام ، واليوم الثامن يقال له عيد الاعتكاف ، وهم يجلسون فى هذه الأيام السبعة — التى أولها خامس عشر تشرى — تحت ظلال سعف النخل الأخضر وأغصان الزيتون ، ونحوها من الأشجار التى لا يتناثر ورقها على الأرض ، ويرون أن ذلك تذكار منهم لاظلال

(*) ص٤٧٢ جـ٢ ، ط. بولاق .

(1) فى الاصل « الميلادية » ، وقد جاءت صحيحة فيما بعد .

الله آباءهم فى التيه بالغمام . وفيه أيضا ، عند القرائين خاصة ، صوم فى اليوم الرابع والعشرين منه ، يعرف بصوم كدليا ، وعند الربانيين يكون هذا الصوم فى ثالثه .

وشهر مرحشوان ربما كان ثلاثين يوما ، وربما كان تسعة وعشرين يوما ، وليس فيه عيد .

وكسليو ربما كان ثلاثين يوما ، وربما كان تسعة وعشرين يوما ، وليس فيه عيد ، الا أن الربانيين يسرجون على أبوابهم ليلة الخامس والعشرين منه ، وهو مدة أيام يسمونها الحنكة ، وهو أمر محدث عندهم .

وذلك أن بعض الجبابرة تغلب على بيت المقدس ، وقتل من كان فيه من بنى اسرائيل ، وافتض أبكارهم . فوثب عليه أولاد كاهنهم — وكانوا ثمانية — فقتله أصغرهم ، وطلب اليهود زيتا لوقود الهيكل ، فلم يجدوا الا يسيرا وزعوه على عدد ما يوقدونه من السرج فى كل ليلة الى ثمان ليال ، فاتخذوا هذه الأيام عيدا ، وسموها أيام الحنكة ، وهى كلمة مأخوذة من التنظيف ، لأنهم نظفوا فيها الهيكل من أقذار أشياع ذلك الجبار . والقراء لا يعملون ذلك ، لأنهم لا يعولون على شىء من أمر البيت الثانى .

وشهر طبيث عدد أيامه تسعة وعشرون يوما . وفى عاشره صوم ، سببه أنه فى ذلك اليوم كان ابتداء محاصرة بخت نصر لمدينة بيت المقدس ، ومحاصرة طيطش لها أيضا فى الخراب الثانى .

وشفط أيامه أبدا ثلاثون يوما ، وليس فيه عيد .

وشهر آذر عند الربانيين — كما تقدم — يكون مرتين فى كل سنة : فآذر الأول عدد أيامه ثلاثون يوما ان كانت السنة كبيسة ، وان كانت بسيطة فأيامه تسعة وعشرون يوما ، وليس فيه عيد عندهم . وآذر الثانى أيامه تسعة وعشرون يوما أبدا ، وفيه عند الربانيين صوم الفوز فى اليوم الثالث عشر منه ، والفوز فى اليوم الرابع عشر واليوم الخامس عشر .

وأما القراءون فليس عندهم فى السنة شهر آذر سوى مرة واحدة ، ويجعلون صوم الفوز فى ثالث عشره ، وبعده الى الخامس عشره .

وهذا أيضا محدث . وذلك أن بخت نصر لما أجلى بنى اسرائيل من بيت المقدس وخربه ، ساقهم جلاية الى بلاد العراق ، وأسكنهم فى مدينة جى التى يقال لها أصبهان . فلما ملك أزدشير بن بابك ملك الفرس — وتسميه اليهود أحشوارش — كان له وزير يسمى هيمون ، وكان لليهود حينئذ حبر يقال له مردوخاى ، فبلغ أزدشير أن له ابنة عم جميلة الصورة ، فتزوجها وحظيت عنده ، واستدنى مردوخاى ابن عمها وقربه .

فحسده الوزير هيمون ، وعمل على هلاكه وهلاك اليهود الذين فى مملكة أزدشير ، ورتب مع نواب أزدشير فى سائر أعماله أن يقتلوا كل يهودى عندهم فى يوم عينه لهم ، وهو الثالث عشر من آذر ، فبلغ ذلك

مردوخاي ، فأعلم ابنة عمه بما دبره الوزير ، وحثها على اعمال الحيلة فى تخليص قومها من من الهلكة . فأعلمت أزدشير بحسد الوزير لمردوخاى على قربه من الملك واكرامه ، وما كتب به الى العمال من قتل اليهود ، وما زالت به تغريه على الوزير الى أن أمر بقتله وقتل أهله ، وكتب * لليهود آمانا .

فاتخذ اليهود هذا اليوم من كل سنة عيدا ، وصاموه شكرا لله تعالى ، وجعلوا من بعده يومين اتخذوهما أيام فرح وسرور ولهو ومهاداة من بعضهم لبعض ، وهم على ذلك الى اليوم . وربما صور بعضهم فى هذا اليوم صورة هيمون الوزير ، وهم يسمونه هامان ، فاذا صوروه ألقوه بعد العبث به فى النار حتى يحترق .

وشهر نيسن عدد أيامه ثلاثون يوما أبدا . وفيه عيد الفاسح ، الذى يعرف اليوم عند النصارى بالفسح ، ويكون فى الخامس عشر منه ، وهو سبعة أيام يأكلون فيها الفطير ، وينظفون بيوتهم ، من أجل أن الله سبحانه خلص بنى اسرائيل من أسر فرعون فى هذه الأيام ، حتى خرجوا من مصر مع نبى الله موسى بن عمران عليه السلام ، وتبعهم فرعون فأغرقه الله ومن معه ، وسار موسى ببنى اسرائيل الى التيه

ولما خرجوا من مصر مع موسى ، كانوا يأكلون اللحم والخبز والفطير ، وهم فرحون بخلاصهم من يد فرعون ، فأمروا باتخاذ الفطير وأكله فى هذه الأيام ، ليذكروا ما من

الله عليهم به من انقاذهم من العبودية ، وفى آخر هذه الأيام السبعة كان غرق فرعون ، وهو عندهم يوم كبير ولا يكون أول هذا الشهر عند الربانيين أبدا يوم الاثنين ، ولا يوم الأربعاء ولا يوم الجمعة ، ويكون أول الخمسينيات من نصفه .

وشهر ايار عدد أيامه تسعة وعشرون يوما . وفيه عيد الموقف ، وهو حج الأسابيع ، وهى الأسابيع التى فرضت على بنى اسرائيل فيها الفرائض . ويقال لهذا العيد فى زمننا عيد العنصرة ، وعيد الخطاب ، ويكون بعد عيد الفطير ، وفيه خوطب بنو اسرائيل فى طور سيناء ، ويكون هذا العيد فى السادس منه ، وفيه أيضا يوم الخميس ، وهو آخر الخمسينيات . ولا يكون عيد العنصرة عند الربانيين أبدا يوم الثلاثاء ، ولا يوم الخميس ولا يوم السبت .

وشهر تموز أيامه تسعة وعشرون يوما . وليس فيه عيد ، لكنهم يصومون فى تاسعه لأن فيه هدم سور بيت المقدس عند محاصرة بخت نصر له . والربانيون خاصة يصومون يوم السابع عشر منه ، لأن فيه هدم طيطش سور بيت المقدس ، وخرب البيت الخراب الثانى .

وشهر آب ثلاثون يوما وفيه عند القرائين صوم فى اليوم السابع واليوم العاشر ، لأن بيت المقدس خرب فيهما على يد بخت نصر . وفيه أيضا كان اطلاق بخت نصر النار فى مدينة القدس وفى الهيكل ويصوم الربانيون اليوم التاسع منه ، لأن فيه خرب البيت على يد طيطش الخراب الثانى

(*) ص٤٧٣ ج٢ ، ط. بولاق .

وشهر أيلول تسعة وعشرون يوما أبدا ، وليس فيه عيد . والله تعالى أعلم

ذكر معنى قولهم يهودي

اعلم أن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم ، صلوات الله عليهم أجمعين ، سماه الله اسرائيل ، ومعنى ذلك الذى رأسه القادر ، وكان له من الولد اثنا عشر ذكرا ، يقال لكل واحد منهم سبط ويقال لمجموعهم الأسباط ، وهذه أسماؤهم . روبيل ، وشمعون ، ولاوى ، ويهوذا ، ويساخر ، وزبولون — والستة أشقاء . أمهم ليا بنت لابان بن بتويل ابن ناحور ، أخي ابراهيم الخليل — وكان ، وأشار ، ودان ، ونفتالي ، ويوسف ، وبنيامين

فلما كبر هؤلاء الأسباط الاثنا عشر ، قدم عليهم أبوهم يعقوب — وهو اسرائيل — ابنه يهوذا ، وجعله حاكما على اخوته الأحد عشر سبطا ، فاستمر رئيسا وحاكما على اخوته الى أن مات ، فورثت أولاد يهوذا رياسة الأسباط من بعده . الى أن أرسل الله تعالى موسى بن عمران بن قاهات بن لاوى بن يعقوب الى فرعون ، بعد وفاة يوسف بن يعقوب عليهما السلام بمائة وأربع وأربعين سنة ، وهم رؤساء الأسباط .

فلما نجى الله موسى وقومه بعد غرق فرعون ومن معه ، رتب عليه السلام بنى اسرائيل الاثنى عشر سبطا أربع فرق ، وقدم على جميعهم سبط يهوذا . فلم يزل سبط يهوذا مقدما على سائر الأسباط أيام حياة موسى عليه السلام وأيام حياة يوشع بن نون

فلما مات يوشع سأل بنو اسرائيل الله تعالى ، وابتهلوا اليه فى قبة الشمشار أن يقدم عليهم واحدا منهم ، فجاء الوحى من الله بتقديم عثنيآل بن قناز من سبط يهوذا ، فتقدم على سائر الأسباط ، وصار بنو يهوذا مقدمين على سائر الأسباط من حينئذ .

الى أن ملك الله على بنى اسرائيل نبيه داود — وهو من سبط يهوذا — فورث ملك بنى اسرائيل من بعده ابنه سليمان بن داود عليهما السلام . فلما مات سليمان افترق ملك بنى اسرائيل من بعده ، وصار لمدينة شمرون — التى يقال لها اليوم نابلس — عشرة أسباط ، وبقى بمدينة القدس سبطان : هما سبط يهوذا ، وسبط بنيامين .

وكان يقال لسكان شمرون بنو اسرائيل ، ويقال لسكان القدس بنو يهوذا . الى أن انقرضت دولة بنى اسرائيل من مدينة شمرون بعد مائتين واحدى وخمسين سنة ، فصاروا كلهم بالقدس تحت طاعة الملوك من بنى يهوذا الى أن قدم بخت نصر وخرب القدس ، وجلا جميع بنى اسرائيل الى بابل ، فعرفوا هناك بين الأمم ببنى يهوذا .

واستمر هذا سمة لهم بين الأمم بعد ذلك . الى أن * جاء الله بالاسلام ، فكان يقال للواحد منهم « يهوذى » بذال معجمة نسبة الى سبط يهوذا ، وتلاعب العرب بذلك على عادتهم فى التلاعب بالأسماء المعجمة ، وقالوها بدال مهملة ، وسموا طائفة بنى اسرائيل اليهود ، وبهذه اللغة نزل القرآن . ويقال ان

(*) ص٤٧٤ جـ٢ ، ط. بولاق .

أول من سمى بنى اسرائيل اليهود بخت نصر ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون .

ذكر معتقد اليهود وكيف وقع عندهم التبديل

اعلم أن الله سبحانه لما أنزل التوراة على نبيه موسى عليه السلام ، ضمنها شرائع الملة الموسوية ، وأمر فيها أن يكتب لكل من يلى أمر بنى اسرائيل كتاب يتضمن أحكام الشريعة لينظر فيه ، ويعمل به ، وسمى هذا الكتاب بالعبرانية « مشنا » ، ومعناه استخراج الأحكام من النص الالهى ، وكتب موسى عليه السلام بخط يده « مشنا » كأنه تفسير لما فى التوراة من الكلام الالهى .

فلما مات موسى عليه السلام ، وقام من بعده بأمر بنى اسرائيل يوشع بن نون ومن بعده . الى أن كانت أيام يهوياقيم ملك القدس ، غزاهم بخت نصر الغزوة الأولى وهم يكتبون لكل من ملكهم « مشنا » ، ينقلونها من المشنا التى بخط موسى ، ويجعلونها باسمه . فلما جلا بخت نصر يهوياقيم الملك ، ومعه أعيان بنى اسرائيل وكبراء بيت المقدس — وهم فى زيادة على عشرة آلاف نفس — ساروا ، ومعهم نسخ المشنا التى كتبت لسائر ملوك بنى اسرائيل بأجمعها ، الى بلاد المشرق .

فلما سار بخت نصر من بابل الكرة الثانية لغزو القدس ، وخربه ، وجلا جميع من فيه وفى بلاد بنى اسرائيل من الأسباط الاثنى عشر ، الى بابل ، أقاموا بها ، وبقى القدس خرابا لا ساكن فيه مدة سبعين سنة ، ثم عادوا من بابل بعد سبعين سنة ، وعمروا القدس ، وجددوا بناء البيت ثانيا ، ومعهم جميع نسخ المشنا التى خرجوا بها أولا .

فلما مضت من عمارة البيت الثانى بعد الجلاية ثلثمائة ونيف من السنين ، اختلف بنو اسرائيل فى دينهم اختلافا كثيرا ، فخرج طائفة من آل داود عليه السلام من بيت المقدس ، وساروا الى الشرق كما فعل آباؤهم أولا ، وأخذوا معهم نسخا من المشنا التى كتبت للملوك من مشنا موسى التى بخطه ، وعملوا بما فيها ببلاد الشرق من حين خرجوا من القدس الى أن جاء الله بدين الاسلام ، وقدم عانان رأس الجالوت من المشرق الى العراق ، فى خلافة أمير المؤمنين أبى جعفر المنصور ، سنة ست وثلاثين ومائة من سنى الهجرة المحمدية

وأما الذين أقاموا بالقدس من بنى اسرائيل بعد خروج من ذكرنا الى الشرق من آل داود فانهم لم يزالوا فى افتراق واختلاف فى دينهم الى أن غزاهم طيطش ، وخرب القدس الخراب الثانى — بعد قتل يحيى بن زكريا ، ورفع المسيح عيسى بن مريم عليهما السلام — وسبى جميع من فيه وفى بلاد بنى اسرائيل بأسرهم ، وغيب نسخ المشنا التى كانت عندهم ، بحيث لم يبق معهم من كتب الشريعة سوى التوراة وكتب الأنبياء .

وتفرق بنو اسرائيل من وقت تخريب طيطش بيت المقدس فى أقطار الأرض ، وصاروا ذمة الى يومنا هذا . ثم ان رجلين ممن تأخر الى قبيل تخريب القدس — يقال لهما شماى وهلال — نزلا مدينة طبرية ،

وكتبا كتابا سمياه مشنا باسم مشنا موسى عليه السلام ، وضمنا هذا المشنا الذى وضعاه أحكام الشريعة ، ووافقهما على وضع ذلك عدة من اليهود .

وكان شماى وهلال فى زمن واحد ، وكانا فى أواخر مدة تخريب البيت الثانى ، وكان لهلال ثمانون تلميذا أصغرهم يوحانان بن زكاى ، وأدرك يوحانان بن زكاى خراب البيت الثانى على يد طيطش . وهلال وشماى أقوالهما مذكورة فى المشنا ، وهى فى ستة أسفار تشتمل على فقه التوراة ، وانما رتبها النوسى ، من ولد داود النبى ، بعد تخريب طيطش للقدس بمائة وخمسين سنة .

ومات شماى وهلال ولم يكملا المشنا ، فأكمله رجل منهم يعرف بيهودا من درية هلال ، وحمل اليهود على العمل بما فى هذا المشنا ، وحقيقته أنه يتضمن كثيرا مما كان فى مشنا النبى موسى عليه السلام ، وكثيرا من آراء أكابرهم . فلما كان بعد وضع هذا المشنا بنحو خمسين سنة ، قام طائفة من اليهود يقال لهم السنهدوين — ومعنى ذلك الأكابر — وتصرفوا فى تفسير هذا المشنا برأيهم ، وعملوا عليه كتابا اسمه «التلمود» أخفوا فيه كثيرا مما كان فى ذلك المشنا ، وزادوا فيه أحكاما من رأيهم .

وصاروا منذ وضع هذا التلمود الذى كتبوه بأيديهم ، وضمنوه ما هو من رأيهم ، ينسبون ما فيه الى الله تعالى ، ولذلك ذمهم الله فى القرآن الكريم بقوله تعالى : « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا ، فويل لهم مما كتبت أيديهم ، وويل لهم مما يكسبون » .

وهذا التلمود نسختان مختلفتان فى الأحكام . والعمل الى اليوم على هذا التلمود عند فرقة الربانيين ، بخلاف القرائين فانهم لا يعتقدون العمل بما فى هذا التلمود .

فلما قدم عانان رأس * الجالوت الى العراق ، أنكر على اليهود عملهم بهذا التلمود ، وزعم أن الذى بيده هو الحق لأنه كتب من النسخ التى كتبت من مشنا موسى عليه السلام الذى بخطه . والطائفة الربانيون ومن وافقهم لا يعولون من التوراة التى بأيديهم الا على ما فى هذا التلمود ، وماخالفه ما فى التلمود لا يعبأون به ولا يعولون عليه ، كما أخبر تعالى اذ يقول حكاية عنهم : « انا وجدنا آباءنا على أمة ، وانا على آثارهم مقتدون » .

ومن اطلع على ما بأيديهم وما عندهم من التوراة ، تبين له أنهم ليسوا على شىء ، وأنهم ان يتبعون الا الظن وما تهوى الأنفس . ولذلك لما نبغ فيهم موسى بن ميمون القرطبى عولوا على رأيه ، وعملوا بما فى كتاب الدلالة وغيره من كتبه ، وهم على رأيه الى زمننا .

ذكر فرق اليهود الآن

اعلم أن اليهود الذين قطعهم الله فى الأرض أمما أربع فرق ، كل فرقة تخطىء الطوائف الأخر ، وهى : طائفة الربانيين ، وطائفة القرائين ، وطائفة العانانية ، وطائفة السمرة .

(*) ص٤٧٥ جـ٢ ، ط. بولاق .

وهذا الاختلاف حدث لهم بعد تخريب بخت نصر بيت المقدس ، وعودهم من أرض بابل بعد الجلاية الى القدس ، وعمارة البيت ثانيا . وذلك أنهم فى اقامتهم بالقدس أيام العمارة الثانية ، افترقوا فى دينهم ، وساروا شيعا .

فلما ملكهم اليونان بعد الاسكندر بن فيلبش ، وقام بأمرهم فى القدس هورقانوس ابن شمعون بن مشيثا ، واستقام أمره فسمى ملكا — وكان قبل ذلك هو وجميع من تقدمه ، ممن ولى أمر اليهود فى القدس بعد عودهم من الجلاية ، انما يقال له الكوهن الأكبر — فاجتمع لهورقانوس منزلة الملك ومنزلة الكهونية ، واطمأن اليهود فى أيامه ، وأمنوا سائر أعدائهم من الأمم ، فبطروا معيشتهم ، واختلفوا فى دينهم ، وتعادوا بسبب الاختلاف .

وكان من جملة فرقهم اذ ذاك طائفة يقال لها الفروشيم — ومعناه المعتزلة — ومن مذهبهم القول بما فى التوراة على معنى ما فسره الحكماء من أسلافهم وطائفة يقال لهم الصدوقية — بفاء — نسبوا الى كبير لهم يقال له صدوف ، ومذهبهم القول بنص التوراة ، وما دل عليه القول الالهى فيها دون ما عداه من الأقوال . وطائفة يقال لهم الجسديم — ومعناه الصلحاء — ومذهبهم الاشتغال بالنسك وعبادة الله سبحانه ، والأخذ بالأفضل والأسلم فى الدين .

وكانت الصدوفية تعادى المعتزلة عداوة شديدة ، وكان الملك هورقانوس أولا على رأى المعتزلة — وهو مذهب آبائه — ثم انه رجع الى مذهب الصدوقية ، وباين المعتزلة وعاداهم ، ونادى فى سائر مملكته بمنع الناس جملة من تعلم رأى المعتزلة والأخذ عن أحد منهم ، وتتبعهم وقتل منهم كثيرا .

وكانت العامة بأسرها مع المعتزلة ، فثارت الشرور بين اليهود ، واتصلت الحروب بينهم ، وقتل بعضهم بعضا ... الى أن خرب البيت على يدطيطش الخراب الثانى ، بعد رفع عيسى صلوات الله عليه ، وتفرق اليهود من حينئذ فى أقطار الدنيا ، وصاروا ذمة ، والنصارى تقتلهم حيثما ظفرت بهم . الى أن جاء الله بالملة الاسلامية ، وهم فى تفرقهم ثلاث فرق : الربانيون ، والقراء ، والسمرة .

فأما « الربانية » فيقال لهم بنو مشنو — ومعنى مشنو الثانى — وقيل لهم ذلك لأنهم يعتبرون أمر البيت الذى بنى ثانيا ، بعد عودهم من الجلاية وخربه طيطش ، وينزلونه فى الاحترام والاكرام والتعظيم منزلة البيت الأول الذى ابتدأ عمارته داود ، وأتمه ابنه سليمان عليهما السلام ، وخربه بخت نصر ... فصار كأنه يقال لهم أصحاب الدعوة الثانية . وهذه الفرقة هى التى كانت تعمل بما فى المشنا الذى كتب بطبرية بعد تخريب طيطش القدس ، وتعول فى أحكام الشريعة على ما فى التلمود الى هذا الوقت الذى نحن فيه ، وهى بعيدة عن العمل بالنصوص الالهية ، متبعة لآراء من تقدمها من الأحبار

ومن اطلع على حقيقة دينها ، تبين له أن الذى ذمهم الله به فى القرآن الكريم حق لا مرية فيه ، وأنه لا يصح لهم من اسم اليهودية

الا مجرد الانتماء فقط ، لا أنهم فى الاتباع على الملة الموسويه ... لا سيما منذ ظهر فيهم موسى بن ميمون القرطبى ، بعد الخمسمائة من سنى الهجرة المحمدية ، فانه ردهم مع ذلك معطلة ، فصاروا فى أصول دينهم وفروعه أبعد الناس عما جاء به أنبياء الله تعالى من الشرائع الالهية .

وأما « القراء » فانهم بنو مقرا — ومعنى مقرا الدعوة — وهم لا يعولون على البيت الثانى جملة . ودعوتهم انما هى لما كان عليه العمل مدة البيت الأول ، وكان يقال لهم أصحاب الدعوة الأولى ، وهم يحكمون نصوص التوراة ، ولا يلتفتون الى قول من خالفها ، ويقفون مع النص دون تقليد من سلف . وهم مع الربانيين من العداوة بحيث لا يتناكحون ، ولا يتجاورون ، ولا يدخل بعضهم كنيسة بعض .

ويقال للقرائين أيضا المبادية ، لأنهم كانوا يعملون مبادى الشهور من الاجتماع الكائن بين الشمس والقمر ، ويقال لهم أيضا * الأسمعية ، لأنهم يراعون العمل بنصوص التوراة دون العمل بالقياس والتقليد .

وأما « العانانية » فانهم ينسبون الى عانان رأس الجالوت الذى قدم من المشرق ، فى أيام الخليفة أبى جعفر المنصور ، ومعه نسخ المشنا الذى كتب من الخط الذى كتب من خط النبى موسى . وانه رأى ما عليه اليهود من الربانيين والقرائين يخالف ما معه ، فتجرد لخلافهم ، وطعن عليهم فى دينهم ، وازدرى بهم .

وكان عظيما عندهم يرون أنه من ولد داود عليه السلام ، وعلى طريق فاضلة من النسك على مقتضى ملتهم ، بحيث يرون أنه لو ظهر فى أيام عمارة البيت لكان نبيا ، فلم يقدروا على مناظرته لما أوتى مع ما ذكرنا من تقريب الخليفة له واكرامه .

وكان مما خالف فيه اليهود استعمال الشهور برؤية الأهلة على مثل ما شرع فى الملة الاسلامية ، ولم يبال فى أى يوم وقع من الأسبوع ، وترك حساب الربانيين ، وكبس الشهور ، وخطأهم فى العمل بذلك ، واعتمد على كشف زرع الشعير ، وأجمل القول فى المسيح عيسى بن مريم عليه السلام ، وأثبت نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وقال : هو نبى أرسل الى العرب ، الا أن التوراة لم تنسخ . والحق أنه أرسل الى الناس كافة صلى الله عليه وسلم .

ذكر السمرة

اعلم أن طائفة السمرة ليسوا من بنى اسرائيل ألبتة ، وانما هم قوم قدموا من بلاد المشرق ، وسكنوا بلاد الشام وتهودوا . ويقال انهم من بنى سامرك بن كفركا بن رمى — وهو شعب من شعوب الفرس — خرجوا الى الشام ومعهم الخيل والغنم والابل والقسى والنشاب والسيوف والمواشى ، ومنهم السمرة الذين تفرقوا فى البلاد .

ويقال ان سليمان بن داود لما مات ، افترق ملك بنى اسرائيل من بعده ، فصار رحبعم

(*) ص٤٧٦ جـ٢ ، ط. بولاق .

ابن سليمان على سبط يهودا بالقدس ، وملك يربعم بن نياط على عشرة أسـباط من بنى اسرائيل ، وسكن خارجا عن القدس ، واتخذ عجلين دعا الأسباط العشرة الى عبادتهما من دون الله الى أن مات . فولى ملك بنى اسرائيل من بعده عدة ملوك ، على مثل طريقـه فى الكفر بالله وعبادة الأوثان .

الى أن ملكهم عمرى بن نوذب ، من سبط منشا بن يوسف ، فاشترى مكانا من رجـل اسمه شامر بقنطار فضة ، وبنى فيـه قصرا ، وسماه باسم اشتقه من اسـم شـامر الذى اشترى منه المكان ، وصير حول هذا القصر مدينة ، وسماها مدينـة شـمرون ، وجعلها كرسى ملكه الى أن مات فاتخـذها ملوك بنى اسرائيل من بعده مدينة للملك ، وما زالوا فيها الى أن ولى هوشاع بن ايلا ، وهم على الكفر بالله ، وعبـادة وثن بعـل وغيره من الأوثان ، مع قتل الأنبياء .

الى أن سلط الله عليهم سنجاريب ملك الموصل ، فحـاصرهم بمدينـة شمرون ثلاث سنين ، وأخذ هوشاع أسيرا ، وجلاه ومعه جميع من فى شمرون من بنى اسرائـل ، وأنزلهم بهراة وبلخ ونهاوند وحلوان . فانقطع من حينئـذ ملك بنى اسرائيـل من مدينـة شمرون ، بعدما ملكوا من بعد سليمان عليه السلام مدة مائتى سنة واحدى وخمسـين سنة .

ثم ان سنجاريب ملك الموصل نقـل الى شمرون كثيرا من أهل كوشا وبابل وحماه ، وأنزلهم فيها ليعمروها ، فبعثوا اليه يشكون من كثرة هجوم الوحش عليـهم بشـمرون . فسير اليهم من علمهم التوراة ، فتعلموها على غير ما يجب ، وصاروا يقرأونها ناقصه أربعة أحرف ، الألف والهاء والخـاء والعين ، فلا ينطقون بشيء من هذه الأحرف فى قراءتهم التـوراة ، وعرفـوا بين الأمـم بالسـامرة لسكناهم بمدينة شمرون .

وشمرون هذه هى مدينة نابلس ، وقيـل لها سمرون — بسين مهملة — ولسـكانها سامرة ، ويقال معنى السمرة حفظة ونواطير . فلم تزل السمرة بنابلس الى أن غزا بخت نصر القدس ، وأجلى اليهود منـه الى بابل ، ثم عادوا بعد سبعين سنة ، وعمروا البيت ثانيا .

الى أن قام الاسكندر من بلاد اليونان ، وخرج يريد غزو الفرس ، فمر على القدس ، وخرج منه يريد عمان ، فاجتاز على نابلس ، وخرج اليه كبير السمرة بها — وهو سنبلاط السـامرى — فأنزله ، وصـنع له ولقواده وعظماء أصحابه صنيعا عظيما ، وحمل اليـه أموالا جمة وهدايا جليلة ، واستأذنه فى بناء هيكل لله على الجبل ، الذى سمى عنـدهم « طور بريك » ، فأذن له وسـار عنـه الى محـاربة دارا ملك الفرس . فبنى سـنبلاط هيكلا شبيها بهيكل القـدس ليسـتميل به اليهود ، وموه عليهم بأن « طور بريك » هو الموضع الذى اختاره الله تعالى ، وذكره فى التوراة بقوله فيها « اجعل البركة على طور بريك » .

وكان سنبلاط قد زوج ابنته بكاهن من كهان بيت المقدس يقال له منشا ، فمقت اليهود منشا على ذلك ، وأبعدوه وحطوه عن مرتبته عقوبة له على مصاهرة سنبلاط . فأقام سنبلاط

منشا زوج ابنته كاهنا في هيكل طور بريك ، وأتته طوائف من اليهود وضلوا به ، وصاروا يحجون الى هيكله فى الأعياد ، ويقربون قرابينهم اليه ، ويحملون اليه نذورهم وأعشارهم ، وتركوا قدس الله وعدلوا عنه . فكثرت الأموال فى هذا الهيكل ، وصار ضد البيت المقدس * ، واستغنى كهنته وخدامه ، وعظم أمر منشا ، وكبرت حالته .

فلم تزل هذه الطائفة تحج الى « طور بريك » حتى كان زمن هورقانوس بن شمعون الكوهن ، من بنى حشمتاى ، فى بيت المقدس . فسار الى بلاد السمرة ، ونزل على مدينة نابلس ، وحصرها مدة وأخذها عنوة ، وخرب هيكل طور بريك الى أساسه — وكانت مدة عمارته مائتى سنة — وقتل من كان هناك من الكهنة . فلم تزل السمرة بعد ذلك الى يومنا هذا تستقبل فى صلاتها — حيثما كانت من الأرض — طور بريك بجبل نابلس ، ولهم عبادات تخالف ما عليه اليهود ، ولهم كنائس فى كل بلد تخصهم .

والسمرة ينكرون نبوة داود ومن تلاه من الأنبياء ، وأبوا أن يكون بعد موسى عليه السلام نبى ، وجعلوا رؤساءهم من ولد هارون عليه السلام ، وأكثرهم يسكن فى مدينة نابلس ، وهم كثير فى مدائن الشام ، ويذكر أنهم الذين يقولون « لا مساس » ، ويزعمون أن نابلس هى بيت المقدس ، وهى مدينة يعقوب عليه السلام ، وهناك مراعيه .

وذكر المسعودى أن السمرة صنفان متباينان : أحدهما يقال له الكوشان ، والآخر الروشان ، أحد الصنفين يقول بقدم العالم . والسامرة تزعم أن التوراة التى فى أيدى اليهود ليست التوراة التى أوردها موسى عليه السلام ، ويقولون توراة موسى حرفت وغيرت وبدلت ، وان التوراة هى ما بأيديهم دون غيرهم .

وذكر أبو الريحان محمد بن أحمد البيرونى أن السامرة تعرف بالامساسية ... قال : وهم الأبدال الذين بدلهم بخت نصر بالشام حين أسر اليهود وأجلاها . وكانت السامرة أعانوه ودلوه على عورات بنى اسرائيل ، فلم يحربهم ولم يقتلهم ولم يسبهم ، وأنزلهم فلسطين من تحت يده ، ومذاهبهم ممتزجة من اليهودية والمجوسية .

وعامتهم يكونون بموضع من فلسطين يسمى نابلس ، وبها كنائسهم ، ولا يدخلون حد بيت المقدس منذ أيام داود النبى عليه السلام ... لأنهم يدعون أنه ظلم واعتدى ، وحول الهيكل المقدس من نابلس الى ايليا ، وهو بيت المقدس ، ولا يمسون الناس ، واذا مسوهم اغتسلوا ، ولا يقرون بنبوة من كان بعد موسى عليه السلام من أنبياء بنى اسرائيل

وفى شرح الانجيل أن اليهود انقسمت بعد أيام داود الى سبع فرق :

« الكتاب » : وكانوا يحافظون على العادات التى أجمع عليها المشايخ مما ليس فى التوراة .

(*) ص٤٧٧ جـ٢ ، ط. بولاق .

و « المعتزلة » : وهم الفريسيون ، وكانوا يظهرون الزهد ، ويصومون يومين فى الأسبوع ، ويخرجون العشر من أموالهم ، ويجعلون خيوط القرمز فى رؤوس ثيابهم ، ويغسلون جميع أوانيهم ، ويبالغون فى اظهار النظافة .

و « الزنادقة » : وهم من جنس السامرة وهم من الصدوقية ، فيكفرون بالملائكة والبعث بعد الموت وبجميع الأنبياء ، ما خلا موسى فقط فانهم يقرون بنبوته .

و « المتطهرون » : وكانوا يغتسلون كل يوم ، ويقولون لا يستحق حياة الأبد الا من يتطهر كل يوم .

و « الأسابيون » : ومعناه الغلاظ الطباع ، وكانوا يوجبون جميع الأوامر الالهية ، وينكرون جميع الأنبياء سوى موسى عليه السلام ، ويتعبدون بكتب غير الأنبياء .

و « المتقشفون » : وكانوا يمنعون أكثر المآكل وخاصة اللحم ، ويمنعون من التزوج بحسب الطاقة ، ويقولون بأن التوراة ليست كلها لموسى ، ويتمسكون بصحف منسوبة الى أخنوخ وابراهيم عليه السلام ، وينظرون فى علم النجوم ويعملون بها .

و « الهيرذوسيون » : سموا أنفسهم بذلك لموالاتهم هيرذوس ملكهم ، وكانوا يتبعون التوراة ويعملون بما فيها . انتهى .

وذكر يوسف بن كريون فى تاريخه أن اليهود كانوا فى زمن ملكهم هورقانوس — يعنى فى زمن بناء البيت بعد عودهم من الجلاية — ثلاث فرق : الفروشيم ، ومعناه المعتزلة ، ومذهبهم القول بما فى التوراة وما فسروه الحكماء من سلفهم . والصدوفية ، أصحاب رجل من العلماء يقال له صدوف ، ومذهبهم القول بنص التوراة وما دلت عليه دون غيره . والجسديم ، ومعناه الصلحاء ، وهم المشتغلون بالعبادة والنسك ، الآخذون فى كل أمر بالأفضل والأسلم فى الدين . انتهى . وهذه الفرقة هى أصل فرقتى الربانيين والقراء .

«فصل» : زعم بعضهم أن اليهود عانانية ، وشمعونية — نسبة الى شمعون الصديق ، ولى القدس عند قدوم أبى الاسكندر — وجالوتية ، وفيومية ، وسامرية ، وعكبرية ، وأصبهانية ، وعراقية ، ومغاربة ، وشرشتانية ، وفلسطينية ، ومالكية ، وربانية .

فالعانانية [1] تقول بالتوحيد والعدل ونفى التشبية ، والشمعونية تشبه ، وتبالغ الجالوتية فى التشبيه . وأما الفيومية فانها تنسب الى أبى سعيد الفيومى ، وهم يفسرون التوراة على الحروف المقطعة . والسامرية ينكرون كثيرا من شرائعهم ، ولا يقرون بنبوة من جاء بعد يوشع . والعكبرية ، أصحاب أبى موسى البغدادى العكبرى واسماعيل العكبرى ، يخالفون أشياء من السبت وتفسير التوراة .

والأصبهانية أصحاب أبى عيسى الأصبهانى ، وادعى النبوة ، وأنه عرج به الى السماء فمسح الرب على رأسه ، وأنه رأى محمدا

---

(١٠) قوله « فالعانانية .. الخ » ، لم يذكر فى النسخ المغاربة كما ذكرهم فى اللف ، وليحرر . اهـ . مصححة

صلى * الله عليه وسلم فآمن به . ويزعم يهود أصبهان أنه الدجال ، وأنه يخرج من ناحيتهم .

والعراقية تخالف الخرسانية فى أوقات أعيادهم ، ومدد أيامهم .

والشرشتانية ، أصحاب شرشتان ، زعم أنه ذهب من التوراة ثمانون سوقة (أى آية) وادعى أن للتوراة تأويلا باطنا مخالفا للظاهر .

وأما يهود فلسطين فزعموا أن العزير ابن الله تعالى ، وأنكر أكثر اليهود هذا القول .

والمالكية تزعم أن الله تعالى لا يحيى يوم القيامة من الموتى الا من احتج عليه بالرسل والكتب . ومالك هذا هو تلميذ عانان .

والربانية تزعم أن الحائض اذا مست ثوبا بين ثياب وجب غسل جميعها .

والعراقية تعمل رؤوس الشهور بالأهلة ، وآخرون بالحساب يعملون . والله أعلم .

« فصل » : وهم يوجبون الايمان بالله وحده ، وبموسى عليه السلام وبالتوراة ، ولا بد لهم من درسها وتعلمها ، ويغتسلون ويتوضأون ، ولا يمسحون رؤوسهم فى وضوئهم ، ويبدأون بالرجل اليسرى ، وفى شىء منه خلاف بينهم ، وعانان يرى أن الاستنجاء قبل الوضوء ، ويرى أشمعث أن الاستنجاء بعد الوضوء ، ولا يتوضأون بما تغير لونه أو طعمه أو ريحه ، ولا يجيزون الطهارة من غدير ما لم يكن عشرة أذرع فى مثلها ، والنوم قاعدا لا ينقض الوضوء عندهم ما لم يضع جنبه الأرض ... الا العانانية فان مطلق النوم عندهم ينقض .

ومن أحدث فى صلاته من قىء أو رعاف أو ريح ، انصرف وتوضأ ، وبنى على صلاته ، ولا تجوز صلاة الرجل فى أقل من ثلاثة أثواب : قميص ، وسراويل ، وملاءة يتردى بها ، فان لم يجد الملاءة صلى جالسا ، فان لم يجد القميص والسراويل صلى بقلبه ، ولا تجوز صلاة المرأة فى أقل من أربعة أثواب . وعليهم فريضة ثلاث صلوات فى اليوم والليلة : عند الصبح ، وبعد الزوال الى غروب الشمس ، ووقت العتمة الى ثلث الليل ، ويسجدون فى دبر كل صلاة سجدة طويلة ، وفى يوم السبت وأيام الأعياد يزيدون خمس صلوات على تلك الثلاث .

ولهم خمسة أعياد :

« عيد الفطير » : وهو الخامس عشر من نيسن ، يقيمون سبعة أيام لا يأكلون سوى الفطير ، وهى الأيام التى تخلصوا فيها من فرعون وأغرقه الله .

و « عيد الأسابيع » : بعد الفطير بسبعة أسابيع ، وهو اليوم الذى كلم الله تعالى فيه بنى اسرائيل من طور سيناء .

و « عيد رأس الشهر » : وهو أول تشرى ، وهو الذى فدى فيه اسحاق عليه السلام من الذبح ، ويسمونه عيد رأس هشايا ، أى رأس الشهر .

و « عيد صوماريا » : يعنى الصوم العظيم .

و « عيد المظلة » : يستظلون سبعة أيام بقضبان الآس والخلاف .

(*) ص٤٧٨ جـ٢ ، ط. بولاق .

ويجب عليهم الحج فى كل سنة ثلاث مرات لما كان الهيكل عامرا ، ويوجبون صوم أربعة أيام : أولها سابع عشر تموز من الغروب الى الغروب — وعند العائلية هو اليوم الذى أخذ فيه بخت نصر البيت — والثانى عاشر آب ، والثالث عاشر كانون الأول ، والرابع ثالث عشر آذار .

ويتشددون فى أمر الحائض بحيث يعتزلونها وثيابها وأوانيها ، وما مسته من شىء فانه ينجس ويجب غسله ، فان مست لحم القربان أحرق بالنار ، ومن مسها أو شيئا من ثيابها وجب عليه الغسل ، وما عجنته أو خبزته أو طبخته أو غسلته فكله نجس حرام على الطاهرين حلّ للحيض ، ومن غسل ميتا نجس سبعة أيام لا يصلى فيها ، وهم يغسلون موتاهم ولا يصلون عليهم

ويوجبون اخراج العشر من جميع ما يملك ولا يجب حتى يبلغ وزنه أو عدده مائة ، ولا يخرج العشر الا مرة واحدة ، ثم لا يعاد اخراجه .

ولا يصح النكاح عندهم الا بولى وخطبة وثلاثة شهود ، ومهر مائتى درهم للبكر ومائة للثيب ... لا أقل من ذلك ويحضر عند عقد النكاح كأس خمر وباقة مرسين ، فيأخذ الامام الكأس ، ويبارك عليه ، ويخطب خطبة النكاح ، ثم يدفعه الى الختن ويقول . قد تزوجت فلانة بهذه الفضة أو بهذا الذهب — وهو خاتم فى يده — وبهذا الكأس من الخمر وبمهر كذا ، ويشرب جرعة من الخمر ، ثم ينهضون الى المرأة ، ويأمرونها أن تأخذ الخاتم والمرسين والكأس من يد الختن ، فاذا أخذت وشربت جرعة ، وجب عقد النكاح . ويضمن أولياء المرأة البكارة ، فاذا زفت اليه ، وكل الولى من يقف بباب الخلوة — وقد فرشت ثياب بيض — حتى يشاهد الوكيل الدم ، فان لم توجد بكرا رجمت .

ولا يجوز عندهم نكاح الاماء حتى يعتقن ، ثم ينكحن ، والعبد يعتق بعد خدمته لسنين معلومة ، وهى ست سنين ، ومنهم من يجوز بيع صغار أولاده اذا احتاج . ولا يجوزون الطلاق الا بفاحشة أو سحر ، أو رجوع عن الدين ، وعلى من طلق خمسة وعشرون درهما للبكر ، نصف ذلك للثيب ، ويترك فى كتابها طلاقها بعد أن يقول الزوج : أنت طالق منى مائة مرة ومختلعة منى ، وفى سعة أن تتزوجى من شئت ، ولا يقع طلاق الحامل أبدا ، نعم الا أن يجوزوه ، ويراجع الرجل امرأته ما لم تتزوج ، فان تزوجت حرمت عليه الى الأبد .

والخيار بين المتبايعين ما لم ينتقل المبيع الى البائع .

والحدود عندهم على خمسة أوجه : حرق ، ورجم ، وقتل ، وتعزير ، وتغريم . فالحرق على من زنى بأم امرأته أو ربيبته أو بامرأة أبيه * أو امرأة ابنه ، والقتل على من قتل ، والرجم على المحصن اذا زنى أو لاط ، وعلى المرأة اذا مكنت من نفسها بهيمة ، والتعزير على من قذف ، والتغريم على من سرق ،

(*) ص٤٧٩ جـ٢ ، ط.بولاق .

ويرون أن البينة على المدعى ، واليمن على من أنكر .

وعندهم أن من أتى بشىء من سبعة وثلاثين [1] عملا فى يوم السبت أو ليلته ، استحق القتل ، وهى : كرب الأرض ، وزرعها ، وحصاد الزرع ، وسياقة الماء الى الزرع ، وحلب اللبن ، وكسر الحطب ، واشعال النار ، وعجن العجين ، وخبزه ، وخياطة الثوب ، وغسله ، ونسج سلكين ، وكتابة حرفين أو نحوهما ، وأخذ الصيد ، وذبح الحيوان ، والخروج من القرية ، والانتقال من بيت الى آخر ، والبيع ، والشراء ، والدق ، والطحن ، والاحتطاب ، وقطع الخبز ، ودق اللحم ، واصلاح النعل اذا انقطعت ، وخلط علف الدابة ، ولا يجوز للكاتب أن يخرج يوم السبت من منزله ومعه قلمه ، ولا الخياط ومعه ابرته . وكل من عمل شيئا استحق به القتل ، فلم يسلم نفسه ، فهو ملعون .

ذكر قبط مصر ودياناتهم القديمة وكيف تنصروا ثم صاروا ذمة للمسلمين وما كان لهم فى ذلك من القصص والأنباء وذكر الخبر عن كنائسهم ودياراتهم وكيف كان ابتداؤها ومصير أمرها

اعلم أن جميع أهل الشرائع ، أتباع الأنبياء — عليهم السلام — من المسلمين واليهود والنصارى ، قد أجمعوا على أن نوحا عليه السلام هو الأب الثانى للبشر ، وأن العقب من آدم عليه السلام انحصر فيه ، ومنه ذرأ الله تعالى جميع أولاد آدم ، فليس أحد من بنى آدم الا وهو من أولاد نوح .

وخالفت القبط والمجوس وأهل الهند والصين ذلك ، فأنكروا الطوفان ، وزعم بعضهم أن الطوفان انما حدث فى اقليم بابل وما وراءه من البلاد الغربية فقط ، وأن أولاد كيومرت — الذى هو عندهم الانسان الأول — كانوا بالبلاد الشرقية من بابل ، فلم يصل الطوفان اليهم ولا الى الهند والصين .

والحق ما عليه أهل الشرائع ، وأن نوحا عليه السلام ، لما أنجاه الله ومن معه بالسفينة نزل بهم — وهم ثمانون رجلا سوى أولاده — فماتوا بعد ذلك ولم يعقبوا ، وصار العقب من نوح فى أولاده الثلاثة ، ويؤيد هذا قول الله تعالى عن نوح : « وجعلنا ذريته هم الباقين » .

وكان من خبر ذلك أن أولاد نوح الثلاثة — وهم سام ، وحام ، ويافث — اقتسموا الأرض . فصار لبنى سام بن نوح أرض العراق وفارس الى الهند ، ثم الى حضرموت وعمان والبحرين وعالج ويبرين ووبار والدو والدهنا ، وجميع أرض اليمن وأرض الحجاز . وصار لبنى حام بن نوح جنوب الأرض مما يلى أرض مصر ، مغربا الى بلاد المغرب الأقصى . وصار لبنى يافث بن نوح بحر الخزر ، مشرقا الى الصين .

فكان من ذرية سام نواح : القضاعيون ، والفرس ، والسريانيون ، والعبرانيون ، والعرب المستعربة ، والنبط ، وعاد وثمود ،

[1] قوله « سبعة وثلاثين » هكذا فى النسخ ، ولعل صوابه « سبعة وعشرين » ، ليوافق التفصيل بعده ، تأمل ، اهـ. مصححه .

والآمورانيــون ، والعماليق ، وأمم الهنـد وأهل السند ، وعدة أمم قد بادت

وكانت ذرية حام بن نوح من أربعة أولاده الذين هم كوش ومصرايم وقفط وكنعان . فمن كوش الحبشــة والزنج ، ومن مصرايم قبط مصر والنوبة ، ومن قفط الأفارق أهل أفريقية ومن جاورهم الى المغرب الأقصى ، ومن كنعان أمم كانت بالشام حاربهم موسى بن عمران عليه السلام وقومه من بنى اسرائيل ، ومنهم أجناس عديدة من البربر درجوا

وكانت مساكن بنى حام من صيدا الى أرض مصر ، ثم الى آخر أفريقية نحو البحر المحيط ، وانتشروا فيما بين ذلك الى الجنوب ، وهم ثلاثون جنسا .

وكان من ذرية يافث بن نوح : الصقلب ، والفرنجة ، والغالليــون من قبــائل الروم ، والغوط ، وأهل الصــين ، وقــوم عرفــوا بالمادنيين ، واليونانيون ، والروم الفريقيون ، وقبائل الأتراك ، ويأجوج ومأجوج ، وأهل قبــرس وردس . وعدة بنى يافث خمســة عشر جنسا ، سكنوا القطر الشمالى الى البحر المحيط ، فضاقت بهم بلادهم ، ولم تســعهم لكثرتهم فخرجوا منها ، وتغلبوا على كثير من بلاد بنى سام بن نوح .

وذكر الأستاذ ابراهيم بن وصــيف شــاه الكاتب : أن القبط تنسب الى قبطيــم بن مصرايم بن مصر بن حام بن نوح ، وأن قبطيم أول من عمل العجائب بمصر وأثار بها المعادن وشق الأنهار ، لما ولى أرض مصر بعد أبيه مصرايم ، وأنه لحق ببلبلة الألسن وخرج منها وهو يعرف اللغــة القبطيــة ، وأنه ملك مدة ثمانين سنة ومات ، فاغتم لموته بنوه وأهله ، ودفنوه فى الجانب الشرقى من النيل بسرب تحت الجبل الكبير ، فقام من بعده فى ملك مصر ابنه قفطيم بن قبطيم .

وزعم بعض النسابة أن مصر بن حام بن نوح — ويقال له مصرايم ، ويقال بل مصريم ابن هرمس بن هردوس جد الاسكندر ، وقيل بل قفط بن حام بن نوح — نكح بخت بنت يتاويل بن ترسل بن يافث بن نوح ، فولدت له بوقير وقبــط أبا قبــط مصر . قال ابن اسحاق : ومن هاهنا قالوا ان مصر بن حام ابن نوح ، وانمــا هــو مصر بن هرمس بن هردوس بن ميطــون بن رومى بن ليطى بن يونان ، وبه سميت مصر ، فهى مقدونيــة . وقيل * القبط من ولد قبط بن مصر بن قفط ابن حام بن نوح ، وبمصر هذا سميت مصر .

ذكر ديانة القبط قبل تنصرهم

اعلم أن قبط مصر كانوا فى غابر الدهــر أهل شرك بالله يعبدون الكواكب ، ويقربون لها قرابينهم ، ويقيمون على أسمائها التماثيل كما هى أفعال الصابئة .

وذكر ابن وصيف شاه ، أن عبادة الأصنام أول ما عرفت بمصر ، أيام قفطريم بن قبطيم ابن مصرايم بن بيصر بن حام بن نوح ، وذلك أن ابليس أثار الأصنام التى غرقها الطوفان ، وزين للقبط عبادتها ، وأن البودشير بن قبطيم أول من تكهن وعمل بالسحر ، وأن مناوش

(*) ص ٤٨٠ جـ ٢ ، ط . بولاق .

ابن منقاوش أول من عبد البقر من أهل مصر .

وذكر الموفق أحمد بن أبى القاسم بن خليفة — المعروف بابن أبى أصيبعة — أنه كان للقبط مذهب مشهور من مذاهب الصابئة ولهم هياكل على أسماء الكواكب تحج اليها الناس من أقطار الأرض ، وكانت الحكماء والفلاسفة ممن سواهم تتهافت عليهم ، وتريد التقرب اليهم لما كان عندهم من علوم السحر والطلسمات والهندسة والنجوم والطب والحساب والكيمياء ، ولهم فى ذلك أخبار كثيرة ، وكانت لهم لغة يختصون بها ، وكانت خطوطهم ثلاثة أصناف خط العامة ، وخط الخاصة — وهو خط الكهنة المختصر — وخط الملوك .

وقال ابن وصيف شاه · كانت كهنة مصر أعظم الكهان قدرا ، وأجلها علما بالكهانة ، وكانت حكماء اليونانيين تصفهم بذلك ، وتشهد لهم به ، فيقولون : اختبرنا حكماء مصر بكذا وكذا ، وكانوا ينحون بكهانتهم نحو الكواكب ، ويزعمون أنها هى التى تفيض عليهم العلوم وتخبرهم بالغيوب ، وهى التى تعلمهم أسرار الطوالع وصفة الطلاسم ، وتدلهم على العلوم المكتومة والأسماء الجليلة المخزونة .

فعملوا الطلسمات المشهورة ، والنواميس الجليلة ، وولدوا الأشكال الناطقة ، وصوروا الصور المتحركة ، وبنوا العالى من البنيان ، وزبروا علومهم فى الحجارة ، وعملوا من الطلسمات ما دفعوا به الأعداء عن بلادهم ، فحكمهم باهرة ، وعجائبهم ظاهرة .

وكانت أرض مصر خمسا وثمانين كورة : منها أسفل الأرض خمس وأربعون كورة ، ومنها بالصعيد أربعون كورة ، وكان فى كل كورة رئيس من الكهنة وهم السحرة ، وكان الذى يتعبد منهم للكواكب السبعة السيارة سبع سنين يسمونه باهر ، والذى يتعبد منهم لها تسعا وأربعين سنة — لكل كوكب سبع ستين — يسمونه قاطر ، وهذا يقوم له الملك اجلالا ، ويجلسه معه الى جانبه ، ولا يتصرف الا برأيه ، وتدخل الكهنة ومعهم أصحاب الصنائع فيقفون حذاء القاطر .

وكان كل كاهن منهم ينفرد بخدمة كوكب من الكواكب السبعة السيارة لا يتعداه الى سواه ، ويدعى بعبد ذلك الكوكب ، فيقال : عبد القمر ، عبد عطارد ، عبد الزهرة ، عبد الشمس ، عبد المريخ ، عبد المشترى ، عبد زحل . فاذا وقفوا جميعا قال القاطر لأحدهم : أين صاحبك اليوم ؟ فيقول : فى برج كذا ، ودرجة كذا ، ودقيقة كذا . ثم يقول للآخر كذلك ، فيجيبه ، حتى يأتى على جميعهم ، ويعرف أماكن الكواكب من فلك البروج .

ثم يقول للملك : ينبغى أن تعمل اليوم كذا ، أو تأكل كذا ، أو تجامع فى وقت كذا ، أو تركب وقت كذا ، الى آخر ما يحتاج اليه ، والكاتب قائم بين يديه يكتب ما يقول ، ثم يلتفت القاطر الى أهل الصناعات ويخرجهم الى دار الحكمة ، فيضعون أيديهم فى الأعمال التى يصلح عملها فى ذلك اليوم ، ثم يؤرخ ما جرى فى ذلك اليوم فى صحيفة ، وتخزن فى خزائن الملك .

وكان الملك اذا همه أمر ، جمع الكهان خارج مدينة منف — وقد اصطف الناس لهم بشارع المدينة — ثم يدخل الكهان ركبانا على قدر مراتبهم والطبل بين أيديهم ، وما منهم الا من أظهر أعجوبة قد عملها : فمنهم من يعلو وجهه نور كهيئة نور الشمس لايقدر أحد على النظر اليه ، ومنهم من على بدنه جواهر مختلفة الألوان قد نسجت على ثوب ، ومنهم من يتوشح بحيات عظيمة ، ومنهم من يعقد فوقه قبة من نور ، الى غير ذلك من بديع أعمالهم . ويصيرون كذلك الى حضرة الملك ، فيخبرهم بما نزل به ، فيجيلون رأيهم فيه حتى يتفقوا على ما يصرفونه به .

وهذا — أعزك الله — من خبرهم لما كان الملك فيهم . فلما استولت العماليق على ملك مصر ، وملكتها الفراعنة ، ثم تداولتها من بعدهم أجناس أخر ، تناقصت علوم القبط شيئا بعد شيء الى أن تنصروا ، فغادروا عوايد أهل الشرك ، واتبعوا ما أمروا به من دين النصرانية ، كما ستقف عليه تلو هذا ان شاء الله تعالى .

ذكر دخول قبط مصر فى دين النصرانية

اعلم أن النصارى ، أتباع عيسى نبى الله ابن مريم عليه السلام ، سموا نصارى لأنهم ينتسبون الى قرية الناصرة من * جبل الجليل — بالجيم — ويعرف هذا الجبل بجبل كنعان ، وهو الآن فى زمننا من جملة معاملة صفد .

والأصل فى تسميتهم نصارى أن عيسى بن مريم ، عليه السلام ، لما ولدته أمه مريم ابنة عمران ببيت لحم ، خارج مدينة بيت المقدس ، ثم سارت به الى أرض مصر وسكنتها زمانا ، ثم عادت به الى أرض بنى اسرائيل قومها ، نزلت قرية الناصرة . فنشأ عيسى بها ، وقيل له يسوع الناصرى .

فلما بعثه الله تعالى رسولا الى بنى اسرائيل ، وكان من شأنه ما ستراه الى أن رفعه الله اليه ، تفرق الحواريون — وهم الذين آمنوا به — فى أقطار الأرض يدعون الناس الى دينه ، فنسبوا الى ما نسب اليه نبيهم عيسى بن مريم ، وقيل لهم الناصرية ، ثم تلاعب العرب بهذه الكلمة وقالوا : نصارى .

قال ابن سيده : ونصرى وناصرة ونصورية قرية بالشام ، والنصارى منسوبون اليها . هذا قول أهل اللغة ، وهو ضعيف الا أن نادر النسب يسيغه .

وأما سيبويه فقال : أما النصارى فذهب الخليل الى أنه جمع نصرى ونصران ، كما قالوا ندمان وندامى ، ولكنهم حذفوا احدى الياءين كما حذفوا من أثفية ، وأبدلوا مكانها ألفا . قال : وأما الذى نوجهه نحن عليه فانه جاء على نصران ، لأنه قد تكلم به ، فكأنك جمعت وقلت نصارى كما قلت ندامى ، فهذا أقيس ، والأول مذهب ، وانما كان أقيس لأنا لم نسمعهم قالوا نصرى .

والتنصر الدخول فى دين النصرانية ، ونصره جعله كذلك ، والأنصر الأقلف ، وهو

(*) ص٤٨١ جـ١ ، ط . بولاق

من ذلك لأن النصارى قلف . وفى شرح الانجيل أن معنى قرية ناصرة الجديدة ، والنصرانية التجدد ، والنصرانى المجدد . وقيل نسبوا الى نصران ، وهو من أبنية المبالغة ، ومعناه أن هذا الدين فى غير عصابة صاحبه ، فهو دين من ينصره من أتباعه .

واذا تقرر هذا ، فاعلم أن المسيح — روح الله وكلمته ألقاها الى مريم — هو « عيسى » . وأصل اسمه بالعبرانية ، التى هى لغة أمه وآبائها ، انما هو « ياشوع » ، وسمته النصارى « يسوع » ، وسماه الله تعالى — وهو أصدق القائلين — «عيسى» ، ومعنى يسوع فى اللغة السريانية المخلص ، قاله فى شرح الانجيل .

ونعته بالمسيح ، وهو الصديق ، وقيل لأنه كان لا يمسح بيده صاحب عاهة الا برأ ، وقيل لأنه كان يمسح رؤوس اليتامى ، وقيل لأنه خرج من بطن أمه ممسوحا بالدهن ، وقيل لأن جبريل عليه السلام مسحه بجناحه عند ولادته صونا له من مس الشيطان .

وقيل المسيح اسم مشتق من المسح ، أى الدهن ، لأن روح القدس قام بجسد عيسى مقام الدهن الذى كان عند بنى اسرائيل يمسح به الملك ويمسح به الكهنوت ، وقيل لأنه مسح بالبركة ، وقيل لأنه أمسح الرجلين ليس لرجليه أخمص ، وقيل لأنه يمسح الأرض بسياحته لا يستوطن مكانا ، وقيل هى كلمة عبرانية أصلها « ماسيح » ، فتلاعبت بها العرب وقالت : مسيح .

وكان من خبره ، عليه السلام ، أن مريم ابنة عمران ، بينا هى فى محرابها ، اذ بشرها الله تعالى بعيسى ، فخرجت من بيت المقدس وقد اغتسلت من المحيض ، فتمثل لها الملك بشرا فى صورة يوسف بن يعقوب النجار — أحد خدام القدس — فنفخ فى جيبها ، فسرت النفخة الى جوفها ، فحملت بعيسى كما تحمل النساء بغير ذكر ، بل حلت نفخة الملك منها محل اللقاح ، ثم وضعت بعد تسعة أشهر — وقيل بل وضعت فى يوم حملها — بقرية بيت لحم ، من عمل مدينة القدس ، فى يوم الأربعاء خامس عشرى كانون الأول ، وتاسع عشرى كيهك ، سنة تسع عشرة وثلثمائة للاسكندر .

فقدمت رسل ملك فارس فى طلبه ، ومعهم هدية لها فيها ذهب ومر ولبان ، فطلبه هيرودس — ملك اليهود بالقدس — ليقتله وقد أنذر به . فسارت أمه مريم به ، وعمره سنتان ، على حمار ومعها يوسف النجار ، حتى قدموا الى أرض مصر ، فسكنوها مدة أربع سنين ، ثم عادوا وعمر عيسى ست سنين ، فنزلت به مريم قرية الناصرة من جبل الجليل فاستوطنتها .

فنشأ بها عيسى حتى بلغ ثلاثين سنة ، فسار هو وابن خالته يحيى بن زكريا عليهما السلام الى نهر الأردن ، فاغتسل عيسى فيه ، فحلت عليه النبوة ، فمضى الى البرية ، وأقام بها أربعين يوما لا يتناول طعاما ولا شرابا ، فأوحى الله اليه بأن يدعو بنى اسرائيل الى عبادة الله تعالى ، فطاف القرى ، ودعا الناس الى الله تعالى ، وأبرأ الأكمه والأبرص ، وأحيا

الموتى باذن الله ، وبكّت اليهود ، وأمرهم بالزهد فى الدنيا والتوبة من المعاصى .

فآمن به الحواريون — وكانوا قوما صيادين — وقيل قصارين ، وقيل ملاحين — وعددهم اثنا عشر رجلا ، وصدقوا بالانجيل الذى أنزله الله تعالى عليه ، وكذبه عامة اليهود وضللوه ، واتهموه بما هو برىء منه . فكانت له ولهم عدة مناظرات آلت بهم الى أن اتفق أحبارهم على قتله ، وطرقوه ليلة الجمعة ، فقيل انه رفع عند ذلك ، وقيل بل أخذوه وأتوا به الى بلاطس النبطى — شحنة القدس من قبل الملك طيباريوس قيصر — وراودوه على قتله وهو يدفعهم عنه ، حتى غلبوه على رأيه بأن دينهم اقتضى قتله ، فأمكنهم منه .

وعندما أدنوه من الخشبة ليصلبوه ، رفعه الله اليه — وذلك فى الساعة السادسة من يوم الجمعة خامس عشر شهر نيسن ، وتاسع عشرى شهر برمهات ، وخامس عشر شهر آذار ، وسابع عشر * شهر ذى القعدة — وله من العمر ثلاث وثلاثون سنة وثلاثة أشهر . فصلبوا الذى شبه لهم ، وصلبوا معه لصين ، وسمروهم بمسامير الحديد ، واقتسم الجند ثياب المصلوب . فغشيت الأرض ظلمة دامت ثلاث ساعات حتى صار النهار شبه الليل ، ورؤيت النجوم ، وكان مع ذلك هزة وزلزلة .

ثم أنزل المصلوب عن الخشبة بكرة يوم السبت ، ودفن تحت صخرة فى قبر جديد ، ووكل بالقبر من يحرسه لئلا يأخذ المقبور أصحابه . فزعم النصارى أن المقبور قام من قبره ليلة الأحد سحرا ، ودخل عشية ذلك اليوم على الحواريين وحادثهم ووصاهم ، ثم بعد الأربعين يوما من قيامه صعد الى السماء والحواريون يشاهدونه ، فاجتمعوا بعد رفعه بعشرة أيام فى علية صيون — التى يقال لها اليوم صهيون — خارج القدس ، وظهرت لهم خوارق ، فتكلموا بجميع الألسن ، فآمن بهم فيما يذكر زيادة على ثلاثة آلاف انسان ، فأخذهم اليهود وحبسوهم ، فظهرت كرامتهم ، وفتح الله لهم باب السجن ليلا ، فخرجوا الى الهيكل ، وطفقوا يدعون الناس ، فهمّ اليهود بقتلهم وقد آمن بهم نحو الخمسة آلاف انسان ، فلم يتمكنوا من قتلهم

فتفرق الحواريون فى أقطار الأرض يدعون الى دين المسيح

فسار بطرس رأس الحواريين ومعه شمعون الصفا الى أنطاكية ورومية ، فاستجاب لهم بشر كثير ، وقتل فى خامس أبيب وهو عيد القصرية .

وسار أندراوس أخوه الى نيقية وما حولها ، فآمن به كثير ، ومات فى بزنطية فى رابع كيهك .

وسار يعقوب بن زبدى ، أخو يوحنا الانجيلى ، الى بلد أبدينية ، فتبعه جماعة ، وقتل فى سابع عشر برمودة .

وسار يوحنا الانجيلى الى آسيا وأفسيس ، وكتب انجيله باليونانى ، بعدما كتب متى ومرقص ولوقا أناجيلهم ، فوجدهم قد قصروا فى أمور فتكلم عليها — وكان ذلك بعد رفع

(*) ص٤٨٢ جـ٢ ، ط. بولاق .

المسيح بثلاثين سنة — وكتب ثلاث رسائل ، ومات وقد أناف على مائة سنة .

وسار فيلبس الى قيسارية وما حولها ، وقتل بها فى ثامن هاتور ، وقد اتبعه جماعات من الناس .

وسار برتولوماوس الى أرمينية وبلاد البربر وواحات مصر ، فآمن به كثير ، وقتل .

وسار توما الى الهند ، فقتل هناك .

وسار متى العشار الى فلسطين وصور وصيدا ومدينة بصرى ، وكتب انجيله بالعبرانى بعد رفع المسيح بتسع سنين ، ونقله يوحنا الى اللغة الرومية ، وقتل متى بقرطاجنة فى ثامن عشر بابه بعدما استجاب له بشر كثير .

وسار يعقوب بن حلفا الى بلاد الهند ، ورجع الى القدس ، وقتل فى عاشر أمشير .

وسار يهوذا بن يعقوب من أنطاكية الى الجزيرة ، فآمن به كثير من الناس ، ومات فى ثانى أبيب .

وسار شمعون الى سميساط وحلب ومنبج وبزنطية ، وقتل فى سابع أبيب .

وسار ميتاس الى بلاد الشرق ، وقتل فى ثامن عشر برمهات .

وسار بولص الطرسوسى الى دمشق وبلاد الروم ورومية ، فقتل فى خامس أبيب .

وتفرق أيضا سبعون رسولا أخر فى البلاد ، فآمن بهم الخلائق .

ومن هؤلاء السبعين مرقص الانجيلى ، وكان اسمه أولا يوحنا ، فعرف ثلاثة ألسن : الفرنجى ، والعبرانى ، واليونانى . ومضى الى بطرس برومية وصحبه ، وكتب الانجيل عنده بالفرنجية بعد رفع المسيح باثنتى عشرة سنة ، ودعا الناس برومية ومصر والحبشة والنوبة ، وأقام حنانيا أسقفا على الاسكندرية ، وخرج الى برقة ، فكثرت النصارى فى أيامه ، وقتل فى ثانى عيد الفسح بالاسكندرية .

ومن السبعين أيضا : لوقا الانجيلى الطبيب تلميذ بولص . كتب الانجيل باليونانية ، عن بولص بالاسكندرية ، بعد رفع المسيح بعشرين سنة ، وقيل باثنتين وعشرين سنة .

ولما فر بطرس رأس الحواريين من حبس رومية ، ونزل بأنطاكية ، أقام بها داريوس بطركا — وأنطاكية أحد الكراسى الأربعة التى للنصارى ، وهى : رومية ، والاسكندرية ، والقدس ، وأنطاكية — فأقام داريوس بطرك أنطاكية سبعا وعشرين سنة ، وهو أول بطاركتها ، وتوارث من بعده البطاركة بها البطركية واحدا بعد واحد .

ودعا شمعون الصفا برومية خمسا وعشرين سنة ، فآمنت به بطركية وسارت الى القدس ، وكشفت عن خشبات الصليب ، وسلمتها الى يعقوب بن يوسف الأسقف ، وبنت هناك كنيسة ، وعادت الى رومية — وقد اشتدت على دين النصرانية — فآمن معها عدة من أهلها .

واجتمع الرسل بمدينة رومية ، ووضعوا القوانين ، وأرسلوها على يد قليموس ، تلميذ

بطرس ، فكتبوا فيها عدد الكتب التي يجب قبولها من العتيقة والجديدة .

فأما العتيقة : فالتوراة ، وكتاب يوشع بن نون ، وكتاب القضاة ، وكتاب راغون ، وكتاب يهوديت ، وسير الملوك ، وسفر بنيامين ، وكتب المقانين ، وكتاب عزرة ، وكتاب أستير ، وقصة هامان ، وكتاب أيوب ، وكتاب مزامير داود ، وكتب سليمان بن داود ، وكتب الأنبياء — وهى ستة عشر كتابا — وكتاب يوشع بن شيراخ .

وأما الكتب الحديثة : فالأناجيل الأربعة ، وكتاب القليتليقون ، وكتاب بولص ، وكتاب الابركسيس — وهو قصص الحواريين — وكتاب قليموس ، وفيه ما أمر به الحواريون وما نهوا عنه .

ولما قتل الملك نيرون قيصر ، بطرس رأس * الحواريين برومية ، أقيم من بعده أريوس بطرك رومية — وهو أول بطرك صار على رومية — فأقام فى البطركية اثنتى عشرة سنة ، وقام من بعده البطاركة بها واحدا بعد واحد الى يومنا هذا الذى نحن فيه .

ولما قتل يعقوب ، أسقف القدس ، على يد اليهود ، هدموا بعده البيعة ، وأخذوا خشبة الصليب والخشبتين معها ودفنوها ، وألقوا على موضعها ترابا كثيرا ، فصار كوما عظيما ، حتى أخرجتها هيلانة أم قسطنطين ، كما ستراه قريبا ان شاء الله تعالى .

وأقيم بعد قتل يعقوب سمعان ابن عمه ، أسقف القدس ، فمكث اثنتين وأربعين سنة أسقفا ومات ، فتداول الأساقفة بعده الأسقفية بالقدس واحدا بعد آخر .

ولما أقام مرقص حنانيا — ويقال أنانيو — بطرك الاسكندرية ، جعل معه اثنى عشر قسا ، وأمرهم اذا مات البطرك أن يجعلوا عوضه واحدا منهم ، ويقيموا بدل ذلك القس واحدا من النصارى حتى لا يزالوا أبدا اثنى عشر قسا ، فلم تزل البطاركة تعمل من القسوس ... الى أن اجتمع ثلثمائة وثمانية عشر ، كما ستراه ان شاء الله تعالى .

وكان بطرك الاسكندرية يقال له البابا من عهد حنانيا هذا ، أول بطاركة الاسكندرية ، الى أن أقيم ديمتريوس ، وهو الحادى عشر من بطاركة الاسكندرية ، ولم يكن بأرض مصر أساقفة ، فنصب الأساقفة بها ، وكثروا . فغزاها فى بطركيته هرقل ، وصار الأساقفة يسمون البطرك الأب ، والقسوس وسائر النصارى يسمون الأسقف الأب ، ويجعلون لفظة البابا تختص ببطرك الاسكندرية ، ومعناها أبو الآباء .

ثم انتقل هذا الاسم عن كرسى الاسكندرية الى كرسى رومية ، من أجل أنه كرسى بطرس رأس الحواريين ، فصار بطرك رومية يقال له البابا ، واستمر على ذلك الى زمننا الذى نحن فيه . وأقام أنانيو ، وهو حنانيا ، فى بطركية الاسكندرية اثنتين وعشرين سنة ، ومات فى عشرى هاتور سنة سبع وثمانين لظهور المسيح . فأقيم بعده مينيو ، فاقام ثنتى عشرة سنة وتسعة أشهر ، ومات

(*) ص٤٨٣ ج٢ ، ط. بولاق

وفى أثناء ذلك ثار اليهود على النصارى ، وأخرجوهم من القدس ، فعبروا الأردن ، وسكنوا تلك الأماكن . فكان بعد هذا بقليل خراب القدس ، وجلاية اليهود ، وقتلهم على يد طيطش — ويقال طيطوس — بعد رفع المسيح بنحو أربع وأربعين سنة . فكثرت النصارى فى أيام بطركية مينيو ، وعاد كثير منهم الى مدينة القدس بعد تخريب طيطش لها ، وبنوا بها كنيسة وأقاموا عليها سمعان أسقفا ، ثم أقيم بعد مينو فى الاسكندرية فى البطركية كربيانو .

وفى أيام الملك اندريانوس قيصر ، أصاب النصارى منه بلاء كثير ، وقتل منهم جماعة كثيرة ، واستعبد باقيهم . فنزل بهم بلاء لا يوصف فى العبوديه ، حتى رحمهم الوزراء وأكابر الروم ، وشفعوا فيهم ، فمن علم قيصر وأعتقهم . ومات كرتيانو بطرك الاسكندرية ، فى حادى عشر برمودة ، بعدما دبر الكرسى احدى عشرة سنة ، وكان حميد السيرة . فقدم بعده أيريمو ، فأقام اثنتى عشرة سنة ، ومات فى ثالث مسرى .

واشتد الأمر على النصارى فى أيام الملك أريدوبانوس ، وقتل منهم خلائق لا يحصى عددهم ، وقدم مصر ، فأفنى من بها من النصارى ، وخرب ما بنى فى مدينة القدس من كنيسة النصارى ، ومنعهم من التردد اليها ، وأنزل عوضهم بالقدس اليونانيين ، وسمى القدس ايليا ، فلم يتجاسر نصرانى أن يدنو من القدس .

وأقيم بعد موت أيريمو بطرك الاسكندرية بسطس ، فأقام احدى عشرة سنة ، ومات فى ثانى عشر بؤونة . فخلف بعده أرمانيون ، فأقام عشر سنين وأربعة أشهر ، ومات فى عاشر بابة . فأقيم بعده موقيانو ، بطرك الاسكندرية ، تسع سنين وستة أشهر ، ومات فى سادس طوبة . فقدم بعده على الاسكندرية كلوتيانو ، فأقام أربع عشرة سنة ، ومات فى تاسع أبيب وفى أيامه اشتد الملك أوليانوس قيصر على النصارى ، وقتل منهم خلقا كثيرا .

وقدم على كرسى الاسكندرية بعد كلوتيانو غرنبو بطركا ، فأقام اثنتى عشرة سنة ، ومات فى خامس أمشير . وفى أيام بطركيته اتفق رأى البطاركة ، بجميع الأمصار ، على حساب فصح النصارى وصومهم ، ورتبوا كيف يستخرج ، ووضعوا حساب الأبقطى ، وبه يستحرجون معرفة وقت صومهم وفصحهم ، واستمر الأمر على ما رتبوه فيما بعد .

وكانوا قبل ذلك يصومون بعد الغطاس أربعين يوما — كما صام المسيح عليه السلام — ويفطرون ، وفى عيد الفسح يعملون الفسح مع اليهود . فنقل هؤلاء البطاركة الصوم ، أوصلوه بعيد الفسح ، لأن عيد الفسح كانت فيه قيامة المسيح من الأموات بزعمهم ، وكان الحواريون قد أمروا ألا يغير عن وقته ، وأن يعملوه كل سنة فى ذلك الوقت .

ثم أقيم نكرسى الاسكندرية بعد غرنبو فى البطركية بوليانوس ، فأقام غشر سنين ، ومات فى ثامن برمهات . فاستخلف بعده ديمتريوس فأقام بعده فى البطركية ثلاثا وثلاثين سنة ، ومات ، وكان فلاحا أميا ، وله زوجة ذكر عنه أنه لم يجامعها قط . وفى أيامه أثار الملك

سوريانوس قيصر على النصارى بلاء كبيرا في جميع مملكته * ، وقتل منهم خلقا كثيرا ، وقدم مصر وقتل جميع من فيها من النصارى ، وهدم كنائسهم ، وبنى بالاسكندرية هيكلا لأصنامه .

ثم أقيم بعده في بطركية الاسكندرية باركلا ، فأقام ست عشرة سنة ، ومات في ثامن كيهك . فلقى النصارى من الملك مكسيموس قيصر شدة عظيمة ، وقتل منهم خلقا كثيرا ، فلما ملك فيلبش قيصر أكرم النصارى .

وقدم على بطركية الاسكندرية ديوسيوس ، فأقام تسع عشرة سنة ، ومات في ثالث توت ، وفي أيامه كان الراهب أنطونيوس المصرى ، وهو أول من ابتدأ بلبس الصوف ، وابتدأ بعمارة الديارات في البرارى ، وأنزل بها الرهبان .

ولقى النصارى من الملك داقيوس قيصر شدة . فإنه أمرهم أن يسجدوا لأصنامه ، فأبوا من السجود لها ، فقتلهم أبرح قتلة ، وفر منه الفتية أصحاب الكهف من مدينة أفسس ، واختفوا في مغارة في جبل شرقى المدينة وناموا ، فضرب الله على آذانهم ، فلم يزالوا نائمين ثلثمائة سنين وازدادوا تسعا . فقام من بعده بالاسكندرية مكسيموس ، وأقام بطركا اثنتى عشرة سنة ، ومات في رابع عشر برمودة .

فأقيم بعده تؤوبا بطركا مدة سبع سنين وتسعة أشهر ، ومات . وكانت النصارى قبله تصلى بالاسكندرية خفية من الروم خوفا من القتل ، فلاطف تؤوبا الروم ، وأهدى اليهم تحفا جليلة حتى بنى كنيسة مريم بالاسكندرية فصلى بها النصارى جهرًا . واشتد الأمر على النصارى في أيام الملك طيباريوس قيصر ، وقتل منهم خلقا كثيرا .

فلما كانت أيام دقلطيانوس قيصر ، خالف عليه أهل مصر والاسكندرية ، فقتل منهم خلقا كثيرا ، وكتب بغلق كنائس النصارى ، وأمر بعبادة الأصنام ، وقتل من امتنع منها ، فارتد خلائق كثيرة جدا . وأقام في البطركية بعد تؤوبا بطرس ، فأقام احدى عشرة سنة ، وقتل في الاسكندرية بالسيف ، وقتل معه امرأته وابنتاه لامتناعهم من السجود للأصنام . فقام بعده تلميذه أرشلاوش ، فأقام ستة أشهر ومات .

وبدقلطيانوس هذا ، وقتله لنصارى مصر ، يؤرخ قبط مصر الى يومنا هذا — كما قد ذكرناه في تاريخ القبط عند ذكر التواريخ من هذا الكتاب — فراجعه . ثم قام من بعده مكسيمانوس قيصر ، فاشتد على النصارى ، وقتل منهم خلقا كثيرا ، حتى كانت القتلى منهم تحمل على العجل ، وترمى في البحر .

ثم قام بعد أرشلاوش في بطركية الاسكندرية اسكندروس ، تلميذ بطرس الشهيد ، فأقام ثلاثا وعشرين سنة ، ومات في ثانى عشرى برمودة . وفي بطركيته كان مجمع النصارى بمدينة نيقية ، وفي أيامه كتب النصارى وغيرهم من أهل رومية الى قسطنطين — وكان على مدينة بزنطية — يحثونه على أن ينقذهم من جور مكسيمانوس ، وشكوا اليه عتوه ، فأجمع على المسير لذلك .

(*) ص٤٨٤ ج٢ ، ط . بولاق .

وكانت أمه هيلانى ، من أهل قرى مدينة الرها ، قد تنصرت على يد أسقف الرها ، وتعلمت الكتب . فلما مر بقريتها قسطس — صاحب شرطة دقلطيانوس — رآها فأعجبته ، فتزوجها ، وحملها الى بزنطية مدينته ، فولدت له قسطنطين ، وكان جميلا ، فأنذر دقلطيانوس منجموه بأن هذا الغلام قسطنطين سيملك الروم ، ويبدل دينهم ، فأراد قتله ، ففر منه الى الرها ، وتعلم بها الحكمة اليونانية حتى مات دقلطيانوس ، فعاد الى بزنطية ، فسلمها له أبوه قسطس ومات .

فقام بأمرها ، بعد أبيه ، الى أن استدعاه أهل رومية ، فأخذ يدبر فى مسيره ، فرأى فى منامه كواكب فى السماء على هيئة الصليب ، وصوت من السماء يقول له : احمل هذه العلامة تنتصر على عدوك . فقص رؤياه على أعوانه ، وعمل شكل الصليب على أعلامه وبنوده ، وسار لحرب مكسيمانوس برومية ، فبرز اليه وحاربه ، فانتصر قسطنطين عليه ، وملك رومية ، وتحول منها فجعل دار ملكه قسطنطينية . فكان هذا ابتداء رفع الصليب وظهوره فى الناس ، فاتخذه النصارى من حينئذ ، وعظموه حتى عبدوه .

وأكرم قسطنطين النصارى ، ودخل فى دينهم بمدينة نيقومديا فى السنة الثانية عشرة من ملكه على الروم ، وأمر ببناء الكنائس فى جميع ممالكه ، وكسر الأصنام ، وهدم بيوتها ، وعمل المجمع بمدينة نيقية .

وسببه : أن الاسكندروس ، بطرك الاسكندرية ، منع أريوس من دخول الكنيسة وحرمه لمقالته ، ونقل عن بطرس الشهيد بطرك اسكندرية أنه قال عن أريوس : ان ايمانه فاسد ، وكتب بذلك الى جميع البطاركة .

فمضى أريوس الى الملك قسطنطين ومعه أسقفان فاستغاثوا به وشكوا الاسكندروس ، فأمر باحضاره من الاسكندرية ، فحضر هو وأريوس ، وجمع له الأعيان من النصارى ليناظروه .

فقال أريوس كان الأب اذ لم يكن الابن ، ثم أحدث الابن فصار كلمة له ، فهو محدث مخلوق فوض اليه الأب كل شىء ، فخلق الابن — المسمى بالكلمة — كل شىء من السموات والأرض وما فيهما ، فكان هو الخالق بما أعطاه الأب ثم ان تلك الكلمة تجسدت من مريم وروح القدس ، فصار ذلك مسيحا ، فاذا المسيح معنيان : كلمة ، وجسد ، وهما جميعا مخلوقان .

فقال الاسكندروس أيما أوجب عبادة من خلقنا ، أو عبادة من لم يخلقنا ؟

فقال أريوس : بل عبادة * من خلقنا أوجب .

فقال الاسكندروس : فان كان الابن خلقنا كما وصفت ، وهو مخلوق ، فعبادته أوجب من عبادة الأب الذى ليس بمخلوق ، بل تكون عبادة الخالق كفرا ، وعبادة المخلوق ايمانا ، وهذا أقبح القبيح .

فاستحسن الملك قسطنطين كلام اسكندروس ، وأمره أن يحرم أريوس فحرمه ، وسأل اسكندروس الملك أن يحضر

(*) ص٤٨٥ جـ٢ ، ط. بولاق .

الأساقفة ، فأمر بهم ، فأتوه من جميع ممالكه ، واجتمعوا بعد ستة أشهر بمدينة نيقية ، وعدتهم ألفان وثلثمائة وأربعون أسقفا ، مختلفون في المسيح .

فمنهم من يقول : الابن من الأب بمنزلة شعلة نار تعلقت من شعلة أخرى ، فلم تنقص الأولى بانفصال الثانية عنها . وهذه مقالة سيليوس الصعيدي ومن تبعه .

ومنهم من قال : ان مريم لم تحمل بالمسيح تسعة أشهر ، بل مر باحشائها كمرور الماء بالميزاب . وهذا قول اليان ومن تبعه .

ومنهم من قال : المسيح بشر مخلوق ، وان ابتداء الابن من مريم ، ثم انه اصطفى فصحبته النعمة الالهية بالمحبة والمشيئة ، ولذلك سمى ابن الله تعالى عن ذلك ، ومع ذلك فالله واحد قيوم ، وأنكر هؤلاء الكلمة والروح فلم يؤمنوا بهما . وهذا قول بولص السيمساطي بطرك أنطاكية وأصحابه .

ومنهم من قال : الآلهة ثلاثة : صالح ، وطالح ، وعدل بينهما . وهذا قول مرقيون وأتباعه .

ومنهم من قال : المسيح وأمه الهان من دون الله . وهذا قول المرايمة من فرق النصارى .

ومنهم من قال : بل الله خلق الابن — وهو الكلمة في الأزل — كما خلق الملائكة روحا طاهرة مقدسة بسيطة مجردة عن المادة ، ثم خلق المسيح في آخر الزمان من أحشاء مريم البتول الطاهرة ، فاتحد الابن المخلوق في الأزل بانسان المسيح ، فصارا واحدا .

ومنهم من قال : الابن مولود من الأب قبل كل الدهور ، غير مخلوق ، وهو جوهر من جوهره ونور من نوره ، وان الابن اتحد بالانسان المأخوذ من مريم ، فصارا واحدا وهو المسيح . وهذا قول الثلثمائة وثمانية عشر .

فتحير قسطنطين في اختلافهم ، وكثر تعجبه من ذلك ، وأمر بهم فأنزلوا في أماكن ، وأجرى لهم الأرزاق ، وأمرهم أن يتناظروا حتى يتبين له صوابهم من خطئهم . فثبت الثلثمائة وثمانية عشر على قولهم المذكور ، واختلف باقيهم .

فمال قسطنطين الى قول الأكثر ، وأعرض عما سواه ، وأقبل على الثلثمائة وثمانية عشر ، وأمر لهم بكراسى ، وأجلسهم عليها ، ودفع اليهم سيفه وخاتمه ، وبسط أيديهم في جميع مملكته . فباركوا عليه ، ووضعوا له كتاب « قوانين الملوك وقوانين الكنيسة » ، وفيه ما يتعلق بالمحاكمات والمعاملات والمناكحات ، وكتبوا بذلك الى سائر الممالك .

وكان رئيس هذا المجمع الاسكندروس بطرك الاسكندرية ، واسطارس بطرك انطاكية ، ومقاريوس أسقف القدس ، ووجه سلطوس بطرك رومية بقسيسين اتفقا معهم على حرمان أريوس ، فحرموه ونفوه .

ووضع الثلثمائة وثمانية عشر الأمانة المشهورة عندهم ، وأوجبوا أن يكون الصوم متصلا بعيد الفسح على ما رتبه البطاركة في أيام الملك أوراليانوش قيصر ، كما تقدم ، ومنعوا أن يكون للأسقف زوجة — وكان

الأساقفة قبل ذلك اذا كان مع أحدهم زوجة لا يمنع منها اذا عمل أسقفا ، بخلاف البطرك فانه لا يكون له امرأة ألبتة — وانصرفوا من مجلس قسطنطين بكرامة جليلة .

والاسكندروس هذا هو الذي كسر الصنم النحاس الذى كان فى هيكل زحل بالاسكندرية ، وكانوا يعبدونه ، ويجعلون له عيدا فى ثانى عشر هتور ، ويذبحون له الذبائح الكثيرة . فأراد الاسكندروس كسر هذ الصنم ، فمنعه أهل الاسكندرية ، فاحتال عليهم ، وتلطف فى حيلته الى أن قرب العيد ، فجمع الناس ، ووعظهم ، وقبح عندهم عبادة الصنم ، وحثهم على تركه ، وأن يعمل هذا العيد الميكائيل ، رئيس الملائكة الذى يشفع فيهم عند الاله ، فان ذلك خير من عمل العيد للصنم ، فلا يتغير عمل العيد الذى جرت عادة أهل البلد بعمله ، ولا تبطل ذبائحهم فيه .

فرضى الناس بهذا ، ووافقوه على كسر الصنم ، فكسره وأحرقه ، وعمل بيته كنيسة على اسم ميكائيل . فلم تزل هذه الكنيسة بالاسكندرية الى أن جرقها جيوش الامام المعز لدين الله أبى تميم معد ، لما قدموا فى سنة ثمان وخمسين وثلثمائة ، واستمر عيد ميكائيل عند النصارى بديار مصر باقيا يعمل فى كل سنة .

وفى السنة الثانية والعشرين من ملك قسطنطين ، سارت أمه هيلانى الى القدس ، وبنت به كنائس للنصارى ، فدلها مقاريوس الأسقف على الصليب ، وعرفها ما عملته اليهود ، فعاقبت كهنة اليهود حتى دلوها على الموضع ، فحفرته فاذا قبر وثلاث خشبات ، زعموا أنهم لم يعرفوا الصليب المطلوب من الثلاث خشبات ، الا بأن وضعت كل واحدة منها على ميت قد بلى فقام حيا عندما وضعت عليه خشبة منها . فعملوا لذلك عيدا ، مدة ثلاثة أيام ، عرف عندهم بعيد الصليب .

ومن حينئذ عبد النصارى الصليب ، وعملت له هيلانى غلافا من ذهب ، وبنت كنيسة القيامة — التى تعرف بكنيسة قمامة — وأقامت مقاريوس الأسقف على بناء بقية الكنائس ، وعادت الى بلادها . فكانت مدة ما بين ولادة المسيح وظهور الصليب * ثلثمائة وثمان وعشرين سنة .

ثم قام فى بطركية الاسكندرية ، بعد اسكندروس ، تلميذه ايناسيوس الرسولى ، فأقام ستا وأربعين سنة ، ومات بعد ما ابتلى بشدائد ، وغاب عن كرسيه ثلاث مرات .

وفى أيامه جرت مناظرات طويلة مع أوسانيوس للأسقف آلت الى ضربه وفراره . فانه تعصب لأريوس ، وقال : انه لم يقل ان المسيح خلق الأشياء ، وانما قال به خلق كل شيء ، لأنه كلمة الله التى بها خلق السموات والأرض ، وانما خلق الله تعالى جميع الأشياء بكلمته ، فالأشياء به كونت لا أنه كونها ، وانما الثلثمائة وثمانية عشر تعدوا عليه .

وفى أيامه تنصر جماعة من اليهود ، وطعن بعضهم فى التوراة التى بأيدى اليهود ، وأنهم نقصوا منها ، وأن الصحيحة هى التى فسرها السبعون . فأمر قسطنطين اليهود باحضارها ،

(*) ص٤٨٦ جـ٢ ، ط. بولاق .

وعاقبهم على ذلك حتى دلوه على موضعها بمصر ، فكتب باحضارها فحملت اليه ، فاذا بينها وبين توراة اليهود نقص ألف وثلثمائة وتسع وستين سنة ، زعموا أنهم نقصوها من مواليد من ذكر فيها لأجل المسيح .

وفى أيامه بعثت هيلانى بمال عظيم الى مدينة الرها ، فبنى به كنائسها العظيمة ، أمر قسطنطين باخراج اليهود من القدس ، وألزمهم بالدخول فى دين النصرانية ، من امتنع منهم قتل فتنصر كثير منهم ، وامتنع أكثرهم فقتلوا ، ثم امتحن من تنصر منهم بأن جمعهم يوم الفسح فى الكنيسه وأمرهم بأكل لحم الخنزير ، فأبى أكثرهم أن يأكل منه ، فقتل منهم فى ذلك اليوم خلائق كثيرة جدا .

ولما قام قسطنطين بن قسطنطين فى الملك بعد أبيه، غلبت مقالة أريوس على القسطنطينية وأنطاكية والاسكندرية ، وصار أكثر أهل الاسكندرية وأرض مصر أريوسيين ومانيين، واستولوا على ما بها من الكنائس ، ومال الملك الى رأيهم ، وحمل الناس عليه ، ثم رجع عنه .

وزعم أبريس ، أسقف القدس ، أنه ظهر من السماء ، على القبر الذى بكنيسة القمامة ، شبه صليب من نور فى يوم عيد العنصرة ، لعشرة أيام من شهر أيار ، فى الساعة الثالثة من النهار ، حتى غلب نوره على نور الشمس ، ورآه جميع أهل القدس عيانا ، فأقام فوق القبر عدة ساعات والناس تشاهده . فآمن يومئذ من اليهود وغيرهم عدة آلاف كثيرة .

ثم لما ملك مولهيانوس ابن عم قسطنطين ، اشتدت نكايته للنصارى ، وقتل منهم خلقا كثيرا ، ومنعهم من النظر فى شىء من الكتب وأخذ أوانى الكنائس والديارات ، ونصب مائدة كبيرة عليها أطعمة مما ذبحه لأصنامه ، ونادى . من أراد المال فليضع البخور على النار ، وليأكل من ذبائح الحنفاء وليأخذ ما يريد من المال ، فامتنع كثير من الروم ، وقالوا : نحن نصارى ، فقتل منهم خلائق ، ومحا الصليب من أعلامه وبنوده

وفى أيامه سكن القديس أيارنوس برية الأردن ، وبنى بها الديارات ، وهو أول من سكن برية الأردن من النصارى .

فلما ملك يرسيانوس على الروم — كان متنصرا — عاد كل من كان نفى من الأساقفة الى كرسيه ، وكتب الى ايناسيوس بطرك الاسكندريه ، أن يشرح له الأمانة المستقيمة ، فجمع الأساقفة وكتبوا له أن يلزم أمانة الثلثمائة والثمانية عشرة .

فثار أهل الاسكندرية على ايناسيوس ليقتلوه ففر ، وأقاموا بدله لوقيوس — وكان أريوسيا — فاجتمع مجمع الأساقفة بعد خمسة أشهر ، وحرموه ونفوه ، وأعادوا اثناسيوس الى كرسيه ، فأقام بطركا الى أن مات فخلفه بطرس ، ثم وثب الأريسيون عليه بعد سنتين ففر منهم ، وأعادوا لوقيوس ، فأقام بطركا ثلاث سنين ، ووثب عليه أعداؤه ففر منهم ، فردوا بطرس فى العشرين من أمشير ، فأقام سنة .

وقدم في أيام واليس ملك الروم أريوس أسقف أنطاكية الى الاسكندرية باذن الملك ، وأخرج منها جماعة من الروم ، وحبس بطرس بطركها ، ونصب بدله أريوس السنيمساطى . ففر بطرس من الحبس الى رومية ، واستجار ببطركها .

وكان واليس أريوسيا ، فسار الى زيارة كنيسة مار توما بمدينة الرها ، ونفى أسقفها وجماعة معه الى جزيرة رودس ، ونفى سائر الأساقفة لمخالفتهم لرأيه ما عدا اثنين ، وأقام في بطركية الاسكندرية طيماثاوس ، فأقام سبع سنين ومات .

وفي أيامه كان المجمع الثاني من مجامع النصارى بقسطنطينية ، في سنة اثنتى عشرة ومائة لدقلطيانوس ، فاجتمع مائة وخمسون أسقفا ، وحرموا مقدينوس ، عدو روح القدس ، وكل من قال بقوله ، وسبب ذلك أنه قال : ان روح القدس مخلوق ، وحرموا معه غير واحد لعقائد شنيعة تظاهروا بها في المسيح .

وزاد الأساقفة في الأمانة التي رتبها الثلثمائة وثمانية عشرة : ونؤمن بالروح القدس ، الرب المحيى المنبثق من الأب — قلت : تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا — وحرموا أن يزاد فيها بعد ذلك شيء ، أو ينقص منها شيء ، وكان هذا المجمع بعد مجمع نيقية بثمان وخمسين سنة .

وفي أيامه بنيت عدة كنائس بالاسكندرية ، واستتيب جماعة كثيرة من مقالة أريوس . وفي أيامه أطلق للأساقفة والرهبان أكل اللحم يوم الفسح ليخالفوا الطائفة المنانيسة ، فانهم كانوا يحرمون أكل اللحم مطلقا ، ورد الملك اغراديانوس كل من نفاه واليس من الأساقفة ، وأمر * أن يلزم كل واحد دينه ما خلا المنانية .

ثم أقيم بكرسى الأسكندرية تاوفيلا ، فأقام سبعا وعشرين سنة ، ومات في ثامن عشر بابة . وفي أيامه ظهر الفتية أهل الكهف — وكان تاوداسيوس اذ ذاك ملكا على الروم — فبنى عليهم كنيسة ، وجعل لهم عيدا في كل سنة .

واشتد الملك تاوداسيوس على الأريسيين ، وضيق عليهم ، وأمر فأخذت منهم كنائس النصارى بعدما حكموها نحو أربعين سنة ، وأسقط من جيشه من كان أريوسيا ، وطرد من كان في ديوانه وخدمه منهم ، وقتل من الحنفاء كثيرا ، وهدم بيوت الأصنام بكل موضع ، وفي أيامه بنيت كنيسة مريم بالقدس .

وفي أيام الملك أرغاديوس بنى دير القصر — المعروف الآن بدير البغل — في جبل المقطم شرقى طرا خارج مدينة فسطاط مصر .

ثم أقيم في بطركية الاسكندرية كرلص ، فأقام اثنتين وثلاثين سنة ، ومات في ثالث أبيب . وهو أول من أقام القومة في كنائس الاسكندرية وأرض مصر .

وفي أيامه كان المجمع الثالث من مجامع النصارى ، بسبب نسطورس بطرك قسطنطين ، فانه منع أن تكون مريم أم عيسى ، وقال : انما ولدت مريم انسانا اتحد بمشيئة الاله (يعني عيسى) فصار الاتحاد بالمشيئة

(*) ص٤٨٧ جـ٢ ، ط. بولاق .

خاصة لا بالذات ، وان اطلاق الاله على عيسى ليس هو بالحقيقة بل بالموهبة والكرامة .

وقال : ان المسيح حل فيه الابن الأزلى ، وانى أعبده لأن الاله حل فيه ، وانه جوهران وأقنومان ومشيئة واحدة . وقال فى خطبتـه يوم الميلاد : ان مريم ولدت انسانا ، وأنا لا أعتقد فى ابن شهرين وثلاثة الالهيـة ، ولا أسجد له سجودى للاله .

وكان هذا هو اعتقاد تادروس وديوادارس الأسقفين ، وكان من قولهما : ان المولود من مريم هو المسيح ، والمولود من الأب هو الابن الأزلى ، وانه حل فى المسيح فسمى ابن الله بالموهبة والكرامة ، وإن الاتحـاد بالمشيئة والارادة ، وأثبتوا لله ــ تعالى عن قولهم ــ ولدين : أحدهما بالجوهر ، والآخر بالنعمة .

فلما بلغ كرلص بطرك الاسكندرية مقـالة نسـطورس ، كتب اليـه يرجعه عنها ، فلم يرجع . فكتب الى اكليمس بطرك رومـيـة ، والى يوحنا بطرك أنطاكية ، والى يوناليـوس أسقف القـدس ، يعرفهم بذلك . فـكـتبوا بأجمعهم الى نسطورس ليرجع عن مقالته ، فلم يرجع .

فتواعد البطاركة على الاجتماع بمدينـة أفسس . فاجتمع بها مائتا أسقف ، ولم يحضر يوحنا بطرك أنطاكية ، وامتنع نسطورس من المجىء اليهم بعدما كرروا الارسال فى طلبـه غير مرة ، فنظروا فى مقالته ، وحرموه ونفوه . فحضر بعد ذلك يوحنا ، فعز عليه فصل الأمر قبل قدومه ، وانتصر لنسطورس ، وقال : قد حرموه بغير حق .

وتفـرقوا من أفسـس عـلى شر ، ثم اصطلحوا ، وكتب المشرقيون صحيفة بأمانتهم وبحرمان نسطورس ، وبعثوا بها الى كرلص . فقبلها ، وكتب اليهم بأن أمانته على ما كتبوا . فكان بين المجمع الثانى وبين هذا المجمـع خمسون ــ وقيـل خمس وخمسـون ــ سنة .

وأما نسطورس فانه نفى الى صعيد مصر ، فنزل مدينة اخميم ، وأقام بها سـبع سنين ، ومات فدفن بها . وظهرت مقالتـه ، فقبلهـا برصوما أسقف نصيبين ، ودان بها نصـارى أرض فارس والعراق والموصل والجزيرة الى الفرات ، وعرفوا الى اليوم بالنسطورية .

ثم قدم تاوداسيوس ملك الروم ، فى الثانية من ملكه ، ديسفورس بطركا بالاسكندرية ، فظهر فى أيامه مذهب أوطاخى ، أحد القنوميين بالقسطنطينية ، وزعم أن جسد المسيح لطيف غير مساو لأجسادنا ، وأن الابن لم يأخذ من مريم شـيئا . فاجتمـع عليـه مائة وثلاثون أسقفا ، وحرموه .

واجتمع بالاسكندرية كثير من اليهود فى يوم الفسح ، وصلبوا صنما على مثال المسيح وعبثوا به ، فثار بينهم وبين النصارى شر قتل فيه بين الفريقين خلق كثير ، فبعث اليهم ملك الروم جيشا قتل أكثر يهود الاسكندرية .

وكان المجمع الرابع من مجـامع النصارى بمدينة خلقدونية . وسببه أن ديسـقورس بطرك الاسكندرية ، قال : ان المسيح جوهر من جوهرين ، وقنوم من قنومين ، وطبيعـة من طبيعتين ، ومشيئة من مشيئتين . وكان

رأى مرقيانوس ملك الروم أنه جسد ، وأهل مملكته أنه جوهران وطبيعتان ومشيئتان وقنوم واحد . فلما رأى الأساقفة أن هذا رأى الملك خافوه ، فوافقوه على رأيه ، ما خلا ديسقورس وستة أساقفة ، فانهم لم يوافقوا الملك ، وكتب من عداهم من الأساقفة خطوطهم بما اتفقوا عليه .

فبعث ديسقورس يطلب منهم الكتاب ليكتب فيه . فلما وصل اليه كتابهم ، كتب فيه أمانته هو ، وحرمهم وكل من يخرج عنها . فغضب الملك مرقيانوس ، وهم بقتله ، فأشير عليه باحضاره ومناظرته ، فأمر به فحضر ، وحضر ستمائة وأربعة وثلاثون أسقفا . فأشار الأساقفة والبطاركة على ديسقورس بموافقة رأى الملك ، واستمراره على رياسته .

فدعا للملك وقال لهم : الملك لايلزمه البحث فى هذه الأمور الدقيقة ، بل ينبغى له أن يشتغل بأمور مملكته وتدبيرها ، ويدع الكهنة يبحثون عن الأمانة المستقيمة فانهم يعرفون الكتب ، ولا يكون له هوى مع أحد ويتبع الحق .

فقالت بلخارية زوجة الملك مرقيانوس ، وكانت جالسة * بازائه : ياديسقورس قد كان فى زمان أمى انسان قوى الرأس مثلك ، وحرموه ونفوه عن كرسيه ، تعنى يوحنا فم الذهب بطرك قسطنطينية .

فقال لها : قد علمت ماجرى لأمك ، وكيف ابتليت بالمرض الذى تعرفينه ، الى أن مضت الى جسد يوحنا فم الذهب ، واستغفرت فعوفيت .

فحنقت من قوله ، ولكمته ، فانقلع له ضرسان ، وتناولته أيدى الرجال ، فنتفوا أكثر لحيته ، وأمر الملك بحرمانه ونفيه عن كرسيه . فاجتمعوا عليه وحرموه ونفوه ، وأقيم عوضه برطاوس .

ومن هذا المجمع افترق النصارى ، وصاروا ملكية على مذهب مرقيانوس الملك ، ويعقوبية على رأى ديسقورس ، وذلك فى سنة ثلاث وتسعين ومائة لدقلطيانوس ، وكتب مرقيانوس الى جميع مملكته أن كل من لا يقول بقوله يقتل . فكان بين المجمع الثالث وبين هذا المجمع احدى وعشرون سنة .

وأما ديسقورس فانه أخذ ضرسيه وشعر لحيته ، وأرسلها الى الاسكندرية ، وقال : هذه ثمرة تعبى على الأمانة . فتبعه أهل اسكندرية ومصر ، وتوجه فى نفيه فعبر على القدس وفلسطين ، وعرفهم مقالته ، فتبعوه وقالوا بقوله ، وقدم عدة أساقفة يعقوبية ، ومات وهو منفى فى رابع توت ، فكانت مدة بطركيته أربع عشرة سنة . وبقى كرسى المملكة بغير بطرك مدة مملكة مرقيانوس ، وقيل بل قدم برطاوس .

وقد اختلف فى تسمية اليعقوبية بهذا : فقيل ان ديسقورس كان يسمى قبل بطركيته يعقوب ، وانه كان يكتب وهو منفى الى أصحابه بأن يثبتوا على أمانة المسكين المنفى يعقوب .

وقيل بل كان له تلميذ اسمه يعقوب . وكان يرسله وهو منفى الى أصحابه ، فنسبوا اليه .

(*) ص٤٨٨ جـ٢ ، ط. بولاق .

وقيل بل كان يعقوب تلميذ ساويرس بطرك أنطاكية ، وكان على رأى ديسقورس ، فكان ساويرس يبعث يعقوب الى النصارى ، ويثبتهم على أمانة ديسقورس ، فنسبوا اليه .

وقيل بل كان يعقوب كثير العبادة والزهد ، يلبس خرق البراذع ، فسمى يعقوب البراذعى من أجل ذلك ، وانه كان يطوف البلاد ، ويرد الناس الى مقالة ديسقورس ، فنسب من اتبع رأيه اليه ، وسموا يعقوبية ، ويقال ليعقوب أيضا يعقوب السروجى .

وفى أيام مرقيانوس كان سمعان الحبيس ، صاحب العمود ، وهو أول راهب سكن صومعة ، وكان مقامه بمغارة فى جبل أنطاكية .

ولما مات مرقيانوس ، وثب أهل الاسكندرية على برطاوس البطرك ، وقتلوه فى الكنيسة ، وحملوا جسده الى الملعب الذى بناه بطليموس ، وأحرقوه بالنار من أجل أنه ملكى الاعتقاد ، فكانت مدة بطركيته ست سنين .

وأقاموا عوضه طيماتاوس — وكان يعقوبيا — فأقام ثلاث سنين ، وقدم قائد من قسطنطينية فنفاه ، وأقام عوضه ساويرس — وكان ملكيا — فأقام اثنتين وعشرين سنة ، ومات فى سابع مسرى .

فلما ملك زنبون بن لاون الروم ، أكرم اليعقوبية ، وأعزهم لأنه كان يعقوبيا ، وكان يحمل الى دير يوقنا كل سنة ما يحتاج اليه من القمح والزيت . وهرب ساويرس من كرسى الاسكندرية الى وادى هبيب ، ورجع طيماتاوس من نفيه ، فأقام بطركا سنتين ومات . فأقيم بعده بطرس ، فأقام ثمان سنين وسبعة أشهر وستة أيام ، ومات فى رابع هتور .

فأقيم بعده اثناسيوس ، فأقام سبع سنين ، ومات فى العشرين من توت ، وفى أيامه احترق الملعب الذى بناه بطليموس . وأقيم يوحنا فى بطركية الاسكندرية — وكان يعقوبيا — فأقام تسع سنين ، ومات فى رابع بشنس ، فخلا الكرسى بعده سنة . ثم أقيم يوحنا الحبيس ، فأقام احدى وعشرين سنة ، ومات فى سابع عشرى بشنس . فأقيم بعده ديسقورس الجديد ، فأقام سنتين وخمسة أشهر ، ومات فى سابع عشر بابة .

وكتب ايليا بطرك القدس ، الى نسطاس ملك الروم ، بأن يرجع عن مقالة اليعقوبية الى مقالة الملكية ، وبعث اليه جماعة من الرهبان بهدية سنية . فقبل هديته ، وأجاز الرهبان بجوائز جليلة ، وجهز له مالا جزيلا لعمارة الكنائس والديارات والصدقات .

فتوجه ساويرس الى نسطاس ، وعرفه أن الحق هو اعتقاد اليعقوبية ، فأمر أن يكتب الى جميع مملكته بقبول قول ديسقورس ، وترك المجمع الخلقدونى . فبعث اليه بطرك أنطاكية بأن هذا الذى فعلته غير واجب ، وأن المجمع الخلقدونى هو الحق . فغضب الملك ونفاه ، وأقام بدله .

فأمر ايليا ، بطرك القدس ، بجمع الرهبان ورؤساء الديارات . فاجتمع له منهم عشرة آلاف نفس ، وحرموا نسطاس الملك ومن يقول بقوله . فأمر نسطاس بنفى ايليا الى

مدينة أيلة ، فاجتمع بطاركة الملكية وأساقفتهم وحرموا الملك نسطاس ومن يقول بقوله .

وفى أيام نسطايوس الملك ، ألزم الحنفاء أهل حران — وهم الصابئة — بالتنصر . فتنصر كثير منهم ، وقتل أكثرهم على امتناعهم من دين النصرانية ، ورد جميع من نفاه نسطاس من الملكية ، فانه كان ملكيا . وأقيم طيماتاوس فى بطركية الاسكندرية — وكان يعقوبيا — فأقام ثلاث سنين ونفى .

وأقيم بدله أبوليناريوس ، وكان ملكيا ، فجد فى رجوع النصارى بأجمعهم الى رأى الملكية ، وبذل جهده فى ذلك ، وألزم نصارى مصر بقبول الأمانة المحدثة ، فوافقوه * ووافقه رهبان ديارات بومقار بوادى هبيب .

هذا ويعقوب البراذعى يدور فى كل موضع ، ويثبت أصحابه على الأمانة التى زعم أنها مستقيمة . وأمر الملك جميع الأساقفة بعمل الميلاد فى خامس عشرى كانون الأول ، وبعمل الغطاس لست تخلو من كانون الثانى ، وكان كثير منهم يعمل الميلاد والغطاس فى يوم واحد ، وهو سادس كانون الثانى ، وعلى هذا الرأى الأرمن الى يومنا هذا .

وفى هذه الأيام ظهر يوحنا النحوى بالاسكندرية ، وزعم أن الأب والابن وروح القدس ثلاثة آلهة ، وثلاث طبائع وجوهر واحد . وظهر يوليان ، وزعم أن جسد المسيح نزل من السماء ، وأنه لطيف روحانى لا يقبل الآلام الا عند مقارفة الخطيئة ، والمسيح لم يقارف خطيئة ، فلذلك لم يصلب حقيقة ولم يتألم ولم يمت ، وانما ذلك كله خيال .

فأمر الملك البطرك طيماتاوس أن يرجع الى مذهب الملكية فلم يفعل ، فأمر بقتله ، ثم شفع فيه ونفى . وأقيم بدله بولص — وكان ملكيا — فأقام سنتين ، فلم يرضه اليعاقبة ، وقيل انهم قتلوه ، وصيروا عوضه بطركا ديلوس — وكان ملكيا — فأقام خمس سنين فى شدة من التعب ، وأرادوا قتله ، فهرب وأقام فى هربه خمس سنين ومات .

فبلغ ملك الروم يوسطيانوس أن اليعقوبية قد غلبوا على الاسكندرية ومصر ، وأنهم لا يقبلون بطاركته . فبعث أثوليناريوس أحد قواده ، وضم اليه عسكرا كبيرا ، الى الاسكندرية . فلما قدمها ، ودخل الكنيسة نزع عنه ثياب الجند ، ولبس ثياب البطاركة وقدس . فهم ذلك الجمع برجمه ، فانصرف وجمع عسكره ، وأظهر أنه قد أتاه كتاب الملك ليقرأه على الناس ، وضرب الجرس فى الاسكندرية يوم الأحد .

فاجتمع الناس الى الكنيسة حتى لم يبق أحد ، فطلع المنبر وقال : يا أهل الاسكندرية ان تركتم مقالة اليعقوبية ، والا أخاف أن يرسل الملك فيقتلكم ، ويستبيح أموالكم وحريمكم . فهموا برجمه ، فأشار الى الجند ، فوضعوا السيف فيهم ، فقتل من الناس ما لا يحصى عدده حتى خاض الجند فى الدماء ، وقيل ان الذى قتل يومئذ مائتا ألف انسان ، وفر منهم خلق الى الديارات بوادى هبيب ، وأخذ الملكية كنائس اليعاقبة . ومن يومئذ

(*) ص٤٨٩ ، جـ٢ ، ط . بولاق .

صار كرسى اليعقوبية فى دير بومقار بوادى هبيب .

وفى أيامه ثارت السامرة على أرض فلسطين ، وهدموا كنائس النصارى ، وأحرقوا ما فيها ، وقتلوا جماعة من النصارى فبعث الملك جيشا قتلوا من السامرة خلقا كثيرا ، ووضع من خراج فلسطين جملة ، وجدد بناء الكنائس ، وأنشأ مارستانا ببيت المقدس للمرضى ، ووسع فى بناء كنيسة بيت لحم ، وبنى ديرا بطور سيناء ، وعمل عليه حصنا حوله غدة قلالى ، ورتب فيها حرسا لحفظ الرهبان .

وفى أيامه كان المجمع الخامس من مجامع النصارى . وسببه أن أريحانس ، أسقف مدينة منبج ، قال بتناسخ الأرواح ، وقال كل من أسقف أنقرة وأسقف المصيصة وأسقف الرها : ان جسد المسيح خيال لا حقيقى . فحملوا الى القسطنطينية ، وجمع بينهم وبين بطركها أوطس ، وناظرهم وأوقع عليهم الحرمان .

فأمر الملك أن يجمع لهم مجمع ، وأمر باحضار البطاركة والأساقفة ، فاجتمع مائة وأربعون أسقفا ، وحرموا هؤلاء الأساقفة ومن يقول بقولهم . فكان بين المجمع الرابع الخلقدونى وبين هذا المجمع مائة وثلاث وستون سنة .

ولما مات القائد الذى عمل بطرك الاسكندرية ، بعد سبع عشرة سنة ، أقيم بعده يوحنا — وكان منانيا — فأقام ثلاث سنين ومات .

وقدم اليعاقبة بطركا اسمه تاوداسيوس ، أقام مدة اثنتين وثلاثين سنة ، وقدم الملكية بطركا اسمه داقيوس . فكتب الملك الى متولى الاسكندرية أن يعرض على بطرك اليعاقبة أمانة المجمع الخلقدونى ، فان لم يقبلها أخرجه ، فعرض عليه ذلك فلم يقبله ، فأخرجه وأقام بعده بولص التنيسى ، فلم يقبله أهل الاسكندرية ومات ، فغلقت كنائس القبط اليعاقبة ، وأصابهم من الملكية شدائد كثيرة ، واستجد اليعاقبة بالاسكندرية كنيستين فى سنة ثمان وأربعين ومائتين لدقلطيانوس .

ومات تاوداسيوس ثامن عشرى بؤونة بعد اثنتين وثلاثين سنة من بطركيته ، منها مدة أربع سنين مدة نفيه فى صعيد مصر ، وأقيم بعده بطرس — وكان يعقوبيا — فى خفية بدير الزجاج بالاسكندرية ، قدمه ثلاثة أساقفة . فأقام سنتين ، ومات فى خامس عشرى بؤونة ... ...[1] من اليعاقبة سنة واحدة .

وفى سنة احدى وثمانين وثمانمائة ، أقيم داميانو بطركا بالاسكندرية — وكان يعقوبيا — فأقام ستا وثلاثين سنة ، ومات فى ثامن عشرى بؤونة . وفى أيامه خربت الديارات ، وأقام الملكية لهم بالاسكندرية بطركا منانيا اسمه أتناس ، فأقام خمس سنين ومات . فأقيم بعده يوحنا — وكان منانيا — ولقب بالقائم بالحق ، فأقام خمسة أشهر ومات . فأقيم بعده يوحنا القائم بالأمر — وكان ملكيا — فأقام احدى عشرة سنة ، ومات .

(١) هكذا بياض فى الاصل .

وفى أيام الملك طيباريوس ملك الروم ، بنى النصارى بالمدائن — مدائن كسرى — هيكلا وبنوا أيضا بمدينة واسط هيكلا آخر .

وفى أيام الملك موريق قيصر ، زعم راهب اسمه مارون أن المسيح ، عليه السلام ، طبيعتان ومشيئة واحدة * وأقنوم واحد . فتبعه على رأيه أهل حماه وقنسرين والعواصم وجماعة من الروم ، ودانوا بقوله ، فعرفوا بين النصارى بالمارونية ، فلما مات مارون ، بنوا على اسمه دير مارون بحماة .

وفى أيام فوقا ملك الروم ، بعث كسرى ملك فارس جيوشه الى بلاد الشام ومصر ، فخربوا كنائس القدس وفلسطين وعامة بلاد الشام ، وقتلوا النصارى بأجمعهم ، وأتوا الى مصر فى طلبهم ، فقتلوا منهم أمة كبيرة ، وسبوا منهم سبيا لا يدخل تحت حصر .

وساعدهم اليهود فى محاربة النصارى وتخريب كنائسهم ، وأقبلوا نحو الفرس من طبرية وجبل الجليل وقرية الناصرة ومدينة صور وبلاد المقدس ، فنالوا من النصارى كل منال ، وأعظموا النكاية فيهم ، وخربوا لهم كنيستين بالقدس ، وحرقوا أماكنهم ، وأخذوا قطعة من عود الصليب ، وأسروا بطرك القدس وكثيرا من أصحابه . ثم مضى كسرى بنفسه من العراق لغزو قسطنطينية ، تخت ملك الروم ، فحاصرها أربع عشرة سنة .

وفى أيام فوقا أقيم يوحنا الرحوم ، بطرك الاسكندرية ، على الملكية . فدبر أرض مصر كلها عشر سنين ، ومات بقبرس وهو فار من الفرس . فخلا كرسى اسكندرية من البطركية سبع سنين ، لخلو أرض مصر والشام من الروم ، واختفى من بقى بها من النصارى خوفا من الفرس .

وقدم اليعاقبة نسطاسيوس بطركا ، فأقام ثنتى عشرة سنة ، ومات فى ثانى عشرى كيهك سنة ثلاثين وثلثمائة لدقلطيانوس ، فاسترد ما كانت الملكية قد استولت عليه من كنائس اليعاقبة ، ورم ما شعثه الفرس منها . وكانت اقامته بمدينة الاسكندرية ، فأرسل اليه أنباسيوس بطرك أنطاكية هدية صحبة عدة كثيرة من الأساقفة ، ثم قدم عليه زائرا ، فتلقاه وسر بقدومه ، وصارت أرض مصر فى أيامه جميعها يعاقبة لخلوها من الروم .

فثارت اليهود فى أثناء ذلك بمدينة صور ، وراسلوا بقيتهم فى بلادهم ، وتواعدوا على الايقاع بالنصارى وقتلهم . فكانت بينهم حرب اجتمع فيها من اليهود نحو عشرين ألفا ، وهدموا كنائس النصارى خارج صور فقوى النصارى عليهم وكاثروهم ، فانهزم اليهود هزيمة قبيحة ، وقتل منهم خلق كثير .

وكان هرقل قد ملك الروم بقسطنطينية ، وغلب الفرس بحيلة دبرها على كسرى حتى رحل عنهم ، ثم سار من قسطنطينية ليمهد ممالك الشام ومصر ، ويجدد ما خربه الفرس منها . فخرج اليه اليهود من طبرية وغيرها ، وقدموا له الهدايا الجليلة ، وطلبوا منه أن يؤمنهم ، ويحلف لهم على ذلك ، فأمنهم وحلف لهم *.

(*) ص٤٩٠ جـ٢، ط.بولاق *

ثم دخل القدس — وقد تلقاه النصارى بالأناجيل والصلبان والبخور والشموع المشعلة — فوجد المدينة وكنائسها وقمامتها خرابا ، فساءه ذلك وتوجع له . وأعلمه النصارى بما كان من ثورة اليهود مع الفرس ، وايقاعهم بالنصارى وتخريبهم الكنائس ، وأنهم كانوا أشد نكاية لهم من الفرس ، وقاموا قياما كبيرا فى قتلهم عن آخرهم ، وحثوا هرقل على الوقيعة بهم ، وحسنوا له ذلك .

فاحتج عليهم بما كان من تأمينه لهم وحلفه ، فأفتاه رهبانهم وبطاركتهم وقسيسوهم بأنه لا حرج عليه في قتلهم ، فانهم عملوا عليه حيلة حتى أمنهم من غير أن يعلم بما كان منهم ، وأنهم يقومون عنه بكفارة يمينه : بأن يلتزموا ويلزموا النصارى بصوم جمعة فى كل سنة عنه على ممر الزمان والدهور .

فمال الى قولهم ، وأوقع باليهود وقيعة شنعاء أبادهم جميعهم فيها ، حتى لم يبق فى ممالك الروم بمصر والشام منهم الا من فر واختفى . فكتب البطارقة والأساقفة الى جميع البلاد بالزام النصارى بصوم أسبوع فى السنة ، فالتزموا صومه الى اليوم ، وعرفت عندهم بجمعة هرقل ، وتقدم هرقل بعمارة الكنائس والديارات ، وأنفق فيها مالا كبيرا .

وفى أيامه أقيم أدراسلون ، بطرك اليعاقبة بالاسكندرية ، فأقام ست سنين ، ومات فى ثامن طوبة ، فخربت الديارات فى مدة بطركيته . وأقيم بعده على اليعاقبة بنيامين ، فعمر الدير الذى يقال له دير أبو بشاى ودير سيدة أبو بشاى ، وهما فى وادى هبيب ، فأقام تسعا وثلاثين سنة ، ملك الفرس منها مصر عشر سنين .

ثم قدم هرقل فقتل الفرس بمصر ، وأقام فيرش بطرك الاسكندرية — وكان منانيا — وطلب بنيامين ليقتله فلم يقدر عليه لفراره منه . وكان هرقل مارونيا ، فظفر بمينا أخى بنيامين ، فأحرقه بالنار عداوة لليعاقبة ، وعاد الى القسطنطينية . فأظهر الله دين الاسلام فى أيامه ، وخرج ملك مصر والشام من يد النصارى ، وصار النصارى ذمة للمسلمين .

فكانت مدة النصارى منذ رفع المسيح الى أن فتحت مصر ، وصار النصارى من القبط ذمة للمسلمين ...،... [1] منها مدة كونهم تحت أيدى الروم يقتلونهم أبرح قتل بالصلب بالصلب والتحريق بالنار والرجم بالحجارة وتقطيع الأعضاء ، ومنها مدة استيلائهم بتنصر الملوك ★ .

ذكر دخول النصارى من قبط مصر فى طاعة المسلمين وأدائهم الجزية واتخاذهم ذمة لهم ، وما كان فى ذلك من الحوادث والأنباء

اعلم أن أرض مصر ، لما دخلها المسلمون ، كانت بأجمعها مشحونة بالنصارى . وهم على قسمين متباينين فى أجناسهم وعقائدهم : أحدهما أهل الدولة ، وكلهم روم من جند صاحب القسطنطينية ملك الروم ، ورأيهم

(★) ص٤٩١ جـ٢ ، ط.بولاق .

(١) هكذا بياض فى الاصل .

ودياناتهم بأجمعهم دنانة الملكية ، وكانت عدتهم تزيد على ثلثمائة ألف رومى

والقسم الآخر عامة أهل مصر — ويقال لهم القبط — وأنسابهم مختلطة ، لا يكاد يتميز منهم القبطى من الحبشى من النوبى من الاسرائيلى الأصل من غيره وكلهم يعاقبة : فمنهم كتاب المملكة ، ومنهم التجار والباعة ، ومنهم الأساقفة القسوس ونحوهم ، ومنهم أهل الفلاحة والزرع ، ومنهم أهل الخدمة والمهنة . بينهم بين الملكية أهل الدولة من العداوة ما بمنع مناكحتهم ، وبوجب قتل بعضهم بعضا ، ويبلغ عددهم عشرات آلاف كثيرة جدا ، فانهم فى الحقيقة أهل أرض مصر أعلاها وأسفلها .

فلما قدم عمرو بن العاص بجيوش المسلمين معه الى مصر ، قاتلهم الروم حماية للملكهم ودفعا لهم عن بلادهم . فقاتلهم المسلمون ، وغلبوهم على الحصن كما تقدم ذكره . فطلب القبط من عمرو المصالحة على الجزية ، فصالحهم عليها ، وأقرهم على ما بأيديهم من الأراضى وغيرها ، وصاروا معه عونا للمسلمين على الروم حتى هزمهم الله تعالى ، وأخرجهم من أرض مصر .

وكتب عمرو لبنيامين بطرك اليعاقبة أمانا ، فى سنة عشرين من الهجرة ، فسره ذلك وقدم على عمرو ، وجلس على كرسى بطركيته بعدما غاب عنه ثلاث عشرة سنة . منها فى ملك فارس لمصر عشر سنين ، وباقيها بعد قدوم هرقل الى مصر . فغلبت اليعاقبة على كنائس مصر ودياراتها كلها ، وانفردوا بها دون الملكية .

ويذكر علماء الأخبار من النصارى : أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، لما فتح مدينة القدس ، كتب للنصارى أمانا على أنفسهم وأولادهم ونسائهم وأموالهم ، وجميع كنائسهم لا تهدم ولا تسكن ، وأنه جلس فى وسط صحن كنيسة القمامة ، فلما حان وقت الصلاة خرج وصلى خارج الكنيسة على الدرجة التى على بابها بمفرده ، ثم جلس وقال للبطرك : لو صليت داخل الكنيسة لأخذها المسلمون من بعدى ، وقالوا ههنا صلى عمر .

وكتب كتابا يتضمن أنه لا يصلى أحد من المسلمين على الدرجة الا واحد واحد ، ولا يجتمع المسلمون بها للصلاة فيها ، ولايؤذنون عليها ، وأنه أشار عليه البطرك باتخاذ موضع الصخرة مسجدا — وكان فوقها تراب كثير — فتناول عمر رضى الله عنه من التراب فى ثوبه ، فبادر المسلمون لرفعه حتى لم يبق منه شىء ، وعمر المسجد الأقصى أمام الصخرة . فلما كانت أيام عبد الملك بن مروان ، أدخل الصخرة فى حرم الأقصى ، وذلك سنة خمس وستين من الهجرة .

ثم ان عمر رضى الله عنه أتى بيت لحم ، وصلى فى كنيسته عند الخشبة التى ولد فيها المسيح ، وكتب سجلا بأيدى النصارى : ألا يصلى فى هذا الموضع أحد من المسلمين الا رجل بعد رجل ، ولا يجتمعوا فيه للصلاة ، ولا يؤذنوا عليه .

ولما مات البطرك بنيامين فى سنة تسع وثلاثين من الهجرة بالاسكندرية ، فى امارة عمرو الثانية ، قدم اليعاقبة بعده أغانو ، فأقام سبع عشرة سنة ، ومات سنة ست وخمسين . وهو الذى بنى كنيسة مرقص بالاسكندرية ، فلم تزل الى أن هدمت فى سلطنة الملك العادل أبى بكر بن أيوب .

وكان فى أيامه الغلاء مدة ثلاث سنين ، وكان يهتم بالضعفاء .

فأقيم بعده ايساك — وكان يعقوبيا — فأقام سنتين وأحد عشر شهرا ومات . فقدم اليعاقبة بعده سيمون السريانى ، فأقام سبع سنين ونصفا ومات . وفى أيامه قدم رسول أهل الهند فى طلب أسقف يقيمه لهم ، فامتنع من ذلك حتى يأذن له السلطان ، وأقام غيره ، وخلا بعد موته كرسى الاسكندرية ثلاث سنين بغير بطرك .

ثم قدم اليعاقبة فى سنة احدى وثمانين الاسكندروس ، فأقام أربعا وعشرين سنة ونصفا — وقيل خمسا وعشرين سنة — ومات سنة ست ومائة . ومرت به شدائد صودر فيها مرتين ، أخذ منه فيهما ستة آلاف دينار . وفى أيامه أمَّر عبد العزيز بن مروان ، فأمر باحصاء الرهبان فأحصوا ، وأخذت منهم الجزية عن كل راهب دينار . وهى أول جزية أخذت من الرهبان .

ولما ولى مصر عبد الله بن عبد الملك بن مروان ، اشتد على النصارى ، واقتدى به قرة بن شريك أيضا فى ولايته على مصر ، وأنزل بالنصارى شدائد لم يبتلوا قبلها بمثلها . وكان عبد الله بن الحبحاب ، متولى الخراج ، قد زاد على القبط قيراطا فى كل دينار . فانتقض عليه عامة الحوف الشرقى من القبط ، فحاربهم المسلمون ، وقتلوا منهم عدة وافرة فى سنة سبع ومائة .

واشتد أيضا أسامة بن زيد التنوخى متولى الخراج على النصارى ، وأوقع بهم ، وأخذ أموالهم ، ووسم أيدى الرهبان بحلقة حديد فيها اسم الراهب واسم ديره وتاريخه . فكل من وجده بغير وسم قطع يده . وكتب الى الأعمال * بأن من وجد من النصارى ، وليس معه منشور ، أن يؤخذ منه عشرة دنانير .

ثم كبس الديارات ، وقبض على عدة من الرهبان بغير وسم ، فضرب أعناق بعضهم ، وضرب باقيهم حتى ماتوا تحت الضرب ثم هدمت الكنائس ، وكسرت الصلبان ، ومحيت التماثيل ، وكسرت الأصنام بأجمعها — وكانت كثيرة — فى سنة أربع ومائة ، والخليفة يومئذ يزيد بن عبد الملك .

فلما قام هشام بن عبد الملك فى الخلافة ، كتب الى مصر بأن يجرى النصارى على عوايدهم وما بأيديهم من العهد . فقدم حنظلة ابن صفوان أميرا على مصر فى ولايته الثانية ، فتشدد على النصارى ، وزاد فى الخراج ، وأحصى الناس والبهائم ، وجعل على كل نصرانى وسما صورة أسد ، وتتبعهم فمن وجده بغير وسم قطع يده .

ثم أقام اليعاقبة بعد موت الاسكندروس بطركا اسمه قسيما ، فأقام خمسة عشر شهرا

(*) ص٤٩٢ جـ٢ ، ط. بولاق .

ومات فقدموا بعده تادرس فى سنة تسع ومائة ، ومات بعد احدى عشرة سنة وفى أيامه أحدثت كنيسة يوقنا بخط الحمراء ، ظاهر مدينة مصر ، فى سنة سبع عشرة ومائة ، فقام جماعة من المسلمين على الوليد بن رفاعة أمير مصر بسببها .

وفى سنة عشرين ومائة ، قدم اليعاقبة ميخائيل بطركا ، فأقام ثلاثا وعشرين سنة ومات . وفى أيامه انتقض القبط بالصعيد ، وحاربوا العمال فى سنة احدى وعشرين ، فحوربوا ، وقتل كثير منهم . ثم خرج بحنس بسمنود وحارب ، وقتل فى الحرب ، وقتل معه قبط كثير فى سنة اثنتين وثلاثين ومات . ثم خالفت القبط برشيد ، فبعث اليهم مروان ابن محمد ، لما قدم مصر ، وهزمهم .

وقبض عبد الملك بن موسى بن نصير أمير مصر على البطرك ميخائيل ، فاعتقله وألزمه بمال ، فسار بأساقفة فى أعمال مصر بسأل أهلها ، فوجدهم فى شدائد ، فعاد الى الفسطاط ودفع الى عبد الملك ما حصل له ، فأفرج عنه . فنزل به بلاء كبير من مروان ، وبطش به وبالنصارى ، وأحرق مصر وغلاتها .

وأسر عدة من النساء المترهبات ببعض الديارات ، وراود واحدة منهم عن نفسها ، فاحتالت عليه ، ودفعته عنها بأن رغبته فى دهن معها اذا ادّهن به الانسان لايعمل فيه السلاح ، وأوثقته بأن مكنته من التجربة فى نفسها ، فتمت حيلتها عليه ، وأخرجت زيتا ادهنت به ، ثم مدت عنقها ، فضربها بسيفه أطار رأسها . فعلم أنها اختارت الموت على الزنا .

وما زال البطرك والنصارى فى الحديد مع مروان ، الى أن قتل ببوصير ، فأفرج عنهم .

وأما الملكية فان ملك الروم لاون ، أقام قسيما بطرك الملكية بالاسكندرية فى سنة سبع ومائة ، فمضى ومعه هدية الى هشام بن عبد الملك فكتب له برد كنائس الملكية اليهم ، فأخذ من اليعاقبة كنيسة البشارة .

وكان الملكية أقاموا سبعا وسبعين سنة بغير بطرك فى مصر ، من عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه الى خلافة هشام بن عبد الملك ، فغلب اليعاقبة فى هذه المدة على جميع كنائس مصر ، وأقاموا بها منهم أساقفة . وبعث اليهم أهل بلاد النوبة فى طلب أساقفة ، فبعثوا اليهم من أساقفة اليعاقبة ، فصارت النوبة من ذلك العهد يعاقبة .

ثم لما مات ميخائيل ، قدم اليعاقبة فى سنة ست وأربعين ومائة أنبا مسنا ، فأقام سبع سنين ومات . وفى أيامه خرج القبط بناحية سخا ، وأخرجوا العمال فى سنة خمسين ومائة ، وصاروا فى جمع . فبعث اليهم يزيد ابن حاتم بن قبيصة أمير مصر عسكرا ، فأتاهم القبط ليلا ، وقتلوا عدة من المسلمين ، وهزموا باقيهم .

فاشتد البلاء على النصارى ، واحتاجوا الى أكل الجيف ، وهدمت الكنائس المحدثة بمصر ، فهدمت كنيسة مريم المجاورة لأبى شنودة بمصر ، وهدمت كنائس محارس قسطنطين . فبذل النصارى لسليمان بن على أمير مصر فى تركها خمسين ألف دينار ، فأبى .

فلما ولىَّ بعده موسى بن عيسى ، أذن لهم فى بنائها ، فبنيت كلها بمشورة الليث بن سعد وعبد الله بن لهيعه قاضى مصر ، واحتجا بأن بناءها من عمارة البلاد ، وبأن الكنائس التى بمصر لم تبن الا فى الاسلام فى زمن الصحابة والتابعين .

فلما مات أنبا مسنا ، قدم اليعاقبة بعده يوحنا ، فأقام ثلاثا وعشرين سنة ومات وفى أيامه خرج القبط بلهيت سنة ست وخمسين ، فبعث اليهم موسى بن على أمير مصر ، وهزمهم .

وقدم بعده اليعاقبة مرقص الجديد ، فأقام عشرين سنة وسبعين يوما ومات . وفى أيامه كانت الفتنة بين الأمين والمأمون فانتهبت النصارى بالاسكندرية ، وأحرقت لهم مواضع عديدة ، وأحرقت ديارات وادى هبيب ونهبت ، فلم يبق بها من رهبانها الا نفر قليل .

وفى أيامه مضى بطرك الملكية الى بغداد ، وعالج بعض حظايا أهل الخليفة ، فانه كان حاذقا بالطب ، فلما عوفيت كتب له برد كنائس الملكية التى تغلب عليها اليعاقبة بمصر ، فاستردها منهم ، وأقام فى بطركية الملكية أربعين سنة ومات .

ثم قدم اليعاقبة بعد مرقص يعقوب ، فى سنة احدى عشرة ومائتين ، فأقام عشر سنين وثمانية أشهر ومات . وفى أيامه * عمرت الديارات ، وعاد الرهبان اليها ، وعمرت كنيسة بالقدس لمن يرد من نصارى مصر ، وقدم عليه ديونوسيس بطرك أنطاكية ، فأكرمه حتى عاد الى كرسيه .

وفى أيامه انتقض القبط فى سنة ست عشرة ومائتين . فأوقع بهم الأفشين حتى نزلوا على حكم أمير المؤمنين عبد الله المأمون ، فحكم فيهم بقتل الرجال ، وبيع النساء والذريه ، فبيعوا وسبى أكثرهم .

ومن حينئذ ذلت القبط فى جميع أرض مصر ، ولم يقدر أحد منهم بعد ذلك على الخروج على السلطان ، وغلبهم المسلمون على عامه القرى فرجعوا من المحاربه الى المكايدة ، واستعمال المكر والحيلة ومكايدة المسلمين ، وعملوا كتاب الخراج ، فكانت لهم وللمسلمين أخبار كثيره يأتى ذكرها ان شاء الله تعالى .

ثم قدم اليعاقبة سيماون بطركا فى سنة اثنين وعشرين ومائتين ، فأقام سنة ومات — وقيل بل أقام سبعة أشهر وستة عشر يوما — فخلا كرسى البطاركه بعده سنة وتسعة وعشرين يوما .

وقدم اليعاقبة يوساب فى دير بومقار بوادى هبيب ، فى سنة سبع وعشرين ومائتين ، فأقام ثمانى عشرة سنة ومات . وفى أيامه قدم مصر يعقوب مطران الحبشة ، وقد نفته زوجة ملكهم وأقامت عوضه أسقفا ، فبعث ملك الحبشة يطلب اعادته من البطرك ، فبعث به اليه ، وبعث أيضا عدة أساقفة الى أفريقية . وفى أيامه مات بطرك أنطاكية الوارد الى مصر فى السنة الخامسة عشرة من بطركيته .

(*) ص٤٩٣ جـ٢ ، ط. بولاق .

وفى أيامه أمر المتوكل على الله ، فى سنة خمس وثلاثين ومائتين ، أهل الذمة بلبس الطيالسة العسلية وشد الزنانير ، وركوب السروج بالركب الخشب ، وعمل كرتين فى مؤخر السرج ، وعمل رقعتين على لباس رجالهم تخالفان لون الثوب . قدر كل واحدة منهما أربع أصابع ، ولون كل واحدة منهما غير لون الأخرى ، ومن خرج من نسائهم تلبس ازارا عسليا ، ومنعهم من لباس المناطق ، وأمر بهدم بيعهم المحدثة ، وبأخذ العشر من منازلهم ، وأن يجعل على أبواب دورهم صور شياطين من خشب .

ونهى أن يستعان بهم فى أعمال السلطان ولا يعلمهم مسلم ، ونهى أن يظهروا فى شعانينهم صليبا ، وألا يشعلوا فى الطريق نارا ، وأمر بتسوية قبورهم مع الأرض ، وكتب بذلك الى الآفاق ثم أمر فى سنة تسع وثلاثين أهل الذمة بلبس دراعتين عسليتين على الذراريع والأقبية ، وبالاقتصار فى مراكبهم على ركوب البغال والحمير دون الخيل والبراذين .

فلما مات يوساب ، فى سنة اثنتين وأربعين ومائتين ، خلا الكرسى بعده ثلاثين يوما . وقدم اليعاقبة قسيسا بدير بحنس ، يدعى بميكائيل ، فى البطركية . فأقام سنة وخمسة أشهر ، ومات فدفن بدير بومقار ، وهو أول بطرك دفن فيه ، فخلا الكرسى بعده أحدا وثمانين يوما .

ثم قدم اليعاقبة فى سنة أربع وأربعين ومائتين شماسا بدير بومقار ، اسمه قسيما ، فأقام فى البطركية سبع سنين وخمسة أشهر ومات . فخلا الكرسى بعده أحدا وخمسين يوما .

وفى أيامه أمر نوفيل بن ميخائيل ، ملك الروم ، بمحو الصور من الكنائس ، وألا تبقى صورة فى كنيسة . وكان سبب ذلك أنه بلغه عن قيّم كنيسة أنه عمل فى صورة مريم ، عليها السلام ، شبه ثدى يخرج منه لبن ينقط فى يوم عيدها . فكشف عن ذلك ، فاذا هو مصنوع ليأخذ به القيم المال ، فضرب عنقه ، وأبطل الصور من الكنائس . فبعث اليه قسيما ، بطرك اليعاقبة ، وناظره حتى سمح باعادة الصور على ما كانت عليه .

ثم قدم اليعاقبة ساتير بطركا ، فأقام تسع عشرة سنة ومات .

فأقيم يوسانيوس فى أول خلافة المعتز ، فأقام احدى عشرة سنة ومات ، وعمل فى بطركيته مجارى تحت الأرض بالاسكندرية يجرى بها الماء من الخليج الى البيوت . وفى أيامه قدم أحمد بن طولون مصر أميرا عليها .

ثم قدم اليعاقبة ميخائيل ، فأقام خمسا وعشرين سنة ، ومات بعدما ألزمه أحمد بن طولون بحمل عشرين ألف دينار ، باع فيها رباع الكنائس الموقوفة عليها ، وأرض الحبش ظاهر فسطاط مصر ، وباع الكنيسة بجوار المعلقة من قصر الشمع لليهود ، وقرر الديارية على كل نصرانى قيراطا فى السنة ، فقام بنصف المقرر عليه . وفى أيامه قتل الأمير أبو الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون .

فلما مات شغر كرسى الاسكندرية بعده من البطاركة أربع عشرة سنة . وفى يوم الاثنين ثالث شوال سنة ثلثمائة أحرقت الكنيسة

الكبرى ، المعروفة بالقيامة ، فى الاسكندرية . وهى التى كانت هيكل زحل ، وكانت من بناء كلايطرة (*) .

وفى سنة احدى وثلثمائة قدم اليعاقبة غبريال بطركا ، فأقام احدى عشرة سنة ومات ، وأخذت فى أيامه الجزية على الرجال والنساء . وقدم بعده اليعاقبة فى سنة احدى عشرة وثلثمائة قسيما ، فأقام ثنتى عشرة سنة ومات .

وفى يوم السبت النصف من شهر رجب سنة ثنتى عشرة وثلثمائة ، أحرق المسلمون كنيسة مريم بدمشق ، ونهبوا ما فيها من الآلات والأوانى ، وقيمتها كثيرة جدا ، ونهبوا ديرا للنساء بجوارها ، وشعثوا كنائس النسطورية واليعقوبية .

وفى سنة ثلاث عشرة وثلثمائة ، قدم الوزير على بن عيسى بن الجراح الى مصر . فكشف البلد ، وألزم الأساقفة والرهبان وضعفاء النصارى بأداء الجزية ، فأدوها ، ومضى طائفة منهم الى بغداد ، واستغاثوا بالمقتدر بالله . فكتب الى مصر بألا يؤخذ من الأساقفة والرهبان والضعفاء جزية ، وأن يجروا على العهد الذى بأيديهم .

وفى سنة ثلاث وعشرين وثلثمائة ، قدم اليعاقبة بطركا اسمه ... ... [1] فأقام عشرين سنة ومات . وفى أيامه ثار المسلمون بالقدس سنة خمس وعشرين وثلثمائة ، وحرقوا كنيسة القيامة ونهبوها ، وخربوا منها ما قدروا عليه .

وفى يوم الاثنين آخر شهر رجب سنة ثمان وعشرين وثلثمائة مات سعيد بن بطريق ، بطرك الاسكندرية على الملكية ، بعدما أقام فى البطركية سبع سنين ونصفا ، فى شرور متصلة مع طائفته . فبعث الأمير أبو بكر محمد بن طغج الاخشيد أبا الحسين من قواده فى طائفة من الجند ، الى مدينة تنيس حتى ختم على كنائس الملكية ، وأحضر آلاتها الى الفسطاط — وكانت كثيرة جدا — فافتكها الأسقف بخمسة آلاف دينار ، باعوا فيها من وقف الكنائس ، ثم صالح طائفته ، وكان فاضلا وله تاريخ مفيد .

وثار المسلمون أيضا بمدينة عسقلان ، وهدموا كنيسة مريم الخضراء ، ونهبوا ما فيها ، وأعانهم اليهود حتى أحرقوها ففر أسقف عسقلان الى الرملة ، وأقام بها حتى مات .

وقدم اليعاقبة فى سنة خمس وأربعين وثلثمائة تاوفانيوس بطركا ، فأقام أربع سنين وستة أشهر ومات . فأقيم بعده مينا ، فأقام احدى عشرة سنة ومات . فخلا الكرسى بعده سنة .

ثم قدم اليعاقبة أفراهام بن زرعة فى سنة ست وستين وثلثمائة ، فأقام ثلاث سنين وستة أشهر ، ومات مسموما من بعض كتاب النصارى ، وسببه أنه منعه من التسرى .

فخلا الكرسى بعده ستة أشهر . وأقيم فيلاياوس فى سنة تسع وستين ، فأقام أربعا وعشرين سنة ومات ، وكان مترفا . وفى أيامه أخذت الملكية كنيسة السيدة — المعروفة

(*) ص٤٩٤ جـ٢ ، ط.بولاق .

(1) هكذا بياض فى الاصل .

بكنيسة البطرك — تسلمها منهم بطرك الملكية أرسانيوس فى أيام العزيز بالله نزار بن المعز .

وفى سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة ، قدم اليعاقبة زخريس بطركا ، فأقام ثمانى وعشرين سنة : منها فى البلايا مع الحاكم بأمر الله أبى على منصور بن العزيز بالله تسع سنين ، اعتقله فيها ثلاثة أشهر ، وأمر به فألقى للسباع هو وسوسنة النوبى ، فلم تضره فيما زعم النصارى . ولما مات خلا الكرسى بعده أربعة وسبعين يوما »

وفى بطركيته نزل بالنصارى شدائد لم يعهدوا مثلها . وذلك أن كثيرا منهم كان قد تمكن فى أعمال الدولة حتى صاروا كالوزراء ، وتعاظموا لاتساع أحوالهم وكثرة أموالهم ، فاشتد بأسهم ، وتزايد ضررهم ومكايدتهم للمسلمين .

فأغضب الحاكم بأمر الله ذلك — وكان لا يملك نفسه اذا غضب — فقبض على عيسى ابن نسطورس النصرانى ، وهو اذ ذاك فى رتبة تضاهى رتب الوزراء ، وضرب عنقه . ثم قبض على فهد بن ابراهيم النصرانى ، كاتب الأستاذ برجوان ، وضرب عنقه .

وتشدد على النصارى ، وألزمهم بلبس ثياب الغيار وشد الزنار فى أوساطهم ، ومنعهم من عمل الشعانين وعيد الصليب ، والتظاهر بما كانت عادتهم فعله فى أعيادهم من الاجتماع واللهو ، وقبض على جميع ما هو محبس على الكنائس والديارات ، وأدخله فى الديوان ، وكتب الى أعماله كلها بذلك ، وأحرق عدة صلبان كثيرة ، ومنع النصارى من شراء العبيد والاماء .

وهدم الكنائس التى بخط راشدة ظاهر مدينة مصر ، وأخرب كنائس المقس خارج القاهرة ، وأباح ما فيها للناس ، فانتهبوا منها ما يجل وصفه ، وهدم دير القصير ، وأنهب العامة ما فيه ، ومنع النصارى من عمل الغطاس على شاطىء النيل بمصر ، وأبطل ما كان يعمل فيه من الاجتماع للهو .

وألزم رجال النصارى بتعليق الصلبان الخشب — التى زنة كل صليب منها خمسة أرطال — فى أعناقهم ، ومنعهم من ركوب الخيل ، وجعل لهم أن يركبوا البغال والحمير بسروج ولجم غير محلاة بالذهب والفضة ، بل تكون من جلود سود .

وضرب بالجرس فى القاهرة ومصر ، ألا يركب أحد من المكارية ذميا ، ولا يحمل نوتى مسلم أحدا من أهل الذمة ، وأن تكون ثياب النصارى وعمائمهم شديدة السواد ، وركب سروجهم من خشب الجميز ، وأن يعلق اليهود فى أعناقهم خشبا مدورا زنة الخشبة منها خمسة أرطال ، وهى ظاهرة فوق ثيابهم .

وأخذ فى هدم الكنائس كلها ، وأباح ما فيها وما هو محبس عليها للناس نهبا واقطاعا . فهدمت بأسرها ، ونهب جميع أمتعتها ، وأقطع أحباسها ، وبنى فى مواضعها المساجد ، وأذن بالصلاة فى كنيسة شنودة بمصر ، وأحيط بكنيسة المعلقة فى قصر الشمع »

وأكثر الناس من رفع القصص بطلب كنائس أعمال مصر ودياراتها . فلم يرد قصة

منها الا وقد وقع عليها باجابة واقعها لما سأل . فأخذوا أمتعة الكنائس والديارات ، وباعوا بأسواق مصر ما وجدوا من أواني الذهب والفضة وغير ذلك ، وتصرفوا فى أحباسها ووجد بكنيسة شمودة مال جليل ، ووجد في المعلقة من المصاغ وثياب الديباج أمر كثير جدا الى الغاية .

وكتب الى ولاة الأعمال بتمكين المسلمين من هدم الكنائس والديارات * ، فعم الهدم فيها من سنة ثلاث وأربعمائة ، حتى ذكر من يوثق به في ذلك أن الذي هدم الى آخر سنة خمس وأربعمائه ، بمصر والشام وأعمالهما ، من الهياكل التى بناها الروم نيف وثلاثون ألف بيعة ، ونهب ما فيها من آلات الذهب والفضة وقبض على أوقافها ، وكانت أوقافا جليلة على مبان عجيبة

وألزم النصارى أن تكون الصلبان في أعناقهم اذا دخلوا الحمام ، وألزم اليهود أن يكون فى أعناقهم الأجراس اذا دخلوا الحمام ثم ألزم اليهود والنصارى بخروجهم كلهم من أرض مصر الى بلاد الروم . فاجتمعوا بأسرهم تحت القصر من القاهرة ، واستغاثوا ولاذوا بعفو أمير المؤمنين حتى أعفوا من النفى . وفي هذه الحوادث أسلم كثير من النصارى .

وفى سنة سبع وأربعمائة ، وثب بعض أكابر البلغر على ملكهم « قمطورس » فقتله ، وملك عوضه ، وكتب الى باسيل ملك قسطنطينية بطاعته فأقره ، ثم قتل بعد سنة . فسار الملك باسيل اليهم ، في شوال سنة ثمان وأربعمائة ، واستولى على مملكة البلغر ، وأقام في قلاعها عدة من الروم ، وعاد الى قسطنطينية . فاختلط الروم بالبلغر ، ونكحوا منهم ، وصاروا يدا واحدة بعد شدة العداوة .

وقدم اليعاقبة عليهم سابونين بطركا بالاسكندرية ، فى سنة احدى وعشرين وأربعمائة ، فى يوم الأحد ثالث عشرى برمهات فأقام خمس عشرة سنة ونصفا ، ومات فى طوبة ، وكان محبا للمال وأخذ الشرطونية . فخلا الكرسى بعده سنة وخمسة أشهر .

ثم قدم المعاقبة أخرسطودس بطركا ، في سنة تسع وثلاثين وأربعمائة ، فأقام ثلاثين سنة ، ومات بالمعلقة من مصر وهو الذى جعل كنيسة بومرقورة بمصر ، وكنيسة السيدة بحارة الروم من القاهرة فى أيام بطركيته . فلم يقم بعده بطرك اثنين وسبعين يوما .

ثم أقام اليعاقبة كيرلص ، فأقام أربع عشرة سنة وثلاثة أشهر ونصفا ، ومات بكنيسة المختار من جزيرة مصر — المعروفة بالروضة — فى سلخ ربيع الآخر سنة خمس وثمانين وأربعمائة ، وعمل بدلة للبطاركة من ديباج أزرق وبلارية ديباج أحمر بنصاوير ذهب ، وقطع الشرطونية . فلم يول بعده بطرك مدة مائة وأربعة وعشرين يوما

ثم أقيم ميخائيل الحبيس بسنجار فى سنة اثنين وثمانين وأربعمائة ، فأقام تسع سنين وثمانية أشهر ، ومات فى المعلقة بمصر .

(*) ص٤٩٥ ج٢ ، ط. بولاق .

وكان المستنصر بالله ، لما نقص نيل مصر ، بعثه الى بلاد الحبشه بهديه سنيه . فتلقاه ملكها ، وسأله عن سبب قدومه ، فعرفه نقص النيل ، وضرر أهل مصر بسبب ذلك . فأمر بفتح سد يجرى منه الماء الى أرض مصر ففتح ، وزاد النيل فى ليلة واحدة ثلاثة أذرع ، واستمرت الزيادة حتى روت البلاد وزرعت . ثم عاد البطرك فخلع عليه المستنصر وأحسن اليه .

وفى سنة اثنين وسبعين وأربعمائة ، قدم اليعاقبة مقارى بطركا بدير بومقار ، وكمل بالاسكندرية وعاد الى مصر ثم مضى الى دير بومقار فقدس به ، ثم جاء الى مصر فقدس بالمعلقة ، فأقام ستا وعشرين سنة أحدا وأربعين يوما ومات فخلت مصر من بطرك اليعاقبة سنتين وشهرين

وفى أيامه حدثت زلزلة عظيمة بمصر هدم فيها كنيسة المختار بالروضه ، واتهم الأفضل ابن أمير الجيوش بهدمها فانها كانت فى بستانه ، وفى أيامه أبطل عوايد كثيرة للنصارى ، فبطلت بعده .

ثم قدم اليعاقبة غبريال ، المكنى بأبى العلا صاعد بن تريك ، الشماس بكنيسه مرفوريوس فى سنة خمس وعشرين وخمسمائة بالمعلقه ، وكمل بالاسكندرية ، وقدس بالأديرة بوادى هبيب ، وأقام أربع عشرة سنة ومات . فخلا بعده كرسى اليعاقبة ثلاثة أشهر .

ثم قدم اليعاقبة ميخائيل بن التقدوسى ، الراهب بقلاية دمشرى ، بطركا ، فأقام مدة سنة وسبعين يوما . ثم أقيم يونس أبو الفتح بطركا بالمعلقة ، وكمل بالاسكندريه ، فأقام تسع عشرة سنة ، ومات فى سابع عشرى جمادى الآخرة سنة احدى وخمسين وخمسمائة . فخلا الكرسى بعده ثلاثة وأربعين يوما .

وقدم مرقص بن زرعه ، المكنى بأبى الفرج ، بطرك اليعاقبه بمصر ، وكمل بالاسكندرية ، فأقام اثنين وعشرين سنة وستة أشهر وخمسة وعشرين يوما ومات .

وفى أيامه انتقل مرقص بن قنبر ، وجماعة من القبابرة ، الى رأى الملكية ، ثم عاد الى اليعقوبية فقبل ، ثم عاد الى الملكية ورجع فلم يقبل . وكان هذا البطرك له همة ومروءة ، وفى أيامه كان حريق شاور الوزير لمصر فى ثامن عشر هنور ، فاحترقت كنيسة بومرقورة ، وخلا بعده كرسى البطاركة سبعة وعشرين يوما .

ثم قدم اليعاقبة يونس بن أبى غالب بطركا ، فى يوم الأحد عاشر ذى الحجة سنة أربع وثمانين وخمسمائة ، وكمل بالاسكندرية . فأقام ستا وعشرين سنة وأحد عشر شهرا وثلاثة عشر يوما ، ومات يوم الخميس رابع عشر شهر رمضان سنة ثنتى عشرة وستمائة بالمعلقة بمصر ، ودفن بالحبش .

وكان فى ابتداء أمره تاجرا يتردد الى اليمن فى البحر حتى كثر ماله ، وكان معه مال لأولاد الحباب ، فاتفق أنه غرق فى بحر الملح وذهب ماله ، ونجا بنفسه الى القاهرة ، وقد أيس أولاد الخباب من مالهم . فلما لقيهم أعلمهم أن مالهم قد سلم ، فانه كان قد عمله

في تقائر خشب مسمرة في المركب ، فصار لهم به عناية .

فلما مات مرقص بن زرعة ، سعى يونس هـذا للقس أبي ياسر * ، فقـال له أولاد الخباب : خذ أنت البطركية ونحن نزكيـك ، فوافقهم ، وأقيم بطركا ، فشق ذلك على أبي ياسر ، وهجره بعد صحبة طويلة . وكان معه لما استقر في البطركية سبعة عشر ألف دينار مصرية أنفقها على الفقراء ، وأبطل الديارية ، ومنع الشرطونية ، ولم يأكل لأحد من النصارى خبزا ، ولا قبل من أحد هدية .

فلما مات قام أبو الفتوح نشو الخليفـة ابن الميقاط ، كاتب الجيش مع السلطان الملك العادل أبي بكر بن أيوب ، في ولاية القس داود بن يوحنا بن لقلق الفيومي ، فانه كان خصيصا به . فأجابه ، وكتب توقيعه من غير أن يعلم الملك الكامل محمد ابن السلطان .

فشـق ذلك على النصـارى ، وقام منهم الأسعد بن صدقة ، كاتب دار التفاح بمصر ، ومعه جمـاعة ، وتوجهـوا سـحرا ومعهم الشموع الى تحت قلعة الجبل — حيث كان سـكن الملك الـكامل — واسـتغاثوا به ، ووقعوا في القس ، وقالوا : لا يصلح ، وفي شريعتنا أنه لا يقدم البطرك الا باتفاق الجمهور عليه . فبعث الملك الكامل يطيب خواطرهم .

وكان القس قد ركب بكرة ، ومعه الأساقفة وعالم كثير من النصارى ، ليقدموه بالمعلقـة بمصر وذلك يوم الأحد . فركب الملك الكامل بشجو كبير من القلعة الى أبيه بدار الوزارة من القـاهرة حيث سـكنه ، وأوقف ولاية القس .

فبعث السلطان في طلب الأساقفة ليتحقق الأمر منهم ، فوافقهم الرسـل مع القس في الطريق ، فأخذوهم ودخل القس الى كنيسة يوجرج التي بالحمراء ، وبطلت بطركيتـه ، وأقامت مصر بغير بطرك تسع عشرة سـنة ومائة وستين يوما .

ثم قدم هذا القس بطركا ، في يوم الأحد تاسع عشرى شهر رمضان سنة ثلاث وثلاثين وستمائة ، فأقام سبع سنين وتسعـة أشـهر وعشرة أيام ، ومات يوم الثلاثاء سابع عشر شهر رمضان سنة أربعين وسـتمائة ، ودفن بدير الشمع بالجيزة .

وكان عالما بدينه ، محبا للرياسـة ، وأخذ الشرطونية في بطركيتـه ، وكانت الديارات بأرض مصر قد خلت من الاساقفـة ، فقدم جماعة أساقفة كثيرة بمال كثير أخذه منهم ، وقاسى شـدائد ، ورافعـه الراهب عمـاد المرشال ، ووكل عليه وعلى أقاربه وألزامه ، وساعده الراهب السنى ابن الثعبان ، وأشاع مثالبه ، وقال : لا يصح له كهونية لأنه يقدم بالرشوة ، وأخذ الشرطونية .

وجمع عليه طائفة كثيرة ، وعقد مجلسا عند الصـاحب معين الدين حسـن بن شـيخ الشيوخ ، في أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وأثبت على البطرك قوادح . فقـام الكتاب النصارى في أمره مع الصـاحب ، بمال يحمله الى السلطان ، حتى استمر على بطركيته ، وخلا كرسي البطاركة بعـده سبع سنين وستة أشهر وستة وعشرين يوما »

(*) ص٤٩٦ جـ٢ ، ط. بولاق »

ثم قدم اليعاقبة أنباسيوس ابن القس أبى المكارم بن كليل بالمعلقة ، فى يوم الأحد رابع شهر رجب سنة ثمان وأربعين ستمائة ، وكمل بالاسكندرية . فأقام احدى عشرة سنة وخمسة وخمسين يوما ، ومات يوم الأحد ثالث المحرم سنة ستين وستمائة ، فخلت مصر من البطركية خمسة وثمانين يوما

وفى أيامه أخذ الوزير الأسعد شرف الدين هبة الله بن صاعد الفائزى الجوالى من النصارى مضاعفة

وفى أيامه ثارت عوام دمشق ، وخربت كنيسة مريم بدمشق بعد احراقها ونهب ما فيها ، وقتل جماعة من النصارى بدمشق ، ونهب دورهم وخرابها فى سنة ثمان وخمسين وستمائة ، بعد وقعة عين جالوت وهزيمة المغل . فلما دخل السلطان الملك المظفر قطز الى دمشق ، قرر على النصارى بها مائة ألف وخمسين ألف درهم ، جمعوها من بينهم ، وحملوها اليه بسفارة الأمير فارس الدين أقطاى المستعرب أتابك العسكر .

وفى سنة اثنتين وثمانين وستمائة ، كانت واقعة النصارى . ومن خبرها أن الأمير سنجر الشجاعى كانت حرمته وافرة فى أيام الملك المنصور قلاوون ، فكان النصارى يركبون الحمير بزنانير فى أوساطهم ، ولا يجسر نصرانى يحدث مسلما وهو راكب ، واذا مشى فبذلة ، ولا يقدر أحد منهم يلبس ثوبا مصقولا . فلما مات الملك المنصور ، وتسلطن من بعده ابنه الملك الأشرف خليل ، خدم الكتاب النصارى عند الأمراء الخاصكية ، وقووا نفوسهم على المسلمين ، وترفعوا فى ملابسهم وهيئاتهم .

وكان منهم كاتب عند خاصكى يعرف بعين الغزال ، فصدف يوما فى طريق مصر سمسار شونة مخدومه ، فنزل السمسار عن دابته ، وقبل رجل الكاتب فأخذ يسبه ، ويهدده على مال قد تأخر عليه من ثمن غلة الأمير ، وهو يترفق له ويعتذر ، فلا يزيده ذلك عليه الا غلظة .

وأمر غلامه فنزل ، وكتف السمسار ، ومضى به — والناس تجتمع عليه — حتى صار الى صليبة جامع أحمد بن طولون ، ومعه عالم كبير ، وما منهم الا من يسأله أن يخلى عن السمسار ، وهو يمتنع عليهم ، فتكاثروا عليه ، وألقوه عن حماره ، وأطلقوا السمسار .

وكان قد قرب من بيت أستاذه ، فبعث غلامه لينجده بمن فيه ، فأتاه بطائفة من غلمان الأمير وأوجاقيته ، فخلصوه من الناس ، وشرعوا فى القبض عليهم ليفتكوا بهم ، فصاحوا عليهم ما يحل ، ومروا مسرعين الى أن وقفوا تحت القلعة ، واستغاثوا : نصر الله السلطان ، فأرسل يكشف الخبر . فعرفوه ما كان من استطالة الكاتب النصرانى على السمسار ، وما جرى لهم .

فطلب عين الغزال ، ورسم العامة باحضار * النصارى اليه ، وطلب الأمير بدر الدين بيدرا النائب والأمير سنجر الشجاعى ، وتقدم اليهما باحضار جميع النصارى بين يديه ليقتلهم . فما زالا به حتى استقر الحال على

(*) ص٤٩٧ جـ٢ ، ط. بولاق .

ان ينادى فى القاهرة ومصر لا ألا يخدم أحد من النصارى واليهود عند أمير . وأمر الأمراء بأجمعهم أن يعرضوا على من عندهم من الكتاب النصارى الاسلام ، فمن امتنع من الاسلام ضرب عنقه ، ومن أسلم استخدموه عندهم . ورسم للنائب بعرض جميع مباشرى ديوان السلطان ويفعل فيهم ذلك .

فنزل الطلب لهم وقد اختفوا فصارت العامة تسبق الى بيوتهم وتنهبها ، حتى عم النهب بيوت النصارى واليهود بأجمعهم ، وأخرجوا نساءهم مسبات ، وقتلوا جماعة بأيديهم . فقام الأمير بيدرا النائب مع السلطان فى أمر العامة ، وتلطف به حتى ركب والى القاهرة ونادى من نهب بيت نصرانى شنق . وقبض على طائفة من العامة ، وشهرهم بعدما ضربهم فانكفوا عن النهب بعدما نهبوا كنيسة المعلقة بمصر ، وقتلوا منها جماعة .

ثم جمع النائب كثيرا من النصارى ، كتاب السلطان والأمراء ، وأوقفهم بين يدى السلطان عن بعد منه . فرسم للشجاعى وأمير جاندار أن يأخذ عدة معهما ، وينزلوا الى سوق الخيل تحت القلعة ، ويحفروا حفيرة كبيرة ، ويلقوا فيها الكتاب الحاضرين ، ويضرموا عليهم الحطب نارا .

فتقدم الأمير بيدرا ، وشفع فيهم . فأبى أن يقبل شفاعته ، وقال : ما أريد فى دولتى ديوانا نصرانيا فلم يزل به حتى سمح بأن من أسلم منهم يستقر فى خدمته ، ومن امتنع ضربت عنقه . فأخرجهم الى دار النيابة ، وقال لهم : ياجماعة ما وصلت قدرتى مع السلطان فى أمركم الا على شرط ، وهو ان من اختار دينه قتل ، ومن اختار الاسلام خلع عليه وباشر .

فابتدره المكين بن السقاعى ، أحد المستوفين ، وقال ياخوند وأينا قواد يختار القتل على هذا الدين الخراء ؟ والله دين نقتل ونموت عليه يروح لا كتب الله عليه سلامة ، قولوا لنا الذى تختاروه حتى نروح اليه .

فغلب بيدرا الضحك ، وقال له . ويلك أنحن نختار غير دين الاسلام ؟

فقال : ياخوند ما نعرف ، قولوا ونحن تتبعكم .

فأحضر العدول واستسلمهم ، وكتب بذلك شهادات عليهم ، ودخل بها على السلطان . فألبسهم تشاريف ، وخرجوا الى مجلس الوزير الصاحب شمس الدين محمد بن السلعوس .

فبدأ بعض الحاضرين بالمكين بن السقاعى وناوله ورقة ليكتب عليها ، وقال . يامولانا القاضى اكتب على هذه الورقة ، فقال . يابنى ما كان لنا هذا القضاء فى خلد . فلم يزالوا فى مجلس الوزير الى العصر ، فجاءهم الحاجب وأخذهم الى مجلس النائب ، وقد جمع به القضاة ، فجددوا اسلامهم بحضرتهم .

فصار الذليل منهم باظهار الاسلام عزيزا ، يبدى من اذلال المسلمين ، والتسلط عليهم بالظلم ، ما كان يمنعه نصرانيته من اظهاره . وما هو الا كما كتب به بعضهم الى الأمير بيدرا النائب :

أسلم الكافرون بالسيف قهرا
واذا ما خلوا فهم مجرمونا

سلموا من رواح مال وروح
فهم سالمون لا مسلمونا

وفى أخريات شهر رجب سنة سبعمائة ، قدم وزير متملك المغرب الى القاهرة حاجا ، وصار يركب الى الموكب السلطانى وبيوت الأمراء . فبينا هو ذات يوم بسوق الخيل تحت القلعة ، اذا هو برجل راكب على فرس ، وعليه عمامة بيضاء وفرجية مصقولة ، وجماعة يمشون فى ركابه ، وهم يسألونه ويتضرعون اليه ويقبلون رجليه ، وهو معرض عنهم وينهرهم ، ويصيح بغلمانه أن يطردوهم عنه . فقال له بعضهم : يامولاى الشيخ بحياة ولدك النشو تنظر فى حالنا . فلم يزده ذلك الا عتوا وتحامقا .

فرق المغربى لهم ، وهم بمخاطبته فى أمرهم ، فقيل له وانه مع ذلك نصرانى . فغضب لذلك ، وكاد أن يبطش به ، ثم كف عنه وطلع الى القلعة ، وجلس مع الأمير سلار نائب السلطان والأمير بيبرس الجاشنكير ، وأخذ يحادثهم بما رآه وهو يبكى رحمة للمسلمين بما نالهم من قسوة النصارى .

ثم وعظ الأمراء ، وحذرهم نقمة الله ، وتسليط عدوهم عليهم من تمكين النصارى من ركوب الخيل ، وتسلطهم على المسلمين واذلالهم اياهم ، وأن الواجب الزامهم الصغار وحملهم على العهد الذى كتبه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه . فمالوا الى قوله ، وطلبوا بطرك النصارى وكبراءهم وديان اليهود .

فجمعت نصارى كنيسة المعلقة ، ونصارى دير البغل ونحوهم ، وحضر كبراء اليهود والنصارى ، وقد حضر القضاة الأربعة ، وناظروا النصارى واليهود . فأذعنوا الى التزام العهد العمرى ، وألزم بطرك النصارى طائفته النصارى بلبس العمائم الزرق ، وشد الزنار فى أوساطهم ، ومنعهم من ركوب الخيل والبغال ، والتزام الصغار ، وحرم عليهم مخالفة ذلك أو شىء منه ، وانه برىء من النصرانية ان خالف . ثم اتبعه ديان اليهود بأن أوقع الكلمة على من خالف من اليهود ما شرط عليه من لبس العمائم الصفر والتزام * العهد العمرى ، وكتب بذلك عدة نسخ سيرت الى الأعمال .

فقام المغربى فى هدم الكنائس . فلم يمكنه قاضى القضاة تقى الدين محمد بن دقيق العيد من ذلك ، وكتب خطه بأنه لا يجوز أن يهدم من الكنائس الا ما استجد بناؤه . فغلقت عدة كنائس بالقاهرة ومصر مدة أيام فسعى بعض أعيان النصارى فى فتح كنيسة حتى فتحها .

فثارت العامة ، ووقفوا للنائب والأمراء ، واستغاثوا بأن النصارى قد فتحوا الكنائس بغير اذن ، وفيهم جماعة تكبروا عن لبس العمائم الزرق ، واحتمى كثير منهم بالأمراء ، فنودى فى القاهرة ومصر : أن يلبس النصارى بأجمعهم العمائم الزرق ، ويلبس اليهود بأسرهم العمائم الصفر ، ومن لم يفعل ذلك نهب ماله وحل دمه . ومنعوا جميعا من

(*) ص ٤٦٨ ج٢ [illegible]

الخدمة فى ديوان السلطان ودواوين الأمراء حتى يسلموا .

فتسلطت الغوغاء عليهم وتتبعوهم ، فمن رأوه بغير الزى الذى رسم به ضربوه بالنعال وصفعوا عنقه حتى يكاد يهلك ، ومن مر بهم وقد ركب ولا يثنى رجله ألقوه عن دابته ، وأوجعوه ضربا . فاختفى كثير منهم ، وألجأت الضرورة عدة من أعيانهم الى اظهار الاسلام أنفة من لبس الأزرق وركوب الحمير .

وقد أكثر شعراء العصر فى ذكر تغيير زى أهل الذمة . فقال علاء الدين على بن مظفر الوداعى :

لقد ألزم الكفار شاشات ذلة
تزيدهم من لعنة الله تشويشا

فقلت لهم ما ألبسوكم عمائما
ولكنهم قد ألزموكم براطيشا

وقال شمس الدين الطيبى :

تعجبوا للنصارى واليهود معا
والسامريين لما عمموا الخرقا

كأنما بات بالأصباغ منسهلا
نسر السماء فأضحى فوقهم زرقا

فبعث ملك برشلونة ، فى سنة ثلاث وسبعمائة ، هدية جليلة زائدة عن عادته ، عم بها جميع أرباب الوظائف من الأمراء مع ما خص به السلطان ، وكتب يسأل فى فتح الكنائس . فاتفق الرأى على فتح كنيسة حارة زويلة لليعاقبة ، وفتح كنيسة البندقانيين من القاهرة .

ثم لما كان يوم الجمعة تاسع شهر ربيع الآخر سنة احدى وعشرين وسبعمائة ، هدمت كنائس أرض مصر فى ساعة واحدة ، كما ذكر فى أخبار كنيسة الزهرى . وفى سنة خمس وخمسين وسبعمائة ، رسم بتحرير ماهو موقوف على الكنائس من أراضى مصر ، فأناف على خمسة وعشرين ألف فدان .

وسبب الفحص عن ذلك كثرة تعاظم النصارى ، وتعديهم فى الشر والاضرار بالمسلمين ، لتمكنهم من أمراء الدولة ، وتفاخرهم بالملابس الجليلة والمغالاة فى أثمانها ، والتبسط فى المآكل والمشارب ، وخروجهم عن الحد فى الجراءة والسلاطة . الى أن اتفق مرور بعض كتاب النصارى على الجامع الأزهر من القاهرة ، وهو راكب بخف ومهماز ، وبقباء اسكندرى طرح على رأسه ، وقدامه طرادون يمنعون الناس من مزاحمته ، وخلفه عدة عبيد بثياب سرية على أكاديش فارهة .

فشق ذلك على جماعة من المسلمين ، وثاروا به وأنزلوه عن فرسه ، وقصدوا قتله وقد اجتمع عالم كبير ، ثم خلوا عنه . وتحدث جماعة مع الأمير طاز فى أمر النصارى وما هم عليه ، فوعدهم بالانصاف منهم ، فرفعوا قصة على لسان المسلمين — قرئت على السلطان الملك الصالح صالح بحضرة الأمراء والقضاة وسائر أهل الدولة — تتضمن الشكوى من النصارى ، وأن يعقد لهم مجلس ليلتزموا بما عليهم من الشروط .

فرسم بطلب بطرك النصارى وأعيان أهل ملتهم ، وبطلب رئيس اليهود وأعيانهم ؛

وحضر القضاة والأمراء بين يدى السلطان ، وقرأ القاضى علاء الدين على بن فضل الله ، كاتب السر ، العهد الذى كتب بين المسلمين وبين أهل الذمة — وقد أحضروه معهم — حتى فرغ منه . فالتزم من حضر منهم بما فيه ، وأقروا به ، فعددت لهم أفعالهم التى جاهروا بها وهم عليها ، وأنهم لا يرجعون عنها غير قليل ، ثم يعودون اليها كما فعلوه غير مرة فيما سلف .

فاستقر الحال على أن يمنعوا من المباشرة بشىء من ديوان السلطان ودواوين الأمراء ولو أظهروا الاسلام ، وألا يكره أحد منهم على اظهار الاسلام ، ويكتب بذلك الى الأعمال .

فتسلطت العامة عليهم ، وتتبعوا آثارهم ، وأخذوهم فى الطرقات ، وقطعوا ما عليهم من الثياب ، وأوجعوهم ضربا ، ولم يتركوهم حتى يسلموا ، وصاروا يضرمون لهم النار ليلقوهم فيها . فاختفوا فى بيوتهم ، ولم يتجاسروا على المشى بين الناس ، فنودى المنع من التعرض لأذاهم .

فأخذت العامة فى تتبع عوراتهم ، وما علوه من دورهم على بناء المسلمين فهدموه ، واشتد الأمر على النصارى باختفائهم . حتى انهم فقدوا من الطرقات مدة ، فلم ير منهم ولا من اليهود أحد . فرفع المسلمون قصة ، قرئت فى دار العدل فى يوم الاثنين رابع عشر شهر رجب ، تتضمن أن النصارى قد استجدوا عمارات فى كنائسهم ، ووسعوها .

هذا وقد اجتمع بالقلعة عالم عظيم ، واستغاثوا بالسلطان * من النصارى ، فرسم بركوب والى القاهرة ، وكشفه على ذلك . فلم تتمهل العامة ومرت بسرعة ، فخربت كنيسة بجوار قناطر السباع ، وكنيسة بطريق مصر للأسرى ، وكنيسة الفهادين بالجوانية من القاهرة ، ودير نهيا من الجيزة ، وكنيسة بناجية بولاق التكرورى ، ونهبوا حواصل ما خربوه من ذلك — وكانت كثيرة — وأخذوا أخشابها ورخامها ، وهجموا كنائس مصر والقاهرة ، ولم يبق الا أن يخربوا كنيسة البندقانيين بالقاهرة ، فركب الوالى ومنعهم منها ، واشتدت العامة ، وعجز الحكام عن كفهم .

وكان قد كتب الى جميع أعمال مصر وبلاد الشام ألا يستخدم يهودى ولا نصرانى ولو أسلم ، وأنه من أسلم منهم لا يمكن من العبور الى بيته ولا من معاشرة أهله الا أن يسلموا ، وأن يلزم من أسلم منهم بملازمة المساجد والجوامع لشهود الصلوات الخمس والجمع ، وأن من مات من أهل الذمة يتولى المسلمون قسمة تركته على ورثته ان كان له وارث ، والا فهى لبيت المال ، وكان يلى ذلك البطرك . وكتب بذلك مرسوم قرىء على الأمراء ، ثم نزل به الحاجب فقرأه فى يوم الجمعة سادس عشرى جمادى الآخرة بجوامع القاهرة ومصر ، فكان يوما مشهودا .

ثم أحضر فى أخريات شهر رجب ، من كنيسة شبرا بعدما هدمت ، أصبع الشهيد — الذى كان يلقى فى النيل حتى يزيد

(*) ص٤٦٦ جـ٢ ، ط. بولاق .

بزعمهم — وهو فى صندوق . فأحرق بين يدى السلطان بالميدان من قلعة الجبل ، وذرى رماده فى البحر خشية من أخذ النصارى له .

فقدمت الأخبار بكثرة دخول النصارى ، من أهل الصعيد والوجه البحرى ، فى الاسلام وتعلمهم القرآن ، وأن أكثر كنائس الصعيد هدمت وبنيت مساجد ، وأنه أسلم بمدينة قليوب فى يوم واحد أربعمائة وخمسون نصرانيا ، وكذلك بعامة الأرياف ، مكرا منهم وخديعة حتى يستخدموا فى المباشرات ، وينكحوا المسلمات . فتم لهم مرادهم ، واختلطت بذلك الأنساب حتى صار أكثر الناس من أولادهم .

ولا يخفى أمرهم على من نور الله قلبه ، فانه يظهر من آثارهم القبيحة ، اذا تمكنوا من الاسلام وأهله ، ما يعرف به الفطن سوء أصلهم وقديم معاداة أسلافهم للدين وحملته .

« فصل » : النصارى فرق كثيرة : الملكانية ، والنسطورية ، واليعقوبية ، والبوذعانية ، والمرقولية — وهم الرهاويون الذين كانوا بنواحى حران — وغير هؤلاء : فمنهم من مذهبه مذهب الحرانية ، ومنهم من يقول بالنور والظلمة والثنوية ، كلهم يقرون بنبوة المسيح عليه السلام ، ومنهم من يعتقد مذهب أرسطاطاليس .

والملكانية واليعقوبية والنسطورية متفقون على أن معبودهم ثلاثة أقانيم ، وهذه الأقانيم الثلاثة شىء واحد ، وهو جوهر قديم ، ومعناه أب وابن وروح القدس اله واحد ، وأن الابن نزل من السماء ، فتدرع جسدا من مريم ، وظهر للناس يحيى ويبرىء وينبىء ، ثم قتل وصلب ، وخرج من القبر لثلاث ، فظهر لقوم من أصحابه ، فعرفوه حق معرفته ، ثم صعد الى السماء فجلس عن يمين أبيه ؛ هذا الذى يجمعهم اعتقاده .

ثم انهم يختلفون فى العبارة عنه : فمنهم من يزعم أن القديم جوهر واحد يجمعه ثلاثة أقانيم — كل أقنوم منها على جوهر خاص — فأحد هذه الأقانيم أب ، وأحد غير مولود ، والثالث روح فائضة منبثقة بين الأب والابن وأن الابن لم يزل مولودا من الأب ، وأن الأب لم يزل والدا للابن ، لا على جهة النكاح والتناسل ، لكن على جهة تولد ضياء الشمس من ذات الشمس ، وتولد حر النار من ذات النار .

ومنهم من يزعم أن معنى قولهم أن الاله ثلاثة أقانيم ، أنها ذات لها حياة ونطق : فالحياة هى روح القدس ، والنطق هو العلم والحكمة ..... [1] والنطق والعلم والحكمة والكلمة عبارة عن الابن ، كما يقال الشمس وضياؤها والنار وحرها ، فهو عبارة عن ثلاثة أشياء ترجع الى أصل واحد .

ومنهم من يزعم أنه لا يصح له أن يثبت الاله فاعلا حكيما ، الا أنه يثبته حيا ناطقا . ومعنى الناطق عندهم العالم المميز ، لا الذى يخرج الصوت بالحروف المركبة ، ومعنى الحى عندهم من له حياة بها يكون حيا ، ومعنى العالم من له علم به يكون عاما ؛ قالوا : فذاته وعلمه وحياته ثلاثة أشياء

(1) هكذا بياض فى الاصل .

والأصل واحد . فالذات هى العلة للاثنين اللذين هما العلم والحياة ، والاثنان هما المعلولان للعلة .

ومنهم من يتنزه عن لفظ العلة والمعلول فى صفة القديم ، ويقول : أب وابن ، ووالدة وروح ، وحياة وعلم ، وحكمة ونطق .

قالوا : والابن اتحد بانسان مخلوق ، فصار هو وما اتحد به مسيحا واحدا ، وان المسيح هو اله العباد وربهم .

ثم اختلفوا فى صفة الاتحاد . فزعم بعضهم أنه وقع بين جوهر لاهوتى وجوهر ناسوتى اتحاد فصارا مسيحا واحدا ، ولم يخرج الاتحاد كل واحد منهما عن جوهريته وعنصره ، وأن المسيح اله معبود ، وأنه ابن مريم الذى حملته وولدته ، وأنه قتل وصلب .

وزعم قوم أن المسيح بعد الاتحاد جوهران أحدهما لاهوتى ، والآخر ناسوتى ، وأن القتل والصلب وقعا به من جهة ناسوته لا من جهة لاهوته ، وأن مريم حملت المسيح وولدته من جهة ناسوته ، وهذا قول النسطورية . ثم يقولون : ان المسيح بكماله * اله معبود ، وانه ابن الله ، تعالى الله عن قولهم .

وزعم قوم أن الاتحاد وقع بين جوهرين : لاهوتى ، وناسوتى ، فالجوهر اللاهوتى بسيط غير منقسم ولا متجزىء . وزعم قوم أن الاتحاد على جهة حلول الابن فى الجسد ومخالطته* اياه . ومنهم من زعم أن الاتحاد على جهة الظهور ، كظهور كتابة الخاتم والنقش اذا وقع على طين أو شمع ، وكظهور صورة الانسان فى المرآة ، الى غير ذلك من الاختلاف الذى لا يوجد مثله فى غيرهم ، حتى لا تكاد تجد اثنين منهم على قول واحد .

والملكانية تنسب الى ملك الروم ، وهم يقولون : ان الله اسم لثلاثة معان ، فهو واحد ثلاثة ، وثلاثة واحد . واليعقوبية تقول : انه واحد قديم ، وانه كان لا جسم ولا انسان ، ثم تجسم وتأنس . والمرقولية قالوا : الله واحد ، وعلمه غيره قديم معه ، والمسيح ابنه على جهة الرحمة ، كما يقال ابراهيم خليل الله . والمرقولية تزعم أن المسيح يطوف عليهم كل يوم وليلة . والبوزغانية تزعم أن المسيح هو الذى يحشر الموتى من قبورهم ويحاسبهم .

« فصل » : وعندهم لابد من تنصير أولادهم ، وذلك أنهم يغسلون المولود فى ماء قد أغلى بالرياحين وألوان الطيب فى اجانة جديدة ، ويقرأون عليه من كتابهم ، فيزعمون أنه حينئذ ينزل عليه روح القدس ، ويسمون هذا الفعل المعمودية .

وطهارتهم انما هى غسل الوجه واليدين فقط ، ولا يختتن منهم الا اليعقوبية ، ولهم سبع صلوات يستقبلون فيها المشرق ، ويحجون الى بيت المقدس ، وزكاتهم العشر من أموالهم ، وصيامهم خمسون يوما .

فالثانى والأربعون منه عيد الشعانين ، وهو اليوم الذى نزل فيه المسيح من الجبل ودخل بيت المقدس . وبعده بأربعة أيام عيد الفصح ، وهو اليوم الذى خرج فيه موسى وقومه من مصر . وبعده بثلاثة أيام عيد القيامة ، وهو

(*) ص٥٠٠ جـ٢ ، ط. بولاق .

اليوم الذى خرج فيه المسيح من القبر بزعمهم . وبعده بثمانية أيام عيد الجديد ، وهو اليوم الذى ظهر فيه المسيح لتلامذته بعد خروجه من القبر . وبعده بثمانية وثلاثين يوما عيد السلاق ، وهو اليوم الذى صعد فيه المسيح الى السماء .

ولهم عيد الصليب ، وهو اليوم الذى وجدوا فيه خشبة الصليب ، وزعموا أنها وضعت على ميت فعاش . ولهم أيضا عيد الميلاد وعيد الذبح ، ولهم قرابين وكهنة : فالشماس فوقه القس ، وفوق القس الأسقف ، وفوق الأسقف المطران ، وفوق المطران البطريق .

والسكر عندهم حرام ، ولا يحلّ لهم أكل اللحم ولا الجماع فى الصوم ، وكل ما يباع فى السوق ولم تعفه أنفسهم يباح أكله ، ولا يصح النكاح الا بحضور شماس وقس وعدول ومهر ، ويحرمون من النساء مايحرمه المسلمون ، ولا يحل الجمع بين امرأتين ، ولا التسرى بالاماء الا أن يعتقن ويتزوج بهن ، واذا خدم العبد سبع سنين عتق .

ولا يحل طلاق المرأة ، الا أن تأتى بفاحشة مبينة فتطلق ، ولا تحل للزوج أبدا ، وحد المحصن اذا زنى الرجم ، فان زنى غير محصن وحملت منه المرأة تزوج بها ، ومن قتل عمدا قتل ، ومن قتل خطأ يهرب ولا يحل طلبه ، وأكثر أحكامهم من التوراة ، وقد لعن منهم من لاط أو شهد بالزور أو قامر أو زنى أو سكر [1] .

(1) فى بعض النسخ هنا بياض نحو ورقة . اهـ

ذكر ديارات النصارى

قال ابن سيده : الدير خان النصارى ، والجمع أديار ، وصاحبه ديار وديرانى . قلت : الدير عند النصارى يختص بالنساك المقيمين به ، والكنيسة مجتمع عامتهم للصلاة .

« القلاية بمصر » : هذه القلاية بجانب المعلقة ، التى تعرف بقصر الشمع ، فى مدينة مصر . وهى مجمع أكابر الرهبان وعلماء النصارى ، وحكمها عندهم حكم الأديرة .

« دير طرا » : ويعرف بدير أبى جرج ، وهو على شاطىء النيل .

وأبو جرج هذا هو جرجس . وكان ممن عذبه الملك دقلطيانوس ليرجع عن دين النصرانية ، ونوع له العقوبات من الضرب والتحريق بالنار فلم يرجع ، فضرب عنقه بالسيف فى ثالث تشرين وسابع بابه .

« دير شهران » : هذا الدير فى حدود ناحية طرا ، وهو مبنى بالحجر واللبن ، وبه نخل ، وبه عدة رهبان . ويقال انما هو دير شهران بالهاء ، وان شهران كان من حكماء النصارى ، وقيل بل كان ملكا .

وكان هذا الدير يعرف قديما بمرقوريوس — الذى يقال له مرقورة وأبو مرقورة — ثم لما سكنه برصوما بن التبان ، عرف بدير برصوما . وله عيد يعمل فى الجمعة الخامسة من الصوم الكبير ، فيحضره البطرك وأكابر النصارى ، وينفقون فيه مالا كبيرا . ومرقوريوس هذا كان ممن قتله دقلطيانوس ،

فى تاسع عشر تموز وخامس عشرى أبيب ، وكان جنديا .

« دير الرسل » : هذا الدير خارج ناحية الصف والودى ، وهو دير قديم لطيف .

« دير بطرس وبولص » : هذا الدير خارج أطفيح من قبليها ، وهو دير لطيف ، وله عيد فى خامس أبيب يعرف بعيد * القصرية .

وبطرس هذا هو أكبر الرسل الحواريين ، وكان دباغا — وقيل صيادا — قتله الملك نيرون فى تاسع عشرى حزيران وخامس أبيب . وبولص هذا كان يهوديا ، فتنصر بعد رفع المسيح عليه السلام ، ودعا الى دينه ، فقتله الملك نيرون بعد قتله بطرس بسنة .

« دير الجميزة » : ويعرف بدير الجود ، ويسمى موضعه البحارة جزائر الدير ، وهو قبالة الميمون ، وهو عزبة لدير العزبة . بنى على اسم أنطونيوس — ويقال أنطونة — وكان من أهل قمن ، فلما انقضت أيام الملك دقلطيانوس وفاتته الشهادة ، أحب أن يتعوض عنها بعبادة توصل ثوابها أو قريبا من ذلك ، فترهب .

وكان أول من أحدث الرهبانية للنصارى عوضا عن الشهادة ، وواصل أربعين يوما ليلا ونهارا طاويا لا يتناول طعاما ولا شرابا مع قيام الليل ، وكان هكذا يفعل فى الصيام الكبير كل سنة .

« دير العزبة » : هذا الدير يسار اليه فى الجبل الشرقى ثلاثة أيام بسير الابل ، وبينه وبين بحر القلزم مسافة يوم كامل ، وفيه غالب الفواكه مزدرعة ، وبه ثلاثة أعين تجرى ، وبناه أنطونيوس المقدم ذكره .

ورهبان هذا الدير لا يزالون دهرهم صائمين ، لكن صومهم الى العصر فقط ، ثم يفطرون ، ما خلا الصوم الكبير والبرمولات ، فان صومهم فى ذلك الى طلوع النجم . والبرمولات هى الصوم كذلك بلغتهم .

« دير أنبا بولا » : وكان يقال له أولا دير بولص ، ثم قيل له دير بولا ، ويعرف بدير النمورة أيضا . وهذا الدير فى البر الغربى من الطور ، على عين ماء يردها المسافرون . وعندهم أن هذه العين تطهرت منها مريم ، أخت موسى عليهما السلام ، عند نزول موسى ببنى اسرائيل فى برية القلزم .

وأنبا بولا هذا كان من أهل الاسكندرية ، فلما مات أبوه ترك له ولأخيه مالا جما ، فخاصمه أخوه فى ذلك وخرج مغاضبا له ، فرأى ميتا يقبر فاعتبر به ، ومر على وجهه سائحا حتى نزل على هذه العين ، فأقام هناك والله تعالى يرزقه ، فمر به أنطونيوس ، وصحبه حتى مات ، فبنى هذا الدير على قبره . وبين هذا الدير والبحر ثلاث ساعات ، وفيه بستان فيه نخل وعنب ، وبه عين ماء تجرى أيضا .

« دير القصير » : قال أبو الحسن على بن محمد الشابشتى فى كتاب « الديارات » : وهذا الدير فى أعلى الجبل ، على سطح فى قلته ، وهو دير حسن البناء محكم الصنعة ، نزه البقعة ، وفيه رهبان مقيمون به ، وله بئر منقورة فى الحجر يستقى له منها الماء ، وفى

(*) ص٥٠١ جـ٢ ، ط. بولاق .م

هيكله صورة مريم عليها السلام فى لوح ، والناس يقصدون الموضع للنظر الى هذه الصورة .

وفى أعلاه غرفة بناها أبو الجيش خمارويه ابن أحمد بن طولون ، لها أربع طاقات الى أربع جهات ، وكان كثير الغشيان لهذا الدير ، معجبا بالصورة التى فيه ، يستحسنها ويشرب على النظر اليها . وفى الطريق الى هذا الدير من جهة مصر صعوبة ، وأما من قبليه فسهل الصعود والنزول ، والى جانبه صومعة لا تخلو من حبيس يكون فيها .

وهو مطل على القرية المعروفة بشهران ، وعلى الصحراء والبحر ، وهى قرية كبيرة عامرة على شاطىء البحر ، ويذكرون أن موسى صلوات الله عليه ولد فيها ، ومنها ألقته أمه الى البحر فى التابوت . وبه أيضا دير يعرف بدير شهران .

ودير القصير هذا أحد الديارات المقصودة والمتنزهات المطروقة ، لحسن موضعه واشرافه على مصر وأعمالها ، وقد قال فيه شعراء مصر ووصفوه ، فذكروا طيبه ونزهته ، ولأبى هريرة بن أبى عاصم فيه من المنسرح :

كم لى بدير القصير من قصف
مع كل ذى صبوة وذى ظرف

لهوت فيه بشادن غنج
تقصر عنه بدائع الوصف

وقال ابن عبد الحكم فى كتاب « فتوح مصر » : وقد اختلف فى القصير : فعن ابن لهيعة قال : ليس بقصير موسى النبى صلى الله عليه وسلم ، ولكنه موسى الساحر . وعن المفضل بن فضالة عن أبيه قال : دخلنا على كعب الأحبار ، فقال لنا . ممن أنتم ؟ قلنا : فتيان من أهل مصر ، فقال : ما تقولون فى القصير ؟ قلنا : قصير موسى ؟ فقال . ليس بقصير موسى ، ولكنه قصير عزيز مصر ، كان اذا جرى النيل يترفع فيه ، وعلى ذلك انه لمقدس من الجبل الى البحر .

قال : ويقال بل كان موقدا يوقد فيه لفرعون اذا هو ركب من منف الى عين شمس . وكان على المقطم موقد آخر ، فاذا رأوا النار علموا بركوبه فأعدوا له ما يريد ، وكذلك اذا ركب منصرفا من عين شمس . والله أعلم .

وما أحسن قول كشاجم :

سلام على دير القصير وسفحه
بجنات حلوان الى النخلات
منازل كانت لى بهن مآرب
وكن مواخيرى ومنتزهاتى
اذا جئتها كان الجياد مراكبى
ومنصرفى فى السفن منحدرات *
فأقبض بالأسحار وحشى عيسها
وأقتنص الانسى فى الظلمات
معى كل بسام أغر مهذب
على كل ما يهوى النديم موات
ولحمان مما أمسكته كلابنا
علينا ومما صيد فى الشبكات
وكأس وابريق وناى ومزهر
وساق غرير فاتر اللحظات

(*) ص٢٠٥ ج٢ ، طبع بولاق .

كأن قضيب البان عند اهتزازه
تعلم من أعطافه الحركات

هنالك تصفو لى مشارب لذتى
وتصحب أيام السرور حياتى

وقال علماء الأخبار من النصارى : ان أرقاديوس ، ملك الروم ، طلب أرسانيوس ليعلم ولده ، فظن أنه يقتله ، ففر الى مصر وترهب ، فبعث اليه أمانا ، وأعلمه أن الطلب من أجل تعليم ولده ، فاستعفى وحول الى الجبل المقطم شرقى طرا ، وأقام فى مغارة ثلاث سنين ومات .

فبعث اليه أرقاديوس ، فاذا هو قد مات ، فأمر أن يبنى على قبره كنيسة وهو المكان المعروف بدير القصير ، ويعرف الآن بدير البغل ، من أجل أنه كان بغل يستقى عليه الماء ، فاذا خرج من لدير أبى الموددة هناك من يملأ عليه ، فاذا فرغ من الماء تركه فعاد الى الدير . وفى رمضان سنه أربعمائة أمر الحاكم بأمر الله بهدم دير القصير ، فأقام الهدم والنهب فيه مدة أيام .

«دير مرحنا» : قال الشابشتى دير مرحنا على شاطىء بركة الحبش ، وهو قريب من النيل ، والى جانبه بساتين أنشأ بعضها الأمير تميم بن المعز ، ومجلس على عمد حسن البناء مليح الصنعة مسور أنشأه الأمير تميم أيضا وبقرب الدير بئر ، تعرف ببئر ماتى ، عليها جميزة كبيرة يجمع الناس اليها ، ويشربون تحتها .

وهذا الموضع من مغانى اللعب ، ومواطن القصف والطرب ، وهو نزه فى أيام النيل وزيادة البحر وامتلاء البركة ، حسن المنظر فى أيام الزرع والنواوير ، لا يكاد حينئذ يخلو من المتنزهين والمتطربين ، وقد ذكرت الشعراء حسنه وطيبه . وهذا الدير يعرف اليوم بدير الطين (بالنون) .

« دير أبى النعناع » : هذا الدير خارج أنصنا ، وهو من جملة عماراتها القديمة ، وكنيسته فى قصره لا فى أرضه ، وهو على اسم أبى يخنس القصير ، وعيده فى العشرين من بابه ، وسيأتى ذكر أبى يخنس هذا .

« دير مغارة شقلقيل » هو دير لطيف معلق فى الجبل ، وهو نقر فى الحجر على صخرة تحتها عقبة ، لا يتوصل اليه من أعلاه ولا من أسفله ولا سلم له ، وانما جعلت له نقور فى الجبل ، فاذا أراد أحد أن يصعد اليه أرخيت له سلبة فأمسكها بيده ، وجعل رجليه فى تلك النقور وصعد ، وبه طاحونة يديرها حمار واحد

ويطل هذا الدير على النيل تجاه منفلوط وتجاه أم القصور ، وتحاهه جزيرة يحيط بها الماء — وهى التى يقال لها شقلقيل — وبها قريتان . احداهما شقلقيل ، والأخرى بنى شقير . ولهذا الدير عيد يجتمع فيه النصارى ، وهو على اسم يومينا ، وهو من الأجناد الذين عاقبهم ديقلطيانوس ليرجع عن النصرانية ويسجد للأصنام ، فثبت على دينه ، فقتله فى عاشر حزيران وسادس عشر بابه .

« دير بقطر » : بحاجر أبنوب ، من شرقى بنى مر ، تحت الجبل على مائتى قصبة منه . وهو دير كبير جدا ، وله عيد يجتمع فيه

نصارى البلاد شرقا وغربا ، ويحضره الأسقف .

ويقطر هذا هو ابن رومانوس - كان أبوه من وزراء ديقلطيانوس ، وكان هو جميلا شجاعا له منزلة من الملك ، فلما تنصر وعده الملك ، ومناه ليرجع الى عبادة الأصنام فلم يفعل ، فقتله فى ثانى عشرى نيسان وسابع عشرى برمودة .

« دير يقطر شق » : فى بحرى أبنوب وهو دير لطيف خال ، وانما تأتيه النصارى مرة فى كل سنة .

ويقطر شق ممن عذبه ديقلطيانوس ليرجع عن النصرانية فلم يرجع ، فقتله فى العشرين من هتور ، وكان جنديا .

« دير بوجرج » : بنى على اسم بوجرج وهو خارج المعيصرة بناحية شرق نى مر ، وتارة يخلو من الرهبان ، وتارة يعمر بهم ، وله وقت يعمل العيد فيه .

« دير حماس » : وحماس اسم بلد هو بحريها ، وله عيدان فى كل سة ، وجموعات متعددة .

« دير الطير » : هذا الدير قديم ، وهو مطل على النيل ، وله سلالم منحوتة فى الجبل ، وهو قبالة سملوط .

وقال الشابشتى . وبنواحى اخميم دير كبير عامر يقصد من كل موضع ، وهو بقرب الجبل المعروف بجبل الكهف ، وفى موضع من الجبل شق ، فاذا كان يوم عيد هذا الدير لم يبق فى البلد بوقير حتى يجىء الى هذا الموضع ، فيكون أمرا عظيما * بكثرتها واجتماعها وصياحها عند الشق ، ولا يزال الواحد بعد الواحد يدخل رأسه فى ذلك الشق ويصيح ، ويخرج ويجىء غيره ؛ الى أن يعلق رأس أحدها ، وينشب فى الموضع ، فيضطرب حتى يموت ، وتتفرق حينئذ الباقية فلا يبقى منها طائر .

وقال القاضى أبو جعفر القضاعى : ومن عجائبها (يعنى مصر) شعب البوقيرات بناحية أشموم من أرض الصعيد ، وهو شعب فى جبل فيه صدع تأتيه البوقيرات فى يوم من السنة كان معروفا ، فتعرض أنفسها على الصدع ، فكلما أدخل بوقير منها منقاره فى الصدع مضى لطيته ، فلا تزال تفعل ذلك حتى يلتقى الصدع على بوقير منها فيحبسه ، وتمضى كلها ، ولا يزال ذلك الذى تحبسه معلقا حتى يتساقط .

قال مؤلفه رحمه الله تعالى . وقد بطل هذا فى جملة ما بطل .

« دير أبى هرمينة » . بحرى فاو الخراب ، وبحريه بربا فاو وهى مملوءة كتبا وحكما ، وبين دير الطين وهذا الدير نحو يومين ونصف . وأبو هرمنة هذا من قدماء الرهبان المشهورين عند النصارى .

« دير السبعة جبال بأخميم » هذا الدير داخل سبعة أودية ، وهو دير عال بين جبال شامخة ، ولا تشرق عليه الشمس الا بعد ساعتين من الشروق لعلو الجبل الذى هو فى

(*) ص٣٠٢ ج٢ ، ط. بولاق .

لحفه ، واذا بقى للغروب نحو ساعتين ، خيلَ لمن فيه أن الشمس قد غابت وأقبل الليل ، فيشعلون حينئذ الضوء فيه . وعلى هذا الدير من خارجه عين ماء تظلها صفصافة ، ويعرف هذا الموضع الذى فيه دير الصفصافة بوادى الملوك ، لأن فيه نباتا يقال له الملوكة ، وهو شبه الفجل ، وماؤه أحمر فان يدخل فى صناعة علم أهل الكيمياء .

ومن داخل هذا الدير « دير القرقس » ، وهو فى أعلى جبل قد نقر فيه ، ولا يعلم له طريق ، بل يصعد اليه فى نقور فى الجبل ، ولا يتوصل اليه الا كذلك . وبين دير الصفصافة ودير القرقس ثلاث ساعات ، وتحت دير القرقس عين ماء عذب وأشجار بان .

« دير صبرة » : فى شرقى أخميم ، عرف بعرب يقال لهم بنى صبرة ، وهو على اسم ميخائيل الملك ، وليس به غير راهب واحد .

« دير أبى بشادة الأسقف » : قريب من ناحية أتقة ، وهو بالحاجر ، وتجاهه فى الغرب منشأة أخميم . وكان أبو بشادة هذا من علماء النصارى .

« دير بوهور الزهب » : ويعرف بدير سواده ، وسوادة عرب تنزل هناك ، وهو قبالة منية بنى خصيب ، خربته العرب .

وهذه الأديرة كلها فى الشرق من النيل ، وجميعها لليعاقبة ، وليس فى الجانب الشرقى الآن سواها ، وأما الجانب الغربى من النيل فانه كثير الديارات لكثرة عمارته .

« دير دموة بالجيزة » : ويعرف بدموة السباع ، وهو على اسم قزمان ودميان ، وهو دير لطيف ، وتزعم النصارى أن بعض الحكماء — كان يقال له سبع — أقام بدموة ، وأن كنيسة دموة التى بأيدى اليهود الآن كانت ديرا من ديارات النصارى ، فابتاعته منهم اليهود فى ضائقة نزلت بهم ، وقد تقدم ذكر كنيسة دموة . وقزمان ودميان من حكماء النصارى ورهبانهم العباد ، ولهما أخبار عندهم .

« دير نهيا » : قال الشابشتى : ونهيا بالجيزة ، وديرها هذا من أحسن ديارات مصر وأنزهها ، وأطيبها موضعا ، وأجلها موقعا ، عامر برهبانه وسكانه ، وله فى أيام النيل منظر عجيب ، لأن الماء يحيط به من جميع جهاته ، فاذا انصرف الماء ، وزرعت الأرض ، أظهرت أراضيه غرائب النواوير وأصناف الزهر . وهو من المتنزهات الموصوفة ، والبقاع المستحسنة ، وله خليج يجتمع فيه سائر الطير ، فهو أيضا متصيد ممتع ، وقد وصفته الشعراء وذكرت حسنه وطيبه ؛ قلت : وقد خرب هذا الدير .

« دير طمسويه » : قال ياقوت : طمسويه — بفتح الطاء وسكون الميم وفتح الواو وياء ساكنة — قريتان بمصر : احداهما فى كورة المرتاحية ، والأخرى بالجيزة .

قال الشابشتى : وطمسويه فى الغرب بازاء حلوان ، والدير راكب البحر ، حوله الكروم والبساتين والنخل والشجر ، وهو نزه عامر آهل ، وله فى النيل منظر حسن ، وحين تخضر الأرض يكون فى بساطين من البحر والزرع . وهو أحد متنزهات أهل مصر المذكورة ، ومواضع لهوها المشهورة .

ولابن أبي عاصم المصري فيه من البسيط :

واشرب بطمويه من صهباء صافية
تزري بخمر قرى هيت وعانات *

على رياض من السوار زاهرة
تجري الجداول فيها بين جنات

كأن نبت الشقيق العصفري بها
كاسات خمر بدت في اثر كاسات

كأن نرجسها من حسنه حدق
في خفية يتناجى بالاشارات

كأنما النيل في مر النسيم به
مستلئم في دروع سابريات

منازل كنت مفتونا بها شغفا
وكن قدما مواخيري وحاناتي

اذ لا أزال ملما بالصبوح على
ضرب النواقيس صبا بالديارات

قلت : هذا الدير عند النصارى على اسم بوجرج ، ويجتمع فيه النصارى من النواحي .

« دير أقفاص » : وصوابها اقفهس ، وقد خرب .

« دير خارج ناحية منهرى » : خامل الذكر لأنهم لا يطعمون فيه أحدا .

« دير الخادم » : على جانب المنهى بأعمال البهنسا ، على اسم غبريال الملك ، به بستان فيه نخل وزيتون .

« دير أشنين » : عرف بناحية أشنين فانه في بحريها ، وهو لطيف على اسم السيدة مريم ، وليس به سوى راهب واحد .

(*) ص٥٠٤ جـ٢ ، ط. بولاق .

« دير أيسوس » : ومعنى أيسوس يسوع . ويقال له دير أرجنوس ، وله عيد في خامس عشري بشنس فاذا كان ليلة هذا اليوم سدت بئر فيه تعرف ببئر أيسوس ، وقد اجتمع الناس الى الساعة السادسة من النهار ، ثم كشفوا الطابق عن البئر ، فاذا بها قد فاض ماؤها ثم ينزل ، فحيث صل الماء قاسوا منه الى موضع استقر فيه الماء ، فما بلغ كانت زيادة النيل في تلك السنة من الأذرع .

« دير سدمنت » : على جانب المنهى ، بالحاجر بين الفيوم والريف ، على اسم بوجرج ، وقد ضعفت أحواله عما كان عليه ، وقل ساكنه .

« دير النقلون » . ويقال له دير الخشبة ودير غبريال الملك ، وهو تحت مغارة في الجبل الذي يقال له طارف الفيوم ، وهذه المغارة تعرف عندهم بمظلة يعقوب ، يزعمون أن يعقوب عليه السلام لما قدم مصر كان يستظل بها ، وهذا الجبل مطل على بلدين يقال لهما اطفيح شيلا وشلا .

ويملأ الماء لهذا الدير من بحر المنهى ، ومن تحت دير سدمنت ، ولهذا الدير عيد يجتمع فيه نصارى الفيوم وغيرهم ، وهو على السكة التي تنزل الى الفيوم ، ولا يسلكها الا القليل من المسافرين .

« دير القلمون » . هذا الدير في برية ، تحت عقبة القلمون ، ينوصل المسافر منها الى الفيوم ، يقال لها عقبة الغريق . وبنى هذا الدير على اسم صمويل الراهب ، وكان في زمن الفترة ما بين عيسى ومحمد صلى الله

عليهما وسلم ، ومات في ثامن كيهك . وفي هذا الدير نخل كثير يعمل من تمره العجوة ، وفيه أيضا شجر اللبخ ولا يوجد الا فيه ، وثمره بقدر الليمون طعمه حلو في مثل طعم الرامخ ، ولنواه عدة منافع .

وقال أبو حنيفة في كتاب « النبات » : ولا ينبت اللبخ الا بأنصنا ، وهو عود تنشر منه ألواح السفن ، وربما أرعف ناشرها ، ويباع اللوح منها بخمسين دينارا ونحوها ، واذا شد لوح منها بلوح ، وطرحا في الماء سنة ، التأما وصارا لوحا واحدا .

وفي هذا الدير قصران مبنيان بالحجارة ، وهما عاليان كبيران لبياضهما اشراق . وفيه أيضا عين ماء تجري ، وفي خارجه عين أخرى . وبهذا الوادي عدة معابد قديمة ، وثم واد يقال له الأميلح فيه عين ماء تجري ، ونخيل مثمرة تأخذ العرب ثمرها . وخارج هذا الدير ملاحة يبيع رهبان الدير ملحها ، فيعم تلك الجهات .

« دير السيدة مريم » : خارج طنبدى ، ليس فيه سوى راهب واحد ، وهو على غير الطريق المسلوك . وكان بأعمال البهنسا عدة ديارات خربت .

« دير برقانا » : بحري بني خالد ، وهو مبني بالحجر ، وعمارته حسنة ، وهو من أعمال المنية ، وكان به في القديم ألف راهب ، وليس به الآن سوى راهبين ، وهو في الحاجز تحت الجبل .

« دير بالوجه » : على جنب المنهى ، وهو لأهل دلجة ، وهو من الأديرة الكبار ، وقد خرب حتى لم يبق به سوى راهب أو راهبين ، وهو بازاء دلجة بينه وبينها نحو ساعتين .

« دير مرقورة » : ويقال أبو مرقورة . هذا الدير تحت دلجة بخارجها من شرقيها ، وليس به أحد *.

« دير صنبو » : في خارجها من بحريها . على اسم السيدة مريم ، وليس به أحد .

« دير تادرس » : قبلي صنبو ، وقد تلاشى أمره لاتضاع حال النصارى

« دير الريرمون » : في شرقي ناحية الريرمون ، وهو شرقي ملوى وغربي أنصنا وهو على اسم الملك غبريال .

« دير المحرق » : تزعم النصارى أن المسيح عليه السلام أقام في موضعه ستة أشهر وأياما . وله عيد عظيم — يعرف بعيد الزيتونة وعيد العنصرة — يجتمع فيه عالم كثير .

« دير بني كلب » : عرف بذلك لنزول بني كلب حوله ، وهو على اسم غبريال ، وليس فيه أحد من الرهبان ، وانما هو كنيسة لنصارى منفلوط ، وهو غربيها .

« دير الجاولية » : هذا الدير ناحية الجاولية من قبليها ، وهو على اسم الشهيد مرقورس — الذي يقال له مرقورة — وعليه رزق محبسة ، وتأتيه النذورات والعوايد ، وله عيدان في كل سنة .

« دير السبعة جبال » : هذا الدير على رأس الجبل الذي غربي سيوط على شاطيء النيل ، ويعرف بدير بخنس القصير ، وله عدة أعياد ، وخرب في سنة احدى وعشرين وثمانمائة من منسر طرقه ليلا .

(*) ص٥٠٥ جـ٢ ، طـ بولاق .

« يخنس » : ويقال أبو يخنس القصير ، كان راهبا قصصا له أخبار كثيرة ، منها أنه غرس خشبة يابسة في الأرض بأمر شيخه له ، وسقاها الماء مدة ، فصارت شجرة مثمرة تأكل منها الرهبان ، وسميت شجرة الطاعة ، ودفن في ديره .

« دير المطل » : هذا الدير على اسم السيدة مريم ، وهو على طرف الجبل تحت دير السبعة جبال قبالة سيوط ، وله عيد يحضره أهل النواحي ، وليس به أحد من الرهبان .

أديرة أدرنكة

اعلم أن ناحية أدرنكة هي من قرى النصارى الصعايدة ، ونصاراها أهل علم في دينهم وتفاسيرهم في اللسان القبطي ، لهم أديرة كثيرة في خارج البلد من قبليها مع الجبل ، وقد خرب أكثرها ، وبقي منها :

« دير بوجرج » : وهو عامر البناء ، وليس به أحد من الرهبان ، ويعمل فيه عيد في أوانه .

« دير أرض الحاجر ودير ميكائيل ودير كرفونة » : على اسم السيدة مريم ، وكان يقال له « أرافونة وأغرافونا » ، ومعناه النساخ ، فان نساخ علوم النصارى كانت في القديم تقيم به . وهو على طرف الجبل ، وفيه مغاير كثيرة ، منها ما يسير الماشي بجنبه نحو يومين .

« دير أبي بغام » : تحت دير كرفونة بالحاجر . وقد كان أبو بغام جنديا في أيام ديقلطيانوس فتنصر ، وعذب ليرجع عن دينه ، ثم قتل في ثامن عشرى كانون الأول وثاني كيهك .

« دير بوساويرس » . بحاجر أدرنكه ، كان على اسم السيدة مريم . وكان ساويرس من عظماء الرهبان ، فعمل بطركا وظهرت آية عند موته ، وذلك أنه أنذرهم لما سار الى الصعيد بأنه اذا مات ينشق الجبل ، وتقع منه قطعة عظيمة على الكنيسة فلا تضرها . فلما كان في بعض الأيام سقطت قطعة عظيمة من الجبل كما قال ، فعلم رهبان هذا الدير بأن ساويرس قد مات ، فأرخوا ذلك فوجدوه وقت موته ، فسموا الدير حينئذ باسمه .

« دير تادرس » : تحت دير بوساويرس ، وتادرس اثنان كانا من أجناد ديقلطيانوس : أحدهما يقال له قاتل التنين ، والآخر الاسفسهلار ، وقتلا كما قتل غيرهما .

« دير منسي آك » : ويقال منساك وبني ساك وايساآك ، ومعنى ذلك اسحاق ، وكان على اسم السيدة ماريهام — يعني مارت مريم — ثم عرف بمنساك ، وكان راهبا قديما له عندهم شهرة . وبهذا الدير بئر تحته في الحاجر منها شرب الرهبان ، فاذا زاد النيل شربوا من مائه .

« دير الرسل » : تحت دير منساك ، ويعرف بدير الأثل ، وهو لأعمال بوتيج ودير منساك لأهل ريفة هو ودير ساويرس ، ودير كرافونة لأهل سيوط ، ودير بوجرج لأهل أدرنكة . ودير الأثل كان في خراب ، فعمر بجانبه كفر لطيف عرف بمنشأة الشيخ ، لأن الشيخ أبابكر الشاذلي أنشأه ، وأنشأ بستانا كبيرا ، وقد

وجد موضعه بئرا كبيرة ، وجد بها كنزا . أخبرنى من شاهد من ذهبه دنانير مربعة بأحد وجهيها صليب ، وزنة الدينار مثقال ونصف .

وأديرة أدرنكة المذكورة قريب بعضها من بعض ، وبينها مغاير عديدة منقوش على ألواح فيها نقوشات من كتابة القدماء ، كما على البرابى ، وهى مزخرفة بعدة أصباغ ملونة تشتمل على علوم شتى .

ودير السبعة جبال ، ودير المطل * ، ودير النساخ ، خارج سيوط فى المقابر . ويقال انه كان فى الحاجرين ثلثمائة وستون ديرا ، وان المسافر كان لا يزال من البدرشين الى أصفون فى ظل البساتين ، وقد خرب ذلك وباد أهله .

« دير موشة » : وموشة خارج سيوط من قبليها . بنى على اسم توما الرسول الهندى ، وهو بين الغيطان قريب من ربقة ، وفى أيام النيل لا يوصل اليه الا فى مركب ، وله أعياد .

والأغلب على نصارى هذه الأديرة معرفة القبطى الصعيدى ، وهو أصل اللغة القبطية ، وبعدها اللغة القبطية البحرية . ونساء نصارى الصعيد وأولادهم لا يكادون يتكلمون الا بالقبطية الصعيدية ، ولهم أيضا معرفة تامة باللغة الرومية .

« دير أبى مقروفة » : وأبو مقروفة اسم للبلدة التى بها هذا الدير . وهو منقور فى لحف الجبل ، وفيه عدة مغاير ، وهو على اسم السيدة مريم . وبمقروفة نصارى كثيرة غنامه ؛ ورعاة أكثرهم همج ، وفيهم قليل من يقرأ ويكتب . وهو دير معطش .

« دير بومغام » : خارج طما ، وأهلها نصارى ، وكانوا قديما أهل علم .

« دير بوشنودة » : ويعرف بالدير الأبيض وهو غربى ناحية سوهاى ، وبناؤه بالحجر ، وقد خرب ولم يبق منه الا كنيسته . ويقال ان مساحته أربعة فدادين ونصف وربع ، والباقى منه نحو فدان ، وهو دير قديم .

« الدير الأحمر » : ويعرف بدير أبى بشاى ، وهو بحرى الدير الأبيض بينهما نحو ثلاث ساعات ، وهو دير لطيف مبنى بالطوب الأحمر . وأبو بشاى هذا من الرهبان المعاصرين لشنودة ، وهو تلميذه ، وصار من تحت يده ثلاثة آلاف راهب ، وله دير آخر فى برية شيهات .

« دير أبى ميساس » : ويقال أبو ميسيس ، واسمه موسى . وهذا الدير تحت البلينا ، وهو دير كبير .

وأبو ميسيس هذا كان راهبا من أهل البلينا ، وله عندهم شهرة ، وهم ينذرونه ، ويزعمون فيه مزاعم .

ولم يبق بعد هذا الدير الا أديرة بحاجر اسنا ونقادة قليلة العمارة . وكان بأصفون دير كبير ، وكانت أصفون من أحسن بلاد مصر ، وأكثر نواحى الصعيد فواكه ، وكان رهبان ديرها معروفين بالعلم والمهارة ، فخربت أصفون ، وخرب ديرها .

(*) ص٥٠٦ جـ٢ ، ط . بولاق .

وهذا آخر أديرة الصعيد ، وهى كلها متلاشية آئلة الى الدثور ، بعد كثرة عمارتها ، ووفور أعداد رهبانها وسعة أرزاقهم ، وكثرة ما كان يحمل اليهم .

وأما « الوجه البحرى » فكان فيه أديرة كثيرة خربت ، وبقى منها بقية . فكان بالمقس — خارج القاهرة من بحريها — عدة كنائس هدمها الحاكم بأمر الله أبو على منصور ، فى تاسع عشر ذى الحجة سنة تسع وتسعين وثلثمائة ، وأباح ما كان فيها ، فنهب منها شيء كثير جدا بعدما أمر ، فى شهر ربيع الأول منها ، بهدم كنائس راشدة خارج مدينة مصر من شرقيها ، وجعل موضعها الجامع المعروف براشدة .

وهدم أيضا فى سنة أربع وتسعين كنيستين هناك ، وألزم النصارى بلبس السواد وشد الزنار ، وقبض على الأملاك التى كانت محبسة على الكنائس والأديرة ، وجعلها فى ديوان السلطان ، وأحرق عدة كثيرة من الصلبان ، ومنع النصارى من اظهار زينة الكنائس فى عيد الشعانين ، وتشدد عليهم ، وضرب جماعة منهم .

وكانت بالروضة كنيسة بجوار المقياس ، فهدمها السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب فى سنة ثمان وثلاثين وستمائة .

وكان فى ناحية أبى النمرس من الجيزة كنيسة ، قام فى هدمها رجل من الزيالعة ، لأنه سمع أصوات النواقيس يجهر بها فى ليلة الجمعة بهذه الكنيسة . فلم يتمكن من ذلك فى أيام الأشرف شعبان بن حسين ، لتمكن الأقباط فى الدولة ، فقام فى ذلك مع الأمير الكبير برقوق — وهو يومئذ القائم بتدبير الدولة — حتى هدمها على يد القاضى جمال الدين محمود العجمى ، محتسب القاهرة ، فى ثامن عشر رمضان سنة ثمانين وسبعمائة ، وعملت مسجدا .

« دير الخندق » : ظاهر القاهرة من بحريها عمره القائد جوهر عوضا عن دير هدمه فى القاهرة كان بالقرب من الجامع الأقمر ، حيث البئر التى تعرف الآن ببئر العظمة ، وكانت اذ ذاك تعرف ببئر العظام ، من أجل أنه نقل عظاما كانت بالدير ، وجعلها بدير الخندق . ثم هدم دير الخندق فى رابع عشرى شوال سنة ثمان وسبعين وستمائة فى أيام المنصور قلاوون ، ثم جدد هذا الدير الذى هناك بعد ذلك ، وعمل كنيستين يأتى ذكرهما فى الكنائس .

« دير سرياقوس » : كان يعرف بأبى هور ، وله عيد يجتمع فيه الناس ، وكان فيه أعجوبة ذكرها الشابشتى .

وهو أن من كان به خنازير ، أخذه رئيس هذا الدير وأضجعه ، وجاءه بخنزير فلحس موضع الوجع ، ثم أكل الخنازير * التى فيه ، فلا يتعدى ذلك الى الموضع الصحيح ، فاذا نظف الموضع ، ذر عليه رئيس الدير من رماد خنزير فعل مثل هذا العمل من قبل ، ودهنه بزيت قنديل البيعة ، فانه يبرأ ، ثم يؤخذ ذلك الخنزير الذى أكل خنازير العليل ، فيذبح ويحرق ، ويعد رماده لمثل هذه الحالة .

(*) ص٥٠٧ جـ٢ ، ط. بولاق .

فكان لهذا الدير دخل عظيم ممن يبرأ من هذه العلة ، وفيه خلق من النصارى .

« دير أتريب » : ويعرف بمارى مريم ، وعيده فى حادى عشرى بؤونة ، وذكر الشابشتى أن حمامة بيضاء تأتى فى ذلك العيد فتدخل المذبح ، لا يدرون من أين جاءت ، ولا يرونها الى يوم مثله . وقد تلاشى أمر هذا الدير حتى لم يبق به الا ثلاثة من الرهبان ، لكنهم يجتمعون فى عيده ، وهو على شاطىء النيل قريب من بنها العسل .

« دير المغطس » : عند الملاحات ، قريب من بحيرة البرلس ، وتحج اليه النصارى من قبلي أرض مصر ومن بحريها — مثل حجهم الى كنيسة القمامة — وذلك يوم عيده ، وهو فى بشنس ، ويسمونه عيد الظهور من أجل أنهم يزعمون أن السيدة مريم تظهر لهم فيه ، ولهم فيه مزاعم كلها من أكاذيبهم المختلقة .

وليس بحذاء هذا الدير عمارة ، سوى منشأة صغيرة فى قبليه بشرق ، وبقربه الملاحة التى يؤخذ منها الملح الرشيدى . وقد هدم هذا الدير فى شهر رمضان سنة احدى وأربعين وثمانمائة بقيام بعض الفقراء المعتقدين .

« دير العسكر » : فى أرض السباخ على يوم من دير المغطس ، على اسم الرسل ، وبقربه ملاحة الملح الرشيدى ، ولم يبق به سوى راهب واحد .

« دير جميانة » : على اسم بوجرج ، قريب من دير العسكر ، على ثلاث ساعات منه ، وعيده عقب عيد دير المغطس ، وليس به الآن أحد .

« دير الميمنة » : بالقرب من دير العسكر . كانت له حالات جليلة ، ولم يكن فى القديم دير بالوجه البحرى أكثر رهبانا منه ، الا أنه تلاشى أمره وخرب ، فنزله الحبش وعمروه . وليس فى السباخ سوى هذه الأربعة الأديرة .

وأما وادى هبيب ، وهو وادى النطرون — ويعرف ببرية شيهات ، وببرية الأسقط ، وبميزان القلوب — فانه كان بها فى القديم مائة دير ، ثم صارت سبعة ممتدة غربا على جانب البرية القاطعة بين بلاد البحيرة والفيوم . وهى فى رمال منقطعة ، وسباخ مالحة ، وبرار منقطعة معطشة ، وقفار مهلكة ، وشراب أهلها من حفائر ، وتحمل النصارى اليهم النذور والقرابين . وقد تلاشت فى هذا الوقت ، بعدما ذكر مؤرخو النصارى أنه خرج الى عمرو بن العاص من هذه الأديرة سبعون ألف راهب ، بيد كل واحد عكاز ، فسلموا عليه ، وأنه كتب لهم كتابا هو عندهم .

فمنها « دير أبى مقار الكبير » : وهو دير جليل عندهم ، وبخارجه أديرة كثيرة خربت ، وكان دير النساك فى القديم ، ولا يصح عندهم بطركية البطرك حتى يجلسوه فى هذا الدير بعد جلوسه بكرسى اسكندرية . ويذكر أنه كان فيه من الرهبان ألف وخمسمائة لا تزال مقيمة به ، وليس به الآن الا قليل منهم .

والمقارات ثلاثة : أكبرهم صاحب هذا الدير ، ثم أبو مقار الاسكندرانى ، ثم أبو مقار الأسقف . وهؤلاء الثلاثة قد وضعت رممهم فى ثلاث أنابيب من خشب ، وتزورها النصارى بهذا الدير ، وبه أيضا الكتاب الذى كتبه عمرو بن العاص لرهبان وادى هبيب ، بجرانة نواحى الوجه البحرى ، على ما أخبرنى من أخبر برؤيته فيه .

« أبو مقار الأكبر » : هو مقاريوس . أخذ الرهبانية عن أنطونيوس ، وهو أول من لبس عندهم القلنسوة والأشكيم — وهو سير من جلد فيه صليب يتوشح به الرهبان فقط — ولقى أنطونيوس بالجبل الشرقى من حيث دير العزبة ، وأقام عنده مدة ، ثم ألبسه لباس الرهبانية ، وأمره بالمسير الى وادى النطرون ليقيم هناك ، ففعل ذلك .

واجتمع عنده الرهبان الكثيرة العدد ، وله عندهم فضائل عديدة . منها : أنه كان لايصوم الأربعين الا طاويا فى جميعها ، لا يتناول غذاء ولا شرابا ألبتة ، مع قيام ليلها ، وكان يعمل الخوص ويتقوت منه ، وما أكل خبزا طريا قط ، بل يأخذ القراقيش فيبلها فى نقاعة الخوص ، ويتناول منها هو ورهبان الدير ما يمسك الرمق من غير زيادة ، هذا قوتهم مدة حياتهم حتى مضوا لسبيلهم .

وأما أبو مقار الاسكندرانى ، فانه ساح من الاسكندرية الى مقاريوس المذكور ، وترهب على يديه . ثم كان أبو مقار الثالث ، وصار أسقفا .

« دير أبى بخنس القصير » : يقال انه عمر فى أيام قسطنطين بن هيلانة . ولأبى بخنس هذا فضائل مذكورة ، وهو من أجل الرهبان . وكان لهذا الدير حالات شهيرة ، وبه طوائف من الرهبان ، ولم يبق به الآن الا ثلاثة رهبان * .

« دير الياس » عليه السلام : وهو دير للحبشة . وقد خرب دير بخنس ، كما خرب دير الياس ، أكلت الأرضة أخشابهما فسقطا ، وصار الحبشة الى دير سيدة بوبخنس القصير ، وهو دير لطيف بجوار دير بوبخنس القصير .

وبالقرب من هذه الأديرة :

« دير أبانوب » : وقد خرب هذا الدير أيضا .

« أنبا نوب » هذا من أهل سمنود قتل فى الاسلام ، ووضع جسده فى بيت بسمنود .

« دير الأرمن » : قريب من هذه الأديرة ، وقد خرب .

وبجوارها أيضا :

« دير بوبشاى » : وهو دير عظيم عندهم ، من أجل أن بوبشاى هذا كان من الرهبان الذين فى طبقة مقاريوس وبخنس القصير ، وهو دير كبير جدا .

« دير بازاء دير بوبشاى » : كان بيد اليعاقبة ، ثم ملكته رهبان السريان من نحو

(*) ص٥٠٨ جـ٢ ، ط. بولاق .

ثلثمائة سنة ، وهو بيدهم الآن . ومواضع هذه الأديرة يقال لها بركة الأديرة .

« دير سيدة برموس » : على اسم السيدة مريم . فيه بعض رهبان ، وبازائه :

« دير موسى » : ويقال أبو موسى الأسود ويقال برمؤس ، وهذا الدير لسيدة برمؤس ، فيرموس اسم الدير .

ولـه قصـة حاصلهـا أن مكسـيموس ودومادبـوس كانا ولدى ملك الروم ، وكان لهما معلم يقال له أرسانبوس ، فسار المعلم من بلاد الروم الى أرض مصر ، وعبر برية شيهات هذه ، وترهب وأقام بهـا حتى مات ، وكان فاضلا ، وأتاه فى حياته ابنا الملك المذكوران ، وترهبا على يديه ، فلما ماتا ، بعث أبوهما فبنى على اسمهما كنيسة برموس .

وأبو موسى الأسود كان لصا فاتكا قتل مائة نفس ، ثم انه تنصر وترهب ، وصـنف عدة كتب ، وكان ممن يطوى الأربعين فى صومه ، وهو بربرى .

« دير الزجاج » : هذا الدير خارج مدينة الاسكندرية ، ويقال له الهايطون ، وهو على اسم بوجرج الكبير . ومن شرط البطرك أنه لا بد أن يتوجه من المعلقـة بمصر الى دير الزجاج هذا ، ثم انهم فى هذا الزمان تركوا ذلك . فهذه أديرة اليعاقبة .

وللنساء ديارات تختص بهن ، فمنها :

« دير الراهبـات » : بحـارة زويلة من القـاهرة ، وهو دير عامر بالأبكار المترهبـات وغيرهن من نساء النصارى .

« دير البنات » : بحارة الروم بالقاهرة ، عامر بالنساء المترهبات .

« دير المعلقة » : بمدينة مصر . وهو أشهر ديارات النساء ، عامر بهن .

« دير بربارة » : بمصر بجوار كنيسـة بربارة . عامر بالبنات المترهبات .

« بربـارة » : كانت قديسـة فى زمان دقلطيـانوس ، فعـذبها لترجع عن ديانتهـا وتسجد للأصنام ، فثبتت على دينها ، وصبرت على عذاب شـديد — وهى بكر لم يمسـها رجل — فلما يئس منها ضرب عنقها وعنق عدة من النساء معها .

« وللنصارى الملكية » قلاية بطركهم بجوار كنيسة ميكائيل ، بالقـرب من جسر الأفرم خارج مصر ، وهى مجمع الرهبان الواردين من بلاد الروم .

« ديـر بخنس القصـير » : المعـروف بالقصير ، وصوابه عندهم دير القصير ، على وزن شهيد ، وحرف فقيـل دير القُصَـيْر — بضم القاف وفتح الصاد وتشديد الياء — فسماه المسلمـون دير القُصَيْر — بضـم القاف وفتح الصـاد واسـكان اليـاء آخر الحروف — كأنه تصغير قصير .

وأصله — كما عرفتك — دير القصير الذى هو ضد الطويل ، وسمى أيضا دير هرقل ، ودير البغل ، وقد تقدم ذكره . وكان من أعظم ديارات النصارى ، وليس به الآن سوى واحد يحرسه ، وهو بيد الملكية .

« دير الطور » : قال ابن سيده : الطور الجبل ، وقد غلب على طور سيناء — جبل بالشام — وهو بالسريانية طوري ، والنسب اليه طوري وطواري .

وقال ياقوت : طور سبعة مواضع .

الأول : طور زيتا ، بلفظ الزيت من الأدهان قصور ، علم لجبل بقرب رأس عين .

الثاني : طور زيت أيضا جبل بالبيت المقدس ، وهو شرقي سلوان .

الثالث : الطور علم لجبل بعينه مطلّ على مدينة طبرية بالأردن .

الرابع : الطور علم لجبل كورة تشتمل على عدة قرى بأرض مصر ، من الجهة القبلية بين مصر وجبل فاران .

الخامس : طور سيناء . اختلفوا فيه : فقيل هو جبل بقرب أيلة ، وقيل جبل بالشام ، وقيل سيناء حجازية ، وقيل سحرتية .

السادس : طور عبدين * — بفتح العين وسكون الباء الموحدة وكسر الدال المهملة وياء آخر الحروف ونون — اسم لبلدة من نواحي نصيبين ، في بطن الجبل المشرف عليها المتصل بجبل جودي .

السابع : طور هارون أخي موسى عليهما السلام .

وقال الواحدي في تفسيره : وقال الكلبي وغيره : والجبل في قوله تعالى « ولكن انظر الى الجبلّ » أعظم جبل بمدين يقال له

(*) ص٥٠٩ ج٣ ، ط . بولاق

زبير ، وذكر الكلبي أن الطور سمي بيطور ابن اسماعيل . قال السهيلي : فلعله محذوف الياء ان كان صح ما قاله .

وقال عمر بن شبية : أخبرني عبد العزيز ، عن أبي معشر ، عن سعيد بن أبي سعيد ، عن أبيه ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أربعة أنهار [1] في الجنة ، وأربعة أجبل وأربع ملاحم في الجنة ، فأما الأنهار فسيحان وجيحان والنيل والفرات ، وأما الأجبل فالطور ولبنان وأحد وورقان » وسكت عن الملاحم .

وعن كعب الأحبار : معاقل المسلمين ثلاثة : فمعقلهم من الروم دمشق ، ومعقلهم من الدجال الأردن ، ومعقلهم من يأجوج ومأجوج الطور .

وقال شعبة عن أرطاة بن المنذر : اذا خرج يأجوج ومأجوج ، أوحى الله تعالى الى عيسى ابن مريم عليه السلام : أني قد أخرجت خلقا من خلقي لا يطيقهم أحد غيري ، فمر بمن معك الى جبل الطور ، فيمر ومعه من الذراري اثنا عشر ألفا .

وقال طلق بن حبيب عن زرعة : أردت الخروج الى الطور ، فأتيت عبد الله بن عمر رضي الله عنهما فقلت له ، فقال : انما تشد الرحال الى ثلاثة مساجد : الى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمسجد الحرام ، والمسجد الأقصى ، فدع عنك الطور فلا تأته .

(1) قوله « أربعة أنهار الخ » ، هكذا لفظ الحديث في النسخ التي بيدي والمهدة عليها ، فليراجع في مظانه ، أو يصححه .

وقال القاضى أبو عبد الله محمد بن سلامة القضاعى ، وقد ذكر كور أرض مصر : ومن كور القبلة قرى الحجاز ، وهى كورة الطور وفاران ، وكورة راية والقلزم ، وكورة ايلة وحيزها ، ومدين وحيزها ، والعويند والحوراء وحيزهما ، ثم كورة بدا وشعيب .

قلت : لا خلاف بين علماء الأخبار ، من أهل الكتاب ، أن جبل الطور هذا هو الذى كلم الله تعالى نبيه موسى عليه السلام عليه أو عنده ، وبه الى الآن دير بيد الملكية ، وهو عامر ، وفيه بستان كبير به نخل وعنب وغير ذلك من الفواكه .

وقال الشابشتى : وطور سيناء هو الجبل الذى تجلى فيه النور لموسى بن عمران عليه السلام ، وفيه صعق ، والدير فى أعلى الجبل مبنى بحجر أسود ، عرض حصنه سبع أذرع ، وله ثلاثة أبواب حديد ، وفى غربيه باب لطيف ، وقدامه حجر أقيم : اذا أرادوا رفعه رفعوه ، واذا قصدهم أحد أرسلوه ، فانطبق على الموضع ، فلم يعرف مكان الباب .

وداخل الدير عين ماء ، وخارجه عين أخرى .

وزعم النصارى أن به نارا من أنواع النار التى كانت ببيت المقدس ، يقدون منها فى كل عشية ، وهى بيضاء لطيفة ضعيفة الحر لا تحرق ، ثم تقوى اذا أوقد منها السراج . وهو عامر بالرهبان ، والناس يقصدونه ، وهو من الديارات الموصوفة . قال ابن عامر فيه :

ياراهب الدير ماذا الضوء والنور
فقد أضاء بما فى ديرك الطور

هل حلت الشمس فيه دون أبرجها
أو غيب البدر فيه وهو مستور

فقال ما حله شمس ولا قمر
لكن تقرب فيه اليوم قورير

قلت : ذكر مؤرخو النصارى أن هذا الدير أمر بعمارته يوسطيانوس ، ملك الروم بقسطنطينية ، فعمل عليه حصن فوقه عدة قلالى ، وأقيم فيه الحرس لحفظ رهبانه من قوم يقال لهم بنو صالح من العرب . وفى أيام هذا الملك كان المجمع الخامس من مجامع النصارى .

وبينه وبين القلزم — وكانت مدينة — طريقان : احداهما فى البر والأخرى فى البحر ، وهما جميعا يؤديان الى مدينة فاران ، وهى من مدائن العمالقة ، ثم منها الى الطور مسيرة يومين ، ومن مدينة مصر الى القلزم ثلاثة أيام ، ويصعد الى جبل الطور بستة آلاف وستمائة وست وستين مرقاة .

وفى نصف الجبل كنيسة لايلياء النبى ، وفى قلته كنيسة ، على اسم موسى عليه السلام ، بأساطين من رخام وأبواب من صفر ، وهو الموضع الذى كلم الله تعالى فيه موسى ، وقطع منه الألواح ، ولا يكون فيها الا راهب واحد للخدمة ، ويزعمون أنه لا يقدر أحد أن يبيت فيها ، بل يهيأ له موضع من خارج يبيت فيه . ولم يبق لهاتين الكنيستين وجود .

« دير البنات بقصر الشمع بمصر » : وهو على اسم بوجرج ، وكان مقياس النيل قبل الاسلام ، وبه آثار ذلك الى اليوم .

فهذا ما للنصارى اليعاقبة والملكية ، رجالهم ونسائهم ، من الديارات بأرض مصر قبليها وبحريها ، وعدتها ستة وثمانون ديرا منها لليعاقبة .... دير ، وللملكية .... [1]

ذكر كنائس النصارى

قال الأزهري : كنيسة اليهود جمعها كنائس ، وهي معربة أصلها كنشت . انتهى .

وقد نطقت العرب بذكر الكنيسة . قال العباس بن مرداس السلمي :

يدورون بي في ظل كل كنيسة
وما كان قومي يبتنون الكنائسا

وقال ابن قيس الرقيات :

كأنها دمية مصورة
في بيعة من كنائس الروم

« كنيستا الخندق » : ظاهر القاهرة . احداهما على اسم غبريال الملاك ، والأخرى على اسم مرقوريوس ، وعرفت برويس ، وكان راهبا مشهورا بعد سنة ثمانمائة . وعند هاتين الكنيستين يقبر النصارى موتاهم ، وتعرف بمقبرة الخندق . وعمرت هاتان الكنيستان عوضا عن كنائس المقس في الأيام الاسلامية .

« كنيسة حارة زويلة بالقاهرة » : كنيسة عظيمة عند النصارى اليعاقبة ، وهي على اسم السيدة ، وزعموا أنها قديمة تعرف بالحكيم زايلون ، وكان قبل الملة الاسلامية بنحو مائتين وسبعين سنة ، وأنه صاحب علوم شتى ، وأن له كنزا عظيما يتوصل اليه من بئر هناك .

« كنيسة تعرف بالمغيثة » : بحارة الروم من القاهرة ، على اسم السيدة مريم ، وليس لليعاقبة بالقاهرة سوى هاتين الكنيستين .

وكان بحارة الروم أيضا كنيسة أخرى ، يقال لها كنيسة بربارة ، هدمت في سنة ثمان عشرة وسبعمائة . وسبب ذلك أن النصارى رفعوا قصة للسلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون يسألون الاذن في اعادة ما تهدم منها ، فأذن لهم في ذلك ، فعمروها أحسن ما كانت . فغضبت طائفة من المسلمين ، ورفعوا قصة للسلطان بأن النصارى أحدثوا بجانب هذه الكنيسة بناء لم يكن فيها ، فرسم للأمير علم الدين سنجر الخازن والي القاهرة بهدم ما جددوه .

فركب ، وقد اجتمع الخلائق ، فبادروا وهدموا الكنيسة كلها في أسرع وقت ، وأقاموا في موضعها محرابا ، وأذنوا وصلوا وقرأوا القرآن ، كل ذلك بأيديهم ، فلم تمكن معارضتهم خشية الفتنة . فاشتد الأمر على النصارى ، وشكوا أمرهم للقاضي كريم الدين ناظر الخاص ، فقام وقعد غضبا لدين أسلافه ، وما زال بالسلطان حتى رسم بهدم المحراب ، فهدم وصار موضعه كوم تراب ، ومضى الحال على ذلك .

(1) هكذا بياض في الاصل .

« كنيسة بومنا » : هذه الكنيسة قريبة من السد ، فيما بين الكيمان بطريق مصر ، وهى ثلاث كنائس متجاورة : احداها لليعاقبة ، والأخرى للسريان ، وأخرى للأرمن . ولها عيد فى كل سنة تجتمع اليه النصارى .

« كنيسة المعلقة » بمدينة مصر ، فى خط قصر الشمع ، على اسم السيدة . وهى جليلة القدر عندهم ، وهى غير القلاية التى تقدم ذكرها .

« كنيسة شنودة » بمصر : نسبت لأبى شنودة الراهب القديم ، وله أخبار : منها أنه كان ممن يطوى فى الأربعين اذا صام ، وكان تحت يده ستة آلاف راهب يتقوت هو واياهم من عمل الخوص ، وله عدة مصنفات .

« كنيسة مريم » : بجوار كنيسة شنودة . هدمها على بن سليمان بن على بن عبد الله بن عباس ، أمير مصر ، لما ولى من قبل أمير المؤمنين الهادى موسى فى سنة تسع وستين ومائة ، وهدم كنائس محرس قسطنطين ، وبذل له النصارى فى تركها خمسين ألف دينار فامتنع .

فلما عزل بموسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس ، فى خلافة هارون الرشيد ، أذن موسى بن عيسى للنصارى فى بنيان الكنائس التى هدمها على ابن سليمان ، فبنيت كلها بمشورة الليث بن سعد وعبد الله بن لهيعة ، وقالا : هو من عمارة البلاد ، واحتجا بأن الكنائس التى بمصر لم تبن الا فى الاسلام فى زمن الصحابة والتابعين .

« كنيسة بوجرج الثقة » : هذه الكنيسة فى درب ، بخط قصر الشمع بمصر ، يقال له درب الثقة ، ويجاورها كنيسة سيدة بوجرج .

« كنيسة بربارة » بمصر : كبيرة جليلة عندهم ، وهى تنسب الى القديسة بربارة الراهبة ، وكان فى زمانها راهبتان بكران ، وهما ايسى وتكلة ، ويعمل لهن عيد عظيم بهذه الكنيسة يحضره البطريق .

« كنيسة بوسرحة » : بالقرب من بربارة ، بجوار زاوية ابن النعمان ، فيها مغارة يقال ان المسيح وأمه مريم عليهما السلام جلست بها .

« كنيسة بابليون » : فى قبلى قصر الشمع بطريق جسر الأفرم . وهذه الكنيسة قديمة جدا ، وهى لطيفة ، ويذكر * أن تحتها كنز بابليون ، وقد خرب ما حولها ،

« كنيسة تاودورس الشهيد » : بجوار بابليون . نسبت للشهيد تاودورس الاسفهسلار .

« كنيسة بومنا » : بجوار بابليون أيضا . وهاتان الكنيستان مغلوقتان لخراب ما حولهما .

« كنيسة بومنا » : بالحمراء ، وتعرف الحمراء اليوم بخط قناطر السباع ، فيما بين القاهرة ومصر . وأحدثت هذه الكنيسة ، فى سنة سبع عشرة ومائة من سنى الهجرة ، باذن الوليد بن رفاعة أمير مصر . فغضب وهيب اليحصبى ، وخرج على السلطان ، وجاء الى

(*) ص٥١١ جـ٢ ، ط . بولاق .

ابن رفاعة ليفتك به ، فأخذ وقتل ، وكان وهيب مدريا من اليمن قدم الى مصر .

فخرج القراء على الوليد بن رفاعة غضبا لوهيب وقاتلوه . وصارت معونة ، امرأة وهيب ، تطوف ليلا على منازل القراء تحرضهم على الطلب بدمه ، وقد حلقت رأسها ، وكانت امرأة جزلة . فأخذ ابن رفاعة أبا عيسى مروان ابن عبد الرحمن اليحصبى بالقراء ، فاعتذر وخلى ابن رفاعة عنهم ، فسكنت الفتنة بعدما قتل جماعة .

ولم تزل هذه الكنيسة بالحمراء الى أن كانت واقعة هدم الكنائس ، فى أيام الناصر محمد بن قلاوون ، على ما يأتى ذكر ذلك والخبر عن هدم جميع كنائس أرض مصر وديارات النصارى فى وقت واحد .

« كنيسة الزهرى » : كانت فى الموضع الذى فيه اليوم البركة الناصرية ، بالقرب من قناطر السباع ، فى بر الخليج الغربى غربى اللوق .

واتفق فى أمرها عدة حوادث . وذلك أن الملك الناصر محمد بن قلاوون لما أنشأ ميدان المهارى ، المجاور لقناطر السباع ، فى سنة عشرين وسبعمائة ، قصد بناء زربية على النيل الأعظم بجوار الجامع الطيبرسى . فأمر بنقل كوم تراب كان هناك ، وحفر ما تحته من الطين لأجل بناء الزربية ، وأجرى الماء الى مكان الحفر ، فصار يعرف الى اليوم بالبركة الناصرية .

وكان الشروع فى حفر هذه البركة من آخر شهر ربيع الأول سنة احدى وعشرين وسبعمائة . فلما انتهى الحفر الى جانب كنيسة الزهرى — وكان بها كثير من النصارى لا يزالون فيها ، وبجانبها أيضا عدة كنائس فى الموضع الذى يعرف اليوم بحكر أقبغا ما بين السبع سقايات وبين قنطرة السد خارج مدينة مصر — أخذ الفعلة فى الحفر حول كنيسة الزهرى ، حتى بقيت قائمة فى وسط الموضع الذى عينه السلطان ليحفر ، وهو اليوم بركة الناصرية ، وزاد الحفر حتى تعلقت الكنيسة .

وكان القصد من ذلك أن تسقط من غير قصد لخرابها ، وصارت العامة ، من غلمان الأمراء العمالين فى الحفر ، وغيرهم فى كل وقت يصرخون على الأمراء فى طلب هدمها ، وهم يتغافلون عنهم . الى أن كان يوم الجمعة التاسع من شهر ربيع الآخر من هذه السنة ، وقت اشتغال الناس بصلاة الجمعة ، والعمل من الحفر بطال ، فتجمع عدة من غوغاء العامة بغير مرسوم السلطان ، وقالوا بصوت عال مرتفع : الله أكبر ، ووضعوا أيديهم بالمساحى ونحوها فى كنيسة الزهرى ، وهدموها حتى بقيت كوما ، وقتلوا من كان فيها من النصارى ، وأخذوا جميع ما كان فيها .

وهدموا كنيسة بومنا التى كانت بالحمراء ، وكانت معظمة عند النصارى من قديم الزمان ، وبها عدة من النصارى قد انقطعوا فيها ، ويحمل اليهم نصارى مصر سائر ما يحتاج اليه ، ويبعث اليها بالنذور الجليلة والصدقات الكثيرة . فوجد فيها مال كثير ما بين نقد ومصاغ وغيره ، وتسلق العامة الى أعلاها ،

وفتحوا أبوابها ، وأخذوا منها مالا وقماشا وجرار خمر ، فكان أمرا مهولا .

ثم مضوا من كنيسة الحمراء ، بعدما هدموها ، الى كنيستين بجوار السبع سقايات — تعرف احداهما بكنيسة البنات ، كان يسكنها بنات النصارى وعدة من الرهبان — فكسروا أبواب الكنيستين ، وسبوا البنات — وكن زيادة على ستين بنتا — وأخذوا ما عليهن من الثياب ، ونهبوا سائر ما ظفروا به ، وحرقوا وهدموا تلك الكنائس كلها ، هذا والناس فى صلاة الجمعة .

فعندما خرج الناس من الجوامع ، شاهدوا هولا كبيرا من كثرة الغبار ودخان الحريق ، ومرج الناس وشدة حركاتهم ومعهم ما نهبوه ، فما شبه الناس الحال لهوله الا بيوم القيامة ، وانتشر الخبر ، وطار الى الرميلة تحت قلعة الجبل . فسمع السلطان ضجة عظيمة ورجة منكرة أفزعته ، فبعث لكشف الخبر ، فلما بلغه ما وقع انزعج انزعاجا عظيما ، وغضب من تجرى العامة واقدامهم على ذلك بغير أمره ، وأمر الأمير أيدغمش أميراخور أن يركب بجماعة الأوشاقية ، ويتدارك هذا الخلل ، ويقبض على من فعله .

فأخذ أيدغمش يتهيأ للركوب ، واذا بخبر قد ورد من القاهرة أن العامة ثارت فى القاهرة ، وخربت كنيسة بحارة الروم وكنيسة بحارة زويلة . وجاء الخبر من مدينة مصر أيضا بأن العامة قامت بمصر فى جمع كثير جدا ، وزحفت الى كنيسة المعلقة بقصر الشمع ، فأغلقها النصارى وهم محصورون بها ، وهى على أن تؤخذ .

فتزايد غضب السلطان ، وهم أن يركب بنفسه * ويبطش بالعامة ، ثم تأخر لما راجعه الأمير أيدغمش ، ونزل من القلعة فى أربعة من الأمراء الى مصر ، وركب الأمير بيبرس الحاجب والأمير ألماس الحاجب الى موضع الحفر ، وركب الأمير طينال الى القاهرة ، وكل منهم فى عدة وافرة ، وقد أمر السلطان بقتل من قدروا عليه من العامة بحيث لا يعفو عن أحد .

فقامت القاهرة ومصر على ساق ، وفرت النهابة ، فلم يظفر الأمراء منهم الا بمن عجز عن الحركة بما غلبه من السكر بالخمر الذى نهبه من الكنائس ، ولحق الأمير أيدغمش بمصر ، وقد ركب الوالى الى المعلقة قبل وصوله ليخرج من زقاق المعلقة من حضر للنهب ، فأخذه الرجم حتى فر منهم ، ولم يبق الا أن يحرق باب الكنيسة .

فجرد أيدغمش ومن معه السيوف يريدون الفتك بالعامة ، فوجدوا عالما لا يقع عليه حصر ، وخاف سوء العاقبة فأمسك عن القتل ، وأمر أصحابه بارجاف العامة من غير اهراق دم ، ونادى مناديه : من وقف حل دمه . ففر سائر من اجتمع من العامة وتفرقوا ، وصار أيدغمش واقفا الى أن أذن العصر خوفا من عود العامة ، ثم مضى وألزم والى مصر أن يبيت بأعوانه هناك ، وترك معه خمسين من الأوشاقية .

وأما الأمير ألماس فانه وصل الى كنائس الحمراء وكنائس الزهرى ليتداركها ، فاذا بها

(*) ص٥١٢ جـ٢ ، ط . بولاق .

نذ بقيت كيمانا ليس بها جدار قائم ، فعاد وعاد الأمراء ، فردوا الخبر على السلطان وهو لا يزداد الا حنقا ، فما زالوا به حتى سكن غضبه .

وكان الأمر فى هدم هذه الكنائس عجيبا من العجب . وهو أن الناس لما كانوا فى صلاة الجمعة من هذا اليوم بجامع قلعة الجبل ، فعندما فرغوا من الصلاة ، قام رجل موله وهو يصيح من وسط الجامع : اهدموا الكنيسة التى فى القلعة أهدموها ، وأكثر من الصياح المزعج حتى خرج عن الحد ، ثم اضطرب .

فتعجب السلطان والأمراء من قوله ، ورسم لنقيب الجيوش والحاجب بالفحص عن ذلك ، فمضيا من الجامع الى خرائب التتر من القلعة ، فاذا فيها كنيسة قد بنيت فهدموها ولم يفرغوا من هدمها حتى وصل الخبر بواقعة كنائس الحمراء والقاهرة ، فكثر تعجب السلطان من شأن ذلك الفقير ، وطلب فلم يوقف له على خبر .

واتفق أيضا بالجامع الأزهر أن الناس لما اجتمعوا فى هذا اليوم لصلاة الجمعة ، أخذ شخصا من الفقراء مثل الرعدة ، ثم قام بعدما أذن قبل أن يخرج الخطيب ، وقال : اهدموا كنائس الطغيان والكفرة ، نعم الله أكبر فتح الله ونصر ، وصار يزعج نفسه ، ويصرخ من الأساس الى الأساس . فحدق الناس بالنظر اليه ، ولم يدروا ما خبره ، وافترقوا فى أمره ، فقائل : هذا مجنون ، وقائل : هذه اشارة لشىء . فلما خرج الخطيب أمسك عن الصياح ، وطلب بعد انقضاء الصلاة فلم يوجد ، وخرج الناس الى باب الجامع ، فرأوا النهاية ومعهم أخشاب الكنائس وثياب النصارى وغير ذلك من النهوب ، فسألوا عن الخبر ، فقيل : قد نادى السلطان بخراب الكنائس ، فظن الناس الأمر كما قيل ، حتى تبين بعد قليل أن هذا الأمر انما كان من غير أمر السلطان . وكان الذى هدم فى هذا اليوم من الكنائس بالقاهرة : كنيسة بحارة الروم ، وكنيسة بالبندقانيين ، وكنيستين بحارة زويلة .

وفى يوم الأحد الثالث من يوم الجمعة — الكائن فيه هدم كنائس القاهرة ومصر — ورد الخبر من الأمير بدر الدين بيلبك المحسنى ، والى الاسكندرية ، بأنه لما كان يوم الجمعة تاسع ربيع الآخر بعد صلاة الجمعة ، وقع فى الناس هرج ، وخرجوا من الجامع وقد وقع الصياح : هدمت الكنائس . فركب المملوك من فوره ، فوجد الكنائس قد صارت كوما ، وعدتها أربع كنائس ، وأن بطاقة وقعت من والى البحيرة : بأن كنيستين فى مدينة دمنهور هدمتا والناس فى صلاة الجمعة من هذا اليوم ، فكثر التعجب من ذلك .

الى أن ورد فى يوم الجمعة سادس عشره الخبر ، من مدينة قوص ، بأن الناس عندما فرغوا من صلاة الجمعة فى اليوم التاسع من شهر ربيع الآخر ، قام رجل من الفقراء وقال : يافقراء اخرجوا الى هدم الكنائس . وخرج فى جمع من الناس ، فوجدوا الهدم قد وقع فى الكنائس ، فهدمت ست كنائس كانت بقوص وما حولها فى ساعة واحدة .

وتواتر الخبر من الوجه القبلى والوجه البحرى بكثرة ما هدم فى هذا اليوم ، وقت صلاة الجمعة وما بعدها ، من الكنائس والأديرة فى جميع اقليم مصر كله ما بين قوص والاسكندرية ودمياط . فاشتد حنق السلطان على العامة خوفا من فساد الحال ، وأخذ الأمراء فى تسكين غضبه ، وقالوا : هذا الأمر ليس من قدرة البشر فعله ، ولو أراد السلطان وقوع ذلك على هذه الصورة لما قدر عليه ، وما هذا الا بأمر الله سبحانه وبقدره لما علم من كثرة فساد النصارى وزيادة طغيانهم ، ليكون ما وقع نقمة وعذابا لهم .

هذا والعامة بالقاهرة ومصر قد اشتد خوفهم من السلطان ، لما كان يبلغهم عنه من التهديد لهم بالقتل ، ففر عدة من الأوباش والغوغاء ، وأخذ القاضى * فخر الدين ، ناظر الجيش ، فى ترجيع السلطان عن الفتك بالعامة وسياسة الحال معه ، وأخذ كريم الدين الكبير — ناظر الخاص — يغريه بهم الى أن أخرجه السلطان الى الاسكندرية بسبب تحصيل المال ، وكشف الكنائس التى خربت بها .

فلم يمض سوى شهر من يوم هدم الكنائس حتى وقع الحريق بالقاهرة ومصر فى عدة مواضع ، وحصل فيه من الشناعة أضعاف ما كان من هدم الكنائس . فوقع الحريق فى ربع بخط الشوايين من القاهرة فى يوم السبت عاشر جمادى الأولى ، وسرت النار الى ما حوله ، واستمرت الى آخر يوم الأحد . فتلف فى هذا الحريق شىء كثير .

وعندما أطفىء وقع الحريق بحارة الديلم ، فى زقاق العريسة ، بالقرب من دور كريم الدين ناظر الخاص فى خامس عشرى جمادى الأولى ، وكانت ليلة شديدة الريح ، فسرت النار من كل ناحية حتى وصلت الى بيت كريم الدين . وبلغ ذلك السلطان ، فانزعج انزعاجا عظيما لما كان هناك من الحواصل السلطانية ، وسير طائفة من الأمراء لاطفائه ، فجمعوا الناس لاطفائه ، وتكاثروا عليه .

وقد عظم الخطب من ليلة الاثنين الى ليلة الثلاثاء ، فتزايد الحال فى اشتعال النار ، وعجز الأمراء والناس عن اطفائها لكثرة انتشارها فى الأماكن وقوة الريح التى ألقت باسقات النخل ، وغرقت المراكب ، فلم يشك الناس فى حريق القاهرة كلها ، وصعدوا المآذن ، وبرز الفقراء وأهل الخير والصلاح ، وضجوا بالتكبير والدعاء وجأروا ، وكثر صراخ الناس وبكاؤهم ، وصعد السلطان الى أعلى القصر فلم يتمالك الوقوف من شدة الريح .

واستمر الحريق والاستحثاث يرد على الأمراء من السلطان فى اطفائه الى يوم الثلاثاء . فنزل نائب السلطان ومعه جميع الأمراء وسائر السقائين ، ونزل الأمير بكتمر الساقى ، فكان يوما عظيما لم ير الناس أعظم منه ولا أشد هولا .

ووكل بأبواب القاهرة من يرد السقائين اذا خرجوا من القاهرة لأجل اطفاء النار ، فلم يبق

(*) ص٥١٣ جـ٢ خطـ ، بولاق .

أحد من سقائي الأمراء وسقائي البلد الا وعمل ، وصاروا ينقلون الماء من المدارس والحمامات ، وأخذ جميع النجارين وسائر البنائين لهدم الدور . فهدم في هذه النوبة ما شاء الله من الدور العظيمة والرباع الكبيرة .

وعمل في هذا الحريق أربعة وعشرون أميرا من الأمراء المقدمين ، سوى من عداهم من أمراء الطبلخانات والعشراوات والمماليك ، وعمل الأمراء بأنفسهم فيه ، وصار الماء من باب زويلة الى حارة الديلم في الشارع بحرا من كثرة الرجال والجمال التي تحمل الماء .

ووقف الأمير بكتمر الساقي والأمير أرغون النائب ، على نقل الحواصل السلطانية من بيت كريم الدين الى بيت ولده بدرب الرصاصي ، وخربوا ستة عشر دارا من جوار الدار وقبالتها حتى تمكنوا من نقل الحواصل .

فما هو الا أن كمل اطفاء الحريق ونقل الحواصل ، واذا بالحريق قد وقع في ربع الظاهر ، خارج باب زويلة ، وكان يشتمل على مائة وعشرين بيتا ، وتحته قيسارية تعرف بقيسارية الفقراء ، وهب مع الحريق ريح قوية فركب الحاجب والوالي لاطفائه ، وهدموا عدة دور من حوله حتى انطفأ .

فوقع في ثاني يوم حريق بدار الأمير سلار ، في خط بين القصرين ، ابتدأ من الباذهنج — وكان ارتفاعه عن الأرض مائة ذراع بالعمل — فوقع الاجتهاد فيه حتى أطفىء . فأمر السلطان الأمير علم الدين سنجر الخازن والي القاهرة ، والأمير ركن الدين بيبرس الحاجب ، بالاحتراز واليقظة .

ونودي بأن يعمل عند كل حانوت دن فيه ماء أو زير مملوء بالماء ، وأن يقام مثل ذلك في جميع الحارات والأزقة والدروب . فبلغ ثمن كل دن خمسة دراهم بعد درهم ، وثمن الزير ثمانية دراهم . ووقع حريق بحارة الروم وعدة مواضع حتى انه لم يخل يوم من وقوع الحريق في موضع .

فتنبه الناس لما نزل بهم ، وظنوا أنه من أفعال النصارى — وذلك أن النار كانت ترى في منابر الجوامع وحيطان المساجد والمدارس — فاستعدوا للحريق ، وتتبعوا الأحوال حتى وجدوا هذا الحريق من نفط قد لف عليه خرق مبلولة بزيت وقطران .

فلما كان ليلة الجمعة النصف من جمادى ، قبض على راهبين عندما خرجا من المدرسة الكهارية بعد العشاء الآخرة ، وقد اشتعلت النار في المدرسة ورائحة الكبريت في أيديهما فحملا الى الأمير علم الدين الخازن والي القاهرة ، فأعلم السلطان بذلك ، فأمر بعقوبتهما .

فما هو الا أن نزل من القلعة ، واذا بالعامة قد أمسكوا نصرانيا ، وجد في جامع الظاهر ومعه خرق على هيئة الكعكة في داخلها قطران ونفط ، وقد ألقى منها واحدة بجانب المنبر ، وما زال واقفا الى أن خرج الدخان ، فمشى يريد الخروج من الجامع .

وكان قد فطن به شخص ، وتأمله من حيث لم يشعر به النصراني ، فقبض عليه ، وتكاثر

الناس فجروه الى بيت الوالى ، وهو بهيئة المسلمين ، فعوقب عند الأمير ركن الدين بيبرس الحاجب . فاعترف بأن جماعة من النصارى قد اجتمعوا على عمل نفط وتفريقه مع جماعة من أتباعهم ، وانه ممن أعطى ذلك ، وأمر بوضعه عند منبر جامع الظاهر .

ثم أمر بالراهبين فعوقبا ، فاعترفا * أنهما من سكان دير البغل ، وأنهما هما اللذان أحرقا المواضع التى تقدم ذكرها بالقاهرة ، غيرة وحنقا من المسلمين لما كان من هدمهم الكنائس ، وأن طائفة النصارى تجمعوا ، وأخرجوا من بينهم مالا جزيلا لعمل هذا النفط .

واتفق وصول كريم الدين ناظر الخاص من الاسكندرية ، فعرفه السلطان ما وقع من القبض على النصارى ، فقال : النصارى لهم بطرك يرجعون اليه ، ويعرف أحوالهم . فرسم السلطان بطلب البطرك عند كريم الدين ، ليتحدث معه فى أمر الحريق ، وما ذكره النصارى من قيامهم فى ذلك ، فجاء فى حماية والى القاهرة ، فى الليل خوفا من العامة . فلما أن دخل بيت كريم الدين بحارة الديلم ، وأحضر اليه الثلاثة النصارى من عند الوالى ، قالوا لكريم الدين — بحضرة البطرك والوالى — جميع ما اعترفوا به قبل ذلك . فبكى البطرك عندما سمع كلامهم ، وقال : هؤلاء سفهاء النصارى قصدوا مقابلة سفهاء المسلمين على تخريبهم الكنائس . وانصرف من عند كريم الدين مبجلا مكرما ، فوجد كريم الدين قد أقام له بغلة على بابه ليركبها ، فركبها وسار .

فعظم ذلك على الناس ، وقاموا عليه يدا واحدة ، فلولا أن الوالى كان يسايره والا هلك . وأصبح كريم الدين يريد الركوب الى القلعة على العادة ، فلما خرج الى الشارع ، صاحت به العامة : ما يحل لك ياقاضى تحامى للنصارى وقد أحرقوا بيوت المسلمين ، وتركبهم بعد هذا البغال ، فشق عليه ما سمع ، وعظمت نكايته .

واجتمع بالسلطان ، فأخذ يهون أمر النصارى الممسوكين ، ويذكر أنهم سفهاء وجهال . فرسم السلطان للوالى بتشديد عقوبتهم ، فنزل وعاقبهم عقوبة مؤلمة ، فاعترفوا بأن أربعة عشر راهبا بدير البغل قد تحالفوا على احراق ديار المسلمين كلها ، وفيهم راهب يصنع النفط ، وأنهم اقتسموا القاهرة ومصر : فجعل للقاهرة ثمانية ، ولمصر ستة .

فكبس دير البغل ، وقبض على من فيه ، وأحرق من جماعته أربعة بشارع صليبة جامع ابن طولون فى يوم الجمعة ، وقد اجتمع لمشاهدتهم عالم عظيم . فضرى من حينئذ جمهور الناس على النصارى ، وفتكوا بهم ، وصاروا يسلبون ما عليهم من الثياب ، حتى فحش الأمر ، وتجاوزوا فيهم المقدار ، فغضب السلطان من ذلك ، وهم أن يوقع بالعامة .

واتفق أنه ركب من القلعة يريد الميدان الكبير فى يوم السبت ، فرأى من الناس أمما عظيمة قد ملأت الطرقات ، وهم يصيحون : نصر الله الاسلام ، أنصر دين محمد بن عبد

(*) ص٥١٤ ج٢ ، ط ، بولاق .

الله ، فخرج من ذلك . وعندما نزل الميدان ، أحضر اليه الخازن نصرانيين قد قبض عليهما وهما يحرقان الدور ، فأمر بتحريقهما ، فأخرجا وعمل لهما حفرة ، وأحرقا بمرأى من الناس .

وبينا هم فى احراق النصرانيين اذا بديوان الأمير بكتمر الساقى قد مر يريد بيت الأمير بكتمر ، وكان نصرانيا ، فعندما عاينه العامة ، ألقوه عن دابته الى الأرض ، وجردوه من جميع ما عليه من الثياب ، وحملوه ليلقوه فى النار ، فصاح بالشهادتين ، وأظهر الاسلام ، فأطلق .

واتفق مع هذا مرور كريم الدين ، وقد لبس التشريف من الميدان ، فرجمه من هنالك رجما متتابعا ، وصاحوا به : كم تحامى للنصارى وتشد معهم ، ولعنوه وسبوه . فلم يجد بدا من العود الى السلطان وهو بالميدان وقد اشتد ضجيج العامة وصياحهم حتى سمعهم السلطان .

فلما دخل عليه ، وأعلمه الخبر ، امتلأ غضبا ، واستشار الأمراء — وكان بحضرته منهم الأمير جمال الدين نائب الكرك ، والأمير سيف الدين البوبكرى ، والخطيرى ، وبكتمر الحاجب فى عدة أخرى — فقال الأبوبكرى : العامة عمى ، والمصلحة أن يخرج اليهم الحاجب ، ويسألهم عن اختيارهم حتى يعلم . فكره هذا من قوله السلطان ، وأعرض عنه .

فقال نائب الكرك : كل هذا من أجل الكتاب النصارى ، فان الناس أبغضوهم ، والرأى أن السلطان لا يعمل فى العامة شيئا ، وانما يعزل النصارى من الديوان . فلم يعجبه هذا الرأى أيضا ، وقال للأمير ألماس الحاجب : امض ومعك أربعة من الأمراء ، وضع السيف فى العامة ، من حين تخرج من باب الميدان الى أن تصل الى باب زويلة ، واضرب فيهم بالسيف من باب زويلة الى باب النصر بحيث لا ترفع السيف عن أحد ألبتة .

وقال لوالى القاهرة : اركب الى باب اللوق والى باب البحر ، ولا تدع أحدا حتى تقبض عليه وتطلع به الى القلعة ، ومتى لم تحضر الذين رجموا وكيلى (يعنى كريم الدين) والا وحياة رأسى شنقتك عوضا عنهم ، وعين معه عدة من المماليك السلطانية .

فخرج الأمراء بعدما تلكأوا فى المسير حتى اشتهر الخبر ، فلم يجدوا أحدا من الناس حتى ولا غلمان الأمراء وحواشيهم . ووقع القول بذلك فى القاهرة ، فغلقت الأسواق جميعها ، وحل بالناس أمر لم يسمع بأشد منه ، وسار الأمراء فلم يجدوا فى طول طريقهم أحدا الى أن بلغوا باب النصر ، وقبض الوالى من باب اللوق وناحية بولاق وباب البحر كثيرا من الكلابزية والنواتية وأسقاط الناس .

فاشتد الخوف ، وعدى كثير من الناس الى البر الغربى بالجيزة ، وخرج السلطان من الميدان ، فلم يجد فى طريقه الى أن صعد قلعة الجبل * أحدا من العامة . وعندما استقر بالقلعة ، سير الى الوالى يستعجل حضوره ، فما غربت الشمس حتى أحضر ممن أمسك من

(*) ص٥١٥ جـ٢ ، ط . بولاق .

العامة نحو مائتي رجل . فعزل منهم طائفة أمر بشنقهم ، وجماعة رسم بتوسيطهم ، وجماعة رسم بقطع أيديهم .

فصاحوا بأجمعهم : ياخوند ، ما يحل لك ما نحن الذين رجمنا . فبكى الأمير بكتمر الساقي ، ومن حضر من الأمراء رحمة لهم ، وما زالوا بالسلطان الى أن قال للوالي : اعزل منهم جماعة ، وانصب الخشب من باب زويلة الى تحت القلعة بسوق الخيل وعلق هؤلاء بأيديهم . فلما أصبح يوم الأحد ، علق الجميع من باب زويلة الى سوق الخيل ، وكان فيهم من له بزة وهيئة ، ومر الأمراء بهم ، فتوجعوا لهم وبكوا عليهم . ولم يفتح أحد من أرباب الحوانيت بالقاهرة ومصر في هذا اليوم حانوتا ، وخرج كريم الدين من داره يريد القلعة على العادة ، فلم يستطع المرور على المصلوبين ، وعدل عن طريق باب زويلة .

وجلس السلطان في الشباك ، وقد أحضر بين يديه جماعة ممن قبض عليهم الوالي ، فقطع أيدي وأرجل ثلاثة منهم ، والأمراء لا يقدرون على الكلام معه في أمرهم لشدة حنقه . فتقدم كريم الدين ، وكشف رأسه ، وقبل الأرض وهو يسأل العفو ، فقبل سؤاله وأمر بهم أن يعملوا في حفير الجيزة ، فأخرجوا وقد مات ممن قطع أيديهم اثنان ، وأنزل المعلقون من على الخشب .

وعندما قام السلطان من الشباك ، وقع الصوت بالحريق في جهة جامع ابن طولون ، وفي قلعة الجبل ، وفي بيت الأمير ركن الدين الأحمدي بحارة بهاء الدين ، وبالفندق خارج باب البحر من المقس ، وما فوقه من الربع ، وفي صبيحة يوم هذا الحريق ، قبض على ثلاثة من النصارى وجد معهم فتائل النفط ، فأحضروا الى السلطان ، واعترفوا بأن الحريق كان منهم ، واستمر الحريق في الأماكن الى يوم السبت .

فلما ركب السلطان الى الميدان على عادته ، وجد نحو عشرين ألف نفس من العامة قد صبغوا خرقا بلون أزرق ، وعملوا فيها صلبانا بيضا ، وعندما رأوا السلطان صاحوا بصوت عال واحد : لا دين الا دين الاسلام . نصر الله دين محمد بن عبد الله . يامللك الناصر ياسلطان الاسلام انصرنا على أهل الكفر ، ولا تنصر النصارى .

فارتجت الدنيا من هول أصواتهم ، وأوقع الله الرعب في قلب السلطان وقلوب الأمراء ، وسار وهو في فكر زائد حتى نزل بالميدان ، وصراخ العامة لا يبطل . فرأى أن الرأي في استعمال المداراة ، وأمر الحاجب أن يخرج وينادي بين يديه : من وجد نصرانيا فله ماله ودمه ، فخرج ونادى بذلك ، فصاحت العامة وصرخت : نصرك الله ، وضجوا بالدعاء .

وكان النصارى يلبسون العمائم البيض ، فنودي في القاهرة ومصر : من وجد نصرانيا بعمامة بيضاء حل له دمه وماله ، ومن وجد نصرانيا راكبا حل له دمه وماله . وخرج مرسوم بلبس النصارى العمامة الزرقاء ، وألا يركب أحد منهم فرسا ولا بغلا ، ومن ركب حمارا فليركبه مقلوبا ، ولا يدخل نصراني الحمام الا وفي عنقه جرس ، ولا يتزيا أحد منهم بزي المسلمين .

ومنع الأمراء من استخدام النصارى ، وأخرجوا من ديوان السلطان ، وكتب لسائر الأعمال بصرف جميع المباشرين من النصارى ، وكثر ايقاع المسلمين بالنصارى حتى تركوا السعى فى الطرقات ، وأسلم منهم جماعة كثيرة . وكان اليهود قد سكت عنهم فى هذه المدة ، فكان النصرانى اذا أراد أن يخرج من منزله ، يستعير عمامة صفراء من أحد من اليهود ، ويلبسها حتى يسلم من العامة .

واتفق أن بعض دواوين النصارى كان له عند يهودى مبلغ أربعة آلاف درهم نقرة ، فصار الى بيت اليهودى وهو متنكر فى الليل ليطالبه ، فأمسكه اليهودى وقال : أنا بالله وبالمسلمين ، وصاح . فاجتمع الناس لأخذ النصرانى ، ففر الى داخل بيت اليهودى ، واستجار بامرأته ، وأشهد عليه بابراء اليهودى حتى خلص منه . وعثر على طائفة من النصارى بدير الخندق يعملون النفط لاحراق الأماكن ، فقبض عليهم وسمروا .

ونودى فى الناس بالأمان ، وأنهم يتفرجون على عادتهم عند ركوب السلطان الى الميدان . وذلك أنهم كانوا قد تخوفوا على أنفسهم لكثرة ما أوقعوا بالنصارى ، وزادوا فى الخروج عن الحد ، فاطمأنوا ، وخرجوا على العادة الى جهة الميدان ، ودعوا للسلطان ، وصاروا يقولون : نصرك الله ياسلطان الأرض ، اصطلحنا اصطلحنا ، وأعجب السلطان ذلك ، وتبسم من قولهم . وفى تلك الليلة وقع حريق فى بيت الأمير ألماس الحاجب من القلعة ، وكان الريح شديدا ، فقويت النار وسرت الى بيت الأمير أيتمش ، فانزعج أهل القلعة وأهل القاهرة ، وحسبوا أن القلعة جميعها احترقت .

ولم يسمع بأشنع من هذه الكائنة . فانه احترق على يد النصارى بالقاهرة ربع فى سوق الشوايين ، وزقاق العريسة بحارة الديلم ، وستة عشر بيتا بجوار بيت كريم الدين ، وعدة أماكن بحارة الروم ، ودار بهادر بجوار المشهد الحسينى ، وأماكن باصطبل الطارمة وبدرب العسل ، وقصر أمير سلاح ، وقصر سلار بخط بين القصرين ، وقصر بيسرى ، وخان الحجر والجملون ، وقيسارية الأدم ، ودار بيبرس * بحارة الصالحية ، ودار ابن المغربى بحارة زويلة ، وعدة أماكن بخط بئر الوطاويط وبالحكر وفى قلعة الجبل ، وفى كثير من الجوامع والمساجد الى غير ذلك من الأماكن بمصر والقاهرة يطول عددها .

وخرب من الكنائس كنيسة بخرائب التتر من قلعة الجبل ، وكنيسة الزهرى فى الموضع الذى فيه الآن البركة الناصرية ، وكنيسة الحمراء ، وكنيسة بجوار السبع سقايات ، تعرف بكنيسة البنات ، وكنيسة أبى المنيا ، وكنيسة الفهادين بالقاهرة ، وكنيسة بحارة الروم ، وكنيسة بالبندقانيين ، وكنيستان بحارة زويلة ، وكنيسة بخزانة البنود ، وكنيسة بالخندق ، وأربع كنائس بثغر الاسكندرية ، وكنيستان بمدينة دمنهور الوحش ، وأربع كنائس بالغربية ، وثلاث كنائس بالشرقية ، وست كنائس بالبهنساوية ، وبسيوط ومنفلوط ومنية الخصيب ثمان

(*) ص٥١٦ جـ٢ ، ط . بولاق .

كنائس ، وبقوص وأسوان احدى عشرة كنيسة ، وبالاطفيحية كنيسة ، وبسوق وردان من مدينة مصر ، وبالمصاصة وقصر الشمع من مصر ثمان كنائس وخرب من الديارات شيء كثير ، وأقام دير البغل ودير شهران مدة ليس فيهما أحد .

وكانت هذه الخطوب الجليلة في مدة يسيرة ، قلما يقع مثلها في الأزمان المتطاولة ، هلك فيها من الأنفس ، وتلف فيها من الأموال وخرب من الأماكن ، ما لا يمكن وصفه لكثرته ، ولله عاقبة الأمور .

« كنيسة ميكائيل » هذه الكنيسة كانت عند خليج بنى وائل خارج مدينة مصر ، قبلى عقبة يحصب ، وهى الآن قريبة من جسر الأفرم ، أحدثت فى الاسلام ، وهى ملبحة البناء .

« كنيسة مريم » : فى بساتين الوزير قبلى بركة الحبش ، خالية ليس بها أحد .

« كنيسة مريم » بناحيه العدوية من قبليها قديمة ، وقد تلاشت

« كنيسة أنطونيوس » . بناحية بياض قبلى أطفيح ، وهى محدثة

وكان بناحية شرنوب عدة كنائس خربت ، وبقى بناحية أهريت الجبل قبلى بياض بيومين .

« كنيسة السيدة » : بناحية أشكر وعلى بابها برج مبنى بلبن كبار ، يذكر أنه موضع ولد موسى بن عمران عليه السلام

« كنيسة مريم » : بناحية الخصوص ، وهى بيت فعملوه كنيسة لا يعبأ بها .

« كنيسة مريم ، وكنيسة بخنس القصير ، وكنيسة غبريال » : هذه الكنائس الثلاث بناحية أبنوب .

« كنيسة أسبوطير » ومعناه المخلص : هذه الكنيسة بمدينة أخميم ، وهى كنيسة معظمة عندهم ، وهى على اسم الشهداء ، وفيها بئر اذا جعل ماؤها فى القنديل صار أحمر قانيا كأنه الدم .

«كنيسة ميكائيل» . بمدينة أخميم أيضا .

ومن عادة النصارى بهاتين الكنيستين اذا عملوا عيد الزيتونة — المعروف بعيد الشعانين — أن يخرج القسوس والشمامسة بالمجامر والبخور والصلبان والأناجيل والشموع المشعلة ، ويقفوا على باب القاضى ، ثم أبواب الأعيان من المسلمين ، فيبخروا ويقرأوا فصلا من الانجيل ، ويطرحوا له طرحا ؛ يعنى يمدحونه .

« كنيسة بوبخوم » : بناحية أتفه ، وهى آخر كنائس الجانب الشرقى . وبخوم — ويقال بخوميوس — كان راهبا فى زمن بوشنودة ، ويقال له أبو الشركة من أجل أنه كان يربى الرهبان ، فيجعل لكل راهبين معلما ، وكان لا يمكن من دخول الخمر ولا اللحم الى ديره ، ويأمر بالصوم الى آخر التاسعة من النهار ، ويطعم رهبانه الحمص المصلوق — ويقال له عندهم حمص القلة — وقد خرب ديره ، وبقيت كنيسته هذه بأتفه قبلى أخميم .

« كنيسة مرقص الانجيلى » بالجيزة : خربت بعد سنة ثمانمائة ، ثم عمرت . ومرقص

هذا أحد الحواريين ، وهو صاحب كرسى مصر والحبشة .

« كنيسة بوجرج » : بناحية أبى النمرس من الجيزة . هدمت فى سنة ثمانين وسبعمائة — كما تقدم ذكره — ثم أعيدت بعد ذلك .

« كنيسة بوفار » : آخر أعمال الجيزة .

« كنيسة شنودة » : بناحية هريشت .

« كنيسة بوجرج » بناحية بيا : وهى جليلة عندهم يأتونها بالنذور ، ويحلفون بها ، ويحكون لها فضائل متعددة .

«كنيسة ماروطا القديس» بناحية سمسطا : وهم يبالغون فى ماروطا هذا ، وكان من عظماء رهبانهم ، وجسده * فى أنبوبة بدير بوبشاى من برية شيهات يزورونه الى اليوم .

« كنيسة مريم بالبهنسا » : ويقال انه كان بالبهنسا ثلثمائة وستون كنيسة خربت كلها ، ولم يبق بها الا هذه الكنيسة لا غير .

« كنيسة صمويل » الراهب بناحية شبرى .

« كنيسة مريم » بناحية طنبدى ، وهى قديمة .

« كنيسة ميخائيل » بناحية طنبدى ، وهى كبيرة قديمة ، وكان هناك كنائس كثيرة خربت . وأكثر أهل طنبدى نصارى أصحاب صنائع .

« كنيسة الأيصطولى » أعنى الرسل بناحية أشنين ، وهى كبيرة جدا .

(*) ص٥١٧ جـ٢ ، ط . بولاق .

« كنيسة مريم » بناحية اشنين ايضا ، وهى قديمة .

« كنيسة ميخائيل وكنيسة غبريال » بناحية أشنين أيضا . وكان بهذه الناحية مائة وستون كنيسة ، خربت كلها الا هذه الكنائس الأربع وأكثر أهل أشنين نصارى ، وعليهم الدرك فى الحقارة . وبظاهرها آثار كنائس يعملون فيها أعيادهم : منها كنيسة بوجرج ، وكنيسة مريم ، وكنيسة ماروطا ، وكنيسة بربارة ، وكنيسة كفريل ، وهو جبريل عليه السلام .

وفى منية ابن خصيب ست كنائس : كنيسة المعلقة وهى كنيسة السيدة ، وكنسية بطرس وبولص ، وكنيسة ميكائيل ، وكنيسة بوجرج ، وكنيسة أنبا بولا الطمويهى ، وكنيسة الثلاث فتية — وهم حنانيا ، وعزاريا ، وميصائيل — وكانوا أجنادا فى أيام بخت نصر ، فعبدوا الله تعالى خفية .

فلما عثروا عليهم ، راودهم بخت نصر أن يرجعوا الى عبادة الأصنام ، فامتنعوا من ذلك فسجنهم مدة ليرجعوا ، فلم يرجعوا ، فأخرجهم وألقاهم فى النار فلم تحرقهم . والنصارى تعظمهم وان كانوا قبل المسيح بدهر .

«كنيسة بناحية طحا» : على اسم الحواريين الذين يقال لهم عندهم الرسل .

« كنيسة مريم » بناحية طحا أيضا .

«كنيسة الحكيمين » بناحية منهرى : لها عيد عظيم فى بشنس يحضره الأسقف ، ويقام هناك سوق كبير فى العيد . وهذان الحكيمان هما قزمان ودميان الراهبان .

« كنيسة السيدة » بناحية بقرقاس : قديمة كبيرة .

وبناحية ملوى كنيسة « كنيسة الرسل » ، وكنيستان خراب : احداهما على اسم بوجرج ، والأخرى على اسم الملك ميخائيل .

وبناحية دلجة كنائس كثيرة لم يبق منها الا ثلاث كنائس : كنيسة السيدة وهي كبيرة ، وكنيسة شنودة ، وكنيسة مرقورة . وقد تلاشت كلها .

وبناحية صنبو كنيسة أنبا بولا ، وكنيسة بوجرج . وصنبو كثيرة النصارى .

وبناحية بيلاو — وهي بحرى صنبو — كنيسة قديمة ، بجانبها الغربي ، على اسم جرجس وبها نصارى كثيرون فلاحون .

وبناحية دروط كنيسة ، وفي خارجها شبه الدير على اسم الراهب ساراماتون ، وكان في زمان شنودة ، وعمل أسقفا ، وله أخبار كثيرة .

وبناحية بوق بني زيد كنيسة كبيرة على اسم الرسل ، ولها عيد .

وبالقوصية كنيسة مريم ، وكنيسة غبريال .

وبناحية دمشير كنيسة الشهيد مرقوريوس وهي قديمة ، وبها عدة نصارى .

وبناحية أم القصور كنيسة بويخنس القصير ، وهي قديمة .

وبناحية بلوط ، من ضواحي منفلوط ، كنيسة ميخائيل ، وهي صغيرة .

وبناحية البلاعزة ، من ضواحي منفلوط ، كنيسة صغيرة يقيم بها القسيس بأولاده .

وبناحية شقلقيل ثلاث كنائس كبار قديمة : احداها على اسم الرسل ، وأخرى باسم ميخائيل ، وأخرى باسم بومنا .

وبناحية منشأة النصارى كنيسة ميخائيل ، وبمدينة سيوط كنيسة بوسدرة ، وكنيسة الرسل ، وبخارجها كنيسة بومينا .

وبناحية درنكة كنيسة قديمة جدا على اسم الثلاثة فتية : حنانيا ، وعزاريا ، وميصائيل ، وهي مورد لفقراء النصارى . ودرنكة أهلها من النصارى يعرفون اللغة القبطية ، فيتحدث صغيرهم وكبيرهم بها ، ويفسرونها بالعربية .

وبناحية ريفة كنيسة بوقلتة ، الطبيب الراهب ، صاحب الأحوال العجيبة في مداواة الرمدى من الناس ، وله عيد يعمل بهذه الكنيسة ، وبها كنيسة ميخائيل أيضا ، وقد أكلت الأرضة جانب ريفة الغربي .

وبناحية موشة كنيسة مركبة على حمام ، على اسم الشهيد بقطر ، وبنيت في أيام قسطنطين ابن هيلانة ، ولها رصيف عرضه عشرة أذرع ، ولها * ثلاث قباب ، ارتفاع كل منها نحو الثمانين ذراعا ، مبنية بالحجر الأبيض كلها ، وقد سقط نصفها الغربي ، ويقال ان هذه الكنيسة على كنز تحتها ، ويذكر أنه كان من سيوط الى موشة هذه ممشاة تحت الأرض .

(*) ص٥١٨ جـ٢ ، ط . بولاق *

وبناحية بقور ، من ضواحي بوتيج ، كنيسة قديمة للشهيد اكلودبس . وهو يعدل عندهم مرقوريوس وبجا أرجيرس ، وهو أبو جرج ، والاسفسهلار تاادروس ومبسارس ، وكان أكلودبوس أبوه من قواد دقلطيانوس عرف هو بالشجاعة فتنصر ، فأخذه الملك وعذبه ليرجع الى عادة الأصنام ، فثبت حتى قتل ، وله أخبار كثيرة.

وبناحية القطيعة كنيسة على اسم السيدة . وكان بها أسقف ، يقال له ألدو ، بينه وبينهم منافرة ، فدفنوه حيا وهم من شرار النصارى معروفون بالشر ، كان منهم نصراني ، يقال له جرجس بن الراهب تعدى طوره ، فضرب عنقه الأمير جمال الدين يوسف الأستادار بالقاهرة في أيام الناصر فرج ابن برقوق .

وبناحيه بوتيج كنائس كثيرة قد خربت . وصار النصارى يصلون في بيت لهم سرا ، فاذا طلع النهار خرجوا الى آثار كنيسة ، وعملوا لها سياجا من جريد شبه القفص ، وأقاموا هناك عباداتهم .

وبناحية بومقروفة كنيسة قديمة لميخائيل ، ولها عيد في كل سنة وأهل هذه الناحية نصارى أكثرهم رعاة غنم ، وهم همج رعاع .

وبناحية دوينة كنيسة على اسم بويحنس القصير ، وهي قبة عظيمة ، وكان بها رجل ، يقال له يونس ، عمل أسقفا ، واشتهر بمعرفة علوم عديدة . فتعصبوا عليه حسدا منهم له على علمه ، ودفنوه حيا وقد توعك جسمه .

وبالمراغة التي بين طهطا وطما كنيسة .

وبناحية قلفاو كنيسة كبيرة ، وتعرف نصارى هذه البلدة بمعرفة السحر ونحوه . وكان بها في أيام الظاهر برقوق شماس ، يقال له أبصاطيس ، له في ذلك يد طولى ، ويحكى عنه ما لا أحب حكايته لغرابته

وبناحية فرشوط كنيسة ميخائيل ، وكنيسة السيدة مارت مريم وبمدينة هو كنيسة السيدة وكنيسة بومنا .

وبناحية بهجورة كنيسة الرسل . وباسنا كنيسة مريم ، وكنيسة ميخائيل ، وكنيسة يوحنا المعمداني ، وهو يحيى بن زكريا عليهما السلام . وبنقادة كنيسة السيدة ، كنيسة يوحنا المعمداني ، وكنيسة عربال ، وكنيسة يوحنا الرحوم وهو من أهل أنطاكية ذوى الأموال ، فزهد وفرق ماله كله في الفقراء ، وساح — وهو على دين النصرانية — في البلاد ، فعمل أبواه عزاءه ، وظنوا أنه قد مات ، ثم قدم أنطاكية في حالة لا يعرف فيها ، وأقام في كوخ على مزبلة ، وأقام رمقه بما يلقى على تلك المزبلة حتى مات ، فلما عملت جنازته كان ممن حضرها أبوه فعرف غلاف انجيله ، ففحص عنه حتى عرف أنه ابنه فدفنه ، وبنى عليه كنيسة أنطاكية .

وبمدينة قفط كنيسة السيدة ، وكان بأصفون عدة كنائس خربت بخرابها . وبمدينة قوص عدة أديرة ، وعدة كنائس خربت بخرابها ، وبقى بها كنيسة السيدة ، ولم يبق بالوجه القبلى من الكنائس سوى ما تقدم ذكرنا له .

وأما الوجه البحرى

ففى منية صرد ، من ضواحى القاهرة ، كنيسة السيدة مريم ، وهى جليلة عندهم .

وبناحية سندوة كنيسة محدثة ، على اسم بوجرج .

وبمرصفا كنيسة مستجدة ، على اسم بوجرج أيضا .

وبسمنود كنيسة على اسم الرسل ، عملت فى بيت .

وبسنباط كنيسة جليلة عندهم ، على اسم الرسل .

وبصندفة كنيسة معتبرة عندهم ، على اسم بوجرج .

وبالريدانية كنيسة السيدة ، ولها قدر جليل عندهم .

وفى دمياط أربع كنائس للسبدة ، ولميخائيل ، وليوحنا المعمدانى ، ولمارى جرجس ، ولها مجد عندهم .

وبناحية سبك العبيد كنيسة محدثة ، فى بيت مخفى ، على اسم السيدة .

وبالنحراوية كنيسة محدثة ، فى بيت مخفى ، وفى لقانة كنيسة بويخنس القصير ، وبدمنهور كنيسة محدثة ، فى بيت مخفى ، على اسم ميخائيل ، وبالاسكندرية المعلقة على اسم السيدة ، وكنيسة بوجرج ، وكنيسة يوحنا المعمدانى ، وكنيسة الرسل .

فهذه كنائس اليعاقبة بأرض مصر .

ولهم بغزة كنيسة مريم ، ولهم بالقدس القمامة ، وكنيسة صهيون .

وأما الملكية فلهم بالقاهرة كنيسة مارى نقولا بالبندقانيين ، وبمصر كنيسة غبريال الملاك بخط قصر الشمع ، وبها قلاية لبطركهم وكنيسة السيدة بقصر الشمع أيضا ، وكنيسة الملاك ميخائيل بجوار بربارة بمصر ، وكنيسة ماريوحنا بخط دير الطين . والله أعلم .

وهذا آخر الجزء الثانى ، وبتمامه تم الكتاب ، والحمد لله وحده ، وصلى الله على من لا نبى بعده ، ورضى الله عن أصحاب رسول الله أجمعين ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، ولا عدوان الا على الظالمين .

يقول [1] المستعين بربه القوى ، محمد ابن المرحوم الشيخ عبد الرحمن قطة العدوى ، مصحح دار الطباعة المصرية ، بلغه الله من الخير كل أمنية !! ان من بجملة المحاسن الممدوحة بكل لسان ، وأحاسن الآثار الغنى فضلها عن البيان ، التى ظهرت فى أيام صاحب العز والاقبال ، من طبع على المرحمة والعدالة فى الأقوال والأفعال ، واختص بحسن التبصر وسداد النظر ، ورعاية المصالح العامة لأهل البدو والحضر ، ووهب من صفات الكمال وكمال الصفات ما تقصر دون تعداده العبارات والاشارات ، من هو الفرقد الثانى فى أفق الصدارة العثمانى ، عزيز الديار المصرية ، ذى المناقب الفاخرة السنيه ، حضرة أفندينا الحاج عباس باشا ، لا زال بصولة عدله جيش المظالم يتلاشى ، ولا برح قرير العين بأنجاله ، محفوظ الجناب ، نافذ القول فى حاله واستقباله ، ولا فتىء لواء عزه منشورا ، ولا انفك سعيه مشكورا ؛ طبع كتاب الخطط للعلامة المقريزى الشهير ، المجمع على فضله وعموم نفعه بلا نكير . كيف لا وقد جمع من تخطيط الحكومة المصرية ، وما يتعلق بها من المواد الجغرافية والتاريخية ، وذكر أصناف أهلها وولاتها ، وما عرض لها من تقلبات الأزمان وتغيراتها ، وما تضمنته من الأخلاق والعوايد الصحيح منها والفاسد ، وما توارد عليها من الدول والحكومات واختلاف الملل والديانات وغير ذلك من الفوائد ، وصحيح الأدلة والشواهد وعجائب الأخبار وغرائب الآثار ، ما يغنى الحاذق اللبيب ، ويكفى الماهر الأريب ، ويعتبر به المعتبرون ، ويتفكه به المتسامرون ، بل هو النديم الذى لا يمل ، والأنيس الذى فى استصحابه تهون الكرائم وتبدل ؛ بيد أنه يتحفك من تاريخ مصر بأظرف تحفه ، ويمنحك من طريف جغرافيتها وتليدها ألطف طرفه ، ويسكنك من قصور أبنائها أعلى غرفه وينشقك من زهر روض أخبارها شميمه وعرفه . غير أنه لما كان فن التاريخ ، مع جليل نفعه وجزيل فائدته عند أرباب المعارف ، وعظيم وقعه ، قد رميت سوقه فى هذه الأزمان بالكساد ، وتقاصرت عنه الهمم من كل حاضر وباد ، كان هذا الكتاب مما خيمت عليه عناكب النسيان ، وعزت نسخه فى ديارنا حتى كاد لا يعثر بها انسان ، فانها فيها قليلة محصورة ، متروكة الاستعمال مهجورة ، فكانت مع قلتها عارية عن صحتها ، فكم فيها من تحريف فاحش ، وسقط متفاحش ، وغلط مخل ، وخطأ مضجر وممل ، يفضى بالقارىء الى الملل ، ويعوضه عن النشاط الكسل ، لكن بحمد الله وعونه ، وعظيم فضله ومنه ، وبذل المجهود فى التصحيح ، واستفراغ الوسع فى التحرير والتنقيح ، جاءت النسخة المطبوعة صحيحة حسب الامكان ، جديرة بأن تحل محل القبول والاستحسان ، فان ما كان من عباراته بالتحريف سقيما ، ولم يفهم معنى مستقيما ، أجلت فيه ذهنى مع قصوره ، وكلفته التسلق على قصوره ، فان فتح له باب الرشاد ، وألهم المعنى المراد ، حمدت ربى حيث نلت أربى ، وان كانت الأخرى وكبا زند الفهم وما أورى ، نبهت على وجه التوقف فى

(1) نص تعليق مصحح طبعة بولاق .

الحاشية بالعبارة ، أو رقمت فيها رقما هنديا ليكون الى التوقف اشارة ، وربما أشرب الى الصواب ، لكن على سبيل الرجاء فى الاستصواب ، وربما مر بك نعداد بعض أشياء يشم منها مخالفة العربية ، وتفصيل أمور تأباه بحسب الظاهر القواعد النحوية ، وعدرنا فى ذلك أن المؤلف نقلها كذلك عمن نقلها عن جريدة حساب ، وأثبتها على ما هى عليه فى تقييدات الكتاب ، فأبقيناها على حالها ، ولم ننسجها على غير منوالها ، حرصا على عدم التغيير فى عبارات المؤلفين حسبما نص عليه أئمة الدين ، لا سيما والمعنى معه ظاهر لايخفى على السامع والناظر ، ثم انه لبعض الأسباب فاتنى تصحيح نحو اثنتين وعشرين ملزمة من أول الجزء الأول ، ومثلها من أول الثانى من هذا الكتاب ، لكن ان شاء الله تعالى يحصل الاطلاع عليها والنظر بعين التأمل اليها ، فان عثر فيها على ما يلزم التنبيه عليه والاشارة اليه نبهت عليه ، وأثبت ما يخص كل جزء بلصقه ، ليكون كل منهما مستوفيا لحقه ، هذا وكأنى بمتشقشق متشدق يعجل ببذاءة اللسان ولا يحقق ، قد استولى عليه الحسد فأعمى بصيرته ، ورفع بالذم والتشنيع عقيرته قائلا ما لا يليق الا به ، مذيعا ما هو أولى به ، وما درى الجهول أن فن التصحيح خطر دقيق ، وصاحبه بضد ما تبجح به جدير حقيق ، ولو ذاق لعرف وبالعجز أقر واعترف ، وبالجملة فذمه يشهد لى بالكمال أخذا بقول من قال :

واذا أتتك مذمتى من ناقص
فهى الشهادة لى بأنى كامل

على أنى والله معترف بقلة البضاعة ، وعدم الأهلية لهذه الصناعة ، ولكنما هى اقامات ، وانما الأعمال بالنيات * ، وأفوض أمرى الى اللطيف الخبير فانه نعم المولى ونعم النصير .

وكان طبع هذا الكتاب بدار الطباعة المصرية المنشأة ببولاق القاهرة المعزية ، لا زالت بأنفاس الحضرة الآصفية منبعا لنشر الكتب النافعة العلمية ، تحت ملاحظة صاحب نظارتها القائم بتدبيرها وادارتها ، رب العلم الذى لا يبارى ، والانشاء الذى لا يجارى ، من أحرز قصب السبق فى ميدان البراعة ، وانقاد له كل معنى أبى وأطاعه ، حضرة على أفندى جوده ، بلغه الله فى الدارين مأموله وقصده .

وكان طبعه على ذمة ملتزمه المتسبب بعد الطى فى نشر علمه واشتهاره فى الأقطار ، واستعماله عند أهل القرى والأمصار ، الباذل فى ذلك نفائس الكرائم ، المستصغر فى استحصاله الصعائب والعظائم ، المستنصر بمولاه فى حالتى الضعف والأيد : الخواجه رفائيل عبيد ، وقد وافق تاريخ تمامه وانتهاء الطبع الى حد ختامه يوم الاثنين التاسع عشر من شهر اليمن والخير صفر ، الذى هو من شهور سنة ألف ومائتين وسبعين من هجرة سيد النبيين والمرسلين ، صلى الله وسلم عليه وعليهم أجمعين ، وعلى كل الصحابة والتابعين ، ورزقنا بجاههم الاعتصام بحبله على الدوام ، ومنحنا التوفيق لما يرضيه والفوز بحسن الختام ، آمين .

تــــم

فهرس الجزء الثالث
من كتاب ((الخطط)) للمقريزى

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
الملك الظاهر جقمق	١٠٣
الملك المنصور عثمان	١٠٣
الملك الأشرف اينال	١٠٤
الملك المؤيد أحمد	١٠٤
الملك الظاهر خشقدم	١٠٤
الملك الظاهر بلباى	١٠٤
الملك الظاهر تمربغا	١٠٤
الملك الأشرف قايتباى	١٠٤
الملك الناصر محمد	١٠٤
الملك الظاهر قانصوه الأشرفي قايتباى	١٠٤
الملك الأشرف جانبلاط الأشرفي قايتباى	١٠٤
الملك العادل طومان باى الأشرفي قايتباى	١٠٤
الملك الأشرف قانصوه الغوري الأشرفي قايتباى	١٠٤
ذكر المساجد الجامعة	١٠٤
ذكر الجوامع	١٠٧
الجامع العتيق	١٠٧
ذكر المحاريب التي بديار مصر وسبب اختلافها وتعيين الصواب فيها ، وتبين الخطأ منها	١٢٦
جامع العسكر	١٣٩
ذكر العسكر	١٤٠
جامع ابن طولون	١٤٢
حديث الكنز	١٤٤
تجديد الجامع	١٤٧
ذكر دار الامارة	١٤٩
ذكر الأذان بمصر، وما كان فيه من الاختلاف	١٥٠
الجامع الأزهر	١٥٦
جامع الحاكم	١٦٣
هيئة صلاة الجمعة في أيام الخلفاء الفاطميين	١٧٠
جامع راشدة	١٧٢
جامع المقس	١٧٤
العزيز بالله	١٧٥
الحاكم بأمر الله	١٧٧
جامع الفيلة	١٨٥
جامع المقياس	١٨٦
جامع الأقمر	١٨٦
الآمر بأحكام الله	١٨٧
يلبغا السالمي	١٨٩
جامع الظافر	١٩١
جامع الصالح	١٩٢
طلائع بن رزيك	١٩٢
ذكر الأحباس وما كان يعمل فيها	١٩٤
الجامع بجوار تربة الشافعي بالقرافة	١٩٧
جامع محمود بالقرافة	١٩٨
جامع الروضة بقلعة جزيرة الفسطاط	١٩٨
جامع غين بالروضة	١٩٨
غين احد خدام الخليفة الحاكم بأمر الله	١٩٩
جامع الأفرم	٢٠٠
الجامع بمنشاة المهراني	٢٠٠

الموضوع	الصفحة
جامع دير الطين	٢٠١
جامع الظاهر	٢٠٣
بيبرس الملك الظاهر	٢٠٤
جامع ابن اللبان	٢١٠
الجامع الطيبرسي	٢١٠
الجامع الجديد الناصري	٢١٠
محمد بن قلاوون	٢١١
الجامع بالمشهد النفيسي	٢١٥
جامع الأمير حسين	٢١٥
جامع الماس	٢١٦
جامع قوصون	٢١٧
قوصون	٢١٧
جامع المارداني	٢١٨
الطنبغا المارداني الساقي	٢١٨
جامع أصلم	٢١٩
جامع بشتاك	٢١٩
جامع آق سنقر	٢٢٠
جامع آق سنقر	٢٢٠
آق سنقر	٢٢١
جامع آل ملك	٢٢٢
آل ملك	٢٢٢
جامع الفخر	٢٢٣
الفخر	٢٢٣
جامع نائب الكرك	٢٢٤
جامع الخطيري ببولاق	٢٢٤
أيدمر الخطيري	٢٢٥
جامع قيدان	٢٢٦

الموضوع	الصفحة
جامع الست حدق	٢٢٦
جامع ابن غازى	٢٢٦
جامع التركماني	٢٢٧
التركماني	٢٢٧
جامع شيخو	٢٢٧
شيخو	٢٢٧
جامع الجاكي	٢٢٩
جامع التوبة	٢٢٩
جامع صاروجا	٢٢٩
جامع الطباخ	٢٣٠
على ابن الطباخ	٢٣٠
جامع الاسيوطى	٢٣١
جامع الملك الناصر حسن	٢٣١
الملك الناصر أبو المعالى الحسن بن محمد بن قلاوون	٢٣٣
جامع القرافة	٢٣٥
جامع الجيزة	٢٣٨
جامع منجك	٢٣٩
منجك	٢٣٩
الجامع الأخضر	٢٤٥
جامع البكجرى	٢٤٥
جامع السروجي	٢٤٥
جامع كرجي	٢٤٥
جامع الفاخرى	٢٤٦
جامع ابن عبد الظاهر	٢٤٦
جامع بساتين الوزير التى على بركة الحبشي	٢٤٧

الموضوع	الصفحة
جامع الخندق	٢٤٧
جامع جزيرة الفيل	٢٤٧
جامع الطواشي	٢٤٧
جامع كراى	٢٤٧
جامع القلعة	٢٤٧
جامع قوصون	٢٤٨
جامع كوم الريش	٢٤٨
جامع الجزيرة الوسطى	٢٤٨
جامع ابن صارم	٢٤٨
جامع الكيمختي	٢٤٨
جامع الست مسكة	٢٤٨
جامع ابن الفلك	٢٤٩
جامع التكزوري	٢٤٩
جامع البرقية	٢٤٩
جامع الحراني	٢٤٩
جامع بركة	٢٤٩
جامع بركة الرطلى	٢٥٠
جامع الضوة	٢٥٠
جامع الحوش	٢٥٠
جامع الاصطبل	٢٥٠
جامع ابن التركماني	٢٥٠
جامع	٢٥١
جامع الباسطى	٢٥١
جامع الحنفي	٢٥١
جامع ابن الرفعة	٢٥١
جامع الاسماعيلي	٢٥١
جامع الزاهد	٢٥١
جامع ابن المغربي	٢٥١
جامع الفخري	٢٥١
الجامع المؤيدي	٢٥٢
الجامع الأشرفي	٢٥٦
الجامع الباسطي	٢٥٦
ذكر مذاهب أهل مصر ونحلهم منذ افتتح عمرو بن العاص رضى الله عنه أرض مصر الى أن صاروا الى اعتقاد مذاهب الأئمة رحمهم الله تعالى وما كان من الأحداث في ذلك	٢٥٧
ذكر فرق الخليقة واختلاف عقائدها وتباينها	٢٨٠
فرق أهل الاسلام (وانحصار الفرق الهالكة فى عشر طوائف)	٢٨٢
الفرقة الأولى المعتزلة	٢٨٣
الفرقة الثانية المشبهة	٢٨٨
الفرقة الثالثة القدرية	٢٩٠
الفرقة الرابعة المجبرة	٢٩٠
الفرقة الخامسة المرجئة	٢٩٠
الفرقة السادسة الحرورية	٢٩٢
الفرقة السابعة النجارية	٢٩٢
الفرقة الثامنة الجهمية	٢٩٢
الفرقة التاسعة الروافض	٢٩٢
الفرقة العاشرة الخوارج	٢٩٨
ذكر الحال فى عقائد أهل الاسلام منذ	

الموضوع	الصفحة
ابتداء الملة الاسلامية الى أن انتشر مذهب الأشعرية	٣٠١
حقيقة مذهب الأشعرى	٣٠٦
ابو الحسن (الأشعرى)	٣٠٧
فصل اعلم أن الله سبحانه وتعالى طلب من الخلق معرفته الخ	٣١٠
ذكر المدارس	٣١٣
المدرسة الناصرية	٣١٥
المدرسة القمحية	٣١٦
مدرسة يازكوج	٣١٦
مدرسة ابن الأرسوفى	٣١٦
مدرسة منازل العز	٣١٦
مدرسة العادل	٣١٨
مدرسة ابن رشيق	٣١٨
المدرسة الفائزية	٣١٨
المدرسة القطبية	٣١٨
المدرسة السيوفية	٣١٨
المدرسة الفاضلية	٣١٩
المدرسة الأزكشية	٣٢٢
المدرسة الفخرية	٣٢٢
المدرسة السيفية	٣٢٢
المدرسة العاشورية	٣٢٣
المدرسة القطبية	٣٢٣
المدرسة الخروبية	٣٢٣
مدرسة المحلى	٣٢٤
المدرسة الفارقانية	٣٢٤
المدرسة المهذبية	٣٢٥
المدرسة الخروبية	٣٢٥
المدرسة الخروبية	٣٢٦
المدرسة الصاحبية البهائية	٣٢٦
المدرسة الصاحبية	٣٢٨
المدرسة الشريفية	٣٣٢
المدرسة الصالحية	٣٣٣
قبة الصالح	٣٣٣
المدرسة الكاملية	٣٣٥
المدرسة الصيرمية	٣٤٠
المدرسة المسرورية	٣٤٠
المدرسة القوصية	٣٤٠
مدرسة بحارة الديلم	٣٤٠
المدرسة الظاهرية	٣٤٠
المدرسة المنصورية	٣٤٢
القبة المنصورية	٣٤٢
المدرسة الناصرية	٣٤٦
المدرسة الحجازية	٣٤٧
المدرسة الطيبرسية	٣٤٨
المدرسة الأقبغاوية	٣٤٩
المدرسة الحسامية	٣٥٣
المدرسة المنكوتمرية	٣٥٥
المدرسة القراسنقرية	٣٥٧
المدرسة الغزنوية	٣٦١
المدرسة البوبكرية	٣٦١
المدرسة البقرية	٣٦١
المدرسة القطبية	٣٦٢



كتاب «الخطط» للمقريزى

أصدرت دار التحرير للطبع والنشر هذه الطبعة من كتاب «الخطط» فى سبعة واربعين عددا من :

«كتاب التحرير»

مقسمة الى ثلاثة أجزاء ، لكل جزء منها فهرس مستقل .

صدر العدد الأول فى ٢٧ من اغسطس سنة ١٩٦٧ ، والعدد الأخير فى ٢١ من يوليو سنة ١٩٦٨ .

وقد صمم الغلاف ، وعمل الرسوم التى نشرت عليه اسبوعيا ، الفنان عبد الغنى أبو العنين ، المستشار الفنى لدار التحرير .

دار التحرير للطبع والنشر
مطابع شركة الاعلانات الشرقية


Bibliotheca Alexandrina
0437540